

عالم القرن

عصر الآزمات

أمراض
القرن
في
القرن
العشرين

أزمة العلوم الإنسانية

الايمان في عصر العلم

مشكلات

الغضب

و

التعامل

النظم السياسي
في المجتمع
التكنولوجي الحديث

لجوزف أول - الدين أول
بريل - مايو - يونيو
١٩٧٠

عالم الفكر



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

المحتويات

- ٧ مستشار التحرير
١٢ محمد زكى العشماوى
٤٥ حازم الببلاوى
٨٣ سعد عبد الرحمن
١٢٢ محمد عبد الهادى ابو ريده
١٩٥ احمد ابو زيد

* * *

- العلاقات بين العلماء
٢٢١ فى العصر العباسى
٢٦٥ برتراند راسل

* * *

- ٢٧٢ الطبيب الازالى

* * *

- ٢٩١ سياسات العنف - او الثورة فى عالمنا المعاصر
٣٠١ الى الاسلام على افريقيات
٣١٦ من الكتب الجديدة

كلمة سمادة وزير الارشاد والاثبات
الانتاحية بقلم رئيس التحرير

عصر الازمات

تمهيد
امراض الفكر فى القرن العشرين
التنظيم السياسى فى المجتمع
التكنولوجيا الحديثة
مشكلات التصويب والتخامل
الايمان بالله فى عصر العلم
ازمة العلوم الانسانية

آفاق المعرفة

وديعه طه النجم

ترجمة
لصداى خطاب

خبرات وتجارب

بول لليونجى

عرض الكتب

سياسات العنف - او الثورة فى عالمنا المعاصر
الى الاسلام على افريقيات
من الكتب الجديدة

رئيس التحرير :

احمد مشارى الصمدانى

مستشار التحرير :

احمد ابو زيد

مجلة دورية

تصدر

كل ثلاثة اشهر

عن وزارة

الارشاد والاثبات

فى الكويت

ابريل - مايو - يونيو

١٩٧٥

• • •

المراسلات باسم :

الوكيل المساعد

لقشون الفنية

وزارة الارشاد والاثبات

الكويت

ص . ب ١٩٣

الدراسات التى تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم

كلمة من وزير الثقافة والاعمال

لقد أرست وزارة الإرشاد والأبناء أول لبنة في مشاريعها الثقافية حين أصدرت منذ أكثر من أحد عشر عاماً العدد الأول من مجلة العربي، وهي المجلة الفنية عبر التعريف. وكانت الخطوة التالية هي إصدار سلسلة التراث العربي، والغرض منها تصحيح التراث، عرفاناً بالثقافة الأصيلة، وبرزاً بالآباء، ورغبة في نشر ما هو جدير بالإهداء. وخطوة ثالثة خططها الوزارة في مجال النهوض بالآداب والثقافة العربية، ومن بدأت في أواخر العام الفائت بإصدار سلسلة "من المسرح العالمي" وهي شريفة وترجم إلى اللغة العربية الفصحى عيون المسرحيات العالمية، وتقدم للقارئ العربي ثقافة مسرحية طاملة، بغية إرساء قواعد هذا الفن على أسس متينة، ولتكون عاملاً مهماً في تطويره مسرحية عربية.

واليوم، وقد بسطنا الحاجة الماسة إلى المزيد من الجهد والعمل في خدمة الثقافة العربية، تخطو خطوة أخرى إلى الامام بإصدار مجلة "عالم الفكر" وهي مجلة تصدر مرة كل ثلاثة أشهر وتقدم أغراضاً خاصة مهة للثقافين والفكرين، إذ تحوي من الدراسات عمقها، ومن الأبحاث والتعليقات مختلف المواضيع أو سمها شمولاً أو قياً تفصيلاً، وهي في معالجتها لمختلف مواضيع الفكر والثقافة تشجع نهجاً فريداً، وتطلع من أبوابها المشرقة على مقبول الفكر وآفاقه الواسعة في شتى أنحاء العالم، قديمه وحديثه، تستنشق صوايا الفكر النقي، شرقيه وغربه، دون تمييز أو عائق.

ونضم هذا الاطار ونحدا المقوم نقدم هذه المجلة.

والله ولي التوفيق.

جابر العبدالله

الفرسناحية

باسم الله نبتدىء ، وعليه نتوكل

وبعد ،

فبمشيئة الله تصدر مجلة عالم الفكر .. ليكون لها شرف الاسهام في خدمة الثقافة العربية ، كما تكون ساحة لقاء لرجال القلم العربي - على اختلاف مناهجهم ومشاربهم - لتوثيق روابط الفكر والروح ، والعمل الجامع في سبيل اقتضاي المشتركة .

ونرجو ان تجد الأقسام العربية على صفحات هذه المجلة ما يحجب اليها الكتابة فيها ، والتعاون معها ..

هذا، وسوف تحاول هذه المجلة ان تتحرر من كل ما يحول دون انطلاق الفكر ، أو ينحرف بالنظرة العلمية عن اتجاهها ، لفرض ما .. تحاول أن تتحرر من كل ذلك، لتكون خالصة للمعرفة والحقيقة .. ولتتسع لكل ما تضطرب به مدارس الفكر والأدب والفن ، ولا تضيق بشيء منها وإن أسرف بالأغراب .. بل مستجد من يتناولها بروح نزهة ، ويعرضها بكل ما فيها من جوانب القوة وجوانب الضعف ، كما سيلقى مؤيدوها ومعارضوها نفس التقدير من المجلة ، وتدرع للقارئ الواعي مهمة الحكم لها أو عليها ، فليس من شأننا أن نقف موقف الرعاط في محاربي الفكر ...

ولسوف نرضي - بقدر الامكان - طائفة من القراء تهوى الدراسات الجادة ، ذات الطابع العلمي المكين ، وقد لا تتاح لها الفرصة في مجلة مربية ، تهتم بمختلف شئون المعرفة البشرية على وجه شامل ..

وأملنا ان نحقق ابتداء من هذا العدد ، والأعداد المقبلة ، الخطوات الضرورية التي لا بد منها ، للوصول الى الغاية المنشودة .

وبالطبع ، فحرية المجلة جزء من حرية الكاتب ، لذلك فليس لنا اشتراط على الكاتب الا ما يبلّيه عليه ضميره ، والا ما تتطلبه اصول البحث والدرس ، وما توجيه كرامة القلم . اما ما عدا ذلك فموكول الى عقيدة الكاتب ونظرته ... ان ضمان حرية الكاتب هو أول الطريق لضمان حياد المجلة وتحررها ، وسوف تلزم بهذا الحياد ، وبهذه الحرية ، لايماننا بأن أسلم طريق للوصول الى الحقيقة ، هو من خلال حوار الأفكار وجدالها .. وأن للكلمة الحرة فاعليتها ودورها الواضح البين في الرأى حياة الانسان ، وفي اضاءة طريقه الى التقدم والازدهار ..

وعلينا ألا ننسى أننا نحن العرب ، أمة ورثت رسالة خالدة معجزتها الكلمة ، فبالكلمة نزلت اليها رسالة السماء ، وتحت راية الكلمة خرجت من جزيرتها تدمو الناس كافة الى دين الله .. وبالكلمة انتصرت ، وبالكلمة سادت ، ولما تضال شأن الكلمة وانحط قدرها ، وما عاد لها الأثر الفاعل في سلوكنا ونصر فائنا ، اشتبهت علينا المسالك ، وتقطعت بنا الأسباب ..

لذلك ، فنأمل ان يكون لهذه المجلة شيء من المشاركة في التبشير بما تنطوى عليه الكلمة من اشراق ومسؤولية والتزام أمام ضمير الكاتب ، كما كان لها في نهار المجد العربي ..

ولا شك أن هنالك عوائق كثيرة تعترض مسيرة التقدم العربي .. إنها تركلة سوداء تحدت الينا من عصور سود .. وكورها علينا التخلف سنيين طويلا .. حتى ظهرت وكأنها شيء مركوز في طباعنا لا فكاك منه .. ولكن ، مما لا شك فيه أيضا أن إطلاق الفكر العربي ليتعامل مع الحضارة القائمة بسعة وعمق وحرية ، دون قيود ، وبلا حدود ، هو أحد الشروط الأساسية التي تضسع امننا على طريق التقدم .

إن الوصاية على الفكر وعلى الإنسان أيا كان نوعها ومهما كان الدافع إليها ، أهانة وأزدراء للفكر ، وللإنسان .. وهي ظواهر مرضية في حياة الشعوب ، تحمل كل أعراض التآخر .

وأول خطوة للتقدم ، وللاتنصاع على التخلف في شتى المجالات ، رفع هذه الوصاية من الفكر وعن الإنسان ، و توفير جو صحي ، تحكمه الحرية والمسئولية .

ولنا في تاريخ العرب الحضارى قدوة ومثال ، لقد أقبلوا وهم في ذروة انتصارهم على التراث الانساني فأوسموه فهما وعلما وهضما ، لم غربلوه وأضافوه الى ما عندهم حتى صار جزءا أصيلا من التراث العربي المضيء ..

ولم يخل العرب بالتقدير ، بل والبالغة بالتقدير أحيانا على حكماء فارس والهند واليونان ونسبة كل جليل وعظيم اليهم ..

.. إذن فالتفاعل مع التراث العالمي مادة عربية أصيلة حين كان للعرب بيان وسلطان . وكانت ارادة الخلق والإبداع ، لم تطفأ لها نار . وما تلك الحضارة الإسلامية الزاهرة إلا ثمرة ذلك التفاعل .. ولا تزال أكثر نواحي تراثنا انوار ذكرى ذلك اللقاء العظيم بين العرب وتراث العالم .

فالدعوة الى استيعاب التراث العالمي المعاصر ، والانفتاح على روافده ، والحوار معه ، لأخصاب الحياة العربية ، وتجديد معالمها ، ليست شيئا غريبا على النفس العربية .. أنها استئنفت تقاليد كريمة سابقة لنا . أما الغراية هذا الانطواء على الذات ، وهذه العزلة عن روح العصر ، وهذا الاستغراق في أحلام التاريخ ، ثم المجاهرة بالمداء أو التشكيك تجاه كل تجربة انسانية رائدة ..

الإنسان العربي الجديد في هذا العصر مطالب بمهمات ثقيلة ، لم يعرف لها مثيل في سابق حياته ، وقل نظيرها في حياة غيره ، ولا بد للإنسان العربي من انجاز هذه المهمات بشجاعة .. إذا شاء أن يحتفظ لنفسه بحق الحياة الحرة .. وتكون له صولة ودولة في هذه الدنيا ، وهو لن يقدر على ذلك الا اذا اعد نفسه اعدادا حضاريا يتسم بروح العلم . وقرر الاقدام على أروع الفكر ، وللإنسان .. وهي ظواهر مرضية في حيافة بينه وبين موكب العصر الطافز .

وبعد ،

فينبغي على إيماننا الذي لا حد له بقدرة الإنسان العربي على الحركة واحتواء التراث الانساني ، وإيماننا بقدرة التراث الانساني على صقل الشخصية العربية وامتدادها برصيد لا ينفد من الطاقة والخبرة والعرف ، وإيماننا بقدرة الإنسان من حيث هو إنسان على التقدم والأزدهار في ظل العلم والحضارة والمدنية .. إيماننا منا بكل هذا نفتتح صدر هذه المجلة ، لكل ما يحقق أهداف التقدم العربي .

والله من وراء القصد ،،

أحمد المدوناني

عصر الأزمات

تمهيد

يشهد العالم في العصر الحاضر من الأزمات أكثر مما شاهد خلال كل تاريخه الطويل ، سواء من حيث تنوع هذه الأزمات أو شدتها وضراوتها ، أو النتائج المترتبة عليها ، بحيث يحق لنا أن نصله بأنه عصر الأزمات . ومع أن لكل عصر من العصور أزماته ومشكلاته الخاصة به ، ومع أن هناك بعض أوجه الشبه بين كثير من هذه الأزمات في مختلف العصور ، ومع أن الإنسان نفسه تعرض خلال فترات سابقة من الزمن لأزمات بالغة العنف والقسوة ، فالظاهر أن ما يمر به الآن يفوق كل تلك الأزمات في عمق تأثيرها وتغييرها لنظرة الإنسان إلى نفسه ، وإلى العالم الذي يعيش فيه ، وإلى القيم والمفاهيم السائدة والموروثة بحيث يجد نفسه مضطرا إلى التمرد على ذاته وعلى « إنسانيته » أو على الأصح على فكرة « الإنسانية » كما صورها له المجتمع ، وكما أريد له أن يعتنقها ويعياها ، كما يجد نفسه مضطرا أيضا إلى التشكل في كثير من الأوضاع التي كان يتقبلها كسلما لا تقبل الجدل ولا المناقشة .

ولقد نجحت هذه الأزمات في الأغلب من نفس الظروف التي يمر بها العالم منذ بداية هذا القرن ، وإن كانت جذورها تمتد إلى ما قبل ذلك ، وترجع على الخصوص إلى أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، حين دخل العالم عصر التصنيع وما أدى إليه من سيادة الآلات وسيطرتها وتحكمها في حياة الناس . ثم جاء القرن الحالي بحروبه الطاحنة المدمرة ، فشهد العالم في أقل من نصف قرن حربين عالميتين ، أودتا بحياة الملايين من البشر ، وخلفنا وراءهما الخراب والدمار والضياع . ولم يسلم العالم بعد هاتين الحربين من الحروب « المحدودة » الساخنة والباردة التي تقاسي منها ملايين أخرى كثيرة من البشر . ولا يزال العالم رغم كل ما عاناه وبعاثه من هذه الحروب يستعد لأزيد منها ، وتدخل دوله في سباق التسلح ، ويتفنن في اختراع أسلحة أشد فتكا من كل ما عرف للآن . ويزيد من حدة الموقف كله انقسام العالم إلى معسكرين كبيرين متعادين ، وما ينفثه كل معسكر من سموم وشكوك في صدور ومقول أتباعه أزماء المعسكر الآخر ، ورد كل ما يصيبه ويصيب العالم كله على العموم من شرور إلى المعسكر الآخر ونظمه وأيديولوجيته . ومن السخرية أن نجد أن حركات التمرد التي ظهرت بين الشباب وطلبة الجامعات

في أمريكا ترد إلى تأثير الدعايات الشيوعية المفروضة التي تسمم عقول الشباب ، في الوقت الذي ترد حركات التمرد في بولندا وتشيكوسلوفاكيا إلى الدعاية الرأسمالية المسمومة . (راجع في ذلك: Bronowski J., "Protest: Past and Present", *The American Scholar*- Autumn, 1969, P. 537.)

ومن السخرية أيضا أن يسهم في قيام هذه الازمات بنصيب فعال أحد الانجازات الهامة الجبارة في تاريخ الإنسانية ، ونعني بذلك تقدم العلوم الطبيعية والبيولوجية . ولقد أدى التقدم العلمي في كثير من العصور إلى حدوث هزات عنيفة وصميقة في حياة الإنسان حين كشف عن اسرار الكون والمركز الحقيقي الذي يحتله الإنسان فيه مثلما حدث حين خرج كوبرنيكوس بنظريته عن النظام الشمسي التي زعزت ثقة الإنسان في نفسه وفي الكوكب الذي يعيش فوقه ، والذي كان يعتبر نفسه هو مركز كل شيء ؛ ومثلما حدث أيضا حين طلع داروين بنظريته عن اصل الانواع وتبين للإنسان انه على الرغم من كونه سيد الخلائق بما يتمتع به من ملكات وقدرات وينفرد به من نسق للقيم الروحية والخلقية والجمالية ، فان مكانه الصحيح - من الناحيتين البيولوجية والانثروبولوجية على الاقل - هو بين الحيوانات ، وبين القردة العليا بالذات ، ثم تمر السنون لكي يطلع على الإنسان من علماء هذا العصر من يجاهر بإمكان التحكم في عملية الخلق ذاتها . وامكان « صنع » الإنسان ذاته في المعامل وفي أنابيب الاختبار . وثمة تجارب كثيرة ومتصلة تجري الآن في هذا الميدان في عدد من دول الغرب ، وبصرف النظر عما قد تنتهي اليه هذه التجارب فان دلالتها واضحة . . فلم تعد هناك ميادين مقدسة بحجم العقل البشري عن اقتحامها في ارتباده آفاق البحث العلمي . وإذا كان هذا يعتبر شاهدا ودليلا على قوة العقل البشري وقدرته على البحث وعلى الإبداع فان نتائج بحثه كثيرا ما تؤدي إلى زعزعة ثقة الإنسان في نفسه وإلى شعوره بضالته وتشكيكه في كثير من مقومات الحياة الإنسانية والاجتماعية التي يجباها ، واستسلامه لليأس والقلق اللذين يعتبران من أهم سمات الحياة في العصر الحديث .

ولقد وصل التقدم العلمي في مجال العلوم الطبيعية بالذات إلى درجة جعلت الإنسان نفسه يقف بهورا وشبه عاجز امام صنع عقله الخلاق . ودخل العالم في عصر جديد يقوم على تمجيد العقل البشري وتأييل العلم . الا انه على الرغم من كل ما قدمه العلم للإنسانية من خير فقد جلب عليها كثيرا من الشرور والآلام . وقد لا يكون العيب في العلم كعلم بقدر ما هو في طريقة استخدامه . والواقع انه يستخدم في كثير من الأحيان بطريقة تدل على عدم تقدير المسؤولية ، كما هو الحال في صنع الأسلحة الفتاكة بما فيها الأسلحة الكيماوية ان صح هذا التعبير ، وفي صنع اجزاء التجسس التي تستخدمها كثير من اجهزة الحكم في الدول المختلفة للتجسس على حياة الأشخاص ومراقبتهم والإيقاع بهم أو التجسس على الدول الاخرى كوسيلة هامة من وسائل الاستعداد للحرب ، على نحو ما تفعل على الخصوص وكالة المخابرات المركزية في أمريكا التي يبدو انها طورت أساليب التجسس العلمية إلى حد يفوق كل تصور . وإذا كان هناك ما يبرر تسخير العلم لكسب الحرب والحق الهزيمة بالأعداء ، فمن الصعب تبرير تسخيره في أعمال التجسس وبخاصة على حياة الأفراد العاديين في حياتهم الخاصة التي لهم الحق في أن يحيوها كيفما شاءوا ، مادام ذلك لا يؤدي إلى الاضرار بالغير أو المجتمع . ولقد بلغ من استخدام اجهزة التجسس على حياة الأفراد الخاصة في أمريكا حدا جعلت أحد الكتاب يطلق على المجتمع الأمريكي اسم « المجتمع العاري » ، اذ لم يعد الفرد العادي يشعر بأن له حياة خاصة يخفيها عن الآخرين ويحتفظ بها لنفسه بعيدة عن عيون وأذان الناس ، وانما أصبحت حياته وعلاقاته وتحرركاته كلها معروفة ومكتشوفة تماما ، مما يجعله يشعر طول الوقت بأنه يسير عاريا بين الناس ، وهو شعور مؤلم بغير شك (انظر في ذلك : كتاب باكارد (Pakard, V.; *The Naked Society*, Pelican 1966) . والاكثر من ذلك أن العلم

أدى الى ظهور كثير من المشاكل التي لم يكن لها وجود من قبل . بل ان بعض هذه المشاكل ظهرت كنتائج مباشرة لبعض الانجازات العلمية التي كان يراد بها الخير ، والتي حققت كثيرا من الخير بالفعل . فالطب الحديث القائم على أسس علمية سليمة افلح في القضاء على كثير جدا من الأمراض والأوبئة ، أو على الأقل اكتشاف أسبابها ووسائل العلاج والوقاية منها . الا ان ذلك أدى الى ظهور مشاكل لم تكن في الحسبان ، وهي مشاكل ذات طابع اجتماعي في الأغلب ، لان التغلب على المرض ترتب عليه هبوط معدلات الوفاة وإطالة متوسط فترة الحياة ، مما أدى الى الزيادة الهائلة في السكان ، بحيث كادت بعض المجتمعات تختنق تماما بسكانها . ونجم عن ذلك انتشار أمراض جديدة متعلقة بازدهار المجتمعات المحلية بسكانها ، بالإضافة الى سوء التغذية وانخفاض مستوى المعيشة ، والفقر وقلة العمل ، وانتشار البطالة والجريمة وأمراض الشيخوخة وما الى ذلك . وإذا كان العلم قد توصل الى اكتشاف حبوب منع الحمل لضبط النسل والتحكم فيه فان ذلك ارتبط بظهور كثير من الآثار الجانبية التي تعاني منها النساء . وإذا كان العلم مساعد على تقدم التكنولوجيا وارتبط ذلك بالتقدم الصناعي وزيادة الانتاج فقد أدى ذلك نفسه الى تلوث الهواء في المدن الصناعية وانتشار أمراض معينة وهكذا .

ولقد كانت النتيجة المترتبة على هذا كله انتشار موجات غريبة ومتناقضة من السخط والتمرد على كل شيء بما في ذلك العلم ذاته ، على الرغم من الموجة الجارفة التي تجدد العلم والتفكير العلمي . وهو نمرد ينبع من فقدان الثقة في كل ما يحيط بالإنسان وحياته في المجتمع بما في ذلك العلاقات الشخصية والقيم المتوارثة ونظم الحكم والعلم والادب والسياسة والأخلاق والمستغلين بها على السواء . ولقد كان النجاح الهائل الذي حققته العلوم الطبيعية هو السبب في تمجيد العلم والعقل والتفكير العلمي الخالص والتمرد على كل ما عداه ، كما كان اخفاق العلم في أن يسمو بالإنسان على نفسه وتسخره بدلا من ذلك في الحرب والتدمير والخراب هو السبب في التمرد عليه نفسه . وأحس الإنسان ازاء هذا كله بالضيق ، خاصة وأن القيم الروحية والدينية - التي كانت تمدد بكثير من القوة والعزم وتزود بطاقة روحية هائلة تساعده على التغلب على الشدائد والأزمات - عانت الشيء الكثير من تقدم العلم وسيطرته على الأذهان . فقد أصبح الإيمان بالعلم يمثل العقيدة الكبرى أو حتى الوحيدة عند نسبة كبيرة جدا من الناس في الغرب ، فضعف سلطان الدين ووصلت موجة الشك فيه وفي فاعليته ووظيفته في الحياة ذروتها عند الشباب الذين يمثلون على أي حال جيل التمردين والذين يعانون من هذه الآزمات أكثر من غيرهم . ومما له دلالة في ذلك ظهور أعداد كبيرة من الكتب في السنوات الأخيرة تعالج شؤون الدين في الغرب . وكثير من هذه الكتب يسخر حلانية من الدين والكنيسة أو على الأقل يسخر من الوضع الذي وصل إليه الدين في العصر الحالي ويرى في صورته (الراهنة مجرد مسخ مشوه) ، وأنه أحد مخلفات الأزمة والعصور السابقة السعيدة ، وأنه بوضعه الزاهر أيضا أضعف وأهزل من أن يثبت أمام زحف الآلة وزحف العلم وأنه قد انحرف عمن الطريق الذي كان يسير فيه وسقط من المكانة السامية التي كان يحتلها بحيث أصبح يقف بالأسان وحيدا في عالم غريب عنه تماما (انظر في ذلك مثلا كتاب : (Basil Wilhe; Religion Today)

بل أننا نجد رجلا من كبار رجال الكنيسة في بريطانيا وهو الدكتور جون روبنسون John Robinson - أسقف ولويس السابق - يعترف في كتاب ظهر له أخيرا بعنوان « الحرية المسيحية في المجتمع المتهاون " Christian Freedom in a Permissive Society, S.C.M. Press " أن المسيحية تمر بمرحلة خطيرة تعاني فيها خطر التدهور السريع الذي لا يمكن إيقافه ، ويكرر هذا القول ، وأمثلة في أكثر من موضع في الكتاب ، بحيث لا يملك أحد النقاد في مجال عرضته ذلك الكتاب نفسه من أن يلاحظ أنه لو صدق كل ما جاء فيه فان الدين يكون قد فقد بذلك

كل سيطرته على مخيلة المجتمع الغربي الحديث ، لدرجة أن نسبة متزايدة من الناس في إنجلترا - التي يصفها بأنها أصبحت بلاداً وثنية - ينشدون السلوى والعزاء وقت الأزمات والشدائد منذ المهرجين وفي موسيقى الجاز الصاخبة أكثر مما ينشدونه عند المسحيق وفي الكنيسة ، راجع في ذلك مقال

Dennis Potter, "New and Improved Pie in the Sky", The Times Saturday Review, Feb. 28, 1970.

وإذا كان كارل ماركس قال جملته التي يتشدد بها كثير من المتمردين من أن الدين هو أفيون الشعوب فإن متحرراً آخرًا معاصرًا لنا وهو الدكتور تيموثي ليري Timothy Leary الذي ساعد مساعدة فعالة على انتشار عقار الهلوسة المعروف باسم L.S.D بين طلبة جامعة هارفارد يقول أن المخدرات هي دين القرن الحادى والعشرين وأن أى محاولة للتمسك بالتحيرية الروحية الدينية بدون تعاطي هذه المخدرات تكون أشبه بمحاولة دراسة الفلك عن استخدام العين المجردة .

والتمرد على الدين ليس الا صورة واحدة من صور التمرد على المجتمع وقيمه ومثله العليا التقليدية التي ثمنت بالترحم والتخلف وعدم مسايرتها لروح العصر ، كما وصف المتمسكون بها بضييق الافق والنفاق وأنهم يتصرفون في حياتهم الخاصة بعكس ما توصي به تلك القيم والمثل العليا التي يتظاهرون باتباعها والتمسك بها . وإذا كان العلم الذى هو سمة العصر يحور الفكر من خرافات الميتافيزيقا ومن القبيحيات ويهتك الستر عن الاحداث والوقائع المجهولة فان انسان عصر العلم خليق بأن يتخلص هو نفسه من أوهام الماضي وتقاليده ويتحرر من قيوده وتحريماته ويغزو كل ميادين الحياة التي كان محرمًا عليه وأن يعبر بصراحة وأمام الملاحة مما يشعر به وأن يتصرف وفق ذلك . وليس حركت الشباب المتمرد وجماعات الهيبيز إلا تعبيرا عن هذه النظرة . وكما تقول إحدى فتيات الهيبيز الفرنسيات في تعريفها بنفسها ويكتاب لها من بعض نواحي حياتها : أن عمرها ٢١ سنة ، ومهنتها عضو في إحدى جماعات الهيبيين ، وديانته البحث من الحقيقة خارج المجتمع وفوق المجتمع عن طريق التحلى السافر وبطريقة منهجية منظمة للتحريكات والقيود المفروضة عليها ، وذلك عن طريق اتباع حياة « روحية مسالمة وجمالية من أجل تحقيق السعادة » . وواضح هنا أن كلمة « روحية » تشير الى تعاطي المخدرات ، وكلمة « مسالمة » تعني « سلبية » ؛ أما كلمة جمالية فتعني في الاغلب « جنسية » . بل أن هذا الموقف المتمرد الذى يعبر عن نفسه بالاغراق الجنسي والمخدرات ، والذى قد يتخذ في بعض الاحيان شكل العنف يجد من بين الكتاب ورجال الفن من يدعو اليه بشكل أو بآخر كوسيلة للتحرر من القيود التي تفرضها المجتمع على افراد . ويظهر هذا في الطوفان الجارف من الروايات والمهرجيات والأفلام التي تدور حول الجنس والعنف ودرجة أن أحد النقاد الامريكيين يقرظ أحسن الروايات ويرفعها الى أعلى مستوى من الإبداع الفني ويدعو لقراءتها لا لشيء إلا لأنها تتضمن وصفا دقيقاً وأميناً للاغراق في ممارسة المادة السرية .

ولم يسلم المثقفون وكبار أكتاب من هجوم المتمردين لموقفهم السلبي الواضح من معالجة قضايا العصر وغيوب المجتمع في أمانة وجسارة وصراحة ، واعتبروا ذلك الموقف السلبي دليلاً آخر على « خيانة المثقفين » الذين يفضلون الركون الى حياة الترف الهادئة الناعمة ، وبخاصة بعد أن حققوا لانفسهم الشهرة وذويع الصيت، وتركوا حياة الكفاح والدفاع عن القضايا التي يؤمنون بها ، والتي كثيرا ما تتعارض مع وجهات نظر الجهات الرسمية والطبقة الحاكمة . ولقد كان هؤلاء الكبار انفسهم من المتمردين في شبابهم ولكنهم اخفقوا في أن يسايروا حركة التطور

فتخلفوا عن سبر الأحداث ، وأصبوا من دماء الترفث والسلبفة والمجمود ، وساروا ف ركب المنافقن والمثقرفن لاصحاب الباء والسلطان بعدان كانوا من اللبرالبفن .

واخفرا جاءف الثواء على العلم نفسه بفاعفبارف اصل كل ما بفاففبف العالم الآن من أزماء ، وظهرف دمواء غربفة تدفوا الى الانصراف عن العلم الطبعف ، او الفقفف عن البعل والافافف فف مبال العلم الطبعفة ولو مؤفنا ، وفوفل الافافم بدلًا من ذلك الى الافافافف Humanities والعلوم الافافافف Human Sciences خاصة وان فقدم المعرفة البشرفة فف الففرف الاخفرفم فف مفاافنا فف كل المفاافن بففف فخلفف العلوم الافافافف عن الفافف بالعلوم الطبعفة ، وفرفب على ذلك كله ما ففءف الآن من فمففد للعلوم الطبعفة ، ومفل للسفرفة من العلوم الافافافف والافافافف . ففء ان هفءف اللصفوا للانصراف عن العلم موقف سلbf ولا شك لانها ففنى الفرافف والفقفرف الى الوراء ، وفبل كل ما فقفف العلم الآن والففكر له . ولكن هفءف اللصفوا ذافها ففبن عمق الأزمة الفف فمر بها العالم الآن وبخاصة ففما ففمقف بموقفه من العلم . ولذا فقفء ظهرف فف الففف نفسه دمواء اخرى اكفر ابفابفة لانها فمفرف بأهففة العلم بل وفشفع على الاسفمرار فف البفوف العلمفة فف مفافف المفاافن مع مفاولة الاسفرفاء فف الففف ذافف بفابافف المفافف الففلفة ، وفوفف هفءف البفوف الى ما ففف ففر الافافافف ومالفها ، على اففبار ان الفاففة الاخفرف من العلم هف الافرفاء بالافافافف ذافها ،وان هفءف بالفالف ففء «انسانف» ففح ، مع بلل مفرف من الفاففة بالعلوم الافافافف والافافافف ومفاولة اففاء الففم الاخلاففة والفدففة وأمادة ففمان الانسان فف نفسه وفف انسانففة . وانصار هذا المراف ففرون ان الفففا فف الفقففة ففس كامفنا فف العلم ذافف ، وانما هو فكمف فف الففرفة الفف ففسفءفم بها العلم وفف فطففسق مناففجه . فافففف الذي ففءاف العالم الىه ازاء هفءف الأزمة هو ان فرففع الانسان بفففه للطففة البشرفة الى نفس المسفوى الذي وصل الىه العلم . وقء ازاءف الففوف الآن فافف ان ففكون فففة ففءوى او فاففة ففما ففرزه العلوم الطبعفة والبفوفففة من ففاج وفقدم الا اذا وصلت العلوم الفف ففدرس الطبعفة الافافافف الى فففة مفالفة او على الافل مفارفة من ذلك الففاج والفقدم ، فففففل فقفف ففكون للعلوم الطبعفة ذافها مفرفى ومفنى ومفرف ففوفها .

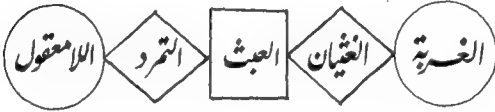
ولفس من شك فف ان الاففراض والاففجاج والففرء فففرر لوافففن اسفءافها من اففج الواسائل لففر الاوضاع الفاففة فف المفافف وفففنظروف الفففة على العموم . وففر من الففوف العلمفة والنظرفاءم فظففر الا فففةلهذا الاففراض على ما هو قائم على مبالا الففراء الافافافف والاففماففة ، بل ان نظرفاء ففلففو والفففن وغفرها ففست فف ففقففا وففورها الا ففوا من الففرء على الولفف الذي كان سالفًا فف ففلك الافام ، وذلك بالففففك فف فطبعفة ففلك الاوضاع ومفاولة ففباف ففول وافباباف وفففرافف لها ومن الطبعف ان ففكون الفمفرون من الاجفبال الصامءة وان فففمف المفافظون الى الاجفبال الاكفر ففلمافف السن مع ففوء اسففشاءاف من ذلك . واففلاف نظرة الاجفبال الى الاوضاع الفاففة هو مفاظر من مفاظر الأزمة الفاففة ،وان كان ففخلق فف الففف ذافف وبخاصة فف امرفكا أزمة فففففة ففءفد الأسرة والمفافف ففظرًا لما ففمفز به ذلك الففافراض من ففف واسففءاف بالففر من ففابف الشفاب . وقء ففكون هفءف الافاماف اقوى واشء وفضوحًا فف الفرف مفا فف فف بلادنا . وفرفف ذلك الى فء فففر الى ففلفنا فف مفاففن العلم والمعرفة على السواء ، وان كان ففمكن ان ففء فففس الففففر لذلك ففما فمر به بلادنا من ازماف من ففوا فف نوع آخر ذاف فطابع سفاسف وففرى على الففصوص مفا ففمنع من ان فففء هفءف الافاماف الفف فمر بها العالم كل ففلك الافباء الفف ففءفها فف الفرف .

ومما يكن من شيء فقد وجدت هذه الازمات بكل تعقدها وتنوعها وضراوتها مجالات للتعبير عنها بصور واشكال مختلفة ، تكشف كلها عن منصر الثورة على الاوضاع القائمة في الادب والعلم والسياسة والاخلاق والقيم بل والعلاقات الانسانية . والدراسات الخمس التي يضمها هذا العدد من المجلة تحاول ان تعرض من وجهة نظر كتابها بعض هذه الازمات ، أو على الاصح بعض مظاهرها وان كان الأستاذ الدكتور أبو ريذة أثر ان يوسع من نطاق معالجته للموضوع بحيث شملت دراسته المعرنة الطمعية بوجه عام وليس العلم بمعناه الحديث فحسب ، كما حاول أن يبين نوع الأدلة على وجود الله في الأزمنة والفلسفات السابقة قبل أن يتكلم عن الإيمان في عصر العلم . الا ان هذه الدراسات الخمس تقدم لنا في مجموعها صورة واضحة عن جانب هام من العصر الذي نعيش فيه وما يحيط بهذا العصر من مشكلات .

أحمد أبو زيد



أمراض الفكر في القرن العشرين



سميها أمراض الفكر في القرن العشرين لأنها حالات من انعدام الوزن ينتهي فيها تفكير الإنسان إلى أن الحقيقة الوحيدة في هذا العالم ليست إلا الفوضى . وهي حال يتجلى فيها العالم فجأة لصاحبه على حقيقة كريمة ، فلا يرى فيه نظاماً ولا معنى ، ولا يجد فيه مبرراً لبقائه ، إذ يستحيل على المرء أن يكون متحركاً أو عاملاً أو حراً أو نافعا أو حتى متقبلاً للحياة في عالم غير حقيقي . وإذا كان من المحال على المرء أن يقفز وهو ساقط ، فكل ذلك من المحال على إنسان أن يكون حراً في عالم غير حقيقي ، أو قل في عالم مهزوز عديم القيم ، أشبه ما يكون بعالم الأحلام والأوهام منه بعالم الحقيقة .

الدكتور محمد زكي العشماوي أستاذ النقد الأدبي بجامعة الكويت وجامعة الإسكندرية ، من أهم مؤلفاته :
قصايا النقد الأدبي (دار الكاتب العربي ١٩٦٧) ودراسات في النقد المسرحي والأدب وقيم الحياة المعاصرة (الدار القومية ١٩٦٦) .

ان الحرية آخر الامر لا تتركز الا على ما هو حقيقي . انها تفترض حرية الإرادة ، والإرادة لا تكون الا بدافع ، والدوافع لا تنهض الا على الايمان ، فلا يقدر أحد على فعل شيء الا وهو يؤمن بأنه فعل ممكن وذو معنى ، والايمان لا يتأتى الا بوجود شيء أو قل بوجود حقيقة ما . ومن ثم فان هذا الاحساس بانعدام المعنى والنظام من الحياة ، وبعدم توافر الحقيقة فيها سوف يقتلع حريتنا من جذورها اذ لا يمكن لإنسان أن يكون حرا في عالم من الأوهام ، أو في عالم غير حقيقي .

واذا انتهى الانسان بتفكيره الى موقف كهذا فلا بد أن يتعلم وزنه ، وتتلاشى الروابط التي تربط بين أجزاء ذاته فتنبعث هذه الذوات وتفرق ، وعيشا يحاول شتاتها أن يستقيم . من أجل هذا سمينا هذه الحالات الفكرية أمراضا ، وهي في الحقيقة كذلك مهما دافع عنها أصحابها فزعموا أنه لا جدوى من اهتمامهم بالمرض ، ذلك لايمانهم بأنهم وحدهم القادرون على رؤية الأمور على حقيقتها ، سواء صح ذلك أو لم يصح ، فهم في أحسن الأحوال بل وعلى حد تعبيرهم ، المرضى بالوحييدون الذين يدركون أنهم مرضى في حضارة مريضة لا تعي بمرضها ، وهم يرون أن الواجب يقتضيهم أن يجابوا المرض وجها لوجه ، ففي هذه المجابهة الحل الوحيد للتخلص من هذا المرض أو الوصول الى النظام الذي يعوزهم ويفوز العالم . هذا اذا كان لمة سبيل الى الايمان بأن لهذا النظام وجودا على الإطلاق .

وهذه المجابهة اذا صحت ، تكون في الحقيقة شيئا ايجابيا جديرا بانتباهنا ودراسنا ، لأنها - اذا تحققت - سوف تمثل الجانب الهادف الوحيد في مثل هذه الفلسفة الخطيرة . واذا جاز للمريض أن يجابه مرضه فيسير أسوار هذا المرض ، ويتغلب الى جلوره فيعرف أسبابه ، وينتق على أسراره ، ويتم بما قد يؤدي اليه من نتائج وخيمة فان ذلك قد يمكنه من انتقاذ نفسه من الهلاك .

غير أن لمة عاملا آخر قد يجعل لهذه الاتجاهات العيشية - اذا صح لنا أن نسميها كذلك - أهمية خاصة قدمونا لتأملها وبحثها ودراستها ، وهو ما قد يكون فيها من خطوة ايجابية تتجه نحو رفض قيم بنيلها انسان لنفسها ، وهذه بدورها تحتاج منه أن يلوذ بنفسه فيفكر ويحلل ويتوغل في أعماق ذاته بشية اكتشاف الحقيقة . وهذه المحاولة في ذاتها مفيدة لما فيها من ارتياد جوانب الذات ، ومواجهة الحقيقة من ناحية ، ولما فيها من رغبة مخلص في العثور على جواب شاف لعلامات الاستفهام الكثيرة التي تحتاج الى اجابة أو حل من ناحية ثانية . في هذه الحالة سوف يكون الذي هذا الاتجاه ما يجعله جديرا بالدراسة لأنه سوف لا يشغل نفسه بمشكلة الشر وحدها ، وإنما قد يظفر الانسان بدافع آخر كامن وراء احساسه يمكنه من ادراك السر الدفين . وعندئذ قد ينشئ التفكير الى نوع من الهداية تتوهج عندها الحواس جميعا ويصل الانسان الى الاحساس بالانسجام مع الوجود . فليس غريبا أن ينتهي الضلال في الفكر الانساني بعد أن يطول به التمرد والياس الى مرفأ يجد عنده الملاذ ، هذا المرفأ قد يكون كشفا صوفيا أو موقفا دينيا .

ومن أجل ذلك كان لا بد لنا أن نلم بهذا الجهد الانساني الضخم الذي قد يبدا أصحابه بالشكوى من صعوبات الحياة بل قل استحالتها ، وقد يسرفون في الصراخ من لا معقولياتها ، وقد تمضي عليهم فترة ، تطول أو تقصر ، وهم فاقدون الايمان منهوكون القوى ، مديمو القدرة على السلوك ، ثم ينتهي بهم المطاف قبل أن تضيق حياتهم سدى فيتحول الانهالك والسأم والغفسيان والتمرد الى تحقيق الوحدة الداخلية والوصول الى شاطئ الامان .

فإذا أضفنا الى كل ما سبق أن كثيرا مما اتجه اليه البحث عند هؤلاء ، وعلى الأخص فيما

كتبوا من مسرح أو قصص كان يهدف إلى كشف الحجب عن البشر الذين يستترون نزعات القوضى والوحشية واللامتثل القابضة في أعماق ذواتهم ، يحاولون أخفائها عن الناس ، ويتخفون لذلك مسا استطاعوا من اقنعة تارة باسم الدين ، وطورا باسم الحياة البرجوازية المحترمة . نقول اذا اغشنا الى ما سبق ان في آداب هؤلاء محاولة للتعرف على انسان العصر الحديث على حقيقته ومحاولة استبطان ذاته ، ثم ادراك النزاع القائم في نفسيين ما هو حيواني صرف وبين ما هو انساني نبيل ، أمكننا ان ندرك ضرورة اهتمام النقاد والباحثين في منتصف القرن العشرين بأدب هؤلاء ودراسته وبحثه .

بقيت بعد ذلك نقطة أخيرة لعلها أقوى المبررات التي تدفعنا الى العناية بأدب هذه الاتجاهات المعاصرة على الرغم مما قد يبدو فيها من حساسية مبثثة أو من عدم إيمان بتحقيقة العالم ، وهي ان في اتجاه المعاصرين فلسفة ثورية تقوم على السخرية من (أدب التنصل) (١) البرجوازي أو ادب الكتاب المأجورين حيث تصير أكثر حوادث الوجود ابتذالا في حياة الانسان على حد قول سارتر - بمثابة رموز ، وحيث تفرس الأشياء الخيالية الأمور الواقعية .

وعلى الرغم من أن سارتر لا يعتقد في رسالة لطبقة العمال ، ولا في أنها تتمتع بفصل على غيرها في حالتها ، فهي مؤلفة ، أي طبقة العمال في رأيه ، من رجال عاديين وجائرين ، ويمكن أن يضلوا ، وغالبا ما يخدعون ، فإنه لا يتردد مع كل ذلك من القول (بأن مصر الأدب مرتبط بمصير الطبقة العاملة (٢) كما لا يتردد في الاعلان بأن مهمة الأدب كما يراها هي (تجلية العلاقات بين الوجود والعمل من نأيا موقفا التاريخي .) فهل المرء من صنع غيره ؟ أو من صنع نفسه ؟ وما العمل ؟ وما الغاية والوسائل في مجتمع مبنى على العنف ؟ أن الأعمال الأدبية المستوحاة من مثل هذه المهام لا يمكن أن تهدف الى اصحاب الغير ، ولكنها تفضي وتقلق ، ربما أنها فمرة عذاب وتساؤل . فإذا منحنا فيها النجاح لم تكن صنوف مسلاة ، بل مسائل تستغرق التفكير ، ولا يعرض فيها العالم كي (يرى) بل كي (يُغير) . ولن يفقد بذلك شيئا ، هذا العالم العتيق البالي البفيض المريض بل سيكون أمره على نقىض ذلك) .

هَذَا ما يقوله سارتر ، وإذا أنت تبعته ماكتبه عن موقف الكتاب ، وعن تقسيمه لهم الى ثلاثة أجيال عرفت أن الجيل الثالث الذي بدأ عقب هزيمة فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية كان من أهدافه الكشف عن زيف بعض الاتجاهات البرجوازية في الأدب ، ثم بيان ما للأدب من تأثير إيجابي في توجيه التاريخ وتغييره باعتباره الممثل للضمير الحر في مجتمع منتج . بل أن سارتر كيختم هذا الفصل بحقيقة ثورية خطيرة عندما يقرر أن فرصة العالم في النجاة محصورة في الأدب .

وإذا فهداه الاتجاهات الثورية الجديدة تزع من أعماقها ثورة لا تهدف الى تبصيرنا بالعالم من حولنا فحسب ، بل تريد أن تتجاوز ذلك الى محاولة للتغيير ، وإذا صح هذا الزعم فإن دراستنا لألوان هذا الفكر سوف لا تكشف عن فهمنا لأشد مشاكل الانسان المعاصر عمقا بل سوف تبرز الى جانب ذلك ما يحاول هؤلاء أن يضيفوه من أبعاد جديدة للتغيير ، ولربط انتاجنا الأدبي بتطور فكرنا المعاصر وقيمه الجديدة .

وجدير بنا الآن بعد هذه المقدمة أن نعرض لأهم ما جاء في كتابات هؤلاء من فكر ، ومحاولين

(١) ما الأدبي فسلتر ص ٢٠٨ وما بعدها

(٢) الرجوع السابق ص ٢٨٢

(٣) الرجوع السابق ص ٢٦٧

أدراك ما ينطوي عليه من المشاكل الروحية والفكرية لعصرنا الحاضر ، وما يمكن أن تضيقه من جديد حتى تكون على بينة مما يدور في عالمنا من أفكار قد يتأثر بها شبابنا وهم على غير علم بما ينفعهم منها-أو ما يضر .

✻ كولن ويلسون ومشكلة الغريب :

لم يكد يمر صيف عام ١٩٦٦ حتى كان اسم كولن ويلسون Colin Wilson على كل لسان يعلو اسماع الأدباء في شتى أنحاء الأرض ولم يكن قد جاوز الكاتب في ذلك الوقت العام الرابع والعشرين من عمره ، ولكن كتابه المشهور (الغريب) أو (اللامتحمي) The Outsider السدى طبع سبع مرات في الفترة ما بين مايو ويولييه سنة ١٩٥٦ كان قد جعل اسم هذا الكاتب الشاب يحتل ، ما بين حشبة وضحاها ، مكانة لا تقل عن مكانة شيوخ فلاسفة العصر وأدبائه .

وليس يعني في قليل أو كثير أن نتوغل في الحديث عن الضجة الكبيرة التي أثارها هذا الكتاب عند صدوره ، ولا عن تعليقات الصحافة وكبار الكتاب والأدباء وإنما الذي يعنينا حقيقة هو ما أثاره الكتاب من مشاكل تتصل بموضوعنا الذي نتحدث فيه ، وهو موضوع الغربة التي يعاني منها مفكرو هذا العصر ، ماكنها ؟ وما الدوافع التي ساعدت في إيجادها ثم ما السبيل إلى التخلص منها أو تفاديا ؟

إن مشكلة الغربة قديمة فيما يبدو ، فهي وإن كانت تأخذ شكل الظاهرة العامة عند البارزين من مفكرى هذا العصر ، وعلى الأخص من ظهر منهم بعد الحرب العالمية الأخيرة ، إلا أن الغربة مرض تمتد جلوره إلى أبعد من هذه الفترة ، مرض متصل بتصدع الذات أو انشقاقها نتيجة لعدم توافرها أو انسجامها مع المجتمع الذي تعيش فيه . وإذا كانت المشكلة في صميمها هي مشكلة الفرد الذي لا يتلاءم مع المجتمع ، فلن تكون من هذه الناحية مشكلة جديدة بأي حال ، فإن التصدع بين الذات والجماعة ظاهرة لا تتصل بعصر دون آخر . لقد عرفنا هذه الغربة في أدب الواقعية القديمة التي يمثلها بلزاك وموباسان ، ورأيناها تتجه إلى الكشف عن الشرور والآثام الكامنة في النفس البشرية . ولا يخفى على القارئ ماكنة بلزاك فيما سماه بالكوميديا البشرية ، فقد جمع فيها ما يقرب من مائة وخمسين قصة وجعلها في مجموعات تحمل هذا الاسم الشهير اسم (الكوميديا البشرية) وفيها يصور الكاتب البخل والخسة والنداءة والوصولية والتفاني إلى غير ذلك من أمراض اجتماعية وفيها كذلك تصوير لشخصية البطل الفرد المحطم المنزل عن المجتمع . وقد هاجم جوركي هذا النوع من الأدب فقال :

(إن أهم موضوع يتناولته الأدب الأوربي وأدب روسيا في القرن التاسع عشر هو الفرد ومعارضته للمجتمع والسلطة والطبيعة . وكانت وفرة الأساسات السلبية تحمل الفرد على مقاومة المجتمع ، لأن الفرد كان يشعر بأن المجتمع يسحقه وإن شيئاً يحول دون نموه . ولكنه كان يفهم فهماً سيئاً أنه السبب في الابتذال والأجرام اللذين يقوم عليهما المجتمع . وكان أدبنا حتى نشوب الثورة يركز على الرجل وما يصادفه من حوادث كثيرة تجعله يشعر أنه سجين حياته ، وأنه غير نافع للمجتمع .

فكان يبحث عن مكان مريح فلا يجده . فيحز الألم في نفسه ويتلاشى هذا الرجل إما في صلح ذرى مع مجتمع ينفسه أو في تعاطي المخدرات والانتحار) (١) .

ولقد كان ستيفنسون أكثر كتاب يرومياً أماناً في تصوير هذه الحرب من نفسية الأفراد المعزولين أو المرضى أو الملعدين بشعور مريض نتيجة للنفس المظلمة المضطربة التي لاتجد نفسها راضية أو متوائمة مع المجتمع الذي تعيش فيه . فإذا انتقلنا إلى أدباء وشعراء الرومانسية وجدناهم أكثر الناس تعبيراً عن معنى الغربة التي هي في أساسها مشكلة اجتماعية تقوم على شعور الفرد بالانفصام عن مجتمعه . فكلنا يعلم أن الأدب الرومانسي أديب غريب قد بددت الهوة بين ما يتوقعه وبأمل فيه وبترقبه ، وبين واقع المرير الآليم ، فهو من ثم أديب متطلع إلى عالم آخر ، عالم من المثال يحقق فيه ولو عن طريق الأحلام والرؤى والخيالات ما لم يحققه في عالم الواقع . بل لعل الأدب الرومانسي هو أكثر الأدباء أماناً في الشعور بمحن الحياة . والمبالغة في الاحساس بها مما جعله يهرب من الواقع وينزل ، لأنه لم يستطع أن يجد لدائه صورة في مجتمعه فيصيبه الأسى والحزن والسأم .

أذن فالغربة بهذا المعنى الاجتماعي غربة قديمة تتصل بمصور أخرى غير عصرنا الحديث ، ولكن هل هذه الغربة التي صورنا من مظاهرها ماصورنا هي ذاتها الغربة التي حددتها لنا كولن ويلسون في كتابه (الغرب ؟) وإذا لم تكن ، فما الفرق بين الغربة الرومانسية أو غربة القرن التاسع عشر وغربة القرن العشرين ؟

إن كولن ويلسون لم يتركنا حيارى إزاء هذا السؤال ، فقد أجاب هو بنفسه عليه عندما حدد لنا الفرق بين غربة الرومانسي وغربة الواقعيين المعاصرين . فالفرق عنده بين الغرب الرومانسي والغريب الواقعي الحديث هو أن الأول يرغب حيرته وشكه وذهابه كل مذهب في سبيل الثور على الحقيقة لم يفتد الإيمان بها ، وعلى الرغم من التصدع القائم بينه وبين مجتمعه لم يأس اليأس التام من وجود الحقيقة . فهو وإن طال بحثه عنها ، وتردده على بابها ، ومداومة البحث والتفتيش عنها ما يزال يتطلع إليها وكله أمل بما عساه أن يأتي به الفد القريب من نتائج قد تحقق له ما يسعى إليه . ومن ثم فإن الغرب الرومانسي لا يجد الحقيقة ولكنه هل يفسن من وجودها . أما الغرب الواقعي فهو لا يفهم ما يمينه أناس بالحقيقة ، أو قل بتعبير آخر أنه إنسان عاجز عن الإيمان بوجودها . فالعالم في رأيه مفتقد للحقيقة ، عالم زائف قائم على اللامعقول والفضى ، وهذان وحدهما في نظره هما الحقيقة .

وإذا كان غرباء الرومانسية يرون من الحكمة أن تنافل عن بعض مظاهر اللامعقول ، وإن نحاول بتحقيق الانسجام والوئمة مع عالم في مجموعهم يسوده النظام ، فإن غرباء الواقعية الجديدة يرون أن من واجبهم مواجهة هذه الحقيقة على فظاعتها وبشاعتها ، لأنهم لا يستطيعون أن يعترفوا بغير الحقيقة ، وما دامت هذه هي الحقيقة في نظرهم فلا بد من إعلانها والتحدث عنها في غير مواربة .

هذا هو مجمل التمييز الذي أوضحه كولن ويلسون في كتابه عن غربة الرومانسيين وغربة الواقعيين الحديثين . وبحاول ويلسون بعد ذلك أن يشرح ظاهرة الغربة ، ويكشف عن مقومات شخصية الغريب ، ويحدد لنا ملامحها فيعرض علينا صورة من صور هذا الغريب مأخوذة من شخصية بطل رواية « الجحيم » للكاتب الفرنسي هنري باربوس Barbusse وهي رواية ظهرت في أوائل هذا القرن . وشخصية بطل (الجحيم) هي شخصية تقارب في مفهومها ومدلولها العام صورة الغريب الذي يعنيه كولن ويلسون .

وتقوم فكرة الرواية على أن رجلاً قد ترك الريف إلى المدينة . وعمل في وظيفة في أحد -مصارف باريس . ويسكن حجرة في أحد فنادق المدينة . وهو رجل متأمل مستبطن لأعماق

الذات ، راقب في ادراك الحقائق ، وإن كان لا يؤمن كثيراً بالفلسفة وحقائقها ولا يعيا بالدين . على أن الكاتب قد استطاع بطريقة محسوسة أن يضع لنا هذا البطل في موقف يحدد لنا منه موقفه تجاه العالم ، وذلك عندما يقع فجأة على شعاع من الضوء يراه وقد انبعث إليه من الغرفة المجاورة ، فيقف على سريريه ويكتشف أن هذا الضوء قد جاءه من ثقب من أعلى الحائط . فكان هذا الثقب بمثابة النافذة الصغيرة التي يطل منها هذا الرجل على العالم الحقيقي ، فآخذ يقف كل يوم على سريريه وينظر من هذا الثقب ويشاهد ما يجري بداخل الحجرة المجاورة له ، وبطل على هذه الحال يرقب ما يدور في الحجرة المجاورة كل ليلة حتى مضى على ذلك شهر كامل . واستطاع من خلال هذه المدة أن يشاهد ما يشير فرائزه أحياناً من أوضاع جنسية لامرأة تنجرد من ثيابها ، إلى مناظر أخرى تثير في نفسه ألواناً من المواقف مختلفة ، فيها أحياناً الحنان والحب وذلك عندما يقع بصره على رؤية عاشقين يبت كل منهما الغرام لصاحبه ، إلى غير ذلك من مشاهد ، على أن الذي يهمني آخر الأمر أن كل هذا الذي وقع عليه بصره من خلال هذا الثقب هو في الحقيقة مناقض أشد المناقض لما يحدث في العالم الخارجي . نذكر هذه الحقيقة الأخيرة عندما يلتقي هذا البطل في آخر روايته بؤلف يتحدث في حفل عام عن رواية له ألها وصادفت نجاحاً ، ويذكر هذا المؤلف أنه قد استطاع بروايته أن يصور الإنسان على حقيقته ، وأن يستخرج لنا كوامن النفس الإنسانية ، وذلك حينما جعل شخصية من أشخاص روايته ثقب ثقباً في حائط غرفته لتشاهد منه ما يقع في الغرفة المجاورة ، وبعد أن ينتهي المؤلف من عرض قصته على الحاضرين في هذا الحفل يصعب الناس بروايته أيما إعجاب . ذلك لأنهم يرون فيها البراعة كل البراعة في عرض للطبيعة البشرية من وجهة نظر واقعية . غير أن بطل (الجحيم) عندما يسمع تهليل الجمهور وأعجابه بقصة هذا الرجل يصيبه النفور ، ويقف موقفاً سلبياً ، فلا يبدى إعجابه ولا يشارك الجمهور حماسه ، ولا يرى معه أن في هذه الرواية أي مظهر لصدق الحياة الإنسانية.

لقد سبق له أن خبر نفسه من طريق تجربته طبيعة الإنسان . وعرفها تمام المعرفة ، وأدرك الهوة السحيقة بين ما يخلعه الإنسان على نفسه من مظهر خارجي وبين الحقيقة الكامنة في أعماقه ، وأحس أن طبيعة الحياة في المجتمعات المتحضرة وما تفرضه من سلوك خاص تحجب عن الإنسان حقيقته الأصلية ، ويحاول أن يخدع نفسه بالمظاهر السلوكية ، وبالفلسفة أو بالدين مقنناً كل ما في أعماق ذاته من نزعات وحشية ومن فوضى وكأنه كائن راضٍ عاقل متحضر .

من هذه القصة التي كتبها (باربوس) والتي استعان بتحليلها كولن ويلسون يمكننا أن نتصور صورة الغريب عند ويلسون : أنها صورة الإنسان الذي أدرك للحظة ما أن كل مشاهد الحياة اليومية وأحداثها إنما تخفى عن الإنسان الحقيقة المرعبة التي هي زيف هذا العالم وفساده ، وأن هذا الغريب متى ما وقعت عينه على الحقيقة تغيرت صورة الوجود في نظره ، فأمسى وقد انشق على ذاته وفقد توازنه ، وإذا بهذا العالم يفقد قيمته في نظره .

يشبه موقف الغريب هذا موقف رجل يجلس في دار من دور السينما يشاهد عرضاً لرواية ما ، ثم أمام عينيته مشاهد الرواية ، الواحد تلو الآخر وهو مشغول بما يرى ، منصرف بوجدانه وأحاسيسه إلى ما يدور أمامه من أحداث ، وإذا بالعرض يتوقف فجأة لمطل أصاب الجهاز ، وإذا المشاهد التي تدور أمام الرجل تتوقف ، وإذا الرجل يجد نفسه يواجه الحقيقة مرة واحدة فيدرك أن ما كان يدور حوله ليس الحياة ، بل كان مجرد وهم من الأوهام . عندئذ يبدأ هذا الرجل في مجابهة الحقيقة المؤلمة : حقيقة أن كل شيء كان خدماً - أن مثل هذا الموقف الذي يعاينه هذا الرجل هو بعينه الموقف الذي يعاينه الغريب عندما يكتشف فجأة أن كل ما حوله في

هذا العالم باطل الأباطيل . من هنا تبدأ مشكلة الغريب وببدا يتساءل كيف يمكنه أن يقبل الحياة التي قبلها غيره مع علمه بأنها حياة غير حقيقية .

وهنا يتفزع سؤال آخر . ماذا يمكنه أن يصنع بحياة لا معنى لها ولا حقيقة من ورائها ؟ وإذا كان هذا هو السؤال الذي يسأله الغريب لنفسه ، فماذا فعل ويلسون في كتابه للاجابة على هذا السؤال ؟ وكيف تخلص من غربته وهو على هذه الحال من التشاؤم وعدم اليقين ؟ هل رفض الوجود رفضاً مطلقاً ؟ لكي يجيب ويلسون على هذه الاسئلة بدأ يستعرض جملة أشياء ، فعرض علينا أولاً آراء نيثشه في هذه القضية . فبعد أن كفر نيثشه بالفلسفة القائلة على العقل والعقل وحده ، والتي سادت المذاهب الأوروبية في عصره ، وبعد أن رفض فكرة تأليه العقل ، اشفاقاً مما عساه أن يؤدي إليه هذا التآليه من فصل الفكر عن الحياة . بعد أن أنكر نيثشه كل هذا دعا الى فكرة الانسان الاعلى التي تدعو الى ضرورة العمل على خلق ارادة قوية تدفع بالفرد الى حياة اكثر فاعلية ونشاطاً وحيوية ، على أن يسخر الانسان في سبيل ذلك كل طاقاته الجسمية والعقلية والعاطفية . وجاءت فلسفة نيثشه هذه نتيجة للثورة على الفوضى والفساد الذي ينتشر افاقياً فيشمل جميع نواحي الحياة البرجوازية القائلة على سياسة انصاف الطول . فانها في اساسها فلسفة تنهض على كفر بالواقع ثم التماس الحل في تصور ديني لا يقف العقل فيه منفرداً ، وانما تشاركه عاطفة وارادة تسعيان الى تحقيق حياة اكثر خصوبة واكثر غنى للانسان .

وبعد أن ينتهي ويلسون من عرض أفكار نيثشه ينتقل الى ما حاوله دسيتوفسكي في اتقاد الغريب مما يعانيه حين يرى نفسه وجها لوجه امام الشر الكامن في اصماق النفس ، والذي يصيب الانسان برعب هائل حين يراه . لقد هرب دسيتوفسكي في قصة (الاخوة كراماتزوف) من صورة هذا الشر وشغلته فكرة الألم والشقاء التي يعاني منها انسان هذه الأرض . فقد ابرز لنا صورة مريض هما قسوة الانسان السادية وتقيضها مازوكية المخلوق العفن الفاسد الذي يستمتع بعذابه . وليس خافياً عن دسيتوفسكي شغفه بتصوير هذين الجانبين من الألم والعذاب في النفس الانسانية . وكان من ابرز شخوصه الاذلاء المرضى شخصية ايفان كراما تزوف اندي رفض قبول العالم لما فيه من قسوة وآلم ، وقد حاول ايفان أن يحلل العالم ، وأن ينتهي في تحليله لهذا العالم الى أن فكرة الآلم فكرة مستبدة بهذا الكون ومتغلغلة في اعماقه ، ومن العسير استئصالها ، ومن ثم فهو آلم سرمدي لا ينتهي . على أن دسيتوفسكي لا يوافق على هذا التحليل المبني على العقل وحده ، ولا يعتقد أن الموقف العقلي بقادر — اذا عمل منفرداً — على بلوغ الحقيقة وراء هذا العالم . فان رؤية الآلم وحده مسألة تعتمد على العقل وينقصها الإيمان . وبرايقه ويلسون على هذه النتيجة غير أن ويلسون مع إيمانه بما دعا اليه نيثشه ودسيتوفسكي من ضرورة التوفيق بين الفكر والإرادة والعاطفة والقوى الجسمية جميعاً ، وإيجاد الوحدة بين كل هذه العناصر فإنه ما يزال يرى أن مشكلة الغريب تنحصر في افتقاره لهذه الوحدة . ولعود للسؤال من جديد ، ماذا يمكن للغريب أن يفعل اذا كان تفكيره عقلياً صرفاً ؟ تلك هي المشكلة العويصة التي يجابهها الغريب .

على أن تحديد الغريب لمشكلته على هذه الصورة قد مهد السبيل امامه لحصر ما يحتاج اليه من وسائل الخلاص . انها اذن مشكلة الانسان العاقل الذي فقد إيمانه بالله ولم يجد مساً يعوضه عن هذا النقص . انها أزمة العقل المسيطر على انسان فاضعف العقل الصرف مركز الاشعاع العاطفي في الانسان وهو العقيدة الدينية . من أجل هذا نادى ويلسون بضرورة تنمية ملكة الرؤيا والكشف الصوفي عن طريق الإرادة . ذلك ان العقل الحديث يشك في اعمان حدوث هذه الرؤى الا اذا كانت شيئاً صادراً عن الإرادة . ومن ثم فان الرؤيا عند ويلسون ليست رؤيا القديسين

والإنبياء ، أو ليست هي الرؤيا التي تحدث لإنسان كشف عنه الغطاء ، وإنما هي الرؤيا التي تخلقها الإرادة خلقا . وفي مقدور الإرادة إذا قويت أن تصبح عاملا حيويا قادرا على أحداث الرؤى . من هنا يتضح لنا كيف استطاع ويلسون أن يلتقط من نيتشه ركنا هاما من أركان فلسفته وهي ضرورة تحول الفرد الى قوة دافعة وإرادة خارقة تمكنه من تحقيق ما خفى من إمكاناته . ومن ثم يصبح لوجود الفرد معنى أو طعم .

من أجل هذا دعا ويلسون الى تطوير الإرادة وتنميتها وبالتالي تطوير ملكة الرؤى وتنسيطها . وهو هنا يتفق مع ما دعا اليه بعض المتصوفة الانجليز ، وما تدعو اليه الفلسفة الهندية . وما انتهى اليه المتصوف اليوناني الحديث جورديف . Gurdjieff وبحاول في نهاية كتابه أن يدرس لنا مجمل أفكار هؤلاء المتصوفة واحدا بعد الآخر وهو في عرضه لهذه الأفكار يكشف لنا عن السبل التي تمكن الإنسان من تنمية ملكة الرؤيا عنده . فليس الإنسان بقادر على أن يجلو عن نفسه ما يعتريه من صدا أو ما يفلج احساسه من سماكة الا اذا ظفر بشيء من السلام النفسي والهدوء الروحي ، فالكى يحجب عن الانسان هذا القدر من الصفاء ليس الا ما يفرق به نفسه من مشاغل تربط بالحياة اليومية المادية ، ومن أمور تتصل بالسمى للرزق ، وما يتطلبه بقاؤها من الخوض في غمار الحياة العملية .

ومع ايمان ويلسون بأن هذه الأمور مسائل ضرورية بالنسبة لحياة الإنسان على الارض ، الا أنه يوافق على ما يدعو اليه ويميل اليك وغيره من المتصوفين من أن التأمل الروحي قد يؤلف بين الإنسان والوجود . أن مثل هذا التأمل قادر على أن يحرق العقل من سلطان المادة ويجعله ينمو مع ما ينمو حوله من عناصر الطبيعة . وعندئذ سوف يكون لكل شيء معنى روحي ، فالأرض والماء والنور والثمار والأزهار لن تصبح في هذه الحالة مجرد ظاهرات طبيعية يستفيد منها الإنسان حتى اذا بطل نفعها بطل التفكير فيها ، ولكنها كما تقول الفلسفة الهندية تصبح أشياء ضرورية في تحقيق الوحدة بين الإنسان والوجود ، بل وفي تحقيق معنى اكمال . فكما أن كل نعمة من نعمات السمفونية ضرورية بلوغ كمالها فكذلك كل ظاهرة من هذه الظاهرات الطبيعية ضرورية للوصول الى هذه الوحدة . فقد أدركت الفلسفة الهندية بنظرها الى الطبيعة أن حقيقة هذا العالم موضوع بالغ الاهمية يدعون الى أن ننشئ علاقة واعية بيننا وبين كل شيء فيه ، والا تكون صلتنا به مجرد صلة الاستطلاع العلمى أو المنفعة المادية . واذا كان انسان العصر الحديث أو قل المدنية الحديثة يواجه تيار فكر ويركزه نحو عيانه الخاصة وما تدور عليه من ربح أو خسارة ، ويترك ما حدا هذا من مظاهر الحياة فلا يشغل نفسه بشيء منها وعلى الأخص هذا الجانب الروحي ، فإن مثل هذا جذير بأن يولد بدوره انفصالا غير طبيعي بين الإنسان والوجود . (١)

وهكذا ينتهي ويلسون بعد عرضه لأفكار المتصوفة الى أن فكرة الخلاص من محنة الغربة التي أحسن عرضها في كتابه إنما هي رهينة بتنمية ملكة الرؤى والكشف الصوفية ، وأن وصول الإنسان الى لحظات الكشف هذه تحرره أولا من التفكير العقلى المجرد الذى أثبت أنه غير قادر وحده على إدراك أى معنى حقيقى وراء هذا العالم ، وسوف تساعده ثانيا على أن تفتح أمامه مصادر أخرى لتبع كثيرة في الحياة ، لم يكن تفكيره المادى انصرف يمكنه من الاستعانة بها . فاذا أضفت الى هذا أن مثل هذه اللحظات الصوفية سوف تسد حاجة عاطفية كانت تنقص (الغريب نتيجة ضعف عقيدته الدينية أمكننا أن نذكر الى أى حد كانت أزمة الغريب أزمة فقدان الإيمان ، يظل فيها على حال من القلق والتملط والعداب حتى يظهر شيء يشبع عنده عاطفته الدينية

المفقودة ، منبذ سوف لا تبقى النظرة الى الشر هي الغالبة على تفكير الغرب ، وبالتالي لن يكون الاهتمام بمشكلة الشر ، والبحث الملح عن مبررات هذا الشر هي الشيء الوحيد الذي يملأ على الغرب حياته ، إذ سوف يعود اليه آخر المطاف شيء من الاطمئنان وشيء من الثقة بأن بقية من الخير ما تزال في العالم .

وبعد فهل ثمة من حقيقة يريد أن يثبتها ويلسون بعد هذا العرض المفصل لمشكلة الغرب ؟ وإذا كانت فكرة الخلاص هذه هي نهاية المطاف فما الذي يريد بنا الكاتب أن ندركه في النهاية؟ هل استطاع الكاتب أن يثبت على حد قوله : (أنهن الممكن استنباط موقف ديني استنباطا منطقيًا بحثنا من موقف فلسفي ، وأن الإيمان ليس شرطًا أساسيًا من شروط الدين .) (١)

إن كل ما نستطيع أن نحدده من أسس لفكرة الخلاص هذه يمكن تلخيصه في الآتي :

أولاً : أن ويلسون لا يعتقد أن الاعتماد على التفكير العقلي المجرد يتسار على حل مشكلة الغرب ، فإن ثمة إمكانيات أخرى في الإنسان لابد من استغلالها وتطويرها للكشف عن مبررات الشر الذي حاق بالبشرية والذي هو في الحقيقة سر من أسرار أزمة الغرب الكبرى ، وأن هذه الإمكانيات تنحصر في قدرة الإنسان على الاستفادة من قوى ثلاث ذكرها نيتشه ويلسون بكل اهتمام هي قوة الإرادة وقوة العقل وقوة العاطفة . وأن إيجاد الوحدة بين هذه القوى هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق التوازن النفسي أو التكامل النفسي عند الغرب .

ثانياً : أن الغرب الذي ضعفت عنده العقيدة الدينية نتيجة لسيطرة التفكير العقلي الصرف الذي هو ظاهرة عامة في حياتنا المعاصرة ، بحاجة ماسة الى بديل يشبع عنده العاطفة الدينية ، ويجد عندها الملاذ الذي يبحث عنه . على أن الموقف الديني الذي انتهى اليه ويلسون ليس منبثقا - كما أوضحنا سابقا - من إيمانه بالله وباليوم الآخر وبالثواب والعقاب ، وإنما هو يعتمد في المقام الأول على فكرة الخلاص وتحرير الإنسان من معتقدات وهمية، وعلى الإخص فكرة الخطيئة الأولى التي تسيطر على الإنسان المسيحي والتي تقف حائلا بينه وبين رؤية الحقيقة . وأذن فليس أمام ويلسون فيما انتهى اليه من موقف ديني إلا الاعتماد على تدريب قوى الإنسان حتى ينتهي الى نوع من رؤى النابع من الإرادة يكشف بعض جوانب الخير في الوجود ، ومن ثم يحقق له حياة أكثر غنى وأكثر سعادة .

العيب والتعرد واللامعقول عند الوجوديين :

ليس من شك في أننا نستعرض ونحن نقرأ كتاب الغرب لكوان ويلسون كثيرا من الأفكار والفلسفات والآراء التي نراها شائعة عند الوجوديين منذ ظهر المذهب في كتابات الفيلسوف الدنماركي كير كجارد الى ما انتهى اليه المذهب عند الكاتب الفرنسي المشهور جان بول سارتر .

إن مشكلة الغرب ذاتها مشكلة وجودية . بل إن الفلسفة الوجودية تبدأ هادة من موقف يشبه موقف الغرب تماما . ذلك أن نقطة البدء عند الوجوديين هي صدمة من الانفعال تهز الإنسان فجأة عندما يدرك أن الحياة لا معنى لها .

وعندما يستغرق الإنسان هذا الإحساس المفاجيء يشعر بفريته عن هذا العالم ، بل أن

(١) راجع عرشي وتلد كتاب الغرب ، د . مصطفى بدوي مجلة الآداب عدد ١٩٥٨ مطبعة جامعة الاسكندرية .

كلمة الغربة نفسها اصطلاح عند الوجوديين ، يتردد في كتاباتهم فقد كتب البير كامى (١٩١٣ - ١٩٦٠) تحت عنوان (رؤى غربة العالم) يقول :

(لئن كانت الطبيعة مألوفة لدينا ، فذلك لأننا نرسم على سطحها تخطيطات عاداتنا . وأنا لست في اتصال معها ، بل مع الأفكار والرغبات التى تلقى عليها . ان فى ادراك الطبيعة كشفا لما هو من قماش آخر غير الوعى البشرى . ان العالم برى ، اذ ذاك ، كثيفا وغريبا : درجة اقل ، وتبرز الغرابة : ان يدرك احدنا ان العالم (كثيف) ، ويشعر الى اى حد يبدو حجر ما غريبا ، وبأية قوة تستطيع الطبيعة او منظر ما ان ينكرانا . ان فى أعماق كل جمال برقد شيء لا انساني . وهذه الروابي ، وعذوبة السماء وأشكال الأشجار هذه ، هاهى ذى كلها فى اللحظة نفسها تفقد المعنى الوهمى الذى كنا نلبسها اياه ، ونصبح منذ الآن أبعد من حبة ضالمة . وهكذا تعود الينا مبر ملايين السنين عداوة العالم البدائية ، ففى لحظة واحدة ، تكف عن ان نفهمه ، لأننا طوال قرون لم نفهم منه الا الوجوه والرسوم التى كنا نكسبه اياها مقدما ، ولان القوى تنقصنا بعد الآن لاستعمال هذه العيلة .

ان العالم فلت منا ، فلا ندركه ، لانه يعود كما كان ، وهذه الينيات التى قنعتنا العادة تعود كما كانت ، انها تبعد عنا . . . شيء واحد : كثافة العالم هذه وغرابته ذلك هو العبث (١)

ان انعدام المعنى فى الحياة ، والذي يقرره البير كامى فى هذه السطور السابقة ، منشأه فى الحقيقة تلك الغربة التى تحدث عنها كولن ويلسون . بل انها معا ليعتقدان ان هذا الشعور باللامعنى للحياة هو نقطة البدء التى منها يبدأ الغريب والوجودى مرحلة المجابهة ، مجابهة الواقع الأليم ، التى سوف يقف فيها وجهها لوجه أمام حقيقة مبرحة يدرك عندها المرء كما يقول سارتر انه (محكوم عليه بالحرية) وفى هذه اللحظة يبدأ العمل الذى قد يكون مرا وإليما ، ولكنه الوسيلة الوحيدة لحل مشكلة جديدة لم تكن فى الحسبان ، او بمعنى آخر لم تكن ظاهرة لعين الغريب او الوجودى . ذلك لأننا كما يقول كامى نرسم على سطح الحياة تخطيطات عاداتنا . وهذا الالتقام بين الانسان وبين حقيقة ذاته أو حقيقة العالم من حوله هى ما يسميها الوجودى بلحظة خروجه وخروج الأشياء من انموض (٢)

اذن فالقربانية وثيقة جدا بين الغربة التى رايناها عند ويلسون وبين الغربة التى يحسها الوجودى . والفرق بين ويلسون وغيره من أصحاب المذهب الوجودى ليس الا فى الدراسة التفصيلية أو التحليلية للمشكلة نفسها ، كما يكمن الفرق كذلك فى النتيجة التى ينتهى اليها كل مفكر من هؤلاء . فقد يختلف ما انتهى اليه البير كامى مع ما انتهى اليه كولن ويلسون ، وقد يختلف كل منهما مع ما وصل اليه سارتر ، وقد يختلف الجميع مما دعا اليه كيركجارد أبو الوجوديين . ولكن ذلك كله لا ينفي وجود الشبه الكبير فى الأسس والأفكار التى قامت عليها اتجاهات هؤلاء جميعا .

ولعل من الدلائل الواضحة على وجود هذه لأسس المشتركة بين هؤلاء المفكرين ان شخصية (أغريب) نفسها كانت موضوعا لقصة كتبها البير كامى وصدرت عام ١٩٤٢ أى قبل ظهور كتاب (الغريب) لويلسون بأربعة عشر عاما ، بل من الذى يشك فى ان ما جاء فى قصة الغريب للبير

(١) كامى والتومرد تأليف دوييه دى لوييه ترجمة د . سهيل ادريس ص ١٢ ، ١٣ ، العبث لكامى ص ٢٩ ، ٢٠

(٢) الشيطان لسارتر ترجمة سهيل ادريس ص ٢٥

كأني ما هو إلا تأكيد وتريد لما جاء في قصة (الفتيان) لسارتر والتي ظهرت عام ١٩٣٨ . ففى الفتيان ما فى الغريب من رغبة فى انكار كل قيمة للحياة ، وفى كل منهما هذا الاحساس بالقلق والنفور والتصدع انقال بين الفرد والمجتمع ، وفى شعور الانسان فجأة بأنه غريب ، وبأنه يشرب نفسه دون أن يكون ظمآن ، ومن هنا يأتيه الاحساس بالفتيان . ان (أنطون روكتان) يظل قصة الفتيان يقف على شاطئ البحر يلتقط واحدة من الحمى التى حوله لكى يلقي بها فى البحر ، وعندما ينظر الى الحصاة يتولاه رعب شديد ، فىرمى الحصاة بعيدا ، ويهرب بعيدا ، وبعدها تتتابع عليه التجارب التى من هذا القبيل . وفى تتابع هذه التجارب تعترضه موضوعات غريبة لا يستطيع ازاءها أن يقرر ما اذا كانت هذه الموضوعات ثابتة فى حقيقتها أم متغيرة . فقد كان ينظر الى وجهه فى المرآة ، وفجأة يرى هذا الوجه وكأنه وجه سمكة ويستترسل هذا الرجل فى اكتشافاته يقول :

(انى استند بكل ثقل على حافة الخزف ، وادنى وجهى من المرآة حتى لالسمها وتختفى العينان والانف والشم ، ولا يبقى ما هو بشرى قط . تجددات سمراء عند كل جانب من انفساخ الشفتين المحموم ، وتشققات ، جشوات ، ان زفيا حريرا ابيض يركض على منحدرات الخديرس الكبيرة ، وشعرين نخرجان من المخترين ، انها خارطة جيولوجية بارزة الخطوط .

وبالرغم من كل ذلك فان هذا العالم القمري مألوف عندي . انا لا استطيع القول انى (انعرف) الى تفاصيله ، ولكن مجموعه يعطينى انطباعا لما (سبقت رؤيته) يعود على بالخدر ، فانسل على مهل فى النوم ...

أود أن استعيد السيطرة على نفسى : وان احساسا حيا وحاسما كفىل أن يحرنى . وما ابظننى فجأة ، هو انى أضمت التوازن ، فاذا بي اجد نفسى راكبا كرسيها وأنا ما أزال مصابا بالدوار . هل يبذل سائر الرجال مثل هذه الشقة ليحكموا على وجوههم ؟ يخيل الى انسى ارى وجهى كما احس جسدى ، باحساسى عضوى اصم .

واذ ذاك اصابنى (الفتيان) فتداعيت للسقوط على المقعد الصغير . ولم أكن أعرف أين كنت . وكنت ارى الالوان تدور حولى على مهر . وكانت بى رغبة للتقيق .. وهكذا منذ ذلك الحين ، لم يتركنى الفتيان ، انه يستولى على (١) .

ليس هذا الاكتشاف المزعج الذى ينتهى اليه أنطون روكتان عند سارتر والذى يتلخص فى ادراكه رتبة الأشياء وماديتها وبالتالي انكارها والتشكك فى قيمتها ا ليس هذا هو ذاته ما نراه فى (اسطورة سيزيف) لالبر كامى ، وفى (مشهد يوم الاحد) الذى يصوره مرسوبل قصة الغريب لكامى ؟

ففى اسطورة سيزيف يلج كامى بصورة خاصة على (رتبة الآلى) ، فان بضعة أسطر شديدة الإيجاز فى الإيحاء ، تحمل قوة ما كان قدشوهذ واحس بصورة شخصية : نهوض ، ترام ، أربع ساعات فى المكتب ، غداء ، ترام ، أربع ساعات عمل ، نوم . الاثنين الثلاثاء الأربعاء ، الخميس ، الجمعة ، السبت على النمط نفسه وهذه الطريقة تسلك بسهولة وراحة معظم الوقت .

ونقابل النمط الخارجي للحياة اليومية آلية حركاتنا ، ان اللامعنى ليس هو فقط خارجنا ، بل هو في داخلنا : (ان البشر يفرزون اللا بشري . ففي بعض ساعات الصفاء . يجعل المظهر الآلى لحركاتهم - تشخيصهم الإيمائى الفارغ من المعنى - كل ما يكتنفهم بإيدا سخيفا . رجل يتكلم في التليفون خلف باب زجاجي فلا يسمع صوته ، ولكن يرى تشخيصه الإيمائى الذى لا معنى له ، فيتساءل المرء لماذا تراه يعيش (كل ذلك معاش براحة وسهولة ، الى اليوم الذى يبعث فيه حس العيب العرضى الضيق والأضطراب) (١) .

أما في (رواية الفريب) فيصور مرسو البطل مشهد يوم الأحد وما فيه من رتابة وآلية فيقول :

(وهناك كان مشهد يوم الأحد ، ان الناس في الطريق الى دور السينما : (رويدا رويدا ، أصبحت الطريق خالية بعدهم . واطن ان الافلام كلها قد بدأت آنذاك ولم يبق في الشارع الا اصحاب الحوائث والقطط . كانت السماء صافية ولكن لا تلاق فيها .

وأخرج بالغ التبع ، على الرصيف المقابل كرسيًا اقتعدها وهو يعتمد بلراعيه على ظهرها . وكانت حافلات الترام غاصة بالركاب مندقائق ، خالية تقريبا الان . وفي المقهى الصغير ، عند بيارو ، الى جانب بائع التبغ ، كان الصبي يكتس النشارة في القاعة الخالية . لقد كان يوم احد حقا .

وأدركت كرسي' ووضعته على غرار بائع التبغ لاني رأيت ذلك او فر راحة . ودخنت سيجارتين . ودخلت لأخذ قطعة من الشكولاته وعدت لأكلها ازاء النافذة . وبعد ذلك بقليل أريدت السماء وحسبت اننا سنواجه عاصفة صيفية . ولكنها ما لبثت ان انقشعت . على ان مرور النجوم خلف في الشارع ما يشبه وهذا بالمطر زاد في ظلامه ، وظللت وقتا طويلا أنظر الى السماء ... الخ) (٢)

الست ترى في هذا العرض لما يجرى لشخص مرسو ، ولما يدور حوله ، ولما يقع تحت حسه نوعا من الوهي الذي قد اتحد بسلسلة الأحداث اليومية الصغيرة ؟ ثم ليس نوعا من الوعي الذي يغمره الاحساس بالمعجز والجمود والملل : اكل وشرب ونوم وتدخين ، وأيام تتوالى وكان كلا منها صحيفة تقرأها حتى اذا انتهت منها وطويتها انتقلت الى صحيفة اخرى تتردد فيها نفس الكلمات والحروف والعبارات حتى الكائن تعيش يوما واحدا متكررا رتيباً ... وهكذا تضي حياة مرسو: شيء لا معنى له . تلك هي الفكرة الأساسية للقصة كلها ، ان الحياة تجري عمياء آلية . منسوجة من ترديد أبدي للحركات والأحداث اليومية، والأفكار الصغيرة والاحاسيس الفجة

ليس هذا التصوير الذي نراه لمشهد يوم الأحد في رواية الفريب لكامي وهو ذاته ما نراه في تصوير انطون روكنان بطل رواية الفثيان للحصى التي يرميها في البحر وللأمح وجهه التي يراها في المرأة ؟ ثم اليس في اسطورة سيزيف من الشعور بالسأم والملل وانعدام المعنى في الحياة ما في كل من المشهدين السابقين ؟

هذه الخطوط المشتركة عند المعاصرين من اصحاب المذهب الوجودي قد تشير الى ان الاصول الأولى واحدة ، لكن النتائج من غير شك مختلفة على الأقل في الطريقة التي يجب على كل منهم ان يعيش بها فلسفته .

(١) كامي والتعدد ص ١٠ ، ١١

(٢) كامي والتعدد ص ٦٩ ، ٧٠

كلمة وجود

وإذا كان لنا أن نتتبع مجمل هذا المذهب وما فيه من تيارات وما يدنو اليه من فلسفات أو أفكار فلا بد لنا من الرجوع إلى أصل كلمة وجود لتعرف من أين جاءت وماذا كانت تعني عند بداية استعمالها . يقول يسبرز وهو أحد أتباع (كير كيجارد) ومن طائفة الوجوديين المؤمنين : (أن كلمة وجود هي أحد مرادفات كلمة واقع بيد أنها قد اتخذت وجهاً جديداً بفضل التوكيد الذي أكدته عليها كير كيجارد فأصبحت تدل على ما أنا إياه بصورة أساسية في نظر ذاتي) (١) .

ويقول يسبرز أيضاً : (ليست كلمة وجود إلا إشارة غائبة أن توجهني نحو هذا اليقين ، الذي ليس يقيناً عقلياً ، ولا معرفة موضوعية ، بل نحو هذا الوجود الذي لا يمكن لأي شخص أن يؤكد له ذاته ولا لدوات الآخرين) (٢) .

ويتضح من النصين السابقين أن كلمة وجود التي أكد عليها كير كيجارد بقسوة أكبر من أي فيلسوف آخر ، والذي يمكن لنا أن نعزو إليه فضل اختيارها اختياراً خاصاً وتوجيه مدلولها نحو مذهب معين في التفكير . نقول يتضح لنا من هذين النصين أن كلمة وجود إنما تنجس أولاً إلى (ما أنا إياه في نظر ذاتي) ومن ثم لا يكون الوجود هو كينونة الشيء بالفعل في هذا العالم فحسب ، وإنما هو أن تتولى الذات صيرورة نفسها إلى الصورة التي تريد . أو بمعنى آخر أن يتولى الإنسان خلق أعماله وتحديد صفاته وماهيته أو صورته بنفسه على ضوء ما يفعله مدفوعاً باختياره الإرادي الحر الناتج من ذاته والذي لا يفرض عليه من الخارج .

على أن في الاقتباسين السابقين إشارة مهمة تثير انتباهنا إلى ما تتضمنه كلمة وجود بالإضافة إلى مالا حظناه . فقد ذكر (يسبرز) في عبارته الأخيرة أن (كلمة وجود إشارة غائبة أن الإنسان نحو اليقين الذي ليس يقيناً عقلياً ، ولا معرفة موضوعية بل نحو هذا الوجود الذي لا يمكن لأي شخص أن يؤكد له ذاته بالذات ولا لدوات الآخرين) .

وفي هذه العبارة الأخيرة مضمون آخر غير الذي ذكرناه في تفسيرنا السابق للكلمة وجود إذ تضيف هذه الكلمات موافاً جديداً هو وصول الإنسان الوجودي إلى دوائر الإيمان العليا .

الوجوديون المؤمنون :

وهذه الإضافة الجديدة تتعلق بالوجوديين المؤمنين الذين من زملائهم كير كيجارد وكارل يسبرز وجبرائيل مارسيل أكثر مما تتعلق بالوجوديين الملحدين الذين من زملائهم هيدجر وجان بول سارتر والبير كامى وسميون دى بوفوا .

ولقد تأثر كير كيجارد ويسبرز في فكرة تحقيق وجود الإنسان أمام الله بما قاله لوتر في شرحه على (رسالة إلى الرومانيين) من أننا نصلى من أجل ذواتنا وأن علاقتنا بالله لا تقوم في دائرة العقل ، وإنما في رابطة شخصية غير عقلية (٣) .

من هنا أخذ كير كيجارد فكرته من الإيمان (إذ أن حقيقة الإيمان عندى ليست أمراً يقينياً

(١) الفلسفة الوجودية تأليف جان فال ترجمة تيسير شيخ الأرض ص ٦٠

(٢) الفلسفة الوجودية ص ٨٨

(٣) المرجع السابق ص ٥٩

قط ، بل هو في صراع مع عدم الإيمان بصورة دائمة) وهذه الفكرة بالذات سوف تجد لها لدى يسبرز ، ان الإيمان أمر مقلق ، وفي صراع دائم مع ذاته (١) .

ولقد كان (لوثر) يرى ان الشعور بالاثم أو الشعور بالخطيئة هو السبيل الى الإيمان او الى الوصول الى ما يسمى بدوائر الإيمان العليا . وبمعنى آخر ينبغي للانسان ان يمر بعذاب الضمير ، فان عذاب الضمير الناجم عن الشعور بالخطيئة هو الذي يحقق ما يسمى (بالوجود امام الله) فان الانسان يجد نفسه حقا امام الله لأول مرة ، من طريق شعورة بالهوة التي تفصله عنه بالذات .

هنا ما قاله (لوثر) وما تبمه كير كجارد ، ولكي نرتب فكرة الوجود عند كير كجارد وننتجها في تسلسلها الذي سارت فيه نلاحظ أولا ان الوجود غير قابل للتحديد ، وأنه يستمضي على المعرفة الموضوعية (فما من شيء يمكن الاعتماد عليه لتفسير وجودي) . وتبمه في ذلك يسبرز اذ يقول (اننا لا نستطيع ان نتكلم الا عن الوجود الماضي ، أي عن الوجود الذي أصبح موضوعا ، فالوجود يتلاشى اذا لاحظناه) (٢) .

وفي هذه النقطة يخالف كير كجارد ما دعا اليه هيغل الفيلسوف الألماني الذي زعم ان الوجود لا يتعارض مع المنطق ، والذي كون فلسفة تفسر الوجود تفسيراً عقلياً، فلم يجد كير كجارد في تفسير هيغل الا فلسفة سطحية ، وهو يرفض ان يصل الى الوجود من طريق أي مذهب فلسفي ، بل لقد ذهب الى أبعد من هذا عندما قال (انك تلغيني اذا وضعتني في أي نظام أو مذهب فلسفي ، فليست رمزا رياضيا وإنما أنا موجود حي) (٣) .

كذلك هاجم كير كجارد الفكر الديكارتي الذي يعرف النفس عن طريق النظر العقلي فليست الذات أو الأناية عند كير كجارد متجهة نحو ما يمكن ان يعرفه الجميع ، وإنما الشاعر بالوجود هو المفكر الذاتي الذي يظل في علاقة دائمة مع ذاته بل وفي بلبال حول هذه الذات .

ثانيا : لكي يصل الانسان الى معرفة ذاته بلذاته يحتاج الى ارادة وهوى ، وبمعنى آخر الانسان الذي لا ينظر الى ذاته كمعطى من المعطيات بل كائنات ويجب عليه ان يخلق نفسه بنفسه ، محتاج الى قوتين هامتين هما : الإرادة والهوى . وكلمة الهوى الأخيرة هي التي تتولد عند الانسان الوجودي من رؤيته للتناقض بين المتناهي والامتناهي ، كما تتولد من عدم اليقين . أو بعبارة أخرى ان الانسان عندما ينظر الى التناقض بين الذات الصغرى والذات الكبرى سوف يتولد لديه هذا الهوى الذي يجعله دائما في بحث عن ذاته .

ثالثا : لكي يصل الانسان الوجودي الى مقام الله لا بد أن يمر بتجربة قاسية ، لا بد أن يمر بحالة الشعور بالاثم ، والشعور بالاثم هو في الحقيقة شعور بأنه أمام الله ، واذا فمن طريق الاثم يدخل في الحياة الدينية وبالتالي يقف أمام الله .

ومن هنا نلاحظ التشابه بين كير كجارد ونيشيه ، فان فلسفة كل منهما تبدأ من موقف الانسان الغريب الذي يحاول اكتشاف نفسه عن طريق خوض تجربة قاسية يجابه فيها غرابة هذا العالم ، ويستعين في الخلاص منها بتسمية قوتين هامتين في الانسان هما الإرادة والهوى عند

(١) المرجع السابق ص ٦٠

(٢) الفلسفة الوجودية ص ٦٢

(٣) المرجع السابق ص ٦٣

كيركجارد أو الإرادة والعاطفة عند نيتشه . على أن كيركجارد كان عميق الدين الى جانب ذلك كله ، وكان يرى أنه من الممكن للإنسان أن يعرف (المطلق) أو أن يكون على صلة به بشدة هذا الهوى وهذه الإرادة . هذه هي مجمل الفكرة التي تقوم عليها فلسفة الوجوديين المؤمنين وعلى راسهم كيركجارد .

❖ الوجوديون المحدثون :

أما الوجوديون المحدثون الذين لا يؤمنون بوجود اله ، والذين من زعمائهم جان بول سارتر ، والبير كامى ، وسيمون دي بوفوار فإن فلسفتهم تقوم على نفس الأساس الذي قامت عليه فلسفة كيركجارد . فإذا رجعنا الى القسم الأول من تفسير كلمة الوجود والتي قلنا فيها : أن الوجود ليس كينونة الشيء بالفعل في هذا العالم فحسب ، وإنما هو أن تتولى الذات صيرورة نفسها الى الصورة التي تريد ، أو بمعنى آخر أن يتولى الإنسان خلق أعماله ، وتحديد صفاته وماهيته أو صورته بنفسه ، على ضوء ما يفعله ، مدفوعا باختياره الإرادى الحر النابع من ذاته والذي لا يفرض عليه من الخارج . نقول : إذا رجعنا الى هذا التعريف نجد أنه الأساس لفلسفة الوجوديين المحدثين تماما كما كان أساسا لفلسفة كيركجارد ومن تبعه من الوجوديين المؤمنين مع فارق واحد هو أن هذا الأساس لم ينته عند سارتر وكامى كما انتهى عند كيركجارد . فإذا كان الأخير قد انتهى تفكيره الى الوجود (المطلق) أو الى (الذات العليا) أو الى مقام الله - فإن الآخرين قد خالفوا في هذه النتيجة : فبينما اتجهت ايجابية سارتر الى (الفعل الملزم) نجد كامى يظل على موقفه من عبثية هذا العالم ، فواجب الإنسان الوجودى عنده أن يظل على ما هو عليه من الشعور بالغور والفشيان والغربة .

على أننا إذا أردنا أن نجعل فلسفة سارتر وكامى كما أجملنا فلسفة كيركجارد من فكرة الوجود - دون أن نلم بالتفصيلات الكثيرة المعقدة التي تتفرع منها والتي كثيرا ما تدفع الباحث الى متاهات قد يصعب عليه إذا خاض في جزئياتها أن يتمكن من الالام بأصولها . نقول إذا أردنا تحديد الخطوط الرئيسية لهذه الفلسفة في غير تشعب ممل فالتنا نجعلها فيما يالى : -

أولا : ما دام الأصل في الوجود هو أن تعرف نفسك بنفسك ، وما دام الإنسان قبل كل شيء ليس ما كان بل ما يكون عليه بالفعل ، وما دام هو المسئول أولا وأخيرا عن خلق أعماله ، وتحديد صفاته بإرادته الحرة المختارة فقد لزم أن ينتزع الإنسان نفسه من ماضى القليطيع البشرى كله ، وأن يعيد النظر من جديد في هذا المجتمع الإنسانى وفي قيم العالم الذى يعيش فيه ، وأن يبدأ في مناقشة وإمعية مدركة حرة لكيانه وذاته من ناحية ، ولكل ما يحيط به في هذا العالم من آداب وتقاليده ومعتقدات وفلسفات من ناحية أخرى .

وهذا الانسلاخ الذى يقوم به الإنسان الوجودى عن كل ما هو معروف متداول ومسلم به ، سوف يسلمه بطبيعة الحال الى بداية خطيرة . تقوم على الشك في التراث وفي كل ما يدور حوله من أعمال ومن عقائد ومن تقاليد ومن فكر حتى ينتهي به الأمر الى انكار ذاته ، وانكار العالم ، والوصول الى العدم .

ثانيا : هذا الفراغ وهذا العدم الذى ينتهى اليه الإنسان الوجودى سوف يوقفه وجهنا لوجه أمام حرية مرجبة أو كما يقول سارتر سوف يجعله هذا الفراغ يدرك فجأة أنه (محكوم عليه

بالحرية (١) ولا يسعنا إلا أن نهنيء سارتر على هذا التعبير الممتاز حقيقته لأن الموقف ليس موقف حرية هادئة . انه موقف الانسان وقد تجرد من كل رابطة أو خيط يصله بشيء فهو في الفراغ بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، فليس ثمة شيء يمكن أن يعتمد عليه اللهم الا اختياره الذاتي المحض ، وتصرفه الشخصي أو ما يمكن أن ينبع من ذاته هو ، اذ لا يمكنه ان يندفع في هذه الحالة بارادته ولن يفرض عليه عندئذ شيء من الخارج .

✽ الحرية عند الوجوديين :

والصعوبة الحقيقية في هذه الحرية ليست في انها هدمت كل شيء واثكرت كل شيء وأسلمت الانسان الى القنوط والفتيان والرفقة في القيم والشعور بالعبث فحسب ، وانما الصعوبة الحقيقية هي في مدى امكان استغلال هذه الحرية في التغلب على هذا الوجود الاحمق الميؤس منه ، وانتشال الانسان من هوة القنوط الى قمة الأمل ، أو من انسان مغلوب على امره ضائع الى انسان قادر على أن يتغلب على نفسه ، بحيث يصبح في نهاية الأمر هو حرية نفسه ، أو بمعنى آخر يصبح انسانا يجعل من حريته مبدأ يتحدد على هديه كل ما يتعلق بسلوكه وسيرته وتاريخه ومواقفه مع الجماعة التي يعيش معها .

(فالانسان الحر ، في رأى سارتر ، هو الذي يتحمل مسؤوليات نفسه في الوضع الذي تلتقيه فيه تيارات الصداقات ، وهو الذي يكسب مصيره معنى معيناً يتصرف مطلقاً من ضميره ، نابذاً كل ما يريف الضمير من خرافات ، وعقائد وهمية وسلطان على الفكر) (٢) .

واذن فإيجابية هذه الفلسفة منحصرة ، في هذا الجزء الأخير من القضية ، وتعني به أن تخلق الحرية وجود الانسان ، وأن تحقق له من التيم ما يجعلها حرية خلاقة ، والا فانها تنقلب الى معول للهدم ، وتبقى على هذه الحال لا تخرج منها . كما أنها لا ينبغي أن تكون حرية فردية ذاتية لا تهتم بحرية الآخرين ولا تلقى بالا لها . وهذه الناحية الإيجابية بالذات هي الجسدية بالإيضاح ، لأن كثيراً من الهجوم الذي وجهه خصوم الوجوديين لهم ينصب على فكرة الالتزام وفكرة الحرية أكثر من غيرها . فقد ذهب خصوم الوجوديين الى أن هذه الحرية التي يدعون اليها أن هي الانوع من الحرية المطلقة تنتهي الى الفوضى المدمرة ، والشعور بالفردية المطلقة لا يمكن أن يؤلف مجتمعاً ، زاعمين أن الفرد في المجتمع سوف ينقلب في هذه الحالة الى فرد متنافر مع الفرد وباي أن يقبل منه أي فكرة ، ومن ثم يتحول المجتمع الى مجتمع غير متماسك ، ولكن سارتر قد رد على خصومه هؤلاء فقال :

(والداتية التي نصل اليها ليست ذاتية فردية لأن الانسان ، كما بينا ، يكشف بالكوجيتو : (أفكر اذن أنا موجود) عن ذاته ومن ذات الآخرين أيضا . فنحن نرى ، بعكس فلسفة ديكرت أو فلسفة كانت ، أن الكوجيتو يجعلنا ندرك ذاتنا أمام الانسان الآخر ، ونسردك أن وجوده ، بالنسبة اليها ، اكيد كوجودنا نحن .

أن الانسان الذي يدرك ذاته بالكوجيتو ، يكشف أيضا من وجود الآخرين ويكشف عنه بمثابة شرط لوجوده الذاتي . انه ليس بشيء اذا لم يعترف به الآخرون كذلك) (ليس خفيف الظل أو ثقيله أو رديئا أو صالحا) وإذا رمت حقيقة ما تتعلق بذاتي ، فلا يمكنني الحصول عليها

الابوابسة الآخرين ، ليس هذا شرطا لوجودى فقط ، بل هو أيضا شرط للمعرفة التى اكونها عن ذاتى .

وهكذا يكون اكتشافى لصميمتى فى هذه الشروط اكتشافا للآخر ، من حيث هو حرية موضوعية امامى ، ومن حيث هو كائن لا يفكر ولا يريد الا بالنسبة الى ، سلبا كان ام ايجابا . اما نتيجة ذلك فهى اننا كشفنا عن عالم ندعوه بعالم الدائىة المتبادلة Inter - Subjectivire وهو عالم يقرر فيه الانسان كينونة الآخرين أيضا (١) .

ويقول سارتر في موضع آخر عن حرية الآخرين : (ان الحرية من حيث هى تعريف للانسان ليست متعلقة بحرية الآخرين ، ولكن الالتزام يحتم على بلدانه ان اختار حريتى وحرية الآخرين في آن واحد ، انه يجعلنى لا أستطيع اعتبار حريتى غاية دون ان ادمج في تلك الغاية حرية الآخرين) (٢) .

ومفهوم هذا الكلام ان ليست الحرية الفردية مطلقة بالمعنى الذى يبيع الفرد ان يفعل ما يحلو له بنض النظر من أى اعتبار ، ولكنها حرية اختيار واعية بما يجب ان يسلكه الفرد ، بما يمليه عليه كل موقف من المواقف . وعندئذ يكون الوجودى مستقلا في اختياره اولا وملتزما بكل ما يحيط به من ملايسات موقفه ثانيا . فكان الحرية هنا لا تتحقق الا بالالتزام ، والا بما يمليه الموقف على المرد من سلوك ازاءه . كان سلوك الانسان الوجودى مرتبط بادراكه لكل اللابسات المحيطة به ومربط كذلك بوجود الآخرين . على ان تكون له وحده في النهاية حرية الفصل والبث في كل موقف على حده ، فهو الذى يحدد طريقة تصرفه ، وهو الذى يكتشفها لنفسه .

على ان الكلمات السابقة لسارتر تضيف هنا اضافة جوهرية في مفهوم علاقة الانسان الوجودى (بالآخر) ، وكلمة الآخر هنا تعنى الانسان الذى يعيش الى جانبنا او في مجتمعنا والذى له علاقة بنا ، ان سارتر عندما حدد العلاقة المعنوية التى تنشأ بين الانسان الوجودى والآخر لم يعمل الاشارة الى ان هذه العلاقة ، على رغم ايجابيتها وفعاليتها ، لا ينبغي لها بحال من الأحوال ان تهبط بنا الى الموضوعية السلبية او الى انكار حريتنا الفردية او كبتها او كتمانها ، وهذا بالضرورة واضح من المبدأ الاساسي لفكرة الاختيار الحر الملتزم التى ترفض الخضوع للاخلاق العامة . فلا وجود عند سارتر للاخلاق العامة التى تستطيع ان تدلك على الواجب لانه على حد قوله لا وجود في هذا العالم لاشارات قابلة للتأويل ، واذا كان الكاوتليكيون يجيبون بالعكس : ان هناك اشارات . واذا سلمت معهم بذلك فالذى يعطى هذه الاشارات معناها هو كل واحد منا على هواه (٣) .

ويزيد سارتر المسألة ايضا عندما يضرب لنا هذا المثل الطريف في بيان سحرية الاختيان الملتزمة في غير خضوع للاخلاق العامة يقول :

(سأذكر لكم الان حالة احد تلاميذى الذى جاء في الظروف الاتية/ لهذا الشاب اب متخاصم مع زوجته ، ومتعاون مع الاعداء . وكان له أخ قتل في الهجوم الالمانى سنة ١٩٤٠ . وكان يريد الانتقام له ، مدفوعا بعواطف بدائية نوعا ما ولكنها عواطف كريمة . وكان هذا الشاب يعيش وحيدا مع والدته التى كانت تنعزى به عن خيانة زوجها وعن مصيبة ابنها المتوالت .

(١) . الوجودية فلسفة انسانية ص ٤٢

(٢) . الوجودية فلسفة انسانية ص ٤٢ .

(٣) . المرجع السابق ص ٢١ .

وكان على هذا الشاب أن يختار وقتله أحد امرين/ فاما ان يلتحق بالقوات الفرنسية الحرة في إنجلترا ، واما ان يبقى بجانب والدته ليساعدها على الحياة .

لقد كان يدرك أن والدته تحيا بوجوده معها ، وأن غيابها أو موته سيلقيها في لجة اليأس . وكان يدرك أيضا أن كل عمل يقوم به تجاه والدته له قيمته وصداه . بمعنى أنه يساعدها فعلا على الحياة ، أن أية خطوة يقوم بها للذهاب إلى القتال قد تذهب سدى وتضيع لأنه قد لا يستطيع الالتحاق بالقوات المحاربة . فانه قد يبقى مثلاسجينا في اسبانيا اذا حاول المرور في اراضيها او موكل بمعمل كتابي بسيط في الجزائر اذا ما حاول الفرار أولا إلى شمال افريقيا . انه أخيرا ، كان أمام نوعين مختلفين من الأعمال أحدهما غير مباشر لكنه موجه الى فرد واحد ، وثانيهما موجه الى مجموعة اوسع امتدادا بكثير ، وهي المجموعة القومية ، ولكنه بسبب ذلك عمل معرض للانقطاع والفشل .

كان الشاب في ذلك الوقت يتردد بين نوعين من الأخلاق : اخلاق التعاطف والتضحية الفردية ، وأخلاق اوسع لكنها ذات فاعلية اقل ضمانا من فاعلية الاولى . وكان على ذلك الشاب أن يختار أحد الاثنين . فمن يستطيع اعانته في ذلك ؟ العقيدة المسيحية ؟ كلا . فانها تقول : (كونوا محبين للغير وضحوا بانفسكم في سبيلها ، اختاروا دائما الطريق الأكثر صعوبة من غيره) . ولكننا نساءل هنا : أية الطرق هي الأكثر صعوبة من غيرها ؟ ومن تجب محبته كغريب ، الأم أم المقاتل في الجبهة ؟ وأين الفائدة الكبرى ؟ أهى في المقاتلة مع مجموعة كبيرة وتكون الفائدة عندئذ غامضة أم أنها في اعانة كائن معين على الحياة وتكون الفائدة عندئذ محددة ؟ ومن يقرر في كل ذلك بصورة قلبية ؟ لا أحد ولا أية أخلاق مكتوبة .

فالأخلاق الكاتنية تقول : لا تعاملوا الآخرين مطلقا بوصفهم وسائل بل غايات . حسنا فاني اذا بقيت بجانب والدتي ، اعاملها من حيث هي غاية لا وسيلة وقد اكون في هذه الحالة معاملا الذين يقاتلون حولى كما لو كانوا وسيلة . واذا التحقت، من جهة ، بأولئك المقاتلين ، عاملتهم معاملة غاية، وعرضت نفسى في آن واحد لمعاملة والدتي معاملة وسيلة .

فاذا كانت القيم غامضة ، واذا كانت دائما أكثر اتساعا من الحالة الميمنة المشخصة النسي ذكرناها فلا يبقى لدينا سوى اللجوء الى فرائضنا . وهذا ما حاول صنعه ذلك الشاب ، إذ انه كان يقول : المهم في الأساس هو الماطفة ، وما يجب أن أختاره هو الذى يدفعني نحو اتجاه معين . فاذا شعرت بانى أحب والدتي حتى أضحي في سبيلها بكل ما تبقى من رغبة في الانتقام والعمل والمغامرة ، بقيت بقرىها . أما اذا شعرت بأن حبي لوالدتي ليس بكاف تركتها وذهبت . ولكن كيف يمكننا ان نحدد قيمة عاطفة ما ؟ وما مصدر قيمة عاطفة الشاب نحو والدته ؟ هو بالبط ، مجرد بقائه لاجلها . فاني أستطيع القول مثلا : أحب صديقى لدرجة انى أضحي بمبلغ من المال في سبيلها ، ولكنى لا أستطيع القول بذلك الا اذا ضحيت فعلا بالمال . وهكذا فاني أقول: أحب والدتي لدرجة انى أبقي بجانبها اذا كنت بقيت فعلا بجانبها ، وهكذا فاني لا أستطيع تعيين قيمة هذه العاطفة الا اذا قمت بالضبط بفعل يؤكدها ويمررها . ولكنى لما اطلب من هذه العاطفة تبرير فعلى بالذات فاني أرى نفسي واقفا في حلقة مفرغة .

ولعلمكم تقولون : ان ذلك الشاب يستشير أستاذاه على الأقل . ولكنكم اذا استشرتكم، كاهنا مثلا ، فانتم تعلمون نوعا ما ، عند اختياركم ايها ، شكل النصيحة التى ستأخذونها منه . وهذا يعني أن اختيار الرشد هو بعد ذاته التزام . والبرهان على ذلك أنك لو كنت مسيحيا لقلت :

استشر كاهنا . ولكن من الكهنة من يتعاون مع الألمان . ومنهم من يقاوم المحتلين ، فأبهم تختار ؟ فإذا اختار الشاب كاهنا مقاوما للعدو أو آخر متعاوننا معه فهو قد قرر نوع النصيحة التي سيأخذها . وهكذا فعندما أتى ذلك الشاب الي كان عالما بالجواب المنتظر وهو جواب واحد : أنت حر لتختار ولتبتكر ، فلا أخلاق عامة تستطيع أن تدلك على الواجب لانه لا وجود في هذا العالم لاشارات قابلة للتأويل . ولكن الكاثوليكيين يجيبون بالعكس : ان هناك اشارات . وإذا سلمت معهم بذلك فالذي يعطى هذه الاشارات معنى هو كل واحد منا على هواه . (١)

ولعل هذا المثل الذي حرصنا على أن نسوقه بكامله يوضح لنا ، بما لا يدع مجالا للشك ان الانسان الحر هو الانسان الذي يتصرف بمحض اختياره في الوضع والموقف الذي لقيه فيه تيارات الظروف ، والمصادفات وأحداث الحياة ، وهو في هذا التصرف يراعى كل الظروف الممكنة وكسل الاحتمالات المتوقعة ، ويناقشها بينه وبين نفسه ، واضعا في الاعتبار علاقته بالآخرين . على أن الذي يحدد القرار النهائي بالنسبة لأي موقف من المواقف هو ما يميله ضمير الانسان الحر بغض النظر عن أي ضغط يفرض عليه من الخارج . وحتى لو ضغط عليه فهو ملتزم ومختار ومسئول عما يفعل .

والآن ، وقد فرغنا من اجمال الاسس النظرية لفكرة الوجود والحرية والالتزام عند سارتر نجد من المفيد أن توجه البحث الى بعض ما جاء في أدب سارتر وفي مسرحه بالدالات لتري الى أي جد برزت هذه الاتجاهات النظرية في ادبه .

مسرحية الطبيب لسارتر :

ظهرت هذه المسرحية عام ١٩٤٢ . وهي من هذا النوع من المسرحيات الذي يتخذ الموضوعات القديمة أساسا لها ، فقد اعتمد سارتر في هذه المسرحية على الأسطورة اليونانية القديمة ، أسطورة الكترا التي عالجها إيسكلوس ، وصوفو كليس والفيري ، وجيرودود عام ١٩٣٧ ، وغير هؤلاء . الا أن سارتر في تناوله لهذه الأسطورة قد خالف هؤلاء جميعا ، اذ استطاع أن يلتصق من أحداث القصة ووقائع الأسطورة سبيلا الى التعبير عن فلسفته ازاء العمل الحر الملتزم ، وازاء فساد هذا العالم وانحلله ، كما استطاع أن يلتصق من الأحداث وسيلة لتحرر الانسان من المعتقدات الوهمية المتواردة ، والتي تروّج على نفوس البشرية كما يروّج ، الكايوس ، والتي لا تفتأ تطلق على الناس أشباحا من الخيال تعوق حريتهم وأنظلائهم .

هذا وقد اختلف تناول سارتر لهذه الأسطورة عن غيره في اعتماده على مسرح المواقف أكثر من اعتماده على تحطيل الشخصيات ، فالإبطال في مثل هذا المسرح شخصيات تقع في مأزق ، وتتوقف حريتها على الموقف الذي تختاره للخروج من هذا المأزق . فالمسرحية في جعلتها حريصة على أن تكشف لنا في كل شخصية الانسان المبكر لنفسه بابتكاره للمخرج الذي يختاره للخروج من مصيدة القفزان التي يقع فيها . على أن مثل هذا النوع من المسرح لا تعمد أن تجد فيه شخصا متميزة بألوان نفسية محددة . ففي المسرحية آدميون واقميون لهم مشاكلهم ، وعندهم امكانياتهم كما أن لهم التفاتاتهم الفنية ، ولامحهم النفسية ، غير أننا عندما نقول ان العناية بالموقف كانت السمة البارزة في مسرحيات سارتر لا نعني بذلك افغال ما في مسرح سارتر من عناصر أخرى هامة منها صراع الأفكار . فليس من شك أنك حين تقرأ سارتر سوف تجد نفسك أمام نوع من الدراما

الفنية بالفكر الذى يحتاج منك الى الرجوع الى فلسفات الوجوديين وغيرهم لمعرفة ما تقوم عليه من اساس ، كما مستحتاج كذلك الى تتبع نوع جديد من الصراع بين الرسمى الفردى المتحرر وبين طغيان مجتمع بتقاليدته البالية الخائفة .

ولكى نحلل مسرحية اللذباب لسارتر ونكتشف من خلالها كل ما اجملناه من خصائص هذا المسرح الجديد نجد بنا أن نقف لحظة عند موضوع الأسطورة التى اتخذها الكاتب أساسا لوضوعه وفكره وصراعه الجديد .

تتلخص الأسطورة القديمة في ان أجاممنون حاكم (أرجوس) كان بطلا وقائدا للحملة اليونانية على طروادة ، ولقد اظهر في هذه الحملة شجاعة تثير اعجاب معاصريه . على ان أجاممنون قد اضطر رغم شجاعته تلك ان يقترب بعض الأخطاء نتيجة لمظاهر ضعف انسانية لا يسلم منها اى بطل من أبطال الماسى . من هذه الأخطاء انه عندما كان في طريقه لحصار طروادة غضبت الآلهة فأرسلت رياحا هوجاء عوقت من سمر الأسطول اليونانى الى طروادة ، فابتهل الى الالهة ان توقف هذه الرياح ، ولكى يكسب رضا الآلهة قدم ابنته (ايجيبنى) ذبيحة وقربانا ، وسير ايجيبنى الى الموت في شجاعة فيمتلئ صدر كليتمنسترا زوج أجاممنون سخطا على ما اناه زوجها من عمل فظيع حين ضحى بابنته على هذه الصورة . وعندما يعود أجاممنون من الحرب متوجا بالنصر والفخار يجد زوجته الساخطة عليه تتأمر هى وعشيقتها (ايجست) على قتله ويتم لها ما تريد . وكانت لأجاممنون ابنة أخرى تدعى (الكترا) وابن أسفها (أورست) فيقع على الاثنين عبء الانتقام لابيهم من امهما وعشيقتها ، ويقتل أورست الأم وعشيقتها معا .

هذه هي مجمل الأسطورة التى اعتمد عليها سارتر ، وقد حافظ عليها واستبقاها كما استبقى شخصها القديمة متخذا من شخصيتي أورست والكترا موقفين متناقضين : موقف الفتى اثرى النبيل المحنك الذى طاف بالبلاد وتعلم مما صادفه فيها من تجارب أدركما من طوائع البشر ، وما اكتشفه من حقائق عن الحياة والوجود ، فهذه هذا كله الى التفكير الحر ، وساعده على ذلك ان رأى نفسه بلا أسرة ولا وطن ولا دين ولا مهنة ، فبدأ بذلك انسانا حرا تمام الحرية فيما يفعل وفيما يلتزم . اما الكترا شقيقته فعلى الرغم مما عانت من تعاسة وشقاء بمصاحبتها لأمها وزوج أمها ، وما تقيت معهما من صفوف الاحتقار والازدراء ، وعلى الرغم مما تحسه دائما من فظاعة الالم الذى ارتكبته أمها وعشيقتها ، ورغبتها الملحة في الانتقام منها ، وعلى الرغم من انتظارها في قلق لعودة أخيها ، وما قامت به من دور في اقناعه بضرورة الاخذ بثأريها ، وتخليصها من وطأة ما تشعر به من مسؤولية الانتقام ، على الرغم من كل ذلك فان شخصية الكترا ظلت طرفا مقابلا بل ومتناقضا لشقيقتها . وذلك في الموقف الذى اتخذته آخر الامر . ازاء الجريمة التى ارتكبتها أخوها أورست عندما قتل أمه وزوجها ، فلم تستطع الكترا ان تنجو كما نجى أخوها أورست من اشباح الندم التى لا حقتها في قسوة ، والتى ورثتها مع ما ورثت من مدينتها الواقعة تحت تأثير الندم مثل مقتل أجاممنون . ذلك الندم الذى يصور الكاتب اشباحه بحشود من اللذباب الذى يحط على ما في القلوب الفاسدة من نتن وعفن . وهكذا تقع الكترا اسيرة لأشباح الندم هذه ، وتبقى في قبضة العقائد والتقاليد لا تستطيع منها فككا ، لأنها مشدودة اليها بقوة العادة ، وتضيق صيحات أورست لأخته هباء . فعبتا يحاول أن يخلصها من الوهم المسيطر على مشاعرها ومن أرفعها الرعب أمام الجريمة . وانظر الى هذا الصراع الذى ترسله الى جوبيتر طالبة المصنف والغفران ، وتقول مخاطبة إياها :

(اننى لا أريد أن اسمعك بعد ، انك لا تقدم لي الا المصيبة والاشمئزاز ... النجدة 1

النجدة ! يا جوبيتر ، يا ملك الآلهة والشر ، يا مليكي ، خلني بين ذراعيك احملني ... احمني انني سأبكي شريعتك ، سأكون عبدك وملكتك ، وسأعاقب قديمك ، وكيتيك ... احمني من اللذباب ، من أخي ، من نفسي ، ولا تدمني وحيدة ، انني سأكرس حياتي كلها للتكفير ... انني أتوب ، يا جوبيتر ، أتوب (١)

أما أورست فإنه على النقيض من اخته ، لقد جاء الى مدينة (أرجوس) بعد موت أبيه بخمسة عشر عاما فيجد (ايجست) زوج أمه وقاتل أبيه يتربع على مرش (أرجوس) المدينة التي تركها وعمره ثلاث سنوات ، ولا يكاد يدخل أورست الى هذه المدينة حتى يواجه بشيء فظيع لم يعهده في أي مدينة مر بها من قبل ، فقد رأى (ايجست) يفرض على أهل (أرجوس) حياة ملوهاً بالدمر والخوف والندم ، فعند اغتيال أجاممنون والمدينة برمتها تصرخ من أجله . وحتى لا تنسى المدينة صراخ احتضار ملوك أجاممنون فرض عليهم ايجست هذا الصباح ، صباح التكفير من اللذنب في كل عام ، فقد اختير بقار ذو صوت قوى ليصبح في ذكرى سنوية في قاعة القصر الكبرى ، ثم تطلق الموتى من قبورهم في يوم عيد يخرج فيه الناس جميعا لاستقبال موتاهم الذين يصعدون من الأرض كبحار هائل من الكبريت تطرده الريح ، وينتشرون في ضباب كثيف عبر الشوارع لتتسلل قوافلهم المؤدحة بين الأم والطفل ، بين العاشق وعشيقته ، ثم يقف الأحياء في رعب هائل يظليون الصفح من هؤلاء الموتى على ما اقترفت أيديهم من الآثام والخطايا ، ويبدو الهي امام الميت كأنه فريسة سميعة حية تنقض عليه وينعتها حتى العظم .

كان ذلك كله يتم بتدبير من (ايجست) الذي أراد بذلك ان يمنع سكان أرجوس من التفكير في جريمة القتل التي ارتكبتها ، وان يحول بينهم وبين فكرة الانتقام منه ، فأخذ يفرق المدينة كلها في هذا الشعور بالذنب الذي أبرزه سارتر في صورة حسية رائعة ، حين جعل الأحياء يخرجون على هذه الصورة المرعبة يمترفون بأخطائهم ويجردون في الرعب والعذاب والخوف من الخطيئة لذة يستمتعونها ، وضريبة من الملك تفرض على الشعب فرضا حتى أصبحت تقليدا سنويا وعيدا رسميا للدولة . ولقد أحسن أورست تصوير هذه الحال بكلعانه المبررة الساخرة حين رأى ما رأى من مشاعر الندم المتوفاة الى كل ركن من أركان المدينة فقال :

(حقا ؟ جدران ملطخة بالدم ، وملايين من اللذباب ، رائحة مجررة ، وحرارة حشرات ، وشوارع مقفرة ، ورب ذو وجه مسحوق ، وبقايا مدمورة تضرب صدورنا في جوف بيوتنا . وهذا الصراخ ، هذا الصراخ الذي لا يطاق : أهذا ما يروق لجوبيتر ؟) (٢)

ولم يكن أورست حتى هذه اللحظة التي التقى فيها بهذا الجو الغريب عليه قد اكتشف كيانه بعد ، لم تكن بين يديه غير هذه الحرية الهزيلة حرية الخيوط التي تنتزعها الريح من نسيج العنكبوت ، والتي تتطاير على ارتفاع عشرة أقدام من الأرض ، انه على حد تعبيره ، لم يكن يزن أكثر مما يزن الخيط ، ويعيش في الهواء . . ولكن هذه الحرية الواهية الضعيفة لم تلبث أن تحولت عند أورست بعد أن واجه الحقيقة ، وبعد أن وجد نفسه ملتزما بفعل لا بد من تحقيقه ، لم تلبث أن تحولت هذه الحرية الواهية الى عمل واع ، فقد وقع في مأزق ، ولا بد له ان يحقق حريته من طريق الآخرين وفي مواجهتهم . فقد أدرك ان العمل الذي لا بد ان يأتيه لكي يحقق لنفسه وجودها ، ولكي يقيم لنفسه كيانا حقيقيا هو . قتل (ايجست) قاتل أبيه ، فيعقد العزم على

(١) مسرحيات سارتر ص ٩٥

(٢) مسرحيات سارتر ص ١٤

ذلك بضمير واع يقطر ، وينفذ ما عقد العزم عليه دون أن ينتابه الخوف أو يسيطر عليه شعور بالندم، فقد غرّب ضربته وهو على لفة تامة بقيمة ما يفعله ، وهو قد ارتكب جريمته وواجه الآله جويتر في غير تردد أو خوف .

وهكذا يبدو لكل من يقرأ مسرحية الذباب كيف استطاع سارتر في حدود تحليله للموقفين المتناقضين ، موقف أورست المبتكر النابع من نفس حرة نفضت عن كنفها كل ما تفرضه العقائد والتقاليد والأوهام من سيطرة على الفرد ، وبين موقف أهل (أرجوس) الذين يرزحون تحت وطأة الندم وينحازون في غير حرية ولا اختيار إلى ما فرض عليهم. فرضاً ، وما يساقون إليه سوقاً . أما أورست الذي أفرجه أن يرى ضمائر سكان أرجوس مكبله بالندم ، فقد حطم هذه القيود ، وأبى أن يصيبه الداء المستشري بين الناس ، وبنى لنفسه كيئناً مستقلاً يكشف عن جوهره ، ضارباً عرض الحائط بكل ما كان يوهن من حرته ويضعفها في الماضي . وانظر إلى هذا الحوار بينه وبين (جويتر) رب الأرباب :

أورست : أنا لست السيد ، ولا العبد ، يا جويتر . اننى حريتى ! فما كنت تخلقنى حتى كفت عن أن أخصك .

الكترا : استحلفك بأبيئنا يا أورست ، لانتصف التجديف إلى الجريمة .

جويتر : اسمعها ، وافقد الأمل في أن تستردها بحججك : ان هذه اللهجة تبدو جديدة بما فيه الكفاية على سمعها - وهى تصلحها بما فيه الكفاية .

أورست : وعلى سمعى أيضاً ، يا جويتر. وعلى خلقى الذى يهمس بالكلمات ، ولسانى الذى يكونها عندما تمر به : اننى أجده مشقة في فهم نفسه . لقد كنت حتى الأمس أشجع فشاعة على عيى ، وسدادة من شمع في أذنى ، وبالأمس كان عندى علم ، كنت ملدى بأن أوجد ، لأنك كنت قد خلقتنى في العالم لأخدم أغراضك ، وكان العالم - سمسارة عجوزاً - تحدثنى منك بلا انقطاع . لم تركننى بعد ذلك .

جويتر : أتراك ؟ أنا ؟

أورست : أمس ، كنت قرب الكترا ، وكانت طبيعتك كلما تحيط بى ، كانت الجنية تنشد أغاني (خريك) وتحضنى نصائحها . وكان النهار المحرق يرق كما يتفنى النظر ، ليحرشنى على الرقة ، ولكى تدعونى السماء إلى نسيان الإهانات كانت تعذب وتحلو كأنها الصفيح . كان شيبابى ، ليطيع أوامرك ، قد نهض أمام نظري ، مبتهلاً كخطيبة يهيم خطيبها بتركها : وكنت أرى شيبابى للمرة الأخيرة . ولكن فجأة ، انقضت الحرية على فأرعدت فرائضى ، وفقرت الطبيعة إلى خلف ، فلم يكن لى بعد عمر ، وأحسستنى وحيداً كل الوحدة ، وسط عالم الصغير النافه ، كمن فقد ظله ولم يكن ثمة شيء بعد في السماء ، لا (خير) ولا (شر) ولا أحد ليصدر لى أوامره .

جويتر : واذن ؟ أيجب على أن أعجب بالنعمة التي يعزها الجرب عن القطيع أو بالأبرص الذى هو محبوبس في محجره ؟ تذكر يا أورست : لقد كنت واحداً من قطيعي وكنت ترضى كلاً حقولى وسط نماجى . وليست جريتك الآ. جويأ يتأكلك ، إنها ليست إلا منفى .

أورست : حق ما تقول : منفى .

جوييتر : ليس الشر شديد العنق : فقد بدأ بالأمن . فحسب . عد إلينا عد : وانظر كم أنت وحيد ، فحتى اختك تركك . أنك ممتع الآون ، والقلق يوسع مينك . تؤمل أن تعيش ! هنا أنت ذا متاكل بشر لا بشرى ، أيها الغريب على نفسك ذانها . عد : فانا النسيان ، أنا الراحة .

أورست : غريب على نفسي ، أعرف هذا . خارج الطبيعة ، ضد الطبيعة بلا حذر ولا ملجأ الا في . وكنتي لن أعود تحت شريعتك . فانا محكوم علي بالا تكون لي شريعة أخرى غير شريعتي ، اننى لن أعود الى طبيعتك : ان هناك ألف درب مرسومة فيها تؤدي اليك ، ولكنى لا أستطيع أن أتبع الا دري . ذلك انى انسان يا جوييتر ، وعلى كل انسان أن يخترع دربه ان الطبيعة تشمل من الانسان ، وأنت ، أنت ، رب الأرباب ، أنت ايضا تشتمل من البشر .

جوييتر : أنت لا تكذب : فحين يشبهونك ، أكرهم .

أورست : حذار : لقد اعترفت بضعفك . أما أنا فلا أكرهك . ما شأني بك ؟ اننا ننساب احدانا بمؤازرة غير الآخر ، من غير أن نتماس ، كسفينتين : أنك رب ، وأنا حر : فنحن متشابهان في الوحدة ، وشيقنا متشابه . من ذا الذي قال لك انى لم أبحث عن الندم ، في أثناء هذه الليلة الطويلة ؟ الندم . النوم ولكنى لا أستطيع بعد أن اعانى الندم . ولا أن أنام . (١)

وواضح من هذا الحوار بين أورست وجوييتر أنه لا يكشف من موقف أورست وهمن اكتشافه لحريته التي حددت وجوده ومصيره فضيب ، وانما يكشف الى جانب ذلك عن فلسفة سارتر التي تسخر من مبدأ الاعتراف بالخطيئة . وما تفرضه على الناس من شعور بالندم ، الذي هو عنده شعور سلبي معوق ومضلل ، فان الاختفاء وراء عقيدة الندم هذه انما هو في رايه هروب من مواجهة الحياة ، بل ان مثل هذا الشعور بالخطيئة هو أوغل في الشر من الشر نفسه . ذلك لانه اشبه ما يكون بالدثار السميك الذي يثلف نفوس الناس فلا يستطيع ان تكشف القناع عن حقيقة هذا الوجود الفاضح العديم المعنى ، هذا الموقف السلبي انذى يجمع الناس من مواجهة حرياتهم والتطلع الى كشف الحقيقة ، هو الشر في نظر أورست وهو كذلك في رأى سارتر .

وما التعدى السافر الذي اعلنه أورست لجوييتر رب الأرباب في نهاية الحوار السالف الذكر الا دليل على انتصار الوعي الحر ، وعلى شعور أورست بأنه استطاع ان يحقق كينونته ووجوده لا عن طريق الآخرين بل بإرادته الحرة . فالمر لا يكون عاجزا الا اذا قبل ان يكون كذلك . . . ومن ثم كانت ضرورة الالتزام والقضاء على فكرة الاستسلام أو التبعية من أهم القضايا التي تهدف اليها المسرحية . فان التخلي من المسؤولية هي في الحقيقة قضاء على وجود الانسان ، من أجل ذلك هاجم سارتر بكل قوته فكرة الاستسلام للخطيئة والشعور بالندم ، بل لقد ذهب الى إبد من هذا عندما أفهمنا أن الشر كان ينبع من اللامبالاة والسلبية والتخلي عن التبعية والشعور بالمسؤولية . فان الشر كله ينبع من جحود الالتزام ، لان جحود الالتزام بمثابة جحود للوجود .

على أن هناك تساؤلا كثيرا ما يعترض قارىء مسرحية الدباب ، وهو تساؤل يتعلق بالموقف الأخير الذى وقفه أورست عندما رفض أن يجلس على عرش أبيه بعد أن قتل (إيجست) فبأى شيء يفسر هذا الرفض ؟ وهل في هذا الرفض ما يناقض الموقف الإيجابي الذى انتهى اليه

أورست ؟ فإذا فهمنا هذا الرفض على أنه تنصل كان في ذلك تناقض واضح ، فمن أين جاء الالتزام إذا كان أورست سوف يترك سلطان المدينة لغيره من الناس ؟

وعلى الرغم مما اتاره هذا التساؤل من شكوك النقاد والباحثين مما أدى ببعضهم إلى اتهام سارتر بالتناقض ، فإن من النقاد من استطاع أن يفهم موقف أورست الأخير تفسيراً يساير الاتجاه العام لفلسفة المسرحية ، لا يناقض موقف الالتزام فيها . فإن تخلى أورست عن حكمه أرجوس بعد انتصاره قد كان رمزاً للمقاومة الفرنسية التي قصد إليها سارتر من وراء الموقف الأخير الذي وقفه أورست ، فإن موقف المقاومة الفرنسية للهجوم الألماني المفتصب كان بمثابة موقف الجند في ساحة القتال ، لا يهدفون إلى ما وراء الانتصار بقدر ما يهدفون إلى الانتصار نفسه . (١)

﴿ مسرحية الله والشيطان لسارتر ﴾

وإذا انتقلنا إلى مسرحية الله والشيطان لسارتر فسنجد أنفسنا أمام أكثر مسرحياته إثارة وصراعاً وحركة على الرغم مما نغض به من فكر ، وما تهدف إليه من فلسفة سارتر في الوجود والحرية ، ونبل العقائد الدينية ، بل وإثبات خطورتها في تعويق تقدم الإنسان وتكبيل حريته . بل إن مسرحية الله والشيطان لتذهب إلى أبعد من ذلك عندما تنتهي هذه النهاية الخطيرة التي يلج سارتر في تأكيدها ، متمسكاً لذلك السبل من تجربة تحاول أن تستمد أساسها من الواقع ، فتنتهي به تلك الحرية إلى أن الوجود الوحيد في هذا العالم هو الإنسان وأن ليس في الكون إله غير الإنسان . بل لقد حاول جاهداً بما عرض من تجربة ، وباندليل ، والبرهان ، أن يفتح نفسه والناس من حوله بالحقبة التي تقول بأن العدم أو المعدوم هو الإنسان ، وأن الوجود أو الموجود هو الله غير أن ذلك كله قد باء بالفشل ، وأثبتت التجربة التي صورها سارتر في مسرحيته والأحداث التي أجراها ، والشخص التي عاشت هذه التجربة أو خاضت معاركها . حاولت أن تثبت أن الناس هم الذين خلقوا الله ، وليس الله هو الذي خلقهم .

وعلى هذا الأساس يضيف سارتر بمسرحيته هذه دليلاً آخر على فلسفته الإلحادية التي لا تفتأ تنتشر في كل أعماله . وإذا كان سارتر قد نجح في أن يقنعنا بما قدم من عناصر الإثارة ، وما التمس من حيل مسرحية وما حققه من صراع ومن قدرة على تحريك الأحداث ورسم الشخص ، يتمكن من فن المسرحية ، فما أظن أنه استطاع أن يقنعنا بما انتهى إليه من نتيجة خطيرة تحاول أن تزلزل إيمان الناس في أقدم مقدساتها . فليس من شك في أن إيماننا بالله هو الشيء الوحيد القادر على أن يجعل لحياتنا معنى ، وأن يجعل من وجودنا قوة ، وأن يجعلنا نتمسك بالحياة ونعيشها ، ذلك أن الإيمان بالله بالخير والحق والعدل والجمال ، ومن أجل هذه جميعها نعيش الحياة ، ولولا هذا الإيمان لانتهى بنا الحال إلى ما انتهى إليه الوجوديون من روح الميت والتمرد ، وعندها لن تكون هناك حقيقة غير تدمير الحياة ، بل قد يكون في هذه النهاية ما يدمو إلى الترويع في الانتحار . ولماذا نذهب بعيداً وقد قالها البير كامى صراحة :

(فإن " يموت المرء بعل" إرادته ، يفرض أنه اعترف ، ولو غريباً ، بطابع هذه العادة الذي يوحى بالسخرية ، وبانعدام أي سبب عميق للحياة ، وبالطابع الذي لا معنى له لهذا السعي اليومي ،

ويعلم جدوى الألم والعذاب . وبالاختصار ، فإن الانتحار يعني بكل بساطة الاعتراف بأن الحياة لا تستحق أن تعاش) . (١)

وعلى الرغم من أن البير كامى السلى يعلن عبثية الحياة على هذه الصورة يعود فيقول إن الحياة لا معنى لها ومع ذلك فينبغي أن نعيش ، ولكن على أي وجه نعيش إذا انعدمت لدينا قيمة الحياة ؟ ذلك هو السؤال الذى وإن انتهى إلى إجابات متناقضة يذهب بعضها إلى مسا صورته من ضرورة مجابهة الإنسان لكل مواقف الحياة بالفعل الملزم الحر ، والتجرد من كل فكر متوارث أو قديم أو مفروض على الإنسان فرضاً ، وتحمل الإنسان لمسئولية أعماله ، إلا أن ذلك كله على ما فيه من إيجابية وحرية غير كاف لأن يجعل الإنسان قادراً على أن يعيش الحياة ، ويستمر في المضي فيها دون أن يصيبه التفسخ والتحلل والانهايار . نحن بحاجة دائماً إلى الإيمان ، وليس من شك في أن الدين في جوهره الصحيح عامل إيجابي فعال وقوة دافعة لتحقيق الأمن والسلام والخير للبشرية على الأرض .

وإذا كان سارتر قد استطاع أن يفرق بين الظاهر الخداع لبعض المشعوذين المناقذين ممن لا يعرفون من الدين إلا شوره ، والذين تركوا مبادئه العلوية السامية ، وأخفوا نفاقهم وراء ملابسهم التكنوتية الغضفاضة ، وطراطيرهم الملوثة وذقونهم الكثة ، والصليب المادى ، والكتاب المقدس الذى لا يبرح يد القس وبين الداعين عن إيمان بمعانى العدل والخير والحق ، فإنه للأسف الشديد ، قد جعل الانتصار في الدين لهذا الجانب السلبي الظاهرى الخداع . بل لقد ذهب إلى أبعد من هذا فزعم أن الوسيلة الوحيدة التي تؤثر في أهل الدنيا جميعاً وتنطلي عليهم ، وتخفضهم لسلطانها ليست إلا ما في هذه المظاهر الدينية المسرحية الخداعة من سحر ، وتنتهي المسرحية آخر الأمر بأن المظاهر الخداعة هي وحدها الحقيقة ، وما عداها باطل .

وبعد فما موضوع هذه المسرحية وما كنه هذا الصراع الذى انتهى بالكاتب إلى هذه

النتائج ؟

لقد بحث سارتر في التاريخ ، واستطاع أن يكتشف الحقبة الزمنية الصالحة لموضوعه ، كما استطاع أن يُحسِّن اختيار أحداث يعينها من التاريخ تصلح أسامها لعرض الصراع الذى يريده ، وتهد السبيل للحقائق التي يهدف إليها .

لقد اختار فترة من تاريخ ألمانيا في القرن السادس عشر كان الشعب فيها يعاني من وطأة استغلال قاهرة مستبدة ، ومن حملة أرهاق يقوم بها رجال الدين ، يفرضون فيها على الشعب اتاوات جائرة ، ويبنزون فيها الأموال من غير وجه حق ، متوسلين في ذلك بسلطانهم الديني ، والدين برىء من هذا كله . أدى ذلك إلى ثورة طاحنة ، ألهمت حماس الجماهير الشعبية تحت قيادة زعيم شعبي هو الخيثار (ناستي) الذى أراد أن يشار للشعب المظلوم ، وأن يرد من مواطنيه البلاء الذى أنزله بهم رجال الدين ، فما كان من الأسقف الذى يمثل حكم الطغاة الجائرين إلا أن يعبد إلى نوع من الحيلة لكي يقضي على ثورة الشعب هذه ، ولم يتورع في سبيل أخمد هذه الثورة من استخدام كل ما يستطيع من وسائل الضرر والخيانة . فلجأ إلى مجرم من كبار المجرمين المحترفين كان يتزعم عصاية من العصابات المكونة من اللصوص وقطاع الطرق ، واستطاع هذا الجرم المسمى (جويتر) أن يكون من هذه العصابات جيشاً كبيراً ، يعمل ما وسعه العمل على التخريب والتدمير مستخدماً كل وسائل الشر ، متنقلاً بين الولايات الألمانية يبعث فيها

فسادا . أدرك الأسقف ما في هذا الرجل من وحشية ، وما لديه من قوة ، وما ينطوى عليه من شر ، وما عرف عنه من امتنان لكل القيم والمبادئ والأخلاق - وما اشتهر به من قسوة في تعذيب الناس . ورأى فيه ضالته المشرودة ، وعرف كيف يتحالف معه وكيف يضمه الى جانبه هو وجيش المصائب الذى تحت يده ، وكيف يستفيد منه في تأديب الشعب الثائر وعلى رأسه الخباز (ناستي) .

وكان الى جانب هاتين الشخصيتين : شخصية السفاح وقاطع الطريق (جويتز) وشخصية بطل الشعب وزعيمه الخباز الطيب القلب (ناستي) ، شخصية ثالثة هي شخصية القس انكاوايكي (هنريك) الذى كان في أول أمره مواليا لثورة الشعب ضد رجال الدين ، وذلك لما كان يتمتع به من دماثة في الخلق ، وما كان يشعر به من فساد رجال الدين ، وما يستخدمونه من وسائل دنيئة لمخادعة الشعب وإبتزاز أمواله . على أن الأسقف الكبير شيخن الطفلة استطاع آخر الأمر أن يخضع هذا القس الثائر ، وأن يحوله من رجل ثائر ضد المعتدين من رجال الدين الى رجل موال ، وذلك بما استخدمه معه الأسقف من وسائل التهديد والتعذيب ، وما كان يردده عليه دائما من ضرورة للولاء للمهد الذى أخذه على نفسه ، وللقسم الذى أقسمه ليكون خادما آمنا للكنيسة ، وجنديا مجاهدا من جنودها ، حتى ضعف القس في النهاية واستسلم للهيمنة ، وخلل الثوار ، وانضم الى اخوانه من رجال الدين .

ثم تبدأ المعركة التي يقف فيها (جويتز) السفاح مع جيشه الكبير ومعه الأسقف في جانب ، ويقف فيها ناستي زعيم الشعب في جانب آخر ، وأدرك ناستي ما يدبره الأسقف في الخفاء ، وعرف أن بين أغبياء الشعب من يحاول الأسقف ضمهم الى جانبه، فيمجدل ناستي باغتتيال الأسقف . ومن يشايه من كبار رجال الدين وأصحاب الجاه والثروة ، وقبل أن يموت الأسقف يسلم مفاتيح المدينة ، مدينة (ورنس) التي تقع فيها أحداث القصة الى القس (هنريك) تلك الشخصية المهرولة المترددة التي خانت ثورة الشعب .

وعلى الرغم من أن (ناستي) زعيم الشعب قد حقق بعض النجاح بالقضاء على الأسقف وبعض معاونيه من الخونة ، فإنه لم يستطيع أن يقاوم جيش المصائب الذى كان يتزعمه السفاح (جويتز) ، فيحاصر السفاح المدينة ، ويقبض عليها بيد من حديد وينسى تحالفا مع رجال الدين ، ويستأثر بالسلطة كلها في يده ، وفي لحظة واحدة يتملكه هوس الانتصار وجنونه ، فيقرر البطش بالمدينة كلها وعلى رأسهم رجال الدين الذين ابتزوا أموال الشعب ، ويصرخ صراخا مجنونا بأنه لن يرجع مما اعتزمه من شر ، ولن تستطيع أية قوة أن تنعنه من أعمال التخريب والتدمير والبطش التي عقد العزم على تنفيذها ، زاعما لنفسه أن ليس هناك إله غيره ، بل لقد بلغ به الجنون حدا يجعله يستهين بقوة الخالق ، فهو لا يؤمن بوجود ما يسميه الناس إله ، بل لقد ذهب في تحديه واستخفافه الى حد أنه قال : إذا كان الإله موجودا حقا فليعطني الدليل على ذلك ، وليفضل فيمنع جويتز مما يريده للمدينة وأهل المدينة من شر ؟ فليرسل الله معجزة أو علامة يندره فيها بالاقلاق عما يضره من شر لأهل المدينة . وينتظر جويتز ظهور المعجزة ، أو نزول العلامة ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . وعندئذ يغمضي جويتز في طغيان فكره حين ينتهى الى أنه هو وحده الموجود الحقيقي الذى يفعل مايشاء وقتما يشاء ، فهو حر كامل الحرية . ويحاول القس (هنريك) الذى تسلم مفاتيح المدينة من الأسقف المقتول يحاول أن يهدده بسوء الحصر ، وبالجهنم وجهنم يصلها مع العاصمين المارقين ، فلا يزيد هذا إلا إيمانا في السخرية والكفر ، فيؤمن أن لو كان هناك إله لما وقع في الدنيا هذا الشر ، ولأوصدت جهنم أبوابها .

وفي هذه الأثناء لا يرى القس (هنريك) الذى وجد نفسه أمام طافية لا سبيل الى التأثير فيه من طريق الدين ، لا يرى بدا من التماس وسيلة أخرى لمعلمها ان تجدى مع هذا الرجل المعاني ، ولم يجد مغرا من أن يلجأ اليه من ناحية يستثير فيها قوته وجبروته ويشككه فيهما ، فعرض عليه أنس موقفا جديدا : فإذا كان يزعم لنفسه أنه حر تمام الحرية في اتخاذ ما يشاء من مواقف ، وإذا كان يرى أنه هو وحده الذى يختار الطريق الذى يريد ، وأن مصيره بيديه ، فليقدم الدليل على ذلك عمليا ، وبالاتقال من جانب الشر الى جانب الخير إذا كان يزعم أنه قادر على ان يحول سلوكه في الطريق الذى يشاء متى شاء ، وقال له القس :

انني اتحد لك يا سيدى القائد ... وأنا اتحد لك لأبرهن لك على أنك لست من القوة باقتر الذى تتصور ، أنك لست حرا في تصرفاتك ، بل أنت مغفور على الشر لا تستطيع منه فككا ، وأن الله هو الذى عرف فيك هذا الخبث فكتب عليك الشقاء ، وأن كنت تكذبني فلم . . . فلم جرب . هل تستطيع أن تقنع عما أنت مجبر عليه من شرور نفسك ؟ لا . . . هلم . . . أين قوتك وجبروتك إذن . . . هناك مناطق القوة أن كنت قويا حقا . . . وهنا مجال التجربة أن كنت حرا في تصرفاتك وجبروتك ، إذن أمامك طريق الخير فانتقل اليه ان كنت قويا حقا وإن كنت حرا حقا . (١)

ولكى ثبت (جويتز) أنه قادر على قبول هذا التحدى ، وأن هذا القول نابع من ذاته هو ، وليس من تأثير القس اشترط شيئا واحدا ، وهو أن يرمى زهرتى الترد فإذا كسب وخسرت ارادة الله فلم يقوم بالتجربة ، لأن الله عندئذ يكون قد خسر مرتين ، أما إذا كسبت ارادة الله فيقوم بالتجربة . وحدث أن رمى زهرتى الترد وكسبت ارادة الله هذه المرة ، وقبل جويتز التحدى ، وصمم على أن يخوض التجربة الجديدة ليرى ماذا يحدث لو أنه سلك مع الناس طريق الخير ، واستبدل شيطاناه بالرحيم بملك رحيم .

ويتم الاتفاق بين القس وجويتز على تنفيذ سياسة الخير الشاملة لمدة لا تقل عن عام كامل ويزوم .

ومن الطريف أن يتجح جويتز فيما عقد عليه العزم . فيتحول بمحض ارادته بين عشية وضحاها الى انسان مختلف تماما عما كان عليه ، فيحقق مبادئ الخير والمساواة والعدل . بل لقد غالى في ذلك الى حد أنه وزع كل ما يملك من عقار أو ثروة على من لم يكونوا يملكون شيئا . ولم يدخر جهدا ولا وسعا في سبيل البحث عن كافة حاجات الشعب حتى يلبسها كاملة ، بل لقد ذهب الى أبعد من هذا كله ، فتحول الى انسان فاضل وزع تنسج الرحمة من سلوكه ووجدانه ومشاعره . يفعل كل ذلك بدافع من ذاته دون أن يلتصق من وراء ذلك مثوبة من اله أو زلفى الى انسان ، وإنما هو الباعث الانساني المحض المدفوع بالحب والخير والمجرد من النفاق والرياء .

وكان من الطبيعي بعد هذا كله أن يحبه الناس ، ولينفتحو حوله ، ويتمسكوا به بل وبعضوا عليه بالتواجد ، خشية أن يفلت من أيديهم ، بل إذا أمكنهم أن يخرجوا للدفاع عنه بالمعصي والحجارة ، والفئوس لما ترددا في ذلك . فالطبيعي أن يكون هذا هو رد الفعل الذى تقابل به أى شعب حاكما مثاليا من هذا النوع . ولكن وبالفرابة ، يقف الشعب منه موقفا على النقيض من هذا كله ، ويلعب رجال الدين مرة أخرى دورا هداما خطيرا ، فيحاولون ماوسمهم الجهد أن يشوهوا كل ما فعل جويتز من اصلاح ، وأن ينشروا في الناس ان السعادة التي تنادي بها السماء

ليست هي السعادة التي تتحقق للانسان في الارض بما يبلغه من ثراء أو نعيم ، فان هذه الدنيا يجب ان تكون دار شقاء وآلام وفقر ومسغبة ، ألم يقل السيد المسيح بأن ملكوت الله لن يدخله الاغنياء ، فكيف يحول جويتز شعب (ورمى) الى قوم اغنياء ؟ ومن اذن من اهلها من يستحق الدخول الى ملكوت الله ؟

ومن العجيب ان يقتنع الشعب بهذه الترهات والاباطيل ويصدقوا ما اشاعه بينهم رجال الدين من حماقات ، ويعلم الناس العصيان على جويتز ، ويجاهرون بالتمرد عليه . يشاركهم في هذا الزعيم الشعبي ناستي ذلك الذي كان يوما ما يقود ثورة الشعب ضد الظلم والفقر والظلم . ويبلغ به العتة ان يلدهب الى جويتز يحاول اقناعه بالعدول عن سياسة الخير ، ليتيح للناس ان يعيشوا حياتهم كما ارادها لهم الله زاخرا بالآلام والمحن ، بل لقد ذهب ناستي الى ابعد من هذا عندما زعم ان الثراء والرشاء اللذين نزل بمدينة (ورمى) نتيجة لسياسة جويتز الجديدة سوف تلفت انتباه البلاد المجاورة لها ، فيدفعهم الطمع والجشع لاحتلال المدينة وارسال جيوشها لغزوها . ويدور حوار بين جويتز وناستي يحاول فيه جويتز ان يذكر صاحبه بماضيه وفورته على الفقر ، فلا يجد عنده اذنا صاغية ، والغريب ان تصدق نبوءة ناستي فتزحف الجيوش من خارج مدينة ورمى لتحتلها وتنهب ما فيها وتحيلها انرا بعد عين .

ومع ذلك يبقى جويتز على موقفه وعهده الذي قطعه على نفسه ، ويستمر في تنفيذ سياسته ، ويظل محتفظا بورمه وسلاحه حتى ينتهي امد المدة التي تم الاتفاق عليها بينه وبين القس هنريك ، ولا يبقى الى جانبه في محنته هذه غير فتاة كانت تقوم على خدمته وتسمى الى مؤازرته ، لا حبا فيه بل ايمانا منها بالنظام الذي يسلكه من اجل خير البلد .

ثم تدور المناقشة بعد هذا كله بين جويتز وبين القس هنريك الذي طرده الكنيسة وأدركته الشيوخوخة ، وذهب منه عقله ، فما كان يتوقع ان تجاوزه الكنيسة هذا الجراء الذي لا يتفق مع ما بدله من محاولات لتحويل هذا السفاح الشرير الى ملاك طاهر . تدور المناقشة بين جويتز وهنريك حول وجود الله العادل الخير ، ولكن عينا يحاول هنريك اقناع جويتز بهذه الحقيقة ، وتنتهي المناقشة بينهما الى درجة من العنف ، تدفع بالقس الى محاولة قتل جويتز حين يمسك برقبة يريد خنقه ، (عندئذ) ينهض جويتز ويهجم على القس فيفتك به ويحطم رأسه ، ويلقى به على الارض جثة هامدة ، وفي هذه اللحظة التي يفتك فيها جويتز بالقس هنريك ويقتله تكون المدة التي حددها لتجربته قد انتهت . ويرسل جويتز قهقهة عالية تدرك من ورائها ما يعنيه . فهو ينظر الى السماء بعدما وكأنه يريد ان يقول : لقد ظهرت الحقيقة التي لا حد لقوتها ، وهي ان الذي يهدئ الارض من صنع الانسان والانسان وحده . لقد كان جويتز يطمع ان تثبت له التجربة عكس ذلك فيؤمن بوجود اله وراه هذا كله ، ولكن التجربة خيبت ظنه .

وينتهي المشهد الاخير من المسرحية بأن يخلع جويتز عن نفسه لباس انكهون لباس الخداع ، ويعود جويتز الى ما كان عليه من قبل الى سبيل الشر ، لانه وحده الذي ينجح ، والان فليقهر الثوار ، وليطرد الفزاة ، وليذق كل هؤلاء الولل والثبور ، وليملأ الدنيا شقاء وجورا ما دام الناس يؤمنون بأن هذا السبيل الوحيد لدخول ملكوت الله .

هذه هي المسرحية بكل أحداثها وشخصها . آثرنا ان نعرضها على القارئ في امانة حتى يكون على صلة قريبة بكل اطرافها ، ويتطور شخصياتها ، وسلوك كل شخصية تجاه الاحداث التي تقع لها ، وحتى يتبين القارئ ما يهدف اليه سارتر من وراء هذه الاحداث ، وما يؤمن به من آراء تتصل بالدين ورجاله ، وواضح من عرض سارتر للاحداث انه يريد ان يقول ان الذي

يجد تأثيره أكثر من غيره في أهل الدنيا جميعا ويفعل فيهم فعل السحر ليس جوهر الدين ، ولا شيئا يتصل بمبادئه العليا السامية ، وإنما هو المظاهر الدينية الزائفة : أنها تخلب الناس ، ولكنها مع ذلك تخدمهم ، وتضلّهم ، وتباعد بينهم وبين الحرية والخير .

ولعل خير ما تقدمه للقارئ من تعقيب على الفلسفة الوجودية . وادها واتجاهاتها ما تركه لنا الدكتور مندور في كتابه « جولة في العالم الاشتراكي » من تعليق على هذا الاتجاه حين يقول :

(أما الوجودية فإنها تدعو إلى التحرر من القيم المتوارثة البالية ، ولقد كان من الطبيعي أن تجد هذه الدعوة استجابة لدى أدبائنا ، وبخاصة الشبان منهم . وإن كنا لا نستطيع أن نجاري هذه الدعوة إلى نهايتها ، فهناك من القديم ما هو الخير ، بل وضرورة نافعة مثل الدين في جوهره الصافي السليم . وهذه حقيقة لا يؤيدها رجال الدين والأخلاق وحدهم بل أيدها ولا يزال يؤيدها كبار الفلاسفة والمفكرين الذين ذهبوا في حرية الفكر إلى أبعد الحدود .

نحن إذن لا نجاري ، ولا ينبغي أن نجاري الوجودية إلى ذلك الحد الأقصى الممحر حد التنكر للدين والتخلص منه ، ولكننا نستطيع ، بل يجب أن نستفيد من دعوتها إلى التحرر من كثير من القيم والمبادئ الفاسدة التي طرأت على الدين والأخلاق ، مثل القدرية والتوكل والتنصل من المسؤولية . والقائما على عاتق القدر وإرادة الله ، وأن نحكم عقولنا فيما يعرض لنا من مشاكل الحياة ، ونلتمس لها الحلول التي تنبع من ملاساتها ، وأن نتحمل في الحياة مسؤوليتنا الكاملة ، وأن نقف بأنفسنا وبقدرتنا على تحديد مصيرنا وتوجيهه ، على نحو ما فعل الوجوديون أنفسهم عندما ساهموا مساهمة باسلة في تحرير فرنسا من الغزو الألماني ، مؤمنين بأنهم بهذا العمل إنما يحققون لأنفسهم واجتماعهم مصلحة حقيقية) . (١)

وقبل أن نختم هذا المقال يحسن بنا أن نجمل بعض الحقائق التي استطعنا أن نستخلصها من دراستنا لبعض هذه الاتجاهات الفكرية في القرن العشرين .

ولعل أول ما يلفت الانتباه فيما عرضنا له في هذا المقال أن كثيرا من المثقفين ورجال الفكر في هذا العصر الحديث يعانون من أزمة فكرية ونفسية تختلف في حقيقتها عن الأزمات التي مرت بالحضارة الأوروبية في أزمانها السابقة . وليس من شك في أن بعض أسباب هذه الأزمة يرجع إلى طبيعة العصر نفسه ، وإلى ما مرت به أوروبا من تجارب ، وما عانته من أحداث ، وما خاضت من حروب ، وما حدث لاجتماعها من تطور نتيجة للتحويل الصناعي ، وسيطرة المادة ، وسيادة التفكير العقلي ، والمبالغة في تأليه العلم وتقديسه بل وتسخيره أحيانا في أشغال الحروب ، وخلق جو من التوتر والتنافس المحموم في سباق للتسلح اللدري وغير اللدري . فكان طبيعيا أن يؤدي ذلك كله إلى خلق هذا الشعور بالقلق المبهم المقيم الذي استبد بالناس في القرن العشرين ، حتى أصبح مرضا شائعا وظاهرا معبرا لأشخاص هذا العصر ، وكان طبيعيا كذلك أن يصاحب هذا القلق إحساس بعيب الحياة وانعدام الدافع ، والمسوغ لبذل الجهد والطموح في عالم قد يباغته البمدار في أي لحظة . وإذا أضفنا إلى كل ما سبق أن طبيعة النظم الاجتماعية الحديثة وما خلفته من وسائل الإنتاج والتوزيع ، وما يترتب على ذلك من ضرورة الوأمة بين الإنسان وبين هذه النظم قد زاد من شعور الفرد بالعزلة وبأنه في إحساسه بقلته حيلته وضعف شأنه أدركنا سرا آخر من أسرار هذا القلق المسيطر على نفس المثقفين في عصرنا هذا .

مع أن عاملا ثالثا يضيفه الدوس هكسلي في جملة هذه العوامل التي خلقت أزمة الإنسان المعاصر ألا وهو زيادة سكان العالم زيادة مفاجئة ، يقول : (لقد كان سكان القرن الأول الميلادي يتقدرون بمائتين وخمسين مليونا ، ثم ضعف هذا العدد في ستة عشر قرنا ، على حين أن عدد السكان اليوم - وهو ثلاثة آلاف مليون نسمة - يقدر له أن يضاعف في أربعين عاما فقط ، وترتب على هذا التفجر البشري نمو فظيع في كبريات المدن وكان من نتيجة ذلك أن ملايين من أطفالنا لا يعلمون شيئا عن الطبيعة : لا يعرفون كيف يكون القمح في حقوله ولا كيف تكون شجرة الفاكهة ، بل أن ملايين لم يروا في حياتهم بقرة إلا في الصورة .

فما النتائج النفسية لهذا كله ؟ أولا : - تضيق دائرة الخبرة بالطبيعة ضيقا شديدا ، ثانيا : - يفقد الإنسان شعوره بالانتماء فيحس بالضيق لأنه دائما في زحمة المدن بغير روابط عميقة الجذور ، ولهذا فهو يحس بالعزلة رغم تكاثر الناس من حوله . (١)

على أن كل هذه العوامل التي ذكرنا لم تخلق في الإنسان المعاصر التوتر والقلق والفربة والشعور بالعبث وانعدام الجدوى من الحياة فحسب ، بل خلقت الى جانب ذلك كله عند الإنسان الحساس شعورا بضعف العقيدة الدينية ، والافتقار الى الايمان بالله ذلك الايمان الذي لا يغني عنه شيء . فان حاجة الانسان الى اشباع عاطفته الدينية امر لا ينقطع .

من أجل هذا كله ظهر العبث والفشيان والتمرد واللامعقول والشعور بالفربة والاهتمام بمشكلة الشر . والبحث عن مبرراته وأسبابه . على أننا نؤمن بأن أزمة الفكر المعاصر هذه لا بد لها ، أن أجلا أو عاجلا ، أن تجد على أيدي المفكرين أنفسهم حولا ترد المثقفين من أبناء عصرنا الى صوابهم . ونعيد اليهم ثقهم بالحياة ، وإيمانهم بالله وتمسكهم بالخير وجهم للإنسان .

* * *

(١٠) د . محمد مصطفى بدوى

في القريب (عرض ونقد) فصلة من مجلة كلية الآداب
جامعة الاسكندرية المجلد الثاني عشر

١٩٥٨

(١١) د . محمد مندور

في جولة في العالم الاشتراكي

القاهرة ١٩٥٧

(١٢) Colin Wilson

The Outsider London 1956

* * *

التنظيم السياسي في المجتمع التكنولوجي الحديث

وجهة نظر اقتصادية

تمهيد :

ان موضوع التنظيم السياسي في المجتمع التكنولوجي الحديث موضوع واسع ومتشعب الاطراف ، ولا يمكن الاطاحة به في مقال واحد او من جانب متخصص في فرع واحد . وكذلك فان حديثنا فيه هو بالضرورة حديث قاصر ، والامريستدعي مساهمات أخرى من جانب متخصصين في فروع أخرى . وهذا المقال ليس في حقيقته سوى مقدمة ودعوة لزيد من التأمل في هذا الموضوع الحيوى .

كثير الحديث هذه الايام عن « المجتمع التكنولوجي الحديث » او عن « المجتمع الصناعي الحديث » او عن « مجتمع الاستهلاك » (١) وكلها عبارات تستخدم الآن للدلالة على الاحساس الامم باننا بدانا ندخل مرحلة جديدة تمتاز عن سابقتها في كثير او قليل ، وتحتاج في جميع الاحوال الى مزيد من التأمل والمعرفة .

وقبل ان نبدا في محاولة التعريف بهذا المجتمع الجديد وخصائصه ، فاننا ننبه الى امر هام وهو ان التاريخ مستمر لا انقطاع فيه ، واننا نستطيع ان نجد بدور هذا « المجتمع الحديث » منذ وقت

• الدكتور حازم الببلاوى مدرس الاقتصاد السياسي بجامعة الكويت والاسكندرية له كتب وبعوث علمية منشورة باللغة الفرنسية والعربية .

(١) انظر على سبيل المثال :

J. Kenneth Gabbraith, The New Industrial State,

Hamish Hamilton, London 1967.

R. Arron, Dix- Huit Lecons sur la Société Industrielle, Paris, Idée, 1961.

وانظر ايضا ، حازم الببلاوى ، مجتمع الاستهلاك ، على ضوء احداث مايو ١٩٦٨ في فرنسا ، القاهرة ، ملحق الاهرام الاقتصادي - اكتوبر-سنة ١٩٦٨ .

طويل ، كذلك فإن ما نتصور أنه « المجتمع الحديث » لا زال يحمل آثارا وبشبا كثيرة من مخلفات الماضي وبدرجات متفاوتة . ولذلك فإذا تحدثنا عن خصائص هذا « المجتمع الحديث » فيجب ألا ننسى أنه لا توجد صورة نقية لهذا المجتمع وأن « الواقع » هو عبارة عن خليط من عناصر كثيرة بعضها متناثر وبعضها متناسق . ولذلك فإن ما سنستلزم منه هو في الواقع عبارة عن طراز نظري Type وصورة نقية من « الواقع » ، أو عبارة عن نموذج أو تصور Concept لهذا المجتمع ، رغم أنه لا يوجد في الواقع بهذا التقاء . فالمجتمع المعاصر هو خليط من خصائص هذا المجتمع الجديد ومن آثار وبشبا صور المجتمعات السابقة ، ولا تخفي أهمية هذه الآثار والبشبا في التأثير على سلوك الأفراد والجماعات ، ولو كانت تعبيرا عن أوضاع هي سبيل الانتهاء . وهذا الأسلوب في تحليل خصائص المجتمع الحديث ، رغم ما يتضمنه من تهذيب أو تشويه للواقع ، هو الأسلوب الوحيد الذي يسمح لنا بإدراك خصائص هذا « المجتمع الحديث » والنتائج التي يمكن تربيتها عليه . وقد كان هذا الأسلوب ناجحا في جميع المحاولات التي بذلت لمعرفة تطور الجماعات وخصائصها وقد أبدعه Ma. Weber ، كما أن تجريد ماركس لا يخرج عن هذا الأسلوب

ونشير أولا إلى أن تسمية هذا « المجتمع الحديث » بالمجتمع « التكنولوجي » إنما هي إشارة إلى الأهمية الكبرى التي تحتلها التكنولوجيا الحديثة وتطورها وأثر ذلك على طبيعة وخصائص المجتمع الحديث . وإذا كان تاريخ الإنسان هو في الواقع تاريخ تطور أدوات الإنسان ، أو هو تاريخ تكنولوجيا بمعنى الواسع (١) ، فإن التكنولوجيا الحديثة قد أخذت طابعا جديدا تميز بوجه خاص في سرعة التطور وخطورته واعتماده على العلم والمعرفة والبحث وليس على مجرد التجريب والخبرة .

وهذا المجتمع الحديث يمثل في الواقع مرحلة جديدة من مراحل الثورة الصناعية . فالسائد هو أن الثورة الصناعية بدأت في إنجلترا ثم في غرب أوروبا في النصف الأخير من القرن الثامن عشر . ولعل الحقيقة أن هذه ليست الثورة الصناعية الأولى ، ولكنها الثورة الثانية . فالثورة الصناعية الأولى تمت في القرن السادس عشر في إنجلترا وفي أجزاء كثيرة من أوروبا ، وقد أخذت صورة الثورة الزراعية في إنجلترا بالقضاء على الحقول المفتوحة Open Fields ، وظهور طبقة الكادحين ، وقيام صناعات كثيرة في جنوب ألمانيا وفرنسا وفي إنجلترا . وهذه الثورة الصناعية الأولى هي التي مهدت للثورة الصناعية الثانية في القرن الثامن عشر وعصر اكتشاف البخار (٢) . ولعل مجتمع اليوم الحديث يمثل الثورة الصناعية الثالثة ! وهكذا نستطيع أن نلمح أن المجتمع التكنولوجي الحديث إنما هو مرحلة من تطور بدأ منذ وقت طويل وإن لم تظهر خصائصه على نحو واضح إلا في أيامنا هذه وفي أجزاء بسيطة من المعمورة في مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية وبدرجة أقل في أوروبا .

والطور الذي لحق التكنولوجيا الحديثة من الخطورة والأهمية ، بحيث أننا نستطيع القول بأن طبيعة المجتمع الذي نعيش فيه ، والقيم التي تسيطر على سلوكنا ، والحاجات التي نسمى

(١) انظر على سبيل المثال تاريخ العالم « الطبعة الفرنسية » of U.N.E.S.C.O.

Histoire Universelle de L'Humanité, Vol. I, Prehistoire, Paris, Robert Laffont, 1968.

of NEF, la civilisation industrielle, Paris, Armand Colin, 1954.

(٢)

لأشباعها . . الخ قد تأثرت بشكل مباشر بهذه الثورة التكنولوجية الحديثة ، ونود أن نشير هنا الى أن الماركسية قد فتحت طريقا خصبيا لدراسة تطور المجتمعات وربط هذا التطور بالتطور الذي لحق أدوات الإنتاج ولكن الماركسية ذاتها قد عاقت دون الوصول الى نهاية هذا المنطق ، وكانت من أسباب تأخر الاهتمام بخصائص المجتمع التكنولوجي الحديث ، وذلك لأنها ركزت بوجه خاص على نظام الملكية ، بتأكيدها أن تطور أدوات الإنتاج يؤدي الى تطور مقابل في شكل الملكية :

ملكية خاصة او ملكية عامة . ولكن هذا ليس الا جانباً فقط من آثار تطور التكنولوجيا . وهناك آثار أخرى على الإدارة الاقتصادية بصفة عامة قد لا ترتبط بالملكية القانونية . ومن هنا وقفت الماركسية عند حد التمييز بين الدول الرأسمالية والدول الاشتراكية . وسوف نرى أن تطور التكنولوجيا قد أدى الى ظهور نوع من التماثل لم يكن من التشابه بين الدول الرأسمالية والدول الاشتراكية التي قطعت اشواطاً كبيرة في مجال التقدم التكنولوجي . وهكذا فإننا نعتقد أن دراسة خصائص المجتمع التكنولوجي الحديث تجاوز فكرة الملكية القانونية .

ونود الآن أن نتعرض لأهم خصائص المجتمع الصناعي الحديث أو التكنولوجي الحديث . ونلاحظ أن بعض هذه الخصائص ليست حديثة بل أننا نعرفها منذ مدة — على الأقل منذ الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر — والجديد في الواقع هو في مدى تأكيد هذه الخصائص من ناحية وفي توافرها مجتمعة وليست منفردة من ناحية أخرى .

الحساب الاقتصادي :

لعل أهم ما يميز المجتمع الصناعي من المجتمعات السابقة هو التغير المستمر ، التغير في وسائل الإنتاج وما يرتبط على ذلك من تغير مستمر في الأذواق وفي الكفاءة الفنية لعناصر الإنتاج . . الخ . فالمجتمعات السابقة كان يسودها نوع من الثبات والاستقرار النسبي بحيث أن العادة والروتين كانا ينظمان كل شؤون الإنتاج والتوزيع . الزراعة والرعي والصيد تكاد تخفض لنا موس الطبيعة من حيث الدورة الزراعية ومواسم الصيد بحيث تكاد تكون مجموعة من العادات الثابتة الموروثة للقيام بهذه النشاطات . وتؤكد هذه العادات وتنتقل من جيل الى آخر دون تغير يذكر ، ويكاد يحكم الفرد في مثل هذه الظروف مجموعة من ردود الفعل المشروطة . فلا حاجة هناك الى التفكير المستمر لمواجهة أحداث جديدة ، وإنما لكل حدث طريقة مواجهته ، وهي طريقة اكتسبت كفاءتها خلال أجيال متعاقبة . وفي مثل هذه الظروف لا تقوم أية حاجة الى الحساب الاقتصادي والتخطيط والتنبؤ . فالعادات والتقاليد كفيلا بذلك . وليس الحال كذلك في المجتمع الصناعي .

إن تاريخ الثورة الصناعية كما هو معروف مرتبط بنشأة الرأسمالية ولا يمكن التاريخ لاحدهما دون الآخر . وقد قامت الرأسمالية الأولى — المعروفة باسم الرأسمالية التجارية — على انقراض النظام الاقطاعي وظهور أوجه جديدة من النشاطات في مقدمتها التجارة ثم الصناعة . وقد ارتبط ذلك بمالم جديد تسوده المخاطر وعدم الاستقرار . وهرب المُنظم Entrepreneur — وهو عماد النظام الاقتصادي في ذلك الوقت بأنه الشخص الذي يتحمل المخاطر ويقبلها في سبيل الإنتاج وبذلك دخل عنصر انتيبيو والحساب كعنصر أساسي في الحياة الاقتصادية . وظهرت النظرية الاقتصادية كمحاولة لبيان أفضل الطرق للاختيار بين الامكانيات المتاحة ، ومن Problem of Choice . وظهرت فكرة الرشادة الاقتصادية Economic Rationality ومن ذلك كله نجد أن الحساب والتفضيل بين مختلف الامكانيات المتاحة أصبح امراً ضرورياً . فملفتنا

النظرية الاقتصادية سلوك المستهلك الرشيد وكيف يحاول أن يستخدم دخله المحدود للحصول على أكبر قدر ممكن من الاشباع باختيار السلع التي تحقق له ذلك وتحدد الكميات المناسبة من كل منها . كذلك على المستهلك أن يختار بين الاستهلاك الحالي وبين الاستهلاك المستقبلي (الادخار) مراعيًا في ذلك - قدر الامكان - تحقيق أكبر قدر من الاشباع . ونفس الامر نجده عند المنتج ، وربما بشكل أوضح ، فنظرية المشروع تبين لنا كيف يستطيع المنتج أن يتخذ قراراته المتعلقة بالانتاج لتحقيق أكبر قدر ممكن من الربح ، أو أقل خسارة ، هناك اختيار المنتج لوسيلة الانتاج المناسبة ، اذ أن انتاج السلعة مع تقدم الفن التكنولوجي قد أصبح ممكنًا بعدة وسائل . ثم عليه أن يختار الكمية المناسبة التي يمكن أن ينتجها . وهو أيضا يتخذ قرارات متعلقة بالمستقبل فيما يتعلق بالاستثمارات والاختيار بين وجوه الاستثمارات الممكنة . وفي كل ذلك نجد أن الحساب الاقتصادي قد أصبح جزءًا من حياة المجتمع ، ولم تعد المادة والتقاليد كافيين للاستمرار في الانتاج ، بل ربما أصبح الخروج على هذه العادات والتقاليد هو ما يكفل التقدم المستمر . ومن هنا نستطيع أن نفهم كيف أن كثيرين من الاقتصاديين يعرفون المنظم ودوره في الحياة الاقتصادية بأنه ذلك الفرد القادر على التجديد والابتكار Innovation (١) في مجال الانتاج والفن الانتاجي .

وسوف نرى أن هذا الحساب الاقتصادي قد اتسع نطاقه بحيث يكاد يشمل الاقتصاد في مجموعه في شكل سياسات اقتصادية اجمالية تتدخل بها الدول لتحقيق أهدافها الاقتصادية ، وفي شكل خطط اقتصادية تضعها بوجه خاص المجتمعات الصناعية الاشتراكية . وسوف نشير الى أن هناك نوعًا من التقارب في هذا الحساب الاقتصادي الاجمالي .

الثورة الصناعية نشأت كما سبق أن رأينا مع انزاسمالية التجارية ، وتطورت مع الرأسمالية الصناعية حتى أوائل القرن العشرين . ومنذ ثورة ١٩١٧ الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي ونحن نعاين اتجاهًا جديدًا للمجتمع الصناعي في الدول الاشتراكية ، ولذلك يمكن القول بأن للحساب الاقتصادي للمجتمعات الصناعية الآن صورتين الآن : الصورة الرأسمالية والصورة الاشتراكية . وليس الغرض مما سنعرضه الآن هو اجمال الفروق بين النظامين ، ولكن التركيز بوجه خاص على اوجه الشبه المتعلقة بطبيعة المجتمع الصناعي وبخاصة فيما يتعلق هنا بالحساب الاقتصادي

كانت النظرية السائدة - وربما كان الواقع في القرن التاسع عشر - تعتبر المنافسة الكاملة هي الصورة الطبيعية للمجتمع الصناعي ، وقد علمت جميع كتب مبادئ الاقتصاد أن المنافسة الكاملة تتميز بعدة خصائص تجعل من كل فرد (مستهلكًا كان أم منتجًا) ذرة في محيط ، غير قادر على التأثير في الألمان السائدة في السوق ومن ثم في قرارات غيره من الأفراد . ويحدث التأثير نتيجة لجموع أفعال هؤلاء الأفراد مجتمعين . ولذلك فإن ادارة الاقتصاد القومي تتم وفقًا لما يمكن أن يسمى « باللامركزية الاقتصادية » حيث لا توجد سلطة أو فرد قادر على التأثير وحده على الأوضاع الاقتصادية . فالمنافسة الكاملة كما تعرض في كتب مبادئ الاقتصاد تفترض وجود عدد كبير من المستهلكين وعدد كبير من المنتجين وبحيث أن كل مستهلك أو منتج على حدة ليس له أي وزن على السوق في مجموعه . فإذا قرر المستهلك أو المنتج زيادة أو نقصان استهلاكه أو انتاجه فإن السوق ان تشعر بهذا الأثر ، وينتج التأثير فقط من مجموع أفعال المستهلكين والمنتجين . ولذلك

(1) F. J. Schumpeter, The Theory of Economic Development, Harvard University Press, 1949.

وصف بعض الاقتصاديين^(١) حالة الاقتصاد في هذه الصورة بأنها تتضمن ذرية 'atOMICité' للاقتصاد ، بمعنى أنه يتكون من ذرات صغيرة . ويضيف الاقتصاديون عادة بعض الشروط الفنية التي تضمن بواقر المنافسة الكاملة وعدم استطاعة أى فرد منفرد التأثير على السوق ، مثل توافر العلم بأحوال السوق ، والتجانس التام للسلعة وعدم وجود عقبات أمام الصناعة -وهي شروط الفرض منها الحيلولة دون تمكن أى فرد من التأثير على الاقتصاد .

وفي مثل هذه الظروف فإن الإدارة الاقتصادية للموارد تتم نتيجة لمجموع قرارات الأفراد كما سبق أن أشرنا وبذلك تعتبر مظهرا من مظاهر اللامركزية الاقتصادية . فالمستهلك مزودا بمعرفة عن حاجاته الشخصية وترتيب أفضاليته ودخله ، ينزل إلى السوق ويطلب كميات مختلفة من السلع إذا سادت أثمان مختلفة لها . ومن مجموع طلبات المستهلكين الفردية يتحدد الطلب الكلي . وبالمثل فإن كل منتج مزودا بمعرفة عن إمكانياته الفنية وبمغيبته في الحصول على أقصى ربح ممكن ينزل إلى السوق ويعرض كميات مختلفة من السلعة إذا سادت أثمان مختلفة لها . ومن مجموع عرض المنتجين يتكون العرض الكلي ويسود الثمن في السوق الذي يسوى بين هذا العرض الكلي والطلب الكلي . وهكذا نرى أن إدارة الموارد الاقتصادية وتوزيعها قد تمت دون تدخل إرادة مركزية واعية ، وإنما نتيجة لمجموع الإرادات الفردية . وقد رأى آدم سميث أن هذا الوضع يحقق المصلحة العامة نتيجة سعى الأفراد لتحقيق مصالحهم الفردية الخاصة وكان هناك بدا خفية Invisible Hand تحقق هذا التوافق .

وقد كان من الطبيعي في مثل هذه الظروف أن تكون السياسة الاقتصادية المثلى للحكومات هي الامتناع بقدر الإمكان من التدخل في الحياة الاقتصادية وترك هذه الأمور للأفراد طالما أن الصالح الخاص قادر على تحقيق المصلحة العامة بأحسن الطرق . ولكن هذه الأوضاع لم تستمر طويلا ذلك أن تطورا هاما قد لحق بالمجتمعات الصناعية ، بحيث أصبحت السياسة الاقتصادية للدولة ضرورة لا يمكن التجاوز عنها لتمكين هذه المجتمعات من استمرار نموها دون عقبات شديدة . وبذلك امتد مجال الحساب الاقتصادي من الوحدات الاقتصادية المنفردة إلى حساب إجمالي يتضمن الاقتصاد القومي في مجموعه ، وبحيث تتخذ السياسات المالية لتتواءم المستقبل بالنسبة للاقتصاد القومي في مجموعه . وبطبيعة الأحوال فإن هذه الصورة من التدخل الاقتصادي الشامل في الحياة الاقتصادية تجد أكمل تطبيق لها في الدول الاشتراكية ، حيث تضع الدولة خطة عامة للاقتصاد القومي . ولكننا سوف نشير إلى أن تطورا مقابلا ، وإن كان بدرجة أقل طبعا ، قد لحق بالدول الصناعية الرأسمالية حيث أصبح التدخل ضروريا ، وحيث لم تعد سياسة الحرية الاقتصادية مقبولة على إطلاقها .

إن المنافسة الكاملة كما صورتها النظرية الاقتصادية لم تخرج من حيز هذه النظرية وقاعات البحث في القرن العشرين ، أما الواقع فقد عرف صورا أخرى للأسواق بعيدة عن هذا الوضع . ولذلك فإن نتائج هذه النظرية في ضرورة الاعتماد على الحرية الاقتصادية لم تعد صالحة تماما . وسوف نتعرض فيما بعد لتطوور هذه الأسواق ، على أن ما يعيننا الآن هو أن سياسة عدم التدخل قد قبرت تماما مع الفلك الأول

(١) انظر على سبيل المثال

J. Marchal, Cours D ' Economie Politique, Librairie de Médicis, 2 em édition, Paris 1957

لهذا القرن . فالأزمة العالمية الشهيرة في الثلاثينيات قد أثبتت عمق السياسات الاقتصادية القائمة على الاعتماد على الأفراد وحدهم دون تدخل الدولة . وجاءت أفكار كينز (١) في ذلك الوقت لتبين أن الائمان والثقتان تمتنع بشيء كبير من الجمود ، ولذلك فإنه لا يمكن الاعتماد على تغيراتها وحدها لإعادة التوازن . وقد نشأت في ذلك الوقت حالة من البطالة الضخمة بشكل لم يسبق له مثيل ، ولم تنجح أية سياسات للأجور للقضاء عليها . وأوضح كينز أن الأمر متعلق في الواقع بعدم كفاية الطلب الفعلي في الاقتصاد ، مما أدى إلى انخفاض الدخل القومي وتحقيق توازن للاقتصاد عند مستوى منخفض من العمالة ، مما أدى إلى ظهور هذه البطالة . ولذلك فإن تدخل السلطات العامة بالقيام بسياسات انفاقية ، الفرض منها زيادة القوة الشرائية والطلب الفعلي هو الإجراء الوحيد القادر على زيادة الدخل القومي إلى مستوى يسمح بالتصاص هذه البطالة . وبالفعل فإن الدول التي استطاعت أن تخفف من حدة البطالة في ذلك الوقت هي الدول التي اتبعت عمدا أو بصدف سياسة انفاق تدخلية ، الفرض منها زيادة القوة الشرائية في يد الأفراد . وقد حدث ذلك في ألمانيا النازية مع سياسة التسليح والانفاق لشاخت ، كما حدث أمر مشابه في الولايات المتحدة الأمريكية مع سياسة الانعاش الاقتصادي للرئيس روزفلت .

ومنذ كتابات كينز قبل الحرب العالمية الثانية اتضح أن المجتمع الصناعي قد وصل إلى مرحلة تستدعي التدخل المستمر من الدولة في الحياة الاقتصادية بفرض تحقيق الاستقرار الاقتصادي والقضاء على البطالة . وقد ذهب بعض الاقتصاديين (٢) إلى القول بأن هناك ركودا طويلا الذي لا يمكن التخلص منه دون سياسة اقتصادية تدخلية مستمرة لحماية الطلب الفعلي عند المستوى المطلوب .

وبعد الحرب العالمية الثانية استكملت أفكار كينز من ناحيتين . فمن ناحية ظهرت مشاكل التضخم وارتفاع الأسعار ، ولم يعد تدخل الدولة لازما فقط لتوفير طلب فعلي كاف عند ظهور البطالة ، وإنما ظهرت مشاكل زيادة هذا الطلب الفعلي ، وضرورة العمل على ضغطه عند ظهور التضخم . وبذلك وجب تدخل الدولة لتحقيق الاستقرار الاقتصادي دون بطالة ودون تضخم مبالغ فيه .

كذلك ظهرت أهمية السياسة الاقتصادية في المدة المتوسطة والطويلة ، وليس فقط في المدة القصيرة . فلم تعد السياسة الاقتصادية للدولة تقتصر على تحقيق الاستقرار الاقتصادي في المدة القصيرة وإنما ظهرت مشاكل النمو الاقتصادي في المدة المتوسطة والطويلة . وقد ارتبط ذلك في أول الأمر بمشاكل إعادة تعمير دول أوروبا ، ثم أصبح جزءا من السياسات الاقتصادية العمل على توفير قدر معقول من النمو الاقتصادي . وأصبح من المعتاد بعد ذلك أن نرى خططا اقتصادية في فرنسا وهولندا وإنجلترا وغيرها من الدول الصناعية المتقدمة .

وفي نفس الوقت الذي ظهرت فيه الحاجة إلى ضرورة التدخل الاقتصادي في المجتمعات الصناعية المتقدمة وضرورة وضع سياسات اقتصادية إجمالية ، نجد أن الدول الصناعية التي تتبع الأسلوب الاشتراكي وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي قد تبنت منذ ١٩٢٩ الخط الخمسية للاقتصاد القومي . وهذه الخطط تتضمن تحديدا للأهداف التي ينبغي للاقتصاد الوصول إليها

(١) CF. J. M. Keynes, *The General Theory of Employment, Interest and Money*, Macmillan, London, 1936,

(٢) CF. A. Hansen, *Monetary Theory and Fiscal Policy*, McGraw-Hill, 1949.

وبيان الوسائل الكفيلة بتحقيقها ، وغنى عن البيان أن الخطة تعتبر الصورة الأساسية لتطبيق الحساب الاقتصادي الإجمالي على نطاق الدولة .

وبطبيعة الحال ليس من السهل القول بأن التخطيط الاشتراكي (١) والسياسات الاقتصادية الاجمالية للدول الرأسمالية نتيجة لأفكار كينز ومن بعده - ليس من السهل القول بأنهما متشابهان فأوجه الخلاف كثيرة ومتنوعة . ولكن ما أردنا أن نوجه النظر اليه هنا هو أن الحساب الاقتصادي قد اتسع نطاقه في المجتمعات الصناعية ، ولم يعد قاصراً على الفرد ، وإنما جاوز ذلك إلى الحساب الاجمالي للاقتصاد في مجموعه ، وأن كانت درجة هذا التدخل ومداه تختلف بسبب طبيعة النظام الاجمالي انقاله . وبالرغم من الفروق الضخمة بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي ، فإننا نلمح الآن اتجاهاً لتخفيف هذه الفروق ، كما سيتضح عندما نعرض للعلاقة بين التخطيط والسوق من المجتمعات الصناعية .

اهمية المشروع الصناعي الكبير :

نشأ المشروع الصناعي كوحدة للإنتاج مع نشأة النظام الرأسمالي وتطور معه ، والواقع أن نشأة هذا المشروع لم تظهر فجأة وإنما نتيجة لتطور طويل من الصناعات المنزلية إلى الصناعات اليدوية ، حتى أخذ شكله الحالي . وقد أحدث هذا التطور في وحدة الإنتاج الأساسية آثاراً بعيدة على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة ، فمن ناحية انفصل العمل عن الأسرة ، مما كان له أبعاد الآثار في طبيعة العلاقات الاجتماعية . كما أدى تركيز عدد هائل من العمال في مكان واحد وفي ظروف متشابهة إلى نشوء الوعي الطبقي بين العمال كما كان له آثار أيضاً على ظروف الحياة في المدن الصناعية المكتظة بالسكان وغير ذلك كثير .

على أن المشروع الصناعي لم يعد مظهراً من مظاهر النظام الرأسمالي وحده ، بل جاوز ذلك ليصبح وحدة الإنتاج الرئيسية في ظل المجتمعات الصناعية الحديثة . فاندول التي أخذت بالنظام الاشتراكي - وهي تضع نصب أعينها تحقيق أكبر معدل للنمو الاقتصادي على ما سنرى - قد وجهت أكبر الاهتمام إلى الصناعة وبوجه خاص الصناعات الثقيلة - حتى كاد البعض يتصور أن أسلوب النمو الاشتراكي يختلف عن أسلوب النمو الرأسمالي في الاهتمام الزائد بالصناعات الثقيلة . (وأياً ما كان الأمر فإن الخلاف بين تحقيق التنمية عن طريق الصناعات الثقيلة أو عن طريق الصناعات الخفيفة لم تعد الآن مشكلة مذهبية بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي) والصناعات الثقيلة تحتاج أكثر من غيرها إلى تراكم رأس المال وإلى التقدم الإنتاجي . ولذلك فإن أهمية المشروعات الصناعية الكبرى لم تقل في النظام الاشتراكي عنها في النظام الرأسمالي . ونريد أن نلقي نظرة على طبيعة هذه المشروعات الصناعية والتطور الذي لحقها وأثر ذلك على تحديد خصائص المجتمع التكنولوجي الحديث إيا كان نظامه الاقتصادي .

هناك أولاً ظاهرة أساسية وهي اتجاه المشروعات الصناعية نحو التركيز . وقد تنبأ ماركس في القرن الماضي بأن طبيعة النظام الرأسمالي تؤدي بالضرورة إلى تركيز المشروعات الصناعية في عدد قليل من الاحتكارات الكبرى ، وقد رأى في ذلك ما يساعد على زيادة التناقضات في هذا النظام . إذ أنه يؤدي إلى زيادة عدد الطبقة العاملة وإلى القضاء على أصحاب الحرف والمشروعات الصغيرة مما سيؤدي إلى تفاقم التناقض الطبقي . كما رأى أنه من ناحية أخرى فإن هذا التركيز سيؤدي إلى انخفاض معدل الأرباح ومن ثم اتجاه النظام الرأسمالي إلى مرحلة من الركود .

(١) انظر - أحمد جامع ، الاقتصاد الاشتراكي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

وقد صحت نبوءة ماركس فيما يتعلق باتجاه النظام الرأسمالي الى التركز ، ولكن بقية الآثار لم تتحقق ، او على الأقل لم تتحقق على النحو الذى ذكره ماركس . كما لوحظ أن الاتجاه نحو التركز في المشروعات الصناعية الكبرى ليس ظاهرة خاصة بالنظام الرأسمالي وحده ، وإنما هو ظاهرة عامة في كافة المجتمعات الصناعية المتقدمة ، سواء اكانت اشتراكية ام رأسمالية . والواقع ان التنبؤ بان النظام الرأسمالي سوف يتجه بالضرورة الى حالة من الركود Stationary State ينخفض فيها معدل الارباح بحيث لا تقوم أية استثمارات جديدة ولا تحقق أى نوع من التقدم الاقتصادي - الواقع أن هذا النوع من التفكير لم يبتدعه ماركس كلية ، وإنما كان قاسما مشتركا بين جميع الاقتصاديين الانجليز في القرن التاسع عشر ، مما ادى الى تسميتهم بالمدرسة التشاؤمية . هؤلاء جميعا كانوا يعتقدون في صحة آراء مالتس في السكان ، وخاصة قوله بأن عدد السكان يزيد بنسبة اكبر من زيادة الموارد الزراعية ، وقد كان هؤلاء الاقتصاديون - وبوجه خاص ريكاردو الذى اثر في جميع اجيال الاقتصاديين اللاحقين - فسحة المبالغة في خطورة ظاهرة تناقص الفلة في الزراعة . فالجتمتع الرأسمالي مندهم سيستمر في النمو مع زيادة تراكم رأس المال ، ولكن هذا التراكم لن يستمر الى النهاية نظرا لان ظاهرة تناقص الفلة من شأنها ان تؤدي الى انخفاض معدل الارباح باستمرار وبذلك تصل الى مرحلة الركود التى يتعذر فيها تراكم رأس المال لانخفاض معدل الارباح وحيث يحصل الأفراد على اجور تكفي لحد الكفاف . وقد اخذ ماركس هذه الصورة مع تعديل في أسباب الركود كنتيجة لترك المشروعات وارتباطها بما يسمى بزيادة الكثافة العضوية لرأس المال الثابت . فعند ماركس ينقسم رأس المال الى متغير وثابت . ورأس المال المتغير يقابل ، بوجه عام ، ما يخصص لاجور العمال هو وحده القادر على خلق فائض القيمة . ورأس المال الثابت هو ما يقابل ، بصفة عامة ، ما يخصص للمواد الأولية والآلات وغير ذلك (وهذا التعريف يقابل تعريف رأس المال الثابت والمتداول في الاصطلاح الحديث) . ويرى ماركس أن هناك اتجاهًا عامًا نحو زيادة نسبة رأس المال الثابت الى رأس المال المتغير ، ونظرا لان فائض القيمة ينتج من رأس المال المتغير وحده فان معدل الارباح سيتجه بالضرورة الى الانخفاض مما سيؤدي الى حالة الركود المتقدمة .

والحقيقة أن النبوءات المتشائمة بالنسبة الى ترك المشروعات الصناعية قد أهملت علاقة هذا التركز بزيادة الكفاءة الانتاجية ، وما يستتبعه الفن الانتاجي الحديث من ضرورة تركيز المشروعات في عدد محدود من المشروعات الكبرى . فترك المشروعات ليس سببه الوحيد طبيعة النظام الرأسمالي ، وإنما هو ضرورة فنية يقتضيها الانتاج في المجتمع التكنولوجي الحديث وتطلبها خصائص هذه التكنولوجيا الحديثة .

وأهم ما يميز التكنولوجيا الحديثة هو حاجتها الى مشروعات كبيرة نسبيا وأحيانا كبيرة جدا ، وذلك حتى يمكن استنفاد جميع الزايات الفنية . وقد تحدث الاقتصاديون منذ زمن بعيد عما أسموه بمزايا الانتاج الكبير Economies of Scale أو مزايا الحجم الكبير . فزيادة حجم المشروع تؤدي الى زيادة في الانتاج اكبر من الزيادة النسبية في عناصر الانتاج المستخدمة ، فمضاعفة حجم المشروع يؤدي الى زيادة في الانتاج اكبر من الضعف . والسبب في ذلك هو أن المشروع الكبير يستطيع الافادة من مزايا لا تقل بذاتها الانقسام ، ومن ثم يحرم منها المشروع الصغير . وهذه المزايا عديدة ، مزايا في الادارة ، مزايا في الفن الانتاجي باستخدام نوع من الآلات أو من الطاقة الذى لا يقبل التجزئة ، مزايا في الحصول على أنواع من العمل الماهر ،

إمكانات أكبر في دراسة حاجات السوق .. الخ. وقد أطالت كتب مبادئ الاقتصاد في تعداد هذه المزايا وأنواعها . على أنه يبدو أن العامل الخامس في العصر الحديث بالنسبة للمشروعات الصناعية الكبرى هو « الأبحاث » وهذه الأبحاث تتطلب في العصر الحديث إمكانيات مالية ضخمة لا يمكن أن تتوفر للمشروعات الصغيرة . ولذلك يكاد يكون التقدم التكنولوجي الضخم محدودا بالصناعات التي يتركز فيها الإنتاج . ولكن تتضح هذه الصورة بشكل أكبر فسوف نشير إلى المقصود بعدم القابلية للانقسام والتجزئة وأن ذلك على مزايا الإنتاج الكبير ، ثم نرى مدى إمكان تجزئة الأبحاث حتى تغيد منها المشروعات الصغيرة .

حققت العلوم الطبيعية تقدما هائلا لادخال فكرة النهاي في الصفر *infinitesimal* وما ترتب عليها من دراسة معدل التغير الذي يلحق أحد المتغيرات نتيجة لتغير مثناه في الصفر لتغير آخر . وقد أدت هذه الأفكار بليينز ونيوتن في القرن السابع عشر إلى اكتشاف قواعد التحليل الرياضي (التفاضل والتكامل) وما ترتب على ذلك من نتائج هامة في جميع العلوم الطبيعية التي لا تزال تجني ثمارها حتى الآن في مجال التطبيق . وهذه الفكرة تفترض القابلية للانقسام والتجزئة بما يسمح بأخذ تغير صغير جدا (مثناه في الصفر حتى يقترب من الصفر) .

هذه الفكرة نفسها عرفها الاقتصاد متأخرا قرنين من الزمان عندما قام ثلاثة من الاقتصاديين منفردين وفي أماكن مختلفة ، بتقديم أساس التحليل الحدي *Marginal analysis* (كارل منجر في النمسا ، ليون فالراس في سويسرا ، ستانلي جيفونز في إنجلترا) حوالي ١٨٧٠ . وتقوم هذه النظرية الحديثة على دراسة ماذا يحدث في أحد المتغيرات إذا حدث تغير طفيف جدا في أحد المتغيرات الأخرى (يكاد يقترب من الصفر) . ومن الواضح أن صلة القرابة قوية بين هذا التحليل الحدي في الاقتصاد والتحليل الرياضي في العلوم الطبيعية . وقد قدم هذا التحليل الحدي نتائج باهرة في الاقتصاد إلى جانب أنه ساعد على إثارة عرض النظريات الاقتصادية . ولكن هذا التحليل الحدي يفترض أيضا القابلية للتجزئة والانقسام ، أو بعبارة أكثر فنية يفترض أن دوال الاقتصاد دوال مستمرة *Continuous Functions* . والحقيقة أن الاقتصاد يعرف كثيرا من الحالات التي لا يصدق فيها ذلك ، وحيث يكون الأصل انقطاع وعدم اتصال هذا الدوال *Discontinuity* . وليبان فكرة الاستمرار والانقطاع في مجال الفن الإنتاجي — وهو الذي يهنا هنا — بأمثلة توضح هذه التفرقة تشير إلى أن النظرية الحديثة في الاقتصاد تفترض أن دوال الفن الإنتاجي *Production Functions* مستمرة . ومعنى ذلك أنه إذا كان هناك فن إنتاجي معين لإنتاج سلعة معينة وأن هذا الفن الإنتاجي يستخدم نسبة معينة من العمل من نوع معين ومن رأس مال من نوع معين ، فإنه يمكن دائما افتراض حدوث تغيرات متناهية في الصفر في كل من هذا العمل ومن الرأسمال ، ومعنى ذلك أن هذا العمل وهذا الرأسمال قابل للانقسام والتجزئة إلى أي درجة نريد . وعلى ذلك فإذا كان هناك مصنع صغير جدا فإنه يستطيع أن يزيد من هذا الفن الإنتاجي بحصوله على قدر صغير جدا من هذا العمل وقدر صغير من هذا الرأسمال ، ولا خطورة لأننا نفترض القابلية للانقسام .

أما القول بأن دوال الإنتاج غير مستمرة ، فمعنى ذلك أنه إذا كان هناك فن إنتاجي معين لإنتاج سلعة معينة ، وأن هذا الفن الإنتاجي يستخدم نسبة معينة من العمل من نوع معين ومن رأس المال من نوع معين ، فإنه لا يمكن افتراض تجزئة هذا العمل أو هذا الرأسمال كما نريد ، وإنما هناك حدود لا مكان أحداث هذه التجزئة . فقد تكون الآلة التي تتضمن نوعا معينًا من الكفاءة الإنتاجية بحجم معين لا يمكن تجزئتها بالحصول على نفس النوع من الآلة بحجم أصغر، ولعل من أبرز الأمثلة على عدم إمكان التجزئة : الطاقة اللدوية . فمن المعروف أن الطاقة اللدوية

تولد طاقة كبيرة جدا ، وحيثما تكون بحاجة الى هذه الطاقة الضخمة فانها تكون أرخص من غيرها من أنواع الطاقة الأخرى . ولكن هذه الطاقة الذرية لا تنتج الا بأحجام ضخمة بحيث لا يمكن استخدامها الا في مشروعات ضخمة جدا . فهي لا تقبل التجزئة . فهذه الطاقة قد تكون أرخص من البترول بالنسبة لمشروعات ضخمة جدا مثل إزالة بعض الجبال وتمهيد الأرض أو إنشاء سفينة تدور حول الأرض عدة مرات ، ولكن لن يأتى اليوم - على الأقل في حدود العقول - الذى تستخدم فيه هذه الطاقة لاشعال ولاعة للسجائر . والسبب في ذلك هو أن الطاقة الذرية غير قابلة للتجزئة في جميع الأحوال .

وهكذا نرى أن عدم القابلية للتجزئة والانقسام هو السبب في مزايا الانتاج الكبير الذى يمكن من الافادة من عناصر لا تقبل بطبيعتها التجزئة ومن ثم تحرم منها المشروعات الصغيرة .

وقد سبق أن اشرنا الى أن العناصر التى لا تقبل التجزئة والانقسام كثيرة ، ولكن لعل أهمها فى العصر الحديث هو في مجال البحث . وهذا السبب هو ما يفسر تفوق المشروعات الكبرى على المشروعات الصغيرة . وهو أيضا يفسر الى حد بعيد المزايا التى تحققها الدول الكبرى بالنسبة للدول الصغيرة بالنظر الى تمتعها بمزايا الانتاج الكبير في مجال الأبحاث .

لعل أهم ما يميز البحث العلمي في العصر الحديث ، على ما سنشير اليه ، أن التقدم العلمى لم يعد نتيجة عمل فرد مبدعى بقدر ما هو نتيجة لعمل مجموعة كبيرة من الباحثين في فروع مختلفة ومتكاملة ، وبحيث يتوافر لهم امكانيات مالية ومعملية ضخمة تمكنهم من اجراء البحوث والتجارب . وهكذا نجد أن البحث هو من أهم المجالات التى تظهر فيها مزايا الانتاج الكبير . فحيثما تتوافر الامكانيات المالية والمعملية يمكن دائما تحقيق نتائج أفضل .

والمشروعات الكبرى في العصر الحديث لم تعد مجرد وحدات للانتاج ، ولكنها أيضا وحدات للبحث العلمي . وتركز الصناعة يساعد الى حديده على زيادة الامكانيات المخصصة للبحث في الصناعة . ولذلك نجد أن البحث العلمى لا يقتصر في الدول الصناعية المتقدمة على الجامعات بل تشارك فيه أيضا الصناعات الكبرى بنصيب كبير . وهذا الامر واضح بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية . كذلك تقدم الصناعات الكبرى المنح المالية والعقود الى الجامعات للقيام بأبحاث مشتركة ، كما قد تقوم بعض هذه الصناعات برعاية مراكز الأبحاث وبعض الجامعات كما حدث أخيراً بالنسبة للجامعات الاقليمية الحديثة في إنجلترا . وعلى ذلك فإن المشروعات الكبرى تحقق مزايا ضخمة لا تملكها المشروعات الصغيرة في مقدمتها الأبحاث .

وهكذا نستطيع أن نفهم لماذا حققت معظم الدول الصناعية الكبرى معدلات كبيرة من النمو في ظل الصناعات المركزة ، في حين أن النظرية الاقتصادية كانت تدعى أن المنافسة الكاملة وحدها هي الكفيلة بتحقيق التقدم الاقتصادي ، وأن أى مظهر من مظاهر الاحتكار (التركيز باخذ غالباً شكل المنافسة الاحتكارية بين عدد قليل من المشروعات) من شأنه الاضرار بالكفاءة الاقتصادية . ولعل السبب في هذا الموقف من النظرية الاقتصادية « التقليدية » هو أنها كانت تفترض دائماً الرابلية المطلقة للانقسام لجميع العناصر ، وأن المنافسة من شأنها تحقيق الانتاج عند أقل تكلفة (التكلفة الحدية تساوى مع التكلفة المتوسطة وتعادل الثمن^(١)) . وهذه النظرية تعمل لتأجيل التقدم العلمى المتحقق عن طريق الأبحاث والافادة من مزايا الانتاج الكبير الناجم عن تركيز المشروعات الصناعية . (٢)

(١) انظر في ذلك كتب مبادئ الاقتصاد على سبيل المثال ، أحمد أبو اسماعيل ، أصول الاقتصاد ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٦ .

Cf. K. Galbraith, American Capitalism, Boston, Houghton, 1956

(٢)

وتركز المشروعات الصناعية ليس ظاهرة قاصرة على الدول الرأسمالية ، بل هو ظاهرة فنية نجدها أيضا في الدول الاشتراكية الصناعية المتقدمة ، لان ظاهرة عدم الانقسام والتجزئة بالنسبة لكثير من عناصر الانتاج انما هي من الامور الفنية والتي ترتبط بطبيعة التقدم التكنولوجي بصرف النظر عن شكل الملكية القانونية لعناصر الانتاج . واذا كان من الممكن في الدول الاشتراكية تركيز الابحاث في مؤسسات ومعاهد قومية بحيث تؤدي خدماتها للمشروعات الكبيرة والصغيرة على السواء الا انه من الواضح ان المشروعات الكبرى ستكون اقدر على الافادة من هذه الابحاث لتنوع مشاكلها ولوجود عناصر عالية الكفاءة في ادارتها تمكنها من توجيه الابحاث لصالحها وذلك بعكس المشروعات الصغيرة التي ليس لديها المشاكل ولا القدرة الفنية اللازمة للافادة من هذه الابحاث وللآثار على توجيهها .

لكذلك فان جميع اسباب مزايا الانتاج الكبير الاخرى الراجعة الى عدم انقسام العناصر الاخرى كالفن الانتاجي الحديث ، وبعض انواع الطاقة والادارة العالية ، ودراسة الاسواق . الخ . تتوافر بصرف النظر عن النظام الاقتصادي ، واسماليا كان او اشتراكيا .

على انه ينبغي ان يلاحظ ان التقدم الفني والذي ادى الى تركيز الصناعات لم يكن متماثلا في جميع الصناعات من ناحية ، وان التركيز في الصناعات الاساسية قد اصطحب من ناحية اخرى ، بمزيد من الارتباط والتبعية بين قطاعات الاقتصاد . وقد ترتب على ذلك ان نشأ نوع من الارتباط والتبعية بين قطاعات الانتاج ، وقد تطورت فكرة الارتباط بين قطاعات الانتاج في انظرية الاقتصادية .

فقد بدأ منذ نهاية اقرن التاسع عشر الاتجاه نحو النظر الى الاقتصاد القومي باعتباره كلا مترابطا لا يمكن فصل اجزائه ودراستها دراسة منفصلة ، فكل جزء يتوقف على ما يتم في الاجزاء الاخرى . وقد ظهر ذلك بوجه خاص في أعمال فالراس في نظريته في التوازن الشامل General equilibrium (1) ويمقتضى هذه النظرية فان تحديد التوازن في سوق سلعة معينة لا يتوقف على ظروف هذه السوق وحدها ، وانما يتوقف ايضا على ائمان جميع السلع الاخرى ، ومن ثم فانه لا يمكن تحديد ثمن التوازن في كل سوق منفصلة كما تنجيه نظرية التوازن الجزئي Partial equilibrium وبعبارة اخرى اذا كان التوازن يتحقق عندما يسود الثمن الذي يسوى بين الكمية المطلوبة والكمية المعروضة من السلعة ، واذا كانت الكمية المطلوبة بدورها تتوقف على الثمن (اي انها دالة للثمن) وبالمثل يتوقف الكمية المعروضة على الثمن (اي انها دالة للثمن) ، فان التجديد الذي اتي به فالراس هو انه ذكر ان دالة الطلب على السلعة لا تتوقف على ثمن هذه السلعة فقط وانما ايضا على ائمان السلع الاخرى . وبذلك لا تكون بصدد دالتين للعرض والطلب ومتغير واحد هو ائتمان للسلعة محل الدراسة ، وانما يكون هناك عدد كبير من المتغيرات بعدد ائتمان السلع الاخرى . ومعنى ذلك اننا تكون بصدد نظام كامل للتوازن ينهي حله مرة واحدة بايجاد حل آتي للنظام من المعادلات الآتية Simultaneous equations لطلب وعرض جميع السلع ، وكل منها تتوقف على متغيرات عديدة هي ائتمان السلع الاخرى . ويمكن حل هذا النظام دفعة واحدة لاننا تكون بصدد عدد من المعادلات مساو للمتغيرات . واهمية هذا النوع من التفكير هو انه بين الترابط بين اجزاء الاقتصاد .

ويستند هذا الترابط في الاقتصاد الى الترابط في الطلب في العرض . فمن ناحية يرتبط

(1) Elements d'Economie Politique Pure, gedition, Paris, 1958.

الطلب على سلعة معينة ليس فقط بشئها وإنما بأثمان السلع الأخرى المنافسة والمكملة لها . وبالمثل فإن عرض السلعة لا يتوقف على ثمنها فقط وإنما على أثمان عناصر الانتاج الأخرى وبحسب درجة الإحلال بين هذه العناصر .

وقد ظلت فكرة الترابط في أجزاء الاقتصاد أو تحليل التوازن الشامل مسألة نظرية هامة بين المفكرين ، ولكنها لم تلق العناية الكافية من حيث اثرها على فهم التطور الواقعي وعلى السياسة الاقتصادية حتى أخرج الاقتصادى الأمريكى - الروسي الأصل ليونتييف دراسته من جداول المنتج - المستخدم للولايات المتحدة الأمريكية (١) . وتعتمد دراسة المنتج - المستخدم input-output على الترابط بين أجزاء الاقتصاد كما تظهر في الترابط الفنى للانتاج . فالانتاج في كل صناعة يعتمد على استخدام مواد أولية ونصف مصنوعة منتجة في صناعات أخرى ، وهكذا تقوم سلسلة من العلاقات المتداخلة بين الصناعات المختلفة قبل ظهور الناتج النهائي في سوق الاستهلاك والاستثمار والصادرات . وهذا الترابط أو التداخل بين الصناعات المختلفة هو الذى يجعل كل صناعة حلقة في سلسلة طويلة من العمليات الانتاجية ومن ثم فإنه لا يمكن دراسة توازن صناعة واحدة مستقلة عن شروط التوازن في الاقتصاد الكلى . ومن الواضح ان هذا المظهر من مظاهر الترابط هو تطبيق مباشر لأفكار فالراس في الترابط من ناحية العرض .

وقد اظهرت دراسات المنتج - المستخدم فائدة هامة لمعرفة سلوك الاقتصاد في الدول المقدمة . فقد كان الغرض من دراسة ليونتييف إبراز أهمية الطلب غير المباشر الناتج عن الترابط الصناعي الى جانب الطلب المباشر الناجم عن السوق النهائية (الاستهلاك ، والاستثمار والصادرات) وظهر أنه في كثير من الاحوال يكون هذا الطلب غير المباشر من الأهمية بمكان بحيث ان اتخاذ قرارات دون مراعاته بشكل صريح يؤدي الى ظهور اختناقات في الاقتصاد .

ويتم تكوين جداول المنتج - المستخدم عن طريق تقسيم الاقتصاد الى قطاعات للصناعات المختلفة (الزراعة ، الصناعات الاستخراجية ، الصناعات الهندسية ، الصناعات الكهربائية ، النسيج ..) وتختلف درجة التقسيم باختلاف الحاجة الى التفصيل ، وتوضح الجداول بحيث تكون ذات مداخل مزدوجة Double entry بمعنى أن كل صناعة توضع مرة على الصف ، ومرة على العمود . وتقيد مبيعات كل صناعة في الصف المقابل لها للصناعات المشترية والباقي يباع في السوق النهائية، وبالمثل فإن مشتريات كل صناعة تقيد في العمود المخصص لها، وهى تشتري من الصناعات الأخرى، وبالإضافة الى ما تشتريه من سوق عناصر الانتاج . وهكذا نجد ان لدينا جدولين يبين عمليات البيع والشراء داخل الاقتصاد . وفي هذا الجدول نجد أن الجزء الخاص بمبيعات ومشتريات الصناعات مع بعضها هو الذى يهتم ببيان التداخل الصناعي بين القطاعات المختلفة . ونظرا لأن ليونتييف قد استخدم أسلوب المصفوفات الرياضية للتعبير عن هذه العلاقات ، فإن هذا الجزء الاساسي يطلق عليه عادة اسم مصفوفة التداخل الصناعي أو مصفوفة الطلب الوسيط . ويمكن أن نعبر عن ذلك بالجدول الآتي .

(1) W. Leontief, The Structure of American Economy, 1919-1939. Oxford University Press, New York. 1951.

مصفوفة الطلب الوسيط

المنتج المستخدم	صناعة (١)	صناعة (٢)	صناعة (٣)	صناعة (٤)	صناعة (٥)	السوق النهائية
صناعة (١)	س	س	س	س	س	ن
صناعة (٢)	س	س	س	س	س	ن
صناعة (٣)	س	س	س	س	س	ن
صناعة (٤)	س	س	س	س	س	ن
صناعة (٥)	س	س	س	س	س	ن
سوق	ل	ل	ل	ل	ل	س
عناصر الإنتاج	١	٢	٣	٤	٥	

الجدول الوسيط فقط هو الذي يبين مبيعات ومشتريات الصناعات فيما بينها ولذلك فإننا نضع في كل خانة الحرف س مع رقمين صغيرين للإشارة إلى أن هذه القيمة قد تم بيعها من القطاع صاحب الرقم الأول إلى القطاع صاحب الرقم الثاني ، وعلى ذلك مثلا فإن س ٣٢ تعني مبيعات القطاع الثاني إلى القطاع الثالث .

أما الجزء الخاص بالسوق النهائية فإنه يبين مبيعات كل قطاع إلى السوق النهائية . وكذلك فإن الجزء الخاص بسوق عناصر الإنتاج فإنه يبين مشتريات كل قطاع من عناصر الإنتاج .

ومن الواضح أنه كلما زاد الترابط الاقتصادي بين قطاعات الاقتصاد زادت المعاملات في جدول الطلب الوسيط. والملاحظ أنه كلما زاد التقدم الاقتصادي زادت المعاملات في هذا الجزء. وقد حاول بعض الاقتصاديين أن يستخدم هذا الأسلوب للدراسة اقتصاديات الدول المختلفة ، وكانت النتيجة أن جداول المنتج - المستخدم لهذه الدول كانت تتضمن كثيرا من الخانات الخالية في ذلك الجزء الأساسي من جدول المنتج - المستخدم وهو جدول الطلب الوسيط . (١) ومعنى ذلك أن الترابط الاقتصادي بين الصناعات المختلفة لا زال ضعيفا في مثل هذه الدول . وعلى ذلك فإنه مع زيادة التقدم والنمو الاقتصادي فإن الترابط بين القطاعات المختلفة يزداد تاردا

(١) Peacock, Dosser, *Input-Output in Underdeveloped Countries* Review of Economic Studies, Vol. 25, 1957, P. 21.

وتظهر أهمية هذا الترابط المتزايد بين قطاعات الاقتصاد في الدول المتقدمة في ضرورة التنسيق والرقابة على نشاط مختلف القطاعات فلا يمكن تركها دون رقابة ، لما يترتب على سلوكها من آثار بعيدة على مختلف أجزاء الاقتصاد الأخرى . ولعل هذا هو السبب الأساسي في الأزمة التي وقعت في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٦٢ بين الرئيس كينيدي وبين صناعات الصلب بصدد سياسة الأخيرة حول الألمان . فبالنظر إلى الترابط الاقتصادي الهام وإلى الآثار غير المباشر ، فإن رفع أسعار الصلب لن يقتصر على هذه الصناعة وحدها وإنما سوف يؤثر على جميع قطاعات الاقتصاد خلال التأثير في الطلب غير المباشر بين الصناعات المختلفة . ويظهر ذلك بوجه خاص إذا أخذنا في الاعتبار المظهر الثاني للترابط الاقتصادي بين الصناعات وهو عدم التماثل Assymetry وظهور صناعات مسيطرة بحسب وضعها أفني في سوق الانتاج .

الواقع أنه رغم أن التطور قد أدى إلى مزيد من الترابط والاندماج بين الصناعات المختلفة بحيث أصبحت كل صناعة تعتمد في إنتاجها على عدد متزايد من انتاج الصناعات الأخرى - بالرغم من ذلك فإن التطور بين الصناعات لم يكن متماثلاً . بل إن هنالك صناعات تتخذ مركزاً أساسياً في هيكل الانتاج بحيث تكاد تعتمد عليها الصناعات الأخرى بشكل أكثر من غيرها . وهذه الصناعات تحتل في الواقع مكانة هامة لأنها تتمتع إلى حد كبير بسلطة التأثير في الصناعات الأخرى بالنظر إلى هذا التطور الفني . ولعل مثال صناعة الصلب المتقدم يعبر عن هذا الوضع .

وعلى ذلك فإن الترابط الاقتصادي الناتج من التداخل الصناعي ليس ترابطاً متماثلاً بين متساويين ، وإنما هو رابط يتضمن وجود علاقات سيطرة من بعض القطاعات على القطاعات الأخرى (١) . ويظهر ذلك رياضياً من أن مصفوفة الطلب الوسيط وأن كانت ليست خالية إلا أنه يمكن جعلها مصفوفة منحرفة triangularized بمعنى جعلها Similar لمصفوفة توجد معظم القيم فوقه المنحرف الرئيسي Diagonal وتكون خالية تحته أي بحيث توجد أصفار تحت هذا المنحرف) .

ويتربط على هذا التطور أن الترابط الاقتصادي وأن أدى إلى مزيد من الاندماج بين قرارات الوحدات الاقتصادية ، إلا أنه أظهر في نفس الوقت وجود وحدات استراتيجية تؤثر قراراتها بشكل أخطر في الاقتصاد القومي في مجموعه . وذلك فإن القرارات التي تتخذها هذه الوحدات لا تتعلق في الواقع بها وحدها وإنما تتعلق بالاقتصاد القومي . فقرارات شركة مثل شركة جنرال موتورز لا تتعلق بسياسة أسعار منتجاتها فقط وإنما تؤثر في حجم الانتاج القومي في مجموعه وفي توزيع الدخل وفي مستوى الأسعار العامة . وقد أثر ذلك الوضع على هيكل الاقتصاد ، فلم نعد في ظل الصورة التقليدية للسوق وأن ظلت الملكية فردية وإنما تعلق الأمر في الواقع باتخاذ قرارات على مستوى الاقتصاد القومي .

أهمية طبقة الفنيين

ربما أن أهم ما يميز « المجتمع الصناعي الحديث » هو التقدم الفني الكبير في وسائل الانتاج . فالتقدم الاقتصادي الذي تحققه الدول الصناعية الكبرى لا يرجع إلى تراكم رؤوس الأموال بقدر ما يرجع إلى التقدم الفني ووضع وسائل جديدة للانتاج ذات كفاءة أكبر واكتشاف مصادر جديدة للطاقة .

(١) Cf. F. Perrous, L' Economie du XX em Siecle, P. U. F., Paris, 1961 P. 27

وقد جرت العادة بين الاقتصاديين على اعتبار أن النمو 'Growth' دالة لتراكم رأس المال (الاستثمار) . ونجد هذه العادة لدى الاقتصاديين منذ التقليديين : آدم سميث وريكاردو ، كما نجدها عند ماركس . وبالمثل فإن الاقتصاديين المحدثين (ما بعد كينز (Post Keynesians) قد وضعوا نماذج للنمو الاقتصادي تجعل هذا النمو دالة بشكل ما للاستثمار ومن أشهر هذه النماذج ما يعرف بنموذج هارود دومار - (1) Harrod-Domar (1) نسبة إلى الاقتصاديين المشهورين . وفي هذا النموذج نجد أن معدل النمو الاقتصادي يتوقف على نسبة الاستثمار من الدخل القومي - ويرتبطان بما يعرف بمعامل رأس المال أو نسبة الناتج إلى رأس المال أو نسبة الناتج إلى رأس المال المعروف باسم Capital output ratio . وقد نثر هذا النموذج في الفكر الاقتصادي عامة ، حتى أن الدول النامية وهي بصدد وضع برامج التنمية الاقتصادية قد استعارت هذا الأسلوب لتحديد حاجتها من رأس المال اللازم لتحقيق درجة معينة من معدل التنمية .

ورغم الأهمية الضخمة التي يمثلها تراكم رأس المال في أحداث النمو ، فإن هناك عاملا وبما يكون له السبق في الوقت الحاضر . في هذا الصدد . هذا العامل هو التقدم الفني . فالتقدم الفني على النمو قد أصبح من الأهمية بحيث لا يمكن إهماله . ولذلك فإننا نجد أن كثيرا من الاقتصاديين المحدثين يوجهون عناية خاصة إلى أهمية التقدم الفني في أحداث النمو . فإن ما يهم ليس رأس المال المادي فقط وإنما رأس المال الإنساني المتمثل في العمل الأكثر مهارة ، وبصفة خاصة في الاختراعات والوسائل الجديدة المستخدمة في الإنتاج (2) .

وهذه الأهمية الكبرى للتقدم الفني وللرأسمال الإنساني في أحداث النمو كان لها أكبر الأثر على العلاقات الاجتماعية مما أدى إلى ظهور أهمية الفنيين والمديرين كطبقة اجتماعية بدأت تحتل مكانة هامة في الاقتصاد القومي ، وإلى زيادة أهمية الجامعات ومراكز الأبحاث وما يباشره من تأثير في هذا الاقتصاد .

إن التقدم الفني كمصدر من عناصر النمو الاقتصادي يتميز في الوقت الحاضر من الاختراعات التي تمت في الماضي والتي كان من شأنها زيادة الإنتاج وتحسين نوعه . فالتقدم الفني في الوقت الحاضر لم يعد نتيجة عمل فرد عبقري أو نتيجة للصدفة بحيث أن التقدم في نوع معين يتم بفقرات غير منتظمة إنما أصبح التقدم الفني جزءا منظما من أجزاء العملية الانتاجية ، ومرحلة متدمجة تماما في مراحل الإنتاج . وقد أصبحت الاكتشافات نتيجة لعمل منظم ودقيق بحيث يمكن تخطيطه مقدما . فمصدر الفرد العبقري قد اختفى أو كاد - ولا نكاد نسمع الآن - عن أسماء نعرف أنها كانت وراء الآلة البخارية واللاسلكي والتلفون . وهذه الأسماء هي جزء من

(1) cf. E. D. Domar, *Capital Expansion, Rate of Growth and employment* (Deconometrica (April 1946) ; R. Harrod, *Towards a Dynamic Economics*, Macmillan, 1948.

(2) يرى بعض الاقتصاديين أنه لا يمكن فصل تراكم رأس المال المادي عن التقدم الفني ، فالاستثمارات لا تتضمن فقط الإضافات إلى الآلات القائمة بالآلات جديدة من نفس النوع ، وإنما تتضمن الاستثمارات الجديدة عادة آلات مختلفة أكثر كفاءة وتتضمن آخر ما وصل إليه التقدم التكنولوجي . ولذلك فإنه لا يمكن فصل رأس المال عن التقدم الفني ، فتراكم رأس المال يتطلب في الواقع على تطبيق فن إنتاجي أكثر تقدما . انظر في ذلك على وجه الخصوص :

N. Kaldar, A,

Model of Economic Growth, Economic Journal, December 1957.

الثقافة العامة . ولكن من يعرف الأسماء وراء اختراعات كان لها أكبر الأثر في حياتنا اليومية ، من منا يعرف من وراء التلفزيون ، من وراء الترانزستور رغم ان هذا الاختراع الاخير يعد في ذاته ثورة صناعية ، من وراء القمر الصناعي ، سبورتنيك ، ومن وراء برامج أبولو وغيرها كثير .

ان البحث وما يترتب عليه من اختراعات هي من عمل عدد هائل من الباحثين المجهولين . ان الاختراع قد أصبح بطبيعته عمل « مجموعة » Team من الباحثين من تخصصات مختلفة . وهو عمل منظم بحيث انه يمكن مقدما معرفة النتائج التي يمكن الوصول اليها في فترة معينة اذا خصص لها الاعتمادات اللازمة . ولعل أبرز الأمثلة على ذلك ما حدث في الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٦٢ حين كانت متخلفة في ابحاث الفضاء عن الاتحاد السوفياتي فاعلن رئيسها في ذلك الوقت (كينيدي) عن برنامج للحاق بالاتحاد السوفياتي في ميدان الفضاء والهبوط على القمر في سنة ١٩٧٠ . ولم يكن غريبا على العالمين بطبيعة البحث في العصر الحديث ان يعلموا نبأ وصول « أبولو » الى القمر ١٩٦٩ ، اي في نفس الموعد المحدد (في الواقع قبله ا) .

واذا كان التقدم الفني في العصر الحديث قد أصبح جزءا عضويا في الإنتاج ولم يعد عملا عفويا نتيجة للصدفة والحظ ، فان وراءه جيش كبير من الفنيين والباحثين الذين يقومون بالوصول الى حلول جديدة للمشاكل ، ويقومون باجراء التجارب . . الخ . هذا الجيش من الفنيين قد أصبح عنصر أساسيا في الإنتاج لا يمكن للدولة حديثة أن تستغني عنه مما أدى الى زيادة أهميتهم . وهذه الأبحاث والتجارب تتميز بأمرين ، فهي من ناحية قد أصبحت معقدة جدا وتتطلب تخصصات دقيقة تعمل في تعاون ، وهي من ناحية أخرى باهظة التكاليف ، ولذلك فان الأبحاث على ما سبق ان رأينا تعتبر من النشاطات التي تظهر فيها بشكل واضح مزايا الإنتاج الكبير ، ولذلك فانها تتركز في مراكز البحوث في المشروعات الضخمة وفي مراكز البحوث العلمية والجامعات .

كانت الاختراعات في العصر السابق بسيطة نسبيا ، ولم تكن تستند في كثير من الاحوال الى معرفة نظرية متعمقة ، ولذلك كانت تتم غالبا في المصنع ومن العاملين انفسهم نتيجة للتجربة والخبرة . وقد ساعد على ذلك تقسيم العمل الى حد بعيد . أما في العصر الحديث فان الاختراعات والاكتشافات الجديدة تتميز بأن لها أساسات نظرية وتعتمد على الدراسة النظرية المتعمقة ، فميدانها المختبر والمعمل وحجرات الدراسة وليس الورشة . والاكتشافات الجديدة معقدة جدا ولا يمكن لفرد متخصص ان يدركها .

كذلك فان أهم ما يعبر التقدم الفني وما يستلزمه من بحث أنه باهظ النفقات ، فالأبحاث الواجب اجرائها والآلات والمعدات اللازمة للمختبرات طويلة ومعقدة وغالية . وتمر عادة مراحل طويلة من التجارب قبل وضع الوسيلة الجديدة موضع التنفيذ . ولعل أهم ما يجعل الأبحاث باهظة التكاليف هو أنها كصناعة تعتبر ذات كثافة عمل مرتفعة Labour Intensive بمعنى أنها تعتمد على العمل بشكل كبير ، ولكنه عمل من نوع خاص ، هو العمل الفني المتخصص ذو المعرفة المتعمقة ، ولذلك فان اجوره تكون عادة مرتفعة جدا وهذا ما يجعل نفقات البحث عالية . ولعل هذا السبب هو ما يجعل الولايات المتحدة الامريكية على قمة التقدم الفني . فنظرا لفني

هذه الدولة فهي قادرة على اجتذاب العلماء والفنيين من كافة دول العالم ودفع الاجور الباهظة لهم .

والنظور المتقدم جعل الصناعة في العصر الحديث معتمدة الى أبعد الحدود على هؤلاء الفنيين بحيث ان نفوذهم ازداد بشكل واضح . ولم يقتصر الامر على مجرد أهمية هؤلاء الفنيين والباحثين لتطوير وسائل الانتاج وتحسين نوعه ، وإنما تجاوز ذلك الى طبيعة العملية الانتاجية ذاتها . فالانتاج يعتمد الآن أكثر فأكثر على رأس المال Capital Intensive والآلة الحديثة ليست مجرد آلة تقوم بما كان يؤديه عشرات ومئات من العمال ، ولكنها آلة دقيقة ومعقدة وتحتاج دائما الى عمل فني مؤهل لتشغيلها والإفادة منها وتعديلها دائما . فلم يقتصر التقدم الفني على تعديل نسبة العمل : رأس المال ، ولكنه غير أيضا من طبيعة العمل . فالعمل لم يعد عملا يدويا او ملاحظة رتيبة وإنما هو عمل رقابة ذكية لآلات دقيقة ومعقدة . ولكل أجمل مثال على ذلك هو العقول الالكترونية الحديثة التي تقوم بعمليات ما كان يمكن اجرائها الا بعدد ضخم جدا من الأفراد وفي وقت طويل . ولكن هذه العقول تتطلب للعمل عليها أفرادا ذوي كفاءة عالية في الهندسة وتحليل البرامج . ولذلك فالتقدم الفني الحديث قد زاد من نسبة الفنيين والمؤهلين بين العاملين . وبعبارة أخرى فإن التقدم الفني قد أدى الى زيادة نسبة ذوي الياقات البيضاء على حساب ذوي الياقات الزرقاء . (١) ولذلك فإن الصورة العادية للانتاج في العصر الحديث لا تتطلب العمل اليدوي غير المؤهل الذي يقوم بالأعمال المضيئة أو الأعمال الرتيبة والروتينية بقدر ما يتطلب عمل الفنيين الذين يعتمدون على تكوين علمي متين والذين يقومون بوجه خاص بالأعمال الذهنية التي تتطلب اليقظة وسعة الخيال .

وقد ترتب على التطورات المتقدمة أن ظهرت الجامعات ومراكز البحث ومعاهد الدراسة بوجه عام ، كمراكز أساسية وخطيرة في تطور المجتمع الصناعي الحديث . فالصناعة الحديثة بدأت تعتمد بشكل اساسي على العامل المدرب والمتعلم . ومن ثم فإن هذه الصناعة الحديثة تجد مصدر عملها حيث توجد بيئة مناسبة لتوفير هذا العامل المتعلم وليس حيث يوجد العمل الرخيص . ولعل ذلك ما يعبر عن الاختلاف بين توطين الصناعات في العصر السابق وتوطنها حاليا . فصناعات النسيج التي قامت عليها الثورة الصناعية في إنجلترا كانت تتوطن بصفة خاصة بالقرب من اليد العاملة الزراعية الرخيصة نسبيا . أما الآن فإنا نجد نجتازا بين تركيز الصناعات وبين مراكز العلم والبحث ، بحيث توجد مراكز علمية متقدمة فإن الصناعة تجد فيها ظروفنا مناسبة . كذلك فإن الصناعات التي نشأت في أماكن لم تكن معروفة بالاهتمام العلمي والثقافي لأسباب تاريخية - فإن هذه الصناعات لم تلبث أن تقوم بتمويل إنشاء الجامعات ومراكز البحوث . وقد حدث ذلك أخيرا في إنجلترا حيث انشئ العديد من الجامعات الاقليمية التي تعتمد كثيرا على تمويل الصناعات المختلفة لها . وتعتمد الصناعة بوجه خاص على الجامعات ومراكز البحوث ، فهذه تعتبر في الواقع عصب التقدم الفني

1. J. K. Galbraith, Le Nouvel Etat industriel, (trad.) Edition Gallimard, Paris 1968 P.P. 253 etss.

الحديث . وقد اشار جالبرت الى ان الجامعات ومراكز البحوث في العصر الحديث تقوم بالنسبة للصناعة بنفس الدور الذي كانت تقوم به البنوك في القرن الماضي . فالصناعة في القرن الماضي كانت تحتاج الى التمويل ومن ثم فان البنوك لم تلبث ان احتلت مكانة خطيرة من الاقتصاد باعتبارها مراكز لتجميع وسائل التمويل ، مما جعل الكثير من الاقتصاديين يميز في مراحل الرأسمالية بين الرأسمالية التجارية والرأسمالية الصناعية والرأسمالية المالية . وهذه المرحلة الأخيرة انما تعبر عن المرحلة التي زادت فيها أهمية التمويل بالنسبة للتوسع الصناعي ، مما جعل البنوك المتصرف الحقيقي في النظام الرأسمالي . والواقع اننا في العصر الحديث نكاد نلمح تطوراً في طبيعة الإنتاج بحيث أصبح التقدم الفني والرأسمال الانساني هو العامل الحاسم في التوسع وليس فقط التمويل المادي (١) وفي مثل هذه الظروف فان الجامعات ومراكز البحوث تكاد تقوم بدور التمويل لهذا النوع من التقدم الفني . ولذلك فان الارتباط بين الصناعة وبين الجامعة ومراكز البحث قد أصبح حيويًا في الدول المتقدمة .

وقد ترتب على الأوضاع المتقدمة تغييرات هامة في إدارة المشروعات ، وفي طبيعة الطبقات الاجتماعية ذات التأثير على القرارات الاقتصادية الهامة والدوافع التي تؤثر في هذه القرارات . وقد أثر ذلك على الفكرة السائدة عن كيفية إصدار القرارات .

هناك تقليد متبع يربط بين شكل الملكية وبين مصدر القرار، وقد استقر هذا التقليد بوجه خاص مع الماركسية . فعندها ان تطور وسائل الإنتاج وبشكل خاص في طبيعة ملكية عناصر الإنتاج . وبذلك فان الرأسمالية تعتبر مرحلة من مراحل التطور تكون الملكية الخاصة لعناصر الإنتاج هي السائدة، وبذلك تصدر القرارات من الرأسمالي المالك . وتكون الاشتراكية - ثم الشيوعية - مرحلة أخرى تتحول فيها الملكية الى الدولة ، وبذلك لا تصدر القرارات من الرأسماليين وانما عن الدولة التي تعبر عن صالح الجميع ، ومع ذلك فاننا نعتقد ان تطور شكل الملكية ليس هو الأثر الوحيد وربما ليس الأكثر أهمية لتطور وسائل الإنتاج . فان تطور وسائل الإنتاج وما أدى اليه من ظهور « المجتمع الصناعي الحديث » قد أحدث ثورة في العلاقات الاجتماعية ، وأدى الى تغيير خطير في طبيعة مصدرى القرارات ، وذلك بصرف النظر عن الشكل القانوني للملكية . فقد أدى التطور المتقدم الى الأهمية المتزايدة لطبقة المديرين والفنيين في اتخاذ القرارات الاقتصادية الهامة ، ونكاد نلمح تشابهاً في هذا الصدد بين الدول الرأسمالية التي تحتفظ بالملكية الخاصة وبين الدول الاشتراكية التي أقامت الملكية العامة . هنا وهناك يزداد دور الفنيين والمديرين في اتخاذ القرارات وفي التأثير في الظروف المصاحبة لاتخاذ هذه القرارات . ولا يعني ذلك ان التفرقة بين النظم التي تأخذ بالملكية الخاصة وبين النظم التي تأخذ بالملكية العامة قد زالت فيما يتعلق بالدول الصناعية المتقدمة . فذلك ليس صحيحاً . ففي الدول الرأسمالية يحتل الرأسماليون مكانة هامة من الحياة الاقتصادية والسياسية وفي الدول الاشتراكية يحتل رجال الحزب مكانة هامة من الحياة الاقتصادية والسياسية . وبخلاف أولئك من هؤلاء في كثير أو قليل من ناحية البواض والقيسم الاجتماعية التي يمثلونها ، مما يجعل النظام الرأسمالي مختلفاً عن النظام الاشتراكي . ولكن ذلك لا يمنع من أنه في كلا النظامين هناك اتجاه قوي تحت ضغط التطورات التي لحقت بالصناعة

(١) هناك طبيعة الأحوال بين الأمرين ، ولكننا نريد ان نركز على أهمية عنصر الخبرة وللعلم الانساني .

الحديثة نتيجة للتقدم الفني الى أن طائفة المديرين والفنيين بدأت تسيطر تدريجيا على معظم القرارات الهامة وتؤثر في صدورها .

وقد كان من أوائل من وجه النظر الى هذا التطور الأمريكي برنهام في كتابه عن «ثورة المديرين» The Managerial Revolution . وقد كان برنهام ماركسيا من الجناح اليساري المتطرف الذي ينادى بضرورة الثورة الدائمة في العالم اجمع ، وينتمي بذلك الى الجناح التروتسكي من الحركة الشيوعية في الفترة ما بين الحربين . وقد واجه برنهام - شأنه في ذلك شأن الكثيرين من المثقفين اليساريين في الغرب - أزمة ضمير شديدة في الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية عندما عقدت ألمانيا النازية معاهدة عدم اعتداء مع الاتحاد السوفياتي . فآلمها النازية في ذلك الوقت كانت تمثل أسوأ صور الفاشية اليمينية التي تهدد الحركات الثورية اليسارية . كذلك فإن الاتحاد السوفياتي رغم أن الجناح التروتسكي كان ينظر اليه بكثير من التحفظات وخاصة فيما يتعلق بدكتاتورية الفرد والتخلي عن الثورة العالمية - قد ظل رغم ذلك في نظر جميع المثقفين اليساريين كسبا ضخما للحركات الثورية مرشدا لها . ولذلك فإن معاهدة 1938 كانت بمثابة صدمة لهؤلاء ، لأنها كشفت عن مقل الدولة Raison d'Etat الذي يدبر مصالح دولة الاتحاد السوفياتي قبل الاعتبارات المذهبية والخلقية . وفي ظل هذا الجو النفسي أخرج برنهام كتابه في «ثورة المديرين» لتفسير ما تم وفقا للنهج الماركسي . ولذلك فإنه يرى أيضا أن «الصراع بين الطبقات» هو الذي يحكم التاريخ ، ولكنه يرى أن نتيجة صراع العمال مع الرأسماليين لا تنتهي في صالح الطبقة العاملة وإنما في صالح فئة جديدة تغيب عن هذا الصراع وهذه هي فئة المديرين ، وبصفة عامة جميع الفنيين . وليس في هذا ، في نظر برنهام ، ما يرجع ، فهي النظرية الماركسية ما يؤكد ذلك . ففي ظل النظام الاقطاعي كان الصراع الطبقي محتلا بين طبقة الاقطاعيين وطبقة مهضومة هي فلاحو الأرض . وهذا الصراع يحل لصالح طبقة جديدة هي «البورجوازية» ، وبناء على ذلك فقد وجد برنهام مخرجا ، في نظره ، للتناقض الشديد بين «تحالف» دولة «يسارية» مثل الاتحاد السوفياتي مع دولة «فاشية» مثل ألمانيا النازية ، فعنده انه في كل من الدولتين سيطرت طبقة المديرين والفنيين على الحكم ومن ثم فإنه من السهل أن يتقاربا . وقد تعرضت افكار برنهام لانتقادات كثيرة وخاصة أن كتابه قد ظهر في أثناء الحرب العالمية الثانية وفي فترة كانت فيها ألمانيا النازية تحقق انتصارات عسكرية في أغلب الميادين ، مما طبع الكتاب بالتشاؤم الشديد وبكثير من التنبؤات التي ثبت عدم صحتها فيما بعد .

وبالرغم من الانتقادات التي وجهت الى افكار برنهام والافكار التي ثبت عدم صحتها ، فإن شيئا منها ظل محلا للاهتمام ، وهو بيان دور الفنيين في الحياة الاقتصادية وتأثيرهم التزايد في المجتمعات الحديثة . ومنذ ذلك وقد تعددت الدراسات التي تشير الى خطورة تطور المجتمعات الصناعية ودور الفنيين المتزايد فيها ، ومن أهم من تحدث في ذلك R. Aron . في فرنسا ، K. Galbraith . في الولايات المتحدة الأمريكية ، وغيرهم كثير . وقد سبق أن أشرنا الى الأهمية المتزايدة التي يحتلها التقدم الفني والعلمي في الإنتاج في العصر الحديث ، وقد ترتب على ذلك تغيير جوهرى في شخصية مصادر القرارات الاقتصادية . فالإدارة الاقتصادية لم تعد عملا سهلا يستطيع المالك ، أى مالك ، لرأس المال ، أن يقوم بها ، وإنما أصبحت الإدارة عملا معقدا يقتضي فهما فنيا متخصصا في مجالات متشابهة ، وتقضي اتخاذ قرارات من بين العديد من الاختيارات التي تتضمن عددا من التغيرات مما لايسهل القيام به . ولذلك فإنه بصرف النظر عن الملكية القانونية لأدوات الإنتاج وهل لا تزال في أيدي رأسمالية ، أم أنها نقلت بالتأميم الى الدولة ، فإن

اصدار القرار الحقيقي قد انتقل الى ايدي الفنيين والمديرين المؤهلين للقيام بهذه الاعمال . وحتى في الاحوال التي تظل فيها الادارة القانونية في يد المالك، فان السلطة الحقيقية قد انتقلت الى الفنيين الذين يحضرون البيانات والاختيارات الممكنة امام مصدر القرار وبحيث لا يكون امامه سوى التوقيع او التصديق على قرارات معدة له سلفا . فالادارة الاقتصادية في المجتمع الحديث تتعلق بوحدة انتاجية كبيرة كما سبق ان اشرنا . وهذه الوحدات مترابطة في الاقتصاد القومي بحيث ان ما نتخذه من قرارات يؤثر فيما عداها من وحدات فضلا عن ان الاختيارات المتاحة لها فعلا محدودة بالقرارات التي تتخذها الوحدات الاخرى . وفي مثل هذه الظروف فان اتخاذ القرار ليس سوى الخطوة الاخيرة وربما الاقل أهمية في الحياة الاقتصادية . وقبل ذلك واهم منه نوع البيانات التي يجمعها الفنيون لدراسة الامكانيات الفنية المتاحة للمشروعات والاختيارات الممكنة من بين الاساليب الفنية المختلفة ، كذلك الدراسات الاقتصادية المتعلقة بالسوق والاحتمالات المتعلقة به ، والآثار المترتبة على اتخاذ القرار على مستقبل أي قرار اقتصادي منها . وهي بيانات يقوم على امدادها بطبيعة الاحوال الفنيون . ولا يستطيع مصدر القرار ايا كان استقلاله ان يتجاهل هذه البيانات ويصدر قراره بناء على اعتقاده الشخصي . ولذلك فان مصدر القرار لا يكون له في كثير من الاحوال سوى اتخاذ القرار المناسب وفقا لما امد له الفنيون من بيانات .

وهكذا نرى ان الفنيين والمديرين قد زادوا من قبضتهم على الحياة الاقتصادية . وسواء اقاموا باتخاذ القرارات الاقتصادية بأنفسهم أم كان يقوم بها ظاهريا غيرهم ، ما داموا في جميع الأحوال مسيطرين على جميع العناصر اللازمة لاتخاذ القرارات . كذلك تقوم بين الفنيين والمديرين العاملين بالصناعة وبين الفنيين والباحثين والعلماء في الجامعات ومراكز البحوث رابطة انتماء قوية . فهؤلاء الفنيون يدينون بمراكزهم الى المعرفة وليس الى الثروة ، وعلاقات الاخذ والرد مستمرة بين مراكز الأبحاث والصناعة والانتقال بين العاملين من الميادين مستمرة . فالاستاذ في الجامعة يقوم بالابحاث لصالح الصناعة وقد يعمل مستشارا لصناعة معينة . والفنيون في الصناعة يحتاجون دائما الى متابعة آخر التطورات العلمية كما انه ليس من النادر ان ينتقل احدهم من ناحية الى اخرى ، وهكذا نجد ان طبقة الفنيين بدأت تكون انتماء مستقلا وبحيث تكاد تمثل طبقة اجتماعية متميزة في سلوكها وفي دوافعها ، وهذه الطبقة تستند في قوتها ونفوذها على المعرفة اولا وليس على الثروة كما هو الحال بالنسبة لطبقة الرأسماليين في الفترات السابقة ، وليس على السلطة والقرار كما هو الحال في بعض المجتمعات الشمولية المتخلفة من ناحية التطور الفني والتكنولوجي . وما نشاهده من سيطرة هذه الطبقة لا يقتصر على الدول الرأسمالية المتقدمة بل اننا نجد نفس الظاهرة في الدول الاشتراكية المتقدمة فنيا ايضا . وهذه الطبقة تجد عداء شديدا من جانب رجال الحزب الذين يريدون ادارة المشروعات الاقتصادية وفقا للاراء ايدولوجية المستقرة ، وبصرف النظر عن التطورات الفنية ، ولذلك فان نزعات التطور في الدول الاشتراكية قد جاءت من جانب الفنيين في المشروعات وفي الجامعات ، في حين ان المعارضة قد خرجت بصفة خاصة من بين رجال الحزب . وهؤلاء الآخرون يمثلون في الواقع دور الرأسمالي في المجتمع الاشتراكي . فرجال الحزب يعتقدون انهم بوصفهم طليعة الحزب الثوري ممثلون للقوى العاملة ، وبناء على ذلك يكون لهم سلطة اصدار القرارات . ومن الواضح ان هذه السلطة لا تستند الى المعرفة الفنية بقدر ما تستند الى السلطة السياسية ولذلك ما لبث ان ظهر التناقض بين طبيعة المجتمع الحديث وما

بقتضيه من معرفة فنية متزايدة في القرارات وبين النظام السياسي الذي يجعل السلطة في يد رجال الحرب ، وهنا أيضا بدأ دور الفئتين يتزايد رغم معارضة دوائر الحرب . وقد ظهر ذلك في أزمة تشكيبوسلوفاكيا في صيف ١٩٦٨ حيث كانت المطالب الاقتصادية وتحرير المشروعات من أهم دوافع هذه الحركة . كذلك نستطيع أن نمثل ذلك بالجدل الذي ثار حول مشكلة الأمان في الاتحاد السوفيتي^(١) . فوفقا لتحليل الماركسي تتوقف قيمة السلعة على كمية العمل الاجتماعي اللازم لإنتاج السلعة ، وإذا كانت الدول الرأسمالية تضيف إلى قيمة السلعة مقابل «ناضرا القيمة» فقد كان من الواجب إلغاء هذا الجزء بعد إلغاء الملكية الخاصة لأموال الإنتاج ، وهو ما لم يحدث حيث أن اعتبارات حسن استخدام رأس المال وهو عنصر نادر تقتضي تحمل جزء من النفقة بناء على استخدامه . وهذا هو ما سار عليه المخططون بالرغم من أن التعاليم النظرية تقضي بأن رأس المال ليس عنصرا منتجا من عناصر الإنتاج . كذلك فإن ما ساعد على عدم العناية بما كتبه كانتوروفيتش في الفترة السابقة على الحرب ، والذي يعتبر في الواقع أول من وضع مشكلة البرامج الخطية Linear Programming ساعد على ذلك أن عرضه لمشكلة الأمان تفيد أنه يدخل في تكوين الأمان كافة عناصر الإنتاج بما فيها رأس المال ، فضلا عن أنه يشير إلى أن الثمن يتحدد وفقا للنفقة الحدية وهي إشارة إلى نفس الأفكار السائدة في الفكر البيروجرأزي ، ولذلك فإن أفكار كانتوروفيتش قد ظلت مجهولة حتى ظهرت أهمية البرامج الخطية وبحوث العمليات بعد الحرب فأعيد النظر فيها . والسبب في إهمالها إنما يرجع إلى أنها تخالف النظرية الأيديولوجية الرسمية للقيمة . وأيا ما كان الأمر فإن طبقة الفئتين قد بدأ يتزايد دورها في هذه الدول الاشتراكية وبدأت أساليب إدارة المشروعات تتقارب مع الأساليب المتبعة في الدول الرأسمالية . وليس مرد ذلك إلى « برجوة » الدول الاشتراكية كما يحلو للبعض قوله . وإنما مرده إلى التقارب في الأوضاع الفنية وما يقتضيه ذلك من ضرورة الأخذ بأساليب فنية متشابهة .

وإذا كان الفئتين في كل مجتمع يتأثرون بالقيم السائدة فيه ، إلا أن ذلك لا يمنع من أنهم يتميزون بدوافع وسلوك مختلفين عن الدوافع التي تحرك الرأسماليين مثلا . فالفئتين في اتخاذهم للقرارات الاقتصادية في إدارة المشروعات لا يسعون إلى تحقيق أقصى الأرباح بآلية وسيلة وانما غايتهم ، غالبا ، تقتصر على العمل على استمرار المشروع ونجاحه . والنجاح لا يقدر بالضرورة بالأرباح بقدر ما يقدر بالإنجازات الفنية والقدرة على الزيادة المستمرة للإنتاج . فإذا كانت زيادة الأرباح تقتضي في أحوال معينة (بعض صور الاحتكارات) تضيق الإنتاج فإن الرأسمالي لا يتردد في اتخاذ هذه السياسة ، أما حيث تكون السيطرة للفئتين فإن ما ينعينهم في الدوافع الأولى هو توسيع الإنتاج ولو على حساب الأرباح قليلا . وفي نهاية الأمر فإنهم لا يملكون عناصر الإنتاج حتى يصيبهم هذا الجشع المتعلق بزيادة الأرباح ، ومن ثم فإنهم يكونون في وضع يسمح لهم باتخاذ قرارات قد لا يترب عليها أفضل وضع من حيث الأرباح . وليس معنى ذلك أنهم لا يهتمون بالأرباح ، فذلك ليس بصحيح ، إذ أن نجاح المشروع وقدرته على التوسع إنما ترتبط بما يحققه من أرباح . ولكن نظرهم إلى الأرباح ليست قاصرة على الأرباح في ذاتها وبصرف النظر عما يترب عليها ، وإنما اهتمامهم بالدرجة الأولى إلى استمرار المشروع وتقديمه الفني وإتساعه باستمرار . ولذلك فليس غريبا أن نجد أن نمو المشروع^(٢) بل والنمو بصفة عامة هو

1. cf. H. Denis et M. Lavigne, *Le Probleme des Prix Union Sovietique*, edition Cujas, Paris, 1965.

2. cf. E. T. Penrose, *The Theory of the Growth of the Firm*, Oxford, Blackwell, New York : Wiley 1960.

الهدف الذى يشغل بال المشروعات الاقتصادية، وبصرف النظر عن النظام السياسى والاجتماعى . ففي الدول الاشتراكية كما فى الدول الرأسمالية يعتبر النمو غاية ينبغى العمل على توفيرها . وهذا ما يجعلنا نتعرض لظاهرة تزايد الانتاج المستمر وبكل الطرق . وهو ما اشار اليه جالبرت بأنه مجتمع الوفرة فى كتابه The Affluent Society الذى أطلق عليه أيضا « مجتمع الاستهلاك » (٣) ، وخاصة بعد ثورات الطلبة فى فرنسا وفى ألمانيا وفى الولايات المتحدة الأمريكية .

مجتمع الاستهلاك :

الغاية النهائية من النشاط الانتاجى فى كل مجتمع هو الاستهلاك ، ولا يختلف المجتمع الحديث فى ذلك عن أى مجتمع سابق الا فى الأهمية الزائدة التى بدأت تحتلها ضرورة العمل على زيادة الاستهلاك ، والقدرة الهائلة التى توفرت لهذا المجتمع للعمل على تحقيق هذه الزيادة باستمرار وبمعدلات متزايدة دائما . وقد سبق أن أشرنا الى أن التقدم الفنى الهائل المتاح الآن لاستخدامه فى أساليب الانتاج قد وفر القدرة المستمرة على زيادة الانتاج والانتاجية مما زاد من فرص الاستهلاك . كذلك سبق أن أشرنا الى أن سيطرة الفئتين على قرارات الانتاج قد ساعدت على النظر الى النمو أى زيادة الانتاج فى ذاتها وما يرتبط بها من ضرورة زيادة التصريف باعتبارها من الاهداف الرئيسية التى يتوخاها مصدرو هذه القرارات . وقد نجم عن ذلك أن الاستهلاك فى المجتمع الحديث قد زاد بشكل لم يكن معروفا فيما سبق ، كما نجمت عنه مجموعة من القيم والقواعد التى تنظم حياة المجتمع فى ضوء زيادة الاستهلاك . اذ اعتبرت زيادة الاستهلاك ذاتها قيمة اجتماعية كبرى ومحورا لكثير من اجزاء النشاط الاقتصادى . فزيادة الاستهلاك فى ذاتها وبصرف النظر عن الحاجات التى يشبعها هذا الاستهلاك المتزايد قد أصبحت من قواعد الانتاج فى العصر الحديث فالاستهلاك لا يتزايد لاشباع حاجات قائمة ، بقدر ما تخلق حاجات جديدة للتمكن من زيادة الاستهلاك وقد كان لهذه الظاهرة آثار بعيدة على الاقتصاد كما أنها نتاج خطيرة على السلوك الاجتماعى بدأت تظهر فى الفترة الأخيرة .

الواقع أن مظاهر مجتمع الاستهلاك لا زالت حديثة ، كما أنها لا زالت بعيدة عن أن تكون عامة سواء من حيث الدول أو حتى بالنسبة للدولة الواحدة . فبالنسبة للدول الصناعية لا يمكن الحديث باطمئنان عن وجود مجتمع الاستهلاك بالصورة التى نتحدث عنها الا فى شكل اتجاه عام ، ولا تكاد توجد دولة تتركز فيها خصائص هذا المجتمع الا فى الولايات المتحدة الأمريكية . وحتى بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية فهذا المجتمع لا زال بعيدا عن أن يكون شاملا . ذلك أن التقدم المتحقق فى العالم حتى الآن قد أخذ صورة النمو غير المتوازن Unbalanced Growth بمعنى أن هناك دائما قطاعات أسبق من غيرها فى استيعاب التقدم وفى تحقيق النمو ، كما أن هناك مناطق جغرافية أقدر على تحقيق التقدم من غيرها . وهذا النمو غير المتوازن نجده على مستوى العالم فى مجموعه - مما أدى الى وجود الدول النامية والمتخلفة - كما نجده على مستوى الدولة الواحدة - مما أدى الى وجود الأماكن والقطاعات المتخلفة . وعلى ذلك فعند حديثنا عن خصائص مجتمع الاستهلاك لا ينبغى أن يفهم من ذلك أن هذا المجتمع قد تحقق بالفعل وإنما هو مجرد اتجاه عام بدأت تظهر خطوطه الرئيسية ، ولكن جزر الفقر موجودة دائما وهي تثير الكثير من المشاكل على ما سترى .

وإذا كانت خصائص مجتمع الاستهلاك لا زالت حديثة فإن بواورها قد ظهرت على النظرة

الاقتصادية منذ فترة ، وهذا هو في الواقع مفزى التطور الذي لحقها منذ التقليديون وكينز . وبدون التعرض الى جوانب كيفية توزيع الدخل التي تثير في الواقع خلافات مذهبية ، فان جوهر النظرية التقليدية في الاقتصاد والتي ورتناها منذ آدم سميث وريكاردو ، هو أن الطلب الكلي في الواقع يستوعب دائما العرض الكلي . فكل ما ينتج من السلع نجد له طلبا في السوق ، وإذا كان من الممكن حدوث بعض الاختلالات الجزئية في الاقتصاد كان يكون عرض سلعة معينة اكبر أو اقل من الطلب عليها فان ذلك لا يمكن الا أن يكون حالة استثنائية جزئية لا بد أن تعادله اختلالات جزئية أخرى . والمهم في كل ذلك هو أن مجموع الطلب الكلي في الاقتصاد لا يمكن أن يقل عن مجموع العرض أو الإنتاج الكلي . ولذلك فان الاقتصاد بطبيعته يتوازن عند مستوى التشغيل الشامل . وتفصيل ذلك ان الاقتصاد بعيد من اشباع جميع الحاجات ، ولذلك فان الحاجة موجودة باستمرار لزيادة الإنتاج وفرص الربح من الاستثمارات الجديدة مكفولة بالنظر الى أن هناك دائما قدرة على زيادة الإنتاج وزيادة الاستهلاك . فرص الاستثمارات تكون عادة كبيرة ، ولكن نظرا لأن الاقتصاد فقير فانه لا يمكن القيام بكل هذه الاستثمارات . ويتم القيام فقط بالاستثمارات في الحدود التي يمكن فيها ضغط الاستهلاك . وعلى ذلك فكل جزء يمكن ادخاره من الناتج القومي سيطلب بالضرورة للاستثمار لان فرص الاستثمار كبيرة لوجود فرص الربح من الانتاج في المستقبل واشباع الحاجات الناقصة . وعلى ذلك فان التقليديين وجهوا انتقائهم الى الادخار ، فهذا هو القرار الهام ، وهو الذي سيحدد مقدار الاستثمار . فكل ما يدخر سيستثمر حتما لان الطلب على الاستثمار كبير جدا . ولذلك لم تتم صعوبة عند التقليديين لتقرير ضرورة تحقيق التوازن في الاقتصاد ، العرض الكلي يتساوى دائما مع الطلب الكلي . فالعرض الكلي يتكون من عرض سلع الاستهلاك وعرض الادخار ، والطلب الكلي يتكون من الطلب على الاستهلاك والطلب على الاستثمار . ونظرا لأن الطلب على الاستثمار يكون كبيرا جدا بالنسبة لعرض الادخار فانه لا يمكن أن تقوم حالة يزيد فيها العرض الكلي عن الطلب الكلي .

وإذا انتقلنا الى تحليل كينز Keynes (١) نجد أن التجديد الذي اتي به هو انه أوضح أن الطلب على الاستثمار قد لا يكون من الكبر بحيث يستوعب كل المدخرات . ولذلك فليس من المقبول الاهتمام فقط بالادخار باعتبار أن الاستثمار سيحقق دائما ، بل لعل العكس هو الصحيح ، فنظرا لنقص فرص الربح فان الطلب على الاستثمار قد يكون محدودا ، ومن ثم وجب أن تعدل الادخار وفقا لهذا الطلب المحدود . ورأى كينز أن تعديلات الادخار وفقا للطلب على الاستثمار تتم بتغيرات مستوى الدخل القومي والعمالة ، مما قد يجعل وجود بطالة امرا متفقا مع التوازن الاقتصادي . وهذا هو في الواقع جوهر الثورة التي أحدثها كينز في النظرية الاقتصادية في كتابه الشهير « النظرية العامة » . ومن الواضح أن إمكان نقص الاستثمار من المدخرات انما يرجع الى نقص فرص الربح من الاستثمارات الجديدة . وهذا يشير في الواقع الى أن زيادة الاستهلاك في المستقبل لم تعد متوافرة كما كان الأمر قبل ذلك بقرن من الزمان . وهذا تغيير هام وهو مقدمة لبيان أن الاستهلاك قد بدأ يفرض نوعا من المشاكل ، فنحن لسنا في مرحلة الفقر الشديد وحيث كل زيادة في الاستهلاك ستصرف حتما ، ولكننا بدأنا ندخل مرحلة إمكان نقص الطلب الفعلي من توفير العمالة الشاملة ، ولذلك فان السياسة التي نصح بها كثيرة هي ضرورة العمل على زيادة الطلب . على أنه لا ينبغي أن تعطى نظرية كينز أكثر من دلالتها الحقيقية . فليس معنى ذلك أن العالم قد عرف مجتمع الاستهلاك في الثلاثينات . ولكن ما نود أن ننشر اليه هو انطباعات تظهر مشاكل

1. cf. N. Kaldar, A Model of Economic Growth, Economic Journal December, 1957, Reprinted in Essays on Economic Stability and Growth, London, 1960, P. 295.

الطلب الكلي ولم تعدم ان تلقائيا كما كانت عند بداية الثورة الصناعية وفي ظل مستويات الاستهلاك المنخفضة . ومما ساعد على ظهور أزمة الطلب الكلي في الثلاثينيات سوء توزيع الدخل . فأصحاب الدخل المنخفضة لم يكن من الممكن زيادة استهلاكهم نظرا لانخفاض دخولهم ، وأصحاب الدخل المرتفعة لم يكن من السهل زيادة استهلاكهم نظرا لانخفاض مرونة الاستهلاك لديهم . وفي هذا الجانب يتفق تحليل كينز مع تحليل ماركس للأزمات الاقتصادية في ظل النظام الرأسمالي .

وإذا كانت نظرية كينز قد مهدت السبيل نحو ضرورة الأخذ بسياسات التدخل لزيادة الطلب الفعلي فإن آثارها لم تظهر بشكل واضح إلا في السنوات الأخيرة في المجتمعات المتقدمة جدا ، وفي هذه المجتمعات يبدو في كثير من الأحوال أن النظام الاقتصادي منها يسير على عكس مقتضيات الإشادة الاقتصادية . وحقيقة الأمر أن اختلاف الظروف يستدعي اختلافا في النظرية السائدة وفي قواعد السلوك . وهذا ما دعا جالبرت إلى القول بأن « مجتمع الوفرة » (١) يختلف بالضرورة من « مجتمع الندرة » الذي ظهرت فيه تعاليم النظرية الاقتصادية على أيدي آدم سميث وخصوصا ريكاردو . والأمثلة على هذا الاختلاف كثيرة . أن التأمل في الاقتصاديات المتقدمة وبوجه خاص في الاقتصاد الأمريكي يجد غرابية في الدور الذي يحتله الإعلام من هذا الاقتصاد . فالنقعات التي تنفق على الدعاية بصورها المتعددة والتطور الذي نجم عن ذلك في وسائل الإعلام المختلفة يقطع جزءا هاما ومتزايدا من الناتج القومي . وليس من السهل الاقتناع بأن هذه النفقات يقصد بها فقط اعلام لجمهور المستهلكين بوجود السلعة ومزاياها ومن ثم تحقيق خدمة اقتصادية ، إذ الواقع أن كثرة هذه الدعايات وتكرارها والإصرار عليها لا يمكن أن يكون الغرض الوحيد منه هو الاعلام ، ولذلك فقد ذهب عدد من الاقتصاديين إلى القول بأن نفقات الدعاية والاعلام في جزء كبير منها تعتبر ضياعا Waste على الاقتصاد لا تتحقق من ورائه أية منفعة اقتصادية ، وأن هذه الموارد كان من الأجدر توجيهها نحو استخدامات أكثر فائدة . وهذا النظر امره معقول ومقبول في « اقتصاد الندرة » الذي نمودنا عليه . ففي ظل هذا الاقتصاد حيث يحكمنا أساسا قانون الندرة ، يترتب على مجاوزة الاعلام للحدود المقولة في توفير العلم للمستهلكين اقتطاع جزء من الموارد واستخدامها فيما لا يعود بفائدة مباشرة على المستهلكين . ولكن الامر يكون مختلفا عن ذلك فيما نسميه « باقتصاديات الوفرة » . فقد سبق أن أشرنا إلى أن الإنتاج في هذه الدول قد زاد زيادة كبيرة مما أدى إلى اشباع الحاجات الأساسية للأفراد ، أو كاد . ومع ذلك فإن استمرار زيادة الإنتاج تتطلب في الواقع زيادة الاستهلاك وهو أمر لم يعد من السهل تحقيقه نظرا لأن الحاجات الأساسية قد تم اشباعها . ولذلك فإن جزء هاما من الموارد الاقتصادية إنما يتجه نحو تلبية عادات الاستهلاك وخلق عادات جديدة للاستهلاك حتى يستمر الإنتاج في التوسع المستمر . فالحاجات التي تشبع الآن لم تعد قاصرة على الحاجات البيولوجية الأولية ، وإنما هي حاجات نفسية واجتماعية وثقافية تخلقها البيئة التي يعيش فيها الفرد . ومن ثم فإن نفقات الدعاية والاعلام لم تعد مجرد وسيلة لتوفير العلم لدى المستهلكين بوجود السلعة وبخصائصها ، وإنما اعتبرت بشكل خاص وسيلة للتأثير على إرادة المستهلكين وأذواقهم بخلق حاجات جديدة لديهم لم يكونوا يشعروا بها فيما لو لم تنفق هذه المصاريف . ولذلك فإنه في ظل مجتمع الاستهلاك يصبح الاعلام جزءا مضمونا من جهاز الإنتاج وبدونه لا يستطيع هذا الجهاز الاستمرار في النمو .

وقد ترتب على ما تقدم تغيير في القيم الاجتماعية السائدة . فالاستهلاك أصبح في ذاته قيمة اجتماعية كبرى ، ويقاس مركز الفرد الاجتماعي بقدر ما يستهلكه من السلع والخدمات ومدى قدرته على التغير المستمر . ومن هنا نجد أن من خصائص الأذواق في العصر الحديث

التغيير المستمر ، « المودة » دائما في تغيير حتى يشعر الفرد بحاجته المستمرة الى التغيير في استهلاكه مما يؤدي الى الاستهلاك المستمر . ونستطيع ان نعطي مثالا لذلك . فالمجتمع الأمريكي كان ولا يزال متقدما على المجتمعات الأوروبية في كثير من خصائص مجتمع الاستهلاك . وقد كانت السيارات من سلع الاستهلاك الجارى في الولايات المتحدة الأمريكية التي تعتمد عليها عدة صناعات أساسية . ولذلك فقد كان من الواجب ادخال عادة تغيير السيارة كل فترة . ولذلك نجد ان اشكال السيارات الأمريكية تتغير دائما كل فترة حتى يضطر الفرد الى اقتناء سيارة جديدة . ولم يكن الامر كذلك في أوروبا حيث ان صناعة السيارات لم تكن بهذه القدرة ولذلك فان السيارة في أوروبا كانت سلعة معمرة تقتنى لكى تعيش سنوات عديدة قبل استبدالها لتلف فيها . والآن نلاحظ ان صناعة السيارات في أوروبا قد تقدمت واصبحت السيارة من سلع الاستهلاك الجارى وكان لا بد من زيادة الاستهلاك . واذا بنا نرى السيارات الأوروبية التي انتجت لعشرات السنوات بنفس الشكل قد بدأت تعمل الى ادخال تعديلات في شكلها الخارجي بحيث انها تسير الآن في نفس الاتجاه الأمريكي .

ونلاحظ ان استقرار عادة الاستهلاك كقيمة اجتماعية تفسر سلوك الأفراد في المجتمع الحديث هي ظاهرة جديدة . فاذا كان الاستهلاك ونوعه وتنوعه يحدد في العصر الحديث - الى حد ما - مكانة العائلة الاجتماعية ، فان ذلك لم يكن كذلك دائما . ففي القديم كان المركز الاجتماعي يتحدد بحسب النسب ، فالانتماء الى عائلات الاشراف والنبل هو الذى يحدد المركز الاجتماعي للفرد وبصرف النظر عن مقدار استهلاكه وبدخله بل انه من مدعاة السخرية ان يحصل الفرد ان يجارى النبلاء في حياتهم وان يحاول ان يستمد مركزه الاجتماعي من زيادة انفاقه الاستهلاكي ، ومن هنا نستطيع ان نفهم الكوميديا الساخرة « لوبير Le Bourgeois Gentilhomme » من ذلك التاجر الذى حاول ان يتشبه بالنبلاء لجرد زيادة انفاقه الاستهلاكي .

كذلك نجد انه مما ساعد على قيام الرأسمالية الناشئة سيادة الافكار البيوريتانية Puritan التي صاحبت الإصلاح الديني في أوروبا ، والتي كانت تنمو الى الحرص والاعتدال في الحياة مع ما يترتب على ذلك من تضيق الاستهلاك وتقدير عادة الادخار . وقد كان عدد كبير من المهاجرين الى أمريكا من هذه الطوائف الدينية . ونحن نعرف انه في المراحل الأولى تكون الحاجة الى الادخار كبيرة لمواجهة حاجات الاستثمار المتزايدة . ولم يدخل الاستهلاك في مجال القيم الاجتماعية الا متاخرا . ولعله من الطريف ان أول من أشار الى أهمية هذا « الاستهلاك التفاضلي » : هو الاقتصادي الأمريكي فيلسن Veblen في كتابه Conspicuous consumption وهو بذلك يشير الى أن بدور هذا المجتمع الجديد قد ظهرت أيضا في الولايات المتحدة الأمريكية منذ نهاية القرن الماضي . ولم ينظر الى أثر الاستهلاك كقيمة اجتماعية في النظرية الاقتصادية الا مؤخرا عندما كتب دونزبرى (١) من « أثر التقليد Demonstration effect » ، وبين ان استهلاك الفرد لا يتوقف على ذوقه وما يريده هو بقدر ما يتأثر بما يستهلكه الآخرون . وبذلك ادخل فكرة التداخل بين أذواق المستهلكين في تحديد ذوق المستهلك Interaction of utilities . ومعنى ذلك أن الاستهلاك أصبح قيمة اجتماعية ، فالفرد لا يستهلك ما يريده فحسب ، وإنما يستهلك ما يجد جيرانه وزملاءه يستهلكونه . ومن هنا نفهم الدور الذى يقوم به الاعلان في العصر الحديث .

1. cf. J. Duesenberry, Income, Saving and the Theory of Consumer Behaviour, Cambridge, Mass. 1949.

وإذا كان الاستهلاك يزيد باستمرار ويتنوع ، فإن مقتضيات الإنتاج بأقل نفقة تستدعي في نفس الوقت إيجاد نوع من التعمية في الاستهلاك Standardization فقد سبق أن أشرنا إلى المزايا العديدة التي يحققها الإنتاج الكبير ، ولذلك فإن المشروعات في سعيها نحو زيادة الإنتاج وما يستتبعه من زيادة في الاستهلاك إنما تحاول أن يتم ذلك بشكل نمطي بقدر الامكان حتى تنخفض نفقة الإنتاج . ولذلك فإن أهم ما نلاحظه في الوقت الحاضر هو اتجاه الاستهلاك إلى الطبقات الوسطى وليس إلى الطبقات العليا . ففي الماضي كان الحديث عن الأذواق والمودة قاصرا على طبقة محددة من ذوي الدخل المرتفع ، أما الآن فإن المنتجات الحديثة تتجه عادة إلى المستهلك العادي والذي يكون الغالبية الكبرى من المستهلكين ، وهؤلاء يشتركون عادة ما يقدم لهم دون نظرة نقدية . فهم يطمعون من مقدري الاستهلاك النمطي . ولذلك فإن الاستهلاك الترفي في العصر الحديث ليس قاصرا على الطبقات العليا وإنما هو من أهم خصائص الطبقة الوسطى وما دونها . بل لعل الطبقات العليا قد بدأت تميل نحو التعفف عن هذا الاستهلاك النمطي .

وإذا كان مجتمع الاستهلاك قد أدى إلى الزيادة المستمرة في استهلاك الطبقات المحرومة نوعا . إلا أنه لم يخل من انتقادات عنيفة مردها إلى نظريته المادية إلى الاستهلاك وعدم وجود مثل خلقية وثقافية الغرض منها تنمية الفرد وقدراته . فهذا المجتمع يخلق من الفرد أداة للاستهلاك دون أن يجعل منه إنسانا حقيقيا . وهذه الانتقادات وغيرها سوف نتعرض لها فيما بعد ولكننا نشير الآن إلى أمر هام ، وهو هل يترك هذا النظام الاقتصادي لقوى السوق وحدها أم لا بد من إخضاعه لخطوة . وبعبارة أخرى هل التنظيم الرأسمالي أو الاشتراكي هو الأقدر على مواجهة حاجات هذا المجتمع ؟ أم أن الحقيقة أن السوق والخطوة ليسا متعارضين كما يبدو للوهلة الأولى ، وأن الحاجة هي اليهما معا ؟ وهذا ما سيساعد على فهم مدى الاختلاف بين النظام الحديث .

السوق والخطوة

أشرنا فيما تقدم إلى أهم خصائص « المجتمع الصناعي الجديد » وما أدى إليه من تقارب بين النظم الاقتصادية المتقدمة والتي ظهرت فيها هذه الخصائص بشكل واضح ، كما تعرضنا إلى التطور الذي لحق الأشخاص الذين يتخذون القرارات الاقتصادية ، ووجدنا أن هناك اتجاها متزايدا نحو تركيز سلطة اتخاذ القرارات الاقتصادية في أيدي المديرين والفنيين ، وأشرنا إلى ما ترتب على ذلك من انفصال بين الملكية القانونية وبين الإدارة الاقتصادية . ومن شأن ما تقدم تأكيد الانطباع بأن تقاربا يتم الآن بين الدول الصناعية المتقدمة الرأسمالية ، والدول الصناعية المتقدمة الاشتراكية . على أن هذا الانطباع لا ينبغي أن يخرج عن كونه اتجاها عاما وليس حقيقة قائمة في جميع الدول الصناعية بنفس الدرجة . فلا زالت الملكية الخاصة تلمب دورا هاما في القرارات الاقتصادية في الدول الرأسمالية ، كما أن سلطة الحزب السياسي (الشيوعي) باعتباره طليعة القوى العاملة لا زالت كبيرة جدا في الدول الاشتراكية . وبالرغم من هذه الفروق فإن الاتجاه العام السابق الإشارة إليه حقيقة لا يمكن إنكارها .

ونود الآن أن نتساءل ، ألا تختلف الإدارة الاقتصادية باختلاف النظام الاقتصادي ؟ ألا تتميز طبيعة هذه الإدارة بحسب ما إذا كان نظام السوق أو نظام التخطيط هو السائد ؟ الواقع أن هذا هو التساؤل الأساسي الآن ، إلى أي حد يتعارض نظام السوق مع نظام التخطيط وإلى أي حد يتكاملان ؟

الفكرة السائدة هي أن النظام الرأسمالي يقوم على أساس السوق ، في حين أن النظام الاشتراكي يقوم على أساس التخطيط . هذا مانود أن نتعرض له الآن لنرى كيف أدى التطور الحالي للمجتمع الصناعي الحديث إلى التكامل بين النظامين .

قد يبدو من وجهة نظرية بحثة أن النظامين متعارضان تماما ، فنظام السوق هو الأخذ بنظام اللامركزية الاقتصادية Economic decentralisation في حين أن نظام التخطيط هو تطبيق لفكرة المركزية الاقتصادية Economic Centralisation

يقوم نظام السوق من الناحية النظرية ، على ما يعرف بسيادة المستهلك :

Consumer sovereignty فالمستهلكون يقومون بتوزيع دخولهم من العمل والملكية أو من أيهما على السلع والخدمات المختلفة بحسب أذواقهم وبما يحقق لكل منهم أكبر اشباع ممكن وفقا لسلع ترتيب الفضلياته . ويعتبر كل مستهلك مستقلا في قراره بتوزيع دخله على السلع والخدمات دون أن يقوم أى تنسيق مسبق^(١) بين قراره وقرار غيره من المستهلكين ، ولا تقصد بذلك أن المستهلك الفرد لا يتأثر باستهلاك الآخرين فقد سبق أن تعرضنا إلى أهمية «آثر التقليد» ولكن ما نقصده هو أن المستهلك في قراره لا يعني بقرارات غيره من حيث أثرها على التوازن العام . فكل ما يريده هو أن يحقق أقصى اشباع ممكن له حسب ذوقه من دخله المحدود . ولا يستطيع أى مستهلك بفعله المنفرد أن يؤثر في الأمان المعروضة ، في محيط من المستهلكين وسواء زاد الكمية التي يشتريها أم نقص منها فإن أثره على الطلب الكلي لا قيمة له . ولكن التأثير في ثمن السلعة يحدث نتيجة لجموع أفعال المستهلكين كما تظهر في الطلب الكلي .

وكذلك فإن الإنتاج يتم في ظل نظام السوق من جانب المنتجين الذين يواجهون بأنماط معينة لعناصر الإنتاج وأثمان السلع ، ولا يستطيع أيهم أن يغير بفعله المنفرد من هذه الأثمان وإنما عليه فقط أن يقوم بالتأليف بين عناصر الإنتاج بما يسمح له بتخفيض النفقات إلى أقل قدر وينتج الكمية التي تحقق له أقصى ربح . والأصل هنا في نظام السوق (وهو ما يطلق عليه سوق المنافسة الكاملة) أن كل منتج ذرة في هذه السوق ، ولا يقوم أى تنسيق مسبق بينه وبين فسيهه من المنتجين . ويحدث التأثير في الكمية المعروضة نتيجة لجموع أفعال المنتجين كما تظهر في العرض الكلي . ويتم التوازن عندما يتساوى الطلب الكلي مع العرض الكلي لكل سلعة ، مع ما يترتب على ذلك من تغيرات في الأثمان . وعلى ذلك نجد أن التوازن يتحقق في الاقتصاد بالفعل Ex Post (٢) نتيجة لتغيرات الأثمان التي تحقق المساواة بين العرض والطلب . والذي يهمننا من الصورة النظرية المتقدمة هو أن القرارات الاقتصادية تصدر من عدد كبير من الوحدات الاقتصادية التي تسعى لتحقيق مصلحة لها ، ودون أن يقوم تنسيق مسبق بينها ، كما أنه ليس لقرار أى من هذه الوحدات منفردا أى تأثير على الأثمان Price taker ومن ثم على الكميات المطلوبة أو المعروضة وإنما يتم التأثير نتيجة لجموع قرارات المستهلكين والمنتجين . ولذلك فهذا النظام يتميز بمبدأ وجود سلطة عليا تفرض تحقيق التوازن بين الطلب والعرض ، وإنما يتحقق هذا التوازن نتيجة لهذه القرارات التي تصدر من الوحدات الأولية التي لا تملك إلا التأثير في طلبها وعرضها ، ولذلك نقول بأن نظام السوق يعتبر مظهرا من مظاهر اللامركزية في الإدارة الاقتصادية حيث تتباشر الوحدات نشاطها مدفوعة بمصلحتها الخاصة ، وهذا ما كان وراء فكرة آدم سميث عن اليد الخفية التي تحقق الانسجام بين المصالح الخاصة والمصلحة العامة ، ذلك أنه يترتب على التوازن

(١) انظر في تفصيل ذلك مؤلفنا ، دروس في النظرية النقدية ، المكتب المصري الحديث ، الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٢٢ - ٤٥ ، وانظر أيضا ، أحمد جامع ، الاقتصاد الاشتراكي ، سابق الإشارة إليه ص ١٧ - ٥٥ .

(٢) تستخدم الاصطلاحات ex post, ex ante في الاقتصاد للتعبير عن « السابق » و « اللاحق » . جريا وراء استخدام السويديين وبصفة خاصة ميردال لهذه الاصطلاحات اللاتينية للتعبير عن الحساب السابق والحساب اللاحق . انظر له : G. Myrdal, L'Equilibre Monetaire, (trad.) edition Genin, Paris, 1950.

استخدام الموارد المتاحة في الاقتصاد وإنتاج السلع التي يريدها المستهلك وهو المقصود بأن هذا النظام يخضع لسيادة المستهلك .

وقد يمكن أن نقدر هذه النظرة إلى سيادة المستهلك بأن ما يظهر في السوق ليس رغبات المستهلك في ذاته ، ولكن المستهلك المزود بقوة شرائية ، بمعنى أن الأصوات Votes التي يعبر بها عن رغبات المستهلكين إنما هي أصوات موزونة أو مرجحة Weighted بحسب دخل كل منهم . فصاحب الدخل الكبير سيكون له أثر أكبر على الأمان من صاحب الدخل الصغير . وهذا هو النقد الأساسي الموجه إلى النظام الرأسمالي ، وواضح أن النقد لا يتعلق بالاعتماد على نظام السوق وإنما على كيفية توزيع الدخل . فهذه الدخل موزعة بحسب العمل والملكية ، ومن الممكن أن تناقض في مدى مشروعية دخل الملكية . ولكن هذه مسألة أخرى . وهي على أي الأحوال الأساس الذي تستند إليه معظم النظم المعارضة للنظام الرأسمالي .

ويكاد يعتبر نظام التخطيط عكس نظام السوق مفهوما على النحو المتقدم ، فالتخطيط يعتمد على مركزية القرارات الاقتصادية سواء من حيث تحديد السلع والخدمات الواجب إنتاجها أو من حيث اتخاذ الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الإنتاج ، وبذلك تحل قرارات سلطة مركزية محل قرارات وحدات المستهلكين والمنتجين اللامركزية . فالمشكلة الاقتصادية واحدة في جميع المجتمعات ولكن الاختلاف يقتصر على وسائل حل هذه المشكلة . هناك دائما موارد محدودة . صالحة لاستخدامات متنوعة وفقا للفن الإنتاجي لإنتاج ، وحاجات عديدة ، وتكمن المشكلة في اختيار الحاجات الأولى بالإشباع وفي اختيار أنسب الطرق لإنتاج السلع والخدمات التي تشبع هذه الحاجات . ويعتمد نظام السوق على قرارات وحدات لا مركزية لتحقيق هذا الاختيار ، المستهلك بالنسبة للحاجات والمنتج بالنسبة لطرق الإنتاج . أما في ظل نظام التخطيط فإن هذا الاختيار يتم على مستوى مركزي حيث تتولى سلطة عليا (أيا كان اسمها لجنة التخطيط المركزية أو أية سلطة سياسية شعبية) تحديد الحاجات وإجبة الإشباع والسلع والخدمات اللازمة لذلك ، وتفرض هذه الحاجات والسلع على المستهلكين وعلى المنتجين ، فأولئك لا يجدون سوى هذه السلع والخدمات ، وهؤلاء عليهم إنتاج هذه السلع والخدمات . ولذلك يقال بأن نظام التخطيط هو نظام كمي بالمقابلة إلى نظام السوق الذي هو نظام «قيمي». والسبب في ذلك هو أن التخطيط ينحصر في نهاية الأمر في تحديد الكميات التي تنتج كل سلعة وخدمة وتفرض هذه الكميات على المستهلكين والمنتجين على السواء . ولذلك فإن مدى توفيق هيئات التخطيط المركزية ينحصر في القيام باختيار الأهداف المناسبة التي ينبغي تحقيقها ، ومن ثم السلع والخدمات الواجب إنتاجها ، وكذلك في تحقيق الانسجام والتناسق بين هذه الأهداف المختلفة وبينها وبين الوسائل المتاحة للإنتاج من موارد وفن إنتاجي . وتقوم الفكرة الأساسية في ذلك على أنه في كثير من الأحوال لا يمكن الارتكان إلى رغبات الأفراد التي يقتضها العلم ويفلب عليها قصر النظر ، ومن ثم فإنه يمكن أن تكون أهداف الخطة أكثر اتفاقا مع مصلحة الأفراد والمصلحة العامة مما لو تركت الأمور للأفراد وحدهم وتركهم تحت تأثير الجهل والدعائيات . وليس معنى قيام سلطة مركزية بتحديد أهداف الإنتاج أنها لا تراعي رغبات هؤلاء وتفرض عليهم سلعا وخدمات لا يريدونها أصلا .

فرغبات الأفراد تدخل ولا شك في اعتبار سلطات التخطيط المركزية ولكنها لا تعتبر المبرر الوحيد للإنتاج كما في ظل نظام السوق ، بل تدخل هناك اعتبارات أخرى من تقرير المصلحة العامة ، مما قد يفصل عنه الأفراد . كذلك فإن سلطات التخطيط المركزية لا تقتصر على وضع قائمة بالأهداف الواجب تحقيقها وإنما ينبغي أن تراعي أن يتحقق التناسق بين هذه الأهداف وبعضها وبينها وبين الوسائل المتاحة لها . وبعبارة أخرى ينبغي أن تضمن الخطة التوازن في الاقتصاد ، فلا يكفي تقدير ضرورة إنتاج كمية كذا من هذه السلعة دون التأكد من توافر القدرة على ذلك .

وبذلك فإن الخطة تضمن تحقيق التوازن مسبقاً بين الطلب والعرض وفي هذا تختلف الخطة عن السوق فالتوازن في الخطة هو توازن مسبق ex ante ويتحقق التوازن اللاحق Ex post وفق تقديرات الخطة إذا كانت الخطة سليمة ، ولا يتحقق التوازن اللاحق وتظهر اختلالات إذا لم يكن التخطيط سليماً أو طرأت عوامل لم يكن من السهل توقعها .

ولا يعني القول بأن التخطيط يتضمن توزيعاً للموارد أن الائتمان لا تستخدم ، فالواقع أنه نظراً للتنوع الشديد بين عناصر الإنتاج المستخدمة وبين السلع والخدمات المنتجة لا بد من استخدام وسيلة واحدة للقياس ، وهي بالضرورة النقود ، مما يؤدي إلى أن تظهر الكميات الاقتصادية في شكل قيم . بالإضافة إلى أنه في جميع الدول الاشتراكية وفي الظروف العادية لا توزع الدخل بشكل عيني وإنما في شكل نقدي ، والمستهلك يوزع هذا الدخل النقدي على السلع الموجودة بالسوق . ولكن هذه الائتمان والقيم التي تظهر في السوق ليس لها أكثر من دور محاسبي تحت بالنسبة لسلطات التخطيط ودور توزيعي بالنسبة للمستهلكين ، ولكن ليس لهذه الائتمان أي تأثير على القرارات الاقتصادية المتعلقة بالإنتاج ، على الأقل ليس بشكل مباشر . فارتفاع ائتمان سلعة نتيجة لزيادة الطلب عليها وظهور سوق سوداء أو اختفاؤها كلية من السوق لا يؤدي إلى زيادة عرض هذه السلعة لأن الإنتاج مرتبط بالخطة وليس برغبات الأفراد كما تظهر في السوق . على أن ذلك لا يمنع مسلمات التخطيط من أن تأخذ هذه المؤثرات في الاعتبار عند وضع الخطة الجديدة أو عند تعديل الخطة القائمة .

وخلاصة القول أن التخطيط ، في الأصل ، نظام يقوم على قرارات تصدر من سلطة مركزية وبحيث تراعي تحقيق التوازن مسبقاً بين الطلب والعرض في الاقتصاد (١) .

مما تقدم قد يبدو أن نظامي السوق والتخطيط على طرفي نقيض ، ولكن الواقع أن تطور المجتمع الصناعي الحديث قد جعل منهما أمرين متكاملين بحيث نلاحظ من ناحية مزيداً من التدخل والتخطيط في الدول الرأسمالية ، ونلاحظ من ناحية أخرى مزيداً من الحرية وترك المجال للسوق في الدول الاشتراكية . وهكذا يكاد يبدو التنظيم الحالي للمجتمع الصناعي الحديث كمزيج من القرارات المركزية والقرارات اللامركزية وأن كان ذلك بدرجات متفاوتة بين الدول المختلفة .

سبق أن شئنا إلى أن النظام الرأسمالي قد تطور تحت ضغط حاجات المجتمع الجديد وأن المنافسة الكاملة لم تعد سوى حالة استثنائية من حالات السوق . فالأصل هو المشروعات الصناعية الكبرى والتي تؤثر بقراراتها المنفردة في الائتمان ، ومن ثم في الكميات المعروضة والمطلوبة . ومن الواضح أن قرارات هذه المشروعات الكبرى لا يمكن اعتبارها مظهراً من مظاهر اللامركزية وإنما على العكس هي صورة للمركزية التي تباشرها هذه المؤسسات الصناعية الكبرى . ومن هنا نفهم المقصود عادة من القول بوجود مراكز قوى خفية في الدول الرأسمالية . كذلك سبق أن أشرنا إلى أن التطور الذي لحق النظام الرأسمالي نتيجة لزيادة الاستهلاك قد جعل التدخل لحفظ مستوى الطلب الفعلي أمراً ضرورياً ، وهذا هو ما قامت به نظرية كينز على ما سبق أن أشرنا إليه وبالمثل فإن تدخل الحكومات الغربية لم يقتصر على توفير ميسل مقبول من الطلب الفعلي إذا

(١) لا خلاف نظري فيما عسى حول إمكان الوصول إلى تحقيق الكفاءة الاقتصادية في ظل النظام الاشتراكي حيث شكك في ذلك بعض الاقتصاديين ، ولكن هذه القدرة على تحقيق الكفاءة أصبحت أمراً مستقراً من الناحية النظرية وخاصة بعد كتابات أوسكار لانجر ، راجع في ذلك مقالنا ، النظرية الاقتصادية وكفاءة الإنتاج في ظل النظام الاشتراكي ، الأهرام الاقتصادي ، ١٥ فبراير ١٩٦٦ .

كانت ظروف الكساد سائدة كما كان الحال في الثلاثينيات وانما امتد تدخل الحكومات بالسياسة الاقتصادية الى فرض تحقيق النمو الاقتصادي بالأغصاة الى بعض الاهداف الاجتماعية الأخرى مثل التعليم والصحة وغيرها . ولذلك فاننا نجد ان هناك اتجاهات متزايدة في الدول الرأسمالية الى الإخل بأسلوب أو بآخر من التخطيط . ونجد ذلك واضحا في فرنسا وفي الدول الاسكندنافية وفي هولنده ، كما نجده في إنجلترا وبدرجة اقل في الولايات المتحدة الأمريكية .

كذلك فان نظام التخطيط وان كان معادلا تماما لنظام الائتمان من حيث امكانية الوصول الى تحقيق الكفاءة الاقتصادية (١) الا ان تطور المجتمع الصناعي يجعله غير كاف لمواجهة حاجات هذا المجتمع المتقدم . ذلك ان نقطة البداية التي يعتمد عليها نظام التخطيط هي إمكان توافر العلم الكامل لدى سلطات التخطيط المركزية بما يجعلها في وضع أفضل من الوحدات اللامركزية عند اتخاذ القرارات ، وبذلك تستطيع تلك السلطات ان تتجنب الكثير من الضياع والفقد ؛ نتيجة عدم وجود تنسيق مسبق بين القرارات . وهذا العلم ينبغي ان ينصرف الى عناصر القرار الاقتصادي وهي :

١ - ترتيب أولويات الحاجات في الجماعة .

٢ - الموارد المتاحة للمجتمع .

٣ - الفن الانتاجي المتاح .

وهذه الأمور يسهل توافر العلم الكامل بها ، أو على الأقل قدر كاف من العلم بها إذا كان المجتمع في أول مراحل التنمية (أو قامت ظروف استثنائية مثل الحروب) حيث لا تقوم خلافات كبيرة من حيث الاهداف : التنمية السريعة من طريق التصنيع . كذلك بالنظر الى قلة الموارد وضعف الفن الانتاجي المتاح في أول مراحل التنمية فان الاختيارات التي تعرض بالفعل تكون محدودة مما يمكن معه لسلطات التخطيط المركزية الاطاحة بها واتخاذ قراراتها على أساس معقول .

ولكن الأمر يكون غير ذلك اذا تقدمت الدولة وعرفت خصائص المجتمع الصناعي الحديث . فهنا يكاد يكون العلم التام أمرا مستحيلا ، ومن ثم فان قرارات التخطيط المركزي لا بد ان تكون قاصرة . كذلك فان محاولة توفير المعنومات لن تؤدي الا الى زيادة أجهزة جمع المعلومات وتحليلها والرقابة عليها مما يؤدي الى ازدياد النفقات وعرقلة سرعة القرارات . وقد لاحظ أحد الاقتصاديين الروس ان استمرار معدل الزيادة الحالي في العاملين في جمع المعلومات وتحليلها والرقابة عليها بما يرتبط بأجهزة التخطيط والمتابعة والإحصاءات والحسابات . . سيؤدي بالاتحاد السوفياتي الى استخدام أكثر من ثلثي قوته العاملة في هذه الأجهزة قبل نهاية القرن .

ولذلك فانه من الضروري ، ولاعتبار عملي يحد ، الانتقاء الى نوع من أسلوب الإدارة اللامركزية في الدول الاشتراكية المتقدمة . ولذلك فقد ظهرت في الدول الاشتراكية المتقدمة صنائيا دعوات للإصلاح الاقتصادي وللأخذ بصور من أساليب السوق في تحديد الأذواق المستهلكين ونوع السلع والخدمات التي تنتج ، وترك المشروعات تنتج وفقا للأسلوب الذي يناسبها لتخفيض

(١) انظر في التنازل التام بين نظام التخطيط الشامل ونظام الائتمان في المناقشة الكاملة وباستخدام الأساليب الرياضية في البرامج الخطية Linear Programming حيث يكون أحد النظامين البرنامج الأولي Primary Program والثاني البرنامج الثنائي dual program

T. C. Koopmans, Three Essays on the State of Economic Science, New York, Mc Grow Hill, 1957, PP. 40 et seq.

نفقة الانتاج، ومن ثم ترك بعض الحرية لها في تحديد الفن الانتاجي المناسب . وهذا في الواقع هو المدلول الحقيقي للدعوة الى الاخلاص بفكرة الربح في المشروعات في الدول الاشتراكية. وليس المقصود هو العودة الى نظام الملكية الخاصة للدول الرأسمالية ، وإنما الفرض أن يكون توجيه الانتاج ، على الأقل في جزء منه ، وفقا للقرارات اللامركزية كما تظهر في السوق من جانب المستهلكين والمنتجين . وبذلك يعتبر معيار الربح مظهرا لفكرة السوق اللامركزية .

وهكذا نستطيع أن نلمح تقاربا بين النظامين ، وأن السوق والخطة ليسا متعارضين كما قد يبدو للوهلة الاولى وإنما هما أسلوبان متكاملان . الخطة تبين الاختيارات الأساسية للمجتمع للمستقبل والسوق تقوم بالتنفيذ اليومي وتحقيق الاجراءات اليومية والتفصيلية اللازمة لتنفيذ هذه الخطة (١) . وهذه الخطة ضرورية في كل مجتمع حديث ، فقد سبق أن أشرنا الى أن الحساب الاقتصادي هو من أهم خصائص هذا المجتمع . والخطة لا تعدو أن تكون تطبيقا لهذا المبدأ على الاقتصاد في مجموعه . ولكن هذه الخطة ينبغي أن تكون اجمالية وقيمة وليست تفصيلية وكمية ، وأن تقتصر على السياسات العامة . وفي نفس الوقت يقوم السوق بالتنفيذ اليومي لهذه الخطة الإجمالية .

وفي جميع الأحوال وسواء عند اتخاذ القرارات الاقتصادية المركزية المتعلقة بالخطة اجمالية أو القرارات الاقتصادية اللامركزية المتعلقة بمتابعة السوق فإن المشاكل المطروحة تجتمع لدور الفئتين فيهما كبيرا على النحو الذي تعرضنا له فيما سبق .

عناصر القلق - الطلبة والمثقفون

قد يبدو مما تقدم أن المجتمع الصناعي الحديث ، وقد خلص الإنسان من هبائه حاجاته الضرورية وفتح آفاقا بعيدة للانتاج ومن ثم للاستهلاك قد حقق أخيرا حلم الإنسان في الحياة : حياة هادئة هادفة . ولكن الحقيقة غير ذلك تماما فإن هذا المجتمع وقد تمكن من القضاء على نوع خطير من المشاكل التي صادفت الإنسان - ربما الأصح القول وقد بدأ يواجه نوعا جديدا من المشاكل ، الندرة في توفير الإشباع للحاجات الضرورية ، فإنه نفسه قد بدأ يواجه نوعا جديدا من المشاكل ، وهذا النوع الجديد من المشاكل لم يعد تغلب عليه الصفة الاقتصادية بقدر ما تغلب عليه الطابع النفسي والثقافي . فلم يعد التساؤل الرئيسي كيف يمكن توفير الإشباع الأساسي للحاجات الضرورية لوجود الإنسان وإنما أصبح التساؤل عن نوعية هذا الوجود والهدف منه ، ولم يقتصر التساؤل عن مستوى المعيشة وإنما جاوز ذلك الى نوع المعيشة (٢) . ولا تقتصر مشاكل هذا المجتمع الجديد على تغيير في نوعها وفي التساؤلات المطروحة ، وإنما ترتب على ذلك بالضرورة تغيير في أشخاص المتساقلين والثائرين ، بحيث كانت المشاكل المطروحة بالدرجة الاولى مشاكل اقتصادية وتوفير الحاجات الضرورية للأفراد ، كان من الطبيعي أن تصدر صيحات التغيير - والتمرد من الفئات المهضومة اقتصاديا أو المتحدنين باسمهم مثل العمال . أما الآن وحيت تغيرت المشاكل وأصبحت ذات طبيعة ثقافية ونفسية بالدرجة الاولى فإن مصدر القلق والتمرد قد انتقل من نقابات العمال الى الشباب بصفة عامة والطلبة والمثقفين بصفة خاصة . وهذا ما أدى الى ظهور شعارات جديدة

(١) انظر في هذا الموضوع مشروع الخطة الخاصة الفرنسية

Projet du Rapport sur les Principales Options du V Plan. Commissariat general du Plan d'Equilibrement et de Productivite, Paris, September, 1964.

(٢) لعل من أوائل من اشاروا الى أهمية التفرقة بين مستوى المعيشة ونوع المعيشة J. Fourastie. Le Grand Espoir du XX Siecle, P.U.F. Paris, 1958. انظر كتابه : genre de vie

مثل « ثورة الشباب » و « الثورة الثقافية » وغير ذلك (١) . ونود الآن أن نتعرض لهذه المظاهر بشيء من التفصيل .

سبق أن أشرنا إلى أن « المجتمع الصناعي الحديث » بقدرته الفنية الهائلة يعمل على زيادة الانتاج باستمرار ومن لم خلق عادات جديدة للاستهلاك للأفراد . وهذا المجتمع في سعيه المستمر لزيادة الانتاج والاستهلاك لا يستهدف سوى مزيد من الانتاج ومزيد من الاستهلاك . فهو جرى محموم دون ما أي هدف ظاهر . ولعل من الأمثلة التي تعبر رمزيا عن طبيعة هذا المجتمع هو ما نراه في هذا العصر الحديث من « حب السرعة » ولذلك يسمى عصر السرعة ، فالشباب يقبل على ركوب السيارات السريعة ويقودها بسرعة جنونية ، وتتنافس الشركات في أخراج نماذج من سيارات أكثر سرعة ، الكل يريد أن يجري بسرعة ، ويريد أن يسبق . ولكن لماذا ؟؟ أن يسبق ماذا هذه أسئلة لأجابه عنها ، فالهم هو مزيد من السرعة ، وهذا هو شأن مجتمع الاستهلاك ، مزيد من سلع الاستهلاك ، ولكن أي سلع ، ولماذا ؟ فهذا أمر لم يطرحه مجتمع الاستهلاك . وقد بدأ يعاني منه .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن المجتمع الصناعي الحديث في سعيه لمزيد من الانتاج والاستهلاك يستخدم المواد الضخمة وبكميات كبيرة للتأثير في أذواق المستهلكين وتوجيههم نحو الاستهلاك أكثر وأكثر . وبذلك فإن هذا المجتمع بكمياتيه الضخمة يصل على قدر دور الفرد على مجرد وحدة لاستهلاك ما يقدم له في السوق ، دون أن تكون لإرادة هذا الفرد أي دور يذكر . وفي اختيار السلع والخدمات التي تطرح في السوق فإن ما يراعى هو مدى قدرة الفن الانتاجي على المزيد من الانتاج دون أية إشارة إلى أثر هذه السلع والخدمات على تنمية قدرات الفرد وإمكاناته الثقافية والإنسانية بما يود عليه بنفع حقيقي . ولذلك فإن مشكلة حرية الفرد هي جوهر المشاكل الجديدة لمجتمع الاستهلاك . فحرية الفرد هي في تنمية إمكاناته وقدراته الذاتية والتي تمكنه من الإبداع والابتكار والمساهمة في حياة المجموع مساهمة ذاتية يشعر فيها بدوره العطاوي وهو متحصر من كافة القيود ، وسواء أكانت قيودا قانونية أم قيودا اقتصادية . ولم يكن من حق الفرد دائما المساهمة في أمور الجماعة التي ينتمي إليها ، بل كان هذا الحق قاصرا على فئة معينة من الأشراف والنبلاء . وقد حققت الثورة الديمقراطية حق الفرد ، كل فرد ، في المساهمة في أمور الجماعة التي ينتمي إليها دون أي عائق قانوني ، كذلك فإن الحاجة الاقتصادية تعوق الفرد دون الاسهام الحقيقي في أمور جماعته رغم تقرير هذا الحق قانونا له . ولذلك فإن حرية الفرد تظل نظرية ما لم يتوافر له القدر الضروري اللازم لحفظ مستوى معيشة معقول وقدر معقول من العلم والمعرفة . ولعل الثورة الاشتراكية قد قامت لتوفر هذه الحرية الاقتصادية لطبقة العمال . ولكن ذلك لا يكفي إلا بد من توفير الظروف النفسية والثقافية الضرورية لإبداع الفرد ، ولذلك فقد كان من الشعارات الطريفة التي رفعت أثناء ثورة الطلبة في فرنسا في مايو ١٩٦٨ والتي كتبت على جدران السوربون : « الثورة البرجوازية ثورة قانونية ، والثورة البروليتارية ثورة اقتصادية أما ثورتنا فهي ثورة ثقافية نفسية » (٢) . وقد سبق أن أشرنا إلى أن المجتمع الصناعي الحديث يؤكد على ضرورة نمطية الاستهلاك ومن ثم تأكيد الذوق الجماعي للاستهلاك دون أية مراعاة لتنمية الأذواق الفردية

(١) انظر في تحليل ثورة الطلبة في فرنسا ، كتابنا عن مجتمع الاستهلاك ، سابق الإشارة إليه .

(٢) استخدم الطلبة في فرنسا في أثناء ثورة مايو ١٩٦٨ طريقة جديدة في الاعلام وهي كتابة الشعارات على جدران الكليات والمعاهد وذلك تشبها بصاحب الطاق الذي ظهرت في الصين مع ظهور أول صحيفة ثم أعيدت في أثناء الثورة الثقافية أخيرا . وقد جمعت هذه الشعارات في كتيبات صغيرة تحتوي على ما كتب في ذلك الوقت ، انظر

Les Murs ont La Parole, mai 68, editeur Tchou, France Paris, 1968

ومن ثم الابداع . وقد عبر أحد الفلاسفة المعاصرين « ماركوز » ومن أكثرهم تفهما لمشاكل العصر - عبر عن الانسان المعاصر بأنه « الانسان ذو البعد الواحد » وذلك في كتابه بهذا الاسم : One dimensional Man (١)

ويرى ماركوز أن الانسان في علاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه : يمكن دائما أن يميز بين بعدين لهذه العلاقة : البعد الأول هو الاندماج والتلاؤم ، والبعد الثاني هو المنازعة والرفض . وفي كل المجتمعات نجد أن الفرد يحتفظ في علاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه بهذين البعدين : الاندماج من ناحية ، والمنازعة من ناحية أخرى . فكل حضارة تطبع أفرادها بنوع من التشابه، ولكنهم أيضا مختلفون . وهذا التشابه والاختلاف هو الذي يحفظ للفرد توازنه داخل المجتمع الذي يعيش فيه . ويرى ماركوز أن مجتمع الاستهلاك خلافا لغيره من المجتمعات السابقة يتجه نحو الفناء جانب المنازعة أكثر فاكث ، ومن هنا نجد أنفسنا في ظل حضارة تميل الى غلبة بعد الاندماج على حساب بعد المنازعة ، أن الانسان ذا البعد الواحد هو صورة الانسان الحديث . فمجتمع الاستهلاك من طريق قدرته الفائقة على زيادة انتاج سلع الاستهلاك ومن ثم رفع المستوى المادي لأفراده ، يتجه في الواقع الى الفناء جانب المنازعة لتصبح شكلية فقط . ومع ذلك فالقدرة الهائلة التي يتمتع بها المجتمع الصناعي الحديث لم تخلق مجتمعا ذا وجه أكثر انسانية بل لعل العكس هو الصحيح . ولننظر حولنا .

بالرغم من مظاهر الثراء التي تتمتع بها الدول الصناعية المتقدمة وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية لا زالت هناك جزر للفقر تعيش وسطها . وبكفي النظر الى مشكلة الزواج والأقليات في الولايات المتحدة الأمريكية لمعرفة الى أي حد يتعايش مجتمع الوفرة مع مجتمع الندرة . والأمير ليس متعلقا فقط بسوء توزيع الثروة والدخول وإنما هو أخطر من ذلك بكثير . فنحن نعرف أن النمو بطبيعته ليس متوازنا سواء من ناحية القطاعات المختلفة أو من ناحية التوزيع الجغرافي . فهناك دائما قطاعات اقدر على تحقيق معدلات من النمو أكثر من غيرها ، ونفس الشيء بالنسبة للمناطق الجغرافية المختلفة . وتقوم السياسات الاقتصادية المختلفة بالعمل على تخفيف هذا التفاوت .

ولكن مشكلة الزواج والأقليات في الولايات المتحدة الأمريكية ليست مجرد مشكلة نمو غير متوازن ، فهي مشكلة حضارية ، حيث لا يتوافر لهؤلاء القدر اللازم من الرعاية الثقافية والاجتماعية التي تسمح لهم بالانتماء حقيقة الى المجتمع الذي يعيشون فيه ، ومن ثم يسايرون التقدم القائم فيه . فوجودهم في هذا المجتمع إنما هو وجود مادي دون أي انتماء حقيقي . ومن ثم فإن هذا التقدم المادي الرهيب لم يستطع أن يوفر لهؤلاء الفرصة المناسبة لتنمية قدراتهم الذهنية وغيرها للمشاركة الحقيقية في المجتمع الذي يعيشون فيه .

وليس الأمر متعلقا فقط بهذه الأقليات العنصرية بل أن الفرد العادي لا يستطيع الادعاء بأنه أكثر حرية في هذا المجتمع الحديث . فالصورة التي أخذها التقدم المادي في الولايات المتحدة الأمريكية مثلا تقتصر على المزيد من الحصول على السلع الاستهلاكية المشكوك في منفعتها الحقيقية ، في حين أن حاجات أساسية للفرد لا زالت بعيدة عن متناوله . فالخدمات الأساسية لا زالت في الولايات المتحدة الأمريكية خدمات غالية نسبيا بالمقارنة الى أهميتها : الخدمات الصحية والتعليم الجامعي والعالي تستنفد جزءا باهظا من ميزانية الفرد بالرغم من حيوية هذه الخدمات لتنمية قدرات الفرد ذاته . ورغم الأهمية الهائلة التي يحتلها العلم والبحث

(١) الفيلسوف ماركوز ونحن نشر الى الترجمة الفرنسية

H. Marcuse, L'Homme Uni dimensionnel, édition de minuit, Paris, 1968.

العلمي على ما سبق أن أشرنا إليه ، فإن النظرة إليه تنحصر في اعتباره وسيلة لتمكين المجتمع من استخدام فنيين أكثر لزبد من الانتاج . أما المعرفة باعتبارها حاجة إنسانية ، وضرورة فردية لاثراء شخصية الفرد وتنمية ملكاته وذوقه في التمتع بالحياة وفي الاسهام فيها - فهو أمر غير وارد في منطق المجتمع الصناعي الحديث بالشكل الذي تحدثنا عنه . ومن هنا نستطيع أن نفهم أن التسهيلات التي تعطى في الجامعات ومراكز البحوث من منح دراسية وأعانات وتمويل تقتصر غالبا على ما تظهر نتائجه من السوق في شكل انتاج أو ترغيب أكثر للأفراد على مزيد من الاستهلاك . وهذا ما يظهر الاختلال وعدم التناسب في ميزانيات القسروع العلمية ذات الارتباط المباشر بالسوق والفروع العلمية البعيدة نسبيا عن اقتصاد الانتاج والاستهلاك . وقد انعكس هذا الاختلال على الفرد الحديث ، فهو ماديا عنصرتقدم جدا ويستطيع أن يدير وأن يحرك قوى رهيبه وكفاءة كبيرة ، ولكنه إنسانيا وإخلاقيا لاأزال عنصرا متخلفا ، وتحركه نفس النوازع والرغبات التي نجدها عند القبائل البدائية ، فالتقدم الذي حققه الإنسان في الميادين المادى اكبر بكثير مما حققه في الميادين الأخلاقى . فلم يحدث أى تفيا يذكر في وعى الفرد وفي دوافعه . وليس من الغريب أن تظهر في هذا المجتمع مشاكل خطيرة مثل الجريمة . وهي ليست جريمة لأسباب اقتصادية ، وإنما هي أشبه بالجريمة في ذاتها : الجريمة المطلقة . وأن ما يهز المجتمع الأمريكى حاليا هو انتشار هذا النوع من الجرائم التي تعبر عن الاختلال الحقيقي في ما بين التقدم المادى وبين تقدم الوعى الإنسانى وهو ما لم تضف إليه حضارة الاستهلاك شيئا يذكر .

كذلك فإنه من المخجل في هذا العصر الذى بلغ فيه التقدم العلمى والفنى الى هذا المدى البعيد من السيطرة على القوى الطبيعية ، ومن القدرة على زيادة الانتاج وترشيده - أن نرى أكثر من لثى العالم يعيشون في بؤس وعلى حافة الهلاك جوعا . ومن الأسباب التي ساعدت على ذلك ما تقطعه ميزانيات التسليح ، وفي الواقع فإن النمو الهائل لصناعات التسليح يعبر بشكل كبير عن منطق « المجتمع الصناعى » ، فليس حقيقيا ولا مقنعا الآن أن التسليح في هذه الدول يتم لابعاد خطر الحرب وضمان السلام . وليس حقيقيا ولا مقنعا أيضا أن هذه الميزانيات الضخمة للتسليح إنما تحمي مصالح الدول . ولكن صناعات التسليح من الصناعات الرائدة في التقدم التكنولوجى . والتوسع في هذه الصناعات إنما هو التصباغ طبيعى لمنطق المجتمع الصناعى : مزيد من الانتاج ومزيد من الاستهلاك . فأكثر الصناعات التي عرفت نموا هائلا سواء من ناحية حجم الانتاج أو من ناحية الاكتشافات والأخذ بأساليب جديدة في الانتاج كانت هي الصناعات المرتبطة بالتسليح . ويصدق ذلك على الولايات المتحدة الأمريكية كما يصدق على الاتحاد السوفياتى . ولذلك فإن سباق التسليح ليس أمرا متعلقا فقط بالسياسة الدولية والتوازن الدولى بين القوى بل إنه أمر داخلى في طبيعة المجتمع الصناعى ذاته ولذلك فإن الكاتب الأمريكى Mills يخشى من طبقة الفنيين لسيطرة مايسميه بالبينافيزيقا العسكرية Military metaphysics (١) على تفكيرهم بما لهذه الصناعات من تقدم تكنولوجى هائل ومن ثم جاذبية خاصة على هؤلاء الفنيين المرضى بزيادة الانتاج ، أى انتاج « ومن الطبيعى أن ترتب على هذا السلوك مشاكل ضخمة تهز الضمير الإنسانى . فتظهر حرب فيتنام ويحارب الشباب الأمريكى حربا لا يعرف هدفا لها ، وتدخل قوات حلف وارسو تشيكوسلوفاكيا لحماية الحلف ، ضد من ؟

وهكذا نجد أن المجتمع الصناعى الحديث قد طرح تساؤلات عديدة وظهر وكأنه غير كاف وغير قادر على تحقيق حرية الفرد . ومن هنا ظهرت عناصر جديدة للقلق والاضطراب في هذه

1. C. Wright Mills, *The Causes of World War Three*, Simon & Schuster, 1958 PP. 37-50.

المجتمعات . وقد كان الشباب والجامعات بوجه خاص مصيد هذه الحركات الجديدة . ولذلك علينا أن نتساءل لماذا الشباب ولماذا الجامعات والمنقوفون ؟

توافرت للشباب في العصر الحديث عدة ظروف جعلته أكثر قدرة على التأثير على أمور المجتمع الذي يعيش فيه ، وسيظهر أثر ذلك بشكل أوضح في السنوات القادمة . فالتقدم في العلوم وفي المواصلات مكنت الشباب في سن مبكرة من تحصيل قدر كبير جدا من المعلومات المتنوعة والتي ما كان يستطيع اكتسابها في الماضي إلا في فترات أطول من ذلك بكثير . وبالمثل فإن مجتمع الرخاء قد رفع من كاهل الشباب الاحساس بالمسؤولية من ناحية الحصول على دخل في المستقبل، فالإنتاج قد توسع مستمر وظروف الكسب موجودة دائما، وبذلك أصبح للشباب فرصة أكبر للتأمل والتفكير في المشاكل العامة وعدم الاقتصار على مشاكله الخاصة . ولعل أهم ما ساعد الشباب على بلورة دورهم في تغير المجتمعات التي يعيشون فيها هو فشل تجربة الكبار والناشجين في توفير مجتمعات مقبولة . فالشباب دائما أكثر خيالا وأكثر اقديما ، ولكن تنقصه الخبرة ، والخبرة لا تكتسب إلا بالسن . ولكن ماذا فعلت الخبرة والتجربة ؟ كما يقول توفيق الحكيم في حوار مع ابنه من تلاميذ الأجيال عن كيفية نقد الشباب لنوثر الأباء « جاءت الحروب والكوارث والمجاعات وفتحت أبواب جهنم الأرضية على صورة رهيبة ، وكان الشباب هو الحطب والوقود وأدرك أن كل ذلك وقع بتوجيه الجيل السابق . هنا بدأ يتساءل : وأين قيمة الخبرة إذن ؟ إن الشيوخ لا يستفيدون من أخطائهم عبر التاريخ » (١)

وإذا كنا قد رأينا أن سمة المجتمع الجديد هو « الإنسان ذو البعد الواحد » فإن الشباب وبوجه خاص الطلبة يحتلون مركزا خاصا في هذا المجتمع . فإذا كان الاتجاه الغالب في هذا المجتمع هو نحو مزيد من الاندماج والفاء جانب المنازعة والرفض إلا أن الطلبة بحكم تكوينهم الثقافي وبحكم المثالية التي تحكم سلوكهم ، يكونون يعيدون بعض الشيء عن هذا الاتجاه الغالب .

ولذلك نجد الطلبة في جميع دول العالم يمثلون فئة مستقلة تكاد تقوم للمجتمع بوظيفة الضمير والحساب ، وهو أمر أصبح مستحيلا عند الطوائف الأخرى بالنظر إلى المسؤوليات التي يتحملونها ، وبالنظر إلى الكسب المادي المستمر الذي يحققونه في ظل هذا المجتمع . وبعبارة أخرى فإن مجتمع الطلبة لا زال يمثل عنصر الطهارة ، وربما يمكن أن نقول العذرية في وسط مجتمع فقد عذريته واستراح إلى جانب الكسب المادي والاندماج على حساب المنازعة والرفض . فالواقع أن الطلبة يوجدون خارج حلقة الإنتاج بالمعنى الضيق . ومن الواضح أن هذا النوع من الحياة يحفظ لهم استقلالهم في مواجهة المجتمع ويمكنهم أكثر من غيرهم من مناقشة المبادئ التي يقوم عليها . ولذلك نجد الطلبة أكثر من غيرهم قدرة على الاحتفاظ بمسافة معينة من مجتمع الاستهلاك مما يمكنهم من مناقشة هذا المجتمع ، فهم غرباء عنه ، ولذلك فهم أكثر الطبقات ثورية . وإذا كان ماركس قد حددنا من ثورية طبقة البروليتاريا ، فينبغي أن نذكر الأصل الذي جاء منه هذا الاصطلاح ، فهو يعني عند الرومان الأجانب من المدينة والذين لا يتمتعون تبعه لذلك بحق الملكية . وقد رأى ماركس أن العمال يعتبرون في الواقع خارجين عن المجتمع الرأسمالي لأنهم لا يتمتعون بحق الملكية . ولنا أن نتساءل اليوم عما إذا كانت هناك حاجة إلى العودة إلى المعنى الأصلي للبروليتاريا فهم الأجانب من المدينة ولو تمتعوا بحق الملكية . فالطلبة في الجامعات وهم أبناء الطبقات المستريحة هم أكثر العناصر ثورية في المجتمعات المتقدمة ، فهم الغرباء عن هذا المجتمع .

والواقع أنه مما ساعد على الدور الذي يلعبه الطلبة هو نشوء الوعي الجماعي بينهم . فقد نشأ

(١) مقال لتوفيق الحكيم عن تلاميذ الأجيال نشر في جريدة الأهرام في ١٩/١٢/٦٩ . القاهرة

وعى طلابي يجمع بينهم ، ومعا ساعد على دخولهم المسرح السياسي كما فعلت طبقة العمال عندما دخلت المسرح السياسي في القرن الماضي . وقد كانت الفكرة السائدة هي أن وجود الطلبة مع بعضهم البعض وجود عرضي ، كما يوجد عدد من الركاب في سيارة أتوبيس مثلا ، فلا يمكن أن نتحدث عن وعي جماعي بينهم ومن ثم من عمل جماعي . ولكن الأحداث بينت وجود رابطة قوية بين الطلاب وأكدت نشوء الوعي الطلابي . وهذا ما أظهرته أحداث الطلبة في مختلف دول العالم . ولم ينجح الطلبة في تكوين وعي جماعي وتحقيق التضامن فيما بينهم فحسب ، وإنما وصلوا أو كادوا إلى ما لم تصل إليه حركة العمال بعد ، وهو « الدولية » أو « الأممية » . فالتضامن بين الطلبة حركة مثالية تستهدف خير الإنسان وتجاوز الحدود الإقليمية وساعد على ذلك ما سوف نشره إليه من دور الثقافة الحالية باعتبارها ثقافة عالية تؤكد وحدة الفكر والمشاعر . ومن ثم فإن الطلبة قد جاوزوا في كثير من الدول المشاكل الإقليمية الضيقة وظهرت حركات تضامن مع شعوب وقارات أخرى . وليست حركات التضامن مع شعب فلسطين أو فيننام إلا مظهرا من هذه الحركات . وغني عن البيان أن مصدرها الأساسي هو جمهور الطلبة . فالتضامن بين الطلبة حقيقي ، وهو يجاوز في كثير من الأحوال الحدود السياسية : « يا طلبة العالم اتحدوا » .

ومنازعة المجتمع الجديد لا تأتي فقط من جانب الطلبة والشباب ، ولكن يساهم فيها جمهور المثقفين والجامعة بوجه خاص . وإذا كنا قد رأينا أن المجتمع الجديد يقوم في الواقع على أكتاف الفنيين وتغلب عليه قيم هؤلاء ، إلا أنهم من ناحية أخرى وبخاصة ذلك النوع ذو الثقافة المتنوعة والخيال الواسع هم أنفسهم الذين سيقومون بمناقشة قيم هذا المجتمع . وقد سبق أن أشرنا إلى الأهمية المتزايدة التي تمثلها الجامعة ومراكز البحوث في المجتمع الجديد . ولكن الجامعة ليست فقط مجرد مكان لتطوير وسائل جديدة للإنتاج ، الجامعة لا زالت تقوم على المعرفة والعلم في سبيل أسعاد الإنسان والرفي به . ولعل الميزة الأساسية التي مكنت الجامعة من القيام بالبحث والتقدم العلمي هو تلك القدرة على النقد والمحاولة المستمرة لمجاوزة الحاضر . فليس في العلم مسلمات : كل شيء قابل للنقاش ، وحقيقة اليوم لم تكن معروفة بالأمس بل وربما كان الاعتقاد سائدا بعكسها ، بل وحقيقة اليوم قد تصبح غدا نظرية قاصرة أو غير صحيحة . ولذلك فإن أهم كسب حققه العلم والبحث العلمي هو تلك القدرة المستمرة على الرفض والنقد ، فليس هناك ما يرفع على المناقشة . وبهذه العقلية الجدلية فإن الجامعة التي ساهمت أكبر المساهمة في تدمير المجتمع الصناعي الجديد ستكون أحد المراكز الأساسية لمناقشة الكثير من المبادئ والقيم التي نشأت عنها والتي أثرت على حرية الفرد .

كذلك فإن الاختلال الواضح بين التقدم في المبدان التكنولوجي وبين الركود أو التقدم البطيء في ميدان القيم والوعي كان له أثره على الجامعة ومراكز البحوث . فقلد أدى تزايد الاهتمام بالدراسات والبحوث ذات التطبيقات الصناعية أن ظهر مدى النقص في الدراسات والإبحاث الإنسانية والكلاسيكية مثل الآداب والفنون والكثير من العلوم الإنسانية . هذا النقص والقصور بدأ يثير مخاوف المثقفين والعلماء أنفسهم . ومن هنا بدأت تظهر في الجامعات اتجاهات لمقاومة هذا التركيز على الميادين « العلمية » ومحاولة إيجاد نوع من التوازن بينها وبين الميادين الفنية والكلاسيكية من أجل خلق إنسان أكثر تكافؤا وتوازنا من حيث المستوى المادي والمعنوي في نفس الوقت . وساعد على ذلك أن الكثيرين من العلماء في الميادين ذات التطبيقات الصناعية المتقدمة بدأوا يشعرون أنهم يفتقدون نوع من التقدم المادي إذا لم يكن مصحوبا بتقدم مماثل في ميدان الوعي والفكر الإنساني . ولذلك فإن ظاهرة تحول العلميين إلى الدراسات الإنسانية ليست بالقليلة في الوقت الحالي . فكثير من علماء الطبيعة والرياضة وغيرهم نجدهم يتحولون إلى الاهتمام بالدراسات الإنسانية والفلسفية مثل علم الاجتماع والفلسفة وغير ذلك .

والتنظيم السياسي ؟

قد يبدو غريبا في مقال « التنظيم السياسي في المجتمع التكنولوجي الحديث » أن يتأخر الحديث عن هذا التنظيم السياسي حتى قارب البحث نهايته . ولكن هذه الغرابة تزول اذا أدركنا انه ليس من الممكن الحديث عن شكل التنظيم لسياسي على نحو مفصل ، ذلك امر سيظل بالضرورة مختلفا من دولة الى أخرى . فالاتحاد السوفياتي يقترب من المجتمع التكنولوجي الحديث ونظامه السياسي يعتمد على نظام الحزب الواحد ، في حين أن الولايات المتحدة الأمريكية دخلت هذا المجتمع ونظامها السياسي يعتمد على حرية الاحزاب وشكل من أشكال الديمقراطية النيابية . وهذا النوع من الخلافات والفروقات سيظل قائما لانه يتوقف على عدد هائل من الاعتبارات التاريخية والنفسية لكل شعب من الشعوب .

ولذلك فاننا اذا تحدثنا عن التنظيم السياسي في المجتمع التكنولوجي الحديث انما منشير الى نوع من التماثل في المشاكل التي ستعرض والتي سيتعين على السلطة السياسية أن تواجهها في جميع الاحيان . وكذلك منشير الى التماثل في الحلول التي تقدم لهذه المشاكل ، أما ما عدا ذلك فان النظم السياسية للدول ستظل متفاوتة ما ظل الانقسام بينها الى دول سياسية مستقلة .

اذا كان علم السياسة هو العلم الذي يدرس « السلطة » فان المجتمع التكنولوجي الحديث من شأنه أن يحدث بعض التغييرات في أشخاص القائمين على السلطة وفي مدى هذه السلطة ، وفي نوع المشاكل التي تنعين مواجهتها . وفي هذا فقط يتم التلاقي بين الحقائق الاقتصادية في ظهور المجتمع الصناعي الحديث وبين الحقائق السياسية في كيفية مباشرة السلطة . (١)

ولعل أول ملاحظة على التنظيم السياسي في المجتمع التكنولوجي الحديث هو زيادة أهمية عنصر الفئتين في أشخاص القائمين على مباشرة السلطة . وقد سبق أن أوشحنا دور هؤلاء بتفصيل . وأيا ما كان الشكل الخارجي للقائمين على السلطة ، حزب واحد حاكم كما في الدول الاشتراكية أو أحزاب متعددة وحكومة نيابية - فان سيطرة الفئتين الحقيقية على قرارات السلطة لا بد أن تزايد . ولذلك نجد أن أهمية المجالس الاستشارية : مثل المجالس الاقتصادية والمجالس الفنية المتخصصة ستتضخم بالضرورة . وسواء وجدت هذه المجالس الى جانب المجالس النيابية في الدول الديمقراطية أو الى جانب الحزب الواحد في الحكومات الشيوعية . وبالمثل فان الأجهزة الفنية الموجودة الى جانب مراكز السلطة ستزيد أهميتها ودورها .

وفي كتاب حديث لروجيه جارودي :

Le Grand Tournant du Socialisme (٢) يرى هذا الكاتب الماركسي الفرنسي أن الاتحاد السوفياتي تدرجه مجموعة بيروقراطية عسكرية لا تختلف في جوهرها من المجموعة الصناعية العسكرية التي تدير الولايات المتحدة الأمريكية . وأهمية هذه الملاحظة القائلة على التشابه في أشخاص القائمين على السلطة في الدولة الحديثة سواء في دولة اشتراكية أو في دولة رأسمالية - لا تكن في جدية الملاحظة ذاتها ، ولكن في صدورهما من روجيه جارودي ، وهو يعد أكبر المفكرين الشيوعيين الفرنسيين وعضو اللجنة المركزية والمكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي . وهو أمر له دلالاته ، حيث أن أغلب الماركسيين يرفضون فكرة التماثل بين تطور المجتمعات الحديثة الاشتراكية والمجتمعات الحديثة الرأسمالية ويرون أن كل محاولة للتقريب إنما تقصد صرف الجهود عن مقاومة النظام الرأسمالي .

(١) انظر في العلاقة بين الاقتصاد والسياسة

B. Chenot, Organisation Economique de l'Etat, Daloz, France, 1965, PP. 1-21.

(2) Roger Gataudy, Le Grand Tournant du Socialisme, Collection Idees, Gallimard, Paris, 1970.

كذلك فان من اهم المشاكل الاساسية التى ينبغى على المجتمع الجديد مواجهتها مشكلة الحرية . ولا تقصد بذلك مجرد الحرية السياسية القائمة على مشاركة جميع المواطنين في اختيار حكاهم من طريق الانتخابات والاحزاب كما في الدول الغربية ، او عن طريق العمل داخل الحزب الواحد كما في الدول الاشتراكية . وان كانت الظروف قد تدعو الى قيام هذه المشاكل وخاصة فيما يتعلق بالدول الاشتراكية . وربما يكون التطور الذى حدث في تشكسولواكيا والمعروف بحركة يناير ١٩٦٨ وربيع هذه السنة الذى لم يستطع الاستمرار طويلا نظرا الى تدخل قوات حلف وارسو - ربما تكون مقدمة لتطورات مماثلة في الاتحاد السوفياتي وفي الدول الاشتراكية الاخرى . (ولعل ما أدى الى فشل هذه الحركة هو انها ظهرت في تشكسولواكيا باعتبارها اكثر تقدما من الناحية الصناعية ، ولكنها تمثل مرحلة متقدمة بالنسبة للمعسكر الاشتراكي في مجموعه ولذلك فقد وقعت امامها قوى ذلك المعسكر) . ولكن ذلك لا يمنع من ظهور اتجاهات مماثلة متى بلغ المعسكر الاشتراكي في مجموعه وبخاصة الاتحاد السوفياتي تلك الدرجة من التطور .

كذلك لا تقصد بمشكلة الحرية في المجتمع الصناعي الجديد مجرد الحرية الاقتصادية القائمة على ضرورة توفير ضروريات الحياة الاساسية لجميع الافراد حتى لا تظل حرياتهم السياسية مجرد حقوق نظرية مجردة من كل مضمون حقيقي فالمجتمع الصناعي الحديث يتمكن في الواقع بصفة عامة واستثناء بعض جيوب الفقر - من توفير هذه الحريات الاقتصادية .

ولكن مشكلة الحرية التى ستعرض امام المجتمع الصناعي الجديد ستضمن حرية الفرد من تسلط المؤسسات ووسائل التكنولوجيا الحديثة على العناصر المكونة لارادته . ومن المحتمل ان يكون حق الفرد في الاعلام - بما يتضمنه من ضرورة توفير اعلام موضوعي وامين على قدر الامكان . والضمانات التى تكفل تحقيق ارادة الفرد خالصة من كل تأثير اعلامي موجه من اهم المشاكل التى تثيرها مناقشات الحرية .

ويرتبط بتطور مشكلة الحرية على النحو المتقدم تغيير في طبيعة المنازعين والمعارضين للسلطة . فهؤلاء ليسوا من عناصر البرجوازية التى تطالب بالحرية السياسية والاطاحة بامتيازات الاقطاع السياسية كما حدث عندما قامت الثورة الفرنسية . كما أنهم ليسوا من عناصر الطبقة العاملة التى تطالب بالحرية الاقتصادية والغاء امتيازات البرجوازية الاقتصادية كما حاولت الثورات الاشتراكية . ولكنهم سيكونون غالبا من عناصر الشباب والمثقفين الراغبين في توفير حرية الفرد النفسية والثقافية .

وأخيرا فان التنظيم السياسي سيتأثر بالضرورة بما يؤدي اليه تطور المجتمعات الصناعية من تغيير في مفهوم الدولة السياسي ذاته . فالاستقلال السياسي وسيادة الدولة كانا تعبيراً عن اوضاع العلاقات الاقتصادية الدولية . وقد أدى تطور المجتمع الصناعي الحديث الى تغيير في شكل العلاقات الدولية مماثل للتغيير الذى تم داخل الدولة ، والى مزيد من الترابط مع وجود مراكز أكثر فاعلية في التأثير على الاوضاع الاقتصادية العالمية ، وقد أدى ذلك الى وجود اقتصاد عالمي وليس مجرد علاقات اقتصادية بين الدول . ومن ثم فان التنسيق والتعاون الدولي يعتبر السمة الاساسية للعلاقات بين الدول ، وما زالت فكرة السيادة تتقلص باستمرار . ومع استقرار الاقتصاد العالمي الدولي ، فان التنظيمات السياسية في الدول المختلفة ستزداد تقاربا من ناحية ، وتحررا من مواجهة الافراد من ناحية أخرى .

وكما ذكرنا في مقدمة هذا المقال - ان موضوع التنظيم السياسي في المجتمع التكنولوجي الحديث ، موضوع واسع جدا ومتشعب بدرجة يصعب معها الاحاطة به من جانب متخصص واحد . وقد لا تكون وجهة نظر اقتصادية في هذا الموضوع عبثا كاملا !

عملية التطبيع الاجتماعي وأزمات النخامل والتعصب في مجتمعاتنا المعاصرة

تقديم :

خلق الإنسان ليصبح أحسن ما فيه . وذلك لا يكون الا عن طريق التطور والنمو والوصول بالوهبة والقدرة والامكانية الى قمته والى أقصى سمتها حتى يتحقق للانسان الوجود والاستمرار .

والإنسان أثناء هذا النمو وهذا التطور انما فهم الكثير عما يحيط به من ظواهر وماديات حيث سعى لفلسف الوجود كله بما فيه من محسوسات ومعنويات ومجردات ففهم أو كاد يفهم علل هذه الظواهر بأنواعها وانماطها .

ووقف الانسان طويلا امام نفسه وفكر مليا قبل أن يطرق باب هذا المحترى المجهول، ويحاول في هذا الأفق ما حاوله ناجحا في الأفاق الأخرى ، تلك التي اتصلت بما هو خارج عن النفس الانسانية . وظل كذلك الى أن وأفته الشجاعة بعد حين ليدرس نفسه دراسة علمية موضوعية .

ولأن تكون أى دراسة علمية يجب أن تكون ذات منهج ومحتوى : المنهج العلمى الموضوعى الذى يؤمن بالتجريب والقياس وما يترتب على ذلك من قدرة على التنبؤ . والمحتوى الذى يمكن أن توجد علاقة منطقية قانونية بين مناصره ومكوناته ، بل انه يجب أن تخضع عناصر ومكونات هذا المحتوى لنظام متناسق متكامل يلفت نظر الدارس الى وحدته وكيانه ، أى أنه يجب أن يتميز محتوى كل دراسة عن محتوى أى دراسة أخرى ، والأساس فى هذا التمايز هو الوحدة المنسجمة المتناسقة .

وكانت هذه هي مشكلة الانسان الاولى عندما أراد - أو اريد به - أن يقتحم مجاهل نفسه ويعمل لسلوكه الظاهر ويفلسف ما خفى منه .

دكتور سعد عبد الرحمن مدرس علم النفس الاجتماعي بجامعة الكويت . قام باجراء بحوث وتجارب كثيرة حول حركية الوعامة بين التراهيق وعلاقة اختياراتهم الاجتماعية بخصائصهم الشخصية وعملية الإدراك الاجتماعي .

من مؤلفاته : « أسس القياس النفسي الاجتماعي » .

ولقد كان ذلك التتابع في المعرفة والبحث والتعليل - أى حين بدأ الإنسان بالماديات خارجه ثم اتجه الى نفسه - هو أهم الأركان أن لم يكن هو الركن الوحيد في بناء معرفة منطقية ذات منهج ومحتوى تختص بسلوك الإنسان والنفس الإنسانية .

لقد أدرك الإنسان من هذا التتابع أن مشكلاته الأساسية تتعلق بمهامين سبق الإشارة إليهما هما الوجود والاستمرار .

فمن دراسته للماديات سواء في علوم الطبيعة أو البيولوجيا وصل الى مرحلة من التأكد تكاد تقترب من اليقين أنه اذا اعتبر نفسه كائناً حياً على نمط مادي محدود فسوف يكون من غير الممكن أن يوجد نفسه على هذه الصورة أو أن يتحكم في وجوده وسوف يكون من غير الممكن أيضاً أن يضمن استمرار ذاته على تلك الصورة البيولوجية .

وفي نفس الوقت أدرك الإنسان أنه ليس من غير الممكن أن يوجد نفسه على صورة غير مادية وذلك اذا نظر الى نفسه من الجانب الآخر ، جانب المعنويات والقيم وخصائص النفس والشخصية ، وأدرك كذلك أنه ليس من غير الممكن أن يضمن استمرار ذاته أو بمعنى أدق خصائصه على نفس تلك الصورة .

ولتوضيح ما سبق فانه من غير الممكن أن يوجد الإنسان خلقاً له من الخصائص الأنثروبولوجية ما يعبره ، لأن ذلك في قدرة الخالق جل وعلا ، كما أنه ليس في إمكانه أيضاً أن يضمن استمرار الكائن الحي في حياته الى الدرجة التي يرغبها ويرضيها ، لأن ذلك أيضاً في قدرة من يمتلك الحياة والموت .

ولكن من الناحية الأخرى حاول الإنسان - ونجح الى حد يجب تقديره - في إيجاد النفس ذات الخصائص والقيم والمعايير المحددة فوجد الذات المتسلطة، والذات المتعصبة، والذات المنغلقة، الى غير ذلك من الخصائص المتمثلة في كل ذات على حدة ، والتي تغلب على تكوينها . وأمكن للإنسان أيضاً أن يضمن استمرار هذه القيم والمعايير والخصائص ، وذلك عن طريق نقلها من جيل الى آخر ، وتلقينها للأبناء عن طريق الآباء وبذلك اطمأن الى استمرار ذاته من الناحية غير البيولوجية ، أى من ناحية المعنويات والقيم وخصائص النفس والشخصية .

وللتلخيص فان الإنسان لم يتغلب على مشكلتي الوجود والاستمرار من الناحية البيولوجية ، في حين أن أمل الإنسان في ذلك بالنسبة للنواحي المعنوية أمل ممكن أن يتحقق معظمه . فما انتقل القيم والأديان والمعايير من الأجيال السابقة الى أجيالنا هذه الا دليل على نجاحه في ذلك .

وبذلك فانه لا بد أن تكون هناك عملية من طريقها أمكن للإنسان أن ينجح ولو جزئياً في حل مشكلات الوجود والاستمرار من الناحية المعنوية ، وهي نفسها تلك العملية التي عن طريقها يمكن للفرد أن ينمو ويتطور وتنضج مواهبه وأمكاناته وقدراته حتى يصبح أحسن ما فيه . وهي نفسها تلك العملية التي نسميها التطبيع الاجتماعي أو التنشئة الاجتماعية .

والدراسة التي نحن بصدها الآن سوف تناقش عملية التطبيع الاجتماعي من نواحيها المتعددة بطريقة يغلب عليها التشریح والتفصيل ، حتى نرد هذه العملية الى مكوناتها الأولية .

وكما هي الحال في كثير المركبات فاننا نجد لها ككل في حالة من الانسجام والتناسق ولو ان

فيها بعض العناصر المتناقضة بل ان هذا التناقض في كثير من الاحيان يكون اساسا للتناقض والانسجام .

فاذا كانت عملية التطبيع الاجتماعي قد اسهمت بما يجب ان تسهم به في الحفاظ على تقاليد المجتمعات الانسانية وقيمتها ومعاييرها مثل اسهامها في نقل وتلقين هذه التقاليد ، فان هذه العملية قد اسهمت أيضا بما يمكن ان تسهم به في ازالة بل وتدمير كثير من القيم والمعايير في مجتمعات انسانية اخرى .

وبالتالي فان عملية التشريع والتحليل سوف تعرض هذه الجوانب تلك ، وسوف تحلل أيضا لماذا استمرت هذه الجماعة الانسانية واندثرت الاخرى دون ان يعلم من جاء من بعدها عنها شيئا .

كما انها - اي عملية التشريع والتحليل - سوف توضح علاقة عناصر عملية التطبيع الاجتماعي بعضها ببعض ومدى فعالية او خمول هذه العناصر او تأثيرية كل منها .

ومن اهم المكونات او العناصر التي سوف تعرض لها في شيء من التفصيل اكثر من غيرها ، تلك المجموعة من الانماط السلوكية والخصائص النفسية التي تطلق عليها اسم التحامل والتعصب .

فعما لا شك فيه ان لنا العذر في ان نبرز هذه الانماط السلوكية بالذات ، ونعطينها مكان الصدارة عند تحليل عملية التطبيع او التنشئة الاجتماعية ، وذلك لان موجبات التغيير التي تلاحت على العالم حتى يومنا هذا ، ولان أنشطة المجتمعات سواء في داخلها ، اى بين افرادها ، او خارجها اى بينها وبين مجتمعات اخرى ، ولان ازمات العالم سواء في وسطه او اذناه او اقاصه ، كل ذلك يخضع بصورة او باخرى لتلك الخصائص النفسية التي نسميها التعصب والتحامل .

ولا نذهب بعيدا عندما نقول ان مناقشة عملية التطبيع الاجتماعي هي في حقيقة الامر مناقشة عملية تنشئة الانسان وتربيته وتطعيمه حتى يصبح ذا كيان مستقل في المجتمع الذي يعيش فيه ، بغض النظر عن نوعية هذا المجتمع خيرا كان أم شريرا ، وبغض النظر عن درجته من ناحية البساطة او التعقيد من حيث هو الأسرة او ابناء الجوار أو المجتمع الواسع العريض .

ففى مجتمع الفضيلة ينشأ الفرد ويتخذ مكانه في نسيج هذا المجتمع بعد ان يروض ويعود ويطيع ، وبالتالي يتقن مهارات يعينها تعتبر هي اساس التعامل والتواصل في هذا المجتمع .

وفى مجتمع الرذيلة ينشأ الفرد ويتخذ مكانه في نسيج هذا المجتمع بعد ان يمر بنفس المراحل السابقة ويتقن مهارات يعينها تميز هذا المجتمع عن غيره .

وفي أثناء هذا التدريب والتلقين والتعويد يكون الفرد مفهومه من ذاته كما يكون مفهومه من ذات الآخرين وشخصياتهم كما يكتسب المعايير التي يحكم بها على الأحداث والأشياء وفى هذه المرحلة - مرحلة التدريب - يبحث الفرد دائما عن اجابة لسؤال حائر يلح عليه بين الحين والحين : من أنا ومن اكون ؟ ومن هم الآخرون ومن يكونون ؟ وهو ينتظر دائما ايعطى الاجابة او يحصل عليها وفى كلتا الحالتين لا يتم ذلك الا في اطار عملية التدريب والتلقين والتعويد .

ومن هنا يمكن ان نقول ان العملية الام ، وهى عملية التطبيع الاجتماعي سوف تعطي الفرد الفرصة لان يكون ضميره الاجتماعي ووحدهاته التي هي القيم ، والتي سوف تساعد في الحكم على الأشياء والاحداث اما عدلا منصفا او متحيزا متحايلا لا ينظر لمثل هذه الاحداث الا من وجهة نظر خاصة غالبا ما تكون ذاتيه .

ومن هنا ايضا قد تبدو العلاقة طبيعية ومنطقية بين عملية التطبيع والانشاء ، وبين سلوك التحامل والتعصب وبمعنى آخر بين السبب والنتيجة .

قد لا يكون ذلك انصافا لاجيال سبقت حرصت ان تلقن اجيالنا الحاضرة مقومات وقيمها كانت تعض عليها بالنواجذ وترى فيها طريق الخلاص لابنائها بل اعتبرتها وسيلتهم الى الاستمرار والخلود .

ولكن قليل من هو منصف عادل من وجهة نظر اطراف القضية اذا اتخذ الطريقة الموضوعية للمناقشة والتقييم .

ونحن في هذا المقام لا نسخر من جيل سبق ، ولا نقلل من شأن عقيدة مهما كانت ، ولا نحاول ان نهزم قيما وتقاليد ، ولكننا سوف ننهج المنهج العلمى المجرد في دراسة عملية التطبيع وعلاقتها بسلوك التعصب والتحامل ، ونترك للقارئ ان ينتقي ما يشاء من العلاقات والروابط بين ما نعرضه من دراسة ، وبين ما تمر به المجتمعات الانسانية من محن وازمات مع تعدد اجناسها ولوانها ، ونحن في الهزيع الاخير من القرن العشرين .

وقد يكون في هذا اجهاد للقارئ بلا مبرر حتى يبحث عن وجهة نظر الكاتب بين مسطور هذه الدراسة ، ولكننا لن نذهب الى هذا الحد من التعقيد أو الحياذبه المطلقة الامر الذى يجافيه المنطق العلمى الى حد ما ، بل سوف تتلون هذه الدراسة من حين لآخر بلون يفرض نفسه من خلال البحوث التجريبية والآراء الموضوعية التي اقتنع بها الكاتب الى حد الاعتناق .

ومن خلال تبعنا لهذه البحوث والآراء سوف تتبلور لدينا فكرة تكاد تكون كاملة ومتناسبة مع المستوى العام لهذه الدراسة ككل . وينتهي بنا المطاف الى ان نفهم بصورة موضوعية مكونات عملية التطبيع الاجتماعي وعلاقتها الطبيعية بانماط عديدة من السلوك منها ما هو محمود ومنها ما هو غير ذلك .

تعريف : *

يقول بارسونز (١) احد علماء الاجتماع ان ميلاد جيل جديد من الاطفال يعنى موجة أخرى من الغزو البربري ، وهو لا يقصد بكلمة (بربرية) ما هو مفهوم عن حياة المصور الحجرية حيث عاش الناس على الصيد والقتل ، ولكنه يقصد ما هو متعارف عليه من ان البربرية تعنى الحياة غير الاجتماعية وغير المتحضرة .

وبناء على ذلك فان الطفل عند ولادته هو كائن بيولوجي مفلس حضارة وثقافة ، فليس لديه ادنى مفهوم من العالم الذى هو قادم اليه ، وليس لديه اللغة التي عن طريقها يتواصل مع غيره ،

(1) Brown, R., Social Psychology, Coll. Mc. Millan, 1965, P. 193.

* نعرني هذا لتعريف عملية التطبيع الاجتماعي من الناحية العامة ونترك تعريف التحامل والتعصب الى ان ياتي في مكانه الطبيعي في سياق هذه الدراسة .

وليست لديه المعايير والمعنويات والظلفيات التي تتطلبها المجتمع الذي فتح له ذراعيه ليلقاه . وعلى الطفل أن يتعلم كل ذلك ويتقنه ويجيده عن طريق عملية واحدة متكاملة هي عملية التطبيق الاجتماعي أو التنشئة الاجتماعية .

كان عملية التطبيق من وجهة النظر هذه هي عملية تحويل الكائن البيولوجي الى كائن اجتماعي له من النشاط ما يدل على ذاته وجوده .

ويقول تشايلد (١) ان ما نقله الينا السلف عن اهل اسبرطه القديمة ونظامهم في تربية ابنائهم لان يكونوا من المحاربين اولى اليأس والقوه ، وان ما نظهره اليوم من اهتمام وقلق بخصوص تربية ابنائنا وتنشئتهم ليكونوا اعضاء ناعمين صالحين في المجتمع فان هذا وذاك دلالة واضحه على اهمية عملية تربية الطفل من وجهة النظر هذه أو تلك .

ومعنى هذا ان عملية التطبيق الاجتماعي هي عملية تحويل الطفل الى كائن بالغ يقوم بدوره خير قيام في المجتمع الذي يضمه ويحتويه .

ويقول سيكورد وباكرمان (٢) ان عملية التطبيق الاجتماعي هي تلك العملية التي عن طريقها يمكن للفرد أن يعدل من سلوكه حتى يتوافق مع ما يتوقعه منه اعضاء الجماعه التي ينتمى اليها . وبذلك لا تكون عملية التطبيق هي فقط العملية التي فيها يكتسب الطفل الصغير مهاراته البدنيه والاجتماعية ، بل هي ايضا العملية التي فيها يعدل البالغ من سلوكه وتصرفاته حتى يصل الى الدرجة التي يرضى بها الجماعه التي هو عضو فيها .

ومن ذلك فانا نرى ان عملية التنشئة أو التطبيق انما هي في رأى من استعرضنا آراءهم وهي تمثل الآراء الغالبة الواضحة - انما هي عملية تكوين عادة وغرس مهارة وتعديل سلوكه ، وذلك من أجل ارضاء الجماعه والحفاظ على نظم وتقاليد ومهارات وخصائص قائمة فيها . وليس ذلك غريباً أو مغالى فيه ، اذ انه من الضروري - كما سبق أن أشرنا - أن يحافظ الانسان على استثماره بهذه الصورة غير البيولوجية .

ونحن من جانبنا لا نريد أن نختلف مع محصلة هذه الآراء ، فهي ولاشك اطار معقول يمكن أن يحيط بكثير من مفاهيم عملية التطبيق الاجتماعي ، ولكن لا بأس من أن نعرض رأياً في هذا الميدان : وهو في الحقيقة مجموعة تساؤلات أكثر منه مجموعة منطوقات ، فمن المعروف ان الرأي أو النظرية يعتمد دائماً على مثل هذه الأسس .

لنن الحقائق التي يكون احتمال الخلاف الحقيقي فيها طفيفاً أن شخصية الفرد وخصائصه تنمو وتتشكل وتتطور من خلال عملية احتكاكه وتعامله وتفاعله مع عناصر بيئته الخارجية بما في هذه البيئة الخارجية من عناصر مادية غير بشرية ، وعناصر بشرية هي الافراد الآخرون الذين يشتركون مع هذا الفرد في عضوية المجتمع .

وعندما نسمى هذه العملية - عملية الاحتكاك والتعامل والتفاعل - عملية التطبيق الاجتماعي لا نكون قد اختلفنا كثيراً مع الآراء السابقة وخاصة من ناحية المضمون وما بين السطور .

(1) Child, L.T., in **Handbook of Social Psychology**, Ed. G. Lindzey, 1954, P. 655.

(2) Secord, P. and Backman, C., **Social Psychology**, Mc. Graw-Hill 1964, P. 523.

ومن هذه الحقائق أيضا أن هذه العملية تبدأ من حين أن يطلق الطفل صيحته الأولى مستقبلا حياة من نوع جديد حافلة بمن فيها وما فيها ، ثم تستمر هذه العملية معه في أثناء نموه وتطوره واكتسابه المهارة والقدرة حتى يصل الى المرحلة التي فيها يمكنه أن يسلك ويفكر بل ويشعر ويصدر أحكامه وقراراته كما يفعل الآخرون من أعضاء الجماعة التي ينتمى إليها ، وبذلك يصبح الطفل فردا بالغا ، له من الخصائص والمميزات السلوكية ما يشبه خصائص ومميزات أفراد أسرته واصدقائه في الجوار وأعضاء المؤسسة الاجتماعية التي تضمه إيا كانت ثم أعضاء المجتمع الكبير .

ومن هذه الحقائق أيضا أن معدل السرعة التي تتم بها هذه العملية غير ثابت ، ويتغير بتغير فترات حياة الفرد والواقف التي تمر به في كل فترة من هذه الفترات . فنجد أن هذا المعدل يزداد في المراحل الأولى من حياة الطفل ، حيث يكون نهما لامتناس و تمثيل الخبرة والمعرفة ، وحيث يكون في طور اختلافه الى المدرسة أو الى مؤسسة تربوية أخرى ليتدرب على الخبرات والمهارات الأساسية التي تتطلبها حياة الجماعة .

ويقل معدل سرعة عملية التطبيع الاجتماعي كلما نما الطفل ونضج وتكون لديه رصيد كاف من الخبرة والمهارة لأن يكون ذا نشاط ففعال ومؤثر في شبكة العلاقات الاجتماعية التي تميز مجتمعاته دون الجماعات الأخرى .

كما نجد أيضا أن هذا المعدل يزداد مرة أخرى عندما ينضم الفرد الى جماعة جديدة تختلف عن جماعته الأصلية من ناحية العادات والقيم والتقاليد ، ويصبح لزاما عليه أن يتدرب على ما هو جديد ، فيرتفع بذلك معدل سرعة التطبيع أو التنشئة ، ويمكن توضيح هذه الحقيقة إذا - لاحظنا معدل اكتساب الطفل للخبرة والمعرفة وهو عضو في جماعة الأسرة منذ ولادته حتى بلوغه سن الخامسة أو السادسة ، حيث نلاحظ زيادة دائمة في معدل سرعة الاكتساب أو التدريب ، ثم يلي ذلك فترة من الثبات يليها انحدار أو قلة في هذا المعدل . وعندما يترك الطفل الأسرة الى جماعة أطفال المدرسة يزداد معدل اكتساب الخبرة والمعرفة من جديد .

بناء على الحقائق السالفة والتي لا تخرج كثيرا عن الإطار العام لعملية التطبيع الاجتماعي يمكن أن نستخلص رأيا يقول بأن هذه العملية تعتمد على عدة متغيرات تتصل ببعضها البعض وهذه المتغيرات يمكن أن تصنف في صنفين أساسيين هما : متغيرات الفرد كالنسان له خصائصه وصفاته التي تحدد كيانه والتي تميزه عن غيره من الأفراد ، والصنف الثاني هو متغيرات البيئة الخارجية بما فيها من عناصر ساكنة ومتحركة ، بشرية وغير بشرية وغير ذلك أيضا .

ومعنى ذلك أنه إذا كانت عملية التطبيع الاجتماعي تعتمد على هذين النوعين من المتغيرات وأن هذه المتغيرات - وخاصة المتعلقة منها بالفرد الإنسان - ذات طبيعة تختلف من فرد الى آخر فإنه يصبح من الضروري أن نتحفظ عندما نتصور عملية التطبيع الاجتماعي كما وصفتها الآراء السابقة على أنها عملية تكوين أعداد أفراد يشتركون مع بقية أعضاء الجماعة في كثير من الخصائص والصفات ، أو بمعنى أكثر لطرفا هي عملية تكوين الإبناء الذين يشبهون الآباء .

والذلك فإنا نرى أن عملية التطبيع الاجتماعي - اعتمادا على الحقائق السابقة - يجب أن تعترف بالوئك الذين يخرجون عن سمات الجماعة ونواميسها ، وابتدعون من الفكر أو السلوك ما قد يقلب حياة الجماعة رأسا على عقب ، ويحدث فيها من التغيرات الجذرية ما قد يعيد تشكيل تركيبها وينالها الاجتماعي . كما يجب أن تأخذ في حسابها مقومات هذه الثورة والتغيرات الجذرية

التي يراد احداثها في الجماعة بنفس القدر الذي تأخذها في حسابها بخصوص حرص المجتمعات على ان تورث حضارتها وعناصر ثقافتها ومقوماتها كاملة من جيل حالي الى جيل لاحق .

ونحن في هذا لا نألي بالمتدع الجديد ، وانما نشير الى تلك الاحداث الكبار التي امثال بها تاريخ الحضارة الانسانية ، فمحمد رسول اللعشأ في جاهلية الجزيرة حيث احدث عليه حضارة ذلك العصر بكل عناصرها ومقوماتها ، ولكنه افلح ونجح - وما ابعد المدى في ذلك - في ان يحدث التغيير وامادة البناء في تكوين هذه الامة بحضارتها وثقافتها . ولأن عملية التطبيع الاجتماعي في جزيرة العرب في ذلك الوقت لم تكن لتأخذ في حسابها مثل هذه الثورة العارمة ، او التغيير العميق ، ولذلك كان الصراع داميا وعنيفا بين حضارة وثقافة لا تقبل التغيير او تتوقع حدوثه ، وبين مبادئ جديدة غازية تهدف الى التهام تلك الحضارة السابقة بمقوماتها وعناصرها . ومثل ذلك ايضا مع فاروق في النوع ما حدث قبيل واثناء عصر النهضة الصناعية في اوروبا واكتشاف وتنشيط الآلة وما ترتب عليها من آثار حضارية وثقافية ، وكذلك ما يحتاج مجتمعنا المعاصرة من موجات العنف والصراع في أي صورة كانت .

فلو ان عملية التنشئة الاجتماعية في أي مجتمع أو جماعة ، وفي أي عصر من العصور اخذت في حسابها واعتبارها ما يمكن ان يحدث فيها من تعديل وتغيير - سواء ما هو متوقع أو ما هو غير متوقع - لأمكن لهذه الجماعات والمجتمعات ان تنفاد موجات العنف وأزمات الصراع والاقتتال الفكرى والثقافى التي تجتاحها من حين الى حين . ولو ان هذا مجال غير المجال الذي نحن فيه الا انه لا يتردد في ان نشير ولو من بعيد الى حركات الشباب التي ميزت السنوات القليلة الماضية ، والتي انتشرت في العالم بسرعة لا بأس بها ، والتي كان مبعثها في كل بلد رعييل من الشباب المثقف الذي يمر بمرحلة تعليمية من نوع خاص ، أي شباب يمارس المجتمع فيه عملية التطبيع الاجتماعي بصورة رسمية ومشروعة داخل مؤسساته التربوية .

هذه الحركات انما تدل دلالة واضحة ومقبولة على ان نظم هذه العملية وطقوسها لا تتم بالطريقة التي تأخذ في اعتبارها وحسابها ما يهدف اليه هؤلاء الشباب من تغيير وتبديل . والدليل على ما نقول ان الشعار الذي رفعته هذه الحركات في كثير من البلاد كان (ممنوع المنع) وعلى قصر هذا التعبير الا انه يوضح مدى ضجر هؤلاء الشباب بتلك النظم والطقوس بل ربما بأهداف وفلسفة العملية ككل .

ونحن في هذا المقام لا نريد أن نتحيز الى ناحية دون أخرى فنرجع الثورة على ما هو قائم او ما هو قائم على الثورة ، ولكنها كلمة حق يجب ان تقال ، وهي ان عملية التطبيع الاجتماعي في مجتمعنا الحالية بأسسها وفلسفتها وأساليبها ونظمها وطقوسها في حاجة الى امادة نظر وامادة تقييم وكان يجب ان يتم ذلك منذ بداية عهد التكنولوجيا الحديثة ، عندما امكن للجيل الحالي ان يجنى ثمار العلم المتقدم دون ان يعيش فترة ما قبل ذلك ، وعندما امكن لهذا الجيل ايضا ان ينظر بعين المستقبل الى ما تمجد منه اعيان من يقوم على تنشئته وتطعيمه اجتماعيا وحضاريا .

تحليل :

نحن نهدف في هذه الدراسة الى تحديد وتحليل مقومات وعناصر عملية من العمليات الاجتماعية الاساسية ، ثم الى تحميل هذه العناصر والمقومات العملية ككل مسؤولية النواتج والآثار التي تترب عليها والتي تعطينا الفرصة في اثناء المناقشة والحوار الى ان نرد النشء الى اصله .

العملية هي عملية التطبيع والتنشئة ، والعناصر والمقومات هي كل ما يتعلق بالإنسان الفرد وكل ما يتعلق ببيئته الخارجية ، والآثار والنائج كثيرة ومتعددة ، منها ما نعتى به الآن ، وهي أزمات التحامل والتعصب التي تميز عالمنا المعاصر حتى على المستوى الشرعي والقانوني وليس على المستوى الفردي والجماعي فقط .

ومدخلنا الى عملية التحليل هذه هو أن نحدد في بادئ الامر العنصرين الاساسيين في عملية التطبيع ، وهما الفرد الانسان ومقومات البيئة الخارجية التي يعيش فيها هذا الفرد .

الفرد الانسان هو العنصر النشط الفعال الذي يحمل مقومات حضارة الجماعة - بصورة او باخرى - من جيل الى جيل وهو في هذا المنحى يقوم بدوره الاساسي في حمل امانة التراث الانساني .

وهذا الفرد له من الخصائص الجسمية والنفسية والعقلية ما يمكنه ويعطيه الفرصة - الى درجة معينة - للقيام بهذا الدور الاساسي في عملية استمرار حضارة مجتمعه وثقافته .

وهذه الخصائص الجسمية والنفسية والعقلية انما تمر بطبيعة الحال بمراحل مختلفة من النضوج والنمو ، فهي تحت الظروف العادية - اي دون وجود اي عوائق او موانع خارجية عن نطاق قدرة الفرد - تنمو وتتطور الى ان تصل الى درجة من التكامل النسبي او المرحلي ، بحيث يصبح الفرد قادرا على ان يتفاعل مع مقومات وعناصر البيئة الخارجية بما فيها من ماديات ومعنويات يمكن لخصائصه ان تمتد اليها وتحتويها : اي ما يدخل ضمن مجال ادراكه الحسي من سمعي وبصري وما الى ذلك .

والفرد في هذا التفاعل انما يستعين بخصائصه هذه كلها او بعضها حيث يقيم نتيجة هذا التفاعل بمدى احساسه بالرضا والاكتفاء النفسي المترتب على اشباع حاجاته ومتطلباته من عناصر البيئة الخارجية ، وهو في هذه المرحلة من المراحل الكيفية لتفاعله مع البيئة انما يخضع كل شيء لبدا الاشباع وعلمه .

وتستمر هذه الخصائص الجسمية والنفسية والعقلية في التطور والنمو ، وذلك نتيجة احتكاك الفرد وتفاعل مع المواقف الاصيلة المتجددة في حياة الفرد اليومية ، حتى تصل هذه الخصائص الى درجة اعلى من التكامل النسبي والمرحلي ، فيصبح الفرد اكثر قدرة على تفهم عناصر البيئة ومقومات المواقف وابعادها وحركتها ، فيستطيع في هذه الحالة ان يحدد طبيعة وحجم كل مثير او منبه من المثيرات والمنبهات الاجتماعية المختلفة .

كما يستطيع ايضا ان ينتقى ويختار النوع المحدد من الاستجابة التي تناسب هذا المثير او ذلك .

وبمعنى آخر فانه يمكن ان نقول ان تفاعل الفرد مع بيئته في هذه المرحلة الكيفية الثانية من مراحل تعامله معها أصبح أعقد من أن يهدف الى مستوى اشباع الحاجة والمطلب فقط ، بل تعداه الى مستوى احداث نوع من التوازن والتوافق بين الفرد الانسان وعناصر هذه البيئة - وذلك عن طريق فهم وتحديد طبيعة وحجم المثير الاجتماعي ، وكذلك عن طريق انتقاء الاستجابة المناسبة لكل مثير او منبه .

وفي هذا لا نحتاج الى كثير من الاستنتاج والاستنباط عندما نقول ان توازن وتوافق الفرد مع بيئته انما يعتمد على مدى قدرته في فهم واحتواء عناصرها ومقوماتها .

وكلما ازداد الاحتكاك والتفاعل بين خصائص الفرد الجسمية والعقلية والنفسية من ناحية وبين المواقف التي تعلا مسيرة حياته من ناحية أخرى ، تطورت هذه الخصائص ونمت وبلغت درجة ارقى من النضوج النسبي والتكامل المرجلي، وبالتالي فان تعامل الفرد مع عناصر ومقومات بيئته اصبح لا يهدف فقط الى اشباع الحاجة والمطلب ، ولا الى احداث التوافق والاتزان بين ذاته وبين هذه العناصر والمقومات ، بل تعدى هذا المستوى وذلك الى مستوى ثالث هو مستوى قدرته على التحكم في هذه العناصر والمقومات ، واحضاعها الى التغيير والابدال والتطوير ، فقد اصبح للفرد قدر من البصيرة يسمح له بجانب هذه القدرة على التغيير بأن يتنبأ في كثير من الاحيان بدقة وصحة بما يمكن ان يحدث لهذه العناصر والمقومات .

وتأتي بعد ذلك مرحلة رابعة تكون فيها خصائص الفرد قد نمت ونضجت واصبحت على درجة عالية من التكامل والتناسق ، بحيث يمكنه ان يفلسف عناصر البيئة ، فيبحث في اصولها ، ويربط ما بين منشئها واهدافها ، وفي اثناء ذلك يقوم الفرد على تحويل هذه البيئة من واقع محسوس ملموس الى مدرك مجرد ورمز محدد يمكن نقله وتناقله في سهوله ويسر ولا يفقد الفرد كذلك عند مستوى تجريد وترميز عناصر البيئة ، بل يتعدى ذلك مستخدما خصائصه الناضجة المتكاملة الى تنظيم هذه المدركات والمجردات والرموز مبرزا ما بينها من علاقات وروابط وتشابه او تناقض مضمنا هذا التنظيم التعليل والسببية ، وبذلك يكون الفرد قدرا من الخبرة والمعرفة تكون هي وحدة حضارة هذه الجماعة .

نرى مما سبق ان نمو الانسان نموا عضليا ونفسيا وعقليا انما يتيح لعملية التنمب الاجتماعي ان تتم بصورة طبيعية لا قهر فيها ولا مخالفة (١)

فالطفل في المراحل الاولى من حياته انما يتدرب عن طريق الام على ان يتعامل مع عناصر بيئته الخارجية التعامل الذي يسمح له به نضوجه العضلي والعقلي والنفسى ، فيقوم على اشباع حاجاته على اى مستوى من مستويات البيولوجية او النفسية .

وهو في هذا لا يستطيع اتمام عملية الاشباع هذه ، كما لا يستطيع ان يستقبل التلقين من امه الا اذا كانت خصائصه : جسمية وعقلية ونفسية ، على درجة مناسبة من التكامل والنضوج .

فقدرة الطفل على ابتلاع الطعام الصلب او على ضبط عملية الاخراج مثلا لا يمكن لها ان تتحقق مهما قامت الام بتدريب الطفل وتلقينه الا اذا كان على مستوى مناسب من النضج والتكامل ليزال مثل هذه المهارات .

وعندما تكرر المواقف في حياة الطفل وتزداد خبراته ومهاراته في تناول المقومات التي تشبع حاجاته ومتطلباته فانه تبرز مواقف جديدة اصيلة تتحدى هذه المهارات والخبرات ، فيشعر الطفل بالتوتر وعدم الاتزان والاستقرار ويخرج الامر عن كونه مجرد اشباع الحاجة والاحساس

(١) القصد بالقهر والمخالفة ما يمكن ملاحظته في عملية التنشئة الاجتماعية لاطفال في مجتمع اللصوص والتشالين او اطفال اعمال السيرة وما الى ذلك حيث تجهد وتستنزف قدرات هؤلاء الاطفال عن طريق القهر والمخالفة في عملية التنشئة .

بالرضا والاكْتفاء النفسى الى كونه صراع مع هذا التحدى ومحاولة للتغلب عليه ، وذلك من أجل أحداث التوافق والازتزان بين ذات الطفل وبين تلك المواقف أو العناصر أو المثيرات أو المنبهات التى تسبب له القلق والتوتر .

وهنا يساعد مستوى النضوج والخبرة اذ أنه فى أثناء صراعه مع هذه المواقف والمثيرات يمكنه أن يستكشف طبيعة كل موقف وكل مثير ، ثم يحدد حجمه ، ثم ينتقى من واقع خبرته السابقة استجابة مناسبة ليقدمها لمثل هذا الموقف أو المثير . فاذا نجح فى إزالة التوتر وإعادة الازتزان وتكرر هذا النجاح حدث ما يمكن أن نسميه تعزيز الاستجابة .

وهكذا تكرر عملية الاستكشاف ثم النجاح ثم التعزيز ، وبناء على ذلك يتكون لدى الطفل القدرة والبصيرة لإيجاد العلاقات بين عناصر المواقف بعضها ببعض ، وتصبح لديه الرغبة فى فهم تكوين واتر كل منصر فيبدأ فى عملية التحكم والتغيير والإبدال ليصل الى ذلك . . ومن خلال هذه الخبرات تتكون لدى الطفل المفاهيم والمدرّكات والتعميمات ، وذلك عن طريق مقارنة المواقف التشابهية العناصر والمكونات ، وبذلك تبرز المجردات والرموز مثل الصدق والكلب والشجاعة والخوف وما الى ذلك . .

وعندها يصبح عنصرا نشطا وفعالا فى نقل وتناقل خبرة الجماعة كما سبق أن قدمنا فى بداية هذه الفقرات .

تكلما فيما سبق عن الفرد الانسان كأحد العنصرين الأساسيين فى تحليل عملية التطبيع الاجتماعى ، ويبقى الآن أن نناقش الشق الثانى وهو عناصر ومقومات البيئة الخارجية .

فان هذه العناصر والمقومات هى الوسط الذى تتكون فيه الخبرة والمعرفة ثم تنتقل من خلاله . وهذه العناصر ليست استاتيية جامدة ولكنها ذات طبيعة حركية متغيرة ، فهى تعمل من آن الى آخر ، وتختلف تبعاً للظروف التى تؤثر عليها . وهذه العناصر تمثل كل ما يحيط بالفرد الانسان من مواقف ، سواء كانت هذه المواقف مادية مثل الطعام والشراب والملبس والسكن ووسائل الانتقال المختلفة ، أو كانت هذه المواقف (أو المثيرات) بشرية أى الآخرون من بنى البشر ، أو كانت هذه المواقف أو المثيرات معنوية بمعنى ما هو متعارف عليه من قيم وعادات وتقاليـد واتجاهات ومفاهيم وما الى ذلك مما يكون البناء أو التنظيم المعنوى للجماعة .

وفى حقيقة الامر نحن لا نستطيع أن نضع حدوداً فاصلة بين كل نوع من الانواع السابقة من ناحية الاثر والوظيفة ، فالكتاب الذى نقرأه الآن والذى يتضمن الخبرة والمعرفة ، هو منصر مادى فى تكوينه وطبيعته بينما يحمل العناصر المعنوية من قيم واتجاهات فى مناقشته وحواره ، ثم أنك سوف تتأثر ولا شك بالعنصر البشرى الذى قام بتحرير هذا الكتاب أو تأليفه ، والأمثلة كثيرة فى هذه الناحية .

ويتضح من هذا أن هناك تفاعلاً دائماً ومستمرًا بين قطاعات البيئة الخارجية بعضها البعض ، ثم هناك تفاعل بين هذه القطاعات ككل متكامل من جهة وبين الفرد الانسان من جهة اخرى .

وهذا يفسر ما قصدنا اليه من أن عناصر البيئة أو المواقف التى تحيط بالفرد الانسان هى ذات طبيعة حركية متغيرة تعمل من حين الى حين .

ويمكن أن تلخص دور عناصر البيئة الخارجية وأثرها في عملية التطبيع الاجتماعي في ناحيتين : -

اولاهما : دور عناصر البيئة في التأثير على الفرد الإنسان ، وذلك من نواحي النمو والتفوج وتعديل السلوك .

والثانية : دور عناصر البيئة في التأثير على الخبرة والمعرفة حيث يكون ذلك من ناحية التكوين والتعديل والتقل .

البيئة والفرد الإنسان : -

فاما من ناحية تأثير عناصر البيئة على الفرد وخاصة من ناحية النمو فان هذا واضح ملموس ، فالنمو العضلي مثلا انما يكون نتيجة لاثار عناصر الطعام والشراب التي يتناولها الفرد ثم تمرضه للتدريبات العضلية المقصودة وغير المقصودة . فالنمو العضلي للطفل لا يكون عن طريق زيادة وزنه فقط ، ولكن أيضا بمهارته العضلية في فتح نافذة أو اغلاقها مثلا : المهارة التي كانت لا توجد لو لم توجد تلك النافذة كمصدر من عناصر البيئة .

وأما من ناحية النمو العاطفي والنفس للفرد فيمكن أن نلاحظ ذلك عند اتصال الطفل بجماعات جديدة وانفصاله من جماعات أخرى مثل انفصاله عن جماعة الأسرة الى جماعة المدرسة فهو في هذه الحالة يتعرض لمثيرات ومنبهات بيئية جديدة غالبا ما تكون بشرية ومعنوية ، فتتسمو بذلك خصائصه ومميزاته من طريق استجابته لهذه المثيرات والمنبهات .

وهنا نريد أن نوضح شيئا قد يكون ليس مالوفا للقارئ ، وهو اننا نسمي كل موقف من المواقف التي تتجدد للكائن الحي مثيرا أو منبها ، وقد يتكون الموقف أو المثير من عدة مثيرات بسيطة ذات علاقة ببعضها البعض . كما اننا نسمي سلوك الفرد وتصرفه في هذه المواقف استجابة لهذه المثيرات والمنبهات . وقد قصدنا بهذا التوضيح أن نحدد معنى كلمة المثير والاستجابة .

ومن عناصر البيئة الخارجية أيضا ما يساعد على نمو الطفل نفسيا وعاطفيا عن طريق الإثابة والعقاب ، حيث تبرز وتقوى الرابطة بين المثير والاستجابة أو تضعف وتتلاشى وبذلك تتكون العادة أو تختفي .

وأما من ناحية تأثير عناصر البيئة الخارجية على مستوى تضج الفرد فهذا امر له اهميته وخطره . وبحسن قبل استعراضه في ايجاز أن نحدد معنى مستوى التضج : اذ انه عبارة عن مدى « مناسبة » امكانيات الفرد العضلية والعقلية والنفسية لمستوى الموقف أو المثير ، وأما ما يحدد هذا المدى أو هذه المناسبة فهو المايير والقيم التي تسود الجماعة .

فمتندا يقوم الفرد بسلوك معين في موقف معين ، ويكون هذا السلوك غير متفق مع ما هو سائد من قيم ومعايير ، فان الجماعة تحكم بأن هذا الفرد دون مستوى التضج .

وللتوضيح فانا نعود ونقول أن عملية التضج هي تلك الحالة التي يمكن قياسها بمدى التوافق الذي يحدثه الفرد مع مقومات البيئة ، والذي يتحقق عن طريق اختيار الاستجابة المناسبة للمثير الخامس .

وبذلك فان عناصر البيئة الخارجية لا بد أن تسهم في أن يصل الفرد الى مستوى التضج

المناسب، وذلك من طريق تقديمها للفرد أنماطاً ونماذج عديدة ومختلفة من المواقف والمشترات منذ بداية تعارفه عليها - أي الإنسان والبيئة - إلى أن يفترقا ولو ظاهرياً، وهو في أثناء ذلك يتدرّب ولو تلقائياً - على اختيار الاستجابة المناسبة في الموقف المناسب .

وفي حقيقة الأمر نستطيع أن نقول أن الفرد يستفيد من هذا التدريب بصورة نسبية حتى يكتمل نضوجه وذلك من طريق عمليات فرعية أو مصاحبة هي :

أ - عملية الممارسة : -

أي عملية تكوين الخبرة واستخدامها في المواقف المتشابهة من ناحية الشكل أو الموضوع حيث أن الخبرة تتكون عن طريق التفاعل الحر المباشر بين الفرد وعناصر البيئة وتعطيه الفرصة لأن يكون التعميمات والمفاهيم من خلال مراحل تكوينها التي تبدأ بالحواس وتنتهي بالتجريد .

ب - عملية التقييم : -

وهي تلك العملية التي يقوم بها الفرد بعد كل تفاعل مع عناصر البيئة سواء كان هذا التفاعل بسيطاً أم معقداً، حتى يمكنه أن يقارن بين ما حققه فعلاً وبين ما كان يتوقفه من نتيجة ونجاح . ومعنى ذلك أن عملية التقييم هذه تتضمن كذلك إعادة النظر في أسلوب تفاعل الإنسان مع عناصر بيئته حتى يتمكن من تعديل أنماط سلوكه .

ج - عملية إصدار الحكم أو القرار :

وهي ترتب في حقيقة الأمر على العمليتين السابقتين، إذ أنه بعد أن يمارس الفرد الخبرة ويأواها، وبعد أن يقيم هذه الممارسة والمران، فإنه يصدر قراره ليحدد اتجاهه نحو هذا العنصر أو ذلك .

وللتلخيص فإننا قصدنا أن نقول أن نضوج الفرد يتم تحت تأثير عناصر البيئة الخارجية في عمليات ثلاث، هي الممارسة والمران ثم التقييم ثم إصدار الحكم أو القرار .

ونعود أخيراً إلى تأثير عناصر البيئة على الفرد من ناحية تعديل السلوك، وعملية تعديل السلوك هذه لا تقصد بها مجرد عملية التكيف السلوكي على المستوى البسيط، ولكننا نقصد ذلك المستوى العميق من السلوك المزم الذي تفره معايير الجماعة وقيمها بصورة جدرية يحتاج تغييرها وإبدالها إلى جهد من نوع خاص، كما في حالة الدين والعقيدة واللغة، ففي كل بيئة من البيئات تتكون أطارات عامة تناسب أهداف الجماعة وتركيبها ونواميسها وأصول الحياة فيها، وعلى كل فرد أن يلتزم بهذا الإطار حتى لا يتعرض لما تبدله الجماعة - كمشخصية معنوية - من ضغوط وجهود إحتفاظ على هذه الأطارات والقيم . وما أقسى تلك الضغوط التي تبدلها الجماعة لتتبع أيا من أفرادها ولتقمعه إذا حاول الخروج عن سمتها وقيمها . وهي في ذلك تبدل أقصى الضغوط وأعلاها لتؤكد حياتها واستمرارها . وبناء على ذلك فإنه يمكن أن نستنبط أن من عوامل اندثار الجماعات وانحجار بثقافتها وحضاراتها ضعف وعدم قاطعية هذه الضغوط .

وهنا نرى لزماً علينا أن نوضح شيئاً وهو أننا لا نؤيد أو ننكر أهمية هذه الضغوط ولكننا نستطيع أن نقول أن هذه الضغوط قد تكون عقابية أي ذلك النوع من العقوبات والجزاءات الاجتماعية التي تفرضها الجماعة على بعض أعضائها، وقد تكون تشجيعية، أي تلك الإثابات

والمكافآت التي تمنحها الجماعة للبعض الآخر . وقد تكون هذه الضغوط ذات لون اخنأى اكشر منه عقابيا أو تشجيعيا .

وفى كل بيئة من البيئات - أيضا توضع معايير محددة وواضحة تكاد ترتفع الى مرتبة التقديس لتفرق بين السلوك السوى والسلوك الشاذ ، فكلما كان متفقا مع هذه الاحكام والمعايير اعتبرته الجماعة سلوكا سويا ومقبولا ، وسمحت بنقله واستمراره ، وكل ما كان غير ذلك حاربته الجماعة لتمنعه وتقمعه وتوقف نموه واستمراره .

ووسيلة الجماعة فى هذه الحالة أو تلك - كما سبق أن قدمنا هى الضغوط الاجتماعية العالية التي تبدلها لتسوس اعضاءها ، والتي يكون الهدف منها الحفاظ على كيان الجماعة ، وكذلك فاننى انشاء اجراء هذه الضغوط والجهود فان الفرد تتكون لديه مجموعة من القيم والمعايير والاتجاهات والمعتقدات تكون هى الاساس فى تكوين ضميره الاجتماعى .

وهذه القيم والمعايير والاتجاهات والمعتقدات التي تتكون دائما فى مواقف الخبرة والمفاضلة والاختيار تستقر وتتلور لتصبح الوحدات العيارية للضمير الاجتماعى عند الفرد .

والضمير الاجتماعى - حتى يكون واضحا لدينا - هو ذلك الجهاز النفسى الاجتماعى الذى يساعد الفرد على اتخاذ حكم أو قرار فى المواقف المختلفة التي تمر بها حياته اليومية .

والضمير الاجتماعى لا ينشأ ولا يتكون فى الفراغ ، ولكنه - كما سبق أن أسلفنا - يتكون عند تفاعل الفرد مع البيئة بكل عناصرها ومصادرها بما فيها من ضغوط وجهود وما الى ذلك .

وعندما تتطور هذه المصادر والعناصر أو تتغير ، فان القيم تتطور تبعاً لذلك فى معظم الاحوال ، وبالتالي يتغير الضمير الاجتماعى للفرد ، فانه كما نعلم هناك اثر واضح للعناصر الاقتصادية فى البيئة على القيم الاجتماعية وهى التي تكون الضمير الاجتماعى .

فلا بد اذن أن نتوقع ويتوقع معنا القارىء أن هناك احتمالا كبيرا أن تختلف صورة القيم الاجتماعية والضمير الاجتماعى بين أفراد الجماعة فى حالة الرخاء منها فى حالة الضيق والشدة .

وكذلك الحالة عندما تنتشر بعض الاوبئة النفسية الاجتماعية التي تسبب ضغوطا عالية تنتج منها قيم ومعايير ، فعلى سبيل المثال عندما انتشرت موجة (الخنافس) فى المجتمع اللندنى كان لها اثر واضح - بما كونه من قيم ومعايير - على الصورة العامة للقيم الاجتماعية والضمير الاجتماعى فى هذا المجتمع وغيرها مما سبقها .

يبقى بعد ذلك أن نشير الى ما هو أهم وأحرى بنا أن نقرره دون تردد، وهو انه فى هذه الفترات والمراحل من موجات التغيير والإبدال والتأثير فى صورة القيم السائدة كما أنه أيضا فى مراحل بدل الضغوط العالية للحفاظ على كيان الجماعة تنبذ بدور التحامل والتعصب واتخاذ الاتجاهات المضادة التي تعدد سلوك الفرد تجاه الآخرين .

وفى تيار الحياة التي يعيشها الفرد داخل الجماعة كثيرا - ان لم يكن دائما - ما يتعرض للمل هذه الموجات من التغيير والضغوط .

ولا نريد أن نستمرسل فى هذا المقام فنناقش أهم اجزاء هذه الدراسة ، لاننا نريد أن نفرّد له

مكانا خاضا يتناسب مع أهمية موضوع التحامل والتعصب في النسيج الثقافي والحضارى لاجتماعنا العالمية المعاصرة .

البيئة والتأثير على الخبرة : -

ينحصر اثر عناصر البيئة على الخبرة في اى جماعة من الجماعات في نواح ثلاثة سبق الإشارة إليها ومناقشة معظمها ، وهذه النواحى هى تكوين الخبرة ، ثم تعديلها وتهذيبها ، ثم نقلها وتناقلها فاما من ناحية تكوين الخبرة فقد سبق معالجة هذه النقطة عندما اُخذنا في اعتبارنا علاقة الفرد بعناصر البيئة الخارجية والمستويات المختلفة لتفاعله معها ، حيث يبدأ بمستوى الاشباع وعدم الاشباع ، وينتهى بمستوى التجريد والرمز ، أو بمعنى آخر حيث تتحول الخبرة من المستوى المحسوس الى مستوى الرمز والمدرك والمفهوم .

وكذلك موضوع تعديل الخبرة ، فقد نال قسطه من المناقشة عندما تعرضنا لتطور عناصر البيئة وتغيرها وتفاعلها ، حيث تمد الفرد دائما في البناء هذا التطور والتغير والتفاعل بالجديد من المطبقات والمعلومات ، فيتمكن من تعديل خبراته . كما أن هذه البيئة بما تظهره من اثابة ومكافأة ، أو من قمع وعقاب ، تؤدي دورها الهام في تعديل خبرة الفرد وإعادة تشكيلها وتهذيبها وفقا لما تتطلبه هذه البيئة .

وأما من دور البيئة في نقل الخبرة فهذا يتم على خطوات ذات علاقة منطقية ببعضها البعض ، وأولى هذه الخطوات أو المراحل هى أن تسمح هذه البيئة أولا تسمع بنقل هذه الانماط والنماذج من الخبرات البشيرة ، ونحن لا ننال إذا قلنا أن البيئة بكل عناصرها ومقوماتها تقف موقفا كليه حذر وحيطه من كل نموذج أو نمط من خبرة الفرد ، وهى غالبا ما تكون ناقدة وخاصة تجسأه الخبرات الجديدة فلا ينقل منها الا ما هو أصيل حتى يمكنه مصارعة نقد البيئة والتغلب عليها .

والمرحلة التى تلى موافقة البيئة وسماحها بنقل خبرة من الخبرات هى مرحلة الترميز والتجريد والعمومية ، حيث تقوم البيئة - كشخصية معنوية باعطاء الخبرة نوعا من الرموز والمفاهيم يختلف عما سبق أن اعطاه إياها الفرد ، فاننا كما اسلفنا نجد أن الفرد يجرّد خبرته في آخر مراحل اكتسابه لها ولكن هذا الرمز والتجريد قد يكون خاصا ومحليا ، ولكن عندما تقوم البيئة بترميز الخبرة فانها تحولها الى مستوى امكانية النقل والانتقال من بيئة الى أخرى ومن جيل الى آخر .

وبعد ذلك يتكون محتوى المعرفة من هذه الخبرات المجردة والرموز والعموميات ، ويصبح من واجب البيئة أن تنشئ مؤسساتها التربوية لتلقين ابنائها وبناتها هذا المحتوى من المعرفة تلقينا مقصودا ، وبذلك قامت المدرسة ودور العلم والمباداة .

ولم يفت البيئة بطبيعة الحال أن تنصب من نفسها رقيبا وناقدا ومشرفا بالنسبة لهـذه المؤسسات .

ومناقشة دور هذه المؤسسات التربوية المقصودة في عملية نقل الخبرة والمعرفة امر يخرج بنا عن الحدود الطبيعية لهذه الدراسة .

ولكن هناك من المؤسسات أو بمعنى أدق من الانظمة والتجمعات الاجتماعية ما يقوم بدور

مماثل ، ولكن قد لا تكون عملياتها مقصودة كسابقتها ، فالأسرة والمجتمع المحلي يلعب كل منهما دورا له خطره في تنشئة الفرد وتطبيعهم وتكوين شخصيته بما فيها من خصائص ومميزات .

وبهذا في هذا المجال أن ندرس أثر كل من الأسرة والمجتمع المحلي على شخصية الفرد الإنسان فالشخصية هي الكل التكاملي الذي يمكن من طريقه تفسير وتعليل السلوك البشري بما في ذلك النمط العلمي الموضوعي أو أنماط التحامل والتحيز والتعصب .

وشخصية الفرد كذلك هي محصلة العوامل المتفاعلة والعوامل المساعدة في كل موقف من المواقف التي يعيشها الفرد . ومعنى ذلك أن دراسة أثر كل من هاتين الناحيتين (الأسرة والمجتمع المحلي) لها من الأهمية ما يمكن تلخيصه فيما يلي : -

أولا : أنه طالما أن المشاكل التي تدخل في نطاق علم النفس الاجتماعي تجري دراستها وتحليلها من طريق فهم الضغوط الاجتماعية والنفسية التي تؤثر على الشخصية الإنسانية فإنه يصبح من الممكن تحديد مستويات الانضباط والتكيف والنمو والتعلم عندما نعلم الظروف والملايسات التي تكونت فيها الشخصية الإنسانية ونمت وتطورت وكونت مجموعة ثابتة من الاستجابات وردود الأفعال بالنسبة للمواقف المعينة .

ثانيا : لا يمكن لنا أن ننكر أن عملية نمو الشخصية وتطورها - في حد ذاتها - هي عملية تفاعل يبيية تت بين الكائن الحي وبين عناصر البيئة الخارجية ، ومعنى ذلك أن عملية نمو الشخصية وتطورها لا يتسنى لها أن تحدث في غياب هذه العناصر مادية كانت أم بشرية .

ونعود الآن الى دراسة ما قصدنا اليه وقدمنا له : -

١ - الأسرة وشخصية الفرد :

مما لا شك فيه أن مناقشة العلاقة بين الأسرة (كمؤسسة اجتماعية) وبين شخصية الفرد وخاصة من الناحية الوصفية أو التحليلية هو امر بمثابة مناقشة البديهيات التي لا تحتاج الى دليل أو برهان : لانه من الضروري والمنطقي - مادة - أن تثار شخصية الطفل بصورة أو بأخرى بالأسرة التي ينشأ فيها ويترج بين أعضائها السنوات الأولى من حياته .

ولكن المناقشة التي سوف نتعرض لها في الفقرات التالية سوف تأخذ في اعتبارها تحليل أهم العوامل التي تدخل في عملية الاحتكاك بين الطفل وأعضاء الأسرة ، لأن ذلك يمثل المراحل الأساسية الأولى في عملية التطبيع الاجتماعي ، إذ أن هذه العوامل كانت ولا شك محور دراسات عديدة وواضحة في ميدان علم النفس الاجتماعي بصورة عامة وميدان التنشئة الاجتماعية أو التطبيع الاجتماعي على وجه الخصوص .

ويمكن لنا أن نقول أن معظم الدراسات التي أجريت في هذا الميدان كانت جميعها تهتم بالعوامل التي تتصل بالعلاقة بين الآباء والأبناء وخاصة من الناحية السيكولوجية ، وكذلك بالتغير التربوي الذي يطرا على سلوك الطفل واستجابته لعملية التطبيع نتيجة نموه العصبي والعضلي والنسج الفسيولوجي بصورة عامة . وكذلك فإنه من الناحية التقليدية يمكن أن نقول أن المشكلة هي أن دور كل من الوراثة والبيئة في تنشئة الطفل وتطبيعهم اجتماعيا .

ومعظم الدراسات الحديثة أعطى معالجة هذه المواضيع أهمية بعد أن أعاد صياغة هذه المسائل

— مسائل الوراثة والبيئة — على أساس أنها علاقة قائمة بين العوامل الوراثية وأطوار النمو من جهة ، وبين العوامل الاجتماعية والبيئية من جهة أخرى .

ومن الدراسات الثبوتية والتي تستحق أن نثير إليها في هذا المجال دراسة قامت بها مجموعات من الباحثين في علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع من جامعات كورنيل وهارفرد وبيل بالولايات المتحدة الأمريكية (١) .

وقد تركزت هذه الدراسة حول الاختلافات والفروق في الظروف الاجتماعية المحيطة بمجموعات من الأسر ، وخاصة من ناحية الضغوط التي تبذلها كل أسرة من أجل تنشئة أطفالها وتطعيمهم ، ثم تبين هذه الضغوط من ناحية المصدر الذي تنبع منه والهدف الذي يرمى إليه ، والطريقة التي يمارس بها .

وقد كان ميدان هذه الدراسة ستة مجتمعات محلية مختلفة في شمال الهند وباكستان والمكسيك وأفريقيا واليابان وشمال شرق الولايات المتحدة (٢) . وقد قام الباحثون بإجراء العديد من المقابلات الشخصية الطويلة مع مجموعات كبيرة من الأمهات والأطفال في كل بيئة من البيئات الستة المشار إليها . وكان هدف هذه المقابلات الشخصية هو اكتشاف وسائل التلقين والتدريب الذي تمارسه كل أسرة في تطبيع أطفالها وكذلك الضغوط التي تبذلها من أجل ذلك سواء كان مصدر هذه الضغوط الأم أو أي عضو آخر من أعضاء الأسرة .

وقد استخدم الباحثون بعد ذلك الطرق الإحصائية المناسبة لتحليل محتوى هذه المقابلات الشخصية ، وخاصة طريقة التحليل العاملي (٣) وكانت النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة تؤكد أن الأسر تختلف عن بعضها البعض في العديد من النواحي التي لها أثر واضح في عملية التطبيع الاجتماعي .

ويمكن تلخيص هذه النواحي فيما يلي : —

١ — متطلبات المسؤولية الشخصية والاجتماعية التي تفرض على النشء وما يتوقعه منهم الكبار وخاصة الآباء استجابة لأنواع هذه المسؤوليات .

فنحن كما نعلم هناك في كل مجتمع أنواع من المسؤوليات الشخصية والمسؤوليات الاجتماعية وكل أسرة تهتم ولا شك بتدريب أبنائها على مراولة هذه المسؤوليات وتحمل ما تفرضه الظروف عليهم . وقد وجد أن كل أسرة تختلف عن الأخرى في هذه الناحية اختلافا واضحا فبعض الأسر وخاصة في المجتمعات المحلية التي تعتمد على التعامل المباشر مع عناصر البيئة في كسب القوت (مثل الزراعة أو الصناعة اليدوية أو ما إلى ذلك) تحرص على تدريب أطفالها على أنواع من المسؤوليات الاجتماعية لا تهتم بها غالباً الأسرة في المجتمع الصناعي المتحضر ، والعكس صحيح أيضاً .

٢ — الجو العاطفي والانفعالي الذي يحيط بالطفل ، مثل حنان الأم ورعاية الأب والتشجيع ؛

(1) Lambert, W.W. and Lambert, W.E., *Social Psychology*, Foundations of Modern Psychology Series, PP. 7-27.

(2) Whiting, B. (Ed.), *Six Cultures, Studies of child Rearing*, N.Y. 1963.

٣ — طريقة رياضية تعتمد على فكرة العلاقة بين معاملات الارتباط بين العوامل المختلفة موضع الدراسة .

او غير ذلك مثل الكبت او الاحباط والعقوبات وخاصة العقاب البدنى . فكل اسرة تختلف عن الاخرى في كمية العطف او القمع الذى يتعرض له أطفالها وربما اعتمد ذلك على ثقافة الابوين ومدى فهمهم لخصائص نمو الاطفال وتطورهم ، كما يعتمد ذلك ايضا على حجم الاسرة وعدد الاطفال . فالطفل الذى ينشأ وحيدا او مع طفل آخر (اخ أو اخت) يختلف عن الطفل الذى ينشأ بين عدد كبير من الاخوة في كمية ونوعية الحنان والرعاية والكبت والاحباط والعقاب . وبصورة عامة فانه يمكن أن نربط: بين حجم الاسرة وبين المجتمعات المحلية المختلفة ، فنجد الاسرة في بعض المناطق في افريقيا يختلف عن حجم الاسرة في الولايات المتحدة .

٣ - درجة ضبط وتهذيب عدوانية الطفل تجاه اقاربه سواء داخل الاسرة كالاخوة والاقارب او خارج الاسرة كاطفال الجوار والمجتمع المحلى .

وعملية الضبط والتهذيب هذه ترتبط بنماذج الثقافة في المجتمع المحلى الذى تنتمي اليه الاسرة . فالاسرة التى تتوقع من اطفالها ان يكونوا من المحاربين او المصارمين او من ذوى العمل الشرس العنيف مع عناصر البيئة والطبيعة - كاعمال الصيد في البحر والغابات - تختلف في درجة ضبط وتهذيب عدوانية اطفالها عن الاسرة التى تتوقع من اطفالها ان ينشئوا ليزاولوا اعمالا لا تتطلب تلك الجسارية والخشونة والعنف والعدوانية ، ومرة اخرى فانه لا بد من لسان غير ان تربط بين المجتمع المحلى في افريقيا او الهند او الفلبين او امريكا ، وبين اهداف الاسرة وآمالها في اطفالها وابنائها .

٤ - درجة ضبط وتهذيب عدوانية الطفل تجاه الابوين ومصيباته لاورهما . وهذه نقطة تتعلق بمبادئها ، اذ ان العلاقة السيكولوجية بين الابوين من ناحية وبين اطفالها من ناحية اخرى ، تتأثر بطبيعة وخصائص المجتمع المحلى بوجه عام ، وهدف الاسرة كنظام اجتماعي داخل نطاق هذا المجتمع . فقد تكون هناك بعض الاسر تصنف بالتسامح ، واخرى تصنف بالقمع في معاملتها لابنائها ، وهم اى الابناء في كلتا الحالتين يتصفون بالعدوانية والمصيان تجاه الوالدين . ولذلك فان هذا التفسير من الصعب وصفه وتحديد به الا في ضوء ظروف كل اسرة على حدة .

٥ - درجة العناية والرعاية التى تبذلها الام في تربية اطفالها الرضع . وهذه تختلف من اسرة الى اخرى ومن مجتمع الى آخر ، متأثرة في ذلك بما هو سائد في المجتمع من تقاليد وعادات وطقوس ، وخاصة اذا ارتبطت هذه الرعاية والعناية بالرضيع بنوعه ذكرا كان او انثى .

فبعض الاسر تبذل من الرعاية بالرضيع الذكر ما يختلف تماما عما تبذله من رعاية وعناية بالرضيع الانثى ، فاذا كان ذلك الاتجاه سائدا في بعض المجتمعات فانه لا يكون كذلك في مجتمعات اخرى ، او بمعنى آخر لا نلاحظ هذا الاختلاف في معدل العناية بالجنسين .

٦ - درجة العناية والرعاية التى تبذلها الام في تربية الاطفال الكبار . وهذه ايضا تختلف من اسرة الى اسرة ومن مجتمع الى آخر ، وهى ليست متعلقة تماما بالنقطة السابقة كما يبدو ذلك من الوهلة الاولى ، اذ ان النظرة الى الطفل - في بعض المجتمعات والاسر - تختلف باختلاف اطوار نموه وقدرته على الاشتراك في حياة الكبار - مثل كسب العيش - ذكرا كان او انثى .

٧ - درجة الثبات الانفعالي والاتزان العاطفى للام . وهذه وإن كانت تختلف من ام الى اخرى ، كصورة من صور الفروق الفردية بين بنى الانسان ، الا انه في حقيقة الامر يمكن ان نقول ان كمية هذا الثبات والاتزان عموما تتأثر بما هو سائد في المجتمع المحلى من عادات وتقاليد مكتسبة او موروثة .

وقد ظهر من نتائج هذه الدراسة أيضا أن العوامل السبعة السابقة تتعلق بالاختلاف بين الامهات أكثر من تعلقها بالاختلاف بين البيئات .

وكذلك فإنه يمكن القول بأن وسيلة البحث في هذه الدراسة والنتائج التي تمخضت عنها رغم اعتراف القائمين بها بأنها تمهيدية - ساعدت على إمكانية وضع دلائل ومؤشرات بحثية تفيد في مقارنة المقومات الحضارية في بيئات مختلفة . كما أعطت الفرصة أيضا لتعديل المفهوم النظري من التباين والاختلاف بين الأسر والمجتمعات المحلية عندما نحاول تحديد عملية التطبيع الاجتماعي على أنها عملية تربوية ذات تأثير على نمو الشخصية الإنسانية وتطويرها .

٢ - المجتمع المحلي وشخصية الفرد :-

ونحن هنا - أيضا - لسنا في حاجة إلى القدرة على المناقشة والحوار ، أو تقديم الأدلة والبراهين ، لنُدلل على مدى تأثير شخصية الطفل بالآخرين من أعضاء المجتمع المحلي حيث بدأ أولى خطوات حياته خارج الأسرة ودرج ليلتقي بأقرانه وأترابه من بني جريته ومجتمعه الصغير ؛ نتعلم من هؤلاء وهؤلاء أسماء الأشياء والأحداث وخواصها ومزاياها كما تعلم أيضا الوظائف والأدوار الاجتماعية التي تخص بها عناصر بيئته ومقوماتها وتنوعها وحجم الاستجابة التي يتحتم عليه أن يقدمها لكل مشر من مشرات البيئة .

ومن خلال هذا الاحتكاك الأول بالمجتمع المحلي قد يرتبط الطفل ارتباطا وثيقا بجماعة من الجماعات الصغيرة المتميزة داخل مجتمعه المحلي، فيكتسب منهم من القيم والمعايير والاتجاهات النفسية ما يجعله متشابها معهم عند معالجته للواقف وحكمه على الأشياء والأحداث ، بل يذهب إلى أبعد من هذا فيتماطف معهم في المادة والحاجة .

وعندما يخرج الطفل من مجتمعه المحلي إلى ذلك المجتمع العريض ، متعبدا في ذلك الحدود الضيقة التي ألفها وأطمأن إليها ، فإنه يحمل معه ذلك القدر مما اكتسبه من قيم وعادات ، والذي يكون سلوكه ونماذج تعامله مع الآخرين .

والفرد إنما يكون هذه الأنماط والنماذج نتيجة الخبرة والاحتكاك بعناصر البيئة ، ومن هذه العناصر ما يكون لنا هينا سهلا ، فيتفاعل معه الفرد على مدى طويل من الزمن ، فيتأثر به ويؤثر فيه ، ومنها ما يكون عنيفا شديدا وعسرا بحيث لا يستمر التفاعل بينه وبين الفرد إلا لفترة قصيرة حيث يتم التأثير المطلوب .

وبطبيعة الحال لا بد أن نعرف بأن المجتمع المحلي هو الذي يقدم للفرد من الواقف والمثيرات ما يعطيه الفرصة على أن يتدرب على تقديم الاستجابات المناسبة لكل موقف ومثير من هذه الواقف والمثيرات .

ونحن في هذا الصدد نعرض دراسة من الدراسات الهامة والتي عنيت بعلاقة المجتمعات المحلية بعملية التطبيع الاجتماعي وانكاسها على شخصية الفرد .

فقد قام باركر وآخرون (١) في سنة ١٩٥٤ بدراسة تهدف إلى تصنيف الواقف والمثيرات التي تقدمها بيئة المجتمعات المحلية للأفراد ، وكذلك تعدد هذه المثيرات ومقارنة البيئات تبعاً لذلك .

(١) Barker, R. G. and Wright, H.F., *Midwest and its children*, Evanston III, Row, Peterson and Co. 1954.

وفي إحدى مراحل هذه الدراسة قام الباحثون بمقارنة بلدة أمريكية بأخرى إنجليزية ، حيث كان تعداد البلدة الأمريكية ٧١٥ فردا ، وعدد أنواع المواقف والمثيرات التي تقدمها بيئة هذه البلدة لهؤلاء الأفراد ٥٧٩ نوعا ، وحيث كان تعداد البلدة الإنجليزية ١٣٠٠ فرد ، وعدد أنواع المواقف والمثيرات هو ٩٦٤ نوعا (مع ملاحظة مدى تشابه أنواع المثيرات والمواقف في كل من البلدين ما أمكن ذلك) .

وبناء على ذلك فإنه تكون نسبة تعرض الفرد الواحد في بلدة ميد وست الأمريكية لانسواع مختلفة من المواقف والمثيرات هي ١٨١ ، في حين أن هذه النسبة تكون ٥٥٥ . في حالة الفرد في بلدة بوريدال الإنجليزية .

ويقول الباحثون أن اختلاف هذه النسبة ربما يعطى بعض التفسير لاختلاف طريقة الفرد الأمريكي في حياته عن طريقة الفرد الإنجليزي .

ففي البلدة الأمريكية نجد أن الطفل في المتوسط يواجه ٨٤ من مواقف المسؤولية الاجتماعية في مجتمعه المحلي ، بينما نجد الطفل الإنجليزي يواجه ٢٧ من هذه المواقف فقط .

ونجد كذلك أن المراهق الأمريكي - في نفس البلدة - يتعرض إلى ١٦٦ من نفس هذه المواقف ، بينما يقابل المراهق الإنجليزي ١٧ من هذه المواقف فقط ، ويستمر هذا التباين والاختلاف بين أفراد البلدة الإنجليزية والبلدة الأمريكية حتى في مراحل الرجولة المبكرة وما بعدها ، ويمكن أن نتبنى تفسير الباحثين لهذه النتائج في اتجاهين :-

أولهما : أن هناك في الحياة الأمريكية من المواقف والمثيرات المتنوعة ما هو أكثر من نظيرتها في الحياة الإنجليزية ، وأن لهذا الفرق تأثيرا واضحا على عملية التطبيع الاجتماعي .

وهذا هو عامل عناصر البيئة الخارجية الذي يتدخل وبصورة مؤثرة في هذه العملية ، والذي سبق أن ناقشناه فيما تقدم من فقرات .

وثانيهما : أن الطفل الأمريكي يجد من تشجيع الوالدين وتدريبهم إياه أكثر مما يلاقيه الطفل الإنجليزي من أبويه .

فنجد أن الطفل الأول (أي الأمريكي) يقدم على معالجة المواقف والدخول فيها والتعامل مع عناصرها ، بينما لا يجد الطفل الآخر مثل هذه الفرصة .

ففي البلدة الأمريكية يجد الطفل ٥٢٪ من مواقف مجتمعه المحلي مفتوحة أمامه ويمكنه الدخول إليها والتعامل مع عناصرها ، بينما لا يجد الطفل في البلدة الإنجليزية سوى ٢٣٪ فقط من هذه المواقف .

وبهذا يتسنى لنا أن نسأل سؤالا يتربط على نتائج هذه الدراسة وهو هل أطفال البلدة الأمريكية أكثر قدرة على المشاركة في أنماط الحياة الاجتماعية المختلفة ومواقفها اشتراكا ناشجا ونفعالا ؟ وهل هم أكثر نشاطا وفاعلية واجتماعية وامتلاء بالامل في المستقبل ؟ .

أو بمعنى آخر ، هل هو موضوع الكم أو الكيف الذي أخذه في اعتبارها دراسة باركر ومعاونوه . ؟

هذه الأسئلة لم تجب عليها هذه الدراسة إجابة كافية شافية ، ولكنها اهتمت فقط بإيجاد هذه النسب والإحصاءات ، ثم فسرت على أساسها ولهذا فنحن في انتظار ما توضحه دراسات مقبلة تأخذ في اعتبارها عددا أكثر من المتغيرات، وتكون أكثر عمقا واشمل اتساعا من الناحية الميدانية .

يخيل إلى أنه أصبح من المفيد الآن أن نلخص ما سبق مناقشته فنقول أننا استعرضنا أثر الأسرة والمجتمع المحلي في عملية التطبيع الاجتماعي وخاصة من ناحية بناء وإكمال الشخصية الإنسانية .

يترتب على هذه الملاحظة سؤال إجابته عليه دراسة ذات صبغة خاصة سوف نستعرضها فيها بعد . وهذا السؤال هل يمكن أن يكون لعملية التطبيع أو بمعنى أدق إعادة التطبيع دور في تدمير الشخصية الإنسانية ؟

هذا السؤال كان محور الدراسة التي قسام بها شاين ثم نشرها في سنة ١٩٥٦ (١) . وإدجار شاين إحصائي في علم النفس الاجتماعي قام بإجراء عدد كبير من المقابلات الشخصية المطولة مع أسرى الحرب الأمريكيين بعد إطلاق سراحهم وعودتهم من الصين الشيوعية ، وكان هؤلاء الأسرى قد تعرضوا إلى ما سمي في ذلك الوقت بعمليات غسيل المخ ...

يقول شاين أن الشيوعيين لم يحاولوا فقط محو حصيلة عملية التطبيع الاجتماعي لسدى الجندي الأمريكي ، بل حاولوا إعادة تطعيه من طريق تلقيته مبادئهم وعقائدهم وتدريبه عليها . وبما هو معروف أن الاهتمام الأكبر عند الشيوعيين هو غرس المبادئ السياسية التي يؤمنون بها في صدور الآخرين . وكما يعتقد شاين فإن الصينيين قد فشلوا في تحقيق هذا الهدف الرئيسي ، ولكنهم نجحوا في أمور فرعية أخرى ذهت إلى أعداد دراسته .

فعملية محو حصيلة التطبيع أو التثنية تعني العودة بالفرد أو الرجوع به إلى النقطة التي يمكننا أن نغير فيها سماته وخصائصه الأساسية ، وهذه العملية - عملية المحو - في حد ذاتها تحتاج إلى إخضاع الفرد إلى أنواع خاصة من الضغوط الاجتماعية ذات الجهد العالي (٢) . وإلى إخضاع هذه الضغوط أيضا إلى إمكانية التحكم فيها بالزيادة أو النقص أو الإبدال أو التغيير .

فأول ما عمدت إليه السلطات الشيوعية الصينية هو إبعاد الضباط الأسرى عن جنودهم ، وبذلك تركت الجندي دون أن يتلقى أية أوامر من رئيس ، وتركزت الضابط دون أن يعطي أية أوامر لمرؤوس ، وبذلك تغير الروتين اليومي لحياة الجندية التي تعود عليه كل منهما - الجندي وضابطه - . واستمر ذلك لمدة ليست قصيرة أعطيت فيها الحرية للجنود لأن تكون لديهم الفرصة لأن يعملوا إلى عدم الانصياع للأوامر والتصرف بشيء من التلقائية ، وفي نفس الوقت تعرض الضباط لأمور عديدة تساعد على إخراجهم من إحساسهم بالجندية والضبط والانضباط . وبعد ذلك قام الشيوعيون بإعادة توزيع الجنود مع ملاحظة تحطيم السرايا والفصائل وعدم الجمع بين المعارف أو الأصدقاء من الجنود في تنظيم واحد .

كذلك تصمدت السلطة الصينية أن تجمع مما أعضاء الأقليات مثل الزنوج أو اليهود حتى

(١) Schein, E.H. *Psychiatry*, 1956, 149-172.

(٢) المصطلح الاجتماعي ذو الجهد العالي هو ذلك المصطلح الاعلامي الذي يطلق للفرد من الواكف ما يجعله يستجيب لها على مستوى الفاصلة بين احتمالين لا ثالث لهما بصورة فورية .

تكون الفرصة سانحة لأن يتصاعد الإحساس الكامن بالظلم والاضطهاد بين هؤلاء ، الأمر الذي كانوا يمانون منه في مجتمعاتهم الأصلية .

وبناء على هذا التوزيع الجديد كان من المتوقع أن تنشأ بعض الروابط والصدقات بين الافراد ، ولكن كانت هناك خطة دائمة لتخطيط مثل هذا البناء الاجتماعي الوقت . فقد كان هناك تشجيع ودفع واغراء لبعض الجنود لأن يقوموا بملاحظة زملائهم والأخبار عنهم حتى في بعض الأمور البسيطة والتي قد لا تقدم أو تؤخر . وبعد ذلك يكافأ هؤلاء علنا وامام بقية الجنود مع علمهم بسبب هذا التمييز وهذه المكافأة .

وبناء على ذلك أصبحت مهمة الشيوعيين سهلة - وخاصة بعد تكرار مثل هذه المواقف - مواقف مكافأة الوشاة - فإذا لوحظ نمو أي صداقة أو تعارف بين جماعة من الجنود كوفيء بعضهم على نفس النمط بطريقة تثير الشك والاقاويل حول اخلاصهم لزملائهم الجنود . وبالتالي يتحطم هذا البناء عندما يشك كل جندي في زميله ويمامه معاملة الحيلة والحذر .

وقد كان من المتوقع بعد ذلك أن ينزع كل جندي أو ضابط الى اعتزال زملائه ورفاقه في السلاح . وبذلك يدخل الرجل طائعا مختارا ضمن الوجهة الظاهرية فقط - الى مناهات الوحدة والانزواء . الأمر الذي كانت تهدف اليه السلطات الصينية الشيوعية .

وهذه الوحدة كانت تعني تعطيل حواس الرجل عن مزاولة عمله الطبيعي ، وبذلك يرتفع مستوى الكبت والخوف والإحباط عندهم ، ويصبحون في ميسس الحاجة الى من يتحدث اليهم ويتحدثون اليه .

وفي هذه المرحلة بدأ الشيوعيون يتحدثون الى الرجال حديثا بارعا ذكيا . يعتمد على ادق أسس ومبادئ علميتي النهاية والتأثير ، وكان الهدف من مثل هذه الاحاديث هو اظهار الجانب السيئ للحياة الأمريكية بما فيها من علاقات اجتماعية واقتصادية ، وكذلك اظهار الجانب الحسن في نماذج الحياة الاجتماعية والاقتصادية على الطريقة الماركسية .

ولم يكن مجرد الاستماع كافيا سواء بالنسبة للشيوعيين الذين يهدفون الى تحويل الاسرى تحويلا عقائديا كاملا أو بالنسبة للرجال في الاسر والوحدة الذين كاد الملل أن يتسرب مرة أخرى الى نفوسهم . وبذلك عمد الشيوعيون الى تدريب أسراهم تدريبا من نوع خاص .

الخطوة الاولى في هذا التدريب كانت ترمي الى تكوين عادة الاعتراف بالاخطاء البسيطة ، مثل العصيان العادي لقوانين معسكر الاعتقال ، وكان الجندي يكافأ بسخاء بعد كل اعتراف بهذه الاخطاء البسيطة . والهدف البعيد من هذه الخطوة هو تكوين عادة اعلان الاخطاء - سواء في العمل أو العقيدة - امام بقية الناس ، وبذلك قد يصل الجندي أو الضابط الى المرحلة التي يناقش فيها مقيدته السياسية امام الآخرين معترفا بما فيها من نقائص وعيوب .

والخطوة الثانية من هذا التدريب الخاص اعتمدت على فكرة التقمص والتقليد الذي تبدأ مرحلته بأن يشعر الرجال في الاسر وهم يعانون من الكبت والإحباط بأنهم كانوا من الممكن أن يستمتعوا بما يستمتع به الشيوعيون في هذه الظروف داخل معسكر الاعتقال .

وبناء على ذلك فان تعلقات بعض الرجال من الاسرى وجدت صداها عند الشيوعيين حيث استجابوا لهذه الرغبات ، ولكن بشروط ضمنية وغير واضحة أو صريحة ، وهي أن من يستمتع

بهذه الخرابا لا بد أن يسلك ويتصرف ويفكر على نفس الصورة التي يسلك ويتصرف ويفكر بها أصحابها الأصليون وهم الشيوعيون .

ولا بد أن نشير هنا إلى أن الأمور لم تكن بهذا التسلسل الهادئ ، ولكن اكتنفها في كثير من الأحيان بعض العنف والإرغام والتهديد .

كما لا بد أن نشير أيضا إلى أن هذه العملية محو حصيلة التطبيع الاجتماعي أو غسيل المخ كما تسمى أحيانا - لم تشر إليه صدد قليل من هؤلاء الأسرى .

وهكذا استعرضنا فيما سبق كيف يمكن أن يكون لعملية التطبيع دور معاكس أو مضاد في بناء الشخصية الإنسانية وتكاملها ، فانه مما لا شك فيه كان هدف العملية - التي سبق وصفها - هو تحطيم الشخصية الأمريكية لدى الجندي وأعطائه أو إباسه الشخصية الماركسية .

نعود إلى حديثنا السابق عن الأسرة والمجتمع المحلي وتأثيرها على الشخصية الإنسانية، فقد عالجنا هذا الجزء من الدراسة على أن هناك سبيلين أو طريقين تتم عملية التطبيع الاجتماعي من خلالهما ، الطريق الأول هو المؤسسات الرسمية والقانونية التي هي وظيفتها الحفاظ على حضارة وثقافة الجماعة ونقلها من جيل لآخر ، ومثال ذلك المدرسة أو الجامعة أو أماكن الدين والعبادة كالسجدة أو الكنيسة . وهذا لم نتعرض له بالمناقشة حتى لا نخرج بدراستنا هذه عن حدودها الطبيعية .

والطريق الثاني هو الأنظمة الاجتماعية والتجمعات التي تقوم بعملية التطبيع الاجتماعي بطريقة غير مقصودة وهي الأسرة والمجتمع المحلي وهذه أيضا وظيفتها وكانها تعتمد على استمرار حضارة الجماعة وتطورها . ونحن في هذه الناحية تعرضنا للمناقشة التفصيلية لأثر الأسرة والمجتمع المحلي على الشخصية الإنسانية ، ولكن يبقى بعد ذلك أن نناقش أهم نواحي عملية التطبيع الاجتماعي التي تتم من هذا الطريق غير المقصود . ويمكن تلخيصها فيما يلي : -

(١) الطاعة الاجتماعية :

الطاعة الاجتماعية هي ظاهرة انصياع الفرد لما هو سائد في المجتمع من قيم ومعايير وقوانين اجتماعية ، أو بتفسير آخر هي استجابة الفرد لمثيرات البيئة على نمط لا يختلف عما يقدمه الآخرون أعضاء نفس المجتمع من استجابات لهذه المثيرات .

ولعله من المفيد في هذه المجال أن نناقش الظروف التي تجعل الطفل طيعا مستجيبا لما حوله من عناصر البيئة على الصورة التي أشرنا إليها . ونحن لن نذهب بعيدا عندما ندرس هذه الظروف داخل الأسرة والمجتمع المحلي ، لأنه كما سبق أن أشرنا أن أسلوب التطبيق الاجتماعي غير المقصود يعطى بعض النواتج أو الظواهر منها الطاعة الاجتماعية .

وهناك كثير من الدراسات حول هذا الموضوع وخاصة تلك التي أجراها معهد فلز Fels بولاية أوهايو في أمريكا (١) .

وقد اختصت هذه الدراسة بإمكانية التنبؤ بسلوك الطفل وتصرفاته ، وموقفه من قيم

(١) Crandall, S., Orleans, A. Preston and Rabson, child development, 1958, 29, 429-444.

ومعايير المجتمع الخارجى ، اعتمادا على دراسة أنواع الضغوط التى يتعرض لها الطفل داخل الأسرة خلال السنوات الأولى من حياته .

وقد أوضحت نتائج هذه الدراسة أن مفهوم الطاعة الاجتماعية وأنماط السلوك المرتبطة به تبدأ فى صورة باهتة غير واضحة فى تصور الطفل ومتسع مدركاته ، ولكنها تزداد بعد ذلك وضوحا ودقة عندما يبدأ الطفل فى ممارسة الحياة خارج الأسرة وبالتالي يتعرض لضغوط خارجية من نوع جديد ، أى غير تلك التى تعودها من الأبوين والأخوة والأقارب .

ومن هنا نستطيع أن نقول أنه من الصعوبة بمكان أن تكون لدينا القدرة على أن نتنبأ بطاعة الطفل أو عصيانه لقيم المجتمع ومعاييره عندما يترك الأسرة وينضم إلى جماعة المدرسة ، وذلك اعتمادا على ما تعرض له من ضغوط داخل الأسرة .

ولكنه - فى الناحية الأخرى - يمكن لنا أن نتنبأ بموقف الطفل أو عصيانه بالنسبة لهذه القيم والمعايير عندما ينضم إلى جماعة المدرسة الثانوية أو المتوسطة ، وذلك اعتمادا على دراسة أنواع الضغوط التى تعرض لها فى المدرسة الابتدائية .

وقد أوضحت نتائج هذه الدراسة أثر المكافأة والثناء أو الردع والعقاب بالنسبة للطاعة الاجتماعية ، فقد ظهر أن المكافأة تقود إلى الطاعة أكثر مما يقود إليها الردع أو العقوبة .

وللنمو والتضج أثر كبير فى هذا فإن الأطفال عندما يكبرون تصبح أنماط سلوكهم أكثر ثباتا وتناسقا : فالطفل بين سنه الثالثة والخامسة يبدو طاعته الاجتماعية واضحة ، وذلك بالنسبة لمعايير الكبار فقط ، سواء أكانوا هم الآباء أم المعلمين أم المشرفين فى دور الحضانة مثلا . ولكن الحال ليست كذلك مع أقرانهم وأترابهم فى نفس السن ، فهم فى عصيان وتمرد يوضح ويفسر لنا علاقات الطفل بأقرانه فى هذه السن .

ولكن قد يحدث ونلاحظ أن بعض الأطفال فى هذه السن يشدون عن القاعدة فتظهر طاعتهم وولائهم الاجتماعي لمجتمع أقرانهم وأترابهم ، ولكن فى حقيقة الأمر يكون ذلك ناتجا من اعتماد هؤلاء الأطفال على غيرهم ، وخاصة فيما يحتاجون إليه من أمور تتطلب المجهود العضلى أو الجسماني الذى لا يستطيعونه .

وعندما يقترب الطفل من سن السادسة ويتعدها نجده طيعا مواليا لقيم ومعايير كلا النوعين سواء مجتمع الكبار كالأباء والمعلمين ، أو مجتمع أقرانه وأترابه من ذوى السن الواحدة .

وقد ظهر أيضا من نتائج هذه الدراسة التى نحن بصدد استعراضها الآن أن تكيف الطفل وانضباطه لقيم ومعايير الكبار أو أقرانه وأترابه من نفس السن وذلك خلال مراحل نموه الأولى هو عامل هام وضرورى فى قدرة الفرد وإمكانياته فيما بعد للتكيف والانضباط بالنسبة لأبعاد المجتمع الكبير الذى يتصل به .

فالاطفال الذين يجيدون التكيف لتلك المعايير بين سن الثالثة والخامسة نجدهم فى سن الثامنة وقد تميزوا بالاعتماد على النفس والاستقلالية فى التفكير والسلوك . كما نجد أيضا فرقا واضحا وملموسا بين هؤلاء الأطفال وبين الأطفال الآخرين الذين لم يتدربوا على إجادة التكيف لتلك القيم والمعايير فى هذه السن . ويتكون هذا الفرق واضحا فى مجال العدوانية والتسلط والسيطرة ، حيث يبدو ذلك فى سلوك هؤلاء الأطفال الآخرين .

ولذلك فإنه يمكن أن نقول أنه بالنسبة للطاعة الاجتماعية نجد الطفل بعد سن الثامنة وخاصةً بعد أن يتعرض لضغوط الأسرة والمجتمع المحلى قد وصل الى قدر معقول في هذه الناحية يمكن التنبؤ على أساسه بموقف الطفل مستقبلاً من حيث كونه طيعاً لنا أو عاصياً متمرداً على قيم المجتمع ونظمه ومعاييره .

ويجب ألا ننسى إطلاقاً أن الطاعة الاجتماعية هذه تنتج من سلسلة عمليات من عمليات التعلم واكتساب المهارة والخبرة . فالطفل يكتسب هذا النمط من السلوك أو ذلك نتيجة تفاعله مع أبويه في الأسرة وأبناء جيله في الجوار ، فيتعلم عادات الطاعة والأذعان لمعايير المجتمع وقيمه ، وقد يكون ذلك نتيجة التقليد والمحاكاة أو إجراءات الإثابة والعقاب .

ب - العدوانية :

لعلنا اقتربنا الآن من الهدف الذي نريده عندما بدأنا بمناقشة الطاعة الاجتماعية ثم أتينا الى العدوانية ، لأن هذا هو السبيل المنطقي لأن نربط بين عملية التطبيع الاجتماعي - وخاصةً غير المقصودة - وبين سلوك التعصب والتحامل الذي يجمع بين أطرافه هاتين الخاصتين : خاصةً الطاعة حيث يتسول الفرد على قيم مجتمعه فيتعصب له ، وخاصةً العدوانية حيث يتكون لدى الفرد القدر الكافي من العدوانية تجاه مجتمع آخر فيتحامل عليه ، ونحن من واجبنا - كما سبق أن قمنا - أن ندرس هذا الأمر بصورة تحليلية تشريحية . تساعدنا على فهم هذه العملية وإدراك أبعادها .

العدوانية هي كل تمرد على ما هو قائم في النسيج الحضارى العام للجماعة . سواء كان هدف العدوانية بشراً أو قيمة أو معياراً أو تقليداً .

والعدوانية بهذا المعنى تقل كلما زادت الطاعة الاجتماعية عند الفرد بحيث أنه نستطيع أنقول بأن هناك علاقة شبه قانونية بين هذين المتغيرين (١) . وبالتالي فإنه قد يكون في الإمكان ضبط عدوانية الفرد من طريق تنظيم طامته الاجتماعية وما يتعلق بها من انماط سلوكية .

وتطور خاصة العدوانية ونموها أعقد شكلاً وموضوعاً من تطور خاصة الطاعة الاجتماعية ونموها ، وربما يرجع ذلك الى طبيعة كل من الخاصتين أو ربما يرجع ذلك أيضاً الى القدر من العلم والمعرفة الذي نلّم به من كل منهما .

وإذا أردنا أن نناقش العدوانية بشيء من الدقة والتحديد فإنه يصبح لزاماً علينا أن نرسم نموذجاً تفصيلياً للهيكل الحضارى للمجتمع الذى تبدو فيه هذه الظاهرة وتتضح حتى يمكننا أن نميل بخطوط واضحة فاصلة بين السلوك العدواني والسلوك غير العدواني .

كذلك فإنه من المبادئ الأساسية لمثل هذه المناقشة أن نحدد كل رابطة أو علاقة بين العدوانية وبين المتغيرات الأخرى ذات العلاقة المنطقية بها مثل الإحباط والشعور بالفشل والخيبة .

فكما هو معلوم أن كل سلوك عدواني لا بد أن يسبقه نوع من الإحباط والاحساس بالفشل

(١) العلاقة القانونية بين الأشياء هي تلك العلاقة التي يحكمها قانون وبناء عليه يمكن استنتاج أحد الشئيين بمعلومية الشئ الآخر .

وعدم التوفيق ولكن هذا لا يقودنا الى ان نقول العكس أى ان كل احباط وفشل لا بد ان يتبعه سلوك عدواني .

ولكن - حتى على جميع الاحتمالات - اذا أخذنا بهذا المبدأ : مبدأ الاحباط والعدوانية فان الصورة تكون غير كاملة وغير مقنعة وغير قادرة على تفسير وشمول كل الحالات التي تظهر فيها العدوانية بصورها المختلفة ففي كثير من الأحيان تؤدي المكافأة أو التذليل المفرط الى عدوانية على الأفراد والقيم والمعايير بنفس القدر الذي يسببه الفشل والاحباط .

ثم ان هناك أمرا آخر وهو أنه في كثير من الأحيان يصدر من فرد تعرض لاحباط بسيط قدر اكبر من العدوانية التي يمكن ان تصدر من فرد آخر تعرض لاحباط أشد .

وهنا تستطيع ان تقول ان أهمية العدوانية كظاهرة من ظواهر عملية التطبيع الاجتماعى يمكن ان نستدل عليها من ناحيتين هما : -

١ - الدراسات والبحوث التي تهتم بها كل المجتمعات لضبط عدوانية أفرادها والتحكم فيها ، وذلك بالبحث عن الاسباب التي تؤدي الى هذا النوع من السلوك ومحاولة علاجها أو تفادها . ومن أمثلة تلك الدراسات هذه التي تهتم بجناح الاطفال او جرائم الكبار او تلك التي تهتم بالقوانين الوضعية وطبيقتها وقيمتها العلاجية وما الى ذلك .

وهذه الدراسات بجميع أنواعها هي سبيل المجتمعات الى المحافظة على قيمها ومعاييرها ونظمها القائمة والتي يجب على الأفراد ان يلتزموا لها .

٢ - ما نبذله الجماعات من محاولات من أجل امتصاص العدوانية التي تتوقعها من الافراد مثل تشجيع وتبني الرياضات المختلفة أو انواع النشاطات الأخرى التي تمتص الطاقة العدوانية .

وقد تقوم المجتمعات بحيل أخرى مثل : اشاء الرموز والدلالات، ثم توجيه عدوانية أفرادها الى مثل هذه الرموز ، ومن أمثلة ذلك رموز الشر والذيلة والأرواح الشريرة وغير ذلك .

وهناك منافع عديدة تخرج عن طريقها الجول الى العدوانية ، ففي المواقف التي تتبع الاحباط او الفشل على سبيل المثال قد تحدث عملية اراحة أو استبدال ، فالطفل الذي يكون هدف عدوانيته أحد الوالدين يصنع اخاه الأصغر صفة فرست عليه طاعته الاجتماعية الا يزاوها مع من هو اكبر منه سنا وخاصة أحد الوالدين .

وقد تكون الاستجابة العدائية رقيقة مخففة، ففي مثل هذا الموقف يكتفى الطفل بجملته ساخرة او ملاحظة لأذعة ، او ان يصمت ويدور في خلده ما يتمنى أن يفعله في مثل هذه الظروف .

وقد تكون الاستجابة استباقية ، فلا يعترف الفرد بعدوانيته ، ولكنه يرمى الآخرين بالعدوانية ، وبذلك يبعد نفسه الطريق ليقوم بعمل عدواني هو دفاعى من جهة نظره .

وعملية التطبيع الاجتماعى تأخذ في حسابها بطريقة ضمنية خاصة العدوانية عند الافراد ، وبذلك فهناك دراسات وبحوث عديدة أجريت حول املاء (١) العدوانية أو تعديل الاتجاهات العدوانية عند الاطفال .

(١) كلمة الاملاء (Sublimation) تستخدم كثيرا في علم النفس مثل اعلاء الفريزة الجنسية ، واصل التماسى او الاملاء في العلوم الطبيعية هو انتقال المادة من الحالة الصلبة الى الحالة الغازية مباشرة دون المرور بحالة السبولة . والمقصود بالنسبة لفريزة الجنس مثلا هو ان ينتقل الفرد من مرحلة الاحساس بالحاح الفريزة الى مرحلة الاتزان معها والتحكم فيها دون ان يمر بمرحلة اشباعها .

وكان السؤال دائما هو « كيف يلتقط الطفل في انشاء نموه وتطوره او بمعنى آخر في انشاء عملية تطبيعها اجتماعيا انماط واساليب السلوك العدائي من هؤلاء الذين يحيطون به ويحتك بهم من خلال مواقف حياته اليومية » .

ومن الدراسات الواضحة في هذه الناحية الدراسة التي قام بها سيرز ومعاونوه (١) ، وقد اوضحت هذه الدراسة ان الطفل في سن السادسة ، والذي يميل بشدة الى السلوك العدائي انما تربى في بيئة منزلية او محلية تتسامح بالنسبة لهذا النمط من السلوك ، ولكنها - اى البيئة - في نفس الوقت تعاقب الطفل العدوانى - اذا عاقبته - عقابا صارما شديدا لا رحمة فيه .

كما وجد الباحث ايضا ان الاطفال الأقل ميلا الى العدوانية انما نشؤوا في بيئات لا تتسامح مع اى نمط من انماط السلوك العدائي ، ولكنها - اى البيئة - لا تقابل هذا السلوك - في حالة حدوثه - بالعقاب الشديد المولم .

وقد تابع سيرز (٢) . دراسته على نفس المجموعة من الاطفال حتى بداية سن المراهقة حيث قام بقياس العدوانية عندهم اخذا في اعتباره انواعها المختلفة مثل العدوانية ضد المجتمع والعدوانية المخففة والعدوانية ضد الذات وعدوانية الاسقاط وغير ذلك .

ووجد الباحث ان المراهقين الذين يميلون الى العدوانية ضد المجتمع انما يسلكون بصورة تشبه السلوك العدائي لاطفال سن السادسة عندما يضغط عليهم الآباء لنمهم من مزاوله هذا السلوك .

كما وجد ايضا ان تدليل الآباء لابنائهم عند بداية مرحلة المراهقة قد يكون احد العوامل الهامة في تكوين السلوك العدائي عند الشباب . كما وجد الباحث ايضا ان الردع والعقوبة في هذه الفترة - بداية المراهقة - تمنع تكوين العدوانية الاجتماعية .

وعندما نحاول ان نفسر ذلك على اساس نظرى فاننا نقول ان الفرد الذى تكون لديه الميول العدائية وفي نفس الوقت يخشى العقاب الذى يترتب على سلوكه العدوانى يتولد عنده ما يسمى بضغط الصراع الذى لا يتمكن الطفل من الاستجابة له في سن السادسة استجابة مناسبة فتبدو عدوانيته بصورة مبالغ فيها ، بينما في بداية مرحلة المراهقة يتمكن الطفل من ان يتكيف مع هذا الضغط الصراعى فيستجيب له الاستجابة المناسبة .

واما بالنسبة للعدوانية المخففة فان الامر يختلف ، فهى تبدو واضحة بين الشباب في بداية مرحلة المراهقة ، وخاصة بين هؤلاء الذين نشؤوا في بيئة تتسامح بالنسبة للسلوك العدائي ، ولكنها شديدة العقاب - اذا عاقبت - بالنسبة للطفل الذى يرتكب سلوكا عدائيا .

وأخيرا نحب ان نعلق بان العدوانية ليست سلوكا بسيطا ، ولكنها كل مركب يحتاج الى دراسات اعمق واوسع من تلك التى قام بها سيرز .

(1) Sears, R., and Others, *Patterns of child Rearing*, 1957.

(2) Sears, R., *J. Abn. Soc. Psychol.* 1961, 63, 466-495.

ج - التقليد والمحاكاة :

نحن الآن نقرب من فرض هذه الدراسة ، وهو ربط السبب بالنتيجة ، أو بمعنى آخر ربط عملية التطبيع والتنشئة بسلوك التحامل والتعصب، فقد سبق أن أشرنا بأن الطاعة الاجتماعية والعدوانية سوف يهتبان الفرد لخل هذا السلوك وخاصة اذا توافر لهما عنصر التقليد والمحاكاة كطرف ثالث بشجع الفرد على طاعة قيم مجتمعه فيتعصب له، كما يشجعها ايضا على عدوانيته تجاه مجتمعات أو جماعات أخرى فيتحمّل عليها .

فالتقليد من العمليات النفسية الاجتماعية الهامة ، حتى انه في وقت ما اجمع المتخصصون في علم النفس على انه يمكن عن طريقها تفسير وتعليل معظم انواع وانماط السلوك الاجتماعي للأفراد بشرا كانوا أو غير ذلك ، وكانت الفكرة وراء ذلك هي ان التقليد والمحاكاة جزء من الطبيعة البشرية والنفس الانسانية ، او بمعنى آخر هو ميل غريزي موروث عن الآباء والأجداد .

ولكن هذا الرأي اصبح مردودا عليه ، فهناك بعض الناس يتقنون التقليد والمحاكاة بدقة ومهارة ، في حين ان الكثيرين لا يمكنهم ذلك . كما ان الاطفال يقلدون احسن من الكبار .

كما ان هناك البعض يميل دائما ان يفعل عكس ما يفعله الآخرون .

لهذا نستطيع ان نقول ان الاساس الغريزي لعملية التقليد غير قائم : وهذا ما يمكن ان نستخلصه ايضا من الدراسة التي قام بها ميلر ودولارد (١) : فقد قامت هذه الدراسة على اساس ان التقليد يمكن تفسيره في اطار عملية التعلم الاجتماعي ، فمن التجارب التي اجراها الباحثان على الفئران البيضاء - ثم الاطفال - يمكن ان نقول ان التقليد عادة يمكن اكتسابها وتعميرها ، وخاصة اذا كوفئ الفأر او الطفل مكافأة مناسبة بعد تقليده للآخرين ، كما انه يمكن ابطالها وجوها عند اجراء الردع او العقاب بعد عملية التقليد ، ولكن هناك نقطة تستحق التوضيح ، وهي ان هناك فرقا واضحا بين الفئران والاطفال : ففي الحالة الاولى يكون التقليد ارتباطا عصبيا اكثر منه استبصارا وتعلما اجتماعيا ، في حين يكون العكس في حالة الاطفال ، لانه في هذه الحالة تتم عملية تلقين وتفسير مصاحبة لعملية التقليد ، او بمعنى آخر يحدث تبرير لعملية التقليد في حالة الانسان . وهذا حقيقة ما يحدث في عملية التطبيع عندما ترمى الام الى تدريب ابنتها على تقليدها ، فهي - أي الام - تحرص على تبرير هدف التقليد والمحاكاة . وقد يكون ذلك السبب الرئيسي في ان التقليد يتحول بعد ذلك الى عادة ثابتة راسخة .

وربما يكون مفيدا في مجال الحديث عن التقليد كعملية نفسية اجتماعية ان نستعرض في ايجاز ما لها من صلة وعلاقة بعملية أخرى مشابهة من ناحية المظهر ، وهي عملية التنمب (أو التوحد) وهي عبارة عن تلك العملية التي عن طريقها يقوم الفرد بوصف نفسه ونوع سلوكه وشخصيته ، بناء على مفهومه عن صورة ذات فرد بحبه ويعجب به - وذلك كما يقترح سيغوند (٢) . ومن هذا التعريف يمكن ان نستنتج ان التقليد في عملية التطبيع الاجتماعي قد يكون نتيجة عملية التنمب هذه ، ولكننا قد نرفض هذا التعريف من الاساس حيث يرى جيمس (٣) . ان كثيرا من

(1) Miller, N., and Dollard J. *Social Learning and Imitation* N. Haven, 1941.

(2) Tagiuri, R, and Petruccio, L., *Person Perception and Inter-personal Behaviour*, Stan. Uni. Press 1958.

(3) James, H.E.O., *Lectures in Social Psychology*, London Uni., 1961.

اليهود في معسكرات الاعتقال النازية قد تقمصوا شخصيات حراسهم من الالمان ولم يكن بين هؤلاء هؤلاء أى رابطة من الإعجاب والحب وإذا كانت هناك رابطة فهي تلك التي تقوم على الخوف والرهبة وتوقع الإعدام بين لحظة وأخرى . ولذلك فان جيمس يجرح رأى سيمونلز بالنسبة الى التقمص ، فيرى ان الحب والإعجاب قد يساوى الخوف والرهبة في هذه الناحية .

وللتلخيص فائنا نقول ان سلوك الفرد سواء اكان علميا موضوعيا ام متحاشيا متعصبا فانما يتحدد بثلاث متغيرات هي :

أ - طاعة الفرد وإذعانه للقيم الاجتماعية التي تسود شبكة العلاقات في الجماعة التي ينتمى اليها وبالتالي يتطبع فيها اجتماعيا وحضاريا .

ب - درجة العدوانية التي تختلط مع الدوافع الاجتماعية للفرد وتدفعه الى اتخاذ قراراته على نحو معين في مواقف الحياة اليومية .

ج - درجة استجابته وأجاده تقليد سلوك الآخرين من أبناء مجتمعه .

وهذه المتغيرات الثلاث هي بلا شك أهم نتائج عملية التطبيع الاجتماعى غير المقصودة والتي تتم في الأسرة كنظام اجتماعى وفي المجتمع المحلى كتجميع يرتبط أفراداه بعلاقات من نوع خاص ولأبدا .

وهذه المتغيرات الثلاث ايضا هي التي تكاد تميز الأسرة والمجتمع المحلى عن غيرهما من الانظمة والتجمعات والمؤسسات الاجتماعية الأخرى .

د - التحامل والتعصب :

هذا النوع من السلوك الاجتماعى من أهم أنماط السلوك التي تتكون عن طريق التنشئة غير المقصودة على الصورة التي أسلفناها في السطور السابقة .

فالطاعة الاجتماعية او الأذعان الاجتماعى والعدوانية والتقليد والمحاكاة لها دور واضح وملبوس في تكوين طبيعة هذا النوع من السلوك .

وقبل ان نناقش طبيعة هذا السلوك ومقوماته ربما كان من الافضل ان نجيب على سؤال سوف يقفز بلا شك الى ذهن القارئ ، كما يليح دائما على الكثيرين ممن يقرأون شيئا عن التحامل والتعصب . وهذا السؤال هو « هل هذا النمط من السلوك غريزى موروث او مكتسب من ظروف البيئة الخارجية ؟ وبمعنى آخر هل يولد الطفل الأبيض في أمريكا او في جنوب إفريقيا وفي دمه كراهية الزنوج والتحامل عليهم ؟ ولنذهب أبعد من هذا ونقول هل يولد القط ولديه ما لديه من كراهية للفأر وميل فريزى لافتراسه ؟ ام ان الامر يختلف وظروف وعناصر البيئة الخارجية الدور الرئيسى في تكوين هذا النمط من السلوك التحيز التحامل : -

هناك تجربة طريقة توضح علاقة الفأر بالقط ، وهى تلك العلاقة الأبدية الازلية ، والتي يضرب بها المثل ، في العداوة والكراهية وليست في التحامل والتعيز فقط .

هذه التجربة أجراها (كو) Kuo (1) حيث استخدم حوالي ستين قطعة صغيرة حديثة الولادة قسمها الى مجموعتين متساويتين من ناحية العدد . المجموعة الاولى اطعمت منذ البداية اللحم

(1) Kuo, Z.Y., "The Genesis of the cat's Response to the Rat", J. Comp. Psychol 1930, 11, 1-30.

واللبن والسّمك المخلوط بالارز ، وريبت على هذا النوع من الطعام . والمجموعة الثانية (نباتية)
أى اطعمت اللبن والخضروات منذ البداية ولم تتذوق اللحم على الإطلاق .

ثم عاد وقسم القطط جميعها الى ثلاثة اقسام ، ربي كل قسم منها تحت ظروف تختلف
عن القسم الاخر . فالقسم الاول (ونصف العدد نباتي والنصف الاخر من اكلة اللحوم) عاش
في عزلة تامة عن القطط او الفئران أى ان كل قطة عاشت بمفردها فقط منعزلة بذلك عن أى
نوع من الانشطة التي تؤثر على علاقتها بالفأر فضلا عن انها لم تر فأرا على الإطلاق .

والقسم الثانى (مثل القسم الاول ايضا من حيث الطعام) عاشت كل قطة صغيرة مع امها
فترة كافية لتسرى الام وهي تقتل الفئران وتلتهمهم .

والقسم الثالث - تربى بعد ولادته بحوالى اسبوع مع الفئران في قفص واحد دون أن يرى
قططا اخرى .

ثم قام (كوك) بعد فترة من الزمن باختبار العلاقة بين القطعة والفأر فوجد أنها يمكن تلخيصها
في الجدول التالي :-

ظروف تربية القطعة	عدد القطط في كل مجموعة	عدد القطط التي قتلت الفئران	النسبة المئوية
١ - انمزالية كاملة	٢٠	٩	٤٥٪
٢ - رأت امها وهي تفترس الفئران	٢١	١٨	٨٦٪
٣ - عاشت معا مع الفئران	١٨	٣	١٧٪

وبما امكن ان نستنتج من هذا الجدول (١) أن ظروف التنشئة والتطبيع تلعب الدور
الاساسى في تكوين الاحساس بالكراهية والمقت ، وليس كما يمكن ان يتصور البعض انها غريزة
طبيعية .

وبجانب هذا هناك القصة المشهورة - وهي من فولكور علم النفس الاجتماعى - قصة توم
وامه وصاحبه .. فقد عاد توم متأخرا ذات يوم فسالته امه : أين كنت يا توم ؟ فقال : كنت
العب مع جو الذى يسكن في الشارع المجاور . فعادت الام لتقول : اين من جو هذا يا توم ؟ .. فرد
توم : انه ابن سائق الشاحنة التى تقف دائما بالقرب من ناصية الطريق ، واخيرا سألته الام ..
هل هو ملون (أى زنجى) ؟ .. فتردد توم فترة ثم اجاب : اننى لم انتبه جيدا الى هذا يا امه
ولكننى غذا عندما التقى به سوف أرى ذلك .

ومهما كان مقدار الصحة في هذه القصة فانها تشير الى ان اتجاه التحامل عند هذا الطفل
ليس موروثا ، وليس مختلط بلعه ، ولكنه امر لم يكن لينتبه اليه هذا الطفل توم لو لم تشير
اليه امه وتؤكد .

(١) يتضح من الجدول انه في حالة التربية الانمزالية لم يكن الاتجاه واضحا حيث تساوت النسبة تقريبا بين
القطط الثلاثة للفئران وفيه القاتلة . بينما نجد في حالة التطبيع على القتل (٢) تزيد نسبة القطط القاتلة بوضوح
ظاهر والعكس صحيح في حالة « التطبيع على المعاش والتكالب » .

فالإنسان أو الحيوان لم يخلق متعصبا ، ولم يخلق متحابلا ، ولكنه كون هذا السلوك وهذه الخصائص اكتسابا من البيئة التي قامت على تنشئته وتطبيعته اجتماعيا .

ولكن ما هو التحامل والتعصب ؟ وما هي طبيعة واصل هذا النوع من السلوك الاجتماعي ؟ . يقول باكمان (١) ان نوعية العلاقات السائدة بين جماعتين تخلق نوعا من الاتجاهات النفسية تكون مسئولة عن أحداث تحامل وتعصب إحدى هاتين الجماعتين ضد الأخرى . فالعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والحضارية التي نشأت بين البيض والزنوج في الولايات المتحدة أو بين الألمان واليهود في أوروبا هي التي أوجدت الاتجاهات النفسية عند البيض وعند الألمان من جهة وعند اليهود والزنوج من جهة أخرى . . وكانت هذه الاتجاهات هي المسئولة الأولى والآخرى عن تكوين سلوك التحامل والتعصب عند كلا الجانبين ، وبمعنى آخر فإن تركيب العلاقة أيا كان نوعها وعناصرها يولد مجموعة شبه ثابتة من الأحكام والقيم والاتجاهات التي تنشأ عن خبرة التعامل والاحتكاك ، وهذه المجموعة الشبه الثابتة تكون مسئولة عن تكوين حكم إحدى الجماعتين على الأخرى .

فالرجل الأبيض في أمريكا أو في جنوب أفريقيا له علاقة من نوع خاص بالرجل الأسود ، هي علاقة صاحب السلطة والسيطرة بالخاضع المستسلم الذي لا حول له ولا قوة ، وبطبيعة الحال فإن دور الرجل الأبيض هو أن يامر ودور الرجل الأسود أن ينفذ ، وبالتالي سوف تكون الفرصة سانحة أمام الأمر الناهي أن يصف العبد المنفل بالكتسل وعدم القدرة على تحمل المسئولية والغباء ونقص القدرات الابتكارية ، كما أنه سوف تكون الفرصة أيضا سانحة أمام العبيد لأن يصفوا السادة بالمجرفة والفطرسة والقسوة وتقص الاخلاقيات والقيم وعدم التسامح وغلظة القلب .

ويتم توارث هذه الصفات في كل من الناحيتين عند السادة وعند العبيد ، وذلك عن طريق ما سبق وصفه وتسميته بعملية التطبيع الاجتماعي ، حتى تتبلور هذه الصفات والتعوت وتكون أنجاسا حادا تسميه هنا بالاتجاه العنصري هو خلفية سلوك التحامل والتعصب .

وصورة أخرى تؤكد ما ذهبنا اليه في تأصيل التحامل والتعصب وارجاعه الى توجيه العلاقات القائمة بين جماعتين هي صورة من التاريخ ، حيث نرى كيف بدأ التحامل على اليهود أو بمعنى أصح كيف تكونت الاتجاهات العنصرية عند بعض الشعوب تجاه الجاليات اليهودية التي رفضت أن تمض داخل النسيج العام للمجتمعات التي تعيش فيها وأصرّت على كونها الجالية المختارة المميزة ، فكما يقول سيمون وينجر (٢) : لقد كان اليهود أغنياء يسيطرون على المقدرات الاقتصادية لبعض المجتمعات وكانت الوظيفة الرئيسية لليهود في أي مجتمع هي وظيفة المراهي الذي يقرض ماله بأشعار مضافقة من الربا ، ففي القرن العاشر والحادي عشر تكونت المجتمعات الدنية - بعد الانقطاع والعبودية - وعليه فاصبحت الحالة ملحق بطلب رأس المال سواء التجارة أو الانشاء والتعمير . وهنا نشط اليهود في عمليات الربا والإقراض ، وخاصة عندما امرت الكنيسة . وهي السلطة القوية آنذاك - رعاياها من المسيحيين بعدم اقراض أموالهم بالربا ، ولكن لا مانع من أن يقرضوا بالربا من اليهود ، وهنا امكن لليهود أن يتحكموا في المجتمع الأوروبي اقتصاديا ، سواء بمنع الإقراض أو برفع سعر الفائدة .

(1) Back man, C., Origins of Prejudice and Discrimination 1964.

(2) Simpson, G., and Yinger J., Racial and cultural Minorities, N.Y. Harper, 1958.

وهكذا تكونت لليهود صفات اصحاب رأس المال المستغلين النهازين للفرص . وتأصلت هذه الصفات حتى أصبحت « اتجاهات عنصرية » عند طوائف عديدة من بني الانسان ضد اليهود ، جعلتهم يتحاملون عليهم ويتمصبون ضدهم . وفي الناحية الأخرى تكونت لدى اليهود اتجاهات عنصرية مضادة تحمل في ثناياها النعوت المعاكسة للطوائف والشعوب الأخرى من غير اليهود مثل السداجة والشبابة والبعد عن الواقعية وهكذا (١) .

وليس من المستبعد أن تكون الاساليب اليهودية هذه قديمة قدم هذا الشعب ، وليست وليدة ظروف القرن العاشر والحادي عشر كما يقول (سيمبسون وينجر) بل ربما عادت الى ما قبل ذلك بالآلاف السنين ، حيث أن التاريخ يحدثنا دائماً عن مثل هذه الأزمات التي أحدثها اليهود في مجتمعات شتى ، ومن ظروف التحامل والاضطهاد التي تعرضوا لها في كل مكان على الكرة الأرضية إلا في مكان واحد فقط عاشوا فيه ولم يعانون من قلق أو اضطهاد - بل قاموا هم فيه بدور المضطهد الظالم - وهذا المكان هو رقعة الدول العربية (٢) .

وصورة أخيرة تؤكد أرجاع سلوك التحامل والتنصب في أصله الى نوع العلاقات السائدة بين جماعتين تتحامل كل منهما على الأخرى وتنصب ضدها ، وهي صورة من التاريخ الحديث . فقد نشر سينها وأوباد هيايا (٣) ١٩٦٠ دراسة حول الاتجاهات العنصرية للشباب الهندي نحو الصين قبل وفي أثناء النزاع الهندي الصيني المسلح حول الحدود المشتركة بينهما ، ومن نتائج هذه الدراسة أن اتجاهات الشباب الهندي نحو أهل الصين في فبراير ١٩٥٩ أي قبل النزاع المسلح كانت توضح أن أهل الصين مسلمون وتقدميون ، واثقون وشجعان ومتحضرين ونشطاء .

بينما كانت اتجاهات نفس هؤلاء الشباب نحو أهل الصين في ديسمبر من نفس السنة ، أي خلال هذا التوتر ، كانت توضح أن أهل الصين عدوانيون وفشاشون وإثنيون ومصاصو دماء وقساة وأغباء .

وأضح مما سبق أن أصل التحامل يرجع الى نوعية العلاقة القائمة بين الفئتين المتحاملتين كل منهما على الأخرى والمتعصبتين كل منهما ضد الثانية .

ومن هنا نريد أن نخلص الى تعريف وتحديد معنى التحامل ، حتى يمكن أن نستمرسل في المناقشة التحليلية لمحتويات هذا النوع من السلوك .

فالتحامل والتنصب نتاج اتجاه عنصري غالباً ما يكون سالباً (أو مضاداً) وينحو بالفرد الى أن يتخذ قراراته مصحوبة بشحنة انفعالية غير عادية أي أعلى وأكثر من ذلك الانفعال الذي يصاحب الاتجاه النفسي العادي . والاتجاه العنصري هو ما يتكون نتيجة خبرة العنصر الذي قد يكون - أي هذا العنصر - الدين والمعتقد أو الميزات المورثولوجية (مثل اللون) التي ترجع الى

(١) يمكن الرجوع في هذا الى بروتوكولات حكماء صهيون .

(٢) فارس جلوب « إسرائيل خلقت لثلاثي ٢٢٢ » اتحاد طلبة جامعة لندن ١٩٦٢ (مقابلة عامة)

(3) Sinha, A, and Upadhyaya, O., "Stereotypes of Male and Female Students", J. Soc. Psychol 1960.

الاصل او القومية او اللغة والتقاليد الحضارية . وبناء على ذلك يمكن ان نحلل محتويات اتجاهات التحامل والتعصب الى ثلاثة مكونات رئيسية هي :

١ - المكونات العرفية ، وهي عبارة عن المبركات ، اى ما يدركه الانسان حسيا او معنويا وهذا يرتب على حصيلة خبرته السابقة ، ثم **المعتقدات** ، اى مجموعة مفاهيمه المتبلورة والتي ثبتت بصورة او باخرى في المحتوى النفسى والعقلى للفرد ، ثم **التوقعات** ، اى ما يمكن للفرد ان يتبناه به بالنسبة للآخرين او يتوقع حدوثه منهم . هذه المبركات والمعتقدات والتوقعات هي الاساس المعرفى للاتجاه العنصرى المتكون عند احدى الجماعات ضد جماعة اخرى .

ولنا ان تصور فى هذه الناحية نوع التفكير (العنصرى) الذى يبنى على هذه الابعاد الثلاثة : فمن البداية الاولى نجد ان هذا التفكير من النوع النمطى او القالبى (١) (Stereotype.....) الذى قد يتضمن بعض الاوصاف والمميزات الخاصة بالجماعة التحامل عليها ، فمثلا قد تسود فكرة تنصل بالصفات الظاهرة فقط مثل « جميع اليهود لهم انوف طويلة » او « جميع الزنوج قبيحو الخلقة » . او قد تنصل الفكرة بالنواحي الشخصية والعقلية مثل « الزنوج اغبياء » « اليهود عابرة » « الالمان علماء موهوبون » « والايطاليون انفعاليون » « والامراك اقدار » . . وهكذا . .

وقد يتعدى هذا التفكير النمطى مستوى الاوصاف والمميزات الى مستوى العقيدة والفكرة التى تعتنقها الجماعة التحامل عليها ، والتعصب ضدها (٢) فقد يكون الكون المعرفى للتحامل فكرة سائدة مثل « العقيدة اليهودية تستحل دم الاخرين من غير اليهود » او ان « الكاثوليك يخلصون للكنيسة أولا ثم للدولة ثانيا » او ان « الاسلام انتشر بعد السيف » وهكذا . .

ولهذا السبب فاننا نجد ان معظم البحوث والدراسات التى دارت حول المكونات المعرفية للتحامل والتعصب قد تركزت بصورة او باخرى على ما يمكن تسميته بالمعتقدات العنصرية التى هي فى حقيقة الامر مجموعة المفاهيم النمطية والانكار القالبية التى تعتنقها جماعة ما ضد جماعة اخرى ، ومن الدراسات الرائدة فى هذه الناحية التى قام بها كاتس وبرالى (٣) على مائة من طلبة جامعة برنستون حيث طلب الباحثان من هذه المجموعة من الطلبة ان يختاروا الصفات والمميزات التى تناسب كل مجموعة من المجموعات البشرية التالية : الامريكىين - الصينيين - الانجليز - الالمان - الايرلنديين - الايطاليين - اليابانيين - اليهود - الزنوج - الافراك .

ومما يلفت النظر فى هذه الدراسة الاتفاق شبه الكامل بين اراء المائة طالب بالنسبة لوصاف هذه المجموعات البشرية العشرة رغم انهم - اى الطلبة - لم تسبق لهم خبرة الاحتكاك المباشر بمعظم هذه الجماعات .

(١) التفكير النمطى او القالبى هو ذلك النوع من التفكير الذى ينقله الفرد عن زعيم او قائد او عضو آخر فى جماعته يمثل سلطة من نوع ما دون التمعق والتفهم فى اصول ومقومات هذه الطريقة فى التفكير .

(2) Chein, I., "Some considerations in combating Intergroup Prejudice," J. educ. Social, 1946, 19.

(3) Katz, D., and Braly, K., "Racial Stereotypes", J. abn. Soc. Psychol., 1933, 28.

وقد كانت نتائج هذه الدراسة كما يلي : - (١)

الألمان	: ذوو عقلية علمية - مجدون - غير عاطفيين
اليهود	: متميزون - مرتزقة - مجدون
الزنج	: خرافيون - كسالى - يعيلون الى المرح
الايطاليون	: فنانون - مندفعون - ذوو عاطفة
الانجليز	: ذوو روح رياضية - أذكاء - تقليديون
الأمريكان	: مجدون - أذكاء - ماديون
الايرلنديون	: مشاكسون - سريعو الانفعال - حاضرو البديهة
الصينيون	: خرافيون - ماكرون - محافظون
اليابانيون	: أذكاء - مجدون - تقديميون
الأتركة	: قساة - متدينون جدا - لا يوثق بهم .

وواضح من هذه النتائج وخاصة من اتفاق آراء مائة طالب حول هذه الصفات بصورة تكاد تكون شبه كاملة رغم عدم احتكاكهم الفعلي بمعظم هذه الجماعات - واضح من ذلك ان الفكرة النمطية المنقولة هي اساس المكون المعرفي لاتجاه هؤلاء الطلاب ضد أو مع هذه الجماعات . وبطبيعة الحال فان هذه الاتجاهات هي خلفية التحامل والتعصب .

ومن التجارب الطريفة الأخرى في هذا الميدان تلك التي نشرها داديشا (٢) في ١٩٤٢ وفيها يوضح كيف يتكون سلوك التحامل تدريجيا حيث درس اتجاه طلاب الجامعة في بعض المدن الأمريكية نحو الألمان في ١٩٣٦ ، ثم في ابريل ١٩٤٠ ، ثم في سبتمبر ١٩٤٠ ، حيث اوضحت هذه الدراسة تطور الفكرة النمطية من القالب الموجب الى القالب السالب متأثرة في ذلك بظروف الحرب العالمية الثانية .

وايضا نذكر تجربة سيجو (٣) التي بدأتها في ١٩٤١ ، وانتهت بها في ١٩٤٥ ، وذلك على خمس مجموعات متتالية من طالبات إحدى الجامعات الأمريكية ، وقد قامت الباحثة بقياس الفكر النمطي عند كل مجموعة تجاه الزنج واليابانيين والأمريكان والألمان . . . وقد وجدت الباحثة أن نمطية التفكير عند هؤلاء الطالبات تغيرت بصورة واضحة وخاصة بالنسبة لليابانيين قبل وبعد كارثة بيرل هاربور الشهيرة .

ب - المكونات الانفعالية والعاطفية :

إذا كنا قد تعرضنا فيما سبق للمكونات المعرفية للتحامل على انها المدركات والمعتقدات والتوقعات فاننا نرى ان المعرفة والمعتقد في خلفية التحامل والتعصب ليست اهم على الإطلاق من الانفعال والعاطفة ، لان هذه الأخيرة هي الشحنة التي تصاحب رد فعل الفرد للتحامل والتعصب ،

(١) أعاد هذه الدراسة جيلبرت في سنة ١٩٥١ م (أي بعد ١٨ سنة) على طلاب نفس الجامعة (برنستون) ومن الطريف انه وجد ان الفكرة النمطية لم تتغير على الإطلاق بالنسبة لهذه المجموعات الا في حالة الألمان واليابانيين

(2) Dudyca, G., „ The Attitudes of college students — J. Soc. Psychol 1942, 15.

(3) Seago, D., „ Stereotypes before Pearl Harbor and after J. Psychol 23, 1947.

وهي أيضا ذلك اللون الذي بناء على درجة كثافته وشدة تسمى هذا السلوك أو ذلك تعصباً أو غير تعصب . ولذلك فإن معظم الدراسات والبحوث التي أجريت حول المكونات العاطفية والانفعالية كانت تهتم أكثر ما تهتم بمقوى الانفعال الذي يصاحب اتجاه الفرد نحو موضوع أو شيء معين . فعلى سبيل المثال يروى دويتش وكولينز^(١) ما كتبه سيدة يضاء سكنت في حي مختلط من البيض والزوج :

« انهم دائماً (تقصد الزوج) سكارى معردين ويتبعون النساء ليلاً .

« بعضهم تبعنى ذات ليلة عندما كنت في طريقى الى العودة . »

« اتنى لن اخرج اطلاقاً . . بعد غروب الشمس . . »

فالتحليل المبني لهذه العبارات يوضح ان العاطفة والانفعال فيها هو الاحساس بالخوف والكرهية . وهذا أمر متوقع ، لانه ربما كان تعامل الرجل الابيض على الزوج حالة كونه لم يختلط بهم يختلف تماما من ناحية المحتوى العاطفى والانفعالى بالذات من تعامله عليهم عندما يمارس بالفعل خبرة الاحتكاك المباشر بهم . فقد كان الرأى السائد بين المستغلين بالعلوم الانسانية وخاصة علم النفس الاجتماعى أن من الأساليب التى يمكن ان نستخدمها لتهديب سلوك التعامل والتعصب هو ان نتيح الفرصة أمام المجموعتين المتعاملتين كل منهما على الأخرى للتفاعل الحر المباشر حيث يؤدي ذلك الى ازالة أسباب التعصب . ولكن هناك احتمال قائم بل وابتدئ كثير ممن الدراسات التى نشرت اخيرا لمجموعة من الدارسين في هذا الحقل^(٢) وهو انه في حالة اختلاط هذه المجموعات العنصرية قد تنشأ اتجاهات التعامل والتعصب ان لم تكن موجودة أصلا ، وفي حالة سابق وجودها فانها ربما تزيد وتتجسد وخاصة في العاطفة والانفعال حيث ان هذه الناحية هى حصيللة ونتاج الافراد عند تكوين الخبرات العاطفية والانفعالية مثل الخوف والكرهية والاحتقار والحب والتقدير والاحترام وما الى ذلك من خبرات انفعالية تمثل المحتوى العاطفى في سلوك التعامل والتعصب .

ج - المكونات النزومية :

بعد المعرفة والعاطفة يأتي دور النزوع والسلوك الفعلى للتعبير من هذه العاطفة وهذه المعرفة ، فعندما يكون لدى الفرد رصيد من المعرفة (العنصرية) وتتوفر عنده الشحنة الانفعالية العالية فلا يبقى سوى النزوع الفعلى ممثلا في الكيفية والطريقة التى يجب ان يعامل بها اعضاء الجماعة التى يتعامل عليها ويتعصب ضدها ، ومن هنا تبارى الكثير من العلماء والدارسين في تقدير وقياس هذه المكونات النزومية في اتجاهات التعامل والتعصب . وكان اهم ما نشر في هذا الميدان دراسة بوجاردس^(٣) حيث تلخص في ان يسأل الفرد عما يغعله بأعضاء الجماعة الأخرى على النحو التالي : -

١ - الزواج المتبادل بين الجماعتين (جماعة الفرد والجماعة الأخرى) .

٢ - اتخاذهم اصدقاء مقربين

(1) Deutsch, M, and Collins, M, **Interracial Housing** , uni. Minnesota Press, 1951.

(2) James, H.E.O. and others, a series of Unpub. theses, London Uni. 1959-1964.

(3) Bogardus, E.S., "Measuring Social Distance", J. app. Social, 1925 b, 9.

- ٣ - السكنى بجوارهم في نفس الشارع
- ٤ - الاشتراك معا في نفس العمل والوظيفة
- ٥ - منحهم حق المواطنة في نفس البلد (أمريكا) .
- ٦ - منحهم فرصة الزيارة فقط للبلاد
- ٧ - يمنعون من دخول البلاد .

وعندما طبق بوجاردس (١) هذا النوع من المقاييس على ١٧٢٥ من المواطنين الأمريكيين الذين ولدوا فعلا في الولايات المتحدة . وجد النتائج التالية وذلك بالنسبة الى عدد من الجماعات العنصرية :

الانجليز	الآلمان	اليهود	الزنوج
١٤٪	٥٤٪	٨٪	١٪
٩٧٪	٦٧٪	٢٢٪	٩٪
٩٧٪	٧٩٪	٢٦٪	١٢٪
٩٥٪	٨٢٪	٤٠٪	٣٩٪
٩٦٪	٨٧٪	٥٤٪	٥٧٪

ولتوضيح هذه النتائج يمكن أن نقول أن ٩٤٪ من افراد العينة وافقوا على الزواج المتبادل بينهم وبين الانجليز ، ٩٧٪ وافقوا على صداقتهم ، ٩٧٪ رحبوا بالسكن في جوارهم ، ٩٥٪ وافقوا على الاشتراك معهم في العمل ، كما أن ٩٦٪ وافقوا على منحهم حق المواطنة . وعلى هذا التوال يمكن توضيح بقية النتائج في حالة الآلمان واليهود والزنوج .

ومما يجدر ذكره ان بوجاردس نفسه اعاد تجربته هذه مرة أخرى بعد عشرين سنة كاملة (٢) حيث طبق مقياسه السابق على ١٩٥٠ فردا من المواطنين الأمريكيين الذين ولدوا في الولايات المتحدة الأمريكية ، ومن الطريف انه لم يجد تغيرا يذكر في النتائج التي حصل عليها سابقا .

وبعد ان استعرضنا المكونات الثلاثة الاساسية لاتجاهات التعامل والتصب وخاصة الاخير منها - اي المكون التزوي - يجب ان يقف امامنا السؤال التالي :

« هل ما يقدمه الفرد كتابة كنوع من الاستجابة لمقياس بوجاردس على سبيل المثال هو ما يقوم بادائه عمليا اذا مارس الموقف فعلا ؟ .. او بمعنى آخر هل كل هؤلاء الذين وافقوا كتابة على الزواج من الزنوج يقدمون فعلا على هذه الخطوة ؟ .. »

هناك كثير من التجارب الطريفة تجيب على هذا السؤال ومن اقدمها واسبقها الدراسة التي قام بها لاير في سنة ١٩٣٤ (٣) حيث صحب رجلا وزوجته من الصين في رحلة قطع فيها الولايات المتحدة

(1) Bogardus, E.S., *Immigration and Race Attitudes*, Boston : Heath, 1928.

(2) Bogardus, E.S., "changes in Racial Distances," *Int. J. opln.*, 1947.

(3) La Piere, R., "Attitudes vs. Actions", *Soc. Forces*, 1934, 13.

وتوقف الزوجان الصينيان في هذه الرحلة عند ٦٦ فندقا و ١٨٤ مطعمًا ولكنهما لم يعملا كملايين (أى لم يقبلا بالفندق أو المطعم) إلا مرة واحدة فقط .

وبعد نهاية الرحلة ارسل لاير عن طريق البريد استفتاء خاصا لأصحاب هذه الفنادق والمطاعم المائتين والخمسين يسألهم فيه عما إذا كان يمكنهم قبول الصينيين للإقامة أو تناول الطعام عندهم .

وقد قام بالرد على هذا الاستفتاء ١٢٨ فندقا ومطعمًا . رفض ٩٢٪ منها قبول الصينيين للنوم أو لتناول الطعام .

وتجربة أخرى قام بها كتر ويلكنز (١) في سنة ١٩٥٢ فقد قامت سيدتان أمريكيتان (من البيض) وسيدة أمريكية زنجية بزيارة ١١ مطعمًا بأحدى المناطق الشمالية الشرقية بأمريكا . وفي كل مرة كان يحسن استقبال السيدات الثلاثة ويقدم لهن الطعام دون أدنى تأخير . وبعد أسبوعين من زيارة كل مطعم كان يقوم الباحثان بإرسال خطاب إلى صاحب المطعم يطلبون فيه حجز المطعم لحفل أو مناسبة اجتماعية ، وكانا يوضحان في الخطاب كذلك أن الحفل خليط من البيض والزنجي . ولكن لم يتلق الباحثان أى رد حتى بعد مضي سبعة عشر يوما من إرسال الخطابات ، وبناء على ذلك اتصل الباحثان بـ١١ تليفونيا بأصحاب هذه المطاعم ، حيث تلقوا رفضها جميعا ما عدا قلة وافقت على استقبال الحفل بصورة مبدئية وتحفظات خاصة .

وإذا كان لنا أن نعلق على هاتين الدراستين فلا بد أن نقول انهما تؤيدان إلى ما نذهب إليه ضمنا وهو وجود فرق واضح بين التحامل في صورته اللفظية وبينه في صورته العملية أو الادائية .

ولكن الذى بلغت النظر بصورة حقيقية هوانه من المعتاد أن يكتب الإنسان الاستجابة الحسنة والمقبولة اجتماعيا أى التى ترضى عنها معايير الجماعة ولكنه قد يسلك سلوكا يختلف من ما قدمه كتابة . وفي مثالنا هذا نجد ما يؤكد ذلك . فنجد أن أصحاب المطاعم والفنادق يقبلون الملونين في حالة وجودهم وجها لوجه ولكنهم يرفضونهم في حالة استجابتهم لمبارات الاستفتاء اللفظية .

وبالتالى فإنه أمانا احتمال من اثنين : فاما أن يكون التفاعل الحر المباشر (أى وجها لوجه) بين الملونين وأصحاب الفنادق يفر من حدة تعاملهم وتعصبهم فيسمحون لهم باستخدام فنادقهم أو مطاعمهم . وفي هذا يمكن أن نسأل ماذا يحدث عند ما يلتقى الجنديان وجها لوجه في ميدان القتال دون سابق معرفة ودون ما ثار أو جريرة مطلوب أن يقتل أحدهما الآخر ؟ هل نظرة كل منهما في وجه الآخر تغير من سلوكه التاملى التعصبى إلى سلوك من نوع آخر ... أم ماذا ؟ .

والاحتمال الثانى هو أن يكون الفرد الأمريكى بخبرته وأنفعاله وعاطفته لا مانع عنده من أن يشارك الزنجى حياته في شتى صورها ولكن المعايير والقيم التى أنشأها مجتمع البيض أصبح عبدا لها بحيث لا يمكن للأمريكى الأبيض أن يخرج من سمت هذه القيم فيرميه المجتمع بالشذوذ وعدم السواء . وبالتالي فإن الاستجابة اللفظية للفرد الأمريكى تختلف بوضوح عن استجابته العملية أو الادائية . وهنا لا نتردد إذا صح هذا الاحتمال في ادانة المجتمع الأمريكى بقيمه التى فرضت على أعضائه سلوكا لفظيا يختلف عن سلوكهم الادائى بالنسبة إلى جماعة الزنج .

(1) Kutner, B., and others, "Verbal attitudes and Overt Behaviour, J. Abn. Soc. Psychol., 1952, 47.

وقد يطول الحوار في هذا فنقول ان البيض انفسهم هم الذين انشأوا هذه القيم ثم اعتنقوها وعملوا بها ، ولكن ليس كل البيض بل هم الآباء والاجداد الذين ورثوا هذه القيم لأنبائهم والزموم ان يلتزموا بها . وبقي أن نسأل أنفسنا : كم من الصحة والصدق في هذا الحوار . . . ؟

ولنناقش الآن بعض ما كتبه بيتجرو (١) في كتابه عن شخصية الزنيجي الأمريكي . فقد تجيب هذه المناقشة عن كثير من الاسئلة التي تقفز أمامنا بين الحين والحين ويقول الكاتب ان الدور الاجتماعي للفرد الزنيجي يبدأ بكونه حائزا على ذلك اللون الأسود الذي يعيزه من بقية الافراد الآخرين في نفس المجتمع . ويلقى (بالدوين) على ذلك بقوله ان ذلك اللون هو جزء من الشئ الذي يدفعه ذلك الرجل الملون ضامنا لبقائه في المجتمع الأمريكي . لان ذلك اللون اعطاه مكانة اجتماعية معينة لو انه أراد التخلص منها لوجد نفسه دون مأوى في لحظات .

ونحن - من وجهة نظر علم النفس الاجتماعي - لا نتردد في ان نقول ان مثل هذا الدور الاجتماعي يؤدي بالرجل الملون الى حالة من الانفصام الاجتماعي والنفسي حيث يشعر بالعزلة والانفصال عن مجتمعه ثم بالعزلة والانفصال عن ذاته ونفسه . ونقول كذلك ان حواجز اللون والعنصر هي المسؤولة الاولى والاخيرة عن ذلك . فالرجل الابيض والرجل الاسود يمكن ان يفهم كل منهما الآخر ويتعايشا معا دون تعامل او تعصب في حالة خروجهم من حواجز أو قوالب اللون والعنصر، لانه في وجود هذه الحواجز لا يمكن لاي منهما ان يدرك المعاني الانسانية والمشاعر البشرية الموجودة فيها وراء هذه القشائات العنصرية . ولا نريد ان نكرر ما دأبنا على توضيحه من خلال سطور وقرات هذه الدراسة ، وهو ان عملية التطبيع الاجتماعي بجميع مقوماتها وعناصرها ومؤسساتها هي صاحبة المسؤولية في خلق وتكوين وانشاء هذه الحواجز والقوالب . فمن طريق عملية التطبيع اكتسب الطفل الأمريكي الابيض اتجاهها من نوع خاص ، ومن درجة خاصة نحو الطفل الأمريكي الاسود . بدأت عملية التطبيع بقصة السادة والعبيد وأفريقيا السوداء وولد الزواج وصبرهم وقدرتهم على العمل الشاق ، ثم ذكاه الرجل الابيض وقدرته على احداث المعجزات بحسن تفكيره وتدبيره .

ولا اريد ان اقول ان هذه الاشياء قد تضمنتها بالضرورة قصص الام لاطفالها في امريكا او في جنوب افريقيا ، لانه ينقصني الدليل والبرهان على هذا القول والزمع .

ولكن لننظر الى وسائل الاعلام في امريكا او في جنوب افريقيا كما يقول لوجان (٢) فاننا سوف نجد ان الموديلات أو عارضات الازياء أو الرجال في الاعلانات التجارية من البيض - أي صورة الرجل الابيض - كما ان ابطال القصص التي تتناولها الايدي من الرجال البيض ، بينما نجد ان دور الرجل الملون سواء في افلام السينما أو القصص هو دور الرجل القبي أو الساذج - على احسن الفروض - أو الذي يقوم بعمل مسن الاعمال البسيطة التي لا تحتاج الى مهارة ذهنية مثل أعمال التنظيف أو الخدمة العامة في الفنادق والمطاعم ، أو اذا اريد باللون خيرا ظهر في هذه القصص في ادوار التسلية والفكاهة .

وسائل الاعلام هذه تخاطب التومين الابيض والاسود ، فيتكون بناء على ذلك احساس السمو والعظمة عند الطفل الابيض ، كما يتكون احساس النقص والانسحاب عند الطفل الاسود ، واذا امكن للطفل الابيض ان يعيش في سلام مع نفسه عندما يشعر انه املى واعظم من الطفل

(1) Pettigrew, T., A profile of the Negro American, 1964, Van Nostrand.

(2) Logan, R., The Negro in American Life and Thought., Nadir, N.Y. 1954.

الاسود ، وعند ما يعامله المجتمع معاملة تقوم على هذا الاساس ، فان الطفل الملون لا يستطيع ذلك اى لا يمكنه ان يعيش في سلام مع نفسه ، لانه - وان احس بالنقص والقلة بالنسبة للطفل الابيض - الا انه غير مقتنع بذلك .

ولهذا فان الطفل الملون محقق في ان يسأل نفسه دائما .. من انا ؟ ... ومن اكون . ؟ ولماذا اكون هكذا .. ؟ وهذه اسئلة لها خطرها بالنسبة لطفل او مراهق يحاول ان يؤكد وجوده وشخصيته . وتتجلى اخطر هذه الازمات عندما يبلغ الطفل الملون سن المدرسة ويبدأ الابوان كثيرا من الحرج والقلق في اخبار طفلها ما معنى انه ملون ، وان لونه القاتم سوف يجعله مختلفا عن بقية اقرانه واترابه من البيض ، وقد سأل أحد الآباء : ايها افضل ؟ هل نخبر طفلنا بالحقبة او نحجبها عنه اطول مدة ممكنة ، وتركه ليتلمس الحقيقة بمفرده عن طريق ما يقابله في مجتمع البيض من صدمات وازمات . وقد أجرى العديد من الدراسات حول اجابة هذا السؤال الذى يورق الآباء والامهات في مجتمعات الولايات المتحدة الامريكية وجنوب افريقيا ، وهى المجتمعات العنصرية التى تراول التمييز في شيء من الرسمية والوضوح .

تقول جودمان (١) ان العنصرية العنصرية تبدأ عند الاطفال عند نهاية السنة الثالثة ثم تزداد بشدة ووضوح . وقد وجدت الباحثة ان اهم ما يستلقت النظر ان الاطفال الملونين - في مدارس الحضانه - يفضلون ان يكون لونهم ابيض . كما انهم يفضلون اللعب (بالكراس) البيضاء ، ويتخذون اصدقاءهم من الاطفال البيض . كما انهم لا يشعرون بالحوار العنصرية بنفس السرعة التى يشعر بها الاطفال البيض . وغالبا ما يتقمصون شخصيات ابطال من غير الملونين .

وتقول الباحثة ان هذه دلائل « كراهية الذات » وهى تخف تدريجيا كلما نما الطفل واقترب من السن التى يدرك فيها انه ملون ، وعليه ان يقوم بهذا الدور الاجتماعي . وان كانت هناك - حتى منذ البالغين والراشدين من الملونين - بعض المخلفات والبقايا من هذه الاحساسات والمضامير - (الاحساس بكرهية الذات) .

وكان ايضا من نتائج هذه الدراسة ودراسات اخرى ان تعاليم الآباء لاطفالهم قبل ذهابهم الى المدرسة لا تفنى شيئا ولا تخل محل الخبرات الحادة التى تتكون لدى الاطفال من ازمات التفاعل بينهم وبين البيض .

هذا بالنسبة للاطفال - اما بالنسبة للمراهقين من الملونين فتأتى مشكلة الجنس في المكان الاول ، وتصبح حادة وملحة ، وخاصة في المجتمعات المختلطة بين البيض والزوج ، ففى بعض المناطق المتسامحة مثل الشمال في الولايات المتحدة قد يكون للطفل الملون عدد من الاصدقاء البيض يدعى الى منازلهم وحفلاتهم ، ولكنه بمجرد ان يبلغ بداية مرحلة المراهقة توضع في وجهه جميع ابواب البيض فلا يدعى الى منازلهم او حفلاتهم ، وذلك مصدره خوف الآباء البيض ان يحدث نوع من العلاقة قد يؤدى الى زواج فتى ملون من فتاة بيضاء .

ثم تتراكم المشاكل على المراهق الملون وخاصة عندما يتعامل مع معلميه في المدرسة وزملائه واصدقائه في الجوار ممن هم على صلة بعالم البيض ، فيتأكد لديه انخفاض قيمته الاجتماعية وانه لا يمكن ان يكون في يوم ما صاحب مكانة من الدرجة الاولى . وهذا الاحساس لا بد ان يؤدى بذلك الفتى اليافع من ابتداء الملونين الى ازمات عاطفية وانفعالية حادة تؤثر على سلوكه في ذلك

(1) Goodman, M., Race Awareness in young children, Addison-Wesley, 1952.

المجتمع الذى بدأ علاقته معه بالرفض والازدراء . ولنفرض جدلا أن هذا الفتى الملون قد تطلب على هذه الازمات المحلية وتمعاده بصورة أو بأخرى ، فإن هذا لا يعنى نهاية مشاكله فى مجتمع البيض ، فإنه سوف يلتقى مرة أخرى بالتمييز العنصرى عندما يقدم على طلب العمل أو الوظيفة التى أصبح مؤهلا لها ودرب من أجلها ، فسوف تكون الأفضلية دائما للرجل الأبيض (١) وقد يحرمه التمييز والتفريق العنصرى من أن يسكن فى المكان الذى يحبه وتهفو اليه نفسه . وهكذا لا تنتهي مشاكل الرجل الملون بل تزيد وتعمد كلما طال به الأمد والأجل .

ويقول كاتز وبنيامين (٢) أن آذان الزنوج فى أمريكا لم تسمع من البيض المتعصبين - وما أكثرهم - سوى نعمات التفوق والعظمة والسيادة التى تميز الرجل الأبيض عن الرجل الملون حتى أن كثيرا من الملونين قبلوا هذه الحقيقة وآمنوا بها حتى أنه - كما يقول الباحثان - إذا قدم الدليل التجريبي للرجل الملون على أن ذكاه وقدراته لا تقل على الإطلاق عن ذكاء وقدرات الرجل الأبيض تردد كثيرا فى فهم مضمون هذا الدليل ، بل أنه يرفض كثيرا أن يقبله (وذلك فى صورة شعورية أو لا شعورية) .

وإذا قمنا النظر فيما قاله كاتز وزميله نجد أن الفكرة التى سيطرت على الرجل الملون بخصوص ذكاه وقدراته إنما نبعث من البيئة البشرية المحيطة به ، حيث لقن إياها من خلال عملية التطبيع والتنشئة غير المقصودة .

وهناك رد فعل متوقع لهذا - سواء على مستوى الشعور والارادة - أو على مستوى اللاشعور - وهو أن يحس ذلك الرجل الملون بأن هذه البيئة تكرهه وتحامل عليه دون ما سبب أو جبرية ، أو كما يعبر عنه أحد الزوج فى أحد الاستفتاءات التى أجرتها مجلة النور وىك فى ١٩٦٢ - « أننى أشعر بالحر والقلق لأننى أعاقب طيلة حياتى على ذنب لم أقترفه ، فانا لم اختر ذلك اللون الذى يسبب لي المتاعب والمشاكل . »

وبعدنا التاريخ أيضا عن تحامل البيئة البشرية على الملونين سواء فى الولايات المتحدة الأمريكية أو فى جنوب أفريقيا أو « مجتمعات اللعنة » كما تسميها حركات تحرر الزنوج فى كلا المجتمعين

فالمبودية والرق كان لهما أثر عميق فى شخصية الرجل الملون ولها جلا بعد جيل رغم أنه ونوق ارادته ، فلم يعترف نظام الرق فى أمريكا وجنوب أفريقيا بالعبد كإنسان على الإطلاق : أى جرده من بشريته وأنسانيته على جميع المستويات البيولوجية والمعنوية (٣) وهذا غير ما حدث فى أسبانيا والبرتغال حيث كانت لهاتين الدولتين خبرة القرون فى أعمال الرق من قبل اكتشاف العالم الجديد ، ولذلك تطورت فيهما الأمور حتى أصبح للعبيد بعض الحقوق المحددة وأن كانت محدودة .

وأما بالنسبة لبريطانيا التى لم يكن لها خبرة أسبانيا والبرتغال فإن نظامها فى الرق الذى

(1) Hollander, E., and Hunt, R., *Current perspectives in Social Psychology*, Oxford, 1967, 157.

(2) Katz, I., and Benjamin, L., "Effects of White Authoritarianism in Biracial Work groups," *J. Abn. Soc. Psychol.*, 61, 1960.

(3) Elkins, S, *Slavery* Uni of Chicago Press 1959.

انتقل الى جنوب أفريقيا وروديسيا ثم تبنته امريكا في مستعمراتها لم يعترف بالعبد أو الرقيق الا كقطعة من ممتلكات سيده حتى من الناحية الشرعية والقانونية .

وعقب ماكسويليانا (١) على ذلك بقوله ان الرق والعبودية في اى صورة وعلى اى صورة تقتل عند الرجل الملون الحاجة الى المعرفة والتحصيل والإبداع فبعد النزاع « العبد » من بيئته الاصلية في أفريقيا يوضع تحت ظروف مفارقة تماما ، حيث يكافأ بالاطعام أو الايواء اذا اظهر سلوك الطاعة والخضوع والخنوع ، والعكس اذا ظهر منه سلوك المبادأة أو التصرف الاستقلالي .

ولم يكن ذلك هو النتيجة الوحيدة للرق واثره في شخصية الرجل الملون ، فهناك ما هو أبعد من ذلك ، فاصحاب العبيد من السادة كانوا يدعون بهم الى صالة المزاد وخاصة المذكور منهم - دون مراعاة لى علاقة من اى نوع نشأت بين عبد ذكر وأمة من الاناث فلم يعترفوا - اى السادة - براوج العبيد - ويبنى على هذا ان يباع الابن المزاد ، وينشأ الطفل المولود بين يدي امه فقط ، وبالتالي يلتصق بها ذكرا كان أو انثى ، وبذلك تتأثر شخصيته بشخصية الام وسلوكها ، وهذا امر له خطره على شخصية الطفل الذكر .

وقد نرمم ان مثل هذه الآثار قد تختفي بنمو الطفل واحتكاكه بغير الام من اعضاء المجتمع الخارجي ، ولكن للأسف لا نستطيع ان ندمم هذا الزعم ونقويه لان ظروف الفقر والاملاق التي يعاني منها الملونون في امريكا وجنوب افريقيا متضادة مع ظروف الهجرة والانتقال من مكان الى آخر دعمت ارتباط الطفل الملون والتصاقه بامه ، ومن ثم تأثرت شخصيته ببعض الخصائص الانثوية التي تؤدي في كثير من الاحوال الى الخضوع والانسحاب ، فهناك كثير من الدراسات تؤكد أهمية وجود الأب في تطبيع وتنشئة الاطفال الذكور اجتماعيا (٢ ، ٣) ، فبعض الامهات اللاتي يربين أطفالهن في غير وجود الآباء يبالن في الرعاية والعناية هؤلاء الاطفال وخاصة الذكور منهم ، وتصل هذه العناية والرعاية الى حد التدليل البالغ الذي يتلف شخصية الطفل ويجعله دائما معتمدا على غيره .

ويمكن ايضا للمهم هذه الفكرة - فكرة التصاق الطفل الملون بامه بأن نقول ان الرجل الملون - وخاصة من غير ذوى المهارة - لا يمكنه أن يجد العمل الثابت بنفس السهولة التي تجده بها الانثى من المولدين وخاصة كخادمة أو مربية أو عاملة نظافة في البيوت الخاصة ، ولذلك فان الأسرة تعتمد غالبا وربما بصورة شبة دائمة على دخل الام من عملها ، فتتجسد بذلك صورة الام كمصدر للرزق والعيش في المحتوى النفسي لاطفالها ، بينما لا يكون الحال كذلك بالنسبة للآب الذي يفقد عمله من حين لآخر .

ويتدخل عامل الهجرة والانتقال ليضيف الجديد الى هذه الصورة وبمعن في فصل الاب عن بنيه بفرض العمل أو كسب القوت وتقوم الام على تربيته تحت ظروف من الحياة غير طبيعية فينشأون على النمط والشكل الذي سبق ان عرضنا له بالوصف والتعليق .

(1) McClelland, D.C. *The Achieving Society*, Van Nostrand, 1961.

(2) Bandura, A., and Walters, R., *Adolescent Aggression*, N.Y. Ronald, 1959.

(3) Mussen, P., and Distler, L., "Masculinity.....," *J. Abn. Soc.* 1959.

ولنا هنا تعليق آخر قد يكون ذا أهمية خاصة لما سميناه سابقا « مجتمعات اللعنة » وهو جملة كتبها هنري مايرز (١) نستعيرها بنصها :

“ A nation established in the name of equality must keep the faith or lose its best excuse for being.”

نستطيع أن نقول الآن أننا قد تعرضنا في شيء من التحليل لسلوك التعامل والتعصب من ناحية ما يمكن في خلفيته من اتجاهات ومعتقدات عنصرية كما أننا أشرنا أيضا على هذا النحو إلى أصل هذه الاتجاهات والمعتقدات ونشأتها وتطورها وبقي أمامنا الآن أن نناقش أمرين كلاهما على جانب كبير من الأهمية أولهما الظروف والعوامل التي تساعد على بقاء واستمرار التعامل والتعصب بين جماعتين عنصريتين وثانيهما العوامل التي يمكن أن تساعد على تخفيف وتقليل حدة التوتر الناجم عن الاتجاهات والمعتقدات العنصرية .

فأما عن الأمر الأول وهو عوامل الإبقاء والاذكاء فيمكن أن نصنفها على الوجه التالي :

أ - عوامل تتعلق بالتركيب الاجتماعي لكل جماعة عنصرية على حدة .

ب - عوامل تتعلق بالعمليات النفسية الفردية .

ج - عوامل تتعلق بالقوميات الحضرية الخاصة بكل جماعة

١ - عوامل التركيب الاجتماعي : وهذه يمكن تحليلها على الصورة التالية : -

١ - الاذعان لمعيار التعامل والتعصب :

نريد أن نوضح شيئا في بدء المناقشة وهو أن هناك ما يسمى بالجماعة الداخلية وما يسمى بالجماعة الخارجية ، فالأمريكي الأبيض يعتبر جماعة البيض جماعة داخلية بالنسبة إليه بينما يعتبر جماعة السود أو الملونين جماعة خارجية والعكس صحيح بالنسبة للأمريكي الملون فالجماعة الداخلية بالنسبة إليه هي جماعة السود ، وأما جماعة البيض فهي الجماعة الخارجية .

والاذعان لمعيار التعصب والتعامل الذي ينشأ في الجماعة الداخلية تجاه الجماعة الخارجية هو أول نواتج الطاعة الاجتماعية التي سبق الإشارة إليها كنتائج أيضا من نواتج عملية التنشئة والتطبيع الاجتماعي .

فنعلمنا يتكون الاتجاه العنصري والعقيدة العنصرية وتتوفر الشحنة الانفعالية العالية لانتاج سلوك التعامل فإنه يصبح من الضروري أن يتكون معيار خاص تكون وظيفته المحافظة على هذا المستوى من التعامل والتعصب .

وهذا المعيار الخاص لا يكون - في جميع الأحوال - صريحا واضحا ولكنه دائما ما يختفي وراء عديد من القيم والمعايير الأخرى التي تنتشر في الجماعة .

ومن الدراسات التي أجراها بيتجرو (٢) في جنوب أفريقيا حول مسألة المعيار الخاص

(1) Myers, H.A., Are Men Equal, the Meaning of American Democracy, Great Seal, N.Y. 1963 P. 153.

(2) Pettigrew, T.F. "Personality and Socio cultural factors in Intergroup attitudes, J. Conflict Resolut. 1958, 2.

بالحفاظة على مستوى التحامل والتعصب ضد السود ظهرت نتائج تؤيدنا فيما نذهب اليه من وجود هذا المياع الخاص بوجوده مختلطا بغيره أو مختفيا وراء المعايير الأخرى . فقد عين الباحث درجة تعصب البيض في جنوب أفريقيا ضد السود مستخدما في ذلك مقياسا خاصا بالاتجاهات العنصرية ثم قسمهم (أى البيض) الى فئتين فئة شديدة التعصب والتحامل ضد الأفريقيين السود وفئة قليلة التعصب والتحامل . ثم عاد الباحث وعين درجة أذعان هؤلاء البيض ، وكانوا جميعا من طلبة الجامعة - للمعايير الاجتماعية ، مستخدما في ذلك مقياسا خاصا بالطاعة الاجتماعية وقسمهم مرة أخرى الى فئتين : فئة شديدة الطاعة والأذعان للمعايير الاجتماعية ، وفئة قليلة الأذعان ، ومما يلفت النظر أن الباحث وجد أن الفئة شديدة التعصب تكاد تكون هي بنفسها الفئة شديدة الأذعان للمعايير الاجتماعية .

وفي الولايات المتحدة الأمريكية ربما كان الأمر أوضح من ذلك وخاصة إذا تكلمنا عما يشترط على هذه الطاعة وهذا الأذعان من ائابة أو عقاب ، حيث يمثل ذلك في نتائج الانتخابات الأمريكية وخاصة في الجنوب عند نجاح من يلذكي نار التعصب والتحامل ضد السود ، ويؤكد استعراة التمييز العنصرى وفشل من يحاول أن يستجيب لنداء خاص في نفسه بأن الانسان هو الانسان مهما اختلف اللون أو الجنس أو اللغة أو ما هو غير ذلك .

وواضح من ذلك أن عملية الاثابة والمكافأة عند الأذعان لهذا المياع والعقاب عند الخروج عليه إنما سوف تميز سلوك التحامل والتعصب عند أفراد الجماعة الداخلية ضد أفراد الجماعة الخارجية .

٢ - أنماط التفاعل الاجتماعي :

معا لا شك فيه أن أنماط السلوك والتفاعل بين الجماعات سوف تعزز موقف التحامل والتعصب ، وخاصة إذا كان الاتجاه العنصرى قد سبق وتكون وتدم ، وهنا تقوم كل جماعة أو كل فرد بتفسير أنماط سلوك الجماعة الأخرى أو الفرد الأخر في ضوء هذا الاتجاه العنصرى أو العقيدة العنصرية ، فعلى سبيل المثال إذا ارتكب أحد الملونين في جنوب أفريقيا جريمة من الجرائم الاجتماعية فإننا نجد أن درجة التماسك والتعاطف بين البيض قد ارتفعت ردا على هذا النمط من السلوك ، وبالتالي فإن هذا سوف يؤدي بالضرورة الى الاحتفاظ بمستوى تحامل البيض على الملونين كأحد ردود الفعل التي تحمي حدود جماعة البيض ومقياسا على ذلك فإن أى سلوك من جانب الملونين سوف يفسره جماعة البيض على أنه نمط خارج من نوااميس المجتمع وبالتالي فهو ذنب وجريرة تستوجب الوقوف في وجهه ومما نعت . وربما تكون أيضا محققين عندما نسوق عكس هذه الصورة ، أى إذا كان الرجل الأبيض هو الذى ارتكب ذلك الخطأ ونصبت جماعة الملونين من نفسها حكما عليه وعلى ما يقدمه من تصرف وسلوك .

٣ - تعصيف الزعامات لمفاهيم التحامل والتعصب:

سوف يظهر زعيم أو أكثر في كل جماعة . ومن هؤلاء من يعتمد على مواقف الأزمات ليؤكد وجوده وقيادته ويرفع درجة تماسك أفراد الجماعة من حوله . ومن المبادئ الأساسية في علم ديناميات الجماعة أن درجة التماسك الداخلي لآى جماعة من الجماعات ترتفع وتبلغ درجاتها القصوى عند ظهور مدو خارجي يهدد كيانها ووجودها ، فقد يكون أعضاء الأسرة الواحدة في شغل شافل عن بعضهم البعض ولكنهم يتعاطفون ويتماسكون في حالة مرض أحدهم بصورة تهدد بكارثة أو فجيعة .

ولهذا السبب فإن الزعيم سوف يحرص الحرس كله على أن يجسم الخطر الخارجي ويجسده ويبرز صورته واضحة جليلة في المتسع النفسي الاجتماعي للأفراد حتى يلتفوا من حوله وفي حالتنا هذه - حالة الجماعات الداخلية والخارجية - ليس هناك خطر أشد وأعتى على البيض بمعدل خطر الملونين ، ولا على الملونين بمعدل خطر البيض . وبذلك فإن الزعيم سوف يؤكد جميع مفاهيم التعامل والتعصب من أجل بقاءه وبقاء نفوذه وسلطته .

٤ - تعصيد البيئة لفاهيم التعامل والتعصب :

كثير من مقومات البيئة الخارجية يساعد على استمرار التعامل والتعصب ويحفظ مستوى ثابتا من التوتر والقلق تتميز به شبكة العلاقات بين الجماعتين الداخلية والخارجية ، وأول هذه المقومات هي وسائل التواصل المنتشرة والمتداولة مثل القصص والسينما والراديو والتلفزيون والاعلان والأفاني والأمثال الشعبية المتداولة والصحافة والفكاهات وما إلى ذلك .

ولا أعتقد أنني في حاجة إلى كثير من الشرح والتوضيح في هذا المجال ، فجماعات الأقلية - مثل الزنوج في أمريكا - يظهرون دائما في هذه الوسائل في أدوار حقيرة غير ذات أهمية أو تأثير وذلك كما سبق أن أسلفنا .

وربما كان من الطريف أن نسوق مثالا من الأمثلة الشعبية الدارجة في أمريكا يدل على الفرد الذي تتجمع فيه جميع الخصال السيئة أو بمعنى آخر شخص لا فائدة فيه ولا نفع - يقول المثل (زنجي يهودي وأفور) A negro, a jew and one eyed Jack.

وأطرف من ذلك الفكاهة التي يرويها الأمريكيون عن طالب ملون أراد الرئيس الراحل ايزنهاور أن يكرمه فدماءه إلى تناول الشاي معه في البيت الأبيض ، فذهب الطالب الملون واشترى كتابا يشرح أصول التعامل مع كبار الشخصيات من الناس ثم حفظه عن ظهر قلب . والتقى الطالب الملون بالرئيس حيث قدم له الشاي بنفسه فنهض الطالب واقفا وانحنى في ادب وقال « شكرا لك يا سيدي أو يا سيدي حسب ما تقتضيه الظروف » .

وهكذا فإن القصة المقروءة أو المثل الشعبي الدارج أو الفكاهة المتداولة بجانب كل وسائل الاعلام والاعلان سوف تساعد ولا شك على استمرار اتجاهات التعامل والتعصب وعلى حفظ المستوى المطلوب من التوتر والقلق .

ب - عوامل تتعلق بالعمليات النفسية الفردية :

وهذه يمكن توضيحها وتحليلها على النحو التالي :-

١ - الشعور بالإحباط :

لقد كان فرويد أول من ناقش في شيء من تفصيل العلاقة بين احساس الفرد بالإحباط أي احساسه بأنه لم يستطع تحقيق أهدافه وأشباع حاجاته وبين لجوء الفرد إلى نوع خاص من السلوك العدائي ، وقد أيد هذا الرأي عديد من الدراسات التي تلت فرويد ومدرسته ، فيقول دولارد وآخرون (١) أن العنصر الذي يسبب الإحباط غالبا ما يكون غير مناسب لأن يمثل هدف

(1) Dollard, and others, Frustration and aggression, New Haven, 1939.

الكرهية والعنصرية ، وذلك لانه غالباً ما يكون سلطة أو قوة تفوق امكانيات الفرد الذى يحس بالأحباط ، وبالتالي فإنه - أى هذا الفرد - يبحث عن كبش فداء يسلط عليه عدوانيته وكرهيته ، وغالباً ما يكون هذا الأخير ضعيفاً مسالماً .

فعلى سبيل المثال إذا تقدم رجلان أحدهما أبيض والآخر ملون لوظيفة واحدة ، وأخذ الحكم - بأسباب العدل والموضوعية وفضل أحدهما على الآخر معتمداً في ذلك على الكفاءة فقط ، فإن الرجل الآخر - وقد أحس بالأحباط لاسلطه عدوانيته وكرهيته على الحكم حيث أنه قوة وسلطة بالنسبة اليه ، ولكنه سوف يتجه الى الفرد الآخر متعاملاً عليه .

وربما أمكننا أن نوضح أكثر من هذا إذا أخذنا في اعتبارنا المستوى العام ، وحاولنا أن نفسر ما قاله فارس جلوب في مناظرته العامة في لندن - وقد سبق الإشارة الى ذلك من أن اليهود اضطهدوا في جميع المجتمعات تقريباً ما عدا المجتمعات العربية ، حيث يمثلون هم الآن دور المضطهد الظالم ، فقد كان لعمليات القمع الشديدة التي عانى منها اليهود في ألمانيا النازية أو في دول شرق أوروبا ، أو حتى في دول الغرب دور واضح في تكوين شعور عام بالأحباط تكون لدى اليهود نتيجة عدم تمكنهم من تحقيق مآربهم وأهدافهم ، ومما لا شك فيه أن هذه المجتمعات كانت هي السلطة والقوة بالنسبة لليهود ، فلم يستطيعوا أن يسلطوا عليها كراهيتهم وعدوانيتهم ، وبحوثاً عن كبش فداء فوجدوه في شعب طيب مسالم غير عدواني .

ونقول أخيراً انه إذا كان الاحباط يسبب العدوانية فإن السلوك العدائي الناتج سوف يحفظ للتحامل استمراره وبقائه ، وتفسر ذلك أنه طالما أن السبب الأساسي في الاحباط لم يتمكن الفرد من إزالته فإن الكراهية والتحامل سوف يعيشان دائماً من خلال بحث الفرد الدائم عن كبش الفداء .

٢ - الحاجات الشخصية :

قد يكون من الحاجات الشخصية للفرد والملحة عليه أن يصل الى درجة اجتماعية أعلى من تلك التي يشغلها ، ولا يمكنه أن يحقق هذه الحاجة ويشبعها إلا إذا اتخذ من سلوك التحامل نمطاً مميزاً لسلوكه وتصرفه . فعلى سبيل المثال نجد أن بعض الناس الذين يريدون أن يرتقوا الى طبقة اجتماعية أعلى أبرزوا تحاملهم وتحيزهم ضد طبقة الخدم أو العمال البسطاء ، وفي ذهنهم تصور واحد هو أنهم لن يكونوا سادة إلا إذا تحاملوا على العبيد .

وقد يكون من الحاجات الشخصية الملحة أيضاً حاجة الفرد للامن والطبائنية ، الأمر الذي لا يتحقق إلا إذا لفظ ورفض الاختلاط بأعضاء الجماعة الخارجية ، محافظاً بذلك على حدود أمنة مطمئنة بينه وبينهم ، وذلك عن طريق التعصب والتحامل .

٣ - الدين والأدب :

وهذا أمر يجب أن ننظر اليه على أنه مكون نفسى شخصى وعلى هذا الأساس ظهر اتجاهان رئيسيان في دراسة علاقة الدين والأدب بموضوع التحامل والتعصب ، أولهما : يرى أن الدين يمحو فروق اللون والعنصر ، وأنه أى الدين يأتي في المرتبة الأولى من حيث التمييز بين البشر ،

وقد تزعم هذا الاتجاه روكيش وآخرون (١) حيث قاموا بإجراء دراسة على مجموعة من البيض في الولايات المتحدة فسالوا الأفراد من أى الأنواع التالية يختارون أصدقاءهم :-

- ١ - شخص أبيض متدين
- ٢ - شخص زنجى متدين
- ١ - شخص أبيض متدين
- ٢ - شخص أبيض ملحد

ومن هذه الدراسة خرج الباحثون بأن الدين أهم من اللون .

والإتجاه الثانى يرى العكس أى أن اللون والعنصر أولا ثم الدين والمذهب ثانيا ، أو بمعنى آخر كما يقول أحد البيض المتدينين « هؤلاء السود أصبحوا على ديننا لأننا أفضل منهم » وتزعم هذا الإتجاه تريانديس (٢) حيث انتقد دراسة روكيش وقال أنها لا صلة لها بموضوع التعصب والتحامل ، بل تدور حول الصداقة والاختيار ، وبذلك استخدم وسائل أخرى لقياس التحامل والتعصب ، فوجد أن اللون والعنصر يأتيان في المركز الاول بالنسبة للتمييز بين الأفراد بلى ذلك الدين والمذهب .

وهناك دليل آخر يؤيد تريانديس فيما ذهب اليه ، وهو ما وصفه بتيجرو (٣) من تجربته في جنوب الولايات المتحدة عندما قارن بين ستة إيماد اجتماعية مختلفة ، حيث وجد أن : النساء أكثر تعصبا من الرجال - والمتدينين أكثر تعصبا من غير المتدينين - وذوى الطوبخ أكثر تعصبا من القانعين - وأعضاء الحزب الديموقراطى أو الجمهورى أكثر تعصبا من المستقلين - والشباب أكثر تعصبا من الشيخوخ - وغير المثقفين أكثر تعصبا من المثقفين .

ج - عوامل تتعلق بالمقومات الحضارية لكل جماعة :

وهذه العوامل تتركز غالبا في القيم الحضارية السائدة في الجماعة ، حيث يتحول الإتجاه العنصرى شيئا فشيئا ناحية الثبات والاستقرار ، فيصبح جزءا من الأيديولوجية الحضارية للجماعة التى هى عبارة عن الكل المتكامل من الأفكار والاتجاهات والمعتقدات والقيم وهذه الأيديولوجية في هذه المجتمعات - مجتمعات التمييز العنصرى - تدعى لهبا التعصب والتحامل ، اذ ربما قال الجيل الحالى « هذا ما وجدنا عليه آباءنا » فلم يكن لهم سبيل الى التغير أو التبديل ، لأن هذه هى فكرة الجماعة التى انضلت صفة التقديس والاحترام . ومرة أخرى لا نريد أن نكرر الانهاض لعملية التطبيع والتشئة اذ أنه واضح ثابت ، فهي المسئولة أصلا وأساسا عن تكوين هذه الأيديولوجية وحمايتها بالحدود الفاصلة المقدسة .

والأمر الثانى الذى لا بد من مناقشته أيضا هو العوامل والأسباب التى يمكن أن نأخذ بها لتخفيف حدة التحامل والتعصب .

ولنبدا هذه المناقشة فنقول انه طالما أن المسئولية الكبرى في هذا المجال تتعلق بالعملية الأساسية في انشاء البشر وتعليمهم وتثقيفهم وتحضيرهم - أى عملية التطبيع الاجتماعى - فإنه يمكننا أن نقول بلا تردد ان السبيل الوحيد لازالة تعطيل الاتجاهات والمعتقدات العنصرية وما

(1) Rokeach, M, *The Open and closed Mind*, N.Y. basic books 1960.

(2) Triandis, E.P., "a note on Rokeach's Theory of prejudice," *J. Abn. Soc. Psychol* 1961, 62.

(3) Pettigrew T.F., "Personality and Socio cultural Factors", *J. Conflict Resolut* 1958.

يترتب عليها من تحامل وتعصب هو عملية تطبيع اجتماعي صحيحة سليمة يقوم بها ويشرف عليها أفراد اصحاء اسوياء اجتماعيا ونفسيا ، ومن المبادئ الهامة والاساسية لعملية التطبيع الاجتماعي الصحيحة هو ان تؤمن اولاً انها اى عملية التطبيع ليست بسيطة ، ولكنها معقدة ومتعددة الجوانب والزوايا ، وبالتالي فاننا لنستطيع ان نقترح حلاً وحيداً أو نموذجاً محدداً لما يجب ان تكون عليه عملية التطبيع ، ولكنه لا بد ان نقول انه اذا اريد حل صحيح لمشاكل هذه العملية فلا بد ان تعالج جميع الجوانب والاطفاء في وقت واحد ، حتى يمكننا ان نتوقع تغييرا يمكن تقديره والاحساس به ، فعلى سبيل المثال يجب ان تعالج اخطاء القوانين العنصرية في الولايات المتحدة الامريكية او في جنوب افريقيا في نفس الوقت الذى تتعدل فيه خطة وسائل الاعلام ومحتواها ومناهج التعليم وفلسفته واسبابه ، وبالتالي فانه يصبح من المتوقع في هذه الحالة - وفي هذه الحالة فقط - ان نلاحظ تغييرا في العلاقات الاجتماعية بين الجماعات العنصرية كما يجب ايضا ان تكون واقعيين في احداث هذه التغييرات المنهجية او تلك التى تتعلق بالمحتويات ، فلا يكون مرجعنا في التفكير هو المثالية الكاملة حيث نتصور ان تلذّب جميع الاجناس والجماعات العنصرية في جماعة واحدة بلا حدود او فواصل من الناحية المادية ، ولكن من الاجدى ان نهتم اصول عملية التطبيع الاجتماعى سواء من طريق وسائلها المقصودة او غير المقصودة بتوضيح معنى الجنس والعنصر وتوضيحها علميا موضوعيا دقيقا ، مع ابراز الظروف والملازمات التاريخية التى احاطت وتحيط بكل جماعة عنصرية ، وهذا يعنى اذابة الحدود والفواصل العنصرية بصورة ممنوية عندما تاتي العقيدة التى يمكن ان تعتنقها جميع الاجناس والعناصر في المكان الاول .

ومن المبادئ الهامة والاساسية ايضا لعملية التطبيع الاجتماعى الصحيحة ان تقوم على فكرة الانشراح والانشاع ، وليس على الحلية الضيقة التى تكون عند الطفل ، ومن ثم الفرد البالغ نوعا من الدهن المغلق والفكر الجامد فلا يصبح من الممكن تغيير اتجاهه او اقناعه بفكرة جديدة .

وتحقيقا لهذا المبدأ - يجب ان تهتم عملية التطبيع بفرص اللقاء وتبادل الخبرة بين النوعية فقط ، بل تعتمد الى حضارات الجماعات الاخرى وخاصة التى تقترّب منها ماديا أو معنويا وليكن هذا الاهتمام موضوعيا منصفاً ، فلا يكون اهتمام البيض بحضارة الزنوج مبنيا على ابراز دور الخرافة والبدائية في حياتهم او معنى مثلث التجارة فقط (نقل العبيد من افريقيا) . بل يجب ان تهتم ايضا بفضل العبودية من اللون وان تبرز امكانية القدرة والابداع عند جميع الاجناس والاولاد .

وتحقيقا لهذا المبدأ ايضا يجب ان تهتم عملية التطبيع بفرص اللقاء وتبادل الخبرة بين اعضاء الجماعات العنصرية ، وذلك تحت الظروف الملائمة والتى تتيح تكوين الاتجاهات الموجبة عند كلا الجانبين ، فلا يكون هناك لقاء بين مجموعة من المثقفين من البيض ومجموعة من المزارعين السود ، فانه وان توفر لدى الفرد المثقف ان يفهم المزارع بظروف حياته وامكاناته فان المزارع الاسود سوف لا يفهم المثقف الابيض من اى ناحية من نواحيه .

كما يجب ان تهتم عملية التطبيع ايضا بنشر المعلومات الصحيحة وغير المشوهة او الموجهة توجيهها سلبيا خاصا عن الجماعات العنصرية الاخرى حتى تتاح الفرصة لافضاء الجماعة لتكوين المعرفة الصادقة من اعضاء تلك الجماعات ومن عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم .

ومن المبادئ الهامة والاساسية الاخرى لعملية التطبيع الاجتماعى الصحيحة انها عملية ليست قصيرة الامد اى انها لا تأخذ في حسابها الحاضر فقط بل يجب ان ننظر دائما بعين التنبؤ الى المستقبل اذ انها عملية دائمة ومستمرة ومتصلة الطلقات .

وتحقيقاً لهذا المبدأ يجب ان تهتم عملية التطبيع بمستقبل الطفل بقدر اهتمامها بحاضره فتعده للغد من ناحية الفكر والاتجاه والقيمة والمعتقد ،وبذلك يبنى له طريق الاتصال بالحضارات الأخرى ليتفهم أسسها ومبادئها ويعترف على قوانين تطورها ونموها وهو في ذلك ناقد علمي موضوعي . وربما كانت هذه هي أهم النقاط جميعاً ، فان تكوين الاتجاه العلمي الموضوعي هو بمثابة تحصين ضد تكوين اتجاهات التحامل والتعصب . وتكوين الاتجاه العلمي لا يحتاج الى تفهم النظرية والمبدأ بقدر ما يحتاج الى الممارسة والمران .

وتحقيقاً لهذا المبدأ أيضاً يجب الا تتوقع الجماعات العائد السريع من إنزالها كمكافأة لها على تطبيعهم وتنشئتهم اجتماعياً وحضارياً ، بل يجب ان تعطيهـم الفرصة للاشتراك في حضارات وثقافات أخرى . وتحقيقاً لهذا المبدأ أيضاً يجب ان تعمل عملية التطبيع الاجتماعي على ابراز الأهداف الانشائية الأصيلة التي تسعو فوق كل جماعة عنصرية بحدودها الضيقة ، وذلك من أجل تدريب افراد كل جماعة لأن يكونوا أعضاء بصورة أو بأخرى في مجتمعات أوسع وأشمل مما يعيشون فيه حالياً وبذلك تكون أي عملية التطبيع قد أكدت دوامها واستمرارها واتصال حلقاتها .

ويبدو بذلك ان الأمر شاق وعسير ، وأن الطريق صعب وطويل ولكن لا بد ان يكون هناك أمل في التغيير ، فان رحلة الألف ميل تبدأ دائماً بخطوة واحدة .

خاتمة وتطبيق :

لقد ادخرت بعض نقاط المناقشة الى هذه الخاتمة حتى أشعر وأنا بصدد الانتهاء من هذه الدراسة كما لو كنت مقبلاً عليها من جديد .

فقد وضع من تيار المناقشة السابقة وخاصة في تحليل العلاقة بين عملية التطبيع الاجتماعي وبين سلوك التحامل والتعصب ان معظم مجتمعاتنا العالمية المعاصرة تعاني من هذه الأزمات ، سواء بصورة مفتوحة واضحة ، كما هو الحال في جنوب أفريقيا وبروديسيا والولايات المتحدة الأمريكية وما بقي للبرتغال من مستعمرات . أو بصورة مظنة ولكن لها رائحة نفوح كما هو الحال في بعض المجتمعات الغربية الأخرى مثل المجتمع الانجليزي أو المجتمع الألماني .

وقد يتبادر الى الذهن ان عنايتنا في هذه الدراسة قد اقتصرت على التحامل والتعصب ضد السود أو غيرهم من الأقليات الأخرى في أمريكا وجنوب أفريقيا ، ولكن في حقيقة الأمر هناك صور كثيرة أخرى من التحامل والتعصب كنت أود ان أعالجها بالمنهج العلمي الذي أعتقد انني التزمت به خلال المناقشة والتحليل ، ولكن ما كتب عن هذه الصور من التحامل والتعصب لا يعطينا الفرصة لذلك ، فمعمله انطباعات شخصية أو ملاحظات عابرة لا تنوافر فيها العلمية الموضوعية .

ومن أهم هذه الصور : التحامل والتعصب بين الروس والأمريكان وخاصة في السنوات العشرين الأخيرة (أي بعد الحرب العالمية الثانية) وما كتب في هذا مجرد انطباعات شخصية أو ملاحظات لبعض الرحالة الأمريكيين في روسيا أو الروس في أمريكا . ولو أنه معلوم ولا شك أن ما بين النظام الشيوعي والنظام الرأسمالي قد يؤدي الى التحامل والتعصب .

وكذلك المسلمون في روسيا كاقليية عنصرية فلم يكتب عنهم الا القليل وحتى هذا القليل كتب من وجهة نظر غير محايدة (١) .

(1) Wheeler, G., *Racial Problems in Soviet Muslim Asia*, Oxf. Uni. 1967.

وكذلك العرب في اسرائيل كمواطنين من الدرجة الثانية ، فلم تتوافر لدينا المعلومات العلمية الموضوعية عنهم حتى يمكن إبراز هذا الموضوع الذى هو على جانب كبير من الأهمية .

ونعود فنسأل في هذه الخاتمة « هل يمكن لنا أن نعتز بفشل عملية التطبيع الاجتماعي على الصعيد العالمى ؟ حيث أن نواجهها كما نرى ونشعر ونحس وخاصة منذ بداية عصر التكنولوجيا الحديث أصبحت تؤكد ذلك .

وهل هناك طريق لاصلاح ما أفسدته أبدي اجيال سابقة لهذه الاجيال الناشئة ، او بمعنى آخر أكثر دقة وصراحة هل من سبيل لاصلاح ما أفسدته ابدنا نحن ؟؟ .

لقد سبق أن اشرا الى ذلك في سطور سابقة وخاصة عندما حاولنا أن نناقش العوامل التي من شأنها أن تخفف حدة التحامل والتعصب ويمكن أن تعود اليها مرة اخرى عندما تؤكد أهمية تدريس هذه الاجيال الناشئة على الطريقة العلمية الموضوعية في التفكير وفي اتخاذ القرارات وفي فهم وقبول الآخرين . ان الطريقة العلمية هي التي سوف تكون عند الفرد اتجاهها علميا وقيمة علمية تمكنه من الحكم على الاشياء حكما موضوعيا مجردا بعيدا عن الهوى والدائبة ، وربما كان المثال الذى أريد أن أسوقه هنا قاسميا بعض الشيء وهو قصة يرويها ويشندر بها الملونون في أمريكا ، فقد حدث في يسوم أن قتال البيض والزوج في إحدى الولايات ، وجرح من الجانبين عدد كبير ، منهم من نقل الى المستشفى وكان بحاجة ماسة الى عملية نقل الدم . وكان الجريح ابيض ولم تتفق فصيلة دمه الا مع فصيلة دم ممرض زنجي ، فأمر الطبيب وهو ابيض بنقل الدم لانتقاد الجريح ، ولكن الممرضة المشرفة على ذلك - وهي من البيض أيضا - احتالت حتى كبرت الزجاجة التي أعطاها من دمه متبرعا ذلك الممرض الزنجي ، وتركت الجريح يموت ، وتكتمل القصة عندما تقول الممرضة عند حسابها « انني لم أستطيع أن أرى دم هؤلاء الاشقياء يختلط بدم السادة من البيض ... » .

وواضح أن الطبيب ابيض ، ولكنه يتمتع بالاتجاه العلمي والقيمة العلمية ، وواضح أيضا أن الممرضة من البيض ، ولكنها اتخذت قرارا بعيدا عن الموضوعية كل البعد متأثرة في ذلك بالدائبة والهوى .

وفوق الطريقة العلمية في التفكير تأتي العقيدة التي يمكن أن تعتمدها جميع الألوان والأجناس البشرية ويشعرون جميعا في ظلها بالانتماء الى الأصل الواحد والجذور الواحدة فالإسلام والمسيحية ، وهما من أبرز الديانات التي ملأت العالم حبا وطمانينة ، قاما على التسامح وتقبل الآخرين مهما كانت ألوانهم وأجناسهم ، بل وأديانهم أيضا ، فالكلى الى الله والى الله يعود ..

فهل نحن في حاجة الى مسيح آخر او محمد آخر حتى تنتهي ازيمات التعصب والتحامل التي تشعل نار الخوف والقلق والفرغ في شسوب باكملها من حين لآخر ؟ ..

اعتقد ان المسيح ومحمدا هما ما تركاه من تراث وتعاليم ..

ولا أجد خيرا من هذه القصة الطريقة لاختتمها هذه الدراسة وهي قصة ذلك العبد الاسود الذى كان يعمل في بناء كنيسة حتى أرققه النعب والنصب فلجا الى داخل المبنى ونام ، وهنا انقلبه السيد الابيض في غلظة وقسوة قائلا له ... « ايها القبي الازخبل من نفسك كيف تنام في مكان يوجد فيه الرب ؟ ... » .

فقال العبد : « دلى يا سيدى على مكان لا يوجد فيه الرب وانا انام فيه » .

من المراجع

1. Backman, C, "Origins of Prejudice and Discrimination," in **Social psychology**, 1964
2. Barker, R G, and Wright, H F, **Midwest and its children**, Evanston III, Row, Peterson & Co, 1954
3. Bogardus, E S, "Measuring Social Distance", **J. App. Social**, 1925 b, 9
4. Bogardus, E S, **Immigration and Race Attitudes**, Boston Heath, 1928
5. Bogardus, E S, "Changes in Racial Distances," **Int. opin. attitude Res.**, 1947, 1, No 4
6. Brown R, **Social Psychology**, Col McMill 1965, P 193
7. Chein, I, "Some considerations in combating intergroup prejudice," **J. educ. Sociol.**, 1946, 19
8. Child, L I, in **Hand book of Social Psychol.** Ed G Lindzey, P 655, 1954
9. Crandall, S, Orleans, A, Preston & Rabson, **Child Develop** 1958, 29, 429-444
10. Deutsch, M, and Collins, M, **Interracial housing**, Uni Minnesota, 1951
11. Dollard, J and others, **Frustration and Aggression**, N Haven 1939
12. Dudycha, G, ,, The attitudes of college students toward War and the Germans " , **J. Soc. Psychol.**, 1942, 15
13. Elkins, S, **Slavery.**, Uni of Chicago Press, 1959
14. Goodman, M, **Race awareness in young children**, Addison-Wesley, 1952
15. Hollander, E, and Hunt, R, **Current perspective in Social Psychology**, Oxford, 1967, 151-157
16. James, H E O, **Lectures in Social Psychol.**, 1961, London Uni.
17. Jame, H E O, and others, **A Series of Unpub. theses**, London Uni Ins of Educ 1959-1964
18. Katz, D, and Braly, K, "Racial Stereotypes of 100 college Students", **J. Abn. Soc. Psychol.**, 1933, 28
19. Katz, I, and Benjamin L, ,, Effects of White Authoritarianism in Biracial Work Groups," **J. Abn. Soc. Psychol** 1960, 61
20. Kuo, Z Y, "The Genesis of the Cat's Response to the Rat ", **J. Comp. psychol** 1930, 11, 1-30
21. Kutner, B, and others, "Verbal attitudes and Govert Behaviour " , **J. Abn. Soc. psychol.**, 1952, 47
22. Lambert, W W, and Lambert, W E, **Social Psychology**, Foundations of Modern Psychology series, PP 7-27
23. La Piere, R, "Attitudes US Actions", **Soc. Forces**, 13, 1934
24. Logan, R, **The Negro in American Life and Thought**, Nadir, NY 1954
25. McClelland, D C, **The Achieving Society**, VN 1961

26. Miller, N., and Dollard J., **Social Learning and Imitation**. N. Haven, 1941.
27. Mussen, P., and Distler L., „Masculinity Identification and Father-son Relationships “
J. Abn. Soc. Psychol 59, 1959.
28. Myers, H. A., **Are Men Equal, The Meaning of Amer democracy**, Great Seal, N.Y. 1963,
P. 153.
29. Pettigrow, T. F., “Personality and Socio cultural Factors in Intergroup attitudes “,
J. Conflict. Resolut. 1958, 2, 29-42.
30. Pettigrow, T. F., **A profile of the Negro American**, V. Nostrand 1964.
31. Rokeach, M., **The Open and Closed Mind**, N.Y. basicbooks, 1960.
32. Schein, E. H., **Psychiatry**, 1956, 149-172.
33. Seago, D., “Stereotypes before Pearl Harbor and after “, **J. Psychol.** 23, 1947.
34. Sears, R., and others, **Patterns of child Rearing**, Evanston III, Row, Peterson, 1957.
35. Sears, R., in **J. Abn. Soc. Psychol.** 1961, 63, 466-495.
36. Secord, P., and Backman C., **Social Psychol.** McGraw Hill, 1964.
37. Simpson, G. and Yinger, J., **Racial and Cultural Minorities**, N.Y. Harper, 1958.
38. Sinha, A., and Upadhyaya, O., “Stereotypes of male and female students,,,,,,,,,,,,”,
J. Soc. Psychol. 1960.
39. Tagiuri, R., and Petruccio, L., **Person perception and Interpersonal Behaviour**, Stanford
Univ Press, 1958.
40. Triandis, E. P., “a Note on Rokeach’s Theory of prejudice “, **J. Abn. Soc. psychol.** 1961,
62.
41. Wheeler, G., **Racial Problems in Soviet Muslim Asia**, Oxford Uni. Press, 1967.
42. Whiting, B., **Six Cultures, Studies of Child Rearing**, N.Y. 1963.





(٥) محمد عبد الهادي أبو بريدة

تمهيد :

كل من نظر في أشياء هذا العالم ولاحظ ما يجري فيه من حدوث وتغير وزوال ، سواء كان الناظر إنساناً بشائياً يتبع ميلاً فطرياً للعقل البشري أو مفكراً مثقفاً يتبع طريقة التفكير العلمي والفلسفي ، خطر له أن يكون وراء ما يشاهده من حدوث وتغير وزوال قوى فاعلة مدبرة ، وكان ذلك بمقتضى مبدأ في العقل البشري هو مبدأ العلة الكافية (1) Principle of Sufficient Reason

والعقل البشري ، في تفسيره للأشياء ، لم يقف عند تحليل الظواهر والأحداث الجزئية ، كل منها على حدة ، ولا هو اكتفى بالرجوع إلى المؤثرات القريبة المباشرة ، بل هو ، بفضل ترقبه في التفسير وبسبب ملاحظة الارتباط بين الأحداث والظواهر ، توصل إلى ضرورة وجود علة واحدة يرجع إلى فعلها أو تأثيرها كل شيء .

❦ الدكتور محمد عبد الهادي أبو بريدة أستاذ الفلسفة الإسلامية ، ورئيس قسم الفلسفة والاجتماع بجامعة الكويت كان وكيلة كلية الآداب بجامعة عين شمس . له عدة كتب مؤلفة ومترجمة في الفلسفة الإسلامية .

(١) إذا رأى الإنسان شيئاً أو حدثاً فانه بطبيعته يسأل عن سببه ويبحث عن حقيقته ، وكل العلم قام على هذا الأساس . وقد احتج لـ Leibnitz الفيلسوف الألماني (١٧١٦) القول بالعلة Causality مبدأ فكرياً رئيسياً ، ووضع صيغته على هذا النحو : « لا واقع يمكن أن يكون حقاً أو موجوداً ، ولا حكم يمكن أن يكون حقاً ، إلا وتكون عنده علة كافية تكونه كذلك لا على خلافة ، وإن كانت العلة في الغالب لا يمكن أن تكون معروضة لنا » (32 Monae ologie)

ومع أن هذا المبدأ يشير إلى العوامل الموجودة في العالم الواقع تحت حواسنا ، فانه مبدأ صادر عن العقل ، وكل مبادئ الفكر من شأنها أن تنطبق على شيء ما ، حتى على العقل نفسه ، ومع ذلك فهي عقلية . والعقل يتجاوز الحس ويحكم عليه ، لأن هذه هي مهمة العقل .

ومع أن آراء المفكرين في كلامهم عن علة الاشياء قد تنوعت ، فإن الغالبية الساحقة منهم رأوا انها علة غير مادية (١) وغير مشابهة لما نراه في هذا العالم ، وانها علة عاقلة ، و اضافوا لها من صفات الكمال بحسب ما تخيلوا ، على تفاوت حظوظهم من سمو في التفكير ومن توفيق في اصابة الحق ، ومقدرة على التعبير عنه .

ورأت غالبية المفكرين ايضا أن علة العالم ، الى جانب كونها المصدر الذي يفسر ظهور الموجودات هي أيضا رمز القيم ومصدرها . هي حق وخير ، واليها يرجع كل حق وخير . واليها يستند نظام الاخلاق في هذه الحياة .

واطلقت على تلك العلة عبارات كثيرة ، كما سنرى ، وسميت بالاسم الذي يقابل كلمة الاله ، في اللغة العربية .

وهكذا أصبح القول بوجود الاله هو التفسير الكامل لهذا العالم ، والعماد الذي تقوم عليه القيم الخلقية ، واستقرت في القلوب طمانينة نشأت عن ثقة الانسان بنظام العالم ونظام الحياة ، وعن شعوره بما يرضى حاجات روحه ويحقق آماله ، وصار مفهوم الالهوية محور كل تفكير فلسفي والفكرة العليا في العقل البشري .

وكان الوصول الى هذه الفكرة ثمرة لمحاولات العقل الباحث عن الحقيقة ، وهذا ادى الى ما سمي « علم الربوبية الطبيعي » Natural Theology او « علم الربوبية الفلسفي » Philosophical Theology ، أي الذي تكون عند الانسان المعتمد على ماله من ملكات النظر ، والذي صارت له صورة واضحة على يد فلاسفة اليونان (٢) ، وذلك في مقابل تصورات أخرى للالهوية ، خصوصا علم الربوبية المبنى على الوحي الالهي والبحث فيه .

وبقدر ما تنوعت آراء افلاسفة وأهل الأديان فيما يتصل بالاله وعلاقته بهذا العالم ، تنوعت في بيان الأدلة على وجوده . وبعض ذلك كان راجعا الى تنوع وجهات النظر في طبيعة هذا العالم نفسه .

والناظر في ذلك كله يتبين مقدار ما بذله العقل البشري من جهد في محاولة معرفة الحقيقة ، ومقدار عظم هذه الحقيقة ، سواء فيما يتعلق بمصدر العالم أو بالعالم نفسه .

ولا عجب أن يتحير العقل البشري ، الذي تقيده قيود كثيرة ، في تصويره للكائن الذي لا يشبه شيئا معروفا له ، وأن تقصر ملكاته عن الإحاطة بكنهه ، بل بكنه ما صدر عنه من أشياء لا نعرف حدودها وتكاد لا نعرف شيئا من حقيقتها .

(١) ان الماديين الذين يزعمون أنه لا موجود الا المادة التي نشاهدها قليلون جدا بين المفكرين ، وهم في الحقيقة ، ليسوا اصحاب مذهب في تفسير الكون ، بل اصحاب رأى في طبيعة الوجود ، وهو رأى سطحي تصمفي وغير نقدي ، لان المادة كما نراها لا تفسر شيئا ، وليست علة حقيقية لشيء . وهذا سببتين من كلاتما فيما يلي . والمذهب المادى « لم يخرج قط فيلسوفا من الطراز الاول » (راجع ماكتبه A E Taylor في E.R.E دائرة معارف الدين والاخلاق ، مجلد ١٢ ص ٣٦٢ ع ١ .

(٢) كان التندين سابقا على التنظف ، وقبل ظهور الفلاسفة اليونان كانت هناك ديانات منزلة معروفة واخرى غير منزلة . ولا شك في ان لافلاسفة اليونان عرفوا ذلك وانطبقت مقولهم بالكثير منه خصوصا الاطون ، لكن اليونان كانوا بوجه عام ، في تصوراتهم للالهوية وكلامهم عنها ، يعتمدون على الكلمات الفكرية الطبيعية .

والمهم أن البحث في الاله أجل موضوعات النظر وأعضائها ، وأنه لم يُخلُ مذهب فلسفي أو علمي من تناوله بالبحث . وكانت محاولات اثبات وجود الاله أكبر ما شغل علماء الأديان ، ومن أهم ما تعرض له الفلاسفة والعلماء على السواء .

ومرجع ذلك إلى الأهمية الكبرى للموضوع في ذاته وإلى ما يترتب على الاعتراف بوجود الاله ، أو الإنكار له ، من نتائج نظرية وعملية تتوقف عليها قيمة كل شيء .

ومع أن الأمم ذات الحضارة الفكرية يوجه عام ، وجميع أهل التفكير العميق المتن ، متفقون على القول بصانع قادر حكيم ، صدرت عنه الأشياء ، وهو يديرها على مقتضى الحكمة ، فإن الأمر لم يُخلُ من أفراد ينكرون وجود هذا الخالق ، ويجدون من يُخدع بأقوالهم . وهم في الأغلب من غير المحققين في العلم بهذا العالم ، أو من الناكسين عن الاستجابة لما يطلبه العقل من تفسير نهائي وصحيح وشامل للكون والحياة ، أو من المخالفين للحق على علم به ، أو الذين لا يريدون أن يسيروا في تفكيرهم وحياتهم بحسب ما تقضى به المعرفة بالاله وحكمته ، أو المتظاهرين بكياسة زائفة ، أو المغلوبين على أمرهم ، أو نحو ذلك من ظروف الاحاد وأسبابه التي لا حصر لها .

ونظراً لأن الاستدلال على وجود الاله الحق ، سواء تفكر الإنسان في الكون أو رجع إلى التفكير في نفسه ، أشبه بالاستدلال المباشر الذي لا يدفع أسامه أو نتيجته إلا مكابر معاند لحكم العقل ، فإنه يمكن الشك في اخلاص المنكرين لوجود الله فيما يقولونه ، كأنهم يجحدون بشيء يؤمنون به في قراءة نفوسهم .

ولكن لما كان الكلام في اثبات وجود الله ، في الحقيقة ، تفسيراً للعالم وسنداً للقيم ، فإن الموضوع يصبح بالضرورة نظرية علمية فلسفية من الطراز الأول ، ويتجلى ذلك من كلام العلماء المحدثين عن وجود الله .

ولما كان الايمان بالاله الحق هو أساس العقيدة في الأديان المنزلة فإن المفكرين المؤمنين سلكوا في اثباتهم لوجوده طريق العلم والفلسفة . ومما سهل ذلك في بعض الأديان ، وهو الاسلام ، أنه بنى الايمان بوجود الله على أساس النظر العقلي في الكون والإنسان .

وعلى هذا فإن ذكر الأدلة على وجود الله ، سواء جارت على لسان العلماء والفلاسفة أو المؤمنين العلماء المتفلسفين ، هو ذكر الأدلة التي صدرت عن العقل الإنساني من وحى تفكيره في مشكلة هذا العالم والوجود بوجه عام .

وهذا لا يتعارض مع استنارة العقول بالهدى الذي جاء من عند الله وكان للعقل ميزانا وحافظا من الزلل في الحق الذي هو مصدر كل حق .

ومن الطبيعي لمن يتناول المشكلة أن يراعى الترتيب التاريخي ، فيبتدئ بالمفهوم الفلسفي للالوهية والأدلة الفلسفية عليها ، لأن ظهور هذه الأدلة كان سابقاً على ظهور أدلة المتفلسفين من علماء الديانات المنزلة من النصارى والمسلمين (١) .

(١) مع أن اليهودية القدم من الفلسفة فإنه لم يظهر بين اليهود تظلسف إلا بعد ظهور الفلسفة اليونانية بقرون كثيرة ، وكان ذلك على يد فيلون الإسكندري (٣٠ ق.م - ٥٠ م) . لكننا نجد عنده نظراً عقلياً وتفسيراً علمياً فلسفياً لهذا العالم ، ولا أدلة نظرية لاثبات وجود الله ، بل نجد عنده تأويلاً رمزياً للتوراة وزعمات روحية صوفية ، فيها عناصر اللاهوتية مع دفاع عن الدين . أما لفلسفة اليهود الكبار من أول نشوء التفكير الفلسفي بين اليهود إلى ظهور موسى في ميون (ت ١٢٠٤ م) فإنهم نفيوا في ظل الحضارة العربية الإسلامية ، وهم ينتمون من الناحية الفلسفية إلى التيارات الكبرى في التظلسف بين المسلمين .

أن بدايات « علم الربوبية الطبيعي (أو الفلسفي) » ، وكذلك ظهور الأدلة النظرية لاثبات الإله تعالى ، كانت عند فلاسفة اليونان (١) ، ، وأن كانت فكرة الإلهية قد كانت معروفة من قبل ، خصوصا عند المنتسبين للديانات المنزلة .

وأول ما نجد ذلك عند سقراط (ت ٣٩٩ ق . م) الذي تدل محاورات أفلاطون على إيمانه بالله حكيم كان يشعر بأنه ، بطريقة بالتفكير وبأسلوب حياته ، يستجيب لنداء منه ، كما تدل روايات على أنه كان يستدل على وجوده مستندا الى ما في هذا العالم من نظام واحكام ، فهو في تاريخ الفلسفة في الغرب أول ممثل لوجهة نظر تليولوجية أى غائية (Teleological Conception) فيما يتعلق بالكون والانسان .

فإذا نظرنا في مصنفات أفلاطون ، خصوصا « الجمهورية » و « القوانين » وبعض محاوراته مثل : *Thaetetos, Timaeos, Euthyphron, Phaedros, Politicos, Phaedon* وجدنا محاورات جديدة ذات صبغة فلسفية - دينية لبيان فكرة الإلهية وأقامة الأدلة على وجود الله ، وجدنا بيانا لخيرية الإله التي يبنى عليها نظام الأخلاق ، ولقبول هذا العالم باعتبار أنه خير ، لصدوره عن إله خير ، وذكر أفكار مثل : أن الإله هو « الراعى » وأن البشر «غنمه» ، وأن نفوس الاخيار في يديه ، وهى تصير اليه بعد الموت ...

ومن أدلة أفلاطون على وجود إله ، الدليل الموجود في الكتاب العاشر من « القوانين » ، وهو مبني على ظاهرة الحركة ، خصوصا الحركة الدائرية المنتظمة التي تتجلى في حركات الاجرام السماوية والتي لا يمكن ، بحسب تصور أفلاطون ، أن تكون صادرة الا من نفس لها حركة ذاتية بها تحرك تلك الاجرام . وأذن فهناك نفوس هى علل فاعلة ، ولما كان فعلها يجرى على نظام فهمى علل عاقلة . وأفلاطون يطلق في كلامه عنها لفظ-Theoi (Gods = آلهة) ، لكنه كان في ذلك ، كما يرى بعض العلماء (٢) يعبر عما يناسب التصور الشعبي عند اليونان . أما هو فكان يرى ، كما يدل كلامه في معاورة طيمائوس ، أن الإله واحد ، بدليل أن العالم واحد وأنه منظم .

وقد يمكن الاستدلال على ذلك بما يقوله أفلاطون عن مثال الجمال ومثال الخير في كلامه عن عالم المثال الفارق لهذا العالم المحسوس .

فمثال الجمال فوق كل وصف ، وهو أزلي أبدي ، ومصدر كل الجمال المتفرق في الأشياء ، وهو منتهى ما يمكن أن تنزع اليه الإرادة الإنسانية (٣) .

ومثال الخير في قمة عالم المثال ، فوق كل وصف ، وهو منتهى ما يمكن تعقله : « هو الذى يعطى موضوعات المعرفة حقيقتها ويعطى الذات العارفة القدرة على المعرفة . يجب عليك ان تعتبره حلة المعرفة وحلة الحقيقة ، من حيث ان هذه يمكن ان تعرف . ومهما بلغ جمال المعرفة

(١) كان تفكير اليونان أساس تطور الفكر الفلسفي الأوروبي . والفكر الفلسفي والدينى في الإسلام له علاقة وثيقة بالفكر اليوناني من حيث القبول والنقد والرفض والتصحيح والإكمال . ولذلك نهتم هنا بالفكر اليوناني . أما الفكر الدينى والفلسفى عند أمم الشرق القديم والشرق الاقصى ، فإنه ، الى جانب ما فيه من قنوص وما يميّزه من العنصر العلمى بالصفا ، لم يكن له كبير شأن بالنسبة للفكر الدينى عند الاسلاميين او للفكر الدينى عند الأوروبيين .

(٢) مثل تيلور Taylor في ERE مادة Theism ص ١٢ ص ٣١٤ ع ١ .

(٣) المتأدية ١٢١ - ١٢١٢

وجمال الحقيقة فإن الخير أجمل من ذلك بكثير . وكما أن الضياء قوة الإصدار شبيهان بالشمس ، لكنهما ليسا الشمس ذاتها ، فكذلك المعرفة والحقيقة شبيهان بالخير ، لكنهما (لا الواحدة ولا الأخرى) ليسا ذات الخير وكما أن الشمس المحسوسة تجعل للأشياء صفة أن ترى ، وليس ذلك وحسب ، بل هي أيضا واهية الصيرورة والنماء والغذاء من غير أن تكون هي حادثة ، فكذلك الخير يجعل لموضوعات المعرفة صفة أن تعرف ، وليس هذا وحسب ، بل هو يعطيها الوجود والحقيقة ، على حين أنه هو فوق الوجود شرفا وقوة اعلم أن الخير والشمس مكان : أحدهما على عالم المعقولات ، والآخر على عالم المحسوسات » (١) .

وأفلاطون يصف مثال الجمال بأنه خير ، ومثال الخير بأنه جميل ، ويصف صانع العالم بأنه خير جميل . ويؤخذ من جملة كلامه ، كما يستنتج بعض العلماء ، أن مثال الخير عنده هو الإله وأنه اله واحد .

لكن أفلاطون لا يفرق بين الإله وبين النفوس والمثل من حيث الماهية والحقيقة ، ولا يفرد الإله بالأزلية ، بدليل أنه يقول بأزلية عالم المثل ، وبوجود ما يشبه مادة أزلية ، سماها : « القابل » (dekhomenon) أى القابل لتأثير المثل ، وهي أساس تشكل هذا العالم ، ويقول بنموذج سابق بحسبه صنعت السموات والأرض .

وهو إذا كان في محاورة طيمائوس يتكلم عما يسميه « الصانع » (Demiurgos) فإن هذا الصانع ليس مبدعاً بالمعنى الحقيقي ، وإنما هو يصنع من شيء موجود — ويؤخذ من كلام أفلاطون أن هناك مبادئ كثيرة تترك في صنع العالم . وهذا كله يشوب التوحيد عند أفلاطون ، ويجعل أمر الإله في تفكيره ملتصبا غامضا . ثم أن تصور هذا العالم كأننا حيا له نفس كلية بواسطتها يؤثر عالم المثل في عالمنا لا يستند إلى أساس علمي .

مهما كان الأمر فإن أفلاطون يقول بوجود إله حكيم يعلم الخير . وفعله مشابه له ، فهو الذي ينظم كل شيء ويضئ بالعالم . ويقول بعالم غير مادي فسوق عالمنا ، منه جاءت النفس الإنسانية وإلى تصير بعد الموت في حياة أخرى خالدة . وهذا كله يكون وجهة نظر دينية أخذ أفلاطون عناصرها من مصادر شتى لا داعي للكلام فيها . وكل تصوره للإله والكون ، رغم ما فيه من نزعات عقلية وروحانية ، مشوب بعناصر القصة والأسطورة .

لكن المهم أنه حاول إثبات وجود صانع مدبر ، مستندا في ذلك إلى النظر في العالم ، وجمع في برهانه ، كما لاحظ تيلور (٢) ، بين الدليل المبني على ما نشاهده في الأشياء من حدوث وتغير يدل على استنادها إلى مؤثر وبين الدليل المبني على ملاحظة الارتباط والغائية في نظام الكون .

فدليله ليس من النوع الاستنباطي المبني على الأوليات ، « هو ليس أوليا a priori ، بل هو دليل مبني على التجربة (argumentum a posteriori) يسير من صفة معلول معلوم إلى صفة علته . فوجود عالم من أشياء متغيرة ، وكون ما يجري في عالم التغير هذا يتبدى على نحو متزايد شيئا يكشفه لنا النظر العلمي ، وهو خضوعه لقوانين يدرکہا العقل ، كل ذلك يعتبر حقائق نعرفها بالتجربة ، والدليل لا ينهض بدون هذه المقدمات التجريبية » .

(١) الجمهورية ، ص ٥٦ - ٥٩ ، حسب نسخة بكر .

(٢) E R E م ١٢ ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

أما دلائل أفلاطون المبني على نظريته في المثل ، وملخصه أن تفاوت هذه الأشياء المحسوسة في صفاتها يدل على أن صفاتها ليست ذاتية بل هي ناشئة من مشاركتها في شيء تكون له الصفات ذاتية وكاملة ، وهو عالم المثل الذي رباطه مثال الخير ، فهو يستند إلى ملاحظة صحيحة ، لكن أفلاطون لم يحسن الاستنتاج منها (١) .

أما أرسطو فقد استدل على وجود الإله ، كما استدل أستاذه ، مبتدئا من النظر في العالم وما فيه من تغير وحركة .

هو يقول من جهة أن هذا العالم مسرح للتغير والضرورة ، والتغير عبارة عن أن شيئا « بالقوة » ، أي في حالة « الامكان » ، يخرج إلى حالة « الفعل » ، أي « الوجود المتحقق » . وهذا لا يكون إلا بشرط وجود شيء يكون « بالفعل » . ولما كان التسلسل ، أعني رجوع الشيء إلى ما قبله وهكذا إلى ما لا نهاية له في الماضي (infinite regress — regressus in infinitum) ، مستحيلا ، فإنه يتحتم الانتهاء إلى شيء موجود بالفعل دائما ، وهو العلة الأولى .

ومن جهة أخرى هناك الحركة الدائرية المنتظمة التي نشاهدها في نظام الأفلاك . وأرسطو يردّها إلى فعل النفس ، لكنه يرى أنها ليست مجرد حركة ذاتية بل هي حركة عن « شوق » (appetition — orexis) نحو شيء تدركه النفس ، وبذلك تكون النفس عقلا (نوس nous) . وهذه الحركة وإن كانت في رأي أرسطو إزلية أبدية ، فإنها لا بد أن ترجع إلى « محرك أول غير متحرك » (Unmoved Mover) .

وأرسطو يقول « بمحركات أول » بتقدير عدد الأفلاك كما تصورها ، لكن هناك فلكا محيطا بها جميعا ، وهو فلك النجوم الثابتة أو « فلك الثوابت » ، كما عبر العرب . وهو يحرك كل ما فيه : فهو المحرك الأول غير المتحرك بالمعنى الحقيقي المطلق . وأرسطو يسميه الإله (٢) ، وهو واحد أزلي أبدى لا يتغير . والعالم كائن حي واحد يتحرك من الأول إلى الأبد حركة عشق للمحرك الأول وتشبيهه به .

ويضيف أرسطو لآله صفات كثيرة ، بعضها لا يخرج له من أمس نظرتة ، وبعضها استحسان منه بلا دليل .

فهو مثلا يبني على فكرة أن المحرك الأول غير متحرك ، وأنه ثابت لا يتغير ، فكرة أنه لا يعلم إلا ذاته ولا يعقل غير ذاته ، فلا يعلم أحوال الأشياء لأنها متغيرة . فحياته عبارة عن تعقل دائم لذاته أو هي كما يعبر أرسطو « تعقل لكونه عاقلا » (noesis noesios) . وقد فهم أرسطو من العلم العلم الكسبي الانفعالي الذي ينشأ عن التائي بالمعلوم ، ولم يصل تفكيره إلى العلم الفعلي الذاتي الذي توجد الأشياء طبقا له ، وهو علم واحد يحيط بها في جميع أحوالها .

وهو يصف الإله بأنه متلذذ لذة « بسيطة » وأنه مبتهج سعيد (٣) . ولا يضيف إليه صفة القدرة أو الإرادة .

(١) انظر أدلة وجود الله عند الطاهر بن طاهر المقدسي فيما يلي .

(٢) Metaphysics ١٠١٠، ١٠١١، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١ ، ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، ١١٣٧ ، ١١٣٨ ، ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، ١١٤١ ، ١١٤٢ ، ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٤٩ ، ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٢ ، ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، ١١٥٧ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٧٦ ، ١١٧٧ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٥ ، ١١٨٦ ، ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١١٨٩ ، ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، ١١٩٥ ، ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢ ، ١٢١٣ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥١ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، ١٣١٢ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣١٧ ، ١٣١٨ ، ١٣١٩ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ ، ١٣٢٥ ، ١٣٢٦ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣١ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٣ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ ، ١٣٣٦ ، ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٣ ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٥ ، ١٣٤٦ ، ١٣٤٧ ، ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٢ ، ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٠ ، ١٣٧١ ، ١٣٧٢ ، ١٣٧٣ ، ١٣٧٤ ، ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ ، ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨١ ، ١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ، ١٣٨٤ ، ١٣٨٥ ، ١٣٨٦ ، ١٣٨٧ ، ١٣٨٨ ، ١٣٨٩ ، ١٣٩٠ ، ١٣٩١ ، ١٣٩٢ ، ١٣٩٣ ، ١٣٩٤ ، ١٣٩٥ ، ١٣٩٦ ، ١٣٩٧ ، ١٣٩٨ ، ١٣٩٩ ، ١٤٠٠ ، ١٤٠١ ، ١٤٠٢ ، ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، ١٤٠٥ ، ١٤٠٦ ، ١٤٠٧ ، ١٤٠٨ ، ١٤٠٩ ، ١٤١٠ ، ١٤١١ ، ١٤١٢ ، ١٤١٣ ، ١٤١٤ ، ١٤١٥ ، ١٤١٦ ، ١٤١٧ ، ١٤١٨ ، ١٤١٩ ، ١٤٢٠ ، ١٤٢١ ، ١٤٢٢ ، ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ ، ١٤٢٧ ، ١٤٢٨ ، ١٤٢٩ ، ١٤٣٠ ، ١٤٣١ ، ١٤٣٢ ، ١٤٣٣ ، ١٤٣٤ ، ١٤٣٥ ، ١٤٣٦ ، ١٤٣٧ ، ١٤٣٨ ، ١٤٣٩ ، ١٤٤٠ ، ١٤٤١ ، ١٤٤٢ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ ، ١٤٤٥ ، ١٤٤٦ ، ١٤٤٧ ، ١٤٤٨ ، ١٤٤٩ ، ١٤٥٠ ، ١٤٥١ ، ١٤٥٢ ، ١٤٥٣ ، ١٤٥٤ ، ١٤٥٥ ، ١٤٥٦ ، ١٤٥٧ ، ١٤٥٨ ، ١٤٥٩ ، ١٤٦٠ ، ١٤٦١ ، ١٤٦٢ ، ١٤٦٣ ، ١٤٦٤ ، ١٤٦٥ ، ١٤٦٦ ، ١٤٦٧ ، ١٤٦٨ ، ١٤٦٩ ، ١٤٧٠ ، ١٤٧١ ، ١٤٧٢ ، ١٤٧٣ ، ١٤٧٤ ، ١٤٧٥ ، ١٤٧٦ ، ١٤٧٧ ، ١٤٧٨ ، ١٤٧٩ ، ١٤٨٠ ، ١٤٨١ ، ١٤٨٢ ، ١٤٨٣ ، ١٤٨٤ ، ١٤٨٥ ، ١٤٨٦ ، ١٤٨٧ ، ١٤٨٨ ، ١٤٨٩ ، ١٤٩٠ ، ١٤٩١ ، ١٤٩٢ ، ١٤٩٣ ، ١٤٩٤ ، ١٤٩٥ ، ١٤٩٦ ، ١٤٩٧ ، ١٤٩٨ ، ١٤٩٩ ، ١٥٠٠ ، ١٥٠١ ، ١٥٠٢ ، ١٥٠٣ ، ١٥٠٤ ، ١٥٠٥ ، ١٥٠٦ ، ١٥٠٧ ، ١٥٠٨ ، ١٥٠٩ ، ١٥١٠ ، ١٥١١ ، ١٥١٢ ، ١٥١٣ ، ١٥١٤ ، ١٥١٥ ، ١٥١٦ ، ١٥١٧ ، ١٥١٨ ، ١٥١٩ ، ١٥٢٠ ، ١٥٢١ ، ١٥٢٢ ، ١٥٢٣ ، ١٥٢٤ ، ١٥٢٥ ، ١٥٢٦ ، ١٥٢٧ ، ١٥٢٨ ، ١٥٢٩ ، ١٥٣٠ ، ١٥٣١ ، ١٥٣٢ ، ١٥٣٣ ، ١٥٣٤ ، ١٥٣٥ ، ١٥٣٦ ، ١٥٣٧ ، ١٥٣٨ ، ١٥٣٩ ، ١٥٤٠ ، ١٥٤١ ، ١٥٤٢ ، ١٥٤٣ ، ١٥٤٤ ، ١٥٤٥ ، ١٥٤٦ ، ١٥٤٧ ، ١٥٤٨ ، ١٥٤٩ ، ١٥٥٠ ، ١٥٥١ ، ١٥٥٢ ، ١٥٥٣ ، ١٥٥٤ ، ١٥٥٥ ، ١٥٥٦ ، ١٥٥٧ ، ١٥٥٨ ، ١٥٥٩ ، ١٥٦٠ ، ١٥٦١ ، ١٥٦٢ ، ١٥٦٣ ، ١٥٦٤ ، ١٥٦٥ ، ١٥٦٦ ، ١٥٦٧ ، ١٥٦٨ ، ١٥٦٩ ، ١٥٧٠ ، ١٥٧١ ، ١٥٧٢ ، ١٥٧٣ ، ١٥٧٤ ، ١٥٧٥ ، ١٥٧٦ ، ١٥٧٧ ، ١٥٧٨ ، ١٥٧٩ ، ١٥٨٠ ، ١٥٨١ ، ١٥٨٢ ، ١٥٨٣ ، ١٥٨٤ ، ١٥٨٥ ، ١٥٨٦ ، ١٥٨٧ ، ١٥٨٨ ، ١٥٨٩ ، ١٥٩٠ ، ١٥٩١ ، ١٥٩٢ ، ١٥٩٣ ، ١٥٩٤ ، ١٥٩٥ ، ١٥٩٦ ، ١٥٩٧ ، ١٥٩٨ ، ١٥٩٩ ، ١٦٠٠ ، ١٦٠١ ، ١٦٠٢ ، ١٦٠٣ ، ١٦٠٤ ، ١٦٠٥ ، ١٦٠٦ ، ١٦٠٧ ، ١٦٠٨ ، ١٦٠٩ ، ١٦١٠ ، ١٦١١ ، ١٦١٢ ، ١٦١٣ ، ١٦١٤ ، ١٦١٥ ، ١٦١٦ ، ١٦١٧ ، ١٦١٨ ، ١٦١٩ ، ١٦٢٠ ، ١٦٢١ ، ١٦٢٢ ، ١٦٢٣ ، ١٦٢٤ ، ١٦٢٥ ، ١٦٢٦ ، ١٦٢٧ ، ١٦٢٨ ، ١٦٢٩ ، ١٦٣٠ ، ١٦٣١ ، ١٦٣٢ ، ١٦٣٣ ، ١٦٣٤ ، ١٦٣٥ ، ١٦٣٦ ، ١٦٣٧ ، ١٦٣٨ ، ١٦٣٩ ، ١٦٤٠ ، ١٦٤١ ، ١٦٤٢ ، ١٦٤٣ ، ١٦٤٤ ، ١٦٤٥ ، ١٦٤٦ ، ١٦٤٧ ، ١٦٤٨ ، ١٦٤٩ ، ١٦٥٠ ، ١٦٥١ ، ١٦٥٢ ، ١٦٥٣ ، ١٦٥٤ ، ١٦٥٥ ، ١٦٥٦ ، ١٦٥٧ ، ١٦٥٨ ، ١٦٥٩ ، ١٦٦٠ ، ١٦٦١ ، ١٦٦٢ ، ١٦٦٣ ، ١٦٦٤ ، ١٦٦٥ ، ١٦٦٦ ، ١٦٦٧ ، ١٦٦٨ ، ١٦٦٩ ، ١٦٧٠ ، ١٦٧١ ، ١٦٧٢ ، ١٦٧٣ ، ١٦٧٤ ، ١٦٧٥ ، ١٦٧٦ ، ١٦٧٧ ، ١٦٧٨ ، ١٦٧٩ ، ١٦٨٠ ، ١٦٨١ ، ١٦٨٢ ، ١٦٨٣ ، ١٦٨٤ ، ١٦٨٥ ، ١٦٨٦ ، ١٦٨٧ ، ١٦٨٨ ، ١٦٨٩ ، ١٦٩٠ ، ١٦٩١ ، ١٦٩٢ ، ١٦٩٣ ، ١٦٩٤ ، ١٦٩٥ ، ١٦٩٦ ، ١٦٩٧ ، ١٦٩٨ ، ١٦٩٩ ، ١٧٠٠ ، ١٧٠١ ، ١٧٠٢ ، ١٧٠٣ ، ١٧٠٤ ، ١٧٠٥ ، ١٧٠٦ ، ١٧٠٧ ، ١٧٠٨ ، ١٧٠٩ ، ١٧١٠ ، ١٧١١ ، ١٧١٢ ، ١٧١٣ ، ١٧١٤ ، ١٧١٥ ، ١٧١٦ ، ١٧١٧ ، ١٧١٨ ، ١٧١٩ ، ١٧٢٠ ، ١٧٢١ ، ١٧٢٢ ، ١٧٢٣ ، ١٧٢٤ ، ١٧٢٥ ، ١٧٢٦ ، ١٧٢٧ ، ١٧٢٨ ، ١٧٢٩ ، ١٧٣٠ ، ١٧٣١ ، ١٧٣٢ ، ١٧٣٣ ، ١٧٣٤ ، ١٧٣٥ ، ١٧٣٦ ، ١٧٣٧ ، ١٧٣٨ ، ١٧٣٩ ، ١٧٤٠ ، ١٧٤١ ، ١٧٤٢ ، ١٧٤٣ ، ١٧٤٤ ، ١٧٤٥ ، ١٧٤٦ ، ١٧٤٧ ، ١٧٤٨ ، ١٧٤٩ ، ١٧٥٠ ، ١٧٥١ ، ١٧٥٢ ، ١٧٥٣ ، ١٧٥٤ ، ١٧٥٥ ، ١٧٥٦ ، ١٧٥٧ ، ١٧٥٨ ، ١٧٥٩ ، ١٧٦٠ ، ١٧٦١ ، ١٧٦٢ ، ١٧٦٣ ، ١٧٦٤ ، ١٧٦٥ ، ١٧٦٦ ، ١٧٦٧ ، ١٧٦٨ ، ١٧٦٩ ، ١٧٧٠ ، ١٧٧١ ، ١٧٧٢ ، ١٧٧٣ ، ١٧٧٤ ، ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ ، ١٧٧٧ ، ١٧٧٨ ، ١٧٧٩ ، ١٧٨٠ ، ١٧٨١ ، ١٧٨٢ ، ١٧٨٣ ، ١٧٨٤ ، ١٧٨٥ ، ١٧٨٦ ، ١٧٨٧ ، ١٧٨٨ ، ١٧٨٩ ، ١٧٩٠ ، ١٧٩١ ، ١٧٩٢ ، ١٧٩٣ ، ١٧٩٤ ، ١٧٩٥ ، ١٧٩٦ ، ١٧٩٧ ، ١٧٩٨ ، ١٧٩٩ ، ١٨٠٠ ، ١٨٠١ ، ١٨٠٢ ، ١٨٠٣ ، ١٨٠٤ ، ١٨٠٥ ، ١٨٠٦ ، ١٨٠٧ ، ١٨٠٨ ، ١٨٠٩ ، ١٨١٠ ، ١٨١١ ، ١٨١٢ ، ١٨١٣ ، ١٨١٤ ، ١٨١٥ ، ١٨١٦ ، ١٨١٧ ، ١٨١٨ ، ١٨١٩ ، ١٨٢٠ ، ١٨٢١ ، ١٨٢٢ ، ١٨٢٣ ، ١٨٢٤ ، ١٨٢٥ ، ١٨٢٦ ، ١٨٢٧ ، ١٨٢٨ ، ١٨٢٩ ، ١٨٣٠ ، ١٨٣١ ، ١٨٣٢ ، ١٨٣٣ ، ١٨٣٤ ، ١٨٣٥ ، ١٨٣٦ ، ١٨٣٧ ، ١٨٣٨ ، ١٨٣٩ ، ١٨٤٠ ، ١٨٤١ ، ١٨٤٢ ، ١٨٤٣ ، ١٨٤٤ ، ١٨٤٥ ، ١٨٤٦ ، ١٨٤٧ ، ١٨٤٨ ، ١٨٤٩ ، ١٨٥٠ ، ١٨٥١ ، ١٨٥٢ ، ١٨٥٣ ، ١٨٥٤ ، ١٨٥٥ ، ١٨٥٦ ، ١٨٥٧ ، ١٨٥٨ ، ١٨٥٩ ، ١٨٦٠ ، ١٨٦١ ، ١٨٦٢ ، ١٨٦٣ ، ١٨٦٤ ، ١٨٦٥ ، ١٨٦٦ ، ١٨٦٧ ، ١٨٦٨ ، ١٨٦٩ ، ١٨٧٠ ، ١٨٧١ ، ١٨٧٢ ، ١٨٧٣ ، ١٨٧٤ ، ١٨٧٥ ، ١٨٧٦ ، ١٨٧٧ ، ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ ، ١٨٨٠ ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، ١٨٨٣ ، ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ ، ١٨٨٦ ، ١٨٨٧ ، ١٨٨٨ ، ١٨٨٩ ، ١٨٩٠ ، ١٨٩١ ، ١٨٩٢ ، ١٨٩٣ ، ١٨٩٤ ، ١٨٩٥ ، ١٨٩٦ ، ١٨٩٧ ، ١٨٩٨ ، ١٨٩٩ ، ١٩٠٠ ، ١٩٠١ ، ١٩٠٢ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٤ ، ١٩٠٥ ، ١٩٠٦ ، ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ ، ١٩٠٩ ، ١٩١٠ ، ١٩١١ ، ١٩١٢ ، ١٩١٣ ، ١٩١٤ ، ١٩١٥ ، ١٩١٦ ، ١٩١٧ ، ١٩١٨ ، ١٩١٩ ، ١٩٢٠ ، ١٩٢١ ، ١٩٢٢ ، ١٩٢٣ ، ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ ، ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ ، ١٩٣١ ، ١٩٣٢ ، ١٩٣٣ ، ١٩٣٤ ، ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ ، ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ ، ١٩٤٠ ، ١٩٤١ ، ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ ، ١٩٤٦ ، ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ ، ١٩٥٠ ، ١٩٥١ ، ١٩٥٢ ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧١ ، ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ ، ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ ، ١٩٧٩ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ ، ١٩٨٦ ، ١٩٨٧ ، ١٩٨٨ ، ١٩٨٩ ، ١٩٩٠ ، ١٩٩١ ، ١٩٩٢ ، ١٩٩٣ ، ١٩٩٤ ، ١٩٩٥ ، ١٩٩٦ ، ١٩٩٧ ، ١٩٩٨ ، ١٩٩٩ ، ٢٠٠٠ ، ٢٠٠١ ، ٢٠٠٢ ، ٢٠٠٣ ، ٢٠٠٤ ، ٢٠٠٥ ، ٢٠٠٦ ، ٢٠٠٧ ، ٢٠٠٨ ، ٢٠٠٩ ، ٢٠١٠ ، ٢٠١١ ، ٢٠١٢ ، ٢٠١٣ ، ٢٠١٤ ، ٢٠١٥ ، ٢٠١٦ ، ٢٠١٧ ، ٢٠١٨ ، ٢٠١٩ ، ٢٠٢٠ ، ٢٠٢١ ، ٢٠٢٢ ، ٢٠٢٣ ، ٢٠٢٤ ، ٢٠٢٥ ، ٢٠٢٦ ، ٢٠٢٧ ، ٢٠٢٨ ، ٢٠٢٩ ، ٢٠٣٠ ، ٢٠٣١ ، ٢٠٣٢ ، ٢٠٣٣ ، ٢٠٣٤ ، ٢٠٣٥ ، ٢٠٣٦ ، ٢٠٣٧ ، ٢٠٣٨ ، ٢٠٣٩ ، ٢٠٤٠ ، ٢٠٤١ ، ٢٠٤٢ ، ٢٠٤٣ ، ٢٠٤٤ ، ٢٠٤٥ ، ٢٠٤٦ ، ٢٠٤٧ ، ٢٠٤٨ ، ٢٠٤٩ ، ٢٠٥٠ ، ٢٠٥١ ، ٢٠٥٢ ، ٢٠٥٣ ، ٢٠٥٤ ، ٢٠٥٥ ، ٢٠٥٦ ، ٢٠٥٧ ، ٢٠٥٨ ، ٢٠٥٩ ، ٢٠٦٠ ، ٢٠٦١ ، ٢٠٦٢ ، ٢٠٦٣ ، ٢٠٦٤ ، ٢٠٦٥ ، ٢٠٦٦ ، ٢٠٦٧ ، ٢٠٦٨ ، ٢٠٦٩ ، ٢٠٧٠ ، ٢٠٧١ ، ٢٠٧٢ ، ٢٠٧٣ ، ٢٠٧٤ ، ٢٠٧٥ ، ٢٠٧٦ ، ٢٠٧٧ ، ٢٠٧٨ ، ٢٠٧٩ ، ٢٠٨٠ ، ٢٠٨١ ، ٢٠٨٢ ، ٢٠٨٣ ، ٢٠٨٤ ، ٢٠٨٥ ، ٢٠٨٦ ، ٢٠٨٧ ، ٢٠٨٨ ، ٢٠٨٩ ، ٢٠٩٠ ، ٢٠٩١ ، ٢٠٩٢ ، ٢٠٩٣ ، ٢٠٩٤ ، ٢٠٩٥ ، ٢٠٩٦ ، ٢٠٩٧ ، ٢٠٩٨ ، ٢٠٩٩ ، ٢١٠٠ ، ٢١٠١ ، ٢١٠٢ ، ٢١٠٣ ، ٢١٠٤ ، ٢١٠٥ ، ٢١٠٦ ، ٢١٠٧ ، ٢١٠٨ ، ٢١٠٩ ، ٢١١٠ ، ٢١١١ ، ٢١١٢ ، ٢١١٣ ، ٢١١٤ ، ٢١١٥ ، ٢١١٦ ، ٢١١٧ ، ٢١١٨ ، ٢١١٩ ، ٢١٢٠ ، ٢١٢١ ، ٢١٢٢ ، ٢١٢٣ ، ٢١٢٤ ، ٢١٢٥ ، ٢١٢٦ ، ٢١٢٧ ، ٢١٢٨ ، ٢١٢٩ ، ٢١٣٠ ، ٢١٣١ ، ٢١٣٢ ، ٢١٣٣ ، ٢١٣٤ ، ٢١٣٥ ، ٢

فالاله عنده « عقل مفارق للمادة » أو « صورة خالصة » (١) . ولما كان أرسطو يقول بيهيولي
أولى أذلية « ويصور » أذلية أيضا وبأن المادة تحركت من نفسها عن شوق الى المحرك الأول ونزوع
نحو الوجود الكامل، فإن الاله عنده لا يمكن أن يكون خالقا لشيء ، وهو لما كان لا يعلم الأشياء فانه
لا يمكن أن يكون له في العالم تدبير ولا مناية .

ويؤخذ من كلام لأرسطو (٢) أن المحرك الأول موضع تقديس ومعبادة ، لكن كيف يتسنى
ذلك ، وهو لا يعلم من أمر الانسان شيئا ، هذا الانسان الذي تصدر أفعاله عن عقل وضمير وقدره
وأختيار فلا بد له من اله يعلم نواياه ويقدرها ويجازيه عليها .

الحق أنه يخيل للانسان أن أرسطو تصور شخصا روحانيا كاملا ورفعته الى مرتبة
الالهية (٣) ، لكنه جرده من الصفات التي تجب لاله الحق كالقدرة والارادة والعالم ... الخ .
وكان قصده بذلك أن ينزه الاله عن العلم بالأشياء التي دونه أو بالأشياء المتغيرة ، فجعله جاهلا
بكل شيء .

فإذا كان أفلاطون ، نظرا لقوله باله يعنى بالعالم وبالانسان ، قد يعتبر مؤسسا للذهب في
التأليه يتضمن هذه المعاني وهو ما سمي Philosophical Theism ، فان تلميذه أرسطو ، نظرا
لقوله باله هو مجرد علة ، ولا شأن له بالعالم وما فيه ، يعتبر مؤسسا للذهب في التأليه يشتمل
على هذه الأفكار ، وهو ما سمي Philosophical Deism

على أن تصور كل من أفلاطون وأرسطو لاله لا يعدو القول بأنه موجود أو علة مؤثرة على نحو
ما ، وهما لا يتفردان الاله بتمييز خاص به ، لا من حيث الماهية والحقيقة ولا من حيث الوجود
الأزلي الأبدى الذي يليق بالوجود المنزه عن مشابهة غيره من الموجودات . وتصورها لاله
لا يفسر هذا العالم تفسيراً كاملاً ، لا من حيث أحواله وأظهاره الى الوجود ولا من حيث تحليل ما
فيه من صنع بدعي ونظام محكم ، ولا من حيث الغاية من ظهوره ، وخصوصا ظهور الانسان .

ومن تصورات الالهية التي يمكن أن نذكر عن العصر القديم تصور الفلاسفة الرواقيين (٤)
Stoics ، لأن له صفة خاصة .

عند الرواقيين أن العالم كل كبير منظم مرتبط الاجزاء ، وهو كائن حي كبير خاضع لقوانين،
فيه غائية شاملة وحتمية أو ضرورة (ananke) شاملة أيضا ، فلا محل فيه لما يسمى الصدفة .
وهناك أيضا قدر لا مفر منه heimarmene

(١) المقصود بالصورة الموجود الامتدادي ،

(٢) Ethica Eudemea ١٢٤٩ ، ٢٠

(٣) يقول تيلور أن تصور أرسطو لاله هو « ما يتمنى أرسطو أن يكونه لو أن ظروف الحياة الانسانية تسمح
بذلك ، وهو أن يكون مجرد مفكر علمي متعز في نفسه : ولا صلة له بالطبيعة »

(٤) مؤسس المدرسة الرواقية زينون Zenon (بين ٣٨٥ و ٣٠٠ ق م تقريبا) ، وكان تلميذه وخليفته هو
كليانتيوس Cleanthes صاحب الاشادة المشهورة في التوحيد والموجهة الى زيوس ، وخلفه كريسبيوس
Chrysippos الذي كان مؤلفا كبيرا وقد عاشت المدرسة الرواقية الى ما بعد الميلاد بقرون .

وعلة هذا المالم عقل logos كلى ، هو الإله ، وهو سار immanent في الكون ، كالبدرة التي تفتح وتصير شجرة logos spermaticos ، وهذا العقل الكلى يشمل جملة القوى البذرية logoi spermaticoi التي تنفرع منه ، ولكل منها خاصة تجعل للمادة التي تسرى فيها كيفية معينة .

وكل شيء مظهر للاله ، وفيه المبدأ الإلهي والعقلي ، والإله ليس مجرد القوة التي تبعث الحياة بل هو عقل الكل logos tou pantos ، هو العناية الشاملة ، وهو حكيم كامل ، وهو أساس القانون الطبيعي الذي يأمر بالخير وينهى عن الشر ، هو يثيب ويعاقب ، هو كائن حى سعيد الخ .

ويعرف الرواقيون الإله بأنه « نار صائمة تسير بنظام نحو تكوين العالم محتوية في ذاتها على كل القوى البذرية التي يحسبها تظهر الأشياء على نظام الضرورة » (١) .

لكن الرواقيين يقولون أن كل موجود لا بد أن يكون ماديا جسمانيا ، ويؤيدون رأيهم هذا بأن يزعموا أن ما ليس ماديا لا يمكن أن يفعل ولا أن يتفعل . وعلى هذا لا بد أن يكون المبدأ الإلهي في نظهم ذا طبيعة مادية ، وإن كانت بالضرورة طبيعة مادية لطيفة إذا قورنت بالطبيعة المادية الكثيفة .

إن مذهب الرواقيين عبارة عن قول بوحدة وجود يسرى فيها المبدأ الإلهي Pantheism فالإله ليس منفصلا عن العالم المادى ، كما هو منفصل عنه في مذهب أرسطو أو أفلاطون ، بل نسبة الإله إلى العالم المادى كنسبة القوة إلى مظهرها ، أو كنسبة الفاعل إلى محل فعله ، أو كنسبة الروح إلى الجسد ، لكن من غير فصل بين الطرفين . فالعالم إذا نظرنا إليه من جهة القوة الفاعلة الثابتة فهو الإله وإذا نظرنا إليه من جهة القوة المنفصلة الثابتة فهو المادة .

فها هنا مثال من تصور الإلهية ومن الواضح أنه تفسير للكون رغم ذكر اسم الإله أو المبدأ الإلهي . ويخيل للمتفكر في مثل هذه التصورات أن الإله قوة ما مؤثرة في الأشياء .

نعم إن الإله بحسب التصور الصحيح ، موجود قادر فعال ، لكنه لا يدخل في تركيب العالم ولا يتقيد به ولا ينحصر فيه ، وما ذلك إلا لأن العالم أثر وفعل ، فله فاعل . لكن الفاعل أكبر من فعله ومغاير له من كل وجه ، ولولا ذلك لما كان فاعلا له . وكل زعم بأن المبدأ الفاعل في الكون متفرق فيه وأنه أجزاء سارية في الأشياء ، زعم لا يرتفع إلى مرتبة التفكير الفلسفي ، لأنه يفضي إلى استحالة تفسير العالم تفسيراً حقيقياً . هذا إلى ما فيه من خلط بين العلة والمعلول أو بين الفاعل وفعله .

وإذا لاحظنا أن الرواقيين يتصورون أن العالم كائن حى له عقل وجسد ، وأن كل شيء في العالم ممثل للكل ، وأن الإله أشبه بوعاء شامل لآلهة مثله ، أو بوعاء كل شيء يخرج منه ويرجع إليه ، استطعنا أن نقطع بأن تصور هؤلاء الفلاسفة للعالم وموجده لا يتجاوز القياس على ما نشاهده من أحوال الإنسان ، ولا يتجاوز التصور الحسى .

والحق أن الرواقيين كانوا يتصورون الكون عالماً كبيراً Macrocosm وذلك في مقابل الإنسان الذى هو العالم الصغير Microcosm . ونفس الإنسان تشبه في ماهيتها العقل الكلى وجسده يشبه جسم الكون .

أما دليل الرواقين على وجود الله فهو ليس دليلاً من النوع الذي تقدم ذكره . وهو يمكن أن يفهم في ضوء نظرهم إلى الأفكار والآراء السائدة بين الناس .

فمن هذه الآراء ما يكون خاصاً بأفراد أو بجماعات معينة ، فهي نتيجة لظروف فردية أو ثقافية أو اجتماعية خاصة .

ومنهما ما يكون ذائعاً مشتركاً بين الناس على اختلاف البيئات والظروف والأحوال ، كان المقول السليمة أجمعت عليها . وهذا الذي يعل على أنها صادقة .

هذه هي نظرية « إجماع الأمم » Consensus Gentium التي بنى عليها الرواقيون دليلهم على وجود الله .

فبما أن جميع الأمم تؤمن بوجود آلهة أو إله يدبر الكون ويعنى بالإنسسان ، فلا بد أن يكون هذا الإيمان صحيحاً لأن المقول انتهت إليه .

ومن الواضح أن هذا ليس دليلاً بالمعنى الدقيق ، وإن كان يشير إلى اقتناع أصيل في نفس الإنسان بوجود خالق مدبر وهو ربما كان ناشئاً عن تفكير باطن مبهم وغير مفصل .



ومن تصورات الآلهية ذلك التصور الذي نشأ عند أصحاب الأفلاطونية المحدثة (Neoplatonism) التي يرجع تأسيسها إلى أفلوطين (ت. ٢٧٠م)

الإله في هذه الفلسفة هو المبدأ الأول المتعالي عن ملايسة المادة ، السابق لكل شيء ، والذي صدر منه كل شيء ، وهو فوق كل المفاهيم حتى مفهوم الوجود والخير والجهوهر .

وعلاقته بالعالم هي أنه علة للعالم لا بمعنى أنه سابق على العالم بالزمان ، بل بمعنى أن العالم صدور أو فيض (Emanation) أقل كمالاً من المبدأ وأن معنى صدور الأشياء عن الإله ، أو « الواحد » أو « الأول » كما يعبرون ، هو أنها تستند في وجودها إليه ، وإن كانت مظاهر متدرجة للكمال الذي لا يزال يتناقص كلما نزلنا في المراتب .

والأشياء تفيض من الأول لأنه خير ، وأول المراتب عقل nous وتفيض عن العقل نفس ، والأجسام التي نشاهدها في العالم هي صور Images أو مظاهر Appearances أو ظلال للنفس ، وأخيراً تأتي المادة الأولى prote hyle التي هي « ظل الظل » .

وهذه الأشياء الصادرة عن الأول ترجع نحوه بالتأمل وتنزع إلى الاتحاد به لأنه خير . فالنفس تعرف ذاتها بتأملها للعقل ، والعقل يعرف ذاته بتأمله للأول .

وهكذا تكون الموجودات كلها وحدة تصدر عن الواحد وتستند إليه وتتأمله ، والأول هو الشامل لها .

هذا تصور للكون وعلمته ، ولا شك أنه تفسير للكون لا يستند الى مبادئ عقلية يستنبط منها ، ولا هو نتيجة لنظر غلى في هذا العالم . ويمكن القول انه خيال فلسفي جاء نتيجة لنزعات صوفية . ولا توجد مقدمة عقلية او حسية واحدة يمكن ان تستند اليها قضية واحدة مما يقوله القوم .

وان كل كلام عن الاله وعن أدلة وجوده يجب ان يبدأ من النظر في هذا العالم المائل امامنا ، في ضوء الحس والعقل . وكل بداية أخرى ، مثل الاستدلال من المفهومات او المعاني الذهنية ، فانه يمكن إثارة الاشكالات عليها ، كما سنرى .



كان للفكر اليوناني ، ممثلا في المذاهب التي تقدم ذكرها ، تأثيره وصداه في الآراء التي ظهرت بعد ذلك .

وكان ظهور المسيحية واختلاط عناصر من الفلسفة بتصورات علماء العقائد والمفكرين المسيحيين مجالا لظهور آراء في الالهية ، لا نمرض لها هنا ، ولحاولات للبرهنة على وجود الله .

وأول كلام له وزن فيما يتعلق بالبات وجود الله هو ما تجده عند القديس أوغسطين St Augustin (ت ٤٣٠ م) .

وهو يستدل على وجود الله من النظر في هذا العالم المحسوس الذي يدل تغيره على أنه مخلوق ، ويدل نظامه البديع على أنه مصنوع (١) .

غير أن أوغسطين يذكر الى جانب هذا الاستدلال المستند الى الحس والعقل دليلا يصدر فيه عن نزعات أفلاطونية - أفلوطينية . وهو يبنى دليله على يقيننا بالقضايا البديهية الرياضية والمنطقية والقضايا التي يوجيها العقل والضمير ، مثل وجوب طلب الحكمة والامتثال للفضائل من العدل والشجاعة والعفة .

ويقول ان هذه القضايا يقينية في ذاتها ، وهي ليست من صنع عقلنا ، لانها قانون ثابت لا يتغير يحكم عقلنا وبعلم عليه ، فلا بد أن تكون تلك القضايا موجودة في شيء يكون هو الحق المطلق ، وهو الاله .

وقد يكون هناك وجه لما يذهب اليه أوغسطين من أنه ، اذا كانت هناك حقائق وقيم متنوعة ، فلا بد أن تسيطر هذه الحقائق والقيم الى حق مطلق يكون هو المعيار الثابت لكل الحقائق والقيم وهو الاله (٢) .

لكن هذا الدليل غير محكم وهو لا يؤدي الى مفهوم واضح وكامل للالهية ، وخصوصا ان أوغسطين سار مع تصورات خيالية مثل قوله : ان مثل الأشياء ونماذجها التي قال بها أفلاطون

(١) للقديس أوغسطين كلمات في ذلك ، ذكرها يوسف كرم في كتابه « تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط » القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٠ هـ ٢٢ .

Messer (A.) : Geschichte der Philosophie, I, p. 114 — 115, Leipzig, 1930 (٢)

موجودة في العقل الالهي ، واعتبرها نماذج معقولة يخلق الاله الأشياء على مثالها وطاقت روحانية نورانية تشرق في النفس الإنسانية وتساعد على إدراك أصول الماهيات والحقائق .

على أن أوغسطين يرى أن ذات الاله لا يمكن إدراكها بالمفاهيم الإنسانية ، فهو « يعرف بأنه لا يعرف » . وهو قد خلق الأشياء عن لاشيء بفعل ارادى حر . ومعنى هذا أنه يرفض ما ذهب إليه أفلاطون وأرسطو من وجود هيولى قديمة الى جانب علة العالم ويرفض القول بالصدور Emanation على ما هو معروف في الأفلاطونية المحدثة Neoplatonism



على يد القديس آنسلم Anselm رئيس أساقفة كانتربري (ت ١١٠٩ م) ، والذي كان معاصرا للقرالى (ت ١١١١ هـ - ١١١١ م) نجد تحولاً في طريقة البت وجود الاله .

فمع أنه في كتابه الذى عنوانه Monologion يحاول اثبات وجود الاله مستندا الى فكرة أفلاطونية هي القول بتفاوت الأشياء في الوجود والخير والكمال وبأن الأشياء المتفاوتة في الكمال تستمد وجودها من مشاركتها في مبدأ واحد هو أعلى منها ، وهو الاله ، فإنه يريد اثبات وجود الاله على أساس استنباطي . وفكرة الألوهية هنا هي التى يقدمها لنا الوحى .

فهو في كتابه بعنوان Proslogion (١) يشير الى أن « الجاهل يقول في قلبه : ليس اله » (٢) ويبين أن هذا الجاهل الذى يتكر وجود الاله قد لا يعقل التصود من هذه الكلمة ، ولذلك يوضحها آنسلم بأنها تدل على « الشيء الذى لا يمكن تصور شيء أعظم منه » (quo maius cogitari nequit)

فان كان الجاهل المنكر لوجود الاله لا يعقل معنى الألوهية ، فهو لا بد يدرك معنى « الشيء الذى لا يمكن تصور شيء أعظم منه » . فإذا كان يدرك هذا المعنى ، فإنه لا يمكن أن يتكر وجود الاله . والدليل الذى يقدمه آنسلم على هذا النحو :

نحن نتصور ونعقل وجود كائن لا يمكن تصور ما هو أعظم منه . لكن هذا الكائن لا يمكن أن يكون في الدهن in intellectu فقط ، لأنه ان كان كذلك فنحن نستطيع أن نتصوره موجودا في الحقيقة in re ، أى خارج الدهن . وهو في هذه الحالة يكون أعظم .

وإذن ، فلو كان الكائن الذى لا أعظم منه موجودا في الدهن فقط فكأننا نقول : ما لا يتصور أعظم منه يمكن أن يتصور أعظم منه ، وهذا تناقض .

وعلى هذا فالكائن الذى لا أعظم منه لا بد أن يكون موجودا في الدهن كمفهوم وخارج الدهن كشيء حقيقي موجود بالفعل .

- هذه هي صورة الدليل المسمى : « الدليل الانطولوجي » أو « الدليل الوجودى » (Ontological Argument) الذى صار مشهورا منذ أيام آنسلم والذي يقوم على :

١ - تحديد تعريف للألوهية ، وهو تعريف مبهم ، بصرف النظر عن تشكك بعض العلماء (١) في أن يكون له معنى ، لأنه يشبه قول القائل مثلاً : « عدد لا يمكن أن يتصور عدد أكبر منه » . فهل مثل هذا العدد موجود في الدهن ؟ كذلك الحال بالنسبة لمفهوم الشيء الذي لا يمكن تصور ما هو أعظم منه .

٢ - القول بأن الوجود الذهني وجود ما ، لكنه أدنى من الوجود المتعين خارج الدهن .

٣ - إمكان الاستدلال من الوجود الذهني على الوجود الخارجي أو من تصور شيء على وجوده بالفعل ، وهذا ما كان موضع اعتراض منذ أيام آتسلم نفسه .

فقد نقده مفكر معاصر له هو جاونيلسون Gaunilon (٢) على أساس أن تصور الشيء أو القضية لا يدل على أن الشيء موجود بالفعل أو على أن الحكم الذي تتضمنه القضية حكم صحيح ، وعلى أساس أن الاستدلال من الوجود الذهني ، وهو وجود متصور ، على الوجود بالفعل ، وهو وجود متحقق ، غير جائز ، كما أنه لا يجوز مثلاً الاستدلال من تصور جزيرة سعيدة في وسط المحيط مملوءة بالثروات على وجودها بالفعل .

وقد حاول جاونيلون أن يضع تعريفاً آخر لمفهوم الإله ، وهو أنه : الكائن الذي هو أكبر من كل ما يمكن تصوره ، ويجد أنه حتى هذا التعريف لا ينتج شيئاً إلا إذا أبتنا أولاً أن مقابلته موجود بالفعل ، فاما استنتاج واقع من فرض فهو غير جائز .

وقد وضع دانس سكوتوس John Duns Scotus المفكر الانجليزي (ت ١٣٠٨) (٣) صيغة أخرى لتعريف الإله ، وهي أنه : « الشيء الذي يمكن تصوره بدون تناقض ، لكن لا يمكن تصور ما هو أعظم منه إلا مع الوقوع في التناقض » .

لكن هذا كله لا يقدم الاستدلال في شيء .

على أن آتسلم رد على جاونيلون بأن الانتقال من الوجود الذهني إلى الوجود الحقيقي لا يجوز إلا فيما يتعلق بالكائن الذي لا يمكن أن يكون هناك أعظم منه . فتصور جزيرة سعيدة لا يتضمن ضرورة داخلية لوجودها ، على حين أن فكرة الألوهية لها وحدها خاصة أننا لا يمكن أن نتصور أن مداها غير موجود .

لكن هذا الرد غير مقنع ، لأنه لا يمكن الانتهاء إلى أنه يستحيل تصور أن الإله غير موجود إلا على أساس آخر مثل أن يقوم الدليل العقلي على وجوده بالاستناد إلى النظر في هذا العالم أو نحو ذلك .

وظل « الدليل الوجودي » موضع خلاف بين الفلاسفة ، فمنهم من قبله ومنهم من رفضه .

فقد رفضه أكبر علماء العقائد في العصور الوسطى ، وهو القديس توماس الأكويني Thomas Aquinas (ت ١٢٧٤) ، معتبراً أنه مسفطة .

(١) مثل تيلور Taylor في H.R.E. مجلد ص ٢٦٨ ع ٢٤

(٢) في رسالة له بعنوان Liber pro insipiente = كتاب اللغاف من الجاهل

(٣) راجع E.R.E. ، مجلد ص ١٢٧ ع ١٤

وكان توماس يرى ، كما رأى متكلمو الاسلام قبله (١) بوجه عام ، أن المعرفة بالله ليست بديهية ، أو « ضرورية » كما يقولون ، يقصدون أن العقل لا يمكنه انكارها .

وهو يقول أننا في هذه الحجة ، لا نذكر الحقيقة الإلهية . ويرد على آتسلم بأن يذكر أنه ليس من الواضح أمام عقلنا ذلك « الشيء الذي لا يتصور ما هو أعظم منه » وأن كل ما يمكن أن نستنتجه من هذه العبارة هو أنه لا تناقض في تصور ما تدل عليه .

والهم أن توماس يرفض الأدلة الأولية أو البديهية *a priori* أو : القبلية ، كما يعبر بعض المحدثين ، يقصدون أنها لا تعتمد على « التجربة » ، بمعنى الاستدلال من شيء ندرسه بحواسنا .

وهو يذكر (٢) خمس طرق لاليات وجود الله ، على أساس التجربة .

١ - طريق الاستدلال بالحركة Motion المشاهدة في هذا العالم . واستدلالة لا يخرج عن استدلال أرسطو الذي تقدم ذكره .

٢ - طريق الاستدلال بالعلّة الفاعلة Efficient Cause

فنحن نلاحظ فيما حولنا عللا فاعلة ، لكننا لا نلاحظ أن شيئا منها يحدث ذاته ، بل له علّة . ولا يمكن الارتفاع في سلسلة الملل الفاعلة الى ما لا نهاية بل لا بد من الانتهاء الى علّة أولى ولا فاته لا يوجد شيء ، لأن كل علّة فاعلة سابقة هي علّة لما يليها ، فلا بد من الانتهاء الى علّة فاعلة لا علّة لها ، وهي الإله .

٣ - طريق الاستدلال بمفهوم الممكن والواجب :

نحن نرى أشياء تحدث وتزول ، فهي يجوز أن تكون موجودة ، ويجوز ألا تكون موجودة ، ولا يمكن أن تكون موجودة دائما .

فلو كان كل شيء موجود يمكن أن لا يكون ، لكان هناك وقت فيه لم يكن شيء موجودا . ولو كان هذا صحيحا لما كان هناك شيء الآن ، لأن ما ليس موجودا لا يصير موجودا إلا بفعل شيء موجود .

وعلى هذا لا تكون الأشياء كلها مجرد «ممكنات» ، بل لا بد أن يكون بينها شيء « واجب » . وهذا الواجب إما أن يكون وجوده راجعا الى غيره أو لا يكون .

فإن كان راجعا الى غيره فإن هذا لا يمكن أن يتسلسل ، بل لا بد من الانتهاء الى واجب بذاته *Per se* ، وجوده لا يرجع الى غيره ، وهو علّة كل ما عداه ، وهو الإله .

(١) - طريق الاستدلال من ملاحظة تفاوت الأشياء في صفات الحق والخير والشرف ونحوها . فهذا التفاوت معناه أن الأشياء تتفاوت في قربها من شيء له هذه الصفات على أعظم ما تكون .

وأذن فهناك شيء هو الأعظم حقا وخيرا وشرفا والأعظم وجودا *Maxime ens* ، لأن الأعظم من حيث هو حق هو الأعظم من حيث هو موجود .

(١) هو قد عرف ملابهم وتأثر بها من جوه شتى - راجع بحثنا فيما للمستشرق والراهب الإسباني آسبن بالايوس Asin Palacios, Un aspecto inexplorado de los orígenes de la teología escolástica, Bibliothèque Thomiste, II, 1930

(٢) في كتابه Summa theologica ، القسم الأول المسألة الثانية ، فقرة ٣ .

وهنا يشير توماس إلى قول أرسطو في الكتاب الثاني من « ما بعد الطبيعة » (١٢٣ ب ٢٧ - ٣٠) .

« أن ما هو حق على الوجه الأعظم هو علة الحق في الأشياء الأخرى التي هي حق ويكون للشيء من الوجود بقدر ما يكون له من الحق »
ثم يقول :

« أن ما يوصف في جنس من جنس الأشياء بأن له صفة على أعظم ما تكون هو علة كل الأشياء التي من ذلك الجنس وأذن يوجد موجود هو بالنسبة لكل الأشياء علة وجودها وخيرها وكما لها ، وهو الذي نسميه الإله » .

٥ - طريق الاستدلال من « تدبير الأشياء » (ex gubernatione rerum) ، أى من ملاحظة أن الأشياء الجمادية التي لا عقل لها تعمل متمشية مع غاية ، بدليل أنها تعمل على نحو واحد ، بحيث تحقق ما هو أحسن ، ومن هذا ينتج أنها تحقق غايتها ، لا على سبيل المصادفة بل على سبيل القصد . لكن الكائنات التي لا عقل إنما تحقق غاية إذا كان لها مدبر عاقل (١) .

وأذن ، يوجد موجود عاقل رب الأشياء الطبيعية نحو غاية ، وهذا هو الذي نسميه الإله . ونلاحظ أن من أدلة توماس ما يرجع إلى أرسطو أو افلاطون ، ومنها ما يقوم على تحليل الحدوث الظاهر في الطبيعة ، سواء من حيث ضرورة وجود علة فاعلة أولى أو واجب وجود . وأدلتها بوجه عام كما لاحظ تيلور بحق (٢) ، تستند إلى مبدأ العلية ومبدأ استحالة التسلسل في العلل وضرورة الانتهاء إلى علة أولى ، وهما مبدأان يؤيدهما العقل .

لكن بعض استدلاله لا يقوم على ضرورة عقلية ، مثل قوله بأن « ما يوصف في جنس من جنس الأشياء بأن له صفة على أعظم ما تكون هو علة كل الأشياء التي من هذا الجنس ... الخ »

فالنسبة لا تلزم من المقدمة ، لأنه يجوز أن تكون تلك الأشياء كلها معلولة بعلة خارجية من الجنس ومخالفة لكل ما فيه . وهذا موجود في عالم المادة وعالم الحياة ، فالأشياء تتفاوت في صفاتها ، وبعضها له من الصفة المشتركة أعظم نصيب ، ولكنها كلها معلولة .

والإله الحق ليس مجرد كائن يشارك الموجودات في صفة ، ثم كل ما في الأمر أنه أعظمها حظاً من تلك الصفة ، بل أن ذاته مخالفة للأشياء ، وصفاته مخالفة لصفات الأشياء ، رغم الاشتراك في التسمية ، وإلا فأنه لا يمكن أن يكون موجداً لها .



ثم جاء أبو الفلسفة الحديثة في ناحيتها النظرية ، وهو الفيلسوف الفرنسي ديكارت René Descartes (ت ١٦٥٠ م) بأدلتها لاثبات وجود الله .

ومن هذه الأدلة ما يرتبط بالتراث السابق ، مثل الدليل المزدوج الذي يستند إلى وجود فكرة في عقلنا عن كائن لا نهاية لكماله ، وهو الإله . وهذه الفكرة يستنتجها ديكارت استنتاجاً منطقياً من إدراكه لنفسه أنه كائن محدود غير كامل .

(١) يشبه هذا الدليل ابن رشد - راجع ما يلي ص ١٦٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٢٧ .

وهو بعد أن يقول ان مفهوم « اللامتناهي » Infini في ذهننا ليس مجرد نفى Négation لمفهوم « النهائي » Fini ، بل هو متقدم في الدهن على « المتناهي » - يقول :

« كيف كان يمكن أن يتسنى لي أن أشك أو أرغب في شيء ، أعني أن ينقصني شيء وإن اكون غير كامل ، لو لم يكن في عقلي فكرة من كائن أكمل مني ، بالقياس اليه اعرف نقائص طبيعتي ! » (١)

ويؤكد ديكارت أن فكرة الكائن الذي لانهائية لكماله لا ترجع في وجودها اليه ، لانه غير كامل وهي ليست مكتسبة من الأشياء التي يعرفها ، لانها كلها محدودة وغير كاملة ، ولا هي مصنوعة بتوهم الكمالات التي يعرفها وتكبيرها ، لأن ذلك لا يعطينا فكرة اللامتناهي ، فلا يمكن أن يكون مصدرا الا الكائن الكامل ذاته .

وعلى هذا الاساس يضع ديكارت لآليات وجود الله دليلا يمكن اجماله على هذا النحو :

في عقلي فكرة من كائن كامل لا نهاية لكماله ، وبما اني لا يمكن أن اكون أنا الذي اوجدتها في عقلي ، ولا هي ترجع الى الأشياء ، ولا هي من وضع قوة التخيل ، فانه لا يمكن أن يكون الذي اوجدناه الا الكائن الكامل الذي اوجدني . يقول ديكارت (٢) .

« لا شك انه لا ينبغي استغراب أن يكون الإله ، اذ خلقني ، وضع في عقلي هذه الفكرة لتكون « ماركة » (طابع) (Marque) الصانع على ما صنع . وليس من الضروري أن يكون هذا الطابع مناييرا للصنع ذاته : بل انه بمقتضى أن الله خلقني فمن المقبول جدا انه خلقني بوجه ما على صورته وشبهه وانني أدرك هذه المشابهة (التي تتضمن فكرة الالهية) بنفس الملكة التي أدرك بها ذاتي ... وكل قوة الدليل الذي اصطنعه هنا لاثبات وجود الله تتلخص في أني أدرك انه يستحيل أن يكون طبيعتي ما هي عليه ، أي أن تكون في عقلي فكرة وجود الله ، لو لم يكن الإله موجودا حقيقة ، هذا الإله ذاته الذي فكرته في عقلي ، أعني الذي له كل هذه الكمالات العالية التي يستطيع عقلا أن تكون لديه فكرة عنها ، لكن من غير أن يحيط بها جميعا » .

ويحدد ديكارت مفهوم الإله بأنه « جوهر لانهاية له ، أزلي أبدي ، لا يتغير ، قائم بذاته عليه بكل شيء ، قادر على كل شيء ، هو الذي خلقني وخلق الأشياء الوجود كلها » (١) .

وهو يقول أن فكرة الإله ، أو الكائن الذي لا نهاية لكماله ، واضحة متميزة ، أوضح من فكرة الجوهر Substance بل هي أوضح فكرة في ذهنه وفيها من الحقيقة الموضوعية réalité objective أكثر مما في أية فكرة أخرى .

ويستطيع الانسان أن يلاحظ عند ديكارت في « تأملاته » نزعة صوفية نحو التأمل الباطن . وكلامه عن ادراكه لذاته وادراكه لتفكيره لولما في عقله من انكار ، وكلامه خصوصا عن فكرة الالهية وأنه يدركها ادراكا فريدا ، وقوله انها مقرونة بالقطرة ذاتها ، يؤكد هذه النزعة الصوفية ويدعو الى ربطها ليس فقط بالنزعات الصوفية التي عرفها في الافلاطونية المحدثة او نحوها بل بنزعات صوفية أخرى لا شك أنه عرفها في أثناء عزله في هولنده .

وهناك شبه بين كلامه عن فكرة الالهية المطبوعة في عقله وبين آراء مفكرين اسلاميين قالوا بان المعرفة بالله نظرية في كل روح انسانية ، لكن بين الرأيين فرقا كما سيبين فيما يلي .

(١) Meditations de prima philosophia باديس ١٩٦٧ (Vrin) ص ٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٠ - ٤١

مهما يكن من شيء فإن ديكارت يبني على فكرة الكائن الكامل التي يجدها في عقله دليله الآخر لاثبات وجود الله ، وهو صورة من « الدليل الأنطولوجي » المعروف منذ أيام القديس آرسلم . ودليل ديكارت هذا موجود في أكثر من كتاب من كتبه (٧) . ويمكن تلخيصه بنقطة الاختصار على هذا النحو :
الإله ، كما نتقلم مفهومه ، كامل من كل وجه .

وبما أن الوجود بالفعل كمال ،
فالإله الكامل لا بد أن يكون موجودا بالفعل .
وبعد ديكارت إن فكرة الإله الكامل تتضمن وجوده بالفعل ، كما أن فكرة المثلث المستقيم المضلع تتضمن أن مجموع زواياه يساوى قائمتين .

ويفرق ديكارت بين استنباط وجود الكائن الكامل بالفعل من مفهومه في عقلنا وبين استنباط وجود شيء نتخيله من مجرد تخيلنا له بأن فكرة الكائن الكامل تتضمن منطقيا ضرورة الوجود على حين أن أفكارنا المتخيلة لا تتضمن سوى إمكان الوجود (٨) .

ويبدو كأننا المعرفة بوجود الله أو حكمنا بأنه موجود ، في نظر ديكارت ، عبارة عن قضية تحليلية ، أعنى أننا عندما نحال مفهوم الألوهية ، وهو يتضمن عنده كل صفات الكمال ، فإننا نعرف أنه لا بد أن يكون موجودا .

والحقيقة أنه لو كان مفهوم الألوهية مرادفا لمفهوم الموجود باطلاق معناه لكان القول : الإله موجود ، قضية تحليلية يخرج محمولها من تحليل موضوعها ، ولا يستطيع أحد عند ذلك أن يقول إن الوجود غير موجود .

لكن مفهوم الألوهية ، من حيث الدلات والمصفات ، أكثر من مفهوم مجرد الوجود .
ويمكن أن يوجه على دليل ديكارت ما وجه على دليل آرسلم من اعتراضات .
ويمكن أيضا إثارة اشكالات أخرى :

ليقول ديكارت مثلا أنه بإدراكه لذاته كجوهر يجد أساسا لإدراك جوهر لا نهاية له ، لا يعتبره تبدل ولا تغير ، قادر على كل شيء عليم بكل شيء لكنه يقول إن عقله محدود . فكيف يمكنه إدراك الجوهر الذي لا نهاية له ؟ .

وأيضا يمكن للإنسان أن يقبل أن تكون فكرة « اللامتناهي » أو فكرة « الكائن الكامل » ، في ذهننا مقابلا منطقيا لإدراكنا لتناهي ذاتنا أو تناهي الأشياء أو لكوننا غير كاملين . لكن هذا التقابل المنطقي لا يعطينا فكرة « اللامتناهي » ولا يعطينا مفهوم « الإله الكامل » ، كما يتحدث منه ديكارت ، إلا إذا كنا قد أخذناه من مصدر آخر كالتراث الديني . وهل يمكن أن يدعى عقل محدود أنه يدرك اللامتناهي إدراكا حقيقيا ؟؟

ولا يمكن على أي حال دعوى امتراض من يقول إن المقابل المنطقي : « اللامتناهي » ، الذي يتكلم عنه ديكارت ، هو من صنع الخيال .

(٢) في التاملات ، التامل الخامس ص ٦٤ فما بعدها وفي كتاب : Principes de la Philosophie .
فقرة ١٤ (باختصار) .

(٣) في ظل ديكارت إن معنية الإله Essence هي عين وجوده Existence (التاملات ص ٦٦) وهذا من أسس دليله . أما بالنسبة لا سوى الإله فلاهية غير الوجود .

على أنه يمكن القبول أن الذي أوجدنا وجعلنا كائنات محدودة غير كاملة أراد بذلك أن يدلنا على وجوده استدلالاً ، لأن المحدود أَوْفَرُ الكمال لا يمكن أن يوجد ذاته ، فلا بد له بحكم النقل من موجد مخالف له .

إن هذا التفكير موجود عند ديكرت ، وهو من أدلته على وجود الله إلى جانب أدلة أخرى مثل : أن مجرد بقائنا في الوجود يدل على وجود الله . وذلك أن وجودنا يدخل في الزمان ، والزمان أجزاء منفصلة ، بعضها مستقل عن بعض ، ووجودنا في أية لحظة لا يقتضي وجودنا في اللحظة التالية ، فلا بد من أن الذي أوجدنا ، وأوجد الأشياء ، يحفظ وجودنا ووجودها . وهكذا يدل مجرد استمرارنا في الوجود على وجود الله (١) .



إن أدلة وجود الله عند ديكرت تسير في تيار الأدلة النظرية الاستنباطية ، وربما كانت عسيرة الفهم أو القبول بسبب اعتمادها على مفهومات مجردة يمكن إثارة الإشكالات حولها بأنها خياليات من جهة كما يمكن من جهة أخرى التشكك في سلامة الاستنتاج منها .

وعلى يد الفيلسوف الإنجليزي جون لوك John Locke (ت ١٧٠٤) تأخذ المشكلة صورة أقرب إلى التفكير الطبيعي البعيد عن التعقيد ، فهو في الكتاب الرابع من كتابه الكبير : « بحث عن العقل الإنساني » (An Essay Concerning Human Understanding) يعقد فصلاً (العاشر من الكتاب الرابع) عنوانه « معرفتنا بوجود الله » . وهو فصل طريف يبتدئه بما يدل على روح فلسفته وطريقته في التفكير ، يقول لوك :

« أنه وإن كان لم يعطنا أفكاراً فطرية Innate ideas عن ذاته ، ولم يطبع حروفاً أصلية في عقولنا نستطيع بها أن نقرأ وجوده ، فإنه بما أودعه في عقولنا من ملكات لم يجعل ذاته بلا شيء يشهد له ، لأن لنا الإحساس والإدراك والعقل ، فلا نحتاج إلى برهان وأصح على وجوده ما دمتا نحمل ذاتنا معنا ، ولا نحن نستطيع أن نشكو من جهلنا في هذه النقطة الكبرى ، لأنه هيباً لنا من كثرة الوسائل لفرقة بقدر ما يلزم للضاية من وجودنا ولحرصنا الكبير على سعادتنا . »

لكن هذا وإن كان أوضح حق يهتدى إليه العقل ، وكان وضوحه (أن لم يكن مخفياً) يشمل اليقين الرياضي ، فإنه يحتاج إلى تفكير وانتباه ، ويقتضى من العقل أن يسير على أساس من الاستنتاج السليم من بعض معرفتنا الحسية ، وألا فانا في هذه المسألة نكون جاهلين وغير متيقنين على مثل ما نحن عليه في مسائل أخرى هي في حد ذاتها قابلة للبرهنة الواضحة .

ولذلك فانا لكي نبين أننا قادرون على أن نعرف ، أي أن نتأكد ، أنه يوجد إله ، ونبين كيف نتوصل إلى هذا اليقين ، فإني أرى أننا لا نحتاج لأن نذهب أبعد من أنفسنا ومن تلك المعرفة اليقينية بوجودنا » .

يبني لوك على هذا الأساس ، أمضى المعرفة اليقينية عند الإنسان بوجود ذاته وبأنه شيء موجود بالفعل ، ويقول أن من يشك في ذلك فهو لا يستحق أن نتكلم معه ولئذيه : « يتمتع بنا بعبه من السعادة بأنه لا شيء أي أن يفتحه الجوع ، أو ألم آخر يعكس ذلك » .

فالإنسان يقطع بأنه شيء موجود بالفعل Real Being ، وهو يعلم يقيناً حدسي Intuitive certainty أن العلم لا يمكن أن يصد عنه موجود فعلي ، « وأذن يقوم الدليل البين على أنه كان هناك شيء من الأول ، لأن ما ليس أزلياً فله بداية ، وما له بداية لا بد أن يحدث بفعل شيء آخر » .

ثم يستنتج لوك على نحو منطقي ، ان ذلك الكائن الازلي لا بد أن يكون تام القدرة والعلم، ومصدر كل قدرة وعلم في الموجودات الحادثة ، لانه من غير المقبول في العقل أن يكون في الانسان احساس وادراك وعلم ويكون صادرا من شيء ليس له هذه الصفات كالمادة مثلا .

واذن فلا بد أن يكون هنالك اله .

وليخص لوك رايه قائلا :

« واذن فمن النظر في انفسنا وفيما ندركه في تكوننا على نحو لا يتطرق اليه الشك ، يؤدي بنا عقلنا الى معرفة هذه الحقيقة الاكيدة الواضحة ، وهي انه يوجد كائن أزلي تام القدرة والعلم، ان كان أى انسان يحب أن يسميه « الله » فله ذلك ، لأن الامر بين . ومن هذا الفكرة ، اذا نظر الانسان فيها على الوجه الصحيح ، يمكن استنتاج كل تلك الصفات الأخرى التي يجب أن نصف بها هذا الكائن الازلي » .

ويرى لوك ، بناء على دليله المتقدم ، أن المعرفة بوجود الله أكثر يقينا من المعرفة بأى شيء خارج ميدان ادراك حواسنا ، بل انها أكثر يقينا من معرفتنا بأى شيء خارج ذاتنا ، بشرط أن نحسن استعمال عقولنا .

وهو ينقد دليل اثبات وجود الله ، المبني على فكرة الكائن الكامل . وهو يقصد ديكاوت بلا شك ، فيمن يقصد ، لكنه لا يذكر اسم أحد يمثل هذا الدليل . وهو بعد أن يشير الى تنوع أمثلة المفكرين ونزعاتهم في تفكيرهم واختيار الأدلة لإثبات الشيء الواحد يقول فيما يتعلق بالاساس الذي يقوم عليه « الدليل الأنطولوجي » :

« انه ليس من السداد عند محاولة اثبات هذا الحق وأسكات منكرى وجود الله أن يجعل أحد كل الأهمية في مسألة خطيرة كهذه لذلك الأساس وحده : فيعتبر أن كون بعض الناس عندهم في أذهانهم فكرة اله (لانه من البين أن بعضهم ليس عنده فكرة اله ، وعند بعضهم ما هو أسوأ من عدم وجود فكرة وعند معظمهم أفكار مختلفة كل الاختلاف) هو الدليل الوحيد على وجود اله . وهم من فرط حبهم لذلك المخترع الأثير لديهم يلقون ، أوهم على الأقل يحاولون أن يجرحوا ، كل الأدلة الأخرى ، وينهوننا عن الإصغاء لتلك البراهين قائلين انها ضعيفة أو زائفة ، وهي التي يقدمها لعقلنا وجودنا والأجزاء المحسوسة في العالم على نحو واضح وملزم ، بحيث انى اعتقد انه يستحيل ان يدفعها انسان مفكر . فاني أرى أن القول « بأن الأمور الالهية التي لا ندركها ترى بوضوح من خلق العالم وهي مدركة من طريق الأشياء المخلوقة ، حتى قدرته والوهيته الأزلية » لهو قول حق مؤكد وواضح بمقدار ما يكون أى حق يقال » .

ويؤكد لوك بعض آرائه مرة أخرى، وهو يحصر على تأكيد وجود شيء أزلي وانه قادر حكيم غير مادي ، ويدقق في دحض المذهب المادى دحضا يقوم على المنطق ، وكلامه مثال جيد على النقد الفلسفي للمادية .



على يد ليبنتز Leibnitz (ت ١٧١٦) لا نجد فيما يتعلق بالاستدلال النظرى الاستنباطى والدليل الأنطولوجى أكثر من تعقيد وتدقيق وتحليل لا تفيد في شيء .

فهو يربط بين القول بأن « الله موجود » وبين مسألة التمييز بين ما يسميه « حقائق العقل » Truths of Reason-Verités de Raison التي هي قضايا تحليلية نمر فصحيتها باستخراج مفهوم محمول لاهم

تحليل موضوعها في ضوء مبدأ التناقض وما يسميه « حقائق الواقع » *Verités de Fait* *Truths of Fact* التي هي قضايا تركيبية تعرف بالرجوع إلى الواقع في ضوء مبدأ العلة الكافية ، لكنها لكي تأخذ صورة حقائق العقل تحتاج إلى خطوات تحليل لا تنتهي ولا يحيط بها إلا الإله الذي يعلم كل شيء ، والذي يعلم الأشياء كلها لا يعلم استدلالى كعلمنا .

ومن الواضح أن هذا ليس برهانا بأى معنى ، وفيه شيء من روح النزعة الأفلاطونية .

وليبنيتز يقبل الدليل الأنطولوجى عند آنسليم وديكارت على أساس أن القول بوجود إله ينتهى آخر الأمر إلى أن يكون من حقائق العقل التي يوصل إلى صدقها بالتحليل لمفهومها ، وأن كل ما تحتاج إليه القضية هو أن يكون مفهوم الإله خاليا من التناقض ، لأن قولنا الإله هو « الكائن الأعلى تحقّقاً في الوجود *Most Real Being = Ens Realissimum* أو « الكائن الأكمل » *Ens Perfectissimum* يرى من التناقض ، لأننا لا نضيف للإله في هذه الحالة سوى محمولات (صفات) لا تناقض بينها .

لكن هذا لا يقدم الدليل الأنطولوجى خطوة واحدة .

على أن من الأدلة على وجود الله عند ليبنيتز :

(١) لا بد من وجود بدائه *Ens a se* ، ولا لما أمكن خروج الممكنات إلى حيز الوجود الفعلي الذي نشاهده .

(٢) الدليل الكونى أو الكوسمولوجى *Cosmological Argument* ، وهو يتلخص في الاستدلال من وجود العالم على وجود الله .

(٣) الدليل المستند إلى ما يسميه ليبنيتز « الحقائق الأزلية » *Verités Eternelles* ، فهي لا تنقيد بزمان أو مكان ، ولا ترتبط بموجودات حادثة ، فلا بد أن تكون في عقل أزلي أبدي هو الإله .

(٤) الدليل المبني على تصوره لنظام الوجود ، وهو مذهب : المونادولوجيا *Monadology* 45 الذى يتلخص في القول بأن العالم مؤلف من وحدات روحية منفردة منفصل بعضها عن بعض ، فيما أنها منفصلة ، لكن بينها انساقا وانسجاما ، فلا بد لها من منظم خالق قادر حكيم .

وهذا الدليل وإن كان من الناحية الصورية مقبولا ، فإنه يقوم على مقدمات لا يقدم عليها ليبنيتز برهانا كافيا .

وربما يكون هناك تناقض ، كما لاحظ البعض (١) ، بين قول ليبنيتز بأن كل « موناد » يحوى في ذاته بذور صفاته وتطور أحواله وبين القول بعله للمونادات خارجة عنها . لكن ليبنيتز يقول بأن عالم المونادات مخلوق « ضربة واحدة » ، وهو في هذا يشبه الدينين من أهل السنة ، تماما .

وهكذا لا نجد عند ليبنيتز ، فيما هذا الدليل الكونى ، أدلة مقنعة ، بل أدلة مرتبكة في تراث سابق أو قائمة على تصور للعالم يحتاج إلى دليل .

ويكفى لبيان نوع تصور ليبنيتز للمشكلة قوله من الآله مثلا :

هو الوحدة الأولى والجوهر البسيط الأول ، وكل المونادات « المخلوقة أو المشتقة » هي

مخلوقات ، وتنبأ من لحظة الى أخرى بواسطة اشعاع مستمر كالبرق يصدر عن الاله . وهذه الاشعاعات تصبح لها حدود بسبب قابلية المخلوقات التي من جوهرها أن تكون محدودة .

وقوله عن المادة :

كل قطعة من المادة تشبه حديقة مملوءة نباتات أو حوضا مملوءا أسماكاً ، لكن كل غصن أو عضو حديقة أو حوض ..

ومن الواضح أن في كلامه عن الاله والعالم خيالا كثيرا ، فلا يصح أن يستسهل أحد الكلام عن الاله الحق بمفاهيم وتصورات ممانع . وإذا كنا لا نزال في بداية المعرفة بعالم المادة فأننا لا يصح أن نستمرسل في الكلام عنها مع خيالنا الى هذا الحد .



ثم جاء الفيلسوف الإنجليزي ديفيد هيوم David Hume (ت ١٧٧٦) بنزعته الفلسفية وما فيها من روح النقد ومحاولة التمهيع الذي لا يصل الى الشك بمعناه الحقيقي . وهو قد تبين الصعوبات التي تعترض النزعة العقلية الروحانية كما نجدها عند ديكرت وأصحاب الميتافيزيقى العقلية ، لكنه من جهة أخرى لم يطمئن أطمئنانا كاملا للمذهب الحسي - المادى . وهو يقبل على أساس عملي أو عاطفي بعض ما ينكره نظريا بسبب عدم وجود المعرفة الواضحة أو الأدلة الكافية .

وفيما يتعلق بالموضوع الذي نحن بصددته نجده قد وضع المشكلة في كتابه : « محاورات حول الديانة الطبيعية » Dialogues Concerning Natural Religion

وتدل الأفكار التي تصدر عن الأشخاص الذين يتناقشون على أن أحدهم ، وهو كليانثيس Cleanthes متفلسف يمثل « علم الربوبية الطبيعية الفلسفى » ، والثاني ، وهو ديميا Demea يمثل التشدد في الإيمان بالوحي مع نزعة صوفية ومع قبول الأدلة النظرية البديهية ، والثالث ، وهو فيلو Philo متشكك غير جاد .

والذى يحكى المحادثة شخص مؤمن بوجود اله

وتوضع المشكلة على هذا النحو الجدي :

« أى حق هو من الواضح بقدر وضوح القول بوجود اله ؟؟ وأى حق هو من الأهمية مثل هذا الحق الذى هو عماد كل آمالنا ، وأوفق أساس للأخلاق ، وأثبت دعامة للمجتمع ، والمبدأ الوحيد الذى يبنى الأقياب لحظة عن مجال أفكارنا وتاملاتنا ؟ لكن عند معالجة هذا الحق الواضح العظيم الشأن أى مشاكل غامضة تعرض فيما يتعلق بطبيعة ذلك الوجود الالهى وبصفاته وبمجاىر إرادته (IDecrees) . وخطة عنايته IPan of Providence »

وكلام المتحاورين يحتاج الى طول نظر وإلى تحليل دقيق . والمهم أن المحاورات تدور حول الأمور التي تشير إليها هذه العبارات التي تضع المشكلة كلها .

لكن أهم ما فيها أنها تذكر أنواع الأدلة التي ظهرت لإثبات وجود الله عند فلاسفة اليونان ومن جاء بعدهم من مفكرى القرون الوسطى الأوروبية ، وتشير الى ما يمكن أن يوجه إلى بعضها من اعتراضات ، وإلى عدم كفاية بعضها في إثبات المقصود . وهى تدل أيضا على الارتباك الناشئ من التصورات غير الصحيحة فيما يتعلق بالاله (مثل تصوره بحسب المعايير الانسانية) او بملاقسة بالعالم (كالقول بأنه سار في العالم) أو فيما يتعلق بالعالم (مثل تصوره كائنا حيا) وعلى الارتباك الناشئ من أوهام المذهب المادى : فلماذا لا يكون الوجود الحقيقي هو هذا العالم المادى ، أو من الآراء الفاسدة فيما يتعلق بالإنسان وأنه كائن شقي بئس . وهذا رأى مصدره الجهل برسالة الإنسان ، أو من الحل السطحي لمشكلة الشر المزعم في هذا العالم وهكذا .

والنقد الموجه للادلة على وجود الله ينصب على الأدلة النظرية الاستنباطية ، وعلى الأدلة المستندة الى النظر في العالم ، جميعا . وهذا النقد يرجع بطبيعة الحال الى روح الشك الناقذ عند هيوم . لكن تلك الأدلة كما كان السابقون قد وضعوها لم يتم احكامها ، ولذلك كانت موضع النقد .

ولا ضرورة للدخول في تفاصيل هذا النقد، لأن بعضه تبين مما سبق وبعضه سيرد فيما يلى من كلام كنت من الأدلة التقليدية .

وجه كنت Immanuel Kant (ت ١٨٠٤) في كتابه « نقد العقل الخالص Critique of Pure Reason » نقدا لادلة وجود الله جمع خلاصة الاعتراضات التى وجهت اليها ، وأضاف اعتراضات جديدة، لكن في نقده مبالغة حقيقية ترتبط بجملة فلسفته النقدية وموقفه من امكان المعرفة التجاوزية .

والناظر في آراء كنت في هذا الباب يتبين بسهولة أنه يريد أن يهدم ما يسمى علم الربوبية الطبيعي Natural Theology أى المعتمد على العقل الإنسانى وممكانته ومفهوماته .

على أن كنت ، في كتبه السابقة على المرحلة النقدية (١) من فلسفته كان يثبت وجود الاله على أساس مبدأ العلية ، والقول بأن خروج الوجود الممكن الى حيز الوجود لا بد أن يسبقه وجود موجود واجب ، والا لما حدثت الممكنات أصلا ، وهذا الموجود الواجب يجب أن يكون واجدا ، عاقلا ، مطلقا ، أزليا ، لا يتغير . فالاله الواحد هو المبدأ الواجب المطلق الذى تستند اليه جميع الممكنات .

وكان يثبت وجود الاله على أساس مذهب لينتز في القول بجواهر روحانية منفردة : فيما أنها منفصلة ، لكنها تؤلف نظاما فيه انسجام ، فلا بد لها من علة واجبة خارجية عنها (٢) .

وكان يرفض « الدليل الانطولوجى » عند ديكارت ، لأن هذا الدليل يقوم على احتساب ان الوجود صفة ، وهو في نظر كنت ليس كذلك ، وإنما وجود الشيء هو الشيء نفسه .

على أن كنت كان ينقد الأدلة الأخرى على وجود الله ، ويشير الى أنها لا تثبت وجود الاله الحق ، ومنها الدليل الكونى والدليل الفاني .

(١) مثل كتابه بعنوان : « الأساسى الوحيد الممكن لاثبات وجود الله »

The only possible foundation for the demonstration of the existence of God.

(٢) هذا في كتابه « صورة ومبادئ عالم الحس والعقل »

The form and the principles of the

sensible and intelligible world.

لكن كنت في كتابه «نقد العقل الخالص» (١) ، وبعد حوالي عشر سنين لم ينشر فيها شيئا ، أظهر هذا الكتاب وفيه نقد جميع الأدلة على وجود الله نقدا منظما ، فهو يعرض الدليل ثم يبين أنه زائف أو غير كاف ، وهو بعد أن يتكلم من الأدلة التي استخدمها العقل النظري لإثبات وجود موجود أعلى يقرر أن هناك ثلاثة طرق ثلاثية طرق لا إثبات وجود الإله على أسس العقل النظري ، ويقول إن هذه الطرق :

أما أن تبدأ من تجربة محددة وإدراك التكوين الخاص لعالم الحس وترتقى بحسب مبدأ العلية إلى وجود علة عليا منفصلة عن العالم .

وأما أن تبدأ من تجربة غير محددة أي من وجود تجريبي ما .

وأما أن تبدأ من مفاهيم مستقلة تماما عن كل تجربة .

ويرى أن الأدلة بحسب هذا الترتيب هي :

The Physico — theological Proof

١ — الدليل الفيزيقي — الديني

The Cosmological Proof

٢ — الدليل الكوسمولوجي .

The Ontological Proof

٣ — الدليل الأنتولوجي .

ويزعم أنه لا توجد ، ولا يمكن أن توجد ، أدلة غيرها .

وكل اهتمامه يتركز حول إثبات أن العقل النظري لا يستطيع ، بقوته الخاصة وحدها ، أن يحلق فوق عالم الحس .

أما فيما يتعلق بالدليل الأنتولوجي فإن نقده له هنا تفصيل لنقده السابق ، مع انكار أن يكون الوجود بالفعل صفة أو محمولا للشيء والقول بأن وجود الشيء هو إدراكنا لوجوده أو لصفة له إدراكا مباشرا وتأكيدنا لذلك ، فقولنا مثلا : الإله موجود ، هو إدراكنا لوجود ذاته وصفاته وتأكيد ذلك .

ويلذهب كنت إلى أن أساس الدليل الأنتولوجي ، وهو القول بكائن كامل أو واجب يستحيل أن لا يكون موجودا ، ليس ملزما للعقل ، لأن العقل يستطيع أن يفترض عدم وجود مفهوم في الذهن ، وبالتالي عدم الاستنباط منه . وهذا ينطبق حتى في ميدان الرياضيات ، فإلغاء مفهوم المثلث في الذهن يسمح بإلغاء كل أحكام المثلث .

ويرقر كنت أن استنتاج وجود الشيء من مفهومه تحصيل حاصل تسمى Miserable Tautology وأنه لا يرضى العقل السليم ولا يثبت أمام الفحص الفلسفي .

أما الدليل الكوسمولوجي فهو في رأي كنت لا يقوم على الاستنتاج من مفهوم ، بل على الاستنتاج من وجود شيء واقع على وجود شيء واجب لا بد أن يكون موجودا ، وهو يسمى بحسب عبارة لايبنز Leibnitz الاستدلال من إمكان العالم Argumentum a Contingentia Mundi وصوره هكذا : إذا كان هناك شيء موجود ، وليكن « أنا » ، فلا بد من وجود موجود واجب الوجود .

بعبارة أخرى : الممكن الوجود لا بد له من علة ، وبما أنه لا يمكن التسلسل في العلل فلا بد من الانتهاء إلى علة أولى هي واجب الوجود ، أو الكائن الذي له كمال التحقق Ens realissimum وهو يسمى الدليل الكوسمولوجي ، لأن موضوعه هو العالم (Cosmos) باعتباره شيئا موجودا ، دون نظر إلى مميزاته كالنظام أو الغائية أو نحو ذلك ، ولهذا فهو يتميز عن الدليل الفيزيقي الديني الذي سيأتي الكلام عنه .

ونظرا لأن تحديد مفهوم واجب الوجود وصفاته لا يتيسر إلا من طريق الاستنتاج من مفهومه ، لأن التجربة لا تعلمنا شيئا عن ذلك ، فإن كنت يرى في الدليل الكوني صورة أخرى للدليل الانطولوجي .

هذا إلى أن كنت يرى في مبدأ العلية أو القول بأن كل ممكن لا بد له من علة ، أنه مقصور على حوادث هذا العالم وليس له التطبيق وراء ذلك ، وهو لا يدعونا إلى البحث عن علة للعالم .

ويذهب كنت في نقده لهذا الدليل إلى حد القول بأن استنتاج ضرورة علة أولى من استحالة التسلسل في العلل لا يبرره العقل في عالم التجربة فضلا عما وراءه .

ولا حاجة للخصي في ذكر اعتراضات كنت على هذا الدليل ويكفي أن نلاحظ ما في نقده من مبالغة تصادم العقل والواقع مما .

وهو مع أنه يعترف بأن الدليل الكوسمولوجي يقوم على القول بأن وجود أى شيء يقتضى استنتاج واجب الوجود ، وأن هذا الاستنتاج طبيعي ، فإنه يزعم أنه يمكن تصور عدم وجود هذا الواجب ، فإن التصور مقياس لصحة الآراء ، بل هو يذهب إلى أن مفهوم الوجوب (Necessity) والامكان (Contingency) مبدآن ذاتيان في العقل (Subjective Principles of Reason) وليسا موضوعيين (١) ، بل أن مفهوم « الموجود الأعلى » Supreme Being في نظره ، مجرد « مبدأ تنظيم » Regulative Principle

والمبالغة واضحة في كلام كنت ، لكن الدليل الذي ينقده نظري ومجرد إلى حد كبير ، ولا شك أن وضعه على هذه الصورة مأخوذ من ليبنتز ، وهو قد أخذه عن مفكرى العصور الوسطى ، وهم أخذوه عن الفارابي وابن سينا ووضعوه على صورة معينة .

أما الدليل الفيزيقي - الدينى الذى يمكن أن يسمى أيضا الدليل الفائي Theological Proof فإن كنت يقف منه موقفا آخر . يقول كنت :

« إن العالم المحيط بنا يقع أمام بصرنا منظرا هو من الروعة في النظام والتنوع والجمال والملاءمة لغايات إلى حد أننا ، سواء مضينا في ملاحظتنا للانهاية الفضاء في اتجاه أو للانقسام التي لا حدود لها في اتجاه آخر ، سواء نظرنا للعالم في أعظم مظاهره أو في أصغرها ، حتى بعد أن نكون قد بلغنا أعلى ذروة في العلم يمكن أن تصل إليها عقولنا القاصرة ، فأننا نجدنا أمام عجائب تفوق كل تصور ، وأمامها تفقد اللغة قدرتها على التعبير ولا تنفى به بل بعجز الفكر عن الإدراك ، وينحل تصورنا للكل إلى دهشة نقف معها القدر: على التعبير ، وتكون أفصح عبارة لنا أن تكف عن الكلام .

فتحن نلاحظ أينما نظرنا حولنا سلسلة من الأسباب والمسببات ، من الوسائل والغايات ، من الموت والميلاد . ولما كان لا شيء قد دخل من نفسه في الحال التي نجده عليها ، فإنه لا بد لنا دائما من الرجوع إلى شيء آخر ، هو بدوره يبحث أيضا على التماس علة له . . . وهكذا فإن العالم لا بد أن يفرق في بصر اللاشيء ، إلا إذا سلمنا بأنه إلى جانب السلسلة التي لا نهاية لها من الممكنات يوجد شيء هو أول وفالم بذاته ، شيء هو الذى ، باعتباره علة عالم الظاهرات هذا ، يضمن بقاء عالم الظاهرات ويحفظه .

هذا المبدأ الأعلى ، أى عظم ينبغي أن نضيف إليه : أننا نجهل محتوى العالم ، ونحن لا نستطيع تقدير عظمه بالقياس الى مجال الامكان . لكن هذا المبدأ الأعلى ، نظرا لانه ضرورة يقتضيها العقل الانساني المشترك ، فما الذى يمنعنا أن نضيف اليه من الكمال ما يجعله فوق كل ما هو ممكن ، وهذا ما نستطيع أن نفعله بسهولة ، وأن كان ذلك بمساعدة الاطار الضعيف لمفهوم مجرد ، بأن نمثل لانفسنا هذا الموجود حائزا كل كمال ممكن .

ويرى كنت « أن هذا الدليل يستحق دائما أن يذكر بالاحترام ، وأنه أقدم الأدلة وأوضحها وأكثرها اتفاقا مع العقل الانساني . وهو يبعث الحياة في دراسة الطبيعة ، لانه يستمد وجوده من ذلك المصدر ، ويستمد منه قوة متجددة دائما . فهو يتبين أغراضا وغايات في ميدان ما كانت ملاحظتنا تستطيع أن تكتشفها من نفسها ، ويوسع معرفتنا بالطبيعة ، بأن يوجه انتباهنا الى وحدة يوجد مبدؤها خارج الطبيعة . ثم ان المعرفة بالطبيعة يصبح لها تأثير في هذه الفكرة ، أعنى علة الطبيعة ، وبذلك يرتفع اعتقادنا بوجود الاله الصانع للعالم الى مرتبة اقناع لا يمكن مقاومتها (١) »

ان كنت يقدّر هذا الدليل ولا يرى جدوى من محاولة تجريح سلطانه او التشكيك فيه ، لان الشك يتبدد بمجرد أن يلقي الانسان نظرة على عجائب الطبيعة وعظمة الكون . لكنه يلخصه على النحو الآتي :

- ١ - في الطبيعة نظام
- ٢ - هذا النظام في الاشياء ليس من ذاتها
- ٣ - إذن لا بد من منظم عاقل .
- ٤ - هذا المنظم واحد على أساس وحدة الطبيعة وروابط اجزائها .

ثم يقول : ان الطبيعة إذن كالمعمل الفني ، واستدلاننا على مصدرها كالاستدلال من الاثر الفني على مصدره . ولا يصح ان نذهب الى نوع آخر من الاستدلال ، لأن العقل لا يفي بكل ما يطلبه اذا صار من علة يعرفها الى مبادئ للتفسير لا يعرفها . ولا يمكنه ان يبرهن عليها (٢) .

فالدليل لا يثبت الا حدوث الصورة التي عليها العالم وجود صانع ، ولا يثبت حدوث المادة التي صنع منها العالم . ولما كان الدليل يقوم اساسا على الاستدلال من اشياء هي في ذاتها محدودة ، فانه لا يثبت اكثر من وجود صانع قدرته مقيدة بقابلية المادة ولا يثبت وجود خالق للعالم بالمعنى الحقيقي .

هذا الى اننا ، في رأى كنت لا نعرف كل العالم ولا مدى دلالة على القدرة المطلقة ولا مدى دلالة النظام والحكمة في العالم على الحكمة العليا ، ولا دلالة وحدة العالم على وحدانية موجهه .

والدليل اذا كان يدل على أن صانع العالم يتصف بالجلال والقدرة والحكمة فانه لا يدل على ما لالسه من كمالات مطلقة لا نهاية لها ولا يبعث فينا أكثر من الاجلال والتعظيم والثناء .

ويرى كنت اننا في هذا الدليل نبدأ بملاحظة نظام الطبيعة ونستنتج انها ممكنة الوجود ثم نستنتج وجود الوجود الواجب وبذلك نمود الى الدليل الكوسمولوجي الذى هو صورة مقنعة للدليل الانطولوجي .

(١) نقد العقل الخالص ، ص ١٨٧ ع ٢٤

(٢) المصدر نفسه

وأذن فلا بد من إكمال الدليل الفيزيقي -الدينى بالدليل الوجودى . وعند ذلك ينتهى ، من الناحية النظرية وعلى أساس مفهومات العقل النظرى ، إالدليل الوحيد الممكن لاثبات وجود الإله وذلك بشرط أن يكون من الممكن اثبات قضية من طريق تجاوز حدود الاستخدام التجريبى للعقل .

ومن الواضح أن كنت مسرف كل الإسراف فى نقده . لانه إذا قام الدليل القطعى على أن هذا العالم ممكن الوجود فإن العقل يقضى بضرورة وجود موجود واجب مخالف للممكنات فى ذاته وصفاته ، وبمجرد هذا الاستنتاج يقضى العقل بأن ذاته وصفاته وكمالاته مطلقة ولا ندرك كنهها بعقلنا المحدود ، بحيث يدل العالم على إله حق واجب الوجود ، فوق كل تصوراتنا ومفهوماتنا النسبية .

ومن جهة أخرى فإن هذا العالم مهما كان من العظمة ومهما صدر من أمثاله عن الإله منذ الأزل ، ومهما يصدر عنه إلى الأبد ، فإن ذلك كله لا يصلح مقياسا للقدرة المطلقة التى لانهاية لها والتي لا ينضب لها معين .

أن كنت على حق فى قوله أن العالم لا يدل على الإلة الحق دلالة كافية . فالحق أن العالم محدود ، ولكن إكمال الدليل لا يكون من طريق الدليل الوجودى ، بل من طريق الاستدلال من النظر فى العالم ، لكن مع التنويه للإله ومع الإدراك الكامل لمفهوم الوجود واجب .

وكننت على حق فى قوله أن الدليل أثبت وجود الصانع ولم يثبت حدوث المادة .

وكل النقائص التى يبينها كنت فى هذا الدليل الذى يقدره تقديرا خاصا قد تلافيتها أدلة مفكرى الإسلام لإثبات وجود الله . خصوصا أدلة المتكلمين من المعتزلة والاشاعرة .

لقد كان غرض كنت من نقده لادلة وجود الله أن يهدم « علم الربوبية الفلسفى أو الطبيعى » الذى يعتمد على العقل النظرى .

والإنسان يستطيع أن يقبل كلام كنت فى أن النزعة النقدية عند هيوم هي التى إيقظته من سبات مذهب الجزم الميتافيزيقي . لكن نقد هيوم لا يخرج من الفلسفة التجريبية الانجليزية ، وليس له فيها مقدمات كافية . ولذلك يربط بعض العلماء بين نزعة النقدية وبين آراء الفلزائى ، كما فعل العلامة الأسباني ميجل آسين بالايوس Miguel Asín Palacios

والسؤال الآن هو : هل عرف كنت آراء الفلزائى ، على الأقل من الترجمة اللاتينية لكتاب « تهافت تهافت الفلاسفة » لابن رشد أو من مؤلفات مفكرى العصور الوسطى الكثيرين الذين ردوا آراء الفلزائى فى التهافت ؟

يوجد بين موقف الفلزائى من الميتافيزيقي العقلية ، سواء فيما يتعلق بالعالم أو النفس أو الإله ، وموقف كنت شبه واضح . والذى يصبر على قراءة كتاب « تهافت الفلاسفة » للفلزائى وكتاب « نقد العقل الخالص » لكانت ، يلاحظ فى مواضع كثيرة شبيها فى بعض الأفكار وفى الروح

وخصوصا في محاولة هدم علم الربوبية الفلسفي وعلم الوجود العقلي وفي تناقض العقل^(١)، مما يجعل الدراسة المقارنة لآراء حجة الاسلام وآراء فيلسوف الألمان، من أشيق الدراسات واعظمها شأنًا .
على ان كنت ، وان كان ينقد الادلة العقلية النظرية على وجود الله ، فانه يؤمن بوجود الله ، ويحاول ان يثبت وجوده من طريق آخر ، هو طريق العقل العملي أو العقل الخلقى .

ان العقل يدرك الخير ويقضي باحترام قانون الواجب الذي هو الفضيلة والخير الاعظم في نظر كنت . لكن مع ان الفضيلة في ذاتها خير اعظم ، فانها ليست الخير التام الكامل بالنسبة للإنسان في حياته هذه ، لان الانسان الواقع ، ان كان يطعم الى الفضيلة ، فانه ايضا يطلب السعادة بطبيعته وما فيه من احساس انساني ، فلا بد ان يكون الخير التام له مشتملا على السعادة بقدر ما هناك من فضيلة . لكن الواقع والتجربة في هذه الحياة لا يدلان على ذلك .

و كنت هنا يخالف الفلاسفة القدماء الذين اعتبروا ان السعادة والفضيلة مرتبطتان . هو بخالف الرواقيين الذين كانوا يقولون ان الحكيم هو الفاضل السعيد ، وان شعور الانسان الحكيم بفضيلته سعادة . ويخالف الإبيقوريين الذين كانوا يرون في اللذة الخالصة سعادة . ويقول كنت انه لا طلب للسعادة يزيد في الفضيلة ، ولا الفضيلة تجلب السعادة . والسبب في ذلك هو ان عالم الحس الذي نعيش فيه ليس فيه اتفاق بين ما هو حسي وما هو عقلي ، وليس بين الفضيلة والسعادة اقتران حلة بمعلول . ومع ذلك فان الانسان يريد هذا الاقتران ، ويريد ان يكون مع الفضيلة سعيدا ، لكنه ليس هو الذي وضع نظام الطبيعة ولا يمكنه ان يسيطر عليه .

فيما ان الانسان يجب عليه ان يمثل لقانون الواجب والفضيلة ، ولا تتحقق له السعادة ، فلا بد للإنسان من ان يؤمن بوجود الله حكيم خير هو الذي وضع نظام الاشياء ونظام الاخلاق ، يعلم نوايانا الطيبة ويجازينا عليها ، ويكون هو الضامن لتحقيق السعادة مع الفضيلة .

ولما كانت الارادة الخيرة لا تستطيع في هذه الحياة ان تحقق كل ما يطلبه القانون الخلقى ، وكانت لا تزال تريد ذلك ، فان الموت لا يمكن ان يكون نهاية حياة الانسان ، ولا بد ان تكون الروح خالدة لكي تستطيع مواصلة طموحها والاقتراب من غايتها . وهذا يكون بطبيعة الحال في حياة اخرى .

هذا هو دليل كنت لا يثبت وجود الله بناء على حاجات العقل العملي او حاجة النظام الخلقى ، وذلك بعد ما زعمه من انه لا يمكن على اساس العقل النظري اثبات وجود الاله الحق .

ومن العجيب ان كنت صاحب « قانون الواجب » و « الامر المطلق » يرى ان هذا الإيمان القائم على الاعتبارات العملية والعقلية إيمان اختياري ، وأنه ، رغم عدم الزامه ، يقوى بواحث الخير . ومع « أنه في احيان كثيرة قد ينزعزع ، حتى عند الاخيار ، فانه لا يتقلب ابدا الى الحاد » .

انتهت الى كنت تجربة فلسفية كبيرة تشتمل على آراء شتى في الالهية والادلة على وجود الله ، وقد نقدتها نقدا لائرا لا يشبه في الروح وفي بعض التفاصيل الا نقد الفرائي للفلسفة في كتابه « تفاهت الفلاسفة » .

وقد ادى نقد كنت الى شيء من التشكك في مقدرة العقل النظري عند البعض ، لكنه لم يؤد الى زلزلة الثقة بالعقل ، واستمر المفكرون يصوغون الادلة على وجود الله ، لكن مع ميل عند البعض الى نزعات وحدة الوجود .

(١) لاحظ بعض العلماء شيئا بين آراء الفرائي وكنت في موضوعات جزئية مثل مسألة الزمان والكان
راجع كتاب (J. Obermann) بعنوان : Der Philosophische u. Religiöse Subjectivismus Ghazalis, Leipzig, 1921, S. 112 ff.

كان محيي الإسلام بكتابه الحكيم نقطة تحول في تاريخ الدين المنزل والتفكير الديني والعلمي والفلسفي على السواء

فقد جاء فيما يتعلق بالالوهية بالمفهوم الواضح الكامل للاله ، بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة .

وجاء يبنى الإيمان على نظر العقل وثمرة المعرفة ، وجعل موضوعات العقائد مسائل بحث وموضوع دليل وبرهان .

ودرس منهجاً في المعرفة ، كما رسم الطريق للمعرفة بوجود الله وما له من صفات الكمال .

والذي يعيننا هنا بنوع خاص هو أن القرآن يعظم أمر العلم والحكمة ، ويأمر بالنظر في آيات هذا الكون الظاهرة ويشوق الإنسان إلى معرفة أسرارها الخفية وينبهه إلى أن الله جمل له الحواس والعقل فيجب عليه أن يستعملها .

وهو إذ يتكلم عن الله وصفاته وأفعاله وتدبيره لهذا العالم يبين أن الطريق إلى معرفة ذلك هو النظر في هذا العالم ، وهو يتكلم عن العالم وما فيه من وجوه كثيرة ، وكلامه يشتمل على جميع الظواهر التي تبحثها العلوم الكونية والإنسانية ، هذا إلى أن القرآن تكلم عن هذا العالم في قضايا ، هي أحكام عامة يبتدئ بها الباحث ، ونبه إلى جوانب رئيسية لكي يجعلها الباحث موضع البحث الحسي والعقلي .

والمقصود من كلام القرآن عن العالم وتنبيهه إلى آياته هو أن يستدل الإنسان على وجود الإله تعالى من النظر في العالم وأن يعرف طبائع الأشياء وخواصها وقوانينها لكي يستعملها ، لأنها كما يقرر القرآن مسخرة للإنسان .

والقرآن يدور حول فكرة الحق والعالم الصحيح في كل شيء .

وهو يعيب أهل التقليد الذين لا يستعملون عقولهم في قبول الحق المخالف لما نشأوا عليه ، ويؤكد مفهوم العلم الحق الذي لا تشوبه الشكوك والظنون ، وينهى عن اتباع الظن والهوى في الحكم على الأشياء ويطلب بالبرهان كما يقدم البرهان على ما يقرره من قضايا .

وهو يذكر ما عند الإنسان من الحواس والعقل ، ويعتبرها نعماً كبرى ، ويقرر مسئولية الإنسان عنها .

والمعرفة الإنسانية ، بحسب القرآن ، ثمرة الحس والعقل معاً ، ويخص القرآن بالذكر من بين الحواس ، السمع والبصر ، ويكثر من ذكر البصر والأمر بالنظر للأشياء .

وهو لا يزال عند كلامه عن آيات الكون ينبه إلى أن فيها آيات ، أي علامات دالة ، لمن يستعمل حواسه وعقله ولن يتفكر ويريد أن يعلم ويوقن بالحقائق عن علم بها .

وهو يعتبر أن مقاصد آياته ومعانيها إنما تتجلى للعلماء ، وأن العلماء هم أحق الناس بأن يدركوا ضرورة وجود الإله الحق وأن يعظموه ويخشوه (١) .

(١) لاجابة لذكر شواهد على ما تقدم ، ومن السهل ، على من يريد ، أن يتصلح القرآن ويستخرج الشواهد

واذا كان القرآن يشير في بعض آياته الى أن المعرفة بالله مفروزة في الفطرة الاصلية ، اعنى فطرة الروح الانسانية على حالتها الاولى ، قيل ان تظهر في هذا العالم وتستخدم فيه هذا المركب البديع الذى هو البدن وما له من حواس ظاهرة وباطنة ومن جوارح ، فانه يوجه عقل الانسان الى الطريق لمعرفة الله بأن ينبيهه الى النظر في العالم وفي نفسه .

« وفي الارض آيات للموقنين * وفي انفسكم افلا تبصرون » (س ٥١ - الذاريات ، ٢٠ - ٢١)
« ان في السموات والارض لايات للمؤمنين * وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » (س ٥٠ - الجاثية ، ٣ - ٤)

« سترهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى ينبتن لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » (س ٤١ - فصلت ، ٥٣)

« افي الله شك فاطر السموات والارض » (س ١٤ - ابراهيم ، ١٠)

فالقرآن يجعل نقطة البداية لمعرفة الله ما يشاهده الانسان في الكون وفي نفسه ، وتدل آيات كثيرة في القرآن على ان المقصود مما يشاهده الانسان في نفسه هو نشاته وتقلبه في مراحل الخلقة وبنيته واعضائه وجوارحه الى جانب ما يدركه الانسان في حياته الباطنة : حياة الفكر وحياة النفس ، بالمعنى الواسع لهاتين الكلمتين .

فالقرآن لا يجعل اساس النظر المؤدى الى معرفة الله مفهومات مجردة ، ولا معاني ذهنية ، ولا قضايا نظرية جدلية ، وهو حتى عندما يريد ان يجادل لا يجعل موضوع الجدل خارجا عن نطاق المشاهد الذى يدركه الانسان مباشرة .

وهذه هي البداية الطبيعية التى يجب ان يعتمد عليها الانسان في هذا العالم ، وهى البداية العلمية - الفلسفية التى يشترك في فهمها الجميع ، وهى لا تتعارض مع طريق آخر للمعرفة بالله ، سنشير اليه فيما يلى (١) وهو يتميز عن الطريق النظرى المجرد الذى كان موضع خلاف بين المفكرين وينتسب بانه ادراك حقيقى لشيء واقعى وان كان في اعماق الروح الانسانية .

واذا اردنا مثالا على طريقة القرآن في الارشاد الى معرفة الله فلنذكر الآيات الآتية :

« والهمك اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم * ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون » (س ٢ - البقرة ، ١٦٣ - ١٦٤) .

نلاحظ ان الآية قد وضعت القضية اولا ، وهى وجود الاله الواحد ، ثم نهت الى الطريق للمعرفة به وان هذا الطريق لمن يستعمل عقله .

« فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد فى السموات والارض وهشيا وحين تظهرون * يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون * ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون * ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم

أرواحاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم والوأنكم إن في ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون * ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون * وله من في السموات والأرض كل له قانتون * وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم * ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكتم إيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون * بل اتبع الدين ظلوماً أهواءهم بغير علم ، فمن يهتدي من أضل الله ، وما لهم من ناصرين * فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون * (ص ٣٠ - الروم ، ١٧ - ٣٠) .

في هذه الآيات نجد وضع القضية وهي : معرفة الله وتعظيمه ، ثم يأتي الكلام عن تدبيره للأشياء وعن آيات الكون ، ثم تأتي الإشارة إلى الذين ظلّموا أنفسهم باتباعهم طريق الهوى ، أي الميل الذي لا يستند إلى علم أو عقل ، ولم يسلكوا طريق العلم المؤدى إلى المعرفة بالله ، ثم يأتي التوجيه إلى الدين الحق مع الإشارة إلى أن الدين القائم على العلم يطابق الفطرة الإنسانية ، أي الفطرة الأولى الأصلية والفطرة الحالية التي تلخص في العلم والعقل واستعمالهما الاستعمال الصحيح .

« أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناها ، وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون » وجعلنا في الأرض رواسي أن تُميد بهم وجعلنا فيها فجاًجاً سبلاً لهم يهتدون * وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون * وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون » (ص ٢١ - الأنبياء ، ٣٠ - ٣٣) .

هذه الآية تتعلق بموقف الدين ينكرون وجود الله ، وهي تنهيهم إلى نظام السموات والأرض ، وتطالبهم بأن يفسروا هذا النظام بحسب قوانين العقل الذي يقضي بأن الشيء الحادث والواقع والوجود على نحو معين لا بد أن تكون له علة كافية .

« ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض واسبع عليكم نعمه ظاهرة وباطنة . ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » (ص ٣١ - لقمان ، ٢٠) .

هذه الآية تنبه إلى القوانين الطبيعية التي يخضع لها نظام العالم ، وإلى أن هذه القوانين مجرداها تحقق مصالحي الإنسان وتشير إلى أن الجاحدين بوجود الله لا يستندون في ذلك إلى سند من علم بالأمر أو منهج أو حجة علمية محققة مدونة .

هذه الآيات إنما نذكرها لكي يتبين أن نقطة البداية لاثبات وجود الله هي النظر في هذا العالم ، كما أن نقطة البداية للرد على الجاحدين هي النظر في هذا العالم أيضاً .

ولا بد من هذا التنبيه لأن القرآن انفرد بين الكتب المنزلة ، على صورتها التي وصلت إلينا ، بهذه الطريقة في المعرفة بالله ، وجعل مسألة الإثبات وجود الله مسألة بحث علمي في ضوء العقل والحس ، ويؤخذ من آيات كثيرة في القرآن أن الإيمان بالله ثمرة العلم وأن البصيرة بوجوده سببه الجهل .

وعلى اساس من آيات القرآن امكن للعلماء ان يستخلصوا ادلة على وجود الله ، ولا يزال المجال مفتوحا امام المفكر .

فعلى اساس من جملة آيات القرآن التي تتكلم عن العالم وتنبه الى آياته ومعجائيه واسراره استخلص مفكر الاسلام ، خصوصا علماء الكلام والمستقلين بالعلوم الطبيعية والكونية بوجه عام دليلا على وجود الله هو المسمى : « دليل التدبير » او « دليل الاثان » او « دليل الاحكام » وهو يتلخص في الاستدلال من النظر في نظام العالم على وجود صانع قادر حكيم طبعا لمبدأ عقلى هو مبدأ العلية الذي يقضى ، كما تقدم القول ، بان كل حادث وكل شيء يقع على نحو ما لا بد له من علة كافية .

وهذا الدليل بقى على صورته الإجمالية الى ان جاء ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ - ١١٩٨ م) فنظر في آيات القرآن نظرا فلسفيا تحليليا ، وميز بين دليلين يمكن اخذهما من آيات القرآن :

الاول دليل الاختراع ، ومعنى الاختراع هو الابداع والاحداث . والمقصود منه في نظر ابن رشد هو اختراع جواهر الاشياء واختراع الحياة في المادة . ويقوم هذا الدليل في نظره على نوع من الدلالة التي يدركها الانسان بالحس والعقل ادراكا مباشرا .

فمثلا فيما يتعلق بعالم الكائنات الحية نحن نلاحظ حدوث النبات والحيوان ، وهذا يدل بحكم الضرورة العقلية على ان للحياة علة .

وفيما يتعلق بنظام السموات نحن نلاحظ ان الاجرام السماوية تتنزم في سيرها حركات معينة تؤدي الى تحقيق غايات ، وخصوصا فيما يتعلق بالارض وما عليها .

معنى هذا ان الاجرام السماوية مسخرة مقهورة . والعقل يقضى بان المسخر مخترع مخلوق بالضرورة .

والدليل الثاني سماه ابن شد دليل العناية ، وهذه العناية محورها الانسان خاصة . فنحن نلاحظ ان جميع نظام العالم من الشمس والقمر والليل والنهار ، وكل ما على ظهر الارض ، ملائم للحياة الإنسانية ، بل ان تركيب الانسان نفسه ملائم لحياته على الارض . هذا شيء نلاحظه بالحس ، والعقل يقضى بان تكون هذه الملاءمة ناشئة عن فعل صانع مدبر حكيم قصد ذلك واراده .

ويلاحظ ابن رشد ان من آيات القرآن ما يتضمن التنبيه على دليل الاختراع ، ومنها ما يتضمن التنبيه على دليل العناية ، ومنها ما يتضمن التنبيه على الدليلين معاً (١) .

واذا اردنا مثالا آخر يبين لنا كيف اخذ المفكرون المسلمون من بعض آيات القرآن ادلة نظرية علمية - منطقية في بنائها ، فلنذكر استدلال الاشعري (٢) في كتابه « اللمع » ، اى الادلة الالهامية ، على وجود الله . فهو عندما يجيب عن سؤال من يسأل عن الدليل على ان للخلق صانعا مدبرا ، يستند الى آيات القرآن التي تتكلم عن الانسان وتطوره في مراحل الخلقة ، قبل ولادته وبعدها .

يقول الاشعري :

الانسان الذى نراه في حال كمال نموه البدني ، قد تطور من مبادئ بسيطة - ونلاحظ ان هذه مقدمة حسية .

(١) راجع التفصيل في كتاب ابن رشد : « الكشف عن مناهج الادلة »

(٢) هو أبو علي الحسن بن اسمعيل الاشعري ، المتوفى حوالي ٣٢٢ هـ

ولكن الانسان يعلم انه ليس هو الذى ينقل نفسه من طور الى طور ، لانه حتى وهو في حال كمال قوته لا يستطيع ان يخلق لنفسه حاسة او جارحة . وهذا يدل على انه ، عندما كان في بداية امره ، اصغر من ان يخلق لنفسه ذلك .

وايضا يعلم الانسان انه ليس هو الذى ينقل نفسه من حال الشباب الى حال الكبر والهرم ، بدليل انه لا يستطيع ان يرد نفسه الى الشباب - ونلاحظ ان هذه المقدمات تستند الى الحس والاستدلال الواضح .

واذن فيما ان الانسان ليس هو الذى يطور نفسه ، وبما انه محمول رغم انفه على التطور ، فانه ليس هو الذى اوجد نفسه ، ولا بد له من موجد هو الذى اوجده وهو الذى يدبر امره وينقله من طور الى طور .

بعد هذا يثبت الاشعري ضرورة وجود علة كافية لكل شيء حادث ويقرر ان من يجحد ذلك يصادم قوانين العقل .

ويثبت الاشعري ان صانع العالم لا يمكن ان يكون جسما ، كما يثبت صفات الكمال التي للاله الحق وهي صفات الخلق والتدبير .

ومع ان دليل الاشعري يدور حول ظاهرة واحدة هي ظاهرة الانسان ، فان الفكرة التي يقوم عليها تشمل كل شيء حادث يسير بحسب قوانين ، وعالمنا كله كذلك .

والى جانب الآيات التي اخذ منها المتكلمون « دليل الايمان » توجد في القرآن آيات ، هي في ذاتها ، اشبه بالادلة المنطقية لاثبات وجود الله .

ففي القرآن مثلا هذه الآيات القصيرة الموجهة الى منكري وجود الله .

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴿١﴾ أم خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ » الى قوله تعالى « أم لهم اله غير الله ، سبحان الله عما يشركون » (س ٥٢ - الطور ، ٣٥ - ٣٦ - ٤٣) .

والماتمل لهذه الآيات القصيرة يتبين له انها تتضمن بيان الاحتمالات الممكنة ، بحسب العقل ، فيما يتعلق بتعليل هذه الاشياء الحادثة التي نراها : ما هي العلة الحقيقية لوجودها ؟ وتذكر الاحتمالات على صورة الاستفهام المقصود منه تأكيد النقيض :

هل الاشياء الحادثة حدثت من غير علة ؟ هذا شيء يرفضه العقل .

هل هي احدثت نفسها ؟ هذا ايضا يرفضه العقل لما فيه من تناقض .

ولو فرضنا ان بعض الكائنات يؤثر في وجود بعضها ، فمن الذى اوجد نظام الكون في جملته من السموات والارض ؟ !

واذن فلا بد من علة لهذا النظام الكوني كله ، وهي الاله الخالق الحق .

والى جانب ما تقدم يوجد دليل آخر سماه العلماء « طريق ابراهيم » ، وهو يسمى في القرآن « حجة » ، وهو يؤخذ من الآيات التي تبين لنا موقف ابراهيم (ع) من تومعه الذين كانوا يقصدون الاصنام ومناقشته لهم وتفكره في نظام الكون واعتداده من تغير احوال الاشياء الى انها حادثة لا بد لها من محدث مخالف لها لا يتغير (وهذه الآيات هي : س ٦ - الانعام ، ٧٤ - ٨٣) .

وفي القرآن آيات تتكلم عن شعور الانسان عندما تحيط به الاخطار المهلكة ، وانه في اوقات الشدة يلجأ الى موجد الكون الذى بيده قوى الطبيعة . وهذا الشعور في حقيقته ناشيء عن

معرفة ضمنية وعميقة في نفس الانسان بأن له خالقاً هو خالق العالم ومدبره، لكن هذا الشعور الذي تغمره عوامل التقليد أو الإنكار أو الشك أو المكابرة والمناد أو الفرور ، يتجلى في وقت الشدة . فهنا يتجلى ما في الفطرة وما في اعماق تفكير الانسان . وقد اقام بعض العلماء دليلاً على وجود الله يستند الى هذا الشعور ، كما فعل المطهر بن طاهر المقدسى (ت حوالى ٣٤٠ هـ) في كتابه : « البدء والتاريخ » فهو يقول :

« من الدليل على اثبات البريء سبحانه وله النفوس ونسزع القلوب اليه ، اذا حزبت الحوادث ، اضطراباً . اذ لا يوجد مضطر وقد غشته نائبة ولدغته نائبة يفرغ الى حجر أو شجر أو مدر أو شيء من الخلاق الا اليه ، ويدعوه بما هو معروف عنده من اسم أو صفة - هذا مشاهد عياناً - كما تفرغ النفس عند المكاره المخوفة الى طلب المهرب والنجاة ، وكما يفرغ الطفل الى ثدى امه ضرورة وخلقة . كذلك الله في معرفة خلقه اياه ، الا ان اثر الدلالة في الخلق عليه اعظم من اثر ميل الطبع الى ما يلائمه والذوارة عما ينافره .

ولا يمكن للمعد المنكر ، وان غلا وتعمق في الالحاد ، الامتناع في معرفة الله واجراء ذكره واسمه على لسانه ، شاء ام ابى ، في حال معدة ونسيانه ، لان قلبه ولسانه على ذلك خلق ، كما ان طبعه على الميل الى المحبوب والذوارة عن المكروه جبل » .

على اننا نجد في القرآن ، الى جانب هذا كله ، آيات كثيرة توجه الانسان الى الإيمان بالاله الحق من طريق الترهيب والترغيب ، أى من طريق التأثير النفسي ، مع الاستعانة بما يهز الخيال وبالإماتال التي تعبر عن حقائق وبروح الموعظة الحسنة ، من امثلة ذلك هذه الآيات :

« يا ايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تلهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » الى قوله تعالى « حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق (س ٢٢ - الحج ، ١ - ٢ ، ٣١) .

« والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب » أو كظلمات في بحر لجي يفشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » (س ٢٤ - النور ، ٣٩ - ٤٠) .

« له دعوة الحق ، والذين يمدون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغة ، وما دعاء الكافرين الا في ضلال » (س ١٣ - الرعد ، ١٤) .

« مثل الذين كفروا يبرهم اعمالهم كراماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرن معاً كسبوا على شيء ، ذلك هو الضلال البعيد » (س ١٤ - ابراهيم ، ١٨) .

« وجاء من اقصى المدينة رجل يسمى ، قال : يا قوم اتبعوا المرسلين ، اتبعوا من لا يسألكم اجرا وهم مهتدون » ومالى لا اعبد الا فطرنى واليه ترجعون » اتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون » الى اذا لقي ضلال مبين » الى آمنت بربكم فاسمعوا من قول اهل الجنة ، قال : يا ليت قومي يعلمون » بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » (س ٣٦ - يس ، ٢٠ - ٢٧) .

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : اتقتلون رجلاً ان يقول : ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ان الله

لا يعلى من هو مسرف كذاب ❊ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله أن جاءنا » (س ٤٠ غافر ، ٢٨ - ٢٩) .

ونلاحظ أن هذه الآيات الأخيرة تجمع بين روح الموعظة وبين التفكير المنطقي على صسورة طبيعية بسيطة ، وتنجو نحو الإقناع والتوجيه للسامع أو القارئ من طريق دعوته إلى الموازنة .

وأذن ففى القرآن أنواع من الأدلة على وجود الله ، منها ما هو ذو طابع علمى فلسفى ، ومنها ما له طابع نظرى منطقى ، ومنها أدلة إقناعية متنوعة تكفى لإقناع الإنسان على أساس سيكولوجى . وكلها جميعا لا تقطع الصلة بين الفكر والواقع .

والقرآن يفترض أن فكرة الألوهية موجودة في أذهان من يخاطبهم، وهو يريد أن يقيم الدليل على وجود الله وعلى وحدانيته وتنزهه عن صفات الكائنات الحادثة المتغيرة التي نشاهدها ، ومن كل المفهومات والتصورات الإنسانية .

❊ ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير » (س ٤٢ - الشورى ، ١١) .

❊ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » (س ٦ - الأنعام ، ١٠٣) .

على أن القرآن اذ يبين الطريق لمعرفة الله بالاستدلال على وجوده من النظر في العالم ويصفه بكل صفات الكمال الثلاثة بالاله الحق ، يشير الى أن كنه ذات الله تعالى لا يدرك . وهو لذلك لا يتكلم عن « ماهية » الله اى من حقيقة ذاته ولا عن « هويته » ، اى من هو ، حتى مع وجود المناسبة الداعية الى ذلك ، وإنما يتكلم عن افعاله وأنه الخالق المدبر ، وتبدل على ذلك الآيات المتضمنة للمناقشة بين موسى عليه السلام وبين فرعون ، في موضعين من القرآن :

❊ قال فرعون : وما رب العالمين ❊ قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ❊ قال لن حوله : ألا تستمعون ❊ قال : ربكم ورب آبائكم الاولين ❊ قال : أن رسولكم الذى أرسل اليكم لجنون ❊ قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » (س ٢٦ - الشعراء ، ٢٣ - ٢٨) .

❊ قال : فمن ربكم يا موسى ❊ قال : ربنا الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى ❊ قال : فما بال القرون الاولى ❊ قال : علمها عند ربى في كتاب ، لا يضل ربى ولا ينسى ❊ الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبيلا وانزل من السماء ماء فاخرجنا به أزواجا من نبات شتى ❊ كلوا وارموا انعامكم ، أن في ذلك آيات لاولى النهى » (س ٢٠ طه ، ٤٩ - ٥٤) .

على أساس هذه الآيات يستدل المفكرون المسلمون على أن ذات الله تعالى لا تدرك ، اعنى أن العقل لا يحيط بكنه ذاته وأن كان يقطع بأنه موجود ، بالأدلة التي لا يمكن انكارها .

وايضا استنتج مفكرو الاسلام أن ذات الله لا يمكن أن تعرف التعريف المنطقى ، لأنه فريد في وجوده ، فلا يدخل في المفهومات العادية ، ولأن التعريف المنطقى يتألف من الجنس القريب والفصل ، وهو تعالى لا يدخل في جنس ولا نوع .

وعلى أساس الآيات المتقدمة ايضا قام البحث بين مفكرى الاسلام : هل لله « ماهية » بالمعنى الذى يطلق على الأشياء الحادثة التى يميز البعض فيها بين « ماهية » أو حقيقة بذكرها العقل كالإنسانية وبين وجود متعين بميزات ومشخصات فردية مثل أفراد الإنسان وهو ما يسمى « الهوية » ؟ وذهب الجميع الى أن الله تعالى لا يمكن أن تكون له ماهية يتضاف اليها الوجود كما في الممكنات المتكثرة ، وأن له حقيقة مخصصة لا يعلمها الا هو .

ومن الطبعي أن العقل الحادث المحسود لا يحيط بكنه المطلق الذى لا نهاية له .

ولذلك فإن القرآن عندما يتكلم عن الله فانه يذكر صفاته ويشير الى افعاله ، وإيات القرآن في ذلك غنية عن الإشارة (انظر مثلاً س ٢ - البقرة ٢٥٥ ، آية الكرسي ، س ٥٩ - الحشر الآيات الأخيرة ، س ١٠ - يونس ٣٠ ، س ٧ - الأعراف ٥٤ ، س ١٣ - الرعد ٢٠ ، س ٣٠ - الروم ٤٠ ، ٤٨ ، ٥٤) وقد يتكلم القرآن عن صفات الله على صورة التشبيه والرمز (س ٢٤ - النور ٣٥) .

مهما يكن من شيء فإن القرآن يعتبر أن ما فيه من إرشاد الى المعرفة بوجود الله وبكماله ومن تنبيه الى هذا الكون وعجائبه كاف في بعث الإيمان بالله والخشية له :

« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيتنه خاشعاً متصدداً من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (س ٥٩ - الحشر ، ٢١)

على أنه اذا كان القرآن من جهة يرشد المتفكر الى الطريق المؤدى الى الإيمان بوجود الله ايضاً استدلالياً يقوم على النظر العلمى والفلسفى في هذا العالم ، فانه من جهة أخرى يشير الى أن أساس الإيمان بالله ، أعنى المعرفة بأنه موجود وأنه خالق الأشياء ، موجود في الفطرة الانسانية . ففى القرآن هذه الآية :

« فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (س ٣٠ - الروم ٣٠)

وفي الحديث الصحيح ما يدل على أن كل مولود يولد على فطرة الإيمان بالله الحق ، ثم يتدين بدين والديه .

وفي القرآن أيضاً ما يدل على أن الإيمان بالله الى جانب أنه معرفة أصلية فهو عهد وميثاق اخذه الله على الأرواح الأدمية كلها ، قبل أن تظهر متلبسة بالإبدان في هذه الدنيا .

« وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : الست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة انا كنا من هذا غافلين » أو تقولوا انما اشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون » وكذلك تفصل الآيات ولعلمهم يرجعون » (س ٧ - الأعراف ١٧٢ - ١٧٢)

ومعرفة الروح بوجود الله وبأنه هو الخالق لها ، تلك المعرفة الأصلية في عالم الأرواح ، ليست معرفة استدلالية ، بل هى معرفة ضرورية أو تجربة روحية ، فيها تدرك الروح وجود ذاتها وتدرك أن الله هو مصدر وجودها .

وعلى أساس القرآن قام البحث حول المعرفة بالله ، وهل هي في هذه الدنيا استدلالية أو هى ضرورية بدئية مفروزة في الفطرة .

وقد ذهب البعض الى أن كل عقل فيه المعرفة بالله ، ولكنها مغمورة أو لا يستطيع الإنسان أن يعبر عنها ، أو هى مغمورة بتأثير عوامل كثيرة .

وذهب البعض الى أن المعرفة بالله استدلالية ، وانها نتيجة للنظر العقلي في العالم . والأولون هم في الغالب من الصوفية الذين يعرفون بطبيعة الحال طريق النظر العقلى ويسلكونها ، والى جانب ذلك يسلكون طريق التصفية الروحية ليدركوا المعرفة بالله في أرواحهم ادراكاً ذوقياً وبدركوا تدبير الله في كل شيء .

والآخرون هم أصحاب النظر والاستدلال ، وهم جماعة المتكلمين والفلاسفة بوجه عام ، وكل المؤمنين المشغولين بالعلوم الطبيعية والكونية .

على أنه لا تناقض بين الطرفين ، لأن النظر والاستدلال لا يعارضان طريق التصفية ، وهما يؤيدان من طريق البرهان ما تشره التصفية من معرفة ذوقية ، وإن كانت هذه المعرفة أشبه بحقيقة حقيقة بالله وفي الله .

والمصوفية يرون أن المعرفة بالله الموجودة في النفس من عهد : « ألت بركم » كالخط المكتوب على لوح وقع عليه غبار ، ثم أزيل ، فنندك ذلك يظهر الخط (١) . ويرد ذكر هذا العهد مع الله في أشعارهم ، مثل شعر ابن الفارض وشعر سعدى الشيرازي وغيرها .

والمصوفية المحققون في حضور دائم بين يدي الله ، حتى قال بعضهم : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه ، وقال الآخر : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله (٢)



أدلة مفكرى الإسلام على وجود الله كثيرة وهى متنوعة بحسب مدارسهم الكبرى ، من متكلمين وفلاسفة .

فأما المتكلمون من معتزلة وأشاعرة فإنهم جميعاً يعتبرون أن أول واجب على الإنسان هو أن ينظر بعقله ليعرف الدليل على وجود الله ويعتبرون أن حجة العقل هى الأساس للدين كله لأن المعرفة بالدين المنزل وأنه حق وأن الأنبياء الذين جاءوا به صادقون ، كل ذلك يقوم على العقل وهم يرون أيضاً أن الفاعل لا يمكن أن يعرف إلا بما يصدر عنه من أفعال دالة عليه . وعلى هذا الأساس يؤكدون مبدأ العلوية أى أن الحادث لا بد له من علت ، وأنه يدل على علته بحسب ضرورة العقل .

وبناء على هذا كله فإن دليل المتكلمين الرئيسى لأثبات وجود الله هو « دليل الحدوث » ، أى أنه يستند إلى النظر في هذا العالم وأثبات حدوث ما فيه من أجسام ، ثم اثبات وجود محدث له ، بمقتضى ضرورة عقلية لا شك فيها .

وإذا نحن نظرنا في كتب متكلمي المعتزلة ، في مرحلة نضج علم الكلام عندهم (٣) وجدنا أن الدليل الذى يفضلونه يسير على الترتيب الآتى :

١ - هم يثبتون أن فى الأجسام « معاني » ، أى أشياء ندركها ، هى الاجتماع والافتراق والحركة والسكون ، وهم يسمون هذه الأمور الأربعة : « الأكوان » ، يقصدون أنها الأحوال الرئيسة التى يكون عليها وجود الأجسام .

٢ - ويثبتون أن تلك المعاني حادثة .

٣ - وأن الأجسام لا تنفك من هذه الأكوان ولا تسبقها .

٤ - يبينون أنه بما أن الأجسام لا تخلو من الأكوان ولا تسبقها فلا بد أن تكون حادثة مثلها .

(١) « فوائج الجمال وفوائج الجلال » لنجم الدين الكبرى ، ط القاهرة ص ١١ (تحقيق فرنز مابر)

(٢) هم يرون أن الله تعرف لعامة الناس بصحته ، وإلى خاصتهم بكلامه ، وإلى الأنبياء بنفسه (راجع التعريف

للأهل الصوفى للعلامة ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٦٤ - ٦٦)

(٣) راجع مثلاً كتاب « شرح الأصول الخمسة للفاخرى عبد الجبار ، القاهرة ١٩٦٠ (مكتبة وعية)

وفي بيان كل مقدمة من هذه المقدمات التي يسمونها : الدعاوى الأربع ، يردون على الاعتراضات التي توجه إليها ، مستنديين في ذلك إلى العقل . ويخصون بالرد مذاهب الفلاسفة المخالفة للحق .

وإذا نظرنا في كتب الأشامرة وجدنا الترتيب التالي :

بمد أن يعرفوا مفهوم « العالم » وأنه كل ما سوى الله تعالى وصفاته وأنه مؤلف من جواهر وأمراض ، أي من ذوات وصفات لها ، وأن الجسم يتألف من جواهر يقولون :

١ - توجد أمراض

٢ - الأمراض حادثة

٣ - الجواهر يستحيل أن تكون بلا أمراض

٤ - يستحيل أن تكون هناك حوادث لا أول لها، بمعنى أنه يستحيل أن يكون قبل كل عرض عرض في الماضي إلى ما لا نهاية .

٥ - الجواهر لا تسبق الحوادث التي تمرض فيها

٦ - إذن الجواهر حادثة ، لأن ما لا يسبق الحوادث فهو حادث .

وبعد أن يثبت المتكلمون وجود المحدث يقيمون الدليل على أنه لا يمكن أن يكون جسماً ، وأنه لا بد أن يكون واحداً ، بدليل ثبات نظام العالم وتناسق أجزائه .

وهم يثبتون لله الصفات ، لا بحسب ما يتخيلون ، بل على أساس النظر والاستدلال من وجود العالم وأحواله :

مجرد وجود العالم يدل على القدرة ، وهم يبدعون بآيات هذه الصفة لأن العالم نتيجة لها . ووجود العالم على نحو معين ، ووجود الأشياء ، كل بحسب أحواله الخاصة به ، يدل على أن الإله مريد وأنه فعال لما يريد .

ووجود الأحكام والأنساق في نظام الأشياء يدل على أن الله عالم حكيم .

والإرادة والعلم والحكمة تدل على أن الإله حي . وهكذا الاستدلال على بقية الصفات .

والمتكلمون في آياتهم لوجود الله يؤكدون التنزية الكامل لذاته عن مشابهة الكائنات الحادثة ، ويردود على المذاهب المادية وعلى القائلين بالطبيعة وقولهم ردوداً تستند إلى النقد لمفهوم الطبيعة وكل استدلالهم يقوم على العقل والواقع الذي يشاهده الإنسان في الكون أو في نفسه .

ولا نجد عندهم تصورات خيالية كماعند فلاسفة اليونان ولا مشكلات مصطنعة من قبيل القول بأن كون العالم محدوداً يثير مشكلة عدم دلالة على القدرة المطلقة والعلم والحكمة التي لا نهاية لها . وهم بحكم قولهم بحدوث العالم يقولون بأنه محدود متناه ، ولكنهم يقولون أن ما يمكن أن يصدر عن الله لا نهاية له ولا حدود ، ولكنه يظل دائماً شيئاً حادثاً متناهياً ، وأن كانت قدرة الله صالحة لإيجاد ما لا نهاية له .

وهذا ناشئ من تمييزهم الواضح بين الفاعل الحق أي الخالق القادر المبدع ، وبين الأشياء المخلوقة المحدودة .

- على أن بعض المتكلمين انفرد بأدلة على وجود الله اختص بها فيذكر لإبراهيم بن سيار النظام ، المتكلم المعتزلي الذي نبغ في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة دليل على وجود الله يمكن تلخيصه فيما يلي :
- الاشياء في هذا العالم مختلفة متضادة بطبيعتها ، لكنها مجتمعة ومقهورة على خلاف طبيعتها . ولما كان الضدان لا يجتمعان من ذات أنفسهما فإن اجتماعهما يدل على فعل لهما على خلاف طبيعتهما ، والخاضع لقهر غيره ضعيف حادث محتاج الى محدث .
- وللأشياء تغيرا خارجيا عن قدرتها وإرادتها مما يدل على صانع لها يدبر أمرها .
- وعند المظهر بن طاهر المقدسي (١) الذي نبغ في النصف الأول من القرن الرابع للهجرة اجمال لكثير من الأدلة على وجود الله ، وأهمها :
- ١ - الدليل الذي يمكن أن نسميه « دليل الاضطراب » أو « دليل الافتقار » ، وقد تقدم ذكره (ص ١٦٣ - ١٦٤) وهو يتلخص في الاتجاه الانسان في اوقات الشدة الى موجد نظام الكون ، أيانا بذلك في قرارة نفسه .
- ٢ - الدليل المستند الى اجماع الامم على وجود صانع مدبر ، على نحو ما لاحظنا عند الرواقيين (٢) .
- ٣ - الدليل الثاني ، مع مزجه بالدليل الكوني ، وصورته هكذا :
- « ومن الدليل على الباطن البشري سبحانه هذا العالم بما فيه من عجب النظم وبديع التركيب ومحكم الصنع ولطيف التدبير والاتقان ، فلا يخلو من ثلاثة أوجه :
- أما أنه لم يزل كما هو ،
- وأما أنه لم يكن ، فكان بنفسه ،
- وأما أنه كونه مكون ، هو غيره ،
- فلما استحال أن يكون قديما لم يزل ، لمقارنة الحوادث إياه وأن (ما) لم يخل من الحوادث فحادث مثلها ،
- واستحال أن يكون الشيء نفسه ، لاستحالة الكائن أن يَبْقَى نفسه - فكيف يجوز توهم المعدم أن يتركب فيصير علما ،
- لم يبق غير الوجه الثالث وهو أنه كونه مكون هو غيره ، غير معدوم ولا محدث ، وهو الباريء جل جلاله »
- ٤ - الدليل المستند الى تساوت المخلوقات في درجاتها . فلو كانت الاشياء راجعة الى ما يسمى الطبيعة لاستوت أحوالها وتكافأت أسبابها ولم تتفاوت ،
- فلما وجدناها على خلاف ذلك فلا بد لها من مدبر ، وهو الله .
- ٥ - الدليل الثاني المستند الى الاتقان والدقة والنظام في كل شيء ، مما يدل على تدبير قادر حكيم ،

(١) في كتابه اليهد والتاريخ ج ١ ، بيروت (مكتبة خياط) ، ص ٥٦ فما بعدها .

(٢) ص ١٤١ مما تقدم .

ويرد المقدسي على القائلين بأن هذا العالم في نظامه وتركيبه يرجع الى فعل الطبيعة ، على النحو الآتي :

« فان زعم أن تركيب هذا العالم على هذا النظم والتركيب من فعل الطبايع ، فالطبايع اذن احياء قادرة حكيمه عالمه . ولم يبق بيننا من الخلاف الا تحويل الاسم وتغيير الصفة .

وان انكر حياة الطبيعة وحكمتها وقدرتها ، فكيف يجوز وجود فعل محكم منقن من غير حكيم حي قادر ؟

ولا محيص للملحد من حجج الله وآياته ، فكيف وهو حجة بنفسه ولغيره ... »
وهناك اشارات عند المقدسي الى أدلة أخرى اقناعية مثل :

مجرد اثارة السؤال : هل الاله موجود ؟ يدل على وجوده .

وكذلك شك الشاكرين في وجوده له نفس الدلالة

وايضاً وجود الخير والشر والثواب والعقاب يقضى بشروعة وجود الاله



والمكتلمون يهتمون بانبات مبدأ العلة على اساس مستمد من الواقع والتجربة ومن طبيعة العقل . وهم ايضاً يهتمون باقامة الدليل على انفراد الله تعالى بالازلية ويبينون ان القول بقدم المادة مستحيل ، لانها تنفص ، ويعتريها الانفعال والاعتماد ، سواء كانت ميتة او حية . وهذا يناقض مفهوم الازلية والقدم .

وجميع المشتغلين بالعلوم الطبيعية والكونية والانسانية من علماء الاسلام لا يفتلون في كتبهم عن الاشارة المستمرة لوجود الله وتدبيره للعالم وآيات صنعته الظاهرة في نظام العالم ونظام العقل واحوال النفس ، بحيث يمكن القول ان طائفة كبيرة جداً من مفكرى الاسلام تقيم الأدلة على وجود الله على اساس علمي مستمد من صميم الواقع .

وقد اكتسبت العلوم الطبيعية عند الاسلاميين بواحث كثيرة من تنبيه القرآن للكون وآياته ، وهنا تصدق كلمات كنت في قوله ان الدليل الفيزيقي الديني بمد البحث الطبيعي ببواحث وغايات . وكما ان العلم المتزايد بالصنع يؤدي الى تزايد العلم بالصانع فان العلم بوجود صانع لا نهاية لقدرة وعلمه وحكمته بمد الباحث في الكون بروح تساعده على اكتشاف متزايد لاسرار الكون .



ولفلسفة الاسلام ادلتهم على وجود الله . ولا بد من التمييز بينهم ، نظراً لتنوع طرقهم في اقامة هذه الأدلة .

فالكندي ، مؤسس الفلسفة الاسلامية ، يمثل اتجاهها مستقلاً . ولو نظرنا في كتبه لوجدنا أدلة على وجود الله تقوم على مقدمات واضحة : اما من البديهيات الرياضية والمنطقية ، واما من النظر في الواقع الكوني . وأهم أدلته على وجود الله :

١ - الدليل الذي نستطيع ان نسميه : « دليل التناهي » ، لانه يقوم على اثبات تناهي هذا العالم من حيث امتداده المكاني ، ومن حيث مدة زمانه ، ومن حيث حركته .

والكندي يربط بين الجسم والزمان والحركة ، كما فعل أرسطو ، لكن على حين قال أرسطو بازلية هذه الأشياء بلا دليل كاف ، فان الكندي اقام الدليل على تناهيها ، وبذلك اثبت بدايتها وحدوثها ، اي حدوث العالم وضرورة محادث له . ودليله يستند الى فكرة مقبولة منذ أيام أرسطو وهي : ان كل ما يحدث ويخرج الى حيز الوجود متتابعاً على هيئة وحدات أو أجزاء ، لا بد ان يكون متناهيها من أوله ومن آخره ، والا أدى خلاف ذلك الى التناقض .

فنحن لو فرضنا ان امتداد هذا العالم في المكان او مدة وجوده في الزمان او حركته وحركة

ما فيه ، شيء لا نهاية له ، ثم نظرنا من نقطة ما ، فإن الامتداد المكاني أو الزماني يكون بلا نهاية بحسب الفرض . فلو أننا نظرنا من نقطة أخرى تكون مع النقطة الأولى على خط مستقيم وتبعد عنها ، لكان عندنا أيضا ، بحسب الفرض شيء لا نهاية له . لكن ذلك يؤدي إلى تفاوت اللانهاية أو إلى أن يكون الجزء مثل الكل . والتفاوت يدل على التناهي ، والقول بأن الجزء مثل الكل تناقض .

ومن جهة أخرى فإن انتهاء الحوادث إلى حدث يصل إلينا ، شيئا كان أو زمانا ، يقتضى أن يكون ما سبقه من حوادث وأشياء جاءه في الترتيب بعدها ، شيئا متناهيا .

وإذا ثبت تنامي الزمان والحركة من جهة البداية في الماضي ثبت حدوث العالم ووجود محدث له (١) .

٢ - الدليل الذي يستند إلى ما نشاهده في الأشياء من أنها تعترضها وتتوالى عليها أحوال التغير من وحدة وكثرة وتركيب وانحلال ، فتتابع هذه الأحوال يدل على أنها ليست للأشياء بحكم طبيعتها ، فلا بد أن تكون راجعة لعل خارجة عنها .

٣ - الدليل المنطقي التحليلي وهو يتلخص في أن الشيء الحادث لا يمكن أن يكون علة لحدوث ذاته لما في ذلك من تناقض ، لأنه لكي يحدث ذاته لا بد أن يكون موجودا ، وبما أنه لم يكن موجودا ، فإنه يستحيل أن يحدث ذاته .

٤ - وعند الكندي الدليل الغائي على صورة واضحة تجمع بين الاعتماد على الحس وعلى العقل ، يقول الكندي :

« أن في الظاهرات للحواس ، أظهر الله لك الضغيات ! لاوضح الدلالة على تدبير مدبر أول ، اعنى مدبرا لكل مدبر ، وفاعلا لكل فاعل ، ومكونا لكل مكون ، وأولا لكل أول ، وعلة لكل علة ، لمن كانت حواسه الآلية (٢) موصولة بأضواء عقله ، وكان المكنى عنده ، في كل أمر شجر بينه وبين نفسه ، العقل فان في نظم هذا العالم وترتيبه وفعل بعضه في بعض وانتقاد بعضه لبعض وتسخير بعضه لبعض واتقان هيئته على الأمر الإصلاح في كون كل كائن وفساد كل فاسد وثبات كل ثابت ، وزوال كل زائل ، لأعظم دلالة على اتقن تدبير - ومع كل تدبير مدبر - وعلى أحكم حكمة - ومع كل حكمة حكيم - لأن هذه جميعا من المضاف ... » (٣)

والكندي يتكلم في رسائله عن الاحكام والنظام في هذا العالم ويرى أن ما فيه من الدقة والاتقان يفوق ما نجده في الصنائع الدقيقة ، لكن لا يدرك جمال الكون في جملة الا اصحاب « العيون العقلية الصافية » ، وأهل المربة العالية في العلم بهيئة العالم وينظام الطبيعة (٤)

والكندي يثبت الوجدانية لله ، كما ثبتت تنزيهه عن جميع المفاهيم التي تصدق على الأشياء التي نعرفها ويسميه : « الواحد الحق » أو « الإنية الحق » . وليس معنى ذلك أنه يتصور أن الاله مجرد كائن غير مادي مفارق لعالم الحس ، كما هو الحال عند فلاسفة اليونان بوجه عام ، بل الاله عنده ذات حقيقية ، وهو ، إلى جانب تنزيهه عن التصورات الإنسانية ، بصفه بكل الصفات التي لا بد منها للخلق والتدبير : من القدرة والعلم والحكمة والرحمة وكمال العناية بال مخلوقات والتدبير لكل شيء بما يصلح أمره .

(١) راجع تفصيل هذا الدليل وفيره من أدلة الكندي في نشرتنا لرسائله الفلسفية ، (الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٠ ص ٧٠ فما بعدها .

(٢) أي أعضاء الحس عنده ، أي أنه يحس ويفكر فيحيا يدرك بحواسه .

(٣) رسائل الكندي الفلسفية ، ج ١ ، ٢١٤ - ٢١٥

(٤) المصدر نفسه ص ٢٣٧

عند الفارابي نجد أساسا جديدا وطريقة جديدة لا ثبات وجود الله . كان الفارابي فيلسوفا ميتافيزيقيا مثالي النزعة . وهو وإن كان يسلم بدلالة هذا الصنع البديع المتجلى في نظام الكون على وجود صانع حكيم ، فإنه لا يفضل سلوك هذا الطريق، ويؤثر طريق التأمل لفهم الوجود وتحليل هذا المفهوم . يقول الفارابي :

« لك أن تحفظ عالم الخلق فتري فيه إمارات الصنعة (١) . ولك أن تعرض عنه وتلحظ عالم الوجود المحض (٢) ، وتعلم أنه لا بد من وجود بالذات ، وتعلم كيف ينبغي أن يكون عليه الموجود بالذات . فإن اعتبرت عالم الخلق فأنت صاعد (٣) ، وإن اعتبرت عالم الوجود المحض فأنت نازل ، تعرف بالتزول أن ليس هذا ذلك (٤) وتعرف بالصعود أن هذا هذا (٥) - «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق (٦) ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد (٧) » .

« نص : إذا عرفت أولا الحق ، عرفت الحق وعرفت ما ليس بحق ، وإن عرفت الباطل أولا ، عرفت الباطل ولم تعرف الحق على ما هو حقه ، فانظر الى الحق ، فإلك لا تحب إلا اثنين ، بل توجه بوجهك الى وجه من لا يبقى إلا وجهه (٨) »

وتفصيل الطريق التي يؤثرها الفارابي تتجلى في قوله : الموجودات على ضربين :

أحدها إذا اعتبرنا ذاته لم يجب وجوده ، وهو يسمى ممكن الوجود .

والثاني إذا اعتبرنا ذاته وجب وجوده ، وهو يسمى واجب الوجود .

فإذا فرضنا أن ممكن الوجود غير موجود لم يلزم عن ذلك محال ، فإذا وجد فلا غنى لوجوده عن ملته . ولا يجوز أن تمر الصل بلا نهاية ، بل لا بد أن تنتهي الى شيء واجب الوجود هو الوجود الأول .

هذا الدليل يمكن أن نسميه « دليل الامكان » .

وعند الفارابي دليل آخر يقوم على التمييز بين حقيقة الاشياء أو ماهيتها (مثل الانسانية بالنسبة لأفراد الانسان) وبين وجودها المتمشخص المشار إليه أو هويتها (مثل أفراد الانسان) . فبما أن للممكنات « ماهية » « وهوية » ، وليست الأولى داخلية في الثانية ولا الثانية في الأولى ، ولا أحدهما تقتضى الآخرى ، فانهما إذا اجتمعتا فلا بد لهما من مبدأ مغاير لهما ماهيته عين هويته .

ومع أن الفارابي يعترف بأن مفهومات « الوجود » و « الوجوب » و « الامكان » مفهومات عقلية أولية ، فإنه يمكن إثارة الإشكالات حولها ، كما يمكن إثارة الإشكالات حول عدم كفاية « دليل الامكان » في اثبات وجود إله الحق . ولو قال قائل أن هذا العالم واجب الوجود ، ووجوده من

(١) وتستعمل بها على وجود الصانع

(٢) فترى أنه إما أن يكون وجودا بالذات معنى وجودا واجبا لذاته وإما أن يكون ممكنا وجوده من غيره .

(٣) من الماحول الى الملأه .

(٤) أى تستطيع أن تفرق بين الواجب والممكن .

(٥) أى ربما لم تتطص من التصورات المتخلطة بالأشياء فلم تنزه ذات الواجب من ذات الممكنات .

(٦) هذا هو الطريق الأول الذى يسلكه الحكماء الطبيعيون الذين يستدلون بالخلق على الخالق .

(٧) هذا هو طريق الحكماء الإلهيين الذين يستدلون بالخالق على الخلق ، أى يعرفونه أولا ثم يتناولون الخلق .

(٨) لصوصي الحكم للفارابي .

ذاته ، فانه لا يمكن إبطال دعواه إلا باثبات حدوث العالم وأنه معلول بالمعنى الحقيقي . وهذا الاعتراض قد وجهه المتكلمون المتفلسفون ، مثل فخر الدين الرازي (١) ، على دليل الفلاسفة .

ولا يخرج دليل ابن سينا على وجود الله ، كما نجد هذا الدليل في كتاب « الإشارات » ، عما يقوله الفارابي ، وإن كان كلام ابن سينا أكثر تفصيلا وأحسن أسلوبا من كلام الفارابي .

والهم أن الفلاسفة الميتافيزيقيين يبنون دليلهم على الاستنباط من مفهوم الوجود وأنهم يستنبطون صفات واجب الوجود استنباطا نظريا وينزهونه عن صفات الكائنات الحادثة .

ودليلهم على اثبات الواجب يتضمن اثبات أن الجملة المؤلفة من ممكنات لا بد أن تكون معلولة لعلة خارجة عنها ، وبذلك لا يتوجه على دليلهم الاعتراض الذي أثاره كنت فيما تقدم ، حيث أثار أشكال دعوى أن تكون الجملة المؤلفة من ممكنات شيئا واجبا بذاته ، على خلاف حكم الممكن الجزئي .

ويمكن تلخيص الكلام في طريقة الفلاسفة والمتكلمين على النحو الآتي :

« طريق البات الواجب عند الحكماء : أنه لا شك في وجود موجود : فإن كان واجبا فهو المرام ، وإن كان ممكنا ، فلا بد له من علة بها ترجع وجوده فنقل الكلام إليه . فاما أن يلزم الدور أو التسلسل ، وهو محال ، أو ينتهي إلى الواجب وهو المطلوب .

وعند المتكلمين : أنه قد ثبت حدوث العالم ، أو : لا شك في وجود حادث ، وكل حادث فبالضرورة له محدث : فاما أن يدور أو يتسلسل ، وهو محال ، واما أن ينتهي إلى قديم لا يفتقر إلى سبب أصلا ، وهو المراد بالواجب .

وكلا الطريقتين مبنى على امتناع وجود الممكن أو الحادث بلا موجد وعلى استحالة الدور أو التسلسل » .



إن موضوع هذه الدراسة هو الإيمان بالله في عصر العلم . والمقصود ، بطبيعة الحال ، هو العلم بمعناه الحديث .

لكن المعرفة العلمية بوجه عام بدأت منذ زمان بعيد ، خصوصا على يد اليونان ، وارتقت ارتقاء كبيرا على يد العرب ، وعاش مفكرو العصور الوسطى الأوروبية على التراث اليوناني كما مرّضه العرب وأصلحوه ، سواء في الناحية النظرية أو العملية التطبيقية .

ثم ظهرت الحركة العلمية الحديثة في أوروبا مع عصر النهضة ، وازدهرت على يد فلاسفة علماء ، إلى أن تميز العلم بمنهجية وبالتحديد موضوع اهتمامه ، خصوصا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

وكل الأدلة التي تقدم ذكرها لإثبات وجود الله هي في عصر العلم بمعناه الواسع ، وإن كان بعضها له صبغة نظرية مجردة ، وبعضها الآخر يتكلم عن الطبيعة والاستدلال منها كلاما لا يستند إلى علم كاف بالطبيعة .

وتتميز المرحلة الحاضرة للمعرفة العلمية بمميزات كثيرة جدا من الناحية الحسية التجريبية ومن الناحية النظرية على السواء .

(١) في مؤلفاته مثل : « الخطاب العالي » و « نهاية المطول » ، وما لا يزال مخطوطين .

(٢) شرح المقصد الخامس والسادس من كتاب المقاصد للتفانزي ، مخطوط باريس رقم ١٣٦٥ ، ٢ ورقة ب

وكثير من المفاهيم والتصورات والأحكام العلمية الماثورة عن القدماء ، بل التي كانت مقبولة عند العلماء في العصور الحديثة ، تغيرت تماما وحلت محلها مفاهيم وأحكام أخرى .

والمعرفة بالكون ازدادت زيادة كبيرة ، سواء فيما يتعلق بالاشياء التي لا نهاية لها في الكبر أو التي لا نهاية لصغرها . ومع ذلك فإن العالم الكبير يشعر بضالة ما وصل اليه من معرفة ، بل هو اليوم أقوى شعورا بذلك منه في أي وقت مضى . وانتهى عصر الغرور بالمعرفة العلمية السطحية وبالنظريات والآراء العلمية التي سيطرت على العقول فترة طويلة وكانت نتيجة لتسرع ولمعرفة سطحية ولأمزجة غير متزنة ، مثل التصورات المادية في تحليل ظهور الاشياء والتصورات الميكانيكية في تفسير ظاهرات الحياة وتطورها والفكر ونشاطه ، وانتهى ذلك القصور بفضل ازدياد المعرفة العلمية اتساعا وعمقا على نحو يشر باستمرار لا ينقطع ويفتح مجالات للمعرفة وتطبيقاتها لا تتفقد عند حد . والآن يقف العلماء أمام هذا العالم في نوع من الفيلة العقلية بسبب ما وصلوا اليه من معرفة بالعالم جديرة بان تؤتي صاحبها لذة لا مثيل لها ، وفي نوع من الاتزان والثبات في الحكم على الاشياء وخصوصا في نوع من الثقة المستنيرة بالانسان ونظام عاقل وبمركزه في عاقله ، وان كانت هذه الثقة لا تزال تحتاج الى سند لروح الانسان اكثر مما تمنحه اياه استنتاجاته السليمة من ملاحظاته للطبيعة وشعوره بمركزه فيها .

وقد بعثت المعرفة العلمية في عقول المستفيين بالعلم حدوسا وافكارا كثيرة تتجاوز معطيات التجربة بكثير ، وبعثت في قلوبهم انوعا من الاحاسيس والاحوال النفسية تحركت منذ ازمنة بعيدة في قلوب المتأملين لنظام العالم واحكامه ودقة صنعته وجماله ، فوقفوا منه موقف التفديس العاطفي الشعري ، لكنها في نفوس العلماء الحديثين ، بفضل ما اكتشف أمام عقولهم من آفاق المعرفة العلمية ، تأخذ صبغة أخرى تجمع الى العاطفة عنصرا عقليا منطقيا .

ويخطيء من يتصور أن العالم بالمعنى الحديث مجرد انسان يستعمل ملكات الملاحظة والتفكير في دراسة موضوعية للاشياء ، دون أن يكون له موقف فكري منها ، ودون أن يتطلع عقله الى معرفة اصعب بكثير من الاسرار التي لا تزال الملاحظة تعيط عنها اللثام .

ان العالم الحديث انسان يعيش في حضارة وثقافة ، وهو في تعامل معها ، لانه وليدها ، وهو في كثير من الاحيان يعود الى الافكار الدينية أو الفلسفية ويراجعها في الجو الذي يعيش فيه ، ويكون له رأيا في قيمتها الحقيقية ، ويدرك علاقتها وأهميتها لحياته .

ولا يكون الانسان بعيدا عن الصواب اذا قرر ان الكثيرين جدا من العلماء يعودون الى وجهات النظر الدينية بعد فترة ابتعاد عنها ، وان العلم يدعو الى الإيمان بالخالق القادر الحكيم . وبين السند والاساس للرسالة الخاصة للانسان .

على انه لما كانت الاديان المنزلة لم تفهم الفهم الكامل بسبب اشتغالها على افضل موضوعات المعرفة ، وهي : حقيقة هذا الكون ، وحقيقة الانسان ، ومصدر وجودهما ، وبسبب قصور المعرفة الانسانية عن حل هذه المضلات حلا صحيحا ، فان بعض العلماء يصبحون بينهم وبين انفسهم فلاسفة ولاهوتيين ، بل صوفية ، ويشيرون من الاسئلة الجوهرية فيما يتعلق بالعالم والاله والانسان ما يحتاج الى توضيح ، لكن لما كان الاشتغال بذلك ليس من مصيهم بحثهم فان كثيرا من العلماء الذين وصلوا اليه ، وبقي في توضيح المشكلات ، يظل خاصا بهم ، الا اذا استفاد منه اصحاب الميادين الأخرى في اثبات ما يعتنقهم . والعلماء في العادة لا يتكلمون في هذه الميادين خصوصا ميدان

الايان الا عند الضرورة : اذا سئلوا عن ذلك^(١) أو انكر متفلسف أو عالم (٢) وجود الله أو زعم أن العلم يتناق مع القول بوجود الله ، فعند ذلك يتكلمون في الموضوع من حيث هم علماء مؤمنون لا من حيث هم علماء عقائد متخصصون .

وقد كان لا بد قبل الكلام عن الايمان في عصر العلم من بيان نوع الأدلة على وجود الله ، لكي تبين أسسها ومقدار قوة السند الذي تستند اليه ، سواء من المعرفة بنظام العالم أو بنظام الفكر ، وتبين مدى ما بلغت المحاولة الإنسانية في سيرها نحو المعرفة بالحقيقة الكبرى التي هي مصدر كل حق وكل حقيقة .

ولا يمكن ادراك أهمية العلم الحديث في إثبات وجود الله إلا اذا عرفنا :

أولا : سبب الالحاد في العصر الحديث خاصة

ثانيا : نظرة العلم الحديث للعالم وكيفية دراسته للأشياء وتفسيره لها .

وقد كان هناك الحاد وملحدون دائما ، لم يخل منهم عصر ، ومعظم الحادهم نتيجة للهوى أو الجهل أو إلى مزاج شخصي غير متزن انحرف بصاحبه عن الحكم السليم ، وبعض الحادين يتعمد لأمر أو آخر ، محاربة الايمان بوجود الله .

أما في المصور الحديثة فإن الالحاد يرجع — بالإضافة إلى ما تقدم ، إلى مذاهب فلسفية زائفة في تفسير الكون يقبلها العاجزون عن الاستقلال في التفكير ، أو الذين يبقون من وراء اتباعها تحقيق أغراض شخصية .

من هذه المذاهب المذهب المادى الذى صار يمثل في العصور الحديثة أفراد كثير من المستغنيين بالعلوم الطبيعية . وهم كثيرون خصوصا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر منذ أيام الطبيب الفرنسى لاميتري La Mettrie (ت ١٧٥١) في كتابه الذى سماه : « الإنسان الآلة » (L'Homme Machine) إلى أيام عالم الأحياء الألماني أرنست هيكل Ernst Haeckel (ت ١٩١٩) الذى دافع من نظرية التطور وزعم أن المادة هي الوجود الوحيد ، وأن الحياة نشأت من المادة على نحو غير مقصود . وفيما بين هذين الرجلين ظهر كثيرون جاءوا بتأكيدات يدل تطرقها على عدم صحتها ، من قبيل ذلك ما زعمه البارون فون هولباخ P.H.D. von Holbach (ت ١٧٨٩) من أنه لا يوجد سوى المادة والحركة والعلة ، وما ادعاه ج . كابينيس G. Cabanis من أن الدماغ (المخ) يهضم الانطباعات التي تأتي من الحواس وأنه يفرز الأفكار على نحو ما ، وما ذهب اليه

(١) مثل الكتاب الذى نشره John Clover Monsma بعنوان :

The Evidence of God in an expanding Universe, G.P. Putman's Sons, 1958, New York

وذلك بعد أن سأل ثلاثين عالما من مختلف التخصصات في العلوم الكونية والطبيعية والرياضية عن دأهم في وجود الله . وقد أجاب كل منهم مستندا إلى ملاحظات ونتائج من ميدان تخصصه وكلم يؤمنون بوجود الله إيمانا علميا. وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ د. حمداد سرحان ، ونشرته مؤسسة فرانكفيلد بالقاهرة بعنوان : الله يتطهى في عصر العلم .

Man does not stand alone

(٢) مثل الكتاب الذى نشره العالم Cressy Morrison بعنوان

الإنسان لا يقف وحده ، أى : الإله موجود وهو خالق الكون والإنسان) ردا على كتاب Julian Huxley بعنوان : Man stands alone = الإنسان يقف وحده = لا يوجد إله . وقد ترجم الأستاذ محمود صالح اللبكي الكتاب الأول بعنوان : العلم يدعو إلى الايمان ، نشره في القاهرة منذ ١٩٥٢ - مؤسسة فرانكفيلد .

الفسيولوجي الهولندي . مولشوت Moleschott J (ت ١٨٩٣) من أنه بدون فوسفور لا يكون هناك تفكير ، وما قاله ل . بوختر L. Buechner من أن المادة هي الأساس الأول لكل الوجودات ، وأن في المادة كل قوى الطبيعة وكل القوى الروحية ونحو ذلك من تأكيدات مطلقة لا يقبلها العقل العلمي الحديث .

وكان من أسباب هذه الفلسفة المادية ما لوحظ من أن الصور الكبرى للوجود الذي نعرفه ، وهي : المادة والحياة والفكر ، توجد في عالمنا هذا متداخلة ومربطة . ولغير سبب ظاهر أو دليل مقنع رد الماديون الحياة والفكر إلى المادة ونشاطها ، وساعد على ذلك دعوى مأثورة من قدماء اليونان لم يتناولها الباحثون بالنقد ، وهي القول بأن المادة أزلية ، فقبلها البعض وحاولوا تأييدها بتجارب كيميائية تدل على أن وزن المادة في مركب نخضعه للتحليل والتفصيل لا يتغير ، فذهبوا إلى أن المادة لا تفنى ولا تستحدث . وتمسك البعض بمثل هذه التجربة التي لا يصح أن تتخذ دليلاً على أكثر مما فيها ، إلى أن جاء العلم الحديث فغير مفهوم المادة وأثبت تبعا لذلك حدودها وإمكاناتها .

وكان من أسباب الأبعاد نظريات التطور التي كانت نتيجة لملاحظات جديرة بالتقدير ، لكنها لم تفسر نشأة الحياة ولا تطورها تفسيراً يقنع العقل المستقصي ولا هي نظرت للحياة ضمن محاولة لتفسير العالم . فالبعض اتخذ بهذه النظرية وتشكك في وجود الله مع أن هذه النظرية ، حتى على فرض صحتها ، لا يمكن أن تدل على أنه لا يوجد الله ، وأن كانت قد تتعارض مع الفهم الحرفي لبعض النصوص الدينية التي يمكن تأويلها لداع عقلي قطعي ، وهذا غير متوافر في نظريات التطور .

ثم أن كثيراً من العقول اتخذت بمذاهب فلسفية أخرى هي مزيج من دماوى يكذبها الواقع مثل المذهب الإرادي (Voluntarism) الذي مثله شوبنهاور A. Schopenhauer (ت ١٨٦٠) أو مزيج من الخيال الفلسفي والأسلوب الأدبي كالمذهب الحيوي (Vitalism) الذي مثله برجسون H. Bergson (ت ١٩٤٠) ، وكلها مذاهب تكلم أصحابها عن الكون والحياة من غير أن يكونوا علماء متخصصين فيما تكلموا فيه .

وكان للنظريات المثالية المتطرفة دورها في إبعاد بعض العقول عن الطريق السليم للمعرفة بوجود الله ، وهو النظر في هذا العالم .

إن طريقة العلم الحديث في دراسة هذا العالم تعتمد على الحس والعقل ، دون شرود الخيال . وإذا كان العلماء يستعينون بالخيال فهو ما يسمى « الخيال العلمي » الذي يخدم تفسير الظواهرات وتبنيدها بالواقع .

فالحواس تنطبع بمؤثرات من أشياء في هذا العالم ، وتؤدي هذه الانطباعات إلى العقل ، والعقل يتناولها بقوانينه ومقولاته فينظمها من جهة ويحاول التفسير من جهة أخرى . وهو في تفسيره يتقيد بالواقع ولا يخرج عنه إلا بخطوة منطقية ، باحثاً عن علة قريبة أو علاقة ثابتة مطردة بين الظواهرات ، أو منتهياً إلى حكم منطقي يبنيه على مبدأ « الملائمة » ، وعلى ما يقضي به العقل في حدود الاستنباط الذي يكاد يكون دائماً استنباطاً مباشراً .

والطريق الأول للمعرفة بوجود الله عند العلماء الحديثين هو المتفق مع الروح العلمية الحديثة .

هم يبدعون من دراسة الواقع دراسة دقيقة تشمل كل جوانبه .

فهم يدرسون طبيعة الأشياء ووظيفتها ، من ذرات المادة في عالم الطبيعة ، وكرات الدم في الانساني ، الى الأرض وما عليها ، والشمس وما يدور حولها .

ويدرسون الانتظام والتوافق ، لا في داخل الشيء الجزئي وحسب ، بل في جملة النظام كله ، ويلاحظون الترابط والغالية والوحدة .

وهم في تفسيرهم للأشياء لا يقبلون المفاهيم غير الواضحة ، مثل مفهوم الصدفة ، ولا التفسيرات غير الكافية ، مثل التفسير الميكانيكي للغائية الظاهرة في الطبيعة أو التفسير التطوري أو نحوها .

وأدلتهم على آرائهم تستند من حيث المبدأ الى الواقع وملاحظته ، ولا تستند الى الجدل الا عند تحليل المشكلة ، أو عند تلخيص نتيجة الاستدلال على صورة قياس منطقي بسيط واضح .

على أن هذا لا يمنع من أن بعضهم يحاول أن يتجاوز الحدود الضيقة للاهتمام العلمي الحديث الى شيء من روح التفلسف ، لكن باعتبار أن « كل انسان ، حتى أولئك الذين يشتغلون بالعلوم الطبيعية لديه ميل أو نزعة نحو التفلسف » (١) .

ولما كانت الطريقة العلمية تقتضي العرض المحدد للآراء والتعبير عنها بأبسط عبارة ممكنة ، فإنه يحتم علينا مراعاة ذلك في بيان رأى العلم والعلماء اليوم في النقط الرئيسية المتصلة بالإيمان بالله وباقامة الدليل على وجوده .

وأول ما ينبغي أن نشير اليه هو التجربة الدينية عند العلماء . ونحن قد ذكرنا أنهم يعيشون في تراث ثقافي - روحي يحملونه في أرواحهم ، لأنهم يتلقونه في التنشئة الروحية والفكرية . ومنهم من يؤكد هذا العامل ويضم اليه عامل الخبرة والأحاسيس الداخلية العميقة التي لا تصل الى أعماقها الجدالات الفكرية ، ويعتبرون أن تجاهل هذه المعرفة الكامنة في النفس ينافي روح العلم ، لأن العلم بطبيعته لا يتجاهل أى واقع .

لكن معول العالم الحديث سواء في تقوية إيمان جاء من التراث الروحي وفي توضيحه أو في الوصول الى إيمان لم يكن موجوداً ، هو على نظر العلم .

والإيمان بوجود الله يقوم على أسس كبرى أهمها :

١ - إثبات أن هذا العالم حادث في الزمان .

٢ - أن حدوثه لا يمكن أن يرجع الى الصدفة ولا الى المادة ولا الى شيء محدود ، بل الى خالق قادر حكيم مخالف للأشياء ولا نهاية لكماله وقدرته وعلمه وحكمته . وهذان البندان موجودان في كل إيمان وفي كل بيان لأدلة الإيمان .

وبعد هذا يأتي ذكر الأدلة على وجود هذا الخالق من النظر في العالم ، ويكون الكلام في تصور الألوهية على أساس الاستدلال العلمي .

(١) راجع كتاب : الله يتجلى في عصر العلم ، نشر جون كلوفر مونسما - القاهرة (دار احياء الكتب العربية ، ميسى البابى الحلبي)

ففيما يتعلق باقامة الدليل على حدوث هذا العالم في الزمان لا بد ، قبل ذكر أدلة العلم الحديث ، من اشارة الى طريقة القدماء .

لم يكن عند فلاسفة اليونان قول بالحدوث المطلق لاشياء هذا العالم ، كما تقدم القول ، وذلك لانهم كانوا يقولون بازلية المادة وتأثير علة العالم فيها أو تأثيرها من تلقاء نفسها بعملة العالم . ولم تظهر أدلة الحدوث المطلق لهذا العالم الا على يد مفكرى الادبان المنزلة ، لا اعتقادهم بالخالق المبدع بالمعنى الحقيقي الكامل . وقد رأينا - مثلاً - دليل الكندي على حدوث العالم ، وهو يقوم على اثبات تناهي الزمان الماضي ودليل المتكلمين الاسلاميين ، وهو يقوم على اثبات أن الأجسام محل للحوادث ، وهي الاعراض ، فلا بد أن تكون حادثة كالأعراض نفسها .

اما العلم الحديث فهو يثبت حدوث العالم في الزمان على أسس واقعية :

فمثلاً يمكن تقدير عمر العالم على أساس وجود عناصر مشعة . فلو كان العالم أزلياً - أى مضى على وجوده زماناً - لا نهاية له لكان الاشعاع قد انتهى منذ زمان لا نهاية له .

وايضاً تدل قوانين الديناميكا الحرارية على أن هذا العالم حادث ، لان الثابت أن الاشياء الحارة تفقد حرارتها تدريجياً وتسير نحو حالة حرارة منخفضة لا تسمح بوجود طاقة ولا حياة . فلو كان العالم أزلياً لانتهى مع مرور الزمان الذى لا بداية له الى الصمود التام .

واذا كان هذا هو الواقع الذى تشهد له التجربة فانه لا يصح اثاره اعتراضات تعسفية وتخيلات تنقص ما يؤخذ من الواقع على نحو واضح .

واذن ، فهذا العالم بداية ، وله عمر ومدة محددة يقدرها العلماء على نحو تقريبي (حوالي خمسة بلايين من السنين) ، وهو لا بد أن يزول بعد تحقق الحكمة التي اقتضت وجوده .

ان الانسان لا يملك نفسه امام ما يقرره العلم ، من وجود قوانين وحكمة في هذا العالم وأنه محدود الوجود الزماني ، من تذكر ما ورد في القرآن من أن هذا العالم وكل ما فيه ظور بحسب الحكمة وله مدة محددة ، مثل قوله تعالى ، مشيراً الى المعرضين عن البحث الهادى الى معرفة الله :

« أولم يتفكروا في انفسهم ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق واجل مسمى ، وان كثيراً من الناس بقاء بهم كافرين » (س ٣٠ - الزوم ، ٨ . وفارن س ٤٦ - الاحقاف ، ٣)

فإذا ثبت أن هذا العالم لم يكن ثم كان ، فان العقل يقضى بأن له مبداً ، ولا بد لمن يؤمن بالعلم أن ينتهى الى هذه النتيجة .

ومعنى ذلك أن المادة ، على صورتها التي نراها ، شئ حادث .

وان القول بوجود خالق مبدع هو التفسير العقلى الواضح لحدوث الاشياء وطبائعها وقوانينها

لكن البعض يقول بما يسمى الصدفة أو الاحتمال . وهذا ما لا يمكن أن يسلم به العلم ، والا انهيار من أساسه .

ان معنى الصدفة هو وقوع حادث من غير علة محددة مطردة تسبب حدوثه ، مثل أن ناخذ عدداً من اشياء متشابهة ونجسّل لها أرقاماً متسلسلة ، ثم نضعها في كيس مثلاً ، ونخلطها

على أنه لا بد من التنبيه إلى مصدر الخطأ في التصور الميكانيكي للعالم . ففي عالمنا هذا الذي لم يبق الدليل على أنه العالم الوحيد الموجود ، تتداخل صور الوجود : المادة والحياة والفكر . ومظهر الحدوث والفعل في هذا النوع من العالم مظهر ميكانيكي ، لكن المبدأ المؤثر فيه ليس ميكانيكيا . وهذا شيء بسيط أدراكه بأبسط نظر : سواء تأملنا نشاط المادة أو وظائف الحياة ، أو مظاهر الحياة الفكرية . فلا توجد علة واحدة مرئية بين العلل التي لا تحصى والتي تؤثر في المادة ومظهرها الميكانيكي . ومن ينظر إلى النبات أو الحيوان أو الإنسان المفكر ويلاحظ المظهر الميكانيكي للوظائف ويقف عنده ، كيف يستطيع أن يتكلم عما نسميه الحياة أو الفكر أن لم يقل بشيء غير ميكانيكي ومظهر فعله في هذا العالم الميكانيكي .

ومن التصورات التي أثبت العلم الحديث عدم كفايتها في تفسير نشأة الحياة وتطورها نظريات التطور ، وهو يميل إلى اعتبار أن التطور نتيجة وليس مسببا ، فهو يحتاج إلى تفسير .

وينبغي تصور العلم الحديث للألوهية على الأساس الاستدلالي الذي يستند إليه العلماء .

وأول ما يمكن أن يقوله العلم من الإله أنه ليس ماديا ، وهذه هي النتيجة المنطقية التي تنتج من بطلان المذهب المادي في تفسير العالم ، وهو إذا كان ليس ماديا فإنه لا يمكن أن يعرف بالطرق المادية . لأن لكل شيء طريقة ، بها يعرف وجوده .

ولما كان هذا العالم قد صدر من الإله على هذا النظام المحكم فإنه لا بد أن يكون قادرا عالمًا حكيمًا . وهذا يلزم من بطلان المادية من جهة أخرى من حكم مقلنا بأن الوجود والنظام والغائية في الصنع لا يمكن أن تصدر إلا عن صانع له هذه الصفات وله كمال التدبير والعناية بالمخلوقات .

وإذا قاله عند العالم فاعل حقيقي ، وهو لا بد أن يكون ذاتا تتعقلا بصفات تحدد مفهومها في أذهاننا ، وهو ليس فكرة مجردة ، أو مجرد كائن غير مادي منزحل من العالم ، كما تصوره أرسطو مثلا ، بل هو فاعل حق ، خالق مدبر منزله من كل تصوراتنا ، وعن مشابهة هذه الأشياء التي نعرفها والمستغلون بالعلم ، الذين ينزعون النزعة الفلسفية نحو التعليل الكافي والشمول ، يشعرون بالتقاء مفهوم الألوهية كما تتوصل إليه عقولهم مع مفهوم الألوهية الذي جاءت به الكتب المنزلة .

والحق أن العالم الحق يقف من الدين ومن الكتب المنزلة موقفا علميا يتسم بالتأني في الحكم . فهو ينظر إلى الأمور الجوهرية في هذه الكتب ، ولا يرى أن من شأنه البحث في التفاصيل . وأهم ما يحجبهم هو ما تضمنته هذه الكتب من فكرة الألوهية الصحيحة التي هي القول بخالق قادر مخالف للأشياء ، وذلك ما يؤدي إليه النظر العلمي في هذا العالم .

وإذا رأى العالم في ظاهرها النصوص الدينية ما يخالف معطيات العلم فإنه يفضل الانتظار حتى تتكشف له معرفة جديدة ، فلعلها تأتي متفقة مع فهم ما للدين . والعالم يحكم مهمته التي يعيش لها مضطرب إلى أن يثير مشكلة الإيمان بمصنعه العام الواسع وبمصنعه الخاص .

فهناك الإيمان بمعنى تصديق المختصين فيما اختصوا به وأصحاب التجارب من العلماء فيما جربوه . والحق أن كثيرا من معارفنا وتصرفاتنا مبنية على ما أخفنا عن الغير ممن نثق فيهم ، لأنه لا يمكن لأحد أن يحصل بنفسه كل المعارف ولا أن يقوم بنفسه بكل التجارب .

وهناك الإيمان العلمي بوجود طبائع الأشياء وتأثير بعضها في بعض ، وبوجود قوانين تعبر عن نظام مطرد وعمله لا تتخلف ، لكن العالم ، نظرا لقوله يحدث هذا العالم واستناده في وجوده وبقاء نظامه إلى خالق حقيقي ، فإنه بعيد عن الظن بأن قوانين الطبيعة « واجبة » (Necessary)

بل هي قوانين « ممكنة » (Contingent) ، لأنها تتوقف على القدرة والإرادة المبدعة المدبرة للأشياء .

وهناك الايمان بالالة باعتبار أن هذا الايمان يرضى أولا العقل العلمي الذي يطعم الى تفسير الكون ، لانه تفسير طبيعي وبسيط وكاف ، ثم هو يرضى حاجة عميقة في روح الانسان الى سند متين مطلق يعين في نفسه الثقة بالحياة ، ويثير له معنى هذا العالم، ويؤدي الى السكينة والطمأنينة، هذا الى ان الايمان بوجود الله يزيد المعرفة بالكون ، كما أنه يقوى ويرسخ بازدياد هذه المعرفة ، وقد لاحظت كنت هذه العلاقة بين النظر في العالم وبين الايمان ، كما تقدم القول .

وأقل ما يمكن أن يكون للايمان بوجود الاله الحق بالنسبة للعالم هو أنه فرض كبير يساعده على فهم العالم وما فيه ، ويبعث فيه الطموح نحو مزيد من العلم بأسرار عالم مصدر عن القدرة الحكمة التي لا نهاية لها ونحو مزيد من امكان استخدام هذا العلم لمصلحة الانسان . ومن العسير حقا على أى عالم أن يشتغل بالعلوم الطبيعية بحثا عن أسرار الطبيعة وقوانينها ، وهو لا يؤمن بأن وراء هذه الطبيعة تدبرا حكيما لخالق قادر . وهو لا بد له من الايمان بخالق مديس أو بقوة ما تصدر عنها الاشياء بقوانينها ، ولابد من الاعتراف بأن هذه القوة حكيمة عاقلة ، والا ناقض العالم نفسه أو تقضى أساس معارفه .

ان الانسان ليس محتاجا الى أن يذهب الى رأى ديكارت في ضرورة إقامة العلم الطبيعي على الثقة بوجود اله كامل قادر حكيم ، قدرته التي لا نهاية لها ضمان ثابت للنظام الكوني ، وكما له وخبرته ضمان للثقة في الوسائل التي منحنا إياها لتحصيل المعرفة ، لكن للانسان الحق في أن يسأل عن كرامة العقل الباحث في الكون ، وكيف وعلى أى أساس من المنطق يبحث عن طبائع وأسرار وقوانين في الكون مع تجاهل وأع لما وراء هذه الأغراض العلمية العالية ؟ !

ان الايمان عند العلماء إيمان هو أقرب الى الانسياق العقلي ، وهو إيمان « بسيط » بمعنى أنه « خالص » من شوائب التعتيد وإثارة المشكلات العقيمة التي لا ترقى بمفهوم الاوهية ، ومن صفات العالم الحق أنه لا يتكلم فيما لا يعرف . وكما أنه لا يدرس المحسوسات بالتحليل العقلي فإنه لا يدرس المعنويات بالمنهج الحسى . ولذلك فإن العلم الحديث أقرب الى تنزيهه الاله عن التصورات العادية ومنه الالفاظ التي نستخدمها في الكلام عن اشياء هذا العالم .

فإذا أردنا أن نحدد نوع استدلال العلماء على وجود الله وجدنا ذلك واضحا وقلقايا كالمعرفة العلمية الواضحة .

ولا شك أننا يجب ان نفرق من أول الامر بين المفكر المنصف النزيه في حكمه في هذا الموضوع وبين التحيز المائل عما يقضى به دليل الحسى والعقل .

والعلماء لا يعتبرون أن من علمهم اثبات وجود الله ، ولا حتى البحث عن العلل الأولى للأشياء ولا البحث في القيم والغايات . ولذلك فإن كلامهم في الاوهية يكون بحسب المناسبات الداعية الى ذلك كما تقدم القول (١) الا ان العقل لا بد أن يثير السؤال عن مصدر هذا العالم . وهنا يكون الطريق العلمى واضحا لكل انسان ، لانه طريق النظر في الواقع : الكون والانسان نفسه .

ومن شأن العلماء أن ينظروا للأشياء نظرا مباشرا ، فلا يبدعون بمفهومات ذهنية مجردة ، ولا بظاهرة جزئية ولا حتى بالنظر للعالم من حيث هو مجرد ظاهرة معلولة ، بل هم يلاحظون الواقع الكوني من خلال ما كشفه العلم من دقة وإحكام في الأشياء وأرتباط وانسجام بينها وغائية ظاهرة فيها . وهم حتى عندما يوجهسون الانتباه الى ظاهرة كبيرة يدرسونها في سياقها ، ويتبينون وظيفتها أو دورها . وعلى هذا الاساس يتبنون استدلالهم المباشر طبقا لمبدأ العلية الذي يؤمنون به إيمانا عمليا يشهد له الواقع ويقره العقل . وهم لا يشيرون شكوكا حول هذا المبدأ ، ولا يتكفون الزعم بأنهم لا يرون شيئا يسرى من العلة في المعلول ، كما يقول هيوم ، ولا هم يدعون أن مبدأ العلية لا انطباق له الا على عالم الحس ، كما يقول كنت ، لأن هذه اشكالات متكلفة .

وأذن فلدليل العلم الحديث على وجود الاله هو الدليل الغائي Teleological Proof القائم على مبدأ العلية Principle of Causality ولا تكاد نجد دليلا غيره ، رغم تنوع مقدماته بحسب المجال الذي ترجع اليه .

والحق أن نظر العلم ، في أي ميدان من ميادين التخصص العلمي التي لا تقع تحت الحصر ، يكشف للباحث عن تنظيم بديع ومن دورات للظواهر وقوانين دقيقة تحكمها ، بحيث يمكن وضع الدليل الغائي على صور شتى تجمعها النظرة التي توصل اليها العلم ، وهي : أن العالم في جملته وحدة متناسقة ، طبيعتها واحدة وقوانينها شاملة .

ونحن نعلم أن البحث العلمي اظهر لنا أن مادة الاجرام العلية ليست مادة مغايرة لمادة الارض ، هي ليست « طبيعة خاصة » ، كما زعم اليونان وسار على اثرهم من جاء بعدهم الى ان جاء عصر نقد المعرفة عند العلماء الاسلاميين والعلماء الاوروبيين في العصور الحديثة من بعدهم .

فمادة العالم واحدة والقوانين التي تحكم جزءا تحكم الجزء الآخر ، وهذه الوحدة تدل على تدبير واحد ومدبر واحد .

ولا يصح أن نثير اعتراضات من التنوع الذي اثاره كنت واعتبره قادحا في الاستدلال على وجود الله ، وهو قوله : انا لا نعلم كل العالم . ومع اننا لا نعرف كل العالم فاننا نقطع أن هذا الذي نشاهده شيء موحد النظام ، فإذا كان هناك عالم من نوع آخر ، وهذا جائل عقلا وحاصل بالفعل ، فإن دلالة ، بحسب أحواله ، على موجد ، هي دلالة هائلة ، لأن وجه الدلالة لا يختلف فيما نراه من حوادث وظواهرات منه فيما لا نراه منها .

ولا شك أن العلم ، اذ يهتم بدراسة العالم لكي يصل الى القوانين ، فإن من الطبيعي أن يسأل نفسه عنها : ما مصدرها ؟ لأن موقف العلم لا ينتهي عند الملاحظة بل هو يقتضى التفسير .

مهما يكن من شيء فإن العقل العلمي ، حتى عندما يفسر الأشياء ، لا يقتنع بتفسير جزئي أو تفسير يبين علة قريبة ، بل هو يطيح الى التفسير الكلي الشامل ، والدليل على ذلك هو النظريات والفروض الكبرى المتعلقة بهذا العالم عند العلماء فيما يتعلق بنشأته وكيانه ومصيره وطبيعة قوانينه .

ومع أن المعطيات العلمية واحدة فإن التفسير العلمي يتنوع ويختلف ، ومن هنا كان اختلاف العلماء كما اختلف الفلاسفة : بين مادي ينظر الى العالم على أنه مادة ميتة وحركة ، ويفسر العالم وظواهراته تفسيراً ميكانيكياً ، وقائل بمبدأ حيوي ساري في كل شيء فهو يفسر العالم في ضوء هذا المعنى ، وقائل بالصدفة والاتفاق في تحليل ظهور العالم وتشكل ما فيه ، وقائل بأن العالم يرجع الى عقل قادر مبدع مستقل عن الكون ، وناكس عن التعليل الشامل الكامل الذي

ينظر للعالم على أنه جملة حوادث ، وإن كل شيء عبارة عن سلسلة حوادث لا هدف لها ولا غاية (١) . وهكذا

لأجل ذلك لا بد للعالم الذي يقتنع بوجهة نظر أن يجادل عنها ، وهذا ما يفعله العلماء المؤمنون بوجود الله أحيانا . فقد يسر الواحد على الطريقة المنطقية المعروفة المسماة طريقة الفحص والتحليل أو « طريق السير والتقسيم » ، كما يسميها العرب ، فيبين وجوه الاحتمالات الممكنة لحل مشكلة ثم يفتد الباطل منها ليتبين ما هو حق .

وهذه طريقة أحد العلماء في مشكلة انكار الخالق ، فهو يضعها على هذا النحو :

« كثيرا ما يقال أن هذا الكون المادى لا يحتاج الى خالق . ولكننا اذا سلمنا بأن هذا الكون موجود فكيف نفسر وجوده ونشأته ؟ هناك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال :

فاما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال ، وهو ما يتعارض مع القضية التى سلمنا بها حول وجوده

وأما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم

وأما أن يكون أبديا ليس لنشأته بداية .

وأما أن يكون له خالق »

ثم يبين أن الاحتمال الاول ، الى جانب تناقضه مع الفرض ، يؤدي الى أن العالم وهم لا حقيقة له ، وهو يخالف الواقع ، فلا يصح ان نعتد به .

وإن الرأى الثانى مستحيل ، لانه لا يتصور أن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة ظهر من العدم بلا هلة .

وإن الرأى الثالث باطل على أساس قوانين الديناميكا الحرارية الذى تقدم ذكره .

وينتهى الى صحة الاحتمال الاخير وأنه « لا بد لأصل الكون من خالق أزلى ليس له بداية ، سليم محيط بكل شيء ، قوى ليس لقدرته حدود . ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه (٢) »

ثم هو يبين في ضوء نتائج العلم ومكتشفاته التناقض والغاية التى تتجلى مثلا في سلامة الارض للحياة الانسانية بكل جوانبها المادية والفكرية والروحية ، وذلك بفضل وضعها بالنسبة للشمس وحجمها وحرارتها ، ووظيفة الغلاف الجوى الذى حولها .

ويثبت أن نظريات المصادفة والاحتمال لا يمكن أن تؤدي الى تفسير شيء من هذا لأن الفرصة لتكوين جزيء بروتوني واحد من العناصر التى يتألف منها لا تنهيا الانسبة : ١ : (١٠) : ١١٠ (واحد بالنسبة الى رقم ١٠ مضروبا في نفسها مائة وستين مرة) . وهذا لا يتيسر الا في عالم تنهيا فيه مادة

(١) هذا هو داي الفيلسوف الانجليزي برتراند راسل Bertrand Russel الذى توفي هذا العام (١٩٧٠)

وقوله : أن العالم وما فيه عبارة عن سلسلة حوادث قول صحيح ، لكن هذا يدل على أن له محدثا . وراسل ينكر الغاية والهدف دون أن يقوم أى دليل : مع أن دليلهما واضح لكل انسان ، وهو الواقع الذى لا يمكن أن ينكره أحد .

(٢) مونسما ، ص ٧ - ٨ .

اكثر مما يسع مالنا بما لا يقاس . فكيف بإمكان تكوين النظام المائل في كل شيء والتنسيق الهائل بين اجزاء هذا العالم ؟ ان هذا يحتاج الى عقل لا نهائي (١) .

هذا مثال من طريقة عالم من علماء الفيزياء الحيوية في تفسير نشأة العالم . ومع ان طريقته المنطقية التحليلية تشبه من حيث الروح طريقة المقدسي ، فانها تقوم على نتائج نظر علمي .

وعالم آخر من علماء الكيمياء والرياضة يشير الى خضوع اجزاء المادة لقوانين محددة لا يمكن ان تكون راجعة الى الصدفة مثل : التشابه بين خواص العناصر الموجودة في كل قسم من أقسام الترتيب الدوري لها حسب وزنها الذري ، ومثل القوانين التي تحكم تركيب الذرة ، على اختلاف العناصر ، لم يقول ، ناقدا المذهب المادي:

« فهل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد اوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة ، أو أنها هي التي اوجدت هذا النظام وتلك القوانين ، ثم فرضته على نفسها ؟ لا شك أن الجواب سوف يكون سلبيا . بل أن المادة مندما تتحول الى طاقة أو تتحول الطاقة الى مادة ، فإن كل ذلك يتم طبقا لقوانين معينة ، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها المادة المعروفة التي وجدت قبلها » .

وهو يشير الى ما دلت عليه الكيمياء من « أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة . وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية ومعنى ذلك أنها ليست أزلية » ، اذ أن لها بداية » ، ثم يقول :

« فإذا كان هذا العالم المادي عاجزا عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التي يخضع لها ، فلا بد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادي . وتدل الشواهد جميعا على أن هذا الخالق لا بد أن يكون متصفا بالعقل والحكمة . الا أن العقل لا يستطيع أن يعمل في العالم المادي كما في ممارسة الطب والعلاج السيكلوجي دون أن يكون هنالك ارادة ، ولا بد لمن يتصف بالارادة أن يكون موجودا وجودا ذاتيا . وعلى ذلك فإن النتيجة المنطقية المحتمة التي يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أن لهذا الكون خالقا فحسب ، بل لا بد أن يكون هذا الخالق حكيما عليمًا قادرا على كل شيء حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ، ولا بد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود تتجلى آياته في كل مكان . وعلى ذلك فإنه لا مفر من التسليم بوجود الله خالق هذا الكون وموجهه (٢) » .

إن طابع هذا الكلام ، وإن كان يشبه استدلال المتكلمين الاسلاميين على وجود الله وعلى صفاته ، فإنه ، كالكلام السابق، نتيجة لمقدمات علمية . وطريقة العلماء في الكلام عن العالم سهلة ميسرة لمن يعرف اصطلاحهم العلمية ، لأن منهجهم هو في الغالب المنهج المنطقي الرياضي ، وإن قراءة عرضهم لرأى يقصد اثباته أو دحضه تشوق العقل السليم .

وعالم ثالث ، هو مهندس متخصص في تصميم ما يسمى : « العقول الالكترونية » ، يشير في ابحاثه لوجود الله الى الخبرة النفسية والتجربة الشخصية ، ثم يصرح بأن عمله في تصميم الاجهزة سثن كثيرة جملة يقدر التصميم والابداع أينما وجد ، ثم يقول :

(١) نفس المصدر ص ١١ - ١٢ .

(٢) راجع كلامه في ما تقدم .

(٣) مؤنسما ص ٢٦ : ٢٧ .

« وعلى ذلك فانه مما لا يتفق مع العقل والمنطق أن يكون ذلك التصميم البديع للعالم من حولنا الا من ابداع اعظم لا نهائية لتدبيره وابداعه وعبقريته. حقيقة ان هذه طريقة قديمة من طرق الاستدلال على وجود الله ، ولكن العلوم الحديثة قد جعلتها اشد بيانا واقرى حجة منها في أى وقت مضى .

ان المهندس يتعلم كيف يمجّد النظام ، وكيف يقدر الصعاب التي تصاحب التصميم هنذا يحاول المصم ان يجمع بين القوى والمواد والقوانين الطبيعية في تحقيق هدف معين . انه يقدر الابداع بسبب ما يواجهه من الصعاب والمشكلات عندما يحاول ان يضع تصميمًا جديدًا .

لقد اشتملت منذ سنوات عديدة بتصميم مخ الكترولنى يستطيع ان يحل بسرعة بعض المعادلات المعقدة المتعلقة بنظرية « الشد في اتجاهين » . ولقد حققنا هدفنا باستخدام مئات من الانابيب المفرغة والأدوات الكهربائية والميكانيكية والدوائر المعقدة ووضعها داخل صندوق بلغ حجمه ثلاثة اضعاف حجم أكبر « بيانو » . ولا تزال الجمعية الاستشارية العلمية في لانجل فيد تستخدم هذا المخ الإلكتروني حتى الآن . وبعد اشتغالي باختراع هذا الجهاز سنة أوستين ، وبعد ان واجهت كثيرا من المشكلات التي تطلبها تصميمه ووصلت الى حلها ، صار من المستحيلات بالنسبة الى ان يتصور عقلى ان مثل هذا الجهاز يمكن عمله بأية طريقة أخرى غير استخدام العقل والدكاء والتصميم .

وليس العالم من حولنا الا مجموعة هائلة من التصميم والابداع والتنظيم . وبرغم استقلال بعضها من بعض ، فانها متشابكة متداخلة ، وكل منها أكثر تعقيدا في كل ذرة من ذرات تركيبها من ذلك المخ الإلكتروني الذي صنعته . فاذا كان هذا الجهاز يحتاج الى تصميم افلا يحتاج ذلك الجهاز الفسيولوجى الكيمى البيولوجى الذى هو جسمى ، والذي ليس بدوره الا ذرة بسيطة من ذرات هذا الكون اللانهائى في الساعه وابداعه ، الى مبدع يبدعه ؟؟

ان التصميم أو النظام أو الترتيب أو سمها ما شئت ، لا يمكن ان تنشأ الا بطريقتين : طريق المصادفة ،

أو طريق الابداع والتصميم .

وكلما كان النظام أكثر تعقيدا ، بعد احتمال نشأته من طريق المصادفة، ونحن في خضم هذا النظام اللانهائى لا نستطيع الا ان نسلم بوجود الله .

اما النقطة الثانية التي أريد أن اشير اليها في هذا المقام ، فهي أن مصمم هذا الكون لا يمكن أن يكون ماديا . واننى اعتقد أن الله لطيف غير مادی . واننى أسلم بوجود الاملاديات ، لاننى برصنى من علماء الفيزياء أشعر بالحاجة الى وجود سبب أول غير مادی .

أن فلسفتى تسمح بوجود غير المادى ، لانه بحكم تعريفه لا يمكن ادراكه بالحواس الطبيعية. فمن الحماسة إذن أن اكرر وجوده بسبب عجز العلوم عن الوصول اليه . وفوق ذلك فان الفيزياء الحديثة قد علمتني ان الطبيعة اصغر من أن تنظم نفسها او تسيطر على نفسها .

وقد أدرك سير اسحاق نيوتن أن نظام هذا الكون يتجه نحو الانحلال ، وأنه يقترب من مرحلة تنساق فيها درجة حرارة سائر مكوناته ، ووصل من ذلك الى انه لا بد أن يكون لهذا الكون بداية ، كما أنه لا بد أن يكون قد وضع تبعا لتصميم معين ونظام مرسوم . وأبسلت دراسة

الحرارة هذه الآراء وساعدتنا على التمييز بين الطاقة الميسورة والطاقة غير الميسورة . وقد وجد أنه عند حدوث أى تغيرات حرارية فإن جزءا معينا من الطاقة الميسورة يتحول الى الطاقة غير الميسورة ، وأنه لا سبيل الى ان يسير هذا التحول في الطبيعة بطريقة عكسية ، وهذا هو القانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية .

وقد اهتم بولتزمان بتخصيص هذه الظاهرة ، واستخدم فى دراستها بعقيرته ومقدرته الرياضية ، حتى اثبت أن فقدان الطاقة الميسورة الذى يشير اليه القانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية ، ليس الا حالة خاصة من ظاهرة عامة تشير الى أن كل تحول أو تغير طبيعى يصحبه تحول أو نقص فى النظام الكونى . وفى حالة الحرارة يعتبر تحول الطاقة من الصورة الميسورة الى الصورة غير الميسورة فقداً أو نقصاً فى التنظيم الجزيئى ، أو بعبارة أخرى : تفتتاً وانحلالاً للبناء . ومعنى ذلك بطريقة أخرى أن الطبيعة لا تستطيع أن تصمم أو تبدع نفسها ، لأن كل تحول طبيعى لا بد أن يؤدى الى نوع من أنواع ضياع النظام أو تصدع البناء العام . وفى بعض الحالات قد يسير النظام من البسيط الى المركب ، ولكن ذلك لا يتم الا على حساب تصدع اكبر للتنظيم والترتيب فى مكان آخر .

ان هذا الكون ليس الا كتلة هائلة تخضع لنظام معين ، ولا بد له اذن من مسبب اول لا يخضع للقانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية ، ولا بد أن يكون هذا المسبب الاول غير ماضى فى طبيعته (١) .

ان ذكر هذا النص كاملاً ينفى عن تحليله ، والمهم أن نلاحظ طريقة بيان الرأى والبرهنة عليه ، وهى طريقة مميزة للروح العلمية الحديثة من حيث نقطة البداية فى الاستدلال والسير فيه الى نتيجته .



نحن نعرف ان ديكارت استدل على وجود الله من تفكيره فى نفسه ، وإدراكه وجود ذاته فى عملية تفكيره ، واعتبر إدراكه لذاته كمقل أو كجوهر مفكر حقيقة أولية واضحة متميزة ، ولم يزل يفكر حتى اكتشف فى عقله فكرة كائن كامل وجعلها أساساً للدليل الانطولوجي فى اثبات وجود الله ، وهو الدليل الذى تقدمه مفكرون كثيرون كما تقدم القول .

وها هو عالم متخصص فى الرياضيات يصف لنا الأساس الذى يقوم عليه إيمانه بوجود اله :

« هل هناك اله ؟ سؤال ينطوى على الفكر أو القدرة على التفكير ، وأنا لا أستطيع ان افكر فى هذه القدرة دون أن أسلم بوجودها .

فأنا لست جهازاً آلياً ، وتفكيرى يذهب الى أبعد مما يمكن أن يذهب اليه عقل من العقول الآلية ، فالعقل الآلى الحديث وظيفته تطبيق قاعدة معينة أو إيجاد علاقة معينة فيما لاصول محددة مرسومة . أما عملية التفكير فتختلف من ذلك اختلافاً بينا ، فهى تستطيع أن تنقذ بالقواعد

كما تستطيع ان تتغافلها . ان التفكير يتضمن استخدام المنطق والقدرة على الحكم ، كما يتضمن تذوق الجمال والاستمتاع بالموسيقى وتقدير الفكاهات والطرائف .

ان المنطق يستطيع ان يقرر صحة احد البراهين أو خطاها ، ولكن الفكر هـو الذى يبدأ المناقشة في أمر هذه البراهين ويوجهها ، وهو الذى يستطيع ان يخترع النظريات الرياضسية الجديدة ويقيم الدليل على صحتها، والفكر يتضمن القدرة على تحليل النفس وتقدها . ومن الممكن تصميم آلة تلعب الشطرنج ولكن هذه الآلة لن تسعد بما تحققة من النجاح ،أو تسمت في خسارة اللابب الآخر أو تحزن على ما وقعت فيه من الأخطاء .

فالفكر يتضمن أكثر مما تستطيع الآلة والقواعد الآلية ان تحققة . واني اعتبر ان تفسير السلوك الانساني تفسيراً آلياً لا يستند الى أساس سليم ، لاني أستطيع ان أفكر .

وانا أعتقد أيضاً بوجود الله بسبب ما زودني به من الانفعالات ، ولكن هل أضعفت حجتني بهذا القول ؟ هل اعترفت بأن ايماني لا يقوم على المنطق وأني أومن لأنني أخشى الا اكون مؤمناً ؟ كلا فطبيعتنا الانفعالية دليل على حكمة الله وتديره ، والا فكيف تكون حياة الانسان بغير هذه الانفعالات ؟ وكـم يمكن ان يعمر الانسان على سطح الأرض بغير الدافع الجنسي وما يتصل به من الانفعالات ؟ ولماذا تنخفض نسبة وفيات الأطفال عندما يرداد حب آبائهم لهم ؟

اني أعتقد بوجود الله لانه وهبني التمييز الأخلاقي، فالجنس البشرى لديه احساس فطرى بما هو خطأ وما هو صواب . وكما يقول لويس في كتابه : « قضية المسيحية » : « قد تختلف أفكارنا ومع ذلك فاننا جميعاً ندافع عن حقوقنا ونشدد العمل » .

ان اعتقادي في الله يقوم أيضاً على حرية الإرادة وذكائها – الإرادة الانسانية التي وصفت بأنها العملية الشعورية الكاملة التي تقود الانسان الى اتخاذ قرار معين ، الإرادة التي هي احدى الاقسام الكبرى التي يقسم علماء النفس قوى العقل اليها (القوتان الأخريان هما : الإدراك والشعور ، فانا عندما أرغب أو أريد شيئاً معيناً يتخذ عقلي قراراً به ، وارادتي هي التي تنفذه .

ويختلف الانسان في جميع هذه الصفات والمزايا عن سائر الكائنات الأرضية الأخرى فهو خليفة الخالق على الأرض ، ولعل هذا هو عين ما يعنيه القديس بولس بقوله : « ان للانسان نشأة مقدسة » .

ويتفق ما وصلت اليه العلوم حول وجود الله مع ما جاء في الكتب السماوية من أن الانسان يحصل على العلم بطريقتين : البصر والبصرة . أما البصر فهو ما نتعلمه في حياتنا وما نكتسبه من طريق حواسنا من الخبرة بأمور الحياة . وأما البصرة فهي ذلك النور الذي يفرغه الله في قلوبنا فيكشف لنا ما لا نعلم . وكذلك الحال فيما يتصل بالايمان بوجود الله ، إذ لا بد أن يقوم أولاً على البصر وملاحظة ظواهر تلك التي أشرنا اليها سابقاً ، ثم تلجئ بعد ذلك الى الله لكي يكمل ايماننا ويدعمه .

ان رجال العلوم يعتمدون على التجربة ، وانا مقتنع بوجود الله اعتقاداً يستند الى أدلة

تجريبية ، ولكنها تجارب شخصية صرف . ومع ذلك فهي أقوى لدى من كل دليل ، وأشد اقتناعا لى من أي برهان رياضي . لقد لمست هذا الدليل في نفسي منذ اثنتين وثلاثين سنة عندما كنت بحجرتي في القسم الداخلى بجامعة كورنل ، يوم جاءني البرهان وأدق الله على قلبي نور الإيمان . لقد أصبح الله لدى أكبر من كل ما سواه ، حتى اننى ارضى أن أفقد كل شيء في هذا الوجود ، ولا أرتد الى حالتي السابقة .

لقد كان هو سبحانه صاحب الفضل في هذا البرهان ، فهو الذى انزله على قلبي وجعلني أعتقد في وجوده .

من السهل أن نتبين هنا نزعة صوفية . تقوم على تأمل الذات والاستدلال مما يدركه الانسان في نفسه من الأحوال الداخلية ، وصاحب هذا الكلام يذكر نوعا من النور الذى يفيض من الاله على قلب الانسان والذى يتحدث عنه الصوفية . ومن الشيق أن يقارن الانسان بين كلام هذا العالم وما يحدثنا عنه الغزالي من نور اليقين الذى قذفه الله في صدره فأخرجه به من حيرة الشك وظلامه .

فهذا العالم المفكر يجمع بين الادراك الدائى والاستدلال منه وبين نزعة تصوف ، لكنه لا يبين تجربته الصوفية الكشفية . وكلامه يدل على أن الانسان لا يستطيع أن يتخلص من دلالة نفسه على مبدأ وجودها ولا من نزعات التصوف .

وإذا كان العلم يؤدي الى كشف الوحدة في نظام العالم من نواح شتى فانه يؤدي بالضرورة الى وحدانية الخالق المذبح ، فبدلا من اثبات وحدانية الاله من طريق منطقي تحليلي يتلخص في ابطال التعدد على أساس أنه يبطل ذاته او يؤدي الى المحال او الى فساد النظام العالم ، وهذا ما نجده عند متكلمي الاسلام (١) نجد عند العلماء دليلا على الوحدانية يخرج من دلالة الصانع على وحدانية الصانع .

وكان بعض المفكرين السابقين ، مثل ابن رشد ، يقولون ايضا بوحدة العالم ودلائها على وحدة صانعه ، لكنهم بنوا ذلك على ملاحظة الغائية في العالم . اما العلم الحديث فهو ثبت وحدة المادة الكونية ووحدة القوانين التى تحكم العالم ، وخضوع كل الأشياء لقوانين منسقة تدل على قدرة واحدة مسيطرة وحكمة شاملة .

كان هذا الكون دائما موضوع تأمل الانسان . وكان يتأمله بعقله الباحث عن حقيقة الأشياء وقوانينها ، وبخياله الفنى والشعري . وكانت الدلالة المستمدة من العالم دلالة اجمالية . وقال البعض في تفسيره الكون اقوالا لا سند لها ، حتى جاء العلم الحديث فتناوله بالدراسة على المنهج العلمى . وكما كان ذلك سببا في الاستفادة الخصبة من تطبيق المعرفة فانه ايضا فتح المجال للدلالات لا تحصى ، وخصوصا الدلالة القاطمة على وجود الخالق القادر الحكيم .

(١) هذا هو « دليل التمتع » او « دليل الممانعة » الذى استخرجه المتكلمون من قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » ، ووضعوه على صورة تطيلية مشهورة موجودة في كتب علم الكلام . وتلخص في أنه لو كان هناك الهان مثلا ، مع الفراضى قدرة كل منهما وفعله لا يريد ، وتعلقت ارادة احدهما بقله بفعل شيء على نحو معين وتعلقت ل قدرة الآخر وارادته بفعل ذلك الشيء على نحو آخر ، لتشا عن ذلك ما يبطل الوهية احدهما او كليهما او انحلال النظام الكونى ، فلا بد أن يكون الاله الخالق الكبير واحدا .

وإذا كان العلم الطبيعي الذي كان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لا يزال ناشئاً قد اغتر بمكتشفاته القليلة ، فارتفعت أصوات فردية بالإنحداد ، فإن العلم الحديث يقترب من الإيمان بالله اقتراباً حقيقياً . ولا يمكن غير ذلك ، لأن الإيمان بالله هو التفسير الوحيد الصحيح للعالم وما فيه .

ونظراً لأن بعض المشتغلين بالعلم وبعض الدّين - لسبب أو آخر - يعادون الأديان يدعون أن العلم ونتائجه تعارض الإيمان بالله الخالق القادر الحكيم ، فانه قد ظهرت في القرن الحالي كتب لا تحصى لإثبات وجوده ، وكتبها قوم ينتمون إلى كل طائفة من طوائف المفكرين والمشتغلين بالعلم ، ومن أحسنها وأيسرها فيما وأقواها حجة واشدها اقتناعاً كتب المشتغلين بالعلم بمعناه الحديث . وبعض الكتب تشتمل على آراء متخصصين من جميع فروع العلم ، وتدل آراؤهم على روح جديدة في النظرة للعالم ، وهي أنه نظام حكيم عقلى يدل على خالق حكيم . ويحس القارئ لهذه الكتب بمدى الشعور بالاعجاب والروعة أمام عظمة الكون ونظامه المحكم البديع ، وهو شعور متميز عن التقديس العاطفى للكون كما تجلّى عند مفكرين متفلسفين ذوي نزعة صوفية شعرية ، لأنه اعجاب عقلى .

وإذا كان البعض يرى أن هناك روحاً من الإيمان تسرى في العلماء وتزداد قوة كل يوم فإن التحدث إلى هؤلاء العلماء وقراءة كلامهم يدلان دلالة لا شك فيها على رغبة زهية في تقوية الإيمان بالله ، باعتبار أنه قضية علمية ، هي أساس قضية أكبر شأنًا ، وهي قضية الإيمان .

ومن جهة أخرى نلاحظ أن كثيراً من المؤمنين يحاولون التعرف إلى العلم ونتائجه ، وأن كثيراً من العلماء المؤمنين يلبون حاجة النفس الإنسانية إلى أفق أوسع من أفق الحياة العادية وشؤونها المادية ، فيكتبون في إثبات وجود الله ، كل منهم بحسب تخصصه .

ومع أن الإنحداد أو التشكك في حقائق الإيمان لا يزال موجوداً عند قوم مفرضين أو غير جادين في طلب الأوضوح في تفكيرهم وحياتهم فإن الحادهم لا ينطلى إلا على جاهل بالعلم . ومن المحدثين من يكون مغلوباً على أمره فيجهر بخلاف ما يؤمن به في قرارة نفسه .

وإذا كان العلم بما كشفه من أسرار الطبيعة يثبت دعائم الإيمان فإن تأمل الإنسان لنفسه في ظاهر أمره وبواطن نفسه يهديه إلى مصدر وجوده ووجود الأشياء .

فان كان البعض ، لسبب أو آخر باخلاص أو بغير إخلاص ، يجهد بما يرشده إليه عقله هند تأمل هذا الكون فإن الإنسان في العادة لا يمكنه أن يجهد ما يصل إليه من النظر في نفسه ، حتى لو لم يكن معه إلا نفسه .

يقول أحد علماء الإسلام ، وهو النهري بندي من علماء القرن الرابع الهجرى :

ولو حلّ إقطار السموات عاقلٌ	أو احتلّ في أقصى بلاد تباعد
ولم يتر مخلوقاً يدلّ على هدى	ولم يات به وحى من الله قاصد
ولم ير إلا نفسه كان خلقها	دليلاً على باري له لا يعاند
دليلاً على إبداعها واختراعها	منيراً على مرّ الدهور يشاهد (١)

وهذا الكلام الاجمالي يشير الى نقطة بداية مؤكدة يمكن منها التفكير المؤدى الى معرفة الله.

واذا كان يجوز الجدل حول حقيقة المفهومات والتصورات المجردة وامكان اتخاذها اساسا للاستدلال ، فانه لا يجوز حول ادراك الانسان لذاته وادراكه لهذا العالم الذى يتبع فى تناول حواسه ويتمثل فى وعيه على نحو مباشر .

والآن لا بد من السؤال :

الى اى مدى يسير بنا العلم فى طريق الايمان ؟ وهل ما نصل اليه من طريق العلم يكفى عقولنا ويرضى حاجة ارواحنا ؟ وما هو محتوى ما يمكن ان نسميه التدين العلمى وما مدى كفايته وارضائه لحاجات روح الانسان ؟ .

فلنا ان العلم لا يتكلم الا بقدر ما يدرك من الوقائع ، ويتقدر ما يستنتج منها فى ضوء المنطق العلمى ، والعلماء ، فى العادة ، لا يتكلمون خارج دائرة تخصصهم . لكن للدين أهمية بالنسبة لكل انسان لانه يمس اصل الانسان ومصيره ومعنى حياته وفاتها ، وله شأنه فى تنظيم حياة الانسان فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين غيره ، هذا الى انه يتكلم من موضوعات هي اصول كبرى لوجهة نظر خطيرة فى الكون والحياة ومصيرها .

فلا شك انه من الخير ان يساهم العلم بنصيبه فى توضيح هذه الاصول الكبرى وتثبيتها ، وخصوصا انه يدرس الشيء الوحيد الذى يمكن ان يكون موضوع المعرفة ومصدرها ، والذى يحوى فى ذاته من الاسرار والاعمق ما قد يعين على درك اسرار واعمق ابعاد .

لكن العلم مهما مضى فى طريقه فانه مقيد بحدود موضوعه وامكان الاستنتاج منه وبحدود العقل الطبيعى وقيمة مفاهيمه وتصوراته .

ولا شك فى انه اذا كان هذا العالم بما فيه الانسان ، امنى جملة نظام الكون وجملة نظام النفس والعقل ، مظهرا تجلت فيه قدرة الخالق المبدع ، وظهرت فيه آيات علمه وحكمته ، فانه يحمل الدلالة المتنوعة على خالقه . لكن العالم مخلوق حادث ، محدود فى وجوده وصفاته ، على حين ان خالقه ازلى ابدى لا نهاية لوجوده ولا لكماله .

فالعالم ان دل على الخالق فان دلالاته رمزية صرفة ، هي مجرد اشارة لشيء مطلق مختلف تماما ، هي دلالة فعل على فاعل ، فشتان ما بينهما ؟

واذن فان استنتاجات العلم فيما يتعلق بالاله وصفاته لها قيمة كبيرة ، لانها دلالة عقلية ، لكن يجب علينا ان نعتبر ما يوصلنا اليه العلم مجرد علامة او اشارة . ومن اطرف اسرار هذه اللغة العربية ان الكون الذى نشاهده ، هو جملة نظام المخلوق ما نراه منه وما لا نراه ، يسمى بكلمة : « عالم » التى معناها : « العلامة الكبيرة » .

فاذا كنا مثلا نعرف من النظر فى هذا العالم ، وفى حدود الاستنتاج الدقيق ، ان موجد العالم ليس ماديا ، وانه قادر حكيم ، مبدع ، مريد ، حى .. الى غير ذلك من الصفات ، فان ما نراه لا يكفى فى ان يدل على ان صفات المبدع لا نهاية لها الا بخطوة عقلية جديدة هي : ان الشيء

الحادث لا بد أن يرجع آخر الأمر الى فاعل حق موجود بذاته ، كما تقدم القول أكثر من مرة . ثم إن ما نراه لا يدل على كل صفات المبدع ، لأن العلة اكمل من معلولها ، لا من جهة أن صفاتها اعظم من صفات المعلوم بما لا يقاس وحسب ، بل أيضا من جهة أن لها من الصفات الذاتية ما لا يظهر في المعلوم ، ولا يمكن أن يظهر .

وإذن فلا بد من اكمال المعرفة العلمية بكمال الاله وجلاله ، وهذا الاكمال لا يصح أن يؤخذ من تصورات عقلنا المحدود ، ولا من تخيل كمال أو استحسان صفات نضيفها اليه ، لأن هذا كله تصورات شخصية نسبية . بل يجب علينا التماس المعرفة بالاله من الاله نفسه ، بأن يعرفنا بنفسه بذاته وصفاته ، ويكشف لنا من اسرار ارادته وحكمته ما لا نصل اليه ، وذلك يكون بتعليم منه يأتي الينا ونحاول أن نفهمه فهما صحيحا .

ومهما كان الأمر فإن على من يطمح الى المعرفة العليا بالاله أن يحاول تحطيم حجاب الحس والعالم الحس والوصول الى المعرفة المباشرة بالاله ، وهي تجربة خاصة أو معرفة ذوقية بقدر ما تتسع لها طاقة العقل ، لانه لا يعرف الاله حق المعرفة الا الاله نفسه .

ثم إذا آمنا من طريق الاستدلال العلمي بوجود الاله الخالق ، فكيف نعرف الحكمة من صدور هذا الخلق عنه ، والعوالم التي خلقها غير مألنا ، وأنواع الموجودات التي نحتل مكانا بينها ، وحكمته من خلق الإنسان والمعنى الذي اراده من وضع الإنسان على هذا الكوكب ، وما هو القانون والمثل الاعلى الذي يجب أن يحكم حياة الإنسان ، وما سر وجود العقل مع القدرة والاختيار في الإنسان وصلاحيته ذلك لفعل الخير والنشر ، وماذا يفعل الإنسان بحياته وماذا يكون موقفه ازاء خالقه ، وما مدى مسؤوليته عن هذا كله ، وما مصيره بعد هذه الحياة ، هل الروح خالدة ؟ وهل من حياة أخرى للروح ؟ وأي نوع من الحياة هي ؟

كل هذه أسئلة لا يمكن تفاديها ، لانها انسانية ، وهي مجال المشكلات والحاجات والأزمات الانسانية ، وقد عبرت الانسانية عن الحاجة اليها تعبيرا نظريا وعمليا . لكن العلم لا يجب عنها ، وليس له وسيلة لذلك ، ولا العقل له وسيلة لذلك .

انه يمكن ، ولا شك ، بعد الوصول الى الإيمان العلمي بوجود الاله الخالق أقادر الحكيم ، أن نستنتج على نحو منطقي دقيق دقة الاستنتاج الرباغي بعض الآراء ، لكن ذلك يبقى شيئا كليا عاما ، ولا نستطيع أن نعرف المحتوى أو التفاصيل .

فنعلا : إذا قام الدليل العلمي القطعي على وجود خالق حكيم لهذا العالم ، فإنه ينتج لنا منطقيا أنه لا يخلق عيشا ولا باطلا ، وأنه لا يخلق العالم ثم يترك تدبيره ، ولا يخلق الإنسان العاقل الذي يترتب عقله الى المعرفة الا ويعطيه علما فوق ما يصل اليه بوسائله العادية ، فيجعله عن عوالم وموجودات لا يعلمها . وهو لا يتركه بلا تعليم يبين له الحكمة من وجوده والواجبات عليه في حياته نحو ربه ونحو نفسه ونحو غيره ، ويجب له عن أسئلته عن الحياة وما بعدها . . وهكذا .

لكن هذا كله ، وإن كان استنتاجا صحيحا ، فإنه لا يعيّن لنا شيئا .

ولا يمكن مهما تكلف الانسان ان يصل في هذه الامور الى تحديد ، وهذا من ادلة الحاجة الى التعليم الالهي واقتدار الخلق اليه ، لا لان عقولهم في ذاتها عاجزة عن الحكم على الامور ، بل لانها ليس من شأنها التحديد بين الجائزات ، ولانها رغم ادراكها للقيم ليس من شأنها ايجاب الواجبات . لان العقل وسيلة للمعرفة والادراك ، وليس مشرعا في امور تتجاوز ميدانه .

فلا بد من اكمال المعرفة العلمية التي يتوصل اليها العقل من النظر في نفسه وفي الكون بمعرفة ثاني من مصدر الكون والعقل فتساعد العقل على رؤية العالم في ضوء جديد . وفي هذا فائدة للعلم وللدن وللا انسان .

وكما لا غنى لعالم الدين من معرفة الشعرات الكبرى للعلوم الكونية والطبيعية والانسانية ، لانه يؤمن بخالق الكون والانسان ، فكل ذلك لا غنى لعالم التكوينات وعالم الطبيعة من الاستنارة بهدي الدين ، لانه من طريق العلم يؤمن باله قادر حكيم .

ان العلم يؤمن بمبدأ العلية وبعلة للعالم ، وهو يؤمن بما لا يرى ولا تدركه الحواس القاصرة ، ويؤمن بان هذا العالم تصميم عقلي يدخل في اطرار عقلنا ، فليس في العالم ولا في العقل ما يمنع العالم من قبول الدين المنزل .

لانه ، لما كان الدين المنزل من عند خالق العالم والانسان ، وكان موجها للانسان المزود بالعقل والحواس ، وهو في هذا العالم ، فانه يتحتم من حيث المبدأ ان يكون هناك اتفاق بين حقائق الدين وبين ما يصل اليه العقل من علم ، بشرط ان يكون الدين المنزل على حالة صحته الاصلية ، وان نفهمه فهما صحيحا ، وان يكون العلم الذي نصل اليه صحيحا ، وان نعرف حكم العقل الصحيح وحدود احكامه .

وهذا امر جدى عظيم الاهمية ، تحقيق بان معنى به الانسان المفكر . ولا خوف من النتيجة ، فقد دلت التجربة على نجاح المحاولة في الاديان المنزلة كلها ، على نحو مرض ، اذا صرفنا النظر من المتطرفين في جانب او آخر ممن لا يعتد برايهيم . واذا نظرنا في الاسلام مثلا وجدنا ان « المتكلمين » اقاموا مذهبهم على اساس العقل ، وان الفلاسفة من ايام الكندي الى ايام ابن رشد اكادوا اتفاق الدين والفلسفة .

فالكندي (١) يقول : ان كل ما جاء به الدين الاسلامي يمكن ان يفهم « بالمقاييس العقلية » التي لا يرفضها الا جاهل ، وابن رشد يقول : انه لما كان الدين حقا فانه لا يمكن ان يناقض العلم البرهاني ، لان الحق لا يضاد الحق بل هو يوافقه ويشهد له (٢) .

ولما كان الاسلام دين عقل وعلم ، وكان القرآن قد تكلم عن العالم ونظامه ، وامر بالنظر فيه بالحنس والعقل ، للاستدلال على وجود الله ، فان العالم المسلم جدير بان يؤمن بالعلم كما يؤمن بالدين ، فيطلب العلم بالكون لانه سبيل المعرفة بالله .

(١) راجع رسائله الفلسفية ، ج ١ القاهرة ، ١٩٥٠ خصوصا رسالته في « الابانة عن سجود الجرم الانساني وطاعته لله عز وجل » ورسالته « في كمية كتب ارسطو »

(٢) فصل المثال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال ، لابن رشد

ومنذ اتصال الإسلام بالعلوم والفلسفات اغبل المسلمون على طلبها وتناولوها بالدراسة والنقد وانشأوا علومهم وفلسفتهم . وقد واجهوا ثغرات العلوم والفلسفات أكثر من مرة ، في العصر العباسي الاول وفي القرن التاسع عشر ، ونجحوا في تمثيل العلوم والفلسفات ، وفي تثبيت الايمان — الذي هو علم يقوم على العلم — بفصل تجديد المعرفة . وهم اليوم يواجهون المهمة نفسها .

وقد ظهرت في الفترة الأخيرة كتب كثيرة لعلماء ومفكرين مسلمين وفيها نظروا للعلم الحديث وثمراته في ضوء آيات القرآن التي تتكلم عن العالم وعجائبه وظواهره واسرارها ، لكنها لا تزال محاولات متفرقة .

وقد ظهرت في عشرات السنين القليلة الماضية كتابات كثيرة لعلماء ومفكرين مسلمين حاولوا فيها فهم آيات القرآن التي تتكلم عن الكون وآياته في ضوء نتائج العلم ، او هم حاولوا تفسيرها تفسيراً علمياً ، لكن ذلك كان محاولات متفرقة . فما اجدر العلماء المسلمين ان يجتهدوا في العلم وان يدرسوا ما في القرآن من اشارات كونية ، وان يستفيدوا مما اشتمل عليه من تنبيهات واحكام كلية تتعلق بالكون ، وان يتاملوا دقائق المعاني الكامنة في آياته وكلماته . وان هذه دراسة تشوق العقل وتفتح امامه آفاقاً عليه ان يدرسها دراسة تعمق وتمحيص .

ان القرآن ، كما يقول عن نفسه « ذكر حكيم » و « علم » و « حكمة » فهو ينبه الحس والعقل ويوجههما الى آيات الكون في ضوء احكام وقضايا كلية او شاملة .

وليس الغرض من ذلك مجرد تثبيت الايمان بالله ، وهو اعلى معرفة علمية فلسفية ، بل ايضا الاستمتاع بلذة العلم والبحث العلمي .

ولا يصح الظن بان العلماء الغربيين الماكثين على البحث في العلوم بعيدون عن منابع الفكر الديني او الفلسفي القديم والحديث ، كلا ، انهم يعرفون تاريخ علومهم ، ويلمون بنصوص الدين وآراء علمائه ، ويزاولون معلمهم العلمي في جو من ثقافة متكاملة . واذا كان منهم معروضون عن ذلك فانهم ، وان كانوا يصلون في العلم الى ما يصل اليه غيرهم — لان وسائل المعرفة العلمية مطيعة لمن يريد استعمالها ويوجد في الوصول اليها — فانهم تنقصهم روح البهجة الناشئة عن ادراك ما في الكون من آيات الدقة والروعة الدالة على الخلاق العظيم .

واذا كان دليل العلم قد اثبت وجود الاله القادر الحكيم ، فانه بذلك يضع العالم امام مسؤولية كبرى ، فيما يتعلق بواجبه نحو هذا الاله وحكمته ووجود الانسان ، وفيما يتعلق بواجبه نحو ما يترتب على استعمال نتائج البحث العلمي . فهي قد تستعمل لخير الانسان او للاحاق الضرر به ، ومن هنا يجب على العالم الحديث ان يهتم بالنتائج التي تترتب على استعمال المعرفة العلمية اهتمامه بالبحث العلمي نفسه .

ومن هنا يصبح الايمان بالاله باعثاً على معرفة حكمته وعلى احترامها ، فيكون العلم مؤيداً للإيمان وعاملاً على كمال الانسان وسعادته .

كان العلم الحديث سبباً في زعزعة الايمان احياناً ، وذلك يرجع الى انه لم يكن علماً صحيحاً ولا كافياً ، واليوم أصبح العلم داهياً الى الايمان ، وذلك بفضل ازدياده وصحته .

قال لورد كيلفن ، احد علماء الطبيعة البارزين :

« اذا فكرت تفكيراً عميقاً فان العلوم سوف تضطرك الى الاعتقاد بوجود الله » .

وكان الفيلسوف الانجليزي فرانسيس بيكون يقول :

« ان قليلاً من الفلسفة يقرب الانسان من الالحاد، اما التعمق في الفلسفة فانه يرده الى الدين » .

والله يقول في القرآن الكريم بعد تنبيهه الى بعض آيات الكون :

« انما يخشى الله من عباده العلماء » (س ٣٥ - فاطر ، ٢٨) .

وهو يقول مؤكداً انتصار العلم بالله والايمان به ، بعد اكتمال المعرفة الانسانية :

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، اولم يكف بربك انه على كل

شيء شهيد » (س ٤١ - فصلت ، ٥٣) .



(١) فيما عدا المصادر المذكورة في مواضعها اعتمدت ، في نقل لم تتييس مراجعها ، على القالة المتأخرة التي كتبها تيلور في دائرة معارف الدين والاخلاق عن الايمان بالله Theism . وقد اشرت الى دائرة المعارف هذه بالحروف (Encyclopaedia of Religion and Ethics) E.R.E.

أزمة العلوم الإنسانية

في الاجتماع السنوي الذي عقدته الجمعية الأمريكية لعلوم الاجتماع American Sociological Society في مدينة شيكاغو عام ١٩٥٨ ، ألقى العالم الأمريكي الشهير تولكوت پارسونز Talcott Parsons محاضرة بعنوان « علم الاجتماع كمهنة Sociology as a Profession » أثارت كثيراً من الجدل والمناقشات حول ماهية ذلك العلم وميدانه ومناهجه ونظرة المتشغّلين به إلى أنفسهم ، وهل يعتبرون أنفسهم حرفيين ومهنيين يلتزمون بأصول المهنة في كل خطوة يخطونها ؟ وما هي تلك الأصول والقواعد ؟ وما أثر ذلك الالتزام على مستقبل علم الاجتماع نفسه ونوع المشاكل التي يجب عليهم دراستها والتعمق فيها . وقد أدى هذا كله إلى انقسام العلماء إلى فئتين ، ترى أحدهما وجوب توفر العالم على دراسة مشاكل محددة بالذات للتعرف على كل دقائقها وتفصيلها بما يتفق مع مستلزمات التخصص المهني الدقيق حتى وإن كان ذلك على حساب النظرة العامة الشاملة إلى الحياة الاجتماعية ككل ، أو إلى الخصائص الأساسية التي تميز المجتمع الذي يدرسها الباحث تلك المشكلة أو المشاكل المحددة فيه ؛ بينما ترى الفئة الثانية أنه على الرغم من أهمية التخصص الدقيق والدراسة التفصيلية لمشاكل جارية محددة فإن المبالغة في ذلك الاتجاه تؤدي في آخر الأمر إلى تحديد مجال علم الاجتماع وتضييق أفق الباحث نفسه ، وعزله عن التيارات والأحداث العالمية

(*) دكتور أحمد أبو زيد ، استاذ الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة الكويت (بالاعارة من جامعة الاسكندرية) .
عمل خبيراً لشؤون الجماعات القبلية بمنظمة العمل الدولية بجنيف ، كما قام بأبحاث حقلية بين الجماعات البدوية في معظم الدول العربية .

من مؤلفاته : « البناء الاجتماعي : مدخل لدراسة المجتمع » ، وقد ظهر منه ثلاث أجزاء من « المعلومات » و « الأساق » و « الزواج في كتاباته بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع » .

نتيجة للتركيز على مشكلة واحدة محدودة بحدود الزمان والمكان ، وهو الامر الذى يتعارض مع ماهية علم الاجتماع باعتباره احد العلوم الانسانية التى تهدف قبل كل شىء الى دراسة الانسان فى ذاته . وحسم الخلاف احد اساتذة جامعة شيكاغو حين ذكر زملاءه بالتقاليد القديمة التى كانت سائدة بين علماء الاجتماع الاوائل الذين كانوا يجمعون بين اتساع الثقافة وشمول النظرة ، وانه يعتقد بناء على ذلك ان علماء الاجتماع هم من اصحاب الثقافة الواسعة المتنوعة ، وليسوا من اصحاب النظرة الضيقة المتزمتة وان « هذه الجمعية » ، اى « الجمعية الامريكية لعلم الاجتماع » هى فى المحل الاول جمعية علماء مثقفين وليست جمعية حرفيين ومهنيين . ومن الطريف ان الفرائى استقر بعد الاجتماع على تسمية اسم الجمعية ، فاصبحت « الرابطة الامريكية لعلم الاجتماع » وقد علق بعض الفرفاء على ذلك بان تغيير اسم الجمعية كان خيرا ما تمخض عنه ذلك الاجتماع السنوى ، اذ لو كانت الجمعية تمسكت باسمها القديم وقبضت فى الوقت نفسه الدعوة الى اعتبار علم الاجتماع حرفة او مهنة لصديق على الجمعية وعلى العلماء الاسم الذى تشير اليه الحروف الاولى من اسم الجمعية ذاتها وهو A.S.S. ، اى (جشش)

ومع ما فى هذه الملاحظة الاخيرة من طرافة وقسوة ، فان لتلك المناقشات مغزاها العميق ، ليس فقط بالنسبة لعلم الاجتماع ، بل وايضا لكل لعلوم الانسانية ، لانه تكداد تلخص حقيقة الازمة الراهنة التى تواجهها هذه العلوم ، والتى تتمثل بوجه خاص فى اختلاف الاراء حول طبيعتها ، ودقة المناهج واساليب البحث التى تتبعها ، ونوع الالتزامات التى يجب ان تلزم بها اراء الانسان والمجتمع ، والعلاقات المختلفة التى تقوم بين فروعا ومدى الاعتماد المتبادل الذى يمكن ان يقوم بين هذه الفروع والتخصصات وما الى ذلك . وعلى الرغم من ان معظم هذه المشكلات قديم ودارت حوله مناقشات طويلة منذ اواخر القرن الماضى ، وبخاصة فيما يتعلق بعلم الاجتماع ، ثم تجددت هذه المناقشات بعد الحرب العالمية الاولى وبخاصة فيما يتعلق بالانثروبولوجيا ، فان الظروف الحالية التى يمر بها المجتمع الانسانى والتقدم الملحوظ الذى حققته العلوم الطبيعية والبيولوجية ، وتغلف العلوم الانسانية فى الوقت ذاته وعدم قدرتها على اللحاق بتلك العلوم ، ابرزت اهمية هذه المشكلات بشكل غير عادى . ومن الخطأ ان نعتقد ان الاهتمام بالمشكلات الاجتماعية والسياسية وغيرها من المشكلات الانسانية احدث بهذا بكثير من الاهتمام بالظواهر الكونية او الفيزيائية . بل ان العلوم الانسانية وبالذات علم الاجتماع او علم المجتمع ، كانت فى بعض فترات التاريخ تبدو اكثر تقدما من على الطبيعة (الفيزياء) كما هو الحال مثلا فى ايام اليونان وبخاصة ايام افلاطون . ولكن بمجيء جاليليو Galileo ونيوتن Newton احرزت العلوم الطبيعية من النجاح ما لم يكن مرتقيا ، وتفوقت كثيرا على غيرها من العلوم . ومنذ عهد باستير Pasteur ، نظير جاليليو فى علم الحياة ، احرزت العلوم البيولوجية نجاحا يكاد يعادل ما احرزته العلوم الطبيعية . ولكن العلوم الاجتماعية لا يبدو لآن انها وجدت من يحقق لها ما حققه جاليليو للعلوم الطبيعية (١) . ومن هنا كان لا بد للمشتغلين بالعلوم الانسانية من ان يتعرفوا على اسباب ذلك التخلف الذى تعاني منه العلوم الانسانية من ناحية ، والطريقة المثلى للخروج من ذلك التخلف الذى يكاد يشبه الجمود ، ومن هنا

(١) بوبر ، كارل : علم المذهب التاريخي ، دراسة فى مناهج العلوم الاجتماعية - ترجمة الدكتور عبد الحميد صبره ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ١٩٥٩ ، صفحة ٩ .

أيضا كان لا بد لهم من الاهتمام بالمسائل المنهجية وبخاصة المناهج التجريبية المتبعة في العلوم الطبيعية بالذات . وهذه أيضا حركة قديمة ترجع الى أيام جون ستوارت ميل : J. S. mill الذي أراد « إصلاح » علم الاجتماع بالاستعانة بالمناهج التجريبية مثلما فعل فونت Wundt في محاولته « إصلاح » علم النفس . ومع أن هذه المناهج حققت كثيرا من النجاح في علم النفس فهناك كثير من الشك في مدى ما حققته من نجاح في العلوم الإنسانية .

ولقد ترتب على سرعة التقدم العلمي والتكنولوجي في السنوات الأخيرة مع نخلف العلوم الإنسانية أن زاد التشكك في قيمة وجدوى هذه العلوم ، على الأقل في حالتها الراهنة . وساعد على ذلك مظاهر من انزوال كثير من المشتغلين بهذه العلوم عن الأحداث الهامة في مجتمعاتهم وعجزهم عن ملاحظة التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأيديولوجية التي يمر بها العالم الآن . وانعكس ذلك واضحا في موقف كثير من الحكومات من كلا الفئتين من العلوم ومدى اهتمامها بها ، وهو اهتمام يمكن أن نقيسه بحجم الإنفاق على كل منهما . وقد تكفى بعض الأمثلة القليلة لتوضيح ذلك : فالعروف مثلا أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية أنفقت على تدعيم البحوث العلمية والهندسية في عام ١٩٦٦ ما يزيد على خمسة عشر بليون دولار ، وهو مبلغ ضخم ، ولكنه يرتفع الى ما يقرب من العشرين بليون دولار إذا أخذنا في الاعتبار المساعدات الأخرى الثانوية وغير الباشرة التي بذلت في هذا المضمار . ويزيد هذا المبلغ زيادة هائلة ليس فقط عن كل ما تكلفه الجهود العلمية خلال الحرب العالمية الثانية ، بل أنه يزيد أيضا على كل ميزانية الحكومة الفيدرالية في السنة السابقة مباشرة على الهجوم على بيرل هاربور (٢) . وقد ارتفع حجم الإنفاق أكثر من هذا بكثير بعد عام ١٩٦٦ نتيجة لتشعب البحوث العلمية والهندسية وتعقدتها وامتدادها الى ميادين جديدة بعد أن دخل العلم مرحلة غزو الفضاء . وبعد أن كان البحث العلمي في أمريكا يكاد ينحصر في الجامعات ومعاهد البحث العلمي وبعض الشركات الصناعية الكبرى نزلت الإدارات الحكومية المختلفة الى هذا الميدان بقوة عارمة وميزانيات ضخمة وأعداد كبيرة جدا من العلماء المتخصصين الأكفاء ، وهو أمر جديد لم يكن لأمريكا سابق عهده . وليس المهم هنا هو ضخامة الإنفاق على العلوم الطبيعية في ذاتها . فهناك بغير شك ما يبرر ذلك الإنفاق أو بعضه على الأقل . وإنما الزمج هنا هو ذلك التفتير المقابل في الإنفاق على العلوم الإنسانية وعدم الاهتمام اهتماما كافيا بتدعيم البحوث في هذه المجالات على الرغم مما يرتبط في الأغلب بالتقدم العلمي والتكنولوجي من ظهور كثير من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تحتاج الى حلول سريعة حاسمة ، وما تتطلبه هذا كله من ضرورة دراسة الأوضاع الجديدة وفهم منطق العلم والتكنولوجيا وآثارها في الحياة الإنسانية . وليس من شك في أن هذا كله خليق بأن يلقي أعباء جديدة على المشتغلين بالعلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية على السواء ، حيث يتعين على كل من الطرفين محاولة فهم الطرف الآخر والتعرف على ميادين أبحاثه واهتماماته والعمل على تعديل نظريته في ضوء ذلك الفهم الجديد ، على أساس أنه لا بد من تصحيح التوازن بين العلوم الطبيعية والإنسانية أو تضيق الهوة التي تفصل بينهما بقدر الامكان . والشيء الغريب هو أنه على الرغم من الشعور المتزايد بخطورة الموقف الناجم عن اختلال

التوازن ورجحان كفة العلوم الطبيعية الى الحد الذي يهدد مستقبل المجتمع البشرى بأسره ، فان الخطوات الإيجابية التي اتخذت للآن قليلة وغير فعالة . ففى إنجلترا - مثلا - وهذا مثال آخر له مفزاه وان لم يكن مثالا صارخا كأمريكا ، نجد أن مجموع ما ينفق على العلوم الاجتماعية اقل من جزء من ألف جزء مما ينفق على العلوم الطبيعية ، وان هذه النسبة الضئيلة تزداد تضاعفا لو اخذنا في الاعتبار ما تنفقه الصناعة أيضا من أموال على البحث العلمى والتكنولوجيا (٢) .

وفد يرجع بعض هذا التخلف الذى تعانيه العلوم الانسانية الى قلة الاتفاق على البحوث ، وان كان يمكن فى الوقت ذاته تفسير الانصراف عن تدعيم هذه البحوث ذاتها الى قلة العائد الملموس منها ، وإلى اخفاق المشتغلين انفسهم بهذه العلوم فى تدعيم مركزهم واقتناع الحكومات والمجتمع بجدوى إباحاتهم التى كثيرا ما يشوبها الجدل والافتراضات الغضاضة والتعميمات التى لا تستند الى اساس متين من الواقع . وربما كان هذا من بين الاسباب التى دفعت بارسونز الى القيام بدعوته المتطرفة التى اشرفنا اليها ، وإلى الاهتمام الزائد باتباع المناهج التجريبية ومحاولة محاكاة العلوم الطبيعية فى اساليبها ، على أن يؤدى ذلك الى احراز التقدم المأمول . ومن الصعب أن نناقش هنا بالتفصيل أزمة العلوم الانسانية المختلفة ، ولذا سنقتصر فى معظم الاحوال على الإشارة الى اثنين فقط من هذه العلوم ، وهما علم الاجتماع والانثروبولوجيا ، او كما يسميان أحيانا ، علم المجتمع وعلم الإنسان ، كمثالين يوضحان الوضع القائم فى المجموعة كلها . فالمشاكل على أية حال واحدة أو متشابهة الى حد كبير .

ولكن مهما يكن من أمر تخلف العلوم الانسانية ، فليس لمة شك فى انها خليفة بأن تلعب دورا هاما فى حياة الإنسان المعاصر وإنسان المستقبل ، بل وقادرة على الاضطلاع بهذا الدور بشكل لم يتيسر لها من قبل ، وان تساعد على حل كثير من المشكلات والازمات التى نجمت عن التقدم التكنولوجى الحديث . والمعروف أن علم الاجتماع بالذات ظهر كنوع من الاستجابة لازمة التى كان يمر بها المجتمع الأوروبى خلال المرحلة الديناميكية التى تربتت على ظهور الثورة الصناعية

(٣) Eysenck, H.J.: *Sense and Nonsense in Psychology*, Pelican 1966, P. 12.

ويذكر آيزنك كمثال للتقترى فى الاتفاق على الدراسات الانسانية ما يحدث فى مجال علم النفس باعتباره احد العلوم الانسانية المتقدمة ، ويأثران فى ذلك بين ما تتكلفه مشكلات اختبارات قياس ذكاء الأطفال للتعرف على قدراتهم وميولهم ، مما يساعد على وضع خطة علمية سليمة لتوجيههم منذ صغرهم فى الحياة وبين ما ينفق على بعض الأمور الأخرى التى قد لا تكون لها كل هذه الأهمية فى حياة الإنسان . ومع أن اختبارات ذكاء أطفال المدارس بين سن السادسة والحادية عشرة لا يكلف الواحد منها سوى تسعة بنسات وان الأمر يحتاج الى تطبيق خمسة اختبارات على فترات متباعدة ، بحيث تقل تكاليف الاختبارات كلها عن أربعة شللات وهو مبلغ زهيد جدا ولا يمكن قياسه بما ينقله أى شخص عادى على اصلاح أداة يلعبها الطفل من الأدوات التى يستخدمها فى حياته اليومية ، فان هناك صعوبة بالغة فى توفير المال اللازم لتطبيق هذه الاختبارات على كل تلاميذ المدارس فى تلك السن على الرغم من الفائدة الكبرى التى سوف تعود على الفرد نفسه وعلى المجتمع ككل ، وعلى الرغم من أن ذلك قد يوفر على المجتمع كله وعلى الفرد ذاته كثيرا من المتاعب وخيبة الأمل والجهود الصاعقة التى قد تحدث فى المستقبل اذا لم تطبق هذه الاختبارات وامثالها. انظر فى ذلك صفحات ١٢ - ١٧ من كتاب آيزنك السابق ذكره .

والثورات السياسية والظروف التي أحاطت بعصر التنوير وحروب الاستقلال والثورات في أمريكا وأوروبا والغزوات والحروب النابليونية . وكان الغرض من قيامه كحركة جديدة هو إيجاد وسائل وطرق واساليب يمكن بها تحليل العلاقات الاجتماعية المتشابكة المعقدة وتقريبها إلى الأذهان . وهذا معناه أن علم الاجتماع نما وترعرع في عالم سريع التغير نسبيا كان يبدو حينذاك على أنه يخترق بسرعة فائقة عن الأوضاع الراسخة الموروثة ، كما كان الإنسان نفسه يبدو فيه ضالعا لا يعرف أين يسير ، كما كان يشعر بأنه أصبح عاجزا تماما أمام نتائج أعماله وأفعاله التي لم يكن يقدر نتائجها حق التقدير . لقد كان علم الاجتماع بذلك بمثابة المطلب العقلي لنوع جديد من العلماء يختلفون كل الاختلاف عن سبقتهم من الكتاب الذين لم يدخروا وسعا رغم إمكاناتهم المتواضعة في فهم الإنسان والمجتمع (٤) . ولقد كان العلماء الأوائل يرون في علم المجتمع - حسب قول فريدريش يوخولتز Friedrich Buchholz - نوعا من الدراسة الغلة الفريدة التي لم تكن العصور السالفة تحلم بإمكان قيامها ، كما كانوا يرون في المشتغلين بذلك العلم الجديد طرازا خاصا من المفكرين يركزون كل اهتمامهم ويحصرون كل أهدافهم في محاولة تقريب العلم من حالة المجتمع وأوضاعه ، وبالتالي يعملون على تكيف ذلك العلم الجديد للمجتمع . ومع ذلك فلم يحاولوا أن يطلقوا عليه اسما معينا . والمعروف أن الذي سمي علم الاجتماع بذلك الاسم هو أوجيست كومت Auguste Comte الذي كان يخضع ذلك العلم للقول الفرنسي المأثور : *Savoir pour prévoir, prévoir pour pouvoir* أي أنه كان يعتبر الغاية الأخيرة من علم الاجتماع هي التنبؤ أو التكهّن ، وأن الغاية من التنبؤ هي التحكم والتوجيه والإرادة . وبالتالي فإن علم الاجتماع كان من ضمن أهدافه التغلب على الجحوش الأعمى والنتائج غير المرئية وغير المقصودة التي قد تترتب على أفعال الإنسان (٥) . وهذا هو بالضبط ما يبدو عليه الوضع الآن مع كثير من الفوارق في الدرجة بطبيعة الحال . فالعالم يمر في الوقت الحاضر بسلسلة طويلة من التغيرات العنيفة السريعة المتلاحقة ، وقد زعزعت هذه التغيرات ثقة الإنسان وإيمانه في كثير من القيم الموروثة ، وجعلته يشعر بالضيق والضالة إزاء التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل ، ولم يعد يدرى تماما إلى أين المصير . وكان لا بد للإنسان إزاء ذلك من أن يرجع إلى نفسه مرة أخرى يبحث فيها وفي المجتمع الذي ينتمي إليه ، وفي العلاقات الإنسانية والقيم الاجتماعية والروحية ، وكذلك في الظروف الراهنة التي تحيط به عن موطنه قديمه ، ويحاول أن يستشف منها شيئا من حاضره ومستقبله . ولكنه يصطدم في أثناء بحثه بالوضع المألوم الذي انحدرت إليه العلوم الإنسانية التي كان يمكن أن يسترشد بها ، بالإضافة إلى حالة التشكك وعدم اليقين التي تسيطر على المشتغلين بهذه العلوم ذاتها فيما يتعلق بتحديد الهدف منها ومناهجها والدور الذي تقوم به في الحياة بعد أن فقدت ، على ما يبدو ، كثيرا من مقوماتها الأصلية القديمة . وهذا يصدق على علم الاجتماع في المحل الأول . ولكنه يصدق أيضا على الأنثروبولوجيا . ولقد دفع ذلك كله كثيرا من المشتغلين بالعلوم الإنسانية وبخاصة الشباب منهم إلى أن يختبروا بعقل ناقد وضع

Gerth, H. and Landau, S.; "The Relevance of History to the Sociological (٤)
Ethos" in Stein M. and Vidich, A. (eds) : *Sociology on Trial*, Prentice - Hall, N.J. 1963,
P. 26.

(٥) انظر المرجع والمصلحة .

هذه العلوم في الوقت الحاضر بقصد التعرف على سر الأزمة التي تمر بها ، وعناصر تلك الأزمة وطريقة الخروج منها .

- ١ -

وأزمة العلوم الإنسانية هي في أساسها أزمة كيان ، أن صحت هذه التسمية ، نشأت من الرغبة في إثبات وجود هذه العلوم وتحديد مكانها بين بقية العلوم والمعارف تحديداً واضحاً نهائياً ومعتزناً به من الجميع ، أي من المشتغلين بالعلوم الطبيعية والبيولوجية من ناحية ، والمشتغلين بالعلوم الإنسانية ذاتها من الناحية الأخرى ، على الرغم مما قد يبدو في هذا القول الأخير من غرابة . فليس هناك حتى الآن اتفاق تام بين المتخصصين في العلوم الإنسانية أنفسهم على تحديد هذه العلوم (١) والاعتراف بمجالات تخصصها ومدى التعاون الذي يمكن أن يقوم بينها ، بل والاكتر من ذلك الاعتراف ببعضها بعضاً . وهذا الموقف التشككي في أهمية بعض التخصصات من جانب المشتغلين بتخصصات أخرى ضمن دائرة العلوم الإنسانية ذاتها موقف قديم . فإوجيست كونت في تصنيفه للعلوم الذي وضعه في كتابه الشهير «دروس في الفلسفة الوضعية *Cours de Philosophie Positive* يرتب العلوم ترتيباً تصاعدياً من البسيط إلى المعقد ، مبتدئاً بالرياضيات التي يعتبرها أبسط العلوم ، لأنها هي الأساس الأول الذي تعتمد عليه كل العلوم الأخرى ، دون أن تستند هي إلى أي علوم أخرى أبسط منها ، ومنتهياً بعلم الاجتماع الذي يعتبره أكثر العلوم تعقيداً . إلا أنه يسقط علم النفس من هذا التصنيف ، لأنه ليس علماً خليقاً بالذكر . وقد اتخذ دوركايم *Durkheim* أيضاً موقفاً معادياً من علم النفس وإن لم يصل إلى حد الإنكار التام له، ولكنه كان يرفض الاستعانة به في فهم ودراسة وتحليل الظواهر الاجتماعية ويحذر من الوقوع في التأويلات الميكولوجية لتلك الظواهر ، وإن كانت كتاباته هو نفسه لم تخل من مصطلحات علم النفس (٢) . وقد نجد دليلاً واضحاً على مدى تخبط العلماء في هذا الصدد لو قارنا موقف دوركايم باعتباره عالم اجتماع ، بموقف

(٦) يطلق اصطلاح (العلوم الإنسانية) في العادة على الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الاقتصاد والسياسة ، وقد يدخل في دائرتها أيضاً التاريخ ولى بعض الأحيان الإدارة العامة . وتختلف العلوم الإنسانية عما يعرف مادة باسم الإنسانية *Humanities* التي تقسم الأدب والفلسفة والفن وما إليها . . وسوف نمود لذلك فيما بعد .

(٧) ربما كان أفضل مثل لذلك هو كتابه عن « الانتحار » دراسة في علم الاجتماع *Le Suicide* ; *Etude de Sociologie* إذ على الرغم من أنه يحاول في الفصول الأولى أن يدحض الفكرة السائدة لدى كثير من الكتاب من أن الانتحار مشكلة تتعلق بالفرد من حيث هو فرد وأنه لا يمكن لذلك تفسيرها في غسوء علم النفس وبالإشارة إلى الحالات النفسية التي يمر بها الفرد فإنه لا يلبث أن يفرق بين ثلاثة أنواع من الانتحار يسميها النمط الإنساني الذي ينشأ من العدم تكامل الفرد في المجتمع ، والنمط الإثاري الذي ينشأ من رغبة الفرد في التفتيح بحياته خضوعاً لبعض الأوامر والتقاليد ، ثم الانتحار الناشئ عن الانحراف عن المعايير الثابتة أو الطرود عليها . ولا يكاد تحليل دوركايم للانتحار يختلف عما قد يكتبه الآن أحد علماء الأنثروبولوجيا السيكولوجية من أمثال هالويل *Hallowell* . انظر في ذلك كتابنا عن « البناء الاجتماعي : مدخل لدراسة المجتمع » ، الجزء الأول ، المعلومات . . المعارف للعبارة والنشر ، القاهرة ١٩٥٨ ، صفحات ٨٠ - ٨٥ .

مالينوفسكي Malinowski - باعتباره من علماء الأنثروبولوجيا ساء علم النفس والتاريخ باعتبارهما علمين من العلوم الإنسانية .

فبينما يرفض دوركايم علم النفس على ما وإينا وينسادي بأهمية التواريخ في فهم الظواهر الاجتماعية يقف مالينوفسكي موقفاً مناقضاً لذلك تماماً . فهو يرفض التاريخ ولا يعترف به كوسيلة أو أداة في فهم المجتمع ، ولكنه يستعين - في بعض دراساته على الأقل - بعلم النفس لفهم بعض الظواهر الاجتماعية ، بل أنه كان يأخذ على المدرسة الفرنسية إغراقها في توكيد الجانب الاجتماعي من الطبيعة البشرية على حساب التفانيات الفردية وحاول ، على هذا الأساس ، أن يعمل نظرية دوركايم عن طريق الاستعانة بالنظريات السيكلوجية عند بافلوف Pavlov وقوت وكذلك الاستعانة بالتحليل النفسي(٨) .

وظهر هذا الاتجاه واضحاً بوجه خاص في دراساته للدين والسحر حيث حاول تفسيرهما مع غيره من العلماء من أمثال ماريت Marcit ولوى Lowie ورادين Radin - على أساس الشاعش والحالات الانفعالية كالكرهية والجشع والحب والخوف والرهبة وما إلى ذلك . ثم نجد من الناحية الثالثة إيفانز بريتشارد E.E. Evans-Pritchard وهو تلميذ مباشر لمالينوفسكي يقف موقفاً معادياً تماماً لعلم النفس على عكس استاذة ، ويرى أن التأويلات التي تعتمد على علم النفس يداخلها كثير من الخلط وعدم الترابط ، كما أن فيها كثيراً من اللغو والهراء (٩) .

ويبدو أن التشكك في أهمية العلوم الإنسانية أو بعضها على الأقل - يتعدى دائرة المشتغلين بهذه العلوم أنفسهم إلى غيرهم من المفكرين والعلماء ، كما يبدو أن موجة الشك تبلغ ذروتها بالنسبة لعلم النفس بالذات الذي أثير حوله كثير من السخوة والنهك اللاذعين وبخاصة فيما يتعلق بمنهج وطرق البحث فيه ، وهي مناهج وطرق تهدف إلى توكيد الناحية « العلمية »

(٨) يظهر هذا الاتجاه بوضوح في كتابات مالينوفسكي الأولى حيث حاول تفسير الكتب والصراع الذين يظهران في المائلة الأوروبية نتيجة لوطاة الحضارة الحديثة بالاستعانة بالتحليل النفسي وكتابات فريد ومدرسته ، كما يظهر أيضاً في كتاباته من « الجنس والكتب في المجتمع الهمجسي Sex and Redression in Savage Society » وأن كان عارض فيه التفسيرات الفردية ويبتعد عن انطباقها على المجتمعات البدائية وبخاصة المجتمعات الأوميسية Matrilineal . وعلى أي حال فقد نبد مالينوفسكي في كتاباته المتأخرة هذه الاتجاهات وبخاصة نظريات التحليل النفسي التي يصورها بأنها نظريات فاحشة سرعة ، وأن حججها وإهانة غامضة كما أنها تستخدم الأقوال ومصطلحات معقدة . انظر في ذلك الجزء الأول من كتاباته عن « البناء الاجتماعي » - المرجع السابق ذكره صحتي ١٠١ - ١٠٢ .

(٩) انظر ترجمتنا لكتاب : إيفانز بريتشارد : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، الطبعة الأولى ١٩٥٨ ، صفحة ٧٥ . وإيفانز إيفانز بريتشارد حين يرى أن « العصر الذي لاقاه العلماء السابقون لم يردع الأنثروبولوجيين الحديثين - وبخاصة في أمريكا - عن محاولة معالجة النتائج التي وصلوا إليها في ذلك الخطم من علم النفس السلوكي والتحليل النفسي ، وهو ما يطلق عليه اسم سيكلوجيا الشخصية أو سيكلوجيا الدوافع والاتجاهات (صحتنا ٧٥ - ٧٦) وهو يرى ، على العموم ، أن كلا من علم النفس والأنثروبولوجيا يدرس نوعاً خاصاً به من الظواهر وأن ما يدرسه أحدهما لا يمكن فهمه على أساس النتائج التي توصل إليها الآخر . وحتى يدرسان نفس الأفعال في السلوك الواضحي فإنهما يدرسان تلك الأفعال على مستويات مختلفة من التجريد . (صفحة ٧٦) .

فيه وتقريبه من العلوم الطبيعية . وكثيرا ما تعرض لهذه السخرية أساطين علم النفس والتحليل النفسى من أمثال بافلوف وفرويد . ولقد كان بافلوف بالذات موصفا لسخرية برناردشو في روايته « زنجية تبحث عن الله *The Black Girl in Search of God* » حيث يسخر شو من تجارب بافلوف المشهورة حول الأفعال العكسية الشرطية . وبصرف النظر عن مدى جدية برناردشو في نقده وتهكمه وعن مدى فهمه لتجارب بافلوف ، فالهم هنا هو عنصر التشكيك وما يليقه من ظلال قاتمة على هذا العلم في أذهان الكثيرين من الناس - بل والأذكاء منهم - الذين قد يخطئون ادراك الفرض من اجراء التجارب العلمية . فعلى الرغم من ان بافلوف يعتبر من اعظم علماء النفس فان شو يظهره على انه امير العلم الزائف ، وان كل ما فعله في العلم هو انه اضاع خمسة وعشرين عاما من عمره في اجراء تجارب غريبة على الكلاب لجمع المعلومات التي يقيم عليها نظريته البيولوجية حول اذا ما كان للكلاب يسيل من فم الكلاب حين تتعرض لبعض المنبهات والمثيرات مثل رؤية الطعام أو شم رائحته وسماع بعض الكلمات أو الاصوات في أثناء ذلك ، وكمية ذلك اللعاب مقدرة بعدد القطرات التي تتساقط من الفم ، وانه بلبل كثيرا من الجهد والوقت في فتح ادمنة عدد لا يحصى من الكلاب وعمل تقصوب وفتحات في افكاكها وخدودها لكي يسيل اللعاب منها بدلا من ان يسيل من طرف اللسان وهكذا .. وتسال الفتاة الزنجية البسيطة بافلوف « لماذا لم تسألني انا ؟ لقد كان يوسعى ان اجيبك على ذلك في خمس وعشرين ثانية دون ان تضطر الى تصذيب كل هذه الكلاب المسكينة » ويستنكر بافلوف السؤال وينعى على الفتاة جهلها وقصر عقلها ، فقد كان يعرف تلك الحقيقة عن سيل اللعاب طيلة الوقت ، ولكنه لم يكن برهن عليها تجريبيا في العمل وبذلك لم تكن هذه الحقيقة معروفة على المستوى العلمي من قبل . « لقد وصلتنى كتوع من التخمين الفج ولكنني اوصلتها لآخرين كحقيقة علمية (١٠) »

ونفس تسمية « العلوم الانسانية » بهذا الاسم يثير كثيرا من الجدل والبلبل نظرا لانه يجمع بين مجالين مختلفين تماما من مجالات المعرفة ، سواء من حيث الموضوع أو المنهج أو اساليب الدراسة ويشبه احد كبار علماء الانثروبولوجيا المعاصرين ، وهو الاستاذ روبرت ردفيلد *Robert Redfield* الوضع في امريكا ، على الاقل ، بمادة ضخمة تضم مختلف المعارف والتخصصات ، وقد جلست العلوم الاجتماعية أو الانسانية والى يمينها العلوم الطبيعية والبيولوجية والى يسارها الانسانيات ، وفي الوسط يجلس علم الاجتماع وعلم السياسة اللذان لا يكادان يدخلان في اية علاقة رسمية مع جيرانهما على كلا الجانبين ، بينما يظهر علم النفس الى اليمين بالقرب من العلوم الطبيعية والبيولوجية وان كان يبدو رغم ذلك غير واثق تماما مما اذا كان يتعين عليه أن يقوى علاقاته وصلاته بالبيولوجيا أو بالعلم الاجتماعي ، بينما تعمل الجغرافيا جهدها للتقريب بين بعض الدراسات الاخرى التي تهتم بالجنس البشرى من ناحية والارض من ناحية اخرى . أما الانثروبولوجيا فانها تجد نفسها في موقف غريب وفريد . فهي ترسل مندوبين عنها يمثلونها في « مجلس البحوث للعلوم الاجتماعية *Social Science Research Council* » كما ان لها مقعدا محجوزا بين علماء

البيولوجيا والفلك في « مجلس البحوث القومي National Research Council » بالإضافة الى
تتمتعها بعضوية « المجلس الأمريكي للجمعيات الثقافية American Council of Learned Societies »
حيث تشارك في أعمال المشتغلين بالفنون والآداب.

وإما ما يكون نظام توزيع المقاعد وترتيب الجلوس فانه لا يساعد على تبادل الحديث والرأى بين هذه
العلوم . فالعلماء الاجتماعيون على العموم يديرون ظهورهم للمشتغلين بالإنسانيات الذين يجلسون
الى يسارهم ، مثلما يدير العلماء الطبيعيون على العموم ظهورهم للاجتماعيين . وتوزيع المقاعد بهذه
الطريقة يعبر في الحقيقة عن مواقف واتجاهات معينة تعكس نوعا من تفاضل المكانة والمنزلة بين
مختلف التخصصات ، وبالتالي ترتيب هذه التخصصات في مراتب عليا أو دنيا بالنسبة لبعضها
بعضا . فبعض التخصصات يعتبر « أصعب » من البعض الآخر وبالتالي أفضل منها وأعلى
مركزا . وقد يكون المقصود بذلك صعوبة بعض هذه العلوم او التخصصات على الفهم وكذلك
اعتمادها على الرياضيات ، وهذا هو السبب في تميز علم الاقتصاد على بقية العلوم الإنسانية .
ولكن كثيرا ما تكون « الصعوبة » مرتبطة في أذهان الناس بنفس طبيعة العلم ومجالة والموضوعات
التي يبحث فيها . وهذا هو السبب في اعتبار العلوم الطبيعية والبيولوجية اصعب من غيرها .
ومن هذه الناحية بالذات ، وعلى هذا الاساس ، تعتبر الانسانيات ، كالأدب والفنون « اسهل »
الدراسات والتخصصات ، بينما تعتبر الانثروبولوجيا « أصعب » وبالتالي ، أعلى مركزا ومكانة من
علم الاجتماع نظرا لأن لها - أو لبعض فروعها على الأقل - صلة بالبيولوجيا ، وهكذا . والمهم
هنا هو أن « العلماء » وللتخصصين في دراسة « الكائنات البشرية في ذاتها » لا يشعرون على العموم
بانتمالهم الى فئة « العلماء » بالمعنى الدقيق الضيق للكلمة ، وأنه لا يدخل من بين المشتغلين
بالعلوم الإنسانية في تلك الفئة سوى علماء الانثروبولوجيا ، وربما كان ذلك - حسب تعبير ردفيلد
اللاذع : « لأن لهم صلة بدراسة الجماع » (١١) .

ولقد ترتب على ذلك الموقف الوسط الذي تقفه العلوم الإنسانية بين العلم الطبيعي
والإنسانيات أن وجدت نفسها في شبه عزلة من كلا الفئتين من المعارف والتخصصات . وادى
هذا نفسه الى تخبط المشتغلين بهذه العلوم في اختيار الطريق التي يسلكونها وان كان ثمة ميل
قوى واضع للارتباط بالعلوم الطبيعية واتباع طريقها . ورغم طول المناشآت والجدل فلا تزال
المشكلة قائمة ، وهي مشكلة تتعلق بالمناهج في المحل الاول وتثير كثيرا من الخلاف والشقاق
وبخاصة بين الاجتماع والانثروبولوجيا . وسوف نعرض هنا لجانب من تلك الخلافات والجهود
التي بذلت - ولا تزال تبذل - لحل المشكلة لكي نتبين الى اى حد افلحت هذه الجهود في حلها او
في زيادتها تعقيدا .

- ٢ -

وجزء كبير من مسئولية قيام هذه الأزمة يقع على عاتق العلوم الإنسانية ذاتها لترددتها في

Redfield, R., « Social Science Among the Humanities, in Id: Human Nature and the Study (١١)
of Society, Chicago 1962, Vol. I, PP. 42-44.

تحديد مجالات تخصصاتها بدقة وإتباع مناهج خاصة محددة في الدراسات والأبحاث التي تقوم بها، ثم في تحمسها آخر الأمر لطرق البحث الخاصة بالعلوم الطبيعية ومباينتها في تطبيق هذه المناهج والطرق على الظواهر التي تقوم هي بدراستها، اعتقاداً منها أن ذلك سوف يرتفع بها إلى المستوى الرفيع من الدقة والتقدم الذي أحرزته العلوم الطبيعية والبيولوجية. ومع أن هذا الاتجاه سائد بالفعل على تحقيق نتائج طبية في بعض المجالات وبخاصة فيما يتعلق بإمكان قياس بعض الظواهر الاجتماعية والنفسية على ما سنرى فيما بعد، فإنه أدى من الناحية الأخرى إلى ابتعاد العلوم الإنسانية عن موضوعها الأساسي، وهو فهم الإنسان والمجتمع فهما يجمع بين الدقة والعمق والشمول. ويقول آخر، فإن جزءاً من الأزمة الحالية ناشئ من محاولة تلك العلوم الاقتراب من العلوم الطبيعية والتشبه بها، أو على الأصح الطريقة التي تسلكها في ذلك. وتظهر هذه المحاولة للتشبه في أبسط مظاهرها في إصرار «العلوم» الإنسانية على أن تطلق صفة «العلم» على نفسها وموضوعات تخصصها على ما نجده في «علم» الاجتماع أو السوسيوولوجيا، و«علم» الإنسان أو الأنثروبولوجيا و«علم» النفس و«علم» الاقتصاد. بل إن الناس لم يعودوا يتكلمون عن السياسة أو فلسفة السياسة وإنما عن «علم» السياسة، أو «العلم» السياسي Political Science فالتشبه بالعلم واضح إذن. وليس المقصود بذلك هو دراسة الظواهر الإنسانية المختلفة دراسة موضوعية منزهة من الميول والأهواء والتحيزات - وإن كانت هناك اعتراضات على إمكان تحقيق هذه الموضوعية أو حتى جدواها - وإنما المقصود هو التمسك الشديد بتطبيق أساليب وطرق البحث المتبعة في العلوم الطبيعية على ما ذكرنا. وقد ارتبط هذا كله بطبيعة الحال بالاتجاه نحو التخصص الضيق، تشبهاً مع مقتضيات العلم الحديث وما يؤدي إليه هذا التخصص الضيق من تفتيت لموضوعات الدراسة بحيث ينتهي العالم إلى أن يعرف أكثر وأكثر من أشياء أقل فأقل. وليس ثمة ما يعيب التخصص الدقيق ما دام يؤدي إلى البحث العميق. فكل ما حققته العلوم الطبيعية والبيولوجية من تقدم يرجع إلى التخصص الضيق. ولكن التخصص الضيق في العلوم الإنسانية أدى إلى انحصارها في دراسة موضوعات جزئية وإبتعادها عما هو «إنساني» وانفصالها عن أحداث العالم والحياة، وهو ما يؤخذ الآن بشدة عليها وعلى المتخصصين فيها.

ويختلف هذا الموقف اختلافاً كبيراً عن تصور العلماء الأوائل لجمال ورسالة العلوم الإنسانية بعامة وعلم الاجتماع بخاصة. وربما كان سبب ذلك هو اختلاف الظروف والأوضاع التي لا يست ثاشة علم الاجتماع من الظروف التي يعمل فيها العلماء الحاليون. والواقع أن الرعيل الأول من علماء الاجتماع لم يكونوا «أكاديميين» بالمعنى الشائع الآن للكلمة، بل إن الكثيرين منهم كانوا غرباء تماماً عن الحياة الأكاديمية الضيقة ولا ينتهون إليها. ويعتبر بوخولتز Buchholz وكونت نفسه وهيربرت سبنسر Herbert Spencer من أفضل الأمثلة لذلك النوع من العلماء. لقد كان بوخولتز صحفياً حراً وناقداً، وكان كارل ماركس، الذي يطلق عليه «اليهودي غير اليهود» اقتصادياً وفيلسوفاً وعالم اجتماع ومؤرخاً ومصالحاً اجتماعياً ومفكراً نووياً. بل إن بعض العلماء الأوائل الذين اشتغلوا فعلاً بالتدريس مثل فرديناند تونيز F. Tonnies وماكس فيبر Max Weber وزيميل Simmel ودوركايم وغيرهم كانوا بطبيعة تكوينهم العقلي والثقافي الواسع غرباء، نسبياً، على الحياة الأكاديمية الضيقة، ولم يكونوا يحتملون فكرة «الاستاذ» أو «المعلم» بالمعنى الضيق

الكلمة الذي يحصر صاحبه في حدود تخصصه بحيث يفرق فيه تماما . وعلى الرغم من كل الإضافات التي اضافوها لعلم الاجتماع فانهم لم يحصروا انفسهم في ذلك الفرع وحده من فروع المعرفة ، بل ان معظم الفضل في اسماءهم المتنوع العميق في علم الاجتماع يرجع الى تلك النظرة الواسعة المتعمقة (١٢) . كذلك كان الحال بالنسبة لعلماء الأثر بولوجيا الأوائل ، اذ كان سير هنري مين Sir Henry Maine وماكلينان Mac-Lennan وباخوفن Bachofen ولستيس مورجان Fustel de Coulanges يشغلون بالمحامة ، وكان فوستيل دو كولانج Lewis Morgan مؤرخا للعصور الكلاسيكية الوسطى ، وكان تايلور E. Tylor من المهتمين بدراسة اللغات الاجنبية ، وكان وليام روبرتسون سميت W. Robertson Smith راعيا في الكنيسة الاسكتلندية ومتخصصا في دراسات العهد القديم كما كان سير جيمس فريزر Sir James Frazer متخصصا في الاداب الكلاسيكية ، وهكذا (١٣) . ومن هنا جاءت نظرهم الى الظواهر الاجتماعية والانسانية التي يدرسونها نظرة شاملة واسعة تعمدي في العادة حدود المجتمع المحلي الضيق الذي يعيشون فيه ، وتحاول الاحاطة بقدر الامكان بالانسانية ككل وان كان ذلك لا يخلو من مثالب .

والظاهر ان ذلك كان هو الطابع الغالب على معظم العلوم الانسانية . فلقد كان المؤرخون يهتمون في المحل الاول بالتاريخ العالمي ككل اكثر من اهتمامهم بالتاريخ القومي ، ويظهر هذا واضحا في كتابات آدم سميث وهيجل وماركس وبوركهارت Purkhardt ورايكة Ranke ، ولا زلنا نجد رواسيب ومخططات هذا الاتجاه في كتابات توينبي Toynbee . ولقد كان لورد اکتون Lord Acton يطمح في تلاميذه من طلبة التاريخ ان يدرسوا « المشكلات التاريخية » التي هي في صميمها « مشكلات انسانية » ولا يقتصروا على دراسة العصور التاريخية التي كان يعتبرها دراسة ضيقة محدودة الافق ، كما كان كولنجوود Collingwood يوصي تلاميذه في علم الآثار بان يدرسوا المشكلات لا الاماكن الأثرية (١٤) . وليس من شك في انه كان للاوضاع العامة السائدة ، حينذاك ، دخل كبير في اتخاذ ذلك الموقف ، فالتغيرات السريعة الهائلة نسبيًا والتطورات المتلاحقة التي صاحبت تحول المجتمع الاوربي في عصر الانقلاب الصناعي على ما راينا كانت تتطلب من المستغلين بالعلوم الانسانية ان يحيطوا بكل هذه التغيرات واسبابها ، وان ينظروا الى العالم المتغير نظرة شاملة لا تتوافر الا لمن يقف - ولو جزئيا - خارج اسوار الحياة الاكاديمية العالية الضيقة المحكمية ، وهو ما كان يتوافر بالفعل في هؤلاء العلماء .

ويعتبر علماء الاجتماع الأميركيون وعلماء الأثر بولوجيا البريطانيون مسئولين في المحل الاول عن ذلك الاتجاه نحو التخصص الضيق ، وبالتالي نحو النظرة الضيقة في اثنين من أهم العلوم الانسانية . وساعد على ذلك ظهور النزعة الوظيفية في التفسير الاجتماعي بعد ان انحصرت موجة التاويلات التطورية التي كانت تسود في القرن التاسع عشر نتيجة لما وجهه العلماء المحدثون لتلك

(١٢) Gerth & Landau; op. cit., PP. 26-27

(١٣) إيفانز بريتشارد : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، المرجع السابق ذكره ، صفحات ١١٠ - ١١١ .

(١٤) إيفانز بريتشارد : المرجع السابق ذكره ، صفحة ١٢٠ .

التأويلات من انتقادات وطعون . فلقد بدأت الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الأولى تحتل مكانة مرموقة في المجتمع العالمي وتفرض نفسها وثقافتها على العالم بأسره ، بحيث يمكن القول مع جيرت ولاندو أنه بدأ عصر جديد في تاريخ العالم هو عصر الولايات المتحدة (١٥) الذي يتميز بالسيطرة الأمريكية ليس فقط في الميدان الاقتصادي أو السياسي ، بل وأيضا في مختلف ميادين العلم . وقد دخل علم الاجتماع الأمريكي بالذات مرحلة جديدة لها خصائصها واتجاهاتها المميزة التي تتعارض تمام التعارض مع الاتجاهات القديمة . فبينما كان العلماء الأوائل يهتمون بدراسة الابنية العالية اخذ العلماء الأمريكيون يركزون اهتمامهم على دراسة المجتمعات المحلية ، أو المشاكل الجزئية المحددة ، وظهر بذلك ما يعرف على العموم باسم علم الاجتماع البيئي الذي يهتم بدراسة الوسيط أو المجتمع المحلي ، وذلك على يد روبرت بارك Robert Park في شيكاغو منذ العشرينيات من هذا القرن . وازاء هذا الاتجاه الاميريقي الجديد بدأ علم الاجتماع بصورته القديمة التي كانت مالوفة في القرن التاسع عشر والتي يمثلها علماء من امثال كونت وسنسر ودوركايم يخفى بالتدريج واعتبرت نظرياته مجرد نظرات ميتافيزيقية على احسن الفروض ، ثم اخذ الاتجاه نحو التخصص الضيق يزداد وضوحا ، ولم يعد السوسيولوجي بذلك مجرد متخصص في علم الاجتماع فحسب ، ولكنه أصبح متخصصا في فرع محدد بالذات مثل سوسيولوجيا العائلة ، أو سوسيولوجيا الرأي العام ، أو سوسيولوجيا المعرفة أو العلاقات السلافية ، وما الى ذلك . ولم تعد الأولوية في الدراسات والبحوث الاجتماعية الحديثة تعطى لاختيار المشكلة التي يصاد بحثها أو لنوع المعلومات التي يراود جمعها ، وإنما أصبحت الأولوية تعطى لطرق واساليب البحث التي يمكن استخدامها أو الاستعانة بها في جمع المعلومات وترتيبها وتربوئها وتحليلها . واختفى بذلك الى حد كبير ما كان رايت ميلز Wright Mills يسميه بالمخيلة الاجتماعية Sociological Imagination واصبحت تلك (المخيلة) تعتبر مسألة غير عملية وغير علمية على السواء ، كما اختلفت النظرة الى الكثيرين من العلماء الأمريكيين الافذاذ الذين اسهموا اسهاما له قيمته ووزنه في التفكير الاجتماعي النظري في امريكا ذاتها من امثال بيتيريم سوروكين Pitirim Sorokin فاصبح العلماء الاميريقيون يعتبرونهم متخلفين وتقليديين ويصفون آراءهم بأنها آراء عتيقة وبالية ، كما كادت اسماء كونت وسنسر ودوركايم وغيرهم من علماء الاجتماع الكلاسيكيين تتوارى وتسطع في زوايا النسيان والاهمال ، ولم يعد يرجع الى كتاباتهم سوى قلة ضئيلة من المتخصصين المتمعنين ، ولاسباب تاريخية فقط في الاظبط (١٦) .

ولقد شاركت الأنثروبولوجيا الاجتماعية في بريطانيا مشاركة فعالة في تعميق هذا الاتجاه ودفعه الى الامام . ولقد فرضت طبيعة الدراسات الانثروبولوجية ذاتها ذلك الاتجاه على العلماء والباحثين . فحين ظهرت الأنثروبولوجيا الحديثة كعلم متميز وجهت كل اهتمامها الى دراسة الأشكال البسيطة من التجمعات الإنسانية التي اصطلح على تسميتها بالمجتمعات البدائية ، وهي بحكم الواقع جماعات صغيرة ومنعزلة بعضها عن البعض الآخر الى حد كبير ، وبذلك لم يكن ثمة بد امام الأنثروبولوجيين

Gerth & Landau, op. cit., p.29 (١٥)

Ibid, pp. 29-30 (١٦)

من قصر جهودهم في الوقت الواحد على دراسة مجتمع واحد من هذه المجتمعات الصغيرة المنعزلة بكل ما فيه من أحداث ونظم وقيم وما يطرأ عليه من تغيرات وتطورات سريعة متلاحقة وكانت طبيعة المنهج الأنثروبولوجي تضطر الباحث إلى الإقامة فترة طويلة من الزمن في الجماعة التي يدرسها حتى يستنى له جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات الدقيقة التفصيلية ، ويحيط بكل مظاهر الحياة ويتعرف على العلاقات الاجتماعية المتشابكة التي تؤثر في البناء الاجتماعي هناك . وحتى بعد أن اتسع مجال البحوث الأنثروبولوجية وامتد إلى المجتمعات الأكثر تقدماً وتعقداً ظل الأنثروبولوجيون مخلصين إلى حد كبير لطريقة البحث التقليدية ، ولذا فاتهم بحرص على اختيار الجماعات الصغيرة المحدودة كي يتمكنوا من دراستها دراسة تفصيلية مركزة . وعلى ذلك فإن الجهود الضخمة التي كانت تبذل في القرن التاسع عشر للوصول إلى نظريات علمية تصمد على المجتمع الإنساني بأسره وفي مختلف صورته أخذت تقل وتتضاءل وتختفى بالتدريج ، لتحل محلها دراسات وبحوث أقل طموحاً وأقل اعتماداً على التفكير النظري البحت . كان علماء القرن التاسع عشر يهتمون ببحت المسائل العامة الواسعة مثل المعنى الاجتماعي للدين . أما العلماء المحدثون أو المعتدلون منهم على أي حال — فانهم يفضلون دراسة الموضوعات الأكثر تحديداً مثل الدور الذي تلعبه عبادة الأسلاف في النسق الاجتماعي الذي يقوم على نظام البدنات المتقسمة في بعض المجتمعات الأفريقية . ولم يعد الأنثروبولوجي الحديث يحاول رسم صورة عريضة شاملة لتطور فكرة المسؤولية مثلاً أو تطور الدولة عند الجنس البشري كله ، وبدأ يقتنع بفحص مشكلات معينة بالذات وملاحظتها بطريقة مباشرة ، كان يدرس مثلاً العداوة أو مركز الرئيس في أحد النظم السياسية بالذات ، وذلك بالإشارة إلى المجتمعات التي تؤثر فيها العداوة أو الرياسة تأثيراً واضحاً في بقية النشاط الاجتماعي . كذلك لا يحاول الباحث الأنثروبولوجي المعاصر أن يزوج بنفسه في المناقشات النظرية العامة مثل البحث فيما إذا كانت المجتمعات البدائية تنزع نحو الشيوعية أو الفردية وينتج بدلاً من ذلك إلى دراسة كل أنواع الحقوق الجماعية الفردية أو الخاصة المتعلقة مثلاً بملكية الأرض أو الماشية أو غيرها في مجتمع معين بالذات ، وذلك لكي يحدد نوع العلاقات القائمة بين كل هذه الحقوق من ناحية وعلاقتها كلها بالنسق الاجتماعية التي تتأثر بها مثل نسق القرابة والنسق السياسي والنسق الشعائري وما إليها من ناحية أخرى (١٧) . يضاف إلى ذلك عامل آخر حاسم كان له أثره في اتجاه الأنثروبولوجيا هذه الوجهة « العلمية » أو « المبريقية الجديدة » ، وأعني به نوعية علماء الأنثروبولوجيا في بداية القرن العشرين وطبيعة تخصصاتهم الأصلية ، فإذا كان العلماء الأوائل من أمثال مورجان وماكلينان وفريزر وروبرتسون سميت قد تخصصوا في الأصل في الدراسات الإنسانية والإنسانيات ، كالقانون والفلسفة واللغات الكلاسيكية على ما رأينا ، فإن الكتاب الذين خلفوا من بعدهم كانوا في الأغلب من العلماء الطبيعيين . فقد كان هادون Haddon مثلاً عالماً في الحيوانات البحرية ، وسليمان Seligman متخصصاً في علم الأمراض (الباثولوجيا) ، واليوت سميت G. Elliot Smith من علماء التشريح ، وبالغور Balfour من علماء الحيوان ، وماليونوسكي ويواز Boas من علماء الفيزياء ، وهكذا . وكان لهذا أثره بغير شك في الاتجاه نحو

الدراسات الحقلية التي تعتبر الآن الخاصة المميزة للدراسات الأنثروبولوجية (١٨) . ولقد أدى هذا الاتجاه الأمبريقي خدمات جليلة للعلم . فقد ساعد مساعدة فعالة على تطوير وتهديب أدوات البحث العلمي ، مما أدى في النهاية إلى تحقيق درجة عالية جدا من الدقة والضغط في النتائج . كما ساعد على امتداد اهتمام العلماء والباحثين إلى انماط من الحياة الاجتماعية لم يكن يخطر ببال العلماء السابقين دراستها ، مثل دراسة المناطق السكنية المتخلفة في المدن الحديثة أو عصابات اللصوص ومحترفي الجريمة أو مدمني المخدرات والنار أو مجتمعات المقاهي والنوادي الليلية ، وما إلى ذلك من الجماعات الصغيرة المحدودة أو المشكلات الاجتماعية المحدودة . إلا أن المبالغة في هذا الاتجاه الأمبريقي - أو على الأصح الاقتصاد عليا - كانت لبعض النتائج الضارة التي تتمثل بوجه خاص في تقسيم المجتمع إلى قطاعات متمايزة للتمكن من القيام بالدراسات المركزة ، وفصل هذه القطاعات عن المجتمع القومي ، فضلا عن المجتمع الإنساني ، وكان لهذا أثره في انصراف العلوم الإنسانية ، تدريجيا ، عن رؤية المجتمع والإنسان في عمومهما كما ذكرنا من قبل .

وليس المقصود بذلك هو الإغلاء من شأن الدراسات العامة الشاملة أو إعطائها من الأهمية والتقدير أكثر مما تستحق . فلقد كان لهذه الدراسات التحليلية الشاملة عيوب كثيرة واضحة ، وبخاصة في القرن التاسع عشر حين لجأ كثير من العلماء التطوريين إلى افتراض حدوث أمور لم تحدث بالفعل في تاريخ الإنسانية (١٩) . ولكن مهما يكن من شأن هذه العيوب فإنه يبقى لهؤلاء العلماء التحليليين الأوائل الفضل في محاولة رؤية الأمور في علاقاتها المتبادلة وعلى مستوى المجتمع الإنساني كله وإقامة دراساتهم ضمن بناء اجتماعي ديناميكي دائم التغير . فلقد كان كل منهم يرى العصر الذي يعيش فيه عصر ازيمات وانتقال وتحول وتغير وأنه يحتاج بذلك إلى الإلمام بكل ما يحدث فيه ، ليس فقط على الصعيد المحلي أو القومي بل على الصعيد العالمي ككل . وبذلك كان ماركس مثلا ينظر إلى عصره على أنه عصر انتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية، وكان سينسر من قبله يراه عصر صراع بين المجتمع الصناعي المسالم الذي يسر حسب القانون الطبيعي والمجتمع الحربي الديكتاتوري الذي يقوم على الطغيان والاستبداد ، وهكذا . وهذه ناحية تفتقر إليها النظرة المحددة في معظم الأحوال ، على الرغم من أن العصر الذي نعيش فيه هو أيضا عصر ازيمات

(١٨) الرجوع السابق ، صفحة ١١١ .

(١٩) من أفضل الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها هنا ، ذلك النظام العقلي النظري البحث الذي افاده لويس مورجان ليصور به تطور العلاقات الجنسية ، أو على الأصح تطور الزواج . وتتلخص نظرية مورجان في أن المجتمع كان يتألف في البداية من زمرة اجتماعية بسيطة تعيش في حالة بدائية لا تحكمها ضوابط أو قوانين أو قواعد خلقية ، وبذلك كان أفرادها يعيشون حياة إباحية وتحرر دون أن تكون هناك أية ضوابط تتحكم في علاقاتهم الجنسية . ويسمى مورجان هذه المرحلة بمرحلة الإباحية الجنسية . ولم تلبث هذه الحالة أن خضعت لكثير من التنظيم بحيث نشأ عنها أشكال القرابة المختلفة في مراحل تالية من التاريخ . وكان أول شكل في رأيه هو العائلة المعوية التي تقوم على زواج الأخوة والإخوات ، ثم تلاها ما يسميه بزواج الجماعة حيث كان الزواج يتم بين جماعة من الأخوة وعدد من النساء لا يشترط أن يكن أخوات ، أو على العكس من ذلك بين جماعة من الأخوات وعدد من الرجال الذين لا يشترط فيهم أن يكونوا أخوة . ومن هذا الشكل ظهر شكلان جديدا هما تعدد الزوجات بالتنسبية للرجل الواحد أو تعدد الأزواج للمرأة الواحدة قبل أن يظهر آخر شكل من أشكال العائلة وأكثرها رفيا في الوقت نفسه ، وهو الذي يقوم على زواج الرجل من امرأة واحدة في الوقت الواحد . وليس هناك ما يدل إطلاقا على أن نظام الزواج مرصلا بهذه الرأجل ، كما أنه لا يوجد ما يشير إلى أن المجتمع الإنساني عرف بالفعل زواج الجماعة .

وتغير وتحول ليس لها مثيل في كل تاريخ الانسانية . وقيل من العلماء المعاصرين هم الذين يحاولون ان ينظروا الى عالمنا المعاصر من خلال الصراع القائم بين المثل والقيم المختلفة أو الصراع بين الانسانية والآلة التي هي احدى منجزات الانسان نفسه . وليس من شك في ان المسئول الاول عن التغير الواضح في النظرة الى موضوع علم الاجتماع وغيره من العلوم الانسانية هو الميل الشديد الى التخصص الدقيق الضيق الذي ارتبط باعتبار هذه العلوم مهنا أو حرفا واعتبار المشتغلين بها « مهنيين » أو « حرفيين » أكثر منهم مجرد مثقفين متعددي الجوانب في ثقافتهم ونظرتهم الى الحياة والمجتمع والانسان (٢٠) . ويبدو ذلك واضحا بين علماء الأنثروبولوجيا بوجه خاص . فالغالبية العظمى من بين هؤلاء العلماء يرتبط اسمهم ليس بنظريات معينة أو حتى بدراسة مشاكل انسانية عامة وإنما بدراسة مجتمع محلي واحد صغير ، كما هو الحال ، مثلا ، بالنسبة لمالينوفسكي الذي يرتبط اسمه بجزر التروبرياند Trobriand Islands التي وقف عليها كل حياته وجهوده . ولم يعط صفة الشمول والعومية لكتابات بعض علماء الاجتماع الفرنسيين من ذوي النظرة الواسعة والقدرة على صياغة النظريات والوصول الى احكام عامة كلية من تحليل المعلومات الانثوجرافية التي جمعها مالينوفسكي ومقارنتها بغيرها من المعلومات الانثوجرافية التي جمعها غيره من علماء الأنثروبولوجيا من شتى المجتمعات . وهذا وحده هو الذي اعطى كتابات مالينوفسكي معنى ومغزى تعدت بهما الحدود المحلية الضيقة التي كانت تنحصر فيها . وما يصدق على مالينوفسكي يصدق على غيره من علماء الأنثروبولوجيا الى حد كبير (٢١) .

ولسنا نتوقع ، بطبيعة الحال ، من العلماء المحدثين ان يخرجوا علينا الآن بدراسات عامة واسعة وشاملة تشبه كتابات فريزر أو تايلور التي كمل في العادة مجلدات عديدة كما هو الحال في كتاب فريزر « الفصح الذهبي » الذي يقع في اثني عشر مجلدا . فلقد تغيرت الظروف التي يعمل فيها العلماء كما تغيرت طريقة التأليف العلمي عما كانت عليه في القرن التاسع عشر . ولكن الذي يؤخذ على « العلماء » المحدثين هو ابتعادهم الى حد كبير عن الانشغال بدراسة الاوضاع والحركات والنظم الاجتماعية المعاصرة والتغلغل في معرفة اصولها واسبابها ونتائجها وتفضيلهم على ذلك الانحصار في مشكلاتهم الجزئية الضيقة . ولقد لاحظ جيرت ولاندر (٢٢) في ذلك ان مجلة علم الاجتماع الامريكية American Journal of Sociology رغم كل الالتزامات والشدائد التي مرت بالعالم قبل الحرب العالمية الثانية ورغم اقتراب العالم من تلك الحرب بسرعة هائلة ومخيفة لم تشر مثالا واحدا من الحزب النازي الا في عام ١٩٤٠ ، أي بعد ان كانت الحرب قد نشبت بالفعل ، وأنه خلال الفترة الطويلة بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٤٧ لم يظهر في تلك المجلة ذاتها سطر من نصها وأهميتها بالنسبة لعلم الاجتماع سوى مقالين اثنين عن (الاشتراكية القومية) ، وان فهرس المجلة التحليلي خلال خمسين سنة

Gou' n r, A.W.; «Anti-Minotaur: The Myth of a Value-Free Sociology» in Stein & Vidich, op. cit, p. 45.

(٢١) انظر مقالنا عن (الطريقة الأنثروبولوجية لدراسة المجتمع) ، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، المجلد العاشر ١٩٥٦ ، صفحات ٨٥ - ٩٥ .

Gerth & Landau, op. cit , p. 31 (٢٢)

كاملة لم يرد فيه ذكر كارل ماركس والماركسية سوى ثلاث مرات فقط بينما لا توجد فيه اية اشارة على الإطلاق الى لينين واللينينية . ولا يزال كثير من علماء الاجتماع في أمريكا بوجه خاص يفضون اطراف عن الازمات الطاحنة التي يمر بها العالم الآن والتي تتمثل بالنسبة لأمريكا نفسها في التفرقة العنصرية وحرب فيتنام والظلم الاجتماعي الذي تتعرض له بعض فئات الشعب وانتشار الجريمة وما الى ذلك ، ويركزون اهتمامهم على نفس المشاكل التي كانوا يهتمون بدراستها من قبل ، أو يدرسون موضوعات غريبة وبعيدة عن المؤلف ليجلبوا الانظار اليهم ، بينما يغفلون دراسة بعض الظواهر الهامة مثل الثورة الثقافية في الصين التي تؤثر في حياة ما لا يقل من ستمائة مليون نسمة والتي يعتبرها كثير من المفكرين أكبر حركة جماهيرية في تاريخ الجنس البشري (٢٣) والمسئول الأول عن ذلك هو - كما ذكرنا من قبل - الرغبة الجامحة في محاكاة العلوم الطبيعية في نظرتها الى موضوعات تخصصها وطرقتها في معالجة هذه الموضوعات والباع نفس المناهج والطرق وما يتطلبه هذا كله من التخصص الضيق الدقيق .

- ٣ -

ولقد كان من الطبيعي أن تمتد هذه الثورة الى كثير من النواحي التي تعتبر مسلمات أولية في العلم والتي اختبستها العلوم الانسانية بالضرورة حين اختارت لنفسها أن تسلك طريق العلوم الطبيعية والبيولوجية وتطبق مناهجها ولتنزج بنظرتها الى موضوعاتها . ولعل أهم ما يميز والدارسين يبحث بعضهم الحديث في موضوعية البحوث للظواهر التي تعنى بها . وقد نادى العلماء الاوائل في مختلف العلوم الانسانية بالتزام الموضوعية في دراستهم أيضا للظواهر الانسانية ، وظهرت هذه الدعوة واضحة في كتابات علماء الاجتماع الاوائل ، ولتلفتها منهم الاجيال التالية من الباحث والدارسين بحيث يعتبر الحديث في موضوعية البحوث من أول الدروس التي يتلقاها طالب الاجتماع أو الأنثروبولوجيا باعتبارها شرطاً أساسياً في البحث « العلمي » الدقيق . ولقد كان اميل دوركايم ، شيخ الاجتماعيين الفرنسيين ، من أهم وأكبر الدعاة بضرورة التمسك بالموضوعية العلمية لتحقيق « علمية » علم الاجتماع ، وظهر ذلك واضحاً في بداية كتابه الهام عن « قواعد المنهج في علم الاجتماع » حيث تنص القاعدة الأولى على ضرورة اعتبار الظواهر الاجتماعية كمالاً كانت اشياء . والمقصود بهذه الشئية هو - على العكس مما كان يعتقد الكثيرون من اعداء وناقدي دوركايم - أن تعالج تلك الظواهر الاجتماعية بنفس الروح ونفس النظرة ونفس الأسلوب التي يعالج بها الباحث الفيزيائي أو الكيميائي أو البيولوجي الظواهر التي يدرسها كل منهم في عمله . والمبدأ الهام الذي يحكم الموضوعية ويضمنها هو السعي في طلب الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة . . . وأن يقول العالم الحق ولا شيء غير الحق ، على حد تعبير بوبر (٢٤) . وهذا معناه أن الباحث لا بد أن يكون بعيداً عن التحيز وأن يتزهد عن الميول والمصالح الخاصة أو حتى الميول والمصالح السائدة في فترة تاريخية معينة ، سواء أكانت هذه ميولاً سياسية أو اقتصادية أو طبقية . ومن هنا كانت القاعدة

(٢٣) نفس المرجع والمصنعة .

(٢٤) بوبر ، المرجع السابق ذكره ، صفحة ٢٦ .

الثانية من قواعد المنهج عند دوركايم تنص على ضرورة التخلي عن كل الآراء والأفكار والأهواء السابقة ونيلها . وهذا معناه في آخر الأمر « ضرورة اجتناب كل وجهة انتهازية » (٢٥) ، وبالتالي الامتناع عن الوقوف موقفاً نقدياً أو أيذاء وجهة نظر معينة وعدم إصدار أية أحكام تقييمية فوظيفة العالم الاجتماعي أو الأنثروبولوجي - كمثالين للمستغلين بالعلوم الإنسانية - هي الملاحظة والوصف والتحليل والتفسير فحسب . ولقد وجدت هذه الدعوة لتحرير العلوم الإنسانية من الأحكام التقييمية صدى هاللاً عند الفاليسية العظمى من المشتغلين بهذه العلوم ، واتخذت الدعوة - على ما يقول جولدنر - شكل وصية أخرى تكاد تضاف إلى « الوصايا العشر » وتقول « لا تصبر حكماً تقييمياً » ، وهي وصية تملئ بها الآن كل الكتب المدرسية (٢٦) .

وتثير هذه الدعوة كثيراً من شكوك العلماء الشباب الآن مثلما أثارت من قبل كثيراً من المناقشات والجدل بين علماء الجيل السابق . ولكن الشكوك الحالية تتخذ شكل الأزمة نظراً لعدة المناقشة وطبيعة الموضوعات التي تتعرض لها ، وهي موضوعات فيها كثير من الحساسية وتمس الحكومات وكثيراً من الهيئات الرسمية في الدول المختلفة ، كما توجه كثيراً من التهم للمشتغلين بالعلوم الإنسانية . ويتساءل العلماء الثائرون عما يقصده أصحاب تلك الدعوى بالضبط من ضرورة تحرير العلوم الإنسانية بعمامة العلوم الاجتماعية بخاصة من عصر التقييم . فهل المقصود بذلك هو أن يتجنب الباحث إصدار أي حكم تقييمي على المشاكل الاجتماعية التي تعترض حياة المجتمع والتي يقوم الباحث نفسه بدراساتها ؟ أو هل المقصود هو تجنب التعرض بالدراسة أصلاً لهذه المشاكل حتى لا يتعرض الباحث لأخضاعها للنظرة الناقدة الفاحصة واحتمال انخاذه موقفاً معيناً منها وبالتالي احتمال الحكم عليها ؟ أو هل المقصود هو ضرورة الترفع عن المقتضيات الأخلاقية للعلوم الإنسانية وبذلك يكتفي الباحث بسرد الوقائع بأمانة مع الامتناع تماماً عن استخلاص أية مبادئ من تلك الوقائع ؟ ليس هناك رأي موحد ومتفق عليه من جميع العلماء حول هذه المسألة .

وهناك أسباب منهجية ، ولا شك ، وراء هذه الدعوى . ولكن على الرغم من اعتراف العلماء المعارضين بوجاهة هذه الأسباب فانهم لا ينفلون مع ذلك الدوافع الأخرى الخاصة التي تكمن وراء هذه الدعوى ، والظروف التي أحاطت بالعلماء الذين تبناها ودعوا لها . وأفضل مثل ذلك هو ماكس فيبر Max Weber باعتباره أحد كبار العلماء الذين تركوا أثراً واضحاً في تاريخ الفكر الاجتماعي الحديث ، كما أنه يتلقى الآن كثيراً من الطعنات التي يوجهها بعض العلماء الشباب الثائرين لانصار الموضوعية العلمية في العلوم الإنسانية والمنادين بإمكان التنزه من إصدار الأحكام التقييمية في تلك العلوم . فلم تكن دعوى ماكس فيبر بإمكان التخلي عن الأحكام التقييمية ناشئة فقط من رغبته في تطبيق قواعد المنهج تطبيقاً دقيقاً على علم الاجتماع ، وإنما كان يرى إلى جانب ذلك أن هذه النظرة ترفع بالعلوم الإنسانية وبخاصة علم الاجتماع عن أن تكون أداة في خدمة السلطات الحكومية

والاحزاب السياسية وتساعد الجامعة بالتالى على الاحتفاظ باستقلالها وتماسكها وإبعاد أى تدخل خارجى في شؤنها العلمية . فلقد كان واضحا له ان الاساتذة الذين يخرجون عن المرقف « المحايد » الذى يجب ان يتمسك به العالم في دراسته للمشكلات الإنسانية والذين يعبرون في أثناء دروسهم ومحاضراتهم عن آراء خاصة تمكس نظرة تقييمية ووجهة نظر شخصية آزاء هذه المشكلات يجذبون الى محاضراتهم أعدادا من التلاميذ أكبر مما تجذب محاضرات الاساتذة « المحايدين » أو « الموضوعيين » . وكان التعبير عن الآراء الشخصية في الجامعات الألمانية يتخذ وسيلة للتنافس بين الاساتذة وبالتالى تحقيق المكاسب الشخصية وبخاصة المكاسب السياسية ، ولذلك كان فيبر يرى في التمسك بالموضوعية الخالصة وسيلة للقضاء على ذلك الاتجاه الخطير الذى كان يهدد الجامعة والحياة العلمية السليمة . يضاف الى ذلك ان التعبير عن الآراء الشخصية في مشكلات المجتمع والانسان امام الطلاب قد تكون له نتائج خطيرة على تفكيرهم ، اذ قد يتخذ شكل ما يعرف الآن باسم عملية « غسل المخ » ، خاصة وأن الطلاب في المراحل الأولى من حياتهم الجامعية لا يكونون على درجة من العلم والثقافة والقدرة على فحص الآراء وتحليلها بطريقة نقدية ، وبذلك يتقبلون ما يلقى عليهم اساتذتهم كقضايا مسلم بها ، وفي ذلك خطورة بالغة على التفكير الشخصى وبالتالى على حرية التفكير اذ يخرج الطلاب نسخة مكررة من استاذهم . والأغلب أن فيبر كان في هذا كله يحارب التعبير عن القيم السياسية بالذات وليس القيم الجمالية أو الدينية ، أو هو على الأقل لم يعارض بنفس العنف والقوة مناقشة شئون الفن والدين والتعبير عن الراى فيها بصراحة . فلقد كان همه الاول هو الابتعاد بالجامعة عن الخصومات السياسية التى كانت ناشبة في ألمانيا على أيامه ، واعتقد أن الجامعة حين تنأى بنفسها عن مثل تلك المصارف تستطيع ان تؤدى رسالتها على اكمل وجه كما يستطيع اساتذتها ان ينصرفوا بكل جهودهم الى العمل الاكاديمى الخالص الذى يجب ان يفتوا حياتهم عليه وحده . يضاف الى ذلك ان مناقشة الشئون السياسية تخضع دائما - في نظر فيبر - لكثير من القيود والمؤثرات والضغوط ، وبذلك لا يمكن ان تكون حرة بالمعنى الصحيح للكلمة ، ولذا فقد يكون من الخير الامتناع عن مناقشتها أصلا . « نالكت الذاتى » القائم على امتناع الشخص من لقاء نفسه عن مناقشته هذه الامور هو افضل طريقة لتجنب التعرض للقمع الخارجى . الا ان العلماء الشباب ينعمون على فيبر هذه السلبية ويرون ان شانه في هذا الموقف شان من يرى ان الانتحار هو افضل وسيلة لتجنب التعرض لخطر القتل ، وان النتيجة المحتومة لهذه السلبية هي ابعاد الجامعة تماما عن احدى وظائفها الاساسية ، وهى محاولة اكتشاف الاهداف الرئيسية للحياة الإنسانية من طريق حرية المناقشة والمجدل (٢٨)

والواقع ان هناك من الشواهد ما يبرر موقف التشكك الذى يقفه العلماء الشبان الآن من مسألة موضوعية البحث في العلوم الإنسانية . ذلك ان الحكومات كثيرا ما تتدخل في توجيه البحوث الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وتحدد موضوعات معينة بالذات تعطىها أولوية مطلقة ، وتطالب العلماء بدراستها قبل غيرها من المشاكل التى قد تكون أقرب الى ميول هؤلاء العلماء ،

كما أن تمويل معظم الدراسات والبحوث في الوقت الحاضر يأتي من مصادر حكومية أو شبه رسمية على العموم . واعتماد العلماء في هذه المجالات على الهيئات الرسمية يفرض بلا شك قيودا معينة على آراء الباحثين والعلماء في المشكلات التي يدرسونها . وكثير من العلماء والباحثين في مختلف الدول هم في الحقيقة مجرد « موظفين » في الإدارات الحكومية ، يقتصر نشاطهم العلمي على دراسة المسائل التي تعينها لهم الدولة أو الإدارة الحكومية التي ينتمون إليها . وثمة فارق كبير بغير شك بين أن تسهم الحكومات والشركات في الانفاق على البحوث التي يقوم بها العلماء حسب رغباتهم الشخصية وبدون تدخل من تلك الحكومات والشركات من ناحية ، وأن تقوم هيئة معينة بتحديد مشكلة معينة وتختار لدراستها باحثين معينين تقوم بالاتفاق عليهم في أثناء مدة البحث والدراسة . فمعظم الدراسات والبحوث التي تدخل في هذه الفئة الأخيرة إنما تجرى لخدمة أغراض معينة ، ولذا فهي تخضع في كل خطوة من خطواتها لتدخل تلك السلطات ورقابتها وتوجيهها مما قد يؤثر في النتائج التي تصل إليها. بل إن الكثير من هذه الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية والسياسية والاقتصادية يتم بتوجيه إدارات المخابرات في الدول المختلفة . والمثل الذي يفرض نفسه هنا بقوة هو وكالة المخابرات المركزية (C.I.A.) في أمريكا التي تنفق أموالا طائلة على ذلك ، وتسخر أعدادا كبيرة من العلماء المتخصصين في مختلف فروع العلوم الإنسانية - وغيرها - للقيام بدراسات معينة ليس في أمريكا وحدها بل وأيضا في كل بلاد العالم . وقد ثارت شبهات كثيرة حول علاقة بعض الجامعات الأمريكية الكبرى مثل جامعة كولومبيا ومعاهد البحوث والدراسات العليا بتلك الوكالة، وكان ذلك من أهم الأسباب التي أدت إلى ثورة الطلاب في تلك الجامعات احتجاجا على تسخير العلوم الإنسانية في خدمة أهداف «غير إنسانية» .

ومن الانصاف أن نذكر أن استعانة الحكومات بالمشتغلين بالعلوم الإنسانية لتحقيق أهداف معينة ظهر بشكل واضح وعلى نطاق واسع خلال الحرب العالمية الثانية ، حين عمل بعض العلماء الأنثروبولوجيين وعلماء التاريخ بالذات في المخابرات العسكرية للدول المتحاربة ، وتولى بعضهم بالفعل شؤون الحكم والإدارة في المناطق التي تم فتحها ، وقاموا بعدد من الدراسات في أثناء ذلك (٢٦) . وقد لا يكون هناك غبار أو استعانة الدولة بخبرة علمائها في المجهود الحربي لكسب

(٢٩) من أهم الأمثلة على ذلك مشاركة العالم الأنثروبولوجي البريطاني إلفان بيرتشارد في حروب شمال أفريقيا وتوليّه منصب الحاكم العسكري في برقة لبعض الوقت لم تأليفه كتابه الشهور عن السنوسيين في برقة تحت اسم The Sannsi of Cyrenaica

كذلك اهتم عدد من علماء الأنثروبولوجيا في أمريكا لأسباب تتعلق بالدعاية والحرب بدراسة شعوب الأعداء والحلفاء على السواء ، واستعانوا في ذلك بخبرتهم الطويلة في دراسة المجتمعات البدائية والبسيطة ، وكذلك بخبرتهم في تركيب الثقافات الزائلة المتداخلة والتي على وشك الاندثار ، ثم أبرزها كوحدة متكاملة من المخطومات المبرمجة التي كانوا يحصلون عليها من الشيوع الأحياء في تلك المجتمعات . ولقد قاموا بتطبيق ذلك المنهج نفسه على الشعوب المشتركة في الحرب وبخاصة على اليابان بقصد تركيب ثقافتهم وفهم مزاجهم وطاقاتهم الخاص أو ما يعرف معموا باسم « الخلق القومي » أو « الطابع القومي » عندهم . وقد استمعدوا في ذلك على الكتابات والمخطومات التي كانت في متناول أيديهم نظرا لاستعانة القيام بدراسات عقلية مباشرة في أثناء الحرب ، وقد عرفت هذه الدراسات منذ ذلك الحين باسم « دراسة الثقافة من بعد » . وقد اشترك في تلك الدراسات بعض كبار العلماء هناك من أمثال كلوكن Cluckhohn

ومارجريت ميد Margaret Mead وجورج Metraax ومترو Goror .

انظر في ذلك الجزء الأول من كتابنا : البناء الاجتماعي ، المرجع السابق ذكره ، صفحتي ٢٢١ و ٢٢٢ .

المركة ، ولكن الامر لم يلبث ان خرج عن ذلك النطاق الى مجال استخدامهم في عمليات التجسس من اجل فرض السيطرة والتفوذ على البلاد الاخرى في زمن السلم ، وهو وضع يعتبره العلماء والمتمردون الثائرون منافيا للاخلاق . والاكثر من ذلك هو ان بعض العلوم الانسانية ، وبخاصة الانثروبولوجيا ، استعين بها في توطيد اركان الاستعمار على ما كان يحدث في المستعمرات البريطانية في افريقيا . فقد كانت الحكومات الاستعمارية تستعين بمن تسميهم بالانثروبولوجيين الحكوميين ، لاجراء دراسات خاصة بين القبائل والشعوب الخاضعة لحكمها ، وجمع معلومات حول موضوعات معينة بالذات ، لكي تسترشد بها في سياستها وادارتها لتلك المجتمعات بطريقة لا تعارض مع القيم والنظم التقليدية السائدة هناك ، وبذلك كانت الحكومات الاستعمارية تتمكن بمعونة هؤلاء الانثروبولوجيين الحكوميين من تغاضي كل ما من شأنه الازار تلك الشعوب ، فلا تطالب بحريتها واستقلالها ، ويعتبر ذلك العمل ايضا في نظر العلماء الثائرين المتمردين منافيا للاخلاق . صحيح انه في بعض الاحيان كان يسمح لهؤلاء الانثروبولوجيين الحكوميين بالقيام بالدراسات التي يرغبون هم انفسهم في اجرائها والتي تتلاءم مع ميولهم او تجيب على بعض الاسئلة العلمية التي تدور في اذهانهم ، وكذلك فحص بعض النظم التي لا تهم الحكومات بشكل مباشر مثل النظام الديني او القرابي او الاداب والفنون الشعبية والاساطير وما الى ذلك ، ولكن هذا كان يعتبر في العادة عملا جانبيا يقومون به حين يفرغون من عملهم الاساسي . ومما له دلالة في هذا الصدد ان نجد عالما مثل ايفانز بريتشارد الذي بدأ حياته في خدمة حكومة السودان أيام الحكم الثنائي كانثروبولوجي حكومي يقول بعد ان انتهت هذه الفترة من حياته العاملة وانصرف الى البحث الاكاديمي انه لكي « لا تضار المثل والقيم العلمية ينبغي على الانثروبولوجيين الابتعاد على العموم عن مسائل السياسية والحكم . بل انني اذهب في ذلك الى حد القول بان الاعتماد - حتى في البحث الخالص عن الحقائق - على تفضيل الحكومات ومؤازرتها فيه شيء من الخطر على الانثروبولوجيا ، كما قد يؤدي الى الصراع والتنازع بين وجهة نظر الانثروبولوجي وراى الحكومة في مكونات البحث الانثروبولوجي . فقد يكون للانثروبولوجي شغف ببعض مشكلات الدين البدائي ويود لو يقف عليها جانبا كبيرا من عنايته ، بينما تفضل الحكومة - والحكومات على العموم لا تهتم كثيرا بالدين - لو يوجه تلك الجهود لدراسة المشكلات الناجمة عن هجرة الايدي العاملة مثلا ، او قد تريد الحكومة منه ان يقصر دراسته على نظام ملكية الارض فقط عند شعب من الشعوب ، بينما يرى هو ان من الصعب فهم هذا النظام الا بدراسة كل الحياة الاجتماعية هناك . ومن الطبيعي ان ينصرف اهتمام الانثروبولوجي الى الموضوعات الانثروبولوجية بغض النظر عما اذا كانت لها - او لم يكن لها - اهمية عملية على الاطلاق ، كذلك من الطبيعي ان تكون حكومات المستعمرات مهتمة بالمشاكل العملية بغض النظر عن قيمتها النظرية . وقد نشأت صعوبات واشكالات كثيرة حول هذه المسألة » (٣٠) . ومن شأن هذا كله ان يلقي ظللا كثيفة على ادعاء الكثيرين من المشتغلين بالعلوم الانسانية بانهم يتوخون الموضوعية في دراساتهم وبحوثهم . في الوقت الذي يقومون فيه في الواقع بأبحاث موجهة ومفرضة ومتحيزة ، وتهدف الى تحقيق اهداف معينة حددتها لهم هيئات لاتنصل بالعلم ولا بموضوعية البحث من قريب او بعيد . ولذا كان الكثيرون من العلماء المتمردين يرون في

دعوى الموضوعية العلمية في العلوم الإنسانية نوعاً من التفاف العلمي الذي يجب فضحه وكشف النقاب عنه .

وليس في هذا كله انكار لقيمة الموضوعية في ذاتها أو لأهميتها في البحوث العلمية إذا كان المقصود بها هو تسجيل كل الحقائق والوقائع المتصلة بموضوع الدراسة . والموضوعية بهذا المعنى لا تمنع من إبداء الرأي الشخصي في تلك الحقائق والوقائع بعد أن يتم تسجيلها بكل دقة وإمانة ، فضلاً عن أنها لا تتعارض بحال مع دراسة الأحداث الكبرى التي تؤثر في حياة المجتمع والإنسان والعالم . أما أن يتمتع العلماء عن إبداء رأيهم الصريح في أمور حياتهم ومجتمعهم فتلك هي السلبية في أبشع صورها ، لأنها تتصف بالانزواء والانكماش والجبن عن مواجهة الواقع ونقده وتحديه أن احتاج الأمر لذلك ، وبذلك تصبح الموضوعية مرادفة لخيانة الرسالة والتراخي عن تحقيق الهدف الحقيقي للعلوم الإنسانية ، وهو محاولة فهم الإنسان والمجتمع من كل الجوانب وفي مختلف الأبعاد والاعماق (٢١) .

وعلى أية حال فإذا كان البحث العلمي يعاني الكثير من النقص إذا لم يتمسك الباحث بالموضوعية العلمية في دراسته للوقائع والحقائق وتحليلها فإن الأضرار المترتبة على الموقف السلبي أو الموقف الحيادي المطلق كثيرة وخطيرة في تقدير أعداد ذلك الاتجاه ، خاصة أن المبالغة في تحاشي نقد ما يحدث في المجتمع وتقويمه قد يؤدي في آخر الأمر بالمجتمع كله . وللعلوم الإنسانية في ذلك عظة وعبرة بما حدث في العلوم الطبيعية ذاتها . فقبل الحرب العالمية الثانية كان الرأي السائد في العلوم الطبيعية ينادي بضرورة التمسك بالموضوعية العلمية المطلقة مع عدم التقيد بالقيم الإنسانية على اعتبار أن العلم لا ينبغي له أن يخضع لأية أحكام تقويمية . وظل الحال كذلك حتى ألقيت القنبلة الذرية على هيروشيما فبدأ العلماء يراجعون أنفسهم ولم يعد الكثيرون منهم واثقين من صحة هذا الرأي . وهذا نفسه ينطبق على العلوم الإنسانية . فلو اقتصر اهتمام علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا وغيرهم على تحسين أساليب البحث ومناهجه وتطويرها بقصد التوصل إلى نتائج أكثر دقة دون إبداء اهتمام مماثل بتنمية المسؤولية الأخلاقية لدى العلماء والباحثين فقد ينشأ جيل لا يهتم بالأخلاقيات ولا بالإنسانية ككل . وإذا كان للعلم - على ما يقول جولدنر في ذلك - تطبيقاته البناءة والهدامة على ما يتمثل بوضوح في تفتيت الذرة فإن هذا لا يبرر إغفال الفوارق بين الناحيتين أو تجاهلها ، خاصة أن تبين هذه الفوارق لا تتعارض مع معايير الموضوعية

(٢١) Stein & Vidich (eds), in op. cit., pp. 1-2

وبلاحظ جولدنر في مقاله التي سبقت الإشارة إليها والتي قال فيها ما يسميه بطم المجتمع العالي من القيم أن الجري وراء دعوى الموضوعية والتحرر من الأحكام التقويمية هو أول علامة من علامات الغيل والشيخوخة المهنية ، كما أنه آخر موضة في المطالب الشبابية الجريئة 35 Goufner, op.cit.p.35 بالإضافة إلى أنه يؤدي إلى خلق نوع من التبدل الطلقي عند هؤلاء العلماء ، ويساعد على تعريق الانطباع والكتائب الخاصة من طريق التنقي وإراء ستر الموضوعية العلمية . واللافت مثلاً أن بعض علماء الاجتماع الأمريكيين قاموا بدراسات وبحوث من شأنها أن تساعد على زيادة انتشار التدخين وترويج تجارة السجائر بالتالي رغم ما يعرفونه من العلاقة بين التدخين والسرطان Ibid, p. 42.

العلمية ، وكل ما يعنيه هو التخلص من تلك اللامبالاة الاخلاقية التي تصبغ سلوك الكثيرين من المستغفلين بالعلوم الانسانية الآن (٣٢) .

- ٤ -

ولقد سبق ان اشرنا الى ان الازمة التي تمر بها العلوم الانسانية الآن نشأت في الاصل من الرغبة الجامحة في استخدام مناهج وطرق واساليب العلوم الطبيعية وتطبيقها بحذانها في دراسة الظواهر الانسانية والاجتماعية ، على امل ان يساعد ذلك على الوصول الى نفس الدرجة من الدقة التي بلغتها العلوم الطبيعية والبيولوجية ، والدعوة الى اتباع المناهج العلمية في العلوم الانسانية قديمة ، وقد ظهرت بوضوح عند أوجيست كونت ثم عند ميل ، وهناك بلا شك كثير من النواحي المشتركة بين هاتين الفئتين من العلوم ، وهي تتمثل بأبسط صورها في الاعتماد على الملاحظة والتحليل . بل ان الدعوة لا استخدام المناهج الكمية والطرق الاحصائية قديمة أيضا ، وترجع - فيما يتعلق بالانثروبولوجيا على الأقل - الى تابلور . انما الجديد في الامر هو تسليم الغالبية من المستغفلين بالعلوم الانسانية الآن يقول لورد كلفن Lord Kelvin ان المعرفة التي لا يمكن قياسها هي معرفة هزيلة وغير مقننة (٣٣) . وسيطر الفكرة القائلة بان نجاح العلوم الانسانية وتقدمها واداءها لمهمتها على الوجه الاكمل رهن بقدرتها على استخدام مناهج العلوم الطبيعية وطرق البحث فيها وبخاصة استخدام القياس والاحصائيات والاستبيانات والجداول وما إليها . ولقد اصبح كثير من علماء الاجتماع بالذات ، وبخاصة في امريكا ، يرون انفسهم اقرب الى علماء الفيزياء والكيمياء ويتصرفون في دراساتهم على هذا الاساس ، بغض النظر عن رأى الفيزيائيين والكيميائيين انفسهم في ذلك . كما ظهرت نزعة قوية للمقارنة بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية كانت كلها في الاغلب تنتهي الى اقرار ان الفارق بينهما هو فارق في الدرجة فقط ، ويتمثل على الخصوص في اختلاف كل منهما في صياغة المشكلات وحل تلك المشكلات . ومهما يكن من شيء فمناك في الواقع عنصر مشترك بين مناهج هاتين الفئتين من العلوم كما ذكرنا ، ويرجع ذلك الى ان العلوم الانسانية فرع من فروع المعرفة التي تحاول الجمع بين الجانب النظرى والجانب التجريبي ولو الى حد محدود . والمقصود بالجانب النظرى هنا هو الميل الى تفسير الحوادث والتنبؤ بها من طريق النظريات او القوانين الكلية التي تحاول تلك العلوم اكتشافها ، بينما تقصد بالجانب التجريبي ان تلك العلوم سندنا من التجربة ، بمعنى ان الحوادث التي تفسرها وتنتبها بها هي وقائع يمكن مشاهدتها ، كما ان المشاهدة او بالاحرى الملاحظة هي الاساس الذي تعتمد عليه تلك العلوم في قبولها او رفضها لآية نظرية من النظريات . واذا كانت العلوم الانسانية تحاول الوصول الى نفس النجاح الذي حققته العلوم الطبيعية فان ذلك لن يتم على

Ibid, p. 52 (٢٢)

Redfield, op. cit. pp. 44- 45. (٢٣)

الوجه الأكمل إلا إذا تمكنت من الوصول إلى مثل التنبؤات أو التكهّنات الدقيقة التي تصل إليها العلوم الطبيعية ، والمحك في ذلك هو أن تؤيد التجربة تلك التنبؤات أو التكهّنات (٢٤) .

وليس هنا مجال الدخول في مناقشة مناهج العلوم الطبيعية والإنسانية بالتفصيل ، فقد عولجت هذه المسائل بكثرة في الكتب المدرسية التي تهتم بوجه خاص بتبيين خصائص العلم والمنهج العلمي . ولكن يمكن القول مع سكينر Skinner أن العلم - بعامته - مجموعة من المواقف التي تتمثل في الانبعاث نحو دراسة الأشياء ، وليس ما يقوله الآخرون عن تلك الأشياء . ولهذا فهو يفرض المكون إلى ما هو وارد في الكتب ويهتم بدلا من ذلك بدراسة الواقع ذاته ، كما أنه لا يقبل أي رأي أو قول - مهما كان شائعا - إذا تعارض مع ملاحظة الواقع والطبيعة . فالعلم هو تقبل الحقائق والوقائع حتى وإن تعارضت مع الرغبات والأهواء الذاتية ، وهو بذلك يتطلب درجة عالية من الأمانة العقلية . ومع أن العلماء ليسوا أكثر أمانة من غيرهم من البشر فإن العلم وممارسته يعطيان أولوية خاصة لتلك الأمانة كما يقول برديجمان Bridgman ، فالأمانة العقلية إذن هي وسيلة التقدم في العلم ، وهذا هو السبب في أن كل الأحكام تخضع للتجارب العديدة المتكررة ، وهذا أيضا هو ما يخلق الجو العلمي الذي يفترض توافر الدقة ، كما يساعد هو نفسه على الوصول إلى تلك الدقة المطلوبة . ولكن بالإضافة إلى كون العلم مجموعة من المواقف والاتجاهات فإنه بحث عن النظام أو الترتيب والاطراد ، وعن العلاقات الممكن وجودها بين الأحداث والظواهر في الطبيعة . ويبدأ العلم في المادة بملاحظة حالات فردية يصل منها إلى التعميم أو إلى القانون العلمي الكلي . ومع أن الإنسان يكتشف مثل هذه العلاقات في خبراته اليومية فإن العلم يكتشفها بطريقة أكثر دقة ومنهجية ، ويعبر عنها أيضا في أسلوب دقيق محكم (٢٥) . وهذا هو التفارق الهائل بين نظرة الرنجية ونظرة بافلوف إلى سيل اللعاب من فم الكلب .

والوصول إلى القوانين العلمية عمل طويل شاق ، ويحتاج إلى تضافر كثير من القوى خلال فترة طويلة من الزمن . فهو ليس من عمل الفرد ، كما أنه لا يتوقف على اكتشاف فرد واحد ، وإنما على المعلومات التي توفرها أجيال متتالية من العلماء . ولذا فإن الخاصية الأساسية للعلم هي تراكم هذه المعارف والمعلومات . ويقول آخر ، فإن العلم ينتمي إلى ذلك النوع من المعرفة الذي يعرف باسم المعرفة التراكمية Cumulative . وتخضع هذه المعرفة التراكمية - أو العلم - لنوع من المحاكات تساعد جميع المشتغلين بها على الحكم عليها بالصدق أو الكذب ، وذلك على العكس من المعرفة اللا تراكمية ، كالآداب ، فهي لا تخضع لمثل هذه المحاكات ، ولا يمكن أن تؤدي إلى اتفاق عام . ومن هنا كان الحكم عليها بأنها غير مفيدة بل وأن من الخطأ تسميتها « معرفة »

(٢٤) كارل بوبر ، المرجع السابق ذكره ، صفحات ٢٩ - ٥٠ .

(٢٥) Skinner, B.F; Science and Human Behavior, The Free Press, N.Y. 1953, pp. 13- 14. (٢٥)

على الإطلاق ، اذ ليس لها معنى بل - وهذا هو المهم في نظر المترشحين على هذه التسمية - ليس لها أى اثر حقيقي في السلوك البشرى . (٣٦)

ولقد خطت العلوم الانسانية خطوات كبيرة حقاً في سبيل تطبيق المنهج العلمي في ميادين دراساتها الخاصة . وكثير من هذه العلوم - وبخاصة علم النفس وعلم الاجتماع ، والى حد ما الانثروبولوجيا - تستعين بالقياس الى جانب الملاحظة . وقد أدت الملاحظة الدقيقة في كثير من الأحيان الى اكتشاف نوع من النظام أو الاطراد بين الظواهر التي تهتم بها هذه العلوم ، مما ساعد على إصدار بعض التكهّنات أو التنبؤات حول السلوك الانساني . والواقع انه لولا اكتشاف هذه الاطارات لما أمكن معالجة كثير من الشئون التي تعرض لحياة الانسان والمجتمع . وتهدف المناهج العلمية بأساليبها الرياضية والمنطقية والتجريبية الى توضيح هذه الاطارات وإبرازها ، وهذا نفسه هو ما يحاول الكثيرون من علماء الانثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعي تحقيقه من خلال دراساتهم العقلية ، وما يهدف اليه أيضاً علماء النفس من استخدام الطرق التجريبية التي تمارس في العيادات والمختبرات ، والتي تخضع لكثير من الضبط والتحكم (٣٧) . ومن هنا كان الحاج الكثيرين من المتخصصين في العلوم الانسانية في ضرورة الاستعانة بالمناهج والطرق الرياضية والتجريبية للكشف من تلك الاطارات والتعبير عنها ، على أساس أن هذه المناهج

(٣٦) تتمثل المعرفة التراكمية بالفصل صورها في العلوم الطبيعية . فمعد البدايات الأولى لدراسة الفلك والطبيعة مثلاً منذ آلاف السنين في شرق البحر الأبيض المتوسط بدأت معلوماتنا عنهما تتراكم وتتزايد كي نتحول الى علم الفلك والفيزياء الحديثين . وقد استمرت عملية التراكم طيلة هذه القرون رغم ما كانت تعرفه له أحياناً من ركود ، كما أن كثيراً من الأفكار القديمة احتفظت بصيغها لأن ، وإن كان البعض الآخر ظهر كلبه وعدم دقته فاسقط من الإعتبار ، وكانت النتيجة من هذا كله هو ظهور علم متماسك محدود ومتمايز وله نظرياته المقبولة من الجميع . وإذا كان ثمة اختلافات بين العلماء في بعض مجالات العلم فإن هذه الاختلافات لا تتعلق بالأسس أو بماهية العلم ذاته وإنما تدور حول المسائل الفرعية والجديدة . وهذا لا ينفي إمكان قيام ما يمكن اعتباره « لسورات » في العلم تعدل من بعض هذه الأسس . وفي هذه النواحي بالذات تختلف المعرفة التراكمية عن المعرفة اللائكية والتي يعتبر الأدب غير مثال لها . فليس الرغم من أن الأدباء كانوا منذ القديم يكتبون حول أمور معينة مثل الحق والخير والجمال والانسانية وما إليها ، وهي الموضوعات ذاتها التي لا يزال الأدباء المعاصرون يكتبون عنها ، فليس ثمة ما يدل على حدوث أى تغير خلال القرون الطويلة الماضية نتيجة لتراكم هذه الكتابات والخبرات ، كما حدث في العلم . وبينما يعرف عالم الفلك أو الفيزياء الآن عن فرع تخصصه اصغاف اصغاف ما كان علماء اليونان يعرفون ، فلا يزال الأدباء - على ما يظهر - في نفس الموقف الذي كان أدباء اليونان يجهلون أنفسهم فيه . ويقول برنتون C. Brinton . في ذلك انه لو بحث أحد الأدباء اليونانيين مثل أرسطو فإن أو أحد الفلاسفة مثل افلاطون لما وجد صعوبة كبيرة في متابعة ما يقال الآن في الأدب أو الفلسفة ، أما لو بحث أرخميدس فسوف يحتاج الى سنين طويلة جداً حتى يستطيع فهم مبادئ الفيزياء أو الرياضيات الحديثة . وبينما يستطيع أرسطو فإن أن يتابع بسهولة ما يكتبه جورج برناردشو مثلاً ، ويستطيع افلاطون أن يتابع بسهولة أيضاً ما يكتبه فيلسوف مثل جون ديوي ، فإن يكون من المهمل على أرخميدس أن يفهم كتابات بوهر Bohr أو أينشتاين ، انظر في ذلك على العموم :

Brinton, C., The Shaping of Modern Thought, Prentice- Hall, Spectrum Books. N.J. 1963, PP. 9- 12

والطريق ملك « العلم » في ذاته ، ولا يمكن أن تكون وفقاً على علم دون آخر ، وأنه يحق للعلوم الإنسانية بناء على ذلك أن تستعين بها ما دام ذلك يؤدي إلى تحقيق درجة أكبر من الدقة والضغط .

ومع التسليم بهذا كله ، فإن السؤال المهم الذي يتردد في الأذهان ولم يجد اجابة نهائية حتى الآن هو : الى أي حد يمكن استخدام مناهج العلوم الطبيعية وطرقها واساليبها في العلوم الإنسانية ، وبالتالي الى أي حد يمكن اعتبار العلوم الإنسانية علوماً طبيعية ؟ هناك صعوبات كثيرة تقف حائلاً بين هاتين الفئتين من العلوم رغم كل ما يبدو من تقارب وتشابه بينهما ، وكفي للتدليل على ذلك ضرب بعض الأمثلة من مناهج العلوم الطبيعية ومدى انطباقها على العلوم الإنسانية دون أن ندخل مع ذلك في تفاصيل كثيرة لا داعي لها .

وأول هذه الأمثلة - وهو في الوقت ذاته يمثل أولى الصعوبات - هو التجريب أو إجراء التجارب العملية كمنصر متميز من الملاحظة التي تستعين بها العلوم الطبيعية والإنسانية على السواء . ويعتبر منهج التجربة المنهج الأساسي في العلوم الطبيعية ، وهو يعتمد على عزل الظواهر الطبيعية صناعياً ، والتحكم فيها بقصد التوصل إلى تحقيق الظروف المتماثلة مرة تلو المرة ، وما يترتب على هذه الظروف من نتائج ثم تكوين النظريات . ومن المسلم به أن العالم الفيزيائي يتعمق على العالم الاجتماعي أو الأنثروبولوجي مثلاً باستخدام الوسائل العملية وأجهزة التقياس والملاحظة الدقيقة ، ويستعين بها في إخضاع الظواهر التي يدرسها للمراقبة والملاحظة الدقيقتين . ومع أن هناك معامل ومختبرات لبعض العلوم الإنسانية في كثير من الجامعات ومراكز البحوث فإنه من الصعب إجراء التجارب فيها بالمعنى المفهوم من كلمة « تجربة » . والواقع أن هناك كثيراً من الاعتراضات على إمكان القيام بمثل هذه التجارب ، ومعظم هذه الاعتراضات ذات طابع نظري أو منطقي . فمنهج التجربة يعتمد - كما يقول كارل بوبر - على الفكرة القائلة بأن الأمور المتماثلة تحدث في الظروف المتماثلة ، وهو أمر يصعب تحقيقه في العلوم الإنسانية . وحتى لو أمكن تطبيقه فلن تكون له فائدة كبرى ، بل أنه قد يكون عديم الفائدة تماماً ، لأن الظروف المتماثلة لا يمكن أن تتحقق إلا في حدود الفترة التاريخية الواحدة ، ولذا فلن يكون لأي تجربة تجريها إلا دلالة محدودة جداً . يضاف إلى ذلك أن عزل الظواهر الاجتماعية صناعياً من شأنه أن يستبعد العوامل التي لها الأهمية العظمى في العلوم الإنسانية . « فنحن لن نجد أبداً فروبنسون كروسوفي نظامه الاقتصادي الفردي المنعزل نموذجاً مفيداً للنظام الاقتصادي الذي لا تنشأ مشكلاته إلا من التأثير المتبادل بين الأفراد والجماعات » . (٢٨) بل أن ثمة استحالة كاملة في إجراء التجارب المفيدة في بعض العلوم الإنسانية مثل علم الاجتماع . وتمثل هذه الاستحالة في أن التجارب الاجتماعية الواسعة النطاق - مثل توزيع المكاتب الكبيرة - لا يمكن اعتبارها تجارب بالمعنى الفيزيقي أو الدقيق للكلمة ، « إذ ليس الغرض منها العمل على تقدم المعرفة من حيث هي كذلك ، بل يقصد بها تحقيق النصر السياسي . وهذه التجارب لا تجري في العمل بمعزل عن العالم الخارجي ، بل

الأخرى أن نقول أن أجراءها يغير الظروف الاجتماعية نفسها ، وليس من الممكن تكرارها في ظروف مماثلة ، فمن حيث أن الظروف تفتتت نتيجة لإجراءها في المرة الأولى (٢٩) ، وذلك كله بالإضافة إلى إمكان تحكم العالم الطبيعي في اختيار الظروف التي يجري فيها تجاربه وتغير هذه الظروف كيفما شاء ، وهو الأمر الذي لا يتيسر للعالم الاجتماعي والأنثروبولوجي. صحيح أنه أجرى عدد من التجارب في ميدان علم النفس وبخاصة علم النفس الصناعي وفي ميدان علم الاجتماع الصناعي ، وكان لبعض هذه التجارب دلالة عميقة مثل تجارب « مصانع هوثورن Hawthorne Works » المشهورة ، كما أجريت بعض التجارب التي تتسم بالجرأة لقياس بعض الاستجابات في أثناء العملية الجنسية على أشخاص من كلا الجنسين تقدموا من تلقاء أنفسهم ومارسوا العملية الجنسية تحت عدسات التصوير وبعيون الملاحظين وتعتبر فتحاً جديداً في الدراسات التجريبية على البشر (٣٠) ، إلا أن هذا كله لا يمكن أن يقارن بالتجارب الدقيقة المتكررة التي تجري في معامل الفيزياء والكيمياء تحت ظروف تكاد تكون مثالية ، وذلك بعكس الحال بالنسبة للتجارب التي قد يود العالم الاجتماعي أو الأنثروبولوجي إجراءها فتتقف دونها كثير من العقبات والصعوبات الفنية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية . فلقد أثارت تجارب ماسترز W. H. Masters وجونسون V. E. Johnson لقياس الاستجابة الجنسية عند البشر رد فعل عنيف بين رجال الكنيسة والمتدينين عموماً في أمريكا والغرب ، ولولا أنها أجريت سرا وفي الخفاء لمدة إحدى عشرة سنة لما قدر لها أن تتم (٣١) . ولذا فإن كثيراً « من التجارب التي نرغب في إجرائها إلى أقصى حد سوف تبقى في عالم الأحلام زمناً طويلاً ، وذلك رغم أن هذه التجارب هي من النوع الجزئي وليس من النوع اليوتوبي ، ولا مفر للعالم الاجتماعي من أن يعتمد في عمله أكثر مما ينبغي على التجارب التي يجريها في ذهنه ، وكذلك على التشريعات السياسية التي تصدر في ظروف وبطريقة ينقصها الكثير مما نرغب فيه من وجهة النظر العلمية (٣٢) . بل أن ثمة كثيراً من الشك يخالغ

(٢٩) لمسي المرجع والصفحة .

Masters, W.H., & Johnson, V.E.; *Human Sexual Response*, Little Brown & Co., (٤٠) Boston 1966.

ولقد أجريت هذه التجارب - التي تعتبر الأولى من نوعها في تاريخ دراسة العلاقات الجنسية - على ٣٨٢ امرأة و ٣١٢ رجلاً طوعوا في الغالب للقيام بالعملية الجنسية تحت شروط معملية حددتها القائمان بالبحث (وليام ماسترز والسيدة فرجينيا جونسون) . وتلغ الغالبية العظمى من الأشخاص الذين أجريت عليهم التجارب من كلا الجنسين بين سن العشرين والخمسين وأن كان هناك عدد قليل من النساء تراوحت أعمارهن بين الحادية والخمسين والثمانين (٢٤ امرأة) وعدد محدود أيضاً من الرجال بين سن الحادية والخمسين والتسعين (٣٩ رجلاً) . وبالإضافة إلى المعلومات الكثيرة التي توصل إليها الباحثان - عن طريق الملاحظة والقياس - ليس من طريق السؤال كما كان يحدث في كل الدراسات التي سبقت هذه التجارب - عن التغيرات الفيزيائية التي تحدث في الجسم أثناء الاستثارة الجنسية مثل سرعة ضربات القلب والنفس وتصيب العرق والتغيرات التي تطرأ على الأضواء التناسلية ، فقد أمكن لهما أيضاً تسجيل الكثير من الملاحظات عن انماط السلوك والعادات الجنسية والنظرة إلى الجنس عند مختلف الأعمار ودرجات التعليم وما إلى ذلك .

(٤١) انظر في ذلك .

Brecher, R&E ; *An Analysis of Human Sexual Response*, Andre Deutsch, London 1967

(٤٢) كارل بويز : المرجع السابق ذكره ، صفحة ١٢٢ .

المرة في مدى دقة ودلالة هذه التجارب ، وفيما إذا كان هؤلاء الأشخاص يتصرفون بطريقة طبيعية حين يتم عزلهم في حجرات خاصة للملاحظة سلوكهم وقياسه ، وبخاصة حين تكون المسألة متمثلة بالسلوك الجنسي وممارسة العملية الجنسية . ولذا فكثيراً ما يوصف العلماء الذين يقومون بمثل هذه التجارب أنهم يبحثون بتجاربههم عن قوانين لا تنطبق في الحقيقة إلا على تلك الحجرات المعزولة (٤٣) .

وهذا ينقلنا إلى المثال الثاني: إذا كان أحد أهداف الملاحظة والتجريب في العلوم الطبيعية هو الوصول إلى القوانين الكلية المبسطة، فإلى أي حد يمكن تحقيق ذلك في العلوم الإنسانية ؟ الواقع أننا إذا استثنينا علم الاقتصاد فإن الحصلة من هذه «القوانين» في بقية العلوم الإنسانية تبدو ضئيلة للغاية . بل إن ما يسمى «قوانين» فيها - أو في بعضها على الأقل مثل علم الاجتماع والأنثروبولوجيا - لا يخلو من العيوب وأوجه النقص . والمعروف أن نجاح التعميمات في العلوم الطبيعية يرجع إلى أطراد الأحداث الطبيعية ، وهو الأمر الذي لا يتوافر دائماً في أحداث الحياة وشؤون المجتمع وأحوال الأفراد ، ولذا فإن كثيراً من الأحكام العامة الكلية التي أطلقها بعض السوسيولوجيين أو الأنثروبولوجيين ليست في حقيقة الأمر إلا أقوالاً بدئية لا ترقى إلى مستوى القوانين ، ولا تلبث عموميتها أن تنهار أمام الفحص الدقيق . وبالإضافة إلى ما تتمتع به القوانين في العلوم الطبيعية من الصلابة فإنها تتميز عادة بالوضوح والابحار والخلو من اللبس والفوضى ، كما أنه يمكن التعبير عنها في الأغلب في صيغ رياضية دقيقة ومحكمة ، وذلك على العكس تماماً من الأحكام الكلية التي نصادفها في العلوم الإنسانية ، فهي تصاغ في العادة في قالب من الكلمات الطنانة ، ويدخلها كثير من الفوضى، كما يحوطها الكثير من التحفظات (٤٤) . وعلى ذلك فإن الدعوى بأن الانساق الاجتماعية مثلاً انساق طبيعية تجد كثيراً من المقاومة ليس فقط من جانب العلماء الشباب الثائرين الذين خلقوا بثورتهم الأزمة الحالية التي تمر بها العلوم الإنسانية - أو جزءاً من هذه الأزمة على الأقل - بل وأيضاً من عدد من كبار العلماء «المحافظين» . فإيفانز بريتشارد يصف هذه الدعوى بأنها «الوضعية النظرية في أسوأ صورها» ، ويرى أن من حقّه أن يطالب الذين يقررون أن غاية الأنثروبولوجيا وبالتالي العلوم الإنسانية هي الوصول إلى قوانين اجتماعية تشبه القوانين التي يصوغها العلماء الطبيعيون أن يقدموا لنا أمثلة من هذه القوانين الاجتماعية . « ولكن لم يظهر لأن أي شيء يشبه ولو من بعيد قوانين العلوم الطبيعية ، وكل ما يمكن الوصول إليه هو بعض الأحكام المحتملة أو الفائية أو العملية . وقد أتت كل التعميمات التي حاربها بعض العلماء إطلاقاً غامضة مبهمة فضفاضة مما يقلل من قيمتها وأهميتها ، هذا على فرض صدقها . والحق أن هذه التعميمات ليست سوى مجرد تكرار للمعاني الجزئية وإبراز الأشياء العادية المألوفة في صور أخرى وعلى مستوى استدلالى ساذج بسيط . » (٤٥) ولقد درأت على صفحات مجلة Man منذ سنوات مناقشات طويلة تجمع بين العنف والطرافة حول إمكان وصول الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالذات إلى قوانين عامة تشبه قوانين العلم

(٤٣) كيجي ، جون ، الفيلسوف والعلم - ترجمة الدكتور أمين الشرف ، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر بالاشتراك مع مؤسسة فرتكين ، بيروت ١٩٦٥ : صفحة ٣٥٧ ، بور ، المرجع السابق ذكره ، صفحة ١٨ .

(٤٤) المرجع السابق ، صفحة ٣٥٢

(٤٥) إيفانز بريتشارد ، المرجع السابق ذكره صفحة ٩١

الطبيعية في صدقها وعموميتها . ولقد تزعم الأنثروبولوجي البولندي أندريسكي Andrzejewski الدفاع عن الدعوى القائلة بإمكان صياغة التعميمات أو القوانين الصادقة ، بل وذهب الى أن هناك قوانين بالفعل من هذا النوع ، وضرب لذلك بعض الأمثلة ، مثل ارتباط انتشار نظام تعدد الزوجات بالتفاوت الاقتصادي الشديد في المجتمعات البدائية ، وأن الحروب تؤدي الى ظهور الحكم الانفرادي ، وأن الزيادة الكبيرة في عدد السكان تؤدي الى الحرب . ويرى أندريسكي أن ثمة أمثلة أخرى يمكن ذكرها للتدليل على وجود القوانين الاجتماعية ، وإن كان العلماء مع ذلك لم يصوغوا حتى الآن اعدادا قليلا نسبيا من هذه القوانين ، وذلك نظرا لحدالة العلوم الاجتماعية (علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بالذات) . ويلاحظ أندريسكي أن الناس كانوا دائما يقفون موقفا عدائيا من كل العلوم في أول عهدها ، ولو صدقت المزاعم التي كانت تنكر إمكان الوصول الى قوانين في العلوم الطبيعية لما كانت هناك الآن علوم الفيزياء والكيمياء والحياة « البيولوجيا » وغيرها . ولكن أحد الأنثروبولوجيين البريطانيين وهو لورد راجلان Lord Raglan تصدى للرد على أندريسكي على صفحات المجلة ذاتها ، وحاول أن يفتد ما ذهب اليه من طريق التشكيك في أن القضايا التي ذكرها تؤلف قوانين مطلقة . وبين راجلان مثلا أنه ليس ثمة تفاوت اقتصادي عند قبائل استراليا ، ومع ذلك فهم يعرفون نظام تعدد الزوجات ، وأن قبائل الماساي Masai في شرق أفريقيا من أشد الشعوب حبا في الحرب ومع ذلك فالحكم ديمقراطي ، ولم يظهر فيها ديكتاتور واحد ، وأخيرا فإن بلاد البنغال متخمة بالسكان ، ومع ذلك فإنهم من أشد الشعوب حبا في السلام (٤٦) . وعلى أية حال فإن قيام مثل هذه المناقشات حول موضوع لم يعد محل بحث على الإطلاق في العلوم الطبيعية منذ زمن طويل يدل دلالة واضحة على مدى اختلاف وجهات النظر بين المشتغلين بالعلوم الإنسانية ، كما يدعو الى التشكيك فيما إذا لم تكن كل الجهود التي يبذلها هؤلاء العلماء للكشف من مثل هذه القوانين هي جهود ضائعة وغير مثمرة وإن كل ما سوف تؤدي إليه هو « إثارة بعض مناقشات جوفاء من المناهج » (٤٧)

والمثال الثالث والاخير هو محاولة العلوم الإنسانية استخدام المناهج الرياضية والكمية في وصف وتفسير الظواهر التي تدرسها . وقد اقلع علم الاقتصاد في ذلك الى حد كبير كما صادف علم النفس وعلم الاجتماع بعض النجاح ، وامتدت المحاولات أخيرا الى الأنثروبولوجيا التي أخذت تنحو بسرعة منذ الأربعينيات نحو المناهج الكمية ، وتحاول أن تصوغ الوقائع الاجتماعية في حدود والفاظ كمية مثلما يفعل علماء الاجتماع المحدثون ، خاصة بعد أن ظهر عدد متزايد من العلماء الذين يؤادجون في دراساتهم بين المناهج السوسولوجية والأنثروبولوجية ، ويموجون بين الوصف الكيفي البحث والتحليل الكمي ، على أساس أن هناك من الحقائق من الإنسان والمجتمع مالا يمكن فهمه فهما دقيقا إلا عن طريق الإحصاء والاستعانة بالمناهج الرياضية . فالسلوك الإنساني في مظاهره الجماعية بمدنا بنوعين أو فئتين من المعلومات أو الحقائق : حقائق لها دلالات كمية

(٤٦) انظر في ذلك مجلة Man, May 1951 and October 1951.

ذلك راجع الحاشية التي أضفناها في آخر صفحة ٩٢ من كتاب إيلانز بيريتشارد السابق ذكره .

(٤٧) إيلانز بيريتشارد ، المرجع السابق ذكره ، صفحة ٩٣

تشير إلى الحجم والمقدار ، وحقائق ذات دلالات كيفية تحتاج إلى مجرد الوصف والتفسير . (٤٨)
والسائد عند الكثيرين من علماء الأنثروبولوجيا الآن هو أن تطور العلم سوف يؤدي بالتدريج إلى إخضاع المعلومات التي تعالج الآن في حدود ألفاظ كيفية للتفسيرات والتحليلات الكمية أو العددية ، وأنه إذا كانت دراسة البناء الاجتماعي في المرحلة الحالية من مراحل تطور العلم الاجتماعي بعامة والأنثروبولوجيا بخاصة تحتّم وصف الثقافة السائدة في المجتمع فإن ذلك سوف يخفي بتقدم الدراسات الكمية لهذه الحقائق (٤٩) ، وأنه لا بد من استخدام القياس في مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية بنفس الطريقة التي يستخدم بها في الدراسات السوسولوجية الحديثة وأعطاه العناصر غير المتغيرة في الحياة الاجتماعية قيمة عددية حتى يمكن إضفاء بعض الدقة العلمية على الدراسات الكيفية . ويذكر ليفي ستروس - الذي يعتبر من أشد الدعاة لاستخدام المناهج الرياضية في الدراسات الاجتماعية حماساً - في مقال هام له بعنوان « الرياضيات والإنسان » *« Les Mathématiques et L'homme »* . أن الشيء المؤكد هو أن الشبان الذين سوف يتخصصون في العلوم الاجتماعية لا بد أن تكون لهم ثقافة أساسية متينة في الرياضيات حتى لا يطردوا من الميدان العلمي . (٥٠)

ولقد استشهدت هنا بما يحدث في الأنثروبولوجيا بالذات نظراً لحداثتها كعلم إذا قيست بالعلوم الإنسانية الأخرى من ناحية ولأن منهجها - بحكم الظروف التي تجري فيها الدراسات العقلية في المجتمعات البدائية والمتخلفة التي يصعب الحصول فيها على معلومات عديدة - هو منهج كيفي وصفي إلى حد كبير . ولكن الملاحظ على العموم هو أنه على الرغم من قوة الدعوة لاستخدام المناهج الرياضية فليس هناك من بين العلماء المعاصرين في الأنثروبولوجيا على الأقل من يرى أن هذه المناهج تكفي بلديتها لفهم الحياة الاجتماعية ، وإن كانت تساعد على دراستها بطريقة

(٤٨) يشتمل النوع الأول من الحقائق - كما يراء الأنثروبولوجيون مثلاً - في مقدار مهر العروس واتساع نطاق القرابة ومعنى الكيانات مقدار بعدد الأجيال التي تفصل بين المؤسس الأول للبلدة أو العائلة الكبيرة والأعضاء الأحياء من أفراد تلك البلدة أو العائلة ، ومدى إتياع ومراعاة إحدى القواعد القانونية أو التعاليم الخلقية وما إلى ذلك من العلاقات الاجتماعية التي تحتاج إلى القيام ببعض الإحصائيات ، على الرغم من أن الوسيلة لتحقيق ذلك قد لا تكون ميسورة في كل الأحوال . أما الحقائق ذات الدلالات الكيفية فتشتمل في الالتزام بدفع المهر لبعث خطوات ومراسم وطقوس محددة ، والاعتقاد في السحر والشعوذة ، والشعائر الدينية وما إلى ذلك - انظر في ذلك الجزء الأول (المعلومات) من كتابنا من « البناء الاجتماعي » - المرجع السابق ذكره ، صفحة ٥٥ .

(٤٩) Fortes, M. ; « Time and Social Structure: An Ashante Case Study » in Id (ed): *Social Structure: Studies Presented to Radcliffe- Brown*. O.U.P. 1949, PP.95- 68.

(٥٠) Levi- Strauss, C. ; « On Social Structure » in Kroeber (ed); *Anthropology To day*, Chicago U.P. 1960, PP. 524- 53; G.urvitch, G., « Le Concepte de Structure Sociale », *Cahiers Internationaux de Sociologie*, XIX, 1955.

انظر أيضاً الجزء الأول (المعلومات) من كتابنا عن البناء الاجتماعي - المرجع السابق ذكره صفحات ٥٤ - ٦٣ حيث يوجد عرض أكثر تفصيلاً لهذا الاتجاه مع الإشارة إلى أهم الاختلافات بين التطليل الكيفي والتطليل الكمي لأحدى الظواهر الاجتماعية هي ظاهرة الطلاق في المجتمعات الإفريقية .

أكثر دقة من السرد الوصفي الخالص . وفورتييس نفسه ، الذي أشرنا الى مقاله القيم الذي يدعو فيه الى انتحال المناهج الرياضية في دراسة المجتمعات البدائية ، والذي يعتبر من أشد المتحمسين للتحليلات الكمية للظواهر الاجتماعية يقول في نهاية مقاله الذي يدرس فيه بعض الظواهر عند قبائل الأشانتي « لقد حاولت أن أبين في هذا المقال أن التحليل الإحصائي الأولي أمر لازم لتوضيح بعض مشكلات البناء الاجتماعي الذي يمر بعملية تفاضل اجتماعي . فمن الواضح أن استخدام مصطلحات ومعارف مثل « الزواج والإقامة عند أهل الزوج » أو « عند أهل الزوجة » ، لن يفيد في مثل هذا المقام شيئاً ، بينما استخدام المعلومات العددية تساعدنا على أن نرى تنظيم الحياة العائلية عند الأشانتي هو نتيجة لتفاعل وتداخل عدد من العوامل المحددة تحديداً لا يخلو من الدقة والتي تعمل في وقت معين بالذات أو على مدى فترة محددة من الزمن . » (٥١) وهذا يعني أن استخدام العمليات الإحصائية الأولية تساعد فقط على إزالة ما يحيط ببعض المصطلحات الكيفية من غموض ولبس ، ولم تفلح كل المحاولات التي بذلت حتى الآن ، في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بالذات في الوصول الى صياغة قوانين اجتماعية في الفاظ وحدود كمية مثلما أفلحت العلوم الطبيعية حيث يعتبر الوصف الكمي للكيفيات الفيزيائية شرطاً أساسياً لصياغة القوانين العلمية في قالب رياضي محكم . ولو نظرنا مثلاً الى صيغة مثل « يزداد الميل نحو التوسع الاستعماري بازدياد شدة التصنيع » لتبين لنا على الفور ، كما يقول كارل بوبر ، أننا لا نملك طريقة لقياس الميل نحو التوسع أو لقياس شدة التصنيع . (٥٢) وما قد تكون له دلالة في هذا الصدد أن كبار علماء الرياضيات أنفسهم تجاهلوا تطبيقاتها على العلوم الإنسانية نظراً لصعوبة هذه التطبيقات . (٥٣)

- ٥ -

والاختلافات المنهجية بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية أوسع وأشمل بكثير مما ذكرنا (٥٤) ، ولكننا نكتفي بهذا القدر لأنه ليس من أهدافنا هنا أن نكتب بحثاً في المناهج بقدر ما نهدف الى إبراز أهم عناصر الازمة التي تمر بها العلوم الإنسانية الآن ، مع العلم بأن جدور المشكلة قديمة وأن معظمها يدور حول المناهج . ومع التسليم بأنه ليس ثمة ما يضر العلوم الإنسانية في استعانتها بمناهج العلوم الطبيعية وأساليبها في البحث إذا كان ذلك يساعدها على

(٥١) Fortes, op. cit., P. 83.

(٥٢) كادل بوبر ، المرجع السابق ذكره ، صفحة ٣٦

(٥٣) كيميني ، المرجع السابق ذكره ، صفحة ٢٥٩

(٥٤) يمكن للقارئ أن يجد عرضاً ممتازاً لأوجه الشبه والاختلاف بين مناهج العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية في كتاب كارل بوبر «علم اللاهوت التاريخي» الذي سبقت الإشارة اليه في أكثر من موضع ، فالكتاب - كما يقول المترجم - « دراسة منهجية في مناهج العلوم الاجتماعية من حيث مكوّناتها بمناهج العلوم الطبيعية ، فيصحح المؤلف كثيراً من الأخطاء الشائعة عن المناهج ويتناول موضوعات هامة ، كالتمييز بين التنبؤ والتنبؤ والتنسب التاريخي والنزعة العقلية ووحدة المنهج العلمي » .

الوصول إلى نتائج أكثر دقة مما تصل إليه بالفعل من طريق الملاحظة البحتة أو الملاحظة بالمشاركة، فإن المعارضين لذلك الاتجاه - أو المعتدلين منهم على الأصح - يرون ضرورة تعديس هذه المناهج بما يتلاءم مع طبيعة العلوم الإنسانية ذاتها وطبيعة الموضوعات التي تهتم بدراستها، وهي موضوعات تصل إلى آخر الأمر - بشكل أو بآخر - بالطبيعة الإنسانية ذاتها، والتي هي المميز لمعظم هذه العلوم هو أن موضوع دراستها - أي الطبيعة الإنسانية - يؤلف في الوقت ذاته جزءاً من المنهج، وأنه بناء على ذلك يتعين على الباحث في هذه العلوم أن يستخدم « أنسانيته » في محاولته فهم النظم الاجتماعية وأنماط السلوك المختلفة والخواص والدوافع الكامنة وراء هذا السلوك، وهو الأمر الذي لا نجده في العلوم الطبيعية. فليس هناك تعاطف بين الباحث الفيزيائي مثلاً والدرات أو بين الباحث البيولوجي وذباب الفاكهة وهكذا. فهناك نوع من الحوار إذن بين الباحث وموضوع بحثه في العلوم الإنسانية، وهو حوار ضروري لفهم المشكلة فهمًا حقيقيًا عميقًا، بينما لا تعترف العلوم الطبيعية بوجود مثل هذا الحوار، وذلك لأنها تتلقى بموضوعات بحثها على أنها أشياء وليس كأشخاص كما يحدث في العلوم الإنسانية أو بعضها على الأقل. وواضح أن هذا القول الأخير يتعارض تعارضاً تاماً مع ما يقوله دوركايم في قاعدته الأولى المشهورة من قواعد المنهج في علم الاجتماع من ضرورة اعتبار الظواهر الاجتماعية كما لو كانت أشياء حتى تتوافر الموضوعية العلمية في الدراسة. والواقع أن كثيرين من المشتغلين بالعلوم الإنسانية انتبهوا منذ زمن طسويل إلى ضرورة اهتمام الباحث الاجتماعي والأنثروبولوجي بوجه خاص بهذه المشاركة الوجدانية أو التعاطف واعتبارها جزءاً من عملها بعكس ما يقول دوركايم تماماً. وقد أطلق كولي Cooly منذ زمن غير قريب على هذه العملية اسم الاستبطان التعاطفي sympathetic introspection واعتبرها جزءاً من منهج الدراسة على الرغم من أنها تثير كثيراً من الصعوبات أمام الباحث الذي يجد نفسه بذلك موزعاً بين متطلبات الموضوعية العلمية وبين التعاطف مع الأشخاص الذين يدرس حياتهم وسلوكهم وأفكارهم وقيمهم. وقد عاد هذا الاتجاه إلى الظهور من جديد في السنوات الأخيرة على أيدي عدد كبير من العلماء الشباب الذين يريدون أن يعيدوا إلى العلوم الإنسانية « أنسانيتهما ». ونجد كثيراً من ملامح هذا الاتجاه واضحة على الخصوص في كتابات بعض الأنثروبولوجيين الذين خرجوا على النمط المألوف في الدراسات الأنثروبولوجية التقليدية التي كانت تمسك بحرفية المناهج المتبعة في العلوم الطبيعية (٥٥) :

والرأي الذي يسود الآن عند هؤلاء الكتاب هو أنه مهما تظاهر المشتغلون بالعلوم الإنسانية بأنهم يسرون في نفس الطريق الذي سلكته العلوم الطبيعية وأنهم يطبقون في دراساتهم وبحوثهم مبادئ الموضوعية العلمية التي تعتم عليهم اعتبار الظواهر الاجتماعية والإنسانية على العموم كما لو كانت أشياء فإنهم لا يستطيعون التخلص من حقيقة هامة وهي أنهم يعنون أصلاً بالحالات الذهنية وأنهم يكونون أقرب إلى موضوعات تخصصهم حين يتكلمون عن المشاعر والمواقف والأفكار والمثل

(٥٥) من أهم هؤلاء العلماء أوسكار لويس Oscar Lewis الذي يعتمد الآن اعتماداً متزايداً في دراسته للمجتمعات البسيطة على دراسة الحالات وتاريخ حياة أشخاص معينين كما ترد على ألسنتهم لهم أنفسهم. ويظهر هذا على الخصوص في كتابين من أهم كتبه هما Five Families و La Vida، وكذلك الأنثروبولوجي البرتغالي الشاب جوليان بيت ريفرز Julian Pitt-Rivers (الذي يعطى كتاباته أهمية بالغة لتحليل القيم الاجتماعية كما يظهر في دراسته لأحدى القرى الإسبانية في كتاب له بعنوان The People of the Sierra

والإلاقات والدوافع والنظم والقيم الإنسانية وما إليها . والواقع انهم يتعرضون لهذه الامور في كتاباتهم حتى وان لم يتولوها بصراحة او لم يذكرها في تلك الالفاظ والحدود . ويبدو هذا واضحا في كتابات اثنين من كبار المدافعين عن « علمية » علم الاجتماع والانثروبولوجيا وهما دوركايم وراي كليف براون. (٥٦) فالذين مثلا ان يمكن فهمه عن طريق معرفة عدد المساجد او الكتائس او المعابد في المجتمع وعدد المترددين عليها في كل صلاة او عدد الذين يتقدمون بتظلماتهم لدرجة الاولياء وانواع التظلمات التي يرفعونها الى هؤلاء الاولياء واذما ما كانت هذه التظلمات والشكاوى تكتب بالحبر او الرصاص كما ظهر في كتاب حديث عن هذا الموضوع في مصر . كذلك ان يمكن فهم العائلة كنظام اجتماعي عن طريق دراسة عدد البيوت وعدد طوابقها وعدد الغرف فيها وطريقة بنائها والمواد المستخدمة في البناء ووسائل التهوية والأضاءة ولا حتى عدد افراد هذه العائلات الذين يعيشون مما تحت سقف واحد او في بيوت متفرقة، وما الى ذلك من المعلومات العديدة التي لا شك في اهميتها ولكنها لا تكفي اطلاقا لفهم هذين النظامين الاجتماعيين ، انما الذي يجدي في فهم النظم هو دراسة الحالات الالهية المتصلة بها واثرا في فئات معينة من الناس في مواقف معينة بالذات . ويصدق هذا بشكل او باخر على كل العلوم الإنسانية . بل ان علماء الاقتصاد انفسهم كثيرا ما يضيفون بحدود وقيود النظريات الاقتصادية الصورية ويثيرون عليها ويعطون بعض اهتمامهم لدراسة الدوافع الحقيقية لسلوك الناس في مواقف اقتصادية معينة وبذلك يدخلون ميدان الفلسفة دون ان يدركوا ذلك، مثلما فعل سمنر Sumner وبلين Veblen وثابت F.H. Knight وغيرهم . وربما كان هذا هو السبب في الاهتمام الوالد الذي يوليه علماء الاجتماع والانثروبولوجيا بالذات لدراسة نسق القيم . اذ مهما بلغت المعلومات التي يحصل عليها السوسيولوجيون والانثروبولوجيون عن سلوك الناس في المجتمع من الدقة والتفصيل والكثرة فلن تكون لها أهمية حقيقية الا اذا درست في ضوء نسق القيم السائد في ذلك المجتمع ، وذلك على اعتبار ان اختيارات الانسان وتفضيلاه والمعايير التي تحكم في عملية الاختيار والمفاضلة هي التي تؤلف في الحقيقة موضوع العلم الاجتماعي . وهذه المعايير هي قبل كل شيء مستويات خلقية وعقلية ، ومن هذه الناحية فانها تكون اقرب الى مجال الادب والفلسفة منها الى العلوم الطبيعية (٥٧) . وكما يقول جون كيمي « اتفق الصعبان بقى المعاني العاطفية يعمل عن الفرضيات ، فكل منا يهتم لما تنطوي عليه الافعال من تضعينات اخلاقية . ذلك لانه من الصعب ان يصار الى صياغة النتائج المتوقعة للجهود البشرية في قالب خلو من الشعور . ونحن ندرك اليوم في دراستنا لتاريخ قوانين حركات الاجرام السماوية كم كان حفظ علماء الفلك عظيما لانه لم يكن يهيم ما هي مداوات تلك الاجرام طالما كان باستطاعتهم وضعها بدقة . اما العلوم الاجتماعية فان الصعوبة هي ان الضغط للوصول الى نتائج مرغوبة لا ياتي من خارج نفس العالم بل من داخلها . فهو يود لو يستطيع الاعتقاد بان بعض الافعال تؤدي الى المرغوب من النتائج » (٥٨) .

Durkheim, E , Les Formes Elementaires de la Vie Religieuse,
Radcliffe-Brown, A. R , The Andaman Islanders.

(٥٦) انظر على الخصوص

Redfield, op. cit, PP. 48-49 (٥٧)

(٥٨) كيمي : المرجع السابق ذكره ، صفحات ٣٦١ ، ٣٦٢

وهذه أمور تشير الى ان ثمة علاقة قوية بين العلوم الانسانية والانسانيات وتردنا الى ما ذكره ردفيلد عن تصويره للوضع القائم الآن بانه اشبه بالمادة التي تجمع بين مختلف المعارف والتي نجلس فيها العلوم الانسانية بين العلوم الطبيعية من جهة والانسانيات من جهة اخرى . فجزء كبير من المعلومات والحقائق والقوائم والأفكار التي تتردد في الكتابات الاجتماعية والانثروبولوجية وغيرها تصادفها في كتابات الفلاسفة والادباء ، بل ان الأعمال الفنية ذاتها تعبر في كثير من الأحيان عن الاهتمامات والاتجاهات السياسية والدينية والاقتصادية والقيم الاجتماعية وكلها أمور تدخل في نطاق العلوم الانسانية . وليس المهم - كما يقول ردفيلدان يقال ان الفلاسفة يستمدون إرادهم وأفكارهم ومعلوماتهم من الكتب بينما يستمدونها الاجتماعيون والانثربولوجيون من واقع الحياة ، انما المهم هو ان الاثنين يهتمان بالحالات الذهنية وانساق القيم عند البشر ، صحيح ان هناك اختلافات بين الانسانيات والعلوم الانسانية ، وهي تتركز في الاغلب في ان الانسانيات تهتم بوجه خاص بإبداعات الخيلة الخالقة التي تصدر عن الافراد نتيجة لجهودهم الخاص الواعي ، بينما تهتم العلوم الانسانية بالنظم التي تظهر تلقائيا خلال الزمن والتي لا يرتبط وجودها وبقيائها بالفرد من حيث هو فرد ، وصحيح ايضا ان الفلاسفة يعطون من الاهتمام والانتباه للمذاهب الفكرية مالا نجاهه عند معظم المشتغلين بالعلوم الانسانية وهكذا ، ولكن الخط الفاصل بين الانسانيات والعلوم الانسانية ليس قاطعا تماما ، فهناك من بين علماء الانثربولوجيا مثلا من يهتم اهتماما بالغا بالعناصر الجمالية عند البدائيين - مثلما فعلت روث بنزل Ruth Bunzel بدراساتها للانماط الجمالية عند صانعي الفخار عند هنود البويبلو ، وما فعل بول بوهنان Paul Bohannan في دراساته للفن الافريقي - ومنهم من يهتم بدراسة الفلسفة البدائية مثل بول رادين Paul Radin الذي أعطى كثيرا من الاهتمام لانماط التفكير عند بعض قبائل الهنود الحمر وفكرهم عن الكون ومركز الانسان فيه ، وضمن كثيرا من النتائج التي وصل اليها في كتابه عن « الرجل البدائي كلفيلسوف » Primitive Man as Philosopher . وهناك ايضا من علماء الاجتماع وبخاصة من الفرنسيين يعالج في كتاباته مشاكل الفلسفة من زاوية سوسيولوجية مثل جورج جيرفتش G. Gurvitch . والواقع ان كتابات علماء الاجتماع الفرنسيين اقرب في طابعها العام الى الكتابات الفلسفية المجردة منها الى الكتابات السوسيولوجية التي تصدر عن علماء الاجتماع الأمريكيين أو البريطانيين (٥٩) كما ان هناك من علماء الاقتصاد ايضا من يكتبون بطريقة اقرب الى كتابات الفلاسفة كما هو الحال في كتابات هارولد أبنيس Harold Innis . وهكذا . ولكننا نجد من الناحية الاخرى ان علم النفس وهو احد العلوم الانسانية - الى حد ما على الاقل - يعطى الاولوية في دراسته للفرد كفرد بعكس الحال في بقية العلوم الانسانية الاخرى التي تهتم في المحل الاول بالناحية الجماعية في حياة الانسان وبذلك يكون اقرب في هذه الناحية بالذات الى الانسانيات . وهذا كله علاوة على الاتجاهات الحديثة في الانثربولوجيا (التي اخذت تعنى عناية فائقة بدراسة الشخصية وعلاقتها بالثقافة بحيث

(٥٩) اهتم كثير من علماء الاجتماع الفرنسيين بتبيين المسائل المشتركة بين الفلسفة وعلوم الاجتماع - ومن الكتب الهامة في ذلك كتاب دوركايم عن « الفلسفة وعلم الاجتماع Philosophie et Sociologie » رغم صغر حجمه وقد ترجم حديثا الى العربية بعنوان « فلسفة واجتماع » . كذلك يمكن للقارئ ان يجد عرضا وافيا وعميقا لبعض هذه المسائل المشتركة في الكتاب القيم الذي اصدره الدكتور فياري محمد اسماعيل عن « علم الاجتماع والفلسفة » (الدار القومية للطباعة والنشر - الاسكندرية) وهو يقع في ثلاثة اجزاء هائل فيها مسائل المنطق والمعرفة والاخلاق .

أصبحت مدرسة الثقافة والشخصية Culture and Personality من أقوى وأهم المدارس الأنثروبولوجية الآن (٦٠) .

فهنالك إذن أرض مشتركة بين العلوم الإنسانية والإنسانيات ، وإن كان هناك في الوقت نفسه ميل واضح للتفاضي عن وجودها وأفعال شأنها جريا وراء التشبه بالعلوم الطبيعية ، أو على الأصح نتيجة للتشبه بما يسميه هايك Hayek بالنزعة التعاليم Scientism (٦١) . وهو اتجاه فيه كثير من الخطر على العلوم الإنسانية لأنه يقوم على التقليد الأعمى لمنهج العلم ولفته ، مع إغفال طبيعة العلوم الإنسانية ذاتها ومتطلباتها ، والإحساس بهذا الخطر هو من أكبر الدوافع التي تحفز العلماء الشبان الآن إلى إعادة النظر في موقف العلوم الإنسانية وعلم الاجتماع بالذات وصلتها بالعلوم الطبيعية من ناحية والإنسانيات من ناحية أخرى ، كما أنه هو السبب المباشر في محاولة التقريب بين العلوم الإنسانية والإنسانيات بعد أن طال انفصلهما واقتربهما . ولقد انتبه كثير من العلماء البريطانيين فجأة - كما يصح من النوم بفتة - إلى أن العلوم الإنسانية والإنسانيات تفرقت من أصل واحد يرجع إلى دراسة الثقافة الكلاسيكية ، وتنبه كثير من العلماء في ألمانيا فجأة أيضا إلى أن العلوم الإنسانية والإنسانيات تنتمي إلى شيء واحد يطلقون عليه كلمة Gristwissenschaften ، وأنه خلق بهم لذلك أن يكتشفوا من جديد تلك العلاقات التي طال إغفالها أو تجاهلها . وكان السؤال التقليدي الذي يواجههم هنا أيضا هو ما الشيء المشترك بين العلوم الإنسانية والإنسانيات ؟ ثم ما الذي تستطيع العلوم الإنسانية أن تأخذه من الإنسانيات في المرحلة الراهنة من تطورها وبعد أن ارتبطت بالعلوم الطبيعية ارتباطا قويا لا سبيل إلى إنكاره ؟

والجواب على هذا السؤال يبدو سهلا في نظر بعض العلماء الذين تعرضوا لهذه المشكلة . فهم يرون بكل بساطة أن الشيء المشترك بينهما هو « الإنسانية » ذاتها . وكما يقول ردفيلد في ذلك : أن الإنسانية تعتبر عاملا مشتركا بين الدين « ينظرون » إلى الإنسان كما يظهر في الكتابات الأدبية والأعمال الفنية « أي المشتغلين بالإنسانيات » والدين « يدرسون » الإنسان كما يتبدى في النظم الاجتماعية والأنماط السلوكية الظاهرة أمامهم . فالإنسانية هي الموضوع المركزي الذي تدور حوله اهتمامات المشتغلين بالعلوم الإنسانية والإنسانيات على السواء (٦٢) . ولو أميد توزيع الدراسات الأكاديمية من جديد حسب موضوعاتها وليس تبعا للمناهج التي تستخدمها في الدراسة والبحث لوضعت العلوم الإنسانية مع الإنسانيات في مجموعة واحدة متميزة عن بقية المعارف والعلوم الأخرى ، لأنه مهما قيل من أن العلوم البيولوجية ، مثلا تدرس الإنسان فإن « إنسانية » الإنسان ليست هي موضوع اهتمام هذه العلوم البيولوجية فضلا عن العلوم الطبيعية ، بينما هي

(٦٠) . Redifeld; op- cit., PP. 50-51

(٦١) « أورد هايك آراؤه عما يسميه بالنزعة التعاليم في مقال طويل ظهر في أول الأمر على ثلاث دفعات في مجلة Economica (المجموعة الجديدة في الأعداد ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤) ثم جمع الأجزاء الثلاثة معا ونشرها في كتاب بعنوان « النزعة التعاليم ودراسة المجتمع » Hayek, F A Von; Scientism and the Study of Society »

(٦٢) وحتى في الحالات التي تعالج فيها العلوم الإنسانية موضوعات تبدو بعيدة تماما عن مجالات اهتمامات الإنسانية مثل الدراسات الديموجرافية التي تعتمد اعتمادا يكاد يكون كلياً على المناهج الإحصائية بحيث يبدو البشر كما لو كانوا مجرد أعداد وإرقام فإن مشكلات هؤلاء البشر تفرض نفسها بشكل أو بآخر على الباحثين ، ولا بد من أن تؤخذ هذه المشكلات في الاعتبار على أساس أن ذلك يساعد على فهم أساليب وطرق الحياة والسلوك .

الموضوع الأساسي للعلوم الإنسانية^(١٦) . وهذه اقوال غامضة وغير محددة ، لان كل ما تعنيه في الواقع هو ان المشتغلين بالعلوم الإنسانية يمكنهم ان يجدوا في فنون وآداب وفلسفات العالم مصادر غنية لدراسة الانسان والمجتمع وان الاستعانة بها تؤدي الى فهم اعمق وافضل للمشكلات التي يعالجها هؤلاء العلماء^(١٧) . وهذا يصدق ايضا على موقف الادباء والفلاسفة ورجال الفن من العلوم الإنسانية وضرورة العمل على استيعاب نظرتها الى الانسان والمجتمع والاستعانة بالنتائج التي تصل اليها هذه العلوم في كتاباتهم واعمالهم الادبية او الفلسفية او الفنية .

ومهما يكن من شيء ، فالواضح ان العلوم الإنسانية — ربما باستثناء الاقتصاد — لا تزال تتخبط حتى الآن بين الفلسفات التقليدية التي تدور حول الطبيعة الإنسانية والرغبة في قيام علم طبيعي للسلوك البشري تحت أسماء مختلفة . فعلى الرغم من كل ما يذل في سبيل تطبيق منهج العلوم الطبيعية على العلوم الإنسانية فان هذا الانحياز يلقى الكثير من المعارضة ، ليس فقط نتيجة للصعوبات التي يلاقها العلماء في تطبيق هذه المناهج في دراسة الظواهر الاجتماعية والإنسانية ، بل وايضا كرد فعل للنتائج التي ترتبت على المفالة في محاولة تطبيق هذه المناهج واغفال طبيعة هذه الظواهر . وقد اخذ الاتجاه الذي سيطر على الدراسات السوسولوجية بالذات منذ اوجست كونت — والذي بمقتضاه كان ينظر الى علم الاجتماع على انه علم طبيعي — في الانحسار . وهذا هو ما يحدث ايضا فيما يتعلق بالنظرة التي سادت ردحا طويلا من الزمن في الابحاث الانثروبولوجية والتي كانت تعتبر النسق الاجتماعي نسقا طبيعيا . فالعلوم الإنسانية لم تسقط تماما الفلسفة التقليدية عن الطبيعة الإنسانية كما انها لم تتقبل تماما وجهة النظر العلمية . ولا يزال الانحيازان يعيشان جنباً الى جنب ويصارع احدهما الآخر^(١٨) . وليس هذا مجرد اختلاف ا카데미ي ، اذ يترتب عليه في الواقع نتائج عملية هائلة تتصل بموقف الانسان من الحياة ذاتها . انه يقول آخر اختلاف متصل بمسألة الحرية الإنسانية من ناحية او خضوع الفرد لعوامل خارجية تتحكم فيه وفي سلوكه ، كما انه يتصل بالنظم السياسية ونظم الحكم ذاتها . ومن هنا نجد ان الازمة الراهنة التي تمر بها العلوم الإنسانية الآن والتي تبدو في ظاهرها أزمة خاصة بالمناهج لها في حقيقة الامر ابعاد ايدولوجية ، كما انها متأثرة الى حد كبير بالازمة الناشئة بين نظم الحكم المختلفة ، نظرا لما لهدله النظم من صلة وثيقة بطبيعة السلوك الانساني . وسوف يظل هذا الاختلاف على المناهج وعلى طبيعة العلوم الإنسانية ومدى ارتباطها بالعلوم الطبيعية والإنسانية قائما ومحتدا طالما كان هناك خلاف في الرأي حول طبيعة السلوك الانساني نفسه . ولكن هذا موضوع آخر جدير بدراسة مستقلة .

(١٦) P. 47 , kedfield, op cit . وقد ذهبت دوث بنديكت Ruth B. Benedict الى ان طبيعة المشكلات التي يعالجها المشتغلون بالإنسانيات والادب منهم بصفة خاصة قريبة في اعاليلها الى موضوعات الانثروبولوجيا ، بل انها للعب في ذلك الى حد القول بان الادب اقرب من بقية العلوم الإنسانية الى الانثروبولوجيا في هذا الصدد ، وبناء على ذلك فان الانثروبولوجيا اقرب الى الإنسانية منها الى الاجتماع او علم النفس او الاقتصاد . على الرغم من انها كلها تندرج تحت عنوان العلوم الإنسانية ، انظر في ذلك مقالها عن الانثروبولوجيا والإنسانيات، *Anthropology and the Humanities*, American Anthropologist, Dec. 1948; P. 585.

وربما كان السبب في ذلك هو ان الانثروبولوجي يعتبر « الإنسان » وبخاصة في المجتمع انكلي الصغير هو موضوع الانثروبولوجيا . ويساعد المنهج الذي يتبعه الانثروبولوجيون في ابحاثهم على ذلك التناوب ، فهو منهج يعتمد على الملاحظة المباشرة وعلى المشاركة في نشاط المجتمع ليعبر اكبر قدر ممكن من المعلومات والخصائص والواقع من الناس في شتى نواحي حياتهم مما يؤدي الى قيام علاقات قوية بين الباحث وموضوع بحثه وهم سكان ذلك المجتمع .

(١٧) (١٦) الواقع ان هذا يحدث فعلا في بعض الدراسات السوسولوجية والانثروبولوجية وبخاصة تلك التي يقوم بها باحثون اجانب في بعض المجتمعات ذات الثقافة الريقية ، كتلك الدراسات التي يقوم بها المستشرقون بوجه خاص وبعض الانثروبولوجيين البريطانيين في الصين والهند ، اذ يحتاج الامر منهم الى دراسة ثقافة ذلك المجتمع بما فيها اللغة والادب والفن وما إليها للوصول الى فهم اعمق للنظم الاجتماعية السائدة في تلك المجتمعات .

- Brecher, R. & E., **An Analysis of Human Sexual Response**, Andre Deutsch, London, 1967.
- Brinton, C. ; **The Shaping of Modern Thought**, Prentice-Hall, N. J. ; 1963.
- Eysenck, H. J. ; **Sense and Nonsense in Psychology**, Pelican, 1966.
- Fortes, M., (ed) **Social Structure**, Oxford U. P. 1949.
- Kroeber, A. (ed) ; **Anthropology Today**, Chicago U.P. 1960.
- Masters, W. H. & Johnson, V. E. ; **Human Sexual Response**, Little-Brown & Co., Boston 1966.
- Nelson, W. R. (ed) ; **The Politics of Science**, Oxford University Press, N. Y. 1968.
- Redfield, R. ; **Human Nature and the Study of Society**, Chicago University Press, 1962.
- Skinner, B. F. ; **Science and Human Behavior**, The Free Press, N.Y. 1953.
- Stein M. and Vidich, A. I. (eds) ; **Sociology on Trial**, Prentice-Hall, N. J. 1963.

آفاق المعرفة

العلاقات بين العلماء في العصر العباسي دراسة عن القرن

الثاني

ودعته طه النخيم

والثالث

والرابع

للهجرة

تمهيد :

لقد طالما خطر لي وأنا أنظر في كتب أبي عثمان الجاحظ ، وفي تلك المحاورات والمناقشات التي ينقلها أو يختلقها قلমে البارع ، عن المتكلمين والنحويين والمؤدبين وأصحاب الحفلات والرواة . . الخ ، جملة من التساؤلات التي لا أرتاب في أن كل باحث يجعلها في ذهنه وهو يعيش مع أبي عثمان في حربه وسلمه مع أصحاب الفرق والأدباء والكتّاب في مجالسهم وحلقاتهم وبيوتهم ، لاسيما أن عصره عصر نشط فيه التأليف واحتدم فيه الجدل بين أصحاب المذاهب في شتى اتجاهاتهم . ولم

يكن الجاحظ في نقله لهذه الصور الحية عن الواقع إلا فاتحاً لطريق سلكها من بعده جملة من الكتّاب في تسجيل النشاط العلمي لعلماء عصرهم وكان من أبرزهم في القرن الرابع الهجري أبو حيان التوحيدى الذي كان هو نفسه ناسخاً ووراثاً كما كان علماً جليلاً .

ومما يضاف أهمية هذه المادة التي ينقلها كل من هذين الكتّابين انهما كانا متصلين اتصالاً جياً وشخصياً بأكثر ما كان يدور في عصرهما من تلك النشاطات ، وهما شاهداً عياناً لما يرويان أن لم يكونا من ذوي المشاركة الفعلية فيها . ومن هنا

• الدكتور ودعة طه النخيم استاذة الأدب العربي بجامعة الكويت . كانت استاذة مساعدة للأدب العربي بجامعة بغداد . لها بحوث منشورة في المجالات العلمية في العراق وسوريا ومن أهم مؤلفاتها : الجاحظ والضاخرة العباسية (١٩٦٥) .

تثير كتابتهما جملة من المسائل في ذهن القارئ ،
ابرزها :

تري كيف كان العلماء يعيشون في عصر نشاط
العلم والثقافة ؟ كيف كانت منزلتهم في مجتمعاتهم
وكيف كانت علاقاتهم ببعضهم ببعض وبأولئك
الذين اتصلوا بهم خارج دائرتهم ؟ وما هي العوامل
التي تحكم في مناقشاتهم ومناظراتهم وتنافسهم
الشخصي ؟ وما هي الامور التي تعمل في الخفاء
متحركة في تلك الآراء المثبتة في كتبهم ؟

وكان على ، للاجابة على بعض هذه التساؤلات
ان ابحت عما خلف الظاهر من علاقات خفية بين
العلماء ، علاقات قد تخرج من حد المجاملة الى
المصارحة ، ومن حد المصارحة الى المناقشة ،
ومن حد المناقشة الى المهاترة . فما هي المواقف
التي يتخذها العلماء - بصفتهم الفردية او الطبقية
تجاه هذه العوامل ؟

واخيرا وجدت الامر يستحق الوقوف عنده ،
ومحاولة الكتابة فيه مستعينة عليه بدراسة شيء
من حياة العلماء ومحاولة استكشاف الدوافع
الحقيقية للمواقف التي يتخلوفا . وقد كشف
البحث من حقائق طريفة تنصل بالنشاط العلمي
عند المسلمين في عصر التكوين العلمي ، هو كل
من القرن الثاني والثالث والرابع للهجرة .

والفصل - اوله وآخره - لن نيه على هذه
العلاقات اولا باول حينما خصها بالذكر اجمالا
وتفصيلا في اكثر ما كتب والف ... ذلك هو ابو
عثمان الحافظ .

فاذا وفقت للصواب فيما اذهب اليه في بحثي
هذا ، فذاك لانه انار لي الطريق ، واذا اخطأتني
الحظ فلاني لم اعرف كيف اهتدي به .

ومن غن انه ينقن كل شيء فقد خلقه عقله
وخائته بصيرته (وينبغي لاهله ان يداووه) - كما
يقول ابو عثمان - .

من هم العلماء الذين نعى بهم في دراستنا هذه ؟
ان العصر الذي ندرسه هو الذي يملى علينا
تحديد مفهوم هذه الطبقة ، اذ يجب ان نحترز

من المفاهيم الحديثة التي نعلمها في اذهاننا .
فالعصر الذي ندرسه هو عصر نشاط العلوم
الاسلامية في جميع مظاهرها النظرية والعملية .
ولعل اهم ما يميز هذا النشاط العلمي تشعبه
واتساع نطاقه وان كان ينطلق مبدئيا في ادواره
الاولى من الدراسات الدينية فالعلوم العقلية
واللغوية والفقهية تتفرع من دراسات القرآن ، وما
تلبشان يتسعين نطاقها وتعمق شعبيها فيفتح فيها
التخصص بمرور الزمن . فلم الكلام ينشأ عن
مشكلات ومسائل تتصل بالدين اول الامر ،
والدراسات اللغوية تنشأ متصلة بالقرآن ، والفقه
والنشرع ينبع من القرآن ، وهكذا شان كل نشاط
علمي او غير علمي يقوم في مجتمع يرتبط فيه الدين
بحياة الناس وابقى الروابط ..

فالعلماء في هذا البحث هم المتكلمون والفقهاء
والنحويون والفسيرون ونقلة الادب ودارسوه
والمؤرخون .. بنض النظر عما ينظرون فيه او
يختصون به دون سواه .. لكنني اخرجت
الشعراء من جملة العلماء الا اذا كانت للشاعر
عناية علمية خاصة دون الشعر .

فالعالم بمفهومه العام - هو من يبحث عن
الحقيقة - آية حقيقة بوسيلة من الوسائل
الموضوعية . وهذا وحده كاف لكي يبعد الشعراء
من دائرة العلماء . لكن هذا التعريف لا يخرج
الادباء ومؤرخي الادب واللغويين . فهؤلاء جميعا
على اختلاف مناهجهم ووسائلهم - يتفقون في
صفة واحدة هي انهم يطلبون الحقيقة الموضوعية .

فما هي الصفات التي يجب ان تتوفر في العالم
- كما يرتئها هذا العصر الذي نحن بصيده ؟
وما هي الصفات المكونة للشخصية العلمية ؟

قد يصعب علينا ان نحكم على الشخصية
العلمية ، وان نرسم حدودها في عصر لم تستكمل
فيه المناهج العلمية نظاما ، بل كانت لا تزال
تمر في دور تكونها . ولذلك ساحاول تتبع الصفات
التي يفضلها هذا العصر عن طريق استقراءها من
اخبار الشخصيات العلمية نفسها . فقد تعادح
العلماء وتدايسوا وتفاضلوا وتمايسوا واختلعت
الاحكام في شخصياتهم كما اختلفوا هم انفسهم
فيما بينهم ، نتيجة تشعب المذاهب وتفرق الناس
بينها . ولن ندخل في مناقشة ما ذهب اليه
اصحاب المذاهب في العيب على خصومهم ، لكن
الخصومة نفسها قد تقودنا الى ما كان يلزم به
من خلق علمي .

صغير ، وإن كل كثير فأنما هو قليل جمع إلى قليل » (٢) ويدعو أن مثله لم يكتب بذلك بل نسيه إلى كل مذهب كتب فيه أو بحثه ، على تناقض الاتهام ، ولذلك قال الجاحظ : « وعبت معارضة الزيدية وتفضيلي الاعتزال على كل نقطة ... » وهذا مناقض القول الأول زعمتاني قد خرجت بذلك من حشد المعتزلة إلى حشد الزيدية (٣) . ويرد الجاحظ على عائله قائلا « وأنت تسمعي أقول في أول كتابي قالت الشامية والضاربة كما سمعتني أقول قالت الرافضة والزيدية » فحكمت علي بالنصب لحكايتي قول الشامية ، فحلا حكمت علي بالتشجيع لحكايتي قول الرافضة ، وهلا كنت منك من الغالية لحكايتي حجج الغالية (٤) فالجاحظ - في ظن نفسه - يعرض حجج المذاهب المختلفة عرضا تقريريا دون أن يكون تعبيرا عن وجهة نظره هو . فهو يتجرد للوضوع من ميوله واتجاهاته ، وهذا ما نسميه في عصرنا بالوضوعية ، وهي صفة مهمة من صفات العالم . ولكن يبدو أن هذه الصفة العلمية لم تتضح معالمها بعد في القرن الثالث الهجري ولذلك لقي الجاحظ بسببها هجوما شديدا . وما دنا في معرض الحديث عن الجاحظ ، فقد وجهت إليه مطاعن أخرى تتصل بالطريقة العلمية ، أهمها - في نظري - أنه سلخ معاني كتاب الحيوان من كتاب الحيوان لارسطوطاليس وهذا الاتهام الخطير - ينفي النظر عن مدى صحته - بحمل دليلا على أن الكتاب في أي موضوع من الموضوعات عليه أن يشير بصراحة إلى من سبقه في الكتابة في موضوعه ، وأن من تمام الشخصية العلمية نسبة العلم إلى مصادره . وفي هذا المعنى يقول الأصمعي « من حق من يقسك علما أن ترويه عنه » (٥)

ثم يترجع صدى هذه القولة بعد قرون عند السيوطي فيفرد بابا في (آداب القوى) ويجعل بين فصوله فصلا بعنوان (عزو العلم إلى قائله) ، يقول فيه ومن ذلك العلم وشكره عزوه إلى قائله وباني بأمله على ذلك .

ومن الجدير بالذكر هنا ، أن الموضوعات التي كتب فيها المؤلفون المسلمون ربما انتقلت من جيل إلى جيل ، وأعيد التأليف فيها أكثر من

لهذا ابن قتيبة الدينوري (من علماء القرن الثالث الهجري) في خصوصته مع الجاحظ يأخذ عليه جملة أمور . ولسنأ في معرض مناقشة مدى صدق ابن قتيبة أو كذبه على الجاحظ ، لأن ابن قتيبة يذهب مذهبا مخالفا لمذهب المعتزلة الذي عرف به الجاحظ . لكن يهتما معا بعرضه ابن قتيبة الصورة التي يراها للشخصية العلمية ، وهي في رأيه منتفية عن الجاحظ بأسباب أهمها .

أن الجاحظ - وهو من المتكلمين - كان من « أحسنهم للحجة استشارة وأشدهم تلطفا لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء وتقيضه .

لعل هذه الانفعالات من ابن قتيبة - وهي التفاته طريفة - تذكرنا بما وصف به السفسطانيون اليونانيون الذين كان الجاحظ يتمتع بتسطوافر من قابلياتهم على إقامة الحجة وتفضيها في نفس واحد .

ونستنتج مما يذهب إليه ابن قتيبة أن وضوح المذهب ، دون التلاعب بالحجة لإقامة الشيء وتقيضه ، صفة علمية يجب أن يلتزم العالم بها . فكيف ينظر الجاحظ نفسه إلى هذه الصفة هل يوجهها توجيها آخر ، هل يعلها أو يبررها .

بأينا الجواب على هذا في أول كتاب الحيوان الذي ألفه الجاحظ وهو واعي أن هناك من سيعيب عليه طريقته في عرض الحجج المتناقضة ، فينظر إلى الموضوع من وجه آخر . وبعد أن يعدد جملة من العيوب التي أدخلت على مؤلفاته ورسائله ويرد عليها ، يعضي قائلا :

« وميتنى برسالي الهاشميات واحتجاجي فيها واستقصائي معانيها وتصويري لها في أحسن صورة وأظاهري لها في أتم حلية . وزعمت أني قد خرجت بذلك من حشد المعتزلة إلى حشد الزيدية ومن حشد الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه إلى حشد السرف والأفراط فيه . وزعمت أن مقالة الزيدية خطية مقالة الرافضة وأن مقالة الرافضة خطية مقالة الغالية ، وزعمت أن أصل القضية والذي جرت عليه العادة أن كل كبير فالوله

- (٢) الحيوان ج ١ ، ص ٧ - ١٢ .
(٣) الفرق بين الفرق ، ص ١٦٣ .
(٤) القهر ص ٢ ، ص ٢١٩ .

- (١) تاليل مختلف الحديث ص ٧١ - ٧٣ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) معجم الأدباء ، ج ١ ص ٨١ .

قواعد نظرية حاولوا تطبيقها على أمثلة من العلماء المتقدمين بعد أن تعارف عليها المتأخرون . وقد شرحها السيوطي مفصلاً في (الزهر) . (٨) .

ومع ذلك هناك شبه اتفاق - عبر العصور - حول صفات معينة للشخصية العلمية أو لمن يحمل العلم . فمن أهم صفات العالم ، فضلاً عن أنشبت ودقة النظر والتعمق وصفاء الفكر وحسن الاستنباط . . . الخ ، أن يعرف ابن يفسح علمه وكيف يفيد منه . فبعض العلماء قد ينقصه حسن التصرف لذلك فهو رغم فزارة علمه لا يدرى كيف يقدم مادته العلمية ، فينقرط عقد علمه بسبب ضعف منكم . ومن عيب عليه هذا ، أبو عبيدة معمر بن المثنى الرواية المعروف . فقد قيل من مجلسه أنك إذا آتيت مجلسه اشتريت الدر في سوق البعر ، أي أنه رغم سعة علمه لا يعرف أسلوباً مناسباً يقدمه به . وقد قُتل أن علمه بالكتب على سمته كان نظرياً ، ولم يعتن بالجانب التطبيقي لهذا العلم . وقد روت أكثر المصادر عنه وعن الأصمعي نادرة تروى بلسان الأصمعي - وهو خصم أبي عبيدة ومنابيه الشديد في علمه - . يقول الأصمعي :

حضرت أنا وأبو عبيدة هند الفضل بن الربيع فقال ، كم كتاب في الخيل ، فقلت مجلد واحد فقال أبا عبيدة من كتابه فقال ، خمسون مجلداً . فقال له ، قم إلى هذا الفرس وأمسك عضواً منه وسمه . فقال ، لست نيطاراً ، وإنما هذا شيء أخذته من العرب . فقال ، قم يا أصمعي وأقبل ذلك ، فقمتم وأمسكت ناصيته ووجعلت أذكر عضواً عضواً وأضع يدي عليه وأنشد ما قاله العرب إلى أن بلغت حافره . فقال ، خذ فأخذت الفرس ، فكنت إذا أردت أن أقيطه بركبته وأيته . . (٩)

وليس بمستبعد أن تكون العصبية ضد أبي عبيدة هي التي أثارت هذا الاختلاق من مكانته وحفزت عليه ، ولعل شيوع المناظرات بين الخصوم كان من حوافز هذا الوضع على سذاجة الرواية المارة الذكر . إلا أن دلالتها أهم لدينا من مدى

مرة ؟ بل ربما أطلق على مؤلفات تطرق موضوعات معينة العناوين نفسها أيضاً . لكن الأمانة العلمية تقضى بالاعتراف بفضل المتقدم على المتأخر مهما كانت منزلة المتقدم ، ما دام قد سبق إلى هذا الموضوع وإلى التسمية . ومن طريف ما وجدته كاتب من كتاب القرن الرابع الهجري في هذا الصدد - هو الحسن التتوخي - حينما علم على تأليف كتابه (الفرج بعد الشدة) أن كتاباً آخرين قد سبقوه إلى التأليف في هذا الموضوع ، وإلى استعمال العنوان نفسه ، لكنهم تجاهلوا فضل السابق عليهم ، والتتوخي لا يدرى كيف حدث مثل هذا الأمر ، حمداً أو سهواً ، يقول : وقرأت أيضاً كتاباً للقاضي أبي الحسين عمر بن القاضي أبي عمرو محمد بن يوسف القاضي رحيم الله في مقدار خمسين ورقة قد سماه - كتاب الفرج بعد الشدة - أودعه أكثر ما رواه المدائني وجمعه وأضاف إليه أخباراً آخر أكثرها حسنة وفيها ما هو غير مماثل مندى لما عنده ولا مشاكل كما نعه ، وأتى في أثنائها بابيات شعر يسيرة ، من مبادئ لامثاليها جملة كثيرة . ولم يلم بما أوردته ابن أبي الدنيا ولا أعلم تعتمد ذلك أم لم يقف على الكتاب ووجدت أبا بكر بن أبي الدنيا والقاضي أبي الحسين لم يذكرا للمدائني كتاباً في هذا المعنى فإن لم يكونا مرفا هذا فهو طريف ، وإن كانا نعما ترك ذكره تقيفاً لكتائيهما وتغطية على كتاب الرجل فهو اطرف . (٧)

ووجه الطيرافة فيما يقوله التتوخي أن ما فعله هذان المؤلفان لا يستقيم مع المعايير العلمية والأمانة التي يجب أن يتصف بها العالم . لكن يبدو أن المآخذ التي رآها المتأخرون على المتقدمين من العلماء المسلمين كانت نتيجة لتوصل المتأخرين إلى مرحلة من التفسوج العلمي بحيث انضمت لديهم قواعد المنهج وتجددت أصوله وصار تطبيقها التزاماً ، على حين كانت متفاوتة الأثر وغير ملزمة في الطور الأول من تكونها . فمتاهج المتقدمين تتفاوت بين الدقة المتناهية والأهمال التام في تطبيق القواعد التي تضمنت حدودها هذ المتأخرين فلا يصح أن تؤخذ دائماً مقياساً للأمانة العلمية أو علمها . . ومع ذلك وضع المتأخرون

(٧) الفرج بعد الشدة ص ٧ .

(٨) الزهر ، ج ٢ ص ٢٠٢ - ٢٢٨ . وانظر البحث الطريف الذي كتبه فرانز روزنتال . من : مناهج العلماء المسلمين - ترجمة أنيس فريضة - بيروت - ١٩٦١ .

(٩) بقية الموعلة ج ٢ ص ١١٣ ، وباختلاف قليل في اللفاظ : أنباء الرواة ج ٢ ص ٢٠٢ .

والقرب وإن كان بعيداً ، والقدر وإن كان ناقصاً والجود وإن كان بغيلاً والحياء وإن كان صلفاً ، والمهابة وإن كان ضيعاً والسلامة وإن كان سقيماً ومع ذلك فالعلماء آفات وعيوب وأخلاق رديئة يحتاج إلى تجنبها ، منها : الكبر والعجب والانتخار .. ومنها كثرة الخلاف والمنازعة فيه وطلب الرياسة به والتعصب والمداواة والبغضاء فيما بينهم (١٢)

هذا ما يرثيه أخوان الصفا في العلم والعلماء - نظرياً - فكيف كان الشأن في واقع هذا العصر ؟ وهل كان رأيهم منسجماً مع ظروف العلماء أو كان رد فعل لها ؟

لعل الجواب على هذه المسائل يأتيها بلسان رجل خير العلماء وجلس في مجالسهم وشارك في نشاطهم ، بل لقد قيل إنه كان متصلاً بجماعة أخوان الصفا ، ذلك هو أبو حيان التوحيدي ، فلا صعب أن نجد صدقاً لأقوالهم في كتاباته وإن يحاول تطبيق مفاهيمهم العقلية التجريدية على الشخصيات العلمية في عصره . فماذا نجد ؟

لقد سأله الوزير البويهى مراراً أن يصف له عصابة (العلماء) - كما يسميهم - أو يصف له أخلاق العلماء الذين كان أبو حيان - على صلة بهم - وقد جالس أبو حيان هذا الوزير فترة من الزمن ، وكتب يصف مجالستهم له في كتاب (الامتاع والمؤانسة) . فيعرض أبو حيان مجموعة من علماء عصره ، فقهاهم ومتكلميهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم . فنجد نماذج من الشخصيات العلمية تمثل لنا نظرات هذا العصر إلى العلم والعلماء :

يقول أبو حيان في وصف أبي عبد الله الحسين ابن علي ، وهو فقيه ومتكلم انتهت إليه دراسة علم الكلام في هذا العصر . وله كتب في الفقه وفي الكلام ، « كان الرجل ملتهب الخاطر وأوسع اطراف الكلام ، مع غثاثة اللفظ . وكان يرجع إلى قوة مجيبة في التدريس ، وطول نفس في الاملاء ، مع شيق صدر عند لقاء الخصم ومعاركة القرن ، بعيد المهذو بالمصاع والدفاع والوقاع ،

صحتها . وهي أن هناك تفاضلاً في دوائر العلماء بين المعرفة المجردة من التطبيق والمعرفة التطبيقية التي ترتبط بالبحوث العملية . وأن هناك أدراكاً للطريقة التي يستحصل فيها المعارف وتقدم . وقد عيب على بعض العلماء اعتزالهم الناس وبعدهم بعلومهم من الحياة . وللجاحظ ملاحظة طريقة في مدى ما يبلغه أعجاب العالم بما يكون منه يؤدي ذلك الإعجاب إلى الاعتزاز بكل ما يصدر عنه فيستحسن من نفسه ما قد ينبع في عين غيره . وكان الجاحظ عالم نفساني في أصالة ملاحظته إذ يقول : وأعلم أن العاقل أن لم يكن بالمتبع لكثيراً ما يعثر به ما يعثر به من ولده أن يحسن في عينه المتبحر في عين غيره . فليعلم أن لفظه أقرب نسباً منه من ابنه ، وحركته أسمى به رحماً من ولده ، لأن حركته شيء أحلله من نفسه وبدلته ومن عين جوهرة فصلت ومن نفسه كانت ... ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره وفتنته بكلامه وكتبه فوق فتنته بجميع نعمته ... (١٠)

والجاحظ يقرن الحرص على العلم بالحرص على المال ، بل قد يبلغ حرص الإنسان على العلم مبلغاً أشد وأقوى من حرصه على المال ، « لأنه سعي لا حاجة وإيضاع لا لبنة » (١١) .

وحين نتقدم في الزمن إلى القرن الرابع الهجري نجد معالم الشخصية العلمية تتضح في أذهان الفلاسفة ، أو المهتمين بالعلوم أو المباحث النظرية . ومن طريف الصفات التي يرثيها علماء هذا العصر للعالم تلك الصفات التجريدية التي توصل إليها أخوان الصفا عن طريق محاولتهم التوفيق بين الإديان والفلسفات وذلك فالعالم عندهم تجتمع فيه صفات روحانية وعقلية تجعله في مرتبة الأنبياء فاهم ما يشترط توافره في العالم ، خصال سبع هي :

السؤال والصمت ، ثم الاستماع ثم التفكير ثم العمل به ثم طلب الصدق من نفسه ثم كثرة الذكر أنه من نعم الله ، ثم ترك الإعجاب بما يحسنه . والعلم عندهم يكسب صاحبه عشر خصال محمودية : أولها الشرف وإن كان دنياً والمعر وإن كان مهيناً ، والثاني وإن كان فقيراً والقوة وإن كان ضعيفاً والتبذل وإن كان حقيراً

(١٠) الحيوان ج ١ ص ٨٩ .

(١١) رسالة في ثمان السر ، رسائل الجاحظ ج ١ ص ٥٩ .

(١٢) الرسالة التاسعة من رسائل أخوان الصفا مجلد ١ ص ٣٤٧ - ٤٨ .

وكان سبب هذا الجبن والخور قلة الضراوة على هذه الأحوال ، ولقد خزي في مشاهد عظيمة .
وأما يقينه فكان ضعيفا ، وأما سرته فكانت واقفة على حب الرئاسة وبلبل المال والجاه اذا حضرا ، مع تعصب شديد لن قننه واحبه واتحاء مفرط على من عاداه ... (١٣) .

ثم يقول في ابن العلم ، وهو من رؤساء الشيعة الامامية في الفقه والكلام والآراء « وأما ابن العلم فحسن اللسان والجدل ، صبور على الخصم ، كثير الحيلة ظنين السرى » ، جميل العلانية (١٤) .
وأما ابن خيران الشيخ لا يعدو الفقه وفيه سلامة ، وأما الداركي فقد اتخذ الشهادة مكسبة وهو يأكل الدنيا بالدين ... وهو اليوم قارون ، وقد علمت رتبته في الكلام حتى لا مزيد عليها ، الا انه مع ذلك نفل الباطن خبيث الخشب قليل البقين ... (١٥) .

وينسب نقد ابي حيان على اولئك الذين يظهرون غير ما يطمنون ، ويجعلون العلم طريقا لكسب والمنفعة الفردية . ولا يتورع ابو حيان من ذكر ميوب الشيوخ الذين يطمعون ويأخذ من علمهم ، فقد سأل الوزير ذات مرة عن ابي سليمان النجستاني المنطقي ، وهو اشبه باستاذ لابي حيان ، فقال ابو حيان بصغه : « أما شيخنا ابو سليمان فانه اقدمهم نظرا واقهرهم قوصا ، واصفاهم فكرا ، واظفرهم بالمرز ، واوقفهم على الفرز ، مع تقطع في العبارة ، ولكنة ناشئة عن الصحة ، وقلة نظر في الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعريص ، وجراة على تفسير المرز ، وبخل بما عنده من هذا الكثر ... » (١٦) .

أما مسكويه ، المؤرخ المعروف ، وهو من اصحاب ابي حيان ايضا ، « فقير بين اغنياء وهي بين ابناء ، لانه شاد - كما يقول ابو حيان - ،

وأنا اعطيتسه في هذه الأيام (صغفرو الشرح لاسافوجي) و (قاطيغورياس) من تصنيف صديقنا بالري ... وربما شاهد ابا سليمان وليس له فراغ ولكنه محض في هذا الوقت للحسرة التي لحقت به فيما فاته من قبل ... (١٧) .
والسبب في هذا أن مسكويه على ما يبدو لنا من قول ابي حيان لم يحسن اختيار ما يناسبه من العلوم ، ولم ينتهز فرصة نشاط العمر وفراغ البال للتفرغ لها ، « هذا مع تقطيع الوقت في حاجاته الضرورية والشهوية والعمر قصير والسمات طائرة ... » . وقد كان مسكويه خازن كتب ابن العميد ، فتهيأت له فرص الاطلاع لكنه لم يعرف كيف يستغلها ، لذلك يقول فيه ابو حيان ، « ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع ابي الطيب الكيمياء الرازي ، ملوك الهمة في طلبه والحرص على اصانيته مفتونا بكتب ابي زكريا وجابر بن حيان ... » (١٨) .

ولعل التوجيذ يعرض هنا بمسكويه لحرصه على المال ، اذ شاع بين المسلمين في هذه العصور أن طلب الكيمياء يتصل بأسرار صناعة الذهب ويسعى عندهم بعلم الصنعة . وقد انكر بعض فلاسفة المسلمين المعروفين كابن سينا والكندي هذا العلم وردوا على المشتغلين به (١٩) . ومما يؤيد هذا المعنى الذي يوحى به كلام التوحيدى ما يقوله هو ايضا عن مسكويه في موضع آخر : « ولقد قطن ألعامرى (٢٠) الرى خمس سنين جمعة (٢٠) ودرس وأملى وصنف وروى ، فما أخذ مسكويه منه كلمة واحدة ولا وعى مسألة ، حتى كانه بينه وبينه سد » ، ولقد تجرع على هذا التواني الصاب والعلم وغصغص بفمه حنظل الندامة في نفسه ، وسعم بأذنه قوارع اللامة من اصدقائه حين لم ينفع ذلك كله . وبعد فهو ذكي حسن الشعر تقي اللفظ وان بقي فساها يتوسط هذا الحديث . وما ارى ذلك مع كلفه بالكيمياء ،

(١٣) الامتاع والمؤانسة ج ١ ص ١٤٠ .

(١٤) المصدر نفسه ، ص ١٤١ .

(١٥) المصدر نفسه ، ص ١٤١ - ٤٢ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

(١٧) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٢٥ .

(١٨) انظر : كشف القتون مجلد ٢ ص ١٥٢٦ .

(١٩) فيلسوف من التجبرين بالفلسفة اليونانية ، العسل بابن العميد ، وتولى سنة ٢٨٠ هـ .

(٢٠) أي مجموعة .

في حياته ظروف لم تكن كلها مما يمكن التحكم فيه . ولم تكن حياة أبي حيان نفسه بأقل أسي وشقاء ، ولقد أصابهما من ريب الزمان مسا أصابهما . ولقد شقي أبو حيان بعلمه فانتفى بأحراق كتبه تشبها بعلما من الجيل الأول سابقي عليه - كما يقول - وبدلا من أن ينال المحظوة والذلة بعلمه ، كان هذا العلم محببة للتماسة والشؤم ، عرف بهما أبو حيان في حياته .

هذا قد يقودنا إلى السؤال التالي :

ما هي منزلة العلماء ماديا وأديا في العصر الذي نتحدث عنه ، ما هي وسائل كسبهم ؟ كيف كانت منزلتهم في المجتمع ؟ وما هي علاقاتهم بالخلافة العباسية ... ؟

نتأرجح منزلة العلماء في المجتمع الإسلامي الذي ندرسه بين الإجلال لهم والأزراء بهم . ويتحكم في هذه المنزلة أمور ، منها ما يتصل بشخصياتهم ، ومنها ما يتصل بمنزلة علومهم وخلقهم ، أو بمقدار ما لهم من الشهرة أو الخمول .

ولعل أبرز ظاهرة في هذا العصر الذي ندرسه أننا لا تكاد نجد علما مقصورا على جماعة دون غيرها ، فالعلم مشاع لمن يطلبه ، بغض النظر عن العصر أو الأصل أو الطبقة أو الحرفة ، وإن كان العلم وحده لا يكفي لكي يرفع من صاحبه في السلم الاجتماعي ، أو يجمعه مقربا عند الخليفة ، كما سنرى في الأمثلة . فالكسائي يطلب النحو متأخرا ويرتحل ، في طلبه ، من الكوفة إلى البصرة ويجلس في حلقة الخليل بن أحمد (٢٠) . وسبويه كان في أول أمره يطلب الحديث ويأخذه على حماد ابن سلمة ، حتى يعرض به حماد ذات يوم ، لأنه لحن ، فيعزم على دراسة النحو ، « فمضى ولزم مجلس الأختش مع يعقوب الحضرمي والخليل وسائر النحويين » (٢١) . . . ولكرجاجة قصة طريفة في بدء اهتمامه بالنحو ، يقصها هو علينا ، يقول :

« . . كنت أخطو الزجاج ، فاشتبهت التحو فلزمت المبرد لتعلمه ، وكان لا يعلم مجانا ولا

وانفاق زمانه وكذب بدنه وقلبه في خدمة السلطان واحتراقه في البخل بالذائق والقرائط والكسرة والخزقة ، فعوذ بالله من مدح الجود باللسان وإثارة الشح بالفعل ، وتمجيد الكرم بالقول ومفارقه بالعمل ، وهذا هو الشقاء المصوب على هامة من يلي به ، والبلاد المعصوب بناصية من غلب عليه . . . » (٢٢) .

فمسكويه أضاع عمره في طلب أمر لا طائل من وراءه للعقل والمعرفة ، وأولسج به بوزارغ من الحرص والشح . ولقد لاه أبو حيان على حسده لأولئك الذين كانوا ينالون عطاء السلطان إذ كان مسكويه يرى أن هذا المال قد ضاع فيمن لا يستحقه . فردد عليه أبو حيان قائلا « أيها الشيخ أسألك عن شيء واحد وأصدق فإنه لا مدب لكذب بيني وبينك ، ولا هوب لربح التوبة علينا ، لو غلط صاحبك فليك بهذا العطاء وأضاعفه وأضاعف أضاعفه أكنت تتخيله في نفسك مختطبا ومبذرا ومفسدا أو جاهلا بحق المال . . . فاعلم أن الذي يبدد مالك وردد مقالك إنما هو الحسد شيء آخر من جنسه ، فانت تلمي الحكمة وتكلم في الأخلاق ولا تليف منها الزائف وتختار منها المختار ، فافطن لأمرك ، وأطلع على سررك وشرك . . . » (٢٣) .

ومع ذلك فقد خلف لنا مسكويه آثارا جليلة ، منها كتابه المشهور في التاريخ (تجارب الأمم) كما كان حاذقا في فلسفة الأخلاق وله كتاب في (تهذيب الأخلاق) ، وقد كتب مع أبي حيان التوحيدى كتابا هي أسسها المحاورات بينهما ، فضلا عن وصية خلفها بعهاد فيها الله على رياضة النفس ومجاهدتها في مقامها وإن « يف تشجيع ويحكم . . . وعلاوة حكمته : أن يستبصر في اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شيء من العلوم والمعارف الصالحة » (٢٤) . وبدلو روح الزهد واضحة في الوصية . ونفهم أن مسكويه عاش أواخر أيامه في ضنك من العيش إذ يقول منه ياقوت أنه « لم يخل من نواكب الدهر » .

لقد كان هذا هو شأن العالم حينما تحكمت

- (٢١) الانتاع والمؤانسة ج ١ ص ٣٦ ، كذلك يذكر الكيمياء لابن الأثير ، ومن طلب المال بالكيمياء الفخر ، ص ١٢٢ .
(٢٢) مثالب الوزيرين ج ١٨ .
(٢٣) معجم الأدباء ، ج ٥ ص ١٩ .
(٢٤) المصدر نفسه ، ج ١٣ ص ١٦٨ .
(٢٥) مجالس العلماء ص ١٥٤ - ٥٥ المجلس ٦٩ .

منى بجميع ما لديك من الكتب جـوزة ما أعطيتك ... » (٢٨) .

لكن أكثر العلماء الذين كانت لهم حلقات أو مجالس علمية ، كانوا إلى جانب ذلك يمارسون نشاطا تجاريا أو حرفة يكسبون منها عيشهم . قيل عن ثعلب ، وهو من أشهر نحاة الكوفة ، أنه بعد موته « خلف إحدى وعشرين ألف درهم والف دينار ودكاكين باب الشام قيمتها ثلاثة آلاف دينار ، وضاع له قبل أحمد الضريفي ألف دينار . وكان يتجر له بها . » (٢٩) .

ولعل في هذا دلالة على أن العلم لم يكن دائما طريقا للكسب ، وإنما يصبح كذلك بين طبقة المعلمين والمؤدبين ، لا سيما أولئك الذين يتصلون بالخليفة ، وأن كان بعض هؤلاء أنهم يبيعون علمهم أو يخلدون على العلم أجرا . روى عن أبي العيناء - وهو أديب بصرى فصيح اللسان - بعد من الظرفاء - أنه حضر مجلس التوكل فأراد التوكل أن يعيث به ، فاتفقه بلسان ابن سعدان بأنه رافضي . فاندفع أبو العيناء متهجما على ابن سعدان فقال : « ومن ابن سعدان ، والله ما يفرق بين الإمام والمأموم ، والتابع والمتبوع . إنما ذلك حامل درة ومعلم صبية ، وأخذ على كتاب اللعاجة . فقال : لا تفعل لأنه مؤدب المؤيد ، فيقول أبو العيناء ، يا أمير المؤمنين ، أنه لم يؤدبه نحبة وإنما أدبه بأجرة ، فإذا أعطيته حقه فقد قضيت لمامه » (٣٠) .

إننا لا نستطيع أن نرسم صورة ثابتة لطبيعة العلاقة القائمة بين العلماء والسلطان ، لأنها تتفاوت وتضخم فيها ظروف قد لا تتصل بالقياس العلمية أبدا . لكننا نحسن أن بعض العلماء قد أدرك هذا الجانب من التقدير فأنف أن يتقرب بعلمه من ذوى السلطان أو أن تكون منزلته قائمة على غير ما يراه العلماء . روى عن أبي العباس ثعلب قال : « قال لي محمد بن عيسى بحضرة محمد بن عبد الملك ، نحن نقدمك لتقدمه الأمير . فقلت ، يا شيخ - ، أتى لم أعلم

يعلم بأجرة إلا على قدرها . فقال لي ، أي شيء صنعتك ؟ قلت ، أخرت الزجاج وكسبي في كل يوم درهم . ودانقان أو درهم ونصف ، وأريد أن تبلغ في تعليمي وأنا أعطيتك كل يوم درهما وأشرت لك أن أعطيتك أباه أبدا أن لي يفرق الموت بيننا ، استفتيت أو احتجيت إليه (٣١) .

وهذا يشير إلى انعدام الطبقة العلمية - أن صح أن نسميها كذلك - ، فليس العلم وقفا على جماعة معينة بل يناله كل من يرغب أو يظهر قابلية معينة . بنفس النظر من حرفته أو مرحلة عمره أو حتى دينه . وقد شاعت في المجتمع الإسلامي علوم معينة كان يتقنها النصارى دون غيرهم ، كالطب والترجمة .

وتفاوتت علماء هذا العصر في طبيعة كسبهم ، وأكثرهم كانوا يمارسون مهنة أو حرفة من الحرف التي يمارسها الناس في حياتهم المدنية . ولم تقف المادة حالا بين العالم وبين ممارسة نشاطه العلمي . لكن العامة لا تزال في شك من أمر هذه الحقيقة ، فقد شاع عن أهل بغداد من أمثالهم السائرة قولهم (جهل بعولتي خير من علم أهولي) وقولهم (كف بخت خير من كرم علم) . (٣٢) . ولعل إيمان الناس بالبحث دون المجتمع الصناعي لهزات جسيمة لم يعد الناس يأمنون فيها على شيء . أما حملة العلم فقد خبر المتصلون بالخلافة منهم ظروفًا ومصائر لا يمكن دائما التكهّن ، تآرجح بهم بين رفعة وذلة . روى عن الأصمعي - في هذا الصدد - خبر طريف بقول فيه :

« كنت في البصرة أطلب العلم وأنا مقل ، وكان علي بابنا يقال ، إذا خرجت بكرة يقول لي : إلى أين فأقول : إلى فلان يحدث وإذا عبت المساء يقول لي : من أين ؟ فأقول : من عند فلان الإخباري والفقير . فيقول لي هذا أقبل وصيتي ، أنت شاب فلا تضيق نفسك وأطلب معاشا يعود عليك نفعة وأعطني جميع ما عندك من الكتب اطرحها في هذا الدن وأحطب عليها من الماء للشرة أربعة وأنبذه وانظر ما يكون منه . والله أو طلبت

- (٢٦) معجم الأدباء ، ج ١ ، ص ١٢٠ .
(٢٧) القديس ، نقلا عن الثعالب ، الطوائف والقرائف ص ٢١ .
(٢٨) الفرج بعد الغممة ص ٢٢١ .
(٢٩) معجم الأدباء ، ج ٥ ص ١٠٥ - ١٠٦ .
(٣٠) المعصير نفسه ، ج ١ ص ١٥٢ .

الشان . فقد كان الزواج مقرباً من القاسم بن عبيد الله قبل أن يصبح وزيراً للمعتضد . فطلب إليه الزواج أن بعده أنه إذا ما أصبح وزيراً أن يمنحه عشرين ألف دينار . فلما ولي هذا الوزارة بعد أبيه ذكره الزواج بوعده ، فلم يدر كيف يحتال له على المال خوفاً من أن يتكشف الأمر للمعتضد . ففلاها عملاً ليس من اختصاص نحوي أو مؤدب القيام به . إذ قال له القاسم (اجلس للناس وخذ رقاعهم في الحوائج الكبار واستجعل عليها ولا تمتنع من مسألتي شيئاً تخاطب فيه ، صحيحاً كان أو محالاً لي أن يحصل لك مال النذر) ، ففعل ذلك وكان ربما راجع الوزير في الأمر فيقول له هذا أنك غبت وكان يجب أن تأخذ من القوم أكثر فيذهب (وبما كسبهم) فيزبدونه حتى يبلغ الحد الذي رسحه له الوزير . (٣٦) .

ويذهب التطرف باخرين الا قبل فلسا واحدا على علمه . وقد رويت النادرة التالية عن ابراهيم الحربي - وقد مر ذكره قبل قليل - : حدث أبو بكر الشافعي قال قال ابراهيم الحربي ، ما اخذت على علم قط اجرا الا مرة واحدة ، فائتني وقفت علي يقال فوزتني له قيراطا الا فلسا فسألني من مسألة فاجبتة فقال للغلام : اعط بقرطاق ولا تنقصه شيئاً فزادني فلساً . (٣٧) هذا رقم ان مجموعاً ضخماً من الرواة قد اخذوا منه ودرسوا عليه ، منهم موسى بن هرون الحافظ ، وأبو بكر الأنباري النحوي وأبو عمر الزاهد، وخلق كثير غيرهم - كما يقول ياقوت (٣٨) . - فلو كان ابراهيم يأخذ اجرا على علمه لغني بهؤلاء لكنه كان يعيش في حاجة وفقير شديد ، وقد كان يملك ما لا يقل عن اثني عشر ألف جزء من لغة وغريب كتبها بخطه ، ولم يجز على بيع واحد منها في حياته بل كان يفسن بها رغم حاجة اهله الى قوت يومهم .

ومن العلماء الذين ذاقوا طعم الضحك عالم فيلسوف شغل نفسه بالفلسفة اليونانية ، وكان مقدما عند أبي الفتح ابن العميد ، هو ابوسفيان المسجستاني المنطقي ، وقد مر ذكره على لسان

العلميين لتقدمي الامراء وانما تعلمت لتقدمي العلماء (٣٩) . وهذا شبيه بمعنى أبيات ينسب قولها الي علي بن عبد العزيز الجرجاني القافض ، جاء فيها :

ولم اخض حق العلم ان كان كلما
بدا طمغ صغره لي مسلما
ولم ابتدل في خدمة العلم مهجتي
لاخدم من لاقيت لكن لاخدما
اشقى به غرسا واجنبه ذئبة
اذن فابتياح الجهل قد كان احزما
ولو ان اهل العلم مساووه صانهم
ولو عظموه في النفوس تعظما (٣٢)

ومن هؤلاء العلماء من كان يأنف ان يأخذ جائزة من الخليفة أو سواء وكان يعيش في أمس الحاجة المادية . روى عن ابراهيم بن اسحاق الحربي - وهو محدث وعالم درس على احمد ابن حنبل ، وقد عاش في خلافة المعتضد (وتوفي سنة ٢٨٥ هـ) - ان المعتضد ارسل اليه بعشرة آلاف درهم وسأله ان يفرقها بمعرفته ، فرد المال قائلاً للرسول الذي جاء به ، عافاك الله ، هذا مال لم تشغل نفسك بجمعه فلا نشفها بتفريطه . قل لأمر المؤمنين ان تركتنا والا تحولنا من جوارك (٣٣) . وقد قيل صن الخليل بن احمد أنه لم ير أفضل منه « في التلطف عن الكسب بالعلم ، كان الناس يأكلون بعلمه وهو في خصه له . وخرج الى مكة والناس يقولون في الحرمين قال الخليل وذكر الخليل ، ورجع الى البصرة ولم يعلم بمكانه » (٣٤) . وقد ذكر منه أبو حيان خيراً مع والي البصرة سليمان بن علي . وذكره صفة الترفع عن قبول المال على العلم من الوالي (٣٥) .

لكن العلماء يتفاوتون في طبيعة نظرتهم الى الكسب بالعلم ، فمنهم من ظل يعلم بأجرة على علو شأنه ، وقد مر بنا حديث البرد مع الزواج وللزواج نفسه قصة لطيفة تظهر جانباً من منزلة العلماء وعلاقتهم بعصرهم وبالخليفة أو بسلاوي

- (٢٥) مثالب الوزيرين ، ص ١٢٨ - ٥٠ .
(٣٦) منجم الأبداء ، ج ١ ص ١٢٢ .
(٣٧) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١١٩ .
(٣٨) المصدر نفسه ، ص ١١٢ .

- (٣١) المصدر نفسه ، ج ٥ ص ١١٢ .
(٣٢) المصدر نفسه ، ج ١٤ ص ١٧ - ١٨ .
(٣٣) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١١٢ .
(٣٤) معاصرات الأبداء ، ج ١ ص ٣٤ .

وقد كان على هؤلاء العلماء ان يصنوا التصرف في مجلس الخليفة ، وان يمتنعوا ببديهة حاضرة ليمتنعوا بأحاديثهم وأخبارهم وأن يكون لهم - فضلا عن العلم - معرفة بحسن المجالسة فقد اثنى عن الأصمعي قوله (وصلت بالعلم ونلت بالملمح) لأن ما يتطلبه مجلس الخلافة هو غير ما يتطلبه المجلس الملقى القائل على العلم وحده . ويبدو ان العالم يجب ان يراعى آدابا خاصة في حضرة الخليفة ، ومن سها عن هذه الحقيقة لم يجد رضى عند الخليفة على علمه وفضله .

حكى عن الكسائي انه قامت بينه وبين البيهقي مناقشة في حضرة الرشيد ، على بيت من الشعر . فلم يحسن الكسائي الجواب ، وتحمس البيهقي « فغضب بقلنسوته الأرض » وقال أنا أبو محمد ، الشعر صواب ... « مينا الوجه الصحيح من الأجاية . فقال له يحيى بن خالد ، اكتفى بحضرة أمير المؤمنين ، وتكشف عن رأسك ؟ . والله لخطأ الكسائي مع أدبه أحب إلينا من صوابك مع سوء فطك . فقال « لذة الغلبة أنستني من هذا ما أحسن ... » (٤٢) .

ومن العلماء ، على سمة علمه وقدره في المجالس والطلقات الطليعة ، من لم يثل حظوة عند أصحاب السلطان ، لا لقلته علمه لكن لسهوه عن قواعد المجالسة التي يأخذ بها الخلفاء أو الوزراء مجالسهم . ولعل هذا كان من أهم الأسباب التي تكثرت عيش أبي حيان عند الصاحب بن عباد . فقد كان الصاحب - وهو من وزراء البويهيين - على منابته بالعلم والعلماء ، مولعا بالمدح والثناء ، بحيث أن يقال له ذلك في وجهه . فلما قصد أبو حيان أراد أن يعيش في ظله كآداب وعالم له سعة في العلم . لكن أبا حيان لم يعرف طبيعة الصاحب من هذه الجهة ، فلم يجالسه بل كان صريحا معه صراحة أفضيته وأثارت حفيظته عليه ، فحاول بكل ما يستطيع أن يقلل من شأن أبي حيان وأن يظهر احتقاره له . وكان من نتائج تلك الملاقاة تلك الرسالة الغاضبة التي كتبها أبو حيان فيه وفي ابن الصبيد ، وكان قد قصده هو أيضا ولم يفلح عنده . (٤٣)

ولم ينعم أبو حيان بالسعادة الا فترة وجيزة

أبي حيان التوحيدى سابقا ، فقد مرت بأبي سليمان هذا أيام كان لا يجد فيها رغيها يأكله ، فلما سمع بحاله وزير صمصام الدولة أرسل إليه مبلغا من المال بواسطة أبي حيان نفسه ، فنسمع التوحيدى يخاطب الوزير قائلا « والله أيها الوزير ، ما أعرف بفقداد - وهي الرقعة الفسيحة الجامعة والعريضة العريضة الغاصة - أنمانا أشكر لك وأحسن ثناء عليك ، وأذهب في طريق العبودية معك ، منه ... » (٣٩) لم يقول له « فلما وصل إليه ذلك الرسم - وهو مائة دينار - وحاجته ماسة الى رغيه وحوله وقوته قد عجزا عن أجره مسكنه وعن وجه غدائه وعشائه ، عاش » (٣٩) .

لكن هذه الحال لم تكن هي السائدة ، لأن الخلفاء والوزراء كانوا يفسون تحت ظلم جماعة من العلماء يخبون بهم مجالسهم ، فضلا عن المؤدبين الذين استمدوا لتأديب أولادهم . وهم يختارون من جلة العلماء ، بعد أن تعقد لهم مجالس هي أشبه امتحان عام ليختار منهم أحسنهم تصرفا في علمه . قيل « لما أراد التوكل ان يأس بانخاذ المؤدبين للمتصرف والمعتز جصل ذلك الى إيتاخ ، فأمر إيتاخ كاتبه أن يتولى ذلك فبعث الى السطال والأحمر وابن قادم وأحمد بن حبيب ابن ناصح وغيرهم من الإدياء ، فأحضرهم مجلسه ، فجاء أحمد بن عبيد فقمع في آخر الناس ، فقال له من قرب ، لو ارتفعت ؟ فقال ، حيث انتهى بي المجلس . فلما اجتمعوا قال لهم الكاتب ، لو تذاكرتم وفتنا على موضوعكم من العلم فاخترنا ... » (٤٠) .

الا أن علم الرجل لم يكن دائما هو المقياس الأول في تقدير شخصيته وفي رفعة منزلته عند الخليفة . وقد روى بهذه المناسبة خير طريف عن الفراء ، اذ طلب لتأديب المعتصم ، فآزله نحو من شهرين ، ثم ما لبث أن جاء رجل يقال له أبو إياذ فطلب القوم معه ، فسئل لينظر ما مقداره في العربية فقبل له ، كيف تقول يا زيد أقبل ؟ فقال يا زيد أقبل . قيل فما هذه الضمة ؟ فقال أولوا التي في قوله وأقبل . يقول الفراء فارضى وأقمع مع المعتصم فاستغنى ، وأزلت أنا ... وكان يحب بهذا وتصحب منه ويقول : الدنيا لا تأتي على استحقاق (٤١)

(٤٢) معجم الأدياء ، ج ١٢ ص ١٧٨ .

(٤٣) هي رسالة (مثالب الوزراء) .

(٣٩) الإمتاع والمؤانسة ، ج ١ ص ٢٩ ، ص ٢١ .

(٤٠) مجالس العلماء ، ص ٦١ ، مجلس ٢٧ .

(٤١) المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

وحضور البداية . فما يتطلبه مجلس الخليفة أو الوزير قد لا يكون العلم الخالص أو التعمق في النظر ، بقدر ما يتطلب النادرة وحضور الجواب والقبالية على التخلص - بالحق أو بالباطل - . وكتب الأدب القديم تحفل بأمثلة لامتحان العلماء من قبل الخلفاء ، لكن النجاة في هذه المواقف لا يقوم على مقدار العلم أو التعمق فيه ، بل قد يقوم على حسن إدارة المسؤول ومزاج السائل .

فهذا أبو عثمان الجاحظ معتزلي صاحب مذهب في الاعتزال يدافع عنه ويكتب في تفضيله ، يظن من ينظر في علاقته القوية بالمعتزلة أنه قد تورط معهم كما تورطوا في تقريرهم من الخلافة العباسية ، ودخولهم المعتزلة السياسي . فقد تمتعت فرقة المعتزلة بمنزلة ليس بعدها منزلة في خلافة كل من المأمون والمعتصم والواثق ، الذين جعلوا الاعتزال مذهباً رسمياً للخلافة بدلاً من السنة التي جرت عليها الخلافة . وبموت الواثق وتولي المتوكل الخلافة ، تحايه المعتزلة معنتها السياسية ، إذ ما لبث المتوكل أن ضرب على أيديهم ، وأعاد الخلافة إلى السنة . وحينما بقي القبض على محمد بن عبد الملك الزيات وزير الواثق وممثل المعتزلة في البلاط العباسي ، ثم يقتل في التنوير الذي كان يقتل هو فيه خصومه ، يهرب الجاحظ ويختبئ ، وحينما يسأل من ذلك ، يجيب قائلاً : (خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنوير) (٤٦)

يقول الجاحظ هذا وهو في موقف لا أظن أن أحداً يجرؤ فيه على النادرة والسخرية ، وحياته تعرض لخطر حاسم . ولكننا ما لبث حتى نجد أبا عثمان في مجلس أحمد بن أبي دؤاد الأبادي - خصم الزيات - ، يحاوره ويداربه ويحاول أن يتخلص من حرج الموقف بنادرة وحسن تعظم وبديهة عرف بها الجاحظ في كل مجال . ولا تمضي فترة حتى نسبح به بكتب رسائل باسم الخلافة ، ويطلب إليه الفتح بن خاقان وزير المتوكل ، أن يجعل بانتاج رسائلته (في الرد على النصارى) لينال مشاهرتهم ، بل بعده بالدفن مقدماً أن هو فعل ، يقول الفتح في كتابه إلى الجاحظ : « أن أمير المؤمنين - أي المتوكل - يجد بك ، ويهين عند ذكرك ولولا عظمتك في نفسه لعلك ومعرفتك لحال بينك وبين بعدك من مجلسه

من حياته ، يتردد صداها في كتاب (الامتاع والمؤانسة) الذي كتبه مسجلاً فيه اليالي التي نادم فيها ابن سعدان وزير مصمما الدولة في بغداد ، بعد عودته من الصباح وابن العميد . ويبدو أن تجربته مع الجاحظ وابن العميد قد علمته كيف يدارى مجالس الوزراء هذه . ولذلك قال ما يقوم به أبو حيان - في الليلة الأولى من اجتماعه بالوزير ، هو أن يستأذنه باستعمال كاف الخطاب ، لكي يحس بشيء من الحرية في المخاطبة ولا تصد نفسه من الحديث بتكلف الكتابة والانتساب . يقول حاكياً خطابه الوزير وطلبه ذلك إليه :

« كل شيء أريد أن أجاب إليه يكون ناصري على ما يراد مني ، فاني أن منمته تكلم ، وإن تكلمت قلّ إفصاحي عما أطلب به وخفت الكساد وقد طمعت بالنفاق ، وانتقلت بالخيبة وقد عقدت خنصري على المسألة . فقال حرس الله روحه ، قل ، ما فاك الله ، ما بدا لك ، فانت مجاب إليه ما مدت . قلت ، يؤذن لي في كاف المخاطبة وتام الواجبة ، حتى أتخلص من مزاحمة الكتابة ومضايقة التعريض وأركب جدد القول من غير تقيه ولا تحاش ولا معايبة ولا انحياس . قال : لك ذلك وأنت المأذون فيه ، وكذلك غيرك وما في كاف المخاطبة وتام الواجبة ؟ أن الله تعالى - على علو شأنه وبسطه ملكه وقدرته على جميع خلقه - يواجه بالثناء والكاف . ولو كان في الكتابة بالهاء رفعة وجلالة وقدر ورتبة وتقديس وتمجيد لكان الله أحق بذلك ومقدماً فيه . » (٤٤)

لكن هذا من الشاذ على المألوف ، فالوزراء في هذا العصر يطلبون طريقة معينة في المجالسة وتقديم الطاعة ، ويبدو أن أبا حيان نفسه لم يصدق أذنيه حين سمع هذا الكلام ، ولذا نسمعه يخاطب الوزير قائلاً : « أيها الوزير ، قد خالطت أعلماء وخدمت الكبراء وتصفحت أحوال الناس في أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم ، فما سمعت هذا المني من أحد على هذه السياقة الحسنة والحجة الشافية .. » (٤٥)

ومع ذلك يبدو أن قوة الشخصية قد تفرض نفسها على هذه العلاقات أحياناً ، وعماد ذلك - في هذا العصر الذي ندرسه - حسن التخلص

(٤٦) معجم الأدباء ، ج ١٦ ص ٢٦ .

(٤٤) الامتاع والمؤانسة ، ج ١ ص ٢٠ - ٢١ .

(٤٥) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

ولغصبك رايك وتدبيرك فيما أنت مشغول به وتوثر على . وقد كان اقل الي من هذا عنوانه فزدتك في نفسه زيادة كف بها عن تجسيمك ، فأعرف لي هذه الحال واعتقد هذه المنة على كتاب الرد على النصارى ، وأفرغ منه وهجر به الي ، وكن من جدا به على نفسه ، تنال مشاهرتك ، وقد استطلعت له ماضي ، واستسلقت لك لسنة كاملة مستقبله . وهذا مما لم تحتكم به نفسك ، وقد قرأت رسالتك في بصيرة غنام . ولولا اني أزيد في ميخيتك لعرفتك ما يتوثرني عند قراءتها ، والسلام .. (٤٧)

ولا نتمم أبا عثمان بالنفاق والمداواة .. لماذا ؟

ان الجاحظ من الكتاب القلائل الذين جعلوا علمهم وأدبهم في خدمة الناس جميعا ، وفي تصوير دقائق الأشياء وحقائق العلاقات في عصر خفيت علينا كثير من أموره ، لتقلبها وتناقضها . فبقي أبو عثمان مخلصا لقلمه رغم كل شيء فلم يبقه على خدمة فرد معين أو على خدمة فكرة واحدة ظل يدور في دائرتها مغمض العينين . فالجاحظ كتب للخاصة والعامة ، للمتحرر والمتبصر والعالم والمتعلم ، الخ ، وان عطفه على عامة الناس ليثير الإعجاب . ومن هنا شامت كتبه وقراها العامة ولدا ولوها ، وهي كتب قدم أكثرها الجاحظ هدية إلى وزير أو كاتب ، ونال عليها جوائز عظيمة من الخلفاء أحيانا ، وقد بلغت النظر أنه لا يقدمها إلى الخليفة نفسه ! . وليس غريبا ان يعجب الخليفة بفصل الجاحظ وعلمه ، لكن أعجب حقا هو أن المتوكل نفسه يعجب بعلم الجاحظ ويعرفه ، والأخبار التي بين أيدينا لا تؤيد إعجاب المتوكل بالعلم والعلماء . ولقد سخر بهم في مجلسه وتنادر على بعضهم . ولقد قرب بعض العلماء ورفعهم إلى درجة مريبة من الإيابة ، كان ليست أن أوقع بهم بصورة مفاجئة . وان قصته مع الطبيب بختيشوع بن جبرائيل تقف مثلا بارزا على جدة مزاجه وسرعة انقلابه . فقد كان بختيشوع طبيباً سريانياً حاذقاً ، منذ خلافة الواثق . لكن بعض أصحاب الواثق القرنين منه ، أوقفوا به فكبحه وقبض أملاكه ونفاه السي

جنديسابور . فلما ولي المتوكل قرنيه وأغدق عليه الأموال فبلغ مبلغاً عظيماً حتى « كان يضاهي المتوكل في اللباس والفرش » (٤٨) . وكان المتوكل يتسبط معه دون تخرج . وفي ذات يوم قال المتوكل له ، ادعني . فقام بختيشوع بإضافة المتوكل في داره « وأظهر من النجمل والثرثرة وانفق في الإضافة ما أوجب المتوكل والحاضرين . واستكثر المتوكل لبختيشوع ما رآه من نعمته وكمال مروءته .. وحقد عليه وتكبه بعد أيام يسيرة » (٤٩) .

ولقد كان في حاشية المتوكل شخصيات عرفت بالكيد والإيقاع بكل « من ذكر بالتقدم في معرفة » . ولقد كان محمد وأحمد ، ابنا موسى بن شاعر مقدمين عند المتوكل حتى لقد « دبرا على الكندي (الفيلسوف المعروف) حتى غربه المتوكل ووجها إلى داره فأخذها كتبه بأسرها وأفرداها في خزانة سميت الكندية .. » (٥٠)

ولعل جزءا كبيرا من اليوم واقع على المتوكل من الخليفة ، لأن العالم يدرك بعقله كيف يقف عند حد في علاقته بالناس ، ولذلك وصف بعض هؤلاء العلماء الذين لم يدركوا هذه الحقيقة بأن علمهم أكثر من عقلهم . فهذا أحمد بن محمد السرخسي يمدد القفطى أحد فلاسفة الإسلام له تصانيف جليلة في علمه . وكان تلميذاً ليعقوب بن إسحاق الكندي ، وكان متفقتا في علوم القدماء والعرب . كان مؤدبا للمعتضد ورفع المعتضد إلى رتبة المنادة ، ولم يكف بذلك حتى بدأ بغضي إليه بأسراره ويستشير في أمور مملكته . وكان هذا بالتالي سببا لقتل المعتضد له . فقد أثار تقربه من الخليفة حفيفة وزيره القاسم بن عبيد الله وكان الخليفة قد أفضى إليه بسر تحصل بالقاسم ، فاحتال هذا عليه حتى أدخل أسمة خلسة في قائمة جماعة حكم عليهم أن يقتلوا . ووقع المعتضد بقتله دون علمه . (٥١) ولقد وصف القاسم بن عبيد الله هذا بأنه من (دهاة العالم) ، وهو الذي قتل ابن الرومي بالسلم (٥٢) .

(٥٠) عيون الأنباء ، ص ٢٨٦ .

(٥١) تاريخ الحكماء ، ص ٧٧ - ٧٨ .

(٥٢) الفطري ، ص ٢٥٧ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ٩٩ .

(٤٨) عيون الأنباء ، ص ٢٠١ .

(٤٩) تاريخ الحكماء ، ص ١٠٢ .

أصبحت تحكمه شروط وإدباب كان على جميع الأطراف أن تخضع لها. وتعد العلاقات التعليمية من أوائل مظاهر نشاط الحركة العلمية في المجتمع الإسلامي، كما يعد العصر العباسي من العصور المهمة في تطور الحركة العلمية، وبالتالي تطور العلاقات التي تربط بين العلماء من جميع الأطراف.

تمتاز العصور العباسية بظاهرة مهمة كان لها شأنها في الحياة الأدبية والعلمية، وكان لها شأنها في نشاط حركة التأليف وفي انتشار الكتاب بنطاق لا حدود له. وأضئ بهذه الظاهرة نضوج الكتابة وشيوع أدائها ورخصها، بحيث تهافت لكل المهتمين بتعلمها، وأصبح من الممكن لأي مؤلف أن يتصل بقرائه من قرب وأن يوجه إليهم كتاباته ويضئ بمختلف مستوياتهم العقلية، وأن يجعل كتبه، إذا شاء واسطة للتعليم. والكتابة - وأن لم تكن معدومة في العصور السابقة - كانت أدائها من الكلفة بحيث لم تنهيا لجميع الناس يسر. فقد كان استعمال البردي هو الشائع وهو غالي الثمن، ولذلك كان يقتصد في استخدامه حتى في الدواوين الإدارية. (٥٤) فقد قيل عن عمر بن عبد العزيز - الخليفة الأموي - أنه كان يأمر كتبه بجمع الخط كراهية استعمال الطوامير، فكانت كتبه إنما هي شبر أو نحوه. (٥٥) ويبدو أن البردي كان هو الشائع في دواوين الخلافة، حتى في خلافة المنصور. (٥٦) وربما استعمل في غرض التأليف في نطاق محدود، لا سيما في الكتب التي ألفت للخليفة نفسه، كما يستدل من قطعة باقية من كتاب (تاريخ الخلفاء) للسدي ألفه ابن إسحاق للخليفة المنصور. (٥٧) ثم أخذ المسلمون صناعة الورق من الصين عن طريق سمرقند، وقد كانت بداية ذلك

لكن من الطريف أن نجد كتابا من هؤلاء القريبين عند الخليفة يتأشى على زمان ضاعت فيه مفاهيم الحق، لأنه غلب خصمه عند الخليفة بالباطل الزورق يحسن اللفظ، لا لأن الحق كان معه، ذاك هو إبراهيم بن العباس الصولي، وكان المتوكل قد ولاه ديوان الضياع، فرفع أحمد بن المدير شكوى عليه إلى المتوكل يتهم فيها كتابه باختلال الإدارة وتضييع المال. فلما سأل المتوكل إبراهيم في ذلك بادره إبراهيم ببينين من شعره يتقرب فيهما من المتوكل، فاستحسنهما المتوكل وخلع عليه ولم يستمع إلى قول ابن المدير فيه. لكن إبراهيم أحس بالتم وبثانيب الضمير، وحينما يسأل عن ذلك، يقول يذني، الحق أولى بعثلي وأشبه، أنني لم أدفع أحمد بحجة، ولا كذبني شيء مما ذكر ولا أنا ممن يعشره في الخراج، كما أنه لا يعشرني في البلاغة، وإنما فلتجت بوطانة ومخرقة، أفلا أكني، فضلا عن أن أفتن من زمان يدفع ذلك كله؟ (٥٨) لكن هذه، في ظني، من الأخبار الطريفة النادرة.

تعد العلاقات الشخصية بين العلماء في القرون الهجرية الثاني والثالث والرابع من أكبر المظاهر حيوية، ومن أدلها على نشاط الحركة العلمية في العصر العباسي. ولم تقم العلاقات بين العلماء على نمط واحد، بل تعددت مظاهرها، فمنها علاقات تعليمية بين عالم ومتعلم، وعلاقات مذهبية، وعلاقات انسجام وتنافر يعبر عنها في حلقات المساجد ومجالس البيوت وفي الأسواق عند المناظرة أو الجدل أو تبادل الرأي. ولقد تطور كل مظهر من مظاهر هذه العلاقات حتى

- (٥٣) معجم الأدباء، ج ١ ص ١٧٩، ص ١٩٥ - ١٩٦.
 (٥٤) راجع في هذا مقالة المستشرق (جب) بعنوان - خواطر في الأدب العربي، بدء التأليف النثرى -، باللغة العربية في كتابه Studies on The Civilisation of Islam (1962)
 وقد فسحها صلاح الدين المنجد في (المتقى من دراسات المستشرقين - ١٩٥٧).
 (٥٥) الوزراء والكتّاب، ص ٥٣.
 (٥٦) المصدر نفسه، ص ١٢٨.
 (٥٧) القصة نشرتها المستشرق N. Abbot في شيكاغو - ١٩٥٧.

به عن قرب وليسمعوا منه بعد أن بلغت شهرته الآفاق . وقد قال عنه أحد هؤلاء : « كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند مولنا لقاء أبي عثمان » (٦٠) وهكذا قصده هؤلاء التلاميذ . لكن الطريف في هذا الصدد ، أن الجاحظ ، على علو منزلته ، وبلوغه سن الشيخوخة ، وعلى شهرته في المشرق والمغرب ، كان لا يزال عند مجيء هؤلاء المخاربة يعلم الصبيان الصغار . وهو أمر غريب حقا بعد أن ارتفع الجاحظ إلى منزلة من الخلافة بحيث كان ناصحا لأولاد المتصم ، وطلب ليكون مؤدبا لأولاد المتوكل فاعتلر . . . وهو ، فضلا عن ذلك ، أول من يصنف المعلمين إلى صنفين . معلمي الصبيان ، والمؤدبين . وبعد الصنف الثاني أرفع منزلة في العلم والمجتمع ، وقد هزى من الصنف الاول وكتب فيهم حكايات لاذعة ، ومع ذلك كله ، يظل هو يمارس تعليم الصبيان إلى فترة متأخرة من حياته . ولعل هذا من أوجه الغرابة في طبيعة التعليم في المجتمع الإسلامي . فرغم الاحتقار الذي تلقاه المهنة ، نجدها مع ذلك من أكثر المهن شيوعا ، وقد مارسها العلماء أكثر من أية مهنة أخرى .

فالكتاب إذن ، مهما بلغ فضله في الانتشار في الآفاق ، لا يعمد من اللقاء الشخصي والاتصال المباشر بالعالم . على أن بين علماء هذا العصر كان يعتمد اعتمادا كلياً على السماع والحفظ دون الكتابة ، وقد اشتهر من هؤلاء النحوي الكوفي أحمد بن يحيى ، معلم ، حتى لقد كان يتخذ حفظه وسيلة ومنهجاً في حلقائه ولا يعتمد على شيء مكتوب قط . قيل عنه : « وأبو العباس لا يس كتابا اتكالا على حفظه وثقة بفساده ذهنه » . ويقابله في الطرف الثاني أبو سعيد السكري الذي كان « كثير الكتب جدا ، فكتب يده ما لم يكتبه أحد ، فكانا في الطرفين لأن أبا سعيد كان غير مفارق للكتاب عند ملاقة الرجال . . » (٦١) ، وهذا وهما متعاصران .

في السنة الأولى أو الثانية من حكم العباسيين ، ثم انتقلت صناعته إلى المراق في زمن البرامكة ، والظاهر أن جغرافيا البرمكي قد استبدل استعمال الرقوق بالورق في دواوين الحكومة » (٥٨) .

لقد أصبحت الكتب في هذا العصر وسيلة من وسائل التعليم ، ولعل الباحث يتوقع أن تنوب الكتابة مناب الحفظ كوسيلة للتعليم ، وذلك لكثرة انتشارها وسهولتها في هذا العصر ، لكن الحال لم تكن كذلك . ولذلك يختلف كتاب هذا العصر في المفاضلة بين (الكتابة) و (السماع) المباشر أو الاتصال بالشخصية العلمية مباشرة ، أو الحفظ كوسيلة لأخذ العلم ونشره . فقد شاع القول من جهة على السن بعض العلماء أن الكتابة أكثر وثوقا لأجل المحافظة على العلم ، وأن الحفظ وحده ربما أضاع على المتعلم علمه . وقد قال بعضهم في هذا الصدد : « كنت عند بعض العلماء ، فكننت أكتب عنه بعضا وأدع بعضا ، فقال لي ، اكتب كل ما تسمع ، فإن أخس ما تسمع خير من مكانه ابين » .

وقال الخليل بن أحمد :كثر من العلم لتعريف وتقلل منه لتحفظ . . » (٥٩) ومع ذلك فالعلماء لا يتفقون على شيء في هذا الأمر ، وهم فوق ذلك يرون أن الكتب وحدها لا تحيى الموتى ، ويتصدون بذلك أن الإنسان الذي ليس له أدنى قبول لتلقي المعرفة ، لن ينفعه كتاب ولا علم . ويبدو أن الكتاب عندهم لا يفني عن السماع والاتصال الشخصي . فالمرء مثلاً أن كتب الجاحظ قد شاعت وانتشرت في حياته حتى بلغت المغرب ، وقد أدخلها إلى الأندلس أولئك الذين أخذوا عنه ، وينشئ على كتابين دخلا الأندلس في حياته ، هما البيان والتبيين - وأسلوبه التعليمي واضح - ، ورسالة الترييح والتدوير . فألارت كتبه فضول المتعلمين هناك ، فقصده تلاميذ من المغرب ليتصلوا

(٥٨) محاضرات في تاريخ العرب والإسلام ص ٣٦ .

(٥٩) كتاب الحيوان ، ج ١ ص ٥٨ .

(٦٠) معجم الأدياب ، ج ١٦ ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٦١) المصدر نفسه ، ج ٥ ص ١٠٧ .

تدعوني اليه ، قلت حاجتهم الي^١ فيها . وإنما كانت غايته الثالثة ، أننا أشبع بعضها هذا الموضوع المفهوم لتدعهم حاله ما فهموا الى التماس فهم ما لم يفهموا . وإنما قد كسبت في هذا التدبير اذ كنت الى التكتسب ذهبت » . (٦٤) فالأخفش اذن يخشى ان يقبل الناس على كتبه وتشتفي الحاجة اليه . لكن كتبه على صعوبتها قد وضعت لغاية تعليمية . ولاخفش قصة المازني والجري في امر كتاب سيبويه . فالعرف ان الكتاب لم يأخذه احد عن سيبويه غير الاخفش . فخشي المازني والجري ان يدمي الاخفش الكتاب لنفسه ، فآخذه وأشاعه بين الناس برواية عن الاخفش . (٦٥)

تقد كان للعلاقة بين الشيخ والتلميذ اثر على طبيعة حركة التأليف في هذه العصور ، لأن أكثر ما شاع من كتب الشيوخ كان في الحقيقة ما كتبه التلاميذ من مذكرات أخذوها عن الشيخ ، فيشيع الكتاب برواية التلاميذ . فهذا كتاب الكامل للمبرد وصل اليها برواية الاخفش الأصغر ، (٦٦) لتلميذ المبرد . ولا يتكفي التلميذ برواية الكتاب عن استلذه نصا دون أن يتدخل فيه ، بل يقوم بتنظيمه والتعليق عليه وادخال آرائه المميزة من آراء شيخه بقوله (قال أبو الحسن الاخفش) . ولا يتكفي بالتعليق بل قد يقوم بموازنة بين الروايات التي أخذها عن المبرد في غير هذا الكتاب فيقول مثلا ، (حدثنا المبرد في غير الكامل) ، (٦٧) والطريف أن الاخفش قد أخذ أيضا عن تلميذ ، امام مدرسة الكوفيين في عصره وخصم المبرد البصري المذهب . ويقوم الاخفش بتصحيح روايات أستاذه المبرد في

ومع ذلك نفهم من أخبار تلمذ أنه ربما أخذ عن شيوخ لم يعاصره بل استعان على ذلك بكتبهم ، وبما أخذ عنهم تلاميذهم ، فقد قيل عنه أنه كان يروي عن أبي نجدة كتب أبي زيد وعن الأثرم كتب أبي عبيدة ، وعن أبي نصر كتب الأصمعي ، وعن عمرو بن أبي عمرو كتب أبيه . (٦٨) فمن الواضح أنه لم يعاصر احدا من هؤلاء العلماء الذين درس كتبهم بل قرأها على تلاميذهم . لكنه يميل الى حفظ ما يأخذه ، وكان يقوم بالإملاء على تلاميذه من حافظته .

وهناك أكثر من دليل على أن هذه الكتب التي تسمى (كتب) هي في الواقع أشبه ب (مذكرات) يأخذها التلميذ عن أستاذه ، فهي ليست كتباً مؤلفة بالمعنى الذي نفهمه ، أي أن المؤلف قام بكتابتها وتنظيمها ، بل هي محاضرات المجالس التعليمية وأما لي الشيخ على تلاميذه ، ولا بد أن تلميذا قد درس هذه المذكرات على تلاميذ الشيوخ . ولقد كان لاستعمال الكتابة كوسيلة من وسائل التعليم نتائج مهمة على طيبة انتشار العلم ، حتى لقد خشي بعض العلماء أن تشيع كتبهم وتقرأ فيستغنى بها عنهم ، فكانوا يعمدون وضعها موضعاً صعباً لتبقى الحاجة معها اليهم ، سئل الاخفش في ذلك ، يقول الجاحظ : « قلت لأبي الحسن الاخفش ، (٦٩) أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ، وما بالتنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ » قال ، أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله ، وليست هي من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الموضوع الذي

(٦٢) معجم الأدباء ، ج ٥ ص ١١٩ .

(٦٣) أبو الحسن الاخفش هذا هو سعيد بن مسعدة ، مولى بني مجاشع بن دادم - وكان من نحويي البصرة - ويعرف بالأخفش الأوسط ، توفي في سنة ٢٢١ هـ وقيل ٢١٥ (انظر برزكلن : تاريخ الادب العربي) الترجمة العربية - ج ٢ ص ١٥١ - ٥٢ .

(٦٤) كتاب الحيوان ، ج ١ ص ٩١ - ٩٢ .

(٦٥) نزهة الأدباء في طبقات الأدباء ص ٩١ - ٩٢ .

(٦٦) هو علي بن سليمان المعروف بالأخفش الأصغر وهو من نحويي بغداد ، توفي سنة ٢١٥ هـ .

(٦٧) الكامل للمبرد ، ج ١ ص ١٢٨ .

الكامل بروايات أخذها عن ثعلب أو عن الكوفيين عامة . (٦٨)

وقد بلغ الثقة بين الشيخ والتلميذ مبلغا يجعل الشيخ يقدم لتلميذه كتابه بخطه دون أن يمليه عليه أو يسمعه التلميذ عنه كاملا . قيل عن إبراهيم بن أحمد الطبري أنه قرأ قصيدة شبيل بن عروة الضبيعي على أبي عمر الزاهد ثم تناولها من عبد الله بن جعفر بن درستويه ، لكنه لم يتمها قراءة عليه ، فقال له ابن درستويه : « قد دفعت اليك كتابي بخطي من يدي إلى يدك ، وقد أجرت لك القصيدة فأروها عني ، فإن هذا ينوب عن السماع والقراءة ... » (٦٩) . لكن التلميذ إذا أشاع علم أستاذه كان من حق الأستاذ عليه أن ينسب إليه ما أخذه عنه ، وهذا من آداب العلم التي اصطلاح عليها المسلمون .

ومن الطريف في هذه العلاقات التعليمية أن عالمين من العلماء في منزلة واحدة قد يأخذ أحدهما من الآخر في العلم الذي اختلف به وتفرد للعمل له ، فيغيد أحدهما من الآخر في موضوعه . قيل عن الرياضي والمازني ، وهما من علماء النحو في القرن الثالث للهجرة ، أن الرياضي قرأ على المازني النحو وقرأ عليه المازني اللغة ، وكان المازني يقول : « قرأ الرياضي عليّ كتاب سيبويه فاستفدت منه أكثر مما استفاد مني ، يعني أنه أفادني لفته وشعره ، وأفاده هو النحو » (٧٠)

وليست العلاقة بين العالم والتعلم قائمة على التعليمية المجردة من وظائف الالفة والمحبة والتعاطف ، فقد يتفقد الشيخ لتلميذه ويعينه في معاشه ، وكذلك يفعل المتعلمون فيما بينهم . حكى عن إبراهيم بن سعيد بن الطيب ، وهو

(من عبيد السبي ، وكان ضريرا) ، أنه قدم واسط وأراد أن يتعلم القرآن ، فجلس إلى حلقة أحد الشيوخ « فكان معاشه من أهل الطلقة » ثم اصعد إلى بغداد فصحب أبا سعيد السمراني - العالم اللغوي المعروف في القرن الرابع - وقرأ عليه شرح كتاب سيبويه ، وسمع منه كتب اللغة والدواوين . وقد عده ياقوت بين الأدياب الذين ترجم لهم . (٧١)

وهذا أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة صحبه « على فقر شديد ، وكان ينقطع بملازمته عن طلب الماش فيعود إلى منزله إلى فقر شديد ، وكانت أمه تحتال فيما يقتاته يوما بيوم » . حتى ذات كان يوم فلم يجد ما يأكله ، فبات جائعا وتأخر من فد من المجلس حتى احتال فيما أكله . فلما جاء إلى أبي حنيفة ، سأله عن سبب تأخره فصدقه ، فقال ، ألا عرفتنى فكنت أمدك ولا يجب أن تفتن (٧٢) وللجاحظ قصة في أول حياته شبيهة بقصة أبي يوسف حتى في تفاصيلها . فالرابطة التي تربط بين العلماء أشد من رابطة الدم والقربى ، هي رابطة العلم والمقاساة في سبيله .



لقد كان انتشار التعليم ونشاط الحركة العلمية منذ القرن الهجري الثاني ، سببا من أسباب تعدد المذاهب والمدارس العلمية والاتجاهات العقلية . وعلى حين كانت الاختلافات المذهبية في العصر الإسلامية الأولى تتخذ مجرى المجاهرة العنيفة التي تقوم على السيف ، وعلى المجاهرة اللسانية التي تعتمد على الخطابة والبلاغة العربية الأصيلة التي أساسها التأثير المباشر في النفوس وفي كسب الأعراف ، تتخذ هذه الخلافات في العصر العباسي

(٦٨) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٣٠ ، ج ٣ ص ٥٠ .

(٦٩) معجم الأدياب ، ج ١ ص ١١٠ .

(٧٠) المصدر نفسه ، ج ١٢ ص ٤٤ .

(٧١) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٧٢) الفرج بعد الغشقة ، ص ٢١٨ .

أن الحديث تقرأ القوم خلوته

حتى يبلغ بهم عي واكثر

ومتثلاً بقولهم (كل منجر في الخلاء يسر) ذلك أن الذي يجري فرسه منفردة بمحج بها لعدم وجود خيل يقيس سرعتها بها ، وكذلك الامر فيمن خلا بملحه عند فقد خصومه ، وأهل النزلة من أهل صناعته) - كما يقول - (٧٤) .

ثم نرى الجاحظ يتهم نفسه قبل أن يتهمه خصومه ، فيعتذر عن كتابه بملاحظة جاحظية اصلية - يقول : « وأنا أعوذ بالله ان أغر نفسي عند غيبة خصمي وتصفع العلماء لكلامي فاني اعلم ان فتنة اللسان والعلم اشد من فتنة النساء والحرص على المال ... » (٧٥) ويطب على ظني أن هذا لا يكون الا في عالم شغل بالعلم عن كل ما عداه ! .

فالمراقبة العلمية إذن - وهي رقابة الخصوم - خير وازرع ضد الغرور ، تفرض نفسها على العالم في هذا العصر الذي نشطت فيه الحركة العلمية مصحوبة بخصومات ومعادنات وتحديات . ولعل هذه الرقابة اشد على الكاتب من اية رقابة اخرى .

يرى الجاحظ - وهو خير من يمثل المتكلمين في هذا العصر - والمتكلمون من اوائل من عني بالجدل المتلي ، قصة جدلية طريفة جرت لبعض المتكلمين في مجلس الخليفة المأمون ، تصور مدى اهمية الجاهلية بين العلماء واهمية هذه الرقابة التي اسميها (رقابة علمية) . يقول الجاحظ :

« قال لي بشر الرئيسي : عرض كتابي على المأمون في تحليل النبذ ، وبعضته محمد بن العباس الطوسي ، فالتبري للطن عليه والمعارضة للصحيح التي فيه ، واسهب في ذلك وخطب ، واكثر واطنب ، فقلق المأمون واحتدم وهاج واضطرم

سبلا جديدة ، اهمها الاتجاه الى المحاجات العقلية القائمة على اسس من المنطق أصبحت واضحة في مناهج المسلمين بعد اتصالهم بأصول الفلسفة الارسطوطالية خاصة . ولم تعد الخطابة بمفهومها العربي القديم وسيلة مهمة في حياة الناس ، لا سيما بعد أن أصبح بالإمكان امتداد الكتابة وسيلة لنشر المحاجات والمسائل وأجوبتها . وهنا تلعب العلاقات بين العلماء دوراً مهماً في توجيه الحركة العقلية ، فكلما زاد الاحتكاك بين العقلات المتباينة والمذاهب المختلفة ، زادت حدة الشراارات المنبعثة عن هذا الاحتكاك ، وبذلك اندفعت الحركة العلمية قدماً الى الامام .

ولعل من اهم آثار هذه المحاجات العقلية في الحركة العلمية أننا بلداناً نلاحظ في هذا العصر حرص العلماء وزيادة توثيقهم في البحث والنظر وفي التعبير عن آرائهم خوفاً من الزلل ، لأن مناوئتهم يقفون لهم دائماً بالمرصاد . ونحن نعلم ان الخطأ المكتوب أصبح على التصحيح من خطا شغوى يسمح ولداً لا يدون . ولذا ، فزيادة التوقي تضاعف في الآراء المدونة والآراء التي يترقبها الخصوم ليتلقونها بالنقد والتنمحيص . ولعل الجاحظ خير من عبّر عن هذا الامر بقوله :

« وينبغي لمن كتب كتاباً الا يكتبه الا على ان الناس كلهم له أعداء ، وكلهم عالم بالامور ، وكلهم متفرغ له ... » (٧٣)

فاذا اخذ المؤلف هذه الحيطة ، راجع نفسه فيما يقوله أو يكتبه ولم يصدر رأياً فطرياً ، وأظن أن الذي دفع الجاحظ الى هذا القول خبرته الشخصية وتعرضه لكثير من المحاجات والتحديات عن كتبه التي اذاعها في الناس ، فهو ينظر الى الامر نظرة خبير ونظرة عالم نفسي ، مستشهداً بقول الشاعر :

(٧٢) كتاب الحيوان ، ج ١ ص ٨٨ .

(٧٤) المصدر نفسه .

(٧٥) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٢٠٧ .

لاستحقار الطوسي وخلاء المجلس له . وكان يجب أن يزعم وأنزع بكفه بحجة تسكنه ، فلما لم ير أحدا يحضره يلبس عن كتابي ، قال متمثلا :

يا لك من قجرة بمصمصر
خلا لك الجو فيضي وأصفري
وتقرى ما شئت أن تقرى

فما كان إلا ريث فراغه من التمثيل بهذه الإيآت، حتى استؤذن لي فدخلت عليه . فقال يا أبا عبد الرحمن ، ما تقول في التنبؤ ؟ قلت حصل طلق يا أمير المؤمنين . فقال ، فما تقول فيما أسكر كثيرة ؟ قلت ، لمن الله قليله إذا لم يسكر إلا كثيره . ثم قال ، أن محمدا يخالفك . فأقبلت على ابن أبي العباس ، فقلت له ، ما تقول فيما قال أمير المؤمنين ؟ قال ، لا خلاف بيني وبينك؟ كلاما يوهم به أهل المجلس ، حبا للتسلثم مني والتخلص من مناظرتي ، لا هلى حقيقة التحليل له . فاستغثت ذلك منه وقلت له، فما لي لا أرى امر قواء في عقلك؟ فضحك المأمون، فلما رأيت ضحكك أظنيت في معاني تحليل التنبؤ ، وابن أبي العباس ساكت لا ينطق ، وكان قبل دخولي ناطقا لا يسكت . فلما رأى المأمون سكوته عند حضوري مع كثرة كلامه في لبب كتابي وعيبه - كان - قبل دخولي ، قال متمثلا :

مالك لا تنبج بأكلب اليوم
قد كنت نباحا فما لك اليوم

ثم نظر الي فقال ، أن الكتب عقول قوم وراءها عندهم حجب لها ، فما ينبغي أن يقضي على كتاب إلا إذا كان له دافع عنه ، وخضم يبين عما فيه ، فإن إتياء النعم وأولاد الأسد مصودون . . « (٧٦) فالخيل صحيحه ليس كالمرض عقله على خصوصه، لأن من يلزم العيلة من الخصم ، يكون أشد توقيا ودقة .

وتعد القدرة على المناظرة والحاجة صفة لازمة

العالم الذى يتمتع بالقابليات العلمية . وذلك أن انمال الذى اعتاد أن يسلم له بالامر دون نقاش أو سؤال أو تشكيك فيما يقوله ، يثق من نفسه بامور لا تستحق أن يوثق بها ، فيضل عن الحقيقة ويضل . ولعل المتكلمين من أوائل العلماء الذين التفتوا الى هذه الحقيقة ، فعنوا بالجلل صناعة ما بعدها عناية ، وامتاز فيهم جماعة بالقدرة على استغلال آلة الجدل العلمى ، المنطق . ولقد قيل عن النظام ، انه كان من أقدر المعتزلة على الجدل . يروى عنه أنه جرت بينه وبين أبي شمر أحد أئمة القدرية المرجئة ، مناقشة في دار أيوب بن جعفر بن سليمان الصباسي ، وهو من الموالين لأبي شمر .

« وكان أبو شمر ، اذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه ولم يقلب مئنيه ولم يحرك رأسه حتى كان كلامه انما يخرج من صدع مسفورة . . » (٧٧) . لكن النظام اضطره بالحجة حتى «حرك يديه وحل جبهته وحيا اليه حتى اخذ يديه . وفي ذلك اليوم انتقل أيوب من قول أبي شمر الى قول ابراهيم النظام . ويلقى الجاحظ على هذا قائلا :

« وكان الذى غر أبا شمر وموئه له هذا الرأى أن أصحابه كانوا يستمعون منه ويسلمون له ويعلمون اليه ، ويقبلون كل ما يورده عليهم وينتبه عندهم . فلما طال عليه توقيره له ، وترك مجاذبتهم إياه ، وخفت مؤونة الكلام نسي حال منازعة الاكفاء ومجاذبة الخصوم » (٧٧)

فالتحدى الذى يجابهه العالم خير حافز له على مراجعة ما يأخذ به ويسلم له . والشك منعد المتكلمين اول ما يبدأ به للتوصل الى اليقين . ولعل أكثر العلماء تعرضا للتحديات والخصومات ، أولئك الذين كانت لهم وجهة نظر معينة أو كانوا ينتمون الى مذهب من المذاهب العقلية أو الفقهية أو العلمية . . الخ ، التى شاعت في هذا العصر وانقسم العلماء بينها الى اتجاهات شتى ، ومدارس ينتمون اليها ، كما انقسم الناس متأثرين بهم ومتعصبين لطرف أو لآخر .

(٧٦) كتاب فصل ما بين العداوة والصود ، رسائل الجاحظ ج ١ ص ٣٤٢ - ٤٤ .

(٧٧) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٩١ - ٩٢ .

فلم يكن الامر للصدفة حين كانت البصرة مهد الاعتزال وبلد المتزلة ، في حين كانت الكوفة مهد التشيع وبلد الرافضة . وبين الاعتزال والتشيع ما بين الطابع العقلي والطابع الباطني أو ما بين العقلية اليونانية والعقلية الكلدانية .

ولم يكن الامر للصدفة أيضا حين كانت نشأة النحو في البصرة على ذلك الاسلوب التنظيمي الدقيق ، فمرجع هذا أيضا لذلك الطابع العقلي الارسططالي الذي غلب على البصرة فوجهها الى ذلك النحو من الاستقرار والتصنيف والتنظيم واستخراج قوانين اللغة من خلال ذلك . ثم لم يقتصر الامر على ذلك بل لقد ظهر اثر هذا الطابع واضحا قويا على ابحاث النحو منذ نشأته ، فهو اول امره متأثر بالروح الكلامية خاضع لاساليب الفلسفة اليونانية . (٧٨)

لكننا ما نكاد نسمع بمواجهة بين الكوفة والبصرة طيلة الفترة التي كانتا فيها قائمتين وحدهما ، حتى نشأ بغداد وتحول مركزها الاول في الحركة العلمية ، فنشطت المجابهة وتشتد المنافسة بين علماء البلدين . ولن تكون بعيدين عن الصواب اذا قلنا ان بغداد بعد انشائها وصارتها قد أصبحت مركزا يجتذب اليها علماء الطرفين ، فأتاحت بذلك فرصة لم تكن لتتاح لعلماء الكوفة والبصرة ان يلتقوا وأن يتواجهوا مواجهة حيوية فكان ذلك من اهم الدوافع للحركة العلمية ، وازدهارها . ولو لم تكن بغداد قد جمعت بين هؤلاء العلماء من جميع الاطراف لما كان هناك مجال للتمييز أو التوفيق بين البلدين ، ولتقد سعى علماؤهما الى مدينة السلام .

والعلماء عندي يشكلون الجانب الحي من الحركة العلمية ، فمواجهاتهم تكشف لنا عن جوانب طريفة للوضعية العلمية أو المعيشية التي قد تعني على الطرفين . فالتحديات التي كان يحويها الكوفة والبصرة يتبادلونها أصبحت مضرب المثل في الحركة العلمية لهذا العصر . وتتخذ هذه التحديات اشكالا مختلفة ، علمية

ولعل اشهر خلافات في تاريخ الحركة الفكرية الاسلامية لهذا العصر ، تلك الخلافات التي نشبت بين الكوفة والبصرة بجميع اتجاهاتها العقلية والسياسية واللغوية . . الخ فالكوفة عرفت ببيل علمائها في الفقه الى التاويل وفيها نشأت مدرسة الرأي وكانت ميولها السياسية علوية ، فانخذلتها الدعوة العباسية مركزا في اول نشاطها ، حين كانت الدعوة العباسية علوية الميل ، فلمبت الكوفة دورا ايجابيا مهما منذ قيام الخلافة العباسية ، ولقد كانت عاصمة الخلافة عند اول قيامها . ثم أصبحت مركزا مهما لنشاط فرق الشيعة المختلفة، واتجه الفقه فيها ودعاة اللغة والنحو اتجاها له طابعه الميز . اما البصرة فقد كانت العوامل المؤثرة في تكوينها ذات طابع مخالف . فهي عثمانية في ميولها السياسية الاولى . وقد احتضنت في اول قيام الدولة العباسية ، حركات وثورات مناولة للحكم العباسي وقد لعب المعتزلة - وهم المتكلمون الاوائل الذين همصوا بالفلسفة الارسطوطالية ، وطعموا بها العقيدة الاسلامية - دورا رئيسا في الحياة البصرية . وقد تأثرت العلوم العربية بهذه الحركة الجدلية ، وكان للمنطق اليوناني اثر في نحو البصريين .

فالخلاف بين الكوفة والبصرة خلاف منهجي قائم على طبيعة (التناول) للموضوعات المختلفة . ويعزو الأستاذ طه الحاجري هذا الخلاف الى عناصر البيئة القديمة المكونة لكل من - هاتين المدينتين ، ويقول :

والواقع ان البصرة والكوفة ما كان لهما ان يلتقيا ، اذ كانت كل منهما تمثل واحدا من هذين الطابعين المتقابلين بمعنى انه كان اغلب عليهما واغوى اثرا فيها . فالبصرة تمثل الطابع العقلي ، والكوفة تمثل الطابع الباطني السري . فعلى قدر ما بين هذين الطابعين من خلاف كان الامر بينهما في شتى نواحي الحياة العقلية ، فذلك تاويل هذه الخصومة العتيقة الدالة المتصلة بين البلدين . .

صاحبه ، وانحاز المؤلفون الى أحدهما دون الآخر حسب ميولهم الى البصريين أو الكوفيين . فالجبرد بصري درس كتاب سيبويه ، أما أحمد بن يحيى فكوفي المذهب . وقد أبحث الفرصة لهذين العالمين أن يتصلا ويتواجهوا أمامات شخصية بعد مجيء كل منهما الى بغداد . وكانت لكل منهما حلقته في المسجد ، وأن كان بعض تلاميذهما مشتركا بينهما .

وقد يتعصب اتباع عالم من العلماء تعصبا شديدا له حتى يفضوا له أن يواجه خصمه أو يلجأ اليه بنفسه ، خشية أن يقول الناس منه انه اتصل به أو تتلمذ عليه . . . روى ابن الأنباري قال : « سمعت أبا العباس ، يعني طعنا ، يقول ، عزمت على المضي الى المازني لاناظره ، فأتكر ذلك علي أصحابنا وقالوا : مثلك لا يصلح أن يمضي الى بصري ، فيقال غدا انه تلميذه ، فكرهت الخلاف عليهم » (٨٠) . وقد ذكر ابن الأنباري هذا الخبر في بعض مصنفاته ليفض طعنا ، لكن العلماء المسلمين قالوا : « أراد ابن الأنباري أن يرفع من طعنا ، فوضع منه . » ، وكان متعصبا للكوفيين . ومعنى هذا أنهم وجدوا هذا الموقف من العصبية المسيئة الى العالم ، إذ لم يجد العلماء في هذا العصر غضاضة حتى في الأخذ عن خصومهم والتعلم منهم . فهذا الكسائي ، رغم مواقفه الصريحة من تحويي البصرة ، انحدر الى البصرة فلقني الخليل بن أحمد وجلس في حلقته وأخذ عنه . (٨١) ولا اظن هذا القول من باب الوضع على العلماء أو الانحياز للبصريين ، لأن أخذ الكسائي من علماء البصرة لم يقلل من منزلته . بل زاد من شأنه عند الكوفيين والبصريين معا . لكن هذا الامر ، مضافا اليه شدة المنافسة التي زادت حدة في الجيل التالي ، وفخر الكوفيين على البصريين وتقربهم من الخلافة في بغداد ، هو الذي جعل الجاحظ - وهو بصري منشأ وتكوين

أو شخصية . فقد بيعت أحد الجانبين بمسألة من المسائل بواسطة أحد تلاميذه الى خصمه ، يتحداه فيها ويساله عنها ليختبر عليه ولتعرف منزلته عند الناس . وكان كل جانب من المتخاصمين يخبئ أن ينحاز لتلاميذه الى حلقة خصمه ، لا سيما أن تلاميذ الشيخ كانوا أشباه دعاة له ومؤيدين لمذهبه ودافعين عنه أمام خصومه . فهو لا يريد أن يفقدهم . لهذا الكسائي ، وهو عالم جليل بين نحاة الكوفة وقرائها ، رقى بعلمه حتى بلغ بلاط الرشيد ، ولم يكن مؤدبا لأولاده فحسب بل ارتفع الى مرتبة الجلوس . كان يحيط نفسه بمجموعة من التلاميذ كانوا أشبه بدرع يتقى به الضربات الأولى لخصمه . ويبدو انه لم يكن يواجه خصومه منفردا ، بل نجده في المناظرات العلنية يقدم تلاميذه لناوذة الخصم أولا ، وما يلبث أن يحضر الى المجلس بهيته ووقاره ليقول كلمة الفصل ، كما يظهر في مناظرته لمسيبويه . ولقد كان التلاميذ فضلا عن ذلك أشبه بطبقة وصل بين مجالس العلماء ، لهم حرية التنقل بينها ولهم الحرية في التوفيق بين المذاهب التي يأخذونها من شيوخهم ، كما أن لهم حرية المفاضلة يحكي عن طعنا أن ختنه - وهو زوج أخته - كان يخرج من منزله وهو جالس على باب داره فيتخطى أصحابه وبعضهم ومعه دفتره ومجربته فيقرأ على أبي العباس الجرد كتاب سيبويه ، فيماتيه أحمد بن يحيى على ذلك ويقول له ، إذا والله الناس تعصى الى هذا الرجل تقرأ عليه يقولون ماذا ؟ . ولم يكن يلتفت الى قوله . . (٧٩) . وسئل مرة ، كيف صار محمد بن يزيد الجرد أعلمم بكتاب سيبويه من أحمد بن يحيى ، أي طعنا ، فقال ، لأن محمد بن يزيد قرأه على العلماء وأحمد بن يحيى قرأه على نفسه . .

ولقد رويت عن الجرد ولطعنا مناظرات كثيرة اختلف الناس فيها وفي تفضيل أحدهما على

(٧٩) صحيح الأدب ، ج ١ ص ١٢٠ - ٢١ .

(٨٠) المصدر نفسه ، ج ٥ ص ١١٥ .

(٨١) المصدر نفسه ، ج ١٢ ص ١٩٩ .

سيبويه ، وهو الشاب الناشئ الذي يتعرض لشيخ مكي المنزلة ، على مشهد من الناس ، فالعامة قد تنحاز بدافع الحماس العاطفي الى سيبويه بغض النظر عن قيمة الحجج التي يوردها الطرفان . ولذلك خشي تلاميذ الكسائي عاقبة هذا التعرض فعرضوا انفسهم للمناقشة دون شيخهم .

ومن جهة أخرى، حاول بعض العلماء أن يستغل هذه العاطفة وهذا الحماس الذي تصدر منه العامة في حكمها ، فالأرازم غلب خصمه بالحق أو بالباطل ، وهو واعي أن الحجة ليست إلى جانبه ، والعامة يحبون بتمطع من الكلام الفصيح يسيب أسماعهم دون الالتفات الى دقائك المعاني أو التعمق فيها . ولقد كان هذا الخلق في العامة من العوامل التي أمانت للنصائص في المساجد الإسلامية على أن يتحفظوا بأنواع من اللاهسي والأحاديث الممتعة والمفعمة بالمبالغات ، بحجة الوعظ الديني والتفسير القرآني ، فكان العامة ينجلدون اليهم دون الالتفات الى مدى الانسجام المنطقي في هذه الأحاديث .

والأصمعي حكاية مع سيبويه عن مناظرة جرت بينهما في المسجد علنا ، سدد الأصمعي يحدثنا بها ، وفيها من الدلائل على هذه الأمور ما فيها . يقول الأصمعي :

« .. أنه عرض علي شيء من الآيات التي وضعها سيبويه في كتابه ، ففسرتها على خلاف ما فسره ، فبلغ ذلك سيبويه قبلني أنه قال ، لا ناظره الا في المسجد الجامع . فصليت يوما في الجامع ثم خرجت فتلقتني في المسجد فقال لي : اجلس يا أبا سعيد ، ما الذي أكثر من بيت كذا وكذا ؟ ولم فسر على خلاف ما يجب ؟ . فقلت له ، ما فسرته الا على ما يجب ، والذي فسرته

ومذهبها - يفخر على الكوفيين قائلا : « وهؤلاء يأتونكم بفلان وفلان وسيبويه الذي اعتمدتم على كتبه وجحدتم فضله .. » (٨٢)

ولا يعاب العالم اذا اعترف بغلبة خصمه ورجحان رأيه ، لا سيما اذا كانت هذه المناقشات طريقا قويا للوصول الى الحقيقة ، لا وسيلة للمعاندة أو إثارة العواطف . وما دامت هذه المناقشات تدور في دائرة العلماء ، فلا خشية منها . لكن أكبر ما كان يخشاه العلماء هو أن تغلب روح العامة على الروح العلمية فتوجه هذه الاختلافات وجهة خطيرة على الحياة العلمية وعلى المجالس العلمية . ونفهم مما يتردد على ألسن بعض العلماء أن خشيتهم ليست بسبب العلماء المخالفين لهم في الرأي ، بل من أن تشتبك العامة في النزاع . وهذا أكبر ما كان يخشاه المعتزلة في نزاعهم مع أحمد بن حنبل في أحداث الحنة ، وقد انحازت اليه العامة بصورة صريحة حتى هاجموا سجنه وحاولوا اخراجه بالقوة ، فأملت زمام الأمر من يد المعتزلة ولم يكد يستتب لهم بعد ذلك . (٨٣)

والعامة تحكم بالظاهر وتحكم بعواطفها دون الالتزام بمنهج علمي ، ولذلك فقد يتوقى العلماء من تدخل هؤلاء في مناقشتهم ، لا سيما تلك التي كانت تجري على مسامع من العامة في المساجد . قيل حين جاء سيبويه من البصرة الى مدينة السلام ، أتى حلقة الكسائي وفيها غلمانة الفراء وهشام ونحوهما . فقال الفراء للكسائي : « لا تكلّمه ودعنا وإياه فان العامة لا تعرف ما يجري بينكما ، وتغلبها بالظاهر ، فدعنا وإياه .. » (٨٤) . ولعل ما كان يخشاه الفراء هنا هو أن يشتبك الكسائي مع سيبويه في المسجد - وهو محل عام يردّه الناس بجميع طبقاتهم - وقد عرف الكسائي بغضه ومنزلته في بغداد ، فإذا ناظره

(٨٢) الأصمعي نفسه ، ج ٦ ص ١٢٤ .

(٨٣) عن أحداث الحنة وراجع :

W. M. Patton, Ahmad b. Hanbal and al-Mihna, (Brill - 1897)

(٨٤) تاريخ بغداد ، ج ١٢ ص ١٩٧ .

وجلس للتدريس هناك ، أملى كتابه (الامالي) كله من حفظه . (٨٦) ومع نباهته وعلو شأنه يعمد يوم الامتحان ، اذ نراه يخطئ في اقامة وزن بيت من الشعر كان قد رواه مستشهدا به في بعض مذكراته مع الادباء ، فانشد بيت عبدة بن الطبيب .

نمت قمنا الى جرد مسومة

اعرافهن لايدنا مناديل

فانشد عجز البيت على هذه الصورة : (اعرافها لايدنا مناديل) .

فانكرها ابن رفاعه الالبيري ، فاستعاد البيت مرتين ، وانشده ابوعلی على هذه الصورة ، فلوى ابن رفاعه عنه منصرفا وقال : مع هذا يوفد على امير المؤمنين وتجنشم الرحلة العظيمة ، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس ، لا يغفل الصبيان فيه . والله لابنائه خطوة . وانصرف عن الجماعة (٨٧)

وهذا المبرد ، من اشهر علماء البصرة في النحو ، وأولتهم في نحو سيبويه ، طلب من قبل عيسى بن ماهان ، فیرت عليه من العراق وقد ذاع صيته فيها ، بعد ان اتصل بالخليفة المتوكل ويسأله عيسى بن ماهان ، ذات مرة ، من معنى (الشاة المجتمة) ، فيقول ، هي الشاة القليلة اللين ، مثل اللجنة ويسأله عن شاهد ، فيأی يقول راجل :

لم يبق من آل الجعيد نسمة

الا هنيس لجة مجتمة

ثم يدخل على اثره ابو حنيفة الدينوري فيسأله من المعنى فيقول في الشاة المجتمة ، هي التي جشمت على ركبتيها ونحرت من قفاها فقليل له ، كيف تقول وهذا شيخ العراق ابو

انت ووضعت خطا ، تسألني واجيب . ورفعت صوتي فسمع العامة نصاحتي ونظروا الى لكنته فقالوا : لو غلب الاصمعي سيبويه ، فسرني ذلك ، فقال لي ، اذا علمت انت يا اصمعي ما نزل بك مني ، لم التفت الى قول هؤلاء . ونفض يده في وجهي ومضى . ثم قال الاصمعي ، يا بني فوالله لقد نزل بي منه شيء وددت اني لم اتكلم في شيء من العلم . » (٨٥)

لقد كان العلماء المسلمون يتعرضون لامتحانات قاسية تعرض فيها معارفهم للاختبار بصور مختلفة . ولا اقصد بهذا تلك المقابلات التي كان يعرضها الخلفاء لجملة من العلماء ليختاروا منهم مؤدبين ولولاهم ، فهي كثيرة وترد في كتب تاريخ الادب ، وقد كاد كل عالم ان يتعرض لها لاسيما النحاة .

ان الطريف من هذه الامتحانات هي تلك التي يقوم بها العلماء بعضهم لبعض في المجالس العلمية بسبب تلك المنافسة على المنزلة العلمية ، وليس هناك مؤسسة مسؤولة من منح القاب علمية او منح رتب معينة ، ولذلك يترك الامر للنتائج التي تترتب على هذه المناظرات او التحديات التي يتبادلها العلماء . وقد كان بعض المناظرات اثر عظيم في تقرير مصر العلماء - كما سيأتي لنا بعد .

ان نباهة عالم من العلماء في اى علم تعرضه لهذه التحديات العلمية ، ويحرص العالم هو ايضا على ان يحافظ على اسمه ومنزلته ، اذ ليس هناك منزلة يوصل اليها ويوقف عندها ، فتؤخذ بالتسليم له . اذ لا يزال العالم معرضا للامتحان حتى اخر رفق من حياته ، حتى وان بلغ اعلى مرتبة في العلم والمعرفة . فهذا ابو على القالي يمد من ائمة اللغة والادب ، وكان احفظ اهل زمانه ، حتى انه حين استدعى من المشرق الى الاندلس

(٨٥) مجمع الادباء ، ج ١٦ ص ١٢٥ .

(٨٦) ذكر القالي ذلك نصا في مقدمة كتابه ، الامالي ج ١ ص ٣ .

(٨٧) تلح الطيب ، ج ٢ ص ٢٩ ، عن مقدمة الامالي بقلم الاصمعي .

تعليلات لم يكونوا قد سمعوا بها ، وبعد ان يجتاز هذا الامتحان العلني ، يحل من الصاحب محلا رفيعا فيقطع عليه ، ثم يبدأ باستشارته ، ويطلب اليه ان يؤلف له كتابا في الامراض التي تعرض من الرأس الى القدم ، ثم يمنحه عليه . بعد اتمامه ألف دينار فكان جبرائيل كثيرا ما يقهر قائلا صنت مائتي ورقة اخذت عنها ألف دينار (٩٠)

وما دامت هذه المناظرات تقوم مقام امتحان تقرر مصر العالم نتائجه ، فلا عجب ان تعقد عليها اهمية عظيمة ، وتقوم بتنظيم وعلم سابق ويعين لها تاريخ معلوم . فهي اشبه بمناقشات الرسائل الجامعية التي تقيمها بعض الجامعات في عصرنا هذا . لكنها غير مقصورة على المبتدئين في اول درب البحث العلمي ، بل تعرض لها كبار الشخصيات العلمية الذين قطعوا من الدرب شوطا طويلا . ولقد اشتهرت مناظرات في تاريخ الحياة العلمية الاسلامية ، كان لها شأنها في توجيه الحياة هذه . وتشارك هذه المناظرات بجملة سمات ، بشهرتها وتنظيمها وبناتجها الحاسمة . واسبق هذه المناظرات زمنا ، المناظرة بين سيبويه والكسائي .

تتفق المصادر الاسلامية على امور تتصل بهذه المناظرة وتختلف في امور ، تبعا ليل المؤلفين نحو البصريين أو الكوفيين .

فسيبويه النحوي البصري ، نشأ وتثقف في البصرة ، وأقرب النحو وهو شاب وكانت له حلقة في شتى المعارف الادبية وهو في مقتبل العمر . (٩١) ولم يكن قد اتصل ببغداد أو بالخلافة قبل هذه المناظرة . أما الكسائي ، وهو من قرأ الكوفة وشيوخها في النحو ، فقد كان قبل المناظرة مؤدبا في بلاط الرشيد ولديه الامين والامون ، وقد صحب الرشيد حتى موته .

العباس المبرد يقول هي مثل اللجة وهي قليلة اللين ، واتشد البيت . فقال أبو حنيفة ، إيمان البيعة تلزم أبا حنيفة ان كان الا ساعتها هذه . هذا التفسير وان كان البيت الا لساعته هذه . فقال أبو العباس المبرد ، صدق الشيخ أبو حنيفة أنت ان أرد هليك من العراق وذكرى ما قد شاع قائل ما تسألني عنه لا أرفه (٨٨) . فهذه المواقف شديدة على العلماء .

ونسمع ان المعنى بالادب من الامراء والتواد كان اذا دخل بلدا قام بجميع علمائه في مناظرات علنية ومجالس تنظم لهذا القصد ، لكي يختار منهم صفوة يتخذهم نصحاء وحاشية ، ولكي يفاخر بهم بقية الحاكمين . فهذا أبو الفتح ابن العميد حين دخل بغداد عقد مجالس مختلفة للفقهاء يوما ، وللاذباء يوما وللمتكلمين يوما ، وللمتفلسين يوما وافرقت أمورا خطيرة وتفقد أبا سعيد السريفي وعلى بن عيسى الرماني وغيرهما وعرض عليهم المسير معه الى الري (٨٩) . ولعل هدفه من ذلك ان يباهي بهؤلاء الصاحب بن عباد وغيره من خصومه الوزراء والامراء البويهيين الذين جمعوا حولهم حاشية من العلماء .

وحين تعرض للصاحب بن عباد حاجة لطبيب من الأطباء ، يكتب الى عضد الدولة في بغداد ان يلتبس له طبيبا . وبعد السؤال والمشاورات ، ينصح أن يبعث بأبي عيسى جبرائيل لا لعلمه بالطب فحسب ، بل لانه متكلم جيد للحجة عالم باللغة الفارسية ، وكأنه يختار عالما للمناظرة والاحتجاج لا العلم بالطب فقط . فلما وصل الى الري لقيه الصاحب وانزله احسن منزل ، حتى اذا مضت على اقامته مدة اسبوع امد له يوما عنده اهل العلم بأصناف العلوم ورتب لمناظرته انسانا من اهل الري . فيسأله هؤلاء في مسائل تتصل بالطب فيشرحها لهم شرحا وافيا ، ويطلب

(٨٨) آتياه الرواة ، ج ١ ص ٤١ .

(٨٩) مثالب الوزيرين ، ص ٢٧٠ - ٢٧٢ .

(٩٠) ميون الآتياء ، ص ٢١١ .

(٩١) تاريخ بغداد ، ج ١٢ ص ١٩٧ .

فلماذا تسرى تقوم مناظرة بين عالمين بهائين المنزلتين ، هل الغاية منها أن تقوم منزلة البصرة من الكوفة في النحو ؟ هل تكمن وراءها مطامح شخصية تنزى إلى الشهرة والنباعة ؟

تقول بعض المصادر ان سيبويه قصد يحيى بن خالد البرمكي ، وزير الرشيد ، فقال له : « جئت لتجمع بيني وبين الكسائي » . وتختلف الروايات في رد يحيى البرمكي على سيبويه ، فينقل ياقوت عن جماعة من نحويي الكوفة والبصرة بينهم المبرد ولعل أن يحيى رد عليه قائلا : « لا تفعل فإنه شيخ مدينة السلام وقارئها ، ومؤدب ولد أمير المؤمنين ، وكل من في المصر له ومعه » (٩٢) . ويفهم من كلام يحيى البرمكي أن هناك محاذير من التعرض لشيخ في منزلة كمنزلة الكسائي ، ليس عند الخليفة وحده بل عند أهل بغداد ، إذ أن « كل من في المصر له ومعه » . وفي هذا مجازفة تكفي لمنع شاب قدم ببغداد وحده وليس له فيها مؤيدون . لكن البغدادي ينقل روايته عن رواية الكوفة وحدهم ، فيأتي فيها رد يحيى بصورة مختلفة : « الكسائي عندنا رجل عالم لا يمتنع عن مناظرة أحد ، وأنا أقدم إليه في الحضور » (٩٣) . والفرق بين الجوابين أوضح من أن يدل عليه .

على أن بعض المؤرخين المتأخرين يلذهب إلى أن يحيى البرمكي هو الذي أراد أن يجمع بينهما لأنهما أماما الكوفة والبصرة في زمانه . فجمع بينهما قصدا . (٩٤)

وأخيرا يعين يوم للمناظرة بعد أن يستأذن

الخليفة في ذلك ويدعى كلا الطرفين . ويدعو أن سيبويه لم يكن في صحبته أحد من أصحابه أو من مؤيدي مذهبه ، « فلما كان ذلك اليوم ، غدا سيبويه وحده إلى دار الرشيد » (٩٥) . وكان الكسائي قد أحاط تلاميذه علما فحضر منهم جماعة قبل حضور شيخهم ، كان منهم الغراء والأحمر وهشام بن معاوية ومحمد بن سعدان . . (٩٦) . ولقد ساعد هؤلاء التلاميذ على توهين قوى خصمهم إذ بدأوا بمناظرته وناقوا المسائل عليه ، قبل حضور شيخهم الكسائي . ولم يقف الأمر عند حد المناقشة بل تعداه إلى التعريض والانتارة ، إذ كلما أجاب سيبويه بجواب ، قال له الأحمر « أخطأت يا بصرى » ، على مسمع من المجلس كله ، فغضب سيبويه وقال « هذا سوء أدب » ، وامتنع عن المناظرة حتى حضر الكسائي . وأخيرا حضر الكسائي ، وكأنه يدخل حلبة للمصارعة بعد أن وهنت شوكة خصمه ، وبدأ المناظرة بينهما . وبخلافان في المسألة النحوية المشهورة ، ثم تقوم قضية ، إذ من سيحكم بين الطرفين وهما عالما مصريهما . ويقال أنهما رجعا إلى بعض الأعراب الذين يوثق بفصاحتهم . فيحكم هؤلاء بما يراه الكسائي ويردون قول سيبويه . وهنا نسمع اتهامات البصريين توجه إلى الكوفيين . فقد ذهب أصحاب سيبويه إلى أن « الأعراب الذين شهدوا للكسائي من أعراب الحطمية الذين كان الكسائي يقوم بهم وبأخذ عنهم » (٩٧) . وقد قيل أكثر من ذلك في وصف نتيجة المناظرة ، يقول ياقوت « وتمصبوا عليه وجعلوا للعرب جعلاً حتى وافقوه على خلافه . . » (٩٨) . بينما يرد الكوفيون على رواياتهم بقولهم « فقال بعض

(٩٢) معجم الأدباء ، ج ١٦ ص ١١٨ - ٢١ .

(٩٣) تاريخ بغداد ، ج ١٢ ص ١٠٤ .

(٩٤) اتباه الرواة ، ج ٢ ص ٣٤٨ .

(٩٥) معجم الأدباء ، ج ١٦ ص ١١٨ .

(٩٦) المصدر نفسه . لكن البغدادي لا يذكر من تلاميذ الكسائي الذين حضروا غير الغراء والأحمر .

(٩٧) معجم الأدباء ، ج ١٦ ص ١٢١ .

(٩٨) المصدر نفسه ، ص ١١٩ .

فأبو بكر الخوارزمي يعد من أشهر أديابه القرن الرابع الهجري ، طلب الأدب وقام بنشره وكان له أتباع . وقد قلب في البلاد بين العراق والشام وفارس ، واتصل برجال عصره ، فلقني سيف الدولة الحمداني وخدمه ، ثم مضى إلى بخارى فنيسابور فسجستان . وقد كان مفضلاً عند صاحب بن عباد ، حتى لقد جعل له صاحب رسماً يصل إليه كل سنة ، وهو مقيم بنيسابور (١٠١) وقيل عنه أنه « كان يتعصب لآل يويه تمصبا شديداً » ، ولعل هذا كان من الأسباب التي جعلته يتعرض لظروف قاسية في حياته ، وهيات هذه الظروف جواً من التائب عليه ، ساعد عليه إعلان الخوارزمي عن رايه في سياسة بعض القواد ، إذ كان « يفض من سلطان خراسان ويطلق لسانه بما لا يقدر عليه » - كما يقول الثعالبى - (١٠٢) . إلى أن كانت أيام تماش الحاجب ورجع من خراسان إلى نيسابور منهزماً ، فتمت به وجعل يقول ، قبحا له وللوزير أبي الحسن المتبى ! ، قام هذا بمصادرة أمواله وقطع لسانه . وقبض عليه فعلا وأخذت أمواله ، إلا أنه استطاع أن يهرب إلى صاحب بن جرجان . وحدث أن قتل المتبى وقام مقامه أبو الحسين المزني ، وكان من أشد الناس حبا للخوارزمي ، فاستدعاه وأعاد إليه ما أخذ منه فارتفع شأنه عند ولاية نيسابور . وأن كان بعض وجوه نيسابور ظلوا مستوحشين منه . (١٠٢)

أما يدع الزمان ، فقد كان حين لقائه للخوارزمي ، أديبا شابا لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر ، يطلب الشهرة وقد استقرت أصولها عند الخوارزمي ، ويطلب التقرب من حكام عرفهم الخوارزمي وكان ذا منزلة رفيعة عندهم .

فما هو الطريق نحو الشهرة والمنزلة ، ولم

الجهال ان الكسائي واطا الاعراب من الليل حتى تكلموا بالذي اراده . وهذا قول لا يبرج عليه لان مثل هذا لا يخفى على الخليفة والوزير وأهل بغداد اجمعين (٩٩) . فالكويتيون فخورون بشيخهم ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أن بكرة المال التي دفعت إلى سيبويه لم تكن من يحيى البرمكي بل كانت من الكسائي نفسه ، أو بإيماء منه ، وكأنه أشفق على سيبويه بعد ما لحقه من خزي الخيبة والفشل .

لقد كان لهذه المناظرة أثر ظل يذكره الرواة حتى عصرنا هذا . ولعل من أهم آثارها عندنا ، ما أصاب سيبويه نفسه من خيبة وألم ، حتى لقد خرج وصرف وجهه تلقاء فارس ، وأقام هناك حتى مات شفا بالرب ، ولم يلبث إلا يسيراً ولم يعد إلى البصرة . ولهذا القول ، عندي ، احتمالان هما : أما أن المناظرة كانت من الأهمية في حياة العالم بحيث أنها توشك أن تقرر مجرى حياته ، لا العلمية فحسب بل حتى مصيره . أو أن الرواة المؤيدين للبصريين قد زادوا في وصف أثر المناظرة في سيبويه نفسه فجعلوها سببا في موته فما هو لا يزال في مرحلة مبكرة من حياته ، إذ تذهب هذه الروايات إلى أنه مات ولم يبلغ الأربعين من العمر . (١٠٠) وأنا أرجح الاحتمال الأول ، وذلك لأهمية هذه المناظرات العامة في الحياة العلمية ، ودليلنا على ذلك أمثلة أخرى من هذه المناظرات التي سجلتها لنا كتب تاريخ الأدب من كل عصر .

ففي القرن الرابع الهجري تجرى مناظرة لا تقل أهمية من هذه المناظرة ، وهي شبيهة بها من جهات كثيرة ، ومختلفة عنها في أمور أخرى . تلك هي المناظرة بين يدع الزمان الهمداني وأبي بكر الخوارزمي التي كان لها شأن عظيم في حياة هذين الرجلين .

(٩٩) تاريخ بغداد ، ج ١٢ ص ١٠٢ (رقم الترجمة - ٦٥٤) .

(١٠٠) معجم الأدباء ، ج ١٦ ص ١١٥ .

(١٠١) يتيمة الدهر ، ج ٤ ص ٢٠٤ - ٢٠٨ .

(١٠٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٨ - ٩ .

فعل الكسائي - يتقدم إليه بنفسه . وكأنه قرين له أو مساو لمنزلته . وهذا يكفي احترافا ضمنيا لآقارده له بالمنزلة المعادلة له ، وهو الأدب الشيخ الذي أقر الرؤساء له بالمنزلة . لكن يبدو أنه لم يكن للخوارزمي يد من ذلك .

وتستمر المناظرة بينهما أكثر من يوم . فبعد اللقاء الأول تدوم المناظرة حتى وقت متأخر من الليل ، حتى بات القوم في مجلسهم وقد غلب عليهم النعاس ، ثم أصبحوا فتغرقوا .

ويقوم البديع بمناورة أخرى محاولا إهداد الطرف للجولة التالية ، وقد وثق من نفسه بعد أن وجد الجو ملائما له . فيزور أبا بكر ويعتذر إليه عما بدر منه في مناقشته الأولى فينتصفايان . ويبدو أن الجو تهيأ فعلا لبديع الزمان عند أهل نيسابور ، إذ كان « بعض الرؤساء مستوحشامن الخوارزمي وهيا مجمعا في دار الشيخ السيد أبي القاسم الوزير » (١٠٦) ، وكان ذلك للمرة الثانية ، وحضره جماعة من العلماء . وقبل بدء المناظرة يلقي بديع الزمان قصيدة في مدح آل البيت ، متقربا بها من شيوخ المجلس .

وتبدأ المناظرة بينهما في مسائل أدبية وشعرية ولغوية . ولو صدقنا ما تنقله الروايات من وصف لهذه المناظرة ، لرأينا مدى غلبة صلف الشيباب وأندفاعه على بديع الزمان ، وقد وجد الاسماع تنحاح إليه . وأذكر مثلا على ذلك هذا الجزء من المناظرة :

ينشد بديع الزمان البيتين التاليين :
مهلا أبا بكر فزئلك أخسيق
وأخسر من فان أخالك حسي برزقي
يا أحمقا وكفأك تلك فضيحة
جسريت ناز معسرتي هل تحرق

لا يتحدث أدبيا وشيخا معروفا ، ولم لا يكون هذا المتحدث على مشهد من علماء عصره ؟ . أنها فرصة إذا خسرها لم يخسر إلا جولة ، وهو لا يزال شابا في أول الدرب .

إن أول مناورة يقوم بها البديع في هذه السبيل هي أنه حالما وصل إلى نيسابور ، وقد عاد إليها الخوارزمي واستقر بها ، كتب إليه كتابا بالتعظيم والتبجيل في المخاطبة يطلب فيه لقاءه . وبعد أن يلتقي به أول مرة ، يكتب بديع الزمان كتابا آخر إليه يعاتب فيه على سوء لقائه . (١٠٣) ويعتذر الخوارزمي إليه ويتكاتبان بالقتاب التعظيم والمخاطبة ، ب (الشيخ سيدي) و (الأستاذ سيدي) ، التي على المبالغة فيها ، لا تعني شيئا خاصا ، لأنها سمة من سمات التأدب التي عرف بها البصر ، وهي مألوفة في المخاطبات الفارسية بصورة خاصة . وقد أثبت ياقوت رسالتهما بهذا اثثنان . (١٠٤)

ولا يكفي البديع بذلك بل يسعى إلى لقاء الخوارزمي في مجلس عام . ويبدو أن هناك اتجاه في نيسابور كان يسعى لتحديد منزلة الخوارزمي ، يقول أبو الحسن بن أبي القاسم البيهقي « وأمان البديع الهمداني قوم من وجوه نيسابور كانوا مستوحشين من أبي بكر ، فجمع السيد نقيب السيادة في نيسابور أبو علي بينهما وأرادهم (أي أبا بكر الخوارزمي) على الزيارة ، ودأروا بأعلى لقاءات ترفع ، فبحث إليه السيد مزكويه . . . » (١٠٥)

وهكذا يضطر الخوارزمي إلى لقاء هذا الأدب الشاب في ظروف لم تكن صالحة تماما ، كما كانت للكسائي عند لقائه مسجوبه . ويحضر الخوارزمي تحيط به جماعة من تلاميذه ، لكنه بدلا من تقديم بعض تلامذته للحلبة أولا - كما

- (١٠٣) معجم الأدباء ، ج ١ ص ١٨٦ - ٨٧ .
(١٠٤) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٦٧ ، ص ١٨٨ - ١٩٩ .
(١٠٥) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٧٣ .
(١٠٦) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٧٩ .

هذا هو شأن هذه المناظرات في الحياة العلمية لهذه العصور . ولا يقل شأنها عن مناقشات الرسائل العلمية في عصرنا ، بل لقد كان إرثها أبعد وأسبر غوراً ، لأنها شملت ذوي المكتبة والتمرس في العلم ولم يسلم منها الشيخ ، ولم يكن إرثها بأقل شأنًا في تقرير مصيرهم عند معاصريهم .

لقد شملت هذه المناظرات أصحاب العلوم والمناهج المختلفة ، ولم تقتصر على المختصين بعلم واحد . ولقد شهد القرن الرابع الهجري أصنافاً من هذه المناظرات كان لها من الصيت ما جعلها تفرض نفسها على المؤلفين فرضاً ، فنقلت بدقة أكبر لأنها دوّنت أثناء جرياتها . ولعل من أشهر مناظرات هذا القسرن ، تلك المناظرة التي قامت بين شيخين ، لكل منهما - في علمه الذي اختص به - منزلة لا تقل عن منزلة صاحبه . وقد زاد من قيمة هذه المناظرة أن آراء هذين الشيخين تمثل اتجاهين بارزين في هذا العصر . وقيل الحديث عن هذا الأمر لا بد من عرض شيء يتصل بهما .

الشيخان هما : الحسن بن عبد الله أبو سعيد السمرقاني ، العالم النحوي المعروف ، قال عنه ابن الأثير : « انه كان من أكابر الفضلاء وأفاضل الأدباء ، زاهداً لا نظير له في علم العربية . وكان أبوه مجوسياً . وصنف تصانيف كثيرة أكبرها (شرح كتاب سيبويه) ولم يشرح كتاب سيبويه أحد أحسن منه . ولو لم يكن له غيره لكفاهه فضيلاً » (١١٠) . وكان ابن أعلام الناس بنحو البصريين . وقد فضل أبو حيان التوحيدى على كثير من نحوي عصره لأنه اجتمع لشمس العلم وانظم المذاهب العرب وأدخل في كل باب وأخرج من كل طريق وألزم للجدادة

والتعريض بأبي بكر الخوارزمي ، في هذين البيتين لا يحتاج إلى الدلالة عليه والإشارة إليه . ومع ذلك ، تقول الرواية ، أن الخوارزمي قال : « يا أحمقاً ، لا يجوز فاته لا ينصرف » . فيجيبه البديع : « لا تزال نضعك حتى ينصرف وتنصرف معه » (١٠٧)

ولو صح هذا الأمر فاته خروج ظاهر على أدب المناظرة ، لا سيما إذا كان يصدر من مناظر شاب نحو شيخ كبير السن . ولا أدري كيف يسكت أهل المجلس على سوء الأدب هذا ، وبخاصة إذا علمنا أن المناظرات كانت تلتزم بأداب معينة منسومة كان على الطرفين أن يراعيها . إلا أن يكون هناك توافق على إخراج الخوارزمي . أما آداب المناظرة ، فسأعرض لها فيما بعد ، وهي أن دلت على شيء فأنما يدل على تضج العلم والعناية به ، حتى إذا بلغنا القرن الرابع للهجرة ، زسخت كثير من عاداته وأصبحت قواعد يلتزم بها .

ولا يكفي البديع بهذا حتى يهزأ بالخوارزمي على سماع الناس وفي مشهد منهم ، إذ يقال انه قام وقيل رأس الخوارزمي ويده وقال « أشهدوا أن القلبة له » . قال ذلك على سبيل الاستهزاء (١٠٨) .

لقد كان لهذه المناظرة آثار بعيدة في حياة هذين الرجلين ، فالأورخون يذهبون إلى أن نجم بديع الزمان قد تألق على أثر ذلك ، وقيد خلا له الجو ، وخاصة بعد موت الخوارزمي الذي قيل عنه انه « عاد إلى بيته وانخسول انخرالا شديداً وانكشف باله وانخفض طرفه ، ولم يحل عليه الحول حتى خاته صرعه ، وذلك في شوال سنة ثلاث وثماتين وثلاثمائة .. » (١٠٩) . وكان مولده في سنة ٣٢٣ هـ .

(١٠٧) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٧٦ .

(١٠٨) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٨٢ .

(١٠٩) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٨٠ - وثيقة العصر ، ج ٤ ص ٢٠٩ .

(١١٠) نزهة الألباء ، ص ٢١١ - ١٢ .

فالفرعون (وآلهم النحو) يرون جانباً من الحقيقة يختلف عما يراه الفلاسفة (وآلهم المنطق) منها . والمفاضلة تجري بين هاتين الآلتين .

ودب سائل يسأل : ما هي المناسبة بين النحو والمنطق حتى يقوم شيخان من شيوخ هذا العصر ليتناظرا فيها ؟ . ولعل الإجابة على هذا السؤال تكمن في طبيعة النشاط العلمي لهذا العصر وظروفه المحيطة به .

يمتاز القرن الرابع الهجري بنشاط ملحوظ في العلوم العقلية وباتجاه المشتغلين بهذه العلوم إلى الإفادة من الفلسفة اليونانية بنطاق واسع تأسست على أثره قواعد الفلسفة الإسلامية مستقلة شيئاً فشيئاً من الدراسات الدينية والعلوم الشرعية والنقلية . ولقد كان أكثر القائمين بهذا النشاط الفلسفي ذوي ثقافة يونانية أو اطلاع على العلوم اليونانية بواسطة السريانية . ولقد أدى هذا النشاط إلى ضرورة التمييز بين منهج العلوم العقلية - وعلى رأسها الفلسفة - ومنهج العلوم النقلية - وعلى رأسها الشريعة - لم التفسير واللغة . وهو منهج يختلف في السبيل التي يسلكها إلى الحقيقة . ولقد هيب على بعض متكلمي هذا العصر خلطهم بين المنهجين ، إذ تناولوا الشريعة والفلسفة بمنهج واحد ، فلم يأتوا بشيء . ولعل ما قام به أخوان الصفا للتوفيق بين العلوم المختلفة والفلسفات والأديان والمقائد يقف مثالا بارزاً على هذا الخلط المقصود بين مناهج متعددة المجالات . ولعل خير من هب من هذا التمييز بين منهجي الشريعة والفلسفة ، أبو سليمان السجستاني المنطقي ، وقد مر بنا

الوسطى في الدين والخلق ، وأروى في الحديث وأقصى في الاحتكام وافقه في الفتوى وأحضر بركة على المختلفة وأظهر أثاراً في المقنبسة . (١١١) .

أما الطرف الآخر في المناظرة فهو متى بن يونس التتائي ، وهو من العلماء النصاري ، وصفه القفطي بأنه عالم بالمنطق شارح له ، مكثر وطيه الكلام قصده التعليم والتفهيم ، وعلى كتبه وشروحه اعتماد أهل هذا الشأن في عصره ومصره (١١٢) ، وقال عنه ابن النديم أنه من أهل دير قنى ممن نشأ في اسكول مرماري . . . وأليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره . (١١٣) ويبدو أن شروحه في المنطق يعول عليها الناس في القراءة . وقد نقل عن السريانية وشرح كتب المنطق اليوناني . (١١٤)

فالمناظرة إذن بين نحوي ومنطقي . أما موضوع المناظرة فهو المفاضلة بين النحو والمنطق . وليس هناك من شك في أن محاوره كهذه قد جرت فعلاً . (١١٥) فهي فضلاً عن وصولها إلينا بدقة ، لأن الوارفين أحضروا محابريهم والواهم وكتبوها عندما كانت تجري ، (١١٦) وفي هذا من الدليل ما فيه على ما يلقه العلماء من الأهمية على هذه المناظرات . أقول ، فضلاً عن ذلك ، ليس بغير أن تقوم مفاضلة بين النحو والمنطق بين شيخين من شيوخهما ، لأنها تمرير من الدفاع عن منهجين مختلفين من مناهج الفكر في هذا العصر . كل منهج يتخذ آلة معينة للتوصل إلى الحقيقة التي يطلبها ، وبالتالي ينظر إلى الحقيقة من الوجهة التي توصله إليها وسيلته .

(١١١) الاستماع والمقنبسة ، ج ١ ص ١٢٩ .

(١١٢) تاريخ الحكماء ، ص ٢٢٢ .

(١١٣) الفهرست ، ص ٣٨٢ .

(١١٤) تاريخ الحكماء ، ص ٢٢٢ .

(١١٥) انظر المقالة التي كتبها المستشرق Margolin.th مناقشا مدى صحتها التاريخية في :

Journal of the Royal Asiatic Society. (1905) PP. 79-91

(١١٦) الاستماع والمقنبسة ، ج ١ ص ١٢٨ .

العلماء في هذا القرن للاطلاع على ما ينسج من كتب في ذكائن الوراقين . كانوا يلتقون فيها فيلقى بعضهم على بعض مسائل يختبرون فيها علمهم وقابليتهم على المناظرة . ومن هذا المعين الزاخر استقى أبو حيان التوحيدى مادة كتبه ، فجاءت مفعمة بتلك المناظرات التي كانت تدور في كل مناسبة بين اصحاب المذاهب المختلفة .

ومن اقرب هذه المناظرات الى الموضوع الذي نحن فيه ، تلك المناظرة التي تدور بين المقدسى (وهو أبو سليمان محمد بن معشر البيسطي) والحريري (غلام ابن طرارة ، في المفاضلة بين الشريعة والفلسفة . وقد ابتها أبو حيان في الامتاع .

(١١٩)

اما مناظرة السراقي ومتي بن يونس ، فهي على أهميتها لم تقرر شيئا في مصر النحوي أو المنطق . ولعل أول ما بلغت النظر في هذه المناظرة أنها مرتجلة لم تعيا بسابق موعد ، ولم يتبع المتناظران منهجا مرسوما ، ولذلك قد تبدو المسائل فيها مرتبكة وغير واضحة العلاقة .

جرت المناظرة في مجلس الوزير ابن الفرات ، وزير المقتدر . وكان ذلك سنة ٣٢٦ هـ .

وقد حضر المجلس جمع من جلة العلماء . وابتدأ ابن الفرات اصحاب المجلس قائلا : لا ينتدب منكم انسان لمناظرة متى في حديث المنطق ، فانه يقول ، لا سبيل الى معرفة الحق من الباطل ، والصدق من الكذب ، والخير من الشر ، والصحة من الشبهة ، والشك من اليقين ، الا بما حوينا من المنطق وملكتنا من القيام به واستفدنا من واضعه على مراتبه وحدوده ، فاطلعنا من جهة اسمه على حقائقه . . . فاجم القوم وأطرقوا .

(١٢٠)

ذكره في أول هذا البحث ، وهو ممن عني بالفلسفة وعاش في معمعة هذا القرن . وقد كان أبو سليمان نفسه تلميذا لمتي بن يونس ، قرأ عليه وتصدر لافادة هذا الشأن وقصده الرؤساء والاجلاء . وكان أبو حيان - كما رأينا سابقا - أحد المتصلين بالمعتصمين به . (١١٧) ولقد تعرض أبو حيان عليه جملة من رسائل اخوان الصفا كان قد وجدها ماثورة في سوق الوراقين - كما يقول - ، فحملها الى شيخه ليعرف رأيه فيها . فنظر فيها اياما واعادها اليه . وكان أول نقد يوجهه السجستاني الى هذه الرسائل قوله :

« تعبوا وما اغنوا ونصبوا وما اجدوا وحاموا وما وردوا وغنوا وما طربوا ، ونسجوا فلهلوا ، ومشطوا ففلقوا ، ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع ، ظنوا انهم يمكنهم ان يدسوا الفلسفة التي هي علم النجوم والافلاك والمجسطى والقادير وآثار الطبيعة والموسيقى التي هي معرفة النجوم والاقايعات والفترات والاوزان ، والمنطق الذي هو اعتبار الاقوال بالاضافات والكميات والكيفيات - في الشريعة ، وان يضموا الشريعة الى الفلسفة .

وهذا مرام دونه حدد وقد توفر على هذا قبل هؤلاء قوم كانوا احد انبياء واحضر اسبابا واعظم اقدارا وارفع اخطارا واوسع قوى وأوثق عرا ، فلم يتم لهم ما ارادوه ، ولا بلغوا منه ما املوه وحصلوا على لوثات قبيحة ، ولطخات فاضحة والقباب موحشة ، وهواقب مخزية وأوزار مثقلة . . . (١١٨) فالفرق بين الشريعة والفلسفة فرق جوهري في المنهج الذي تسلكه كل منهما في الوصول الى الحقيقة . ومن هنا قام علماء هذا القرن بالمناقشة والمفاضلة بين هذين الاتجاهين في كل مناسبة . ولقد جرت تحديات بهذا المعنى بين اصحاب الشريعة واصحاب الفلسفة في سوق الوراقين التي كانت اشبه بمنتهى يجتمع فيه

(١١٧) تاريخ الحكماء ، ص ٢٨٢ .

(١١٨) الامتاع والمؤانسة ، ج ٢ ص ٦ .

(١١٩) الامتاع والمؤانسة ، ج ٢ ص ١١ - ١٨ .

(١٢٠) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٠٨ .

هو كذلك ، لكنه - على ما يقول ابو حيان - متقذ بالفيظ على ابي سعيد وبالحسد له ، كيف تم له تفسير كتاب سيبويه من اوله الى آخره ، بفرجه وأمثاله وشواهد وأبائه (١٢٤) . ولقد بلغت المنافسة بينهما حدا حتى أن أبا علي اشترى شرح ابي سعيد للكتاب الا أن أصحابه أبا الإقرار بذلك وزعموا أنه أراد النقض عليه وإظهار الخطأ فيه . ولعل هذه المناقشة بين هذين العالمين قد أثارت معاصريهما ودفعت أحد أمراء هذا العصر الى التفكير في الجمع بينهما في مناقشة عامة أيضا ، فلم يقض له ذلك - كما يقول ابو حيان - لأن أبا سعيد مات في رجب سنة ثمان وستين وثلاثمائة . (١٢٤)

فالمناظرات في هذا العصر امتحانات علمية منظمة ، وتناجها تنتشر في الدوائر العلمية فتشتر اهتمام جميع العلماء ممن حضر أو لم يحضر المجلس . ويبدو من أخبار ابي سعيد السرياني التي ينقلها ابو حيان ، وهو تلميذه في النحو ، أن الشيخ قد تعرض لهذه المواقفات غير هذه . ويبدو أنه لم يكن موافقا فيها جميعا . فقد جوبه بمسألة في مجلس ابي الفتح ابن العميد ذات مرة ، وقد تحدها العامري ، وهو أحد فلاسفة هذا العصر ، من بنا ذكره سابقا ، وفاجاه بسؤال لم يكن يجول في وهمه . لكن أبا سعيد تخلص من الجواب بلاغة لسانية لا قيمة لها في الميزان العلمي أو الفلسفي لهذا العصر . ويبدو أن ابن العميد نفسه قد التفت الى خروج موقف السرياني ، فأدار دفة الحديث نحو وجهة أخرى . وفيما يلي الخبر عن ابي حيان لما فيه من طرافة في وصف هذه المواقف ، يقول :

انعتد المجلس في جمادى الآخرة سنة اربع وستين وثلاثمائة ، وغص بأهله . فرأيت العامري

ويبدو أن متى بن يونس كان مستبدا بهذا العلم وقد أثار حفيظة من حوله بكبريائه . ومع ذلك يتعيب العلماء من مجابته في هذا المقام . فيمنعهم ابن الفرات على أحجامهم وتغامزهم وترامزهم ، وهو يدهم في العلم (بحار) - كما يقول - . فيجيبه السرياني قائلا :

اعذر أيها الوزير فإن العلم المصون في الصدر غير العلم المروض في هذا المجلس على الاسماع المسيخة والمعون المحدث والمقول الحادق والالباب الناقدة ، لأن هذا يستصحب الهبة ، والهبة مكسرة ، ويحتلب الحياء ، والحياء مفلبة . وليس البراء في معركة خاصة كالمصاغ في بقعة عامة (١٢١)

لكن السرياني ما يلبث حتى يقدم ، مترددا أول الامر ، ثم والثاق من نفسه بعد قليل . ويبدو أن تحيز المجلس له كان من الدوافع التي نشطته فادعش الحاضرين بتدقيقه بكلام ما كان يظن أنه قادر عليه . وقد نقل علي بن عيسى الزماني أحد العلماء الذين حضروا المجلس ، وصفا لما انفض عليه المجلس ، يقول فيه : وتقوض المجلس وأهله بتعجبون من جاش ابي سعيد الثابت ، ولسانه المتصرف ووجهه المتلهل وفوائده المتتابعة (١٢٢) . ويسال ابو حيان على بن عيسى قائلا : أما كان ابو علي القسوى (وهو من أئمة النحو في هذا العصر أيضا) ، حاضر المجلس ؟ قال ، لا ، كان غالبا ، وحدث بما كان ، فكان يكتم الحسد لابي سعيد على ما فاز به من هذا الخبر المشهور والثناء (١٢٣) .

والسبب في هذا التحاسد أن أبا علي كان هو الآخر ممن انتصب على النحو ، وكانت بينه وبين ابي سعيد السرياني منافسة في هذا العلم . وقد قام ابو علي بشرح كتاب سيبويه

(١٢١) المصدر نفسه ، ص ١٠٩ .

(١٢٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .

(١٢٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ .

(١٢٤) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٢١ .

العالية ، لا يزال يعرض لهذه الامتحانات العلنية .

لقد أصبحت المناظرات ذات شأن في القرن الرابع ، تخضع لنظام واضح المعالم ، لا يقل في درجة نضوجه ، عن نظام (المناقشات الأكاديمية) التي تعرف في الجامعات اليوم بـ (Seminars) . ولست أقصد إلى البالية فيما أذهب إليه ، فقد اجتلب انتباهي في وصف هذه المناظرات ، وبخاصة في القرن الرابع ، أنها منظمة تنظيما تخضع فيه لقواعد وآداب معينة لا بد أنها قد تطورت عبر العصور حتى وصلت إلى صورتها الناضجة هذه . ولا شك أن العلماء قد توصلوا إلى هذه القواعد العامة نتيجة لتجاربهم التي مروا بها في المناظرات المختلفة فجالس المصور الأولى بسيطة ومباشرة ، وهي في الأغلب ، لا تقوم بسابق تنظيم ، فكانت تجري في حلقات المساجد والمجالس العامة عرضا ، حتى تنبه إلى أهميتها بعض الخلفاء ، فأصبحت تعقد بسابق علم . ولعل المأمون من أوائل الخلفاء العباسيين الذين عتوا بالجدل وبإقامة مجالس خاصة لهذا الغرض . وربما شارك هو نفسه في إدارتها وتوجيهها . وما تلبث هذه التحديات أن تنتقل من (المناظرة) العاطفية المرتجلة التي تقوم على أسس أخرى ، إلى (المناظرة) التي تقتضي التخصص العلمي والتمق في هذا التخصص ، والتعرف على جميع دقائقه . لأن النتائج الثرية عليها أصبحت عامة ولم تعد فردية ، وأصبحت تعبيراً عن المدارس الفكرية والعلمية وعن المنافسة الشديدة بين مناهجها المختلفة . ولقد كان للمعتزلة الفضل الأول في العصر العباسي في إحلال الجدل هذا المكان الأول في مجالسهم . وقد أدرك المتجادلون بخيرتهم أن هناك قواعد يجب أن تخضع لها الأطراف المتجادلة ، إذا كانوا يطلبون الحقيقة ، وهي مطلب عالمي ، لا الإثارة العاطفية التي هي أولى بالعامية . ونسمع من آداب المناظرة قولهم : قيل لا يميل إلى الطبة والبجاجة إلا من عجز عن الغلبة بالحجاجة .

وقد انتدب فسأل أبا سعيد السرياني ، فقال ، ما طبيعة الباء من (بسم الله الرحمن الرحيم) ؟ فحجب الناس من هذه المطالبة ، ونزل بأي سعيد ما كاد يشده به . فأنقذه الله بالسحر الحلال ، وذلك أنه قال ، ما أحسن ما أذبتنا به بعض الموقنين من المتقدمين فإنه قال :

وإذا خطبت على الرجال فلا تكن
خطل الكلام تقوله مختالا
واعلم بأن من السكوت لبابة
ومن التكلف ما يكون مسحالا

والله يا شيخ ، لعينك أكبر من فرارك ، ولمرآك أوفى من دخلك ، ولمنشورك أبين من مطوك . فما هذا الذي طرعت له نفسك ، وسدد عليه راك . اني اظن ان السلامة بالسكوت تعافك ، والنجبة بالقول ترفب عنك . والله المستعان . « وهنا يتدخل ابن العميد ويظهر إعجابا بالسرياني فينشد أياك من الشعر ثم يقول : هاتوا حديثا آخر فقد يثسنا من هذا . ثم أقبل على ابن فارس معلبه فقال ، يثسنا من كلام أصحابك في الغرضه والشط . ثم يقول أبو حيان فلما خرجنا قلت لأبي سعيد السرياني ، أيها الشيخ ، رايت ما كان من هذا الرجل الخطير عندنا ، الكبير في أنفسنا . فقال ، ما دهيت قط بمثل ما دهيت به اليوم . ولقد جرت بيني وبين أبي بشر متى صاحب شرح كتب المنطق سنة عشرين وثلاثمائة في مجلس أبي الفتح جعفر بن الفرات ، ملحمة كانت هذه أشوس وأثرس منها (١٢٥) . وكان المامري أخذ يثار المناطقة من النحويين . وبهذه المناسبة يحدث السرياني أبا حيان بتفاصيل مناظرته مع مثني (بزوبرها) ، كما يقول التوحيدى ، وهم مرور أكثر من أربعين عاما عليها - كما جاء في تاريخ السرياني لها . ومن الجدير بالذكر أن السرياني الآن قد جاوز الثمانين من العمر . فهو ، على منزلته العلمية

وقال المأمون لهاشمي حضر مجلسه فناظره وشغب :

لا ترفعن صوتك يا عبد الصمد

ان الصواب في الاسد لا الأشد (١٢٦)؛

وقيل « اجتمع متكلمان فقال احدهما هل لك في المناظرة ؟ . فقال ، على شرائط : ان لا تغضب ، ولا تعجب ، ولا تشغب ، ولا تحكم ، ولا تقبل على غيبي وأنا اكلمك ، ولا تجعل الدموى دليلا ، ولا تجوز لنفسك تاويل آية على مذهبك الا جوزت الى تاويل مثلها على مذهبي ، وعلى ان تؤثر التصادق ، وتنفذ التعارف ، وعلى ان كلاما مثالي يتي مناظرته على ان الحق فضالته والرشد غايته .. » (١٢٧) .

ويبدو من مناظرات القرن الرابع أنها لم تكن تعقد بتعيين مسبق فحسب ، بل هي منظمة تنظيما دقيقا ، لا سيما اذا كانت المناظرة بين مجموعة من العلماء ، لا بين شخصين فقط . حينئذ نجد عالما يترأس المجلس ويقوم بترتيب الكلام ، ويعطي المتناظرين الفرص المناسبة للسؤال والرد . وهو أشبه بما يعرف عندنا اليوم برئيس الجلسة (chairman) :

ذكر أبو حيان مجلسا شهده في عصر عز الدولة في بغداد ، وكان يرأس الجلسة أبو الوفاء المهندس . يقول أبو حيان : « ولقد رأيت أبا عبد الله البصري في مجلس عز الدولة سنة ستين (يعني وثلاثمائة) ، في شهر رمضان . والجماعة هنا أبو حامد البرورودي ، وأبو بكر الرازي ، وعلي بن عيسى ، وابن نبهان ، وابن كصمب الأنصاري ، والأبهري ، وابن طرارة ، وأبو الجيش شيخ الشيعي ، وابن معروف ، وابن أبي شيبان ، وابن قريصة ، وأمس كثير . وهو في

أبوان فسيح في صدره من حضروا من أجله . وأبو الوفاء المهندس نقيب المجلس ومروثب القوم » (١٢٨) . ويبدو من كلام أبي حيان ان رئيس الجلسة كان منحازا الى أحد الأطراف المتناظرة ، اذ كان مع أبي عبد الله البصري الذي تحدثاه القوم بجملة مسائل ، لأنه كان قد كثرهم وادعى مذهبا معيناً . فلما وجد أبو الوفاء ان أبا عبد الله البصري قد ارتبك ولم يعد قادرا على الجواب ، تدخل ليخفيه من الإجابة ، محتجاً بأنه مريض ويخشى عليه الانتكاس ، يقول :

« ثم قام علي بن عيسى الشيخ الصالح وقال : هذا مجلس يبتى بحضوره لشرفه ويفخر بالكلام فيه لكثرة من يعرف وينصف . والمناظرة فيه مأمونة ، وليس في كل أوان يتفق هذا الجمع . وبيننا وبين هذا الشيخ - يعني أبا عبد الله - مسألة من أجلها ومن أجل نظائرها قد استجاز تكفيرنا وتضييقنا والتشنيع علينا ، وتغير المقتبين منا . وهأنذا قد ابتدأت سبالا ، فلينصر مذهبه كيف شاء ، وإنما هو دين يجب أن نبحت عنه من العارفين . فقال عز الدولة : كلام منصف ، ما أسمع بأسا ولا أرى ظنة تحت بذلك على الجواب . فاصفر أبو عبد الله وقلق ، وفطن أبو الوفاء ، وكان ضلعه معه وصفوه له ، فحال بينه وبين الأمير وقال : الشيخ عليل ، وإنما حضر للخدمة ، وبعض ظلمانه ينوب عنه ، ولا ينبغي أن يتعب فيحامي جسمه ، ويخاف نكسه ويصير ما قصد من قضاء حقه في التجميل بحضوره سببا للتالم » (١٢٩) .

وبعضي أبو حيان في نقل أجزاء أخرى من هذا المجلس . ومن الواضح أنه يمي أهمية هذه المجالس ، فلا يكتفي بنقلها في كتبه ، بل نجده يعني عناية خاصة بتأريخها بالسنة والشهر ، بل واليوم ان أمكنه ذلك . ومن الطريف أنه ، مع

(١٢٦) معاضرات الأدباء ، (ياقوت - ١٩٦١) ، ج ١ ص ٧٧ .

(١٢٧) المصدر نفسه ، ص ٧٨ .

(١٢٨) مثالب الوزيرين ، ص ١٢٧ - ٢٨ .

(١٢٩) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .

أشدها عليه تلك الخصومة بينه وبين صاحب وابن العميد التي أضاعت كثيرا من طاقاته العلمية، وفوت علينا أمورا أكثر طرافة وأهمية في هذا المجال . فقد اعتلر من نقل المناظرة مع أبي عبد الله ، مارة الذكر ، قائلا : « ولولا أن هذه الرسالة (يعني مثالب الوزيرين) لا تحمل المسألة والجواب ، بما فيها من فنون القول ، لابت بالجلس على وجهه » (١٢٦) .

وهكذا نشأت الحركة العلمية في العصور العباسية ، وتطورت وسط معمة من الخصومات العلمية التي لم تخل أحيانا من الإندفاعات العاطفية التي لا تخلو منها الحياة الإنسانية . ولذلك فهي ، بصورها المختلفة ، إنسانية في هيكلها وطبيعتها ، دفعت رغم كل شيء بالحركة العلمية إلى الأمام . رحمهم الله جميعا .

جملة من الوراقين ، ربما أحضروا أوراقتهم ومحاورهم فيقومون بنقل الحديث متناوبين . فقد روى ذات مرة حديثا مفصلا للصاحب بن عباد عن أبي حامد المروذي . فيسأله صاحب كيف استطاع أن يحفظه ، فيجيبه قائلا « كنا جماعة نتعاون على ذلك ويرسم في الواح » (١٢٠) . ولذلك تأتي كتب أبي حيان ، أحيانا كثيرة ، أشبه بمحاضر لهذه المجالس . فقد كان كتاب المقابسات تدوينا لما كان يدور في مجلس أبي سليمان السجستاني من محاورات بينه وبين فلاسفة عصره ، وهي محاورات لا تقل أهمية في طبيعة الموضوعات التي تطرقها ، عن محاورات أفلاطون . لكن مما يؤسف له أن أبا حيان ، على اهتمامه بهذه المناظرات ، قد اعتلر أحيانا عن نقلها كاملة ، لأنه شغل بموضوعات أخرى ،



(١٢٠) المصدر نفسه ، ص ١٥٢ .

(١٢١) المصدر نفسه ، ص ١٤٠ .

- ١٨ - السراشب الأصفهاني - محاضرات الأدباء (بيروت - ١٩٦١) .
- ١٩ - روزنتال (فرانتز) - مشاهير العلماء المسلمين ، ترجمة أنيس فريضة ، (بيروت - ١٩٦١) .
- ٢٠ - الزجاجي (عبد الرحمن بن اسحاق) - مجالس العلماء (التراث العربي - الكويت - ١٩٦٢ - تحقيق عبد السلام هرون) .
- ٢١ - السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر) - بنية الوفاة (القاهرة - ١٩٦٤/٦٥) .
- ٢٢ - السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر) - الزهر (ط - البابي الحلبي - سنة ٢) .
- ٢٣ - ابن الطلفغا (محمد بن علي) - الفصوى في الآداب السلطانية (صادر - بيروت - ١٩٦٦) .
- ٢٤ - الطبراني (عبد اللطيف) - محاضرات في تاريخ العرب والإسلام (بيروت - ١٩٦٢) .
- ٢٥ - القالي (اسماعيل بن القاسم) - الإمالي (للكتب التجارية - بيروت - من طبعة دار الكتب المصرية) .
- ٢٦ - ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم) - تأويل مختلف الحديث (القاهرة - ١٣٢٦ هـ) .
- ٢٧ - القفطي (علي بن يوسف) - إنباء الرواة على إنباء التحاة (القاهرة - ١٩٥٠/٥٢) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
- ٢٨ - القفطي (علي بن يوسف) - تاريخ الحكماء (لبيزك - ١٩٠٣) .
- ٢٩ - الجرد (محمد بن يزيد) الكامل في الأدب (مكتبة النهضة المصرية - ١٩٥٦) .
- ٣٠ - ابن التميم (محمد بن اسحاق) - الفهرست (القاهرة - سنة ٢) .
- ٣١ - ياقوت الحموي - معجم الأدباء (القاهرة - ٢٨/١٩٣٦) .
- ٣٢ - Patton (W.M.), Ahmad b. Hanbal and al-Mihna, (Brill-1897)

المقالات

- ١ - مقالة بعنوان (خواطر في الأدب العربي) من كتاب :
1. Gibb (H.R.A.), Studies on the Civilization of Islam, Routledge and Kegan Paul, 1962
2. Margoliouth, Journal of the Royal Asiatic Society, 1905.

- ١ - ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أحمد بن القاسم) - عيون الأنباء في طبقات الأطباء (دار الحياة - بيروت - ١٩٦٥) .
- ٢ - أخوان الصفا - رسائل (بيروت - ١٩٥٧) .
- ٣ - الأتباري (كمال الدين عبد الرحمن بن محمد) - نزهة الألباء في طبقات الأدباء (مطبعة المعارف - بغداد - ١٩٥٩) .
- ٤ - بروكلمان (كارل) - تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد العظيم النجاشي ، (دار المعارف - القاهرة - ١٩٦١) .
- ٥ - البغدادي (أحمد بن علي) - تاريخ بغداد (مطبعة السعادة - القاهرة - ١٩٣١) .
- ٦ - البغدادي (عبد القادر بن طاهر) - الفرق بين الملوك (القاهرة - ١٩١٠) .
- ٧ - التوحيدي (أبو حيان) - الانتاع والمختراسة (لجنة التأليف - القاهرة ١٩٥٣) تحقيق أحمد أمين وسيد صقر .
- ٨ - التوحيدي (أبو حيان) - مثالب الوزراء (تحقيق إبراهيم كليلي - دمشق - ١٩٦١) .
- ٩ - التوحيدي (الحسن بن علي) - الفرج بعد الشدة (بغداد - ١٩٥٥) .
- ١٠ - الثعالبي (عبد الملك بن محمد) - اللطائف والفرائف ، ترتيب المقدسي من مؤلفين للثعالبي هما اللطائف والفرائف واليوافيت في بعض المواضع (القاهرة - ١٩٠٠) .
- ١١ - الثعالبي (عبد الملك بن محمد) - بتيمة الدهر (مطبعة السعادة - القاهرة - ١٩٥٦/٥٨) .
- ١٢ - الجاحظ (عمرو بن بحر) - البيان والتبيين (لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٤٨/٤٩) تحقيق عبد السلام هرون .
- ١٣ - الجاحظ (عمرو بن بحر) - الحيوان (ط - البابي الحلبي الثانية - القاهرة - تحقيق عبد السلام هرون) .
- ١٤ - الجاحظ (عمرو بن بحر) - رسائل الجاحظ (القاهرة - ١٩٦٤ - تحقيق عبد السلام هرون) .
- ١٥ - الجهنشيري (محمد بن عيسى) - الوزند والكشاف (ط - البابي الحلبي - ١٩٤٨) تحقيق مصطفى السقا وآخرين .
- ١٦ - الحارثي (طه) - الجاحظ حياته وآثاره (دار المعارف - القاهرة - ١٩٦١) .
- ١٧ - حاجي خليفة - كشف القنون (طهران - ١٩٤٧) .

برتراند راسل

الفيلسوف الذي سعى إلى الرباط بمسائل العصر (١)

ترجمة : صديقي خطاب

في ليلة الاثنين الثاني من فبراير (شباط) ١٩٧٠ مات إيول رسل (عضو الجمعية الملكية والحائز على وسام الاستحقاق) في منزله في بلاس بنرين في مقاطعة ميرونت ، وقد بلغ من العمر السابعة والتسعين .

تقوم احقية برتراند رسل في أن يذكره التاريخ على أساس وطيده ألا وهو مؤلفاته في المنطق الرياضي والرمزي ، وفي الفلسفة ، تلك المؤلفات التي جعلت تأثيره شاملا وعميقا . ان قصة المنطق الرمزي وفلسفة الرياضة في القرن العشرين هي قصة توسع البناء الشامخ الذي وضع أسسه رسل وفريجه Frege . لقد جرت أعمال رئيسية في تجديد البناء ، ولكنها كانت أعمالا من الداخل . ففي الفلسفة العامة عندما نفكر في مسور G.E. MOORE ولودفيج فيتجنشتاين LUDWIG WITTGENSTEIN باعتبارهما مشكلي الفكر في النصف الأول من هذا القرن ، فاننا نكون حينئذ نفكر في رجال أثر فيهم رسل وأثروا فيه . ولم يتروك رسل مردين وجواربين وإنما هناك بدلا من ذلك عشرات من الفلاسفة الذين دفعتهم الاسئلة ، التي كان رسل أول من سألها ، إلى البحث والاستقصاء . ولم يكتف رسل بأن يجمع بين صلابة المتطرف وصلى الفنان وإنما كان يجمع إلى جانب هذا كله شعورا حيا بالضحكات . فإذا كانت هناك من سخافات منطقية مخفية ضمن تركيباته المجردة ، فانه يعرضها بلا رحمة وهو مبتهج بذلك . ولقد أصبحت التناقضات التي لم يكن يتستتر عليها تألف معضلات الفلسفة .

شأننا عنده - قضية نزع السلاح اللري من جانب واحد . كان رسل قد وصل في منتصف الثمانينات عندما ألقى بنفسه في خضم هذه القضية بحماس لا يخبو ، وقد استحوذ عليه شعوره بمسؤوليته في إيقاف زلزاله على الخطر المحيط بهم . كما سيطرت عليه حسامة الشر الذي يمكن أن تعود به هذه الأسلحة . وفي حدة استنكاره ، ومسح

لقد تمثلت في رسل جميع صفات آل رسل ونزواتهم . كان يعبر من رأيه دون أن يابه بالنقد الذي قد يلقاه من الزعماء أو من أصحاب المعتقدات ، أو بالقانون الذي ألقى به في غياهب السجن مرتين . لقد ظل طوال حياته حلية ومكبسا لأنواع مختلفة من القضايا العامة ، ومعظمها لم تكن تحظى بمعطف شعبي . وكانت آخر هذه القضايا - وأخطرها

(١) نشرت في نبي رسل في صحيفة التايمز عدد ٤ فبراير ١٩٧٠ بعنوان

"Earl Russel, O.M; F.R.S., Philosopher who sought involvement with Problems of the Age".

مجالات تفكيره . ورسل أول من يعترف بأن جانباً كبيراً من حياته قد جددته السنوات الأولى من حياته ، اذ لم يقصد بها أن تخرج مواطناً تقليدياً . لقد تحول والده - قبل ولادة برتراند - من الايمان المستقيم الى اللا أدبية . وماتت امه وعمه سنان ، ومات والده وعمره ثلاث سنين ، فكفله جده « التي كانت مترنمة وصارمة في مقاييسها الأخلاقية » ، كما وصفها ، وقد اقيمت على وجود توحيد غامض في قصر بمبروك . وكان أبوه قد أوصى بأن ينشأ ولده تنشئة لا أدبية ، وعين وصيين حري التفكير عليها ، ولكن المحكمة لم تأخذ بالوصية ، وميشت قاضي القضاة وصيا على الطفلين .

ظل برتراند رسل يعيش في البيت (حياة لم تكن سعيدة جداً) حتى ذهب الى كمبرج وتعلم في البيت على يد مريبات ومعلمين خصوصيين . وقد كانت كمبرج هي أول انطلاق له الى العالم الخارجي . كانت - كما وصفها - « ماناً جديداً لا حد ليهجته » ، عامراً بالأصدقاء من أمثال لويس ديكنسون ودكتور تريفيان وماكن جارت وجورج ادوارد مور . وقد افتتحت مكن جارت ومور . وأصبح بفعل تأثير مكن جارت من تلاميذ هيجل أو بعبارة أدق من تلاميذ برادلي ، ولكن مور - الذي كان أثره على ذلك الجيل كله في جامعة كمبرج عميقاً وموفقاً - أبطل سحر هيجل .

التحق رسل بكلية ترينيتي كدارس في هام ١٨٩٠ وكان ترتيبه السابع في درجة البكالوريوس فئة أولى في الرياضيات في عام ١٨٩٣ . ويمكن تفسير قلتي تقديره نسبياً الى أنه لم يكن يهتم بالرياضيات لذاتها ، وإنما كان يهتم بها باعتبارها مثلاً لمعرفة معينة ، لقد كان اهتمامه فلسفياً . وحصل في العام التالي على درجة البكالوريوس فئة أولى في العلوم الأخلاقية بامتياز . فلما

النشاط المؤثر لقراء التي أخذت تضعف أخذ مكان التقدير الرزين للوسائل السياسية للخلاص من هذا المصير يهت شيئاً فشيئاً أمام نظريه .

لقد كان رسل هو رجل الفكر في القرن العشرين الذي حل مشكلة الاتصال ، ولعله سبق الآخرين في انجلترا الى ذلك . فقد وجد رسل طريقه للاتصال بالعامه واستغلها حتى النهاية ولا سيما - وبشكل متعمد - في أخريات حياته . لم يكن هناك شيء جديد في هذه الطريقة . فالامر لا يتجاوز التعبير عن أفكار واضحة بأسلوب واضح . ولكن ما اقل الفلاسفة أو الفنانين ممن عاصروه الذين استطاعوا أن يحققوا نصف ما حقق !

ويعادل هذا في الأهمية قدرته لا على استخدام اصطلاحات لغوية مفهومة لعمامة الرجال والنساء ، وإنما أيضاً قدرته على استخدام اشارات مفهومة للعمامة ، لأنها من صميم تجاربهم . فصاحبنا من الخاصة في نسبه ، وفي تألقه الفكري ، وفي مادانه العقلية ، وفي سلوكه ، ومع ذلك كان يخاطب العامة ببسر ، كما كانوا يصنفون اليه ببسر . والسفر في ذلك نجده في التناقض الظاهري ، وهو أنه مع هذا كله كان يشترك معهم في أسلاف من العمامة . لقد كان فكره انجليزيا صميماً .

ولد برتراند آرثر وليم رسل (الايرل الثالث في آل رسل) في رافينز كروفت Ravenscroft بالقرب من تينتين Tintem مقاطعة مونموت Monmouthshire في ١٨ مايو ١٨٧٢ . وكان الابن الثاني للفايكونت امبرلي Amberley ، وحفيد لورد جون رسل الذي أصبح في نهاية حياته السياسية ايرل رسل . وامه كاترين ابنة اللورد ستانلي الاول اللورد الثاني Lord Stanley of Alderley . وقد كان برتراند يشبه آل رسل كما كان اخوه الأكبر ، الايرل الثاني ، يشبه آل ستانلي . فقد وجدت عبقريه آل رسل تعبيراً عنها في مظهره وفي صفاته الفنية وفي تعدد

على فكره . ويفضل هذه الاكتشافات ، ويفضل لايبنتس ، أعطى العالم في عام ١٩٠٣ كتابه (أصول الرياضيات Principles of Mathematics) الذي كان الفرض منه « أولا بيان أن جميع الرياضيات تنبع من المنطق الرمزي ، وثانيا كشف اصول المنطق الرمزي نفسه ما أمكن ذلك » . وقد قصد بكتاب (أصول الرياضيات) أن يكون الجزء الأول الذي يتلوه جزء ثان يشتمل على عرض استنباطي للنتائج . ولكن هذه المهمة نفذت في كتاب مستقل الفه بالتعاون مع الفرد نورث وايتهد . وبدعا في تأليف كتاب (أسس الرياضيات Principia Mathematica) في عام ١٩٠٠ واتمها بعد عشر سنوات في ثلاثة أجزاء نشرت على التوالي في الأعوام ١٩١٠ و ١٩١٢ و ١٩١٣ . وأعيد نشر الكتاب مع مقدمة جديدة في عام ١٩٢٥ ، وفي السنوات التالية . وقدمت الجمعية الملكية التي انضم إليها رسل في عام ١٩٠٨ منحة لنشر الكتاب من أموال الحكومة . وكتب رسل فيما بعد ما يلي عن تأليف هذا الكتاب : « أن فكرى لم يشف تماما من الإجهاد أبدا . ولا شك أنني منذ ذلك الحين أقل قدرة على تناول التجريدات الصعبة كما كنت أتناولها من قبل » .

إن كتاب (أسس الرياضيات) من الكتب الفاصلة في تاريخ الرياضيات والمنطق مما . فقد تحقق في هذا الكتاب - بصورة أوفى وأفضل مما تحقق في أى كتاب سابق - تحويل الرياضيات الى فرع من فروع المنطق . وقد برزت في أثناء عملية التحويل في أيد ماهرة رمزية جديدة ذات قوة منطقية كبيرة . ولقد كان ادوم ما قدمه رسل للفكر الفلسفي وثابت سمة من سمات جميع كتاباته الفلسفية هو استخدامه لهذه القوة .

ترك كيمبريدج أمضى بضعة شهور كملحق شرقي في السفارة البريطانية في باريس ، وبعد ذلك ارتحل الى برلين فدرس المسائل الاجتماعية والاقتصادية ، وقد جاءت ثمرة هذه الدراسة مبكرة في عام ١٨٩٦ حين ألقى في مدرسة الاقتصاد في لندن ست محاضرات عن ديمقراطية المثليا الاجتماعية . ولكنه ترك العمل السياسي الذي بدأ وكأنه قد ورثه .

انتخب في عام ١٨٩٥ محاضرا في كلية ترينيتي Trinity College ، وفي عام ١٨٩٦ حاضر في أمريكا عن الهندسة المخايرة لهندسة اقليدس . ونشر (مقالة حول أسس الهندسة) وقاده تحصيله في الرياضيات والفلسفة الى دراسة المفكر الذي كان أفضل مثل على الجمع بينهما - فنشر في عام ١٩٠٠ كتابه الممتاز (عرض نقدي لفلسفة لايبنتس) (٦) وهو أول أعماله الكبرى . ورفع في هذا الكتاب من قدر فكر لايبنتس Leibniz كثيرا ، وأكثر مما كان يلاقي من تقدير في ذلك الحين - ولم يتحول عن هذا التقدير أبدا ، فقد وصف لايبنتس في كتابه (تاريخ الفلسفة الغربية) History of Western Philosophy بأنه « أحد رجال الفكر الأفاضل في كل الأزمان » . ولا شك أن حكم رسل قد بني على اعترافه بلايبنتس « كرائد في المنطق الرياضي ، أدرك أهميته عندما لم يدركه أحد غيره » . وهذا هو الميدان الذي أنجز فيه رسل أكثر أعماله ثورة ، وقد شابه لايبنتس تماما في نظره وفي إنجازاته .

وفي عام ١٩٠٠ لفت رسل الأنظار ، في مؤتمر الرياضيات في باريس ، الى مؤلفات بيانو Peano ، كما لفتها في عام ١٩٠٣ الى مؤلفات فريجييه Frege . وفي ذلك الحين كان لهما أوفق التأثير

1 — An Essay on the Foundations of Geometry.

2 — A Critical Exposition of the Philosophy of Leibniz

« هناك كائن ما هو س بحيث أن عبارة » ص كذب رواية ويفرلي » صحيحة إذا كان س هو ص وغير موجود » تعني » ليس هناك كائن ما هو س بحيث أن » ص ذهبي وجبلي » صحيحة عندما تكون س هي ص ، وليس غير ذلك . وهكذا فان » الوجود » لا يمكن أن يكون غير تأكيد للأوصاف . ولعل رسل لم يكن يبالغ حين تحدث عن هذه النظرية فوصفها بأنها عملت على «انتشاع» التي سنة من الاضطراب الذهني حول «الوجود» بادئة بمحاورة **Theaetetus** لافلاطون .

وقد استخدم رسل خلال خمسين عاما من التأليف الفلسفي قوة هذا الأسلوب المنطقي الهدامة في فحص المشاكل التقليدية والفلسفات التقليدية، وسواء اكانت استنتاجاته مقبولة ام غير مقبولة فان مجرد استعمال الأسلوب كان مصدرا للتوضيح والتنوير ولا سيما في تحليله للعلاقات واللغات والإستمرار والالانهاية والصور اللغوية . وأخذ أعمال رسل العظيمة هذه المستمر للشك المنهجي الى كل ميدان من ميادين البحث الفلسفي . أن ما يميز تجريبية رسل التحليلية الحديثة - كما يقول هو نفسه - عن تجريبية لوك وباركلي وهيوم هو وحدة الرياضيات وتطوير أسلوب منطقي قوى . لقد كانت المعرفة التجريبية والمعرفة الاستنباطية هما التوأمين الوحيديين من المعرفة اللذين كان رسل على استعداد للاعتراف بهما . لقد كان يبحث عن اجابات على مسائل الفلسفة التي كان لها « صفة العلم أكثر من صفة الفلسفة » . وقد اعترف بأنسه قد توجد هناك مسائل لا يستطيع العلم والفكر أن يجد أجوبة لها ، ولكنه رفض أن يعترف بأن هناك طريقة أخرى ، خدمية أو غير ذلك ، يمكن أن تعطى أجوبة .

ولعل تجريبية رسل هي اصوب ما في تطلعاته على الفلسفة السياسية ، وهي تطلعات شاذة ،

وقد سعى هو نفسه هذا الإسهام « اللريسية المنطقية » Logical Atomism ، وهو تعبير يوني مهارته ونفاذ بصيرته في التحليل المنطقي حقهما - في محاولته حل الأفكار المعقدة الى عناصر ان لم تكن بسيطة فانه لا يمكن دحضها .

ان تفصيلات انجازات رسل التي تجعل المرء يتحدث دون ادنى مبالغة - بالنسبة للفكر البريطاني على الاقل - من فلسفة ما قبل رسل وعن فلسفة ما بعد رسل ، هي موضوع اهتمام طلب الفلسفة . ولكن حتى رجل الشسارع يستطيع ان يفهم قيمة تحرير التحليل المنطقي من طغيان النحو العادي والأعراب . لقد كان تقويم رسل التواضع الذي قوم به في المرحلة المتأخرة من حياته انجازاته على النحو التالي « ان نفع تركيب الجمل الفلسفي بالنسبة للمشاكل التقليدية عظيم جدا » .

وأحسن ما يوضح هذه النقطة تلخيص لاهم ما اكتشف رسل وهو نظرية الوصف التي طورها في مقالته « حول الدلالة » التي نشرها في مجلة Mind في عام ١٩٠٥ . ان عبارات مثل عبارة « رئيس الولايات المتحدة الحالي » قد سببت كثيرا من الازعاج الذي لا نفع منه للفلاسفة اللذين حاولوا ان يجدوا معنى الوجود . « فلنفرض انني قلت : ان الجبل الذهبي غير موجود » ولنفرض انك سألت « ما هو الجبل الذهبي ؟ » فانه يبدو انني قلت « انه الجبل الذهبي » فاني اكون حينئذ اعزو اليه نوعا من الوجود . فالفرق في العبارتين « الجبل الذهبي غير موجود » و «الربيع الدائري غير موجود » في الالفاظ وحدها . ان كلام « الجبل الذهبي » و « الربيع الدائري » تدل على شيء يختلف عن الآخر بالرغم من انهما غير موجودين . وهذه هي المشكلة التي حاول رسل ان يحلها بنظرية الوصف . فبموجب هذه النظرية تفسر جملة « سكوت S:ott هو مؤلف رواية (ويفرلي) » على انها تقول

ومتع في مستمير من ذلك العام من دخول أية منطقة محظورة ، كما أن كتب العدل إبان الحرب الذي أصدره فيما بعد، *Justice in Wartime* وشبه فيه تحارب الأمم بمراكه الكلاب تستغفر رائحة فريق منها الفريق الآخر ، جلب له مسخا عظيما . وأخيرا حكم عليه في فبراير (شباط) من عام ١٩١٨ في محكمة شرطة العاصمة في لندن بالسجن ستة أشهر لأنه علق في نشرة رابطة عدم التجنيد على الجيش الأمريكي تعليقات « قصد بها - ومن المحتمل أن تؤدي إلى - إساءة العلاقات بين حكومة جلالتة وبين الولايات المتحدة » . وعندما استؤنف الحكم حول القاضي السجن من الدرجة المتوسطة الشدة إلى الخفيفة . وكتب في أثناء فترة سجنه كتابه (مقدمة للفلسفة الرياضية) *Introduction to Mathematical Philosophy* . وبعد الحرب أرخى لعقله الفنان ، فجال في جميع الدراسات الإنسانية تقريبا . زار روسيا في عام ١٩٢٠ مع وفد من حزب العمال البريطاني فلم يصحب « بدكتاتورية البلشيين العسكرية » . وأعلن على الفور تحليله الأول من حقيقة البلشفية - في كتابه (التطبيق والنظرية في البلشفية) *The Practice and Theory of Bolshevism* - وظل ينتقد الشيوعية السوفيتية حتى في أثناء حرب ١٩٢٩ - ١٩٤٥ ، عندما وصلت شعبية رسل إلى ذروتها . وجاءت بعض محاضراته التي ألقاها في لندن على صورة كتاب (تحليل العقل) (١) نشر في عام ١٩٢١ . وذهب في أثناء عام ١٩٢٠ إلى الصين لمدة قصيرة كاستاذ للفلسفة في جامعة بكين . ومن ثمرات هذه الزيارات كتابه « مشكلة الصين » (٢) الذي كان مشجبا علق عليه مداهم للحضارة الغربية واليابانية . وعندما رجع من الصين رشح نفسه في منطقة شيلسي عن حزب العمال في عامي ١٩٢٢ و ١٩٢٣ ولكنه فشل . وقد كتب بالتعاون مع زوجته الثانية كتابه « مستقبل الحضارة الصناعية » (٣)

ولكنها لطيفة في الغالب . فلم يكن رسل فيلسوفا سياسيا . ولكن رجلا ولدا وفي عروقه دماء آل رسل قد لا يستطيع أن يأخذ روح لوك *Lock* . كتب في عام ١٩٤٧ في كتابه الفلسفة والسياسة *Philosophy and Politics* يقول : ان الفلسفة الوحيدة التي تقدم تبريرا نظريا للديمقراطية ، والتي تتفق مع الديمقراطية في مزاجها العقلي هي التجريبية . لقد بين لوك الذي يمكن اعتباره مؤسس التجريبية مدى الترابط الوثيق بين هذا وبين آرائه حول الحرية والتسامح . ومن هنا مضى رسل يقول : « ان جوهر النظرية الليبرالية لا يكمن في نوع الآراء المتبناة وإنما في طريقة تبنيها ، فهي تتبنى بشكل تجريبي بدلا من أن تتبنى بشكل جازم » . غير أنه لا يمكن القول بأن رسل قد التزم بهذا المبدأ في جميع تصريحاته وخطبه العامة .

رشح رسل نفسه في عام ١٩٠٧ للبرلمان عن منطقة ويمبلدون مطالبا بحق المرأة في الانتخاب ولكنه فشل . ولكن حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ هي التي هيات متفاسا للدافع لم يشبع عنده هو دافع الخير . فقد انخرط بدون تردد وباخلاص في حملة السلام . وقد جعلته النتائج السيئة مركز عاصفة وطنية . ولا نستطيع ان نشيخا هنا الا مجملة . أكد رسل في صحيفة التايمز أنه مؤلف نشرة من (رابطة عدم التجنيد) ومن ثم حكم عليه مقر رئيس بلدية لندن بغرامة قدرها مائة جنيه ، وأبعد بطريقة تصفية ووسيلة من التدريس في كلية ترييني . وصودرت مكتبته هناك لتسديد الغرامة . وكان من المفروض ان يذهب في خريف عام ١٩١٦ إلى جامعة هارفارد ليحاضر فيها ، ولكن المسؤولين في هارفارد انهوا ان الحكومة البريطانية لا ترى أن من المصلحة العامة اصدار جواز سفر له يمكنه من مغادرة البلاد .

- 1 — The Analysis of the Mind
- 2 — The Problem of China
- 3 — The prospects of Industrial Civilization

أطار العصر الذى ولد هذه الأفكار . ولكنه يختلف في تأليفه عن الكتاب الثاني ، فالتكوين فيه أكثر من التحليل ، ويضم شيئا من كتاباته المضيئة .

وبالرغم من أن نجاح قوة حمقى كالهتلرية هز كثيرا من نزعاته العقلية — كما هز الكثيرين — وجعله يهجر دعوته الى السلام ، وبالرغم من أنه حاول (ولكنه فشل) أن يحلل طبيعة (القوة) (١١) في كتاب مشهور ، كان يفتقر الى التجهيز السياسي الذى يمكنه من تحقيق وصف شاف لمشكلة القرن العشرين السياسية . ويظهر هذا في محاضراته التي ألقاها في عامي ١٩٤٨ — ١٩٤٩ في برنامج محاضرات ريث The Reith Lectures وهي بعنوان (السلطة والفرد) . فقد أخطأ في اختيار الموضوع الذى تحدث فيه ، ولكنه لم يشك في قدره على ربط الأفكار المعقدة بتجارب الناس العاديين اليومية .

وأصبح رسل في السنوات الأخيرة عرضة لان يغدو شخصية شعبية ومحترمة بل ومبجلة . فقد منح في صام ١٩٥٠ جائزة نوبل في الأدب ، وكان قد منح قبل ذلك بعام وسام الاستحقاق ، وفي عام ١٩٥٣ انتخب مشاركا شرفيا في معهد نيويورك الوطني للفنون والآداب ، وهو الذى كان قد حكم عليه من قبل بعدم اللياقة لشغل الكرسي الجامعي في إحدى الجامعات الأمريكية ، وقد كان

بين كتابيه « الفرات » (١) (١٩٢٣) و « الف باء النسبية » (٢) ١٩٢٥ ، وهما كتابان يمتازان بالشرح الجميل الواضح .

وقد أدى اهتمامهما (هو وزوجته) بالتربية الى إقامة مدرسة في عام ١٩٢٧ بالقرب من بيترز فيلد ، ومنح الأطفال فيها قدرا كبيرا من الحرية ، ونقلت زوجته المدرسة في عام ١٩٣٤ الى مقاطعة هيرتفورد . وكتب حول هذا الموضوع كتابين هما (في التربية) (٣) عام ١٩٢٥ ، و « التربية والنظام الاجتماعي » (٤) عام ١٩٣٢ ، وفي هذين الكتابين اسراف في الحديث عن الاتجاهات الحديثة . وظهر بين هذين الكتابين كتاب « تحليل المادة » (٥) وهو استعراض رائع للفيزياء الحديثة مع استنباطات ميتافيزيقية أكثر موضة للجدل . وكتبه كتب أخرى هي : « الموجز في الفلسفة » (٦) و « مقالات في الشك » (٧) و « الزواج والأخلاق » (٨) و « اكتساب السعادة » (٩) .

ونشر في عام ١٩٣٤ أهم أعماله خارج ميداني المنطق والفلسفة ، وهو كتاب « الحرية والتنظيم » (١٠) وقد تتبع فيه الأسباب الرئيسية للتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في أوروبا وأمريكا خلال القرن التاسع عشر . وقد غطى هذا الكتاب كتابه الضخم « تاريخ الفلسفة الغربية » حين حاول أن يرى الأفكار من خلال

- 1 — The A.B.C. of Atoms
- 2 — The A.B.C. of Relativity
- 3 — On Education
- 4 — Education and the Social Order.
- 5 — The Analysis of matter
- 6 — An Outline of Philosophy
- 7 — Sceptical Essays
- 8 — Marriage and Morals.
- 9 — The Conquest of Happiness.
- 10 — Freedom and Organisation.
- 11 — Authority and the Individual.

على خرق السلام بدعوتهم الى مظاهرة بالجلوس في ميدان البرلمان . ولما رفض أن يتعهد بأن يكون حسن السلوك حكم عليه بالسجن لمدة شهرين ، وخفض القضية المدة الى تسعة ايام على اثر احتجاج محامي رسل . وقضى مدة الحكم في سجن بيركستون الذي عرّفه قبل ثلاثة وأربعين عاما .

وفي مطلع عام ١٩٦٢ استقال رسل من رياسة لجنة المائة ، ومن الأسباب التي أوردتها في تبرير هذه الاستقالة أنه أصبح مشغولا بعمل من نوع آخر وأن كان موجها الى نفس الغاية . وفي اواخر ذلك العام أعلن عن اقامة مؤسستين هما مؤسسة برتراند رسل للسلام ، ومؤسسة الأطلسي للسلام ، ويهدفان الى تنمية المقاومة الدولية لتهديد الحرب النووية ، وازدادت عزلته في السنوات الأخيرة من حياته ، حيث كان يعيش في بلاس بنرين في بيته الريفي في شمال ويلز ، وظل أمين سره السيد رالف شومان يصرف معاملات رسل مع العالم الخارجي فترة من الزمن بينما أخذت مشروعاته العامة التي ربط اسمه بها تزداد غرابة ، كمحاكمته الدولية لجرائم الحرب التي قضاها من رجال الفكر المشهورين الذين حاكموا الولايات المتحدة فيأبى على التهم الناشئة عن سياستها في فيتنام ، وبعد أن واجهت المحكمة بعض الصعوبات بخصوص مكان عقدها ، عقدت جلستها الأولى في ستوكهولم ، وأصدرت قرارها بالإجماع بتجريم الولايات المتحدة .

ولقد كان نشاط رسل مثيرا للجدل ، وملهما لفريق من الناس ورآه الفريق الآخر مضحكا أو موجها في غير وجهته الصحيحة . وقد حجب هذا النشاط في السنوات الأخيرة من حياة رسل انجازات عمره المديد الخارقة : اثره على الفلسفة ، وشيء آخر على الجمهور أن يتذكره جيدا وهو عبقريته في تبسيط أوابد الأفكار وصعابها . وقد امتلك ناصية أسلوب جملته في مصاف باركلي

يمكن أن تكون شيخوخته صافية كشمسوخة فيلسوف عاقل وحكيم اليق ، مكرم ، يصغي اليه بود واحترام ، ويعطي بين الحين والآخر التعليق الساخر والحاد بما يبقى على اسطورة الشاعر حية .

ولكنه اختار سبيلا غير هذا ، فلا زالت تتردد في الذاكرة أصداة كلمة أذاعها في عام ١٩٥٤ بعد انفجار القنبلة الهایدروجينية الأولى ، حين ارتفع صوته التحيل الرتيب يملؤه زخم معاهد لبني « تذكروا إنسانيتكم وأنسوا ما دون ذلك . فإذا استطعتم أن تفعلوا ذلك ، فإن الطريق أمامكم مفتوح الى الجنة الجديدة ، فإن لم تستطيعوا فليس أمامكم سوى الموت الشامل » . وهو تحذير ظل يكرره بصوت حاد ومرتفع حتى وافته المنية .

لقد ساعد في ولادة حملة نزع السلاح النووي في فبراير عام ١٩٥٨ وأصبح رئيسها ، وحاول قبل هذا ويعدده حشد آراء العلماء لتأييد وجهات نظره . وفي سبتمبر من عام ١٩٦٠ ضاق ذرها بأسلوب حملة نزع السلاح النووي المتقيد بالقانون ، ووجد أن رئيسها كوليتز Canon Collins شخصا « من المستحيل العمل معه » فانشق عنها مؤلفا لجنة المائة « للعصيان المدني ضد الحرب النووية » . وقد أثبت العصيان أنه من النوع المنظم ، واستمر رسل - الذي كان قد أدرك الثامنة والثلاثين حينئذ - يطوف بالبلاد طولا وعرضا داعيا للحملة ، ويصدر البيانات العاجلة للصحف ، وينظم المظاهرات العامة بقدر ما كانت صحته تسمح له . ودأب على إرسال برقيات التحذير لإزعاجه العالم ، ولا سيما في عنفوان الأزمة الكوبية في أكتوبر عام ١٩٦٢ .

ومرة أخرى أدى به تعديده للسلطة الى السجن في سبتمبر عام ١٩٦١ فقد استدعى ومعه بعض أعضاء لجنة المائة الى المحكمة لتحريضهم الجمهور

يشمل الفترة الواقعة ما بين ١٨٧٢ - ١٩١٤ ، ثم أعقبه بجزئين آخرين .

تزوج رسل أربع مرات . وكانت زوجته الاولى اليس ويتال بيرسول . وقد انحل هذا الزواج في عام ١٩٢١ ، فتزوج في نفس هذا العام دورا وينيفرد . وانحل هذا الزواج في عام ١٩٣٥ . وتزوج في عام ١٩٣٦ باتريشيا هيلن ، وانحل هذا الزواج في عام ١٩٥٢ ولزوج في نفس هذا العام اديث فينش من نيويورك . وقد رزق رسل من زوجته الثانية طفلين هما جون كونراد فايكاونت امبرلي ، وليدى كاترين جين رسل ، ومن زوجته الثالثة طفلا هو الشريف كونراد سيباستيان روبرت رسل . ويخلف رسل في اللقب فايكاونت امبرلي الذى ولد في عام ١٩٢١ ولزوج في عام ١٩٤٦ من سوزان دوينغان التي انجبت له بنتين وانحل زواجهما في عام ١٩٥٥ .

وهيوم اللذين حليا الادب والفلسفة . ومواء اكتب بالرموز ام بالالفاظ فانه كان بارعا في كليهما وسلسا في كليهما . ويصنعه كل من يحاول الكتابة لطيفانه المحكم ، ولثقته الزائدة بنفسه الرائعة ، وقصوته الملهبة في محاورته، ولتناقضاته الباهرة ، ولذكائه ومرجه . وعند ما يكتب رسل ويتدخل في العاطفة ، ويتقمص الشاعر الفيلسوف ، فان كتابته يجب ان توضع في مصاف اشرف ما كتب في اللغة الانجليزية . وكان ايضا فارسا من فرسان المدياع ، وقد اتى بعد الحرب عدة سلسلات من الاحاديث الاذاعية التي لا تنسى . ان الصور الموجزة التي رسمها لاعلام معاصريه تمتاز بالوضوح والبراعة ، وشيء من السخرية وشيء من العطف ، وهي تذكرونا بحبوبة صور (اسكتشات) جون اوبرى البارعة . وقد نشر رسل في عام ١٩٦٧ الجزء الاول من سيرته وهو



تجارتى مع الطب القديم

الطبيب الأزلى بول غسليونجى

لقد شاهدت هوية تاريخ الطب وهى تنمو وتتواصل في قلب صديق في سنى ، عرفته منذ طفولته ، ثم أحبيته وصادقته ، ولأزمني ولأزمته وكانى هو ، والهويات تنشأ دون وعى من توهاه ، كأنها تثبت اتفاقا على شكل نزوة حين أو تسلية فينة أو واجب مفروض ، وقد تكون بيضة الديك ولا تعاد ، أو يكثر تكرارها ، وهى تفرس في هدوء جلورها في أعماق المرء وتتواصل معها الى كل ميدان من ميادين فكره الى ان تحتله تماما ، لوقوعها في تربة معدة ، تنفذى منها وتفلوها ، كما يتفدى النبات من الأرض ويفنيها .

بدأت قصة صديقى بألة تصوير أهديت اليه ، أولع بها فامست لعبة فراغه ، ثم ما لبث ان شغلت جل باله وفتحت له ، كسمسة على بابا ، عالم الفنون التصويرية والتشكيلية ، اذ اخذ ينقل التماثيل والنقوش ، ويستفسر معانيها وتواريخها ، ومن ثم عنى بتاريخ الادب وسيرة الفن ، وعن طريقها بالتاريخ عامة . ثم شاهد هوياته تنمو وتفرع ويشتبك بعضها ببعض كالاشجار الاستوائية التى تدمج فروعها حتى تجعل منها كتلا صلبة متماسكة تسدل ظلها على الغابات ، ففأص في سحر الفن وفي فن السحر ، وهو في كل هذا يتفقد العنصر الانساني فيها ، فانحدر الى علوم الانسان ووجد - آخر مطاف للطب ، الذى يدمج الجسد والروح والشخص والبيئة في صورة متكاملة للانسان ، أقوم سبيل الى المثل التى اشاد بها ترائس (1) والتي اتخذ منها شعارا : « انى من البشر وما من شيء بشرى غريب عنى » . ففصهر كل ما احبه في معدن لمع كالنار في ذهنه وعكس شعاعا سمرت في ضوءه أعماق لم يسبق له رؤيتها ، وقد استمدته من النظرة التاريخية التى تبه اليوم بشعلة الامس .

الغلاف المتراكمة ترسم سيماء شخص قصد في مواجهتنا في هدوء وكأنه ينتظر بنا بدء الحديث . لم ندر كيف دخل ولا من اين اتى ، شكله متعوج وهندامه متغير تبعاً لنزوات الابخرة ، تملو رأسه قلنسوة فرعونية تارة وعمامة عربية تارة او قبعة

كنت ذات يوم في صحبته نطلع حسب عادتنا على بعض النصوص القديمة ونجادل في معانيها ، الى ان ايماننا التعب ، واحرقت ميونا ابخرة اللغائف المحترقة ، واطبقت جفوننا . وهندما فتحناها راينا موجات السحب المتصاعدة من هرم

الاستاذ الدكتور بول غليوني اخصالى القدد الصم بوزارة الصحة العامة بمستشفى الصبح . كان استاذنا بكلية الطب بجامعة عين شمس .

Homo sum : humani nihil a me alienum puto

1 - من كلام ترائس : شاعر لاتيني ولد بقرطاجنة (نحو 149 ق.م.) ، ألف تلميذا على طراز الكتاب الاغريق ، وصل ست منها الينا ، وقد ورد النص المذكور في احدها وعنوانها : « الرجل الذى عاقب نفسه » .

ضحك وقال : « اننا لمعجزنا انهم لمع المعقبات
ولمعد الثعابين كنا لنجا الى الصلوات والدعاءات ،
وقد مارس هذا اللون من الطب اللاهوتي الى جانب
الطب التجريبي ، ومن هنا جاء لقبى هذا ، اما
سبب التخصص المبكر فهو ان سر وحدة الجسم
الادمي ، المبينة على اتصال اجزائه بواسطة الدم
السائر في الاوعية والقوى الجارية في الاعصاب ،
كان خفيا عنا بعد ، فقسمنا الجسم ، تبعاً لشكله
الخارجي ، الى رأس ويطن وقدم وعين وأسان
وما اليها ، ولا يخفى عليكم ان هذه الصورة المتأصلة
في اذهاننا ، وان كانت اقرب الى التعاريف اللفظية
منها الى الحقائق التشريحية ، تنكشف بوضوح
تام في خلال الاضطرابات النفسية غير العضوية
التي تصيب بالشلل أو فقدان الحس أشطراً من
الجسم تابعة لهذا التوزيع ، وقد راق هذا التقسيم
البدهي في ميون أولئك الاغريق من المتأخرين
الذين توهموا وجود روابط بين الكواكب والاطراف
تسيطر بحكمها الاولى على الثانية ، وهي فكرة سادت
عالم الطب حتى عهد النهضة وبعده ، وما زال
الكثيرون منهم - كآدين بها - كما انها شاعت بين
طبقات الشعب غير المثقفة ، التي استبدلت بالافلاك
القديسين والأولياء ، فأسندت الى هؤلاء شبه
تخصص ، يفرد بموجبه كل منهم بمرض يشفيه (هـ)

قلت في اعجاب :

انك جمعت في صورة واحدة مظاهر تبدو ،
اول وهلة ، مستقلة ، اذ اني لم اتصور قط وجود
ابة علاقة بين الشلل الهستري وتخصص الاطباء
في باكورة التاريخ فقد افهمتي في لحظة حقيقة
فاتنتي سنين ، وما دمت كريباً هذا الكرم
بمعلوماتك هل لي ان اسأل عن تاريخ وصول
التخصص الى اوجه ، وهل كان له انشأ نفسه
في البلاد الأخرى ؟

ـ عزيزي ، ان تاريخ التخصص وازى خط
سير النظريات الفسيولوجية ، لان الطب ما هو
الا ثمرة من ثمار عصر ، يتقدم منه ويتلو به ، يختلف
بدو المرض في عينه عند كل منعطف يسلكه ، لقد

الفرجة تارة أخرى ، ووضح مالي وجهه ابتسامه
دمثة ندم على رقة وعيبية في مزيج من السخرية التي
لا تخلو من العطف والحنو .

سأله صديقي : « من انت ؟ »

فاجاب : « متى ؟ »

قلت : « انما يسألك من اسمك ، وقد اقتحمت
داره ، فكيف تجيبه : متى ؟ »

اجاب بهدوء : « اني الطبيب الازلي الخالد ،
وان كنت اليوم فلانا والغد علانا ، فان روحي
هي روح الطب وقلبي وذهني لا يتبدلان . اليس
مصر كم هو الذي اضاف بعداً رابعا الى ايماننا الثلاثة
لم قسره بانه الزمن ؟ اكتمل اية قضية ان لم
يلدكر سيرها الزمنية ؟ اذا سألتني من لون السماء
حق لي سؤالك : انطلب لونها في الصباح ام في
المساء ؟ واذا استفهمتي ارتفاع البحر اجبتك :
« متى » ؟ اعند الدام الجزر ؟ لقد حملت
اسماء شتى في ازمئة مختلفة (٢) . كنت ، مثل
خمسین قرناً ، طبيب الاسنان (حسي - رع)
زميل (امحتب) الذي الهه الفرس والافريق ،
ثم كنت « ايروى » طبيب العيون والأمعاء والشرج
وحاكم المقارب ، وألفت فنا في الطب عندما كنت
(تنجر حتب) ، وانهمت عندما كنت (ايروى)
في مؤامرة لقلب رمسيس الثالث (٣) ، واعدت بناء
مدرسة سايس بأمر سيدي (دارا) بعد ان دمر
قميزيل معابد مصر ومدارسها عندما عاد من
حملته الفاشلة في الجنوب وشاهد الاحتفال بعيد
الحصاد فظن الشعب ببتيج لهزمته (٤) .

ـ كنت اذن (الجاحور سنت) لقد اعجبني تمثالك
في متحف الفايكان وقرات وصف رحلتك المتقوش
عليه ، ولكن لقد ذكرت انك كنت اخصائياً في
الاسنان ، لم في امراض العيون والبطن وهذا قبل
اليوم بأربعة الاف سنة ويزيد ، فهل ياتو الاطباء
تخصصون منذ ذلك الوقت السحيق ، ونحن نعد
التخصص تقدماً حديثاً ؟ ثم ما معنى لقب (حاكم
المقارب) ؟

٢ - في (تاريخ) هرودوت (٢ و ١٢٢) ان المصريين آمنوا بتناسخ الأرواح وان كانت هذه العقيدة لا تبدو جلية في
دينهم ، وقد آمن بها بعض الفلاسفة أمثال افلاطون وسقراط وباركليز ولذاه الاطالون .

٣ - Papyr. jurid. de Turin (de Buck, A., 1937, J. Eg. Archaeol., 23, 152).

٤ - انظر لتفصيل سيرة هؤلاء الاطباء وغيرهم من اطباء مصر الفرعونية في : « الحضارة الطبية في مصر الفرعونية » .
تأليف بول غليونجي وزينب الدواخلي ، طبع دار المعارف بالقاهرة ، سنة ١٩٦٥ ، الباب الاول .

٥ - Early specialization in Ancient Egyptian Medicine and its possible relation to an archetypal
image of the human organism, Med. Hist., 1969, XIII, 4, p. 383.

الجسم ووزعوا اجزاءه على آلهة مختلفة ، فكان
المسحرة يتلون مثل هذه التعويدة (٧) :

هاجم (الاشاكو) الرأس

هاجم (النمتاوو) الحياة

هاجم (الاوتو) قفا العنق

هاجم (السو) الشرير - الصدر

هاجم (جالو) الشرير - اليد

هاجم (اكيمو) الشرير - البطن

هاجم الاله الشرير (القدم)

ومن اساطير (شومر) التي تم على مثل هذا
التفكير ان الالهة (نهرساج) يمدد ان اوقفت
المرض على ثمانية اجزاء من جسم زوجها (انكي)
لعقابه على اكله ثمانية نباتات اتجنبتا له لزوجته
(اوتو) الهة النبات وابنة حفيدته ، ارادت
ابراءه بايماء من الثعلب فخلقت له ثمانية آلهة ،
واحد لكل جزء مريض .

— هل تميز لنا بين طب المصريين والافريق
والبابليين ؟

— يمكن القول اجمالاً وبكلمات قليلة ، ان طب
المصريين كان خبرة ، وطب الافريق مرآة فلسفية ،
وطب بابل مسحاً وشعوذة ، وكان يحكم على
الطبيب في مصر بامانه في تطبيق التعاليم المسلم
بها ، وفي اليونان بسلامة منطقة أو بمهارته
السفسطية ، وفي بابل بدرابته بالطوائف والفؤول ،
وانما تميز هذا الاخير بالقسوة في العقاب ، اخذوا
بمبدأ المثل بالمثل ، المصرح به رسمياً في قانون
حامورابي (٨)

قال صديقي — ما نزال نشاهد اليوم ، بين
اطبائنا ، أمثلة من كل من هذه النماذج وكان
التاريخ يعيد نفسه دوراً .

قلت — بل انه يجري جرباً حارونياً بين قطبين
يتراوح بينهما وانما على مستويات متبادلة ،
وهذان القطبان يمثلان نظريتين مختلفتين ، ترجع
الاولى اولية الزواج في أحداث الامراض ، والثانية
اولية البيئة ، أو بصير آخر : أهمية التربة

حسبت القرون الوسطى المجلدوين من المعونين
ونبتتهم من بين ذويهم ، ولم ير انسان هذه النهضة
حرجاً من المدهوى التناسلية ، وتلون الدرن فسي
المصر الرومانتيكي بلون شاعري اتفق ، في صدر
عصر الصلابة عدلت الامراض الصناعية اسوأ
العمل الطبيعية .

علقت على هذا :

ولكل شئ ما هو جدير به من الطب .

قال :

اجل ، ولا يفيد الا ما يوائمه اذ ان فننا يتبع
من اذهاننا ومقائدنا واوهامنا وكل ما سماه فلاسفة
الالمان نظرتنا الكونية Weltanschauung كافراز منها
ولذا فان التخصص الضيق لم يدم طويلاً ، وقد
زال تماماً عندما انتشرت النظريات الجديدة التي
صورت الجسم في صورة وحدة متماسكة وبالتالي
لم يحظ عند اطباء الافريق بالمكانة التي وصل
اليها عند المصريين ، لان طبهم — كما اعتدنا تعريفه
— هو انتاج القرن السادس ق . م . ، اي عهد
ابراط ، الذي تلا ذروة الطب المصري بعشرة
قرون ، والذي دمج في فضونه فلاسفة الافريق
— لشفتهم باقامة النظريات التعميلية — افكار
(ثثاغورس) بشأن الارقام وبخاصة قداسة الرقم
{ الذي عزى اليه الكمال ، في نظريات (ابيدقليس)
التي صورت العالم مؤلفاً من اربعة اركان هي
الماء والهواء والنار والتراب ، مرتبطة بأربع خواص
هي الرطوبة واليبس والبرودة والسخونة ، وعينوا
كل عنصر واقتعوا له اربعة اخلاط خمنوا الجسم
مكوناً منها ، هي الدم والليمف والصفراء والسوداء
وربطوها بالاركان الاربعة والخواص الاربع وادعوا
ان نسبها تحدد الصحة او المرض . فلم يكن في
هذا التنظيم المتعاسك مجال لتقسيم الجسم
تقسيماً قد نسميه « اقليمياً » . ومع ذلك فان
الشعب الافريقي — تبعاً لتصور كامن في ذهن كل
انسان — كان يقدم القرايين لاله الطب استقلايين
على شكل الجزء المريض من الجسم غير مبال
بنظريات فلاسفته .

وما دنا نتحدث من تأثير العقائد في الطب فان
البابليين — بدافع من عقائدهم — آمنوا « ببلقنة » (٩)

٦ - بلقنة : لفظ مستعارة اطلقت على التسميم المدول الكبري لملقطة البيلان الى دولات مستقلة .

٧ - انظر : Contenau, G., 1938, La Medecine en Assyrie et en Babylonie, Maloine, Paris.

٨ - حامورابي : ملك من ملوك بابل (١٨٤٨ - ١٨٠٦ ق . م) مؤسس المملكة البابلية ، شرع قانوناً يعدد القدم قانسون معروف ، موجود منه نسخة منحوتة على الحجر في متحف اللوفر ببريس ، يعدد مسؤوليات الاطباء وعقابهم اذا ما اخطأوا في العلاج .

والبلدرة . فإين كان موضعكم من هذين القطبين ؟

وأولوه التزلة الأولى في أعداد الجسم لهذا المرض أو ذاك ، وبهذا انتقل مركز الثقل من البلدرة إلى التربة .

تابع صديقي الحديث فقال - وقد دارت اللولية وجاء أمثال بيشا (Bichat) و (لانيك) Laennec (١٣) فقارنا الأعراض بالأحشاء، وفرضوف Virchow (١٤) الذي اعتمد على المجهر النظري قانئاً علم الباثولوجيا الخلوية ، فأهملت الخلاط السائلة ، وأقبحه النظر إلى الأنسجة الصلبة ، ثم جاء باستور Pasteur (١٥) الذي كشف عن الجراثيم ، فأعبد العامل الدخيل إلى منزلته الأولى واستبدل بأرواحكم وديدانكم وحشراتكم، ونظر إلى المرض على أنه من فعل الجراثيم على الأنسجة .

قال : إننا تصورنا - أول عهدنا بالطب - أن المرض يأتي نتيجة لعوامل دخيلة ، قد تكون أرواحاً أو حشرات أو ديداناً أو ما إليها ، تقتحم هذه العناصر الجسم وتدخل أوميته وتسرى فيها فتحدث إما عوارض عامة كالحمى والأمعاء ، وإما ظواهر انبثائية كالخراج والقرح والأورام (١٦) ثم إن أفريق مدرسة فنيديوس (١٦) اقتبسوا منا هذه الفكرة ، وهي الأخلة العناصر المرضية السارية في الجسم ، وجعلوها بدمهم أسالة مدرسة شو (١٧) ، التي نبغ فيها إقراط ، إلى عناصر طبيعية ، فدمجوها في صلب نظرياتهم الرابضة التي أسلفنا ذكرها ، وعرفوا (الخراج) بأنه تابع لنسبة الخلاط الأربعة في الجسم ،

Ghalioungui, P., 1963, Magic and Medical Science in Ancient Egypt, Hodder & Stoughton, - ٩ London.

Ghalioungui, P., 1968, La notion de maladie dans les textes égyptiens et ses rapports avec ١. la théorie humorale, Bull. Inst. Fr. Archéol. Or., le Caire, LXVI, p. 37.

١١ - قنيديوس : مدينة على الشاطئ الأسيوي القابل للقو ، نشأت بها مدرسة نافست مدرسة فو" العاصرة لها ، وأنجبت للفطاحل أمثال اللكي اودكوس (٢٠٩ - ٢٥٦ ق.م.) الذي حدد أيام السنة بأنها ٣٦ يوماً وربع يوم والمعداري سترالو الذي شيد منارة الإسكندرية ، ويعني العلماء الذين جنحوا فيها بعد إلى الإسكندرية ، وقد تميزت بنظريات كان لها ، سابقاً ، شأن كبير في التفكير الطبي المصري القديم ، وربما ورثتها عنه ، فحوها أن اجتياز الهضم حدوده الافتيادية ينتج عنه ظهور مواد في طبيعة تسرى في الجسم وتسبب المرض .

١٢ - فو" : جزيرة صغيرة تجاه شاطئ آسيا الصغرى ، حل بها شعب دوري الأصملى ، نزح إليها من (ابدورس) بالبوليونيز ، حيث عبادة أسقليبيوس رب الطب عند الأفريق وشيد معبداً لهذا الإله كان يزوره المرضى للاستشفاء ، وقد كشف فيها من معابد يتراوح تاريخها بين القرنين السادس والثاني ق.م.

١٣ - لانيك René Laennec (١٧٨١ - ١٨٢٦) طبيب فرنسي ، من أوائل الذين دأبوا على تشرية من يموت من المرض ، وقارنوا أحشائهم بظاهر مرهم ، ابتكر طريق المصاصة السمع ، وكان يسمع - أول الأمر - أذنه على الجسم مباشرة ، إلا أنه جعل يوماً ما من وضع أذنه على صدر سيدة تعاني من البدانة ، فتدكر لعبة يلعبها الأولاد وحداً جلوهي، فلفه قرطاساً على شكل أسطوانة فارغة ، استعملها لتوصيل الصوت من الصدر إلى أذنه ، ومن لم اخترع أول صماعة (سماعة) وكان على شكل أسطوانة من الخشب ، ويمكن بهذه الآلة من وصف كل التعلامات السمعية المعروفة إلى اليوم .

١٤ - فرشو Rudolph Virchow (١٨٢١ - ١٩٠٢) عالم ألمانى اهتم بالسياسة الاجتماعية وابتكر علم باثولوجيا الخلايا بدأ به على تفحص الأنسجة الرقيقة بالمجهر .

١٥ - باستور Louis Pasteur (١٨٢٢ - ١٨٩٥) كيميائي فرنسي من أشهر العلماء ، له في ميدان التخمير والكيمياء الجيوسم Stereochemistry بحوث ثورية ، يدين له العالم ، مع أنه لم يكن طبيباً ، بالكشف عن الجراثيم وعن دورها في الأمراض العديدة ، أنتجته زعامة الصنب وتربية الفراف في فرنسا من الأكلاس ، يبعو في أمراض الكسروم والحمية الضيفة وابتكر علاج الكلب بحتن القفار متزايدة من الفيروس بعد ترويضه في الجلسرين مددا متزايدة لتطيف وطائه ، وقد عمل أول من شفى من هذا المرض الفتال بقتة عمه حارساً بالكمهد الذي أطلق عليه اسم باستور بباريس ، اعترافاً بمجهله ، واستشهد دفعا منه في خلال الحرب العالمية الثانية .

في هذا الحقل وبوياً أيضاً الأشكال ، وربطوا بين كل من الشكل والطابع والمزاج والأحشاء والأمراض ، وبين الأجرام المهيمنة وقت الولادة . وها أتم ما زلتم تتعنتون المستوحين بالقمرين Lunate وتقولون عن كثبي المزاج أنهم زحطيون ومن محبي السلطة وسريعي الغضب أنهم أسديون .

اعترض صديقي وكأنه في حلم :

ان حاسة الشعراء أصدق من تحقيق العلماء ، لقد قال شيكسبير : « ليس العيب في فلكك وإنما العيب فيك » وكأنه تنبأ بجريئات نوابيا الخلايا التي نسميها (الجينة) Genes وهي الحاملة منذ لحظة تكوين الأجنة للصفات الوراثية ، بفضل مراكز قوى تحريكها ، تحدد كل مميزات الجسم ، كلون العينين أو طول الدراعين ، وبوساطة خمائر تسيطر على التفاعلات الكيميائية ، وقد يكون الكشف منها ملتقى حاملي لواء الكيمياء بمعضدي فكرة النسيج ، والدماج النظرية في النظوة في النظريات الكيميائية ونهاية اللولية التي حيرت الطب منذ نشأته بالانطلاق قطبيها .

ضحك محاورنا ضحكة كاتبة :

أراكم تعيرون ماضينا أهمية لم يتبادر الي أذهاننا اعارته مثلاً ، وقد راقبت جهودكم المضيئة دون تفهم دوافعها ، انطلقون حقاً الى حقائق تاريخية ثابتة ؟

اجابه صديقي :

ايها الزائر الجليل ، ان على المؤرخ ، اذا ارتفع الى المستوى الذي يؤهله الي هذه التسمية ، ان يستخدم كل الوسائل الممكنة للحصول على نفيته ، ولا يكتفي بجميع الأحداث ومعرفة تواريخها والإطلاع على النصوص والروايات والتفتيح من المباني المتدثرة والقابا البشرية الهالكة وما اليها ، وإنما عليه امتحان حصيلته في أضواء مختلفة ، كالخبر الذي يسلط على الرسوم الاشعاعات السينية والبنفسجية وبحث الحمراء قبل البت

قلت :

لم يمض زمن طويل قبل ان يقدم البعث للسوائل المرضية في صورة مجمدة ، على أيدي أمثال فيدال Widal (١٩) الذين ذابوا على تحليل السوائل تحليلًا كيميائيًا فحلت البولينا والسكر والكوليسترول محل السوداء والصفراء والبلغم ...

تمهل محادثنا ونظر الينا نظرة غامضة وقال :

ولكنكم ما زالون في حيرة شديدة ، افي قدرتكم تعريف المرض ، أي مرض من تلك الأمراض التي تكثر مشاهدتها ؟ كيف تعرفون مرض التيفود الذي يسببه بشلوس ابرس Ebers هل هو مجرد اقتحام هذا الكروب للجسم ؟

— كلاً ، فان الجرثومة قد تؤم الجسم وتاوي فيه سنين طويلة دون حدوث مرض ظاهر ، كما فعلت في (ماري التيفودية Typhoid Mary) تلك الطاهية الأميركية التي تسببت في ما لا يقل من ثلاث وخمسين حالة تيفود أصعبت الوفاة ثلاث منها ، دون ان تصاب بأي اذى .

— أهو الحمى التيفودية ؟

— كلاً ، فان حمايت مماثلة قد تصاحب اصابات بجرائيم أخرى ، كما ان جرثومة ابرس قد تصحبها حالات تختلف منها كل الاختلاف كالخراريج أو التهاب السمحاق أو أنواع من الروماتزم أو التهاب حويصلة الصفراء .

قال صديقي : عدنا اذن الى أهمية التربة أو المزاج ، الذي يكيف استجابة الجسم الى أي ضرر أو اعتداء ، وهذا يرجع ما ذهب اليه كرتشمير Ernest Kretschmer (١٧) وأمثاله ممن بوياً طابع الانسان حسب شكله ونسب مقاييسه ، وقد ثبتت صحة استنتاجهم الى حد بعيد .

تحدثنا محادثنا :

أتعد هذا جديداً ؟ لقد سبقكم الاغريق والرومان

١٦ - فيدال Fernand Widal (١٨٦٢ - ١٩٢٩) طبيب فرنسي كان بالغ الاثر في اتجاهات الطب الحديثة ، عنى بامراض الكلى وبالعصبيات ، وهو أول من أعار تحليل الدم ما هو جدير به من الأهمية ، وكان أول من وصف ارتفاع نسبة البولينا في الدم نتيجة لأمراض الكلى ، وابتدع تشخيص حمى التيفود بآليات تلزم الجراثيم في معمل المرض .

١٧ - كرتشمير Ernest Kretschmer (١٨٨٨ -) : طبيب نفساني ألماني ، لفت نظره وجود ارتباط وثيق بين شكل الجسم أو نسب أجزائه وبين ما يعانيه مرضاه من اضطرابات نفسية ، وقسم الأشكال الى فئات يفسر كلا منها لون من المرض ، ثم توسع دوبر George Draper في هذا الاتجاه وربط بين الشكل والأمراض الجسدية ، وتلاعما الكثيرون في هذا الاتجاه

وعلى الرأس هي متوسط قمعتها بالقرب من الخ ، وقد شبهت بالعلبة » ، وعلى الحالة الراهمة : « ان عباة : أربطة في مرساه » يعني بها : دعه يلزم نظام حياته السابق دون وصف أى دوام » وكانت بامبرواز بارى Ambroise Paré (١٦٧) بصرح بذلك بثلاثة آلاف سنة : « أنى ضمته والله أبراه » ، فإذا كنت قمصت أيضا (بارى) قل لى ، بالله ، هل صحيح ما قاله كاتب عنك ، أنك اذ دهمت لملج هنرى الثالث ملك فرنسا من الجرح البليخ الذى أصاب عينه في أثناء مبارزة ، قست عمق الجرح واختبرت خطورته بادخال عصا في عين مجرم حكم عليه بالموت ، في موضع جرح الملك وفي اتجاهه وعمقه (٢٤) ؟

حول مجرى الحديث واستطرد قائلا :

وما أكثر ما أخطأتم فهمي ان الألفاظ ، كالأحياء ، لها تاريخ طبيعى ، تولد وتنمو وتتطور ، وقد تفتى وتزول ، ولكتم تأخرونها على آخر معانيها . فما أكثر ما وقعتم في الحيرة أخذ مثلا وصف الأفريق لحية (زيا Zia) وهي تعنى اليوم الدرة وكانت عندهم الحنطة ، وأنتم تعلمون ان الدرة لم تصل إلى بلادنا الا عند عودة بحارة كولومبوس من القارة الأميركية ، وكهم من لفظة استعملت مجازا أخذتموها على لفظيتها . هل من المقول أن ندهك (سن الحمار) أو رأسه (٢٥) في دهان أو نشره في شراب كما ادعى المترجمون المتسكون بحرفية الكلام ، بينما سن الحمار وما اليها من التسميات الوصفية كانت أسماء نباتات؟ ما بالكم لو أن كتابا من القرن الثلاثين الميلادى ادعى انكم تأكلون (عين الجم) أو تستعملون النباتات التى أسماعها الخيال الشعبي نشافة الذباب Dracaena cinnabari أو دم الأخوين Silene rubella

في اصالتها ، اما الأضواء التى يجب علينا اعدادها لنسلطها على فضائنا ، فهي تلك التى نستمدّها من مميزات الحقبة التى نحن في صدها ، أى من الجو الذى سادها ، وهو يشمل العقائد الدينية والأوضاع الاجتماعية والأفكار السياسية والمناخ الأقليمى وبشكل عام فلسفة العصر وببشته .

قال :

استحلون في أنفسكم موسوعات مصنفة من العلم باللغات القديمة وعلم الأديان وتفسير النقوش والرسوم والإنتاج الفنى والقباقيا البشرية والمنزلية والقصص والروايات ، مع ما في كل هذه الأبواب من صعوبات ومعوفاة تحول دون اجتيازها ؟ انه لم يبق عنى - على سبيل المثال - قسسط الاجتهاد في نقل علمائكم النصوص الهروغليفية أو السمارية إلى اللغات الحديثة ، كيف يدعون الإحاطة بمذلولات النصوص وهم قلما يتفقهون عليها ، لقد ترجم ابل Ebbell نبذة : « نريف من قلقة خنان » (١٨) وأخرى : « علاج سقوط الرحم » (١٩) في حين أن جرابو Grapow ترجمهما : « نريف بسبب فوكة سنط » وهلاج لرفع ثدي المرأة ؟ (٢١) (٢٠) انى عنلما نقلت في القرن الخامس عشر ق.م نسخة من المؤلف الذى أطلقتم عليه « بردية أدوين سبت » (٢٢) لأطلع عليها تلاميذى اضطرت إلى حشوها بهوامش يفسر العبارات القديمة التى كانت أهملت ونسيت معانيها بعد أن مضى على وضعها خمسة عشر قرنا .

مددت يدى الى خزانة الكتب وأخذت منها نسخة من هذه البردية :

أجل أنك علقت على الحالة السابية : « ان حبل الفك هو مجموعة الأوتار التى تربط طرف الفك ،

- ١٨ - Ebbell, G., The Ebers papyrus, 1937, Levin & Munksgaard, Copenhagen, No. 808.
- ١٩ - Ebbell, ditto, No. 732.
- ٢٠ - Grapow, H., Grundr. d. Med. d. Alten Aeg. Akademie Verlag, Berlin, IV, 1, 285.
- ٢١ - Grapow, ditto, IV, 1, p. 213.
- ٢٢ - Edwin Smith papyrus, ed. by Breasted, The Chicago University Press, Chicago, 1930.
- ٢٣ - بارى Ambroise Paré : (حوالى ١٥١٠ - ١٥٩٠) جراح فرنسي لازم هنرى الثاني ، وشاول التاسع ، وهنرى الثالث من ملوك فرنسا ، صاحب الجيوش في خلال حروب المائة سنة واستبدل بطريقة الكى القديمة ديل الشرايين لوقف النزف ، وله تصنيف وفى .
- ٢٤ - Histoires d'Amour de l'Histoire de France, II, p. 292, par Guy Breton, Ed. Noir & Blanc, Paris.
- ٢٥ - P. Ebers 18, No. 770.

هو الأبريز فترجموه الذهب الحر (٢٨) في حين أن الإبلير هو طوى النيل ، ثم أن الاعتماد على التراجم والافتباسات دون الرجوع إلى الأصول يخلد أخطاء الترجمين والمعلقين ، وأفضل مثال لهذا ما لحق بنظريات عملاق الطب القديم ، الفاضل جالينوس ، منذ أن نشرها في القرن الأول الميلادي ، فقد عرضها حينئذ بين أسحاق في العهد العباسي على شكل ، ثم ترجمها لينارك Linaore ترجمة مباشرة من أصولها اليونانية على شكل آخر ، وأتضح من آخر تحقيق أجزاء Siegel أن جالينوس اتهم ظلما بالوقوع في عدة أخطاء ، فقد نسب إليه القول بأن حركة الدم في الأوعية تتم على شكل مد وجزر ، وهذا ما لم يجيء في كتاباته (٢٩) ، وقامت حملات تنقيفة ضده أخذت عليه قرصه وجود مسام خفية في حاجز القلب ينقل عبرها الدم ، وكل ما قاله في هذا الصدد أن هذه المسام تكون مررا أضافيا لغائض الدم ، وهو عندما فرض وجود مسام في مرئية لم يشط أبعد من هارفي Harve إذ فرض وجود وصلات بين الشرايين والأوردة لم يكن له إلى رؤيتها سبيل قبل اختراع ليونوك Leeuwenhoeke (٣٠) المجهز النظري ، ثم أن صعوبات اللغة ليست العوائق الوحيدة التي يجابهها المؤرخون ، فأتى كثيرا ما اعترضت على تفسير علماء الآثار لبعض البقايا التي كان أخرى بهم استرشاد المختصين فيها ، وقد درجت بعض الحكومات على تشكيل لجان تضم اختصاصات مختلفة على شكل (طواقم) من الباحثين لتعرض عليهم كل ما يتوسم فيه علاقة بفنهم ، ودعنى أذكر على سبيل المثال لما قد يقع فيه المؤرخون وصف دارسي Daresy عالم الآثار الفرنسي لنقش بمقبرة ميريوكا بسقارة ، بمثل صافصة بصوفون قلاذات من الذهب ، ويتميزون بقصر أطرافهم السطلي بالنسبة إلى طول جردوهم . استغرب دارمي هذا السلوك لخبره بمهارة

أو لسان الفرس Daphne alexandreia أو غيرها من تلك التي أطلقهم عليها أسماء تشبيهية ؟ هل في استطاعة قارئه صدى قراءة (قانون) ابن سينا أو (الحاوي) للرائي دون الرجوع إلى أمهات اللغة والمعاجم المتخصصة ؟ أتنا ، نحن العرب ، نمنى بالخوخ نوعا من الفاكهة في لبنان ونوعا آخر في مصر ، أن كلام العرب من السعة بحيث لا يصعب به إلا نبي (٣١) - حسب قول الفقهاء - وقد علق عليهم ابن فارس بقوله « هذا كلام حري أن يكون صحيحا » وما يلفتنا أن أحدا ممن مضى آدمى حفظ اللغة كلها ، أضف إلى الصعوبات اللفظية الاصطلاحات اللغوية التي تختص بها كل لغة كسكن العرب في مخالفة ظاهر اللفظ معناه ، وحذف أداة التنفى ، كقولهم « والله أفعل ذلك » تريد « لا أفعل » ، وذكر الواحد والمراد الجمع ، والعكس ، والفرق بين ضدين بحركة ، كقولهم : « ينخر إذا نقض من أخضر ، وينخر إذا أجاز من خفر ، واستعمال اللفظة لتبيين متضادين كقولهم الجون للأسود والأبيض ، والرجاء للرغبة والخوف ، والجلل للشرف الصغير والكبير ، وأمثالها سلات كتب الألفاظ ، ثم أنكم تفرون الألفاظ بما لا علاقة له بأصلها ، كزعمكم أن اسم منطقة « السيف » مقتبس من لفظة Cif (٣٢) وهي مختصر عبارة يستعملها مورود البضائع الموانئ ، بينما السيف اسم فصيح لساحل البحر ..

- صدقت والله ، لقد ورد على مثل لهذه الصعوبات في ترجمة إنجليزية لكتاب : « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانسة بإرض مصر » الذي وضعه موفق الدين عبد اللطيف البغدادي نحو سنة ١٢٠٠ م ، فقد ورد في القتال عن فيضان النيل وأثره على أرض مصر أنه « باتياها عين أسود ملك فيه دسومة كثيرة يسمى الأبلير » ويبدو أن المترجمين غلطوا الأبلير

- ٢٦ - الزهر في علوم اللغة وتوامها : تأليف عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، دار أحياء الكتب العربية ، القاهرة جزء ١ ص ٦٤ (ب) ص ٢٨١٠ .
- ٢٧ - للغة CIF مختصرة عبارة Cost Insurance Freight ومعناها تأمين وتأمين وشحن .
- ٢٨ - موفق الدين عبد اللطيف البغدادي الإفادة والاعتبار .. انظر ص ٢٢ : Anton van Leeuwenhoek (١٦٢٢ - ١٧٢٢) أشهر من متى يعلم المجهز ، وكان يغير عدساته بنفسه ، فصنع آلات كانت مع عيوبها الآلية وأجود صنع عصره ، ويمكن من تكبير الأشياء ٢٧ مرة ، وتعد اتحاد البروم بما يقى من صنعه .
- ٢٩ - The Eastern key, Zand, K.H., Videan, J.A., and Videan, 1, B., 1965 G. Allen, London.
- ٣٠ - Siegel, R., Galen's system of Physiology and Medicine, 1968 Krager, Basel.
- ٣١ - ليونوك Leeuwenhoek

لئلا يسمحوا له بالتمتع بحياته الثانية ، ولهذا السبب ، ولهتكم أغلب آثار عاصمتكم (تل العمارة) (٢٢) لن يتاح لكم الوصول الى الحقائق كاملة أبدا .

وهنا سألتني في فضول وقلة لياقة :
وما الذي دعاني الى تحنيط الموتى ؟
اجابني غاضبا :

انى مندهش لجهالتك ، فضلا عن حماقتك .
انما نحننا موتانا لايماننا باستمرار حياتنا بعد الموت في البيوت التي شيدناها لاستئناف عيشتنا على نمطها الاول ، وهي التي أسميتوها انتم مدافن وكنا نحن نطلق عليها « دور الخلود » .
لم نؤسس قط بغرفة الموت - كزعم بعضكم - ، وأنما عطينا بالمدفن نؤسسنا بالحياة ، ولشغفنا بها ، ومن ثم اهتمامنا بحفظ اجساد أهلنا سليمة ، لتقف أمام الآلهة صحيحة ، ولنستمتع بملذات الحياة كاملة ونستشيق صبا الشمال ليلا ، ونتلذذ بحرارة الشمس نهارا ، ونستعظم ألوان الأطعمة المنقوشة على الجدران ، وننعم بحب الزوجات والاولاد الى الابد .

أجبت :

— أن لكل عادة غريبة سببا معقولا ، لقد وصل اهتمامكم هذا الى استبدال اطراف صناعية بالاطراف المنزوعة ، وإلى تركيب الجبال على الأذرع الميتة اذا كسرها (العائوية) ، وكنا نجهل الدافع الى سلوككم الذي ، أقل ما يقال منه ، انه يبدو غريبا . ولكن الادهي في هذا ان هذه العادة ، التي كانت طبقا لديننا بحثا ، افاد منها الطب فوائد غير منتظرة ، فان لف الجثث بالاربطة بطرق في غاية الفن درب فئة من الناس تخصصوا في الاربطة ، فعادوا الاطباء في تحجير الكسور والخلع عند الاحياء كما كانوا يفعلون بالاموات ، وقد ذكر هذا في بردية ادوين سميت ؟

عدت ففتحت البردية وقرأت :

« ان القطاء الذي يستعمله الطبيب هو رباط

فنانى هذا العهد ، فنجح الى انهم قصدوا تمثيل الصافى راكمين ، ولكنهم تسرعوا فرسوا المائدة التي يعملون عليها قبل رسم اطرافهم ، فشغلت المجال المد للاطراف ، ولم يجدوا مفرا من وضع الاطراف متبسطة في ارتفاع كان مخصصا لها وهي منثنية ، ومن هنا قصرها النسبي . غير انه فاتهم وكيف لا - ان الدراعين تميزا بالقصر نفسه لأن أولئك الصافى كانوا من الافرام المصابين بعاهة (الاكوندروبلاريا) التي تمتاز بقصر الاطراف لتوقف نموها في سن مبكرة .

أصبت بابنى وتشخيصك للعاهة سليم ، كانت الافرام تكلف بصياغة الحلي ويحفظ الأمتعة والكنوز ، لسهولة العثور عليهم اذا ما فروا بها .
اعترض صديقي :

« ان مكس هذا الخطأ أكثر خطورة » ، واتجه نحوى : « وقد وقعت أنت فيه . فقد يفسر الأطباء تفسيراً طبيياً ظاهرة ذات مدلول رمزى ، اتك اسندت مباحة شكل الفرعون اختلون الى خلل في غده (٢٣) ، كما ظنه ما سيرو من قبل امرأة ، والحقيقة انه أراد تحسيم عقيدته ، وهي ان الاله (اتون) هو الخالق الاوحد ، لم يشاركه في الخلق غيره ، فهو ابو الكون وأمه ماء ، جمع في نفسه خصب الذكور والاناث ، فكان لابد ليدل على وهو صورة الاله المتجسدة - من تمثيل نفسه على شكل لاجنسي . »

قلت :

هذا رأى فئة من علماء الآثار ولكننا - معشر الأطباء - لن نصدقهم حتى يتم الكشف عن موميائهم .

اختفت ابتسامة الزاوي وفشت الكتابة وجهه :

لن يحدث هذا أبدا ، ان سيدي اختاتون كان أول من نادى بالوحيد ، وكان مصغر إيمان بنى إسرائيل ، وناهض عبادة الآلهة التي تسمونها أصناما وكان أقواهم آمون ، وقد انتهك مومياءه وأسفاه كهنه هذا الآلهة انتقاما منه ، وأعدموها

٢٢ — تل العمارة (خوت تان ، أى أفق قرص الشمس) العاصمة التي شيدها المنحبت الرابع ليتبع عن نفوذ كهنة آمون بمدينة (طيبة) ، عندما اتخذ اسم اخن - اتن ليتجرد من اسمه أقول الضام لاسم الآلهة آمون ، تقع هذه المدينة في موسم الطريق بين القاهرة وأسوان ، واسمها العربي نحت من اسمي قرية (اقل) وطيبة (بنى عمران) اللفظة حاليا بها ، وقد ههما لحظوا اختلون بعد موته لشدة كرههم لعبادة المدينة ، ويدل ما تبقى منها على تقدم كبير في الفن وعلى ظهور نزعة طبيعية في الرسم اثر على الفن المصري طيلة من الزمن .

كشفت عنها في هذه الجبابة أو تلك ، أهو الزهري أو الجذام أو التهاب غير نوعي أو ورم ؟ وحول تاريخ أول ما وصل الزهري إلى قارتنا ، أوفند عليها هدية من أمريكا بواسطة بحارة كولومبوس، أم كان متوطنا عندها من قبل ؟ أما فيما يخص عهدكم ، فأننا أكثر دراية بـ حالتكم الصحية لحفظكم الأنسجة الرخوة في حال تسمح بتفحصها على أدق وجه ، وليس بالمجهر النظري فحسب ، وإنما بالمجهر الإلكتروني الذي وقفنا على أدق دخائل الخلايا ، كالميتوكوندريا mitochondria وقد أظهر (روفر) Ruffer (٢٥) فيها بفضل احتفاظ الأنسجة بهذه الحال الجيدة ، بويضات البلها رسيا ، وآلر تصلب الشرايين ، فضلا عن أمراض أخرى ، وهرقنا أن رمسيس الخامس توفي عقب مرض الجذري ، وأن الملكة نفرتاري والغرافة أمونوس الثالث وسيتي الأولى ورمسيس الثاني كانوا صلعاً ، والحق يقال أننا عرفنا بفضلكم من حالة الغرافة الصحية مالا نعرفه عن ملوك القرن الحالي . وما دعنا في ذكر عادات نستغربها أن لم نجد حوافز مقتولة لها ، فاسمح لي أن أستفسر عن أمر عادة أخرى تدهشنا ، وهي الزواج من الأخوة والأخوات .

اعاد آخر حديثي الغضب إلى محيا محادلي بعد أن كان أزاله أعترافي بفضل التحنيط علينا .

— انك ما تزال تحكم علينا بمنطق النصف الثاني من القرن العشرين ، أعلم أيها الشاب الفرير أن نساءنا كن يتمتعن في مجتمعنا بمرکز أرفع مما تمتع به نساؤكم في أكثر بلادكم حضارة وتقدما ،

موجود بين أيدي المحنطين « ووالى هذا فان امتياد فتح الزئوس والبطون أرشد إلى مواضع الأحشاء وأشكالها ، وأسهم في رفع الحظر عن تشريح الموتى في عهد البطلمة .

قال :

أجل لم تقم السلطات الإسكندرية بصعوبات عندما قمنا مع زميلي هيروفلس (٢٢) وإيرازستراس (٢٤) بإجراء الصفات التشريحية والتجارب على الأعصاب والعضلات التي مكنتنا من تصحيح أخطاء الذين كانوا يحرقون موتاهم أو يحجمون عن تشريحهم ظنا منهم أنه انتهاك لتعاليم الدين ، كما أن مقابلة أصابات الأحشاء بالأعراض المرضية رجحت ثقة القائلين بأن المرض مبني على أمس عضوية .

قلت :

وفيما يخصنا ، فأننا ندين لمادة التحنيط بمعلوماتنا عن حالتكم الصحية ، لأن البقايا البشرية نفثت بأمانة أسرار الحضارات المنصرمة ، لو أنها لا تتعرض للتلوث ، ولذا فإن معرفتنا لأمراض الماضي تكاد تقتصر على أمراض العظام والكسور وما استعمل في سبيل علاجها من أربطة وجبائر ، ومع ذلك فإن تشخيصها ليس بالأم سهل بعد أن نخر فيها الدهر ، وهو يشتر مناقشات حادة بين أخصائي العلم الذي أطلق عليه أخيرا (باليوباثولوجي) palaeopathology أي علم أمراض الحياثة والآثار ، حيث نراهم يتجادلون في مؤتمراتهم حول سبب تكاليف العظام التي

٢٢ — هيروفلس (حوالي ٣٠٠ ق.م.) : عالم إسكندري ، هوى التشريح ووصف أجزاء عديدة من الجسم بمنها الأثنى عشر والمخيط والنخاع الشوكي والأوعية اللمفاوية ، وفرق بين الإصابات والأوعية ، وأدرك أن الإصابات تثقل العنق وتدفع إلى الحمرة ، وكان أول من عد التنبؤ مستتباً بساعة مائية وقد يكون التنبؤ هذا الابتكار من تعاليم معربة قديمة ، حيث أن عدة التنبؤ مذكور في برديات أدوين سميث وإيرز ويرلين ، وأن هناك نماذج معروفة من الساعات المالية ترجع إلى عصر تنحس الثالث ، كما أنه حاول حل مشكلة الدودة القموية بدانها أكثر من قير .

٢٣ — إيرازستراس (٢١٠ - ٢٥٠ ق.م.) : من تلاميذ مدرسة فيثاغورس للتفاهة لمدرسة قوة الإبراهيمية ، وكان مشرعاً دؤوباً ، لم تقل معلوماته في رأى بعض المعاصرين عن معلومات فيزيالوجيوس في القرن السادس عشر م . استند على ما يبدو أول مرة في التاريخ - إلى التجربة والعلوم التجريبية لتعليل الفواهر الجسدية ، منها فيزياء الفراغ وفكرة نفور الطبيعة من الفواء التي انطقت منها أساسا للفسيولوجيا الجديدة . فقال أن اتساع الصدر في أثناء التنفس يعرض الهواء داخل الرئة ، وبالتالي أن اتساع القلب يجلب الهواء من الرئة ، وذهب إلى أن الشرايين لها خاصية اتساع دائية تجلب بموجبها الهواء (أو النفس) من القلب الأيسر ، حيث أن الدم في رايه ، محصور في الأوردة والقلب الأيمن ، أما النزف فإن سببه اندفاع الدم من الأوردة إلى الشرايين بدافع الفراغ الناتج في الشرايين عند فتحها وخروج الهواء منها ، فلستنتج وجود صلات متفرقة بين الأوردة والشرايين يجتازها الدم وإنما في حالات مرضية فقط .

٢٥ — Ruffer, M.A., 1921 : The Palaeopathology of Ancient Egypt, Chicago University Press, Chicago.

اضفت :

او من شظية شجرة جسدت شخصا كما روى في قصة الآخرين (٢٨) وامثال بعض القبائل المتخلفة تؤمن بمثل هذه العقائد ، وتحجب الصبيات من ملقحات مرغومة كالارواح والرباح والاعاصير والحيوانات البرية .

استطرد :

ومع ذلك فقد بكرنا الى دور الذكور في التكاثر حتى أن بعض اميرتنا كلاميرة (ادوت) كانت تلقب بـ (ابنة الملك التي من جسده) (٢٩) ، ولما لا للكهنة المحافظين من نفوذ ، تحجرت تقاليدنا ، واصبح الزواج من الاخوات محبوبا لهدفه الى امرين : اولهما الاحتفاظ بالارت من الوقوع في ايد غريبة ، وثانيهما ضمان الحداد للسلافة من اصلها الالهى ، اذ ان الاله كان اصل الأسرة المالكة ومصدرها للحقة في الملك ، ونتيجة لهذه الاعتبارات قيد حق الجلوس على العرش بالزواج من امرأة منحدرة من اصل ملكي من طريق الملكات ، لا من طريق الاماء أو الاميرات الغريبة التي كان القصر الملكي مكتظا بها ، وهذا حتى يتحقق في الاولاد النسب الى الاله . فكان لزما على فرعون ، وان كان ابن الملك - الزواج من أخت انجبته الملكة الكبيرة وكانت تسمى الزوجة الكبرى ، والى هذا فان الصبيان والصبيات كانوا يربون تربية منفصلة فلم تنشأ بينهم مشاعر الأخوة التي استنكرتم من اجلها هذا النوع من الصلات .

انهم كن يشاركوننا تماثيلنا ومشغولياتنا ، ويصاحبنا في رحلات القنص وصيد الاسماك وفي الولائم والاستقبالات الرسمية ، وكان لبعضهم شأن خطير في ادارة دفة الدولة ، منهم (حاشيسوت) (٣٠) التي جمعت بين قوة الرجال ودهاء النساء ورشاقتهن ، وانتزعت الصولجان من يدى تحتمس الثالث واستولت على الحكم ، والملكة نيتوكريس (٣١) التي حكمت مصر وانتصت لاجيها شر انتقام ، والملكة (تبيي) التي سيطرت على ابنها اخناتون والتي بلغ ولع زوجها بها - وهو الشرف الزواج امنوفيس الثالث - الى حد حفر بركة واسعة خصصها لنزهاتها المائية والى توزيع جمران نقش عليه هذا الحادث لحفظ ذكره ، وكل سيدات الاسرة الطيبة اللائي لسن دورا فذا في الاحداث الهامة التي انتهت بتحرير مصر من حكم الهكسوس ، ولعل الملكة التي تالت اعظم صيت هي (مع - حتب) زوج (سقننر) بطال الحملة التي طردت الفصصين ، والتي ورد على شاهدها بعيد كرنك انها هي التي ضمت صفوف فسكر مصر واخذت الثورة . وكانت الوراثة - احيانا كثيرة - تؤول من طريق النساء ، لان الام مدت وصلة السلافة وواهبه الحياة ، اذ كانت مقيدة اسلافنا - يادى ذى بدء - ان الذكر ماهو الا مبدأ منبث لانتقال البويضة ونموها ، وقد جهل بعض البدائيين علاقة العملية الجنسية بالحمل جهلا تاما وانصرفوا الى ان المرأة قد تلقح من الهواه أو الجن أو ارواح الاجداد . .

٣٦ - حاشيسسوت (١٥١٦ - ١٤٨١ ق.م.) : نرى على تماثيلها سيماء الحرم وقوة الشكيمة ، كانت ابنة تحتمس الاول ووليعة العرش ، تزوجت اخاه تحتمس الثاني وانجبت منه ابنتين ، احدهما زوج تحتمس الثالث ابن زوجها من محبلة . رعدت في سن ميكرة ، وتسلمت زمام الحكم بحزم وقوة ، واجبت السلم ووصلت بالبلاد الى اعلى رفاحية . ولقد ابنتت ميعةا فريدا في (دير البعري) ، قيمته التاريخية ليست في ابتكار طراز معمارى جديد لفصص ، وانما في تشييدها على جدرانها على شكل ملك ، وتلقبها بملك (الملك) والشمس الاثى .

٣٧ - نيتوكريس . روى هردوت (٢ و ١٠) ان امرأة تدعى نيتوكريس حكمت مصر ، واهلكت الكثيرين من المصريين انطلاقا لفسدهم باخها خلال حكمه ، ولقد اولوها الملك بعد قتله ، فقد ابنتت قاعة واسعة تحت الارضى ودعت الى وليعة عددا كبيرا منهم وبخاصة اولئك الذين علمت انهم كانوا من التامرين على قتل اخيها ، واطلقت عليهم في اثناء الوليعة ماء النهر من قناة خفية ، وبعد ان قامت بخلعتها هذه اقلت نفسها في غرفة مليئة بالرماد حتى لا تعاقب ، مما يعزز هذه الرواية . وان كان دخلها شهيد من الخيال وقبى من اسطورة اوزيريس وايزيس - ان مصر كانت في هذا العهد ساحة صراع وفتن ومؤامرات بين الطامعين في العرش ، وان مانيشسو (Manetho) المؤرخ المسحودى ذكر (نيتوكريس) ووصفها بانها كانت ابئل واحب نساء مصرها .

٣٨ - قصة الاخوين : انظر :

Lefebvre, G., Romans et Contes, Adrien- Maisonneuve, Paris, 1949.

٣٩ - Macramallah, R., 1935, Le Mastaba d'Idout, Fouilles de Saqqara, Public. Serv. Ant. p. 23.

مئتين من طرائق مذكورة في بردية أهرس، وتسليل استعمالها دون انتقطاع من القرن الخامس عشر ق.م. إلى الطب الشعبي اليوم عن طريق الأفریق والقرن الوسطى الأوروبية والعرب، هي تشخيص الحمل وجنس الجنين بملاحظة فعل بول الحامل في بعض النباتات، وهو ما يزال يمارس في الأناضول (٤٠ و ٤١)، وعلاج بعض أمراض النساء بواسطة دم الحيض الذي شاهدنا استعماله بين بدو شبه جزيرة سيناء (٤٢) وما يزال جارياً في بعض القرى الأوروبية، بل إن مثل هذه المعتقدات والعادات ما يزال قاضياً في فئة ممن يدعون ثقافة فائقة ولكنهم يضعون العجب والمجازات فوق العلم الحق.

على أن المنهج (الفولكلوري) سهل على من انغمس في حياة الشعب موضوع دراسته منذ طفولته، بينما يصير على المستشرقين بحكم (أوربيتهم) التي تبعد عنهم وقد تؤدي بهم إلى التخييل وارتكاب أخطاء جسيمة في تأويل مسائل غابت عنهم وإن كانت عندنا بديهية. خذ مثلاً ما ورد من عاين تناولوا موضوعاً واحداً، هو ترجمة ابن النفيس. فإن مايرهوف Meyerhoff (٤٣) المستشرق الألماني الذي أمضى قسماً طويلاً من حياته بصر، تشكك في تسمية هذا العالم (أبو الحسن) لأنه لم يتزوج البتة ولم ينجب ابناً يسمى (الحسن)، وكاد الكاتب الإسباني كوريزي دل آغا C. riese del Agua (٤٤) ينسى حقيقة تاريخيته ويؤكد أنه شخص خيالي لأن اسمه ورد في بعض المخطوطات (على)، وفي الأخرى (أبو الحسن)، وسبب لغتهم جهلهم عادة الكتي التي لم تكن لشعب الأعراب.

سألني محدثي :

أفدني عن هذه العادة ؟

قلت : إن مثل هذه العادات ما يزال سارياً في بعض أنحاء العالم دون أن ندرك دوافعها التي يبنتها لنا بالعودة إلى الماضي، فإن أحداث الحضارة ليست مظاهير عابرة تنشأ في مكان ما أو زمان ما، ثم تنقطع وتفتي، وإنما هي سلسلة تطبع كل حلقة منها أثرًا عميقاً في الحلقة التالية، وهذا الأثر يندو على صعيدين، الفردي والجماعي، فيحق لنا إذن دراسة هذه الآثار لتعطينا على تحري بعض نواحي التفكير الإنساني، فالمرء يولد شبيخاً كهمل بتاريخ أسلافه، ويتبع في تكوينه الخطوات التي مروا بها، وقد يتوقف نموه عند حد يماثل مرحلة من هذه المراحل أو ينتكس إليها، ومن ثم يبدو عليه علامات عدم النوام الاجتماعي التي تتراوح حسب مرحلة تخلفه. بين الشذوذ المقبول والاضطراب الذهني الكامل أو الجنون، وكلما تقدمت حضارتنا زاد عدد الذين لا يقدرون على اللحاق بها، ومن هنا الأزدباد في عدد المستشفيات التي تصالج فيها الاضطرابات النفسية. وقد تسنى لعماد لطيل النفس أمثال فرويد Freud و يونج Young تفسير عمليات الذهن الباطن باعتباره عودة إلى تفكير الإنسان البدائي، وهذا بتطبيق المشاهدات الفولكلورية على مشاهدات تناول سلوك المرضى الموسسين أو تفكير الأطفال أو بعض مظاهر التفكير اللاواعي كالأحلام والأوهام، وبالعكس فقد أمكنهم فهم عمليات الذهن البدائي بمقارنتها بها في الأطفال والشواذ، ولذا فإن العالم بعلوم الإنسان (الانثروبولوجيا) قد يكون أقدر على تفسير النصوص القديمة أو العادات الغابرة من زميله عالم اللغات.

وإذا اعتبرنا الطب وجدنا وسائل التشخيص والعلاج القديمة ما تزال تمارس في قرانا وبين الشعوب التي لم تهد إلى العلم بعد، وذهني أضرب

١ - Ghalioungui, P., Ammar, B. & Khalil, Sh., 1963 : On an ancient method of diagnosing pregnancy and determining faetal sex, Med. History, Vol. 7., No. 3, 241.

٢ - Kawancigil, T.R., Sur les traces d'Hippocrate en Qnatolie, XVII Cong. Int. d'Histoire de la Médecine, Athens, 1960, p. 79.

٣ - Ghalioungui, P., 1966 : On the persistance of the use of catamenial blood in folk medicine, Bull. Inst. d'Ég., in the press.

٤ - Meyerhof, M., 1935 : Quellen u. Studen z. Geschicht. d. Naturwiss. u. d. Medizin, Band 4.

٥ - Curiese del Agua, A., 1967, Gac. med. Espan., Nos. 491 : 273 ; 492 : 311 ; 493 : 365.

اجبته :

ان الذي دعا العرب الى الكنى هو الاجلال عن التصريح بالاسم باستعمال الكنية ، وهذه السنة وهى من مفاخرهم ، لم يخصوا بها الا ذوى الشرف من قومهم - وقل من مشاهير الاسلام من ليست له كنية .

تتم صديقى :

اكتبه حين اناديه لاكمه

ولا تقيه والسورة اللقبه (٤٤)

فهذه زائرنا من غير القرون وقال :
الا ترى انك تؤكد شكوكي بالتصريح بصعوبة لتتكم ؟ فابن تجدون اذن المصفاة التي تفصل بين العصف والحبوب في اقوال اولئك الذين تسميهم مؤرخين وما هم الا رواة يبتغون - اولا وآخرا - اسر مستعصمهم بمجانب يزعمون انهم شاهدوها . اصدق تلك القصة السالجة التي رواها هردوت من سبدي فرعون اذ زعم ان العمى اساب مولاى عقابا على تجارة على النيل اذ سخط عليه وقذف رمحا وسط دواماته لا قراطري فيضائه الذي غمر الزروع ، ثم ان وحيا جاءه بعد مضى عشر سنوات ، بانه سوف يسترد بصره اذا غسل عينيه ببول امرأة لم تجتمع الا بزوحها فقط ، فحرب بول امراته ثم ، على التوالي ، بول كثيرات من السيدات ، ولما عاد اليه بصره احرق جميع النساء اللاتي جربهن حاشا تلك التي ابصر بعد الاغتسال ببولها فقد اتخذها زوجا له (٤٥) ؟

- ان هذه القصة تمثل حقا ما لا سبيل للمقل الى تصديقه ، وهناك رواية اخرى من رواياته كذبها القرائن وهى ان بابل لم تعرف مهنة الطب وان المرضى كانوا يعرضون بها في قاعة الطريق على المارة لعل احدا من هؤلاء يوصى بعلاج شاف (٤٦) ، مع ان المؤكد ان الاطباء كونوا بها مهنة موضوعة تحت رعاية الدولة ومنقسمة الى طوائف عدة وقد كشف عن اختتام بعضهم لذكر اسماءهم ، فكيف جاءت تلك الروايات على لسان « هردوت » وقد مجده المؤرخون وقلوبه (ابا التاريخ) ؟

- يابني ، لا ينجو احد مهما اشتدت شخصيته

من تأثيرات التيارات السياسية والمصالح العنصرية ولم يخلص « هردوت » من الدعاية السيئة التى نشرها بنو اسرائيل حول سيرة مولاى .

- هذا رأى استاذنا الدكتور احمد بدوى (٦) ج (الذى رجح ان سيلك كان فرعون « الخروج »

فاشار الشيخ الى رف من ارفف المكتبة وقال : ارى عندك كتاب « هردوت يتحدث عن مصر » الذى صدره هذا العالم ببقعة ثمينة ، دعنى افتحه واتلو عليك ما كتبه عنه بعد ان اغدق عليه الاطراء ووصفه بأنه « ملا الدنيا وشغل الناس » تناولت الكتاب معجبا بعلم الشيخ وسعة اطلاعه ولاوفر تعبى قرات ما يلي :

« ما اكثر ما خدع المؤرخون بين ايدى الترجاحة كما يخدع السائحون اليوم وما اكثر ما ظهرت بساطة « هردوت » حين صدق ما جاء منهم ... ومن المحقق ان « هردوت » قد خدع فيما سمع من روايات الادلاء والتراجحة ... ليس من السهل علينا ان نمضى في تصديق « هردوت » دون ان نتصور حوائل من الشك لا مناص من الوقوف عندها »

وان كانت امانة احمد بدوى العلمية املت عليه التشكك في انتصاف حكمه اذ اضاف : « الله يشهد ان الشك لم يثر في نفسى بالنسبة لهردوت وحده ولكن بالنسبة للكثيرين غيره ، وقد يكون سبب ذلك هو طول النظر في تاريخ وطنى الطويل ، وما عانى اسلافنا وعائينا نحن من غدر المستعمرين قديما وحديثا » .

وهنا تدخل صديقى وقال :

وما رايتكم في سترابو Strabo الذى يعد ثبنا من اثبات الجغرافيا التاريخية والذى ، بعد ان صرح بان سنة الختان نشأت في مصر ، زعم ان بنى اسرائيل اخذوا من المصريين عادات ختان الصبيان وخفف البنات ، مع علمنا علم اليقين بان اليهود لم يخفصوا بناتهم البتة (٧) ؟

لم يجبه من سؤاله وكان الحديث في الامور الدينية حرم عليه ، فاسرعت ، لرفع حرجه :

٤٥ - اثر مخشرى في « ربيع الابرار » ذكره السيوطى (٢٦) ص ٢٤٤ .

٤٦ - تاريخ هردوت ، انظر « هردوت يتحدث عن مصر » ، تأليف محمد صقر حجاجه وشرح احمد بدوى ، دار العلم ، القاهرة ، ١٩٦٦ : ٢ : ١١١ ، (ب) ١ : ١٩٧ ، (ج) ص ٢٢ و ٢٦ (د) ١٤١٢ .

٤٧ - The Geography of Strabo, Loeb Class. Lib., Heinemann, Harvard, XVII, 5.

حياته في قبره ، وهذا هو ما فعله كهنة آمون باختاتون ، وتحتمس الثالث بحثشيسوت ، ولكن ما أسرع استنجاهاكم وما أحققها ، بل انى ذكرته واعطيته حقه من المدح والتقدير ، وكيف لا أقبل وقد عرفتم معرفتيه جيدة وزاملته في دمشق ثم في القاهرة قبل ان اغادر ارض مصر قاصدا صغد ونشأت بيننا اواصر صداقة وطيدة ، الا ان ما قلته من القرضى - كما كنا نسميه أحيانا - جاء ضمن جزء من مذكراتى لم يرد على مولر Müller ناشر أول طبعة المؤلف ، وقد وفق الباحث السوري يوسف العشي الى الكشف في المكتبة الظاهرية بدمشق عن الاشتات الناقصة من الطبعة الاولى والى نشرها فترانى من هذه الفرية . (٩)

وما ان انتهت من هذا الكلام حتى رايناه يكبر في نظرها ، واذا بالرازي يجلس تلقائيا ويشكو في مرارة : « اعتاد منتحلو لقب المؤرخين ، في سداجة وقد يكون في سوء نية » نقل الحروب الروايات المختلفة ، لقد حكى ابن خلكان ، مقتبسا من ابن جليل ، انى كنت صنفنا للمنصور كتابا في الباث صنعة الكيمياء (٥٠) فاعجبه وحيانى بالف دينار ، وطلب الى ان اخرج ما ذكرته في الكتاب الى الفعل ، واحضر لى كل ما احتاجه من آلات وعقاقير وما يليق بالصناعة كاملا ، ثم اتنى هجرت عن انتجاز زعمى وان المنصور قال لى : ما اعتقدت ان حكيمنا يرضى بتخليد الكذب في كتب ينسبها الى الحكمة ويشغل بها قلوب الناس ، وحمل السوط على راسى وامر بان اضرب بالكتاب على راسى حتى يتقطع ، وكان ذلك الضرب السبب المزموم في نزول الماء في عيني وفقدانى البصر »

افاق صديقتى من تأملات انفسى فيها كالفريق وقال :

ان حلدنا من التداى لا يقل عنه ممن هم اتل منهم قدما ، كيف نوفق بين اجلال الدهر لابن سينا وبين راي البغدادي فيه اذ صرح - تبعا لابن ابي اصيبه - بأنه كلما امعن في كتب القداى ازداد فيها رغبة وفي كتب ابن سينا زهادة ... وان اقوى من اضله ابن سينا بكتابه في الصنعة الذى تم بها فلسفته التى لا ترداد بالتعمام الا نقصا (٨)

تكاثفت النجوم المتصاعدة من اللوائف واطبقت على الشيخ ستارا اخفاه عنا لحظة ، ثم اسفرت عن خطوط اخذت ترسم وجهنا نحيفا وعينين ثاقبتين ، وصماعة مقلمة ضخمة .

انه قال هنى هذا الكلام وانما اوتى بالثل ، وقد اشرت في حياة اخرى الى حدة لسانه في (طبقات الاطباء) وان كنت قد توحيث الخفة والرقعة اللتين تليقان بعالم كان صديق جيسى واستاذ والذى وعى .

اجبته في لهفة :

قل لى ، افادك الله ، ان كنت تجسدت في ابن ابي اصيبه فما سبب اغفالك ابن النفيس في مصنفك الثمين الذى لا غنى عنه في معرفتنا بطباء الاسلام ؟ احقيقى ما رواه مايرهوف من ان وثيرة وقعت بينكما فاردت الانتقام منه بعدم ذكر اسمه ، وعدم ذكر اسماء الاعداء كان من سنن كهنة المصريين وملوكهم اذا ما ارادوا محو ذكرى اعدائهم .

عادت اليه سيماؤه الفرعونية لحظة وقال :

ان الكلام لم يكن في نظران اداة اجتماعية وانما قوة كونية تملك القدرة على الخلق ، وكنا نؤمن بان الكلمة هى الشيء وبان الاسم هو الشخص ، وان محوه يبيد صاحبه فيمنعه من استئثاف

٤٨ - ابن ابي اصيبه : ميونخ الإثبات في طبقات الاطباء ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، ١٩٥٧ ، الجزء الرابع .

٤٩ - يوسف العشي ، مخطوطات دار الكتب الظاهرية ، التاريخ وملحقاته ، مطبوعات المجمع العلمى السورى بدمشق ١٩٤٧ ، ص ٣٠٦ .

٥٠ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، الجزء الثاني .

المضمار كان قسطنطين الافريقى الذى رحل من شمال افريقيا الى جنوب ايطاليا محملا بولفات العرب والافريق ، ورجعها الى اللاتينية دون ذكر اصولها ، فانكسب شهرة اغتصبها من غيره وعندئذ زعما طويلا جهيدا من عاقلة الطب (٥١)

اعترض محادثنا :

لا تنسى ان الامانة العلمية لم تكن من مميزات هذه العصور ولا من متطلبات التصنيف ، ولا ان الفضل لقسطنطين في بعث الطب في سائر ارجاء جنوب ايطاليا وفي زرع بذرة نشرت طلعا الى سائر ايطاليا والى مونيلى في فرنسا ، فانجنت الزاد الذى غذا النهضة الطبية الأوروبية ، والغريب ان عدم التقيد بلذكر المراجع استغل استفلاا كسبيا ، فان الكثيرين من الكتاب دأبوا على اسناد اقوالهم الشخصية الى مشاهير الاسلاف لهم نظرياتهم او للتوصيه بسعة ثقافتهم ، كما تتطوّل اليوم اسماء جحا او ابى نواس (ج . ب . شو) G. B. Shaw في كتابكم لئلا تضحك مستعجبكم .

أضفت :

ان هذا اللون الفردى من الانانية لا يكاد يحسب له حساب اذا قورن بما هو ادهى وأمر ، وهو نوع من الاعتداد الطائفى او العنصرى الذى يتخاطف لثمة الشهرة ليفلحو بها صيت مواطنيه مهما كانت تفاهتهم ، فيحرف التاريخ بطرق علمية مزيفة . وقد اخذت هذه الظاهرة برل حديثا على شكل يشير الى حملة دعائية منظمة دخلتها حواجز ثبتت تلك التى ادت منذ ثلاثين الراهنة وهى شبيهة بتلك التى ادت منذ ثلاثين قرنا الى ابتكار رواية عمى فرعون ، وقد استهدفت هذه الهجمات أخيرا الغرب الاسلامى فادعى بعضهم ان الملح صفحاته كانت من انتاج غير العرب .

علمتى الايام رد اية رواية لاستندها القرائن والبراهين ، حتى اذا زعم راويها انه عاينها بنفسه . لقد كنت اعمل - منذ ثمان وثلاثين سنة - بقرية متاخمة للقناطر الخيرية بقرب القاهرة ، اواجه اليها صباحا واماود منها مساه ، وحدث ان منطاد « جراف زبلين » زار القاهرة خلال طوافه الاعلامى وهبط بمكان مسعد له بالصحره لمدة ساعات معدودة ، وغداة هذا اليوم ذهبت الى القرية واجتمعت فيها كمادنى بالاعيان ، منهم العمدة وشيخ التجار ورئيس الكتبة وانصت في اصحاب لايفوقه الا تمجيبى وذهولى ، الى رواية المنطاد ، وقد اصيبت حلى السنتهم أسطورة ، ونحوها ان اهل القرية شاهدوا المنطاد وهو يحوم فوقهم ، ثم وهو يطوف على سطح النيل ، ويثب من فوق القناطر لمتابعة رحلته النهرية ، واكدوا انهم راوه يقلع من فوق سطح النهر الى السماء ، ثم يهبط على اليابسة ليعود الى التساهرة على الطريق الزراعية ، فساورتنى عندئذ فكرة مقلقة ، وهى ان مثل هذه الشهادة من قبل اعيان القرية وسلطانها كانت في العصور المتصرمة تدوّن في السجلات الرسمية وتبلغ للسلطات المركزية وتدخل صلب التاريخ ، اما ان الخيال الجماعى يصل الى هذا الصعيد من الإبداع في الابتكار بعد وقوع الحادث بساعات ، فهذا ما يشفع لهدودت وابن خلكان وغيرهما اذا نقلوا نوادر حكيت بعد حدوثها بقرون قلت :

اهى سداجة منهم حقا ؟ ام هل هناك دوافع اخرى تحفز الرواة الى افتحال قصصهم ؟ لقد عرفنا حافزا منها وهو التمشير السياسى ، وآخر هو الرغبة في جذب اصحاب الجماهير ، ولكن هناك ما هو اخطر وهو الانانية وانتحال اقوال الغير للاعتداد بالنفس ، وابتز بطل في هذا

٥١ - قسطنطين الافريقى (١٠١٥ - ١٠٨٧ م) طبيب من قرطاجنة الم الاما تاما باللغات الشرقية . وطاف بمصر وسوريا والعراق والهند والصين ، واحاط فيها بعلومها ، ثم فرغ الى سالترو هربا من تهمة السحر ، وانتخب بها محلا مرموقا بين الاساقفة والمعارفين ، واصبح امين دوق ابوليا ، وانتهى بالرهينة في دير جبل كاسينو ، وبعد قسطنطين رافد الطب العربى في أوروبا ، فقد ترجم مؤلفات ابقراط وجالينوس والمجوس وغيرهم ، ويؤخذ عليه انه انتحل الفن في وضع كتبه دون ذكر الذين انتقل بسابق علمهم ، ونسبها لنفسه ، وكان لمؤلفاته نفوذ دام طيلة من الزمن في أوروبا .

استطعنا صقل ازهى حضارة شاهدها العالم .
 اطبق علينا سكون كثيف هنيهة ، ثم اشرق
 وجهه من ابتسامة فضول ، وبعد تردد قصر
 تشجيع فقال بسرمة وفي نفس واحد :

اراكم تمضون الليالى في دراسة ماضى مهنتنا
 وتقنون عليها قدراً وفيراً من جهودكم ، هل لى
 ان استفهمكم الفائدة التى تتوقعونها منها ، وهى
 اصبحت ضياع وقت ومشغلة عقيمة بعد التقدم
 الذى احوزه فننا في القرن الماضى - وقد قبل
 ان عدد العلميين في خلال خمسين سنة مضت
 فاق عددهم منذ بدء التاريخ ، لقد كان هدفنا
 من قراءة المؤلفات القديمة البحث عن اصول
 العلم ، لانتقاداتنا انه اوتى اسلافنا كاملاً ثم تنافسوا ،
 اما انتم فما هو علمكم في نفث غبار المكتبات ؟
 افيدوني ، افاذكم الله ، هل تجدون في التاريخ
 متممة مرضية مردها العود الى طفولتكم للتعرب
 من اعباء سنيكم الرشيدة ؟ ام هى اناقة ذهنية
 تبهرون بها غيركم ؟ او اعتداد بالماضى لتعويض
 فراغ الحاضر كشأن (اولاد الذوات) الذين لا
 مفرجة لهم الا في ذكر اجدادهم ؟ ما هى حجبتكم
 في جعلها علماً مستقلاً ذا نظم ومناهج ومؤلفات
 ومؤتمرات خاصة ؟ هل تتوقعون العثور على
 معلومات جديدة ، ام تبحثون منها التعالى على
 الاسلاف ؟

تمجبت من طول هذه المداواة وشهدتها وقلت :
 ايها الاستاذ الجليل حاشى ان اعزاً بما وصلت
 اليه من المعرفة واعمالى عليكم ، ليس دور المؤرخ
 الحكم على صواب النظريات العلمية أو خطئها ،
 وحسبه ان يضعها بين ما سبقها وما لحق بها ،
 ليحدد دورها في تكوين الفكر البشرى ، وليتعرف
 على ماضيه وبالتالي على نفسه كما نصحه سقوط
 على ماضيه وبالتالي على نفسه كما نصحه سقراط
 عندما قال لاحد مرديه : « اعر نفسك » .

لاحرج عليكم ان كنتسم افقتسم
 نظريات اخطاها الزمن ، وما النظريات سوى
 محاولات ، لا معدى من افتراضها ، لضم حصيلة
 المعلومات المجمة في صورة موحدة ، على ان يتنام
 البرهان لها أو ضدّها بمحك الاختبار ، أما

قاطعنى صديقى :

ان لهذا النوع من التاريخ الملتزم ، او الموجه -
 على نمط الادب الملتزم بالوجه - دوافع قوية
 معروفة ، ولكن ما بالك في انكار بعض العرب -
 وهم عرب اما بحكم اصلهم او بحكم دينهم او
 لغتهم او حضارتهم او بيئتهم - امثال ابن
 سينا والرازي ومحاولتهم النيسل من الطب
 الاسلامى .

قال محاورنا وقد اردادت عمامته ووضوحاً
 وبهاء :

لهم ذريعة يتحجبون بها في تكوان مآثر الطب
 الاسلامى ، وهى ان هذا الطب لم يكن اسلامياً
 اذا عنى بهذا التسمية اننا ، كلنا ، كنا ندين
 بالاسلام ، ولم يكن عربياً اذا قصد بهذا اننا
 كلنا كنا من ابناء شبه جزيرة العرب ، وما اوهى
 هذه الحجة فان ازدهار العلوم والفنون خارج
 شبه جزيرة العرب وعلى ايد غير عربية في صدر
 الاسلام لم يحدث الا بفضل هذا الدين الالهى
 الذى ابرز الكفافات العقيمة وكشف العيون
 المظومة وجمع في ارضه الطبية وتحت رعايته
 المتنورة ورود كل الاجناس وزهور كل الاديان ،
 لما فيه من السماح الذى حرر البشر من الجبال
 الازلية التى كبّلت الفكر من قبله . الم يامر
 الامبراطور قسطنطين بقصر دراسة مؤلفات
 ارسطو على ابوابها الاولى وتحريم ما يلى (الصور
 البلاغية) ؟ الم نهى من الاسكندرية ومن اثينا
 لتضييق الخناق علينا ؟ ثم الم يهوى لنا بنو امية
 ومن بعدهم العباسيون الجو الملائم للانتاج ؟ هل
 فرق الخلفاء بين اطباهم المسلمين والنصارى
 واليهود والمجوس والصابئة ، وقد سمح النبى
 عليه الصلاة والسلام باستشارة الاطباء ولو من
 غير المسلمين ، اذ يروى انه لما مرض سعد بن
 ابي وقاص في حجة الوداع عاده النبى وقال له
 « انى لارجو ان يشفيك الله حتى يضربك قوم
 وينتفع آخرون » ، ثم قال للحارث بن كلدة «
 عالج سعداً مما به » والحارث على غير دين
 الاسلام ، ان هؤلاء الفضللين المناظرين يتناسون
 حقيقة اكيدة وهى اننا ، نولا الاسلام ، ما

والطب ، شأنه شأن سائر العلوم المعتمدة على الخبرة ، حري بأن يتخذ من هذا الحديث الشريف شعرا ونبراسا .

قال :

وما الطب في عرفك ؟

- ان الطب ملتقى يتقابل عنده انسانان كل منهما ثمرة عصره ، وهما الطبيب والعليل ، وقد خضعت العلاقات التي ربطت بينهما لموضع كل منهما من القوى الدينية والاجتماعية والاقتصادية المحاصرة له ، وتاريخ هذه العلاقات هو تاريخ الطب ، واتنا عندما نتحدث عن العليل نعميه على شكلية الفردى والجماعى ، وفي كلا الحالتين تتيح معرفة ماضيه استقراء مستقبله والتخطيط له ، اذا وضعت احداثه الماضيه موضع الاحداثيات الرياضيسية التى تجيز معرفة بعضها التكهن بالمجهول منها ، ورسم مخطط بياني كامل لها .

اما حرمان الطالب من ادراك حفظ النظريات المتقلب ، فانه لا يخفى على احد ما في مثل هذا التصرف من الاجحاف بقضه وبحق العلم ، اذ ان تلقين العلم على أنه حقيقة ثابتة يجمد الذهن وينلق أبواب التقدم .

واذا انتقلنا من الفرد الى الجماعة فان الحاجة الى الخبرات المكتنزة أمس والزم ، وبخاصة حين نستهدف ازالة مرض متوطن او الوقاية من وباء او التكهن بسيره .

قال مجادلنا وقد تموجت ملامحه واستقرت في شكل ضابط رومى :

لو ان قائد جيوشنا الكونت الكسى اندريتشف اركليشيف Alexei Andreivitch Arakhtshejev وزير دفاع القيصر اسكندر لس هذه الحقيقة عند ظهور الكوليرا على حدود روسيا والهند ، لتجنب القول : « انه لايسر الجمال ان تنفد من سم الخياط من ان تخترق الكوليرا صفوفنا » وجنب بلاده هذا الوباء ؛ ولو ان مولاى القيصر نقولا ادركها لتريث قبل ان يدفع بجيوشه من بلاده الموبوءة نحو اوربوا لاجماد الثورات النمدلة بها ، ورحم مئات الآلاف من موت اليم ، من

فائدتها فهي انما تكون قاعدة لفروض جديدة تستحث الباحث الى ابتداع مزيد من التجارب للبرهان عليها ، فاذا ظهرت التناقضات وجب اهمالها وتشديد بنسء جديد يوفق بين كل المعطيات ، وهكذا تثير حلقة لا تنطق الا بالوصول الى الحقيقة ، اذا قدر للانسان يوما ان يعثر عليها .

وهنا اعترضنى صديقى وقال : ومع ذلك فكر من نظرية مجانبية للحقيقة ادت الى كشوف جديدة وقامت بخدمات جليلة . ان حضارتنا وكل انجازاتها قد بنتها فروض ادركنا اليوم ادراك اليقين بطلانها ، وقد ارفعنا على اهمالها التقدم ذاته الذى هى خلفته وما اشك في ان ابهر نظرياتنا التى نتباهى بها ، سيعرفنا ما مستخلفه من التقدم على وضعها في رف مهملات التاريخ ، وقد محونا من اذهاننا حتى تلك التاملات التى ارسخنا عليها تصورا لاركان الكون ، فقد اجبرتنا نظرية الكم quantum التى تقسم شتى مظاهر الطاقة الى اقدار محددة لا تقبل التجزئة ، الى استبدال صورة جديدة بتلك التى كانت ترسم الكون على شكل متشمل قابل لتقسيم لا نهاية له، وشتنت الفيزياء الحديثة اللدرة - التى عددناها غير قابلة للقسمة او للتحويل وبنينا عليها الكيمياء التقليدية ، كما اتاحت تحويل المعادن الذى لم يكن بأذهاننا الى قبوله سبيل في ظل النظريات القديمة ، واتكر العلم الحديث وجود الجوهر الذى سماه الفيزيائيون (اثير) ، وهو قوام ميكانيكا الامواج التى وصلت بعلوم الضوء والاشعاع الى ما وصلت اليه ، فبرر موقفه السابق بالتصريح بان الوجات المزعومة انما كانت انسب تصوير للمعادلات الحسابية التى تحكم اغلب خواص الطاقة دون غيرها .

ثم ليس الغرض من جهودنا الوقوف على معلومات جديدة وان كنا نجد أحيانا في كنف الماضي أفكارا تبدو طريفة لانها وقعت فترة في طى النسيان .

اما اذا كنا اسمينا هرايتنا (تاريخ الاخطاء) فاننا لم نطلق عليها هذه التسمية لنسخ منها وانما لتأكيد قيمتها التعليمية ، فقد قال النبى ، عليه الصلاة والسلام : « السعيد من اعطى بغيره »

قال صديقي ساخراً :

لم تنقص هذه الحامية المستعمرين الذين
تقبلوا على قاطني أمريكا الأصليين بتوزيع ثياب
مرضاهم المصابين بالجذري عليهم ، فأهلكهم
بسلاح افتك من الرماح والمدافع .

صحتنا هنيئة غائصة في أفكارنا ثم رفع
محادتنا السكون الذي خيم على الغرفة المعبأة
بالدخان :

يا بني من أهمل فني ، أنكم تفقرون موقفا
« بطبيب فيه النظر الى الفرد كما يطيب فيه النظر
الى الأمن ، فلا يفرق فيه الفخر بالآباء دون الأمل
في الأبناء » (٥٥) « أتى أشيد بجولانكم في ماضٍ أشعل
نشطة ضئيلة حوتوها الى نور متلاهي وهاج ،
والتي يوفالكم لأجلان من الأطباء تناقلا عينا كنتم
عليه . أقدر منهم ، الا انه اذا خفت ناحية منه ،
تناقلت نواحيه الأخرى ، ان المرض لن يزول وإن
ينتهي ولن يفلح . وإنما كالعقد الماهر ٤- ينتقل
من حصن الى آخر ، اذا زلقوه في جحر » ، شن
عليكم هجماته من جحر آخر ، فإن كنتم تغلبتم
على الأمراض المعدية التي كانت تفتك بنا ، فقد
خلقت لكم أمراض الشيخوخة والسرطان مشاكل
علاجية واجتماعية أخطر شأننا وأقعد حلا . لقد
كهكت قطان أكثر البلاد حضارة ، وحيث
الدول أمباء لن تقدر عليها في المستقبل ، فعليكم
الآن ، فضلا من المرض ، دراسة الإنسان بأكمله
على أنه جزء من بيئته ، فقد قال فرشوف ان انتشار
الابوة مظهر من مظاهر عدم التوافق الاجتماعي
والثقافي وخلل في توازنها ، وهو الذي أنصع
براه بان الطب علم اجتماعي ولن يتم الا بالتغلب
على عناصر ثقافية سلبية طالما أخرجت الشروعات
الصحية ، لا تنسوا المعارضات الشديدة من قبل

بينهم قائدان من كبار قواده ، المارشال ديبتش
والأمير قسطنطين اللذان بسبب أصابتهما اطلق
الجيش على الكوليرا (مرض المارشالات) (٥٦) .

طمس بعينه وكأنه استعراض شريط ذكرياته:
« لقد حولت الأمراض مجرى التاريخ بدفع أقوى
من أحكام الشرعين وبطش الإباطرة ، وهذا ما يجب
درجه ليس في مناهج كليات الطب فحسب ،
وانما في دراسات كليات الاقتصاد والكليات
الحربية ، لقد شاهدت بعيني هزيمة (سنحريب)
ملك آشور في القرن الثامن ق . م . عندما
انقضت علينا الفئران ونحن معسكرون على منافذ
مصر ، وقرضت الجنب والافراس وجمائل الدروع
قولينا الأدبار وسقط منا الكثيرون (٤٩ د) ،
وصاحبت جند (سبارتا) عندما فككتنا ، رغم
أنونا ، حصار أينا خوفا من العدوى بالطاعون
الذي فتك بها (٥٦) ، وقد أهلك الاستقربوط
الأساطيل وحال دون كشف القارات المجهولة
قرونا عديدة ، وفشل أول مشروع فتح قناة
باناما بسبب نفثي الحمى بين العاملين به ،
وفتكت الالتهابات الموية بيجينوش الحلفاء في
جاليبولي إبان الحرب العالمية الأولى ، وكنت
أجهل وأنا أعادو جورج الثالث ملك إنجلترا ، ان
شلوذه السياسي ، وقيل جنونه ، الذي أدى
الى ضياع مستعمراته وأسسقلال الولايات
المتحدة ، نتج عن (كروموزوم) مرضي ورثه من
آبائه بسبب ما تطلقون عليه اليوم اسم (بورفيريا)
Porphyrria (٥٦) ولو أن السلوك والساسة
وهيو نكهة من الحاسة التاريخية لأحجموا عن
الزواج من الأقارب وحالوا بهذا دون انحلال
سلالاتهم وضياع امبراطورياتهم وهو امر غير
معالم العالم واسمهم ، دون شك ، في دفع العالم
نحو الديمقراطية .

٥٢ - Winkle, St., 1969, Die gelben Hefte, 17, p. 868 : Die Cholera mit ihren vielfältigen kultur-historischen Wechselbeziehungen.

٥٣ - تاريخ توسيديد : ٢ ، ٥٧ .

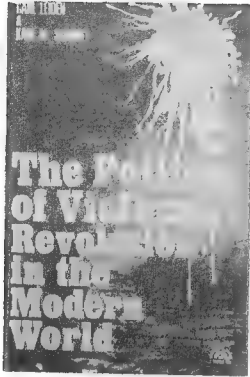
٥٤ - Macalpine, I., Hunter, R., 1968, Porphria, a royal malady.

٥٥ - عباس محمود العقاد ، آلي العرب في الحضارة الأوروبية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ ، ص ٧ ،

اشعاع كاريون ١٤ ، وما إلى هذه الطرائق التي ما يبرح الإنسان يتكرها ، على ألا تنسوا العنصر البشري فيها ، فإن العلم إذا فصل عن الأدب أمسى كليا غاشيا % كما أن الأدب إذا سحب منه قوامه العلمي كان دوي طبل أجوف ... لا تنقص مينة واحدة دون إعادة فتح ملفات قضايها كان يحسب أمرها منتهيا ، .. أنها هرواية ، إذا استخدمت - استخدمت نفعيا ، لارساء قواعد تنطلقون منها إلى مستقبل أفضل ، وإذا وضعت التذكر في خدمة الآمال البشرية ، أنها هرواية جديرة بكل احترام وبكامل العناية ، .. ، أنها دراسة لا نهاية لها ..

وما إن تلفظ بهذه الكلمات الأخيرة حتى سمعنا دوى زجاج ينكسر ، ولفحننا ربح هبت فجأة من النوافذ ، وغمرتنا أوراق متطايرة ، وإذا بعيني تنفتح على سحب ذائبة ، حاملة معها وجهها محبوبا ، مخلفة وراءها ابتسامة عطف ، ابتسامة بدون وجه ، كالوجات التي سحب من تحتها الفريائيون قوامها الأثيري .

أصحاب الآمال على مشاريع صرف الفضلات ومن قبل أصحاب الصناعات على إجراءات منع تلوث الهواء والمياه لأنها تتعارض مع حقوق الملكية الخاصة ، وقد أصبحت هذه المشاكل على رأس قائمة المسائل التي تستوجب حلولاً جذرية . فإذا أردتم الانماط بالماضي وجب عليكم التدرع بقدر كبير من الصبر والمثابرة . لقد أصبح البحث عن تاريخنا عملا معقداً جصلا من كل متحف معهد بحث يحوي طبقا من التحف وأطباقا من الخبرات ، وتعددت وسائل البحث واقتنست لها كل الطرائق المستحدثة فضلا عن الفنون المعهودة ، اتكم إن تكتفوا بالتصوير الشمسي - بل عليكم إضافة الإشعاعات السينية وتحت الحمراء وفوق البنفسجية . لا يكفي أن تعرفوا أنواع الأخشاب بل عليكم مقابلة سمة خطوط نموها بجداول معروفة dendrochronology وعلكم تقويم المعادن النادرة في الخزف والزجاج لمعرفة مصادرها ، وتحديد المحاور المنطقية في الأفران التي طبخت) فيها لمقارنتها بالتحريفات محور الأرض المخطط على من القرون ، وقياس



عَرَضُ الْكُتُبِ

سياسات

العنف أو الثورة

في عالمنا المعاصر

عرض وتحليل : دكتور اسماعيل صبري مفلد

المسياسية وإن كان لا يدعى لنفسه أنه يصدد تطوير نظرية يمكن من خلالها تحليل هذه الظاهرة تحليلاً نهائياً وشاملاً ، إذ أن ذلك كما يقول المؤلفان ليس في مقدورهما ، ولكنه بدلا من ذلك يقدم عرضاً مختصراً ومركزاً للتحليلات النظرية التي كتبت عن أسباب هذه الظاهرة وهوامل نموها ، وإلى جانب ذلك يعرض لعدد من الثورات التي حدثت في منطقتي الشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية على أساس من الدراسة المقارنة .

ومنذ البداية يحاول المؤلفان أن يعرضا تعريفاً مقبولا لظاهرة الثورة ، على الرغم من أنهما أفرا بصعوبة التوصل إلى مثل هذا التعريف ، نظرا لبقاوت الاتجاهات من هذه الظاهرة . فبينما ينظر البعض إلى الثورة على أنها تغيير غير شرعي لنظام الحكم ، يعتقد البعض الآخر أن مفهوم الثورة

من أهم الظواهر السياسية التي تميز عالمنا المعاصر انبثاق الثورات على نطاق ومعدلات فاقت كل تصور . وطبيعي أن هذه الثورات تتميز من حيث دوافعها ، وملاسماتها ، وبيئاتها ، والاطر التاريخية الذي يحيط بكل واحدة منها ، وكذلك من حيث التراكيب الاجتماعية والسياسية والنفسية والايديولوجية للزعامات التي تهيم عليها وتسيطر ناصيتها ، فضلا من الاختلاف في الاهداف والغايات التي تحاول كل ثورة بلوغها . ومن هنا ظهر إلى حيز الوجود الكثير من التحليلات التي تحاول التعمق في دراسة هذه الظاهرة من مختلف أبعادها وجوانبها .

والكتاب الذي نحن بصدد عرضه هو أحد هذه الدراسات المتخصصة في موضوع الثورة . وهو يحاول تشريح ظاهرة الثورة في المجتمعات

في تغيير الترتيبات القائمة للسلطة السياسية ، والكيفية التي تشغل بها المراكز والأدوار داخل الهيكل السياسي العام ، وهي - مثل النسوع السابق - حين تقوم بهذا التغيير لا تتعداه إلى تغيير هذا الهيكل على أي نحو جذري . والثورات ضد السلطة الاستعمارية أو الثورات التي تستهدف إحلال بعض الأنظمة الأوتوقراطية بأنظمة أكثر ديمقراطية هي من بين النماذج البارزة لهذا النوع من الثورات . وأخيراً يبقى النوع الثالث من الثورات وهي التي تحدث لا بسبب تغيير الأدوار الشخصية ، أو ترتيبات السلطة السياسية ، وإنما لتغيير المجتمع نفسه ، ومن هذا النوع : الثورات الشيوعية والثورات التي تطالب بتحديد الملكية . . الخ .

ويعرف **ديل يودر** الثورة الحقيقية بأنها هي التي تحدث تغييراً جوهرياً في الاتجاهات والقيم الاجتماعية التي يرتبط بوجودها استمرار المؤسسات التي يركز عليها النظام التقليدي .

وهناك تعريفات أخرى كثيرة يوردها المؤلفان لكتاب ومحللين سياسيين مثل **رغس هوبس** ، **وجود فرى التون**، و**وليام ستوكس**، وهي لا تخرج في مضمونها عن التعريفات السابقة .

وينتهي المؤلفان إلى القول بأن التعريف الذي يتقبله للثورة لا يعتبر جديداً بالمقاييس السابقة ولذا فإنها يخلصان إلى أن تعريف **بنتز كالفرث**، للثورات بأنها «التدخل بالقوة أما لتغيير الحكومات القائمة أو تغيير المؤسسات التي يستند عليها وجود هذه الحكومات» ، يعتبر تعريفاً مقبولا وكافياً من وجهة نظرهما .

وفي فصل آخر يتحدث المؤلفان عن العنف كأحد جوانب للثورة فيقولان أن كثيراً من الثورات تقتصر باستخدام العنف ، ويرجع ذلك إلى كون أن التغييرات التي تحدث تتم بوسائل غير قانونية ، وفي هذه الحالات يبدو العنف ضرورياً لمواجهة المقاومة التي تظهرها الحكومات التي يستهدفها التغيير الثوري .

والعنف كأحد أدوات القوة السياسية يمكن

لا ينصرف إلا إلى التغييرات الاجتماعية المعيقة الجذور ، والتي تجد تعبيراً لها في إجراء تحويرات في الهيكل السياسي العام للمجتمع ، وأحياناً ما تؤدي هذه التحويرات في النهاية إلى بلورة إيديولوجية معينة ، أو رفع شعارات معينة ، ولكن الثورة تبقى بعد ذلك كله عملية تغيير اجتماعي في الأساس .

وقيل إن يختار المؤلفان تعريفاً مقبولا لهما ، يستعرضان نماذج مختلفة من التعريفات التي قيلت في هذا الشأن . **فيسجيموند نيومان** وهانا **أريندت** ينظران إلى التغيير الاجتماعي على أنه ركيزة أساسية من ركائز الثورات الحديثة . وفي رأي نيومان أن الثورة هي بمثابة تغيير جذري وشامل ، ليس فقط في نمط التنظيم السياسي القائم ، وإنما في الهيكل الاجتماعي . وفي نموذج الملكية الاقتصادية البسيط وهو بذلك لا يركز على معيار الحرية كأساس تركّز عليه الثورة .

ويعرف **شالز جونسون** الثورة بأنها « قبول العنف كأداة لا ممدى عنها في أحداث التغيير المطلوب » ، ويعرف **هفري** ، بأنها « وسيلة غير قانونية لإحلال حكومة بأخرى » أما **فليكس جروس** فهو يميز بين شكلين من أشكال التغيير بالقوة في نظم الحكم : الأول وهو عبارة من نقل السلطة السياسية من مجموعة حاكمة إلى أخرى ، وهذا يشكل انقلاباً ، والشكل الثاني هو إجراء تغييرات اجتماعية جذرية بواسطة القوى التي تتنبئ من أسفل هذا النظام وهذا ما يمكن تسميته بالثورة الاجتماعية . وفي رأي **جروس** فإن الثورات السياسية تكون في بعض الأحيان ثورات اجتماعية . أما الثورات الاجتماعية فهي دائماً ثورات سياسية .

أما **جيمس دورنوث** فهو يميز بين ثلاثة أنواع من الثورات : الثورات التي تظهر بسبب صراعات شخصية حول التوزيع القائم للأدوار داخل النظام السياسي ، وهذه الثورات تقتنع بأحداث تغيير في هذه الحدود ولا تتعداها إلى أحداث تغييرات أساسية في هيكل المجتمع . وأمريكا اللاتينية هي أبرز الأمثلة لهذا النوع من الثورات . ثم هناك النوع الثاني من الثورات التي تحدث بسبب الرغبة

حدوث ثورة اجتماعية ، وإنما تتركز جهود القاملين بالانقلابات على محاولة إضفاء طابع من الشرعية على عملية استيلائهم على السلطة ، كما قد يلجئون إلى استخدام أساليب الترويع الدمائي وترديد ادعاءات الثورة وافتعال بعض الشعارات أو إجراء بعض التغييرات السياسية الشكلية ، ويكون الهدف من وراء ذلك كله هو دمج وجودهم في مراكز السلطة التي استولوا عليها .

أما الثورات فهي التي يعتمد قيامها واستمرارها ومقدرتها على تحقيق غاياتها السياسية والاجتماعية بمدى التأييد الذي تمنحه الجماهير لها ، وبدون هذا التأييد الجماهيري ، تفقد الثورة أهم ركائزها .

ونحن نقبل هذا المعيار للفرق بين الثورة والانقلاب ، ففي رأينا أن الذي يميز هاتين الظاهرتين عن بعضهما هو عمق التحول الاجتماعي الذي تستهدفه عملية التغيير في مراكز السلطة ، وكذلك طبيعة الأطوار الأيديولوجي الذي يتم التغيير في داخله . فإذا كان التحول عميقاً ، وكانت الأيديولوجية التي تحكمه ذات إبعاد ومضامين تستجيب للاحتياجات العامة للتغيير كما تعبر عنها الغالبية العظمى من المجتمع ، أمكننا أن نسمي ذلك ثورة . أما إذا كان التغيير شكلياً ، وكان نقل السلطة يتم أساساً لحساب فئة طامعة في الحكم ، أو كانت الأيديولوجية التي يروج لها فارغة من أي محتوى اجتماعي حقيقي ، فإن هذا الوضع لا يمكن وصفه إلا أنه مجرد انقلاب لا أكثر .

وبصد هذا التمييز بين موضوعي الثورة والانقلاب ، يحاول المؤلفان أن يقدموا تحليلاً لأسباب الثورات وكذا لظروف البيئات التي تنشأ فيها . وهما يؤكدان في بداية تحليلهما أن الثورات لا تظهر بطريقة عفوية ، وإنما تنشئ من صميم الاستجابات وردود الفعل الإنسانية تجاه الأوضاع الخفية للبيئة بمفهومها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي . . . الخ . ولا تقتصر إبعاد البيئات التي تحدث فيها الثورات على النواحي الداخلية بل تمتدداها إلى الظروف الدولية التي تؤثر على نحو أو آخر في تطور هذه الظواهر الثورية .

أن ينشئ من أحد المصادر التالية : فهو قد ينشأ لأسباب ذاتية أو تلقائية يولدها تيار الأحداث التي تحيط بعملية التغيير ، كما قد ينشأ العنف نتيجة نقوض الأجهزة التي تقوم على تنفيذ القانسون وفرضه ، فانهيارها يعني إطلاق تيار العنف دون ضوابط تردمه أو تستطيع تجييده وإيقافه . وفي حالات أخرى يكون العنف نتيجة تدبير سابق . بمعنى أنه يشكل الأداة الرئيسية التي يرككسر عليها أحداث التغيير المطلوب .

ويقترن بتنوع مصادر العنف اختلاف معاليل في كثافة هذا العنف ، ومدى استمراره ، والكيفية التي يستخدم بها ، وكل هذه أمور تنتج أساساً بسبب الاختلاف في التجارب التاريخية وفي مستويات النمو السياسي والاقتصادي والثقافي للبيئات التي يحدث فيها هذا العنف .

وفي هذه النقطة ينتقل المؤلفان إلى التمييز بين الانقلاب Coup D'Etat ، والثورة Revolution فبالنسبة للانقلاب هو عملية إحلال لمجموعة حاكمة بمجموعة أخرى ، ويتم ذلك إما بالاستخدام الفعلي للعنف أو التهديد باستخدامه ، وغالباً ما يتم هذا بشكل غير متوقع اطلاقاً . ومن أمثلة الانقلابات غير العنيفة ، الانقلابات العسكرية في أمريكا اللاتينية ، والانقلاب التركي في عام ١٩٦٠ ، والانقلاب أيوب خان في الباكستان عام ١٩٥٨ ، والانقلاب العسكري الذي حدث في غانا في عام ١٩٦٦ . . . الخ . أما عن الانقلابات العنيفة فمن أمثلتها : انقلاب السلال في اليمن في عام ١٩٦٢ ، والانقلابات التي حدثت في العراق في عامي ١٩٥٨ ، ١٩٦٣ ، والانقلاب الذي حدث في نيجيريا في عام ١٩٦٦ . وهناك انقلابات تتم بطريقة غير عنيفة ، ولكن استخدام العنف يظهر في مرحلة لاحقة على وقوعها ، مثلما حدث بعد انقلاب موسوليني في إيطاليا عام ١٩٢٢ ، وانقلاب أتاتورك في تركيا عام ١٩٢٣ ، وانقلاب شينج كاي شيك في الصين عام ١٩٢٧ ، وانقلاب اندونيسيا عام ١٩٦٥ .

والانقلاب هو الاستيلاء على مراكز السلطة السياسية في الدولة وأدوات القسر التي تتركز عليها ، وليس ضرورياً أن يؤدي الانقلاب إلى

برنتون وجيمس دافيز، وادريانو لوبيس الذى يقول ان قيام ثلث اجتماعية واقتصادية جديدة ، لا سيما فى الدول حديثة العهد بالاستقلال ، والتغير الذى يحدث فى الأنماط التقليدية للدخل ، وعدم توازن النمو الاقتصادى ، والتفاوت فى توزيع الثروة ، كل هذا يؤدى الى القلاقل والثورات . وباختصار يمكن القول بان كل هؤلاء الكتاب والمحللين يتفقون فى أن اتجاه الجماهير من واقعهما الاقتصادى وظروف حياتها المادية ، هو من أهم العوامل التى تقع بسببها الثورات . والمصدر الآخر للثورة يكمن فى التزامات والصراعات السياسية الداخلية التى كثيرا ما تظهر بسبب انفصال النظام السياسى عن قاعدته الاجتماعية المتغيرة . وفى حالات أخرى تحدث الثورة بسبب ضعف النظام السياسى وعدم قدرته على مواجهة تحديات المشاكل التى تظهر فى الدولة . ويكون هذا الضعف من الحوافز القوية التى تدفع الى محاولة تغيير هذا النظام والاستيلاء على السلطة السياسية .

وفى مكان آخر يتحدث المؤلفان عن مراحل الثورة وهما يشاركان **جودفرى التون** اعتقاده بأنه لا يمكن تحديد نقطة البدء فى نمو أى ثورة من الثورات ، لأن للثورات جذورا تمتد الى الماضى الذى قد يصبح من المتعذر التعرف على أطواره الزمنى الحقيقى . ونفس هذا رأى اكده **جيمس برنتون** الذى ذهب بالأمر الى حد أن قال « ان المراحل المبدئية للثورة لا يمكن تحديدها حتى بواسطة الثوار انفسهم » ، على انه فى حالات كثيرة تكون البداية المعروفة للثورة هي الثورات هي وقوع انقلاب ، ثم يتبع ذلك تطور هذا الانقلاب الى ثورة اجتماعية . وفى حالات أخرى تجيء الثورة نتيجة حدوث بعض الاضطرابات العنيفة ومنها بروز الوعامة التى تقود هذه الثورات ، ومن أمثلة ذلك : الثورة المكسيكية فى عام ١٩١٠ ، وثورة بوليفيا فى عام ١٩٥٢ .

وإذا تجاوزنا هذه المرحلة المبدئية للثورة الى المرحلة التى تليها ، فانها المرحلة التى يطلق عليها المؤلفان « مرحلة العنف الثورى » ، اذ أن حدوث الثورة يستتبعه تدمير النظام القديم ، واستبعاد المجموعة الحاكمة التى كانت تقوده وتوجيهه .

وبالنسبة لاسباب الثورات فان حصرها كما يقول المؤلفان عملية صعبة ، نظرا للتعقيد الشديد الذى تتصف به ظاهرة الثورة ، وان كان هناك بعض الدارسين ممن حاولوا أن يحددوا هذه الاسباب ، فمنهم مثلا من يميز بين العوامل البعيدة التى تزيد من درجة السخط وعدم الاستجابة للاوضاع القائمة ، والعوامل المباشرة اى التى تعجل باحداث هذا التغيير . او بمعنى آخر هناك اسباب أساسية واسباب ثانوية . ويגיע فى مقدمة هذه الاسباب الأساسية - كما يقول شارلز جونسون - اختلال توازن النظام الاجتماعى بشكل حاد مع عدم اتخاذ اجراءات تصحيح هذا الاختلال أو تخفيف مس حده ، وبدأ يصبح استمراره أمرا متعلما ، ومن هنا تظهر الثورة ، كاداة لاستبدال هذا النظام بأخر أكثر توازنا وأكثر استجابة وأرضاء للاحتياجات الاجتماعية المتغيرة . اما الاسباب الثانوية فهى اللابسات التى تسرع بوقوع الثورة وأصدق ما يمكن أن يقال عنها هى أنها عوامل تفجير .

ونفس هذه التفرقة يقرها **هارى ايكستين** الذى قسم اسباب الثورة الى نوعين : الاسباب الأساسية او الحقيقية التى تخلق ارادة التغيير وتبرز الحاجة الملحة اليه ، والاسباب التى تؤدى الى نشوب الثورة تحت تأثير ظرف من الظروف .

وبوجه عام يحاول المؤلفان تحليل اسباب الثورات فيما يلى : هناك أولا السيطرة الأجنبية ، سواء كانت سياسية أم اقتصادية ، فهى تؤدى الى تغذية الاحساس بالتبعية وخلق التصميم على ضرورة انهاء هذه الرابطة غير التكافئة التى تقوم على اساس الاستغلال غير العادل لدولة من الدول . ومن أمثلة ذلك معظم الثورات المعادية للاستعمار التى حدثت فى آسيا وأفريقيا ، أو الثورات التى حدثت ضد التسلط الشيوعى فى المجر وبولندا عام ١٩٥٦ . اما المصدر الثانى فهو الظروف الاقتصادية وهي الموضوع الذى تركت حوله تحليلات كارل ماركس الذى ربط الثورة الاجتماعية بالعوامل المادية والاقتصادية . وكذلك هناك عدد من المفكرين اللادين يغلبن أهمية هذا العامل فى تغذية الثورات ومنهم **الكسيس تولوكفيل وجودفرى التون ، وكريس**

وهناك مفكر آخر مثل **أريك هوفر** الذي أمكنه أن يحصر خصائص القيادة الثورية في حوالي اثنتي عشرة خصلة ، وإن كان قد أعتبر أربعة منها خصائصاً أساسية وهي : (١) الجرأة التي تصل إلى حد الثور ، (٢) القدرة على اجتذاب واستقطاب ولاء مجموعة من الأفراد المحسنين ، (٣) القدرة على توحيد الانبعاث وضم الصفوف وراء هذا القيادات ، (٤) التعصب في الاعتقاد بأنها - أي هذه القيادات - هي وحدها التي تملك الحقيقة وأنه ليست هناك حقيقة أخرى بجانبها .

ومن بين الصفات الأخرى التي حددها **هوفر** للقائد الثوري : الإرادة الحديدية ، والاعتقاد بأنه الإنسان الذي اختاره الأقدار لهذه المهمة الثورية ، وجاذبية الشخصية Charisma التي تمكنه من فرض الطاعة المياء على تابعيه ، والقدرة على تفهم واستيعاب الطبيعة الإنسانية . ويستبعد هوفر من هذه الصفات القيادية : الداء المخارق ، والأصالة ، وتبل الشخصية ، وهو يرى أنها ليست مقومات ضرورية للقيادات الثورية ، لأن هذه الصفات تتضائل وتفقد تأثيرها بجانب صفات أخرى : مثل الصلف ، والزرقة المتمردة على العالم القائم والاستهانة بأراء الآخرين أو حتى احتقارها . وهتلر وموسوليني يعطيان مثلاً واضحاً على ذلك .

أما المؤلفان فانهما يخصصان من ذلك كله إلى القول بأن هناك عدة خصائص تجمع بين القادة الثوريين ، ومنها أن هؤلاء القادة يجب أن يكونوا على قدر معين من التعليم وليس ضرورياً أن يكونوا مثقفين Intellectuals كما يجب أن يكونوا قادرين على خلق أيديولوجية تعبر عن أفكارهم وترجم مسخطهم على الواقع الذي يسعون إلى استبداله .

وحول خصائص التابعين ، يقول المؤلفان ، أن الثورات الاجتماعية تتميز بعدم وجود أسواق أساسية في صفات القادة والتابعين ، بعكس الحال مع الانقلابات التي تظهر فيها هذه الصفات الاختلافات فالثورة الاجتماعية تبعي تعبيراً عن أوضاع معينة يتفاعل بها القادة والتابعون على حد سواء ، بعكس الانقلابات التي تجبر تعبيراً عن أوضاع تشعربها أقلية مغامرة ، ومن ثم يكون هناك مجال لظهور اختلافات في هذه الخصائص والصفات .

وبجانب هذه الملاحظة التي يبديها المؤلفان حول خصائص التابعين في كل من حالتي الثورة

وهذه المجموعة لا تستسلم بسهولة للثورة ، وإنما تلجأ إلى أسلوب المقاومة باستخدام العنف المضاد ، وهذه المقاومة التي يبديها العديم إزاء الجديسد هي التي تلجأ على هذه المرحلة طابع العنف . وفي هذه المرحلة التالية على وقوع الثورة مباشرة تحدث أشياء أخرى كثيرة منها تدمير الولاءات والارتباطات الأيديولوجية والسياسية للنظام الذي تغير ، واستبدالها بولاءات سياسية وبيدولوجية جديدة ، كذلك يتم الترويج لقيم معينة مضادة لقيم النظام المنهار ، ووضع دستور جديد يكون بمثابة وعد بالتغييرات الكبرى التي ستفعلها الثورة .

وعلى الصوم فأن هذه المرحلة هي مرحلة اختلال متغير بين ما تحاول الثورة القضاء عليه ، وبين ما تحاول أن تستحدثه وتدفع به إلى الوجود ، أو بمعنى آخر ، فإن طبيعة هذه المرحلة هي أنها عملية هدم وبناء ، هدم للتقديم وبناء للجديد .

وتعقب ذلك مرحلة أخرى ، هي مرحلة ما بعد استقرار الثورة وتخلصها من كل مراكز المقاومة القديمة ، وهذه المرحلة تتركز في محاولة تثبيت كيان الثورة ، والإيديولوجيتها ، وقيمها ، ومؤسستها ، وتؤسّر الاستقرار الضروري لحدوث التغييرات التي يسببها قامت الثورة .

ثم ينتقل المؤلفان بعد ذلك إلى مناقشة نقطة حيوية أخرى تتعلق بخصائص القادة الثوريين ، وكذلك خصائص التابعين الذين ينظمهم إطار الثورة . وهما يطرحان تساؤلاً مبدئياً عما إذا كان هناك حقيقة ما - يمكن أن نسميه بالنموذج الثوري في القيادات . وللإجابة على هذا التساؤل يلجأان أولاً إلى استعراض بعض مما كتب في هذا الخصوص . **فكرين برنتون** مثلاً يقول أن هناك بعضاً من الشواهد التي لا يختلف سلوكهم عن سلوك المجرمين في المجتمعات المستقرة ، وإن لم يكن هذا النموذج هو المسيطر بالضرورة على سلوك القيادات الثورية . وتستند نظرية **فكرين برنتون** على أن معظم هؤلاء الثوار ينحدرون من أصول اجتماعية غير راقية . أما **جودسييد** فهو يعتقد أن القادة الثوريين يختلفون عن الأفراد الماديين في أنهم يجمعون بين قوة التصميم وعدم المرونة أو العناد في التعبير عن آرائهم السياسية ، وهذا بالإضافة إلى طبيعتهم العاطفية غير المادية ، واقتناعهم المطلق بصحة القضايا التي يدافعون عنها ويروجون لها .

الأيديولوجية الثورية ، فيذكر أن أنه لا يمكن أن تكون هناك ثورة بدون دليل أو تبرير نظري وأيولوجي يلزمها ، حتى يعطيها مضمونها يحدد اتجاهها من قضية التغيير التي تطرحها على المجتمع . وهذه هي الحقيقة التي أشار إليها لينين حين قال أنه ليس هناك عمل ثوري بدون نظرية ثورية .

وظيفة الأيديولوجية ، كما يحللها المؤلفان ، هي تبرير العنف الذي يصاحب قيام الثورة ، كما أنها الأداة التي تستخدم في تبرير عملية التدمير للنظام القديم ، وتحديد معالم التغيير الذي سيتم بعد نقل السلطة السياسية من مراكزها القديمة إلى مراكزها الجديدة .

ورغم هذه الأهمية لدور الأيديولوجية في الثورة فإن مضمون هذه الأيديولوجيات الثورية يتفاوت تفاوتاً كبيراً من ثورة إلى أخرى . فالثورة البولشفية ارتكزت على أيديولوجية ذات أبعاد وافتراضات نظرية كثيرة متشابهة ، بينما استندت الثورة الأمريكية على وثيقة نظرية واحدة هي إعلان الاستقلال ، وكذلك الثورة الفرنسية التي اقترنت بإعلان حقوق الإنسان ، والثورة المصرية التي اقترنت بكتاب فلسفة الثورة .. وهكذا . وفي رأي المؤلفين أن الثورتين الفرنسية والروسية هما من أبرز الثورات التي تولدت منها أيديولوجيات ولم تكن أحدهما العاصفة إلا نتاج تراكبات أيديولوجية على مدى سنوات طويلة سابقة على وقوعها .

ويتناول الكتاب التحليل عناصر أبرز الأيديولوجيات الثورية التي شهدتها المجتمعات الإنسانية المعاصرة ، وهي الأيديولوجية الماركسية ، والأيديولوجيات القومية ، والأيديولوجيات الثورية العارضة أو التي ليس لها مضمون محدد أو محتوى متكامل ، وإنما تستحدث على نحو يستطيع أن يبرر ما حدث وهي ما يطلق عليه *Make - Shift Idea - Logy* . وهذا النوع الأخير من الأيديولوجيات - كما يؤكد المؤلفان - هو النتاج العملي لوجع الفوضى والاضطراب الذي تخلقه بعض الثورات بحسب ظروفها والبيئات التي تنشأ فيها ، وعلى ذلك فهي تختلج من وقت إلى وقت ، ومن شعب إلى شعب .

والجزء الأخير من الكتاب هو بمثابة دراسة تطبيقية مقارنة لعدد من الثورات التي حدثت في بعض أجزاء من العالم ، هي على التحديد أمريكا

والانقلاب ، فإن هناك كتاباً آخرين ممن تصدوا لهذه النقطة بالتحليل . ومنهم أريك هوفر الذي أجمل عدة خصائص رأى ضرورة توافرها في الثابمين الذين يقفون وراء القيادات الثورية ومنها: قوة الشعور بالخبرة والمرارة من جراء استمرار نظام معين . وتوافر الرغبة الأكيدة في تدمير هذا النظام واستئصال جذوره هذا إلى جانب صفات أخرى مثل الخضوع والطاعة والاستعداد الكامل لتنفيذ ما يطلب منهم من مهام وتكليفات . وهناك أيضاً **هوبز** يوم الذي يرى ضرورة وجود نزعة مثالية خيالية في هؤلاء الثابمين ، لأنه بدونها لا يمكن أن تحدث ثورات كبيرة ، ويضرب مثلاً لذلك بالثورتين الفرنسية في عام ١٧٨٩ ، والروسية في عام ١٩١٧ .

وبوجه عام ، ينظر المؤلفان إلى فئات الفلاحين على أنها أقل فئات المجتمع ثورية ، وذلك لكونها بعيدة من التأثير الأيديولوجيات التي تغذي الرغبة في التغيير الاجتماعي ، بعكس الفئات العمالية التي تقطن المدن ، فهي بحكم تنظيمها وانفتاحها على الأفكار والأيديولوجيات المختلفة ، تكون هدفاً سهلاً للعباءات الثورية ، وتربة خصبة لنمو الثورة وازدهارها .

وهذا الاعتقاد من جانب **لايفن** و**شميت** يلتقي مع تحليلات النظرية الماركسية التي ترى في العمال أو طبقة البروليتاريا ركيزة الثورة وعمودها الفكري ، وذلك بسبب قوة احساسهم بالظلم والاستغلال الواقع عليهم من طبقة البورجوازيين المتسلطين لأدوات الإنتاج من جهة ، وبسبب قدراتهم التنظيمية العالية والكسبة من واقع دورهم الخاص في العملية الإنتاجية من جهة أخرى ، ولكن إذا أخذنا بهذا المعيار الماركسي في التفرقة بين العناصر الثورية ، والعناصر غير الثورية فإن ذلك يعني تجميع احتمالات الثورة الاجتماعية في المجتمعات الزراعية أو غير الصناعية ، على الرغم من أنه قد تكون هناك مصادر للاستغلال الاجتماعي لا تقل في شراوتها عن الاستغلال الذي عنده ماركس ، الأمر الذي يجعل من احساس بضرورة التغيير أمراً ملحاً . والأمور الأكثر واقعية وموضوعية ، من وجهة نظرنا هو أن ينظر إلى المشكلة برمتها من زاوية الظروف الدائرية لكل مجتمع ، وما إذا كانت الأنظمة السياسية والاجتماعية السائدة تستجيب أولا تستجيب للاحتياجات الاجتماعية العامة .

وفي فصل آخر من الكتاب يتحدث المؤلفان عن

استخدام العنف للأطاحة بدكتاتورية دياز القائمة في المكسيك آنذاك .

وهذه الثورة المكسيكية العظيمة التي ترعها **فرانشيسكو ماديرو** اطلقت القوى الاجتماعية من عقلاها بشكل اناح اعادة تصميم الهيكل الاجتماعي وما يرتبط به من اوضاع وعلاقات على نحو جيد مختلف .

اما شخصيه ماديرو ، الذي لم يكن قد تجاوز حينذاك الحادية والثلاثين من عمره ، فلم تكن من الطراز الثوري بالحق الصحيح وان كانت قيمته قد تركزت في أنه استطاع ان يظهر كشخصية قومية ، وكرمز يمكن ان يجمع حوله الشعب الساخط على الاوضاع التي خففتها الدكتاتوريات الجائرة في المكسيك وبشون هذه المعاني التي كانت ترمز اليها شخصية ماديرو ، كان من الممكن لدكتاتورية دياز ان تجهز على بوادر الثورة التي بدأت تنتشر في اجزاء متفرقة من الدولة .

وثورة المكسيك هذه لم تكن لها ايدولوجية ثورية تحدد طابعها العام من الناحيتين السياسية والاجتماعية ، كما لم تكن من اي برنامج لثوري ذي ابعاد ومضامين دولية ، كما حدث مع بعض الثورات وبالأخص الثورتين الفرنسية والروسية ، وربما كان ذلك راجعا الى كونها ثورة محلية تمت في ظروف مكسيكية خالصة ، وكانت موجة بالدرجة الاولى الى تغيير واقع الشعب المكسيكي نفسه .

وقد استطاعت هذه الثورة خلال مراحل تطورها المختلفة ان تقلل من استخدامات العنف الى الحد الأدنى الضروري الذي يستوجبه امن الثورة ويهيئ لها القدرة على الاستمرار . وقد امكن تجنب الاسراف في استخدام العنف ، رغم ان الثورة كانت قد بدأت تنفذ سلسلة من برامج الإصلاح الاجتماعي الجدي . والذي جعل تجنب العنف المتطرف أمرا ممكنا هو طبيعة العناصر التي هيمنت على قيادة الثورة ، فقد كانت كلها عناصر معتدلة ، استطاعت ان تبعد الفئات المتطرفة عن التأثير في اتجاهاتها واساليبها . وطيلة هذه المراحل التي قطعها تطور الثورة المكسيكية أمكنها ان تبلور عددا من الأفكار التي استخدمت كأداة لتوجيه الحكم . وقد استقرت هذه الأفكار واكتسبت من القوة والاحترام ما جعلها موضع القبول التام حتى من قبل الزعامات الحاكمة حاليا .

وبالنسبة للثورة التركية التي قادها مصطفى كمال اتاتورك في عام ١٩٢٣ فإنها لم تكن ثورة

اللاتينية ، والشرق الأوسط ، وهذه الثورات هي الثورة المكسيكية في عام ١٩١٠ ، والثورة اليونانية في عام ١٩٥٩ ، والثورة التركية في عام ١٩٢٢ ، والثورة المصرية في عام ١٩٥٢ . وربما كان اختيار هذا النطاق الجغرافي بالذات راجعا الى خبرة المؤلفين به أكثر من غيره ، حيث ان أحدهما وهو الدكتور كارل لاين هو استاذ علم الحكومات بمركز دراسات الشرق الأوسط التابع لجامعة تكساس وهو صاحب خبرة طويلة ومتعمقة بأحوال منطقة الشرق الأوسط ، أما الدكتور كارل شميت فهو استاذ علم الحكومات بنفس الجامعة ، وهو خبير في الشؤون السياسية لأمريكا اللاتينية ، وله فيها عدة مؤلفات أهمها : **الشيوعية في المكسيك** ، و **ديناميكيات السياسة والحكم في أمريكا اللاتينية** .

وقد اتبع المؤلفان في اجراء هذه الدراسة المقارنة نهجا منظما Systematic أى انهما حاولا دراسة كل ثورة من خلال المقاييس النظرية التي اسبغها في مرضها وتحليلها في الجزء الاول من هذا الكتاب ، وهي على وجه التحديد :

(١) ظاهرة القوة والعنف وما اذا كانت تدخل ضمن خصائص أى من هذه الثورات ، أى هل تم اللجوء الى العنف أو ان الثورة قد حدثت بطريقة سلمية ؟

(٢) الأسباب التي أدت الى نشوء كل واحدة من هذه الثورات .

(٣) مراحل التطور المختلفة التي قطعتها كل ثورة ، والخصائص والمسئوليات التي اقترنت بكل مرحلة .

(٤) طبيعة القيادات ومجموعات التابعين الذين ينظمهم الاطار الثوري .

(٥) ايدولوجية الثورة .

وقد انتهت هذه الدراسة المقارنة الى اعطاء بعض النتائج الحيوية حول كل واحدة من هذه الثورات بطريقة تحدد معالمها العامة في النهاية .

فبالنسبة للثورة المكسيكية في عام ١٩١٠ كانت من أكثر هذه الثورات عنفا ، ويرجع ذلك الى ان ظاهرة العنف المتطرف كانت الطابع المميز للسياسة المكسيكية حتى اواخر القرن التاسع عشر ، وكان النظام الداخلي يرتكز في الأساس على عنصر الكبت السياسي . ولذا فإنه لم يكن هناك ثمة مغزى من

٤ - تركيز السلطة الاقتصادية وسلطة التخطيط الاقتصادي في يد الدولة Etatism

٥ - الفصل الكامل للدين عن الدولة Secularism

٦ - الثورة أي أن الثورة مستمرة وإنها لم تكن لتنتهي بمجرد حدوثها ، بل إنها ظاهرة تتطور مع الوقت .

وإذا ما تعمقنا في تحليل التأثيرات وردود الفعل التي تسببت عنها هذه الثورة في خارج تركيا ، فإن هذه التأثيرات ، في رأي المؤلفين ، كانت أوضح وأقوى ما تكون في إيران وأفغانستان . ففي إيران قام رضا خان بانقلاب في عام ١٩٢١ ، ثم أعلن نفسه شاهاً لإيران في عام ١٩٢٥ ، وقد اتبعت رضا شاه كثيراً من أفكار أتاتورك ومبادئه ، وكذلك فعل نفسه الشيء أمين الله ملك أفغانستان .

بعد ذلك ينتقل المؤلفان إلى تحليل الثورة المصرية في عام ١٩٥٢ ، فيقولان أن هذه الثورة تمت دون عنف ودون أراقة دماء . ويرجع ذلك في رأيهما إلى أن الطابع الغالب على تاريخ السياسة في مصر ، هو طابع المسالة وعدم العنف .

وفيما يتعلق بالأسباب التي أدت إلى تفجير هذه الثورة فمنها : مظاهر الخلل والانحيار شبه الكامل التي أصابت أجهزة الحكم قبل الثورة ، وفقدان النظام القديم كل مقدرة حقيقية على مجابهة المشكلات الحيوية المرتبطة بواقع الحياة المصرية ، فالملك السابق فاروق لم يكن عنده أدنى شعور بالمسؤولية ، كما أن السواد الأعظم من الشعب كان بحيادية الشطف والتخلف بالإضافة إلى أن الاحتلال الأجنبي كان جالماً على صدر مصر ، ثم هناك المآلة القاسية التي خلقتها الهزيمة القاسية في حرب فلسطين في عام ١٩٤٨ ، والتي جرحت كبرياء الجيش وأوجدت فيه شعوراً بالذلة والهانة .

ويقول المؤلفان إنه ما من عامل كان له أكبر الأثر في التمهيد بوقوع هذه الثورة مثل الفساد الذي كان ضارباً أطنابه في صفوف الجيش ، وبخاصة على مستوى القنابات ، وقد ولد هذا الفساد سلسلة من ردود الفعل النفسية العنيفة في أوساط صفار الضباط الذين كانوا يتبعون بطبيعة تكوينهم الاجتماعي إلى الطبقات المتوسطة ، وبدأ هذا أوضح ما يكون بعد عام ١٩٤٨ ، أي في أعقاب الهزيمة في حرب فلسطين . وقد شهدت هذه

منية على العنف كما حدث في غيرها من الثورات . أما عن الأسباب التي قادت إليها فهي ترجع إلى حاله السخط التي شمت تركيا عدة أجيال ، وأن كان الذي حررها وأسرع بها هو هزيمتها في الحرب العالمية الأولى وتحلل إمبراطوريتها وانتهيارها ، والاستيلاء على ممتلكاتها ، واحتلال جانب هام من الأراضي التركية نفسها بواسطة الدول الأجنبية ، وهي أمور نتج منها أن أصبحت مؤسساتها السياسية بما يشبه الشلل التام .

ويرجع نجاح أتاتورك في قيادة هذه الثورة إلى كونه البطل العسكري الحقيقي الذي برز من الحرب ضد الغزو والاحتلال الأجنبي لتركيا ، وهو الذي استطاع أن يحصد إرادة المقاومة في وقت كان كل ما فيه يدعو إلى قبول الهزيمة والاستسلام للأمر الواقع ، وهذه الحقيقة هي التي أدت إلى تركيز جانب هائل من الولاء السياسي للشعب التركي في أتاتورك ، كما أنها هي التي أدت إلى الإبقاء عليه في مركز السلطة والقيادة دون منازع .

وبعد نجاح ثورة أتاتورك أخذ يحولها من الطابع الوطني البحت إلى النواحي السياسية والثقافية ، وهو لم يكن معنياً بالأمور الاقتصادية بقدر ما كان معنياً بنقل تركيا إلى دائرة الحضارة والثقافة الغربية ، ومحو كل أثر لثقافتها الشرقية التي اعتقد أنها كانت السبب المباشر وراء تخلفها وما ألم بها من هزائم وتكبات .

وقد أدى ذلك بأتاتورك إلى تنفيذ العديد من البرامج التي كانت لها أصداء واسعة داخل تركيا وخارجها .

أما عن إيديولوجية ثورة أتاتورك فإنها تبلورت على شكل مدد من الحجج والأفكار التي استخدمت في تبرير التغييرات التي استحدثتها الثورة ، وعصوماً يمكن تحديد عناصر الإيديولوجية الكمالية في ستة عناصر متميزة هي :

١ - التمسك بالبلد الجمهوري .

٢ - القومية .

٣ - الشعبية Populism ، بمعنى تدعيم الامتيازات الاجتماعية والتركيز على معيار الكفاية الفردية ومبدأ الفرص المتكافئة للجميع دون ما تمييز .

د - إيمان لا يتزعزع بالله ورسوله وكتبه المقدسة التي نزلت لتهدئ الأسان إلى الحق وأعدل .

ثم يتعرض المؤلفان للمحن التي صادفتها الثورة المصرية ، فيقولون أن هذه الثورة قد مرت بعدد من المحن والازمات ، وأن كان أبرزها تدخل مصر العسكرية في اليمن الذي خلق لها العديد من المشاكل ، ثم هزيمة مصر مرتين أمام إسرائيل في خلال عشر سنوات .

وينتهي المؤلفان من تحليلهما إلى القول بأن هذه الثورة كانت ثورة وقعت في تاريخ العرب الحديث ، ويرجع ذلك إلى عمق التأثيرات التي خلقتها لا في الشرق الأوسط لحسب ، وإنما

في أجزاء ومناطق أخرى من العالم ، وأن كانت الهزيمة التي حدثت لمصر سنة ١٩٦٧ قد حدث من هذا التأثير وأضعفته إلى حد كبير .

ومن الثورة المصرية ينتقل المؤلفان إلى تحليل الثورة الكوبية في عام ١٩٥٩ فيقولان أنها انبثقت من صميم الأوضاع المنهارة التي وجدت في كوبا قبل الثورة ، ومنها : سيطرة الشعور بخيبة الأمل ، والملق والتوترات الاجتماعية ، والفوضى الاقتصادية ، وشعور الشعبين بالحرلة .. الخ . وقد ظهر فيدل كاسترو ليمهد الطريق أمام التغيير الثوري الشامل ، وأهم ما يميزه كقائد ثورة هو أنه رجل قول وعمل في الوقت نفسه ، فهو الذي استطاع أن يدير ويخطط للثورة التي اقتلعت دكتاتورية باتريستا من جذورها ، كما أنه هو الذي وضع الأساس لما سيكون عليه حال كوبا بعد تدمير النظام القديم ونجاح الثورة .

وثورة كاسترو في كوبا أمكنها أن توفر إيديولوجية ثورية وبرامج وشعارات تستطيع أن تبرر التغيير الثوري الذي كانت بصدده أحداثه ، كما أنها بذلك وضعت المقاييس التي يمكن بواسطتها ترشيح كل ما تلجا إليه الثورة من سلوك وأفعال . ومن خصائص الثورة الكوبية أنها لم تلتزم بقالب وصيغ إيديولوجية متزمتة ، وإنما حاولت أن تجوز فيها بما يضيف إلى التجارب والإيديولوجيات الثورية عناصر مستييدة من واقع التجربة الكوبية نفسها .

ويضيف المؤلفان أنه لم يحدث في تاريخ أي من الثورات الحديثة في العالم أن بدأ لقائد وأجد مثل هيليا التأثير الذي يمارسه كاسترو على ثورة كوبا ،

الفترة نوبة متزايدة من العنف السياسي الذي وصل أقصاه مع حريق القاهرة في يناير ١٩٥٢ ، وكرنت الفترة التي اعمت هذا الحريق طيئة بالاضطراب وعدم الاستقرار السياسي والتغيير المستمر في الحكومات ، وقد انتهت في يوليو ١٩٥٢ بوقوع الثورة .

وبالنسبة للإيديولوجية الثورية وعناصرها الرئيسية ، فإنه ولما يقول المؤلفان ، لم يكن للقائمين بالثورة في ذلك الوقت فكرة واضحة عن ماهية الثورة الاجتماعية ، وإنما كانت الفترة التي تلت قيام الثورة ولادة مامين تقريبا ، متركة على النواحي السياسية الداخلية التي انتهت ببروز جمال عبد الناصر كزعيم لمصر .

على أن الثورة بدأت تطور لها إيديولوجية فيما بعد ، وهي الإيديولوجية التي أصبحت تصرف بالاشتراكية العربية التي قامت على تأميم الصناعات وروؤوس الأموال، وتنفيذ برامج الإصلاح الزراعي ، والأخذ بنمذجة مركزية التخطيط الاقتصادي ، وأصدق وصف لهذه الإيديولوجية الميثاق الوطني الذي وضع في عام ١٩٦٢ والذي أوضح أن هناك مبادئ ستة قامت بسببها ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ، وهذه المبادئ هي :

- ١ - القضاء على الاستعمار وأوغاه من الخونة المصريين .
- ٢ - القضاء على الاقطاع .
- ٣ - إنهاء سيطرة رأس المال على الحكم .
- ٤ - إقامة العدالة الاجتماعية .
- ٥ - إقامة جيش وطني قوى .
- ٦ - إقامة الديمقراطية السلمية .

وقد أوضح الميثاق الوطني أن هناك عدة أوضاع هيأت الطريق نحو تنفيذ مبادئ الثورة هذه ، وفي مقدمتها :

١ - وجود إرادة التغيير الثوري التي ترفض أي قيد يحد من حرية الجماهير .

٢ - وجود طليعة ثورية أمكنها أن تصل إلى السلطة ، وتستخدمها لا لخدمة المصالح الانانية لطبقة معينة ، وإنما لخدمة الشعب كله على اختلاف فئاته .

٣ - وجود عقل مفتوح لكل التجارب الإنسانية يأخذ منها ويعطيها دون ما تعصب أو تحيز .

المفككة اجتماعيا وسياسيا كانت باستمرار الثورة الخصبة لنمو الثورات ، وهي ستنزل هكذا . كذلك فان المشكلات الداخلية والخارجية التي تعاني منها البلاد التي استقلت حديثا تضغط على كثير منها في اتجاه الثورة .

ويضيف المؤلفان الى ذلك قولهما بأنه على الرغم من ان الثلث الأخير من القرن العشرين يبدو مليئا بالثورات ، الا ان هذه الثورات ستختلف من منطقة الى أخرى ، فاحتمال هذه الثورات في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية وأستراليا والاتحاد السوفيتي أقل منه في مناطق أخرى مثل أمريكا اللاتينية وآسيا وإفريقيا والشرق الأوسط وذلك بسبب سوء الأحوال الاقتصادية ، وضعف الهياكل السياسية والاجتماعية التي تجعل من الثورة في هذه المناطق الأخيرة الحل الذي يستطيع ان يحسم هذه التناقضات . ومعنى هذا كله هو اننا مقبلون ، ولا ريب ، على عصر جديد يشهد العالم فيه اندلاع الثورات ، بمعزل وعلى نطاق لم يحدث قط من قبل في تاريخ المجتمعات الانسانية .

هذا باختصار اهم ما ورد في الكتاب من أفكار ، واذا كان لنا من ثمة ملاحظات على هذا الكتاب سواء من ناحية المادة التي اشتمل عليها ، أو منهجه في التحليل ، أمكننا ان نقول ان الكتاب لم يوف هذه الظاهرة حقها من البحث والتحليل ، وينطبق ذلك على كل من الجوانب النظرية والتطبيقية التي تعرض لها هذا المؤلف .

وأغلب الظن ان الكتاب وضع لاعطاء فكرة عامة عن موضوع الثورة ودورها في المجتمعات الحديثة ، ولم يحاول التعمق في دراسة مختلف جوانبها الفلسفية والايديولوجية والانسانية والسيكولوجية والاجتماعية والسياسية على نحو يحلو لكل غوامض هذه الظاهرة المعقدة . ومن ناحية أخرى ، فان الثورات التي اخبرنا للتحليل لمثل معينة محدودة ومتحيزة من الثورات التي وقعت في القرن العشرين ، وقد تجاهلت ثورات هامة حققت لها اخذودا حقيقيا في مجرى التطور الانساني ، ومن أمثلتها الثورة البولشفية في عام ١٩١٧ ، والثورة الصينية في عام ١٩٤٩ . . الخ .

ورغم هذه الهنات ونقاط الضعف ، استطاع الكتاب بما احتواه من جهد علمي قيم ان يلقي بعض الضوء على واحدة من أخطر الظواهر التي ظلت تؤثر في تطور المجتمعات الانسانية على مر الأزمان ، وبخاصة في النصف الثاني من القرن العشرين .

ويبدون قيادة وزعامة كاسترو ، فريما لم تكن الثورة الاجتماعية لتحدث في كوبا بالشكل الذي حدثت به ، وكان أقصى ما يمكن عمله هو إنهاء دكتاتورية باتيستا ، والعودة بالأوضاع السياسية والاقتصادية الى ما كانت عليه قبل وصول باتيستا الى الحكم ، وهي أوضاع لم تكن لتغيد منها أولا وقيل كل شيء الا الطبقات العليا والنوسطي في المجتمع الكوبي .

والى كاسترو ورفاقه القليلين ، يرجع الفضل في تعبئة قوى الجماهير وراء الثورة بعد ان تحقق النصر على النظام القديم ، معتمدين في ذلك على البرامج الراديكالية في الإصلاح الاجتماعي التي قاموا بتنفيذها مستجيبين في ذلك لاحتياجات الجماهير ومطالبها الملحة ، ولكن في اطار الایدیولوجیة ، وبالأساليب التي اعتقدوا انها أكثر مقدرة على ارضاء هذه المطالبات الجماهيرية من غيرها .

ومن الخصائص الأخرى التي تنفرد بها الثورة الكوبية الى جانب مرونتها الایدیولوجیة ، هو ان المجموعة القائدة او الحاكمة استطاعت ان تبقى على نفسها في الحكم لفترة تزيد على عشر سنوات تقريبا دون تغيير أو تطهير في صفوفها ، كما حدث مع غيرها من الثورات التي كانت تلتهم قادتها وزعماءها الاصليين ، وانما التغيير الذي حدث هو في القيادات على المستويات الأقل .

ويخلص المؤلفان الى القول بأنه مهما حدث في كوبا فان ثمة حقيقة مؤكدة وهي ان كوبا لن ترجع بحال الى ما كانت عليه في عام ١٩٥٩ حين انفجرت فيها هذه الثورة التي أحدثت دوبا هائلا ليس في كوبا أو في أمريكا اللاتينية فقط ، وانما في العمورة بأسرها .

والفصل الأخير في هذا الكتاب يخصصه المؤلفان للحديث عن مستقبل الثورة ، وهما يتساءلان في مقدمة هذا الفصل : هل انتصر المد الثوري اليوم عما كان عليه طيلة القرنين الماضيين؟ ام ان ظهور الدول الحديثة العهد بالاستقلال يؤدي الى الاتساع المستمر في نطاق الثورة ؟ وهل تؤدي ثورة الاتصالات الهائلة في العالم اليوم الى توليد ضغوط نفسية وسياسية واجتماعية تدفع بعض بلدان العالم في اتجاه الثورة ، ام ان تأثير ثورة الاتصالات لم يصل بعد الى هذا المدى ؟

ويجيب المؤلفان على هذه التساؤلات بقولهما اننا نعيش في حقبة ثورية جديدة ، فالمجتمعات

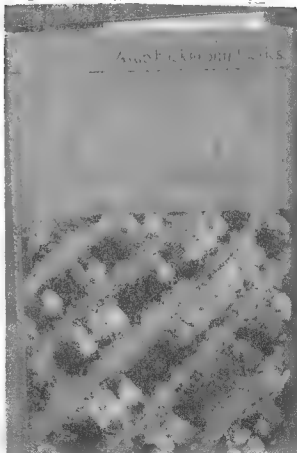
اثر الاسلام على افريقيا

مرض وتحليل : الدكتور ابو الوفا التفتازاني

١ - مؤلف هذا الكتاب هو الدكتور ترمجهام رئيس قسم اللغة العربية والدراسات الاسلامية في جامعة جلاسجو بانجلترا سابقا ، وهو يعمل حاليا استاذاً زائراً في الجامعة الامريكية في بيروت وقد صدر هذا الكتاب في « سلسلة التراث العربي » باشراف الاستاذ نقولا زيادة بجامعة بيروت الامريكية .

ويعد ترمجهام من اكبر الرواد الاوائل الذين تخصصوا في دراسات الاسلام في افريقيا ، ومن دراساته في هذا الميدان : « الاسلام في السودان » ، لندن ١٩٤٩ ، « الاسلام في اليوبيا » ، لندن ١٩٥٢ ، « الاسلام في غرب افريقيا » ، لندن ١٩٦٢ ، « الاسلام في شرق افريقيا » ، لندن ١٩٦٤ .

ويذكر ترمجهام نفسه أن تلك الدراسات كانت تتناول أقاليم معينة ، أما دراسته الجديدة التي نحن بصددھا فهي محاولة لنظرة كلية شاملة على الاسلام في افريقيا من ناحية آثاره الحضارية والثقافية والمدنية على الافريقيين .



وقيل أن تناول أبرز الاتجاهات والافكار الواردة في الكتاب بالناقشة والتقييم والنقد ، لا بد لنا من القاء نظرة اجمالية على مضمونه ، لتحديد للقارئ الخطوط العامة له والمنهج الذي اتبعه المؤلف فيه ، فهذا مما يسهل على القارئ بمسند ذلك فهم مناقشتنا لبعض جزئيات الكتاب أو تضايها الكلية وذلك حين يضمها في اطارها في العام الذي لا تفهم فهما صحيحا بدونه ، وفيما يلي هذه النظرة اجمالية :

٢ - يشمل كتاب ترمينجهام (١) مقدمة وخمسة فصول :

فالمقدمة تناول افريقيا من حيث علاقتها بحضارة ومدنية العالم الاسلامي (٢) المتأخم لها . وفي رايه ان العالم الاسلامي مع كونه قد احتوى شعوبا مختلفة في مناطق متباعدة يصعب الاتصال بينها ، كان يشكل فيما مضى وحدة لم يعد لها وجود الآن . والاسلام حضارة دينية حيث ان الدين هو اساس وجودها وتوحيدها ، وجميع نظمها وأخلاقها وشريعتها وعلمها وفنونه هي تعبير عن روحه ، وبهذا تميزت هذه الحضارة عن غيرها من الحضارات . على ان هذه الحضارة لم تكن ذات نموذج واحد ، فكان هناك مثلا الانقسام المميّز بين السنة والشيعة ، وكانت هناك أيضا اختلافات كبيرة بالنسبة لمستويات المدنية ، فقد كان ثمة تباين بين البدو والفلاحين وسكان المدن ، كما كانت هناك اختلافات اقليمية . وقد انعكس هذا كله على حضارة

الاسلام في افريقيا ، فقد تأثر الافريقيون بمستويات اسلام الحضارة على اختلافها ، ولم تكن منطقة جنوب الصحراء (الحزام الافريقي) بمعزل عن العالم الاسلامي الاوسع ، فهي متاخمة له وترتبطا به صلات . ويقرر ترمينجهام أن مدنية الاسلام في افريقيا ظلت بدائية Primitive وحتى لا يسمي الافريقيون فهم هذا التعبير يضرب لهم مثلا بحضارة اليونان القديمة ، فبينما كانت هذه الحضارة متقدمة جدا كانت مدنية اصحابها بالنسبة لها بدائية ، وعلى العكس من ذلك كان الرومان ، ان اعتناق الافريقيين للاسلام أحدث تغيرا طفيفا في قدرتهم على السيطرة على احوال وجودهم (المادية) لان صلتهم بمدنيات الشعوب الاسلامية الاخرى كانت سطحية . ولكن اعتناق الاسلام ، من ناحية أخرى ، أدى بمرور الزمن الى تغير حضاري (ثقافي) عميق ، الا انه كما يقول ترمينجهام ليس بالمعق الذي كان يحدث لو أن الافريقيين تلقوا التأثير الكامل للحضارة الاسلامية . لقد كان من الممكن - نظريا - أن يفتحو على كل مصادر هذه الحضارة ، ولكن لم يكن في استطاعتهم ذلك ، كما كانت هناك عوائق من العقيدة الافريقية وبنية المجتمع الافريقي ذاته تقف حائلا بينهم وبين المصادر التي اتيح لهم أحيانا .

وفي افريقيا أربع مناطق حضارية كبيرة : المصرية والمغربية ، على شاطئ البحر الابيض المتوسط ، وهما في نطاق حضارة العالم الاسلامي

(١) الناشر : لونجهامز - مكتبة ليدل . لندن - بيروت ١٩٦٨

(٢) يشير ترمينجهام هنا انه يستعمل الاصطلاحين : civilisation المدنية و culture الحضارة بمعناها عند الفلاسفة وعلماء الاجتماع ، فالمدينة هي ما كان متعلقا بالمدينة ، وهي ذلك الجانب من الحضارة الذي يشمل اساسا فيما يتخذ الانسان من وسائل للسيطرة على ما حوله ، فهي اذن الصورة الخارجية أو المادية للحضارة ، اما الحضارة فهي ما كان معنيا بحياة الانسان ذاته وبالطريقة التي يعيشها بها وهما وجهان لا ينفصلان وبينهما علاقة متبادلة من حيث التعبير .

تمتيزة عن الحضارتين القريبة والنيلية الأثيوبية،
والمصرية أكثر اختلافا من هاتين عنهما ، فهي
تتنتمي كلية إلى الإسلام العربي، وإن كانت سماها
الميزة لها تظهر عند الفلاحين في نظمهم . أن
نتيجة التطور الحضاري في أفريقيا كانت دائما
مزيجا من عناصر أفريقية وعناصر إسلامية ،
وهذه الأخيرة هي التي تشكل النظرة الحضارية
العامة للحياة .

إن الأفريقيين لم يقبلوا الحضارة الإسلامية
ككل ، فإن الذي أتى فيهم هو الإسلام من حيث
هو حضارة تشريعية Legal أما قيمه
المعاقبة والفلسفة والأدبية والفنية فإنها لم
تنفذ إليهم ، أنهم لم يرفضوها ، ولكنها لم
توضع أمامهم أبدا ! لقد دخل الإسلام إلى غرب
أفريقيا من المغرب ، وإلى شرقها من حضرموت
وهما من أقل مناطق العالم العربي تطورا .

ومن السمات المميزة للحضارة الإسلامية في
رأى ترمينجهام أنها قائمة على أساس حضارة
المدين Urban Civilisation ، وأفريقيا ليس
فيها نسبيا إلا عدد قليل من المدن ، وحيث لا توجد
مدن كما هو الشأن بالنسبة للبانو Bantu
والقبائل النيلية ، كان الإسلام لا يجد
طريقه إلى السكان ، لقد ازدهر الإسلام في أفريقيا
حيث كان ثمة أساسا لمدينة المدينة جنباً إلى جنب
مع وجود العلاقات التجارية التي كانت تصدر
عن المدينة أساسا .

٣ - ويفصل المؤلف بعد ذلك ، في الفصل
الأول ، الكلام عن مناطق الحضارة في أفريقيا
ويقسم المنطقتين الواقعتين جنوب الصحراء إلى

والسوداء (Negro) والحامية (Hamitic) (١)
في جنوب الصحراء الأفريقية ، وهما على هامش
تلك الحضارة . ولم يكن المسلمون قديما يعرفون
من هذه المنطقة الواقعة جنوب الصحراء أكثر
من أنها المنطقة المجهولة التي يأتي منها العبيد
والذهب ! لقد كانت الصحراء حاجزا طبيعيا
وحضاريا في نفس الوقت . وفي رأى ترمينجهام
أن الفارق الأكبر بين المنطقتين الشمالية والجنوبية
يعود إلى أن الأولى (مصر والمغرب) قد دخلت
في الإسلام منذ وقت مبكر فوجدت فيها حضارة
إسلامية متكاملة ، وكانت هذه الحضارة المتكاملة
مصدرا رئيسيا للتيارات الإسلامية الوافدة
إلى السود والحامين (وإن كانت هناك أيضا
تيارات أخرى إسلامية وافدة إلى أفريقيا من
جزيرة العرب) ولكنها لم تغد إلى أفريقيا قبل
القرن الحادي عشر الميلادي . ولم يسيطر الإسلام
تماما على منطقة جنوب الصحراء إلا منذ القرنين
الثامن عشر والتاسع عشر . ومنذ ذلك الحين
إلى اليوم نجد أن هذه المناطق الواقعة جنوب
الصحراء ما زالت في مرحلة انتقالية أو موقف
انتقالي ، لقد كسب الإسلام معتنقين كثيرين
له إبان حكم الاستعمار أيضا ، وهذا يعني أن
الأفريقيين لازالوا في كل مستويات التحول أو
التكامل الإسلامي .

وكل حضارة من تلك الحضارات الأربع الفرعية
تختلف عن الأخرى من حيث الدرجة التي تمثلت
بها الإسلام وصافته ، ومن حيث نوع الحضارة
الكائنة في منطقتها قبل دخول الإسلام إليها .
فالحضارة الفرعية الأفريقية السوداء الإسلامية
(Negro-African Islamic Subculture)

(١) يشير ترمينجهام إلى أن تفرقة بين الإسلام الأسود Negro Islam والإسلام الحامي Hamitic Islam لا تتضمن أي تفرقة منهجية ، وإنما هي راجعة عنده إلى الاختلاف بين نمطين من العقيدة الأفريقية ومن أنماطها والنظرة إلى الحياة ، ومن ردود الفعل بإزاء الإسلام وتمثل حضارته ، وللاسلام واحد ، والاختلاف هو في فهمه والتعبير عنه .



مناطق الثقافة الإسلامية

التي سيطرت على بعض تلك المناطق ، كحركات الطرق الصوفية وحركات الجهاد الإسلامي والمهدية ، ونوع الحكومات التي قامت فيها قبل الاستعمار الأوربي ، وأثر الاستعمار فيها ، وما إلى ذلك من التفصيلات التاريخية والحضارية المتعلقة بها .

وينتقل ترمينجهام في الفصل الثاني إلى دراسة عملية التغير الديني والحضاري في كل منطقة من المناطق الحضارية السبع ، بادئا بالكلام عن انتشار الإسلام واستيعابه في تلك المناطق ، وأدوار ذلك ، والعوامل المؤثرة فيه ، ومرحلة تحول الفرد إلى الإسلام ، ونتائج اعتناق الإسلام وعميق التقدير الذي أحدثه في الديانة الأفريقية والمجتمع الأفريقي ، ونظم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

ومراحل انتشار الإسلام في إفريقيا أربع : -

١ - فتح شمال أفريقيا (٦٣٨ - ١٠٥٠ م)

٢ - انتشار الإسلام في الحزام الأفريقي (١٠٥٠ - ١٧٥٠ م)

٣ - فترة الحكومات الدينية Theocracies
أو الدول التي تجعبل الإسلام دين الدولة
(١٧٥٠ - ١٩٠١ م)

٤ - فترة الاستعمار إلى اليوم الحاضر .

وكان الإسلام حين يدخل إلى منطقة ماسين المناطق الحضارية يتفاعل مع حضارتها السابقة وسيطر على العقائد والمبادئ والنظم الاجتماعية والسياسية بمقادير متفاوتة ، وهو -
يلخص سر عمليات التغير في المعادلة التالية : -

مناطق أخرى فرعية ، فيبلغ عدد المناطق الحضارية في رأيه سبعا (١) بيانها على النحو التالي :

١ - مصر : وحضارتها أساسا هي الحضارة الإسلامية ، مع حضارة نيلية تظهر نفسها في قرى الفلاحين .

٢ - المغرب : حضارة أفريقية تنتمي إلى البحر الأبيض المتوسط ، ولكن مع أسس من حضارة البربر الأليمانية .

٣ - السودان الغربي : الإسلام الأسود .

٤ - السودان الأوسط : الإسلام الأسود .

٥ - السودان النيلي أو الشرقي : الإسلام الحامي - الأسود .

٦ - المنطقة الحامية الشمالية الشرقية (في ارتيريا - أيوبيا - الصومال) : إسلام البدو في القرن الأفريقي الشرقي .

٧ - الساحل الشرقي الأفريقي : الإسلام السواحلي .

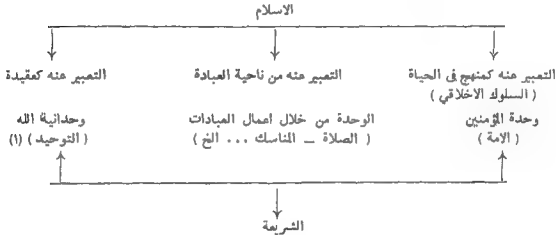
ودراسة ترمينجهام لهذه المناطق الحضارية هي دراسة لتاريخها وخصائصها وما يمكن أن يكون بينها من تأثير متبادل ، وتقسيمه لها على ذلك النحو يستند إلى خلفية متطقة بالناواحي السكانية والجغرافية والتكنولوجية والحضارية ، وإلى كيفية تقبلها للإسلام ومدى تأثيره فيها . وهذا الفصل من الكتاب - وإن كان يظن عليه الطابع التاريخي - تضمن معلومات هامة تتعلق بالاتجاهات الدينية والمذهبية والحركات الدينية

(١) انظر أيضا بحثا ترمينجهام عن مراحل انتشار الإسلام ومناطق الحضارة الإسلامية في إفريقيا التي في الحلقة الدراسية العالمية الخامسة لإفريقيا بجامعة أحمد بولو ، زاريا ، يناير ١٩٦٤ ، ونشر بكتاب « الإسلام في إفريقيا الاستوائية » Islam in Tropical Africa ، لندن ١٩٦٦ ، من ص ١٢٧ إلى ص ١٢٩ .

الاسلام الحضارة الافريقية = تفاعل = مركب
اخر .

ان هذا الفصل من الكتاب يظهرنا على عمق معرفة ترمنجهام بالديانة الافريقية المحيطة الوثنية Paganism والاعتقادات الافريقية كالابمان البدائي بالارواح animism وطقوس الاتصال بارواح الاسلاف Kinship ritual ، والسحر والكهانة (Magic and divination) وغير ذلك ، ودقة رسمه للتفاعلات التي حدثت بينها وبين الاسلام .

٥ - اما الفصل الثالث من الكتاب ، فهو دراسة علمية دقيقة للحياة الدينية للمسلمين الافريقيين ويبدو ترمنجهام بدراسة عن الاسلام في ذاته ، مبنيا ما فيه من وحدة المعتقد والعبادة والنظم او تكامله ، وان الممارسة العملية لاحكامه اهم في تثبيت دعائمه من المعتقدات النظرية ، وشرعة الاسلام في رأى ترمنجهام - وان كانت لها مجالات مختلفة في التعبير عن احكام الاسلام - ذات وظيفة واحدة متكاملة ، وهو يوضح مجالات هذه الشرعة بالرسم البياني التالي :



ويتناول ترمنجهام في هذا الفصل ايضا نوع تعليم رجال الدين في افريقيا ، ومبادئ الاسلام العملية على اختلافها كالصلاة والزكاة والحج والجهاد ، ودور هذه العبادات عند الافريقيين ، فالحج مثلا كان من العوامل الهامة في ربطهم

من المسلمين في العالم الاسلامي ، وكذلك الجهاد كان له دور هام في افريقيا فقد كان شعارا لبعض الحركات الدينية الافريقية ، ومن مظاهر الاسلام في افريقيا ايضا الاخذ بنظام التقويم الهجري لاهميته بالنسبة للعبادات وغيرها من الاحتفالات

(١) يوضح هذا الرسم البياني ان الاسلام عقيدة وشرعة واخلاق ، فالعقيدة هي التوحيد وما يستتبعه من المعتقد اليمانية الاخرى ، والشرعة بالمعنى الخاص (اللغة) تشمل احكام العبادات والمعاملات وما اليها ، والاخلاق تشمل كل ما ينظم علاقة الفرد بربه وينفسه وبمجتمعه وبأسرته ، فلاخلاق وظيفتان : فردية واجتماعية ، فالاسلام ان دين متكامل يغطي جميع نشاطات الفرد ومختلف نواحي المجتمع ، ومجالاته الثلاث التي يشير اليها ترمنجهام هي الشرعة بالمعنى العام ، ومن القريب ان يلهم الاوروبيون الاسلام على هذا النحو - ومنهم ترمنجهام - ثم يقولون بإمكانية اخذ المسلمين بعلاماتية القرب التي تصل الدين عن الدولة ، او تنزله عن التشخيصات السياسية والاجتماعية وتحصره فقط في نطاق العقيدة وجانب من الشرعة هو العبادات ، فالعلاماتية تسقط اعتبار الدين متعبا في الحياة بشكلها وفق قيمة ومبادئه .

ويرى ترمنجام أن تقديس الاولياء (Saint Cult) والطرق الصوفية لم يكن لهما اثر كبير على الافريقيين السود ، فلم يكن لديهم من هذه الطرق الا القادرية والتيجانية ، على حين كان يوجد منها لدى الحاميين المئات . ولم تنتشر الطرق بين الافريقيين السود الا في القرن التاسع عشر ، وبشكل محدود ، بظهور حركة الاحياء الدنيى على يد اثنين من أقطاب التصوف هما أحمد التيجاني (١٧٣٧ - ١٨١٥) ، وأحمد بن إدريس (١٧٦٠ - ١٨٣٧) ، وهما مغربيان ، وقد انتشرت الطريقة التيجانية في افريقيا ، ليس فقط في اتجاه الجنوب عبر الصحراء الى السودان الغربى وانما انتشرت أيضا في السودان النيلي بين الافريقيين الغربيين المقيمين هناك ، وفي الوقت نفسه اخترقت قبائل الجالا الاثيوبية ، ومنذ سنة ١٩٢٠ نجد انها نمت نموا كبيرا في غرب افريقيا ، وأصبح لها منذ سنة ١٩٥٠ شعبية خاصة في وسط السودان . وفي شمال نيجيريا أصبح هناك تنافس بين أتباعها وأتباع الطريقة القادرية . أما اثر النهضة الادريسية فقد جاء من جزيرة العرب حيث هاش أحمد بن إدريس ووضع تعاليمه ، فامتد اثرها الى الصحراء الشرقية ، وشرق السودان ، والمنطقة الشمالية الشرقية ، خصوصا الصومال . وقد تحقق انتشار الطرق في هذه الاماكن بفضل تلاميذ أحمد بن إدريس ، ومنهم على الاخص محمد بن على السنوسى (١٧٨٧ - ١٨٥٩) ومحمد عثمان الميرغنى (١٧٩٣ - ١٨٥٣) وإبراهيم الرشيدى (المتوفى سنة ١٨٧٤) وقد أصبح لكل من هؤلاء التلاميذ طريقته الخاصة ، وقد أصبح للسوسية نفوذ قوى على ليبيا ووحدها الدينية ، ومنها انتشرت جنوبا الى تشاد . وتفرعت عن الرشيدية طريقة أخرى هي الصالحية (سنة ١٨٨٧) انتشرت في الصومال . ومع ذلك ظل للطريقة القادرية نفوذ في كثير من المناطق الافريقية ،

الدينية . وفي الفصل أيضا حديث مستفيض عن الاخلاق الاسلامية الفردية والاجتماعية التى اتخذت الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى لها ، ويشير المؤلف الى أن الاخلاق الاجتماعية في الاسلام كانت تهدف دائما الى ايجاد صلابة تماسك الامة .

ومن المعلومات الهامة الطريقة التى تضمنها هذا الفصل توزع المذاهب الفقهية الاسلامية في مناطق افريقيا . فالمذهب المالكي يسود اسلام الحاميين والسود والمغرب وصعيد مصر ، والمذهب الشافعى يسود معظم مصر وشرق افريقيا بما في ذلك ليبيا والصومال ، والمذهب الحنبلى جاء الى افريقيا بعد الحركة الوهابية . أما المذهب الإباضى (أحد مذاهب الخوارج) فيوجد فقط في مجموعات صغيرة في الجزائر وزنبار ، ويوجد المذهب الحنفى في مصوع وأجزاء من أريتريا وفي أجزاء داخل الحبشة ، ويوجد أيضا في مدينة هرر (وهو اثر من اثار عثمانيين لما كانوا في مصر) ، ويوجد المذهب المالكي أيضا في داخل أريتريا ، جاءها من السودان النيلي ، كما يوجد المذهب الشافعى أيضا في أجزاء من أريتريا .

ولما كانت الطرق الصوفية عاملا مهما في نشر الاسلام في افريقيا (الى جانب انتشاره عن طريق التجار المسلمين) ، فقد خصص ترمنجام جانباً من هذا الفصل للآلام من هذه الطرق من ناحية معتقدها ورياضاتها العملية واثرها في حضارة الافريقيين (وأن كان قد تناول شيئاً من تاريخها في فصول الكتاب الاخرى ، خصوصا عندما تحدث في الفصل الاول عن سيادة الطرق في المغرب ، واعتبار التصوف طالبا لحضارته) ، وهى دراسة لم تحظ الى الآن بعناية تذكر من جانب الباحثين في افريقيا او في غيرها ، ومعظم ما كتب عن الحركة الصوفية ودورها الفعال في افريقيا بالذات مكتوب بلغات اجنبية .

التي قاموا بها للفران باللغات الافريقية ، ولهذا فهي لم تحظ بانتشار يذكر .

وبالجملة فان المذهب الذي ساد افريقيا عقائديا هو مذهب اهل السنة والجماعة ، ولم يكن لمذاهب الفرق الاسلامية الاخرى من اثر يذكر على الاسلام في افريقيا قديما وحديثا .

(5) وبين ترمنجهام بعد هذا في الفصل الرابع من الكتاب اثر الاسلام على الحياة الاجتماعية ، ويحدد الطريق الذي امكن بواسطته تغيير المجتمعات الافريقية ، ان مجتمعات افريقيا بطبيعتها مجتمعات اقلية ، ولكنها بعد اعتناق الاسلام ، وهو دين ذو صبغة عالمية ، استطاعت ان تخلق موقفا جديدا ونظرة جديدة الى الحياة والمجتمع والعلاقات الاجتماعية في نطاق عالمية الاسلام (Islamic Universalism) .

ولكن ماذا كانت وسائل تحقيق ذلك ؟ انها عبادات الاسلام وطبيعة تكوين مجتمعه ونظمه . على ان التغير الاجتماعي قد اختلف مساره عند الافريقيين السود عن مساره عند الافريقيين الهاميين ، وكلما كان التغير الاجتماعي يسير جنبا الى جنب مع التعريب (Arabization) فانه لم يكن يلقى مقاومة كما كان الشأن في المغرب والسودان النيلي ، حيث ساد نظام المجتمع الاسلامي العربي والعبادات العربية ، على ان بعض القبائل احتفظت بصور مجتمعتها الخاص وعاداته ، منهم بدو قبائل البجة في منطقة جبال البحر الاحمر ، ومنهم النوبيون الجنوبيون ، والبربر في جبال مراکش ، وبدو الهاميين في الشمال الشرقي مثل عقار والصوماليين .

وكان النموذج الاسلامي الاجتماعي (The Islamic Social pattern) متمثلا في المدينة ، ففي المدن كان الاسلام يحقق غرس صوره الاجتماعية بشكل اظهر كما هو واضح في مدن

وعلى الرغم من ان الميرغنية قد اصبح لها نفوذ سياسي في السودان الشرقي ، الا ان القادرية منتشرة في الحقيقة في افريقيا الاسلامية كلها . ان اثر الطرق الصوفية في افريقيا - على حدة تعبير - ترمنجهام كان قويا سواء على السطح او في الاعماق ، لقد استطاعت ان تدخل افرادا في البعد العميق للاسلام ، الذي يتجاوز الفهم الفقهي الظاهري الى الفهم الاخلاقي الروحي العميق له . لقد كانت هناك عناصر صوفية وراء حركات الجهاد كما هو الشأن في حركة الحاج عمر في غرب افريقيا ، وحركة محمد احمد المهدي في السودان النيلي . ولم يكن الانتماء للطرق حائلا بين اتباعها وبين المشاركة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية كما هو ظاهر عند الافريقيين السود في اخذهم بنظام الطرق .

وقعة موضوع آخر غير موضوع الطرق الصوفية يحظى باهتمام المؤلف في هذا الفصل ، وأهمه هي تاريخ حركات المهدية في افريقيا ونوع الاعتقادات الكائنة وراءها ، وهو يركز على حركة المهدي في السودان تركيزا خاصا ، ثم يتعرض بعد ذلك لما يمكن ان يكون موجودا من اثر للفرق الاسلامية في افريقيا ، فيتحدث عن الشيعة (ومنهم في رايه الاسماعيليه اتباع آغاخان) مبينا انها لم تحظ في افريقيا بانتشار ما . أما مذهب الخوارج ، وهو في الطرف المضاد للشيعة من ناحية العقائد فالره ضعيف في زيار التي يوجد فيها بعض الاباضية من الخوارج ، ويشير الى فرقة جديدة هي فرقة القاديانية التي اسسها ميرزا غلام احمد المتوفى سنة ١٩٠٨ ، ويتعرض لتاريخ دخولها الى افريقيا الغربية سنة ١٩٢١ ، والى شرق افريقيا سنة ١٩٣٤ ، ولكن مسلمي افريقيا وقفوا في وجهها باعتبارها فرقة منحرفة تختلف عقائدها عن عقائد الاسلام ، وقد اثار القاديانيون خلافا وجدلا شديدا حول الترجمات

فصول الكتاب ، بل أن القارئ له ليشعر أن جميع الفصول السابقة عليه هي بمثابة التمهيد له . أن موضوع هذا الفصل هو حاضر إفريقيا الإسلامية ، ومثناه « الإفريقي المسلم في عصر من عصور التغير » . ويعني ترمينجهام بعصر التغير الفترة الزمنية التي تعتمد من الاستعمار الأوروبي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر إلى العصر الحاضر . وهي الفترة التي استهدف الإفريقيون فيها ويستهدفون لضغوط قوى جديدة أما دينية متمثلة في المسيحية ، أو علمانية متمثلة في الفكر الغربي ، ونظم الحكم والحياة السياسية والاجتماعية ، هذه القوى الجديدة تعتبر ظاهرة مضادة في التغير ، ويجب وضعها في الحسبان حين ندرس تغير المجتمعات الإسلامية الإفريقية المعاصرة ، فهي حاليا في فترة تغير ديناميكية . ومهما تكن التغيرات التي يمر بها ترمينجهام انتشار الإسلام بشكل موسع في عهد الاستعمار فإننا نرى أن هذا الانتشار كان ولا يزال - في المحل الأول - بمثابة رد فعل مضاد للتحدى الغربي الديني والحضاري . لقد حاول الاستعمار بشتى الوسائل اضماع الإسلام والحد من انتشاره ، ولكنه لم ينجح في ذلك . أن الاستعمار - باعتراف ترمينجهام نفسه - كان يعمد إلى عزل المناطق الإسلامية عن غيرها في بعض الأحيان ، ويكفي أن نذكر مثلا واحدا ذكره ترمينجهام هو عزل الاستعمار الإنجليزي جنوب السودان عن شماله (في الفترة من ١٨٩٨ - ١٩٥٦) بحجة تسوك الجنوب ليتطور في خطوته الخاصة ! وقد أدى هذا إلى عدم انتشار الإسلام وحضارته بين مجتمعات الوثنيين في الجنوب (ص ١٠٥) . لقد حمى الإسلام - على حد تعبير ترمينجهام - المسلمين من تأثير المدنية العلمانية التي اعتبرها الإفريقيون مسيحية ! (ص ١٠٧) ، ومن ناحية أخرى اتخذ المستعمرون سياسة عزل الإسلام عن واقع المجتمع ، فيقول ترمينجهام ما نصه :

غرب ووسط السودان مثل تمبكتو ، وجن ، وسوكوتو ، ومايدجوري ، فهي مدن لا تختلف عن مدن إفريقيا العربية ، كأم درمان عند التقاء النيلين ، أو فاس أو مراكش أو القيروان ، ولكن ثنائية المجتمع تصبح ظاهرة لو تحركنا خارج المدن السودانية المذكورة إلى القرى المجاورة لزراعي سونجهاى ، بوظو ، هوسا ، أوكانورى ، ولكن من ناحية أخرى فإن قرى النيل السودانى لا تختلف عن أم درمان في مجتمعها .

ويتبع ترمينجهام أثر التغير الاجتماعى في مجال الأسرة ونظام الزواج ، ومدى أثر الإسلام في نظام الأسرة الإفريقية المنتسبة إلى الأم (Matrilineal) ، وأثره على طبقات المجتمع ، ونظام المدينة والتجارة والاقتصاد ، والمحرمات (Taboo) ، والدولة والنظام التشريعى ، مبينا مستويات هذا الأثر على اختلافها .

ومن النقاط الهامة التي تعرض لها دور العرب واللغة العربية في المجتمع الإفريقي ، وفي رأيه أن انتشار الإسلام جنبا إلى جنب مع اللغة العربية كان أفعال تأثيرا في المجتمعات ، ففهم الإسلام من مصادره الأولى العربية شيء هام بالنسبة للتفسير ، لقد أثرت اللغة العربية في لغات الإفريقية بالألفاظ اللغوية ذات المعاني المجردة . على أن تأثير العلمانية الغربية قد امتد إلى مجال اللغة العربية ، وأوجد عند الإفريقيين رغبة في كتابة لغاتهم بالحروف اللاتينية ، التي يرى المؤلف - ونحن نختلف معه في رأيه - أنها أكثر ملائمة للكتابة من الحروف العربية بالنسبة للغات الإفريقية ، وعلى الجملة فإن دور العرب في إفريقيا من الاتساع بحيث لا يمكن توفية الكلام عنه في هذا الكتاب كما يقول المؤلف .

(٦) ونأتى بعد هذا كله مع المؤلف إلى الفصل الخامس والأخير من كتابه ، وهو في رأينا أهم

الآخر في مجتمع واحد بدرجات متفاوتة (ص ١١١) ، أما في العالم العربي فلا يوجد فيه الا حضارتان هما الإسلامية والغربية العلمانية .

ويعطينا ترمنجهام صورة أخرى لاثري حضارة الغرب بالنسبة لنظم الحكم المعاصرة في افريقيا فمعظم الدول الافريقية قد استقل في الفترة من ١٩٥٦ - ١٩٦٢ ، ولكنها اتجهت في نظام الحكم الى الاخذ بفكرة القومية العلمانية Secular Nationalism . لقد وقف رجال الدين موقفا سلبيا تجاه هذا التحول ، على أنه حيث توجد اقلية مسلمة يكون ثمة نفوذ للاسلام كما هو الحال في موريتانيا والسنغال ونيجيريا الشمالية والنيجر والسودان والساحل الشرقي (الصومال) ولكنه في غير هذه المناطق معدوم الاثر . اما الشمال الافريقي فهو متجه بأمانه الى الشرق الاوسط وليس الى افريقيا . ويظهرنا ترمنجهام على أمر بالغ الأهمية ، وهو أن الحكام الجدد في الدول الافريقية الآن قد ورثوا عن الاستعمار غالبا عدم الاكتراث بالاديان التي تمارسها شعوبهم ، وهم يتطلعون الى السلطة الكاملة ، ويرتابون في كل قوة أخرى كالاسلام او المسيحية يمكن ان تواجههم ، وهم لهذا يضمنون القبول على نشاط المنظمات الدينية ، ويطلبونها اذا اقتضى الامر ، ولا يظهرون احتراما للقادة الدينيين ، وبالجملة فهم يرون أن قولهم تستمد من القومية ، ولكنهم في نفس الوقت حذرون تجاه الدين الذي يمثل في رأيهم قوة تنتمي الى الماضي الذي لا رجعة له ، ويرغبون في عزله عن السياسة تماما (ص ١١٤) وهناك الى جانب هذا شيوع علمانية التعليم ، وتناقص عدد مدارس تعليم القرآن بالتدريج ، وضعف الطرق الصوفية ، والنقطة الهامة في نظر ترمنجهام أن الاسلام لا يقوى على صرخة يستجمع بها قواه (ص ١١٥) ، وبالجملة فإن الصورة التي يرسمها ترمنجهام للاسلام هي صورة قائمة للغاية لملك

« وأكثر من هذا ، فانه كان من سياسة الحكومات الاستعمارية ابقاء المسلمين في عزلة . فكان رد فعلهم (رد فعل المسلمين) الانسحاب كدفاع عن الذات » (ص ١٠٧) ، ولنا أن نتساءل : هل انسحب المسلمون من الميدان فعلا ؟ الإجابة على هذا السؤال هي بالنفي ، والا كيف نفسر انتشار الاسلام ابان حكم الاستعمار مع حرص المستعمرين على عزله بعيدا عن المجتمع ؟ بل كيف نفسر انتشاره في العصر الحاضر - كما يذكر ترمنجهام نفسه - في غينيا وسرياليون ومالي وأجزاء من نيجيريا وشمال الكاميرون وشرق أفريقيا (ص ١٠٦) ؟ . ان هذه المسألة كانت تحتاج من ترمنجهام نظرة أكثر موضوعية ، فانتشار الاسلام في أي مكان وفي أي عصر قد يفسر بأسباب أخرى من بينها وضوح مبادئه وقابلية العقل الانساني للاقتناع بها .

ويرى ترمنجهام وجود ثلاثة أنواع من الحضارات في افريقيا الآن : فهناك المناطق الحامية التي رسخ الاسلام فيها ، والعزم الافريقي ، وخط رفيع على الساحل الشرقي ، والاسلام فيها هو اسلام العصر الوسيط بطابعه الشرعي ، وهو يحكم نظرتها للامور ، وان كان في هذه المناطق مشاركة في الحضارة الأوروبية بدرجات متفاوتة ، وهناك مناطق أخرى دخل اليها الاسلام في المائة السنة الأخيرة مع التأثيرات الغربية المصاحبة للاستعمار ، ومسلمو هذه المناطق متأثرون بالعلمانية بدرجات متفاوتة ، والاسلام فيها لا يمتد الى جميع مظاهر الحياة ، وهناك بعد هذا وذاك مناطق في أساسها الوثنية مع وجود نفوذ مسيحي وعلماني ، والاسلام فيها ضئيف . فهناك بحسب هذه المناطق اثن ثلاث حضارات : الحضارة الإسلامية الافريقية ، والحضارة المحلية الافريقية ، والحضارة الغربية العلمانية ، التي قد يتشابه بعضها مع البعض

مكونات متعددة ، فهو حين يعالج موضوع الإسلام في أفريقيا نجده يستفيد إلى أبعد مدى من معرفته بعلوم شتى كالتاريخ والحضارة والفلسفة والاجتماع والانثروبولوجيا والانثولوجيا وغيرها في تفسير التطور الحضارى له ، ومدى الأثر الذى تركه على شعوبه الأفريقية . وليس من شك في أننا في العالمين العربى والإسلامي في أشد الحاجة إلى مثل هذه الدراسات الجادة من الناحية الأكاديمية ، والصريحة في نفس الوقت في اطلاع المسلمين على أخطائهم وواقعهم المؤلم ، فهي تفتح أمامهم آفاقا جديدة لفهم ما يجرى في مجتمعاتهم المعاصرة فهما علميا بما تقدمه إليهم من قوانين التفرع الاجتماعي التي تحكم تطور المجتمعات ، وتدفعهم إلى إعادة النظر في أوضاعهم وتطويعها نحو ما هو أفضل . ونحن نأمل أن تتجه الجامعات العربية والإسلامية إلى التوسع في دراسة المجتمعات الإسلامية المعاصرة على هذا النحو العلمي المتكامل ، ولا تكفي بالتركيز على دراسات التراث الإسلامي في مجاله الفلسفي والتاريخية والحضارية والتشريعية ، ولا بد في رأينا من أن يرتبط التراث بقضايا العصر .

ومع ذلك نحن نختلف مع ترجمهم حول عديد من النتائج والقضايا والأفكار التي يوردها في كتابه تكفي هنا بأن نتحدث عن أهمها :

فمن ذلك تصوره لوضع المرأة في المجتمع الإسلامي حيث يقول : « من الأصوب أن يقال أن الرجال داخلون في الإسلام بشكل أعمق على حين أن مشاركة النساء فيه هامشية ، لأن الإسلام يهيئ للنساء مجالا ضيقا للقيام بالشعائر » (ص ٢٦ - ٢٧) . وهذا غير صحيح لأن الإسلام يساوي بين الرجل والمرأة في التكليف الشرعي (١)

تبيينها من قوله : « أن الإسلام يفقد قيمه السابقة واعتباره كمذنية ، ويبدو أنه يقود إلى غير مكان ! أن الإسلام بالنسبة للرجال الجدد بما فيهم المسلمون ، أصبح شيئا مرتبطا بكل الأمور التي تقيد وتؤخر ، ومن بينها التعليم التقليدي واللغة العربية وطريقة كتابته في أفريقيا غير الناطقة بالعربية ، وفي نفس الوقت يتباطأ انتشاره ، ويضمحل نفوذه . أن هذه التغيرات مرتبطة بالجو العام المتغير في أفريقيا ! » (ص ١٠٦) .

ويقدر ترجمهم أن ختام كتابه وجود إسلام أفريقيا جديد (Neo-African Islam) في بعض أماكن أفريقيا ، يمثله أفراد اعتنقت مجتمعاتهم الإسلام خلال المائة عام الأخيرة في نفس الوقت مع دخول الاستعمار بما يحمله من حضارة مسيحية وعلمانية إليها ، وقد تأثروا في نظرتهم العامة بهذه الحضارة الجديدة ، وقد أوجد أولئك الأفراد ، ومنهم أناس هاديون وفلاحون وسكان مدن ، نظرة عامة مكونة من عناصر إسلامية وأخرى غربية ، وتوجد هذه النظرة العامة بين ولوف في السنغال ويوروبا في قرب نيجيريا ، كما توجد في غينيا وسيراليون وأماكن أخرى من المناطق الفرنسية السابقة . أن الذين اعتنقوا هذه النظرة لم يعتنقوا النظرة المحافظة للمسلمين التقليديين بسبب موقفهم المتأثر بالحضارات الثلاث الوجودية الآن في أفريقيا ورغبهم في الملازمة بينها .

٧ - تلك هي أهم النتائج التي توصل إليها ترجمهم في كتابه عن أثر الإسلام على أفريقيا ، وهي في الحقيقة ثمرة دراسات علمية عميقة متأنية أنفق فيها سنوات طويلة من عمره ، وتدل على علميه في التفكير ، واتخاذ منهج دقيق في التحليل والموازنة والتركيب . ومن الواضح من خلال هذا الكتاب أن المؤلف قد تهيأت له ثقافة مميقة ذات

الإسلامية السبع ، أن انتشار الطرق الصوفية فيه منذ القرن الخامس عشر الميلادي بصورة شعبية هو الذي أعطى الإسلام المغربي طابعاً خاصاً مميزاً (ص ٨) . ونحن نختلف معه في هذا التخصيص ، لأن انتشار الطرق الصوفية انتشاراً شعبياً لم يكن خاصية انفرد بها المغرب وحده ، بل كان نظام الطرق موجوداً في مصر أيضاً ، وله أثره العميق في الحياة الدينية فيها منذ القرن الثالث عشر الميلادي وما بعده . بل أن الحركة الصوفية كانت نشيطة جداً في أقطار أخرى إسلامية غير المغرب ومصر ، ففي العراق مثلاً ظهر قطبان صوفيان كبيران من أصحاب الطرق هما عبد القادر الجيلاني مؤسس القادرية ، وأحمد الرفاعي مؤسس الرفاعية . وكانت هناك هجرات صوفية — إذا صح هذا التعبير — تأتي إلى مصر من المغرب كهجرة الشاذلي وأتباعه إلى مصر (٣) ، وكان لدرستهم الصوفية فيها أثر لا يقل عن أثرها في المغرب أن لم يكن أزيد . هذا كله فضلاً عن الأثر العميق الذي تركه أقطاب آخرون كأحمد البدوي وإبراهيم الدسوقي في مصر (وهما معاصران للشاذلي تقريباً) مما لا يزال موجوداً إلى اليوم في المجتمع المصري . ولا يخفى على ترمنجهام أيضاً أن التصوف إبان حكم العثمانيين لمصر منذ القرن السادس عشر قد انتشر فيها انتشاراً شعبياً واسعاً بحيث يمكن القول بأنه كان طابعاً عاماً للحياة المصرية ، بل أن الأزهر وهو المركز العلمي الإسلامي الأكبر كان مطبوعاً في ذلك العصر بالطابع الصوفي وكان يفند إليه الكثيرون من أبناء أفريقيا ، فيتأثرون بما كان سائداً فيه من العلوم بما فيها علم التصوف ، وكان كثير من شيوخه الكبار يصدون في نفس

فهي مكلفة بجميع العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق . وللغزاة — كما هو معلوم من الإسلام — أن تحضر للصلاة في المسجد ، وكانت تخرج مع المسلمين في الغزوات على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد تفضل المرأة الرجل في مجال التقوى والعبادة والعلم . يقول ابن حزم مبيناً مساواة المرأة للرجل في التكليف الشرعي : « أن الخطاب من الله تعالى عموم للرجال والنساء ، لا يجوز أن يخص به الرجال دون النساء ، فيكون من فعل ذلك مفترياً على الله . ويقتن يدري كل مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى النساء كما بعث إلى الرجال (١) » . ويرى بعض علماء أصول الفقه أن قول الله تعالى : « وما كان لؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يمض الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً » (الاحزاب : ٣٦) دليل على أن المرأة والرجل سواء بالنسبة للأحكام الشرعية واعتقاد وجوب المأمورة أو نديه ، وفعله على ما هو عليه ، أن كان واجباً فواجب ، وأن كان ندباً فنندب (٢) . لقد مساوى الإسلام بين المرأة والرجل في العمل بالأحكام الدينية والجزاء عليها ، وأعطاهما إلى جانب ذلك جميع حقوقها الإنسانية ، وانصرف إلى جانب ذلك جميع حقوقها الإنسانية ، من العمل بأحكام الإسلام في هذا الصدد لا ينهض دليلاً على الإسلام ذاته ، بعبارة أخرى لا يجوز أن تؤخذ مبادئ الإسلام أو تفهم على ضوء واقع المسلمين لوجود التفاوت بينهما الآن .

ومن ذلك أيضاً ما يتعلق بكلام ترمنجهام عن الطرق الصوفية في أفريقيا : فهو يرى عند كلامه عن المغرب باعتباره منطقة من مناطق الحضارة

(١) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، القاهرة ١٣٢١ ع ٢ ص ٢٠٣ .

(٢) الأمدى : الأحكام في أصول الأحكام ، القاهرة ١٩١٤ = ١٣٣٢ هـ ، ج ١ ص ٢١٦ .

(٣) النظر كتابنا : ابن عطاء الله السكندري وتصوفه ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٩ ص ٥٥ - ٥٦ .

نقطة تحتاج الى مزيد من البحث العلمي ولم يكتب عنها - فيما نعلم - شيء الى الآن .

وهناك بعد ذلك موضوع آخر نحب أن نناقشه مع ترجمهم وهو مدى اثر الحضارة الأوروبية العلمانية على الحضارة الإسلامية في افريقيا ، وقد لاحظنا أنه بضمخ هذا الابر الى الحد الذي يجعله يقول « انها (أى النظرة الغربية العلمانية) اقوى من الاسلام على التغيير » (ص ١٠٩) . وهو يفرق بين نوعين من الاسلام في افريقيا اسلام تقليدي (Traditional) واسلام معلم (Secular) وهو يستخدم مصطلحين مختلفين كل واحد منهما له مضمونه الخاص في هذا الصدد . فهناك العلمانية (Secularism) والعلمنة (Secularization) وهو يميل الى القول بأن ما يجري في افريقيا الآن هو علمنة وليس علمانية ، لأن العلمانية ايديولوجية او موقف تجاه الحياة يرفض القيم الروحية والنظرة الدينية تماما . أما العلمنة فهي التغير الذي يسير من حضارة دينية الى حضارة معلمة كل مجالات الحياة فيها يستقل بعضها عن البعض الآخر ، والعلمنة في رأيه امر لا يمكن تجنبه هنا وهناك في العالم . انها تحدد وتفسق المجالات التي يستوعب فيها الاسلام حياة معنوية ، فنظرها تختلف عن نظرة المسلم التقليدي ، فبالنسبة لهذا المسلم كل ما هو روحي لا يمكن فصله عن وجه الحياة الأخرى . ان العلمنة تشطر الحياة الى اجزاء ، ويصبح الاسلام مهما ماملا واحدا بين عوامل متعددة في المجتمع . والعلمنة في رأى ترجمهم لا تؤدي بالضرورة الى العلمانية ، وكل ما في الامر انها تفتح الطريق امام موقف معلم تجاه الحياة . ونحن نجد في افريقيا اولئك الذين يكون الاسلام بالنسبة لهم قوة روحية واخلاقية

الوقت من اقطاب التصوف كالدردير والحفنى والشرقاوى وغيرهم . (١) فلا يصح إذن أن نفعل ما يمكن أن يسمى «رابط الحضارة الصوفية» في عالم اسلامي موحد ، والمؤلف نفسه يشير الى بعض مظاهرها في افريقيا . فقد كانت الطرق الصوفية في حركة مستمرة تنتقل أحيانا من المغرب الى المشرق ، كالطريقة الشاذلية ، التي استقرت في مصر ومنها وجدت طريقا الى الشام والجزيرة العربية بل وإلى الملايو ، وأحيانا أخرى كانت تنتقل من المشرق الى المغرب ، كالطريقة القادرية التي نشأت بالعراق ثم سرعان ما امتد انتشارها الى الشمال الافريقي ومنه عبرت الصحراء الى مناطق عديدة في افريقيا أشار اليها المؤلف ، فكان دورها في افريقيا أكبر بكثير من دورها في المشرق العربي . يضاف الى ذلك أن طرقا صوفية عديدة جاءت من الجزيرة العربية الى افريقيا ، وكان لها فيها اثر أعمق بكثير من اثرها في المناطق التي نشأت فيها كالطريقة السمانية (المنسوبة الى محمد السمان أحد شيوخ الخلوتية) وهو مدفون في المدينة المنورة) ، والطريقة الادريسية التي أسسها أحمد بن إدريس وافتتحت عنها الميرغنية في السودان ، والسنوسية في ليبيا . وهذا كله يدموننا الى القول بأن تقسيم ترجمهم لمناطق الحضارة الإسلامية في افريقيا ، يعد اعتبارا لا حقيقيا ، على الأقل بالنسبة لدور الحركات الصوفية في افريقيا .

ونمة نقطة أخرى يغفلها المؤلف وهي التبادل بين الطرق الصوفية في مصر والسودان ففي العصر الحاضر مثلا نجد طرقا صوفية مصرية لها فروع في السودان كالأحمدية وأبرهامية ، ونجد في نفس الوقت طرقا سودانية لها فروع في مصر كالادريسية والميرغنية . وهذه

(١) أنظر في تفصيل هذا بحثا لنا عنوانه : الطرق الصوفية في مصر ، نشر بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الخامس والعشرون ، الجزء الثاني ، ديسمبر ١٩٦٣ (ظهرت المجلد في ١٩٦٨) .

في العصر العباسي ولكنه تغلب عليها وتجاوزها ، وكذلك كان شأنه في جميع العصور التالية ، وكان دائما يؤكد أصالته وقدرته على البقاء والتغيير في المجتمع . لقد ظن خصوم الإسلام انه اذا لم تهزم الإسلام القوى العسكرية فلتهزمه المبادئ والأفكار المضادة له ! ان العصر الذي نعيش فيه هو عصر الصراع الإيديولوجي العنيف الذي لم يشهد له تاريخ الاتساقية مثيلا ، ونجاح الإسلام في هذا الصراع ليس في إيجاد صيغة جديدة للربط بين الدين والحياة كما يقول ترمنجهام ، بل في قدرته على احتواء إيديولوجيات العصر المتحدية له ، وهو قادر على ذلك لو كان المسلمون في العصر الحاضر على قدر كبير من الوعي بما يدور حولهم ويراد بهم وليس هذا هو موقف الإسلام وحده في عصر سادت فيه الفلسفات المادية وشاع الانحلال الخلقي في كثير من مجتمعاته ، بل هو موقف الأديان جميعا .

ونعود مرة أخرى الى موضوع العلمانية فنقول انها تتعارض مع الإسلام وإن اتفقت مع المسيحية (الى حد ما) على اعتبار ان المسيحية لم تكن في اصولها الاولى تشتمل على أنظمة سياسية للدولة وإنما كانت ديناً ينظم علاقة الفرد بربه ، ويقوم على اساس مبادئ اخلاقية معروفة كالمحبة والرحمة والتسامح وما الى ذلك . اما ما يوجد الآن في العالم المسيحي من نظم للحكم ، او نظم اجتماعية اخرى ، فهو وضعي ، فالعلمانية حين تفصل الدين عن الدولة لا تشكل خطراً على المسيحية . ولا كذلك الإسلام فان اصوله المنزلة (القرآن والسنة) تضمنت قواعد تشريعية متعلقة باصول الحكم والاقتصاد والحرب والعلاقات الدولية ومالي ذلك . والإسلام يستند الى سلطة الدولة اساسا ، فاذا عزلته الدولة عن الواقع الاجتماعي ، ضعف شأنه واصبح مهددا بالزوال ، ان مفهوم كلمة « دين » في الغرب غير مفهومها في الإسلام والخطب بينهما غير جائز .

ولكن لا علاقة لها بالحياة ، مع احتفاظهم بالولاء للإسلام باعتباره الوسط الحضاري الذي ينتمون اليه . وشأن الحضارة الإسلامية في ذلك شأن الحضارة الغربية أيضا فهما قد فصلتا بالتدريج عن جذورهما الدينية . ان مستقبل الإسلام يتوقف على تليق صيغة جديدة للعلاقة بين الدين والحياة مختلفة عن أي شيء آخر عرف في الماضي (ص ١٢٥) . ونحن لا نقر ترمنجهام على هذا الكلام خصوصا انه يعترف في مواضع كثيرة من كتابه بتكامل الإسلام ، ان الإسلام التقليدي في رأينا هو الإسلام الكامل ، اما الإسلام المعلمن (الجديد) الذي ينحصر في نطاق بعض العقائد الضعيفة والممارسة الشكلية لمبادئ الدين ، فهو اسلام ناقص لا فائدة منه ، وقصد يخرج معتقيه عن الإسلام بالرة ، فكل نواحي النشاط الاجتماعي أو الحضاري أو المدني أو السياسي في المجتمع الإسلامي هي من الإسلام بدليل قول ترمنجهام نفسه : « حيثما تواجه الإسلام كحضارة فان أي تفرق (مهما كان مجاله) هو ديني » (ص ١٢١ - ١٢٢) .

فالاخذ ببعض جوانب الإسلام دون البعض الآخر - من وجهة النظر الإسلامية - لا يجوز بل لا يمكن .

وبعيني وضع ترمنجهام للمشكلة التي يواجهها الإسلام في العصر الحاضر قائلا ان المشكلة التي يواجهها المسلمون هي : كيف يمكنهم الاحتفاظ بقيمهم المستمدة من تراثهم وأبصار التكامل بينها وبين القيم الجديدة ص (١٢١) فاذا نجح المسلمون في هذا الميدان وضعوا حدا للصراع القائم . وفي رأينا ان الصعوبات التي يواجهها الإسلام الآن في إفريقيا بل وفي أي مكان آخر هي صعوبات مرحلية والإسلام بطبيعته دين صراع ، دخل منذ يومه الاول في صراعات عقائدية وخرج منها ظافرا ، وكانت الاخطار العقائدية محدقة به من كل جانب

اشتراكية ذات دلالة هامة ، فما هو موقف الإسلام من مثل هذه التحولات ؟هذاما لم يحاول المؤلف أن يذكره أو يجيب عليه. كذلك لم يتعرض المؤلف للتكتل الافريقى الذى تمثله منظمة الوحدة الافريقية التى اعلن ميثاقها سنة ١٩٦٣ ، وماذا يمكن أن يكون له من الأثر .

وبعد : فإنه مع هذه الملاحظات التى مرت بك من كتاب ترمينجهام ، فإن هذا الكتاب يظل فى رأينا من ادق وامتع ما كتب عن الإسلام فى افريقيا . وهو جدير بأن ينقل الى اللغة العربية، فهو يحتوى على حقائق علمية عن تاريخ الإسلام وواقعه المعاصر فى افريقيا ، ويجب على كل مثقف عربى او مسلم أن يقف عليها ويمى دلائلها .

الدكتور

أبو الوفا التفتازانى

ولا يصح ان يقال - من وجهة النظر الاسلامية البحتة - دولة دينية ودولة علمانية ، بل يقال : دولة اسلامية ، لان الدولة فى الاسلام تجمع بين ما هو دينى وما هو زمنى او مدنى . ولعل ملاحظة جديرة هنا بالاعتبار وهى ان مايصلح فى مجتمعات الغرب لا يكون صالحا بالضرورة لمجتمعات العالم العربى او الاسلامى ، فالمجتمع الاوروبى ليس نموذجا لكل مجتمع بشرى ، والانسان الاوروبى ليس بالضرورة مثالا لكل انسان ، وقد تتجاوز البشرية حضارة الغرب الى نوع آخر من الحضارة.

بقيت ملاحظة اخيرة وهى ان ترمينجهام ركز على أثر الحضارة الغربية وحدها فى افريقيا ، ولم يتعرض لآثر ايدولوجيات اخرى ذات طابع مختلف فى السنوات القليلة الماضية على المجتمعات الافريقية . فقد اخذت كثير من الدول الافريقية بالنظام الاشتراكى ، وتشهد افريقيا الآن تحولات

من الكتب الجديدة

كتب وصلت لإدارة المجلة ، وسوف نعرض لها بالتفصيل في الأعداد القادمة

Chorley, R. J. ; (ed) : **Water, Earth and Man : A Synthesis of Hydrology, Geomorphology and Socio-Economic Geography**, Methuen, London 1969.

Crowther, J. G. ; **Scientific Types**, The Cresset Press, London 1968.

Devons, S. (ed) : **Biology and the Physical Sciences**, Columbia U.P., N.Y. 1969.

Ebling, F. J. ; (ed) : **Biology and Ethics**, Academic Press, London, 1969.

Fisher, P. & Bender, A. ; **The Value of Food**, Oxford U.P., London 1970.

Foulkes, S. H. & Prince, G. S. (ed) : **Psychiatry in a Changing Society**, Tavistock, London 1969.

Gittings, J. ; **Survey of the Sino-Soviet Dispute**, Oxford U.P. ; London 1968.

Goffman, E. ; **The Presentation of Self in Everyday Life** ; Allen Lane, The Penguin Press, London 1969.

Harre, R. ; (ed) : **Scientific Thought 1900-1960**, Clarendon Press, Oxford 1969.

Hayter, A. ; **Opium and the Romantic Imagination**, Faber and Faber, London 1968.

Kermode, F. ; **Continuities** ; Routledge & Kegan Paul, London 1968.

Nakayama, S. ; **A History of Japanese Astronomy : Chinese Background and Western Impact**, Harvard University Press, Cambridge, Mass. 1969.

O'Neil, W. M. ; **Fact and Theory : An Aspect of the Philosophy of Science**, Sydney U.P. ; 1969.

Rescher, N. ; (ed) : **Studies in the Philosophy of Science**, Blackwell, Oxford 1969.

في الأعداد التالية من المجلة :

العدد الثاني - المجلد الأول
يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٧٠.

قسم خاص عن عالمنا المتغير

للدكتور محمود رياض	الالكترونيات - وتقارب الثقافات
للدكتور نور الدين حاطوم	خصائص حضارة العصر
للدكتور صلاح طلبة	العقول الالكترونية
للدكتور حسن طه نجم	مستقبل التغذية في العالم
للدكتور محمد ناصر	التربية في عالمنا المتغير
ديفيد ميكائيل ليفين	البنائية والوجودية

غير الأبواب الثابتة

العدد الثالث - المجلد الأول

أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر

الإنسان والكون

٢٠٠٠ قرش	سوريا	٤ ريالات	الخليج العربي
٢٠ قرشا	٣٠٠٠ ع م	٤ ريالات	السعودية
٢٠ قرشا	السودان	٢٠٠ فلس	البحرين
٣٠ قرشا	ليبيا	٧ شلنات	اليمن
٤٠٠ مليم	تونس	٢٥٠ فلسا	العراق
٤٠٠ مليم	الجزائر	٢٠٠ قرش	لبنان
٤ دراهم	المغرب	٢٠٠ فلس	الأردن

عالم الفكر

رئيس التحرير : أحمد مشاري العدواني

مستشار التحرير : دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإرشاد والبناء في الكويت • يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٧٠
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية • وزارة الإرشاد والبناء - الكويت ص ٠ ب ١٩٣

المحتويات

عالمنا المتغير

المصادر

الفكر والعصارة :

٢ مستشار التحرير

دكتور عبد الرحمن بدوي ۱۱

دكتور نور الدين حاطوم ٢٣

دكتور محمود رياض

دكتور صلاح الدين عظمة ٥١

٩٢ * * * * *

۱۳۹ دکتر محمد ناصر

★ ★ ★

آفاق المعرفة

دكتور علي حافظ

شاگرد مصطفیٰ

علي ادريس

الحقل الأفريقي ١٥٥

٢٠٣ الأدب المهجري الآخر

٢١٩ * ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦

تجارب و خبرات

دكتورة سميرة الزبادي

٢٤١ الحشرات مع الحشرات

★ ★ ★

عرض الكتب

نظرة إلى قلبها

لا تبدأ أو الحياة

أزمة حنك

209 000 000 000 000 000 000 000 000

238 000 000 000 000 000 000 000

250 250 250 250 250 250 250 250

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم

عالمنا المغمى

تمهيد

في كتاب حديث بعنوان « العفريت في الآلة » The Ghost in the Machine (١) يقص الكاتب الشهير آرثر كيستلر Arthur Koestler قصة خرافية عن تاجر باحد الأسواق الشرقية القديمة لم يكن يجيد الحساب مما كان يفرى به عملاءه ويشجعهم على غشه وخدبعته ، وذلك على عكس المألوف في الأسواق الشرقية حيث يتوقع من التاجر ان يفش عملاءه ويخدعهم . وضاق الرجل بحاله فابتهل الى الله ان ينعم عليه باحدى آلات العد البسيطة التي يستخدمها الأطفال في أول عهدهم بتعلم الحساب والتي تتألف من بعض حبات الخرز المنظومة في عدد من الأسلاك أو القضبان الحديدية الرقيقة للاستعانة بها في عمليات الجمع . وحمل تلك الرغبة الى السماء عفريت خبيث ولكنه أرسلها الى غير القسم المختص . وفي صباح اليوم التالي ذهب التاجر ليفتح حانوته الصغير فإذا به امام محل تجارى ضخم يتألف من عدد من الطوابق من البناء الحديدى ومزود بأحدث الأجهزة الحاسبة الالكترونية بما فيها آخر جهاز كمبيوتر أخرجه شركة آى . بي . ام I.B.M. . ودخل التاجر في دوامة حسابية من نوع آخر . فقد حار امام كل هذه الآلات والأجهزة الدقيقة الملقدة ، وأخذ يعمل أصابعه في مفاتيحها كيتم اتفاق دون جدوى . وأرتبكت أعماله التجارية أكثر من ذي قبل ، واستبد به القفض فأخذ يضرب الجهاز بعنف يديه ، ولكنه لاحظ أثناء ذلك انه حين يصدق على مفتاح معين بالذات عدة مرات يبرز له رقم يختلف باختلاف عدد الدقات . وشيئا فشيئا بدأ سر العدد البسيط يتكشف له ، واستطاع بذلك ان يستخدم ذلك «العقل»الالكترونى

(١) صدر عام ١٩٦٧ ويتبر الطبعة الثالثة للكلمة لكتابين سابقين طبعوا تحت عنوان واحد اسم عجة حين ظهر لأول مرة وهما كتاب The Sleepwalkers وكتاب The Act of Creation وفيهما يتناول كيستلر الكشف العلمى والإلهام الفنى اللذين يتنهل فيهما مجد الإنسان وعظمته - بينما ينتهى الكتاب الثانى « العفريت في الآلة » بالتحقيق لمشكلة الدوافع الداخلية التي تدفع الإنسان الى تعذيب نفسه ، وهذا - فى نظر كيستلر - هو تقدير الإنسان ومعيرو .

الحديث في تسير أموره البسيطة المتواضعة التي لم تكن تتعدى عمليات الجمع ، ومرت آلاف السنين وتباينت الأجيال وتوارث أبنائه واحفاده واحفاد احفاده ذلك الجهاز العجيب ، وأمكنهم خلال تلك الآلاف الطويلة من السنين أن يصلوا الى بعض العمليات الأكثر تقدما والتي لم تتعد - على أية حال - عمليات الشرب البسيطة. ولم يدرك التاجر أو احفاده ان هذه الآلة التي قنعوا منها بتلك العمليات الحسابية الساذجة هي نفس الجهاز الذي يساعد الإنسان الآن على غزو الفضاء والأجرام لسنوات عديدة مقبلة ، كما أنه هو نفس الجهاز الذي يساعد الإنسان الآن على غزو الفضاء وسوف يساعده على هتك الكثير من أسرار الكون.

وبصرف النظر عما قد تشير اليه القصة - وما قد نستخلصه منها لانفسنا - من تخلف الشرق من الغرب في هذه الفنون والعلوم - وهو امر لا جدال فيه - فان للقصة مفزى أبعد وأعمق من هذا بكثير ، والمغزى الحقيقي الذي يهدف اليه كيسلر بلا ريب هو أن الإنسان كان يحمل دائما ومنذ نشأته الأولى عقلا قادرا على التفكير وعلى الوصول الى أشد العمليات تعقلا وأكثرها دقة وعمقا ، ولكنه عاش مع ذلك آلاف السنين دون أن يدرك قيمة ذلك العقل الذي يحمله فلم يستخذه بذلك الا في أبسط الأمور، شانه في ذلك شان التاجر الشرقي الساذج وذريته الذين لم يدركوا قيمة « العقل » الإلكتروني . فلقد كان إنسان كرومانيون Cro - Magnon الذي ظهر منذ حوالي خمسين ألف الى مائة ألف سنة مضت والذي انحدرت منه السلالات الأوروبية البيضاء الحديثة يحمل في ججمته مخا يقارب في الحجم والشكل مخ الإنسان الحديث أو الإنسان العاقل Homo Sapiens ، ولكنه ظل مع ذلك يعيش في الكهوف ولم يفلح في أن يتعدى حدود حضارة العصر الحجري Stone Age . وبمسد عشرات الآلاف من السنين من التطور البطيء المضمي استطاع الإنسان أن يكتشف عقله بكل قدراته وطاقاته الهائلة . ولكنه ما أن توصل الى ذلك السر الذي ظل حبيسا لعشرات القرون حتى تغير كل شيء . فلقد تغيرت نظرة الإنسان الى نفسه والى العالم الذي يحيط به والى العلاقة التي تربطه بذلك العالم . ولقد اتخذ من عقله وتفكيره وسيلة وأداة للكشف عن أسرار الكون وتغيير وجه الحضارة ووجه الحياة ذاتها .

وليس من شك في أن المجتمع الإنساني كان دائم التغير وان الحياة الإنسانية هي عملية تغير طويل مستمر . ولقد أغرم الكتاب - وبخاصة علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا - بمحاولة رسم وتحديد المراحل التي مر بها الجنس البشرى منذ ظهوره ومنذ نشأة المجتمع الإنساني حتى الآن ، وساد هذا الاتجاه بوجه خاص في القرن التاسع عشر ، وظهرت بذلك نظريات عديدة نظرت اليها الآن بكثير من الإشفاق والحذر لعدم استنادها الى معلومات كافية ، وإن كانت في الوقت ذاته تستحق كل تقدير نظرا لظروف الصعوبة القاسية التي كانت تحيط بالتفكير العلمي حينذاك . وعلى الرغم من تعدد واختلاف هذه النظريات في كثير من التفاصيل فإنها تجمع كلها على أن المجتمع كان في معظم فترات تاريخه يتقدم ويتطور من حالة التخلف والوحشية الى حالة الحضارة الحديثة وما يرتبط بذلك من نضوج في قوى الإنسان العاقلة وتخلص تفكيره من أوهام الأساطير والمخاوف والفنبيات والميتافيزيقا وتقدمه بالتالي نحو آفاق العلم الوضعي الذي لا تحده أية حدود. وهذا معناه أن التغيرات التي طرأت على الجنس البشرى وعلى المجتمع الإنساني في مومه لم تكن مجرد تغيرات في التكوين الفيزيقي للإنسان أو في العادات أو المظاهر السلوكية أو حتى في مظاهر

سوف تسيطر عليه العلوم البحتة والعلوم الطبيعية بالذات ، وإن التفريعات الواسعة الهائلة والسريعة في مجال العلوم لابد من أن تستتبع تغيرات هامة في حياة الإنسان ونظم المجتمع وبنية المعارف الإنسانية الأخرى . وأرجو ألا يؤخذ هذا القول على أنه إجحاف بحق الإنسانيات أو أنه هجوم عليها وتشكيك في أهميتها وضرورتها للإنسان والمجتمع على السواء . إنما لابد من أن ندرك مدى وطأة العلم الحديث والتفكير العلمي الدقيق على الإنسانيات والعلوم الإنسانية وأن نتوقع اشتداد هذه الوطأة . وإنا نجد من الأنمض الاتجاهات التي تدمو لاختصاص الشمر للسيرانية Cybernetics التي تعتبر من أكثر مراحل استخدام الرياضيات تطوراً وتقدماً ، كما نجد كثيراً من المحاولات الجادة التي يقوم بها بعض العلماء - وليس الأديباء أو المشتغلين بالإنسانية - للتعرف على العلاقة بين العلوم والإنسانيات ومستقبل الإنسانيات وشكلها تحت تأثير العلم الحديث ، على ما فعل مثلاً سير پيترمدور Sir Peter Medawer في محاضرة شهيرة له من « العلم والأدب » ، وكما عالـج المشكلة كذلك منذ سنين اللورد سنو P.C. Snow في محاضرة شهيرة أيضاً هما أسماء « الثقافتين The Two Cultures » ، وهي محاضرة ألقاها أصلاً في جامعة كامبردج واثارت كثيراً من الجدل والمناقشة ثم تحولت إلى كتاب لا يقل شهرة من المحاضرة الأصلية (٤) .

ولقد حاول « سنو » أن يبين الانفصال الخطير بين « الثقافة التقليدية » أو « الإنسانية » كما يسميها و « الثقافة العلمية الحديثة » مما أدى إلى استقطاب المجتمع الغربي في مجموعتين متعارضتين تماماً لدرجة أنه لم يعد ثمة أي حوار بينهما . ففي جانب يقف « المثقفون » ويعنى بهم جميع المعلمين باستثناء « العلماء » والمهندسين الذين يؤلفون فئة متميزة لها ثقافة مشتركة تتمثل في موقف موحد من العالم وفي استجاباتهم لأحداثه بطريقة معينة وهي - في رأى سنو - استجابة ذات طابع إيجابي ، وذلك بعكس الحال بالنسبة للمثقفين الذين يتسم موقفهم بالسلبية وبالإخلو من صفات « الثقافة العلمية » . فالثقافة التقليدية في رأيه ليست فقط ثقافة « لا علمية » وإلا لكان الأمر يهون ، بل أنها أيضاً - وهذا هو الخطير في الأمر - تقف موقفاً عدائياً من العلم وهو موقف مؤسف بغير شك . ولم يتردد سنو في أن يرى أن العلاج الوحيد لذلك ، وهو علاج يحمل في طياته تضيق الهوة بين موقفي الإنسان المتعارضين من الحياة كما ذكرنا ، هو في تحويل الثقافة التقليدية إلى ثقافة علمية ، ووسيلة ذلك هي التعليم بحيث يتعرض الدارسون في كل فرع لتأثيرات الفرع الآخر ، ولكن - وهذا هو المهم حقاً - على أساس أن يصطبغ التعليم في الوقت ذاته بصبغة علمية قوية ، ويعطى الطالب مزيداً من العناية والاهتمام للتدريب في ميادين العلم (٥) . فالعصر الحالي - الذي سوف يمتد إلى المستقبل - هو عصر العلم قبل كل شيء . ولقد وجدت هذه الدعوة صدقاً قوياً في كثير من الجامعات الحديثة بوجه خاص بحيث ربطت هذه الجامعات نفسها بالصناعة والتكنولوجيا ، لدرجة أنه منذ أسابيع قليلة فقط ظهر أن مجلس إدارة

(٤) ظهر الكتاب بعنوان : Snow, P.C., The Two Cultures, and a Second Look, New American Library, N.Y. 1964.

(٥) Nelson, W.R., "Science: A Means or an End ?" in Id (ed): The Politics of Science, Oxford University Press, N.Y. 1968, P. 478.

جامعة وارويك في بريطانيا يتألف كله - باستثناء شخص واحد - من رجال الصناعة مما أثار الطلاب وأدى إلى قيام أمتف معارضة يتزعمها الآن الناقد الشهير ليفيس R.F. Leavis من جامعة كمبريدج .

ومهما يكن من تعارض وجهات النظر فالذي لا شك فيه هو أن العلم يعتبر عنصراً هاماً وخطيراً في حياة المجتمع الانساني المعاصر وأن أهميته وخطورته سوف تزدادان بمرور الزمن ، كما أن نتائج الاكتشافات في كل فروع العلوم الطبيعية والحيوية أصبح يشد الأذهان إلى العلم بشكل لم يكن مألوفاً من قبل ، خاصة وأن تقدم وسائل الاتصال والثقافة والتعليم وتنوعها ساعدت مساعدة فعالة على نشر العلوم في كل انحاء العالم وتقريبها إلى الأفهام ، ويستوى في ذلك التعريف بالمعلومات أو المادة العلمية ذاتها أو المنهج أو التطبيقات المرتبطة بها أو النتائج المترتبة عليها . وكل هذا يضع الانسان في المجتمع المعاصر في موقف فريد ازاء العلم والتعليم والتربية . ويشتمل هذا الموقف الفريد في التفريات الحديثة التي بدأت تقرأ على التعليم ووسائله المختلفة ، بحيث أصبح التعليم ذاته يعتبر - حسب تعبير رودنيك (صفحة ٢٠٥) - أحد المشروعات الكبرى في هذه المرحلة الحضارية الثالثة التي بدانا ندخل فيها . وليس من شك في أن التعليم سوف يعطى اهتماماً متزايداً بالمستقبل ومشاكله المرتبطة بعد أن كان معظمه موجهاً للماضي أو الحاضر على أكثر تقدير . وهذا معناه أن كثيراً من الموضوعات التي تظهر الآن في مناهج المدارس والجامعات سوف تختفي ويظهر بدلاً منها موضوعات وتخصصات أخرى جديدة نتيجة لتقدم العلم وتغير الظروف العامة التي يمر بها المجتمع الانساني ، كما أن تدريس العلوم سوف يحتل مكاناً بارزاً في أي خطة دراسية بالإضافة إلى محاولة المواجهة بين العلوم الطبيعية والإنسانيات . وكل هذا من شأنه أن يؤدي في آخر الأمر إلى تغيير النظرة إلى الحياة وموقف الانسان منها بحيث تصطبغ حياة الفرد وتصرفاته وعلاقاته بذلك الطابع العلمي المتميز بالدقة القاطعة . وحينئذ سوف يصبح العلم حضارة بقدر ما هو أداة للحياة ولتغيير تلك الحياة .

احمد أبو زيد



الفكر والحضارة

١- وجهه نظر فيلسوف

الثورة الفكرية المعاصرة في الغرب

* عبد الرحمن بدوي

(أبرز الأحداث في السنوات الخمس الأخيرة في أوروبا وأمريكا هو التمرد :)

تمرد المجتمع الناشئ في أحضان التطور المدني الهائل ، على هذا المجتمع الذي نصفه بأنه « مجتمع الاستهلاك » .

وتمرد الأبناء على الآباء ، في محاولة لاستقلال الشباب عن الشيوخ أباً من كانوا : آباء بالدم ، أو بالروح .

وتمرد الأدنى على الأعلى في كل نظام يقوم على الترتيب : في السياسة ، والاقتصاد ، والدين .

وتمرد البداوة والقطرة والغريزة على الحضارة والآلة ، والتمتعيل ، والنمطية .

وتمرد اللاوعي على العقل المنطقي المجرد ، والحلم على الواقع .

وما حركات الشباب في الجامعات الأمريكية على اختلافها ، والشباب الفرنسي في أحداث مايو ١٩٦٨ المشهورة ، والشباب الإيطالي بأحداثه الدامية المتواصلة من شتاء سنة ١٩٦٨ حتى اليوم ، ونظائر هذه الحركات كلها في سائر بلدان أوروبا وأمريكا ، وما تمرد الطبقات الدنيا من الأكليروس المسيحي على سلطات الكهنوت العليا وعلى رأسها سلطة البابا . . الا مظاهر لحركة التمرد العامة هاتيك .

لقد أرادت هذه الحركات كلها أن تطلق الرغبات المكبوتة والغرائز المقهورة ، والنوازع المتشعبة أو المتسماى بها أو المصروفة عن تيارها ومجراها الاصيل ، تطلقها من حيث ترقد

* الدكتور عبد الرحمن بدوي استاذ ورئيس قسم الفلسفة بجامعة عين شمس ج.ع.م. ويعمل الآن استاذاً بالاعادة بالجامعة الكلية ، له كتب ودراسات عديدة باللغة العربية والفرنسية واللاتينية كما اسهم في تعريف القارئ العربي بالوجودية .

في كهوف اللاشعور تحت وطأة صمامات جبارة من الوان التحريمات التي تكدمت وتصلبت على مضى الزمنية تحت تأثير قواعد السلوك الاجتماعي وتقويمات الاخلاق وأوامر الاديان ونواهيها وذرائع السلطة الطاغية ومبرراتها .

وكانت الحملة على الآلية والآلة اول ارهاص بهذا التمرد : لقد قصد الانسان من صنع الآلة الى ان يحور نفسه من عبودية العمل ، وان يسخرها لتأدية وتحقيق ما يريه وحاجاته ومتطلباته ، واذا بالآلة تصبح كالعفريت الذي يخرج من القمع ولم يعد في وسع الساحر ان يعيده اليه بعد ان استحضره وسخره في قضاء بعض اعماله ، فنشأ عن التقدم الصناعي الهائل تلك الظاهرة التي كثيراً ما يتردد اسمها اليوم وهي « تجريد الانسان من انسانيته »

des humanisation de L'homme وتسمى أحياناً أخرى باسم « الاستلاب » alienation أى استلاب شخصيه العامل بالنسبة الى ناتج عمله ، ومن هنا لم يعد للانسان في هذا المجتمع الصناعي العالي الآلية إلا بُعد واحد ، على حد تعبير هربرت مركوزه Marcuse في كتابه المشهور : « الانسان الاحادي البعد » L'Homme unidimensionel ، هذا الكتاب الذي أصبح بمثابة انجيل لحركات الشباب التي أتينا على ذكرها منذ قليل .

لم ان مجتمع الاستهلاك يجعلنا نلث دائماً وراء كل مبتكر في التقدم الصناعي : بالامس لم تكن نعروف السيارة ولا التلاجة ولا الفسالة ولا ادوات الاذاعة والتسجيل ، فاذا بنا اليوم ليس فقط تعد هذه الاشياء كلها من الضرورات الاولى للانسان ، بل وايضا تحرص كل الحرص على ان نقتني احداث انواعها ونماذجها ، والدعاية التي تلجأ اليها شركات الانتاج لتصرف منتجاتها تكاد تدفع الناس دفعا الى اطراح النماذج الاقدم واتخاذ الاحداث ، وزاد في تقوية هذه الدعاية وسائل الاعلان الجذابة بالمصفاة وفي الاذاعة والاذاعة المرئية (التلفزيون) ، ثم التنافس بين الناس لاسباب عدة منها التباهي على الآخرين ، فصار الناس فيما يشبه الحصى يلمسهم جلاذ التقدم الصناعي الهائل الذي يلهب ظهورهم بسيطا لاذاعة باستمرار .

وهكذا انقلب الهدف من المدنية ، حتى آلت الحال الى النحو الذي وصفه سيوران (١) فقال : « ان المدنية تعلمنا كيف تتعلق بالاشياء ، مع ان واجبها هو ان تلقنا فن التخلي عن الاشياء ، لانه لن توجد حرية ولا « حياة حقيقية » بدون تعلم التخلي وعدم الامتلاك ، اني استولى على شيء ، واحسب نفسي سيذا له ، والواقع اني عبد له ، كما اني عبد ايضا لآلة التي اصنعها واديرها » .

وينتج عن ذلك ان ينتقص الانسان من قدر نفسه ، لانه سيقبضها بالنسبة الى هذه الآلات ، فيحيط من قدر نفسه بقدر تقديره لكفاءة الآلة ودقتها وكمالها ، كما يلاحظ جونتر اندرز في كتابه « الانسان المتقادم » (٢)

لقد كان الانسان صانعا ، فصار بالتقدم الصناعي الهائل ، صانعا مصنوعا معا : اذ تصنع مفهومه عند الناس وفي نظره نفسه روابطه مع الآلات ومنتجاتها ومصانعها وكيفية استفادته منها ومقدار ما ينهيا له الحصول عليه منها ، ثم ما هو دور الانسان في ادارة هذه الآلات؟ انه دور يتضاعف باستمرار ، وكلما قل دوره كان التقدم في الصناعة اعظم ، ليس المثل الأمل في المصانع الآن هو تحقيق اكبر قدر من الآلية automation ان لم يكن الآلية التامة ؟ ولا يقتصر هذا على الصناعة

(١) في مقال له ب « المجلة الفرنسية الجديدة » Nouvelle Revue Française عدد يوليو ١٩٦١ .

(٢) راجع في ذلك كتابنا « دراسات في الفلسفة الوجودية » ص ٢٠٨ - ص ٢٠٩ ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٦٦

بالمعنى المحدد، بل والزراعة، بل والتجارة والنقود والأمان، والتقدم الرائع للالكترونيات على وشك أن يحدث بدوره ثورة هائلة في الآلية لا نستطيع الآن أن نتنبأ بمدى تأثيرها وتأثيرها البعيدة، نظراً « للمعجزات » التي تحدثها الأجهزة الالكترونية الآن، ولكي نعرف إلى أي مدى صار الإنسان مستعبداً للآلة وغريباً aliéné عن الإنتاج، فكل حال العامل اليوم في مصنع تسوده آخر صرخة في الآلية automation، وبين حال العامل صاحب الحرفة artisan في القرون الماضية، بل في أوائل هذا القرن العشرين، أن ثمرة سحيقة بينهما، ولا تطور هناك ولا اتصال، بل طفرة هائلة .

ويبدو لي أن الإنسان، وقد يئس من التحرر من سلطان الآلة والآلية، رأى نفسه مضطراً إلى التنفيس من نفسه بواسطة الوان من التمرّد على السلطات التي أتيها على ذكرها في أول هذا المقال، وتلق هذا التنفيس بأمر واحد ذي مظاهر متنوعة حتى الآن، ألا وهو: الأيروس Eros (غريزة الجنس وما يرتبط بها)، أي أنه تعلق بأمر يواوحي هريك حرصت المجتمعات الإنسانية منذ عهد سحيق على إحاطته بهالة من الأسرار والأوان التحريم وأنواع القيود والحرمات tabous ولعب فرويد وحواريه من أصحاب تهاويل التحليل النفسي برموزه وطقوسه وتاويلاته التي تشبه السحر القديم والكهنوتية العتيقة، ووطناته الجوفاء ذات التهوّل - نقول أن هؤلاء لعبوا دوراً كبيراً في توجيه النفوس نحو هذا الهدف، وتركيز معظم الاهتمام عليه . ووجد ذلك في النفوس هوى فاقبت عليه في اندفاع مبهور الانفاس، خصوصاً وقد ربط هؤلاء بين الأيروس وبين علاقات إنسانية عديدة لا يبدو أن لها بهارتباطاً، مثل علاقات البناء بالأبوة والأمهات، وعلاقات السلطات العليا الرئيسة مع السلطات الأدنى المروّسة، الخ . . واستعانوا على ذلك بجهاز من الرموز والتاويل الرمزي المفرط في القلو، جهاز فاق بالآفات المرات أجهزة التاويل الباطن التي برع فيها الباطنية من بين المذاهب الإسلامية (٧) . ووجد عامة الناس في هذه التفسيرات حلولاً أو مبررات سهلة ممتعة، فاستندوا إليها في تصرفاتهم وتبريراتهم .

لقد ذهب مركزه Marcuse (٤) وهو الشيخ اليّن الذي عقّد له اليوم لواء هذه الحركات رغم أنه قد جاوز السبعين - إلى أن تحرير المجتمع لن يتم إلا بتحرير هذا « الأيروس » Eros وتحقيق كل نواذعه دون حدود ولا قيود. وزعم بعد ذلك أن هذا التحرير بواسطة « الأيروس » هو في الوقت نفسه تحرير للخيال . ذلك أن ديكرات وكنت Kant ومن سار في أثرهما رأوا في الخيال أنه العقل بوصفه متوجهاً نحو الجسم، وأنه الرابطة بين المحسوس والمقول، فافاد مركزه من هذه الفكرة من أجل تشخيص وعلاج مجتمعه المتحرر هذا، فقال أن الحساسية ينبغي أن تنقاد للخيال بدلاً من انقياده لسيطرة العقل « الزائفة »، إذ سيتولى الخيال التوسط بين المكات العقلية والحاجات الحسية . و « بالأيروس » يحقق الإنسان أخيراً وجوداً مستريحاً يشيع فيه السلام (une existence pacifiée)

وهذا التحرير الكلي للإنسان لا تستطيع تحقيقه الطبقة العاملة، لأنها صارت مندمجة في الرأسمالية، شيئاً فشيئاً، بل سيقوم به الثأرون الجدد وهم كل المضطهدين في العالم وكل المحرومين

(٣) داجع نشرتنا كتاب الزاوي : « فصالح الباطنية »

(٤) داجع أحاديثه مع فرانسويرو

Francois Perroux interroge Marcuse ... qui répond, Aubier éditeur, Paris 1969.

وناجع عنه مقالاً في جريدة « لوموند » بتاريخ ١٢ نوفمبر سنة ١٩٦٩ بقلم جان لacroix.

والمهاتمين والمستضعفين في الأرض ثم التلاميذ الذين ينحدرون من الطبقات الوسطى - هكذا يرى مركزوه !

ومن عجب ان بعض هؤلاء - وهم بعض الطلاب في إيطاليا في عام ١٩٦٨ - دعوا شيخهم هذا الى لقاء ، فكان المهزوم فيه هو مركزوه نفسه ، لقد ضجوا وصاحوا فيه حتى منعه من التفوه بكلمة ! وهكذا كان أول ضحايا دموقه . . . !

وكان من مظاهر هذه الدعوة الى التحرر بواسطة « الإيروس » الاتجاه نحو التجرد البدني او التعري: وقد بدأ خفياً في المسارح الاستعراضية ثم أصبح رقياً ضرورياً فيما عرف باسم الاستريپيز . (Striptase) أي خلع العارضة « الفنانة » للابسها الداخلية قطعة قطعة في محاولة لثير الأفراد حتى تصبح كما كانت امهاواء قبل الخطيئة الاولى ، ولكن في الظلام . . وإذا به اليوم يخطو الخطوة النهائية في مسارح برودواي في نيويورك ، إذ صار ثم روايات مسرحية يكون فيها الممثلون والممثلات عرايا تماماً لا يستراحياتهم أي شيء اطلاقاً ، ومن الامثلة على ذلك روايات : « الإيروس اللذيل » و « السيد الشاب دانتى واخيراً » أي كلكتا « O'calutta » التي بلغت القمة في التعري والفجور معا ، ولا يهدف اصحاب هذه الروايات لمجرد الانارة الجنسية ، بل وراء ذلك هدف سياسي هو رفض المجتمع ، ورفض المدنية الصناعية الآلية ، والرغبة في التحرر من ارقاع مجتمع الاستهلاك ، والا فان التعري في ذاته أمر يعود الناس عليه في الأقاليم الاستوائية في أفريقيا وآسيا وأستراليا وأمريكا الوسطى ، ولا يرتبط بأي معنى من معاني التعرد او الآباء او الرفض ، وكل شيء إنما يقاس بالبيئة التي يجري فيها ، ولكن الذين يلجأون الى هذا التعري في مسارح برودواي إنما يقصدون أن يكون ذلك مجرد وسيلة للإعلان من سطهم على المجتمع الصناعي ، أو مجتمع الاستهلاك ، فالقصد اذن هو مجرد إثارة الانتباه الى أمد ما يوسيلة من الوسائل الخارجية عن المؤلف .

وتم ظاهرة أخرى لسنا ندرى هل نربطها بهذه الدعوة الى التحرر بواسطة « الإيروس » أو بأمر أخطر منها وهو التحرر من السلطة المنظمة hiérarchie ، ونعني بها الثورة العارمة التي شبت في الكنيسة بعامه ، والكنيسة الكاثوليكية بخاصة منذ خمس سنوات ولا يزيد مع الأيام إلا عنفاً ، وكان الاكليروس الهولندي الكاثوليكي هو الطليعة الجسور لهذه الحركة ، والجانب الذي يربطها بدعوة التحرر بواسطة « الإيروس » هو ان مطالبها الرئيسية السماح لرجال الدين بالزواج ، والا يقتصر ذلك على المراتب الدنيا (الشمس والقسيس) بل يمتد الى الاسقف والمطران ، ومن يدري ربما البابا كذلك ! لا وقد عقد الاكليروس الهولندي في شهر يناير سنة ١٩٧٠ مجيماً رعوياً كان من أهم مقرراته السماح للقسيس بالزواج (وهو أمر محتمل فقط ، ولكنه مكروه ، في الكنائس الشرقية) ، ثم التقليل من شأن السلطة البابوية والاسقفية ، ورفض كثير من الحقوق التي يديها البابا لنفسه فيما يتعلق بسلطته في الفتوى والتشريع واصدار القرارات الملزمة لرجال الدين .

واتخذت هذه الثورة طابعاً لاهوتياً اوضح عند المساوسة الايمان ، والمانيا منذ عهد باؤر (Bauer) ومدرسة توبنجن ويوهان فريدرش اشتراوس عريقة التقاليد في نقد النصوص المسيحية القدسة ، وفي انكار كثير من العقائد التي تعد أساسية في الكاثوليكية بل والمسيحية بعامه ، ولكنها بلغت درجة خطيرة جداً في السنوات الخمس الماضية حتى كادت ان تأتي على كل مقدسات الكنيسة العقائدية والكتابية !.

وعبأ ضاعمت المحاولة الجبارة التي قام بها كارل بارت Karl Barth لوضع ما عرف باسم «لاهوت الأزمة» أو «اللاهوت الديالكتيكي» لقد أصدر في سنة ١٩١٩ شرحا على رسالة القديس بولس إلى أهل روما، كان له صيغ حائل في الأوساط البروتستانتية الألمانية، وأثار مجادلات عنيفة بقيت أصداؤها تتردد حتى عهد قريب جدا، لقد أراد بارت أن ينقذ المسيحية من الوضع الذي أوصلها إليه اشليز مآخرا (Schleiermacher) بدعواه إلى «دين العاطفة». لهذا قرر أولاً وجوب المحافظة على الفارق اللامتناهي بين المخلوق والمخلوق، بين العبد والرب، فقال أنه ليس ثم بين الإنسان والله انتقال ديالكتيكي، بل طفرة كيفية، على حد تعبير كركجور أبي الوجودية الذي تأثر به بارت كثيرا، أن الفرد في حضرة الله وحيد، خاطيء، في علاقة سلب، ومقولة الخطيئة هي التي تميز فردانيته، ولا يمكن ملء الهوة التي بين الإنسان وبين الله إلا بالطفء الإلهي، والطفء أمر خارق، معجزة، وليس فعلا من أفعال المعرفة، والسلب ينطوي على الإيجاب، والوجود في نفس الوقت مرض قاتل وهو حياة: فسلبيّة الخطيئة.. إذا انكسر اللفظ الإلهي ارتفع الإنسان إلى الإيجاب المتنجي. أن الله هو الله، والإنسان هو الإنسان، والإنسان ليس هو الله، أي أنه إنسان بقدر ما هو ليس الله، فوجود الله هو لا وجود الإنسان، ووجود الإنسان هو لا - وجود الله، وهو الله مطلق، أصيل، لا يحتمل أي مقارنة بينه وبين الإنسان، وأذن فبارت قريب الشبه من تصور المعتزلة المسلمين لله وصفاته.

ولهذا هاجم بارت كل دعوة إلى تقريب المسافة بين العبد والرب، وبالجمل كل محاولات الصوفية للآتس والقرب والوصل وسائر المقامات في الطريق إلى الله، وحتى أعمال العبد لا قيمة لها عند الرب.. فانها أمام الله ليست صالحة ولا خالصة، بل الله هو الذي يعطيها الأسماء والأحكام حسب ما يريد، ووفقا لتدبيراته التي لا ينفذ إلى سرها أحد، وفي هذا يختلف تمام الاختلاف عن المعتزلة المسلمين، ويقترب من أين حنبل والأشاعرة وأهل السنة بعمامة، أمضى القائلين بالتفويض التام، وقد بالغ كارل بارت في هذا التفويض إلى درجة أن قال إن حكم الله «يمكن أن يكون نفي» (القديس فرنسيسكو الأسيزي وبربر أو المغفرة لتشيزارى بورجيا) الفاسق الأكبر عند الناس؟ ويمكن أن يحول كل «نعم» إنساني إلى «لا»، وكل «لا» إلى «نعم». ويستوي لديه أن تدخل الجنة أو ندخل النار.. والقديسون وهم يناضلون في سبيل الله يناضلون ضد الله.. والرجل التدين هو خاطيء بما هو كذلك، والدين هو موه أمام الله، والإيمان يأتي من الله نفسه.. إن الإنسان يعرف الله لأن الله يعرفه، ولن يبحث عن الله أن لم يكن قد وجده من قبل، فالإيمان إذن هبة كونية منحة من «لنكن الله، فضل» إلهي محض».

ولكن لا هوت بارت عفى عليه قبل وفاة بارت منذ عامين، إذن امتد الهجوم إلى دعائم الإيمان الديني المسيحي نفسه، وراح رجال الدين هم أنفسهم يتساءلون عن مدى الصدق التاريخي في الأحداث الكبرى في نشأة المسيحية، والصدق العقلي للعقائد الرئيسية، حتى عصفت بعقائد أساسية مثل: التجسيد، والحتم بلاديس، والقيامة، الخ..

وفي الولايات المتحدة الأمريكية قامت حركة مناظرة اتسمت وتجاسرت بحيث تجاوزت أحيانا المدى الذي وصلت إليه ثورة رجال الدين في هولندة وألمانيا.

وحتى في أشد البلاد محافظة في أمور العقائد الدينية المسيحية عند رجال الدين، أمضى في إيطاليا وفي فرنسا، قامت حركات، صحيح أنها ليست بمنف ما حدث في هولندة أو ألمانيا، ولكنها على كل حال هزت السلطات الكنسية العليا ودعتها إلى المود على نفسها لتغيير مواقفها، والتكيف مع الحركات السائدة في العالم.

وهذا يقودنا الى الحديث من التمرد على السلطة : سلطة الاب بالنسبة الى الولد ، وسلطة الدولة بالنسبة الى الفرد ، وسلطة الدول الكبرى ازاء الدول الصغرى ، وسلطة الاستاذ بالنسبة الى الطالب ، وسلطة رب العمل بازاء العامل .

والجديد في هذه الألوان من التمرد هو تمرد الابناء على الآباء : سواء كانوا آباءهم بالدم ، او آباءهم بالروح (أى أساتذتهم) .

ولكننا نعلم ما جرى من أحداث عنيفة في مختلف حرمات الجامعات في أمريكا وأوروبا واليابان ، حيث جاوز الأمر أحيانا كل معيار ، وصار الهجران هو الأساس ، والانتظام هو الشاذ والنادر ، وتجلي ذلك الاضطراب خصوصا في سنتي ١٩٦٧ - ١٩٦٨ ، ولكن الموجة انحسرت في النصف الثاني من العام الماضي حتى أوشك المد أن ينحسر كله بعد أن يش أصحابهم أماكن تحقيق شيء إيجابي ملموس ، وبعد أن ملوا هم أنفسهم من عبث مساكنافوا فيه دون أهداف واضحة ولا أغراض مقصودة ، لكن الهزة التي أصابت التعليم العالي من هذا الاضطراب في تلك البلاد لا تزال جروحها لا تدمد ، بل ربما احتاج الأمر الى وقت طويل قبل أن تروى آثاره المدمرة ، على أن هذه الحركات كان مقصدا عليها بالإخفاق منذ البداية ، لسبب واضح جدا وهو أن الطلاب ليسوا عناصر انتاج وليس لهم بالتالى استقلال اقتصادي ، بل هم عيال على الآباء ، لا يستطيعون أن يعيشوا بأنفسهم ، ولا بد للولد الفصال أن يعود الى بيت الوالدين أن أجلا أو عاجلا ، بل هو أضعف - اقتصاديا - من أن يبقى بعيدا عنه أكثر من أيام معدودات !

وتمردهم على آباءهم بالروح - أعني أساتذتهم - هو الآخر لا بد منقضى بعد وقت قصير وإن كانت الحاجة ها هنا أقل الحاحا ، وذلك لافتقارهم الى التحليل العقلي الكافي ، وإلى التجربة في أمور هي بطبيعتها معقدة مثل أمور العلم ، إذ لا يكفي المرء أن يلوذ بعض الشعارات ، وأن يربط باسماء ماو ، ونشي جيفارا ، وكاسترو ، لأن هؤلاء رجال أفعال ، ولا يمكن الاستغناء بهم عن رجال الفكر والعلم والاقتصاد ، وتجربة جامعة فنسنتين Vincennes المخففة اخفاقا شنيعا إصديق دليل على ذلك ! وحتى أشد الاساتذة «الطلائعيين» حماسة لانشائها قد أصبحوا بخيبة أمل مروعة ، كما اعترفوا لي في العام الماضي في باريس . . كان الاستاذ يبدأ المحاضرة في الأدب الفرنسي مثلا في القرن السابع عشر ، فيصيح بعض « الأشداء » : دمننا من راسين ومولير وكورني ، أولئك المعنفين ، وأشرح لنا قصائد ماو تسبه تونج ! فيستجيب الاستاذ وبقرا هذه القصائد في ساعة أو ساعتين - ثم يقول للطلاب : وماذا بعد هذا ؟ والعام طويل ! وكذلك الحال في دروس الفلسفة والتاريخ ، وسائر المواد ، وسرعان ما أدرك الطلاب أنفسهم عقم هذا الذي نادوا به ، وأذعنوا - متبرمين طبعاً - للمحاضرات تتخذ مجراها الطبيعي المعتاد ، وتمرد الطلاب على ما يسمى باسم « المحاضرات التي تلقى من أعلى المنصة » Cours Magistraux وطالبوا بالمناقشات يجربها الاساتذة والطلاب على سواء ، فأفسح الاساتذة للطلاب المجال ونزلوا لهم عن « عروشهم » - فماذا كانت النتيجة ؟ أرتج على الطلاب بعد دقائق قلقة بضاعتهم أن لم يكن انعدامها في المادة موضوع الدرس ، فلم يكن ثم غير واحد من اثنين : أما التوقف ، أو أن يعود الاستاذ الى المحاضرة « من » « علر » كما كان ، وطبعاً انتهى الأمر الى الرضوخ الى الوضع الثاني ، أعني المعتاد !

على أن ثم جانباً آخر في تمرد هؤلاء الشباب على الآباء ، وهو جانب انطلاق الفرائز المكبوتة وعلى رأسها الفريزة الجنسية ، مما يكون مظهر آمن مظاهر حركة التحرير من طريق « الإيروس » التي تحدثنا عنها من قبل ، ولا داعي للعود اليها . وإنما نشير فقط الى أنه فيما يتعلق بالشباب

ارتبطت هذه الحركة أحيانا بظاهرتين خطيرتين أكثر شيوعا في الشباب وهما : تعاطي المخدرات، وارتكاب الجرائم الدامية، واستقراء أسباب هاتين الظاهرتين مما يخرج عن نطاق هذا المقال .

ولقد أثرت بمناسبة ترمد الشباب هذا وحركة التحرر بواسطة « الأيروس » مشكلة ما أصبح يطلق عليه اسم « مجتمع الترخص » *Permissive Society* ، نعتا للمجتمع الأمريكي والأوروبي الحالي ، ويعنون به المجتمع الذي يرخص لابنائه بكل شيء ، ويزيل عنهم كل ألوان القيود والحرمات وعوامل الكبت التي فرضت على المجتمع منذ آلاف السنين ، وراح البعض يستدل من قيام « مجتمع الترخص » هذا على مصر الحضارة الأوروبية ، ويقارنها بما وقع للحضارات الكبرى في فترات انحلالها من إقبال على « الأيروس » واكتفاء بالخمر والألعاب *panem et circenses* وإقبال على الشهوات العنيفة والمخدرات والتهاويل والمخاريق ، بدلا من المذاهب العقلية والأفكار المنطقية ، وإنجاز الأعمال البطولية التي تعتمد على التقشف والفداء ، فأثرت من جديد المشكلة التي أثارها شبنجلر *Spengler* في سنة ١٩١٨ وسنة ١٩٢٢ في كتابه « انحلال الغرب » (١) .

وأيدت التيارات الجديدة والأحداث الجديدة ديموي شبنجلر . فالوجودية ترى الوجود أسيان ، يكتنفه الغم من كل نواحيه ، وترى في الإنسان موجودا منسلما إلى ذاته ، محصورا - وهو الحر الأكبر - في نطاق موافق حدية تأخذ بتلابيب حريته ، مترنحا بين الامكانات المتجاذبة المتعارضة التي لا مناص له من الاختيار الحر بينها ، محاطا بالامعقول في أفعاله وحركاته ، مهجن السذات بالادوات في عالم من الادوات ، والوضعية الجديدة ترد كل معرفة إلى شكيكية لقوية ، فتفرغ المضمون من مدلوله ، وترده إلى مجرد شكل لفظي أومن هنا وجدنا طوقانا من الأبحاث اللسانية واللغوية يكتسح العالم في السنوات الخمس الأخيرة، خصوصا بتأثير البنيوية *structuralisme* الضاربة أطنابها في الدراسات اللغوية في فرنسا وأمريكا بخاصة .

أما الأحداث الجديدة فاهمها القنبلة الذرية التي أحدثت ثورة هائلة في أدوات تدمير الإنسان لنفسه ، مما أطلق صيحات الفلاسفة والمفكرين من كل اتجاه : من كارل ياسرز ، الوجودي (٢) حتى برترند رسل الواقعي المحدث (٣) وحتى اللاهوتيين المسيحيين مثل هـ . ثيليكية *H. Thielicke* (٤) ، وبيكار *M. Picard* (٥) ، وأخيرا د. دوبارل *D. Dubarle* (٦) . وكل هذه الأبحاث تدل على مدى الرعب الذي انتاب الإنسان مما ينتظره بواسطة آلات الدمار الشامل التي اخترعها ليقضى بها على نفسه بنفسه . ولم يعد الأمر مجرد تشاؤم هام به شبنجلر ، أو مزاج سوداوي انتاب بعض النفوس المريضة فاشاحت بوجهها من الحياة وانتكفت على الموت تستعذب التأمل فيه ، مثلما أخذ على هيلجر في اهتمامه بالموت، وكما أوضحناه تفصيلا في رسالتنا « مشكلة الموت » (بالفرنسية ، القاهرة سنة ١٩٦٥) .

(٥) ولقد عرضنا لذلك تفصيلا في كتابنا « شبنجلر » (الطبعة الأولى سنة ١٩٤١ ، القاهرة) .

(٦) في كتابه « القنبلة الذرية ومستقبل الإنسان ، منشئ سنة ١٩٥٨ ، ولقد حطناه تفصيلا (راجع مجلة « حوار » العدد الأول) .

(٧) في بحثه بعنوان « العصر المم والحرب النووية » (نوفمبر سنة ١٩٥٩) .

(٨) في كتابه « القنبلة الذرية كصالة عن الأخلاق المسيحية » (نوفمبر سنة ١٩٥٨) .

(٩) في مقال بعنوان « النظرية الشخصية » (أي جعلها مثل الذرة - مقال في مجلة *Universitas* سنة ١٩٥٨ ص ٣٦٧ - ٣٧٠) .

(١٠) في كتابه بعنوان « الحضارة والذرة » (باريس سنة ١٩٦٢) .

ويتلوهما في الأهمية تقدم المواصلات الجوية والأسلكية بحيث صار العالم وحدة واحدة لا يحدث حادث في أى ركن منزلة من أركانه حتى يحس به سائر الدول ويتخذ منه موقفاً ، فما من انقلاب يحدث في دولة حتى تعلم به سائر الدول في الحال ، وتتخذ بأزمائه موقفاً مستعداً من اعتبارات خاصة بها ، وما من تقدم علمي يجري في بلد حتى يشارك في الاستفادة منه سائر الدول ، مهما احيط بالسرية التامة المزعومة ، وما من اضطهاد يقع على شعب أو حزب أو جماعة أو فرد حتى يشارك فيه الجميع ، ومن هنا صارت المسؤولية على مستوى الكرة الأرضية ، ولم يعد في استطاعة أحد أن يقف ذلك الموقف الذي وقفه صاحب الفندك في رواية « هرمن ودوروييه » لجيتيه وهو عدم الاكتراث للحروب التي تجري خارج حدود الوطن ، ثم ان المسؤولية لم تعد مسؤولية حكومات ، بل امتدت فشملت الشعوب نفسها ، وفي التحليل الرابع الذى كتبه كارل إسبرز Jaspers من « مسؤولية الألمان » عن الحرب العالمية الثانية وما سبقها من مقدمات كشف عن هذه المسؤولية التي على عامة الشعب أزام ما يصدر من زعمائه من قرارات وأفعال .

فمن رأى إسبرز (١١) أن هذه المسؤولية قائمة ، لا يشفع في تخفيفها أن يقال أن الكل مدنيون لأن الشر كامن في نفوس الناس جميعاً . « انه سيكون تهريباً واعتذاراً زائفاً من جانبنا نحن الألمان إذا شئنا أن نخفف من مسؤوليتنا بأن نحيل إلى حال الإنسان بوجه عام ، فمثل هذه الفكرة لا تجعل ذنبنا أخف ، بل هي تزيد من تعميقه ، ومشكلة الخطيئة الأصلية ينبغي أن نستغلها للتهرب من مسؤوليتنا الألمانية » .

ثم انه صار من العسير جداً ، أن لم يكن من المستحيل ، اخفاء الحقائق عن الناس ، فقد اقتضحت الوسائل الأسلكية كل الجدران والعاوئل ودخلت إلى أعماق المخادع ، وتطوع بإذاعة الحقائق كثيرون ، بحيث عادت عبارة الأسرار وهماً من الأوهام ، كل ما هتاك أن افشاءها قد يأخذ بعض الوقت ، ولكنه من المحتوم عليها أن تغشى في أمد قصير بحيث تحدث كل آثارها ، خصوصاً وأن استخدام الأقمار الصناعية ، وطائرات الاستكشاف الدائمة الدوران ، كل ذلك قد جعل أن لا حرمة لشيء اليوم !

على أن لهذا الأمر وجهه العكسي : صحيح انه قضى على السرية والانفراد بالمستضعفين ، ولكنه في الوقت نفسه أعطى لمن يملكه ويتقنه أداة لا يمكن أى فرد ولا جماعة الدفاع من نفسه بأزمائه ، والا فماذا يفعل فرد أو جماعة محدودة أمام أجهزة اعلام هائلة التنظيم ترهقه كل يوم بتوجيهات في خط معلوم ؟! ثم أن ملكية هذه الأجهزة لا ينهض بها إلا الحكومات القوية أو جامعات الضغط الكبرى - وأمام هؤلاء وأولئك ما أشد أمرلية الفرد ؟!

★ ★ ★

ومن الخير هنا أن نعرض بعض مواقف المفكرين المعاصرين من مشكلة الصنامة الفنية (التكنيك) .

ونعرض بوجه خاص لما يقوله نيقولا أينيأتو « المولود في يوليو سنة ١٩٠١ ، وهو استاذ في

(١١) راجع «مسألة الذنب» ص ١٨٤ - ١٨٥ من الترجمة الفرنسية Karl Jaspers : Die Schuldfrage, tr. franc., Paris, 1948.

كلية الآداب بجامعة تورينو في شمال إيطاليا يرى إيتيانو في بحث له عن « مفارقات الصنامة الفنية » (١٧) أن التعارض بين الإنسان والتكنيك هو الموضوع المفضل عند أصحاب النزعات إلى التنبؤ وتحديد مصير العالم في العصر الحاضر . فقولو أشهر التشخيصات لما يسمى بالآزمة الحالية ، والتنشؤ بالانحلال وبموت المدينة الميكانيكية الغربية ، والمدافعون عن الروحية الخالصة - كلهم متفقون على عد الآلة هي الداء الذي يهدد الإنسان واعتبارها السبب المباشر أو غير المباشر لانحلاله الروحي - فالعالم الذي تسوده الماكينة عالم بلا روح ، مشيع للانحطاط ، وللموت ، هو عالم فيه اتخذ الكم نهائيا مكانة الكيف ، وفيه توفير قيم الروح قد استبدل به توفير قيم الآلات والمنافع .

« أن التقدم التكنيكي وفر للإنسان اليسر والسهولة ، لكنه صرفه عن اعتبار الحياة الروحية ، وبهذا سلبه الميزة الحقيقية الوحيدة التي يمكنه أن يستخلصها من اليسر والسهولة .. ألا وهي أن يستطيع تكريس نفسه لتربية ذاته على نحو أفضل ، ذلك أن الآلة تدخل في العمل نظاما رتيباً ينعكس أثره الضار على حياة العامل بأسرها مما يدفعه إلى البحث عن وسائل منقطة للهرب ، أن التكنيك قد بدد العمل إلى اشتات من العمليات الريبية التي تتكرر كما هي باستمرار ، وتولد الملل والارهاق .. »

« والتكنيك قد سلب العامل لذة رؤية العمل الذي قام به وقد تم على يديه ، وسلب عمله الحرية والمبادأة اللتين ينعم بهما صاحب الحرفة artisan والفلاح ، ولهذا يبدو أن التكنيك ينحل إلى انكار للشخصية الإنسانية والفردانية ، وهو يقتضي عملا من نمط واحد ، يكفى للوفاء به تنظيم سلبى لا يعيىء السبيل إلى النمو وتوكيدات الفردية ، والتكنيك يشيع الانحطاط ؛ لأن الأعمال التي يقتضيها هي بحيث يمكن أن يحل محله فيها غيره على سواء . وبهذا يفقد العمل كل طابع شخصي . »

« ومن الناحية الفنية أيضا يبدو التكنيك على أنه من فعل عقل يدعى لنفسه القدرة على تقدير كل شيء وترتيبه مقدما وعلى نحو تجريدي ، ويرد الحياة ، وليس فقط العمل ، إلى رتوب يستبعد كل جيد وكل مفاجأة ، ويستبدل بتلقائية الحياة الفعل الرتيب للجهاز الآلي ، وأخيرا فإن التكنيك يوجه الإنسان نحو كل ما هو كم ، وكتلة ، وامتداد ، وبهذا يربطه بتخارج المادة ، ويتركز في هذا التخارج extériorité كل طاقاته ، مانعا إياه من التأمل في ذاته ومن الاستجابة إلى دعوة أو غسطين إلى التأمل في داخل الذات ، ولهذا السبب فإنه بالتوجيه الذي يطبع به الحياة الإنسانية فإنه مضاد مباشرة للبعد الذي تقوم عليه الروحية ، التي هي طبيعة الإنسان الحق . »

فبماذا يشير الشخصون لهذه الحالة ؟ أما العودة إلى الطبيعة ، مفهومة بمعنى العودة إلى الزرامة الحرة والحرف الصغيرة - فامر خيالي وهوى ، خصوصا ونحن نعلم أن التنظيم

N. Abbagnano : (IL Paradosso della Tecnica), in Filosofia, Religione, Scienza, (١٢)
PP. 147-156. Torino, 1967.

الصناعي الحديث انما هو منبثق من الحرف الصغيرة ، كما ان مثل هذه العودة تجعل الحياة على مستوى الجماهير الاجتماعية مستحيلة او ترددها الى مستوى في غاية الانحطاط .

لكن الحجج التى يدلى بها المدافعون عن التكنيك ضعيفة هى الأخرى ، أو على الأقل لا تحل المشكلة التى نحن بصدددها وهى مشكلة العلاقة بين التكنيك والانسان بوصفه عقلاً ، اذ لا شك فى ان التكنيك يقلل من التعبد المادى عند العامل ، وانه شرط لا غنى عنه للرفاهية الاجتماعية ، وانه ينظم العمل ويخضعه لضوابط ثابتة - كل هذه مزايا لا يمارى فيها انسان ، لكنها لا تتعلق بالمشكلة الأصلية وهى كيف ينهض الانسان بنفسه عقلياً ؟ ان التكنيك يضع الانسان فى منحرجة وامسام مفارقة paradoxo : ذلك ان الانسان اخترع الآلات للوفاء بحاجاته ، لكن يبدو ان هذه الآلات اسكتت بتلاييب هذا الانسان ، وتمردت عليه وصارت سيده بعد ان كانت عبده ، واداة اخضاع بعد ان قصده منها ان تكون اداة تحقيق لسيطرته على المادة . لقد كانت الآلة وسيلة ، فصارت غاية ، ولما صارت غاية اخفت أو أبطلت الغاية الحقيقية التى كان عليها ان تخدمها ، وهكذا وقع الانسان فى دور قاسد .

فما الحل ؟ لا يريد اينيانو ان ينساق وراء الدعاوى المريضة الى اطراح التكنيك ، بل يتخذ موقفاً ايجابياً قوياً ، فىرى ان العلاقة بين الانسان والتكنيك (الآلة) لا يمكن ان تحل لصالح الانسان اذا استنكر الانسان التكنيك . فلو اعمل الانسان البحث عن ادواته الاشياء ، والانتفاع بالآلات فى تحصيل الحاجات ، فانه بهذا لا يلقى علاقته مع العالم ، بل يسيء فهم هذه العلاقة ، ويصير عبداً لها لانه صار عاجزاً عن اشباع حاجاته ، حتى ابسطها . « ولهذا فان الموقف الوحيد البديل لهذا هو ان يقبل وان يحقق - الى اقصى مدى - علاقته مع العالم ، وان يدفع بشجاعة الى الامام ، بقدر المستطاع ، البحث العلمى والتنظيم التكنيكي لعمله ، وربما كانت كل الشرور المشار اليها ناشئة ، لا من التكنيك ، بل من عدم أو قلة القبول للتكنيك ، ولهذا فان الدواء الوحيد الفعال يقوم فى القبول الجذرى الواضح التام لكل ما هو تكنيكي بما هو عليه وبما ينبئ ان يكون عليه ، وفى هذه الحال ، لن يتم اصلاح التكنيك الا بالتكنيك نفسه ، وعدم انسانية التكنيك ناشيء فقط من كونه ليس بعد تكتيكا بدرجة كافية ، وانه لم يتحقق بعد بوصفه كذلك ، وهذا التحقيق الناقص ناشيء بدوره من جبن الانسان وهربه امام التكنيك ، وعن الخوف الذى ينتاب الانسان فى مواجهته . »

ويتضح هذا من التأمل فى الامتراضات الموجهة على التكنيك ، انه يؤخذ عليه انه يشتت العمل الى اجزاء صغيرة مما يتولد عنه اللال والرتوب والامامة للمباداة الشخصية ، لكن الواقع ان هذه مرحلة ناقصة للتنظيم التكنيكي للعمل ، وكلما نما التكنيك وتطور واكمل ، اى كلما صار تكتيكا حقاً ، تصير مهمات العمل اشد تعقيداً وصعوبة ، والمآكينة المعقدة تتطلب عقلاً واهياً يقظاً نشيطاً للحكم والإدارة والضبط والمباداة ، وعدد الفنيين والعمال المؤهلين المتخصصين يتزايد فى المصانع المجهزة تكتيكيًا ، واستعمال اليد لا يزول ولكنه يصير خارج التكنيك ، والتكنيك يستغل كل المواهب ويمكن من الافادة منها وبهذا ييسر لكل انسان ان يتولى من الاعمال ما هو ميسر له ، ويشجع على التنوع والتفاضل فى الاعمال وفى الناس العاملين على السواء ، وبهذا يتحقق نظام تربى من المهمات والوظائف يوكل التوجيه فيها والادارة الى العقل والارادة القوية ، وهذا التنوع والتفاضل

في المهام يستبعدان الانحطاط والآلية والرتوب، والتعقيد المتواصل الذي يحدثه التكنيك من شأنه ان يغضى على اللال، وفضلا عن ذلك فان التكنيك مزود بمرونة وقدرة على التكيف هائلتين : فكل تعبير في احوال الانتاج ، وكل تقدم في الآلات ، يحدد تشكيلا جديدا للتنظيم التكنيكي بأسره ، وكل هذا يشهد التحجر والرتوب واللال .

كذلك يقيم التكنيك علاقة تضامن من فعلية بين العاملين ، لان تقسيم العمل يفترض وحدة الجهود وتضامنها ، ومن هنا فان من شأن التكنيك ان يساعد على ادراك المرء انه لا يستطيع ان يستقل بنفسه عن الآخرين، ويجعله على وعي تام بمسؤوليته قبال الآخرين .

لكن لا بد - حتى يتحقق هذا - الا ينتظر الى التكنيك على انه امر عقلي خالص ، لان القول او توكيد الطابع العقلي او المجرد النظري للتكنيك معناه ان ينظر الى ما هو مرحلة انتقالية مؤقتة نافصة على انه مرحلة كاملة ونهائية ، ومعناه الا ينظر في التكنيك الا الى الماكينة .. الماكينة البسيطة التي ترد فيها وظيفة الانسان الى مجرد محرك لرافعة او ضاغط على زر . .

لكن التكنيك ليس هو الماكينة ، بل الابتكار والاستكمال الواعي لماكينات بتزايد تعقيدها وتحتاج الى مزيد من المادة الفردية والتضامن بين المهام ، والتكنيك يولج الماكينة في شمول التنظيم الانساني ، الذي لا يمكن الهيمنة عليه او تدميته الا على اساس موقف انساني حقا ، وبالتالي روي . « ان التكنيك يقتضى كشرط اولي واساسي له : فهم التكنيك ، وفهم التكنيك هو الانسان في موقفه الاساسي » .

وهذا الفهم والقبول للتكنيك يفترض تحقق شروط : اولها ان يتخلى الانسان عن الدعوى الوهمية التي تزعم ان الانسان يمكن ان يتحقق ، بوصفه روحية ، بغض النظر عن كل علاقة مع العالم ، او بالانطواء على ذاته داخل الشعور . « ان الروحية الحققة فعالة ، ومحقة ، ولهذا فانها لا تزدري العالم ولا تخرجه ، بل تفتح عليه، وتعرفه وتعترف به بوصفه طرفا في علاقة جوهرية بالنسبة اليه وانه انما يتحقق حقا في اطار هذه العلاقة . ولا شيء اشد مضادة للانسانية الحققة للانسان من التعارض بين الخارج والداخل ، الظاهر والباطن، ولا شيء اكثر بطلانا من المتخرجة التي تضع الانسان في مواجهة هذا التعارض . ان الانسان جزء من العالم ، ولا يمكن ان يتجاهل طبيعته النهائية هذه دون ان يخضع نفسه يوهم الامتناهي الزائف » (ص ١٥٤) .

وبهذا الدفاع الحار عن التكنيك ، ودوره في تمكين الانسان من تحقيق ذاته ، لان الانسان موجود - في العالم - بالضرورة يختم ابنيا توحيته المتع هذا ، والذي فيه يعبر خير تعبير عن موقف الوجوديين من مشكلة العلاقة بين الانسان والتكنيك ، فالوجودية كما نعلم تقوم على تحقيق الممكنات ، وعلى ضرورة تقرير ان الانسان - في العالم - ، وان هذا العالم عالم ادوات ، فمن الطبيعي اذن ان نتحمس للدفاع عن التكنيك ، لانه كفيل بتحقيق هذا كله على ايسر نحو ، وان لم يكن كافيا ، ان التكنيك شرط اساسي لتحقيق الدات الوجودية الحققة ، ولكنه شرط فحسب .

هذا من مشكلة العلاقة بين الانسان والآلة :

وأما عما دعا اليه « كوزه » من التحريرو بواسطة الأيروس فقد رأى برو Perroux في كتابه المذكور أننا « أنه وإن صح التشخيص الذي وضعه مركزه ، فإن النتيجة غير ما يهدف اليه : أنه يهدف الى الثورة ، ولكن دموته لن تؤدي في الواقع الا الى التخريب ، ذلك ان اساس فكرة مركزه اساس واه ، لان فكرة «الحياة المشبعة» و « الوجود الناعم بالسلام » هي فكرة تتناقى مع طبيعة الانسان ، فالايروس غليان غامض لقوى معقدة ، لا يمكن ان تشبه بخلق الجمال . والانسان الشهواني الحسى انسان مبتور ، وتاريخ الانسانية كله يدلنا على ان الانسان سعى دائما الى الحكم على الايروس ووضع الضوابط « واخضاعه للقول العقلى » . والانسان صراع داخلى وتمزق مستمر بين سيدين صارمين هما «الايروس» و«الوغوس» او « الشهوة » و « العقل » . وآفة تفكير مركزه انه يفترض نوعا من البراءة الاولى في اصل الانسان ، بالعود اليها ينحل الاشكال ، وهذا تفكير لاهوتى ، رغم انف مركزه ، ومهما ادعى الفصاحة الذهنية ، وان تكون نجاة الانسان بالعودة الى البداية ، بل بالسعى قداماً نحو تفاضل اوفر ، وذلك بالعلاء على نفسه باستمرار ، وتجاوز المراحل ، وبالجمل : بالسعى الى الانسان الاعلى الذى دعا اليه نيتشه .

وهكذا نرى ان الطريق الذى يتبنى ان يسعى فيه الانسان هو ذلك الذى رسمه نيتشه وسلكه الوجوديون .



الفكر والحضارة

٢- وجهة نظر مؤرخ

خصائص حضارة العصر

نوال الدين محمد حاطوم *

حضارة عصرنا الحاضر سلبية عصور عريقة في القدم ، ولمرة جهود بشرية متضافرة ومتصلة عبر الأجيال ، وحصيله إنتاج أخذ بالتقدم يوما عن يوم . وإذا كان هنالك من نعت تمت به فهي أنها حضارة علمية لا تعرف لها موطنًا خاصًا ، أو بيئة معينة .

لقد جرت بعض السلام القرب على وصف الحضارة الحديثة بالحضارة الأوروبية وبخاصة حضارة أوربة الغربية ، ولكن هذه الحضارة مالمبت أن امتدت عبر المحيط الأطلسي ونمت في أمريكا . وهذا ما دعا آخرين إلى تسميتها بالحضارة الغربية ، لأن أوربة وأمريكا من حضارة واحدة ، وذلك تمييزا لها عن الحضارات الشرقية لأنها تختلف عنها كليًا . ولكننا إذا حللنا هذه الحضارة نفسها وجدناها تنحل إلى عناصر مختلفة كثيرة ، ولا ترجع إلى الحضارة الأفريقية - الرومانية وحدها ، لأن هذه الحضارة الأخيرة نفسها ليست وليدة بيئتها فحسب ، بل أنها تتألف من عناصر حضارات شرقية سبقتها بأزمان بعيدة .

وإذا كان الاعتزاز بهذه الحضارة يدفع بعض الكتاب الغربيين إلى القول بأن هذه الحضارة من صنع الإنسان الأبيض الذي أنشأها ونماها ونشرها في أرجاء كوكبنا الأرضي أداء لرسالته التي حملها وحده دون غيره ، فإن هذا القول يجب أن نعتبره مقبولا في القرن التاسع عشر ، عندما كانت أوربة تتيه بتقدمها وازدهارها الحضاري ، وسبقها التقني الحديث ، وإلى ما هنالك من عوامل تجمعت وساعدت الدول الغربية الكبرى على استعمار القارتين القديمتين : آسيا وأفريقية .

وفي الربع الثاني من القرن العشرين أخذت نفمة الإنسان الآري مبدع الحضارة تقرر الأسماع وتعلو ، وبخاصة في عهد هتلر ، الذي تبني آراء ونظريات بعض العرقيين ، وأحل الإنسان الآري مكانا عليا ، ووصف عرقه بالتفوق وإبداع الحضارة ، وغيره بالتخلف والركود .

*الدكتور نوال الدين محمد حاطوم ، استاذ التاريخ الحديث في جامعة الكويت وليس قسم التاريخ بجامعة دمشق . كان مهيئا لكلية الآداب بجامعة دمشق . له مؤلفات كثيرة في التاريخ الحديث وتاريخ الحركات القومية . يقوم الآن بنشر الموسوعة التاريخية الحديثة .

ولو بحثنا عن الأسباب التي دعت الى هذه المزامم ونشرها لوجدناها ترجع الى الغرور الذي تملك بعض المفكرين بعد أن راوا حكوماتهم تفتح البلاد وتستعمر أهلها وتسخرهم لخدمتها بما يصدرون اليها من مواد أولية وسلع غذائية، وبما يستوردون منها من منتجات مصنوعة ، وأفكار ، وعادات وتقاليد وفلسفات .

ان نظرة فاحصة الى هذه الادعاءات تدلنا بوضوح على تجاهلها الحقيقة التي يجب ان نقال بحق وصدق : وهي انه ما من انسان او عرق معين اختص بإبداع الحضارة دون غيره ، بعد أن اثبتت التحاليل المخبرية فساد النظرية العرقية، ونقاوة الجنس ، ودلت الابحاث العلمية على أن بني البشر كانوا على اتصال وثيق ، مهما كانت طرق المواصلات بطيئة ، منذ اقدم العصور ، واختلطوا بعضهم ببعض ، وأعطى كل واحد منهم الآخر وأخذ منه ، وان الحضارة ليست حكرة خاصة ، بل هي من ابداع البشر جميعا قديما وحديثا والى الأبد . فهي اذن حضارة عالمية ، ومن حق الجنس البشري كله أن يغخر بها ، لأنها حضارته ، لا فرق في ذلك بين انسان ابيض وانسان ملون ، أو بين عرق وآخر (١) . أما أن تكون هذه الحضارة قد نمت وتطورت وتقدمت في بعض البيئات أكثر من غيرها فذلك أمر آخر ، ومرهون بشروط وظروف عديدة ساعدت على هذا النمو والتطور والانتشار .

ولا نكر ، بعد ، أن هنالك حضارات سادت في أقاليم معينة ثم بادت ، وتميز هذه الأقاليم عن غيرها ، كحضارة بلاد ما بين النهرين . والحضارة المصرية القديمة ، ولكن هذا لا يمنع من وجود اتصال حضارى قديم ومستديم بين البشر وأغناء بعضهم بتجاربه بعض . ولكن الحضارة الحديثة تمتاز عن غيرها بأنها عصارة تلك الحضارات التي سبقتها وآلت اليها ، وأنها لا تريد في مصرنا أن تكون مقصورة على بلد بلذاته أو قارة بعينها ، بل أن تعم العالم أجمع بإبداعاتها ومنجزاتها ، وكلما تقدمت طرق المواصلات وتسامرت وجدت سبيلا الى الانتشار ، ولم تبق جزءا من اجزاء كوكبنا الأرضي الا نفلت اليه بوسيلة أو بأخرى ، حتى أنها صعدت الى القمر بغية اخذها رأس جسر لانطلاق جديد نحو العوالم الأخرى . وقد لا يكون هذا اليوم عنا بعيد ، حتى وكان طموح هذه الحضارة لا يقف عند حد ، فلا تلبث أن تحقق كسبا حتى تتبعه بأخر ، لتحقيق ذاتها في عالم الأفلاك واطار الكون .

وهذه الحضارة مطبوعة بطابع التقدم العلمى الحديث والسرعة ، مع ما يلزمه من تقدم في التكنولوجيا . وهذا النمو العظيم والمتوازي لكليهما معا يعطى انسان النصف الثانى من القرن العشرين الإيضاح الشامل الذى ينتظره من التامل في الكون والمادة والحياة مع ما يشارك ذلك من فلسفة فهم هذا الوجود . ومن الملاحظ أن التقدم في ميدان العلوم الرياضية يعتبر حاداً أساسياً ، لأن تأثيرها أصبح واضحاً وقطعياً في مختلف مجالات الفكر البشرى . لقد كثرت النظريات وتعددت بتقدم المعرفة ، وأخذت كل قضية مطروحة أو محلولة تولد بذاتها قضايا كثيرة وأسئلة عديدة ، ولم يعد الواحد منا يأمل ، حيث يعمل ، الا في معرفة عميقة في جزء من اجزاء المعرفة . ولكن الرياضيات تجاوزت ميدانها الخاص واستمرت في تطورها الصاعد منذ آخر القرن التاسع عشر حتى أصبحت لغة مجردة ولغة التعبير عند العلوم الأخرى .

وهذا التقدم العلمى يطعم اليوم ، كما كان يطعم من قبل ، ولكن بشكل افضل ، الى فهم الكون وفهم أسرار وجوده . وفي هذا الميدان تلتقى فروع المعرفة ، وان بدت ظاهراً متباعدة :

(١) راجع « لقاء الحضارات » ، للمؤلف في مجلة الجمعية التاريخية المصرية الجزء الاول للعام ١٩٦٩ .

فالمرايايات والفيزياء والكيمياء وعلم الحياة والطب والجغرافيا وعلم طبقات الارض (الجيولوجيا) ، والرايو الفلكى (علم ملاحظة الكون) والملاحه عبر الكواكب تنتهى كلها الى مفهوم مقبول غالبا لكون لا ينتهى فى الزمان والمكان . ولأول مرة تحققت مكاسب عظيمة ودقيقة فى معرفة مركبات الكون من نجوم ونظام كوكبى .

وفى قضية تركيب المادة بذلت جهود لمعرفة المركبات النهائية لها ، وأثارت البحوث فى هذا الحقل فضائيا هامة وصعبه كقضية الصلة بين بنية الذرة وبنية الكون ، وقضية مبدأ التقييد بقانون الملة والمعلول ، التى تقول بها الامير الفرنسى لوى دو بروى الحائز لجائزه نوبل ١٩٢٩ ، وعدم التقيد للفيزيائى الالماني فرنر هايزنبرغ الحائز لجائزه نوبل أيضا عام ١٩٣٢ . وكلا هذين العالمين يأمل الوصول الى الهدف الأساسى لجميع الأبحاث القائمة حاليا وهو نظرية الساحة الموحدة ، أى معادلة المادة التى بحث بها آينشتاين وتوسع جميع القوانين الفيزيائية . وبتعبير آخر ، ان ظواهر النجوم تتضح بالفيزياء النووية ، وان النظرية العامة للكون ترتبط ارتباطا وثيقا بنظرية التواء الذرة (١) .

وفى معرفة الحياة تم الوصول فى علم الحياة (البيولوجيا) الى اكتشافين هامين : الأول ، هو اكتشاف المضادات للحيويات (انتيبايوتيك) . فقد سبق هذا الاكتشاف الحرب العالمية الثانية بعشرة أعوام عندما رأى الطبيب البريطانى السير الكسندر فلمينغ ، الحائز لجائزه نوبل عام ١٩٤٥ ، أن وجود العفن على سطح الزرع الجرثومى يقاوم نمو هذا الأخير . وفى ١٩٣٩ قامت فئه من باحثي أكسفورد بدراسة منظمة لهذا التأثير وعزلت البنسيلين ، وفتح ذلك الطريق لاكتشاف مضادات أخرى للحيويات ، فى وقت بذلت فيه المعالجة بمركبات السولفاميد تفقد نفاذها بظهور سلالة جرثومية مقاومة لها .

والاكتشاف الثانى ، كان على الصعيد النظرى ، وفى مضمار علم حياة الخلية : ففي عام ١٩٤٥ ظهرت النتائج الجزئية الأولى التى حصل عليها بواسطة الفحص بالمجاهرة الالكترونية وتشرح الخلايا والكائنات الحية الصغيرة تحت المجاهر وكيمياء الخلية ، وأظهرت مقارنة التجارب قيمة الحوامض النووية والدور الذى تلعبه فى حياة الخلية ، لأن هذه العناصر تعتبر مسؤولة عن النشاطين المميزين للمادة الحية وهما : **التمثيل** أى القدرة على صنع مادة مماثلة تماما لمادتها الخاصة ، و **التكاثر** أى الاستعداد لبناء خلايا جديدة . وهذه الأبحاث ما زالت نظرية ، ولكن من الممكن القول بأنها ستنقل فى المستقبل القريب من نطاق النظر الى نطاق التطبيق وتدخل فى علم الوراثة ودراسة الأورام الخبيثة (السرطان) .

ولعبت الكيمياء دورها الحديث ، فقد استطاعت بإمكاناتها التركيبية الجديدة أن تشكل أجساما عديدة لا تقف عند حصر ، وحققت ما حلم به السيميائيون فى العصور الوسطى ، وجهرت بمنتجاتها وسائل الانتاج لجميع الفاعليات البشرية ودخلت فى مختلف درجات حياتنا اليومية وفى صناعة المنسوجات كمنو ، وفى أعداد الأصباغ والألوان والصناعات التجهيزية والتجهيز بالواد الأولية والضرورية للزراعة وفى ميدان المستحضرات الصيدلانية والغذائية والمنشطات الجسدية . وليس بعيدا فى المستقبل أن يستغنى إنسان العصر الحاضر عن الأكل والأطعمة بشكلها الطبيعى المعروف والمكلف والمضيق للوقت ، ويكتفى ببضع حبيبات تغذيه وتدفع عنه ألم الجوع ، وتغنيه عن

المطابخ والطوبى وما إليها من أدوات الطعام، وتجعل منه إنسانا نحيلًا وأكثر روحانية، وأقل تعرضًا للأمراض، وأعظم مناعة.

وهكذا يبدو أن التقدم العلمى الصاعق صفة مميزة لحضارتنا الحديثة. أما أن يقال أن العلماء يستطيعون أن يجيبوا عن كل شيء اليوم أو في مستقبل قريب أو بعيد، فذلك قضية خاطئة، ولا يمكن طرحها على العلماء لأنها تنفرهم، وهم أعلم من غيرهم في الحقل العلمى وملابساته. ولكن المهم هو أن الدراسات العلمية المختلفة التي حققت مكاسبها أصبحت تؤلف عدة كبرى وأجهزة عظيمة في فتح المجهول، وأن العلماء يؤلفون اليوم جبهة سلمية في معركة العلم لتلقى فيها أنواع الدراسات وتعاون معا في تقدمها (١).

وصفة أخرى لحضارتنا الحديثة: هي أنها مطبوعة أيضا بطابع التقنية، وهذه نتيجة من نتائج الثورة الصناعية الدائمة والتطورة. وقدم عرف تاريخ البشرية ثورات صناعية ثلاثا: كانت الأولى عندما اخترع الإنسان القديم الأداة وسخرها لأغراضه وحاجاته اليومية الطارئة. ولكن هذه الأداة كانت بطيئة الإنتاج، ولا يؤمن كل ما يطلب منها، لأن التقنية تموزها، وهذا الفقر في التقنية كان عاملا من جملة العوامل التي دفعت إلى الرق لاستغلال الحقول والناجم في أمريكا عقب الاكتشافات الجغرافية الكبرى، هذا فضلا عن أن الرقيق لا يحسن استخدام الآلة وأكثر من ذلك أنه غير قادر على العناية بها وصيانتها (٢). ومهما يكن فإن هذه الأداة المستعملة على بساطتها كانت في حينها تعتبر تقدما محسوسا وكسبا صناعيا وتقنيا.

وبدأت الثورة الثانية منذ استخدم الإنسان الآلة البخارية والفرن العالي في أواخر القرن الثامن عشر، ونشأت عن هذا الاختراع علاقات اقتصادية واجتماعية، وتعميت هذه العلاقات تبعًا للتقنيات التي نشأت من هذه الثورة. ولا مربة في أن إدخال الفحم الحجري والآلة البخارية والحديد والنقل بالرياح والخطوط الحديدية قد قلب العلاقات الاجتماعية، وولد المجمعات الصناعية وساعد على تحرير الرق، لأن تقدم التقنية دعا إلى الاستغناء عنه وتحريره، ولقد كانت انكسارًا رائدة في هذا الميدان، وهي أولى الدول التي ارتقت عندما التقنية قبل غيرها (٣).

غير أن تسارع التقدم التقنى زاد في التناقضات وتعارض المصالح والمقاومة بين طبقة المنتجين وطبقة العمال في مجتمع منتجين، أى في اقتصاد مجتمع يعمل قبل كل شيء للتجهيز وصنع وسائل الإنتاج. وقد ظهر التناقض جليًا أيضًا بين التقدم التقنى والعمل، لأن العلاقات الاجتماعية أخذت شكلًا جديدًا وهو التضاد بين أقلية منتجة وأكثرية مستهلكة.

ولم تكن هذه الثورة الصناعية ممكنة لولا تقدم الحركة العلمية وتطبيق العلم في ميدان التقنيات التي نشأ عنها نمو صناعات جديدة كاستخراج الناجم والصناعة المعدنية والمعدنية التى تنتج المتباد الصناعى والأشغال العامة والأجهزة الرافعة والصناعة الكيماوية وتجديد الصناعات التقليدية وتجديد الأيدى العاملة في الصناعة ووسائل النقل الحديثة.

ونشأ عن هذا التطور حادثان عظيمان وهما: "ولا"، التزايد السريع في إنتاج المتباد ووسائل

(١) راجع مجلة «Realités» عدد حزيران ١٩٦٢.

(٢) راجع: Henri Van Ier, le Nouvel Age, p.17 Casterman, 1962

(٣) راجع: Otto de Habsbourg, Bientôt l'ère 2000' Hachette Paris 1969

الانتقال والمواصلات بشكل جديد يختلف تماما عن الوسائل المعروفة التقليدية . ثانيا : تشكيل الطبقة العاملة وقد بدأ شأنها يعظم يوما بعد يوم . ولقد أدخل الحادث الأول تمبييرا واضحا لا سابق له بين البلاد والناس ، بين من يصنعون ويملكون وسائل الإنتاج الجديدة والمواصلات ، وأدوات التدمير ، وبين من لا يملكون هذه الوسائل ويتمرضون الى الخضوع لقانون الأولين .

ووضع الحادث الثاني تصنيفا جغرافيا واجتماعيا للسكان : فقد كانت الصناعة الناشئة في القرن التاسع عشر تتركز جغرافيا في مناطق المناجم التي تجهزها بالطاقة أو بالفلزات المعدنية ، وفي مراكز عقد المواصلات وفي مناطق النفوس ، وفي النصف الثاني من ذلك القرن أصبحت المدينة نتاج النمو الصناعي أو التصنيع .

وساعدت الأبحاث التي قامت في هذا السبيل على تخفيض سعر الكلفة وحث الاستهلاك المتزايد ، وتخفيض زمن العمل وعدد العمال المستخدمين لتحقيق إنتاج معين ، وإدخال الكم والكيف في مراحل تحضير الإنتاج ، وفي طبيعة اليد العاملة المستخدمة ، وفي تحقيق آلات ميكانيكية جديدة تعمل للإنتاج ، والإقلال من تعقيد الجهود والحركات المبذولة بتقسيم متزايد للعمل وتحديدته وتسلسله وتوقيته .

والثورة الصناعية الثالثة بدأت منذ تعاقبت التحولات الصناعية وظهرت مصادر جديدة للطاقة ومواد أولية جديدة وفهارس كبرى للمنتجات الصناعية ، لأن الآلة لم تعد مساعدا بسيطسا للإنسان ، بل أخذت تنوب عنه ، وفي الحالات النهائية تتجاوزه بتحقيق عمليات لا يستطيع القيام بها في مضمار الميكانيكية والعقل الإلكتروني وفتح الفضاء وخرق حجاب الصوت وغير ذلك مما يائسنا به المستقبل القريب والبعيد من مفاجات تتعدى نطاقنا الخاص في التحقيق والإنجاز والعمل ، مما زاد في عدد المنتجات الصناعية دون انقطاع ، وفي عدد القطع الداخلة في بناء الآلة أو الجهاز المستعملين وفي تعقيدهما أيضا .

ويظهر الدور الحالي بخاصة متميزا بتحول أساسي في العلاقات بين الإنسان والآلة . وإذا كان حقنا أن العامل يخشى دوما أن ترده الآلة إلى البطالة فإن العلاقة بين هذا الإنسان والآلة أخذت اليوم في التغير . لقد قلت الآلة ، في القرن التاسع عشر ، العمل المقبول لتحقيق إنتاج معين بتبسيط عمل الإنسان وزيادة قوته ، ولكنها بقيت لمساعدة ، ولولا وجوده لظلت دون حراك ودون نفاذ . أما اليوم فإن مراحل يكاملها من الإنتاج أو الحركات أصبحت الآلة تقوم بها وحدها ، وفدت رقابة العمليات الصناعية أو غيرها من عمل الأجهزة ، ولا يتدخل الإنسان إلا من بعيد لوجهه العمليات في تسير المراحل الميكانيكية الضرورية ، وهو يعلم عن بعد ، بواسطة وسائل الاتصال التي تقع تحت يده ، الحوادث الطارئة ليصحح الخل ، كما يظهر ذلك في تسير الأقمار الصناعية ، والسفن الكونية والأجهزة المستعملة في صنع الخطوط الحديدية والصناعة الميكانيكية ، وفي أعمال المكاتب تحت اسم أصبح معروفا وهو الآلة الأوتوماتيكية .

وعلى هذا النحو أصبحت الآلة نفسها معملا لصنع القطع وتركيبها لصنع أجهزة جديدة . وأخذت الأجهزة الإلكترونية تساعد على القيام بسرعة فائقة جدا بعمليات وتصنيفات وحسابات لو جرت في أحسن الشروط لاحتاجت إلى مدد عظيم من العمال خلال ساعات أو أسابيع . كما فتحت العقول الإلكترونية أمام الصناعيين والتجار وأصحاب البنوك وشركات التأمين والطالبيين النصيح والإرشاد والفناريين الاستخارة في قضايا الزواج والمنتهبين بنجاح الحروب والراجمين بالفيب ، آفاقا جديدة واسعة لا تقف عند حد أو قيد .

وهكذا نرى ان بعضا من حاضرتنا اخذ يتحرك بفاعليات وتسلسل حركات آلية لم تحلّف الانسان ، ولكنها على أقل تقدير ، قللت لمظهره وورثته الى حده الأدنى ، وبعثت في فكرنا عالما جديدا ومستقبلا قريبا أو بعيدا بكل ما يسر أوتيسر .

وربما يكون من السابق لأوانه أن نفكر بأن جميع الأعمال البشرية ، يمكن أن تكون في وقت قصير آلية . لأن بعض قطاعات النشاط قلما تكون على استعداد لآلية مريحة ومفيدة اذا كانت الحصيله الإنتاجية فيها تنمو بسرعة قليلة جدا ، لا سيما أن الآلية الحديثة تتطلب كالمبحث لدى مستوى تقنيا عاليا واحتياطيها ماليا عظيما ، وهذا ما يجعلها امتيازاً من امتيازات الشركات الصناعية الكبرى والقوية جدا ، لأن هذه الشركات تستطيع بما لديها من امكانيات متعلدة على غيرها أن تتجه نحو قطاعات نشاط جديد في حقل الانتاج والاستهلاك والخدمات . وقد يقول بعضهم أن هذا الأمر يمكن أن يناط برأسمالية جديدة ، بينما يرى آخرون أنه يتعلق بالانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ، عند شعب تحرر من أشكال العمل القديمة ولديه من الوقت الجاهز ما يستطيع التصرف به .

ومهما يكن فإن الجغرافيا تميز بين البلاد التي يمكن أن تؤدي فيها الآلية ، بعد فترة من الزمن ، الى تغييرات عديدة في مواطن الانتاج والاستهلاك ، وبين البلاد التي لا يمكن أن تسببها ، ولو من بعيد ، وتجد نفسها مضطرة الى البحث عن شكل من أشكال التعاون والمبادلات مع البلاد التي تسلمت بالأجهزة الميكانيكية والآلية ، هذا فضلا عن أنه يمكن النظر الى هذه القضية من وجه آخر : وهو أن تتسائل ما هو وضع البلاد الغاصة بالأيدي العاملة العاطلة عن العمل التي يتضاعف سكانها في فترة جبل واحد اذا دخلتها الآلة او اضطرت لادخالها ؟ لا شك أن البون يصبح شاسعا بينها وبين البلاد الممكنة القليلة السكان نسبيا . وعالم اليوم يزداد اختلافا وتباينا أكثر من أي وقت مضى مع ما فيه من ظواهر تدل على تقارب البشر ووحدهم .

وإذا قلنا ان حضارتنا اليوم تتصف بتقدم العلم وتقدم التقنية فيجب أن نتصور ان لا فاصل يحجز بين العلم والتقنية ، بل هما يعيشان هيئام مشتركاً وكل تقدم يصيب أحدهما ينال منه الآخر وينعكس عليه ، ولا يمكن تعيين الحدود بين العلوم والتقنيات . ونمو هذه الأخيرة يفرض على العلم القيام بأبحاث واكتشافات ، كما أن تقدم العلم يدعو الى تقدم التقنية . وهكذا يتم أحدهما الآخر ولا ينفصل عنه . ولندكر على سبيل المثال أن الصواريخ التي وضعت وحسنت قد أصبحت الآن من أفضل وسائل اكتشاف الفضاء ومعرفة الكون ، وأن المؤسسة القومية للملاحة عبر الفضاء الأميركية جعلت مهمتها العمل على تقدم علم وتكنولوجيا الفضاء ، وأرسل أميركيين الى القمر ، وأن ما يقارب نصف المليون من الرجال مسخرون للنفوذ الى أسرار الكون وتعريف ظروف نظامنا الشمسي ، وأن كل هذه الأجهزة جميعها تقتضى تعاوناً وثيقاً وإعمايا بين العقل والآلة ، وأن العلم والتقنية المتلازمان يسيطران على العالم ويعيشان في تطوره دورا أساسيا ، وأن الامكانيات التي تتيحهاها لإنسان النصف الثاني من القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين تبدو بغير حدود وتتمى عنده العاطفة بضرورة القيام بجهد مستمر وشاق ومكلف وأحيانا مخيب ، ولكن هذا لن يفت في عصفاء العلماء ، لأن الحياة عندهم علم ومعرفة وتغيير .

وقد أدى تقدم العلم والتقنية وتعاونهما الوثيق للإنسان للعناصر خدمات جلى في حياته اليومية . فتقدم الطب ومنه المعالجة وصناعة الأدوية والعمليات التي تجري في أحسن الشروط والوسى الصحي وتنظيم توزيع الأغذية ، ان كل ذلك تزداد على تخفيض نسبة الوفيات وزيادة السكان : فالمجاعات والأوبئة والأمراض التي اعتبرت زمنا طويلا من غضب الآلهة أو

ظواهر من ظواهر القضاء والتقدير زالت اليوم عن سطح كوكبنا الأرضى أو على الأقل ، لم تعد كما كانت عليه بشكلها الخفيف والمليد والمرمن .

ولكن البشرية ما زالت تشعر بتناقض عظيم بين رغبتها الدائمة في تحسين ظروفها المعاشية وبين التزايد المتسارع في عدد السكان الذين يجب اشباعهم ، لأن الإنسان حين يأتى الى هذا الوجود ، يأتى خالي الفواض مستهلكا ، وليس بالامكان دوما اعطاؤه الطرق والوسائل التى يصحب بواسطتها منتجا ليؤمن التوازن بين الانتاج والاستهلاك ، أضف الى ذلك أن الحاجات والرغبات الجديدة والمتجددة باستمرار قد ازدادت بنسب عظيمة في العقود الأخيرة من هذا العصر، حتى ان اشباعها لم يتحقق الا للعدد القليل من الناس ممن توافرت في بلادهم شروط التقدم الصناعي ، أو ممن تهيات لهم الأسباب التى مكنتهم من ارضاء رغباتهم .

أما الأكثرية العظمى من الناس فان تكاثرها العددي أصبح عائقا ومانعا يحول دون الوصول الى الحياة المتقدمة ، ولا وجود الا بالنزول اليسير، وما ذلك الا لأن الفاض المتزايد للسكان يقف أمام كل أمل يرفع المستوى الاقتصادى والاجتماعى ويجعل بلوغ الرفاه العام أمرا صعب المنال .

وقد ترتب على هذا الفاض ازدياد التناقض بين البلاد المتقدمة حضاريا التى تريد أن يكون ازدياد عدد سكانها عامل 'فنى' لها لأنه يساعد على تسارع حركة الانتاج والاستهلاك ، وينبع دورة الانتاج ، وبين البلاد المتخلفة التى تظهر عجزا اقتصاديا واجتماعيا بسبب طغيان السكان .

لقد تزايد سكان الأرض بشكل سلسلة هندسية : ففي أول هذا القرن كان رقم السكان ١٥٠٠ مليون نسمة . وفي حوالى العام ١٩٥٠ تجاوز الرقم المليارين ونصف المليار ، مع تزايد يقارب المائة مليون في العام، أي بما يربو على مائتى ألف نسمة في اليوم .

وتشير التنبؤات الى أن رقم السكان سيكون سبعة مليارات في العام ٢٠٠٠ أى بعد ٣٠ عاما . وإذا مددنا منحني الأعوام حتى ٢٣٠٠ ، فهذا التعميد معناه الفد في عمر العصور الجيولوجية ، ولكنه يعتبر كافيا للوصول الى رقم السكان لا يجد فيه الإنسان موطئا لقدميه على سطح الأرض .

وقد رأى المؤرخون أن رقم السكان في العالم في بداية التقويم الميلادى ارتفع الى ٢٥٠ مليون نسمة ، وأن عدة آلاف من المئتين مضت حتى انتقل من ١٠٠ مليون أو ١٢٠ مليونا الى هذا الرقم ٢٥٠ مليونا .

ولكننا اليوم نرى تزايد السكان يتم في سنوات قليلة ، وليس هذا التزايد واحدا في جميع القارات : فقد تضاعف سكان أوروبا بين فيهم سكان القسم الآسيوى من الاتحاد السوفياتى في قرن واحد من ١٨٦٠ الى ١٩٦٠ ، كما تضاعف سكان آسيا في ال ٦٠ سنة الأخيرة ، ومثل ذلك سكان إفريقيا في الوقت نفسه . وتضاعف سكان أمريكا الشمالية في ٤٠ عاما ، وسكان أمريكا اللاتينية في ٢٠ عاما . هذا مع العلم أن التسارع لا يوضع في تاريخ واحد بالنسبة لجميع البلاد .

وهذه الزيادة الراهية المخيفة في همدد السكان تدعو الى التشاؤم خوفا من حدوث المجاعات بسبب قلة الأغذية ، غير أن آراء رجال العلم في موضوع المجاعات وزيادة السكان ليست مجمعة ، فضلا من أن هذه الناحية لم تدرس دراسة جدية بعد ، ولم تعتمد بعد على احصاءات وثيقة ، لا سيما أن التقارير الادارية التى تتناول السكان كثيرا ما تشوبها المبالغة والاباح .

في هذا الحقل كثير من الاعتبارات الدينية والاقتصادية والسياسية ، ويرى بعضهم إباحة استعمال الموانع وآخرون عدم معاكسة الطبيعة ، ويتساءل الاقتصاديون اليابانيون المتنازعون ما اذا كان تنظيم الولادات والتخطيط العائلي ، بقتية ارضاء رغبات المستهلكين المباشرة ، يمكن ان يحول او ان يبطئ التقدم العلمى والاقتصادى ، وهم يرون ان زيادة النفوس قد تشعل الهمم في البحث لايجاد الاغذية الكفيلة بسد الحاجات ، وتساءل بالتالى على التقدم العلمى ، وما زالت هذه القضية بين اخذ ورد .

وحضارتنا الحديثة مطبوعة أيضا بطابع السرعة المتسارعة : لقد كان الانسان القديم يريد الوصول الى غايته دون أن يسأل عن الزمن ، أما انسان اليوم فيسأل الوصول الى لباتته في اقرب وقت وباسرع سرعة ، ويحاسب نفسه على الدقة الملهمة سدى ، لقد أصبحت المواصلات آتية ، وتنقل الأشخاص بالكيلومترات الساعية ، والطائرات التجارية تجوب الفضاء بسرعة تفوق سرعة الصوت ، والتوصيات عليها قائمة على قدم وساق ، والذهاب من اوروبا الى امريكا نزهة يومية ، ورجال السياسة والأعمال والخبراء والمهندسون والأطباء ينتقلون بسهولة وسرعة لا تتصور بين قارة وقارة ، وبسر أكثر من انتقلهم بين اقليم وآخر في بلادهم . لقد انعدمت المسافات أو أصبحت في حكم العدم ، وغدا العالم بلدا واحدا ، وبالرغم من ذلك فان تحديد العلاقات بين البشر وانتقالهم ليس متعلقا بتدخل المسافة الزمنية ، بل بتدخل السلطات والادارة والتأثيرات والمسافة السعيرية .

حقا لقد أصبح الاتصال سهلا بين جميع اعم العالم ، رغم التمييز بينها ، وتفتت اساليب الحياة بفضل هذا الاتصال السهل القريب البعد ، ولكن هذا لم يمنع من وجود التناقض : وإذا كان بعض الناس يفكرون ويعملون على صعيد الناقه والبحير ، أو على صعيد الكيلومتر ، فان أكثر الناس في العالم المتعدين يفكرون ويعملون ويتعاملون اليوم على المقياس القارى والعالمى ، وعلى صعيد الشمول والخطوات : فمن الممكن لاسطول جوى ان ينتقل من نقطة على سطح الأرض ويفنى حياة الملايين من البشر ، ويجعل البلاد خرابا يابا ، والديار بلاقع ، في أقل من بضع ساعات ، ويعود الى قواعد سلا أمانا . وتستطيع الطائرة في الوقت نفسه ان تنقل الامراض والأوبئة من مسافات بعيدة لولا الوقاية والحجر الصحي .

وإذا كانت هذه السرعة تتجاوز المسافات الطوال ، كالمحيطات ، والبادى ، والجبال ، غير مجالية بعقبة ، فان سرعة العلاقات المحلية والإقليمية ما زالت تشكو البطء : فمشاكل المواصلات بين المدن لم تحل بعد ، ولا يبعد أن تكون بين الأحياء في المدينة الواحدة ، وقد تمرلنا العوامل المناخية كالثلج والمطر والفيضان عن اقرب قرانا الى مدينتنا ، ونبقى على اتصال مع العالم بالراديو والتلفزيون ، وهكذا يصسل الترانزستور ابن البادية وهو على ظهر راحلته يقطع البداء على انغام الموسيقى العالية وخطب الزعماء السياسيين وأحداث المدينة يطرب ويعجب مما يدرك ولا يدرك ، ولكنه على كل حال يشفق نفسه بهذا الجهاز وطوله لا يتجاوز طول الكف ، وليس بعيد على البدوى أن يشفق نفسه بعد ايام معدودات بتلفزيون له نفس الأبعاد والحجم ويجمع بين الصوت والصورة وبين لذة السماع ومتعة المشاهدة ، وسيستغنى ابن المدينة عن جريده اليومية فلا يهتم بها بعد ان أنه متأخرة عن سماع الاخبار بالراديو ورؤيتها على الشاشة ، ويستخاطب عن قرب من نزيل ونرى صورته أمامنا على الجهاز الذى نخاخره به ، وهو يبتنا حاضر غائب . وهكذا وصل الملاحون الثلاثة على ظهر ابولو ١١ و ١٢ الى القمر في خمسة ايام أو أقل ، كما تقطع البحر المتوسط على متن الباخرة في خمسة ايام وبضع ساعات .

ولكن هذه السرعة المادية ، مهما بلغت ، أبعد من أن تصل أو توأكب السرعة النفسية في لغة العاطفة والحب ، لأن هذه لا تعرف حداً لتقوتها عندما نبغى الوصول إلى ما نريد ، حيث تقول : « وغدئ في هلاك يسبق أمسى » . ومثل هذه السرعة لم يتوصل إليها فرسان الفضاء الخارجي ، غير أننا في متعة الحب الصافي نستعمل الزمان ونرجو دوام الليل ، ونقول للشمس : « تعالى تعالى بعد سنة متى قبل سنة » .

ومن هذا التناقض في العلاقات البشرية على مقياس كوكبنا الأرضي نستخلص فكرتين :

الأولى - هي الشعور بالمشاركة مع بني البشر مع ما في هذه المشاركة من مضطرابات والتزامات : فما من أحد يستطيع اليوم أن يكون غير متبال بالحوادث الجارية ، مهما كانت بعيدة ، والتي يمكن أن تتسلسل بسرعة فائقة وتكون مفعمة بالنتائج التي تم الكرة الأرضية جميعاً : ان القضية الفلسطينية وحرب فيتنام تشغلان بأبعادهما المتصاعدة وجدان العالم بأسره .

والثانية - هي اتساع نطاق القضايا الاقتصادية والسياسية على المقياس العالمي ، بينما تضيق فكرة الجوار وتفرض انشاء نظم للتنسيق والتوحيد بين البشر ، مثل عصبة الأمم في فترة ما بين الحربين ، ومنظمة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ، وإلى ما هنالك من منظمات دولية في حقل الغذاء والعمل والصحة والتعليم والعلم والثقافة والتربية والمساعدة الفنية والتعمير والتنمية والإعلام والمعرفة العميقة لكل ما يتعلق بحياة حاضر العالم ومستقبله ، وقد نجحت هذه المنظمات قليلاً وأخفقت كثيراً ، وما زالت تتمتع في سرها ، رغم الجهود المبذولة لتقوتها .

ولكن الهوة ما زالت سحيقة أمام هذه المحاولات الكثيرة في تعميم المواقف وشمول النظم ، ولعل انقسام العالم إلى كتلتين : الكتلة الرأسمالية برعاية الولايات المتحدة ، والكتلة الاشتراكية برياسة الاتحاد السوفياتي ، ليس إلا الشكل الأساسي والوحيد في الاختلاف والتنوع .

وتبدو قضية التخلف شالكة في حضارة اليوم ، لأن البلاد التي تصنف بهذا الوصف بحكم ظروفها التاريخية وجدت خارجة عن حركات التصنيع الكبرى التي أقامت الاقتصاد الصناعي وطورت المجتمعات ، وما زالت رغم نموها الحديث محافظة على بنائها الاجتماعي العتيق ، وراحة تحت وطأة ظفرات ديموغرافية مذهلة تحاول حلها فلا تجد لها حلاً جدياً .

ومهما يكن أمر هذه البلاد المتخلفة فإن التطور السياسي ، في ظروفه الخاصة والعامة ، أدى إلى استقلالها وخلعها من نير الاستعمار الذي أثقل عليها وكان من جملة عوامل تأخرها فترة غير قصيرة من الزمن ، وهي الآن تعاني أزمة النمو التي تنتاب عادة البلاد الحديثة الاستقلال . وإذا كانت مصادر ضعف الحكم فيها ناشئة عن عدم التجربة وقلة الخبرة والجهل بالقضايا الاقتصادية والسياسية مع ما يصحب ذلك من الفساد وأتانية الزعماء ووحداية الحزب الحاكم والشدة المذهبية والصرامة العقائدية التي تذهب إلى درجة التطرف وتخوين الغير ، فيجب أن نعترف أن هذه الحالات رغم أخطارها الجدية ، ليست نوعية وخاصة خطيرة وإشارات حمراء تحول دون التقدم إلى الأمام ، وأن وعي الشعوب النامية والتكامل كفيلاً مع الزمن ، بإزالة الإبهام ودفع الأخطار وإحلال الرشاد محل الضلال .

وإذا استقلت هذه البلاد سياسياً ، فاستقلالها ما زال سريع المطب ، ومحفوفة بالكماره من كل نوع ، لأن الخلاص من الاستعمار سياسياً لا يعني الخلاص منه اقتصادياً ، وهي مضطرة بحكم ظروفها الموضوعية إلى مد يدها إلى عدوها بالأس في سبيل المعونة الفنية والتنمية الاقتصادية

والتطور الاجتماعي ، أو الى التعامل مع بلاد لم تلقها مراة الاستعمار ، أو للحوار مع البلاد الاشتراكية في جو الصداقة والسلام والتفاهم والاحترام التبادل والمساعدات غير المشروطة .

وما من شك في ان الحوار الاقتصادي ضروري للبلاد الراقية كما هو ضروري للبلاد المتخلفة . وإذا كانت هذه الأخيرة تنتظر من الحوار الحصول على الوسائل المخففة لوطأة التخلف ، ان لم تستطع ازالته ، فان الأولى ، أي البلاد الراقية ترى في البلاد المتخلفة متمسكا لاقتصادها بمتص منها ، طوعا أو كرها ، زيادة الخبراء والفنيين ووسائل التجهيزات الحديثة ، كما تمتص منه بالضرورة احتياطاتها من المحاصيل الخام أو تقاسمه رزقه الطبيعي الفوق والتحتي بين تبادل الخبرات والمنافع والحفاظ - في هذا التعاون المبني على المصالح المتبادلة - على الصيغ القانونية والحقوقية التي تنجو من طغيان الاستعمار الحديث أو من مخلفات الاستعمار القديم . وفي مضمار هذا التعاون يقوم التنافس بين العملاقين ، بين الاقتصاد الرأسمالي والاقتصاد الاشتراكي ، في الاهتمام والبحث ، قبل كل شيء ، عن البلاد ذات القيمة الاستراتيجية والاقتصادية ، وليس التدخل السياسي تحت رداء الاقتصاد والثقافة الوانا عميقة أو زاهية تختلف حسب درجة الاغراء وقوة المقاومة .

ولا يخلو هذا التعاون الوثيق أحيانا من أخطار ، وله مناقبه بالقدر الذي يساعد على النمو والتقدم وتحقيق المكاسب والأخذ بأسباب الرقي ، وله مثالبه بالقدر الذي تكون فيه المساعدات مشروطة ظاهرا أو مستترة ، لأنها تضع المتخلف شاء أو لم يشأ ، عن وهي أو عن غير وهي - تحت رحمة المتقدم الرقي ، وتجعله باتمر بأمرة ويعمل باجتهاد ولو كان مستقلا سليما معاني ، ولعل الدول الكبرى والعلاقة ، على ما فيها من حول وقوة ، لا تظهر قيمتها الا بقدر ما يدور في فكها من دول صفرى .

ولكن هذا التقدم ، الذي تحققه البلاد المتخلفة والسائرة في ركب الحضارة الحديثة لا يعدو عن ان يكون صفرا وقليل اذا ما قيس بالنسبة الى التقدم بخط الجبابرة الذي تحققه البلاد المجهزة صناعيا وتقنيا والمريقة بحضارتها . وهذا ما يبدو فعلا الى اليأس ، رقم قوة الايمان ، حتى كان نوعا من جبرية تفر على البلاد المتخلفة لتبقى حيث هي ولو حاولت الرقي والتقدم ، وبالرغم من هذا الوضع الذي يبدو في بعض الأحوال الى القنوط ، فلا مبرر للبقاء على التخلف المقيم ، ولا بد من السعى حثيثا في طريق النهوض والرقي .

وأخر ما نصف به حضارتنا الحديثة هو أنها تعاني اليوم أزمة (١) : ان عصرنا الذي نعيش فيه تركبي يضم عناصر مختلفة وغير متجانسة من ركام الحضارة وأفانيتها في الخلق والإبداع ، انه عصر الكثرة والوفرة والتناقض والاختلاف والتنوع في كل شيء : في أنماط الحياة ومستواها ، وفي الأفكار والعقائد والمذاهب ، وفي شتى أنواع التطور من قديم وحديث ، وكلها تجتمع على صعيد واحد ، وفي البلد الواحد ، وحتى في البلاد المتقدمة أكثر من غيرها .

واليوم - وقد بلغت الحضارة ما بلغت - يثور الانسان الواعي على هذه الحضارة وعلى ما خلفت من طرق ومناهج وقيم ومذاهب وتقنية ، ويحاول أن يقيمهما ويقدمها ، ويجعل ما كان بالأمس منها عقيدة راسخة وحقيقة مقبولة . ومعطيات مسلما بها ، موضع شك وتساؤل ، ولا يغرو اذا وجدنا حضارة العصر تعاني أزمة بل أزمات ، وأبرز هذه الأزمات ثلاث :

الأزمة العقلية ، والأزمة القومية ، والأزمة الاشتراكية .

لقد حاولت الحضارة الحديثة ، بما فيها من علم وتقنية ، وبعد تأملات عديدة في مختلف الميادين ، أن تجعل من العقل رائدا لتسير على هذه فلا تضل السبيل ، وتوصلت الى الطريقة التي تجعل الانسان سيد الطبيعة ومالكا لها . وقد هيات له هذه الطريقة جميع الاسباب التي « عطلت » وجوده وسهلت ظاهرا عليه سيطرته على العالم وسلوك حياته ، ولكنها في الوقت ذاته أفقدته أو تحاول أن تفقده أسباب حياته وحرية ، لقد اوجدت هذه الطريقة تكنوقراطيين يؤخذون بالميكانيكيات الاقتصادية دون اعتبار كاف للعوامل البشرية ، وعقولا مجردة ومتحجرة يتحمل سيطرتها ويصبر عليها . وقد بلغت هذه القوى كامل سلطاتها في الدول الديكتاتورية ، وتحاول أن تتسلل الى الأنظمة الديمقراطية عن طريق المخطط ووضع المناهج وجميع التدخلات التي لا مبرر لها للدولة ، والحاق القيم الإنسانية والروحية بهؤلاء التكنوقراطيين والبيروقراطيين المتحكمين . من هنا تخرج صرخة الضمير الواعي على العقلانية المستبدة التي تريد أن تسير الانسان حسب هواها وتحرمه لذة العيش كما يتصور ويريد ، وهكذا ينادى الثائرون اليوم : « العالم ليس عقلا »

والأزمة القومية تتجلى في أن الحركات القومية التي قامت في العالم أدت في النهاية الى تشكيل دول قومية حلت حذو بسمارك وكافور و هتلر وموسوليني وستالين . وعلى ما يبدو أن التصبص للقومية دفع الى التوقع في الاطوار الاقلى ، ولكن هذا الوضع دعا الى التساؤل وطرح القضيتين الآتيتين :

أولا : هل البلاد المحصورة في داخل حدودها ولا تقوم بأى تحديد لسيادة بعضها حيال الأخرى تتوصل الى تأمين سلام العالم ؟

ثانيا : هل الحكومات المركزية الخاضعة لتفوق الدولة ، ولو كانت شعبية ، تتوصل الى تأمين الحريات واتقاد الديمقراطية ؟

ان التساؤل في مثل هذه القضايا دما الى الخروج على القومية والانتقال الى مرحلة جديدة وهي مرحلة القومية (الفوق قومية) وذلك بوجوب تصعيد الحدود القومية وجمع الأمم التي تؤلفها في منظومة قادرة على توكيد وجودها وقوتها أمام الكتلتين الكبيرتين ، وهذا ما ظهر في محاولات التنظيم الأوروبي في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، كما في **المنظمة الأوروبية للتعاون الاقتصادي** التي تشكلت في ١٦ نيسان ١٩٤٨ وتضم ١٦ دولة ، وفي **منظمة المجلس الأوروبي** ، الذي جعل مركزه مدينة ستراسبورغ وضم ١٥ عضوا وهدفه تحقيق اتحاد أوثق وتشجيع تشكيل رأى عام أوروبي ، وفي « المنظمة الأوروبية للفحم والفولاذ » التي اختارت مدينة اللوكسمبورغ لتكون مقرا للسلطة العليا لهذه المنظمة ، وفي « الأسرة الاقتصادية الأوروبية » أو « السوق المشتركة » وفي « الأسرة الأوروبية للطاقة الذرية » أو « اليورانيوم » وفي « الرابطة الأوروبية للمبادلة الحرة » ، وكلها كوات تطل على عالم يتجاوز حدود القومية ويتطلع الى اتحاد أعم وأوسع .

والأزمة الاشتراكية نشأت من الافراط في تطبيق القواعد العقلانية على الحياة السياسية والاجتماعية ، لأن التجربة الإنسانية اظهرت عيوبها وانقسامها على نفسها في الخلاف القائم اليوم بين الاتحاد السوفياتي والصين ، بين نظام يريد أن يتخلل من قيوده ، ونظام ما زال في حدة سئنه وعز صرامته ، وهذه الأزمة الاشتراكية توضع لنا الثغرة التي حدثت في قلب العالم الشيوعي

وتعتيد العلاقات التي يريد شدها مع العالم الغربي ، كما توضح أيضا تطورها نحو تحقيق مغنم من الحرية ما زال محدودا وضعيفا .

ومهما يكن من امر هذه الحضارة فيجب الانكسر منها مطلع هذا القرن رقما عظيما وأعمالا باهرة ، وآخر ما حققت نصران مبینان ، هما تطعيم القلب والوصول الى القمر ، ولن يكون هذا النصران الوحيدين والإخيرين . وقد كانت هذه المغامرات الفائقة ، قبل سنوات قليلة في حيز الأحلام والخيال ، أما اليوم فقد فتحت آفاقا لاتحد في تقوية الأعضاء المتضررة أو البالية المتوهنة ، وفي الواصلات الحرة عبر الكواكب بفضل العلم الحديث والتقنية الحديثة المتجددين دون انقطاع . وإن اختراع العقل الإلكتروني يؤكد لنا عن يقين بأن تسارع التقدم ، وهو صفة مميزة لحضارة العصر ، أبعد ما يكون من بلوغ حدوده القصوى ، لأن البحث العلمي الدائب المستمر ، وما لديه من عقول بشرية وأدمغة الكترونية ساعد على القفز فوق الحسابات العادية المملة ، وسار بالإنسان ، خلال جبل ، الى الأمام في معرفة الكون والعالم مما لم تعرفه البشرية منذ آلاف السنين . ولعلنا نتساءل بعد هذا من المفاجآت العديدة التي ننتظرها في العام ٢٠٠٠ (١) .

تقد بلغ المجتمع البشري في الشعوب الطبيعية النمو مستوى الرفاه والأمن والوفرة ، ونعمت الأكثرية الساحقة في هذه الشعوب بما لم تنعم به في عصر سابق ، ولا شك في أن مجتمعات بشرية أخرى ما زالت تعتبر محرومة ، ولكن مانجده تحت تصرفها وفي متناول يدها من نعم الحضارة الحديثة وخيراتها يفوق أضعافا مضاعفة ما كان ينعم به الأمراء الإقطاعيون في العصور الوسطى ، والبورجوازيون في القرن الفائت . وإذا قرنا تحسين شروط الحياة في عصرنا الحالي بزيادة متوسط عمر الإنسان وقبلنا أن التقدم يتفاوت حسب البلاد وحسب الشعوب فإننا نقبل أيضا أن التقدم حاصل في كل مكان بل وفي المناطق المحرومة ، وأن هذا التقدم قد تسارع كثيرا في مختلف الميادين لمزيد من النعيم والسعادة وطول العمر والفراغ وتحدى الطبيعة والموت ، وفي سبيل مساواة أعظم وتوزيع للخيرات أشمل . وأصبح معروفا بالبداهة أن هدف هذه المجتمعات الحديثة ليس الوصول الى الحد الأدنى من الحياة ، بل بلوغ المزيد والمزيد المتسارع دوما وأبدا ، ويتساقى في هذا السباق العالم الرأسمالي والعالم الاشتراكي ، وما دام الأمر كذلك فهل هذا السباق ينتهي الى لقاء بنى البشر على صعيد واحد تلذّب فيه العقائد وبصحيح بنو البشر أقل تعصبا لمذاهبهم ، وهي في حقيقتها وسائل لبلوغ المني ، ولا تناحر بعد اليوم ؟!

ولكن هذه الحضارة فعلی ما قدمت واحزرت ، ما زالت موضع شك ، ويعتقد بعضهم بأنها سلاسلها وعدم قدرتها على منح الإنسان الكرامة والشرف . ولا شك في أن هذه الضجة القائمة حول حضارة العصر لم تلق صداها لولا أنها عبرت بنفسها عن القلق الذي يخامر النفوس . لأن هذا القلق ناشيء عن التقدم نفسه ، رغم سرعته التزايدة ، وبسبب هذه السرعة نفسها . والإنسان المعاصر يشعر بتبعيته لإنتاج الخبرات المادية واستهلاكها ، ويرى نفسه خاضعا لمعدة هيئات فنية ومكتبية تؤمن وتنظم إنتاج هذه الخبرات واستهلاكها ، ولذا يمتلكه القلق والتبرم عندما يرى نفسه مكبل بهذه القيود والعواقب ، ورغم أن التقدم العلمي والتقني والاقتصادي حل العظم من مشاكله ويحاول أن يحلها بشكل أسرع ، فإن هذا التقدم نفسه يخلق للإنسان مشاكل جديدة ويضسه أمام صعوبات وتحديات لا يمكنه التنبؤ بها . وهو في كل يوم أمام تغيرات أوسع وأكبر تعقيدا ، فلا يكاد يستقر حتى تتدخل تغيرات أخرى تعرض سبيله فيحاول التكيف معها أيضا . وهكذا يظهر تأخره

عن تقدمه ، وهذا التأخر آخذ بالتزايد . ومن الأخطار الجديدة الناشئة عن تسارع التقدم قضية استئناس الذرة والنتائج الخطيرة التي ترتب عليها في الحال والاستقبال على مصير البشرية والأرض .

وهناك قضايا أخرى أساسية لا تتعلق بظاهرة خاصة بنتائج التقدم ، بل بقانون التقدم نفسه ، كزيادة عدد السكان وضروة إطعامهم وإقامتهم بعد أن أشارت التنبؤات إلى أن عدد سكان العالم سيصبح ٧ مليارات في العام ألفين أى بعد ٣٠ عاما . وهذه المدة كافية للوصول إلى رقم لا يبقى فيه على سطح الكوكب موطء قدم إنسان ، وقد يقال أن الأرض إذا استغلت استفلا عقلايا أمكنها أن تغذى سكانها الحاليين بل وسكانا أكثر منهم ، وأكثر من ذلك إذا استخدمت الموارد الأوقيانوسية والوارد الشمسية ، ولكننا نجدنا أمام حد لسكنى الكوكب لا يمكن تجاوزه

كذلك يضع ثبات السكان قضية طول العمر والشيخوخة المديدة ، والتنافس بين الأبناء والأجداد ، والأجيال القديمة والجديدة ، ويتعقد تزايد حاجات الاستهلاك العام والاستهلاك المبدئي بحسب الرأس ، لأن تزايد الاستهلاك يعتبر صفة مميزة للمجتمع الحديث وتبريرا لجهده نحو التقدم ، ولعلنا نتساءل ماذا يمكن أن تكون في العام ٢٠٠٠ ، على سبيل الفرض ، حاجات الاستهلاك لسكان الأرض وقد بلغ عددهم سبعة مليارات نسمة ووصلوا إلى مستوى حياة الولايات المتحدة حاليا ؟

لقد فكر بعضهم باستعمار الكواكب الأخرى ، وليس الوصول إلى القمر الإظاهرة لهذا التفكير ، فإذا فرضنا أن هذا الاستعمار مشر ، فإن أقرب الكواكب إلينا ، وهو الزهرة ، على ٤٠٠ درجة حرارة متنا ، والمريخ دون مولد حموضة (أكسجين) غير صالح لحياة الجسم البشري ، بشك طبيعى ، فما بالنا بالكواكب الكبرى البعيدة والكواكب الأبعد منها حيث تقترب الحرارة من الصفر المطلق ، ويكون الأزوت سائلا والتناقل أعظم من تناقل الأرض بمئات المرات . أما منظومة الكواكب الأخرى فإن المسافة بينها وبيننا تقاس بالسنين . ان لم تكن بمئات السنين - النوبة ، وهذا يعني أن أسرع السفن الفضائية التي يمكن تصورها للوصول إليها تتطلب حياة أجيال وأجيال ، بما يعادل ٤٠ عاما على سفينة سوبرأبولو أسرع بعشرة آلاف مرة من أبولو التي نزلت على سطح القمر .

ولذا فمن المقول والمقبول ان نحكم بأن التوسع لا يمكن أن يكون غير محدود في عالم محدود ، أو ان ن فكر بتقدم مادي غير محدود ، أما الشكوك والمخاوف التي تغلق حولنا « أزمة تقدم » فربما تكون منذرة بعصر ما يزال بعيدا عنا ، ولا نعتقد بعد هذا أن التقدم والتوسع قد استنفدا غاياتهما ولقظا انفاهما ، فلديهما من السرعة والتسارع ما يجعلنا نتظر منهما فتوحات جديدة وانتصارات مبنية ، ومكاسب حقيقية تنكشف أمامها مكاسبنا الحقيقية منها والوهيية ، لأن لغز الحياة لما يحل ، ولأن العمل البشري لما ينته ، ولأن القافلة الحضارية ما زالت تخطئ السير نحو آمال وأحلام بغير حدود .

وبعد فما هو موقف الإنسان أمام معطيات حضارة العصر ؟ ان الفلسفة والأدب والفن التي ظهرت بعد ١٩٤٥ تشيد كلها بقيمة الإنسان وجهده وموقفه الحر وإرادته وحرية النسي يكتشفها في الخبرات التي تنتزع من كل ماضيه ومن كل ما يعتقد بأنه كان كائنه والتي تؤلف وجوده الخاص . وان الإنسان يشعر بضرورة إعادة النظر في كل شيء وطرحه على بساط البحث من جديد . وان التقاليد بتقدمها وحديثها قد اهتزت عروشها بقوة ، وان ظاهرة العصر

الحاضر تريد قبل كل شيء أن تعطي الإنسان من جديد ، وأشقى إنسان في الناس مكانه الحقيقي وكرامته الحقيقية وعظمته الثمينة التي لا تقدر . وأن أفضل النظم وأحدثها ليس لها إلا قيمة نسبية ، وليست أقوى من الناس الذين يضعونها: ومن الممكن إقامة السدود ضد الفيضانات المهددة، وإصلاح الحق العام ، وتعزيز الاستقلال وتجديد الطرق التشريعية ولكن كل هذا يظل غير كاف ولن تكون له قيمة إلا إذا اعتمد على أساس روحي وأخلاقي متين ، لأن هذا الأساس وحده يمكن أن يعطي الإنسان الحر القوة التي تساعد على إنهاء مشاكل العصر الذري والثورة التقنية ، وفوق كل شيء يجب الاهتمام باقامة النظم التي تحمي حرية اختيار الإنسان لمن هم أحياء يعيشون معنا أو للذين باتون في المستقبل و يرون القضايا بشكل مغاير لنا لئلا يكتشفوا أننا استنفدنا من غير نفع وبنحون ، امكانات اختيارهم وفسدنا عليهم محيطهم الطبيعي والاجتماعي . ولن تكون للحضارة قيمة الا اذا صانت كرامة الإنسان وساعدته على التحرر ، وان من حق كل إنسان ان يشور لحيثته وكرامته ، واذا ثارت النسبية الجامعية في هذا العصر فلان لها مطالب تريد تحقيقها : لقد وجدت نفسها محرومة من كل أمن على مستقبلها وقد تبددت أو هام الماضي، ثارت على الآباء والأساندة ولن تهدأ هذه الثورة إلا بالزيد من الحرية والتحرر من قيود الماضي البغيض .

الالكترونيات وتقارب الثقافات

مقدمة

إذا القينا نظرة عامة على تاريخ تقدم البشرية منذ مصورها الاولى نجد ان هناك علامات واضحة على طريق هذا التقدم تشير الى تطورات هامة كان لها اثر بالغ في دفع عجلته الى الامام وازدهاره ، ولا تكون مبالغين اذا ذكرنا ان الاكتشافات الحديثة في علوم الالكترونيات هي من أهم هذه التطورات ، تلك الاكتشافات التي أخذت تتوالى منذ مطلع هذا القرن وتشعب في تطبيقاتها حتى شملت نواحي كثيرة في حياتنا اليومية سواء منها ما يتعلق بالعمل والانتاج أو ضروب الثقافة والفكر الانساني أو وسائل اللهو والتسلية، ناهيك بما لها من استخدامات خطيرة أدت الى تقدم الاسلحة ووسائل التدمير في الحروب الحديثة ، ولقد أصبحت الاجهزة الالكترونية في عصرنا جزءاً لا يتجزأ بل هي بمثابة القلب النابض في معظم الآلات الحديثة التي لا غنى عنها في حياتنا المصرية .

ولقد دعت هذه الأسباب هيئة الأمم المتحدة ومختلف الدول والهيئات العلمية الى العناية بهذا الفرع الخطير من فروع العلم الحديث فمقدت له العديد من المؤتمرات والندوات لتبادل الرأى والوصول الى اتفاقيات دولية تتناول بعض شؤنه الهامة مثل توزيع اللدبلات ووضع حدود للمواصفات الفنية وما إليها .

ومن الواضح انه لكي تتقارب الثقافة بين مختلف الشعوب ، يجب كخطوة أولى ان تنتقل

١٥ الدكتور محمود محمد رياض - استاذ الالكترونيات بجامعة الكويت اشتغل بالتدريس بكلية الهندسة جامعة الاسكندرية .
ساهم في بناء اول مفاعل ذرى بالجمهورية العربية المتحدة . في سنة ١٩٦٤ عين وزيرا للمواصلات - امين عام الاتحاد العربي للمواصلات السلكية اللاسلكية . قام بأبحاث في التوجيه اللاسلكى وله مقالات علمية منشورة بالمجلات العلمية المصرية والأجنبية .

هذه الافكار ، من علم واُدب وُقن بأشكالها المختلفة ، وتداول بين الناس حتى يطلعوا عليها ويفهموها وعندئذ تأتي الخطوة التالية بأن تؤثر الثقافات الجيدة على غيرها وتزداد انتشارا ، وبذلك تتقارب الأفكار ويزداد عمق التيار الذي يربط بينها ، وهنا يبرز الدور الكبير الذي تلعبه وسائل الاتصال الالكترونية الحديثة في نواحي نقل هذه الثقافات والربط بينها .

وسوف نقتصر في هذا المقال على القاء نظرة شاملة على النواحي التطبيقية لعلوم الالكترونيات الحديثة التي كان لها أثر واضح في تقارب الثقافات بين شعوب مجتمعنا الانساني الكبير ، نظراً لما لهذا التقارب من نتائج بعيدة المدى تتمدى حدود المسافات الشاسعة والفوارق الحضارية واللغوية والدينية والثقافية ، تلك الفوارق التي ظلت قرونا عديدة تقيم الحواجز الخيمة بين الشعوب وتكاد تعزلها عزلا تاما عن بعضها البعض ، وسيتناول بحثنا في هذا السبيل النقاط الآتية :

ـ اكتشاف اشباه الموصلات والترانزستور .

ـ التلفزيون .

ـ الاتصالات اللاسلكية عبر الفضاء بواسطة الأقمار الصناعية .

ـ الآثار غير المباشرة لبعض المخترعات الالكترونية .

١ - اكتشاف اشباه الموصلات والترانزستور

Semiconductors & Transistors

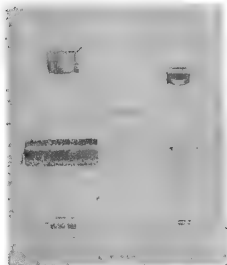
ظل الصمام الالكتروني (Thermionic Vacuum Tube) على مدى حقبة طويلة من الزمن بمثابة الاداة الرئيسية التي تستخدم في صناعة اجهزة استقبال الاذاعات الصوتية والمرئية (الراديو والتلفزيون) . وقد أدى هذا الوضع الى فرض قيود بالضرورة على امكانيات انتشار هذه الاجهزة ، اذ انها كانت تحتاج في أغلب الاحيان الى استخدام التيار الكهربائي العادي في المدن ، وقد حاول المهندسون التغلب على هذه الصعوبة بأن بدلوا محاولات عديدة لتصميم اجهزة وصمامات تعمل بالبطاريات السائلة والجافة بحيث يمكن حملها ونقلها من مكان الى مكان الا ان هذه المحاولات كانت محدودة الأثر نظراً لارتفاع تكلفة هذه البطاريات وسرعة استهلاكها فضلاً على ان حجم الاجهزة نفسها كان لا يسمح بسهولة حملها ونقلها ، وهكذا ظل استخدام جهاز الراديو مقصوراً على المدن والقرى الكبيرة التي يتوفر فيها التيار الكهربائي وعلى فئة محدودة من الناس الذين تسمح مواردهم المالية بتحمل نفقاته .

وفي عام ١٩٥١م وقع حدث هام كان بمثابة لورة عارمة في عالم الالكترونيات ومرتبت عليه آثار بالغة في تطوير صناعة الاجهزة الالكترونية ، فقد اكتشف فريق من العلماء في مختبرات الابحاث بشركة « بل » الامريكية خصائص جديدة لمادتي الجرمانيوم والسليكون امكن بواسطتها استخدام هاتين المادتين في صناعة رقائق دقيقة أطلق عليها اسم « اشباه الموصلات والترانزستور » . فقد اثبتت التجارب والابحاث بان الترانزستور يمكنه ان يحل محل الصمام الالكتروني ويؤدي

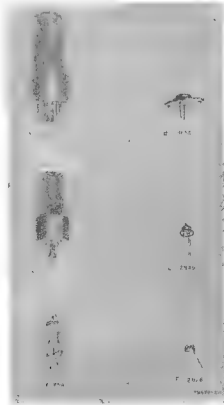
جميع الوظائف المطلوبة منه في الأجهزة الإلكترونية بكفاءة تامة فضلا على انه يعتاز عنه بميزات كبيرة تنفخ من الجدول الآتي للمقارنة بينهما :-

(الصمام الإلكتروني)	(الترانزستور)
يحتاج الى طاقة كهربائية كبيرة نسبيا لتسخينه حتى يتولد فيه التيار الإلكتروني ويتطلب مرور بعض الوقت حتى تصل درجة الحرارة في بعض أجزائه الى حد معين .	لا يحتاج الى أية طاقة كهربائية للتسخين ويتولد التيار الإلكتروني فيه فوراً بمجرد توصيل البطارية .
يستلزم جهداً كهربائياً عالياً (Voltage) لتشغيله وهذا يحتاج الى استخدام التيار الكهربائي العادي او بطاريات خاصة كبيرة الحجم	لا يستلزم سوى بطاريات جافة صغيرة الحجم لتشغيله بنفس الكفاءة .
حجم الأجهزة التي تستخدم فيها - مهما روعي تصغير حجم الصمامات - يكون كبيرا نسبيا .	يمكن بناء الأجهزة في أحجام صغيرة جدا لدرجة أن بعضها يستخدمها ضعاف السمع بوضعها داخل الأذن .
تؤثر فيه الاهتزازات وتصدر منها أصوات غير مقبولة في الأجهزة Microphonic Noises	لا تؤثر فيه الاهتزازات لدقة حجمه .

صورة (١) تبين صغر حجم الترانزستور بالنسبة لبعض الصمامات الإلكترونية الشائعة الاستعمال

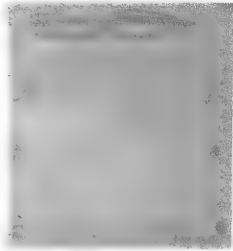
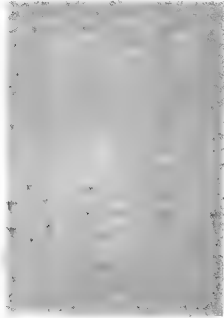


صورة رقم (٢) تبين صغر حجم المكونات Components التي تستخدم في دوائر الترانزستور بالنسبة لتبيلاتها التي تصعب الصمامات الإلكترونية .



توضيح الصورتان رقم (٢) ، (٣) صغر حجم الترانزستور والمكونات التي تستخدم معه في

الدوائر الإلكترونية بالمقارنة مع الصمامات الإلكترونية ومكوناتها ، وهذا هو السر الذي يكمن وراء تطور صناعة الأجهزة الإلكترونية بهذا الشكل المدهل في السنوات الأخيرة حتى أصبح جهاز الراديو بما يحمله من البطاريات من صغر الحجم بحيث يمكن وضعه في الجيب .



صورة رقم (٣)

صورة رقم (٤)

(توضيح مجموعة من أشباه الموصلات والترانزستورات الحديثة المتناهية في الصغر)

ولقد اطرذ التطور في صناعة أشباه الموصلات والترانزستورات المتناهية في الصغر وكذلك الأجهزة الإلكترونية التي تستخدمها بحيث أصبحت فنا في التصنيع قائما بذاته - Mi iaturi- eton وصار في الامكان استحداث أجهزة خاصة لمختلف الأغراض العلمية والإنسانية لم يكن في الحسبان الوصول الى صناعتها من قبل ، بل ان هذا الفن الجديد قد أدى الى تحسين أداء الأجهزة وخفض اسعارها بتقليل اسلاك التوصيل الداخلية ومراحل التصنيع فضلا على تقليل استهلاك الطاقة الكهربائية من البطاريات اللازمة للتشغيل .

هذه التطورات الكبيرة كان لها اثر كبير في انتشار أجهزة الراديو بالذات ، فقد أدى انخفاض اسعارها وصغر حجمها وقلة استهلاكها من البطاريات الجافة الصغيرة الى ان أصبحت في متناول أيدي ذوي الدخل المحدود من الناس ، بينما كانت محال اقامتهم .

وهكذا دخل جهاز الراديو الصغير خيمة الإعرابي في الصحراء وبيت الفلاح في الريف بل تفضل هذا الجهاز الى الغابات والأدغال ووصل الى البقاع النائية في أقصى المعمورة حتى لقد أصبح يعد بالملايين في أي دولة ، وكان من انشؤ ذلك أن أصبح الإنسان في أي ركن من أركان الأرض يشارك بشعوره ووجدانه عن طريق الاذاعات العالية ، فيما يجري من أحداث تقع على بعد آلاف الأميال ويسمع انباء ما يجري في البلاد الأخرى لحظة وقوعها ، اضيف الى ذلك ما تسعى إليه كثير من الهيئات المستنيرة من نشر ثقافة بلادها وتراثها عن طريق الاذاعة وبلغات أهل البلاد التي توجه اليهم ، وقد كان لهذا كالمثر بالغ في تقارب الثقافات بين الشعوب المختلفة

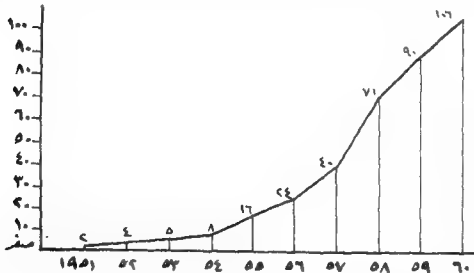
وأخذ أبناء البشرية جميعا يقتربون من الناحية الفكرية من بعضهم البعض ، ويكونون ما يسمى بالراى العام العالي بالنسبة لمعظم الأحداث الكبيرة التي تقع من حين الى حين في أنحاء العالم .

وهناك مجالات أخرى لاستخدام الاذاعة الصوتية لم تول في بدايتها ولسوف تتضح آثارها البعيدة في المستقبل ، ومن أهم هذه المجالات على سبيل المثال تعليم القراءة والكتابة للسواد الأعظم من الشعوب النامية ، إذ أن هذه الطريقة تؤدي الى محو الأمية في سنوات قليلة وبثغقات زهيدة لا تذكر بجانب ما يتطلبه إنشاء العدد الكبير من المدارس ، أضف الى ذلك نشر الثقافة العامة بين ذوى الدخل المحدود ممن لا ييسر لهم ظروفهم الاقتصادية أو الميشية كثرة الاطلاع على الصحف والمجلات وسائر المطبوعات .

ويمكننا أن نتصور مدى التقارب الفكرى الذى يحدث بين الشعوب اذا ما اختفت الأمية وأصبحت الغالبية العظمى من بني الانسان على مستوى من الثقافة يؤهلهم لاستيعاب ما يجرى في العالم من أحداث والحكم عليها حكما منطقيا صحيحا .

٢ - التلفزيون

بدأت تجارب الإرسال التلفزيوني في عدد من البلاد قبل الحرب العالمية الثانية وكان بعضها يستخدم في ذلك الوقت خليطا من الأجهزة الالكترونية والميكانيكية ، وقد اشرنت بعض هذه التجارب الى الوصول الى نتائج تبشر بالنجاح ، إلا أنها ما لبثت أن توقفت جميعا عند نشوب الحرب ، وقد ساعد التقدم الكبير الذى أحرزته علوم الالكترونيات تحت ضغط ظروف الحرب على إنتاج أجهزة أكثر دقة وكفاءة مما أدى الى نجاح الإرسال التلفزيوني في كثير من البلاد عندما استؤنف فيها بعد أن استتب السلام ، وقد انتشرت بعد ذلك الاذاعات التلفزيونية في كثير من الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية ، وزاد عدد أجهزة الإستقبال ونما مطردا لاسيما أن معظم هذه الدول استطاعت صنع الأجهزة في مصانعها المحلية فضلا على أن حكوماتها قدمت كل معاونة ممكنة للأبحاث والاختبارات التي يقوم بها علماءها كما يتضح لنا من الرسوم البيانية المرفقة في الصورتين رقم (٥) ، (٦) .



شكل (٥) يوضح الزيادة في العدد الإجمالي لمعدات الإرسال والتقوية في البلاد أعضاء الهيئة الدولية للإذاعة والتلفزيون

وكان من الطبيعي ان تتلو هذا النمو خطوة هامة هي ربط محطات الارسال بشبكة من الكابلات الأرضية او الموجات اللاسلكية المتناهية القصر بحيث يتسنى للمشاهدين رؤية البرامج التي تذاع في البلاد المجاورة ، وقد انتظمت البلاد الأوروبية في شبكتين رئيسيتين أحدهما هي شبكة (Eurovision) التي تضم دول أوروبا الغربية والثانية هي شبكة (Intervention) التي تضم دول أوروبا الشرقية ، وما لبثت الشبكتان ان تبادلتا كثيراً من البرامج الاخبارية والثقافية والتفهيبة على مدى الاعوام العشرة الاخيرة ، أما الولايات المتحدة الأمريكية فلها شبكتها الخاصة التي تغطي تلك البلاد الواسعة من اقاصها الى اقاصها .

ثم جاء بعد ذلك دور الاعلام الصناعية في ربط هذه الشبكات التلفزيونية الرئيسية عبر المحيطات والقارات في خلال السنوات القليلة الماضية - كما سيأتي ذكره فيما بعد - وهكذا أصبح في مقدور المشاهد من طريق هذه الوسائل الفنية الحديثة ان يرى في منزله ما يجري من أحداث على بعد آلاف الأميال ، ولعلنا ما زلنا نذكر بعد ما قامت به محطة تلفزيون الكويت منذ شهور قليلة اذ نقلت إلينا الأحداث التاريخية التي صاحبت رحلة الصاروخ أبولو ١٢ الى سطح القمر وعودة الرواد بسلام من تلك الرحلة الى المحيط الهادئ .

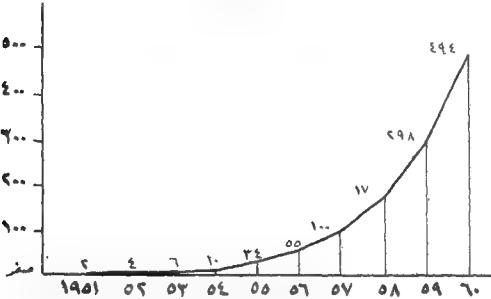
وهذا عرض موجز لمراحل التقدم في الإذاعة التلفزيونية في أوروبا وأمريكا ، أما بالنسبة لأفريقيا فيمكن القول إجمالاً بان التلفزيون في هذه القارة لا يزال في بدايته ، فقد دخلت هذه الإذاعة الى أفريقيا لأول مرة في عام ١٩٥٣ عندما أنشأت إحدى الشركات الخاصة محطة في المملكة المغربية ، ثم تلتها بعد بضع سنوات كل من الجمهورية العربية المتحدة ونيجيريا وروديسيا الجنوبية وغيرها من الدول التي أخذت تدخل في هذا الضمار تباهاً ، إلا ان انتشار التلفزيون في بعض البلاد الأفريقية يعاني شيئاً من المصاعب ، وتأتي على رأسها مسألة اعداد البرامج بسبب عدم رسوخ قدم الفن المسرحي او الافلام السينمائية ، مما أدى في كثير من الأحيان الى ان تعتمد برامج التلفزيون على الافلام المستوردة التي قد لا تروق لبناء البلاد ، كما ان النواحي المالية تشكل صعوبة أخرى نظراً لأن انخفاض مستوى الدخل في بعض البلاد الأفريقية لا ييسر لكثير من الافراد شراء أجهزة الاستقبال المرتفعة الثمن ، أضف الى ذلك عدم توفر الكهرباء في أماكن كثيرة من تلك البلاد .

أما بالنسبة للقارة الآسيوية - فيما عدا اليابان - فان الحال لا يختلف كثيراً عن أفريقيا ، الا ان التقدم السريع الذي طرأ على الخدمة التلفزيونية في اليابان قد دفع كثيراً من تلك الدول التي حصلت على استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية الى الاهتمام بهذه الوسيلة الحديثة كمظهر من مظاهر التقدم وأحدى الدعامات الأساسية التي تركز عليها النهضة التعليمية والثقافية والترفيهية .

ويمكن القول إجمالاً بان عدداً كبيراً من الدول النامية في آسيا تعاني من نفس المصاعب التي تواجه مثيلاتها في أفريقيا من حيث الافتقار الى البرامج الجيدة والنواحي المالية وعدم توفر الكهرباء .

بعد هذا العرض التاريخي الموجز لانتشار التلفزيون في أنحاء العالم ، يهمننا ان نعرف اثر هذا الاختراع الحديث على تقارب الثقافات بين الناس في مختلف الدول ، فمن الواضح ان الإذاعة التلفزيونية تعتمد في كثير من برامجها على الافلام المستوردة والمنقولة على الشبكات الرئيسية من البلاد الأخرى سواء اكان ذلك بسبب الرغبة في التبادل الثقافي ام لعدم كفاية الانتاج المحلي كما اسلفنا ، أضف الى ذلك استخدام الاعلام الصناعية في نقل الأحداث الهامة صوتاً وصورة وقت وقوعها ، وإيا كانت الاسباب فقد أصبح في استطاعة الفرد العادي وهو جالس في عقر داره

ان يرى ويسمع ما يجرى في أنحاء العالم من اخبار وتتابع تطورات الاحداث على الطبيعة ويطلع على عادات الناس في البلاد الاخرى وأساليبهم في الحياة وحكمهم على الاشياء والمواقف المختلفة من خلال الأفلام الترفيهية والمسرحيات فضلا على مدى تقدمهم في فنون الموسيقى والرقص .. الخ ، وهكذا اخذ الإنسان في هذا العصر يشارك مشاركة فعالة بشعوره وفكره ووجدانه فيما يجرى في عالمنا من أحداث ، وازدادت الروابط الفكرية توثقا بين مختلف الاجناس الى درجة كبيرة لم تكن لتصل اليها بدون هذا الاختراع الحديث ، والامثلة على ذلك كثيرة : فاذا وقعت كارثة من كوارث الطبيعة كالزلازل في بلد من البلاد شعرت به جميع بلاد العالم ، بل رأت مشاهدته المروعة بعد حدوده بساعات قلائل ، فتبادر الشعوب المختلفة الى مديد المعونة الطبية والمادية الى المتكويين ، واذا شنت إحدى الدول حرباً عدوانية على دولة اخرى انتشرت اخبارها وصورها بسرعة البرق وظهرت على شاشات التلفزيون في أنحاء العالم فتبادر الشعوب التي تأخذ جانب الحق الى تأييد الشعب المعتدى عليه مادياً وأدبياً ، وقد أدى ذلك الى قيام رأي عام عالمي يحسب حسابه وتعمل الدول كبيرها وصغيرها على كسب تأييده بمختلف الوان الدعاية .



شكل (٦) يوضح الزيادة في عدد استوديوهات التلفزيون في البلاد اعضاء الهيئة الدولية للاذاعة والتلفزيون

وهناك عاملان أساسيان سوف يكون لهما بالغ الأثر في زيادة تأثير التلفزيون في تعميق التيارات الفكرية والثقافية بين مختلف الشعوب:-

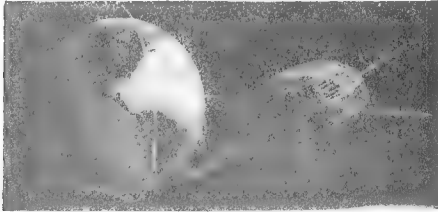
العامل الأول هو بدء استخدام اشباه الموصلات والترانزستور والدوائر الالكترونية المتناهية الصغر في صناعة اجهزة استقبال التلفزيون - شأنها في ذلك شأن اجهزة الراديو - مما يؤدي الى صغر حجم الجهاز وسهولة نقله من مكان الى مكان وامكان تشغيله بالبطارية دون الكهرباء ، وقد بدأت هذه الاجهزة تظهر في الأسواق الا أنها ما زالت مرتفعة الثمن ، فاذا أمكن التغلب على هذه العقبة واصبحت في متناول ذوي الدخل المحدود فسوف تنتشر انتشارا سريعا لا سيما في المناطق التي لا يتوفر بها التيار الكهربائي في البلاد النامية في افريقيا وآسيا ، ولا يخفى ما لهذا الانتشار من آثار كبيرة على زيادة الروابط الفكرية والثقافية بين مختلف الشعوب ،

اما العامل الثاني فهو استخدام التلفزيون كوسيلة تعليمية لمكافحة الامية ونشر الثقافة على نطاق واسع بين سواد الشعب ، ومما لا شك فيه ان هذا الاسلوب في التعليم له اثر اكبر كثيراً من استخدام الراديو لان مصاحبة الصورة للصوت لها اثر فعال في تسهيل مهمة المدرس وترسيخ مضمون الدرس في ذهن الطالب ، وان كان التلفزيون التعليمي لا يزال في بدايته الا اننا نتنبأ له بآثار كبيرة في النواحي الفكرية عندما يؤدي رسالته في محو الامية ونشر المعارف بين اعداد كبيرة من الناس ، وقد بدأت بعض الدول - ومنها دول متقدمة مثل الولايات المتحدة - في تطبيق هذه الوسيلة الحديثة بان امدت عدداً كبيراً من المدارس والنوادي بأجهزة استقبال تلفزيوني وأعدت برامج تعليمية خاصة تداع في اوقات معينة ، وقد روعي في اعدادها ان تناسب المستوى الثقافي للفئات المختلفة من المشاهدين .

٣ - الاتصالات اللاسلكية عبر الفضاء

بوساطة الأقمار الصناعية

عندما استطاع الانسان في السنوات القلائل الأخيرة ان يطلق اقماراً صناعية تدور في افلاك حول الارض ، وان يتحكم بدقة في مدارها من حيث السرعة والاتجاه ، بدأ التفكير في استخدام هذه الوسيلة الجديدة في الافراض السلمية ، ومن بينها الاتصالات اللاسلكية ، وبذلك برز على العالم فجر جديد تفرقت فيه الاتصالات اللاسلكية قفزة هائلة الى الامام وتحقق حلم الانسانية بإنشاء شبكة موحدة تربط أرجاء الكرة الأرضية بعضها ببعض .



صورة (٧) توضح دوران قمرين صناعيين حول الأرض في مدارين متعامدين

كانت الاتصالات بين القارات تتم حتى عهد قريب ، اما بوساطة كابلات بحرية (Submarine Cables) تعبر المحيطات او باستخدام موجات لاسلكية ذات ذبذبات عالية (High Frequency) اما الوسيلة الاولى - وان كانت ذات كفاءة عالية - فهي باهظة التكاليف سواء من ناحية رأس المال او نفقات الصيانة والتشغيل ولد اقتصر استخدامها على الحالات التي تشتد فيها الحركة بين النهايتين ، واما الوسيلة الثانية فكفاءتها منخفضة ، اذ ان حيز الذبذبات (Frequency Band) الذي يمكن نقله بوساطتها محدود جداً عدا انها تخضع الى حد كبير لظروف الجوية والاشعاعات الفضائية كالبقع الشمسية وغيرها .

اما الأقمار الصناعية فلها ميزات فائقة في هذا المضمار : اولها ان القمر الصناعي يستطيع

أن « يرى » رؤية لاسلكية مباشرة - لا بحجبهاى عائق - مساحات شاسعة على الكرة الأرضية بحيث يستطيع الإنسان عن طريقه أن ينشئ اتصالات لاسلكية على مستوى عال جداً من الكفاءة بين جميع البلاد التي تقع في افقه ، الأمر الذي لم يكن متيسراً بالوسائل التقليدية التي كانت معروفة من قبل ، ومن بين هذه الميزات أيضاً ان التراسل (Transmission) بهذه الطريقة الحديثة يجري على الموجات المتناهية القصر (Microwaves) مما يجعل الاستقبال واضحاً غاية الوضوح ويسمح بنقل حيز كبير جداً من الدبلبات وبذلك يتسنى نقل البرامج التلفزيونية والإذاعات الصوتية والمئات من المكالمات التلفونية والبرقيات في وقت واحد ، الأمر الذي كان في حكم المستحيل قبل استخدام الأقمار الصناعية .

ولعله من المناسب هنا أن نسرّد بعض المعلومات الطريفة عن هذه الوسيلة الحديثة قبل أن نطرق بنا الحديث إلى دراسة آثارها : -

كيف يوضع القمر الصناعي في مداره ؟

كان هذا الأمر في بدايته على جانب كبير من الصعوبة إلى أن استطاع العلماء أخيراً انتاج الصواريخ ذات الطاقة الهائلة والتحكم في مسارها بدقة ، والمعروف أن أي جسم قريب من سطح الأرض يقع تحت تأثير قوة الجاذبية الأرضية (Gravity) وهذه القوة تتناسب تناسباً طردياً مع وزن الجسم وتناسباً عكسياً مع مربع المسافة التي تقع بينه وبين مركز الكرة الأرضية ، وعلى ذلك فكلما بعد الجسم عن سطح الأرض قل وزنه وضعف تأثير الجاذبية الأرضية عليه ، ومن المعروف أيضاً أن أي جسم يدور بسرعة كبيرة يقع تحت تأثير قوة أخرى تتناسب مع سرعته ومثل أن بعده عن مركز الدوران ، وتسمى هذه بالقوة الطاردة المركزية Centrifugal Force .

وعلى هذا فلكي يدرك القمر الصناعي مداره يجب أن يدفع به إلى طبقات الجو العليا ويبدأ دورانه حول الأرض بسرعة مناسبة تتساوى عندها القوتان المتعارضتان اللتان تؤثران عليه وهما قوة الجاذبية الأرضية والقوة الطاردة المركزية ، وكلما زاد ارتفاع القمر فوق سطح الأرض انخفضت السرعة اللازمة لحفظ هذا التوازن ، فالقمر الذي يرتفع إلى ١٠٠ ميل مثلاً يجب أن يتم دورة واحدة كل ٨٧د٥ دقيقة ، في حين أنه إذا ارتفع إلى ٦٠٠ ميل يتم دورته كل ١٠٤ دقيقة ، أما إذا أمكن رفع القمر إلى ارتفاع شاهق يبلغ ٢٢٢٧٠ ميلاً فإن وقت الدورة الواحدة يصبح ٢٤ ساعة تقريباً أي نفس سرعة دوران الأرض ، وفي هذه الحالة يسمى بالقمر المتزامن (Synchronous Satellite) ومثل هذا القمر إذا اتجه شرقاً وكان مداره رأسياً فوق خط الاستواء فإنه يظهر (إذا أمكن رؤيته) وكأنه ثابت في السماء بالنسبة للأرض .

الأقمار التي يمكن استخدامها في الاتصالات اللاسلكية وأنواعها :

يمكن تقسيم هذه الأقمار بوجه عام إلى ثلاثة أنواع رئيسية هي : -

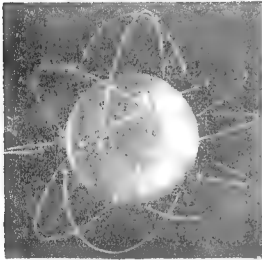
القمر غير العامل أو العاكس :

ويمتاز في تركيبه بالبساطة إذا أنه يتخذ شكل بالون كبير مغطى بغلاف معدني ولا يحتوي على أية أجهزة بداخله ، ويستخدم لجرد انعكاس الإشارات إليه من الأرض فتصل بذلك إلى مسافات بعيدة ، وقد أطلق أول قمر من هذا النوع في أغسطس صام ١٩٦٠ تحت اسم (Echo 1) على مدار يبعد ١٠٠٠ ميل عن الأرض ، وقد استخدم هذا القمر على مسدى

سنوات في ارسال موجات اذاعية تحمل الصوت والموسيقى وحتى بعض البرامج التلفزيونية لمسافات شاسعة .

واهم ميوب هذا النوع من الأقمار هو القوة الهائلة التي يتطلبها جهاز الارسال الأرضي لكي تستمر , استقبال اشارات واضحة عند جهاز الاستقبال .

صورة (٨) قمر صناعي عامل ويحتوى في داخله على
اجهزة الاستقبال والارسال وسطحه الخارجى مغطى
البطاريات الشمسية .



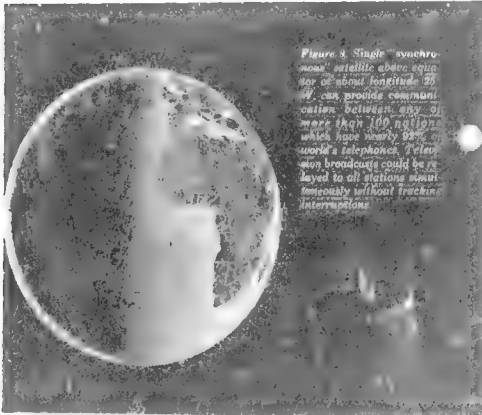
صورة (٩) يازم . او اكثر من الأقمار المتخلصة
الارتفاع في التزامنة لكي تحقق الاتصال بين ايمصتين
على سطح الأرض .



القمر العامل في التزامن :

وفي هذه الحالة فان القمر يحتوى في داخله على جهاز واحد او اكثر من اجهزة الاستقبال والارسال تمدها بالقوة اللازمة لتشغيلها مجموعة كبيرة من البطاريات الشمسية (Solar Batteries) تمتص اشعة الشمس وتحول طاقتها الى طاقة كهربائية (صورة ٨) ، ولتقطع جهاز الاستقبال في داخل القمر الاشارات التي ترسلها المحطة الأرضية فيزيد من قوته ثم يرسلها بالتالي الى محطة استقبال أرضية اخرى ، وبهذه الطريقة فان الأمر لا يستلزم ارسال اشارات بالقوة من الأرض ، وهذا ما يؤدي الى خفض تكاليف المحطات الأرضية ، وبطبيعة الحال فان الاجهزة التي تستخدم داخل القمر يجب ان تكون على درجة عالية جداً من الجودة والكفاءة ، إذ ان المطلوب منها ان تعمل بانتظام وبدون أية صيانة لمدة سنوات .

اما كون هذا النوع من الاقمار غير متزامن فلأنه يطلق على مدار منخفض نسبياً - وبسرعة مدارية عالية - بغية الاقتصاد في نفقات الصواريخ، إلا أن القمر الواحد في هذه الحالة لا يبدو ظاهراً بالنسبة لمحتلين ارضيتين في وقت واحد إلا لفترة قليلة من الوقت ثم يختفي وراء الأفق ولا يظهر ثانية إلا بعد فترة طويلة أخرى ، ولذلك فإن استخدام هذا النوع من الاقمار من طريق عدة أزواج من المحطات في نفس البقعة من العالم لا يثنى إلا بزيادة عدد الاقمار الموثية في وقت واحد (صورة ٩) ، وهذا قد يكون سبباً في عدم ملائمة هذه الوسيلة من النواحي الاقتصادية ، إلا أنها قد تستخدم في أغراض أخرى كالإرسال الجوية والبحوث العلمية والفلكية .



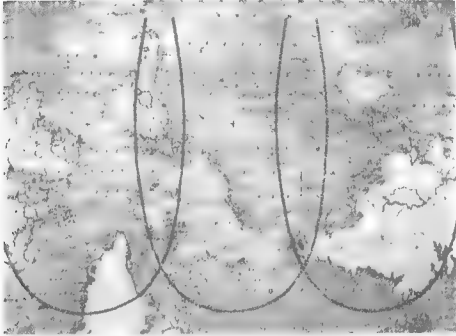
صورة (١٠) : قمر صناعي متزامن يقع فوق خط الاستواء عند خط الطول ٢٥ غرباً يستطيع أن يخدم ١٠٠ دولة بما
٩٢٪ من الهواتف العالم وينقل الإذاعات الصوتية والتلفزيونية بينها بلا انقطاع

القمر العامل المتزامن :

وهو لا يخرج في تركيبه من النوع السابق بوجه عام مع اختلاف في أجهزة الضبط والتحكم ، ونظراً لارتفاع الهائل الذي يجب أن يبلغه هذا النوع قبل أن ينتظم في مداره فإن الصاروخ الحامل له تزيد تكاليفه بدرجة كبيرة ، ويقابل هذا خفض كبير في تكاليف المحطات الأرضية . لأن القمر ثابت في وضعه بالنسبة لها في السماء ، أضف إلى ذلك أن مدى هذا القمر كبير جداً لدرجة أن ثلاثة أقمار فقط من هذا النوع تكفي لإيجاد اتصال مباشر عبر الفضاء بين جميع أنحاء المعمورة (انظر

الصورتين (١٠ ، ١١) ، ويمكن من طريق هذا الاتصال نقل الاذاعات الصوتية والتلفزيونية ومئات من المكالمات التلفونية والبرقيات في نفس الوقت كما سبق ذكره .

لهذه الاسباب فان هذا النوع من الاقمار هو الذى يستخدم الآن فى الاتصالات اللاسلكية عبر الفضاء .



صورة (١١) : ثلاثة اقمار صناعية متزامنة تستطيع ان تغطي بلاد العالم كافة بمواصلات الفضاء .

وقد انتهت الدول الى خطورة هذه الوسيلة الجديدة من وسائل الاتصال ، فعرض الامر على هيئة الاسم المتحدة التي اتخذت بدورها قراراً يقضى بأن تكون مواصلات الفضاء متاحة لجميع الدول لاستخدامها على مستوى عالمي دون تمييز بين دولة وأخرى ، ومعنى هذا القرار انه لا يسمح لأية دولة باحتكار هذه الوسيلة حتى ولو كانت هي التي تطلق الاقمار الصناعية .

كما بادر الاتحاد الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية الى عقد اول مؤتمر دولي للمواصلات اللاسلكية عبر الفضاء في جنيف بسويسرا خلال شهر نوفمبر عام ١٩٦٣ ، وقد اتخذ هذا المؤتمر عدة قرارات هامة منها ما يتعلق بتخصيص مجالات جديدة من الترددات للاذاعات الصوتية والتلفزيونية والمكالمات التلفونية والبرقيات ، فضلاً على مجالات أخرى لإبحاث الفضاء وعلم الفلك اللاسلكي والارصاد الجوية وغيرها من النواحي العلمية ، ومن هذه القرارات ما يتعلق باستحداث خدمات جديدة لسفن الفضاء في حالات الاستغاثة والطوارئ وما إليها .

بعد هذه الدراسة الموجزة يجدر بنا أن نلقى نظرة على الآثار الخطيرة التي تترتب على استخدام هذه الوسيلة الحديثة في ربط بلاد العالم بعضها ببعض من النواحي الثقافية ، علماً بأننا ما زلنا في هذا المجال بعد في بداية الطريق ، ويمكننا ان نتصور ما سيكون الحال عليه بعد عشر سنوات مثلاً : حين يجلس المرء في داره فيرى على شاشة التلفزيون ما يجري من أحداث في أقصى الأرض لحظة

وفوقها ، أو يستمع في الراديو الى اذاعات واضحة لا تشويش فيها تأتيه ليلا ونهاراً من جميع انحاء العالم ، أو يدبر قرص فلفونه فيتصل في ثوان معدودات باقربيه وأصدقائه في القارات الأخرى . لا ريب في أن هذه الصورة التي ينتظر أن تتحقق في المستقبل القريب تحوي ابعاداً من التشاوب الثقافي والتألف الفكري سوف يكون لها اعمق الآثار على الاجيال القادمة من البشر ، ومما لا شك فيه انها سوف تؤدي الى أن يكون الناس اعمق فهماً لمشاكل بعضهم البعض واكثر استعداداً لتقبل وجهات النظر المختلفة أو تفهماها على الأقل .

٤ - الآثار غير المباشرة لبعض المخترعات الإلكترونية

سوف نتناول هنا الآثار غير المباشرة التي تترتب على استخدام الالكترونيات في استحداث أو تطوير بعض الاجهزة والتنظيمات . Systems التي تلعب دوراً هاماً في تسهيل الاتصال الفكري والثقافي بين أرجاء العالم ، على اننا سوف تقتصر على الإشارة في ايجاز الى بعض هذه المخترعات وذلك على سبيل المثال لا الحصر : -

اجهزة تسجيل الصوت :

ظلت اجهزة التسجيل سائرة في نفس الطريق الذي بداه توماس اديسون المخترع الاميركي حين توصل في مطلع هذا القرن الى تسجيل الصوت على اسطوانات ثم على اقراص من الشمع ، واخذت هذه الاجهزة بعد ذلك تتطور ببطء الى ان اكتشف الصمام الالكتروني وامكانياته الكبيرة ، وحينئذ ففرت الأنواع المستخدمة فيها قفزة واسعة الى الامام : منها ما يسجل الصوت على اقراص من البلاستيك زهيدة الثمن ، ومنها ما يستخدم الاشرطة المغناطيسية التي تستوعب الساعات الطوال من الاحاديث والموسيقى والغاني ، واُضيف الى هذا صغر حجم الاجهزة نفسها وقلّة النفقات اللازمة لتشغيلها ومهولة حملها من مكان الى مكان .

كل هذه التحسينات أدت الى اتساع مجالات استخدام هذا النوع من الاجهزة ، ولعل أهم هذه المجالات في نظري هو تعليم اللغات الحية بطرق حديثة سهلة ، وعلى أسس فنية جديدة ، فقد أصبح في متناول الفرد ان يفتني جهاز تسجيل ومعه مجموعة كاملة من الدروس اللازمة لتعلم اي لغة مسجلة على « اسطوانات » كما ان الجامعات ومعاهد العلم اخذت تستخدم هذه الوسيلة الحديثة على شكل « مختبرات .. للغات » حيث يستطيع الطالب وهو جالس في مكانه ان ينصت الى مختلف التسجيلات اللغوية مما يساعد الاساتذ مساعدة كبيرة في أداء مهمته ، ويمكننا ان نتصور مدى مساهمة الالكترونيات حتى في هذا المجال المحدود - في نشر الثقافات وتقارب الأفكار ، اذ ان انتشار اللغات يؤدي الى تيسير سبيل التخاطب والتفاهم بين مختلف الاجناس .

اجهزة الملاحة البحرية والجوية :

انتشر استخدام الالكترونيات في السنوات الاخيرة انتشاراً كبيراً في الاجهزة الخاصة بتيسير الملاحة البحرية والجوية ، واصبحت هذه الاجهزة تعتمد اعتماداً كلياً على الدوائى الالكترونية الحديثة في هداية السفن في اعالي البحار والطائرات ذات المدى البعيد ، وتحديد اماكنها بدقة على الخريطة في أية لحظة على مدار الاربعة وعشرين ساعة ، بل ان هناك من الاجهزة ما يستخدم حالياً في الطائرات الدولية لأرصاد الطائرات ومنع تصادمها عند التزول في أسوأ الظروف الجوية ، بل انها تستطيع انزال الطائرات تلقائياً دون تدخل من الطيار نفسه عند الحاجة

الى ذلك ، ولعل ابلغ دليل على ما وصل اليه التقدم في هذا المجال ما لسنائه اخيراً في رحلات أبولو الأمريكية الى القمر وكيف استطاعت الأجهزة الالكترونية أن تحدد في دقة متناهية مكان هبوط الكبسولات التي تحمل رجال الفضاء في المحيط الهادئ ، ووقت هذا الهبوط بالضبط مما سهل عمليات انتشالهم وانتشال الكبسولات بما تحمل من معلومات لا تقدر بثمن .

ولنتظر الآن فيما يترتب على ذلك من آثار بالنسبة للموضوع الذي نحن بصدده : فمما لا شك فيه ان تأمين سلامة المسافرين والبضائع بالبوأخر والطائرات قد ادى الى تقريب المسافات البعيدة بين أنحاء العالم واصبح الانتقال من مكان الى مكان مهما بعدت الشقة في متناول عدد كبير من الناس باجر معقول وفي ساعات قلائل ، مع توفر وسائل الأمان بدرجة لم يعرفها الإنسان من قبل في تاريخه الطويل على وجه الأرض ، وكما سبق ان أسلفنا فان اختلاط الناس بعضهم ببعض يزيل الحواجز بينهم ويعمق التيارات الفكرية التي تربطهم .

أجهزة التنبؤات الجوية :

أخذت هذه الأجهزة في السنوات الاخيرة تعتمد اعتماداً كلياً على الالكترونيات ، واصبحت محطات الأرصاد الجوية المنتشرة على وجه الكرة الأرضية - بل وفي سمائها داخل الأقمار الصناعية - تستقي بياناتها ونشراتها وقياساتها عن طريق الدوائر الالكترونية العديدة المركبة بها ، وقد ادى هذا الى تقدم ملموس في صحة التنبؤات الجوية ومقاربتها للواقع .

اما الدور الذي تلعبه هذه النشرات في حياتنا اليومية فهو مهم وأساسي لا سيما بالنسبة لتأمين الملاحة البحرية والجوية وكفاءة الاتصالات اللاسلكية وغير ذلك من أوجه النشاط ، وهنا يتضح الدور غير المباشر الذي تلعبه الالكترونيات في حياتنا الفكرية والثقافية .

العقول الالكترونية

عملها واستعمالاتها وأثارها

١ - عصر آلات التفكير

يحتاج الإنسان في كفاحه من أجل الحياة والسيطرة على الطبيعة إلى استخدام حواسه ، وذهنه ، وعضلاته . فحواسه تكشف له الفياحولة ، وذهنه يرشده إلى ما يجب أن يفعل تجاه البيئة التي يعيش فيها ، وعضلاته هي وسيطته المادية في تنفيذ ما يرشده إليه ذهنه .

ولما كانت قوى عضلات الإنسان محدودة فقد قدح ذهنه لتسخير قوى الطبيعة في خدمته، وكان نجاحه في ذلك فائقا ، فقد اخترع الآلة البخارية ، ومولد الكهرباء ، والمحرك الكهربى ، وآلة الاحتراق الداخلى ، وبهذا أضاف إلى قوى عضلاته قوى أخرى تبرزها مرات ومرات وتؤدي له خدمات من ثلاث درجات : فهي تساعد في إنجاز أعمال كانت تتقل كاهله ، وتؤدي له أعمالا أخرى من نوع هذه الأعمال ولكنها تزيد عليها عشرات المرات ، كما تقوم له بأعمال من أنواع جديدة ما كان يستطيع القيام بها بدون هذه الآلات .

كذلك كان مدى رؤية الإنسان وسمعه محدودا ، على أنه بقدح ذهنه أمكنه اختراع التلسكوب ، والميكروسكوب ، وآلة التصوير ، والسينما ، والتليفون ، والتلفراف ، والراديو ، والتليفزيون . وبذلك اتسعت أمامه الآفاق ، وأبصر دقائق الأشياء ، ورأى وسمع ما يحدث في أجزاء الأرض الأخرى وهو بعيد عنها آلاف الأميال .

ولقد اخترع الإنسان كل الآلات السابق ذكرها دون أن يجد ذهنه من المساعدات سوى

(*) الدكتور صلاح الدين طلبة . استاذ الاحصاء بجامعة الكويت ورئيس قسم الاحصاء والتأمين بكلية التجارة بجامعة الاسكندرية . له بحوث منشورة في المجلات العلمية العربية والأوروبية في الرياضيات والاحصاءات الحيوية والتأمين . من مؤلفاته : مقدمة الطرق الاحصائية (دار المعارف - الاسكندرية) .

تلك التي قدمتها له الآلات الحاسبة التقليدية الهزيلة، وعدد من الجداول الرياضية الميثية بالإخطاء وبعض المعلومات التي سطها بنو جنسه في الكتب والمجلات. على أنه كلما ازداد تقدمه في تسخير قوى الطبيعة استجدت له احتياجات حسابية ورياضية جبارة ولم تعد الآلات الحاسبة التقليدية والجداول الرياضية القديمة كافية لتلبية هذه الاحتياجات. كذلك تراكمت الكتب والمجلات وأصبح البحث فيها عن المعلومات من أشق الأمور .

وهكذا لزم الإنسان أن يبحث عن وسائل من نوع جديد تساعد ذهنه في حل المشاكل الرياضية المعوية ، وتقوم له بالأعمال الحسابية الروتينية المتراكمة ، وتخزن له المعلومات وتمده بها منقحة عند الطلب بأقل جهد وبدون انتظار .

ولقد أوشك الإنسان في القرن الماضي على النجاح جزئيا في هذا السبيل عندما اهتدى عالم الرياضيات الإنجليزي تشارلز بابيدج (١) إلى المبادئ الأساسية اللازمة لتصميم الآلات المساعدة للذهن في حل المشاكل الرياضية ، وفي أداء الأعمال الحسابية . على أن التكنولوجيا في عصره لم تسعفه في إتمام صنع آلة صمها لذلك وسماها « الآلة التحليلية » ، ونامت أفكار بابيدج قرنا من الزمان .

وأخيرا - ومنذ ربع قرن فقط - وتحت ضغط الاحتياجات الحربية - جاءت النجدة لمساعدة أذهان الناس في شكل آلات يحب البعض أن يسميها « المعقول الإلكترونية » ، ويفضل العلماء أن يطلقوا عليها اسما أكثر دقة مثل « الآلات الحاسبة الإلكترونية » - أو شيئا من هذا القبيل . ولم يكن نجاح الإنسان جزئيا في هذه المرة ، وإنما كان كليا وفوق كل ما كان يسعى إليه أو يتوقعه ، فقد صنع آلات من نوع جديد تماما تحل أصعب المسائل الرياضية ، وتؤدي الملايين من الأعمال الحسابية الروتينية في ثوان معدودة . كما أنه في الاستطاعة توسيع « ذاكرتها » لتسع أي قدر من المعلومات بمد تنقيحها ، ثم تعطيها في الحال مند الطلب .

وهي تفعل كل ذلك بدون أن تثعب، وبدون أن تمل ، وبدون أن تخطئ .

ولقد كان من باكورة إنجازات هذه الآلات عمل الجداول اللازمة لإطلاق المدافع ، وحل العديد من المسائل الرياضية اللازمة لتصميم وصنع كل من المفاعل النووي ، والقنبلة الذرية ، والطائرات النفاثة ، والصواريخ الجبارة ، والقنبلة الهيدروجينية . ولم تكن الآلات الأولى تستخدم للأغراض التجارية لكثرة تكاليفها ، وكبر حجمها ، وعدم توفر المتخصصين في مجال استعمالها وتشغيلها . . على أن التقدم التكنولوجي السريع جعل في الإمكان صنع أنواع جديدة من هذه الآلات بتكاليف أقل وحجم أصغر مع كفاءة أكبر ، سواء من حيث سرعة الأداء أو سعة الذاكرة ، كما أن الناس تعلموا كيف يستعملون هذه الآلات ، وبذلك نزلت الآلات الحاسبة الإلكترونية إلى الأسواق بالمشرا ، ثم بالآلات ، ثم بالآلاف ، وأصبحت صناعاتها واحدة من أكبر الصناعات ، وفي أقل من ربع قرن أصبحنا نجد هذه الآلات في خدمة العلم، والطب ، والهندسة ، والصناعة ، والتجارة والاقتصاد وغيرها .

ولكن ما هي الخدمات التي تؤديها الآلات الحاسبة الإلكترونية في هذه المجالات ؟ أنها تساعد ذهن الإنسان في حل المشاكل الرياضية والعلمية ، وفي تذكر المعلومات ، وفي تشخيص الأمراض ، وفي تصميم مختلف الأنواع من الآلات ، وفي الإدارة الآلية للمصانع ، وفي استخدام الموارد المحدودة

بأكبر فائدة ، وفي الأعمال الاحصائية بإدارات الحكومة، والأعمال المحاسبية بالمصارف والشركات، بالإضافة الى كثير غير ذلك . .

ولكى يتبين الى أى حد تساعد هذه الآلات ذهن الانسان في المجالات المختلفة يكفي أن نقول بأن الآلة الواحدة الكبيرة منها تستطيع أن تحل في دقائق من المسائل الرياضية أكثر مما يستطيع مائة من الرياضيين في عام كامل ، وأن تؤدي في يوم واحد من الأعمال الحسابية ما يشغل ملايين الكتبة في أسبوع ، وأن تحفظ في ذاكرتها ما يملأ مئات المجلدات . وعما قرب سيأتي اليوم الذي تسع فيه ذاكرة بعض الآلات ما يوجد بمكتبة عامة كاملة .

ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بالمدى الذي يستصل اليه نتائج اختراع هذه الآلات الجديدة التي يقابل دورها في مساعدة ذهن ذلك الدور الذي تقوم به الآلات التقليدية في مساعدة العضلات . فالآلات الحاسبة الالكترونية تؤدي للذهن خدمات من ثلاث درجات : فهي تساعده في إنجاز أعمال كانت ترهقه ، وتؤدي له أعمالاً أخرى من نوع هذه الأعمال ولكنها يمكن أن تريد عليها آلاف المرات ، وتقوم له بأعمال من أنواع جديدة ما كان يستطيع القيام بها بدون هذه الآلات .

ولئن جاء اختراع الآلة البخارية إعلاناً للثورة الصناعية فما هو الإعلان الذي جاء به اختراع الآلات الحاسبة الالكترونية ؟ ان الناس يحسون أن يقيسوا التفورات بمقدار نتائجها المادية، ولذلك يقول البعض منهم أن اختراع هذه الآلات جاء إعلاناً لثورة صناعية ثانية . على أننا نكون أكثر دقة لو قلنا ان ما جاءت به هذه الآلات هو « ثورة ذهنية » سيكون لها من الآثار ما لا يقاس به اثر اختراع الآلة البخارية. ليس من أول آثار الآلات الجديدة أن دخل الانسان عصر الفضاء ؟ وهل كان يمكن بدون هذه الآلات إطلاق الصواريخ في الاتجاه الصحيح، ثم تتبع مساراتها، وتوجيهها في ذهابها الى القمر ، ومودتها منه ؟

ولا تقتصر آثار الآلات الحاسبة الالكترونية على مواقع منعزلة (مثل الصواريخ عابرة الفضاء، أو البحوث النووية) وإنما تمتد آثارها الى ميادين واسعة ، فقد نتج عن وجودها ظهور علوم وطرق جديدة تغطي مجالات الإدارة ، والصناعة ، والاقتصاد ، والاجتماع ، والحرب . ومن هذه العلوم والطرق الجديدة : « البرامج الخطية » (١) ، و « المحاكاة » (٢) و « تقويم المشروعات » (٣) ، وغيرها مما سنتكلم عنه فيما بعد . ولاشك أنه سيترتب على اختراع الآلات الجديدة ظهور علوم وطرق أخرى لم يحلم بها الانسان ، ولعله من أخطر الآثار التي تترتب على اختراع الآلات الحاسبة الالكترونية أن الإدارة الآلية أو « الأوتوميشن » (٤) في الصناعة أصبحت أمراً ممكناً . . ولقد ظهرت بداية ذلك في صناعات تكرير البترول وبعض الصناعات الكيميائية والكهربية ، وهكذا ستدير « المقول » الالكترونية المصانع ، وتشرف على الآلات الأخرى ، وتقضي شيئاً فشيئاً على احتياجات الصناعات القائمة للأيدي البشرية . ولابد أن مجرد ظهور هذه الفكرة يقض مضاجع علماء الاجتماع والاقتصاد ، ورجال السياسة . فهل ستؤدي « الأوتوميشن » في الصناعات الى أن نعم البطالة - بما يترتب على ذلك من آثار اجتماعية واقتصادية وسياسية خطيرة ، أم سنستأن من ذلك صناعات جديدة تحتاج الى عمال جدد (مبردين في هذه المرة بدرجات متفاوتة) فيكون الأمر في صالح العمال والناس جميعاً في النهاية ؟

ولو أمعن الفكر في هذا السؤال فربما وجدنا ان الأرجح ألا تعم البطالة في المجتمعات

المتقدمة ، فسينشأ فيها دائما صناعات وأعمال جديدة . وإنما الويل كل الويل للمجتمعات التي ستبقى في المؤخرة العلمية والتكنولوجية .

ولعله جاء الوقت الآن لكي نصف الآلات الحاسبة الجديدة ونصنفها ، على أنه قبل أن نعمل ذلك نحب أن نتفق على أن نعطى هذه الآلات اسمها العلمى المتفق عليه وهو « كمبيوتر » (١) .

والكمبيوتر كلمة معناها في اللغة الإنجليزية « الحاسب » على شريطة أن يستلزم الحساب تفكيراً وخطوات . والكلمة مشتقة من لفظ لاتينى (٢) معناه « يفكر » . على أن الاستعمال الفنى للفظ « كمبيوتر » أصبح الآن مقصوداً على آلات معينة تسمى صفاتها مع التعريف التالى :

« الكمبيوتر آلة تلقى أوامر وبيانات ثم تتردفقوم بأعمال « حسابية » تتألف من خطوات * . وتتم عملها كله في تلبية الأوامر بدون تدخل الإنسان . وعندما تصل إلى النتيجة المطلوبة تعطى هذه النتيجة أو تبدأ عملاً مبنياً عليها » .

لعل القارئ لاحظ أننا لم نعط للكمبيوتر في هذا التعريف صفته « الالكترونية » المشهور بها . لقد فعلنا ذلك عمداً لأنه يمكن صنع كمبيوتر لا يستعين بالوسائل الالكترونية ، فالإلكترونيات دقائق صغيرة تسبح في مسالك لها ، ومن الممكن تصميم جهاز تقوم فيه جزيئات الهواء أو الماء بنفس الدور الذى تقوم به الإلكترونيات في الكمبيوتر الالكترونى . كما أنه من الممكن تصميم كمبيوتر لا يستخدم فيه سوى الوسائل الميكانيكية مثل الروافع والمجالات المسننة « التروس » . ولقد صمم تشارلز بابيج أول كمبيوتر على هذا الأساس فعلاً (وكان ذلك كما سبق أن ذكرنا قبل أكثر من مائة سنة من انعام صنع أول كمبيوتر عرفه الناس) .

على أن الفارق الأساسى بين الكمبيوتر الالكترونى والكمبيوتر غير الالكترونى هو أن الأول يقوم بعمله بسرعة مذهلة تبال آلاف المرات سرعة أى كمبيوتر غير الكترونى .

وسواء كان الكمبيوتر الكترونى أو غير الكترونى فإنه لا يزيد من كونه آلة من اختراع الإنسان ، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً من نفسه ، ومن التجاوز أن نسميه « عقلاً » . . على أن هذا لم يمنع بعض العلماء من التفكير في اختراع آلات « ذكية » تستجيب للمؤثرات بطريقة التجربة والخطأ ، ولينناقش هنا إمكان وجود مثل هذه الآلات . وعلى كل حال فليس الكمبيوتر من الآلات التى يمكن وضعها تحت قائمة « الآلات الذكية » حسب التعريف السابق .

على أن هذا يجب ألا يجعلنا نحط من قدر الكمبيوتر ، والواقع أن له من القدرات ما يجعله قادراً على « اتخاذ القرارات » في مواقف معينة على أساس قواعد تلقى له (إذا كانت « الأوامر » الصادرة إليه من الإنسان تتطلب منه ذلك وكان تصميمه مبنياً على أساس الاستجابة لهذه الأوامر . وهناك كمبيوترات يمكنها أن (تلعب) الشطرنج وتتخذ بعد كل حركة من الخصم قراراً يتوقف على الوضع القائم وقتئذ .

وهذا ينقلنا إلى الكلام عن أنواع الكمبيوتر والتصنيفات المختلفة التى يمكن إيجادها بين هذه الأنواع .

(6) computer (7) computare

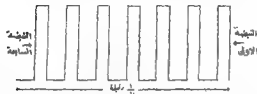
(*) تم الخطوات واحدة بعد أخرى في الكمبيوتر الرقمى بخلاف الكمبيوتر التناظرى الذى تم فيه « الخطوات » مما يلى وقت واحد (سيأتى وصف أنواع الكمبيوتر فيما بعد) .

٢ - أنواع الكمبيوتر

تستخدم الكهربائية في أنواع الكمبيوتر الحديثة المختلفة ، ويكون من الملائم أن نراجع بعض المعلومات الكهربائية الأولية التي نلومنا للتمييز بين النوعين الرئيسيين من الكمبيوترات .

النضات الكهربائية (٨) :

لعله من المفيد أن نراجع أولا معلوماتنا عن نبضات القلب التي نعرفها جيدا . . من المعلوم أن نبضات القلب تحدث بمعدل ٧٠ نبضة في الدقيقة (في المتوسط) ، ولنا قصد بالنبضة ذلك الصوت الذي نسمعه من القلب ، وانما قصد بها ذلك الاندفاع في الدم . أو الضغط ، الناشئ عن انقباض القلب . وهنا يجدر بنا أن نذكر أن هذا الانقباض يتبعه تراخ . وإذا قسمنا الدقيقة إلى ٧٠ فترة متساوية فأننا نجد أنه اذا شرع القلب في النبض في بداية الفترة الأولى فإن النبضة تستغرق جزءا من هذه الفترة ، يليها تراخي القلب في باقي الفترة ، ثم تبدأ نبضة أخرى في بداية الفترة الثانية ، وهكذا .



شكل (١) يمثل ٧ نبضات لقلب ينتهي بمعدل ٧٠ نبضة في الدقيقة .

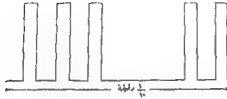
ويعتدل شكل (١) سبع نبضات لقلب ينبض بمعدل ٧٠ نبضة في الدقيقة ، والخط الرأسي الأيمن يبدأ من أسفل متجها إلى أعلى ممثلا ضغط الدم يزداد فجأة (في بداية الفترة الأولى) إلى ارتفاع معين . ويتلو ذلك خط أفقي ممثلا أن ضغط الدم يبقى مرتفعا أثناء النبضة . أما الخط الرأسي الثاني فيبدأ من أعلى متجها إلى أسفل ممثلا أن الضغط ينخفض فجأة عند نهاية انقباض القلب وبداية تراخية ، ويتبع ذلك خط أفقي ممثلا أن الضغط يبقى منخفضا طوال بقية الفترة الأولى . وهكذا بالنسبة إلى باقي النبضات .

ومن الواضح أن هذا بسيط شديد في تمثيل التغيرات التي تحدث لضغط الدم نتيجة حدوث حركة القلب ، فالواقع أن ضغط الدم لا يرتفع فجأة (عند بداية الانقباض) بالطريقة الظاهرة في الشكل ، ولا بد أن اتسام الارتفاع يستغرق وقتا ، مهما كان هذا الوقت ضئيلا . على أن كل ما يعنينا هو أن نعتبر أن القلب يرسل « اشارات » متتابة في شكل نبضات ، وربما كانت الضغوط غير متساوية في هذه الاشارات ، ولكن هذا لا يعنينا ، فالاشارات تحدث بمسرف النظر عن مقدار الضغوط فيها ، ومن تساوى هذه الضغوط أو اختلافها فيما بينها .

والآن دعنا نقارن بين نبض القلب وعمل موظف التلفزيون الذي يجلس إلى آلة الإرسال . يمكننا أن نطلب منه أن يقلد عمل القلب ويرسل « اشارات » في فترات زمنية متساوية في شكل « نبضات كهربية » . ولو كانت سرعة إرساله هي ٧٠ نبضة في الدقيقة فمن الممكن أن نمثل النبضات الكهربائية التي يرسلها في ١/١٠ دقيقة بنفس الرسم الموجود في شكل (١) .

ولنفرض أن هذا الموظف قسم الدقيقة إلى ٧٠ فترة متساوية كما طلبنا ولكنه بعد إرسال

الإشارتين الأولى والثانية لم يرسل الثالثة والرابعة ثم أرسل الإشارات الثلاث التالية في مواعيدها . عندئذ يمكننا أن نمثل الإشارات (النبضات) التي أرسلها كما في شكل (٢) .



شكل (٢) يمثل حدوث نبضتين ثم غياب نبضتين ،
ثم حدوث ثلاث نبضات (ن) $\frac{1}{10}$ دقيقة .

على أن هناك من الأجهزة الكهربائية ما يمكنه إرسال مئات الآلاف من النبضات في الثانية ، ومن الممكن أن نجعل جهازاً من هذه الأجهزة يرسل نبضات في الفترات التي نعينها له ، وأن يتوقف عن الإرسال فيما بين هذه الفترات .

وقد يكون زمن النبضة $\frac{1}{4}$ ميكرو ثانية أو أقل (تحتوي الثانية على مليون ميكرو ثانية) ، مع وجود فاصل بين نبضتين متتاليتين قدره ميكرو ثانية واحدة أو اثنتان .

« الضغط الكهربى » :

عندما نتقرب من محطة توليد الكهرباء قد نرى لافتة عليها العبارة « خطر . ضغط كهربى عال » . وربما ذكر تحت هذا التحذير العبارة « ٥٠٠ فولت » مثلاً . ولا بأس من استعمال لفظ « ضغط كهربى » في دراستنا ، وإن كان من الأفضل استخدام كلمة أخرى هي « الفولتية » (أو فرق الجهد) . والضغط الكهربى لا تصل في منازلنا إلى هذا المقدار المخيف ، فأجهزتنا مجهزة لتحمل ٢٢٠ فولتاً أو ١١٠ فولتات أو شيئاً من هذا القبيل . أما في السيارة فإن الضغط الكهربى يكون دون ذلك بكثير ، فالبطارية الموجودة في السيارة تكون توتها الدافعة الكهربائية ٦ فولتات أو ١٢ فولتاً ، ذلك لأننا لا نحتاج إلا إلى مقدار ضئيل من الكهرباء في سيارتنا . والضغط الكهربى هو ما يعمل على دفع الكهرباء في الأسلاك والأجهزة . وكلما زاد هذا الضغط زادت « شدة » التيار الكهربى .

لثلاثة أنواع من الكمبيوتر :

تقوم الأعمال الحسابية إما على أساس العد ، وإما على أساس القياس . وغالباً ما يبنى القياس على فكرة التناظر . فالإنسان مثلاً يقيس درجة الحرارة بتحديد ارتفاع سطح الزئبق في الترمومتر ، وكل ارتفاع لهذا السطح « يناظر » درجة حرارة معينة . وكذلك تقاس سرعة السيارة باستعمال جهاز ممين ذى مؤشر ، وكل وضع لهذا المؤشر يناظر سرعة معينة لدوران عجلات السيارة . وهكذا .

وهناك ثلاثة أنواع من الكمبيوترات هي :

- ١ - الكمبيوترات التناظرية (٩) التي تعمل على أساس القياس .
- ٢ - الكمبيوترات الرقمية (١٠) التي تعمل على أساس العد .
- ٣ - الكمبيوترات الهجينة (١١) وهي تجمع بين القياس والعد .

الكمبيوتر التناظري :

يتقل هذا الكمبيوتر البيانات في شكل ضغوط كهربية تسمى « إشارات » وتعالج كل « البيانات » في وقت واحد (أى أنها لا تعالج واحدة بعد أخرى كما هو الحال في الكمبيوتر الرقعى) . وتتحدد القيم العددية لهذه الإشارات بمستوى الضغط فيها . ويقوم الكمبيوتر التناظري بعمليات الجمع ، والضرب ، والقسمة ، ووظائف رياضية أخرى (كالتكامل المحدود) .

ومن غير الممكن إن تصل دقة القياس إلى درجة دقة العد . ولذلك نجد أن درجة الدقة تقل في الكمبيوترات التناظرية عنها في الرقمية . على أنه يمكن بتحسين التصميم وتطوير التكنولوجيا صنع كمبيوترات تناظرية ذات درجة عالية نسبياً من الدقة . ومنذ سنوات يوجد بالأسواق آلات من هذا النوع تصل فيها درجة الدقة إلى ٩٩.٩٩ ٪ . إلا أنه قد يتكفى من الكمبيوتر التناظري بنتيجة تصل فيها درجة الدقة إلى ٩٩ ٪ .

وفي مقابل أن دقة الكمبيوتر التناظري ليست عالية جداً (ويفوقه الكمبيوتر الرقعى في ذلك بكثير) ، نجد أنه نظراً لأن عمل هذا الكمبيوتر مبنى على القياس فإن بإمكانه إعطاء النتيجة المطلوبة في الحال ، ويكون لذلك شأن كبير في المواقف التي لا تسمح فيها الظروف بالانتظار .

وتستخدم الكمبيوترات التناظرية في إطلاق القذائف الموجهة وتصحيح مساراتها ، وفي عمليات الرادار ، وفي العمليات الصناعية الآلية (الأوتوميشن) ، وفي أشياء أخرى كثيرة . ومن أهم استخداماتها إنشاء نماذج « تحاكى » نظم معقدة يصعب فيها حساب النتيجة بالطرق العادية ، ولكن الكمبيوتر التناظري يعطى هذه النتيجة فوراً .

ويتركب الكمبيوتر التناظري من عدد من الدوائر الكهربية التي تقوم بالعمليات الحسابية . والأنواع الرئيسية لهذه الدوائر قليلة . ولكن الدوائر المتشابهة تتكرر عدداً كافياً من المرات للقيام بالأعمال الحسابية المطلوبة ، وتقصد الدوائر المتشابهة تلك التي تقوم بنفس النوع من العمليات الحسابية . وعندما يراد حل مسألة رياضية توصل أجزاء الكمبيوتر معاً بحيث تتناظر العمليات فيه مع التغيرات التي يراد إيجاد نتائجها . وفي الكمبيوترات التناظرية الحديثة تستخدم لوحات خارجية للتوصيل حتى يتسنى تحضير لوحة جديدة لكل عملية مقبلة أثناء عمل الكمبيوتر في عملية أخرى . وبذلك لا يبقى الكمبيوتر عاطلاً بين عمليتين .

والنتيجة التي نريد الحصول عليها من الكمبيوتر التناظري قد تكون جواباً رقمياً يظهر على أوجه الآلة في شكل ضغط ثابت ، وقد تكون هذه النتيجة قياس التغيرات المتتالية التي تحدث لتغير خارجي (مثل سرعة جسم أو المسافات التي يقطعها في فترات متتالية من الزمن) فنظهر هذه في شكل رسم يظهر على شاشة الجهاز ، كما قد يكون المطلوب من الكمبيوتر إصدار إشارة كهربية يبدأ بها عمل معين (مثل إطلاق قذيفة على طائرة معادية ، أو إحداث تغيير في عملية صناعية) .

الكمبيوتر الرقعى :

يتم العمل في الكمبيوتر الرقعى على أساس العد باستخدام نبضات كهربية نسميها إشارات . والمهم هنا هو وجود إشارة أو عدم وجود إشارة ، ولا يهم إطلاقاً مقدار الضغط في النبضة ، بخلاف الحال في الكمبيوتر التناظري .

وبالإضافة الى العمليات الحسابية العادية فان الكمبيوتر الرقعى يمكنه أن يقوم بعمل من العمليات « المنطقية » . وكما سبق أن ذكرنا يقوم الكمبيوتر الرقعى فى عمله بخطوات متتابعة ، بخلاف الكمبيوتر التناظرى الذى يعالج كل « القيم » التى تلقى له فى وقت واحد .

ويكون تلقى الأوامر والبيانات للكمبيوتر الرقعى الحديث فى شكل سلاسل من النبضات الكهربية بنظام معين ، يتوقف على « اللغة » التى يخاطب بها كما سيأتى فيما بعد . وينشأ من هذه النبضات سلاسل من نبضات أخرى تؤدي إلى النتيجة المطلوبة .

وتفسر الفقرة السابقة هو أن الأوامر والبيانات تلقى للكمبيوتر الرقعى - باستعمال شفرة معينة - فى شكل « نبضات » تتخللها « فراغات » بنظام معين يتوقف على نوع الأوامر والبيانات ، ويصمم الجهاز على أساس أن ينشأ من كل أمر بعينه سلسلة خاصة من النبضات تتوقف على البيانات وعلى النتائج السابقة ، وفى النهاية نحصل على النتيجة الرقمية المطلوبة .

ويعطى الكمبيوتر الرقعى النتيجة بكل دقة ما لم يحدث فى العمليات التى يقوم بها تقريب (بسبب طبيعة العلاقات الرياضية فى المسألة المروضة للحل) ينشأ عنه تراكم الخطأ ، وخاصة فى الأحوال التى تعاد نفس العملية على النتائج الجزئية مرات عديدة (قد تصل إلى آلاف المرات) . على أنه يمكن الحصول من الكمبيوتر الرقعى على أى درجة نريدها من الدقة بزيادة الوقت المخصص للحل .

وليس من النادر أن يوجد عشرون رقماً فى بعض العمليات التى يقوم بها الكمبيوتر الرقعى .

وقد صنعت الكمبيوترات الرقمية الأولى بفرض حل مسائل رياضية معقدة فى الفيزياء ، ولعمل جداول إطلاق المداقع ، ولحل مسائل نشأت عند صنع القنبلة الذرية الأولى ، وقد تلا ذلك تصميم كمبيوترات أخرى لأغراض علمية وحربية متشابهة . على أنه سرعان ما ظهر أنه بالإمكان استغلال الكمبيوتر الرقعى فى أغراض تجارية ، وخاصة عندما ظهر جيل جديد من هذه الكمبيوترات قليل التكاليف نسبياً ، وساعد على ذلك أنه ظهرت الكمبيوترات الرقمية فوائد جانبية كثيرة ، فإلى جانب قدرة هذه الآلات على حل المسائل الرياضية المعقدة التى لا يتم حل بعضها إلا بعد إجراء الملايين من العمليات الحسابية ، فإن هذه الآلات يمكن أن تستخدم فى تنظيم وتنقيح المعلومات ، ثم فى استرجاعها بمجرد الطلب عندما يلزم الأمر ، كما يمكن أن تستخدم فى اتخاذ القرارات المبنية على معلومات جديدة أو معلومات « مخزونة » . ومن أهم استخدامات الكمبيوتر الرقعى الكبير ما يكون فى الدراسات المبنية على « محاكاة » النظم المعقدة التى تسير فيها الأمور عشوائياً ، أى بطريقة يصعب معها التنبؤ بالنتائج ، وقد أمكن باستعمال طرق المحاكاة عمل دراسات حربية واجتماعية واقتصادية وبيولوجية ما كان يمكن أن تتم قبل اختراع الكمبيوتر .

الكمبيوتر الهجين :

قد يكون من الأفضل أو من الواجب فى بعض المواقف أن يكون العمل فى بعض أجزاء الكمبيوتر على أساس التناظر ، وفى البعض الآخر على أساس العد ، أى أن يكون الكمبيوتر « هجيناً » مكوناً من أجزاء تناظرية وأخرى رقمية . وفى هذه الحالة يلزم أن يحتوى الكمبيوتر على واحد على الأقل من النوعين الآتين من الابتكارات :

أ - « محولات تناظرية/رقمية » (١٢) ، وهى مبتكرات تحول تغيرات الضغط الكهربية (الناشئة من التغيرات المادية) الى أرقام .

ب - « محولات رقمية/تناظرية » (١٣) ، وهى مبتكرات تحول الأرقام الى تغيرات فى الضغط الكهربية .

وعلى سبيل المثال نجد أنه قد يلزم فى بعض الصناعات أن يتأثر الكمبيوتر بالتغيرات غير المرغوبة فى عملية الإنتاج ، وأن يعطى نتيجة لذلك « أمرا » بالتعديل اللازم فى سير العمل . هنا نجد أن كلا من التلقين واعطاء النتيجة يكون على أساس التناظر . فإذا كان يرى أن يكون الحساب فى الكمبيوتر على أساس رقمى فإنه فى هذه الحالة قد يحتوى الكمبيوتر المستعمل على الأجزاء الآتية:

- أ - أداة تلقين تناظرية
ب - محول تناظرى/رقمى
ج - قسم للحساب على أساس رقمى
د - محول رقمى/تناظرى .

★ ★ ★

٣ - تصنيفات أخرى للكمبيوتر

إذا قسمنا الكمبيوترات حسب الغرض الذى أعدت من أجله (بصرف النظر عن نوعها القائم على أساس التقسيم السابق ذكره) نجد أن هناك صنفين من الكمبيوترات هما :

١ - الكمبيوترات ذات الغرض الخاص (١٤) التى لا يستخدم الواحد منها إلا للغرض الذى انشئ من أجله .

٢ - الكمبيوترات ذات الغرض العام (١٥) التى يستخدم الواحد منها فى أغراض متعددة .

ومن الكمبيوترات ذات الغرض الخاص تلك التى توجد فى المصارف لبيان أرصدة العملاء ، أو التى تستخدم فى مكاتب الطيران لبيان وجود مقاعد خالية وحجز هذه المقاعد فى مكاتب للشركات قد توجد فى أقطار أو قارات مختلفة ، أو التى تستعمل مع الجيوش لتصبح اتجاه إطلاق المدافع ، أو التى توجد فى العيادات الطبية الكبرى لتشخيص مرض بمعلومية أعراضه والتسارع المرضى للمريض .

ويكون الكمبيوتر التناظرى ذا غرض خاص فى الغالب .

أما الكمبيوتر الرقمى فإنه يكون ذا غرض خاص أو عام .

ويقابل حصر فائدة الكمبيوتر ذى الغرض الخاص فى نطاق ضيق أن إعطاء الأوامر إليه يكون عملية بسيطة لا تستلزم وقتا تقريبا ، بالإضافة الى قلة تكلفة إنشائه نسبيا .

(12) analog/digital converters

(13) digital/analog converters

(14) special purpose computers

(15) general purpose computers

وتنقسم الكمبيوترات الرقمية ذات الغرض العام الى فئتين هما :

ا - الكمبيوترات العلمية (١٦) .

ب - كمبيوترات الأعمال (١٧) .

وتصمم الكمبيوترات العلمية على أساس إمكان الاستجابة للعديد من الأوامر المختلفة اللازمة لحل المسائل العلمية بأنواعها ، بينما تصمم كمبيوترات الأعمال على أساس الاستجابة لعدد قليل نسبيا من الأوامر المختلفة مع وجود مقدار كبير من البيانات . وبذلك يختلف عدد الأوامر المتنوعة التي يمكن للكمبيوتر أن ينفذها حسب الفئة التي ينتمى إليها . ويتراوح هذا العدد عادة بين ١٦ أمرا و ٢٥٦ أمرا مختلفا .

وبرغم هذا التقسيم للكمبيوترات الرقمية ذات الغرض العام الى فئتين فإنه من الممكن استخدام الكمبيوترات العلمية لأغراض الأعمال ، على أنه من الوجهة الاقتصادية يحسن استخدام كمبيوترات الأعمال لهذه الأغراض .

ومن الممكن أن تستخدم كمبيوترات الأعمال في أعمال المحاسبة وفي بعض الإدارات الحكومية ، وفي أعمال الشركات .

على أن هذا لا يجب أن ينسبنا أن هنالك كمبيوترات رقمية ذات غرض خاص تستطيع القيام ببعض هذه الأعمال ، فهناك مثلا كمبيوترات رقمية خاصة لأعمال المحاسبة ، وأخرى خاصة لحجز المقاعد في شركات الطيران ، وهكذا .

وقبل أن ننتقل الى نقطة أخرى يحسن بنان نميز بين « الأعمال » و « علم إدارة الأعمال » الذي تطور في السنوات الأخيرة تطورا كبيرا جدا باستخدام الطرق الرياضية الكمية والمنطقية . ومن المسائل المستحدثة في هذا العلم أنواع تحتاج الى استعمال كمبيوتر رقمي علمي ذي سعة تخزين كبيرة جدا .

٤ - البرامج (١٨) ولفات الكمبيوترات

« البرنامج » هو مجموعة الأوامر التي تبين للكمبيوتر جميع الخطوات التي يلزم تأديتها بترتيب معين لحل مسألة معينة ، ويجب أن تكون كل التفاصيل الدقيقة موجودة وصحيحة . وعندما يضع كل من شخصين برنامجا لحل نفس المسألة فإن البرنامجين يكونان مختلفين عادة .

وتختلف المدة اللازمة لوضع البرنامج من مسألة الى أخرى ، فقد يستلزم وضع البرنامج من شخص مدرب أسابيع أو أشهراً ، وربما احتاج وضع برنامج الى عمل فرقة بأكملها مدة سنة كاملة .

وهناك قول شائع أن في كل برنامج خطأ على الأقل ، والمقصود هنا طبعا هو البرنامج عند وضعه لأول مرة وقبل تجربته .

وكلامنا هنا يدور حول البرامج التي تعدل للكمبيوتر الرقمي ذى الغرض العام ، أى المدل لحل أنواع مختلفة من المسائل . أما الكمبيوتر ذوالغرض الخاص فإنه يكون مصمماً بحيث لا يحتاج إلا إلى أمر بالبداة مع إعطاء البيانات اللازمة . « يخاطب » الكمبيوتر الرقمي باستعمال رموز تبعا لشفرة خاصة تتوقف على تصميم الكمبيوتر تسمى لغة الكمبيوتر ، على أنه نظراً لصعوبة استعمال لغة الكمبيوتر الأصلية فإنه قد اخترعت لغات كثيرة تكتب بها البرامج وتلقن إلى الكمبيوتر فيترجمها إلى لغته الخاصة وذلك باستعمال برنامج معد لذلك يختلف من كمبيوتر إلى آخر .

وموف نعطي فيما بعد شيئاً من التفاصيل في هذا الموضوع . (انظر تدليل ١) .

٥ - نظم الكمبيوتر (١٩)

قد يكون الكمبيوتر جزءاً من « نظام » يحتوى على آلات أخرى متصلة بعضها ببعض الآخر ، وربما كان بعض هذه الآلات كمبيوترات أخرى . ويقولنا « نظام كمبيوتر » تقصد مجموعة من الآلات المختلفة التي يؤدي فيها كمبيوتر معين دوراً جزئياً . وستنكلم فيما يلي عن بعض النظم المختلفة .

نظم كمبيوتر الوقت الحقيقي (٢٠) :

يستطيع الكثير من الكمبيوترات أن يصل إلى القرارات في أجزاء من ألف من الثانية بعد تلقيها الأوامر والبيانات . وفي كثير من الأحيان نجد أن هناك عدداً كبيراً من المسائل المطلوب عرضها على الكمبيوتر ، ويكون عرضها عليه مما يستدعي انتظار كل مسألة حتى يحين دورها ، ولكن هناك من المواقف ما يستدعي أن يكون التلقين بدون انتظار ، حيث أنه يلزم إعطاء النتيجة في الحال .

ومن هنا نشأ نوع جديد من نظم الكمبيوترات، الغرض منه التحكم في بيئة معينة ، وذلك بتلقي الأوامر بدون انتظار الدور ، وإعطاء النتيجة المطلوبة بالسرعة الكافية للتأثير الأمثل في البيئة . والنظم من هذا النوع تسمى « نظم كمبيوتر الوقت الحقيقي » .

وفي هذه النظم يكون الكمبيوتر من بعد في الغالب ويكون تلقين المعلومات بطرق مختلفة منها استعمال أزرار متصلة بالآلة ، وبعد مرور وقت وجيز - يسمى وقت الاستجابة - يتلقى العامل الإجابة المطلوبة . وقد يكون هذا الوقت بعض أجزاء من ألف من الثانية كما في استعمال الرادار، أو نحو ثابنتين كما في نظم حجز مقاعد الطيران ، أو نصف دقيقة كما في نظم الرقابة على المخازن ، أو خمس دقائق كما في نظام الرقابة في مصنع ورق .

نظم الوقت المشترك (٢١) :

بميل الاتجاه في المراكز الصناعية والعلمية والتجارية الكبيرة في الدول الصناعية الكبرى إلى إقامة نوع من الكمبيوترات الرقمية يتصل بالواحد منها عدد من العملاء لكل منهم نقطة تحكم

(19) computer systems

(20) real-time computer systems

(21) Time-sharing computer systems

مستقلة في مقر عمله يعطى منها الاوامر والبيانات ويتلقى فيها الاجابات . وهذه النظم التي يخدم فيها عدد من العملاء في وقت واحد تسمى نظم « الاشتراك في الوقت » .

ومن الامثلة على هذه النظم نذكر نظاما (٢٢) لشركة جنرال الكتريك الاميركية مصمما لعمليات الاشتراك في الوقت على نطاق واسع ، وفي هذا النظام يمكن لثلثائة فرد ان يستخدموا الكمبيوتر في نفس الوقت ، ويمكن لأكثر من ألف « نهاية » (٢٣) ان توصل بالنظام .

ويمكن للكمبيوتر في هذا النظام ان يتسجيب في اجزاء من ألف من الثانية ، وان يجيب بصوت مسموع على انواع من الاسئلة ، وان يحل المسائل البسيطة ، كما يمكنه ان ينفذ عمليات طويلة كاملة بالطريقة التقليدية للكمبيوترات العادية .

ويحتوي هذا النظام للاشتراك في الوقت على مبتكرات مختلفة السرعة منها كمبيوترات رقمية صغيرة ، وآلات طباعة (تايبيرتر) تكتب عن بعد ، ومبتكرات للعرض المرئي ، وكمبيوترات ننظرية .

٦ - عباقرة الكمبيوتر الرقمي

يجمع الكتاب على ان للكمبيوتر الرقمي جد هو الرياضي الانجليزي « تشارلز بابيدج » (٢٤) ، واب هو الرياضي الهنغاري المولد « جون فون نويمان » (٢٥) . وبجانب هذين العبقرين هناك الفيزيائي الأمريكي « هوارد ايكن » (٢٦) الذي كان له الفضل في صنع اول كمبيوتر رقمي . وسنورد فيما يلي شيئا عن حياة كل من بابيدج وفون نويمان ودورهما في اختراع الكمبيوترات الرقمية، وكذلك شيئا عن دور ايكن في ظهور الكمبيوترات الرقمية الى حيز الوجود .

تشارلز بابيدج (١٧٩٢ - ١٨٧١) :

ولد تشارلز بابيدج ، الذي يعتبر جد الكمبيوترات الرقمية ، في ديفونشير بانجلترا ، وتلقى في صغره تعليمًا غير منتظم ، على أنه قام بتعليم نفسه الرياضيات الى درجة أنه عندما ذهب الى كمبريدج للالتحاق بالجامعة وجد نفسه أكثر علما بالجبر من المشرف الذي وكل امره اليه . وقد رفض بابيدج التقدم لامتحانات كمبريدج للحصول على درجة الشرف في الرياضيات ، وكان هذا خطأ منه ، على أنه مع ذلك اختير في سنة ١٨٢٨ استاذًا للرياضيات في الكرسي (٢٧) الذي كان يشغله نيوتن في القرن السابع عشر ، وقد احتفظ بابيدج بهذا المنصب احد عشر عاما دون ان يعطى محاضرة واحدة في الجامعة .

وفي احد ايام سنة ١٨١٢ كان بابيدج جالسًا في مكتبه في « الجمعية التحليلية » (٢٨) ينظر الى جدول لوغاريتمات ، يعلم انه ملئ بالأخطاء ، عندما خطرت له فكرة حساب الجداول الرياضية باستخدام الآلات ، وكان بابيدج وقتئذ يستعرض في ذهنه عملا كان قد تم في فرنسا . فقد كانت الحكومة الفرنسية قد قامت بعمل جداول رياضية عديدة بطرق جديدة بان وضع ثلاثة او اربعة رياضيين فرنسيين طريقة حساب الجداول ، وقام ستة آخرون بتقسيم العمليات الى خطوات

(22) GE-645 (23) terminal (24) Charles Babbage (25) John von Neumann
(26) Howard Aiken (27) Lucasian Chair of Mathematics (28) Analytical Society

بسيطة لا تحتوي الا على عمليات الجمع والطرح، ثم قام بأداء هذه الخطوات ثمانون شخصاً لا يعلمون من قواعد الحساب سوى الجمع والطرح . وقد جعل ذلك بابديج مأخوذاً طول الوقت بفكرة أن الآلات يمكنها أن تقوم بأعمال مثل هؤلاء الرجال غير المدربين وبطريقة أسرع وأكفاً ، وإذ ذاك قام بعمل نموذج لآلة مبنية على فكرة رياضية بسيطة (فكرة جداول الفروق) وعرضها في سنة ١٨٢٢ فقبلت بحماس عظيم مما جعله يفكر في إنشاء آلة أكبر كثيراً ، وقد عضدت « الجمعية » الملكية « (٢٦) المشروع وقابل وزير المالية بابديج ووعده بمنحة يدفع منها تكاليف الإنشاء ، كما أغامت الحكومة مبنى يؤدي فيه العمل .

وبينما كان العمل متوقفا لمدة عام سنة ١٨٣٣ خطرت لبابديج فكرة أنه « التحليلية » (٢٧) التي كان يرى أنها أكثر قدرة بكثير من آلة « الفروق » وأنها سيمكنها القيام بالعمليات الحسابية من أي نوع . على أنه بينما كانت تصميماته للآلة تتضمن جميع الأفكار الرئيسية في الآلات الحاسبة الرقمية الحديثة إلا أن حالة التكنولوجيا في عصره لم تكن تجاري اطماعه في بناء الآلة الكبيرة الحجم والقدرة التي صممها ، فلم يتمكن من اتمام صنعها أبداً ، وفي سنة ١٨٤٢ توقفت الحكومة من مده بالمال . على أن ابنه هنري الذي كان ضابطاً في الجيش البريطاني أخذ يحاول اتمام عمل أبيه بعد موته وبني قسمًا من الوحدة الحسابية قامت بطبع النتائج على الورق مباشرة .

ومن الأفكار الرئيسية التي أدخلها بابديج استعمال البطاقات المثقبة في تلقين المعلومات للآلة ، فقد كان عليه أن يجد طريقة آلية للتحكم في عمليات الآلة وفي تقديم الأعداد في صورة « تفهمها » . وقد وجد الحل لهذه المشكلة في البطاقة المثقبة التي كان الفرنسي جاكوار (٢٨) قد اخترعها سنة ١٨٠١ للتحكم في أنوال النسيج .

(بعد وفاة بابديج بنحو عشرين عاما اخترع الدكتور هرمان هولرث (٢٩) — الذي كان مشرفا على تعدادات السكان في الولايات المتحدة — طريقة تسجيل البيانات بعمل ثقوب في البطاقات ، ثم اخترع سلسلة من الآلات لفقر وتحليل البيانات المسجلة بها) .

هوارد ايكن :

بينما كان هوارد ايكن يقوم بأبحاثه في سنة ١٩٣٧ للحصول على الدكتوراه في الفيزياء من جامعة هارفارد في الولايات المتحدة فكر في صنع آلة حاسبة يستخدمها في حل المسائل العددية ، وقد اخترع آلة بسيطة لذلك ثم طورها لكي تحل مسائل أكثر تعقيدا ، وفي أثناء ذلك كله فكر في صنع آلة حاسبة ذات غرض عام يمكنها أن تحل مسائل من أنواع مختلفة ، وبالاتفاق مع شركة آي بي إم (٣٠) صنع كمبيوتراً رقمياً ذا غرض عام أطلق عليه اسم « مارك ١ » (٣١) وأقيم في جامعة هارفارد في سنة ١٩٤٤ .

وقد كانت هذه الآلة التي استغرق صنعها خمس سنوات أول كمبيوتر رقمي تم صنعه ، ولكن بالرغم من أنها كانت آلة ميكانيكية كهربية فإنها لم تحرز تقدماً محسوساً في تصميمها المنطقي على آلة بابديج الميكانيكية ، ويختلف الكتاب في تحديد الوقت الذي علم فيه ايكن بأفكار بابديج ، فبعضهم يقول أنه لم يعلم بها إلا بعد اتمام تصميمه لآلته ، وبعضهم يقول أن هناك ما يوحي بأن أفكار بابديج هي التي أوحى بتصميم الآلة « مارك ١ » .

(29) Royal Society (30) Analytical Machine (31) Joseph-Marie Jacquard

(32) Dr. Herman Hallerith (33) International Business Machines (IBM) (34) MARK 1.

على أن الاستاذ أيكن اكتسب سمعة كبيرة بانعام صنع هذا الكمبيوتر وبما اداه بعد ذلك في مجال تصميم الآلات الأكثر تقدماً ، وعندما فقد المؤتمر الدولي لمعالجة المعلومات « تحت رعاية اليونسكو في ١٥ - ٢٠ يونية ١٩٥٩ بباريس عقدت له رئاسة المؤتمر .

جون فون نويمان (١٩٠٣ - ١٩٥٧) :

عندما توفي العالم الرياضي - الهنغاري المولد - جون فون نويمان في واشنطن بالسرطان في أوائل سنة ١٩٥٧ كتبت النيويورك تايمز تقول عنه :

« لقد عرف بأنه الرائد العالمي في تطوير وصناعة الآلات الحاسبة العالية السرعة . . التي جعلت في الامكان حل مسائل كانت تحتاج بدون هذه الآلات الى اعمال عدد كبير من الناس لحلها »

ولد جون نويمان في بودابست وحصل على الدكتوراه في الرياضيات في سن الثالثة والعشرين ثم سافر في عام ١٩٣٠ الى أمريكا ليعمل في جامعة برنستون ، وفي خلال ثلاث سنوات حقق لنفسه مكانة بين اعظم الرياضيين . وبلا ذلك تميينه في معهد الدراسات العليا في برنستون . واصبح مع اينشتاين ، واحداً من أوائل أعضائه الدائمين .

كان جون نويمان متعدد المواهب ، فقد قام في أوائل سنوات عمله باضافات هديدة في علم ميكانيكا الكم ، وكان كذلك مهنياً في المنطق الرياضي لطريق جودل (٣٥) وقام بادخال علم جديد هو علم « استراتيجية الاحاب » عندما اشترك مع العالم الاقتصادي الكبير اوسكار مورجنسترن (٣٦) في تأليف كتاب « نظرية الاحباب والتصرف الاقتصادي » (٣٧) الذي ظهر سنة ١٩٤٤ . وترفعه اعماله في هذا الكتاب وحده الى منزلة نيوتن . وفي اثناء الحرب العالمية الثانية دتمته الحكومة البريطانية للقيام بأبحاث في مجال الارصاد الجوية وصناعة الطائرات .

وفي سنة ١٩٤٥ احدث اكبر قفزة في صناعة الكمبيوترات عندما اقترح تخزين البرامج داخل الآلة بدلا من استعمال لوحة سدادات (٣٨) واسلاك للتحكم من الخارج ، وقد اوضح في نفس الوقت ان تصميم الكمبيوتر على اساس استخدام النظام الثنائي للأعداد (الذي لا يستخدم فيه من الأرقام غير الصفر والواحد والذي سنقوم بدراسته فيما بعد) يوفر قدرا كبيرا من التجهيزات اللازمة للآلة . وبلاستعانة بأخرين من ذوى الكفاءة قام بتصميم سلسلة من الكمبيوترات الرقمية على الأساس الجديد ، ولم يترك أدق التفاصيل في تصميم الدوائر الالكترونية . وقد ادت افكاره في مجال تصميم الكمبيوترات الرقمية الى أن الكتاب أصبحوا يقسمون تاريخ هذه الآلات الى عهدين : عهد ما قبل جون نويمان ، وعهد ما بعد جون نويمان ، فيفضل التخزين الداخلي للبرامج يمكن الآلة أن تعالج الأوامر حسابياً و « منطقياً » وبذلك يكون لها القدرة على أن تفكر وتعدل الأوامر التي تعطى لها مما فتح آفاقاً جديدة واسعة للعرونة والتحكم الذاتي في الكمبيوتر .

وفي سنة ١٩٥٥ أصبح جون نويمان عضواً في لجنة الطاقة الذرية الأمريكية وحصل على جائزة فرمي (٣٩) وقدرها خمسون ألف دولار .

(35) Kurt Goedel (36) Oscar Morgenstern (37) "Theory of Games and Economic Behavior." (38) plugboard (39) Fermi

٧ - الكمبيوترات الرقمية الأولى

لم يكن من الممكن انتاج الكمبيوترات الرقمية الأولى بالجملة ، فالكمبيوتر الأول الذى صممه ايكن كان « نسخة » واحدة لم تكرر وقد أعطى له اسم خاص به لا يطلق على أى آلة أخرى .

وكذلك كان كل من الكمبيوترات الرقمية الأولى مختلفا في تصميمه عن الكمبيوترات الأخرى وله اسمه الخاص به. ولم يحدث انتاج الكمبيوترات بنسخ متعددة على أساس نفس التصميم الا عندما أصبح ذلك اقتصاديا بتقدم التكنولوجيا .

وبالإضافة الى ما ذكرناه عن الكمبيوتر « مارك ١ » الذى صممه ايكن فاننا سنورد فيما يلي شيئا عن تاريخ بعض الكمبيوترات الأولى ذات النسخة الواحدة، ثم عن بداية ظهور الكمبيوترات التى صنعت لأغراض تجارية .

الكمبيوتر « انياك » (٤٠) :

بالإضافة الى الكمبيوتر « مارك ١ » تم صنع عدد من الآلات الحاسبة الالكترونية في المدة ١٩٣٨ - ١٩٤٤ ، كما كان عدد آخر غيرها في دور التصنيع ، على ان أول تقدم تكنولوجي على « مارك ١ » كان بصنع الكمبيوتر « انياك » . فمع ان هذا الكمبيوتر لم يكن له تفوق « منطقي » محسوس على « مارك ١ » الا انه كان أول كمبيوتر الكتروني . .

وقد صنع الكمبيوتر « انياك » في مدرسة مور (٤١) للهندسة الكهربية في جامعة بنسلفانيا ، وكان الغرض من صنعه عمل جداول رياضية لازمة لإطلاق قنابل المدفعية ، وصمم الآلة الدكتور اكرت (٤٢) والدكتور موشلي (٤٣) من مدرسة مور بالتعاون مع الجيور جولدستين (٤٤) من مدفعية الجيش الأمريكي ، وقد التحق بهذا الفريق افراد عديدون ، وكان مصممو الآلة من الشباب ، فقد كان جولدستين في الثانية والثلاثين من عمره ، وكان اكرت في العشرينات الأولى ، وبعد ثلاث سنوات من العمل تم صنع الآلة في صيف ١٩٤٦ ، وقد كانت التكنولوجيا الهندسية في أطوارها الأولى وقت صنع الآلة ، وكان معدل احتراق الصمامات الالكترونية كبيرا ، وكانت الآلة تحتوى على ١٨٠٠٠ صمام الكتروني (٤٥) مع ١٥٠٠ متابع كهربي ، ولم تكن تستطيع ان تعمل بكفاءة مالم تكن كل هذه الصمامات صالحة، ومع ذلك نجحت الآلة ، وكان من أولى المسائل التي اعطيت لها مسألة معقدة في الفيزياء النووية فقامت بحلها في ساعتين ، ولو كان هذا العمل قد وكل الى مائة شخص لزمهم سنة كاملة ، وقد امكن لهذه الآلة حل العديد من المسائل التي تراكمت اثناء الحرب العالمية الثانية .

على أنه كان يعيب هذه الآلة - بمقياس الكمبيوترات الحاضرة - أنه لحل كل مسألة جديدة كان يلزم الإعداد اليدوى لتوصيلات كهربية تلائم هذه المسألة ، وكان في ذلك تقييم للدور « المنطقي » للآلة . .

(40) ENIAC (Electronic Numerical Integrator and Calculator).

(41) The Moore School of Engineering, (42) J. Presper Eckert (43) John Mauchly

(44) Herman Goldstine (45) vacuum tube (electronic valve)

وفي سنة ١٩٤٤ كان فون نويمان يعمل مستشارا لجامعة تعمل في مشروع القنبلة الذرية في لوس الاموس عندما سمع ، بطريق الصدفة تقريبا ، بنبا مشروع الآلة الحاسبة التي كان يجري إعدادها في مدرسة مور للهندسة الكهربائية بجامعة بنسلفانيا . ولما كان مشروع القنبلة الذرية يحتاج الى اجراء اعداد هائلة من العمليات الحسابية فقد عمل بالتعاون مع الميجور جولدستين ومع بيركس (٤٦) من جامعة متشيجان في دراسة الموضوع . ونتيجة لهذه الدراسة صدرت سلسلة من التقارير قدمها فون نويمان ، وقد تضمنت هذه التقارير الأفكار الأساسية التي أدخلها فون نويمان والتي سبق الإشارة إليها . (وقد بين فون نويمان في أحد هذه التقارير أنه بينما كانت الآلة « انياك » تعمل بواسطة ١٨٠٠٠ صمامات الكتروني باستخدام النظام العددي العشري فإنه باستخدام النظام العددي الثنائي كان يكفي نحو ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ صمام) .

وفي سنة ١٩٤٧ اقترح فون نويمان طريقة لتحويل « انياك » الى آلة ذات تخزين داخلي وقام بالدور الرئيسي في تصميم ادق التعديلات اللازمة . وهكذا أصبحت الآلة « انياك » أول كمبيوتر ذا تخزين داخلي - بالإضافة الى كونها أول كمبيوتر الكتروني .

الكمبيوتر « ادفاك » (٤٧) :

في أحد التقارير الأولى التي قدمها فون نويمان بشأن الآلات الحاسبة الالكترونية نتيجة للدراسات تمت سنة ١٩٤٥ جاء تعريف بالآلة مقترحة أطلق عليها اسم « ادفاك » . وفي سنة ١٩٤٦ ظهر تقرير آخر ، بالاشتراك مع جلدستين وبيركس ، وفيه تفصيلات أكثر ، وقد قام أكثر وموشي بتصميم تجهيزات الآلة « ادفاك » التي تم صنعها في مدرسة مور أيضا في سنة ١٩٥٠ . وكانت أول كمبيوتر الكتروني يتم صنعه في أمريكا على أساس التخزين الداخلي منذ البداية وعلى أساس النظام العددي الثنائي . وكان يمكن لهذه الآلة تخزين ١٠٢٤ « كلمة » كل منها مكون من ٤٤ رقما ثنائيا ، أي صفرا أو واحدا .

الكمبيوتر « ادساك » (٤٨) :

كان تقرير « ادفاك » حاثا لتصميم اثنتين من الآلات الحاسبة الالكترونية في إنجلترا ، وقد بدأ العمل في صنع إحدى الآتين في أوائل سنة ١٩٤٧ في المختبر الرياضي بجامعة كامبردج وأطلق عليها اسم « ادساك » وقد قامت هذه الآلة بأول عملية حسابية في مايو ١٩٤٩ ، وهكذا كانت « ادساك » أول آلة تم صنعها على أساس أفكار فون نويمان .

وقد أشرف على صنع هذه الآلة الأستاذ ويلكس (٤٩) (الرئيس الحالي للمختبر الرياضي بجامعة كامبردج) الذي اشتهر اسمه كواحد من أكبر مصممي الآلات الحاسبة الالكترونية في إنجلترا .

الفترة التالية :

تلا ظهور الإنياك والادفاك في أمريكا والادساك في إنجلترا ظهور سيل من الآلات الحاسبة الرقمية على أساس أفكار فون نويمان ، وجاء اختراع الترانزستور سنة ١٩٤٨ عاملا جديدا في

(46) Arthur W. Burks (47) EDVAC (Electronic Discrete Variable Automatic Computer

(48) EDSAC (Electronic Delayed Storage Automatic Computer) (46) M. V. Wilkes

التكنولوجيا ، وفي السنوات الوسطى من الخمسينات ظهرت كمبيوترات تستعمل الترانسستورات بدلا من « الانابيب المفرغة » (التي كانت تستخدم كصمامات في الآلات الالكترونية السابقة) مع عدم تغيير الأساس المنطقي لتصميم الكمبيوتر . وفي البداية كان صنع الآلات من النوع الجديد لخدمة الأغراض الحربية التي كان يهمها صغر حجم الآلة وخفة وزنها .

وفي الخمسينات الأخيرة ظهرت حاسبات الترانستور للأغراض التجارية (مثل هانيول ٤٠٠ ، ٨٠٠ (٤٧) ومثل آي.بي.ام ٧٠٤) ، (٤٨) وتلا ذلك فيض من الطرازات المختلفة من صنع شركات عديدة .

وفي الستينات أدخلت «الدوائر المتكاملة» (٤٩) في صناعات الكمبيوتر ، وتحتوي الدوائر من هذا النوع على عدد كبير من المبتكرات الالكترونية والكهربية العادية وكلها موجودة في مساحة ضيقة جدا ، وبذلك أمكن صنع كمبيوترات الكترونية رقمية غاية في الصغر ، والعامل الأساسي الذي يحد من الحجم الأدنى للكمبيوتر هو وسائل التلقين واستخراج النتائج من الآلة ، حيث أن الإنسان لا يستطيع استعمال الآلات إذا نقص حجمها عن حد معين .

على أنه لن يكون بعيداً ذلك اليوم الذي يحمل فيه الإنسان كمبيوتراً رقمياً الكترونياً كاملاً في محفظة جيبه ، ولا يستطيع المرء أن يتنبأ بما ستتخصص عنه التكنولوجيا في مجال صناعات الكمبيوتر ، والأغلب أن ما سيستجد سيكون سابقاً للعظم في كثير من الأحيان .

٨ - النظم العددية :

في تاريخ الأرقام :

إننا نتمردون على النظام « العشري » للعد، فعندما نصل إلى العدد « عشرة » نبدأ من جديد فنقول « أحد عشر » فاصدين واحداً بعد العشرة الأولى ، ونتبع ذلك بقول « اثنان عشر » ، وإذا قلنا مثلاً خمسة وثمانون فإننا نقصد ثمانيناً وعشرين وخمسة مفردات ، وعندما نصل إلى عشر عشرات نقول مائة ، وعندما نصل إلى عشر مئات نقول ألف .. وهكذا ..

وليس النظام العشري للعد نظاماً عاماً لا يستخدم الناس غيره ، فالهنود الحمر يستخدمون نظاماً « خمسياً » . فبعد أن يصلوا إلى العدد « خمسة » يقولون « خمسة وواحد » ثم « خمسة واثنان » ، وهكذا .. والاسترايليون الأصليون يستخدمون نظاماً ثنائياً غير كامل ، فبعد أن يصلوا إلى اثنين يقولون « اثنان وواحد » ثم « اثنان واثنان » . على أنهم يقولون « كثير » إذا زاد العدد عن ذلك .

وقد علل أرسطو استخدام النظام العشري بأن الناس كانوا يستخدمون أصابع اليدين في العد ، ولو كان أرسطو يعلم بأمر الهنود الحمر واستخدامهم للنظام الخمسي لعل ذلك بأنهم يستعملون أصابع يد واحدة. أما الاسترايليون الأصليون فالأغلب أنهم يستخدمون اليدين دون الأصابع في العد .

(47) Honsywell 400 and 800

(48) IBM 704

(49) integrated circuits,

ولكل نظام عددي « أساس » . فنظامنا العددي أساسه عشرة ، ونظام الهنود الحمر أساسه خمسة، ونظام الاثريين الأصليين أساسه انسان .

وليست العشرة اكبر اساس مستعمل للعد، ففي بعض الصناعات في الخارج نجد ان الأساس المستعمل هو « الدرزن » (٥٠) (الدسته) اى اثنا عشر فيقال مثلا « درزان وأربعة » يليها « درزان وخمسة » وهكذا ، والدرزن من الدرزن تسمى « جروسة » (٥١) ، والدرزن من الجروسات تسمى « جروسة كبيرة » (٥٢) ، أما لماذا يفضل الأساس الدرزي في تلك الصناعات فذلك لأنه يمكن تقسيم الدرزن بدون باقى الى نصفين ، أو ثلاثة ثلاث ، أو أربعة أرباع ، أو ستة أسداس ، بينما لا يمكن تقسيم العشرة بدون باقى الا الى نصفين أو خمسة أخماس ، ولو أن الناس خلقوا بستة أصابع في كل يد فمن المؤكد أنهم ما كانوا فكروا في النظام العشرى ، ومن الراجح أنهم كانوا استعملوا النظام الدرزي في حياتهم اليومية .

والرموز التي استخدمها الناس في الماضي لتدوين الأعداد تختلف باختلاف المكان والزمان ، فالصيريون القدماء رمزوا للواحد بخط رأسى ، وللاثنين بخطين رأسيين ، وهكذا حتى العدد ٩ الذى رمزوا له بنسعة خطوط ، أما الأعداد عشرة ومائة وألف وعشرة آلاف ومائة ألف فقد استخدموا رمزا خاصا لكل منها ، وإذا وضعوا شيئا من الرموز بجوار بعضها البعض فإن العدد الناتج يساوى مجموع قيم الرموز ، وفيما يلي بعض الأمثلة .

العدد	١	٢	٣	١٠	٢٣
الرمز عند قدماء المصريين	١	١١	١١١	Ω	ΩΩ١١١

وقد اتبع الرومان نفس الطريقة بتحوير بسيط ، فاستخدموا رمزا لكل من الواحد ، والخمسة ، والعشرة ، والخمسين والمائة والخمسمائة ، والألف ، وإذا جاء رمز الى يسار رمز اكبر منه كانت قيمة العدد الذى يدل عليه الرمزان معا تساوى الفرق بينهما ، وفيما عدا ذلك نحصل على قيمة العدد كله بالتجميع . وفيما يلي بعض الأمثلة :

العدد	١	٢	٥	٤	٧	٢٦	١٠٠٠	٩٠٩
الرمز الرومانى	I	II	V	IV	VII	XXVI	M	CMIX

ولقد بقي الأوربيون يستعملون الرموز الرومانية للأعداد حتى نقلوا الأرقام الهندية من العرب وسموها « الأرقام العربية » ، وأقدم مخطوط أوربى معروف يحتوى على تلك الأرقام كتب في إسبانيا سنة ٩٧٦ ميلادية .

ولم يكن رمز الصفر موجودا في مبدأ الأمر في الأرقام الهندية ، كما أن شكل تلك الأرقام تغير من مكان الى مكان ومن زمان الى زمان . وربما جاء ادخال رمز الصفر في القرن التاسع الميلادى . وكان هذا الرمز على شكل دائرة . وكان العرب يكتبونه بهذا الشكل ونقلوه الى أوربا بصورته الهندية ، وما زال عرب المغرب يكتبونه بالشكل الدائرى الى الآن . على أن عرب المشرق استعملوا النقطة بدلا من الدائرة عندما حدث اللبس بينه وبين رقم الخمسة الذى كان يشبه عندهم قلبا قمته الى أعلى .

والميزة الحقيقية للأرقام الهندية هي اختلاف القيمة التي يدل عليها الرقم باختلاف موضعه ، أى منزلته من العدد ، فالرقم ٤ يدل على أربعة في المنزل الأولى ، ولكن على أربع عشرات في المنزل الثانية ، وعلى أربع مئات في المنزل الثالثة ، وهكذا . ويحافظ على المنازل بإدخال الصفر أن لزم الأمر ، فمثلا نكتب ٤٠٥ حيث يكون لدينا أربع مئات وخمس مفرقات بدون وجود عشرات بجانب ذلك .

والنتيجة انه بفضل الهنود والعرب أصبح لدى الناس الآن عشرة أرقام مختلفة هي : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ٠ . ومن هذه الأرقام يمكن أن نرسم لى عدد صحيح . فمثلا :

$$(٨ \times ١٠٠٠) + (٠ \times ١٠٠) + (٧ \times ١٠) + (٥ \times ١) + (٦ \times ١) = ٨٠٧٥٦$$

$$٨ \times ١٠٠٠٠ + ٧ \times ١٠٠٠ + ٥ \times ١٠٠ + ٦ \times ١٠ + ٠ \times ١ = ٨٠٧٥٦$$

ولقد أدى ادخال الأرقام الهندية العربية الى تسهيل العمليات الحسابية الى حد أنها أصبحت لعبة إذا قيسمت بالصعوبات التي كان يعانيها الأقدمون في حساباتهم . ولكي يدرك القارئ مقدار تلك الصعوبات فليحاول مثلا أن يقوم بعملية ضرب ٢٨٤ في ٢٨٢٧ باستخدام الرموز اللاتينية لهذه الأعداد وهي : CCLXXXIV ، MMMDCCCXXVII .

النظام الدرزي للأعداد :

ولنفرض ان الناس جميعا أدركوا مزايا النظام الدرزي التي ذكرناها وإرادوا التحول اليه مع الاحتفاظ بطريقة المنازل في الكتابة ، فماذا يفعلون ؟ ان الأرقام الهندية العشرة (بما فيها علامة الصفر) لا تكفيهم وعليهم أن يضيفوا رقمين آخرين اذا كانوا ما زالوا معجبين بشكل تلك الأرقام ، وقد يحلون هذه المشكلة بكتابة (ع) رمزا للعشرة ، وكتابة (ح) رمزا للأحد عشر ، مثلا .

والآن هب أن صائعا أحصى مفرقات بضافته فوجد أن لديه أحادي عشر جروسمة كبيرة ، وخمسة جروسات ، وعشرة درازن ، وثلاث مفرقات أخرى ، فكيف يكتب هذا العدد في النظام الدرزي ؟

من الممكن أن نكتب نحن بيان البضاعة كالآتي :

٢	ع	٥	ح
١	١	١	١

حيث « ع ، ح » هما القيمتان اللتان اخترناهما لهما ، أما الصانع فانه لن يكتب السطر الأول من هذا البيان ويكتفي بكتابة ٣٤ ح وهو عدد درزي مكون من أربعة أرقام ، ولكي لا يحدث لبس فائنا سنكتب هذا العدد مع بيان أساسه هكذا : (٣٤ ح) ، وما تقدم ينتج أن :

$$(٣٤ ح) = ١٢ + ١٠ \times ١٢ + ٥ \times ٢١٢ + ١١ \times ٢١٢$$

حيث الأساس في الطرف الأيسر ١٠ . وبالاختصار نجد أن العدد = ١٩٠٠٨ (عشري)

النظام الثنائي للأعداد (٥٢) :

سبق أن ذكرنا انه في سنة ١٩٤٥ بين نويمان أن اكفا الكمبيوترات من جهة الاقتصاد في تكاليف

الإنشاء هي ما قامت على النظام العددي الثاني . وقد كانت الآلات السابقة مصممة على الأساس العشري . وهذه نقطة كثيراً ما يتجاهلها الكتاب حتى أن عدداً كبيراً من مستخدمي الكمبيوتر الرقمي يظنون أن الطريقة الوحيدة لتصميم الكمبيوتر هي أن يبنى على النظام الثاني .

وإذا كان النظام العشري يحتاج إلى الصفر وتسعة أرقام ، والنظام العشري يحتاج إلى الصفر واحد عشر رقماً ، فإن النظام الثاني يحتاج إلى الصفر والواحد فقط ، وتكون قيمة الواحد في أي منزلة بعد الأولى ضعف قيمته في المنزلة التي يليها ، فالواحد قيمته في المنزلة الأولى « ١ » وفي المنزلة الثانية « ٢ » وفي المنزلة الثالثة « ٤ » وفي المنزلة الرابعة « ٨ » وفي المنزلة الخامسة « ١٦ » وهكذا ..

فمثلاً ١٠١١ في النظام الثاني = $1 + 2 \times 1 + 4 \times 0 + 8 \times 1$ = أحد عشر .

وفي الجدول التالي بعض الأعداد العشرية وما يقابلها في النظام الثاني :

جدول (١)

عشري	ثنائي	عشري	ثنائي	عشري	ثنائي
١	١	٨	١٠٠٠	١٦	١٠٠٠٠
٢	١٠	٩	١٠٠١	١٧	١٠٠٠١
٣	١١	١٠	١٠١٠	١٨	١٠٠١٠
٤	١٠٠	١١	١٠١١	١٩	١٠٠١١
٥	١٠١	١٢	١١٠٠	٢٠	١٠١٠٠
٦	١١٠	١٣	١١٠١	٢١	١٠١٠١
٧	١١١	١٤	١١١٠	٢٢	١٠١١٠
		١٥	١١١١	٢٣	١٠١١١
				٢٤	١١٠٠٠

والميزة الحقيقية للنظام الثاني للأعداد هي أنه يجعل في الإمكان استخدام وسائل مادية بسيطة في تسجيل الأعداد وإجراء العمليات الحسابية عليها . فمن الممكن مثلاً أن نعتبر المصباح المضيء ممثلاً للواحد ، والمصباح المطفأ ممثلاً صفراً ، وباستخدام أربعة مصابيح يمكننا أن « نسجل » أي عدد صحيح واقف بين صفر وخمسة عشر ، ففي شكل (٣) مثلاً نجد أن المصابيح تمثل العدد الثنائي ١٠١١ (أحد عشر) . لاحظ أن المصباح الثالث من اليمين مطفأ وحده .

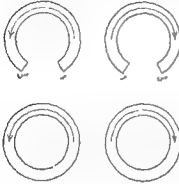
ولتمثيل العدد « ١ » نضيء المصباح الأيمن وحده ونطفىء الباقي . ولتمثيل العدد ٢ نضيء المصباح الثاني من اليمين ونطفىء الباقي ، وهكذا .



شكل (٣) . هذه المصابيح تمثل العدد الثنائي ١٠١١ ويساوي أحد عشر .

ولماذا اخترنا المصابيح بالذات ؟ ذلك لأن المصباح يكون على إحدى حالتين : فهو إما مضيء وأما مطفأ . (ويمكن أن نختار إحدى الحالتين ممثلة للواحد ، فتكون الأخرى ممثلة للصفر) وليس الإمكان قاصراً على استخدام المصابيح في هذا المجال . فالمبتكرات التي تستخدم فيها مواد منطيسية تكون من أحسن الوسائل للتعبير عن حالة من إحدى حالتين . فإذا أخذنا قضيباً مصنوعاً من مادة مغناطيسية مثبته على شكل حلقة مفتوحة كما في شكل (٤) فإنه من الممكن

مغطة القضيبي بحيث يكون طرف معين منه قطبا شماليا ، كما يمكن عكس اتجاه المغطة ليصير نفس الطرف قطبا جنوبيا . ونستطيع ان نختار احدى حالتى الحلقة ممثلة للواحد ، فتكون الحالة الأخرى ممثلة للصفر . ومن الواضح أنه لو كانت الحلقة مقفلة فان مناقشتنا لا تاتر . فالهم أنه اذا كانت المغطة في اتجاه معين تمثل « الواحد » فان المغطة في الاتجاه المضاد تمثل « الصفر » .



شكل (٤) . يمكن ان تأخذ احدى الحلقتين المفتحتين تمثل للواحد فتكون الأخرى ممثلة للصفر ، ويصح هذا الكلام على الحلقتين المتوحدتين كما يصح على الحلقتين المغلقتين .

العمليات الحسابية في النظام الثنائي :

من السهل ان يتحقق القارىء من القواعد الآتية للعمليات الحسابية الأربع في النظام الثنائي .

الطرح

الجمع

$$\begin{aligned} 0 &= 0 - 0 \\ 1 &= 0 - 1 \\ 0 &= 1 - 1 \end{aligned}$$

$$\begin{aligned} 0 &= 0 + 0 \\ 1 &= 0 + 1 \\ 1 &= 0 + 1 \end{aligned}$$

١ + ١ = ٠ ونحمل واحدا الى المنزلة التالية
١ + ١ = ١ ونحمل واحدا الى المنزلة التالية

القسمة

الضرب

$$\begin{aligned} 0 &= 1 \div 0 \\ 1 &= 1 \div 1 \end{aligned}$$

$$\begin{aligned} 0 &= 0 \times 0 \\ 0 &= 1 \times 0 \end{aligned}$$

ولا يجوز القسمة على الصفر .

$$\begin{aligned} 0 &= 0 \times 1 \\ 1 &= 1 \times 1 \end{aligned}$$

(ويمكن اجراء عملية طرح باستخدام الجمع، كما يمكن اجراء عملية الضرب بتكرار الجمع ، واجراء عملية القسمة بتكرار الطرح) .

نظم عديدة أخرى :

من النظم العديدة الأخرى الهامة في عمل بعض طرازات الكمبيوتر ، النظام الثماني (٥٤) والنظام السادس عشرى (٥٥) ، والنظام الأولى أساسه ٨ والثاني أساسه ١٦ .

وفي النظام الثماني يكفي استعمال الصفر والارقام من ١ الى ٧

أما في النظام السادس عشرى فيلزم استخدام أرقام ترمز الى الأعداد الصحيحة من عشرة الى خمسة عشرة بالإضافة الى الأرقام العربية الهندية .

النظام العشرى بالشفرة الثنائية (٥٦)

أحياناً يستخدم النظام العشرى مع استخدام الشفرة الثنائية لكل رقم عشرى . وبالنظر الى جدول (١) نجد أنه يلزم أربعة أرقام ثنائية لتمثيل الرقم ٩ وهو أكبر رقم عشرى . وإذا كتبنا الأعداد باستعمال الشفرة الثنائية من أسفل الى أعلى نجد أن العدد ١٨٩٠٢٧ مثلاً يمكن الرمز له كالآتي :-

١١٠٠٠

٠٠٠٠١

٠٠٠١١

١٠١٠١

حيث العمود الأيمن هو « ١١١ » مكتوباً رأسياً من أسفل الى أعلى (ويساوى ٧) والعمود الثاني من اليمين هو « ٠٠١٠ » ويساوى ٢٠ وهكذا .

النظام السادس عشرى بالشفرة الثنائية :

رأينا كيف يمكن استخدام ٤ صفوف من الأرقام الثنائية لتمثيل عدد عشرى مثل ١٨٩٠٢٧ . على أنه يمكن استخدام نفس العدد من الصفوف لتمثيل عدد سادس عشرى . فمثلاً يمكن أن نأخذ في النظام الأخير الحروف ع ، ح ، ن ، ل ، ر ، خ لتمثل الأعداد من عشرة الى خمسة عشر كالآتي :

الرمز في النظام السادس عشرى	العدد
ع	عشرة
ح	أحد عشر
ن	اثنا عشر
ل	ثلاثة عشر
ر	أربعة عشر
خ	خمسة عشر

ومع استعمال الأرقام الهندية العربية بنفس قيمها ، فإن العدد ٥٤٣٢١ السادس عشرى والذي يساوى

$$١٠٠٠٠٠٠٠ + ١٦٠٠٠٠٠ + ٢٥٦٠٠٠ + ٣٢٦٦٠ + ٤٠٩٦٠ + ٥١٦٠ + ٦٢٠ + ٧٠ + ٨٠ + ٩٠$$

يمكن الرمز له باستعمال الشفرة الثنائية من أسفل الى أعلا كالآتي :

٠١٠١٠

٠١٠٠١

١١١١٠

٠١١٠١

٩ - الأقسام الرئيسية للكمبيوتر الرقمي

بالرغم من أن الكمبيوترات الرقمية تختلف فيما بينها اختلافات بيئية في التفاصيل فإن الإنكار الرئيسية فيها واحدة . وبين شكل (٥) الأقسام الخمسة الرئيسية للكمبيوتر الرقمي وهي :

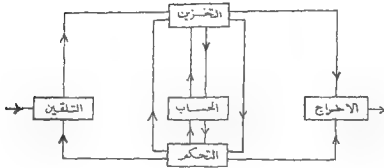
١ - التلقين (٥٧) (أو الإدخال أو التغذية)

٢ - التحكم والتوجيه (الكنترول) (٥٨)

٣ - الذاكرة (٥٩) أو التخزين (٦٠)

٤ - الوحدة الحسابية (٦١)

٥ - الإخراج (٦٢) .



شكل (٥) . الأقسام الرئيسية الخمسة للكمبيوتر الرقمي .

١ - التلقين :

تلقى الآلة الأوامر والبيانات عن طريق التلقين (الإدخال) . وهناك طرق مباشرة وطرق غير مباشرة لذلك . للتلقين المباشر يمكن استخدام « تيرنر » كهربي أو أزرار تحكم . ولا تستخدم هذه الوسائل البطيئة إلا عند الضرورة (لتصحيح خطأ في البرنامج أو لاختياره مثلا) .

ومن الوسائل المباشرة الأخرى للتلقين المفاتيح والأزرار الموجودة على واجهة التحكم . وتستخدم هذه في التحكم اليدوي بإعطاء الأمر للكمبيوتر بالشروع في العمل أو في إيقافه وفي عمليات أخرى .

وللتلقين غير المباشر تستخدم وسائل مختلفة تنوقف اختيارها على عوامل التكلفة والسرعة وسهولة الاستعمال والرونة . ومن الوسائل غير المباشرة للتلقين : البطاقات المثقبة ، شريط الورق المثقب ، الشريط المغنطيسي ، الكتابة بالحبر المغنطيسي ، الحروف الضوئية ، الطنبور المغنطيسي ، البطاقات المغنطيسية ، الأقراص المغنطيسية . وسنتكلم عن بعض هذه الوسائل فيما بعد .

(57) input (58) control (59) memory (60) storage (61) arithmetic unit

(62) input

٢ - التحكم والتوجيه :

ينظم قسم التحكم والتوجيه ترتيب عمليات الكمبيوتر ، فيفسر الأوامر ، ويوجه جميع الأقسام الأخرى (وفق ما تقتضيه الأوامر) بترتيب معين . ولهذا القسم القدرة على تغيير ترتيب العمليات حسب النتائج الجزئية ونتيجة مقارنات معينة .

٣ - التخزين :

عندما تدخل المعلومات الى الكمبيوتر عن طريق وسائل التلقين فإنه لا يمكنها الانتقال الى قسم الحساب مباشرة ، فعليا أن تنتظر حتى يستدعيها التحكم تبعاً لأوامر البرنامج، والتخزين هو مكان الانتظار ، وينفاذ وقت الانتظار من كسر ضئيل جداً من الثانية الى زمن طويل والى أن تدعو الحاجة الى الاستدعاء .

وينقسم تخزين الكمبيوتر الى قسمين : التخزين الرئيسي (١٦) والتخزين المساعد (١٤) وللتخزين الرئيسي (الذاكرة الرئيسية) ثلاثة وظائف وهي :

أولاً : التخزين المؤقت للأعداد والأوامر الواردة من التلقين أو التي في طريقها الى الإخراج .

ثانياً : تخزين جميع البيانات والأوامر اللازمة للمسألة التي يعالجها الكمبيوتر .

ثالثاً : التخزين المؤقت للنتائج الجزئية للحساب .

أما التخزين المساعد (الذاكرة الإضافية) فله وظيفتان هما :

أولاً : تخزين المعلومات والبرامج لحين الحاجة إليها في المستقبل .

ثانياً : زيادة سعة التخزين الرئيسي .

ويتصل التخزين الرئيسي اتصالاً مباشراً بقسمي التحكم والحساب ، ويقوم بدور أساسي في معالجة البيانات . ويجب أن يكون لمن السعة ما يكفي الأوامر والبيانات اللازمة للمسألة تحت الحل ، وعند اللزوم يستخدم جزء من التخزين المساعد لتوسيع التخزين الرئيسي .

وينقسم التخزين الرئيسي الى أجزاء متساوية الحجم لكل منها عنوان (١٥) في التخزين، وعندما يبحث التحكم عن معلومات معينة في التخزين فإنه يطلبها عن طريق عنوانها .

وبعد معالجة البيانات في قسم الحساب تنقل الى التخزين الرئيسي أو التخزين المساعد (إو كليهما) حيث تبقى الى وقت الحاجة إليها .

وأكثر مبتكرات التخزين الرئيسي استخداماً في الوقت الحاضر هو « اللب المغنطيسي » (١٦) الذي يتكون من حلقات صغيرة من مواد مغنطيسية . وهو مرتفع الثمن نسبياً بالمقارنة بالوسائل الأخرى . وتدخل البيانات أو تستدعي من اللب كلمة فكلمة في وقت يتراوح بين نصف ميكرو ثانية وخمس ميكرو ثنيات (الميكرو ثانية جزء من مليون من الثانية) . ويسمى هذا الزمن باسم « زمن الاتصال » (١٧) .

ومن وسائل التخزين الرئيسي الأخرى « الشريط الرقيق » (١٨) . وعندما تلزم بعض

(63) primary storage (64) auxiliary storage (65) address (66) magnetic core

(67) access time (68) thin film

البيانات من التخزين المساعد فان قسم التحكم يوجه عملية نقلها الى عنوان معين في التخزين الرئيسي . وعندما يلزم الأمر تعاد البيانات مع نتائج الحساب الى التخزين الإضافي .

ويكون الإدخال (التلقين) الى التخزين الرئيسي بواسطة « قارئة » للوسيلة المستخدمة للإدخال (التلقين) تختلف باختلاف تلك الوسيلة. ويكون انتقال البيانات من التخزين الرئيسي الى التخزين المساعد بواسطة نبضات كهربية في الأسلاك الموصلة يتبعها تسجيل تلك البيانات .

ومن وسائل التخزين المساعد : الشريط المغنطيسي ، والطنبور المغنطيسي ، والقرص المغنطيسي .

٤ - الوحدة الحسابية :

يقوم القسم الحسابي بعمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة (و في الكمبيوترات العلمية باستخراج الجذور وعمليات حسابية أخرى) .

وقد سبق ان ذكرنا ان العمل يتم في الكمبيوتر الالكتروني الرقمي باستخدام نبضات كهربية . ويمكن ان تفسر النبضة بوجود الرقم « ١ » وعدم وجود نبضة بالرقم « صفر » والرقمان « ١ » صفر هما الرقمان الثنائيان ، أي المستعملان في النظام العددي الثنائي .

والإدخال والتخزين والإخراج تعتمد كلها على مميزات « ثنائية » . فالوضع المعين في بطاقة قد يكون مثقبا ، فيفسر بوجود « ١ » أو غير مثقب فيفسر بوجود « صفر » . والحلقة المغنطيسية قد تكون مغنطة في اتجاه معين يفسر بوجود « ١ » أو في الاتجاه المضاد فيفسر بوجود « صفر » ، وهكذا .

٥ - الإخراج :

تقوم وسائل الإخراج بوظيفتين هما :

أولا : تسجيل نتائج معالجة البيانات .

ثانيا : إعطاء البيانات المسجلة أو المحسوبة في صورة يفهمها الإنسان .

وقد تسجل البيانات الناتجة من المعالجة على شريط مغنطيسي أو قرص مغنطيسي أو طنبور مغنطيسي أو بطاقة مغنطيسية . وفي هذه الحالة قد يحتفظ بالمعلومات لاستعمالها أوتوماتيكيا بواسطة الكمبيوتر تبعاً لأوامر البرنامج . وكذلك قد يكون الإخراج بالتسجيل على بطاقات مثقبة أو شريط مثقب .

ومهما كانت الطريقة التي تسجل بها النتائج في الإخراج (مغنطيسية أو غيرها) فإنه يمكن تحويلها الى صورة مطبوعة يلفها يفهمها الناس على الورق ، أو تحويلها الى صورة مرئية على شاشة تشبه شاشة التليفزيون ، أو الى كلام مسمع من طريق التليفون .

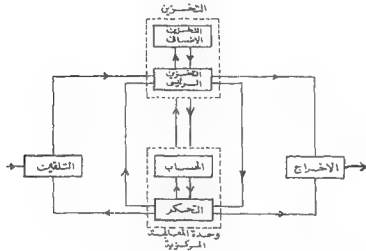
ولا يقتصر الإخراج اذن على الصورة المطبوعة ، أو المرئية على الشاشة ، أو المسموعة بواسطة التليفون ، فالواقع ان مجرد تسجيل النتائج بصورة من الصور (التي يمكن تحويلها الى صورة مفهومة للناس) يعتبر إخراجا .

وحدة المعالجة (التشغيل) المركزية (١٩) :

يجمع القسم الخاص بالتحكم مع القسم الخاص بالحساب في وحدة مادية واحدة يطلق عليها اسم « وحدة المعالجة المركزية » وهذه الوحدة هي الكمبيوتر الحقيقي . فيها مصدر التحكم والتوجيه ، كما أن العمليات الحسابية تتم فيها .

وبذلك تكون العمليات الرئيسية في الكمبيوتر هي : التلقين - التخزين - المعالجة المركزية - الإخراج .

ومن الممكن الآن ان نعيد رسم الاقسام المختلفة للكمبيوتر كما في الشكل (٦) .



شكل (٦) . الاقسام الرئيسية للكمبيوتر الرئيسي .

١٠ - بعض مبتكرات التلقين والاخراج والتسجيل

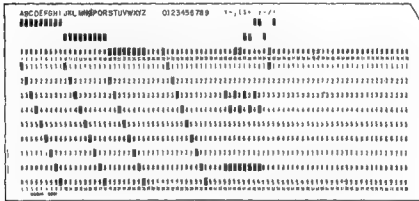
البطاقة المثقبة :

هناك اكثر من نوع من البطاقات المصنوعة من الورق المقوى التي تستخدم لتسجيل المعلومات بواسطة ثغوب بشفرة خاصة . وسنشرح هنا بطاقة آى . بي . ام .

هذه البطاقة مستطيلة الشكل في حجم كف اليد ومقسمة الى ٨٠ عمودا رأسيا . ويوجد بكل عمود ١٢ موضعا للثقيب . والمواضع التسعة السفلى تسمى مواضع « عددية » . أما الثلاثة العليا فتسمى « مناطق (٧٠) » وموضع الصفر يكون موضعا عدديا ومنطقة في نفس الوقت .

ويمثل كل رقم بثقب واحد في الموضع المناظر بالعمود ، أما الحروف فيمثل الواحد منها بثقب في موضع عددي وبثقب في منطقة ، وبعض العلامات والرموز الخاصة تمثل بثقب او اثنين

أو ثلاثة في عمود واحد . وتسهلا لقراءة البطاقات تكون الأرقام مطبوعة على كل عمود على حدة ويكتب رقم كل عمود في أسفله ، وتكون كل البطاقات مشطوفة من الجانب الأيمن من نفس الجهة حتى يمكن وضع البطاقات كلها في وضع متناظر .



شكل (٧) . بطاقة IBM أو Hollerith المثقبة . طولها ١٨ ١/٢ سم وعرضها ٨ ١/٢ سم وسُمكها ١٨ . ميكروا تاريخيا وتحتوي على ٨٠ عمودا .

وقد استخدمت البطاقات المثقبة لسنين عديدة كوسيلة للاتصال بالآلات الحاسبة ، سواء لإدخال المعلومات إليها ، أو لتسجيل المعلومات الخارجة منها .

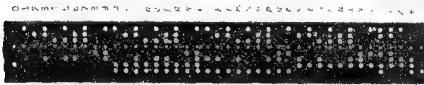
وميزة البطاقات المثقبة أنه يمكن استعمالها لإدخال المعلومات إلى الكمبيوتر أكثر من مرة ، إذا أنه من السهل الاحتفاظ بها .

وتثقب البطاقات إما يدويا أو باستخدام لوحة أزرار (كهربية) أو أتماتيكيا في وحدة إخراج لتسجيل نتائج الحساب . وبعد الانتهاء من تثقيب بطاقة (في غير وحدة الإخراج) يلزم مراجعة التثقيب باستخدام آلة تحقيق ، إما يدوية أو كهربية .

شريط الورق المثقب (٧١) :

تمثل البيانات على شريط الورق بواسطة ثقب بشفرة معينة تختلف من نظام إلى آخر . وفي المادة يمثل الحرف أو الرقم بنظام من الثقب في صف بعرض الشريط . وعدد مواضع التثقيب بعرض الشريط يختلف من خمسة إلى ثمانية . ويكون عرض الشريط حوالي بوصة عادة . ومن الشائع أن تحتوى البوصة من طول الشريط على ما يمثل عشرة أرقام أو حروف .

وهناك أنواع متعددة من آلات تنقيب شريط الورق . ويكون التنقيب باستخدام لوحة أزرار كهربية أو أوتوماتيكياً في وحدة اخراج لتسجيل النتائج .



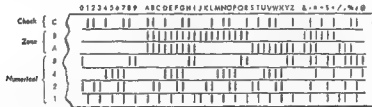
شكل (٨) . شريط ورق مثقب ذو لمعانية للوقوف بعرض الشريط (مع الشفرة الخاصة بالأرقام من صفر الى ٩ والحروف اللاتينية وبعض العلامات في نظام EIA) .

الشريط المغنطيسي (٧٢) :

من الشائع استعمال الشريط المغنطيسي في تسجيل البيانات . وقراءة البيانات عليه بواسطة الكمبيوتر أسرع من قراءة البطاقات المثقبة أو شريط الورق المثقب . والمبدأ الذي يبنى عليه تسجيل البيانات على الشريط المغنطيسي يماثل ذلك الذي يبنى عليه تسجيل الأغاني والأحاديث على شريط التسجيل العادي . ويكون قطر الشريط المغنطيسي $1.01/4$ بوصة وطوله ٢٤٠٠ قدماً تقريبا . والعرض الشائع للشريط يتراوح بين $1/4$ بوصة وبوصة عادة ، وتتراوح سرعة قراءة الكمبيوتر له بين ٣٠ بوصة في الثانية و ١٥٠ بوصة في الثانية .

ويوجد بعرض الشريط سبعة مسارات في الغالب . وبذلك يكون هناك ٧ مواقع ممغنطة أو غير ممغنطة في شفرة خاصة .

وهناك نوع جديد من الشريط المغنطيسي موضوع في ملبة مستطيلة (٧٣) كذلك التي تستخدم في التسجيل العادي ولكنها أكبر حجماً .



شكل (٩) . شريط مغنطيسي وقد ظهرت عليه الأجزاء الممغنطة القابلة للأرقام والحروف اللاتينية والعلامات البينية في الصورة

الطنبور المغنطيسي (٧٤) :

يكون الطنبور المغنطيسي على شكل أسطوانة من الألومنيوم مطلية بمادة مغنطيسية ، ويدور بسرعة كبيرة أثناء التسجيل عليه . ويتفاوت عدد مسارات التسجيل عليه ، كما يتفاوت الطول

المستعمل . وقد تصل سرعة الطوبور الى ١٥٠٠ دورة في الدقيقة ، ومن الشائع ان تكون سعة تخزينه حوالي نصف مليون رقم ثنائي وقد تصل الى ٢ ملايين أو أكثر .

القرص المغنطيسي (٧٥) :

تستعمل الأقراص المغنطيسية كأداة تخزين اضافي ، ولها سعة تخزين كبيرة جدا . وهي تشبه أقراص (اسطوانات) جرافون كبيرة وتكون مغطاة بطبقة رقيقة من أكسيد الحديد . وتدور الاسطوانات حول محور رأسي مشترك بمعدل الف دورة أو أكثر في الدقيقة . وتكون المسارات على القرص في شكل دوائر ذات مركز واحد . وتوقف سعة تخزين القرص على كل من سرعة الدوران ، وقطر القرص ، والكثافة المغنطيسية المستعملة لكل رقم ثنائي . وقد تصل سعة التخزين على القرص ذي ٤ بوصة والمطل من وجهيه الى عشرة ملايين رقم ثنائي . وباستعمال مشرين قرصا معا قد تصل سعة التخزين الى ٢٠٠ مليون رقم ثنائي .

ومن الممكن إعادة استعمال القرص الذي سجل عليه بيانات (أو برامج) مرات عديدة . وعندما يخزن عليه معلومات جديدة تسمى المعلومات القديمة التي كانت مكانها .

ومن الممكن ابقاء الأقراص متصلة بالكمبيوترات اتصالا دائما . كما انه من الممكن استبدالها بغيرها ، مما يعطي مقدرة على التخزين غير المحدود .

اللب المغنطيسي (٧٦) :

يستعمل اللب المغنطيسي للتخزين الرئيسي في الكمبيوترات الحديثة (ولم يكن يستعمل قبل الخمسينيات الأولى) . ويتكون اللب من حلقات صغيرة بدرجات متفاوتة مصنوعة من مادة مغنطيسية . والصغير منها قد يكون قطره الخارجي ٢.٠ بوصة وقطره الداخلي ١.٥ ر. بوصة . وقد يحتوى نظام الكمبيوتر الواحد على ٢ مليون حلقة . وتسجل البيانات على الحلقات بمغنتتها بواسطة تيارات كهربية تمر في اسلاك بمرکزها أو تلف حولها . ويمكن « قراءة » الحلقات بواسطة تيارات كهربية أيضا .

ويمتاز اللب المغنطيسي بأن الكمبيوتر يستطيع ان يسترجع منه المعلومات بطريقة « الاتصال العشوائي » (٧٧) بمعنى ان الحصول على بيان موجود في موضع معين بالذاكرة لا يستلزم المرور على المواضع الموجودة قبل ذلك .

الطابع السريعة :

قد يكون من اللازم الحصول على النتائج من الكمبيوتر في صورة مطبوعة ، ولذلك تستخدم طابع خاصة ذات سرعات عالية ، وهناك أنواع مختلفة من هذه الطابع ، ليعضها يطبع بواسطة دوران اسطوانة عليها حروف بارزة ، وبعضها يطبع بواسطة مطارق . وقد تصل سرعة الطبع الى ٥٠٠ سطر في الدقيقة مع مسافات ضيقة أو واسعة بين السطور ، ويحتوى السطر على ١٢٠ أو أكثر من مواضع الطبع (حروفا أو أرقام) . ومع السرعة الكبيرة للآلة يمكن طبع صفحات كبيرة في ثوان .

١١ - الكمبيوتر والأوتوميشن في الصناعة

الأوتوميشن (٧٨) :

في العمليات الصناعية يستعمل لفظ « أوتوميشن » بمعنى استعمال الآلات للرقابة والتحكم في آلات أخرى . واللفظ مشتق من كلمة اغريقية (٧٨) معناها العمل التلقائي .

وفي عمليات الأوتوميشن يوجد طوران :

في الطور الأول يصدر الكمبيوتر الأوامر إلى آلة الإنتاج .

وفي الطور الثاني ترسل نقطة العمل تقريراً إلى الكمبيوتر تبلغه فيه بالتغيرات التي حدثت في حالة العمل . ويطلق على التقادير من هذا النوع اسم « التغذية المرتدة » (A) .

وعندما يتلقى الكمبيوتر التغذية المرتدة أى التقرير بتغيرات الحالة - فإنه يعمل عمل آلة الإنتاج ، أو يوقفها ، أو ينتقل إلى طور آخر ، حسب ما يملئ عليه البرنامج ، وبسبب قدرات الكمبيوتر الفائقة لا يلزم غير زمن ضئيل للغاية لاتمام تحليل المعلومات الواردة بتقرير التغذية المرتدة وإصدار الأمر التالي .

والأوتوميشن شائع الاستعمال في صناعة تكرير البترول التي كانت من أولى الصناعات في هذا المجال ، وهناك عدد من الصناعات الكيماوية شاع فيها العمل بنظام الأوتوميشن ، منها صناعات النايلون واللدائن (البلاستيك) والتقطير والطحين .

وفي الصناعات الهندسية نجد أيضاً أمثلة على الأوتوميشن وإن كان ذلك لا يشمل في الغالب غير بعض أطوار العمل ، ومن الأمثلة على ذلك بعض أطوار صناعة السيارات . على أن اليوم الذي سنرى فيه الأوتوميشن يعم المصانع الهندسية الكبرى ليس بعيداً ، وفي الواقع هناك من المصانع اليوم ما يسير كله على هذا النظام . مثال ذلك بعض مصانع أجزاء الآلات اللاسلكية . وهناك بطبيعة الحال رجال يعملون فيها ، ولكنهم فنيون مدربون تدريباً عالياً مهمتهم مراقبة عمل الآلات الأوتوماتيكية ، وصيانتها ، وإصلاحها إن لزم الأمر .

ولا يعلم أحد ، حتى العلماء أنفسهم ، إمكانات الكمبيوتر في مجال الأوتوميشن . ولكن من المؤكد أن استعماله ستزداد يوماً بعد يوم . وإذا كانت الثورة الصناعية الأولى قد أنت ثمارها بعد نحو مائة وخمسين عاماً ، فإن الكمبيوتر قد أعطى نتائج مذهلة وهو وليد بعد . ومن المظاهر « البسيطة » للأوتوميشن تحكم الكمبيوتر في سفن الفضاء ، فهو يرسل لها الأمر ، فترد عليه ، فيرسل لها أمراً آخر - كل ذلك في لحظة العين . ومن مظاهر الأوتوميشن أيضاً أن بعض الطائرات المجهزة بكمبيوترات تستطيع الهبوط في المطارات بدون مساعدة من القائد ، كما يستطيع بعضها أن تطير بدون قائد وتؤدي عملاً حربيًا ثم تعود وتهبط في الممر المحدد لها .

المقول الالكترونية

الى اليمين : « جد المقول الآلية »
تشارلز يابنج (١٧٩٢ - ١٨٧١) .
كان استاذاً للرياضيات في كمبريدج .



تحت الى اليسار : الرجل الذى
اعطى أكبر دفعة للمقول الالكترونية ..
جون فون نيومان (١٩٠٣ - ١٩٥٧) .
كان استاذاً للرياضيات في معهد
الدراسات العليا في پرستون .

تحت الى اليمين : والد علم
« الكمبيوتر » نوربرت فينر (١٨٩٤
- ١٩٦٤) . كان استاذاً للرياضيات
في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا .





المظهر الأمامي للكمبيوتر « مارك ١ » MARK I الذي تم صنعه في سنة ١٩٤٤ وكان أول كمبيوتر رقمي ذي غرض عام ، ولكنه لم يكن إلكترونيًا .



الكمبيوتر « إنياك » ENIAC الذي تم صنعه سنة ١٩٤٦ وكان أول كمبيوتر رقمي إلكتروني . لاحظ أن قاعدته تتكون من ألواح الخشب على شكل حرف U .

المقول الالكترونية

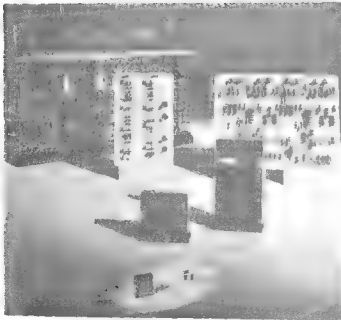
صورة مطرقي الترانزستود من علماء شركة بل
الامريكية للتليفون ، اخذت لهم سلسة اختراعاته
(١٩٤٨) ، وهم من اليسار الى اليمين :

و . شوكلي W. Shockley

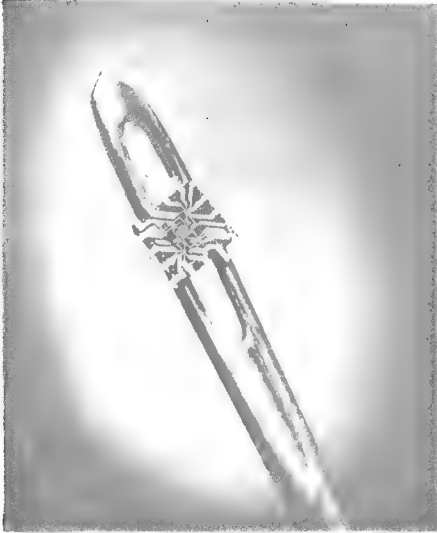
و . ه . براتين W. H. Brattain

ج . باردن J. Bardeen

ولقد نالوا لاختراعاتهم جائزة نوبل سنة ١٩٥٦



دوائر في ثلاثة اجيال متعاقبة
من الكمبيوترات الرقمية :
(١) في الخلف - دالسة
« انابيب مغلفة » . (٢) في
الوسط - بطاقات « الحالة
الصلبة » التي جاءت نتيجة
اختراع الترانزستود وحلت محل
الانابيب المفرطة . (٣) في
المقدمة - تحت التسمية
« قايان » للدوائر الدقيقة
يؤدي كل منهما جميع الوظائف
« المنطقية » للكمبيوتر . ويرى
خلفهما مجموعة من ٦ قوالب
واخرى من ١٢ قالب من هذه
القوالب الدقيقة .



نموذج للصناعات الالكترونية الدقيقة مما يستخدم في تركيب الكمبيوترات الحديثة :
على لقب ابرة طولها ٤م سنتيمترا تزن لوحة عليها ١٨ صماما ثنائيا ، واربعة ترانزستورات ،
ولمائية مقاومات كهربية .
يقال ان تشير الى ان هذا النموذج يعتبر « كيرا » بالنسبة الى آخر ما وصلت اليه دقة الصنع
في المكونات الالكترونية .

المحول الإلكترونية

الى اليسار -

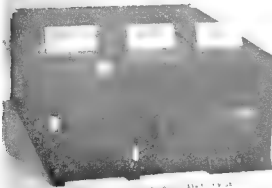
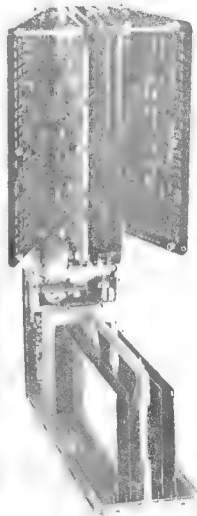
الكمبيوتر التناظري Pace TR-20 وفيه تصل دقة الحساب الى ٩٩,٩٩٪ وهي مرتفعة بالنسبة للكمبيوترات النظرية ، مختلفة اذا قورنت بدقة الكمبيوترات الرقمية .

(Electronic Associates Incorporated)



الى اليمين وإلى اسفل -

الكمبيوتر الحربي المحمول بالجو Alert Airborne
(هانيويل Honeywell) .





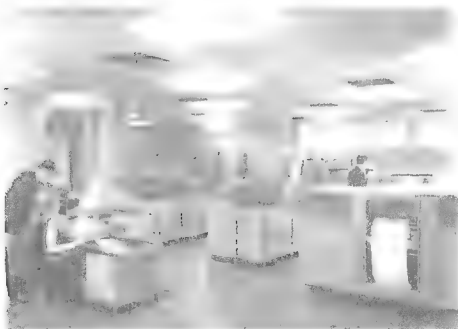
نظام كمبيوتر من سلسلة آي . بي . إم / 360 System IBM ، وترى وحدة المعالجة المركزية في يمين الوسط ، وخلفية بيانات في يسار الخلف ، ومجموعة الأقراص في يسار الأمام .



نظام كمبيوتر متوسط الحجم طراز يونيفاك . ٩٤٠٠ UNIVAC 9400 System



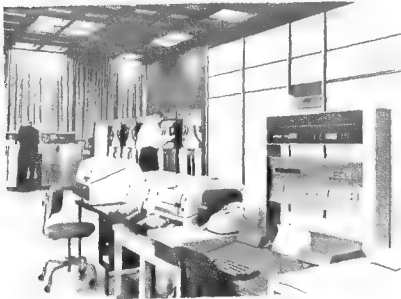
نظام كمبيوتر كبير الحجم طراز يونيفاك 1108 UNIVAC System



نظام كمبيوتر كبير الحجم طراز آي.سي.ال 1906-A ICL



نظام كمبيوتر كبير « لوفت الحقياني » طراز يونيفاك 494 System UNIVAC 494 System تستخدمه
الخطوط الجوية ويلعب دورا هاما في مشروع « الانسان الى القمر - ناسا »
NASA Man to the Moon Program



مركز شركة Keydata Corporation «الكمبيوتر على الخط» للخدمة التجارية العامة ،
حيث يستخدم نظام الكمبيوتر يونيفاك 491 UNIVAC 491 (لوفت الحقياني) لمعالجة
البيانات المرسلة عبر خطوط تليفونية مؤجرة من المشتركين في منطقة بوسطن (امريكا) .



يهتلف صانعو الكمبيوترات بأرقامهم سرا لسنوات عديدة . ولكن « لجنة الأوراق الصناعية » المنبثقة من « لجنة أمريكا لاستثمارات البنوك » قدرت في أواسط الستينات انه في سنة ١٩٧٠ ستكون المبيعات الأمريكية من تجهيزات « معالجة البيانات » في مستوى ٢٠ ألف مليون دولار . وليس هذا خيالا . ففي سنة ١٩٦٢ مثلا أنفق من ميزانية الدفاع الأمريكية وحدها ١٢٠٠ مليون دولار لشراء الكمبيوترات ، كما أن صناعات الكمبيوتر تنمو بمعدل من ١٠ إلى ١٢ في المئة سنويا .

والصورة العليا ، التي أخذت في سنة ١٩٦٤ ، تبين تركيب الأسلاك الداخلية في مطابق نظم الكمبيوترات في خط الإنتاج في إحدى منشآت شركة آي.بي.إم. IBM .

الكمبيوتر في الصناعة :

عامل يشاهد الكمبيوتر PDP-8/L من الناتج Digital Equipment Cor. يطبع اوامره لتغيير الآلات . ويطبع هذا الكمبيوتر كذلك البيانات التي تساعد عمال الصيانة على تحديد موضع العيوب في الآلات وتصليحها بدون ضرورة البحث في النظم الكهربائية والميكانيكية والهيدروليكية .



يمكن لنظام IBM 1800 Data Acquisition and Control System

ان يقوم بوظائف مختلفة في كثير من الصناعات العامة وتطبيقات البحوث ، مثل الاشراف على خط التجميع ، والتحكم في عملية صناعة الصلب ، والتعطيل الدقيق للدفقة أثناء اخلالها .

الكمبيوتر في التجارب

الكمبيوتر PDP-8/L
المشاهد الى يمين العامل
الذي يستخدم هنا في محطة
المعهد الوطني الاسكتلندي
للمهندسة الزراعية قسرب
ادبره لاختبار جهاز جديد
(قبل انتاجه) لجنى
البطاطس يستعين بالشمعة
اكس في دفع كل المواد
القريبة .



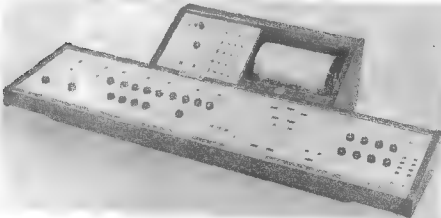
باحث في الكمبيوتر
التطبيقية في مجلس البحوث
الوطني في أوتاوا يستعمل
نظاما لشركة
Digital Associates Ltd.
على الكمبيوتر PDP-8/L
لدراسة الرنين المغناطيسي
النوى .



الكمبيوتر في التعليم



في مشروع «لوكال» LOCAL تشترله خمس مدارس عليا في منطقة بوسطون في استكشاف استخدام الكمبيوترات في الفصول الدراسية ، وذلك باستعمال نظام الاشتراك في الوقت Digital Equipment Corporation Tss-8 والذي يمكن الاتصال به عن بعد بواسطة التيرمينر أو خطوط التليفون العادية .



كمبيوتر التدريب Arkay CT-650 Trainer الذي يحتوي على ٦ « قوالب » تقابل الوحدات الأساسية الست الموجودة في معظم الكمبيوترات ذات القرص العام .



الكمبيوتر في مساعدة التصميم الهندسي

- باحث في أحد مختبرات شركة جنرال موتورز للسيارات يستعمل نظام GM DAC-1 لاختبار برنامج كمبيوتر يسمح بتعديل « رسم » تصميم جزء من سيارة .



الكمبيوتر في البثوث

- باستخدام بطاقة المعبر وسماطة التليون والأزوار الموجودة بجانبها تتصل الموقلة بكمبيوتر البنك وتستعمل منه عن رصيد المعبر ، وتغيره بمبلغ المعطية فتتلقى منه قيمة الرصيد النهائي للمعبر .



الكمبيوتر في المعاهد العليا

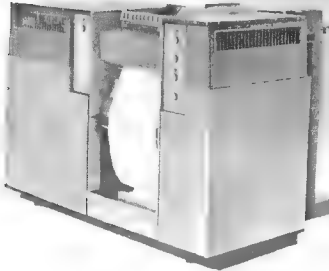
- أحد العلماء في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا يتصل بكمبيوتر كبير للمعهد لأجراء عملياته الحسابية أو حل مسائله العلمية دون أن يغادر مكتبه .



من وسائل التلغين والاخراج

قارئة شريط مثقب (ICL)

الأرقام والحروف المكتوبة بالصغير العادي وبالنسبة يمكن أن
تقرأها « قارئة حروف ضوئية » optical character reader
وترسلها مباشرة إلى الكمبيوتر (IBM)



الطبعة الالكترونية إي.سي.
ال ICL 1933 تستطيع
أن تطبع كفاية ١٣٥ سطر في
الدقيقة ويحتوي السطر على
٩٦ أو ١٢٠ أو ١٦٠ حرفاً أو
رقماً حسب الطلب .

بعض وسائل العرض

باستعمال هذه « النهاية » يتصل هذا السمار بكمبيوتر بعيد عبر خط صوتي فيتلقي الإجابة على شاشتين منفصلتين، اليمنى منها للبيانات الرقمية والعرفية ، واليسرى للرسم التي تتكون بتجميع النقط .

والنهاية المستخدمة هي

Bunker Ramo Teleguote 70 terminal.



ردا على سؤال التي باستعمال قرص التليفون يتلقى هذا المهندس إجابة صوتية من الوحدة المستخدمة وهي وحدة IBM 7770 وتعمل الوحدة على البيانات من كمبيوتر يجمع كلمات الإجابة من « قاموس » كلمات مسجلة على الطيور المتطبعي الكاخر في أعلى وسط الصورة .



بعض وسائل التسجيل والتخزين



طبوع مغنطيسي نموذجي من التاج يونيفاك UNIVAC



القرص المغنطيسي الوحيد UNIVAC unidisc
القابل للنقل .



« بنك بيانات » يتكون من مجموعات
قابلة للنقل من الأقراص المغنطيسية.
يمكن الاتصال بها بعد ٧٥ جزء من
الف من الثانية (IBM) .

١٢ - وسائل وعلوم جديدة

علم « رجل سكان السفينة » (٨١)

في سنة ١٩٣٨ قرر نوربرت فينر (٨٢) أستاذ الرياضيات بمعهد ماساوسيتش للتكنولوجيا (٨٣) مع طبيب القلب روزنبلوث (٨٤) استكشاف الأرض الحابدة بين مجالات العلم المتوسطة المختلفة . . تلك المناطق المتاخمة لحدود العلم والتي تحوى أعظم الفرص للباحث القوهل . وقد أطلق فينر على العلم الجديد اسم « سيرنكس » وهي كلمة أغريقية معناها « رجل سكان السفينة » .

وقد نمت الفكرة بسرعة وجذبت عددا كبيرا من العلماء ذوي التخصصات المختلفة ، وهكذا نشأت أنواع جديدة من علم « رجل سكان السفينة » ذات اتجاهات رياضية والكترونية ، وبيولوجية ، وتكنولوجية . .

وفي أوسع المعاني يشمل علم « رجل سكان السفينة » كل مجالات الرقابة والتحكم والمواصلات في الآلة والانسان .

واليوم يشمل هذا العلم كلا من المواضيع الآتية :

نظرية المعلومات (٨٥) - المواصلات - الحسابات الاوتوماتيكية (٨٦) - الاوتوميشن - تفسير الظواهر البيولوجية - التكيف (٨٧) - التنفيذ المرتدة في « الحيوانات » الالكترونية ، أي الآلات التي تستجيب بالتجربة والخطا - الترجمة الميكانيكية - نظرية ألعاب الاستراتيجية - التنبؤ ، واتخاذ القرارات ، وبحوث العمليات (٨٨) - الاستنتاج الاوتوماتيكي .

ويتصل الكثير من هذه المواضيع بالكمبيوتر أو استعماله .

البرمجة الخطية :

عرفت « بحوث العمليات » بأنها « استعمال الطريقة العلمية ، وخاصة طريقة القياس ، للوصول الى قرارات يبنى عليها العمل التنفيذي » .

ولا شك في أن البرمجة الرياضية هي أهم صور بحوث العمليات ، وأول فصل في البرمجة الرياضية هو « البرمجة الخطية » والتي يمكن تبسيطها بالقول بأنها طريقة رياضية للاجابة على السؤال التالي :

إذا كان لدينا موارد محدودة ذات استخدامات متعددة فيكف نستخدمها للوصول الى أكبر فائدة ممكنة (أو لتحمل أقل قدر من النفقات) ؟

(وبطريقة أدق : البرمجة الخطية هي النظرية الرياضية لإيجاد النهاية العظمى أو الصغرى لدالة خطية لتغيرات متعددة مع وجود قيود في صورة « غير متساويات » خطية) .

(81) cybernetics	(82) Norbert Wiener	(83) M.I.T.	(84) Rosenblueth
(85) information theory	(86) automatic calculations	(87) adaptation	
(88) operations research.			

وقد كان أحسن الحلول لمشكلة الموارد المحدودة المتعددة الاستعمالات هي الطريقة (٨٩) التي توصل إليها الرياضي (الألماني المولد) دنتزج (٩٠) مع اثنين من زملائه ، وكان وصولهم للحل سنة ١٩٤٦ لصالح البينتاجون ، على أن الحل لم ينشر إلا في سنة ١٩٥١ عندما تأكد الأمريكيون أن الروس قد وصلوا إلى نفس الحل .

ولقد جاء الكمبيوتر في الوقت الملائم لخدمة الحل الذي وصل إليه دنتزج وزملاؤه والمبنى على عمليات حسابية طويلة لا يمكن إجراؤها باستعمال الآلات الحاسبة التقليدية إلا في أزمئة طويلة جدا ، بحث لا يحصل على الإجابة إلا بعد فوات وقت الإفادة منها .

وهكذا بدأ علم البرامج الخطية . وتبعه علم البرامج غير الخطية .

ولقد جاءت البرامج الخطية حلا لمشاكل تقابل رجال الحرب عندما تكون مواردهم محدودة . على أن هذا النوع من المشاكل يقابل الناس في الصناعات أيضا ، وبنفس القوة . ومن هنا جاء دور علم « البرامج الخطية » في علوم الإدارة .

تقديم المشروعات :

في « أهرام » الجمعة ١٩٧٠/٤/٣ كتب محمد حسنين هيكل :

« انني لا أجادل لحظة في أن إسرائيل دولة متقدمة تمتلك كل الوسائل التي انتجها العلم لتحقيق التقدم » .

« لديها جامعات ومعاهد فنية على مستوى ممتاز بأى مقياس عالمي . »

« ولديها مقدرة على استيعاب علوم الإدارة الحديثة التي هي محرك التقدم المادى » .

« ولديها بنسبة سكانها أكبر عدد من العقول الإلكترونية في العالم وكانت هذه العقول هي التي حسبت لهاضربة الجو الحاسمة صباح يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ ، بطريقة ال PERT وهي « معادلة التنسيق الكامل في إطار واحد بين خطوات متعددة لكي تتم جميعا في نفس الوقت وبأعلى درجة من الكفاءة ... »

ونحب أن نضيف إلى تعريف « الأهرام » لطريقة « برت » أنها تستخدم عندما يوجد مشروع له مناطق متعددة ، بعضها يجب أن تتم فيه النتيجة في وقت ضيق ، والبعض الآخر له فائض من الوقت - وذلك مع وجود موارد محدودة ، ويستلزم استخدام هذه الطريقة تحليلا دقيقا للمشروع بأكمله لكي تعمل قائمة بكل النشاطات أو الأعمال الفردية التي يجب أدائها لكي يتحقق الهدف النهائي ، ويحتاج الأمر إلى استخدام كل المواهب والخبرات لكي يكون التحليل كاملا تماما ومحتويا على كل التفاصيل ، وبعد وضع قائمة النشاطات تنظم هذه في شبكة تعرض فيها العلاقات المتتابعة بها ، وبذلك يلقي الضوء على المناطق التي ليس لها فائض من الوقت للضياع عند تنفيذ المشروع ، والمناطق التي لديها ذلك الفائض .

(89) simplex method

(90) George B. Dantzig

* الاسم الكامل هو « تكتيك تقويم ومراجعة المشروع »

" Program Evaluation and Review Technique "

علم الكمبيوتر (٩١)

لم يحدث قط لاختراع واحد ان ظهرت له الآثار العميقة في المجالات المختلفة في سنوات قليلة مثلما حدث للكمبيوتر ، ولقد تبين بصدان ادخل فون نويمان الأفكار التي أرى ذكرها فيما سبق أن هذا الاختراع جاء فاصلاً بين عهدين، فلا عجب إذن أن رأينا الاقبال منذ البداية على ميدان الكمبيوتر من علماء الرياضيات والفيزياء، والمهندسين ، ورجال التكنولوجيا ، وأصحاب رؤوس الأموال . ولقد نشأ من ذلك علوم وتكنولوجيا وصناعات جديدة . ومن العلوم الجديدة في هذا المجال « علم الكمبيوتر » .

وبهنا هنا أن نتكلم عن بعض الفروع التي تدخل تحت اسم هذا العلم الجديد . .

في سنة ١٨٥٤ نشر الرياضي والفيلسوف الإنجليزي جورج بول (٩٢) (١٨١٥ - ١٨٩٤) كتابه المسمى « بحث عن قوانين الفكر التي تبنى عليها النظريات الرياضية للمنطق والاحتمالات » (٩٣) ولم يكن بول قد نشر قبول ذلك شيئاً يستحق الذكر من البحوث الرياضية الأصلية التي لها مثل العمق الذي ظهر في هذا الكتاب . وبذلك أصبح أول شخص ينشر باكورة بحوثه العلمية الخلاقة في سن الأربعين ، على أن أفكار بول لم تقابل في مبدأ الأمر بالتقدير الذي تستحقه ، إذ لم يكن واضحاً أى قيمة عملية للنتائج التي وصل إليها ، أو تلك التي وصل إليها الرياضي الإنجليزي الآخر دى مورجان (٩٤) في نفس المجال، ولم تظهر هذه القيمة إلا عندما كتب كلود شانون (٩٥) في سنة ١٩٣٨ رسالته للماجستير في العلوم من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا ، فقد بحث شانون في رسالته طريقة إيجاد أبسط واكفأ توصيلات المفاتيح (٩٦) والمخارجات (٩٧) في الدوائر الكهربائية باستعمال تعبيرات رياضية مبنية على العلاقات بين المتغيرات على أساس المنطق ، تلك العلاقات التي أوجدها جورج بول والتي يطلق الآن على قواعدها اسم « الجبر البولي » .

ومن هنا أصبح الجبر البولي أحد الفروع الأساسية في الرياضيات اللازمة للكمبيوتر . كذلك نشأ فرع جديد لعلم الكمبيوتر باسم « نظرية دوائر المفاتيح » (٩٨) ويتضمن تطبيقات الجبر البولي في التوصيلات الكهربائية .

ولعل القارى يدهش إذ يعلم أن « تصميم الكمبيوتر الرقمي » أصبح الآن تطبيقاً للجبر البولي (في الواقع لنسرع له يعرف باسم « الجبر البولي الثنائي » (٩٩)) .

علوم وفروع أخرى :

في مجال وضع البرامج للكمبيوتر توجد دراسات كثيرة لانشاء لغات جديدة للكمبيوتر

(91) computer science (92) George Boole (93) " Investigation of the laws of thought on which are founded the mathematical theories of logic and probabilities "

(94) Augustus De Morgan (95) Claude E. Shannon (96) switches

(97) relays (98) switching circuit theory (99) binary Boolean algebra

تكون أكثر صلاحية وأسهل استعمالاً من اللغات الحاضرة . وتتعاون أقسام الرياضيات واللغات في الجامعات فيما يطلق عليه اسم «لغات البرامج» .

ولما كان عمل الكمبيوتر متعلقاً أساساً بالبيانات فقد نشأت صلة وثيقة بينه وبين علم جديد يعرف باسم «نظرية البيانات» (١٠٠) .

وفي علم الفيزياء زاد الاهتمام بفرع «فيزياء الحالة الصلبة» (١٠١) نظراً لتطبيقاته في صناعة الكمبيوتر . واليوم يدرس الباحثون كيف يمكن الاستفادة من أشعة «الليزر» (١٠٢) في صناعة كمبيوترات من جيل جديد تتم فيها العمليات بسرعة الضوء .

١٣ - علوم الكمبيوتر واستعمالاته في الجامعات والمعاهد العليا

لقد رأينا كيف أن الفضل الأول في مجال الأفكار الأساسية في تصميم الكمبيوترات كان لاساتذة الجامعات وعلى رأسهم :

الرياضي بابدج من جامعة كمبودج
الرياضي فون نويمن من جامعة برنستون
الفيزيائي إيكين من جامعة هارفارد
التكنولوجي ويلكس من جامعة كمبودج

ولا عجب إذن أن نرى الاهتمام المتزايد بعلوم الكمبيوتر وتطبيقاته في الجامعات والمعاهد العليا في البلاد المتقدمة ، وفيما يلي بعض المعلومات التي تبين مدى اهتمام الجامعات في هذا المجال ..

في بريطانيا * يتخصص في علم الكمبيوتر وتطبيقاته والعلوم المتصلة به اتصالاً مباشراً أكثر من ٢٥٠ من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات والمعاهد العليا ، موزعين كالآتي :

١٤٣ عضواً في أقسام «علم الكمبيوتر»
٧١ عضواً في أقسام «علم البيانات»
٣٨ عضواً في أقسام «الرياضيات»

ويوجد في جامعة لندن وحدها معهد متخصص باسم «معهد علم الكمبيوتر» بالإضافة إلى قسمين من أقسام «علم الكمبيوتر» .

وفي جامعة كمبودج يعمل في «مختبر الرياضيات» ستة من أعضاء هيئة التدريس

المتخصصين في علوم الكمبيوتر وعلى رأسهم الأستاذ ويلكس عضوا الجمعية الملكية الذي صمم الكمبيوتر « ادساك » .

وفي الولايات المتحدة الأمريكية يوجد أكثر من ألف كمبيوتر رقمي في حوالي أربع مائة جامعة ومعهد عال ، ويزيد نصيب علوم الكمبيوتر وتطبيقاته عنه في بريطانيا بكثير بطبيعة الحال ، وأمامي الآن دليل الدراسات العليا بأحدى الجامعات (جامعة سرايوز) فاجد ٧ مقررات من علوم الكمبيوتر .

وأما في البلاد العربية فالأمر مختلف بطبيعة الحال . ولست أقصد أن أقارن بلادنا في مجال علوم الكمبيوتر بالبلاد الصناعية الكبرى التي تسبقنا في مجال العلم والتكنولوجيا بمسافات تزيد كل يوم ، ولكن مما يشجع أن نجد أن هناك أربع جامعات حكومية في الجمهورية العربية المتحدة بها مراكز حساب الكتروني وذلك بالإضافة إلى مختبر الحساب الالكتروني بالجامعة الأمريكية بالقاهرة . وهذه الجامعات (بترتيب بدء استعمالها للكمبيوتر) هي : الاسكندرية (كمبيوتر أمريكي) ، عين شمس (كمبيوتر أمريكي) القاهرة (كمبيوتر انجليزي) ، الأزهر (كمبيوتر هولندي) والإلتان الأخيرتان كبيرتان الحجم حديثتان وسعة التخزين الرئيسية في كل منهما قابلة للنمو إلى ٢٦٢ ألف كلمة ، أما التخزين الإضافي فيمكن أن يصل إلى مئات الملايين ، وعندما تكمل أجزاء كمبيوتر جامعة القاهرة فإنه سيتمكنه تنفيذ ١٦ برنامجا في وقت واحد .

وفي البلاد العربية الأخرى ، مثل الكويت ولبنان ، يوجد كمبيوترات ببعض الجامعات ، كما أن البعض الآخر في طريقها إلى إنشاء مراكز حساب الكتروني .

١٤ - تكاليف الكمبيوتر

تقسم نظم الكمبيوترات إلى ست مجموعات حسب حجمها ، وفيما يلي بيان بالإيجار الشهري بالتقريب في الولايات المتحدة لكل من المجموعات كما كان سنة ١٩٦٧ :

المجموعة	الإيجار الشهري بالدولار
المجموعة الأولى (كبيرة جدا)	من ٥٠٠٠ إلى ١٤٠٠٠
المجموعة الثانية (كبيرة)	من ٢٠٠٠ إلى ٥٠٠٠
المجموعة الثالثة (متوسطة)	من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠
المجموعة الرابعة (صغيرة)	من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠
المجموعة الخامسة (صغيرة جدا)	من ٢٠٠ إلى ٥٠٠
المجموعة السادسة (أصغر المجموعات)	من ٣٢٥ إلى ٢٠٠

• بيانات ١٩٦٦ ولا بد أنه قد حدثت تطورات كبيرة منذ ذلك الوقت .

١٥ - خاتمة

في سنة ١٩٣٠ هاجر الى الولايات المتحدة الأمريكية شاب من مواليد بودابست يحمل الدكتوراه في الرياضيات ، وكان عمره عند وصوله الى الولايات المتحدة سبعة وعشرين عاما .

وفي سنة ١٩٣٥ هاجر الى الولايات المتحدة الأمريكية شاب آخر من مواليد بودابست أيضا يحمل الدكتوراه في الفيزياء . وكان عمره عند وصوله الى الولايات المتحدة سبعة وعشرين عاما كذلك .

وقد عرف الرجل الأول فيما بعد باسم « والد الكمبيوترات الحديثة » .

أما الرجل الثاني فقد عرف فيما بعد باسم « والد القنبلة الهيدروجينية » .

وقد مررنا الرجل الأول فيما تقدم فهو يانوس فون نويمان الذي غير اسمه الأول الى جون .

أما الرجل الثاني الذي يدعى ادوارد تلر (١٠٣) فلم نذكر عنه شيئا فيما سبق . وربما يظن القارئ أننا ذكرناه هنا لنبين أن شخصين من أمّة صغيرة لا حول لها ولا قوة قد قاما بجهد علمية ستغير نتائجها وجه العالم الذي نعيش فيه، وأن في هذا عبرة لنا . فلعله يشب يوما ما في بلادنا شخص يغير وجه هذه الأرض بأعماله العلمية .

إننا لم نقصد ذلك تماما ، وإن كنا نتمناه بطبيعة الحال ، ولكننا قصدنا شيئا آخر . فقد جاءت أفكار فون نويمان أثناء عمله في لجنة الطاقة الذرية الأمريكية ، وكذلك جاءت أفكار ادوارد تلر أثناء عمله في نفس هذه اللجنة . وهناك مثل يقول « بعد الحرب تتحول السيوف الى نصفا للمحارث » ، فصنع السيف سيؤدي يوما ما الى حرث الأرض . وما نحن قد رأينا كم أغاد الناس في وقت السلم من الكمبيوتر ومن الطاقة الذرية . ولعله يأتي اليوم الذي يستطيع فيه الناس تسخير الطاقة النووية الهيدروجينية لخدمة البشر .

عندئذ سيتغير كل شيء على هذه الأرض . فالهيدروجين من أكثر العناصر انتشارا ، ولا يكاد يكون له ثمن . والطاقة النووية التي يمكن توليدها منه ليس لها حدود .

وهناك بارقة أمل في نجاح الإنسان في هذا السبيل بعد نتائج بحوث علمية أعلنت حديثا في روسيا . وكل ما نتمناه أن يعم الخير كل البشر .

ولي أمنية ، أرجو من صميم قلبي أن تتحقق : هي أن يكون للعرب قسط ، أي قسط ، في الوجود العلمية التي ستقود الإنسان الى الكونزالتى لن تنضب ما بقى من الناس إحياء على هذه الأرض .

تذييل (١)

أنواع البرامج ولفات الكمبيوتر

يتألف البرنامج من سلسلة من الأوامر تلقن للكمبيوتر وتخزن في ذاكرته الرئيسية قبل العمل، وتختلف هذه السلسلة عادة من برنامج إلى آخر، ويقتضى وضع برنامج لحل مسألة معينة ما يأتى :

- ١ - تجزئة المسألة إلى خطوات أولية يستطيع الكمبيوتر أن ينفذها .
- ٢ - كتابة الخطوات في تسلسل سليم .
- ٣ - ترجمة البرنامج المكتوب إلى (لغة) يفهمها الكمبيوتر .
- ٤ - اختبار البرنامج باستخدام مجموعة بسيطة من البيانات .

والكترونول ، أى التوجيه والتحكم ، هو الذى يفسر كل « أمر » بعد أن يتلقاه في دوره من التخزين الرئيسى مكتوبا بشفرة ثنائية (في معظم الكمبيوترات الرقمية) يعرف باسم « لغة الآلة » (١٠٤) . وتعرف الأوامر في هذه الصورة باسم « أوامر الآلة » (١٠٥) وتتوقف لغة الآلة على تصميمها .

وفي الأيام الأولى للكمبيوترات الالكترونية كان واضعو البرامج يكتبونها بلغة الآلة التى تستخدم عليها ، وكانوا يلاقون في ذلك مشقة كبيرة . وعلى سبيل المثال اذا كانت الآلة المستخدمة هى آى . بى . ١٠ / ١٠٧٧.٤ / م . فإنه كان يكتب :

0001 0000 0000 0000 0000 0000 0000 0101 0111

للأمر بجمع محتويات « الموضع رقم ١٨٣ » في الذاكرة إلى « المراكم » (١٠٧) وهو المكان الذى تخزن فيه نتائج الجمع والطرح الخ .. تخزيننا وقتيا أثناء عملية الحساب .

على أنه قد أمكن التخلص من معظم العناء الذى كان يلاقيه واضعو البرامج باختراع لفات سهلة الاستعمال نسبيا تترجم فيما بعد إلى « لغة الآلة » باستخدام برنامج خاص يتوقف على اللغة المستخدمة وعلى تصميم الآلة . وتزيد اللغات التى اخترعت في هذا المجال وضاع استعمالها في أوقات مختلفة عن ١٢٠ لغة ، وذلك بخلاف اللغات التى كان استعمالها محليا .

اللغة الرمزية (١٠٧)

وقد كانت أولى اللغات التى اخترعت للتخلص من مصاعب لغة الآلة تسمح لواضع البرنامج بكتابة « الأوامر » في صورة تحتوى على مختصرات لغوية واعداد عشرية . وعلى سبيل المثال اذا أريد جمع محتويات « الموضع رقم ١٨٣ » إلى « المراكم » (وهو الأمر السابق ذكره) فإنه قد يكتب

ADD 183

(104) machine language

(105) machine instructions

(106) IBM 7040

(107) accumulator

(108) symbolic languages.

وكذلك كانت أوامر الطرح والضرب والقسمة والقراءة والوقوف تكتب في بعض البرامج (المدة للتنفيذ على آلات معينة) كما يلي على التوالي (من اليسار إلى اليمين) :

SUB, MUL, DIV, RD, HLT

ومن السهل تذكر صور هذه الأوامر إذا أنها اختصارات للألفاظ الإنجليزية :

SUBtract, MULtiply, DiVide, ReaD, HaLT

والتي لها المعاني المقصودة في الأوامر (وقد كتبنا الحروف المحذوفة في اللغة الرمزية بخط صغير) .
والشفرة من هذا النوع تسمى « شفرة تذكيرية » (١٠٩) لأنه من السهل تذكرها . ويطلق على البرنامج الذي يستخدم لترجمة اللغة الرمزية المكتوبة بهذا الشكل إلى لغة الآلة اسم «مجمع» (١١٠) كما يطلق على عملية الترجمة اسم «تجميع» (١١١) .

وقد اخترعت فيما بعد لغات أخرى ذات مستوى عال (١١٢) (لا تستخدم مع الكمبيوترات ذات السعة الصغيرة جدا) . ومن هذه اللغات ما عم استعماله مثل لغات « فورتران » و « كوبول » و « الجول » وقد اشتقت هذه الأسماء كما هو مبين فيما يلي :

FORTRAN	(FORmula TRANslator)
COBOL	(COmmon Business — Oriented Language)
ALGOL	(ALGebraic — Oriented Language).

والأمر الواحد المكتوب بأحدى هذه اللغات يترجم إلى سلسلة كاملة من « أوامر الآلة » والبرنامج الذي يستخدم لهذه الترجمة يتوقف على اللغة وعلى تصميم الكمبيوتر ويطلق عليه اسم «مجمع كبير» (١١٣) كما يطلق على عملية الترجمة اسم « التجميع الكبير » (١١٤) .

وتستخدم لغتا فورتران والجول في النواحي العلمية (١١٥) بينما تستخدم لغة كوبول في النواحي التجارية (الأعمال غير العلمية) .

وهناك لغة حديثة نسبياً تستخدم في كل من الناحيتين العلمية والتجارية وتعرف باسم :

PL/I (PROGRAMMING LANGUAGE I)

لغة فورتران :

أعلنت شركة آي . بي . أم هذه اللغة سنة ١٩٥٧ بعد سنوات من البحوث ، وكانت اللغة تتكون من ٢٥٠٠٠ سطر من الرموز . وقد اكتشفت بعض الأخطاء فيها في مبدأ الأمر . وقد صححت هذه الأخطاء واستمر العمل في تطوير اللغة مدة طويلة وظهرت عدة صور منها .

ولغة فورتران ذات قيمة عظيمة في حل المسائل العلمية التي تعتمد على معادلات أو علاقات رياضية . وتستخدم هذه اللغة في الوقت الحاضر مع كمبيوترات من صنع العديد من الشركات .

(109) mnemonic code	(110) assembler	(111) assembly	(112) high-level languages
(113) compiler	(114) compilation	(115) scientific	

لغة كويول :

في سنة ١٩٥٩ فكرت وزارة الدفاع الأمريكية في تشكيل لجنة من الحكومة ومن ممثلي شركات الكمبيوترات للقيام بتطوير لغة تتكون من الفاظ دراجة الاستعمال في أمريكا وذلك لاستخدامها في معالجة البيانات باستعمال أى كمبيوتر رقمى ذي سعة تخزين معقولة ، وكانت لغة كويول ثمرة لجهود هذه اللجنة .

وتتكون هذه اللغة من الفاظ انجليزية معينة وتركب جملها حسب قواعد خاصة . وعندما يتم شخص وضع برنامج بهذه اللغة فانه يكون من السهل على شخص آخر يعرف اللغة الانجليزية ان يفهم هذا البرنامج وان لم يكن في استطاعته وضع برنامج مماثل له .

لغة الجول

كانت الجول اول لغة كبيرة تصممها لجنة مشتركة من منظمات مختلفة . وفي الواقع كانت اللجنة التي صممها دولية . وفي مارس ١٩٥٩ صدر في كوبنهاجن اول عدد من (نشرة الجول) (١١٩) وفي سنة ١٩٦٨ صدرت صورة معدلة من هذه اللغة .

لغة 1 PL/

منذ بداية استعمال لغة فورتران كان واضحاً ان هذه اللغة تعاني من قصور لعدم إمكان استعمالها في عدد من الآلات الموجودة بالأسواق . وذلك بالإضافة الى صعوبات فنية أخرى . ولهاجنة وافقت منظمة « سير » (١١٧) وشركة آى . بى . ام في سنة ١٩٦٣ على تأليف لجنة مشتركة لتصميم لغة ذات مستوى هال تخطو من قصور فورتران . وقد تلقت اللجنة مساعدات من أفراد وهيئات أخرى . وفي أقل من ثلاث سنوات ظهرت هذه اللغة وكان لها تأثير كبير على صناعة الكمبيوتر . ويعتقد البعض انها ستحل في المستقبل محل لغات فورتران وكويول والجول .

برنامج المصدر (١١٨) وبرنامج التطبيق (١١٩)

عندما يتم برنامج وبعد تلقينه للكمبيوتر لترجمته الى لغة الآلة فانه يسمى «برنامج المصدر» والبرنامج الذي ينتج من الترجمة يسمى « برنامج التطبيق » والبرنامج الاخر هو الذي يستخدم مع البيانات للحصول على النتائج المطلوبة .

تذييل (٢)

نبذة تاريخية عن الكمبيوترات الناعظرية

كما سبق ان ذكرنا كان الكمبيوتر « اتيك » اول آلة حاسبة رقمية الكترونية . على ان اول التطورات الالكترونية في صناعة الآلات الحاسبة كان في مجال الكمبيوترات الناعظرية . فبفضل التكنولوجيا الالكترونية التي نشأت اثناء الحرب العالمية الثانية امكن صناعة صور الكترونية لالة

ميكانيكية تعرف باسم « المحلل التفاضلي » (١٢٠) كان الدكتور فانيفر بوش (١٢١) من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا قد اخترعها سنة ١٩٣٠م صنع نسخ عديدة منها بين هذه السنة وسنة ١٩٤٢ . وكانت هذه الآلة مبنية على فكرة مبتكر صناعه الفيزيائي البريطاني الكبير اللورد كلفن سنة ١٨٧٦ ويعرف باسم « مكامل كلفن » (١٢٢) على أنه من المرجح أن بوش وزملاءه قد عملوا مستقلين عن أفكار كلفن .

وقد كانت « المحللات التفاضلية » مفيدة للغاية في دراسة النظم المعقدة التي يمكن تمثيلها بمعادلات تفاضلية . على أنه سرعان ما ظهر أن الكمبيوترات الرقمية الجديدة أكثر قدرة وأوسع افقا ، مما جعلها تحل بسرعة محل الكمبيوترات التناظرية كلما سمحت طبيعة المسائل المعروضة بذلك .

شكر

أود أن أقدم جزيل الشكر للهيئات والشركات الصانعة للكمبيوترات التي تفضلت بتقديم صور توضح نظم الكمبيوترات ومكوناتها واستعمالاتها مما جاء بعضه في هذا العدد من مجلة (عالم الفكر) . ولا شك أن المجلة ستقوم بتقديم البعض الآخر في فرص قادمة .



(120) differential analyzer

(121) Vannevar Bush

(122) Kelvin integrator

المراجع

1. BARTÉE T. C. : Digital Computer Fundamentals ; Mc Graw-Hill, 1966.
2. BOWDEN B. V. : Editor : Faster than Thought ; Pitman, 1967.
3. BRAZEE J. G. : Semiconductor and Tube Electronics ; Holt, Rinehart and Winston, 1968.
4. BROWN J. A. : Computer and Automation ; Arco, 1968.
5. BURROUGHS CORPORATION : Digital Computer Principles ; Mc Graw-Hill, 1962.
6. CRAWFORD F. R. : Introduction to Data Processing ; Prentice-Hall, 1968.
7. CULBERTSON J. T. : Mathematics and Logic for Digital Devices ; Van Nostrand, 1966.
8. DEPARTMENT OF EDUCATION AND SCIENCE AND THE BRITISH COUNCIL : Scientific Research in British Universities and Colleges, Vol. I, Physical Sciences ; Her Majesty's Stationery Office, London, 1969.
9. DESMONDE W. H. : Computers and their Uses ; Prentice-Hall, 1964.
10. EADIE, D. : Introduction to the Basic Computer ; Prentice-Hall, 1968.
11. ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA, 1967.
12. EVANS, G. W. : WALLACE, G. F. and SUTHERLAND, G. L. Simulation using Digital Computers ; Prentice-Hall, 1967.
13. FARINA M. V. : Computers ; Prentice-Hall, 1969.
14. FLORES, E. : Computer Software ; Prentice-Hall, 1965.
: Computer Design ; Prentice-Hall, 1967.
16. FONTAINE G. : Diodes and Transistors ; Centrex Publishing Co., Eindhoven, 1963.
17. FUCHS W. R. : Mathematics for the Modern Mind ; Macmillan, 1967.
18. GERRISH H. H. : Electricity and Electronics ; The Goodheart-Willcox Co. Homewood III, 1968.
19. GREEN B. F. Jr. : Digital Computers in Research, an Introduction for Behavioral and Social Sciences ; Mc Graw-Hill, 1963.
20. HARTEE D. R. : Calculating Instruments and Machines, Cambridge University Press, 1950.
21. HELLERMAN H. : Digital Computer System Principles ; Mc Graw-Hill, 1967.
22. KRIEGER M. : Basic Switching Circuit theory ; Macmillan, 1967.
23. LAURIE E. J. : Computers and How They Work ; South Western Publishing Co., 1963.

24. LYTEL A. : Digital Computers in Automation ; The Bobb-Merrill Co. 1966.
25. MALEY G. A. and HEILWEIL M. F. : Introduction to Digital Computers ; Prentice-Hall, 1968.
26. MANDL M. : Fundamentals of Electronic Computers ; Prentice-Hall, 1967.
27. MARCUS M. P. : Switching Circuits for Engineers ; Prentice-Hall, 1967.
28. MARTIN F. F. : Computer Modeling and Simulation ; Wiley, 1968.
29. MARTIN J. : Design of Real-Time Computer Systems ; Prentice-Hall, 1967.
30. : Telecommunications and the Computer ; Prentice-Hall, 1969.
31. McCORMICK, E. M. : Digital Computer Primer ; McGraw-Hill, 1959.
32. MILLERMAN and TAUB : Pulse, Digital and Switching Waveforms ; McGraw-Hill, 1965.
33. RICHARDS R. K. : Digital Computers and Circuits ; Van Nostrand, 1965.
34. SAMMENT J. E. : Programming Languages ; Prentice-Hall, 1969.
35. SAY M. G. : Concise Encyclopaedia of Electrical Engineering ; Elsevier (Amsterdam) 1962.
36. SIPPI C. J. : Computer Dictionary and Handbook ; Sams, 1967.
37. STIBITZ G. R. and LARRIVEE J. A. : Mathematics and Computers ; Mc Graw-Hill, 1957.
38. TATON, RENE, : Science in the Twentieth Century ; Thames and Hudson, 1964.
39. TECHNICAL EDUCATION AND MANAGEMENT Inc., Computer Basics Vols. I-VI, Sams 1968.
40. Thomas H. E. : Handbook of Transistors, Semiconductors, Instruments and Micro-electronics ; Prentice-Hall, 1968.
41. WILLIAMS J. B. : Digital Computing Systems ; McGraw-Hill, 1959.
42. WRUBEL M. H. : A Primer of Programming for Digital Computer ; Mc Graw-Hill, 1959.

مستقبل التغذية في العالم

لعل من بين أبرز مظاهر التغير التي يواجهها عالمنا الحاضر هو النمو العددي المريع لسكانه، وبشكل يلوّح حد التنبؤ والحساب ، بحيث أصبح يكون حالة من التحدي الخطير للجنس البشري يجابهها في نواحي حياته المختلفة : في حصوله على الطعام ، على السكن ، على التعليم ، على العمل الذي يرتق منه ، وعلى أمور كثيرة أخرى ، وهي حالات تدفعه جميعا الى استئثار موارد بيئته ما أمكن ، وإلى حد ربما أدى في بعض الأحيان الى تعمير هذه الموارد ، وذلك لأنه مهما كانت هذه الموارد غزيرة وكامنة القابليات إلا أنها على نقيض السكان ، لا يمكن أن تنمو بدون حدود ، تلك الحدود التي يعينها كيانها الطبيعي والمرتبط بأوضاع المناخ ومساحة السطح وما تحت السطح من ثروات معدنية وما فوقه من مظاهر التربة .

صحيح أن الإنسان الحديث بعلمه وبقوته الصناعية قد تمكن من تغيير الكثير من معاني الموارد الطبيعية وحول ما كان سلبيا منها وجعله إيجابيا ، وهو لا يزال ماضيا في هذا الطريق ، ولكن لا شك في أن الجواب النهائي على إمكانية استمرار هذا التغير تعطيه البيئة الطبيعية نفسها .

وفي خضم هذا التغير أصبحنا نجد المصائب اليوم ، لا سيما أصحاب الشأن فيه ، يزداد قلقا من أمر هذا التزايد المتفجر لسكانه ، وذلك نظرا لما لهذا الوضع من علاقة بأمر اكفاء الحاجات الغذائية ، هذه الحاجات الغذائية التي يسبب نقصها الاخلال في الكثير من مواقف الإنسان وسلوكه ، حيث قد تضطره مثل هذه الحالة الى الهجرة ، وقد تدفعه الى الاستجداء والتسول ، وقد تدفعه الى بيع ابنائه ، وقد تدفعه الى أكل لحوم أخيه ، وقد تدفعه أخيرا الى مهاوى الفناء

© الدكتور حسن طه النجم ، أستاذ الجغرافيا المساعد بجامعة الكويت ، وجامعة بغداد . اشترك في تأليف وترجمة عدد من الكتب في الجغرافيا الإقليميّة والاقتصادية .

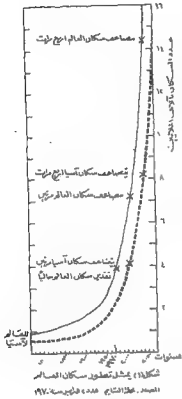
جوعاً، ويزداد قلق العالم من ذلك أكثر فأكثر كلما نشرت إحصائية جديدة عن تعاليم أعداد سكانه ، ففي عالم اليوم ينتج في كل دقيقة حوالي ١٣٠ فماً جديداً طالباً الطعام، وسيزداد عدد هذه الإفواه المفتوحة أكثر فأكثر كلما مرت السنوات .

ان تقاسم مشكلة التغذية بما لها من علاقة بتزايد سكان العالم يمكن ان تتجسم لنا بدرجة اكبر لدى القائلنا نظرة خاطفة على التقديرات الاحصائية لمختلف سكان العالم عبر التاريخ الحديث ، والتي سترينا بوضوح ان اعداد السكان هؤلاء قد أخذت بالتنامي المطرد ولا سيما منذ بداية القرن التاسع عشر ، وهو القرن - الذي بدأت فيه نتائج الثورة الصناعية تتجاوب اصداؤها في انحاء مختلفة من العالم وتؤتى اكلاها في رفع مستويات المعيشة وتحسين سبل الحياة - فخلال المئة سنة الواقعة بين 18٠٠ و 1٩٠٠ زاد سكان العالم من حوالي ٩٥٥ مليون نسمة الى ١٦٥٥ مليون نسمة او بنسبة ٧٣٪ تقريباً ، في حين قفز الرقم الى ٢٥٠٠ مليون نسمة بعد خمسين سنة فقط من بداية القرن الحالي ، او بنسبة ٥٢٪ ، هذا على الرغم مما أصاب العالم خلال هذه الفترة من القرن العشرين من مآسى الحريين العالميتين الأولى والثانية ، والحروب المحلية والإقليمية الأخرى ، والتي عملت جميعها على أزهاق أرواح الملايين من السكان الذين معظمهم في عمر الانتاج والتكاثر، كما خلفت ما خلفته من الأوبئة والأمراض الكاسحة التي اختطفت ملايين أخرى وذلك كنتيجة لتفشي الجاعات وسوء التغذية وقلة العناية الصحية .

على ان هذه النسبة من تزايد السكان التي حدثت في النصف الأول من القرن الحالي لم تلبث ان تكررت بعد عشرين سنة فقط من بداية النصف الثاني من هذا القرن، حيث بلغ عدد سكان العالم في مطلع سنة 1٩٧٠ أكثر من ٣٦٠٠ مليون نسمة ، وذلك كنتيجة لانتشار الوعي الصحي وشيوع التعاطف الانساني الباحث على اغاثة الصائين بالمجاهات منها وعلى تهنيى برامج المساعدات المختلفة ، وعلى الرغم من ان هذا التفجر السكاني للعالم وبهذا النمط قد أخذ يرمب المعنيين في مختلف انحاء العالم بحيث أدى ذلك الى تعالي الدعوات الى تحديد النسل وبلبل كل الجهود لتحقيقه ، ولكن دون جدوى .. فان جميع الدلائل تشير الى ان هذه الزيادة بهذا الشكل المربع مستتمة ، بل تتأمل تقارير الأمم المتحدة بانها ستكون بدرجة اشد مما كانت عليه سابقا بحيث سيتضاعف سكان العالم في نهاية القرن الحالي (اي بعد ثلاثين سنة من الزمن) مرة أخرى ويصل عددهم الى حوالي ٦٦٠٠ مليون نسمة ، ثم يتكرر تردد التضاعف هذا في فترات أقل فائق اذا ما استمرت الزيادة على هذا المعدل بحيث يؤمل ان يصل سكان العالم الى حوالي ٢٥٠٠٠ مليون نسمة بعد مئة سنة من الآن - هذا اذا لم تحدث كوارث مبيدة تحد من هذا التكاثر (١) ، (انظر الشكل ١) .

فهل اذن مع هذه الحقائق المزعمة عن تنامي سكان العالم سيتمكن هذا العالم من ان يحقق لسكانه غداً افضل ينعم فيه افرادة بحياة حرة من مخاوف الجوع - التي هي اشد المخاوف المنصبة للعيش والمودية به احيانا - وهل سيتمكن التقنية الحديثة من ان تحقق المعجزات التي تراود دائماً وابداً افكار المؤلّفين في التفاوض ، فتضفى نتائجها بذلك حل الرقاء والخير العميم على سكان هذا الكوكب ؟ أم ان قدرة الانسان ستحددها فعلا القدرات الطبيعية المحدودة وبذلك يصدق حدس (المالطوسيين الجند (Neo-Malthusian) والذي يعبر عنه احد روادهم - الاستاذ أدرك Ehrlich بجامعة ستانفورد الأمريكية - في قوله بان « النطاق الحيائي لهذا الكوكب Biosphere

(١) انظر صحيفة الـ Guardian اللندنية ، عدد ٧، فبراير ١٩٧٠ ، وكذلك مجلة Time « تايم » عدد ٢ فبراير 1٩٧٠ .



سوف لن يكون قادراً على إعالة هذه البلايين من السكان ، واذن فليس هنالك بد من حدوث المجاعات والوبئة والحروب التي تعمل على تقليص سكان العالم . (١)

ان الإجابة على هذه الأسئلة وأمثالها مستحيل الهدف الاساسي الذي سيقتضيه هذا البحث ، حيث سيحاول أولاً تحليل الوضع الفدائي لسكان العالم كما هو عليه في الوقت الحاضر ، ثم كما يحتمل ان يكون عليه غداً ، وبيان مدى قدرة مصادر هذا العالم على اكتفاء حاجات سكانه الفدائية المتنامية ، وبما ان هذه الحاجات الفدائية المتنامية لا يمكن ان نضع لها حدوداً منظورة اذ ما زال سكان العالم في تزايد متفجر وما زالت مطالبهم في توسع مع ارتفاع مستوياتهم المعيشية، اذن لا بد ان نضع نحن لبحثنا حداً نقف عنده لتحقيق مثل هذا التحليل ، وسنستخدم من نهاية القرن الحالي - أي سنة ٢٠٠٠ - نهاية وحداً لذلك ، هذا الحد الذي يعتقد البعض بأن مصادر العالم المتوفرة حالياً ستجابه من بعده الصعوبات في سبيل توفير ما يفي بحاجات السكان الفدائية.

وتحقيقاً للهدف فان هذا البحث سيمعد الى اتخاذ مصادر الامم المتحدة - لا سيما منظمة الغذاء الدولية - معيناً مهماً لاقتباس المعلومات ، خاصة الاحصائية منها ، لفرض التحليل ، هذا على الرغم من نقص هذه المعلومات اساساً ، وذلك بسبب تعذر الحصول عليها من جزء كبير من مناطق العالم المختلفة ، وعلى الرغم من نقص المصادر ذاتها محلياً ، ولكن مع ذلك فانه محدود ما توفر من المعلومات من هذه المصادر ومن غير هافان البحث سيحاول تحليلها للوقوف منها على صورة التغذية بوضعها الحالي وللتوصل الى بعض النتائج التي تمت بصلة الى مستقبلها .

ونظراً لأن البحث الحالي لم يصمم لأن يكون دراسة شاملة لمشكلة متشعبة الأبعاد عميقة الجذور ، كمشكلة التغذية في العالم ، فاننا سوف نلجأ الى التعميمات بدل الدخول في التفاصيل الدقيقة ، لا سيما فيما يختص بتوزيع الظواهر المتعلقة بالمشكلة ، ولأجل تحقيق ذلك فاننا سنلجأ الى تقسيم العالم الى اقاليم ومناطق جغرافية كبرى نعتقد ان الدول التي تضمها كل واحدة منها تشارك مع بعضها البعض في بعض الخصائص التي تمت بصلة الى وضع التغذية وانتاج موادها ، كما ان مثل هذا التنظيم الاقليمي للعالم هو الذي تبنته معظم المصادر التي عالجت هذه المشكلة ، عالية منها ام خاصة .

هذه المناطق المقترحة للبحث هي : امريكا الشمالية (وتضم كندا والولايات المتحدة) ، واوروبا (هذا الاتحاد السوفيتي) ، والاتحاد السوفيتي (بضمه الاوربي والاسيوي) ،

والاوقيانوس (ويشمل استراليا ونيوزيلندا) - وهذه جميعا زائدا اليابان تكون ما يسمى بدول العالم المتقدمة ، اما المجموعة الاخرى من المناطق فتشمل : الشرق الاقصى (هذا اليابان) ، والشرق الاوسط (بما في ذلك الجمهورية العربية المتحدة والسودان وليبيا) ، وافريقيا (عدا دول الشرق الاوسط منها) وامريكا اللاتينية (وتضم امريكا الوسطى وامريكا الجنوبية وجزر البحر الكاريبي) - وهذه جميعا تسمى بالمناطق النامية .

وضع التغذية والغذاء في العالم اليوم :

لا شك في ان تقييم الوضع الغذائي الحالي او التخطيط لتحسينه للمستقبل ، سواء كان ذلك على المستوى الاقليمي او المستوى العالمي ، ليس بالامر الهين ، اذ ان ذلك (كما اوضحنا سلفا) يحتم توفر المعلومات اللازمة والكافية عن الانماط والمستويات والاتجاهات الواقعية لاستهلاك المواد الغذائية ، وهذا يتطلب وجود مصدرين هامين :

١ - ميزانيات الطعام Food-Balance Sheets والتي تجرد مجموع انتاج الاغذية المعدة للاستهلاك (معدلة بالنسبة لما يدخل التجارة منها) على ان تأخذ بعين الاعتبار ما يوفر من هذا الانتاج لافراض الصناعة والعلف الحيواني والبدار والضباع اثناء النقل والتخزين .

٢ - مسوحات الاستهلاك الغذائي (Food-consumption surveys) وهي التي توضع الانماط والمستويات الحقيقية للتغذية لاختلاف جماعات المجتمع ، سواء كان ذلك بالنسبة لطبقاتهم او لاعمارهم او لانجاسهم او لاصالهم (١) ولما كان من المتعذر الحصول على القدر الكبير والدقيق من مثل هذه المعلومات لكثير من مناطق العالم ، لا سيما النامية منها - وذلك بسبب بعض المشاكل المحلية من امثال صعوبة النقل والاتصال ، والجهل باهمية المسوحات الغذائية ، وكيفية القيام بها - فقد ادى كل ذلك الى استنباط المدلات الخاصة بمستويات التغذية بالاستناد الى دراسة بعض الحالات المحدودة والتي يرجى منها ان تكون ممثلة لمجموعات سكان القطر الواحد المختلفة ، رغم انها لا تعكس الصورة الصحيحة للوضع الغذائي في الدولة .

ففي محاولة سابقة من قبل صاحب البحث لتقييم الوضع الغذائي لاقليم معين ، وجد ان معظم الدراسات المتيسرة قد تمت نسبة الى بعض الجماعات المقيمة بالقرب من المدن ، لا سيما العاصمة ، والتي لا شك في انها جماعات لا يمكن ان تمثل الجماعات الريفية البعيدة ، وذلك بحكم اتصال الاولى بالحاضر ذات المستويات المعيشية العالية بالنسبة الى الارياف ، هذا مع العلم بان سكان الارياف والمدن الصغرى في معظم الدول النامية يكونون النسبة الساحقة للسكان . ثم ان استنباط مدلات التغذية للدول النامية ذات المستويات المعيشية المتباينة لا يمكن ان يشير الى الواقع الفعلي لمستوى التغذية العام فيها . ذلك لان مثل هذه المدلات تخفى بين طبائها الكثير من الواقع العملية للوضع الحقيقي لتغذية الطبقات الفقيرة والضعيفة الدخل والتي تكون نسبة غير قليلة من السكان .

ومع كل ذلك فقد ساعدت مثل هذه الدراسات على اعداد ميزانيات طعام ومسوحات غذائية عامة لكثير من دول العالم ، مكنت للمنظمات الدولية وغيرها الخروج منها بدراسات مفيدة

لتقييم الأوضاع الغذائية للعالم ومناطقه المختلفة وبصورة متتابعة ، وهي عملية لا تزال مستمرة في طريق التطور .

من هذه الدراسات ومن غيرها من الإحصائيات المتوفرة ، تتوارد الأدلة جميعا على أن الانتاج المطلق للمواد الغذائية في العالم قد تزايد تزايداً ملحوظاً ، لا سيما خلال العقد الأخير من الزمن . بحيث بلغ ٣٪ سنوياً للفترة الواقعة بين ١٩٥٧ و ١٩٦٧ والجدول رقم ١ - يرينا توزيع هذه الزيادات بحسب نسبتها المئوية لمختلف مناطق العالم الكبرى ، ومنه نستشف لأول وهلة بأن نسب الزيادات كانت عموماً أعلى في مناطق الدول المتقدمة مما هي عليه في مناطق الدول النامية :

جدول - ١ -

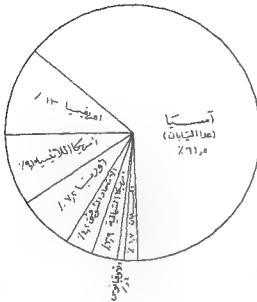
نمو انتاج المواد الغذائية للعالم وأقاليمه المختلفة :

النسبة المئوية لصافي زيادة الانتاج السنوات : ١٩٥٧ - ١٩٦٧	المنطقة
٢٠٧	أوروبا الغربية
٣٠٧	أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي
٢٠٢	أمريكا الشمالية
٣٨٨	الأوقيانوس
٣٠١	الاقطار المتقدمة الأخرى
٢٠٩	المعدل العام للاقطار المتقدمة
٣	أمريكا اللاتينية
٢٠٦	الشرق الأقصى (هذا الصين واليابان)
٢٠٩	الشرق الأوسط
٢٠٢	أفريقيا (هذا جنوبها)
٢٠٧	المعدل العام للاقطار النامية
٢٠٨	المعدل العام للعالم

(F.A.O., The State of Food and Agriculture, 1969.

المصدر :

هذه الصورة لنمو الانتاج وأن كانت تبدو على درجة جيدة من الاطراد ، ولكنها لا تبدو إيجابية جداً عند مقارنتها بنسب تزايد السكان في العالم ، والتي تتصاعد جيلاً بعد جيل بحيث بلغت خلال النصف الأول من عقد الستينات نسبة تقرب من ٢٪ ، وهي نسبة يتباين مداها بين حوالي ٣٪ لأمريكا اللاتينية وأقل من ١٪ لجميع القارة الأوروبية ، وذلك كما يبدو لنا من الجدول التالي : (كذلك انظر الشكل - ٢ -)



توزيع نمو السكان العالم 1999 على المناطق المختلفة

المصدر
Population Program Assistance, Washington, D.C., 1999

(الشكل ٢)

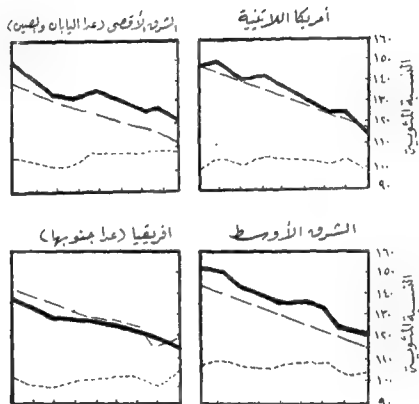
جدول - ٢ -

النسبة المئوية لزيادات السكان السنوية للفترة ١٩٦٠ - ١٩٦٤ :

المنطقة	النسبة المئوية للزيادة
اوربا	٠.٩
امريكا الشمالية	١.٦
امريكا اللاتينية	٢.٨
افريقيا	٢.٤
الشرق الاقصى (علا اليابان)	٢.٥
الشرق الاوسط	٢.٤
اقيانوس	٢.٢
المعدل العام للعالم	١.٨

واذا قارنا مثل هذه الزيادة للسكان بنسبة زيادات إنتاج المواد الغذائية لمناطق العالم المختلفة المبينة في الجدول - ١ - فانه سيظهر لنا آتيا مدى التخلف الذى يتسم به إنتاج المواد الغذائية (بمعدل الشخص الواحد) في الدول النامية عما هو عليه في الدول المتقدمة ، وذلك كما يظهره الجدول - ٣ - والشكل - ٣ - والخريطة في الشكل - ٤ - .

(الشكل ٣)



اتجاهات إنتاج الأغذية وتزايد السكان

في المناطق النامية

(سنة ١٩٤٨ / ١٩٥٩ = ١٠٠)

إنتاج الأغذية
السكان
معدل إنتاج
الأغذية للفرد

المصدر F.A.O. The state of food & Agriculture 1969

جدول - ٣ -

معدل صافي النسبة المئوية لزيادة انتاج المواد الغذائية للشخص الواحد سنوياً : للفترة ١٩٥٧ - ١٩٦٧ :

المنطقة المتقدمة	المنطقة النامية
أوروبا الغربية	أمريكا اللاتينية
أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي	الشرق الأقصى (عدا الصين واليابان)
أمريكا الشمالية	الشرق الأوسط (عدا فلسطين)
دول متقدمة أخرى	أفريقيا (عدا جنوبها)
الأوقيانوس	
معدل المناطق المتقدمة	معدل المناطق النامية
المعدل العام للعالم	

(F.A.O., The State of Food and Agriculture, 1969.

المصدر :

يتبين لنا من مطالعة الجدول الانف الذكر والشكل (٣) والخريطة التي توضحهما بان تزايد انتاج المواد الغذائية ، لا سيما في الدول النامية ، لا يتكافأ مطلقاً مع حاجات السكان فيها. فلو أخذنا بنظر الاعتبار حقيقة كون الفرد في هذه المناطق غالباً ما يعيش بمستوى غذائي واطئ - يعادل بمقياس السعرات الحرارية ما لا يزيد على ٢١٠٠ سعرة يومياً ، بالمقارنة مع معدل ٣٠٠٠ سعرة أو أكثر بالنسبة للفرد في الدول المتقدمة - فضلاً على ما ذكرناه سابقاً من أن مثل هذه المعدلات لا تمثل الصورة الحقيقية لوضع التغذية للنسبة العظمى من السكان ، إذن لتبين لنا النقص الكبير الذي تعانيه الدول النامية في انتاج المواد الغذائية نسبة إلى الوفرة الكبير الذي تحققه الدول المتقدمة، وتحدث لنا الإحصائيات الحديثة عن انتاج المواد الغذائية في الدول المتقدمة بان بعض هذه الدول قد أدخلت ثمانين من تكديس بعض المواد الغذائية بصورة مستمرة خلال عشر السنوات الماضية ، بحيث يؤمل أن تصل بالنسبة لبعض هذه المواد - مثل القمح - حداً يصعب معه تخزينها ، لذا فلا يجب أن نستغرب إذا نجد بلدًا كالولايات المتحدة الأمريكية مثلاً ، ينتج من المواد الغذائية ما يعادل ١١٠٠٠ سعرة حرارية يومياً للفرد الواحد ، في الوقت الذي لا تزيد حاجة هذا الفرد على ٣٠٠٠ سعرة ، وفيما يلي جدول يوضح لنا مدى التكديس الذي تحقق لبعض المواد الغذائية في بعض دول الانتاج الوفير خلال العقد الحالي من الزمن (١).

جدول - ٤ -

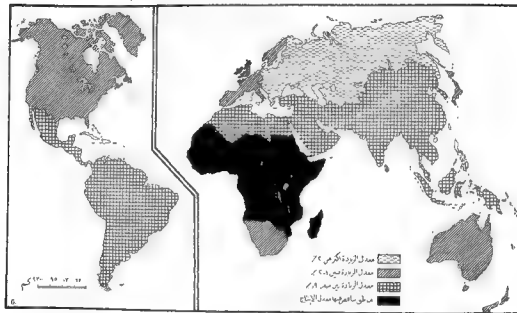
مقايير التكديس من بعض الحاصلات الغذائية (بملايين الأطنان) :

المنتج	معدل ١٩٦٠	معدل ١٩٦٣	١٩٦٦	١٩٦٧	١٩٦٧	التنبؤ ل ١٩٦٩
١ - القمح :						
في الولايات المتحدة	٣٦٧	٢٦٤	١٤٦	١١٦	١٤٧	٢٢١
في كندا	١٤٥	١٣٢	١١٤	١٥٧	١٨١	٢٢٦
في الأرجنتين	٠٧	٢	٠٢	٠٣	١	٠٧
في إستراليا	٠٩	٠٦	٠٦	٢٣	١٤	٧٥
في فرنسا	٢	٢٥	٢٥	٢٧	٢٤	٢٧
المجموع	٥٤٨	٤٤٧	٢٩٤	٣١٦	٣٧٦	٥٥٦

F.A.O., The State of Food and Agriculture - Rome 1969.

(١) المصدر :

توزيع معدل زيادة استهلاك المواد الغذائية في العالم سنوياً
بالنسبة للفرد الواحد للفترة ١٩٥٧ - ١٩٦٧



الشكل ٤

٢ - الحبوب الغليظة (من الليرة والشعير وغيرهما)

٤٤٢	٤٤٢	٣٤٦	٣٨٦	٥٧	٧٠٢	في الولايات المتحدة
٦٢	٤٤	٥١	٤٥	٤٨	٤	في كندا
١٨٨	١٨٨	٠٦	٠١	٠٣	٠٤	في الأرجنتين
١	٠٨	٠٩	٠٦	٠٣	٠١	في استراليا
١٢٤	١٦	١١	١٢	١٣	١٦	في فرنسا
٥٤٨	٥٢٨	٤١٩	٤٥	٦٣٧	٧٦٣	المجموع

٣ - الزبدة :

٠٠٠	٠٥٨	٠٤٥	٠٣٤	٠٣٣	٠٣٥	المجموع العالمي
-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----------------

٤ - السكر :

١٧٤	١٨٧	١٨٧	١٨٦	١٣٢	١٥١	المجموع العالمي
-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----------------

استناداً الى هذه الحالة القائمة في عدم كفاية انتاج المواد الغذائية بالنسبة للفرد الواحد في مختلف دول العالم ، ونظراً لان أكثر من ثلثي سكان العالم هم من سكان المناطق النامية ، وان هذه النسبة مسترددة مع تزايد السكان في المستقبل (١) فان من المتوقع ان تنحصر مشكلة التغذية في العالم ، وستبقى محصورة بهذه المناطق النامية . يؤيد ذلك ما توصل اليه المسح الغذائي العالمي الثالث الذي نشرته منظمة الغذاء الدولية سنة ١٩٦٣ من ان ٦٠٪ من سكان المناطق النامية تعاني اما من نقص التغذية او من سوءها ، واذا أضفنا الى ذلك الجماعات التي تعاني من مثل هذه المشاكل في الدول المتقدمة (حيث قد اشارت الانباء مرة ان في الولايات المتحدة وحدها يوجد حوالي ١٨ مليون نسمة من السكان ، او حوالي ٩٪ من المجموع يعانون من سوء التغذية) فانه يمكن القول بان ما يقرب من نصف سكان العالم يعانون اما من علائم المجاعة او من نقص التغذية (٢) . واذا فسيكون من قبيل تحصيل الحاصل ان يقتصر أي بحث عن مشكلة التغذية

(١) انظر : Sukhatme, Basu, and Schulte, Problem of Population and Resources with

Reference to Land Use and Food Supply.

(مقالة خاصة)

F.A.O., Third world food survey, Rome, 1963. P. 51.

(٢) انظر :

في العالم على المناطق النامية بالدرجة الاولى ، والتي تنسب جميع الدلائل الى انها في طريق التازم بسبب التزايد الكبير الذي تشهده هذه المناطق في سكانها .

عوامل وملامح سوء التغذية :

ان سوء التغذية او نقصها عند سكان العالم ، ولا سيما سكان المناطق النامية ، لا ينشأ فقط عن تخلف الانتاج النسبي للمواد الغذائية ونقص ما يتوفر منها للأفراد ، وانما أيضا عن نوعية الغذاء وانماط التغذية ففي الوقت الذي نشاهد فيه المواطن في دول العالم المتقدم يستمد غذاءه من مصادر متعددة ، نجد الفرد في الدول النامية يستمد غذاءه من مصدر رئيسي واحد او من بضعة مصادر قليلة ، ففي الهند مثلا تكون الحبوب الغذائية أكثر من ٦٠٪ من مواد الغذاء للسكان خاصة الريفيين منهم - بينما هي لا تزيد على ١٠٪ من وجبة الفرد الأمريكي ، هذا فضلا على ان الاعتماد على الحبوب الغذائية والمواد النشوية أخذ في التناقص في الدول المتقدمة لحساب المصادر الغذائية الأخرى مثل الخضروات والفواكه والمنتجات الحيوانية ، وهذا ما يؤدي الى احلال التوازن بين عناصر التغذية المختلفة من السعرات الحرارية والبروتينات والفيتامينات المختلفة والتي تعتبر جميعا ضرورية لبناء جسم صحي وسليم للفرد ، وذلك على النقيض من الاقتصاد على مصادر محدودة في التغذية ، التي وإن كانت احيايات تحقق وفرا من السعرات الحرارية ، إلا انها تشكل نقصا في العناصر الأخرى المذكورة اعلاه ، هذا النقص الذي يعزى اليه الكثير من الأمراض التي تلازم الاطفال وتصيب البالغين في الدول النامية امثال الكساح والبلاجرا وفقر الدم وغيرها ، حيث يقدر بان العالم يفقد يوميا حوالي ٥٠٠.٠٠٠ نسمة من السكان (معظمهم من الاطفال) بسبب الأمراض التي ينشأ جزء لا يستهان به منها من سوء التغذية (١) . ففي مقارنة ثانية بين مكونات الغذاء للفرد الأمريكي ومكوناته للفرد الهندي نجد بان مقدار البروتينات المتوفرة للفرد الأمريكي تبلغ حوالي ٩٥ جراما يوميا ، ٦٤ منها (او حوالي ثلثها) من البروتينات الحيوانية المهمة ، في حين ان ما يتوفر للفرد الهندي لا يزيد كثيرا على معدل ٥٠ جراما يوميا ، عشرين فقط من البروتينات الحيوانية ، وفي الصين الوطنية التي تعتبر الآن احسن مستوى في التغذية من كثير من الدول الاسيوية الشرقية الأخرى (عدا اليابان) ، نجد ان هذه الأرقام هي ٦٨ ، ٢٤ على التوالي (٢) ولكنها على اى حال دون مستوى البروتينات المتوفرة للفرد في الدول المتقدمة كما ونوعا .

وفي الجدول التالي انتخبنا بعض الدول التي تمثل كلا من المناطق المتقدمة والمناطق النامية على التوالي ومن مختلف قارات العالم وذلك لتوضيح مدى التباين الذي تتكون منه مصادر الغذاء المتوفر للفرد الواحد يوميا وبين فترتين من الزمن : فترة سابقة وفترة حالية (٣) ، والتي من المقارنة بينهما يمكن الاطلاع بسهولة على مدى ونوع التطور الذي تتسم به التغذية في مناطق العالم المختلفة .

(١) من رسالة خاصة للرئيس نيكسون الى مجلس الكونجرس الأمريكي في تموز ١٩٦٩ .

The State of Food and Agriculture, P. 149.

(٢) انظر المصدر السابق الذكر :

(٣) نفس المصدر

جـ بـ ٥ -

معدل ما يصيب الفرد الواحد من بعض المواد الغذائية المدة للاستهلاك :

(غرام/يومياً)

الدول	الفترة	حبوب غذائية	بطاطس ونشويات	مكرويات	خضروات	فواكه	لحوم	حليب
١ - المتقدمة								
١ - إنجلترا	١٩٣٤ - ١٩٢٨	٢٦١	٢٢٦	١٢٢	١٤٩	١٤٤	١٨٤	٤٠١
	١٩٦٧ - ١٩٦٨	٢٠٠	٢٨٢	١٣٥	١٧٣	١٣٩	٢٠٤	٦٠٠
١ - إيطاليا	١٩٣٤ - ١٩٢٨	٤٤٠	١٠٠	٢٢	١٥٣	٨٧	٥٥	٢١٦
	١٩٦٦ - ١٩٦٧	٣٦٠	١٢٠	٧٢	٤٢٠	٣٢١	١٠٦	٤١٨
١ - المجر	١٩٦٠ - ١٩٦٢	٣٧٢	٢٦٢	٧٥	٢٢٠	١٦٧	١٣٣	٢٩٥
	١٩٦٧	٣٦٨	٢٣٢	٨٨	٢٢٣	١٦٣	١٤١	٢٨٨
٤ - الولايات المتحدة	١٩٢٥ - ١٩٢٩	٢٥٣	١٨٢	١٣٥	٢٩٠	٢٧١	١٩٧	٥٦٥
	١٩٦٧	١٧٧	١٣٣	١٣٣	٢٦٩	٢٣٩	٢٩٥	٦٦٥
٥ - اليابان	١٩٢٤ - ٣٨	٤٣٢	١٢٧	٣٩	١٩٣	٤٢	٨	٩
	١٩٦٧	٣٨٠	١٨٨	٥٧	٣٦٢	١٢١	٣٧	١١٨
٦ - استراليا	١٩٣٥ - ٣٩	٢٩١	١٨٠	٧٤	٦٧	١٢٩	٢٩٦	٤١٩
	١٩٦٦	٢٦٨	٢٠٢	٩٠	١٢٤	٢٢٩	٣٠٩	٣٣٩
ب - الدول النامية								
١ - الهند	١٩٢٤ - ٣٨	٣٧٧	٢١	٣٦	٦٨	٧٢	٨	١٧٧
	١٩٦٥ - ٦٦	٣٤٦	٣٩	٥٠	٤	٤٤	٤	١١٠
٢ - الجمهورية العربية المتحدة	١٩٤٨ - ٥٠	٤٧٤	٢٩	٣٩	١٢٥	١٣٨	٢٨	١٦٣
	١٩٦٥ - ٦٦	٥٥١	٣٨	٤٩	٢٤٢	٢٢٠	٣٦	١٢٢
٣ - تركيا	١٩٣٤ - ١٩٣٨	٥٢٠	١٦	٢٠	٨٧	١٥٦	٤١	٢١١
	١٩٦٠ - ١٩٦١	٦١١	١٠٥	٥١	٢٨٨	٢٣٠	٣٧	٢٢١
٤ - جابون	١٩٦٠ - ١٩٦٢	٤٤	١١٣٩	٨	١٠٨	١٤	٨٢	١٦
	١٩٦٣ - ١٩٦٥	٥٦	١١٠١	١١	١٠٥	١٣	٧٣	٢٧
٥ - المكسيك	١٩٥٤ - ١٩٥٦	٣٤٦	٤٥	٨٨	٥٣	١٣٦	٥٤	١٩٠
	١٩٦٥ - ١٩٦٦	٣٥٦	٢٤	١٠٩	٦٧	١٨٧	٥٣	٥٦
٦ - فنزويلا	١٩٥٢/١٩٥٣	٢٢٣	٢٣٨	٨٨	٢٧	١٠٨	٥١	٢٠٠
	١٩٦٦	٢٥٤	٢٣٥	١٠٦	٤١	٢٩٥	٨٠	٢٠٢

ونتيجة لهذا التباين في مصادر الغذاء عند مختلف شعوب العالم ، لا بد ان تكون ميزانية الغذاء من السعرات الحرارية والبروتينات التي يستمدّها الفرد من غذائه متباعدة أيضاً ، يبدو لنا ذلك واضحا من استنباط مثل هذه الميزانية للدول التي ورد ذكرها في الجدول - ٥ - والتي يظهرها لنا الجدول التالي :

جدول - ٦ -

تعريب السعرات الحرارية والبروتينات التي تصيب الفرد الواحد من معدل مواد الغذاء الاستهلاكية :

الدول	الفترة	السعرات	مجموع البروتينات الحرارية	الحيوانية منها
١ - المتقدمة				
١ - إنجلترا	قبل الحرب ٦٨/١٩٦٧	٣١١٠	٨٠٢	٤٣٩
٢ - إيطاليا	قبل الحرب ٦٧/١٩٦٦	٢١٥٠	٨٧٥	٥٣٨
٣ - المجر	١٩٦٧ ٦٢/١٩٦٠	٢٥١٠	٧٦٦	٢٠٣
٤ - الولايات المتحدة الأمريكية	قبل الحرب ٦٨/١٩٦٧	٢٨٦٠	٨٥٤	٣٥٥
٥ - اليابان	قبل الحرب ١٩٦٧	٣٠٣٠	٩١٧	٣٧٢
ب - الدول النامية :				
١ - الهند	قبل الحرب ١٩٦٦	٢١٤٠	٩٦٤	٣٩٤
٢ - الجمهورية العربية المتحدة	١٩٦٦ ٥٠/١٩٤٨	٣٢٨٠	٨٦٣	٥١٧
٣ - تركيا	١٩٦٦	٢٢٠٠	٩٥٦	٦٨٦
٤ - جايبون	٦٢/١٩٦٠ ٦٣/١٩٦١	٢٠٢٠	٥٩٧	٧٧٧
٥ - المكسيك	٦٢/١٩٦١ ١٩٦٦	٢٤٦٠	٧٤٧	٢٨٢
٦ - فنزويلا	٦٢/١٩٦١ ١٩٦٦	١٩٥٠	٥٢٢	٨٢
		١٨١٠	٤٥٤	٥٤
		٢٣٦٠	٦٩٣	١٢١
		٢٨١٠	٨٠٨	١١٨
		٢٤٩٠	٨١	١٥٩
		٣١١٠	٩٧٥	١٥٩
		١٩١٠	٣٥٩	١٥٧
		٢٥٠٠	٦٥	١٥٥
		٢٥٥٠	٦٥٧	١٥٢
		٢٣٠٠	٥٨٧	٢٣
		٢٤٩٠	٦٥٩	٢٦٤

The State of Food and Agriculture, 1969.

المصدر :

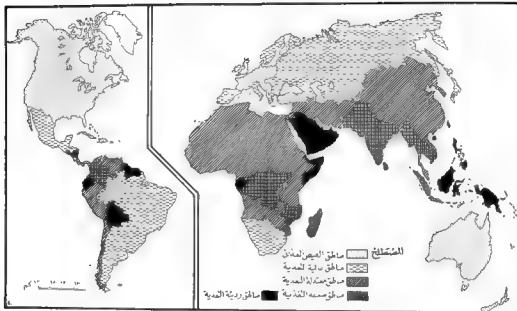
وإذا ما اعتمدنا ميزانيات الغذاء التي اعدتها منظمة الغذاء والزراعة الدولية لـ ٨٤ دولة خلال فترة النصف الاول من عقد الستينات أساسا لتقييم الوضع الغذائي في العالم ، وقارناها بمعدل حاجات الفرد الواحد من الغذاء بمقياس السعرات الحرارية ، كما توصلت اليها دراسات المنظمة ذاتها نسبة الى الأعمار والظروف المناخية العامة التي تميز المنطقة (١) ، وبمقياس البروتينات كما اقترحت نسبها لجنة الطعام والتنفيذية لمجلس البحث القومي الأمريكي (٢) National Research Council فإننا سنتمكن من تمييز عدد من المستويات الغذائية كما يعيشها عالمنا اليوم، والتي

ملاحظة: تعتبر البروتينات - خاصة من المصادر الحيوانية - ذات أهمية شديدة في بناء الجسم ، اذا انها تكون نصف جسم الانسان بعد استنزاف الياء منه .

(١) انظر : F.A.O., Calorie Requirements, Nutritional studies No. 15, Rome 1958

(٢) انظر : U.S. Department of Agriculture, Food, (the year book of Agriculture, 1959 p. 61)

توزيع المستويات الغذائية في العالم



الشكل ٥

بعد تدقيقها وجدنا أن من الممكن أن تنتظم في خمس مجموعات رئيسية تتوزع جغرافيا في مناطق العالم المختلفة بالصورة التي تظهرها لنا الخارطة في الشكل - ٥ - وهذه هي :-

١ - مناطق الفيض الغدائي : وهي المناطق التي يزيد معدل ما يصيب الفرد الواحد فيها من السعرات الحرارية على ٣٠٠٠ وحدة يوميا ويزيد معدل البروتينات التي يتناولها على ٨٠ جراماً يوميا والتي أكثر من نصفها من مصادر حيوانية ، وتشمل هذه أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية والوسطى والأوقيانوس .

٢ - مناطق عالية التغذية : وهي التي يتراوح معدل نصيب الواحد من السعرات الحرارية فيها بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ وحدة يوميا ، ومعدل البروتينات بين ٦٠ و ٨٠ جراماً ، أكثر من ربعها من مصدر حيواني ، وتشمل الاتحاد السوفيتي والدول الاسكندنافية وشرق أوروبا ودول البحر المتوسط الأوربية وتركيا والمكسيك والبرازيل والارجنتين وأورجواي وباراجواي وأفريقيا الجنوبية واليابان .

٣ - مناطق معتدلة التغذية : ويتراوح معدل استهلاك السعرات الحرارية فيها بين ٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ وحدة للفرد الواحد يوميا ، ومعدل البروتينات بين ٥٠ و ٦٠ جراماً يوميا ، أقل من ربعها من مصدر حيواني ، وتشمل الصين ودول الشرق الأوسط (عدا الجزيرة العربية) ، وإفريقيا (عدا أواسطها وشرقها) ودول غرب أمريكا الجنوبية .

٤ - مناطق ضعيفة التغذية : ويبلغ معدل استهلاك السعرات الحرارية للفرد الواحد كما في المنطقة الثالثة ، إلا أن معدل البروتينات التي تصيب الفرد الواحد يقل عن ٥٠ جراماً يوميا وأقل من ربعها من مصدر حيواني ، وتشمل هذه بقية دول الشرق الأقصى وأواسط إفريقيا وموزمبيق وملاياسي وكولومبيا في أمريكا الجنوبية .

٥ - مناطق رديئة التغذية : ويقل معدل استهلاك السعرات الحرارية فيها عن ٢٠٠٠ وحدة يوميا للفرد الواحد والبروتينات عن ٥٠ جراماً يوميا ، حوالي عشرين من مصادر حيوانية ، وتشمل الجزيرة العربية (عدا بعض مناطق الخليج العربي الصغيرة) والصومال والفلبين وجزائر جنوب شرقي آسيا وبنغلاديش وكوت ديفوار ومقاطعات فيانا .



ولدى تدقيقنا للخارطة في الشكل - ٥ - والجدولين ٦ و ٧ فإنا نتمكن من استخلاص بعض النتائج العامة لأوضاع التغذية في العالم اليوم :

١ - أن دول العالم التي تعاني من انخفاض مستويات التغذية هي تلك التي تقع ضمن المناطق الإدارية وشبه الإدارية من جميع قارات العالم (عدا البرازيل) ، وهذه هي التي تسمى بسدول المناطق النامية ، ولما كانت هذه المناطق تضم حوالي ثلثي سكان العالم ، فإن ذلك يؤيد ما ذهبنا إليه آنفاً من أن غالبية سكان العالم تعاني من مشاكل سوء التغذية اليوم .

ومع ذلك فإن تصنيف هذه الدول إلى مثل هذه المستويات لا يمثل إلا معدلات عامة للاستهلاك الغدائي والذي - كما قلنا - يخفي بين طياته العديد من الحالات التنسي هي أدنى جداً من المستوى الذي تنضوي تحته وحتى في مناطق التغذية الجيدة ، كالبرازيل ، هناك مناطق ، مثل

منطقة (السراو) في شمال شرق البرازيل التي تعتبر من بين المناطق المتكررة النكبات الغذائية بسبب تقلب الأحوال المناخية فيها ، فلا شك اذن ان توجد اجزاء في مناطق التغذية الضعيفة هي اسوأ جدا مما تظهر به على الخارطة بحيث قد تصل الى مستوى المجاعات الكاسحة .

٢ - ان مصادر التغذية عند الشعوب النامية ، كما سبق وذكرنا لا تزال تتركز بالدرجة الأولى على المحاصيل الزراعية من الحبوب والنباتات ، لا بل قد تزايد الاعتماد عليها من السنين القليلة الماضية حتى الوقت الحاضر ، بينما لا تزال المصادر الحيوانية تحتل مركزا ثانويا جدا في تغذيتها بل ربما شهد مركزها شيئا من التقلص بين بقية مصادر الغذاء .

٣ - يحدونا الحسد الى القول انه فضلا على عدم التوازن المنظور بين مصادر الغذاء وعناصره المختلفة في الدول النامية ، فان مثل هذه الحالة قد تزداد اختلالا عبر السنة وتغير الفصول ، وذلك كنتيجة طبيعية لوفرة مواد الغذاء بعد موسم الحصاد وشحته قبل ذلك ، ومما يزيد اعتقادنا في ذلك هو ضعف وسائل التخزين والحفظ للمواد الغذائية مما لا يمكن معه تحقيق توازن توزيعها عبر السنة ، ومما يؤيد مثل هذه الظاهرة ايضا وقائع المجاعة التي تجتاح الكثير من الدول النامية بهن آن وآخر عند تغلب المحاصيل او فشلها لسبب من الاسباب .

٤ - اما بالنسبة للشعوب المتقدمة ، فان غذاء افرادها يتسم بالتوازن بين عناصره المختلفة ومصادره النباتية والحيوانية وان المصادر الحيوانية تزداد وزنا في تكوين وجبة الطعام اليومية .

٥ - ان الشعوب التي حققت قدرا كبيرا من التقدم واصبحت في عداد الشعوب الجيدة التغذية ، مثل دول البحر المتوسط الاوربية ، والتي تمثلها إيطاليا في الجدول ، ودول البلقان ، والتي تمثلها الجير وكذلك اليابان قد حققت تطورا كبيرا ايضا في نمط تغذيتها في الآونة الأخيرة ، حيث زادت من استهلاك المنتجات الحيوانية والخضروات والفواكه ، فحققت بذلك قدرا جيدا من التوازن بين عناصر الغذاء المختلفة .

مستقبل الكفاية الغذائية

اذا كان هذا هو الوضع الغذائي لثلاثي سكان العالم اليوم ، فكيف اذن سيكون الغد عندما سيتضاعف سكان العالم بصورة متزايدة وخلال فترات متقاربة من الزمن ؟ وعندما ستكون معظم الزبادات من نصيب المناطق النامية السيئة التغذية ؟؟ ثم لو اننا سلمنا بإمكانات العالم على مواجهة حاجات السكان الغذائية المتنامية : فالى اى حد ستتوفر مثل هذه الإمكانيات ؟ وما هو المستوى الغذائي الذي نريد توفيره لسكان المستقبل ؟ أهو المستوى السائد ، والذي هو لمعظم سكان العالم دون مستوى الكفاية بحيث لا يتناسب مع القدرة الانتاجية المطلوب ادائها من قبل افراد مجتمع منتج ومتطور ؟ أم هو مستوى الكفاية الذي تفرسه التوصيات الصحية بأبسط معدلها ؟

لقد سبق ان اوضحنا في مقدمة البحث ان الرأي السائد في الوقت الحاضر هو ان مصادر الغذاء الحالية في العالم ستعجز عن تلبية حاجات السكان من الطعام بعد نهاية القرن الحالي ، عندما يزيد سكان العالم على ٦٦٠٠ مليون نسمة ، ولكن الى جانب ذلك هناك آراء أخرى تشير الى ان في العالم من الإمكانيات ما تيسر طامعا لاضعاف هذا العدد من السكان ، فيقدر الاستاذ كولن كلارك C. Clark

بان العالم يتمكن من اعالاة ٤٧٠٠٠ مليون نسمة وبالمستويات الجيدة السائدة في امريكا الشمالية و ١٥٧٠٠٠ مليون نسمة بمستويات التغذية في انيابان (١) ، وهذه اعداد يمكن ان يصل اليها سكان العالم خلال ١٢٥ و ١٨٥ سنة على التوالي باعتبار ان معدل الزيادة السنوية سيستمر بمقدار ٢٪ (٢) .

ومع ذلك فان مثل هذه الاعداد الضخمة من السكان ومثل هذه الفترات الزمنية بلوغها يمكن ان تمثل الحدود القصوى للاعالة على سطح هذا الكوكب ، والتي لو توفرت جميع الظروف المؤاتية لها فان العالم سيلفها يوما ما : ولكن يلي ذلك السؤال وهو : ماذا بعد ذلك ؟؟

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان مثل هذه الاحتمالات القصوى لاعالة السكان يرتكز تحقيقها على امكانية تطوير القدرات « الحديثة » لمصادر الغذاء في العالم بالاعتماد على قدرة التقنية الحديثة ، وهي عملية ، كما سنرى فيما بعد ، محفوفة بالكثير من الشكوك والسلبيات ، لذا فاننا نرى تأكيد ما ذهبنا اليه في مقدمة البحث من اننا سنتناول بحث مستقبل التغذية في العالم بما لذلك من علاقة بالمصادر المؤكدة التي قلنا انها ستبلغ طاقة اعالنها القصوى في نهاية القرن الحالي .

لا شك في ان بيان مستقبل الكفاية الغذائية كدراسة ترتبط بمشكلة الجوع وسوء التغذية لا بد ان يتم بتحليل جميع العوامل المرتبطة بهذه المشكلة دون الاقتصار على بعضها ، نقول هذا بسبب ما حصلنا من الاعتقاد بان الكثير من تقديرات الاعالة لسكان هذا الكوكب غالبا ما تستند على العامل المادي لقابلية الارض الانتاجية في حين ان هناك عوامل اخرى متعددة الجوانب وذات صفة دابنميكية متغيرة ترتبط بكلا الكيانين : الطبيعي والبشري ، والذي يعطينا تحليلها على مستوى ترابطها مع بعضها البعض الجواب على امكانية معالجة مشكلة الجوع وسوء التغذية ، وبالتالي تقييم مستقبل التغذية من الوجهة العملية .

فمثلا : ما قيمة انتاج مواد وفيرة لا يتمكن السكان من الحصول عليها بسبب ضعف قوتهم الشرائية ، او انهم لا يرغبون في استهلاكها بسبب عدم تدفوقهم لها ؟؟ ولقد وجدنا سابقا مثلا حيا على ذلك من تكديس بعض الاغذية في بعض الدول ، بينما كانت شعوب اخرى تعاني نقص الغذاء ؟

ثم حتى لو افترضنا ارتفاع القوة الشرائية للمستهلك ، ولكن ما اهمية ذلك في رفع مستوى التغذية لديه ان لم يعمل على تنوع وجبة طعامه بالشكل الصحيح ؟؟ وهكذا فان هناك العديد من الامور التي يمكن ايرادها في هذا الصدد .

اننا لذلك نرى بان دراسة مستقبل التغذية في العالم - او في اي جزء من اجزائه - يجب ان تتناول بمحت المواضيع التالية :

١ - تقييم الحاجات الغذائية للسكان على ضوء تزايدهم خلال الفترة العينة من الزمن .

(١) انظر : Colin Clark, population Growth and Land use. MacMillan, N. Y., 1967 Chapt. IV.

(٢) انظر : Abercrombie, population Growth and Agricultural Development, monthly Bulletin of Agricultural Economics and statistics, Vol. 18, No. 4, 1969)

٢ - تقييم مصادر الارض الانتاجية على ضوء حاجات السكان المتنامية من الغذاء وبمستوى توزيعها الاقليمي .

٣ - تقييم اثر التقنية الحديثة في زيادة وتوزيع انتاج المواد الغذائية من مصادرها .

٤ - تحليل العلاقات الاقتصادية - الاجتماعية المرتبطة بانتاج واستهلاك المسواد الغذائية .

١ - تقييم الحاجات الغذائية :

في تقييمنا لحاجات السكان الغذائية على ضوء ترايدهم حتى نهاية هذا القرن ، سنتخذ من المفاهيم المقترحة صحيا من قبل منظمة الغذاء الدولية (١) اساسا للبحث ، علما بان مثل هذه المفاهيم لا تمثل الا الحدود الصغرى التى تكفل للكائن البشرى وجودا مثمرا ومنتجا ضمن منطقته الجغرافية ، وذلك لان مقاييس التغذية الحالية لا سيما في المناطق النامية ، لا يمكن ان تشكل مثل هذا الاساس الصحيح لاحساب التقييم الغذائي ، كما انها لا تتناسب مع عالم الغذاء الذى يرنو فيه الجميع الى حياة افضل .

لقد اوضحنا في مقدمة البحث ان عدد سكان العالم سيصل الى حوالى ٦٦٠٠ مليون نسمة في نهاية القرن الحالى ، موزعا على مناطق العالم الكبرى بالشكل الذى يوضحه الجدول التالى :

جدول - ٧ -

توزيع سكان العالم على مناطق المختلفة خلال فترتين (بالملايين)

منطقة	سنة ١٩٦٥	% مجموع العالم	سنة ٢٠٠٠	% مجموع العالم	الرقم القياسى للزيادة ١٩٥٦ = ١٠٠
الشرق الاقصى (عسدا اليابان)	١٦٩٣	٥٠	٣٥٠٠	٥٣	٢٠٤
الشرق الاوسط	١٤٩	٤ر٤	٣٥٥	٥ر٤	٢٣٩
امريكا اللاتينية	٢٤٦	٧ر٢	٦٥٠	١٠	٢٦١
افريقيا	٢٦٧	٨	٦٧٠	١٠ر٢	٢٥٠
مجموع المناطق النامية اوروبا (ضمنها الاتحاد السوفيتى)	٢٣٦٠	٦٩ر٧	٥١٧٥	٧٨ر٦	٢١٩
امريكا الشمالية	٦٧٥	٢٠	٨٨٥	١٣ر٤	١٣١
الاوقيانوس	٢١٤	٦ر٨	٣٥٦	٥ر٤	١٦٦
اليابان	١٧	٠ر٥	٣٢	٥ر٥	١٩٤
مجموع المناطق المتطورة	٩٨	٣	١٢٥	٢	١٣٩
المجموع العالمى	١٠٠٠	٣٠ر٢	١٤٠٠	٢١ر٢	١٣٩
	٣٣٦٠	١٠٠	٦٦٠٠	١٠٠	١٩٥
			(تقريبا)		

يتضح لنا من هذا الجدول أن معظم زيادات السكان في نهاية القرن ستصيب المناطق النامية ، إذ سيتضاعف سكانها - نسبة إلى احصاء سنة ١٩٦٥ التي اتخذت سنة قياسية في الجدول - ما بين مرتين ومرتين ونصف (هذا الصين التي اتخذت نسبة الزيادة فيها أخيراً بالتناقص بسبب شعورها بوطأة الأزدحام) وهذه الزيادات هي أعلى من نسبة الزيادة الكلية لسكان العالم والتي ستبلغ أقل من الضعف ، وهي حتماً أعلى جداً من نسبة تزايد السكان للدول المتقدمة والتي ستقرب من ٤٠٪ فقط من مجموع سنة ١٩٦٥ أي أن نسبة زيادة السكان للدول النامية ستبلغ حوالي ثلاث مرات نسبة زيادتهم للدول المتقدمة.

كل ذلك يعني أن سكان المناطق النامية الذين كانوا يكونون حوالي ٧٠٪ من مجموع سكان العالم ، سيكونون في نهاية القرن ٨٠٪ من هذا المجموع ، وسيترتب على ذلك بعض النتائج الآتية والتي أبرزها اشتداد الطلب على المواد الغذائية وحتى لو افترضنا بقضاء مستوياتهم الغذائية الحالية دون تغيير ، بما يزيد على مرتين تكفي اذن في حالة ارتفاع مستويات التغذية كما ونوعاً ؟ هذا في الوقت الذي ستخلو فيه المناطق المتقدمة من مثل هذه المشاكل ، كما تخلو منها الآن ، كنتيجة لقلّة نمو سكانها ولجودة الانتاج فيها .

هنا نجد التبرير الكافي للقلق الذي يساور المعنيين بشؤون التغذية في العالم ، من أن مشكلة مستقبلها ستصيب بالدرجة الأولى على المناطق النامية ، ومن الممكن تصور هذه المشكلة بشكل أوضح لو هاودنا النظر في الجدول - ٣ - والخريطة في الشكل - ٣ - ، والتي ظهر فيها أن معدل صافي زيادة انتاج الواد الغذائية للشخص الواحد في المناطق النامية كان ٠.١٪ سنوياً للفترة الواقعة بين ١٩٥٧ و ١٩٦٧ بينما للمناطق المتقدمة كان المعدل ١.٦٪ سنوياً ، ومن الواضح أن هذا التخلف في معدل انتاج الواد الغذائية للمناطق النامية لم يكن يعزى إلى التخلف في مجموع الانتاج الكلي منها ، وإنما إلى تزايد السكان بشكل سريع وينسبة تفوق أحياناً نسبة زيادة الانتاج (كما حدث ذلك مثلاً في القارة الأفريقية) .

وإذا كان لمنطقة ما ، أو لدولة معينة في هذه المجموعة من امكانية على حفظ مستويات غذائية معينة رغم تفاقم معدل الانتاج للشخص الواحد ، فأنما يعود ذلك إما إلى المساعدات الخارجية التي تتوارد على الدولة في اوقات الازمات أو إلى عملية استيراد الاغذية من الخارج ؛ وهي جميعاً عمليات محفوفة بالكثير من المخاطر والمشاكل ان لم تركز على سياسة ثابتة ومستقرة للدولة ، وذلك لان هدم استقرار مستويات التغذية في أية امة من الامم يعتبر من اكبر دواعي القلق الاجتماعي فيها .

ان وجود النسبة العظمى من سكان العالم يعيشون بمستوى الكفاية « الحدية » للتغذية او دونها ، هي حالة تحمل بحد ذاتها الكثير من دواعي الخطر ، فغالبا ما تكون الجامعة حالة استمرارية لظاهرة سوء التغذية ذلك لان الانسان الناقص التغذية لا يتيسر له اكتناز أي فائض من الشحوم او عناصر الغذاء الاخرى في جسمه ، لذلك يهوى أمام أول علامة شحة الغذاء بأسرع وبأشد مما يتعرض له الانسان الكامل التغذية الذي له قدرة افضل على المقاومة (١) .

من هذا المنطلق لا بد أن نخطط لمستويات غذائية أفضل لسكان عالم الفد ، تزداد فيها حصة الفرد من الطعام كماً وتعدد نوعاً ، ولقد عملت مصادر منظمة الغذاء الدولية F.A.O على وضع مثل هذه الخطة التي تستهدف رفع المستوى الاستهلاكي للمواد الغذائية لشعوب الدول النامية في مناطقهم المختلفة ودعمت العالم الى التعاون على تطبيقها بمرحلتين : الاولى قصيرة الأمد تحقق أدنى مستويات مطلوبة للتغذية ، وتسمى بمرحلة (عقد الانماء لمنظمة الامم المتحدة : U.N. Development Decade) والثانية طويلة تستكمل بموجبها مستويات غذائية أحسن وذلك عند نهاية القرن الحالي حيث يكون افراد المجتمعات النامية قد وصلوا الى مرحلة جيد من المستوى الصحي والبناء الجسماني ، وتومي هذه الخطة بشكلها النهائي، بان تتوفر المواد الغذائية بالكميات والنوحيات المذكورة في الجداول التالية لمختلف المناطق النامية وذلك كي يتحقق مستوى غذائي يتراوح بمقياس السعرات الحرارية بين ٢٤٠٠ و ٢٦٠٠ سعرة يوميا للفرد الواحد .

جول - ٨ -

مقايير المواد الغذائية المتوفرة حالياً والواجب توفرها المستقبل (بالنسبة لمنطقة الشرق الاقصى)

المادة الغذائية	التوفر منها حالياً (جرام / يوميا)	المطلوب للمستقبل (جرام / يوميا)	نسبة المطلوب الى المتوفر %
الحبوب الغذائية	٤٠٠	٣٦١	٩٠
البروتينات النشوية	١٦٦	١٤٤	٨٧
السكر	٢٤	٣٥	١٤٦
البقول والمكسرات	٥٠	٨٠	١٦٠
الخضروات والفواكه	١٤٤	٣١٥	٢١٩
اللحوم	٢٤	٦٦	٢٧٥
البيض	٣	٨	٢٦٧
الاسماك	١٢	٣٠	٢٥٠
الحليب	٥٤	١٤٠	٢٥٩
الزيت والدهون	٩	٢٤	٢٦٧
مجموع السعرات الحرارية	٢٠٦٠	٢٤٠٠	
مجموع البروتينات الحيوانية منها	٥٦ ٧٥٥	٧٤ ٢٠	

جدول - ٩ -

مقايير المواد الغذائية المتوفرة حالياً والواجب توفرها للمستقبل
(بالنسبة لمنطقة الشرق الاوسط)

المادة الغذائية	المتوفر منها حالياً (جرام / يومياً)	المطلوب للمستقبل (جرام / يومياً)	نسبة المطلوب الى المتوفر %
الحبوب الغذائية	٤٤٦	٣٧٤	٨٤
الدرنات النشوية	٤٤	٤٤	١٠٠
السكر	٣٧	٥٠	١٣٥
البقول والمكسرات	٤٧	٤٧	١٠٠
فواكه وخضروات	٣٩٧	٣٩٧	١٠٠
اللحوم	٣٥	٠.٦٨	١٩٤
البيض	٠.٥	٠.٢٥	٥٠٠
السماك	٠.٦	١٥	٢٥٠
الحليب	٢١٤	٣٠.٧	١٤٣
شحوم ودهون	٠.٢٠	٣٠	١٥٠
مجموع السمكات	٢٤٧٠	٢٥٠٠	
الحرارية	٧٦	٧٩	
مجموع البروتينات	١٤	٢٥	
الحيوانية منها			

جدول - ١٠ -

(بالنسبة لافريقيا)

المادة الغذائية	المتوفر منها حالياً (جرام / يومياً)	المطلوب للمستقبل (جرام / يومياً)	نسبة المطلوب الى المتوفر %
الحبوب الغذائية	٣٣٠	٣٤٠	١٠٣
الدرنات النشوية	٤٧٣	٢٢٤	٠.٤٧
السكر	٠.٢٩	٢١	١٠.٧
البقول والمكسرات	٠.٣٧	٤٤	١١٩
خضروات وفواكه	٢١٥	٣١٧	١٤٧
اللحوم	٠.٤٠	٧٤	١٨٥
البيض	٠.٤	١٥	٣٧٤
السماك	٨	٣٥	٤٣٨
الحليب	٩٦	٢٠.٣	٢١١
شحوم ودهون	١٩	٢٥	١٣٢
مجموع السمكات	٢٣٦٠	٢٥٠٠	
الحرارية	٦١	٧٥	
مجموع البروتينات	١١	٢٥	
الحيوانية منها			

جدول - ١١ -

(بالنسبة لأمريكا اللاتينية / عدا الأرجنتين وبارجواي)

المادة الغذائية	التوفر منها حالياً (جرام / يومياً)	المطلوب للمستقبل (جرام / يومياً)	نسبة المطلوب الى التوفر %
الحبوب الغذائية	٢٨٢	٣١٥	١١٢
الدرنات النشوية	٢٢٥	١٦٩	٧٥
السكر	٨٩	٧٤	٨٣
بقول ومكسرات	٥٣	٥٣	١٠٠
خضروات وفواكه	٣٥٥	٣٥٥	١٠٠
اللحوم	٧٢	٨٥	١١٨
البيض	١١	١٦	١٤٥
السمك	٨	١٦	٢٠٠
الحليب	٢٠١	٢٥٠	١٢٤
شحوم ودهون	٢٢	٢٥	١١٤
مجموع السعرات	٢٤٣٠	٢٥٥٠	
الحارارية	٦٣	٧١	
مجموع البروتينات	١٩	٢٥	
الحيوانية منها			

من دراسة الجداول المدرجة اعلاه يتضح لنا ان خطة التغذية المقترحة للمستقبل ترمي عموماً الى التقليل من استهلاك الحبوب الغذائية والنشويات والتي تكون النسبة الكبرى لمصادر التغذية للشعوب النامية بينما تؤكد على زيادة استهلاك المنتجات الحيوانية التي هي فضلاً على قيمتها الغذائية الاخرى ، فانها مصدر للبروتينات الضرورية لبناء الاجسام ونموها .

ولدى اتخاذ هذه المطالبات اليومية اساساً لاحتساب الحاجات السنوية منها للفرد الواحد ، فان مقاديرها المطلوبة سيظهرها لنا الجدول التالي موزعة على مناطق العالم المختلفة :

جدول - ١٢ -

(مقادير المواد الغذائية الواجب توفرها للامد الطويل نسبة الى الفرد الواحد سنوياً)
« معدلة بالكيلو جرامات »

المادة الغذائية	لنطقة الشرق الاقصى	لنطقة الشرق الاوسط	لأفريقيا	لأمريكا اللاتينية
الحبوب الغذائية	١٢٢	١٣٦	١٢٤	١١٥
الدرنات النشوية	٥٣	١٦	٨٢	٦٢
السكر	١٣	١٨	١١	٢٧
بقول ومكسرات	٢٩	١٧	١٦	٢٠
خضروات وفواكه	١١٥	١٤٥	١١٦	١٢٠
اللحوم	٢٤	٢٥	٢٧	٣١
البيض	٣	٩	٦	٦
السمك	١١	٦	١٣	٦
الحليب	٥١	١١٢	٧٤	٩١
شحوم ودهون	٩	١١	٩	٩

(الجداول الاربعة التالية مأخوذة من : The Third World Food Survey السابق الذكر)

ولو ربطنا هذه المقادير من المواد الغذائية المطلوب توفرها بما سيكون عليه سكان كل منطقة من المناطق المذكورة في نهاية هذا القرن (بحسب جدول ٧) لتجسدت فيها الكميات الهائلة من المواد الغذائية المختلفة الواجب تجهيزها للاستهلاك للمناطق النامية والتي تتراوح مقاديرها بين أكثر من ٦٠٠ مليون طن لكل من الحبوب الغذائية والفواكه والخضروات وحوالي ٢٠ مليون طن للبيض (أو ما يقرب من نصف بليون بيضة متوسطة الحجم سنويا) موزعة حسب مناطق استهلاكها بالشكل الذي يظهره الجدول التالي :

جدول - ١٣ -

مجموع المواد الغذائية المطلوب توفرها للاستهلاك سنة ٢٠٠٠

« بملايين الأطنان/سنويا »

المادة الغذائية	منطقة الشرق الأوسط	منطقة الشرق الأوسط	لأفريقيا	الأمريكا اللاتينية	المجموع
الحبوب الغذائية	٤٦٢	٤٨	٨٣	٧٤	٦٦٥
الدرنات النشوية	١٨٥	٦	٥٥	٤٠	٢٨٥
السكر	٤٥	٦٥	٧٥	١٧	٧٦
بقول ومكسرات	١٠٢	٦	١١	١٣	١٣٢
خضروات وفواكه	٤٠٣	٥٢	٧٧٥	٨٣٥	٦١٦
لحوم	٨٤	٩	١٨	٢٠	١٢٠
بيض	١٠٥	٣	٤	٤	٢٢
سمك	٣٨٥	٢	٩	٤	٥٣
حليب	١٠٨٥	٤٠	٤٩٥	٥٨٥	٢٥٠
أشحم ودهون	٣١٥	٤	٦	٦	٤٨

ولو قارنا هذه الحاجات الغذائية الواجب توفرها في نهاية هذا القرن بما هو متوفر منها للاستهلاك الآن في كل منطقة من المناطق (بحسب معدل أوائل عقد الستينات) فيسبدو لنا أن على منطقة الشرق الأقصى أن تضاعف تزويدها من مجموع الأغذية الزراعية المدة للاستهلاك بأكثر من ٤ مرات ومن الأغذية الحيوانية بأكثر من ٥٦ مرات وعلى منطقة الشرق الأوسط أن تضاعفها ٣٣ مرات و ٤٦ مرات على التوالي ، وبالنسبة لأفريقيا ٣٣ و ٣ مرات على التوالي ، والأمريكا اللاتينية (عدا دول حوض نهر بلاتا) ٣٦ و ٥ مرات على التوالي ، هذا بينما يقدر للدول المتقدمة أن تزيد من تجهيزها من المواد الغذائية الاستهلاكية بما لا يزيد كثيراً على نصف إنتاجها الحالي .

ولدى استخلاص هذه الزيادة في إنتاج جميع المواد الغذائية المطلوب توفرها في العالم في نهاية القرن الحالي ومقارنتها بوضع إنتاجها الحالي (باعتباره يعادل ١٠٠) ، يبدو أن مجموع الرقم القياسي لإنتاج هذه المواد سيبلغ ٢٦٧ موزعاً على مناطق العالم المختلفة بالشكل التالي :

جول - ١٤ -

(نسبة توفر المواد الغذائية في مناطق العالم المختلفة)

النسبة المطلوبة سنة ٢٠٠٠ عما هي عليه حاليا	النسبة الحالية %	المنطقة
٩٢	٥٩	الدول المتقدمة
١٢٧	٢٧	الشرق الاقصى
١٥	٤	الشرق الاوسط
١٥	٥	افريقيا
١٨	٥	امريكا اللاتينية
٢٦٧	١٠٠	الجميع العالمي

«The third world food survey

: المصدر

من هذا يتبين لنا ان على المناطق النامية ان تحتل مراكز اهم في تهية المواد الغذائية لسكانها ، وان منطقة الشرق الاقصى بالذات يجب ان تنبؤ المركز الاول بدل الدول المتقدمة في توفير مقادير هذه المواد ، كما يبدو من بيانات الجداول التي سبقت الجدول الحالي ان معظم الثقل في عملية التزويد الغذائي هذه يقع على المنتجات الحيوانية التي هي اصعب تحصيلاً واغلى ثمناً من المنتجات الحقلية ، وخاصة نسبة لسكان المناطق النامية الذين معظمهم من ذوي الدخل الضعيفة . .

فهل تتمكن المناطق النامية من توفير مثل هذه المطالبات الغذائية ؟ وهل يكون ذلك من مصادرها الاقليمية ام من مصادر خارجية ؟

ان الجواب على ذلك ينقلنا الى العنصر الثاني من بحث مستقبل الكفاية الغذائية : وهو تقييم مصادر الارض الانتاجية :

٢ - تقييم مصادر الارض الانتاجية :

لقد حاولنا على الصفحات السابقة تقييم حاجات السكان الغذائية كما تتطلب امدادهم وكما يتطلبه المستوى الغذائي المنشود في نهاية القرن الحالي ، وقد وصلنا الى النتيجة الصارخة من ان العالم سيحتاج الى تحقيق زيادات هائلة من المواد الغذائية تزيد على ١٦٠ ٪ من مجموع انتاجها الحالي كي يتمكن بها سد تلك الحاجات : فمن اين سيتمكن العالم من تحقيق تلك الزيادات ؟؟

لا شك في ان المصدر الاول والاساسي للحصول على الطعام هي الارض : الارض بمفهومها الانتاجي الزراعي . . ويمكن ان نتأكد من حقيقة ذلك اذا علمنا ان ٨٧ ٪ من مجموع استهلاك السعرات الحرارية و ٧٠ ٪ من البروتينات مصدرها المباشر الاراضي الزراعية ، اما اذا أضفنا الى ذلك الاغذية المستمدة من المنتجات الحيوانية (عدا الاسماك) - والتي هي منتجات ارضية غير مباشرة - فان هذه النسب سترتفع الى ٩٩ ٪ و ٩٦ ٪ على التوالي . (١٧)

فهل ستبقى الارض المصدر الاساسي للغول عليه في الحصول على مواد الغذاء بهذا الشكل ورغم تزايد الطلب وفق القاييس التي شرحتها آنفا ؟

انظر مقالة Sukhatme السابقة الذكر ، كذلك يبدو لنا من هذه النسب ان البروتينات المستمدة من الاسماك (كالتاج بحري) لا تكون اكثر من ٤ ٪ في التغذية العالية .

وإذا كان كذلك : فما مدى طاقتها الانتاجية لمجابهة تلك الحاجات ؟

لاجل أن نجيب على هذه الاسئلة وامثالها ، لا بد لنا من ان نلقي نظرة ولو خاطفة على قابليات الارض الانتاجية ، وخاصة بما لذلك من علاقة باعداد السكان : حاضرا ومستقبلا .

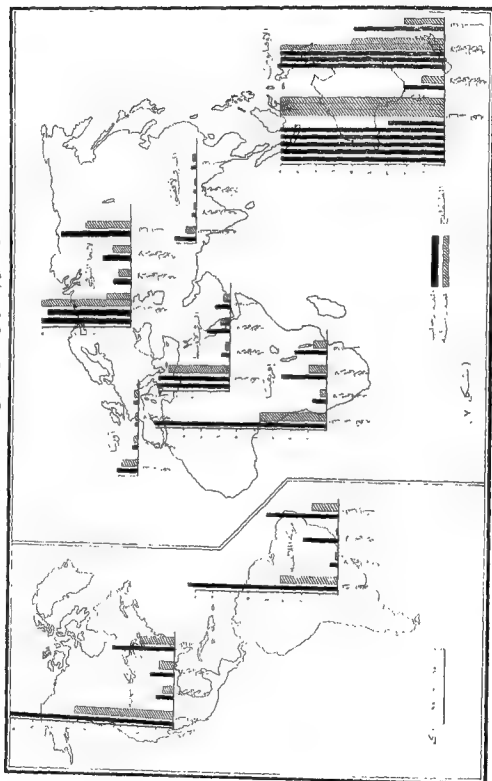
ان التقديرات المعروفة عن مدى قابليات الارض الانتاجية - بمقياس الاراضي الصالحة للزراعة - في غاية التباين ، فهي تتراوح بين ٢٠ و ٦٠ بالمائة من مجموع مساحة اليابس ، ولكن يبدو ان كلتا النسبتين تشوبهما بعض المغالاة ، حيث ان التقدير الواطئ قد بني على اساس صلاحية التربة - وهي كما نعلم عنصر قابل للاستصلاح والتغيير بعض الشيء ، بينما التقدير العالي بني على اساس الامكانيات المناخية ، والتي قد تكون ملائمة دون ملائمة بقية العوامل الطبيعية الاخرى المرتبطة بقابلية الانتاج الزراعي - وسواء كانت تلك النسبة او هذه او اية نسبة وسط بينهما ، فان ما يستغل للانتاج الزراعي حاليا ، وبشكل من الاشكال ، يكون حوالي ١٠ ٪ فقط ، من مجموع سطح اليابس بينما هناك ٢٠ ٪ اخرى هي في عداد المراعي والروج الدائمة : وهذه جميعا توزع توزيعا متباينا بين مناطق العالم المختلفة بالنسب التي يظهرها الشكل (١)

ومن هذا التوزيع يبدو لنا ان مجموع الاراضي الزراعية في المناطق النامية يبلغ حوالي ٥٤ ٪ من مجموع مساحتها في العالم ، وان على هذه ان تعيل ٧٠ ٪ من مجموع سكان العالم حاليا ، وحوالي ٨٠ ٪ منهم في نهاية القرن ، بينما تبقى في المناطق المتقدمة ٤٦ ٪ من الاراضي الزراعية التي عليها ان تعيل ٣٠ ٪ من سكان العالم وان تحملها لضغط السكان سيكون اقل نسبيا في نهاية القرن .

اما بقية الاراضي التي يعتقد بانها صالحة للزراعة ، ولكنها غير مستغلة ، فلا يمكن تحديد مواطن توزيعها على وجه الدقة ولا تقييم قابليتها الانتاجية بصورة قطعية ، ولكن على اى حال فاننا نعتقد انها على العموم اقل انتاجية واردا موقعا ، وذلك لان الانسان عندما يعمد الى استغلال اية ارض فلا بد ان يعطي الافضلية في ذلك الى جودتها الانتاجية وفقا لما يسمى بقانون الاولوية Law of primacy او الى موقعها الجغرافي المناسب وفقا لقانون الاتصال Law of Accessibility ومع ذلك فان مثل هذه الامور انما هي مواضع نسبية تتغير قيمتها بتغير الظروف الزمانية والمكانية التي تغير من وسائل واقتصادية الاستثمار .

ولعل معظم هذه الاراضي غير المستغلة الآن هي تلك التي توجد ضمن المناطق المدارية الرطبة وشبه الرطبة حيث يعتقد بان استغلالها في المستقبل سيجابه الكثير من المشاكل ، امثال زيادة ترشيع التربة وصعوبة حراستها بعد جفافها وتعرضها للانجراف المائي اثناء استغلالها وذلك بسبب شدة هطول الامطار في مثل هذه المناطق ، كما يعتقد بان نسبة اخرى يمكن ان تضاف من حصة المراعي فيما لو احسن استغلالها والحفاظ عليها ، لا سيما من عملية التجفاف التربة .

على اننا لو اخذنا ما هو مستغل حاليا للزراعة وما هو في عداد المراعي او غيرها من ضروب الاستثمار من حيث توزيعه الجغرافي على مناطق العالم المختلفة وقارنا ذلك باعداد السكان الذين تضمهم كل منطقة من هذه المناطق - حاليا ومستقبلا - لظهر لنا مدى التباين لمعدل حصة الفرد من هذه الاراضي في كل جزء من اجزاء المعمورة : (انظر الخريطة في الشكل ٧) . ومن تدقيق الخريطة الموضحة لهذا التوزيع يتضح لنا ان اقل حصة تصيب الفرد من الاراضي الزراعية توجد في منطقة الشرق الاقصى ، حيث تبلغ ٢٢ ر. من الهكتار (هذا اليابان التي تصل حصة الفرد فيها الى ٠٦ ر. من الهكتار) وان اقل حصة توجد في الاوقيانوس حيث تبلغ ٢٢٣ هكتار



للفرد الواحد ، ولو اخفنا الى هذه المقارنة البسيطة حالة تزايد السكان في نهاية هذا القرن وكما سيتوزعون على مناطق العالم المختلفة والحقائق الاخرى عن ضروب الاستثمار التي تتوزع اليها اراضي هذا الكوكب لتمكننا ان نتوصل الى بضعة حقائق عن طبيعة مصادر الارض الانتاجية .

١ - ان نسبة الاراضي الزراعية - والتي لا تزيد كثيرا على ١٠ ٪ من مجموع مساحة اليابس - تعتبر واطئة بالمقارنة مع اعداد السكان وحاجاتهم الغذائية ولا سيما في المستقبل ، باعتبار ان هذه الاراضي بوضعها الحالي لم تتمكن من سد حاجات السكان بالمستوى المطلوب ، فكيف اذن سيتمكن من ذلك عندما يتضاعف عدد سكان العالم وتزداد مطالبهم الغذائية في بعض المناطق بمقدار ٣ او ٤ اضعاف مطالبهم الحالية ؟ ولذا حتى لو ضوعفت بقية الاراضي التي يعتقد انها صالحة زراعية (والتي قد لا تزيد اكثر من مرتين على المساحات المستغلة حاليا) فان انتاجها بمستوى الاستثمار الحالي سوف لن يتمكن من مقابلة مستوى التجهيز الغذائي المنشود لسكان العالم ، هذا مع العلم بان في الكثير من المناطق الزرعية السكان قد تناقصت نسبة الاراضي الصالحة للاستغلال وغير المستغلة ، ففي الهند مثلا بلغت نسبة الاراضي المستغلة فعلا في الزراعة حوالي ٥٠ ٪ من مساحة البلاد (١) بالمقارنة مع ١٠ ٪ للمعدل العالمي ، لذا فلا يعتقد بانه قد تخلفت هنالك اراض كثيرة غير مستغلة .

٢ - كما سبق وذكرنا : ان هناك اختلافا بين نسبة الاراضي الزراعية والرعية الى السكان في المناطق النامية ونسبتها في المناطق المتقدمة ، فبالنسبة للاراضي الزراعية في المناطق النامية هنالك وحدة من الاراضي لكل ثلاثة اشخاص ، بينما هنالك وحدتان لكل ثلاثة اشخاص في المناطق المتقدمة ، اما بالنسبة للاراضي الرعية فهناك وحدتان لكل ثلاثة اشخاص في المناطق النامية ، بينما توجد اكثر من ثلاث وحدات ونصف لكل ثلاثة اشخاص في المناطق المتقدمة (هذا عدا اليابان) .

وستزداد هذه النسبة اختلافا نحو نهاية القرن ، فتصبح وحدة واحدة من الاراضي الزراعية لكل اكثر من ستة اشخاص ، وحوالي وحدة من الاراضي الرعية لكل ثلاثة اشخاص في المناطق النامية بالمقارنة مع وحدتين من الاراضي الزراعية واربع وحدات من الاراضي الرعية لكل خمسة اشخاص في المناطق المتقدمة .

٣ - اما بالنسبة لحصة الفرد الواحد من هذه الاراضي ، فقد سبق ان اشرنا الى مدى التباين الموجود في ذلك في مختلف مناطق العالم والذي يبدو منه ان معدل نصيب الفرد الواحد من الاراضي الزراعية والرعية في المناطق النامية هو نصف نصيبه في الدول المتقدمة وستقل مثل هذه النسبة في نهاية القرن لتصبح حصة الفرد في المناطق النامية من الاراضي الزراعية والرعية ثلث حصة الفرد منها في المناطق المتقدمة .

واذا ما علمنا ان ضغط السكان الريفيين في المناطق النامية على الاراضي الزراعية اشد مما هو عليه في المناطق المتقدمة ، حيث انه في كثير من الاحيان تصل نسبتهم في الحالة الاولى الى اكثر من ٧٠ ٪ من مجموع السكان بالمقارنة مع حوالي ١٢ ٪ لبلد مثل الولايات المتحدة و ٧ ٪ لبريطانيا ، وان هذا

الضغط سيزداد بمرور الزمن بسبب تزايد الاعداد المطلقة للسكان هؤلاء (١) ، اذن لتمكنا ان ندرك بصورة آتية صعوبة وجود سوق مطيعة لملائة المنتجات الزراعية في كثير من الدول النامية ، وبالتالي عجز الأراضي الزراعية فيها عن تامين السكان المدنيين على الاقل بحاجاتهم الغذائية الكافية ، هذا فضلا على انه كنتيجة لشدة الازدحام هذا ، فان كثيرا من الأراضي الزراعية في المناطق النامية تنوء تحت عبء الاستغلال الكثيف ، ففي كثير من مناطق جنوب وجنوب شرقي آسيا تستغل حقول الرز لحاصلين او اكثر خلال العام الواحد ، مما يشير الى عدم توفر اراض اخرى صالحة وجاهزة للاستغلال بدرجة تستحق الاهتمام ، ففي الهند مثلا تقدر الأراضي الصالحة للانماء الزراعي وغير المستغلة بحوالي ١١٪ من مجموع الأراضي المستغلة ، وفي الأرجنتين - حيث السكان اقل ازدحاما - لا تزيد مثل هذه الأراضي على ٣٠٪ من مجموع المستغل ، بل وحتى في الدول المتقدمة مثل فرنسا ، لم يبق من مثل هذه الأراضي اكثر من ٢٠٪ وفي الولايات المتحدة حوالي ١٥٪ (٢) .

هذا من حيث الأراضي الزراعية المصدرة لانتاج المحاصيل الحقلية وغيرها ، اما بالنسبة للأراضي الرعوية ، فاضافة الى ما ذكرناه سابقا ان نصيب الفرد في المناطق النامية لا يزال اوطأ مما هو في المناطق المتقدمة ، فان اهميتها للتغذية بمقياس الانتاج الحيواني لا تزال قليلة بالمقارنة مع اهمية نظيرتها في الدول المتقدمة ، فلو اخذنا انتاجية الماشية (من اللحوم والطيح) اساسا للمقارنة ، فان هذه الظاهرة تبدو مرة اخرى على درجة كبيرة من التباين بين مختلف مناطق العالم ، وذلك كما يظهرها لنا الجدول التالي :

جـ مـ ١٥ -

(توزيع اعداد الماشية و انتاجيتها على مناطق العالم المختلفة)

٥ حسب احصاء ١٩٥٨ (٣)

الانتاجية بملايين الاطنان		المنطقة	اعداد الماشية بالملايين
لحوم	حليب		
٥٥٩	١١٩	أوروبا	١٠٨
٧٢٢	٦٥	أمريكا الشمالية	١٠٤
١٢٢	١١	أستراليا ونيوزيلندا	٢٣
٢٧٧	٥٧	الاتحاد السوفيتي	٦٧
٥٩٩	١٩	أمريكا اللاتينية	١٨٥
٢٩٩	٢٧	الشرق الأقصى	٣٤٤
٢٦	٧	الشرق الأوسط	٣٤
١٢٥	٨	أفريقيا	١٠٢
٢٧٢٩	٣١٣	العالم	٩٦٧

(F.A.O., Possibilities of Increasing World Food production)

المصدر :

(١) النظر مثالة : Abercrombie الأتلة الذكر .

F.A.O., Production year-book, 1967.

(٢) النظر :

(٣) رغم ان ارقام الانتاجية تعود الى فترة قديمة بعض الشيء الا ان مقارنتها مع بعض مثيلاتها الحديثة لا تظهر تغيرا كبيرا في نسب الانتاج .

يتبين لنا من دراسة هذا الجدول انه على الرغم من ضخامة اعداد الماشية التي توجد في المناطق النامية ، حيث تكون ٧٠٪ تقريبا من المجموع العام ، الا ان انتاجيتها واطمة جدا ، فانتاجية اللحوم منها لا تكون اكثر من ثلث الانتاج العالمي ، بينما للحليب لا تزيد النسبة على خمس هذا الانتاج منها . تتجلى لنا هذه الحقيقة بصورة اوضح اذا علمنا ان انتاجية بقرة الحليب في الهند (بموجب احصاء ١٩٥٨) تبلغ حوالي ٢٢٠ كيلو جراما سنويا وفي باكستان ٢٠٠ كيلو جراما بينما في هولندا تصل الانتاجية الى حوالي ٤٢٠٠ كيلو جرام وفي فلسطين نجحت عمليات التهجين في ايصال الانتاجية الى حوالي ٤٣٠٠ كيلو جرام سنويا .

من هذا الجرد البسيط لمصادر الارض الانتاجية يمكن ان يتضح لنا ان مشكلة توفرها تكاد تتركز في المناطق النامية ، وان هذه المشكلة تستغاقم اكثر في المستقبل ، وانه بالنظر لعدم وجود احتياطي كبير من مثل هذه المصادر ، فان مستقبل الانماء الزراعي فيها يكمن بالدرجة الاولى في تحسين وسائل وانماط استغلال المصادر الحالية قبل البحث عن مصادر جديدة .

ولنا من اليابان خير مثل على ذلك ، فالفرد الياباني يستمد معظم غذائه اليوم من ٠.٦ ر. من الهكتار بالمقارنة مع ٣ ر. من الهكتار للمناطق النامية ، ومع ذلك فقد تقلص استيراد بعض المواد الغذائية في اليابان في الآونة الاخيرة ، ومن الرز بالذات بنسبة ٣٧٪ سنة ١٩٦٧ و ٤٧٪ سنة ١٩٦٨ .

ان مثل هذا الوضع يتطلب التأكيد على اهمية التقنية الحديثة والاستفادة من نتائجها في في ميدان الاستغلال الزراعي وانتاج الأغذية .

٣ - اثر التقنية الحديثة في زيادة انتاج الأغذية :

لعل من اهم الخصائص التي تميز عملية استثمار مصادر الثروة في المناطق النامية بصورة خاصة ، هي الهوة السحيقة التي تفصل بين الوسائل والانماط التي يزاولها الانسان في الانتاج والانماط والوسائل التي ابتدعتها التقنية الحديثة وتوصلت اليها مخبرات البحوث والحقول التجريبية ، وتزداد مثل هذه الهوة عمقا كلما اشتد الانسان تمسكا بوسائله التقليدية ، وكلما توصل البحث العلمي وتوصلت التجربة الى نتائج جديدة في طرق الاستغلال . ونشير بعض الامثلة التي اوردناها على الصفحات السابقة او التي سندكرها فيما يلي على صحة هذه الوقائع .

— اذا ما الذي اوصل انتاجية البقرة من الحليب في فلسطين الى أعلى المستويات ، في حين ان موارد ارض فلسطين لم تتغير خلال العقود القليلة الماضية ؟

— وما الذي جعل منطقة شلالات نياجرا Niagra في كندا والولايات المتحدة من بين اهم مناطق الصناعة في العالم ، في حين كان الهنود الحمر الاوائل يهربون منها فرعا من صوت هدير الماء المتساقط ؟

— وما الذي حول منطقة السهوب الاسيوية في سيبيريا الى مناطق انتاج زراعي وصناعي هامة بعد ان كانت مسرحا لتساقط قطمان الرعاة ؟

ان الجواب على هذه الاسئلة ومثيلاتها بسيط وبديهي : ذلك ان جهد الانسان العلمي هو المسؤول عن تغيير صورة سطح الارض بهذا الشكل ، وعن تغيير معاني الثروة وتفجير كوامنها ، وعلى هذا

فإن مصادر الإنتاج في الواقع بالملقة مع هذا الجهد العلمي البشري تحمل مفهوما ديناميكي متغيراً مدفوعاً إلى حد بعيد بحاجات الإنسان نفسه .

إن البحث الحالي لا يهدف إلى شرح جوانب التقنية المتعددة في موضوع الإنتاج ، فإن ذلك يخبرنا كثيراً عن نطاق بحثنا المحدود ، ولكنه يحاول تضييق بعض الآثار المهمة التي يمكن أن تنشأ من استخدام أساليبها والتي يمكن تلخيصها بالعبارة المختصرة : زيادة الإنتاجية نسبة إلى عوامل الإنتاج المستعملة ، وذلك عن طريق استنباط وتطوير القابليات الكامنة في هذه العوامل .

لقد عملت ولا تزال تعمل التقنية الحديثة على زيادة الكفاءة الإنتاجية لمصادر الثروة المختلفة بأساليب متعددة أمثال التغيرات البيولوجية التي تحدثها في تكوين الكائنات الحية كنتيجة لمعاملات التهجين ، وذلك كي نجعل منها كائنات أقدر تكيفاً في بيئات جديدة غير يئسها الأصلية ، أو أكثر إنتاجية لثروة معينة ، كذلك التغيرات التي تحدثها في بناء التربة الميكانيكي وتكوينها الكيميائي لجعلها أكثر قدرة على الإنتاج ، أو الاستزادة من مصادر المياه والاقتصاد في استعمالها ، لا سيما في الزراعة (١) حيث تكون الحاجة إليها ماسة جداً في كثير من مناطق العالم أو الحصول على بعض عناصر الغذاء من مصادر اصطناعية ، مثل الحصول على البروتينات من الصناعات البترولية والكيمائية بل وحتى التغيرات الفيزيولوجية التي تعتمد اليوم بعض الأبحاث إلى إحداثها على الكيان البشري في سبيل جعله أكثر تحملاً للأجواء المرهقة والبيئات الصعبة ، هذا بخلاف ابتداء الوسائل والأناط الجديدة في الإنتاج مثل الآلات الحديثة والدورات الزراعية وعمليات التسميد وغير ذلك .

وتعتبر عمليات التهجين من أهم الجهود التي ينظر إليها العالم اليوم نظرة تفوق في سبيل زيادة إنتاجية الأرض من المواد الغذائية ، فقد تمكنت المختبرات والحقول التجريبية من أن تنتج هجائن جديدة من البذور تعيش في بيئات غير يئسها الأصلية فتوسعت بذلك مناطق إنتاجها ، وإن تنتج غلة أكثر فزادت بذلك الطاقة الإنتاجية لوحدة الإنتاج الواحدة . فمن أمثال ذلك التوصل إلى بسلور القمح الشديدة المقاومة للجفاف والبرودة ، فامتدت بذلك مناطق إنتاج هذا المحصول أكثر باتجاه الإقطاب ، حيث لم تكن الأراضي بذات إمكانية للإنتاج الزراعي . كما توسعت نحو حافات الصحاري : وفي كلتا الحالتين استطاع الإنسان أن يستغل أراضي أقل ازدحاماً بالسكان ويوفر بذلك حاصلات للمناطق المزدحمة .

كما أدت مثل هذه الجهود إلى الحصول على هجائن من الذرة أدت بدورها إلى تزايد الإنتاجية منها ، لا سيما في منطقة الشرق الأوسط حيث تضاعفت إنتاجية الهكتار من ١٤٠٠ كيلو جرام إلى حوالي ٣٢٠٠ كيلو جرام خلال الأربعين سنة الماضية ، كما أن استعمال الأصناف الجديدة من الرز في بعض مناطق الشرق الأقصى قد أدى إلى زيادة إنتاجه إلى أكثر من ٧٥٪ على مستواها الاعتيادي بحث أصبحت بعض الدول هناك تواجه مشكلة فيض الإنتاج دون إمكانية تصديره مما حدا بالدير العام لمنظمة الزراعة والغذاء الدولية F.A.O. إلى استقصاء احتمال عقد اتفاقيات دولية لتسويق الرز لا سيما بين الدول النامية .

غير أن مما يعرقل الاستفادة من مثل هذه البذور بشكل واسع هو تلك الكثير من الدول النامية في استعمالها ، لسبب أو لآخر ، فكانت النتيجة تخلف جنى الفوائد منها بما يتلاءم وتزايد

(١) لعل من أبرز الأمثلة على ذلك هي الزراعة الهوائية Hydroponics التي تستفيد من آخر قطرة من المياه في عملياتها للحصول ..

الحاجة الى المواد الغذائية ، ولكن يبدو ان جهود خبراء منظمة الزراعة والغذاء الدولية وغيرها قد اخذت تفلح في الآونة الاخيرة في ضرورة الاستفادة منها ، ويعتقد كنتيجة لذلك ان دولة كالهند مثلا ستتمكن في سنة ١٩٧٤ - ١٩٧٥ من اكفاء نفسها ذاتيا من الحبوب الغذائية ، على ان يصحب ذلك تبنى الوسائل الاخرى الكفيلة بتطوير نظام ريفي مناسب يساعد على حسن توزيع الانتاج ويسهل استعمال بقية طرق الانتاج الحديثة ومكافحة الآفة (١) .

وكما ان تهجين البذور الزراعية قد ادى الى زيادة انتاجية الارض ، فان تهجين الحيوانات قد ادى ايضا الى زيادة قابلية الحيوانات على التكيف لبيئات جغرافية جديدة والى زيادة انتاجيتها على السواء ، ففي امريكا اللاتينية مثلا هجنت الابقار الهندية المدارية مع الابقار الهولندية ، فادى ذلك الى الحصول على سلالة جديدة ذات قابلية للعيش في اجواء القارة المدارية بصورة خاصة ، ولكن في نفس الوقت بالنتيجة عالية من اللحوم والحليب .

ولا تقل عمليات استصلاح الاراضى واحياؤها اهمية في مجال توسيع رقعة الاراضى الزراعية وزيادة انتاجيتها ، فتجفيف المستنقعات وازالة الموحلة من التربة وازادة المخصبات والمواد الكيميائية الاخرى لاعادة بنائها وموازنة تركيبها الكيميائى ، وتطوير مصادر المياه وتطبيق الوسائل الاقتصادية في استعمالها ، لا سيما في المناطق الجافة ، بل وحتى استعمال ابحاث الفضاء في الكشف عن مناطق الاصابات والامراض النباتية في الحقول الزراعية والمبادأة الى مكافحتها ، هي امثلة قليلة من زخم هادر من الابحاث التي تجرى الآن في العالم لانماء مصادر الثروة وتطويرها في سبيل تحقيق مستقبل أفضل .

على ان استعمال التقنية الحديثة في زيادة الانتاج يجب ان تواكبها الدقة والحكمة في التطبيق ، وذلك لان قوة العلم الحديث قد تقابلها قوة معاكسة تقضى على الكثير من العناصر القيمة في بيئة الانسان الطبيعية (٢) ففي باكستان مثلا : في الوقت الذي توسعت فيه مشاريع الري لارواء ٤ مليون فدان من الاراضى منذ ١٩٤٩ ، فان هذه المشاريع نفسها دمرت ٥ ملايين فدان بسبب الملوحة وذلك بعد عشر سنوات من الزمن ، ولا تزال باكستان تفقد بين ٥٠ الى ١٠٠ الف فدان سنويا لنفس السبب ، والامثلة على ذلك تتكرر في كل من العراق وايران والولايات المتحدة وغيرها من المناطق الاوائية .

وفي الجمهورية العربية المتحدة يقال ان توسيع عمليات الري وتخزين المياه قد ادى الى تقليل نسبة الطمي الذي يرمى به نهر النيل في مصبه مما ادى الى هجرة اسماك (السردين) عن الشواطئ المصرية بحيث ادى ذلك الى تناقص الانتاج منها بشكل كبير جدا . وفي فلسطين المحتلة ادى استعمال بعض السموم للقضاء على فئران الزرايع الى قتل الطيور الساحلية التي كانت تقتات عليها ، في الوقت الذي اكتسبت فيه الفئران مناعة ضد تلك السموم بمرور الزمن بحيث عادت الى التكاثر وبشكل سريع . ويخشى المجلس البريطاني للبحث العلمي من كثرة تلوث مياه الخزانات التي تستمد مياهها من الانهار التي تستلم قدرا كبيرا من بقايا عمليات التسميد من الفوسفات

(١) انظر مقالة : Lowell Satin, Next Steps to Sustain Agricultural Revolution, (International Development Review, March, 1969).

(٢) انظر مقالة : Edwin Maxtin, Three Critical Issues in Agricultural Development (Inter. Develop. Review, March, 1969).

والنترات ، لان ذلك يؤدي الى نمو بعض طحالب المياه التي تشكل غطاء فوق المياه يمنع تنفعل الشمس ونفوذ الاكسجين ، وهي حالة يقضي معها على الحياة السمكية في هذه الخزانات كما يؤدي الى زيادة فقدان المياه منها بطريق التبخر والتجف.

لذا فيمكن القول ان استعمال وسائل التقنية الحديثة لا يمكن ان يتم بصورة عشوائية ، بل ان مدى نجاح ذلك يتناسب طرديا مع مستوى الثقافة والوعي العلمي في البلاد ، وهذا امر يعتبر في غاية الاهمية بالنسبة للدول النامية .

{ - العلاقات الاقتصادية - الاجتماعية :

قد يبدو لنا لأول وهلة ان حل مشكلة التغذية في العالم يمكن ان يتحقق ببساطة من طريق زيادة انتاج الطعام كما ونوعا الى المستوى الذي يمكن ان يسد حاجات السكان الغذائية ، وقد يعنى ذلك من الناحية الموضوعية تبنى الاساليب الحديثة في زيادة وتنوع الفلحة من الوحدة الانتاجية الواحدة ، او التوسع الى اراض جديدة عن طريق استصلاحها واعدادها للانتاج .

ان زيادة انتاج الطعام وان كانت فعلا تكون الهدف النهائي لحل مشكلة التغذية ، الا ان كيفية تحقيق هذه الزيادة وكيفية تمكين المستهلكين من الحصول عليها حيث يحتاجونها تشكل الجانب العملية في مجابهة المشكلة وحلها ، فلو اخذنا الانتاج العالمي الحالي للاغذية مثلا وقارناه بحاجات الاستهلاك الحالية في العالم ، لما بدت لنا صورة التغذية بهذا الشكل الكئيب والمشوه الذي هو عليه فعلا في كثير من مناطق العالم ، ولقد بين لنا من الجدول (٤) مدى التكدس الذي نجم عن فائض الانتاج لكثير من المواد الغذائية في بعض دول العالم ، ولو اخذنا من هذا الجدول حالة الفانض من القمح فقط ، والذي اخذ يتزايد ما بين ١٠ الى ٢٠ مليون طن سنويا في بعض الاحيان ، لوجدنا انه يمكن ان يسد حاجة ما بين ٧٥ - ١٥٠ مليون شخص سنويا من الحبوب الغذائية .

كما أننا لو اخذنا حالة انتاج المواد الغذائية في بلد كالولايات المتحدة ، حيث يعادل ١١٠٠٠ سعة يوميا للفرد الواحد ، وهو معدل يساوي اربعة اضعاف حاجة الفرد الامتدادية ، لتبين لنا مرة اخرى مدى الفيز الفذائي التي تتميز به بعض الدول نسبة الى « الشحمة » في دول اخرى ، بحيث يؤدي مثل هذا الفيز غالبا الى التذير والاسراف اثناء التوزيع والاستهلاك .

كما اننا اوضحنا في الجدول « ١٥ » وفرة مصادر التغذية الكامنة في الثروات الحيوانية في كثير من الدول النامية التي هي نفسها تعاني من مشاكل التغذية ، ولكنها دون استفادة تذكر بحيث ان شعوب هذه الدول تتعرض الى الكثير من الامراض الناجمة من نقص العناصر الحيوانية في طعامها .

فالشك من الناحية الموضوعية اذن ليست بتلك الدرجة من التدهور ، ولكن حلها بصورة وانعية ليس بتلك الدرجة من السهولة والبساطة ايضا ، والذي ربما يتراءى بانه مجرد علاقة بسيطة بين اعداد السكان وكمية الانتاج ، بينما يرتبط الحل في الواقع بالكثير من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع والتي هي بحد ذاتها تختلف من بيئة جغرافية الى اخرى ، ومن ثقافة الى اخرى ، بحيث يتوجب ان يكون لكل جماعة من الناس في كل بيئة معينة حل خاص بها .

أما من حيث العلاقات الاقتصادية المرتبطة بوضع التغذية وبمستقبلها ، فانها ذات صلة بمجموع الدخل القومى وبمشاريع التنمية الاقتصادية المتعددة الجوانب فى الامة الواحدة .

فان الدخل القومى يقرر معدل دخل الفرد الواحد والذى بدوره يحدد قوته الشرائية - القوة الشرائية التى تعتبر اليوم اساسية لتحديد قدرة الفرد على توفير حاجاته الغذائية فى الدول النامية، اذ انه بدون مثل هذه القدرة لن تكون هناك اية قيمة لوفرة المواد الغذائية سواء داخل حدود الدولة او عبر قنوات التجارة الدولية .

وتبدو لنا أهمية مثل هذه الصلة بين القوة الشرائية ومستوى التغذية من دراسة الجدول التالى الذى يورد نماذج موضحة للعلاقة بين هاتين الظاهرتين من دول ذات دخول مختلفة .

جدول - ١٦ -

« معدل مستوى التغذية نسبة الى معدل مستوى الدخل فى بعض اقطا العالم »

الدولة	معدل دخل الفرد السنوى (بالدولار)	مقدار السعرات الحرارية المستهلكة (يومياً)	البروتينات (جرام يومياً)	الحيوانية منها
انكلترا	١١٢٣	٣٢٧٦	٨٩	٥٣٤
فرنسا	٩٦٨	٢٩٧٥	١٠٣	٥٩٤
الاتحاد السوفيتى	٨١٦	٢٩٩٨	٨٥٩	٢٩
إيطاليا	٥٤٥	٢٧٣٤	٨٠	٢٩٨
الهند	٥٠	٢٠١٧	٥١٥	٦

على أن هذا الجدول لا يظهر فقط مدى العلاقة الايجابية بين مستوى الدخل ومستوى التغذية ، وانما يوضح أيضاً بانه فى حالة الدخل العالية فان عناصر التغذية تكون متكافئة : نباتية وحيوانية (لبدل كثرة البروتينات الحيوانية المستهلكة) ، بينما فى حالة الدخل الضعيفة فان النسبة العظمى من الغذاء مستمدة من مصادر نباتية وهو أمر سبق أن اشرنا الى خطورته فى أحداث سوء التغذية او نقصه . فمن الأدلة الشاهدة على ذلك هو ما سبق أن ذكرنا من أن الحبوب الغذائية تكون المصادر الأساسية فى تغذية الشعوب النامية، حيث تشكل ما بين ٥٠ - ٦٠٪ من مقادير الاغذية المستهلكة يومياً فى مناطق الشرق الاقصى ، بينما فى بريطانيا مثلاً لا تشكل الحبوب الغذائية أكثر من ١٢٪ من مصادر تغذية الفرد .

على انه ليكن واضحاً لدينا أيضاً بان العلاقة الايجابية هذه بين الدخل ومستوى التغذية لا يمكن أن تستمر فى تصاعد وبدون حدود ، بل انه بحكم عدم مرونة الطلب على المواد الغذائية بعد حد الكفاية فان استمرار زيادة الدخل لن يحدث آثاراً مشابهة فى طلب المواد الغذائية واستهلاكها ، ويبدو ذلك جلياً من دراسة الجدول السابق الذكر، حيث نلاحظ أن الفرق بين مستوى دخل الفرد البريطانى والفرد الإيطالى الذى يبلغ حوالى الضعف ، لم يحدث ضعف الفرق فى مستوى التغذية .

من ذلك يمكن أن نستنتج أن مرونة الطلب على المواد الغذائية ستكون شديدة عند الشعوب الضعيفة التغذية والضعيفة الدخل ، وستبقى النسبة العظمى من دخول الشعوب النامية تنفق على المواد الغذائية لمدة غير قليلة من الزمن الى أن تتحقق لديها مستويات الكفاية الغذائية . يبدو لنا ذلك واضحاً من مقارنة توزيع معدل دخل الفرد على مطالب الحياة المختلفة فى كل من

الولايات المتحدة والهند ، ففي الولايات المتحدة يتوزع معدل الدخل على المطالب المختلفة بالنسب المئوية التالية :

الغذاء ٣٠٪ ، السكن ٢٥٪ ، الملابس ١٥٪ ، أمور أخرى ٣٠٪ . اما في الهند فتوزع الدخل يتم بالشكل التالي :

الغذاء ٦٠٪ ، السكن ٨٪ ، الملابس ٧٪ ، أمور أخرى ٢٥٪ ، واذن فمن الممكن ان نتوصل الى النتيجة التي لا تقبل الجدل وهي ان تحسن مستويات التنمية عند الشعوب النامية يرتبط ارتباطا وثيقا بتحسين مستوى الدخل القومي ، وبالتالي تحسن الدخل الفردي .

فما هو وضع الدخل القومي للشعوب النامية ؟

لعل من المفيد في هذا الصدد ان نعلم بان شعوب العالم النامية التي تكون حوالي ٧٠٪ من سكان العالم لا تساهم بأكثر من ٢٠٪ من مجموع الدخل العالمي (١) وان الفروقات بين مستويات الدخل للشعوب النامية والشعوب المتقدمة تزداد يوما بعد يوم بدل ان تضيق ، وذلك كنتيجة لتزايد سكان المناطق النامية بدرجة اسرع مما في المناطق المتقدمة ، بينما لا تنمو مشاريع الاعمار والائمان فيها ، وبالتالي لا ينمو مجموع انتاجها القومي بالسرعة المطلوبة . ففي دراسة لمعدل التغير السنوي للسكان ومعدل دخل الفرد الواحد اجريت على ٣٢ دولة من الدول النامية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية للفترة من ١٩٥٢/٥٦ حتى ١٩٦٠/٦٤ ، وجد ان سكان هذه الدول قد زادوا بمعدل ٢٥٪ سنويا بينما كان معدل زيادة الدخل الفردي ١٨٪ (٢) ، وهذا يعني ان زيادة الدخل بمعدل دخل الفرد الهندي (كما هو مبين في الجدول ١٦) قد لا تعمدى الدولار الواحد سنويا ، بينما هي للدول المتقدمة قد تزيد على ٣٠ دولارا سنويا للفرد الواحد .

ان تزايد سكان المناطق النامية بهذا الشكل نسبة الى زيادة انتاجها العام ، لا شك انه يؤدي الى تزايد البطالة ، الامر الذي يعني انخفاض مستويات المعيشة وتناقص القدرة الشرائية للاغلبية لدى الكثير من العائلات ، ومع ذلك فسيبقى تزايد السكان ذا اثر كبير في تزايد الطلب العام على الاغذية فيؤدي بذلك الى جنوح اسعارها نحو الصعود مما قد يدفع الدولة الى استيرادها من الخارج وانفاق الكثير من الاموال على ذلك ، في الوقت الذي يمكن ان تستغل مثل هذه الاموال في اقامة مشاريع التنمية التي تؤدي بدورها الى تقليص حجم البطالة عن طريق ابتلاع ايدي عاملة جديدة .

ومن الامور الاخرى التي قد تحدث البطالة بين السكان - لا سيما الريفيين منهم - هو الميل نحو تنوع المحاصيل الزراعية خاصة وان هذا التنوع يعتبر ضروريا لتنوع مصادر التغذية ، فلقد لوحظ في البرازيل مثلا ، انه نتيجة التحول من زراعة البن كحاصل رئيسي في بعض المناطق - الى تربية الحيوانات للحصول على منتجاتها ، ان قد حصل تقلص مستمر في مقدار العمل المطلوب الذي ربما ادى الى الاستغناء عن ٩٠٪ من الايدي العاملة التي كانت تعمل ضمن وحدة انتاجية لبن ، ومثل ذلك يحصل ايضا في تنزانيا كنتيجة لتقلص زراعة السايسل - Sisa - (وهو من حاصلات الالياف الزراعية) لحساب التوسع في انتاج محاصيل حقليّة وحيوانية اخرى ، حيث

ان ذلك سيؤدي الى الاستغناء عن اكثر من ٩٥٪ من العمال الزراعيين في بعض الاحيان ، ولا شك في ان هذه الحالة مستتكر في حالة تنوع الانتاج الزراعي في مناطق الشرق الاقصى التي تبتلع زراعة الرز فيها الملايين من الابدى العاملة ، وعلى ذلك فقد لا يكون لزيادة الانتاج - كما ونوعاً - معنى فعلي في زيادة الاستهلاك عند جماعة كثيرة من الناس نتيجة لتزايد البطالة وانخفاض مستوى معيشتهم .

من هنا اصبح الواجب على مشاريع التنمية التي تهدف الى رفع مستوى الانتاج الغذائي ، وبالتالي رفع مستوى استهلاكه ان تحسب حساب استيعاب هذا الفيض من السكان ؛ سواء ذلك الذي يحصل بطريق الزيادة الطبيعية او نتيجة الهجرة من الريف بسبب تقلص الحاجة الى العمل ، وذلك بان تعتمد الدول النامية الى تنمية المشاريع الصناعية والمدنية الاخرى جنباً الى جنب مع مشاريع التنمية الزراعية .

ان وجود مشاريع التنمية المدنية الى جانب الريفية منها يعتبر من الامور الضرورية لاصادة البناء الوطني لمجتمع الدول النامية ، فوجود نسبة كبيرة من السكان الريفيين (الذين قلنا انهم قد يشكلون احيانا لثي نسبة السكان) يعني ضيق السوق المحلية للانتاج الزراعي القومي ، باعتبار ان معظم هذا الانتاج يستهلك من قبل السكان الريفيين انفسهم قبل ان يصل الى المدينة ففي دولة كالصين مثلاً ، نجد ان حوالي ٨٥٪ من انتاج الرز فيها يستهلك حيث ينتج ، وفي الهند نجد ان ٦٠٪ من هذا الانتاج لا يغادر القرية ، لذا فكلما حصل تكافؤ بين نسبة السكان الريفيين والسكان المدنيين - وذلك عن طريق اقامة المشاريع المدنية التي تجتذب العمل الفائض في الريف - فان احتمال توسع السوق المحلية ومساهمة ابن المدينة في استهلاك المواد الغذائية سيؤدد بالتبعية ، كما ان ذلك يساعد على ان يساهم ابن القرية في الحصول على جزء من ابواب انفاق الدخل لابن المدينة ، فيؤدي ذلك بالتالي الى توزيع احسن لمستوى الدخل العام .

على انه يتوجب على خطط التنمية الزراعية لاجل ان تحقق هدف توسيع الاسواق المحلية العمل على تحسين وسائل تسويق المنتجات الزراعية وبصورة منتظمة وذلك عن طريق تطوير وسائل النقل والمواصلات والتوزيع والتخزين وغير ذلك ، والا فان العملية ستصبح ذات جانب واحد تنكدس نتيجته السلع وتردى اسعارها فتزعم بذلك بالفلاحين في احضان الخسارة ، مما سيدفعهم الى ترك الانتاج .

ولقد لاحظنا سابقاً كيف ان دخول الاصناف المحسنة من الرز الى بعض مناطق الشرق الاقصى قد ادى الى زيادة انتاجيته ، ولكن دون تسهيل عمليات تسويقه ، مما عرض الفلاحين الى بعض الازمات المالية ، فدفع ذلك المدير العام لمنظمة الغذاء والزراعة الدولية الى استقصاء احتمال عند اتفاقيات دولية - اقليمية للرز لتسهيل تسويقه وتثبيت اسعاره بشكل ملائم للمنتج والمستهلك .

في مجال التنمية هذه ، يتبادر الى الذهن سؤال آخر عما ستكون عليه حالة انتاج المواد الغذائية لو عمدت جميع الدول النامية المجاورة الى تطوير انتاجها من حاصلات متشابهة ، بحيث يؤدي ذلك الى تشبع الاسواق المحلية او الاقليمية منها ، كما انها قد لا تتمكن ان تجد طريقها الى الاسواق العالمية الاخرى ، خاصة في الدول المتقدمة ، بسبب كثرة الحواجز الجمركية المفروضة على استيراد السلع الزراعية اليوم وبسبب سوء السمعة التي تسبق السلعة القادمة من الدول النامية .

لذا فقد أصبح من الواجب على الدول النامية أن تمارس التعاون فيما بينها عن طريق احلال التوافق بين خطط التنمية فيها - على المستوى الاقليمي اولا ثم على المستوى الاوسع بعد ذلك ، بحيث يؤدي ذلك الى تقليص قرض التنافس بين انتاج السلع المشابهة بالشكل الذي يتلادم والظروف الجغرافية لكل دولة من هذه الدول - ولعل الاسواق الإقليمية المشتركة التي بدأت تبرؤ الى الوجود اليوم هي نموذج على امثال هذا التعاون .

★ ★ ★

اما من حيث العلاقات الاجتماعية ومدى الرها على مستقبل التغذية ، فهي حالة اخرى تستحق الاعتبار في المناطق النامية ، وان عادات وطبائع انتاج واستهلاك المواد الغذائية والمثارة بالتقاليد والاعتبارات الدينية والدوق ، لهما عقبات - قد تعتبر اصعب من غيرها في بعض الاحيان - في سبيل حل مشكلة التغذية .

فمن حيث الانتاج ، والذي يتسم في المناطق النامية على العموم بانخفاض الغلة وباقتصارها على حاصل رئيسي او حاصلات قليلة محدودة ، فان ذلك يعود الى عوامل كثيرة مثل نظام الملكية الزراعية وتقاليده الانتاج وكيفية الاستفادة من بعض مصادر الثروة الموجودة في الزراعة ، كالحوانات .

فيما يختص بنظام الملكية الزراعية ، فانه بما لشدة ازحام السكان في معظم المناطق النامية ، لا سيما الريفية منها ، وبسبب نظام الميراث السائد في بعضها فان معظم المزارع صغيرة ، بل وتزداد صغرا بمرور الزمن ، الى درجة بحيث انها مع نظام الانتاج الحالي قد لا تفي حتى بحاجات اصحابها من الانتاج - لذا فهي عموما زراعية استهلاكية Subsistence Farming وذات عوائد نقدية قليلة جدا على الفلاح بحيث لا تيسر له استعمال الوسائل الحديثة في التنمية حتى اذا توفرت - كما انها تقتصر على صنف رئيسي واحد في الانتاج بحيث تصبح معه وجبة الفلاح مكونة ايضا من طبق رئيسي واحد تنقصه عناصر الغذاء المختلفة .

وهذا على نقيص ما يعير المناطق المتقدمة ، حيث الانتاجية اعلى : بالنسبة للمزرعة وبالنسبة للفرد المنتج ، بحيث يتوفر معه فائض للبيع ، لذا ففى الكثير من المناطق المتقدمة هناك ما بين ١٠ الى ٢٠ عائلة يمكن أن تستفيد من انتاج عائلة فلاحية واحدة ، هذا فضلا على تنوع الانتاج .

اما الحيوانات التي توجد في المزارع ، فلها قصة اخرى في المناطق النامية ، فانها فضلا على بعض التقاليد الدينية التي تحرم الاستفادة منها ، فانها ان وجدت في المزرعة فانها لا تستعمل الا لمساعدة الفلاح في اعمال الزراعة والنقل دون الاستفادة من منتجاتها ، هذا في الوقت الذي تشارك فيه هذه الحيوانات الفلاح حاصلات الحقل رغم ضعف انتاجيته ، وحتى فضلا - فبدلا من استعمالها في عمليات تسميد التربة واعادة الخصوبة اليها فانها تحول الى وقود لاستعمالها في الافراس المنزلية - وهكذا فغالبا ما تكون الحيوانات بهذا الشكل عبئا على مصادر الغذاء بدل ان تكون مصدرا له .

ان من المحتمل ان تستمر مثل هذه الاوضاع والانماط الزراعية في المناطق النامية ما دام الفلاح جاهلا وبعيدا عن مصادر الارشاد الزراعي وبقرا تجاه تكاليف الانتاج الحديث وليس هناك اصعب من تغيير تقاليد الفلاح الجاهل والفقير .

اما من حيث عادات وطبائع الاستهلاك فهي امور اخرى ذات اهمية كبيرة في موضوع التغذية ، فقد لاحظنا سابقا ان من اهداف مستقبل التغذية ضرورة التأكيد ليس على زيادة استهلاك المواد الغذائية فحسب ، بل ربما اهم من ذلك تحسين نوعيتها وطريقة استهلاكها ، بحيث يؤدي ذلك الى جعل الناس يأكلون احسن الى جانب ما يأكلون اكثر ، ولكن هل من الممكن تحقيق ذلك ، حتى لو فرض وتحسنت دخول الافراد وتوفرت لهم المواد الغذائية كما ونوعا ؟ .

ان كل الدلائل تشير الى ان تبديل عادات الكثير من الناس في استهلاك المواد الغذائية يعتبر من الامور الصعبة التحقيق خلال فترة قصيرة من الزمن ، مهما تحسنت احوالهم الماشية وارتفعت دخولهم . فلقد لوحظ بطريق التجربة في كثير من الدول النامية التي ازدادت فيها دخول بعض العائلات بان ربة البيت لا تزال تشتري نفس مواد الغذاء التقليدية وتطبخها بنفس الطريقة التي تعودت عليها - تلك الطريقة التي تقضي على الكثير من عناصرها الغذائية - ولعل مما يؤدي هذه الحقيقة هي ظاهرة تزايد المطاعم الاجنبية (لاسيما الشرقية منها) في الكثير من المدن الغربية الكبرى التي بدأت تعرض لتوافد الكثير من الزوار والسياح الاجانب من انحاء العالم المختلفة ، هؤلاء الوافدين الذين تشير امكانية قيامهم بالسفر البعيد الى تحسن مستوى دخولهم وارتفاع مستوى معيشتهم ، ولكن مع ذلك يجد هؤلاء من الصعوبة عليهم تغيير ذوقهم في عملية التغذية ، كما ان الكثيرين من المهاجرين الشرقيين ، وخاصة من الهنود والشرقيين الذين خلفوا امورا كثيرة وراءهم في وطنهم الام نازحين الى اوطان جديدة لم يخلقوا في هجرتهم عاداتهم الغذائية ، فما كان من هؤلاء الا ان يأخذوا معهم ما يسمى احيانا بثقافة الرز - Rice Culture - الى حيث هجروا ، فكان ذلك سببا في دخول زراعة هذا الحاصل الى بعض مناطق العالم الجديد .

لذا فيبدو لنا واضحا ان تغيير عادات التغذية لفرض تحسينها لا بد ان يبدأ مع الاجيال الجديدة الناشئة وهنا تبدو اهمية مشاريع التغذية الجماعية ، سواء كان ذلك في المدارس او في غيرها ، في سبيل تحقيق هذا الهدف .

الخلاصة :

ان المحاولة التي قمنا بها على الصفحات القليلة الماضية لعرض مشكلة التغذية كما سيواجهها العالم في المستقبل وبيان الجوانب المرتبطة بعلاجها يمكن ان تقودنا الى استخلاص بعض النتائج من هذه المشكلة والتي نوجدها فيما يلي :-

- ١ - لا شك في ان مشكلة التغذية السائدة تنجم اساسا عن شحة المواد الغذائية المهيئة للاستهلاك ، وذلك كنتيجة لتفوق نسبة تزايد السكان على نسبة توفير هذه المواد الغذائية ، وان المستقبل سيزيد هذه المشكلة تعقيدا مادام مثل هذا التسابق بين الحالتين مستمرا بهذا الشكل .
- ٢ - ان الحديث عن هذه المشكلة ومن مستقبلها يكاد يقتصر حاليا على المناطق النامية في العالم ، والتي تنسم فيها العلاقة بين السكان والغذاء بمثل هذا الطابع السلبي ، وان كل الدلائل تشير الى ان مثل هذه العلاقة السلبية ستتفاقم كنتيجة للتفجر السكاني الذي يحدث في هذه المناطق ، مما يؤدي الى الاخلال بقيمة الترايد الذي يتحقق في انتاج المواد الغذائية فيها ، اذن فلا بد من معالجة هذا التفجر السكاني كمفتاح لحل المشكلة في المستقبل .

٣ - ان مستقبل التغذية في هذه المناطق يجب ان لا يرتبط فقط بسد حاجات السكان الغذائية اي بما يسد رمقهم وبالمستوى السائد اليوم ، بل لا بد ان يعمد الى رفع مستوى التغذية الى ادنى

الحدود الصحية المطلوبة ، بما يكفل تحقيق حياة منتجة للأفراد في وسط مجتمع منتج، لا مستهلك فقط ، فمشكلة التغذية في الواقع ليست مشكلة مجاعة أكثر من كونها مشكلة نقص أو سوء تغذية .

٤ - إذا كانت حوادث المجاعة عبارة عن حالات طارئة ومؤقتة ، فإن سوء التغذية أو نقصها أكثر ازمانا بين الشعوب النامية وإن كلاً منهما يكون عقدة في حلقة مفرغة في موضوع التنمية وزيادة الانتاجية ، فلا يمكن أن نرجو من أفراد خاري البطون أن يقدموا انتاجاً كفوًا ، كما أن الانتاج غير الكفو لا يمكن أن يسد حاجات الأفراد بالشكل المطلوب .

٥ - أن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن المناطق النامية تمتلك من القابليات والامكانيات الكامنة لزيادة انتاج المواد الغذائية ما يكفل اكفاء معظم حاجاتها منها - على الأقل للامد المنظور - وذلك لأن مواردها الحالية لم تستغل استغلالاً جيداً بسبب ضعف المنتج وضعف اساليبه القديمة والتقليدية ، كما أن تطوير هذه المصادر المحلية أو الإقليمية امر ضروري لتقليل امل الاعتماد على استيراد من الخارج - ولا سيما من دول النقص الغذائي - وذلك بسبب الصعوبات التي تنشأ عن تباين مستويات المعيشة وتكاليف الانتاج ، وبالتالي اسعار تلك المواد المستوردة والتي لا يمكن للدول النامية أن تواجهها نظراً لارتفاعها .

هذا فضلاً على أن تطوير المصادر الحالية وتنميتها يعتبر أكثر اقتصاداً ، لأنه فضلاً على كونه يعمل على رفع مستوى معيشة مجموعة كبيرة من الناس المرتبطين بوجودها فهو يتطلب عمليات احياء اراض جديدة أو فتح طرق جديدة أو تنظيم استيطان جديد .

٦ - لما كان هناك ترابط شديد بين زيادة الدخل وتحسين مستويات المعيشة ، فقد أصبح من الضروري ربط مشاريع الانماء الزراعي بمشاريع التنمية الأخرى لتحقيق التوازن بين الجوانب المختلفة للعملية ، وذلك لأن القطاعات الانتاجية المختلفة في الدولة إنما هي عناصر مترابطة في عملية واحدة تتصل بانتاجها القومي العام .

٧ - أن تباين توزيع مصادر الثروة بين المناطق المختلفة ، نتيجة لاختلاف وتباين العوامل الجغرافية ، يقضي على الدول المتجاورة ، على الأقل بان تتعاون مع بعضها البعض في عمليات التنمية لا سيما في ميدان الانتاج الزراعي، كي تستطيع أن تحصل على الفوائد الممكنة من ذلك ، وذلك لانه بسبب هذا التباين لا يمكن لاية دولة من الدول مهما كانت واسعة وغنية بمواردها أن تكفي نفسها بجميع ما تحتاجه من انتاجها المحلي .

مصادر البحث

1. F.A.O. **Third World Survey**, (Basic Study No. 11) Rome, 1963.
2. F.A.O. **Possibilities of Increasing World Food Production**, (Basic Study No. 10), Rome, 1963.
3. F.A.O. **The State of Food and Agriculture**, 1969, Rome, 1969.
4. F.A.O. **Agricultural Commodities — Projections for 1975-1985** Vol. I, II. Rome, 1967.
5. F.A.O. **Calorie Requirements**, (Nutritional Studies, No. 15) Rome, 1958.
7. F.A.O. **Food and Nutrition Procedure in Times of Disaster**, by Mascfield, (Nutritional Studies No. 21) Rome, 1967.
8. F.A.O. **Agricultural Planning Course 1965**, (Agricultural Planning Studies No. 7) Rome, 1966.
9. F.A.O. **Incentives and Disincentives for Farmers in Developing Countries**, (Agricultural Planning Studies No. 8) Rome, 1967.
10. U. S. **Department of Agriculture, Food**, (Year-Book of Agriculture, 1959) Washington, D.C.
11. Clark, Colin, **Population Growth and Land Use**. MacMillan and Co., London, 1967.

مقالات وابحاث :

1. Sukhatme, P., Basu, D., and Schulte, W., **Problem of population and Resources with special Reference to land use and Food supply.**
2. Martin, E., "Three Critical Issues in Agricultural Development," **International Development Review**, March, 1969.
3. Satin, L., **Next steps to sustain the Agricultural Revolution**, **International Development Review**, March, 1969).
4. Abercrombie, K. C., "Population Growth and Agricultural Development," **Monthly Bulletin of Agricultural Economics and Statistics** of the F.A.O. April, 1969.
5. Dovering, F., "The Share of Agriculture in a Growing Population," **Monthly Bulletin of Agricultural Economics and Statistics**, September, 1969.
6. Nixon, President R., **Population Growth : Problems and plans**-(a special message to the U.S. Congress, 1969).
7. Yarborough, Senator R., **Hunger and the Population Boom : The Dual Crisis**, Washington, D. C., 1969.
8. Fredrick, Dr. J.S., **Improving Nutrition for World's Population**. Harvard University, Boston, 1969.
9. Thompson, W., "The spral of population," **Man's Role in changing the face of the Earth—** University of Chicago Press, Chicago, 1966.

التربية في عالمنا المتغير

محمد ناصر *

تمهيد

لعله من المناسب قبل البدء في مناقشة هذا الموضوع أن نبين أننا سنحاول التأكيد على دور التربية في عالمنا المتغير ، أننا بطبيعة الحال نفترض أن عالمنا في تغير ، وإن كانت مناقشة التغير الاجتماعي خارجة عن نطاق هذا البحث من جهة ، كما أنها من اختصاص علماء الاجتماع من جهة أخرى .

وسنستعرض فيما بعد إلى بعض التفسيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية والتكنولوجية التي تلقي على التربية في العصر الحديث دورا خاصا .

كذلك من المفيد أن نذكر في بداية بحثنا هذا أن مفهوم التربية قد يختلف باختلاف الفلسفات الاجتماعية والتربوية التي يدين بها هذا المربي أو ذاك . فهناك من يعرف التربية بأنها (حياة) أو (نمو) أو (توجيه) كما يذهب الفيلسوف الأمريكي المعاصر إلى ذلك (١) . ويرى آخرون بأنها عملية تفتح (شبيهة بعملية تفتح الزهرة) أو ترويض الملكات الذهنية ، وهكذا (٢) . كذلك هناك من يؤكد على الفرد في العملية التربوية ، بينما يؤكد غيره على المجتمع ، ويؤكد ثالث على الانسجام بين الفرد والمجتمع (٣) .

وزيادة على ذلك فهناك تربية نظامية مقصودة تتم في المدارس والجامعات والمؤسسات الثقافية

* الدكتور محمد ناصر استاذ التربية بجامعة الكويت ، كان استاذاً ومعيداً في كلية التربية بجامعة بغداد ثم وزيراً للتربية ووزيراً للثقافة والإرشاد في العراق ، من أهم مؤلفاته: التربية الوطنية ، تربية المواطن العربي ، دليل الطالب للدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية .

« ١ » انظر جون دويي تعريب متى عسراوي وذكريامخائيل « الديمقراطية والتربية »

« ٢ » انظر حول ذلك ووليه اوير تعريب عبد الله عبد المالح : التربية العامة ، وجورج شلا وعبد السميع حوبلي : الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية « ٣ » انظر المصدرين السابقين

الأخرى ، وإلى جانبها تربية غير مقصودة تتم خارج هذه المؤسسات وبوسائل أخرى كالصحف والمطبوعات الأخرى والراديو والتلفزيون والسينما والمسرح الخ . .

على أننا لأغراضنا العملية سنقبل التعريف الذي يؤكد على تنمية شخصية المتعلم - طفلاً كان أو مراهقاً أو حتى راشداً في بعض الأحيان - سواعداً له ليكون عضواً نافعا في المجتمع ، ويمكن أن نقبل التعريف التالي للعربي الفرنسي « أوبر » في هذا الشأن :

« التربية جملة الأفعال والآثار التي يحدثها بإرادته كائن إنساني في كائن إنساني آخر ، وفي الغالب راشد في صغر ، والتي تتجه نحو غاية قوامها أن تكون لدى الكائن الصغير استعدادات متنوعة تقابل الغايات التي يعدلها حين يبلغ طور النضج (١) » .

التغيرات في مجتمعنا المعاصر

إن التغيرات التي حدثت في مجتمعنا المعاصر ، وخاصة منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، كثيرة . . لقد حدثت خلال هذه الفترة ثورات سياسية واجتماعية مده ، وأهم هذه الثورات من حيث مدى تأثيرها في المنطقة التي وقعت فيها وفي العالم كله ثورة الاستقلال الأمريكية (١٧٧٦ م) والثورة الفرنسية (١٧٨٩ م) والثورة البلشفية (١٩١٧ م) .

ويمكننا القول أن هذه الثورات الثلاث الكبيرة استهدفت ، كل بأسلوبها الخاص ، تحقيق مبادئ الحرية السياسية ، والمعادلة الاجتماعية ، أو الديمقراطية الاجتماعية كما يفضّل الكتاب في البلدان الاشتراكية تسميتها ، مقابل الديمقراطية السياسية التي يؤكد عليها الكتاب في البلدان الرأسمالية ، والأخوة - أخوة البشر - مهما اختلفت ألوانهم وعقائدهم وشعوبهم وأجناسهم .

إن تأثير هذه الثورات منفردة أو مشتركة امتد إلى خارج البلدان التي وقعت فيها ويمكننا أن نعوّز كثيراً من التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي حدثت في ما نسميه الآن بالعالم الغربي أو الرأسمالي والعالم الشرقي أو الاشتراكي والعالم الثالث أو غير المنحاز . . إلى هذه الثورات .

وقد تأثر بها عالمنا العربي بطبيعة الحال . وتركزت هذه الثورات وآثارها السياسية والاقتصادية والاجتماعية طابعها على نظم التربية والتعليم في مختلف أنحاء العالم ، ومنها عالمنا العربي كما سنرى فيما بعد .

وقد تقدمت العلوم ، وخاصة العلوم الطبيعية ، تقدماً كبيراً خلال القرنين الآخرين بلغ أضعاف ما حققته في تاريخ البشرية السابق بأكمله ، وبلغ تقدم العلوم ذروته في تفجير الطاقة الذرية التي أصبحت نعمة ونقمة في الوقت ذاته - نعمة إذا أحسنت البشرية استخدامها لخيرها ، ونقمة إذا استخدمتها لتدمير نفسها . وتقدمت التكنولوجيا جنباً إلى جنب مع تقدم العلوم ، وأصبح العالم الحديث لا يمكن أن يستغني عن التكنولوجيا إذ معنى ذلك عودته إلى الوراء - إلى عهود التخلف .

ورافق النهضة العلمية والتقدم التكنولوجي تطور كبير في الاقتصاد رفع من مستوى معيشة الإنسان ، وخاصة في البلدان المتقدمة الى حد كبير بما هيا له من وسائل مادية وصحية ومعيشية وثقافية وترفيهية لم يسبق أن لهيأت له في الماضي .

لكذلك تيسرت طرق المواصلات بين أجزاء العالم المختلفة وقصرت المسافات فيما بينها ، وسهلت الاتصالات بواسطة وسائل الاتصال الحديثة كالصحف والمطبوعات الأخرى والراديو والتلفزيون وتلسمينا الخ ... وهكذا لم يعد أي بلد بمعزل جغرافي أو اقتصادي أو فكري عن بقية أنحاء العالم . ووافق هذا التغير العلمي والتكنولوجي والاقتصادي تغير في الانظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية كما سبق وأشارنا الى ذلك قبل حين ، وكذلك تغير في قيم المجتمع . وقد وضعت كل هذه التغيرات اعباء كبيرة على التربية في البلدان التي حدثت فيها على نطاق واسع . وقد يكون من المفيد أن نستعرض الدور الذي قامت به التربية في بعض البلدان المتقدمة لكي نتضح لنا العلاقة بين التغيرات العلمية والتكنولوجية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تحدث في المجتمع من جهة وبين التربية من جهة أخرى . أننا سوف نستعرض الاتجاهات العامة وأن ندخل في التفاصيل التي أن يفي بها كتاب بله أن يكون بحث عام (٥) .

الدولة والمجتمع الدولي والتربية

لقد كانت التربية في كثير من بلدان العالم الى وقت قريب من الاعمال التي تقوم بها الهيئات الخيرية والدينية والثقافية وحتى التجارية وكذلك الافراد ، وبدا اهتمام الدولة بالتربية في أواخر القرن الثامن عشر على اثر نشوء الحركات الديمقراطية والقومية (٦) .

وفي أعقاب الثورة الفرنسية قام نابليون بإنشاء نظام قومي للتربية حول فيه الحكومة الفرنسية الاشراف على جميع مراحل التعليم من المدرسة الابتدائية الى الجامعة .

وقد عرف هذا النظام الفرنسي بمركزيته الشديدة . أما في انكلترا فلم تمن الحكومة قانونا لتنظيم التربية والتعليم الا في عام ١٨٧٠ م . وقدمتج هذا لقانون صلاحيات واسعة لما يصرف بالسلطات المحلية ، ولكنه لم يمنح الحكومة صلاحيات تذكر ، وعند اعلان الثورة الفرنسية (١٧٨٩ م) لم يكن هناك نظام تربوي في أي بلد أوروبي (٧) .

وأما الولايات المتحدة فقد شرعت أول قانون يمنح الحكومة الفيدرالية صلاحية القيام بدور تربوي ، وأن كان محدودا جداً ، في عام ١٨٦٢ م . وسمي بقانون مورل (Morrill Act) وهو ينص على تخصيص اراض حكومية يستفاد من دخلها في مساعدة كليات الولايات « وليس كليات

« ه » يمكن الرجوع الى كثير من الدراسات التربوية الفنية الإعلية والرسومية التي صدرت خلال الحرب العالمية الثانية وبمعدا في كل من الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا والاتحاد السوفيتي مثلاً وليس حصراً في تحديد دور التربية في كل من هذه البلدان أعجابه التفهات التي حدثت في العالم عامة وفيها خاصة .

(٦) القز : جورج شها وعبد السميع حريبي « الوحي التربوي » الفصلان ٢٤ و ٢٥

(٧) انظر : John S. Brubacher. A. History of the Problems Education pp. 64, 65.

تابعة للحكومة الفيدرالية « إذ لم تكن مثل هذه الكليات قائمة ، لكي تقوم بتدريس « فروع المعرفة ذات العلاقة بالزراعة والفنون الميكانيكية » .

ومنه يتضح أن دور الحكومات في أوروبا وأمريكا في إنشاء المدارس أو المعاهد التربوية الأخرى وتمويلها والإشراف عليها أتى متأخراً (في أواخر القرن التاسع عشر) كما أنه كان محدوداً . ولكن هذه الصورة تغيرت تدريجياً في البلدان التي ذكرناها وفي غيرها بحيث أنه لم تنته الحرب العالمية الثانية إلا وقد ازداد دور الحكومات بصورة عامة في شؤون التربية والتعليم ، وما سبب ذلك ياترى ؟

سببه أنه بالنظر للتغير السريع الذي يجرى في المجتمعات الحديثة لم يعد في وسع الحكومات أن تترك السياسة التربوية ، وشؤون التربية والتعليم الأخرى للمجهودات الفردية أو نشاط الهيئات الدينية أو الخيرية أو حتى للحكومات المحلية أو الإشراف الضعيف للحكومات المركزية أو الفيدرالية .

أن قوة الدولة الحديثة أصبحت تعتمد على استثمار طاقاتها البشرية ، وعلى التقدم العلمي والتكنولوجي والتطور الاقتصادي ، وكل هذه لا تتحقق إلا بتخطيط تربوي ضمن الخطة الاقتصادية ، تلعب الدولة فيه دوراً رئيساً ، وهكذا نجد أن اهتماماً أكثر بشؤون التربية والتعليم تمثل في عدة أعمال من أبرزها سن قانون التربية لعام ١٩٤٤ الذي أسست بموجب أول « وزارة للتربية » بعد أن كان الجهاز الذي يشرف أشرفاً ضعيفاً على شؤون التربية والتعليم قبل ذلك يسمى « مجلس التربية » وأصبحت وزارة التربية بحسب القانون الجديد « تدبر وتوجه » السلطات التربوية المحلية من أجل « تنفيذ السياسة القومية بكفاءة . » (٨) ولم تعد شؤون التعليم الجامعي في أكثر من دون سياسة ، وقد اقترحت لجنة اللورد روبنر Lord Robbins التي شكلها رئيس الوزراء عام ١٩٦١م والتي نشرت تقريرها حول « التعليم العالي » في بريطانيا عام ١٩٦٣م اهتماماً أكبر بشؤون التعليم الجامعي والعالي ، وتمويله ، وتنسيقه ، وإسهامه في خطة الدولة القومية .

وحدث نفس الاتجاه في الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد دعا كثير من الهيئات التربوية وفي مقدمتها الجمعية التربوية الوطنية (National Education Association) والمجلس الأمريكي للتربية American Council on Education إلى اهتمام وإسهام أكثر من الحكومة الفيدرالية بشؤون التربية والتعليم والعلم . ودعا جيمس كونانت James Connant رئيس جامعة هارفرد سابقاً إلى تطوير « سياسة قومية مناسبة لمواجهة التحديات للعصر الجديد والمخيف الذي نعيش فيه . » (٩) وفي الواقع تم تشريع كثير من القوانين التي زادت من إسهام الحكومة المركزية في شؤون التربية والتعليم ، أما عن طريق وزارات الصحة والتربية والشؤون الاجتماعية أو وزارات التربية في الولايات (States) أو عن طريق وزارات أخرى تعنى بالعلوم أو الأبحاث كالزراعة أو القوات المسلحة (الجيش ، والبحرية ، والطيران) أو لجنة الطاقة الذرية ، أو المؤسسة القومية للعلوم .

أما فرنسا التي يتميز نظامها التربوي بالمركزية أي بسيطرة الحكومة المركزية عليه منذ أول

تأسيسه على مهاد نابليون - فانها استفادت من طبيعة نظامها التربوي هذا في وضع خطة قومية للتربية تتلاءم حسب ما تراه والظروف التي تجتازها ، وفي الوقت الذي منحت فيه فرنسا المقاطعات صلاحيات اوسع في حقل التربية والتعليم ، الا انها - ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية - عملت في الوقت ذاته على ضمان تطوير التربية في مراحلها المختلفة وتوجيهها لخدمة الاغراض الوطنية ، وقد كانت لجنة الدراسات (Commission d'études) التي رأسها الاستاذ بول لانغفين (Paul Langevin) وعرفت باسمه فيما بعد ، وضمت عدداً من رجال الفكر والجامعات في فرنسا . . كانت هذه اللجنة سباقة الى اقتراح اصلاح جذري (١٩٤٦ م) للتربية والتعليم يتلاءم والظروف الجديدة التي جابهت فرنسا ، وتخدم اغراضها القومية . (١٠)

اما الاتحاد السوفيتي فاشرافه على شؤون التربية والتعليم كان ولا يزال ، اقوى في اي من البلدان التي ذكرناها ، فالحزب الشيوعي كان ولا يزال هو المخطط الاول للسياسة التعليمية في جمهوريات الاتحاد السوفيتي التي يبلغ عددها ست عشرة جمهورية والتي تكون الاتحاد ، ولا تخلو تقارير الحزب التي تناقش اثناء مؤتمرات الحزب من بحث لشؤون التربية والتعليم وتوجيهها لخدمة الاغراض القومية ، ولذلك فانه بالرغم من وجود وزارة تربية لكل جمهورية ، وعدم وجود وزارة اتحادية للتربية ، فان وحدة النظام والاهداف والطابع العام مضمونة من طريق الحزب الشيوعي على نطاق الاتحاد السوفيتي ، اما التعليم العالي والتعليم الثانوي الاختصاصي فله وزارة مركزية واحدة ، مركزها موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتي ، وهي مسؤولة عن شؤون التعليم الجامعي والتعليم العالي الذي يتم في المعاهد الاختصاصية العالية (Higher Institutes) والتعليق الثانوي الاختصاصي الذي يمد الفئتين كالمساعدين الطبيين والمعلمين للمدارس الابتدائية والموسيقى الخ . . وتشرف الدولة بطبيعة الحال على النشاط العلمي عن طريق اكااديمية العلوم المرتبطة بمجلس الوزراء والجهزة الاختصاصية الاخرى .

وهكذا نجد ان الدولة الحديثة أصبحت تعير التربية والتعليم اهتماما متزايداً بلغ ذروته خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها ، وسبب ذلك ان مصير الامم اصبح متوقفاً الى حد كبير على استثمار الطاقات البشرية المتوفرة لدى كل منها لضمان تقدمها وأمنها وكذلك ضمان تقدمها العلمي والتكنولوجي ، وبلغ التنافس في ذلك اشد بين ابرز دولتين في العالم وهما الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية ، وعلى سبيل المثال يمكن ان نذكر انه بمجرد اطلاق الاتحاد السوفيتي اول قمر اصطناعي في الفضاء فان القلق اصاب الولايات المتحدة الأمريكية خشية من ان يتغلب عليها الاتحاد السوفيتي في العلم عامة وفي حقل الفضاء خاصة ، وكان من نتائج القلق ان الولايات المتحدة صارت تعير دراسة نظام التربية والتعليم بصورة عامة واعداد العلماء والمهندسين بصورة خاصة في الاتحاد السوفيتي اهتماما كبيرا ادى الى القيام بكثير من الدراسات القيمة في هذا الشأن ، ولم يكن الاتحاد السوفيتي اقل اهتماما من الولايات المتحدة بدراسة نظم التربية والتعليم عامة واعداد الاختصاصيين خاصة في الولايات المتحدة . .

وفي ذات الوقت الذي اهتمت به الدول الحديثة بشؤون التربية والتعليم وتوجيهها في مسبيل خدمة الاغراض القومية ، فان المجتمع الدولي متمثلاً في هيئة الامم المتحدة وفي منظماتها الاختصاصية ، وخاصة منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) اعاترت التربية والتعليم اهتماما كبيراً لخدمة الاهداف التي انشئت هيئة الامم المتحدة من اجلها وهي

السلام واحترام حقوق الانسان الاساسية وكرامة الفرد ، ونصت ديباجة ميثاق اليونسكو على انه ما دامت الحرب تنشأ في عقول بني الانسان فعلياً انتزاعها منها وزرع السلام مكانها، وجاء في المادة السادسة والعشرين من الاعلان العالمي لحقوق الانسان مايلي :

١ - لكل شخص الحق في التعلم ، ويجب ان يكون التعليم في مراحله الاولى والاساسية على الاقل بالجان وان يكون التعليم الاولى الزامياً ، وينبغي ان يعمم التعليم الفني والمهني ، وان ييسر القبول للتعليم العالي على قدم المساواة التامة للجميع وعلى اساس الكفاءة .

٢ - يجب ان تهدف التربية الى انماء شخصية الانسان انماء كاملاً ، والى تعزيز احترام الانسان والحريات الاساسية وتنمية التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات العنصرية او الدينية ، والى زيادة مجهود الامم المتحدة لحفظ السلام .

ان هيئة الامم المتحدة واليونسكو لا يمكن ان تتدخلتا في توجيه التربية والتعليم في بلدان الدول الاعضاء فيها ولكنها ، وخاصة اليونسكو، تستطيع ان تشجع المؤتمرات والدراسات التربوية التي تخدم اهدافها في السلام والتفاهم الدولي كما تمجد هي مثل هذه المؤتمرات وتنتشر كثيراً من الدراسات التي تهدف الى غرس السلام والتسامح الخ

ولم تخل هذه الاعمال من فائدة ، ولكن العالم ، ويا للأسف الشديد ، لا يزال بعيداً عن تحقيق السلام، والعدالة واحترام كرامة الفرد ، واماننا كثير من الشواهد على ذلك ومن أبرزها ما لحق بالشعب الفلسطيني خاصة وبالأمة العربية عامة من انتهاك لحقوق الانسان على ايدي الاسرائيليين والمستعمرين .

ان تجارب العالم غربياً كان أم شرقياً في الاهتمام المتزايد بالتربية والتعليم واعتبارهما « سياسة قومية » لا يجوز تركها للهيئات الخاصة والأفراد، خاصة في هذا العصر ، بل لا بد من « توجيه » الدولة لهما - ان هذه التجارب جديرة بان تثير اهتمام الحكومات العربية وجامعة الدول العربية بشؤون التربية والتعليم ورفعها الى منزلة « السياسة القومية » للأمة العربية في شتى انظارها .

الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية والتربية

تقصد بالديمقراطية السياسية تمتع المواطنين في مجتمع ما وعلى الاخص في ظل دولة ما بحقوق متساوية من حيث حق الانتخاب « سواء اكان حقهم في انتخاب ممثلهم في البرلمان أم اية هيئة مماثلة له ، او حقهم في ان ينتخبوا هم كممثلين للشعب » . وقد كانت البشرية طويلاً في سبيل الحصول على الديمقراطية السياسية ، وجعلها شاملة للراشدين والراشيدات بغض النظر عن فقرهم او غناهم ، جهلهم او تعلمهم ، او كونهم من اية طبقة اجتماعية ، او من اية عقيدة دينية او راي سياسي الخ . . ولا تزال بالرغم من ذلك كثير من الفئات وحتى في التسعوب المتقدمة كالنرويج في الولايات الامريكية المتحدة ، والسكان الاصليين وهم الاغلبية الساحقة في جنوبي افريقيا وروديسيا وفي كثير من المستعمرات لا تتمتع بهذا الحق ، ولكن بالرغم من هذا يمكننا القول بان اقلية البلدان المتقدمة في اوروبا وامريكا وفي اجزاء اخرى من العالم قطعت شوطاً كبيراً في تحقيق قدر كبير من الديمقراطية السياسية .

فما هو دور التربية في البلدان التي تؤمن بالديمقراطية السياسية ؟ ان دورها هو ضمان نجاح النظم الديمقراطية السياسية التي تعتمد على التطور في التفسير الاجتماعي وليس على الانقلابات العسكرية او الثورات ، ويكون ذلك بنشر التربية والتعليم ورفع مستواهما واعداد القادة الذين يحتاج اليهم النظام الديمقراطي السياسي . . ومنذ ارسطو في القرن الرابع قبل الميلاد والمفكرون والسياسيون يربطون بين استقرار النظام السياسي وتطوره التدريجي من جهة وبين نشر التربية والتعليم والوعي السياسي من جهة اخرى ، وقد صاحب نشوء القوميات الاوروبية في القرن الثامن عشر الميلادي اهتمام كبير بالتربية ، ويظهر ذلك في اثار مانتزني وغيره الذي في ايطاليا و « فخته » في ألمانيا وغيرهم من زعماء الحركات القومية الاوروبية الذين راوا في نشر التربية بين شعوبهم دعماً للقومية وللنظم السياسية الديمقراطية التي بنيت عليها ، ويعزى الى احد السياسيين الانكليز قوله : « لنرب حكمانا » فاصداً بذلك ان الشعب الذي يختار حكامه ، والذي يختارهم من بينه ، ينبغي ان يتربى ويتثقف لكي يحسن اختيار الحكام ، ولكي يحكم الحكام المنتخبون بهدى من المعرفة والحكمة والعقل ، لا الجهل والعاطفة الملتعبة .

وهكذا نجد ان الدول المتقدمة بدأت بتعميم التعليم الابتدائي كحد أدنى للتربية الشعبية مستهدفة من ذلك القضاء على الأمية ، ويسرّ بتقدير ما تسمح بذلك ظروفها الاقتصادية ، التعليم الثانوي والتعليم العالي لمن يستطيع تحمل نفقاتهما والاستفادة منهما ، ويسرته على نطاق ضيق للمنفوقين من ابناء الطبقات الفقيرة ، ولم يكن التعليم الثانوي والتعليم العالي الى ما قبل الحرب العالمية الأخيرة متميزين الا لنسبة ضئيلة من الطبقات الاجتماعية الوسطى العاملة في البلدان الأوروبية المتقدمة الرئيسية كالتترا وفرنسا وألمانيا بله البلدان الأخرى (١١) .

ولا شك ان عدم تطبيق مبدأ تكافؤ الفرص في التعليم الثانوي والتعليم العالي امام جميع الشبان والنسابات في هذه البلدان حد من ممارسة الديمقراطية السياسية التي تؤمن بها هذه البلدان ، ويمكن اعتبار الولايات المتحدة البلد الغربي الوحيد الذي هيا الفرصة لاعداد كبيرة من خريجي المدارس الثانوية للالتحاق بالمدارس العالية ، ولكن بالرغم من ذلك فان اعداداً كبيرة من الاطفال والشبان الزوج لم تنهيا لهم الفرصة على قدم المساواة مع الاطفال والشبان البيض ، ونتيجة لذلك اصبح « الحكام » الذين اشار اليهم السياسي البريطاني على نوعين ، نوع ذي مستوى ثقافي عال ونوع ذي مستوى ثقافي واطي ، الاول يتكون من البيض والثاني يتكون من الزوج ، واصبح كفاح الزوج في السنوات الأخيرة في سبيل ضمان تكافؤ الفرص امام جميع الاطفال والشبان في الولايات المتحدة وفي سبيل القضاء على عزل مدارس الزوج عن مدارس البيض (School Segregation) اصبح كفاحهم شديداً دعا المحكمة العليا في الولايات المتحدة اخيراً ، وهي اعلی هيئة قضائية فيها الى اعلان عدم دستورية العزل ، ويعني هذا انه لم يعد في امكان ادارة اية مدرسة كانت خاصة بالبيض في الماضي ان تمنع الآن اي طالب زنجي من الالتحاق بها استناداً الى انه زنجي وليس ابيض . ولا شك ان هذا القرار سيساعد على ازالة الفوارق بين اطفال وشبان الشعب الواحد ومن ثم بين مواطني الشعب الواحد ، ولكن بالرغم من هذا القرار الخطير فانه لا يزال امام الولايات المتحدة شوط كبير في سبيل رفع المستوى الثقافي للمواطنين الزوج الى المستوى الذي حققه المواطنون البيض . .

واذا عدنا الى المستوى الثقافي والتربوي في بعض البلدان المتقدمة وجدنا انه ارتفع ارتفاعاً

ملحوظا في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، الأولى والثانية ، وانه استمر في الارتفاع بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد رفعت الولايات الامريكية المتحدة سن التعليم الاجبارى من عمر ١٤ الى عمر ١٨ ، ويسرته بعض الولايات فيها (كاليفورنيا مثلا) من حيث جعله مجانيا الى سن العشرين ، اما انكلترا فكانت قد قررت خلال الحرب العالمية الثانية رفع سن التعليم فيها من ١٤ الى ١٨ ، ولكنها أجلته لاسباب عملية ، وجعلته الى سن ١٦ بدلا من ذلك واما فرنسا فقد رفعتة من سن ١٤ الى سن ١٥ .

وقد رافق رفع مستوى التربية والتعليم في هذه البلدان من حيث السن اعادة النظر في تنظيم الدراسة الابتدائية والثانوية بهدف ان تكون المدرسة واحدة لابناء الشعب الواحد (école unique) كما يسميها الفرنسيون او المدرسة العامة (Common School) كما يسميها الامريكيون ، والفرض الرئيسى من ذلك ان يعمواطنو المستقبل في مدرسة واحدة توحد من نظرتهم الى الحياة والى النظم السياسية التي يعيشون فيها بقدر الامكان وتعرضهم لمناهج تربوية واحدة او متشابهة .

وتؤكد هذه المدارس على مقدار معين من دراسة اللغة القومية والتاريخ والجغرافيا والواجبات الوطنية ، اما في مرحلة الدراسة الثانوية فيؤكد المناهج على دراسة اللغة القومية والادب القومي ، والتاريخ وعلى دراسة النظام السياسي ، الى جانب الدراسات الاخرى التي تختلف بين طاب وآخر ، وزيادة على ذلك تحاول المدرسة الثانوية في كل من الولايات المتحدة وانكلترا ان تكون شاملة (Comprehensive) اى مدرسة تضم الدراسات الاكاديمية او النظرية التي تؤهل الطالب لدخول الجامعة الى جانب الدراسات المهنية (الصناعية او الزراعية او التجارية او البيتية) التي تؤهل للالتحاق بوظيفة متوسطة . وتهدف هذه المدارس الى اعداد مواطني المستقبل اعدادا واحدا من طريق التحاقهم بمدرسة ثانوية واحدة وتلقبهم الدراسات الثقافية (اللغة والادب) والسياسية او الاجتماعية جنبا الى جنب ، وفيما عدا ذلك تيسر لكل طالب اتباع المناهج الذي يلائم قابلياته ويتفق وغباله .

وان اهم انتقاد يوجه الى نظم التربية في البلدان المتقدمة والتي تدين بالديمقراطية السياسية ، ان الديمقراطية السياسية وحدها لا تهىء فرصا متكافئة امام الطلاب من مختلف الطبقات الاجتماعية للاستفادة من التربية . . وقد شعرت الدول الغربية ، وفي مقدمتها انكلترا بالعيوب التي ترافق النظام الديمقراطي السياسي الذى لا تراقفه ديمقراطية اجتماعية او اقتصادية ، والمقصود بالديمقراطية الاجتماعية والاقتصادية ان تقلل الفوارق الطبقيّة بين المجتمع من طريق توزيع عادل للثروة ، بحيث لا يعود العامل الاقتصادي مانعا امام الطالب الكفؤ في اختيار الدراسة التي تناسب قابلياته وميوله الى اعلى المستويات ، ولواخذنا انكلترا كمثال على بلاد عرفت بين العالم بقدّم ونجاح ديمقراطيتها السياسية لوجدنا انه منذ عام (١٩٠٢ م) كان التعليم الابتدائي فيها اجباريا ومجانيا من سن الخامسة الى سن الرابعة عشرة ، ولكن هذا التعليم لم يكن يؤدى الى باب مفتوح بالنسبة للتلاميذ الذين ينهون المدرسة الابتدائية ، اى انه لم يكن بوسع الانسبة ضئيلة جدا من هؤلاء التلاميذ الالتحاق بالمدرسة الثانوية التي كانت تتطلب اجورا دراسية من طلابها والتي لم يكن بوسع جميع اولياء امور التلاميذ الذين يرغبون في الالتحاق بها دفعها نظرا الى ان اقليتهم الساحقة من الطبقات العاملة او الوسطى ، اما ابناء الطبقة الغنية فكانت تلتحق بمدارس اعدادية (Preparatory Schools) او بالمدارس الخاصة (Public Schools) ومنها تذهب الى جامعتي اكسفورد وكمبرج في الغالب او الى الجامعات الاخرى ، ومعنى هذا حرمان

إنشاء الطبقة العاملة وكثير من أبناء الطبقة الوسطى من التعليم الثانوي والتعليم العالي . (١٢) وقد دعت حركة العمال في انكلترا الى اعطاء فرص متساوية لجميع التلاميذ ، ودعت الى ما سمته « دراسة ثانوية للجميع » . وقد دعا أحد التقارير التربوية المهمة التي بنى عليها اصلاح التعليم في انكلترا - تقرير سبنس (Spens Report) عام ١٩٣٨ الى اصلاح اخطاء الماضي وذلك برفع سن التعليم الاجباري الى ١٥ وسن الدوام الجزئي الى ١٨ وتنوع الدراسة الثانوية الى ثلاثة أنواع: تقليدية ، وصناعية ، وحديثة مع اعطاء هذه الأنواع نفس المكانة والامتيازات ، وكانت هذه خطوة في طريق فسخ الفرص أمام التلاميذ الذين ينهون المدرسة الابتدائية للانحاق بالمدرسة الثانوية دون صعوبات أكاديمية ، وتذليل قسم من الصعوبات المالية . وجاء قانون التربية في عام ١٩٤٤ ليحدد تنظيم التربية ويعطي وزارة التربية التي شكلت بموجبه - كما سبق أن ذكرنا ذلك - حق « إدارة وتوجيه » السلطات التربوية لغرض « تنفيذ السياسة القومية بكفاءة » وقد جاء هذا القانون خطوة تقدمية في تنظيم التربية والتعليم في انكلترا وانا ح فرصا متكافئة للأطفال والشباب في التربية والتعليم ، ومع هذا فلا يزال أمام انكلترا وقت غير قليل قبل أن تتحقق الديمقراطية الاقتصادية فيها الى جانب الديمقراطية السياسية بحيث يجد جميع الشبان امامهم فرصا متكافئة للأفادة من التربية والتعليم .

ويمكن القول أن ما يجري في الولايات الأمريكية المتحدة في حقل ديمقراطية التربية والتعليم - إذا ما استثنينا مدارس الزنوج والتربية الخاصة بالزنوج - شبيه بما يجري في انكلترا بصورة عامة، ولكن الولايات المتحدة أن تتحقق فيها ديمقراطية تربوية صحيحة مالم تتح فيها فرص متكافئة أمام جميع التلاميذ من بيض وسود ..

وسارت فرنسا بصورة عامة في سبيل إتاحة الفرصة أمام جميع التلاميذ على قدم المساواة من بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكنها لم تصل بعد الى تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص التربوية في التعليم الثانوي والعالي ، وعلى العموم يمكننا القول أن الدول الغربية التي بدأت بالديمقراطية السياسية شعرت بمرور الزمن وبالتجربة أن - الديمقراطية السياسية وحدها - لا تكفي لتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والأخوة وهي المبادئ التي دعت اليها الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية ومن قبلهما وبعدهما النظريات السياسية الإنكليزية .

أما الدول الاشتراكية فكانت ولا تزال تصر على أن الديمقراطية السياسية لا معنى لها من دون تحقيق الديمقراطية الاجتماعية أو الاقتصادية ، ولذلك فإن الاتحاد السوفيتي مثلاً حاول منذ أول استيلاء الحزب الشيوعي على السلطة في أعقاب ثورة أكتوبر ١٩١٧ أن يزيل الفوارق الاقتصادية بين المواطنين تمهيداً لتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة والأخوة بينهم .

لقد كانت روسيا قبل عام ١٩١٧ م مثل غيرها من البلدان الأوربية ، تقاسي من آثار نظام التربية فيها بالنظام الطبقي الذي كان سائداً فيها ، فكان هناك سلمان للتعليم :

التعليم الابتدائي الريفي والمدني (ومدته أربع سنوات) ويبدأ من سن ٨ وينتهي في سن ١٢ ، والتعليم الابتدائي العالي (ومدته أربع سنوات أيضاً) ويبدأ من سن ١٢ وينتهي في سن ١٦ ، وكان هذا السلم التعليمي مقصوراً على عامة الشعب ، وكان لا يؤدي الى الالتحاق بالجامعة ، بل الى دخول دور المعلمين أو المدارس الثانوية الصناعية . وأما السلم الثاني فيتكون من نوعين

من المدارس الثانوية - مدارس الجمنيزيا (Gymnasia) وهي المدارس الاديبة أو الكلاسيكية ومدة الدراسة فيها ٩ سنوات والمدارس الحديثة (Real) وهي المدارس التي تشمل الدراسات العلمية ومدة الدراسة فيها ٧ أو ٨ سنوات ، ويحق لخريجي مدارس الجمنيزيا الالتحاق بالجامعات مباشرة ، أما خريجو المدارس الحديثة فيحق لهم أما دخول المعاهد الصناعية العليا بعد اجتياز امتحان مسابقة وأما دخول الجامعات بعد أداء امتحان في اللغة اللاتينية التي لم تكن ضمن منهاج المدرسة الحديثة .

وقد تبلورت إعادة تنظيم المدارس في الاتحاد السوفيتي في ثلاثة أنواع من المدارس العامة : « ١ » مدرسة ابتدائية ذات أربعة صفوف (فصول) في الأرياف « ٢ » مدرسة ثانوية غير كاملة ذات سبعة صفوف في المدن والمناطق الصناعية وبعض الأرياف « ٣ » مدرسة ثانوية كاملة ذات عشرة صفوف في المدن الكبيرة والمراكز الصناعية الكبيرة ، وقد رفع سن التعليم الإلزامي في عام ١٩٥٨ من سن الثامنة إلى سن الثانية عشرة في الأرياف ، ومن سن الثامنة إلى سن الخامسة عشرة في المدن ، وفتحت المدارس أمام الجميع على قدم المساواة ، وبذلك سبق الاتحاد السوفيتي البلدان الغربية في تطبيق مبدأ الديمقراطية الاجتماعية أو الاقتصادية والمعادلة الاجتماعية ومبدأ تكافؤ الفرص التربوية (١٢) . وبإمكان الطالب الذي ينهى الدراسة في المدرسة الثانوية الالتحاق بالجامعة بعد اجتياز امتحان خاص في القسم أو المعهد الذي يريد الانتماء إليه ، على أنه ينبغي على الطالب السوفيتي أن يقضى عامين في الخدمة العسكرية وعامين آخرين في العمل قبل أن يحق له الالتحاق بالجامعة باستثناء طلاب العلوم وبعض فروع الهندسة الذين يحق لهم الانتماء إلى الجامعة مباشرة نظرا للحاجة الماسة إليهم .

وهكذا نجد ان الحالة الاقتصادية للطلاب وليه لا تؤثر على تربيتهم ان سلبا أو ايجابا ، اذ ان الفرصة متوفرة لكل الى اقصى حد تمكنهم قابلياتهم من الوصول اليه .

ويشمل منهج المدرسة الثانوية الى جانب التربية السياسية والعقائدية للطلاب وذلك بدراسة النظرية الماركسية ، دراسة اللغة الروسية والأدب الروسي والرياضيات خلال سني الدراسة الثانوية وهذا بطبيعة الحال بالإضافة الى الدروس الأكاديمية الأخرى والدراسات العملية التي يؤكد عليها نظام التربية السوفيتي .

والمدرسة الثانوية العامة واحدة للجميع ، وبذلك تخلص السوفيت من العيوب التي توجه الى التعليم الثانوي في البلدان الغربية والتي تلخص في أنه لا يزال طبقياً أو لم يتخلص بعد من الطبقية ، إذ توجد هناك المدارس الخاصة الى جانب المدارس الحكومية في كل من انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة .

وتوجد الى جانب المدارس الثانوية العامة : (١) المدارس المسائية التي تقدم دراسات تقنية معادلة للدراسات التي تقدمها المدارس الثانوية العامة (٢) المدارس المهنية الصناعية وهي مدارس لا تؤدي الدراسة فيها الى الالتحاق بالتعليم العالي ومدة الدراسة فيها من سنة الى ثلاث سنوات وتستهدف لتدريب التلاميذ في المدن والريف على مهارات مهنية معينة (٣) والمدارس

« (١٢) النظر : Nicholas Hans, Comparative Education pps. 310, 311

والفصل السادس عشر « النظام التربوي في الاتحاد السوفيتي » بصورة عامة .

انظر كذلك : Lord Rbbins (Higher Education) Appendix Five Section XI.

الثانوية الاختصاصية وهى مدارس تقع بين الدراسة الثانوية والدراسة العالية وتدريب الفنيين على أعمال اختصاصية كمساعدى الأطباء والممرضات أو فنى الإشعاع أو معلمى المدارس الابتدائية .

وجميع أنواع المدارس الثانوية المذكورة باستثناء المدارس الثانوية الصناعية (التى تتراوح مدة الدراسة فيها بين سنة وثلاث سنوات) تؤدى الى التعليم العالى .

ويدخل الطالب الثانوى المؤهل اما الى الجامعة او الى المعاهد العليا التى تناسب اختصاصه فى مرحلة الدراسة الثانوية ، وبذلك يكون الطريق امامه مفتوحا للتقدم دون ان يعوقه المالم كما هو الامر فى البلدان الغربية .

والخلاصة اننا لاحظنا من دراستنا لتطور التربية فى بعض البلدان الغربية (اكثرها وفرنسا والولايات المتحدة) انها بدأت بالديمقراطية السياسية ، ولكن ظهر لها بالتطبيق وبالتجربة ان الديمقراطية السياسية وحدها لا تيسر للتلاميذ الذين سيكونون مواطنى المستقبل فرصا تربوية متساوية ، وبذلك لا تحقق العدالة الاجتماعية والمساواة والاخوة - وهى المبادئ التى ما فتئت هذه البلدان الغربية تدعى انها حريصة على السير بها - ومنذ الحرب العالمية الاولى ، ومن بعد ذلك منذ الحرب العالمية الثانية وهذه الدول الغربية تسير نحو ملافاة الاخطاء التى وقعت فيها وتقرب شيئا فشيئا من الديمقراطية الاقتصادية .

كما لاحظنا ان الدول الاشتراكية التى لا تعطى اية قيمة للديمقراطية السياسية ما لم تكن قبلها ديمقراطية اقتصادية ، تعمل على تطبيق مبدأ تكافؤ الفرص التربوية بصورة احسن مما تطبقه الدول الغربية وترتفع بالمستوى الثقافى لمواطنيها تدريجيا الى الحد الذى تصبح فيه الديمقراطية الاقتصادية ناقصة اذا لم ترافقها الديمقراطية السياسية ، وهكذا تقترب الدول الغربية والدول الاشتراكية من بعضها البعض على الرغم من الفوارق التى تفصل بينها . .

ويقول هانز مؤلف كتاب « التربية المقارنة » بهذا الصدد ما يلى : « ان هذه البلدان الأربع كانت فى الماضى كما هى الآن قائدة للبشرية فى بناء مجتمع ديمقراطى جديد كما انها امدتها بالانكار التى اصبحت فيما بعد ملكا لجميع الشعوب والجناس ، لقد كان لاكتنار ثورتها قبل الاخرى ترواجلت باسم « الحرية » توازنا بين التقاليد والتغير ، وكان لأمريكا وفرنسا ثورتاهما فى القرن التالى باسم « المساواة » وقوضتا الى الابد بقايا الامتيازات الاقطاعية ، وبعد قرن آخر افتتحت روسيا اثرهم باسم « الاخوة » فى ثورة عارمة ، وان آثار هذا الزلزال الروحى يحس بها الناس فى جميع انحاء العالم ، وان بقظة الشعوب الملونة هى النتيجة المباشرة له . » (١٤) .

وهكذا تكون التربية قد لعبت دورا مزدوجا وان لم يصل الى غاياته النهائية بعد - فى محاولة لتحقيق الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية او الاقتصادية فى ذات الوقت فى عالمنا المتغير - ومن أهم النتائج التى جناها العالم المتقدم من ذلك انه رفع من المستوى الثقافى والسياسى للمواطنين فيه بصفة عامة بحيث اصبحت هذه المستوى الجديد احد الضمانات لاستقرار النظام الاجتماعى وتطوره ، كما انه فى الوقت نفسه هيا فرصا متكافئة امام جميع المواطنين للافادة من

التربية والتعليم وذلك بمحاولته تحقيق مبدأ الديمقراطية الاقتصادية اما بشكل تدريجي وبطيء وناقص كما تفعل الدول الغربية واما بشكل جذري كما فعلت الدول الاشتراكية .. وتزدنا تجارب العالم الغربى والعالم الاشتراكى يعبر ينبغي علينا فى وطننا العربى الكبير ان نستفيد منها ..

العلم والتكنولوجيا والتربية

اصبح العلم والتكنولوجيا من الامور التى ترتبط بالتربية ارتباطا وثيقا ، كما انها حازا على اهتمام الحكومات .

ان حياة الامم المتقدمة اصبحت تعتمد الى حد كبير على تقدمها العلمى والتكنولوجى الى جانب منانة نظامها السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، وزاد من اهتمام الحكومات بالعلم والتكنولوجيا التقدم الهائل فى الابحاث اللرية والاقمار الصناعية والصواريخ الموجهة التى اصبحت تفوق دولة واحدة فيها على دولة اخرى او دول اخرى يثير الخوف فى نفس الدولة او الدول المتخلفة ، واننا نعيش الآن فى عصر تحاول فيه اقوى دولتين فى العالم - الاتحاد السوفيتى والولايات الامريكىة المتحدة - ان لا تتخلف احدهما عن الاخرى فى حقل العلم والتكنولوجيا وخاصة فى حقل اللرة والصواريخ .

ان للعلم تاريخا يعود الى العصور القديمة ، ولكن التقدم العظيم الذى حققه العلم الحديث يعود الى العصور المتأخرة حيث قام فرنسس بيكون وغاليليو وديكارت وغيرهم ، بتطوير الطريقة العلمية ، وقد ادى ذلك الى كثير من الاكتشافات والاختراعات العلمية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وكانت هذه الاكتشافات والاختراعات تتم خارج المعاهد العلمية العالية ، وخاصة الجامعات ، وفى داخلها ، كما كانت تتم فى الغالب نتيجة للتشبيث الفردى الذى يقوم به العالم نفسه او بالتعاون مع زملائه او مساعديه او بتشجيع من بعض الشركات الكبرى التى بدأت تهتم بالبحث العلمى الذى له علاقة بمجال نشاطها .

ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلا فقد بدأت الدول تشعر بان التطور العلمى ينبغى ان لا يترك الى الرغبة الفردية للعالم او الى المصادفات او الى سياسة « دمه وشانه » (Laissez Faire) بل لا بد من تدخلها فى الامر .

وكانت الحروب او الاستعداد للحروب من جملة العوامل التى زادت من اهتمام الدول بالعناية بالعلوم والتكنولوجيا ، وهكذا نجد ان الدول الغربية مثل انكلترا والولايات المتحدة وفرنسا بدأت ببذل مساعداات مالية وغيرها لتشجيع البحوث العلمية ، ولعل الولايات المتحدة كانت من أبرز الدول الغربية التى سنت القوانين لتشجيع البحوث من جهة ولاعداد العلماء والباحثين من جهة اخرى ، وهكذا نجد ان مؤسسة الدفاع فى هذه البلاد او بعض الوزارات او المؤسسات الاخرى تقوم بابرام عقود مع الجامعات والشركات الكبرى لكي تقوم لها ببعض البحوث ، كما خصصت مساعداات مالية كبيرة لاعداد العلماء والباحثين ، وعلى سبيل المثال فان الاموال التى خصصتها الحكومة الفيدرالية لمساعدة البحوث والتربية (اعداد العلماء والباحثين) ارتفعت من ٩٥٣ مليون دولار فى عام ١٩٤٨ الى ٥٣٤٤ مليون دولار فى عام ١٩٥٨ ، وقامت كل من وزارة

الدفاع ، والمؤسسة القومية للصحة ، والمؤسسة القومية للعلوم بتوزيع هذه المبالغ . وقد أصاب الجامعات حوالي ٦٦.٥٪ منها (١٥) .

وفي سبيل تنسيق البحوث العلمية وتشجيعها والتأكد من أن الولايات المتحدة ستبقى في المقدمة فقد تم إنشاء المؤسسة القومية للعلوم منذ عام ١٩٥١ ، ويعتبر انشائها حدثا كبيرا في تاريخ العلم .

وظهر اهتمام الولايات المتحدة بالعلم والبحث العلمي في اللجان القومية المتعددة التي عينها رئيس الولايات المتحدة لدراسة قضايا معينة تتصل بالعلم والتعليم الجامعي ، ومن أشهر هذه الدراسات « التعليم العالي للديمقراطية » (Higher Education for Democracy) التي نشرت في عام ١٩٤٧ م والتي أثارت اهتماما كبيرا في الولايات المتحدة وفي خارجها ، ويشير هذا التقرير بصراحة إلى أن « مستقبل حضارتنا يعتمد على الاتجاه الذي ستخذه التربية ليس فقط في المستقبل البعيد ، وإنما في الأيام القادمة » وشكل الرئيس لجنة أخرى عام ١٩٥٧ عاجلة قضايا التعليم العالي (١٦) .

والى جانب الاهتمام بالعلماء والباحثين فإن الولايات المتحدة أبدت اهتمامها أيضا بالأشخاص التكنولوجيين . إذ أنه يتوقف على هؤلاء التكنولوجيين تقدم الصناعة والزراعة والهندسة والتجارة الخ . ويمكننا القول بأن اهتمام الحكومة الأمريكية الفيدرالية بالكليات الزراعية والتكنولوجية منذ أواخر القرن التاسع يمكن هذا الاهتمام الذي ازداد بمرور الأيام ، ويمكن اعتبار قانون مورل (١٨٦٢) أول خطوة حكومية في سبيل الاهتمام بالتربية التكنولوجية وقصد إلى ذلك تشريع آخر في عام ١٩١٧ ، أنشئت بموجبها كليات الزراعة والميكانيك والتي تطورت بعضها إلى ما يشبه الجامعات التكنولوجية في ألمانيا ، وقد قدمت هذه الكليات والمعاهد الحكومية منها والأهلية (ومن أشهر المعاهد الأهلية معهد ماساچوستس للتكنولوجيا المعروف بـ (M.I.T.) خدمات جلى لتقدم الصناعة في الولايات الأمريكية المتحدة .

وبالرغم من الجهود الكبيرة التي بذلت لتنسيق الجهود العلمية والتكنولوجية ، وخاصة بعد إنشاء المؤسسة القومية للبحوث في عام ١٩٥١ ، فإن هناك من يعتقد بأنه ينبغي بذل جهود أخرى لزيادة التنسيق على مستوى الولايات وعلى المستوى الفيدرالى ، ويعتبر جيمس كوانت رئيس جامعة هارفرد السابق في مقدمة الداعمين إلى ذلك .

ولعل من المفيد أن ننهي ملاحظتنا حول الولايات المتحدة بالمباراة التالية وهي مقتبسة من قانون التربية للدفاع الوطنى لعام ١٩٥٨ كما عدل في عام ١٩٦٣ :

« يرى الكونغرس ويصرح بأن سلامة الأمة تتطلب التطوير الكامل للمصادر الفكرية والمهارات الفنية لشبابها وشاباتها ، وتتطلب الظروف الطارئة الحاضرة أن تهيأ فرص تربية إضافية وبصورة كافية « للطلاب » . أن الدفاع من الأمة يعتمد على اتقان الأساليب الحديثة المتطورة من

(١٥) القرو : James Bryant Connant, Shaping Educational Policy p. 11.

(١٦) Presidents Commission: Education Beyond the High School.

وفي هذا التقرير تقترح اللجنة أن يستفيد من فرص التطعيم العالي ما لا يقل عن ٥٠٪ من خريجي المدارس الثانوية .

المبادئ العلمية المتقدمة ، كما يعتمد أيضا على اكتشاف وتطوير مبادئ جديدة ، واساليب جديدة ، ومعرفة جديدة » .

« ويجب أن نزيد من جهودنا لتشخيص اعداد اكثر من قابليات الامة وتربيتها ، ويتطلب هذا المجهود برامج تضمن ان لا يحرم طالب ذوقبالية من فرصة التعليم العالي بسبب العوز المالي ، وان نصلح بأسرع وقت ممكن عدم التوازن الموجود حاليا والذي ادى الى أن نسبة فيسر كافية من نفوسنا حصلت على تربية في العلوم والرياضيات واللغات الأجنبية ، وان نتدرب في الحقول التكنولوجية » .

ان هذه العبارة تبين بوضوح الاهمية التي تعلقها دولة كبرى على التربية العلمية والتكنولوجية بحيث أنها وضعتها بمنزلة الدفاع عن الامة .

ويمكن القول ان تطورا مماثلا ، وان كان يختلف في تفاصيله ، حدث في البلدان الغربية وخاصة انكلترا وفرنسا والمانيا ، وقد وصل الاهتمام في انكلترا بالعلم والتكنولوجيا الى درجة انشاء وزارة للعلم فيها ، الى جانب وزارة التربية التي تهتم بشؤون التربية والتعليم .

وقد نشطت الدول الاعضاء في منظمة التعاون والتطور الاقتصادي (OECD) لتطوير التربية العلمية والتكنولوجية في كل منها ، كما أنها تتعاون فيما بينها بالقيام بدراسات اقليمية للتوصل الى خير السبل في ذلك (١٧) .

وأما الاتحاد السوفيتي فيزودنا بأسلوب آخر في التربية العلمية والتكنولوجية .. انه بالرغم من أن لروسيا القيصرية خبرة غير قليلة في الحياة العلمية والتكنولوجية المتمثلة في جامعاتها القديمة ومعاهدها التكنولوجية ، وبالرغم من أن القيصر بطرس الأكبر كان قد خطط لتصنيع روسيا وتقديمها ، إلا أن تلك المشاريع توقفت بسبب الحروب ولم يكتب لها ان تتطور بالشكل الذي تطورت به الجامعات ومعاهد التكنولوجيا الغربية .. فانه باستيلاء الشيوعيين على الحكم في روسيا في اعقاب ثورة اكتوبر ١٩١٧ حاولت الحكومة السوفيتية ان تخطط للتطور الاقتصادي ومن ضمنه التطور العلمي والتكنولوجي ، مستفيدة مما كان لها من خبرة في الحقلي ، وقد وضع الاتحاد السوفيتي اول خطة خمسية (لمدة خمس سنوات) في عام ١٩٢٨ ، واستهدفت هذه الخطة الاسراع في تصنيع الاتحاد السوفيتي وتجهيزه بالعلماء والباحثين والخبراء والتكنولوجيين ، وقد شملت الخطة اصلاحا جوهريا لنظام التربية والتعليم بكامله ، واعطت أهمية كبيرة في ذلك للتربية التكنولوجية والمهنية للأيدى أو الكوادر التي سيوكل اليها تنفيذ عملية التصنيع .

وقد تمكن الاتحاد السوفيتي لذلك في خلال عشرين عاما عند البدء بتطبيق الخطة الخمسية - من تحويل روسيا من بلد زراعي يضم ريفها حوالي ٨٠٪ من سكانها الى دولة صناعية عظيمة (١٨) وبالنظر للحاجة الماسة الى العلماء والتكنولوجيين لتطوير الاقتصاد في اجزاء الاتحاد السوفيتي

(١٧) تضم دول منظمة التعاون والتطور الاقتصادي الدول التالية : النمسا ، بلجيكا ، كندا ، الدانمارك ، فرنسا ، جمهورية النمسا الغربية ، اليونان ، ايسلندا ، ايرلندا ، ايطاليا ، لكسمبرج ، هولندا ، النرويج ، البرتغال ، اسبانيا ، السويد ، سويسرا ، تركيا ، المملكة المتحدة ، الولايات المتحدة ، يوغوسلافيا .

الأخرى ، فإن الحكومة عملت على مضاعفة المدارس الصناعية ، وعلى توزيعها بشكل منسجم في أنحاء البلاد ، وعلى فتح مدارس جديدة بطرق جديدة ، ومناهج جديدة لسد الحاجة إلى الفروع التي لم تكن موجودة في المدارس السابقة (١٩) .

وقد جند الاتحاد السوفيتي العديد من الطلاب للاتحاق بالمدارس والمعاهد المهنية والتكنولوجية ، وكمثل على التطور الذي حصل فإن نسبة الطلاب الذين كانوا يدرسون التكنولوجيا في عام ١٩١٥ (قبل الثورة) كانت ١٩٪ بينما ارتفعت هذه النسبة في عام ١٩٣٣ إلى ٤٩٪ وكانت نسبة طلاب الزراعة في عام ١٩١٥ حوالي ١٩٪ بينما زادت في عام ١٩٣٣ إلى ١٣٪ (٢٠) ولقد كان هذا على حساب الدراسة الثانوية العامة ، ولكن الأمور بدأت تكون أكثر موازنة بعد أن سدت الدولة حاجتها إلى الأيدي الفنية .

وإذا ما أردنا أن نقارن بين الأسلوب الذي اتبعه الاتحاد السوفيتي في التصنيع وفي إعداد العلماء والتكنولوجيين ، بالأسلوب الذي اتبعته الدول الغربية فلا نجد عبارة توضح ذلك خير؟ من العبارة التالية للأستاذ هانز :

« بينما لا يكاد أن يسمى التغير الاقتصادي الذي حدث في انكلترا بثورة بل الأولى أن يسمى « تطوراً صناعياً » استغرق ١٥٠ عاماً لتحقيقه ولتكيف النظام التربوي للبناء الاقتصادي ، فإن التغير في روسيا هو في الواقع « ثورة صناعية جذرية على خير ما تكون الثورة » فلقد اختزل ١٥٠ عاماً من التاريخ الاقتصادي والتربوي الانكليزي في فترة لا تتجاوز عشرين عاماً ، نتج خلالها تغير على أعلى مستوى من الجذرية والسرعة عرفه التاريخ، وحتى التحول السريع الذي حققته اليابان والذي أثار خيال العالم الغربي لا يقارن بتحول الاتحاد السوفيتي(٢١)

وهكذا نرى مجدداً أن العلم والتكنولوجيا يعتمدان اعتماداً كبيراً على التربية وأنه لكي نحقق التطور الاقتصادي أو الصناعي الذي نهدف إليه فلا بد من أن نخطط لذلك تخطيطاً علمياً . . إن الدول الغربية بدأت في إعداد العلماء والتكنولوجيين من دون خطة ، ولكنها وجدت نفسها ، وخاصة خلال الأزمات كالحروب ، وفي الوقت الحاضر ، مضطرة لأن تعتمد على خطة قومية تشرف عليها الدولة ، وقد رأينا كيف أن هذا قد تم في انكلترا عن طريق وزارة العلم والتكنولوجيا إلى جانب وزارة التربية، كما أنه قد تم في الولايات المتحدة عن طريق المؤسسات الحكومية كالمؤسسة القومية للبحوث ووزارة الدفاع .

أما في الاتحاد السوفيتي فقد كان التخطيط بداية العمل ، ولكل بلد ظروفه التي تملئ عليه اتباع الطريق التي تناسبه ، فما هي الطريق التي تناسبنا في البلاد العربية ؟

★ ★ ★

(١٩) انظر المصدر السابق ص : ٧٧

(٢٠) انظر المصدر السابق ص : ٧٧

(٢١) المصدر السابق ص : ٧٩

التنمية الاقتصادية والتربية

بالرغم من أن كلا من المواضيع الرئيسية التي أتناها (الدولة والمجتمع الدولي والتربية ، والديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية والتربية ، والعلم والتكنولوجيا والتربية) والموضوع الحالي (التنمية الاقتصادية والتربية) متداخلة مع بعضها، وخاصة الموضوعين الآخرين، إلا أن كلا منها يؤكد على ناحية واحدة دون أخرى .. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن هذه النواحي لا تشمل جميع النواحي التي لها علاقة بموضوعنا الرئيسي وهو « التربية في مجتمعاتنا المتغير » ، إذ أن هناك نواحي أخرى كالتربية الدينية والخلفية والتربية لم تتعرض لها في هذا البحث نظراً لأنها تتطلب سبحانه معاملة خاصة بها - ولذا فسوف نكتفى بمعالجة التنمية الاقتصادية والتربية ، ثم ننتقل من بعد ذلك إلى دراسة التربية والتغير الاجتماعي ، ثم نهي بحثنا ببعض النتائج والاقتراحات الخاصة بعالمنا العربي .

لقد شاهدت السنوات الأخيرة اهتماماً متزايداً بالتخطيط التربوي نظراً لعلاقته الوثيقة بمشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وليس الاهتمام بهذا الامر مقصوراً على الدول المتخلفة فحسب بل إنه يشمل الدول المتقدمة أيضاً ، أما بالنسبة للدول المتخلفة فالامر ملح جداً نظراً إلى أنه لم يعد في الامكان ترك التنمية إلى سياسة « دمه وشانه » (Laissez Faire) إذ أن هذه السياسة لا تستطيع مجابهة المشاكل الملحة التي تتطلب حلولاً سريعة في ضوء العلم والتخطيط، ولم يكن حظ الدول العربية أو دول منطقة الشرق الأوسط قليلاً من حيث التخطيط للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ولكن ما قامت به لا يزال في البداية ، فإن البنك الدولي للإنشاء والتعمير (J.B.R.D.) بناء على طلب بعض الحكومات العربية ، قام بدراسات حول التنمية الاقتصادية لعدد من الدول العربية كالعراق وسوريا والعراق ، ووضعت بعض الدول العربية لنفسها مستعينة ببعض الخبراء مشاريع سنوات (خمسية أو عشرة) لكي تنمي مواردها الطبيعية والبشرية وتستثمرها لصالحها .

ولم يكن اهتمام الدول الغربية أو الاشتراكية بالتخطيط لأغراض التنمية الاقتصادية والاجتماعية باقل من اهتمام الدول المتخلفة . وقد سبق أن ذكرنا « منظمة التعاون والتطور الاقتصادي » (OECD) التي تضم عدداً غير قليل من الدول الغربية المتقدمة كالولايات المتحدة وكنكندا وألمانيا وفرنسا وغيرها ، سبق أن ذكرناها كأحدى المنظمات الغربية التي اهتمت بالتخطيط التربوي العلمي كجزء من التخطيط الاقتصادي العام ، وبالإضافة لهذه المنظمة المهمة توجد هيئات في كل بلد غربي تهتم بالتخطيط الاقتصادي والاجتماعي فيه ..

أما الدول الاشتراكية ، فقد اعتمدت منذ أول تشكيلها على التخطيط الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، وقد سبق أن ذكرنا أن الاتحاد السوفيتي وضع أول خطة خمسية له في عام ١٩٢٨ ، ومنذ ذلك الوقت والاتحاد السوفيتي يضع الخطة الاقتصادية تلو الأخرى ، وقد اقتفت الدول الاشتراكية الأخرى أثر الاتحاد السوفيتي في هذا الشأن .

فأين تكمن العلاقة بين التربية والتنمية الاقتصادية ؟

هناك أولاً عدد من الاقتصاديين والسياسيين الذين يعتقدون بأن استثمار الطاقات الانسانية الكامنة في الأفراد الذين يكونون الشعوب أو الدول هو شبيه باستثمار المواد الخام ، ولذا فإن البشر يكونون « رأسمال بشري » ، وأن استثمار هذا الرأسمال هو « استثمار للانسان » . وبدل

هؤلاء الاقتصاديون على ان التربية والتدريب عامل مهم في عملية الانتاج الى جانب العوامل الأخرى (٢٢) وهناك ثانيا اعتقاد بان الصرف على التربية يجب ان يبنى على نفس الأسس التي يبنى عليها الصرف على أى مشروع اقتصادى آخر ، ومعنى هذا أنه ينبغي علينا أن ننظر الى التربية كمعملية استثمارية وليس كمعملية استهلاكية ، فنحدد استنادا الى ذلك ما نصرفه على كل مستوى تربوي على أساس الأهداف الاقتصادية والاجتماعية التي يحققها . (٢٣)

وهناك ثالثا شعور بان علينا لكي نضمن نجاح الخطة الاقتصادية والاجتماعية التي نضعها - ان نعد الأبدى العاملة الفنية والماهرة والكوادر الادارية والمثرفة والمنفذة والمخططة والعلمية والتكنولوجية التي تحتاج اليها الخطة العامة - من الضروري لكي يتحقق ذلك ان نضمن التنسيق بين التربية والتخطيط ، وهناك أخيرا - وليس آخر - شعور بان الخطة الاقتصادية والاجتماعية يجب ان تكون بعيدة المدى ، وان ذلك يتطلب ان تكون للتربية هي الاخرى خطة بعيدة المدى منسجمة مع الخطة الاقتصادية . (٢٤)

وهكذا برز دور التربية في عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية ولكن تغير الظروف الاقتصادية والتكنولوجية يزيد من مهمات التربية « أنها تفرض على التربية ان تربط نظمها وطرقاتها ومناهجها باغراض التنمية ، أنها تولى عليها مهمات جديدة من مثل العناية بالتكوين المهني ، ونشر التقدم العلمي والتكنولوجي ، والاعداد للبحوث العلمية الاساسية والتطبيقية ، وخلق روح الابتكار والتجديد في عصر يقوم فيه الانتاج على هذا الابتكار والتجديد المستمر » (٢٥)

التربية والتغير الاجتماعي

لعل هذا الموضوع يثير كثيرا من الاسئلة ، فهل التربية هي التي تقود المجتمع الى التغير الاجتماعي ؟ أم هل تتبع المجتمع فتتغير تبعاله ؟ أم هل هي عامل استقرار وثبات في المجتمع ؟

يختلف المربون في الإجابة على هذه الاسئلة وامثالها ، ولكن لو تتبعنا تاريخ التربية من جهة والدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية من جهة أخرى لرأينا ان المجتمع في الغالب اوجد النظام التربوي والمدرسة النظامية لكي ينقل الى الاجيال الجديدة اساليب عيشه ومهاراته وخبراته وتراثه وقيمة بحيث يجعلها - أى الاجيال - كفؤة للقيام بدورها عند النضج ، ولقد سبق ان قلنا تعريفا للتربية للمربي الفرنسي أوبير يتضمن هذه المعاني ، وقد يرى البعض في قبول هذا المفهوم للتربية تأكيداً على الدور المحافظ للمدرسة وقد يصعب الدور المحافظ أحيانا دورا رجعياً .. ان لهذا الخوف ما يبرره في المجتمعات المفلقة على نفسها من الداخل أو الخارج ، فالمجتمع من هذا النوع لن يسمح لاحدى مؤسساته الاجتماعية - التي هي من صنعه - ان تعمل على تغييره ، وقد

(٢٢) انظر : OECD Forecasting Educational Needs for Economic and Social Development, p. 7.

(٢٣) انظر المصدر السابق « ص ٨ »

(٢٤) انظر المصدر السابق . كذلك انظر عبد الله عبد السلام « التخطيط التربوي »

(٢٥) عبد الله عبد السلام من معاصرة مطبوعة له

حدث هذا في المجتمعات القديمة بصورة عامة كما حدث في العصور الوسطى ، وخاصة في أوروبا حيث لم يكن في وسع المدارس الكاثوليكية ان تتخذ لنفسها منهجا أو أسلوبا غير المنهج أو الأسلوب الذي ترسمه الكنيسة الكاثوليكية لها ، وقد حدث مثل هذا في عصور التأخر التي مرت على الشعوب العربية والإسلامية ، إذ اصطبغت المدارس الدينية بالصبغة المحافظة ان لم تكن الرجعية ، ولكن المجتمع اذا كان منفتحاً على نفسه من الداخل أو الخارج فان المدرسة فيه تتسم بالمحافظة المرونة التي تقبل التغير التدريجي البطيء الذي سبق وقبلة المجتمع ذاته ، ويمكن ان نورد امثلة عدة على هذا النوع من التطور التربوي . .

فقد تطورت المدارس الانكليزية منذ أول تأسيسها الى الوقت الحاضر تطوراً كبيراً ، بحيث ان المرحلة التي وصلت اليها الآن يمكن ان تعتبر ثورة تربوية اذا ماهي قورنت بما كانت عليه المدارس الانكليزية في الماضي - منذ مائتين أو ثلاثمائة سنة مثلاً - . ولكن هذا التطور التدريجي للتربية الانكليزية انعكاس للتطور التدريجي للمجتمع البريطاني .

ولو رجعنا الى الثورات التي سبق وذكرناها في أول هذا البحث كالثورة الأمريكية والثورة الفرنسية والثورة الشيوعية وحاولنا ان نعرف تأثير التربية والمدارس في وقوعها لرأينا ان هذا التأثير كان هائلا ، ولو أخذنا فرنسا بالذات قبل الثورة الفرنسية (١٧٨٩) كمثال لوجدنا ان المدارس الفرنسية فيها كانت تعاطف مع الاشراف ورجال الدين (٢٦) نعم لقد حاول بعض الكتاب الثوريين التأثير على الطلاب ، ولكنهم لم يتمكنوا من التأثير فيهم عمليا . ولم يتيسر لهؤلاء الكتاب التأثير في الناشئة الا بعد نجاح الثورة الفرنسية وتبني الدولة للأفكار الجديدة (٢٧)

وتبين لنا هذه الامثلة ان المدرسة هي من صنع المجتمع ، وانها لا يمكن ان تقوده الى التغير ، وانما هو الذي يقودها ، وقد أصبحت المجتمعات المتقدمة تدرك النتائج الخطيرة التي تنجم من نظام تربوي لا يتمتع بقدر معقول من الحرية الأكاديمية، وحرية الاختلاف في الرأي وحرية البحث وحرية النقد ، اذ ان الحرمان من هذه الأمور يشل العملية التربوية ويؤدي الى الجمود الفكري بدلا من الابداع ، ولذا فاننا نجد ان المجتمعات المتقدمة صارت تحصر على ضمان هذه الحريات للمعاهد التربوية ، وخاصة المعاهد العليا والجامعات ، ونجد ان هذه الحريات الأكاديمية تتمثل على خير شكل عملي - ولا نقول مثاليا - في انكلترا وفرنسا والبلدان السكندنافية ، اما الولايات الأمريكية المتحدة ، فيالرغم من انها تنتمي الى التراث والتقليد الأوروبيين ، فان الحريات الأكاديمية فيها لا تتوفر بالشكل الذي تتوفر فيه في البلدان التي سبق ذكرها . .

وبصورة عامة يمكننا القول ان المجتمعات الجمعية (Pluralistic Societies) أي المجتمعات التي تضم فئات مختلفة ذات مصالح مختلفة كما هو الحال في البلدان الغربية أكثر تسامحا في الاختلاف بالرأي وأكثر مراعاة للحريات الأكاديمية ضمن المفهوم الغربي لها - من المجتمعات الكلية (Totalitarian) كما كان الحال في ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية ، ومن المجتمعات الاشتراكية - التي لها هي الاخرى مفهومها الخاص بها للاختلاف في الرأي والحريات الأكاديمية - فحيث توجد فئات مختلفة لها مصالح مختلفة ولها فلسفات اجتماعية وسياسية مختلفة وإحزاب سياسية مختلفة وديانات وطوائف دينية مختلفة كما هو الحال في الدول الغربية ، فان الاختلاف

الذى يتمثل في المجتمع في بعض نواحي الحياة ينتقل الى المدارس التي تسيطر عليها بعض الفئات ، كالمدارس الدينية او المدارس الخاصة في اكلترا مثلاً ، فلكل من الكنيسة الانكليكانية والكنيسة الكاثوليكية مدارسها الخاصة التي تكون تابعة لتوجيه الكنيسة التي تنتمي اليها ، وليس الى الدولة ، والتي تتبع مناهج خاصة غير مناهج الدولة .

كما ان نقابات العمال في اكلترا نظاماً تربوياً واسعاً اتربية الراشدين بين الطبقة العاملة ، ولا تخضع هذه المدارس لاشراف الدولة ، وبالنظر الى ان حزب العمال يدين بالاشتراكية فمن المتوقع انه يبشر للاشتراكية بين العمال في هذه المدارس حتى في ظل حكومة محافظة (اعني حكومة بتولاها حزب المحافظين) لا تؤمن بالاشتراكية .

ويعتبر هذا الوضع في اكلترا من المشاكل التربوية المهمة التي تتطلب حلاً عملياً تقبله الاكثرية ولا تعارضه الاقلية او الاقلية معارضة مبنية على العقيدة الدينية ، او الضمير ، او الرأي بحيث تحقق للشعب البريطاني الوحدة ضمن التنوع او كما يقولون في الانكليزية (Unity Within Diversity) وقد قطعت اكلترا شوطاً لا بأس به في هذا المجال ، وخاصة فيما يتعلق بالاشراف على التعليم الخاص ، ولكن لا تزال امامها بعض المشاكل التي لم تحل .

ولكن ، لنتساءل الآن - ألا يكون للتربية او للمدرسة - دور في تغيير المجتمع ، ومتى يبرز مثل هذا الدور ؟ يكون للتربية او للمدرسة دور في تغيير المجتمع حين يهدف اليها المجتمع بذلك ، فان الثورات التي سبق ذكرها (الامريكية ، الفرنسية ، الروسية) عادت الى التربية بالدور الجديد الذي يتطلبه المجتمع الجديد منها ، ويمكن ان تكون الثورة الروسية خير مثل على ذلك ، فانه بمجرد استيلاء الحزب الشيوعي على السلطة في روسيا سيطر على النظام التربوي وحوله من جهاز يؤيد الحكم القيصري الى جهاز يعاديه ويؤيد حكماً جديداً مناقضاً تماماً لذلك الحكم .

ومنذ ذلك الوقت والتربية في الاتحاد السوفيتي تخدم النظام الجديد ، واصبح مثله في هذا بعد ان استقر النظام الشيوعي مثل المدارس في ظل النظام الديمقراطي الغربي بصورة عامة ، وحدث الشيء ذاته حين استولى الحزب النازي على الحكم في ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية ، فان التربية اصبحت وسيلة من وسائل الدولة لتأييد النظام ، وكذلك حدث الشيء ذاته في ظل الحزب الفاشستي في إيطاليا .

ويوجد هناك مفكرون ومربون يعتقدون بانه ينبغي ان لا تكون التربية تابعة للمجتمع ، كما لا ينبغي ان تكون قائدة له ، وانما ينبغي ان تمنى بتربية الرجال والنساء بشكل يساعدهم على تنمية امكاناتهم وتطويرها كما تساعد على التفكير المستقل ، ويعبر المربي الألماني المشهور فروبل (Froebel) عن هذا الرأي بالمعبرة القوية التالية :

« اني لو كنت جهازاً في الدولة لعنيت بعمل أجهزة اخرى ، ولكنني اُرجب فقط في تدريب رجال أحرار ، ومفكرين ، ومستقلين » (٧٨) ونجد من بين المربين المحدثين جون دبوي الفيلسوف

التجربي الأمريكي (١٨٥٩ - ١٩٥٢) يدعو الى ان لا تتأثر التربية بالظروف السياسية والاجتماعية الخارجية للمجتمع ، بل على العكس ان تحدد هي اهدافها مستقلة عن أى تأثير خارجي ، وقد وجدت هذه الدعوة فيما بعد تجاوبا عند مرب امريكي آخر - الأستاذ جورج كوتنس «G. S. Counts» الذى دعى المعلمين وهم الذين يملكون أكبر قوة في توجيه الاجيال القادمة ، ويستلحون بتراث الماضي وتجاربه وحكمته الى ان يستولوا على السلطة عن طريق تكوين جيل يؤمن بنظام اجتماعي جديد ، ورايه في ذلك ان السياسيين والعسكريين ورجال الدين ورجال الأعمال حاولوا قيادة المجتمع ولكنهم فشلوا في ذلك ، فلماذا لا بدلي المعلمون دولهم في الدلاء ويجربون حظههم في انقاذ المجتمع من محنة التي يقاسي منها . (٢٩) ومع ان الأستاذ المذكور حاول أن يصدر بيانا مع غيره من المربين يدعو فيه المعلمين الى هذه المهمة الخطيرة ، الا انه لم يكتب لهذا البيان أن يرى النور ، لأن اللذين اجتماعوا لتوقيعه لم يتفقوا على طبيعة النظام الاجتماعي الجديد الذين يدعمون اليه (٣٠)

بعض النتائج والاقتراحات بالنسبة لدور التربية في الوطن العربي

بالرغم من اننا لم نستوف معالجة البحث من جميع النواحي ، وانما اخترنا بعض النواحي المهمة منه ، فاننا يمكن ان نستخلص بعض النتائج من دراستنا تساعدنا على تحديد اكثر وميا ودقة لدور التربية في المجتمع العربي الحاضر ، وربما سكون مبعراً عن آرائي الخاصة في اكثر ما ساورده في هذا القسم من البحث .

ان المجتمع العربي في تغير ، شئنا ام اينسنا ، ثم ان من مصلحتنا ان نوجه هذا التغير لصالح الامة العربية وان يستهدف هذا التغير الوصول بالامة العربية - متحدة ، او موحدة ، او متضامنة ، او غير ذلك - الى مصاف الأمم المتقدمة ، وبسرعة وقت ممكن ، واود ان اؤكد على نوعية التقدم والسرعة . . اذ المشاهد مع الأسف الشديد اننا في نقل بعض مظاهر التغير كاستعمال السيارات او تشييد العمارات الكبيرة او انشاء المستشفيات او تأسيس المدارس الحديثة ، او اتباع الاساليب الحديثة في الادارة . . اننا نعني بالسكريات دون الجوهر فاستعمالنا لآلة يصحبه اهمال لها وعدم صيانتها مما يؤدي الى توقفها عن العمل في وقت سريع ، واقامتنا للآلية يصحبه اهمال لصيانتها والعناية بمراقبتها المختلفة مما يؤدي الى تلفها السريع ، وادارتنا للمستشفيات والمدارس اذا ما هي فيست بالادارة المتبعة في البلدان المتقدمة تظهرنا وكأننا بداليون ، واساليبنا الادارية لا تزال حبيسة الاوراق والاضابير والروتين . . واهتمامنا بالمظاهر - التي نعرف انها لا تمثل الواقع - تجعلنا نعيش في عالم وهمي من التقدم الذي نعتقد اننا حققناه ، ولذا فان علينا حين نفكر في التغير وفي التقدم ان نفكر في التغير الحقيقي والتقدم الحقيقي . . ولن تصل الامة العربية الى

(٢٩) ألف الأستاذ جورج كوتنس كراسا يدعو فيه الى هذه الفكرة وعنوانه : هل تستطيع المدرسة بناء نظام اجتماعي

Dare the School Build a New Social Order?

جديد ؟

مصاف الأمم المتقدمة ، اذا لم تحقق تفرقاً وتقدم حقيقيين ، اما السرعة في التقدم فحيوية بالنسبة للأمة العربية ، ونحن لا يسعنا أن ننتظر اجتياز الفترات التي موت بها انكثرا مثلاً منذ الشورى الصناعية في القرن الثامن عشر الى الوقت الحاضر ، بل لا بد من اختصار هذه الفترة ، كما اختصرتها اليابان ، وكما اختصرها الاقتصاد السوفيتي ، انني لا استطيع تحديد الوقت ، لتحقيق التغير والتقدم ، ولا شك ان المختصين من بين خبراء الأمة العربية والخبراء غير العرب الذين نثق بهم قادرون على تحديد الوقت اللازم لتطور كل بلد عربي او مجموع الأمة العربية ، ومن العوامل التي تدعونا الى اختصار الوقت ان لنا عدواً خطيراً سبقنا في مضمار التغير والتقدم ، واعني به اسرائيل والصهيونية العالمية ومن يؤيدها ، واننا ليس في وسعنا الانتظار اكثر من مائة وخمسين سنة لكي نتقل من مجتمع متخلف الى مجتمع متقدم ، بل لا بد من اختصار الوقت كما اختصرته اليابان والاتحاد السوفيتي .

وبعد هذه المقدمة اذكر النتائج والاقتراحات التالية :

١ - ان التربية عملية بناء ولم يعد في إمكان إقامة تريد البقاء والحياة ان تهمل عملية بناء كيانها ، فلا بد ان تشمل التربية جميع اطفال الأمة العربية الذين هم في سن التعليم الالزامي ، وان تيسرها لغيرهم بقدر ما تسمح به الظروف الاقتصادية ولكن بسخاء في مرحلتى التعليم الثانوى بانواعه والتعليم العالي بأنواعه .

٢ - ان العالم العربي يمر في تغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ولا يمكن ان تعزل التربية عن هذه التغيرات ، بل الواجب على المخططين لمستقبل الأمة العربية ان يحسبوا للتربية حساباً مهماً في انجاز عملية التغير والتقدم بشكل حقيقي وفي أسرع وقت ممكن .

٣ - لقد تقدمت العلوم المختلفة والتكنولوجيا تقدماً هائلاً ، ولا بد للأمة العربية من أن تعد من ابنائها وبناتها من يتفقه في العلوم والتكنولوجيا بنفس المستوى الذى تفقه فيه أمثالهم من الدول المتقدمة في هذه الحقول ، ولذا فينبغى العناية القصوى باعداد العلماء والباحثين والتكنولوجيين العرب .

٤ - كذلك تقدم الاقتصاد والإدارة تقدماً كبيراً سواء أكان ذلك من ناحية المعرفة الهائلة التي وصل اليها الانسان لنجاح العمليات الاقتصادية والإدارية أم من ناحية الأساليب الحديثة في الإنتاج والتوزيع والإدارة ، وينبغي تبعاً لذلك ان نعد الاقتصاديين والإداريين الذين يستطيعون تطوير اقتصادنا وأساليبنا الإدارية من اشكالها شبه البدائية الى الأساليب الحديثة حقاً .

٥ - ان التربية عملية سياسية بقدر ما هي عملية بناء ، وهي عملية سياسية بمعنى انها تعد المواطن الذى يكون عاملاً فعالاً في تكوين الأمة الحديثة والدولة الحديثة ، كما يكون عاملاً في سبيل استقرارها وتطورها .

ولذلك فلا يسع الأمة العربية ان تهمل التربية وان انتقلنا كامة من وحدات عائلية وعشائرية

وطائفية الى وحدات سياسية يضع على الحكومات العربية تأكيد الولاء في نفس التلميذ للوطن قبل العوائل والعشائر والطوائف التي ينتمي اليها . اي غرس التربية الوطنية الحققة ، وبالعامل قبل اللفظ .

كذلك لا بد للأمة العربية - وهي ممثلة في وحداتها السياسية الصغيرة - من أن تؤكد على الولاء للأمة العربية ، وأن تتخذ جميع الحكومات العربية موقفا صريحا - روحا ، وعقيدة وعملا لا لفظا فقط - من وحدة الأمة العربية ، ويجب أن لا يفت بحسبما اعتقد أي نظام سياسي - ملكيا كان أم جمهوريا ، اشتراكيا أم غير اشتراكيا - أمام وحدة الأمة العربية أو اتحادها في وجه الخطر الأكبر الذي يجاهاها - وهو الغزو الاسرائيلي الصهيوني . .

٦ - اننا في الوقت الذي نرى أن تلعب فيه التربية دورها في التربية للمواطنة الحققة ، والولاء الصحيح للأمة العربية ، فاننا نرى أيضا أن تكون تربيتنا انسانية وعالية ، تؤمن بالتعاون بين شعوب الأرض قاطبة ، وتدعو الى السلام العالمي، وتحارب التعصب العنصري . . وأن تأخذ هذه التربية الانسانية شكلا عمليا - لا لفظيا - فقط .

٧ - أن شؤون التربية والتعليم ينبغي أن تكون من اختصاص الدولة لا أن تترك للأفراد والهيئات، ويفضل أن تقوم الدولة بفتح المدارس ومن مختلف المستويات وكذلك الجامعات وتمويل هذه المؤسسات ، وإذا شاعت السماح لبعض الفئات والهيئات بفتح مدارس خاصة ، فينبغي أولا أن تجبر الحكومة فتح هذه المدارس الخاصة ، وثانياً أن تتبع هذه المدارس المناهج الدراسية المقررة ، وثالثاً أن تضمن الحكومة الإشراف على هذه المدارس وتوجيهها .

٨ - أن البحث العلمي الصرف منه والتطبيقي، ينبغي أن يكون من مسؤولية الحكومات العربية . ولكن ينبغي أن تكون للأمة العربية خطة متكاملة للبحث العلمي ، فلا تحاول كل حكومة أن تقوم بما تفعله الحكومات الأخرى ، أن مثل هذا العمل أهدار للمال والطاقات البشرية ، ولن يؤدي الى نتائج تتناسب والجهود التي بذلت والأموال التي صرفت ، وبالنسبة للبحث العلمي داخل البلد الواحد في حالة وجود أكثر من جامعة فإنه لا بد من تنسيقه .

كذلك يجب أن يكون هناك تنسيق بين الجامعات وبين مجالس البحوث في البلدان التي توجد فيها مثل هذه المؤسسات ، وبا حيداً لو أعادت تلك البلدان النظر في علاقة هاتين المؤسستين (الجامعة ومجلس البحوث) بعضها ببعض .

٩ - أنه بالنسبة للتعليم الثانوي بأنواعه والتعليم الجامعي لا بد من أن نفسح المجال فيهما لكل ذوي القابليات التي يمكن أن تفيد من هذين النوعين من التعليم ، دون أن يعوق هؤلاء أي عائق سببه المال ، أي فقر الطلاب أو ذويهم ، ولا بد أن نحقق أقصى ما نستطيعه من ديمقراطية اجتماعية بين فئات الشعب كافة عن طريق التربية، فالترية إذا أحسن استخدامها تفدو إحدى الوسائل التي تذيب الفوارق الطبقيّة في المجتمع ، وتخلص ذلك المجتمع من الصراعات الطبقيّة واجتيازها الى المجتمع العادل الذي تتحقق فيه الديمقراطية السياسية والاجتماعية في الوقت ذاته ، ودليلنا

الأول فف تشجع ذوى القابلفاء على الدراسة الى الحد الذى تمكنهم قابلفاءهم من الوصول الىه هو مبداء تكافؤ الفرص التربوية أمام الجميع .

١٠ - انه من الافضل بالنسبة للتعليم الثانوى والتعليم الجامعى ان يدرس الطلبة على اختلاف الفروع التى ينتخبونها (فى المرحلة الثانوية) او الاختصاصات التى يختارونها (فى التعليم الجامعى) قدراً مشتركاً عن الدراسات التى توحده نظرتهم الى الحياة « فلسفتهم » وتربطهم بترائهم الحضارى والثقافى وبصرهم بمشاكلهم كأفراد وبمشاكل مجتمعتهم .

انه ليس من غرضى ان احدد الدروس او المواد التى ينبغي ان تعطى للطلاب فى كل من المرحلتين السابقتين ، ولكن يمكن ان اذكر على سبيل المثال اللغة العربية ، والأدب العربى ، وشيئاً من الادب العالمى ، والحضارة العربية الاسلامية ، مع علاقتها بالحضارة الانسانية ومادة تتصل بمشاكل الفرد كعلم النفس مثلاً ومادة تتصل بمشاكل المجتمع الحديث مع التاكيد على المجتمع العربى ، ومادة علمية لغير المتخصص فى العلوم ..

١١ - انه أمام التقدم الذى يحدث فى رفيع مستوى التعليم الثانوى بفروعه المختلفة والتعليم الجامعى ورفيع مستواه فى البلدان الغربية والاشتراكية لا بد لنا من اعادة النظر فى هاتين المرحلتين من حيث المناهج الدراسية والمستوى والوسائل التعليمية وطرق التدريس .

ولا بد ان تكون مدارسنا الثانوية وجامعاتنا ذات مستوى رفيع حقاً ، وان تتخلص من الشكليات فى كل شيء وخاصة الاساليب الادارية البالية ، وان تتحول الى وحدات تربوية كفؤة ومؤهلة للقيام بالدور التربوى المطلوب منها فى تغيير العالم العربى من عالم متخلف الى عالم متقدم .

١٢ - اننا فى المرحلة التى نجتازها لا بد لنا من استخدام التربية - المدارس والجامعات - كوسيلة لتحقيق التفر الاجتماعى الذى نريده ، انه لا يمكن نقل مجتمع متخلف الى مجتمع متقدم وناهض ومتصنع الا عن طريق المدرسة والجامعة ولكننا ينبغي فى الوقت ذاته ان نحاذر من ان تكون مدارسنا وجامعاتنا أدوات مسلوبة الفكر ، اذ ان سلب الفكر وعدم تشجيع التفكير المستقل والابداع سيقول امكانات الخلق فى الشخصيات الانسانية التى تجمع بها مدارسنا وجامعاتنا فى طول البلاد العربية وعرضها ، وسنصاب نتيجة لذلك بالجمود بدلاً من الحيوية .

١٣ - تلعب التربية دوراً كبيراً فى التنمية الاقتصادية ، ولذلك فلا بد من النظر الى التربية على انها عملية استثمارية وليست عملية استهلاكية كما كنا ننظر اليها فى الماضى ، كذلك لا بد للمخططين والسياسيين من ان يدركوا دور التربية فى الخطة العامة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية وان يكون هناك تناسق بين خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبين خطط التربية او التخطيط التربوى .

١٤ - من الضرورى ان تتعاون الدول العربية فيما بينها فى مشاريع تنمية اقتصادية على غرار المشاريع التى تعاونت بعض دول البحر الابيض المتوسط فيما بينها عليها باشراف منظمة التعاون والتطور الاقتصادى (OECD) . ان مثل هذه المشاريع التعاونية تمهد لنا الطريق لتعاون

أولئق ، كما انها تكون بمثابة تجارب واقعية اوميدانية للتعاون في حقل التنمية الاقتصادية والتخطيط التربوى .

وختاماً أود أن أنهى ما كتبت بعبارة شهيرة للكاتب الانليزى هـ . ج . ويلز وفحواها « أن المدنية سياق بين التربية والدمار » ، فان وعينا أهمية التربية في بناء مجتمعنا وعملنا على قيامها بدورها الانشائي في تقدم العالم ازدهر العالم وبقيت مدنية الانسان ، وان لم نع ذلك ، وتأخرت التربية عن القيام بدورها ، سبقها الدمار وقوض المدنية .

ان العالم كله عرضة لان يحقق المدنية اوالدمار ، والامة العربية تعيش في فترة ان لم تنقذها التربية كان نصيبها الدمار ، فان انقذتها وهذا ما نرجوه - كان نصيبها الحياة والتقدم .



العقل الاغريقي

على حافة *

تمهيد :

كانما تبعث من خلا من آباء ضئلا وعرسل
الحياة فيما وارته احقاب الدهر من آداب
المصريين ، وكانت هذه التجربة كالكتابة المقدسة
وكاشراق المؤمنين تبعث في الروية اسباب
القربى بين الشيتين . . وكان ديموستين
الايني حاذى هذه التجربة وأول من سالت
عن عقله ودينه وتهديه ، فمتوان القال «العقل
الاغريقي » كان سؤالا سألته يوما عسى أن أفهم
به آيات عقل ديموستين . . وكانت النتيجة أن
تتصل حياة هذا الخطيب بفلسفة افلاطون
وبطولة إبطال سوفوكل وبطولة انتيجونه
خاصة ، وبذلك ربطت في هذا القال بين
بطولة انتيجونه وبطولة سقراط وبطولة
ديموستين ، وأصبحت البطولة قاسما مشتركا

لم ارد أن امشي في اثر قوم يهتفون بأن ما
خلق الاغريق من آداب وفلسفة وفنون كان
معجزة « Miracle grec » كما يقول رينسان
ولا الذين يردون كل علوم المدنية الغربية
وفنونها وسياستها الى أصول يونانية
ويكرهون أن يردوا اصول المدنية الاغريقية الى
شيء قبلها فهي من خلق أمة النابفين الالهيين
الاغنياء بعقلهم وعلمهم ومعجزة العلوم والفنون،
والسلى رديني عن أن امشي في ركب هذه
المدارس والأخذ بكل ما تكتب أو تقول تجربة
شخصية استيقبت فيها حريتي في قراءة ما
أحب وفي التأمل في أصول الفكر اليوناني
والاخلاق اليونانية التي تثير كامن ضميري

(*) الدكتور علي حافظ استاذ ورئيس قسم الدراسات الكلاسيكية سابقا بجامعة الاسكندرية قام بترجمة اعمال
سوفوكليس الكاملة عن اليونانية .



يسين اعلام الأدب الاغريقي وكان الشاعر « بندار » في اول القرن الخامس ق.م يتغنى بهذه البطولة في محافل الالعاب الأولومبية وكان بين شعر بندار وتغوش معابد المصريين نسب قريب في الرمز لدين العدل والخلود وامتدت الأسباب فإذا بمعبدة الإبطال كانت دين المصريين المعادلين الأولين ودين من أخذ عنهم من الاغريق صلاة الإبطال - فامتدت بذلك آداب ديموستين إلى اصول المدينة الأولى وأصبحت المعابد صلاة الإبطال من أولياء الله والانسانية ، وتفسير العقل الاغريقي بهذا الدين يكشف المعدن الصافي والمعدن الخريف فيمن أخذوا بآداب الاغريق في تجربة الرومان وتجربة المدينة الغربية الحديثة .

وفي الأدب اليوناني كتاب كتبه أفلاطون يبين منزلة الخطر الماحق الذي أحاط بمدينة العدل والخير - هذا الكتاب هو كتاب بروتاجوراس السوفسطائي الذي يعجب بما جاء به بروميثيوس من علم انساني جديد . . سرق بروميثيوس النار التي تخلق الفنون والصناعة ووهبها الانسان وهجر بروميثيوس من أن يأتي الانسان بالعدل فهو أب المدينة الحديثة في كل ما تفخر به وفي كل ما تشكو منه .

(١)

عبادة الأبطال

وبذلك أصبح هذا الميراث صلاة بيد الله يؤتي الفضل من يشاء والأيام التي تصاحب حياة كل حي قد تحمل المجد وتحمل الشقاء وتزهر الانساب أحياناً وقد تترد عقيباً . . كائنات والشجر فلمن يفرس الكبير شجرة ولن يمد الإبطال إيمانهم بشمار البطولة التي تنقطع دونها المراتم . . لله رب العالمين ويتلقى ثمرات البطولة من يعمل تاجها ويسمى لها سعيها في أمم مؤمنة بصلاة الإبطال ، فثمرات البطولة حي أزلي لا يموت . . قائم خالد حتى يرقى اليه بطل مؤمن في عصر هذه المدينة أو في

آخر صلاة يودع فيها هيكتور (١) الحياة قبل أن يلقي حتفه أن نادى ربه والآلهة أجمعين أن يهينوا لابنه ما هيأوا لحياته فينبغ في الفضل على بني طروادة ، وأن يهينوا له حياة طيبة عادلة ليسمو في الميؤن حتى يقول القاتلون أنه يز أياه في مجد القتال وليقتل عدوه ويسلب سلبه وتقر به عين أمه .

وباتت مسألة المسائل في المعنية القديمة أن البطولة والفضيلة لا تورثان إلا ما شاء الله . .

١ - هيكتور بن بريم ملك طروادة وهوبطل طروادة في اليلة هوميرو وهو نعمة أخيل بطل ملوك الاغريق في هذه القصيدة

سكنت عبادة معابد المصريين وانتشرت في العامة والكافة عبادة دين جديد ضمننت للعامة جنة بغير بطولة وسكنت معابد الهيلينيين عن عبادة الإبطال حين نمت العامة من الإبطال فتردهم بالعدل والعلم والسعادة وجاءهم بروميشيوس^(١) بقبس مسروق من معابد زيوس . وجاءهم السوفسطائيون يعلم جديد لا يؤمن بالله ولا يكلف البطولة في شيء والمورد السهل شديد الزحام .

متى هب الصراع بين أولياء العامة وبين الإبطال في تاريخ الأدب القديم ومتى سرق بروميشيوس قبس النار وجاء يدعو به إلى العامة فالغضب زيوس واحتمل بروميشيوس العقاب متكبيرا وتنبأ بزوال ملك زيوس . يوم يحتل ضمائر البشر اله أقوى من زيوس نفسه . الإنسايطر التي حدثت بهذا الصراع اكتنفت أصولها صاحب القدم ، وما يمسر الأدب الإغريقية القديمة إلا أنها تبدأ فيما بقي من آثارها بأثار الإبطال وأنشيد الآلهة في شعر هوميروس . لم ينحدر منحدر المدنية إلى حكومة العامة وآداب العامة . ويوم تلعو كلمة العامة تهجر معابد العدل والخير كتجربة خلت ليس لها وارث حتى في أحلام الإنسانية . فهل يحل لنا أن نذهب مذهب أولياء الله والعدل ونرمي مدنية العامة بأنها بربرية سميذة ومدنية مزيفة ؟؟ فنمد هجوت معابد العدل والخير لم يسمح الإنسان موسيقى العدل ولم يقرأ الإنسان بقلبه وجناته صلاة الخلود ولا يكاد الإنسان أن يصدق بدينها لأنه ألف تهذيب العامة وحده وأحل فيه علماء الأولون الكذب وبدلوا فضائل العاديين وذيلة وصاروا كأجناس الحديث .

« ألا ليتني لا يقضي علي » أن أعيش بين رجال الجنس الخامس فأموت قبل أن يولدوا أو ولد بصد أن يذهب الله بهم من الأرض . أنهم

صحة الاقدار في أعمار الإنسانية . . آمنت قرية أن امتز ثمرها لا يشمر إلا في زرع المؤمنين العادلين ، وآمنت مدنية الإبطال أنها لا تنجب إبطالا بغير الفصل . . وثمار البطولة ثمار الإنسانية العادلة الدائبة يتوج بتاجها كل نايغة طلاع أودية حمال ألوبة . . أنها ليست ميراث رجل ولا أسرة وهي ميراث النافعين في العالمين في أزل الدهر . .

كانت مدنية العادلين المؤمنين الذين عاشوا في حياتهم سعاداء فلما ماتوا نشرت الإنسانية ذكرهم في صلاتها وبت لذكرهم مع الآلهة معابد الأولين . . أنهم أرثوا الإنسانية صلاتهم وموسيقاهم وفردهم في الآداب والحكمة . . وارتقاوهم إلى المل الأعلى ، وخلودهم في جزر السعادة ، وخلدت المعابد سيرتهم في الحياة والمات وخلد الثمر أعمالهم في الحرب والسلام . . ويحج الإبطال إلى معابدهم من كل فج حقيق . . لتنتسل أسباب البطولة بين الموت والحياة . . وخلقت هذه المدنية الخلود لأنار البشر الفاني في أفعالهم وأقوالهم وظلت أفعالهم وأقوالهم آثارا خالدة كالآثار معابدهم وصارت حكمتهم كنز الأبد .

عاشت صلاة الإبطال في معابد مصر ومعابد الإغريق فخلق إبطال الشعر وإبطال الطب وإبطال الفنون والرأى والحكمة حتى مغرب المدنية الإغريقية في مدائننا المختلفة ، فكل مشرع كان حريصا على أن يهذب مدنيته بالوروث من سير الإبطال وبمقايير عادلة من شعر الإبطال والموسيقى ورياضة الإبدان ، فمندا الذي أطفأ نور معابد العدل وصلابة الإبطال قبل أن تغرب مدنية المصريين القدماء ومدنية المدائن الهيلينية . . الإنسان الذي عجز فلم يستطيع تكاليف العدل والبطولة . .

١ - بروميشيوس Prométhée هو رب من أرباب الإنسايطر سرق قيسا من نار نظم العلوم والفنون وجاء بها الإنسان وهو أب المدنية الحديثة التي تنش السعادة ونهجل العدل . اقرأ اسطوره في بروتاغوراس للافلاطون

ويقتل الفاجر المؤمن وتنهض بينهما حرب في التهذيب والإيمان والصدق حتى تصبح معابد العدل والخير أطلالا مهجورة مفعورة في صحراء الزمان .. وفيها كنوز آباء الإنسانية وسر التهذيب والأدب ولا تذكر حتى في صلاة العابرين .

متى تفرق الأجيال في عمر الإنسانية بين رجلين معاصرين شب أحدهما بتهديب الأبطال وشب قرينه بتهديب السوفسطائيين وكلاهما بلغ في أثنى في القرن الرابع ق. م منزل الزعامة وفلب الأريف الأصيل على أبواب المجد في الحياة الدنيا .. زعيمان من خطباء أثنى في القرن الرابع ق. م هما أشين وديومستين .. كيف تميز الأجيال الأصيل والزور فيما يقول الرجال ومعند الصدق والزور فيما يقول أنصار الصدق وأولياء الكذب ؟

ولا تبلغ القرن الخامس ق. م حتى تكشف آداب هذا القرن من صراع بين مدرستين : مدرسة الأبطال القديمة ومدرسة التعليم الحديث وكل مدرسة تنبت طرازا من الفكر والمبادئ والرجال .

الفكر الظالم : أنت أيها المجوز الهرم ..

الفكر العادل : أنت السبب الذي جعل الشباب لا يحبون أن يذهبوا إلى المدرسة وسرى الآليونيون يوما أي تعليم علمت جهالهم .. أنت مفسد الشباب والمدينة التي تؤويك مغلوقة على عقلها ..

منشدة الكورس : كنا من الحرب والشتائم .. بين لنا أنت بأي تعليم علمت القدماء وقل لنا أنت (تريد الفكر الظالم) ما هو تعليمك الحديث .. من يبدأ ؟

الفكر الظالم : دمه يتكلم فاذا فرغ من كلامه رميته بسهام من أفكار وجمل جديدة ..

جنس الحديد الذين لا يستريحون من الكد نهارا ويمشون من عنائهم ليلا ، قد رماهم الله بهوم ثقال وقد يختلط بشرهم خير ما حتى يذهب الله بهذا الجنس من البشر الفاني إذا ولدوا بمفارق بيض لا يشبه الأب بنيه ولا يشبه الأبناء آباءهم ولا يكرم الضيف ضيفه ولا يحب الصديق صديقه ولا ينصر الأخ أخاه كما ألف الناس أن يفعل . فيما خلا من الدهر وإذا بلغ الوالدان الكبير فلا يكرهما ابتاهما ويلوم الأبناء آباءهم بكلمات نظيمة يا لهم من أشقياء أنهم لا يعرفون خشية الإلهة .. أنهم يابون أن يطعموا في الكبر من أطعمهم صفارا لا يقيمون وزنا للقس ولا للعدل والغير ولا يمجدون إلا فاعل السوء والظالمين ، والعدل عندهم في القوة وضياح الحياء .. ويؤذي أهل السوء الفاضلين بالافتراء والبهتان ويحلفون الإيمان على ما يقترون وبمضى الحسد في أمقاب البشر المساكين يرميهم بالزيب ويشمت في مصائبهم ويقتفى آثارهم بوجهه بغيض وحينئذ يهجر الأرض العربية إلى السماء الحياء والعدل يخفيان جسمهما الجميل في لياهما البيضاء ولا يبقى للإنسان في الأرض إلا الآلام والعلاب .. (هيزيود : الأعمال والأيام » ١٧٤ وما بعده) .

الدنية الأولى وجدت في دين العدل سعادة الدنيا والآخرة فتناولت آمال المجازين إلى جزاء العادلين فالتحموا أبواب جنة السمراء بشهادة مزودة واحتل الاسكندر الأكبر طرفا من معابد العدل والغير في طيبة مصر ، وسمي الظالمون الفاشمون أطلالا إذا غلبوا .. وطردت البطولة الكاذبة المزيفة بطولة الحق والصدق من ضمير الإنسانية وظل الظاهر الكاذب جوهر الحق والصدق وعشيت الضمائر فاطمات لباس الإنسان وعفيت عن بأس الله والعدل ، وينهض في متحدر الكنية صنوان متشابهان من الرجال يقلب المزيف الأصيل

القانون والعدل ويغلب الرأي الضعيف على
القوى ويحل الحرام ويحرم الحلال ..

والمنطق العادل يتخذ هيرقل أبا الإبطال
أسوة في تعليمه ..

★ ★ ★

الفكر ميزان الرجل والفكرة ثمرة التعليم
والرجال الذين تهذبوا بأداب الإبطال شسبوا
أبطلاً والذين تعلموا علوم العافية كان هم
أكثرهم أن يغلّبوا الباطل على الحق ويجحدوا
الحق والعدل ويطهروا ما حرم الله ويحرموا
ما أحل الله ..

ويميز أريستوفان في كوميديّة الضفادع بين
تعليمين في أثينا : اتبنا توامين متصارعين في
أثينا في القرن الخامس ق . م . :

« مثل مدينتنا فيمن تختار من رجالها
العادلين الطيبين كمثل ما تصنع المدينة في
اختيار العملة القديمة الأصيلة والذهب الجديد
.. أننا لا نستعمل ذهباً صافياً غير مؤلف كان
أجمل عملة وكانت وحدها أصدق ما سك من
عملة في بلاد الهيلينيين والبلاد جميعاً يؤثّر
عليها عملة من نحاس خبيث سكّت بالأمس
في أسوأ سكك ونفعل ذلك في اختيار
رجالنا ، نحن نعلم من كان منهم
أصيلاً منسباً وكان حكيماً عالماً عادلاً ومن
الصالحين ، ونعلم أنهم تهذبوا في ساحات
الرياضة وفي الموسيقى ومنشدى الشعر ، أننا
لا نختارهم. ونؤثّر عليهم رجالاً مؤلفين من
نحاس خبيث . وهم إرثار إرثار ، هم
رجالنا في كل صوب وهم آخر بلاد ما كانت
المدينة في ما مضى لتتخذهم كغارة تكفر يوم
عن ذنوبها (٢)

منشدة الكورس : (مخاطب صاحب الفكر
العادل) تحدث أنت يا أيها الذي توج الأقدمين
بأكمل الأخلاق والفضل ، أفصح عما تحب وبين
لنا طبيعتك ..

الفكر العادل : سأحدثكم عن التعليم القديم
الذي كان سائداً يوم كنت مزدهراً يقول الحق
والعدل ، وكان العلم والحكمة ديناً وكان محرماً
على متعلم أن يلزم بالصوت وكنت ترى أبناء
الحي كالبنيان المخصوص في طريقهم إلى معلم
الموسيقى عراة في صف واحد ولو أمطرهم
السماء وأبلا من جليد متفوش كانوا يتعلمون
نشيدياً :

« يا بلأس ، يا لك من قاهرة المدن »

أو نشيد الصوت البعيد ويحافظون على
الهارمونية التي ورثوها عن آبائهم ثم يذهبون
إلى معلم الرياضة البدنية .

المنطق الظالم : هذا التعليم البالي ..

المنطق العادل : بهذا التعليم البالي علمت
إبطال مراؤون وأنت تعلم تلاميذك أن يتلقوا
بعباءتهم ، وبذلك ثقب بي واتخذني رفيقاً أيها
الشباب ، سأعلمك أن تكرر التسكع في الأجورا (١)
وتتأى عن الحمامات العامة وأن تخرى من
العار إذا سخر منك ساخر وأن تفسح المكان
للسيوخ وأن تتف أن قدموا عليك ولا ترد
القول على أبويك ولا ترتكب عارا يخرى جمالك
.. وتقضي زمانك في ساحات الرياضة مزدهراً
وغشاء ولا تفعل ما يفعله شباب اليوم الذين
يملأون « الأجورا » بالثرثرة التي لا تفسي
شيئاً . (٢)

والمنطق الظالم سمي بهذا الاسم لأنه ينكر

١ - الأجورا : أي الأسواق .

٢ - أريستوفان : المصنف ٩٥٢ وما بعده

٣ - أريستوفان : المصنف ٧١٧ وما بعده

إذا اجتمع المال المزيف والمال الاصيل في الاسواق اختفى المال الاصيل من الاسواق ..

وما بلغه العقل من الكمال في أوج المدنية الاغريقية كان أعلى قمة سما إليها ابطل العقل في تاريخ هذه التجربة الإنسانية .. وكل ما تناولت إليه نفوس الأبطال في عمر الزمان جعل الخلود لله وحده وما يثبت الله من روح في حياة الإنسان الفاني ..

الإنسان حلم من ظل نهار منقش حتى يلقي الله عليه بعضاً من نوره فيرتد سعيداً سعيداً .. وتجربة ابطل المدنية فيما خلا من الدهر بدت كنبح نهر منحد من قمم جبال شريفة صعد إلى أعاليها ابطل الموسيقى والطلب والبيان والحكمة .. وخلدت فنون مدنياتهم آثار الخالدين .. والفكرة سر من أسرار الله .. في أسرارها موسيقى الخلود وترفع الإنسان الفاني إلى مثل الله الأعلى ، لا يزال الإنسان مصعداً في ثناياها فان حفره الموت ظل هادياً وحادياً للمصمدين في أعمار الإنسانية ، ولا يقتصرون شرف المصمدين على أمة من الأمم ولا على نسب من الأنساب وجعلوها للموهوبين من الأمم التي آمنت بعبادة الأبطال وتهذبت وتهذيب الأبطال .. وبنيت المعابد لله ولصلة الخالدين .. قد خلقت مدينة الأبطال في مصر وفي بلاد الأفريق حتى اطفتت مصابيح كانت تضئها في معابد العدل والخير ابطل العدل والخير ، حتى سُمّ الإنسان في مدائن الأفريق تكاليف الأبطال في القرن الرابع قبل الميلاد ولكن خلود الفكر يهيء لها من بني الإنسان أجيالاً من بني البشر يتلقون مجد الفكرة ويصعدون في آمالهم إلى ما صعد إليه أبطال الأولين ، وهم في مجد شبابهم ينشدون أن ارتقوا نشيد الأولين :-

« أني أحمل إليك يا أميري فلجاً نسجته لك من زهر مرمي طاهر .. لا يجرؤ راع أن يرقى إليه بأغنامه ولا يصل إليها أبداً حديد النالج

ولا ترقى إليها إلا نحلة الربيع تغدو وتروح في مراعيها الطاهرة ويسقيها الشرف والحياة بحبات الندى ولا يلفها أحد بعلم مدرس ولا يلفها إلا الموهوبون الذين آتتهم طبائهم العلم في كل علم .. هؤلاء أحلت لهم زهور المرمي يقتطفونها وحرمت قطفوها على الآخرين .. فتقبلي يا أميري المحبوبة من يد نقية نقية رباطاً لشمرك اللهي .. أني وحدي من دون العالمين قد نلت هذا المجد .. أني أعيش معك أجيبك بكلامي وأسمع دعائك ولا أرى وجهك ، أجعلي خاتمة حياتي كآلها .. » (١) (يوريديس - هبوليت .

قد يولد في عمر الإنسانية في بلاد الله رجال ينهضون إلى بطولة العلم والفنون ، لأن تجربة الأولين دين إنساني لا يتجزأ .. من آمن به في عمر الزمان جاء بمثل ما جاء به أرباب الفكر في مدينة العدل ومن قال بأن الفضيلة لا تورث يرمي خلق الله بالعقم ويد الله تجود بالخير كالربيع المرسله والذي صرف أبناء الأفريق عن دين البطولة في القرن الخامس والرابع ق . م نزعة جديدة في الحياة .. آمنوا بالقوة ولم يؤمنوا بالعدل وجعلوا الإنسان ميزان كل شيء وذهبوا إلى أن الإنسان خلق كل شيء .. خلق آلهته وخلق مدينة مادية ونبي في الكلام وأمتد ببأسه وقوته ونسب لنفسه ما خلق الأبطال من قبله وسعى إلى مناصب الشرف وحرّم منها من هم أحق بها منه .. كل هذا التحول كان من طبيعة البشر في كل دهر ، منهم من يبني ومنهم من يهدم ، وكل شيء ما عدا الله باطل .. وقسوة المصري أن يعيش رجال في معابد المؤمنين ثم لا يموتون حتى تغفر المعابد من أهلها ويروا أبناءهم يتولون قصداً عن دين آبائهم الطيبين ومن يفعل ذلك فكانما قتل آياده .. وبين الأجيال خلاف في التهذيب ، جيل بنى معبداً وآمن بما يقول العلماء :

« أن في السموات والأرض نظاماً ينسج

والفاحشة والفجور وضاعة في موكب عظيم وعليها تاج وتغني محامدها وتتشدد مزايها وتسمى الأسراف تهذيبا والفوضى حرية والفجور واجهة والفحش شجاعة (١) أفلاطون - الجمهورية (الكتاب السابع) .

كان انصار التعليم الحديث أشد الناس يقينا أنهم علماء وهم محرومون من الشير والعدل فنهض سقراط يكشف لهم عن خفايا نفوسهم فسخرؤا علمهم الذي يصور الكلب بصورة الصديق وقتلوا بطلا من القديسين المؤمنين المادلين وهزمت أينا وتولى المؤمنون من معابد العدل والخير ويومئذ وهب أفلاطون مواهبه ونبوغه لينقل ميراث العدل وتهذيب الأبطال فيما خلا من معابد العدل والخير كما يقول في الخطاب السابع : « لا سبيل إلى نجاة البشر من الشرور قبل أن يصل العلماء حقاً وصدقاً إلى الحكم أو يتولى الله الحاكمين في المداين فيأخذوا بالعلم حقاً وصدقاً »

(٢)

« أفلاطون »

في شباب أفلاطون في أوائل القرن الرابع ق . م . غلبت على الفكر الإغريقي مبادئ بربرية من الإيمان بالقوة والتسلط (التيرانية) والكفر والجهل بالوروث من دين العدل وانحدار نهر المدنية من مدائن متقاتلة على الغلبة . كل مدينة تريد أن تسبب سلطاتها على ما عداها من مدائن الإغريق بالحرب أو بالمال حتى استيقظت آمال فيليب المقدوني فأوقد بين المدائن الفتنة ليشرع بعضها ببعض ويستعين ببعضها على بعض ، فأورث المدنية الحديثة سياسة الجواسيس ومصادقة الخونة الذين يخونون أوطانهم والنفاق التام الذي يخدع الإنسانية فتتخذ الذئب حكماً وتستغني به كرمول العدل والتقوى ليحمل أعلام الدين حتى يقتل المؤمنين في محراب صلاتهم ويبحر الدين بعارضونه من الأرض . . . ويشترى خطباء

بهارمونية العدل لأن الله يزن كل شيء بجيويميترية محكمة »

والفصول بنات هذا العدل ، والقوانين الرشيدة ثمرات هذا العدل ، والسلام والعلم ومكارم الأخلاق طيبات هذا العدل ، ويخلق هذا الأدب طرازاً شريفاً من عظماء الرجال والأبطال ، ثم ينهض جيل فيتغافل عن هذا التهذيب ويتهاون بحكمته . . ويفرغ الضمائر من التهذيب الحكيم : « فإذا شب فتى محروماً من التهذيب وشب على حب المال واستظم عسل الدبابير وعاشر الحشرات الضارة التي تستطيع أن تمتعه بلدات من كل جنس فانه يغير حكومة ضميره فيقترب من حكومة العامة . . فإذا سارع أحد لنجدة المبادئ الباقية من الأولين فقد ينجح لينقل نفس الفتى قبل أن تحول . . وقد يحدث أن تنمو في نفس الفتى لذات كبرت سرا وخفاء إذا أغفل الوالد ولده فلم يهذبه . . وأخيراً تحتل هذه الشهوات قلعة الضمير إذا استنتها فارغة من التعليم ومبادئ الأخلاق الفاضلة ومن الحقيقة والصدق وكلها آمن حراس تحرس عقول الدين يحجبهم الله من الناس » .

فإذا كان فؤاد الفتى فارغاً من التهذيب هبط عليه غواة من المبادئ الكاذبة الخادعة ومن باطل الرأي ، تحاصر ضميره كما يحاصر العدو القلاع ثم تستولي عليها ثم توعد هذه المبادئ الفاسدة باب الحصن ولا تدخل في الحصن نجدة من نصيحة يوليه إياها من كانوا أكبر سناً ، قد انتصرت المبادئ الكاذبة ثم سميت الحياة غفلة والقتة بمزجر الكلب ودعت الحكمة جبناً ونبدتها مكاناً قصياً وتقتلع التوسط وتدبر المال وتعد ذلك من شمائل المازعين التي لا تليق بالأحرار وتظاهرها شهوات كثيرة لا نفع لها .

وإذا انتصرت هذه المبادئ الكاذبة افترت الضمير وطهرته كأنما تعلمه للولوج في الأسرار الكبرى وحينئذ ترف الأسراف والفوضى

وحب الإنسانية فيسعى إلى بحر مقدس ليحمل من مائه الطاهر النقي سقاية للظالمين صلاة لله والخير .. وترمز الكتابة المقدسة لحب العلم بقلب متعلق ببحر العلم الطاهر ومتعلق بالخير ليروي الظالمين بالعلم حسبته لله والخير .



١ - ظهور العلم

الفيلسوف حبيب العلم والخير ، يوم تصبح معابد الإبطال في مصر وفي بلاد الأفرقيق اطلالا مهجورة ساكنة قد بناها قومها للخلود افئن تقطعت الأسباب وغاب العلم في المعابد عمن كفروا بهذا العلم ولا يصدقون بأبطاله ، نظن أن ما آمنوا به من خلود قد طمره تراب الجهل وعماية الضمير .

كيف يرد السمع إلى آذاننا والبصر إلى أعيننا والنور إلى قلوبنا لنسمع موسيقى معابد مصر في طيبة ونفتقه في دين العدل في أعلى وديان الحقيقة والصدق ونحضر حياة الملك الفيلسوف الذي أصبح ملكا ونشهد مجد الخالدين .. ليست زهرة الفكرة « Pensee » التي يزرع الطاهرون في حديثهم .. بشيء حتى تجمع بين الشئتين بحرف الفكر والفكرة الحقنة التي نزرع في ضمائرنا ليست بشيء حتى تجمع الأولين والآخرين ، وادى الحقيقة والصدق .. والفكرة التي بناها إبطال البيان خالدة ترد إلى أصولها وتسمع أجيال المؤمنين سرها ونجواها ، والفكر الأفرقيقي الذي آمن بالعدل والخير والخلود امتداد لفكر المصريين الأولين الذين أقاموا مدينتهم وفكرهم على عمق من دين العدل والخلود .

من يزرع في ضميره لله والخير فكر أفلاطون وشعر بتدار في تمجيد إبطال الاعمال الا لومبية ثم يرتفع إلى أناشيد هوميرو في إبطال حرب

المدانين بالمال والوعود ، وأورث المدينة الحديثة « الطابور الخامس » واشترى العلماء والفلاسفة ومن ينحدر من نهر المدنية في أولها فيبصر المعابد حافلة عامرة ببناء العادلين ، يبصر في القرن الرابع أتمس ما أثبتت الهريرية من مظالم جرؤ أهلها على أن يقيموا لنصرهم معابد كاثني بنت الإنسانية فيما خلا من الدهر لمجد العادلين .. وسميت الصولة والفوز بأى سلاح مدنية وصار المال ديناً والسطوة والبأس ديناً . وصار النجاح ديناً ، وأقام العقول الأفرقيقي مدارس للكلام يلهو فيها شباب الأمم التمس بألفاظ الكلب ، واستفحل اللداء من أوله ليجر الشيخ الكبير الغاني إلى القضاة ويُسَلط عليه بيان كاذب من أشباه المحامين .

في هذا المنحدر يبيث الطفلة ويقتلون سقراط ولا يجد أفلاطون مناصاً من أن يصرف كل همته ونبوغه لحفظ آداب الإبطال العادلين ، فلما رأى أفلاطون فساد السياسة استمسك بالعلم الصحيح (الفلسفة الحقنة) فهي التي تظهر السياسة العادلة وكل أخلاق الفرد ولا تبرؤ البشرية من الآمها حتى يبلغ العلماء الصادقون الحكم أو يتقلب الحاكمون بقدر الهي فيصعبوا علماء وفلاسفة غير مؤيدين (أفلاطون الخطاب السابع ٣٢٦) .

حتى أيام أفلاطون في آخر القرن الخامس ق . م . كانت معابد مصر ما زالت عامرة بالعلماء ومعابد الأفرقيق التي يفساها سقراط وأفلاطون عامرة فاوى الفلاسفة إلى معابد مصر ليثبته بها في فقه العدل وليرى فيها ويسمع ما يقول العلماء عن العلماء والفلاسفة الذين صاؤروا ملوكا والمولود الذين كانوا فلاسفة ، ووفى أفلاطون الفكرة بيانا وتفصيلا ونكاد نحصر فكرة أفلاطون في أوج الفكرة التي بلغها إبطال الإنسانية العادلون في المدنية المصرية وفي مدينة الأفرقيق حتى القرن الرابع ق . م .

العالم الفيلسوف رجل فطر على حب الخير



ساق يحمل اناء يصب منه الماء الى
جاء به من النهر وحيث اتنا نتخذ هذه الرموز
كحروف في كتابة مقدمة فلا بد ان نجعل كل
رمل متصلا بالله فيكون البحر بحر الله ويكون
الصب السقاية لله ، وتكون الرموز الثلاثة



الكلمة الإفریقیة في كلمة الفلسفة اي حب العلم
والحكمة « Philo ophie »

ب - حب العلم :

والفلسفة التي رفض في حبها الملائون
الملك ، هي علم القديسات فيما أورت مدينة
الابطال والعدل في مصر القديمة وفي بلاد
الهيكلينيين .

وان شئنا أن ندخل في اسرار هذا التعريف
الذي بنيت له معابد الإبطال في مصر وفي بلاد
الافريق فيليس لنا من سبيل سوى أن نجعل
هذه الاسرار مما اتقده أفلاطون من جمال
اسرار المعابد .

اولى درجات هذا العلم انه صلاة مطهرة لان
ماء الله ظهور وهو الذي يخرج الحي من قيود
الجسم الى سماء القديسات ، ومن الافريق

طروادة في الحرب والسلم ويقرأ شعر هيزود
ثم يأوى الى معابد طبية في مصر تتفتح له كزهر
الفكر اسرار الكتابة والنقوش في معابد المصريين
ويعلم بهدائية فكرة أفلاطون ان المعابد لا تقام
الا لمعبدة الابطال الخالدين وليست المعابد
بناء لباس الملوك الا في زمان الهادية .

« اذا بلغ (ابطال النابضين) من العمر
خمسین علما فمن نجى منهم ونبيغ في كل شيء
في العلم والعمل لا بد من دفع هؤلاء الى غاية
(البطولة) ولا بد من الزامهم ان يمدوا امين
ارواحهم الى النظر الى الكائن الذي يمد
الاشياء كافة بالنور. فاذا راوا الخير في جوهره
انخذوه اسوة لهم في اصلاح وطنهم وتجميل
انفسهم وتهذيب الآخرين فيما بقي لهم من
العمر ، كل منهم على قدره ويقضون جل وقتهم
في العلم والفلسفة - فاذا قسم لهم ان يحكموا
وطنهم وان يبذلوا جهدا في سبيل قومهم
فعلمه ليؤدوه كما تؤدي الضرائب ولا يفعلونه
ابتغاء الجاه وبذلك يعلمون سواهم ليكونوا
مثلهم ثم يتركون اذن حراسة الوطن الى جزر
السعداء ثم يبنى لهم الوطن معابد وصلوات
يلذكرون فيها اربابا اذا اذنت (البيتيا)
استشارة أبولون فان لم تأذن ذكروا في السعداء
الخالدين . » (أفلاطون - الجمهورية الكتاب
السابع ٥٤٠) .

اذا اقيمت لأبطال العدل المعابد ، بني المعبد
بمواريز العدل مثلما بنيت فكرة الابطال بالعدل
، فعاذا تعرف المعابد من العالم الذي بلغ بالعلم
آفاق البطولة في العلم والفكرة ، هو رجل تعلق
قلبه بالماء من ناحية وبالخير من ناحية فاذا
رمزنا للعلم ببحر الله الطاهر



١ - الكلمة الإفریقیة التي ترمز للظهر والحب والخير والتي ترجمها كلمة الفلسفة اليونانية هي :



وخاصة من يبحث عن الحق ، فالحقيقة التي لا تحد بشكل ولا تعين بلون ولا تبلغها بحواس اللمس لأنها حقيقة في صميمها لا تبصر إلا بعين ربان الروح وهي موضوع معرفة الحقيقة وهي التي تقيم فوق هذه المطالع - وعلى ذلك ففكرة الله التي تأخذ غذاءها من العقل والعلم الصافي وكل روح تتغذى بغذاء من معدنها لا تلبث إن تشهد الحقيقة وتحبها وتأمل حقائق الأشياء وتتخذ منها غذاءها وتنعم بذلك حتى تتم دورتها . . في هذه الدورة تنظر الروح العدالة في جوهرها وترى المعرفة في جوهرها ، المعرفة التي لا تعتبرها الفير ولا تصور في صورة شيء آخر مما تسميه في الأرض باسماله وهي الحقيقة في الجوهر الحق الذي لا يتبدل له فإذا شهدت الروح كل الأشياء في حقيقتها وجعلتها غذاءها - أنها إذن تطل على السماء لم ترجع إلى بيتها فيقف حاديا وسائقا عند حظيرة خيلها ويطمع الخيل ويسقيها بالأمروز والنيكتار « أي طسام الخالدين وشرابهم » (أفلاطون فيند ٢٤٨) .

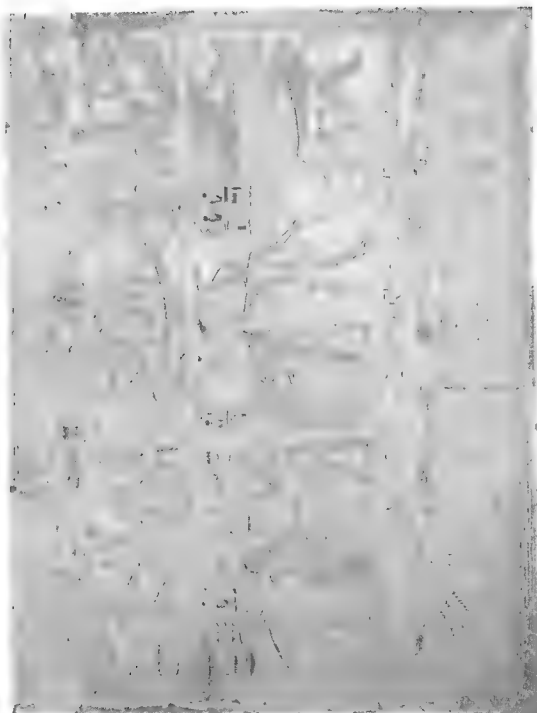
غاية ما تطاولت إليه فكرة إبطال الانسانية هي معرفة الحقائق الخالدة ويعبر بلوتارك عن هذه التجربة بقوله (غاية العلماء معرفة الكائن الاول الكائن الملي الاعلى ، الكائن الذي لا يبلغه الا بالفهم الخالص ، الكائن الذي يعيش في ربة العدل ايزيس . . وايزيس تدعو إلى معبدها من يبحث عن الكائن الاول واسم معبد ايزيس يدل على ان العلم فيه هو معرفة الحقيقة اذا دخله الانسان خاشعا متفكرا (بلوتارك وايزيس واويزيريس ٢) .

البطولة التي تبلغ سماء الحقيقة جعلت الابطال يبلغون آفاق الصدق الايدي وهم الذين اورثوا الانسانية دين العدل والتقوى وهم الذين آمنوا بضلود الروح . . ووراها فيما

من آمنوا بتطهير النفس بالموسيقى والرياضة: وهو النبع المقدس الذي يرقى اليه ابطال العلم وهو مثل الله الاعلى ، والرمز الثاني هو القلب المتعلق بالعلم والخير أي الحب وقد كتب أفلاطون عن الحب ونقل الحديث عن قدسية غريبة لم يعين في أي المعابد لقيها سقراط لكنها ادخلته في اسرار الجمال والحب (١) . وإذا بهذا الحب هو تمطش للجمال والخير ودأب وصبر في سبيل الجمال والخير . . الحماية والحب يلاحقان الانسان ليخلقا من الانسان الفاني اثرًا باقيا . . خلود المواهب غاية هذا الحب وكلما ارتقى الانسان كان أشد الناس طلبا للخلود والموهوبون الذين اوتوا النجابة في ارواحهم يلدون الفكرة والتبوغ في العقل ، ومن هؤلاء الشعراء والخالقون ، وأعلى الفكر وأجمله ما اتصل بسعادة الامم والافراد . . أي الحكمة والعدل ، ومن ينظر إلى هوميروس وهيزيود وسائر الشعراء الماجدين . . يصدهم على ما انجبروا من خلق اكسبهم مجدًا لا يموت وذكرًا خالدا وفوائين « ليكوج » حامية لاسبديميون والهيلاذ، وصولون خالد بقوانينه ، ولهم جميعا اشباه في بلاد الهيلينيين وفي بلاد البربار ، وهذه الآثار اقامت لهم معابد وصلوات في كل مكان وهذا الحب أي التمتع للجمال ارتقى إلى المثل الاعلى .

حب العلم والخير قائم في الروح ، والروح خالدة ، في اسرارها قوة الهية ترتفع بجناحين إلى سباه الآلهة ومن صفاتها الجمال وحب العلم والخير . . والارواح الخالدة ترتفع إلى قبة السماء وتطلع على جوهر الاشياء في السماء وفي غير السماء - كما يصف أفلاطون هذه المطالع السماوية .

« هذه المطالع التي ترتقي إليها الروح فوق قباب السماء لم ينشد نشيدها شاعر في هذه الأرض ولن ينشد شاعر ما يوفيقها حقها . . واليكم بيتاني : يجب أن نجرا على قول الحق



هذه الصور صورها معهد شيكاغو بالانهر تفصل بها رئيس بشتهم الاستاذ شارلس تيمس

النرجس وهذا الملك الحارث بنى مكانه معبد وحمل المعبد زهور أعماله فالمعبد والنقش فكرة من بينات الخلود ولا تموت الفكرة حتى يطمسها الجهل أخ الموت .. تم أحيى هذه الفكرة في نفسي هوميرو وأشييل وأفلاطون وأصبحت هذه الصورة في كتابتها المقدسة تخليدا لحياة الملك الفيلسوف .. انه الذى يحرث حرث الله في قلبه لا يحرثه الا يحرث الفكرة والعلم لله والخير ، فلما تبينت هذا المعنى ابصرت الملك في صورة مجاورة بليس جلد الاسد فهو قد بلغ البطولة في العلم وفي صورة مجاورة وثائق يربطه « توت » اله العلم والحكمة واله له رأس اسد اى رب الحكم .. فهو جامع بين سلطان الحكم والعلم وفي صورة مجاورة (اللمة ربة العدل) تقوده ميتا الى جزر السعداء الخالدين .. وفكرة الابطال العادلين خالدة يتلقاها أبناء الانسانية السعداء الذين يرقون الى شرف الخلود .

واقرب صورة الى هذا النقش نقش ابقاه هوميرو في شعره الخالد وهو اقرب آباء المدينة الاغريقية دينا وفنا ونسبا بدين المصريين وفنونهم .. وناقش الكتابة المقدسة في اساطير الاغريق كان هيفايستوس الذى نقش درع أشييل بطل الابطال في حرب طراودة ، وبذلك نعلم ان فكرة الخالدين بنيت في عصر الزمان في كل صور فنون الخالدين - النقش والموسيقى والكتابة المقدسة والفلسفة والمنطق وارتفعت بذلك جميعا الى وادى الحقيقة الازلية والصدق .. وهيفايستوس نقش على درع بطل الابطال كنقش معابد المصريين « صور مدينتين جميلتين من مدائن البشر الفائين .. في احدى هاتين الصورتين صور هيفايستوس زواجاً وازواج وزفاف العرائس على ضوء المشاعل حول المدينة وتتصاعد من رائها صيحات الفرح من كل صوب .. وفتياتا يرقصون ويدورون في دائرة الرقص وخرجت كل امرأة ووقفت عند عتبة بابها معجبة وتجمع ملا المدينة في ساحة اسواقها هب فيها خصام بين رجلين على دية قتيل اما

نقش على المعابد من آثارهم يلبسون جلداً اسود ليتشبهوا بهيرقل الذى قلب الاسد المفترس وليس جلده ... فهو رمز لبطولة العلم .. « غاية العلم الخير »

والرمز الاخير من كلمة حب العلم هو سقاية

الظالمين  ساقى يحمل اثناء يصب منه

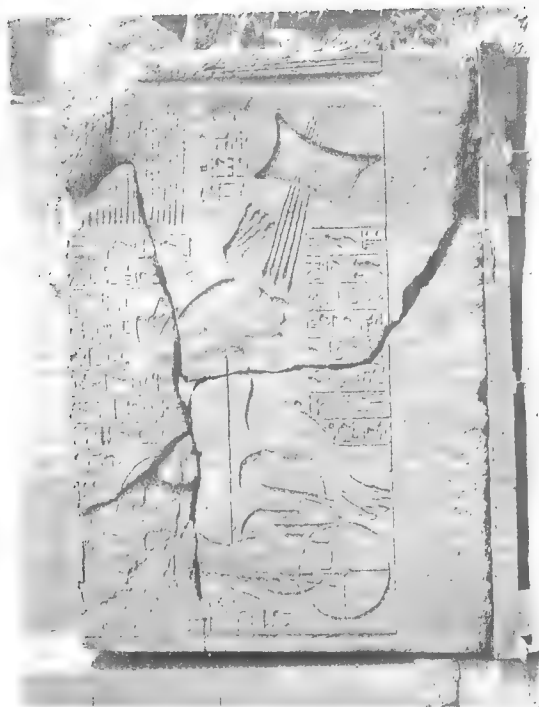
الماء وهو اشرف غاية العلم .. غاية العلم الخير كما يفصل آياته افلاطون .

(٣)

الملك الفيلسوف

« لا تهجع اوجاع الانسانية حتى يكون الفلاسفة ملوكا ويكون الملوك فلاسفة ، يجمعون بين سلطان الملك والعلم » .

هذه الحكمة علم وأمل في فلسفة افلاطون وما ضرنا ان نرد الحكمة الى مواردها الاولى ونقول غير خائفين ولا ظالمين ان افلاطون قد جاء بهذه الحكمة من معابد المصريين .. وتكاد نفترض كلما تأملنا ما خلف الناقشون من صور الملك الفيلسوف فيما بنى المصريون من معابد في طيبة ان افلاطون قد سبقنا اليها وهى عامرة بعلمائها الذين كانوا فقهاء في العلم والعدل وبينوا لافلاطون معنى ما خلدت المعابد من صور ملك يحرث الارض وفوق رأسه تاج العادلين ويضم لمارفلته وفي الصورة قدمه اليمنى .. وقد وقفت عند هذه الصورة والمعابد اطلال لا ترد سؤالي وأول العلم السؤال والتعجب .. وقد رجعت الى هذه القرية (في مدينة هابو بالاقصر) اصورها كلما وجدت سبيلاً وهى تمز شميرى بروعة الصلاة فكيف يضعف هذا المعنى ان ادرت هذه المعابد الى دين الخلود ؟ اليسبت من بقايا دين الخلود التي ابقاها الادب الاغريقي اسطورة بطل جميل فلما مات نارسيس ثبتت في موضعه زهرة



كتمعير الكتابة المقدسة عن ملك فيلسوف زرع
حقن الله في نفسه أى قلبه وعقله فأنبت زرع
غلة سعيدة يجمعها العلماء كتباً (كالبحر الملى
يجمعها الخازمون) ويدرسها الصغار قطعاً
يقرأونها على علمائهم كما يفعل الصبية
المنتشرون في الحقن والنادى الذى ينادى الملى
بأحكام الملك يقرب خيراته لله والنساء ينثرن
دقيقاً أبيض فوق طعام الزارعين الدارسين -
وقد تؤول هؤلاء النسوة بملهمات العلم والفنون
muses ثم تفصح أسرار الكتابة المقدسة عن
أسرارها التى كانت ميراث الإبطال بلغة أقرب
الى عقولنا في شعر القرن الخامس ق.م أى
في جيل الإبطال من آباء افلاطون . فاشيل
شاعر التراجيدية وأحد أبطال ماراكون وسلاطين
في الحرب الميدية يصف في تراجيدية « السبعة
المحاصرون لطيبة » بطلاً نقياً عالماً هو اقرب
الصور التى شُيد بها الشعر بمد النقش
والكتابة المقدسة وهى تفسر معنى الحرث
ومعنى ثمار الحرث بما نفهمه من معنى العلم
culture ونمار العلم أى الفكرة pensée

الرسول : ذمنى اقض عليك نبا سادسهم
انه اعلم الناس واشجع الناس في القتال هو
نبي يعلم الغيب انه البطل الجيد امفياريوس
حمل هذا البطل درعاً من صلب ثقيل وقال
وهو مطمئن الجنان ما كان من قول . . لم
ينقش فوق درعه نقشاً لانه لا يحفل بالظاهر
وما يجب الا ان يكون بطلاً في الحقيقة - فيما
بينه وبين الله قد حث في قلبه وعقله حرثاً
عميقاً ينبت زهراً غنياً من الرشاد والحكمة
ارسل لقاتله ابطلاً علماء عادلين فمن يتقى
الالهة ليس بهن يسير (اشيل « السبعة
حول لطيبة » ٥٩٠ وما بعدها . .)

ورثت الإنسانية حكمه الإبطال من أبطال
العلم في مصر وفي بلاد اليونان - وكانت تجربة
سعيدة لانهم كانوا في حياتهم حصون الحياة
وكانوا في خلودهم آباء العقل والعقل والبيان

احدهما فيقول انه دفع الدية كاملة ويعان ذلك
على الما وينكر الآخر انه اخذ شيئاً وكلا
الخصمين قبل ان يضع حداً لهذا النزاع ،
وشايعهما الما وكلا الخصمين قبل ان يصبح
معه أنصاره . . وفي الجمع منادون . . يدعون
الحي الى السكون وشيوخ الما جالسون على
مقاعد من حجر في دائرة مقدسة امسكوا
بأيديهم عصي المنادين ذوى الصوت الجهور
واعتمد الشيوخ على هذه العصي وقضى كل
منهم بدوره - وكان وسط القضاة على الارض
قنطاران ذهباً لخير قاض يقضى بينهما بالعدل
... « هوميرو الايلاذة التشيد الثامن عشر »
(٤٩٠) .

وتفسير هذه الرموز ان البطل كان حصناً
افشى السلام والفرح والمدالة في قومه وهذه
صفة الملك العادل في السلم . . اما الحرب فقد
صوره بصورة كاثي حفظتها معابد المصريين
حين يهب الملك بعربة الفروسية لرد المعتدين .

وفي النقش صورة اخرى قريبة من صورة
الملك الفيلسوف التى نرى وقد نقش هيفايستوس
فوق الدرع حقلاً ملك . . في هذا الحقن زراع
بأيديهم مناجل حادة يصعدون بها (غلة الملك)
فتهوى على الارض فوق مجارى الحرث قطوف
الغلة بعضها فوق بعض قد حرمت في حزم . .
حزمها الزراع الذين يربطون الغلة في حزم ،
ومن هؤلاء وقف لالة يحمل لهم الصبية ما
يجمعون من منثور الغلة . . يحملونها بين
أيديهم ويقدمونها لمن يجمعونها حزم ولا يكل
عملهم . . والملك واقف ساكن يحمل
مصا للملك فوق خطوط حرثه وقلبه فرح
سعيد . . والمتادون من بعيد تحت شجرة باسقة
يعدون الغداة . . قد قربوا لالهة ضحية عجلاً
سميناً . . والنساء تعد الغداة للزراع وتبلى
عليه دقيقاً كثيراً أبيض (هوميرو الايلاذة التشيد
الثامن عشر ٥٥٠ وما بعده) .

وما تأويل هذا النقش عندي الا انه تعبير

البطولة في الفكرة كالبطولة في تساق القمم العسية ، هيأت لأبطال الفكرة مجد مصارعة الفساد في تعليم زمانهم وظلم زمانهم وكانها بحثت الافلاطون عن نفسه وهو بمنزل في جوار من خلا من أرباب الفكرة في معابد العدل والخير .

« قليلون بالديمانت من يستحقون ان يباشروا العلم الحق والفلسفة : رجل موهوب شب على تعليم سليم قاضي من وطنه وابتعد عن المفسدين وظل بطبيعته وفيما العلم والفلسفة فمن ذاق نعيم العلم والفلسفة وعرف ضلال الاكثريين وجنونهم وعرف انه لم يبق فيمن يحكمون المدائن قلب سليم وأنه لن يجد نصيراً ينصر معه العدل دون ان يلحقه الموت كمن وقع بين الوحوش المفترسة لا يريد ان يظلم معهم ولا يستطيع ان يقاوم وحده كل هذه الوحوش قبل ان ينفع اصدقائه وينفع وطنه ، ويدلك ينزوي في مامن ولا يفعل الا ما يقضي عنه شيئاً كمن هب عليه اخصاص من تراب فاتحهم يحاطق وإذا رأى الناس من حوله غارقين في الظلم قنع بأن يعيش بريئاً من الظلم وان يخرج من الحياة بأمل مطمئن رحيم » (افلاطون ، الجمهورية ، الكتاب السادس - ٤٩٦ ب) .

من جد بالعلم حتى يبصر بالعقل والفكرة ما خلق الله من جمال لا يهبط من سماء الفكرة الى صراع المخطئين .

بطولة الفكرة ليست فيما يطلب عامة الناس من علم في كهوف مغلقة ياتيها نور من خارج الكهف وهم فيه قعود مقيدون بسلاسل في اقدامهم وبأغلال في أعناقهم لا يخرجون من كهوفهم منذ طفولتهم ، يسمون الأشياء بما تعكس الأشياء من ظلال في الكهف وما يحمل الصوت من صدى ، حبسوا حياتهم عن أن ينفذوا الى حقيقة الأشياء والذين ارتقوا في عمر الفكرة الى سماء الحقيقة قيود ولم يطيبوا نفساً بالذهب والفضة وظلال الجاه والراحة في كهوف الحياة . . ومن دأب فكرة الإبطال اذا غرست في نفس

والحكمة والملوك الفلاسفة والفلاسفة الملوك عند افلاطون علماء نشهد حياتهم وعلومهم تفصيلاً . . قد بلغوا بفكرتهم الى سماء العدل والخير - الى مثل الله الأعلى .

فاذا بلغنا افلاطون سمعناه يحدثنا عن شيم هذا الملك الفيلسوف فهو يحب العلم كله ، لا يقصر همته على الجزء دون الكل ويجب الحقيقة كلها ويكره الكذب وهو عالى الهمة تشرب همته الى ان يعلم حقيقة خلق الله والانسان - وهو شجاع لا يخشى الموت . . فماذا لو سألنا افلاطون عن زمانه وما خلف زمانه من مدنيات كالمدينة الهيلينية بمسد الاسكندر والمدينة الرومانية والمدينة الحديثة . . ألم تثبت الطبيعة نفساً عالية تحب العلم والصدق وخصتها بذاكرة ووهبتها حب الجمال وموارين العدل فما بالها لم تنجب ما أنجبت مدينة الإبطال ؟؟ والجواب على ذلك ان العدل تهدمت اركانه وفسد زمانه وفسد تعليمه والموهوبون اذا نبثوا في ارض ظالمة فسد نياتهم ونبتوا في الشرور .

« نحن نعلم ان كل بلرة لبنات وكل نقطة في خلق الاحياء تفسد اذا لم تجد ما يلائمها من صالح الارض والهواء والغذاء . . »

ونعلم ان افلاطون نفسه قد هجر أثينا في شبابه لأنها مفسدة لفكرته . . لقد عرضت عليه أثينا بعد موت سقراط ان يشارك في حكمها فأبى لأن نظامها السياسي فسد فساداً لا يستطيع معه افلاطون شيئاً فترك أثينا وآوى الى معابد مصر بعمول عن الناس ليتفقه في السدل وتهذيب العادلين وليعصم بموهبة ميراث العادلين من الفناء وهو الذي يحدثنا عن ارض أثينا وهوائها وغداها في أيامه وهو الذي يصور تصوير المبادئ كيف يتفرد النابون في زمانهم بالخروج على قيود عامة المتعلمين والارتفاع بجسد الإبطال الى شمس العدل والخير .

قلوبهم بأسعد نبضات الحياة .. والذين يحملون هذه الشعلة في عصر الزمان هم زينة الإنسانية يحملون نور الله الذي لا يموت وهم جميعا يسكنون ضماير الاحرار وما كان لله فهو يبقى وما فعل الانسان لدانه وغروره يموت قبل ان يموت فاعله وشجرة الفكرة، أي زرع البطولة والخلود التي زرعا أفلاطون، شجرة خالدة تمتد أصولها الى اول المدنية وتثبت نباتا مباركا في عصر الزمان .. وسر هذه الشجرة أنها قد تمكت هشيما في عمر الدهر فيلقى بذرها في باطن الارض فيطمه التراب أن أغفلت أرضه ولكنها لا تلبث أن تزهو أن هبط على أرضها طل الندى أو حملتها الرياح في أمطارها الى بلد بعيد فتثمر ثمرا طبعيا كزهور الصخور العالية وإذا أغفلت الثمرت ثمرا كثيرا .. قد ينهض في عمر الإنسانية رجال لا تطيب لهم الحياة حتى يتوجوا بأثر من أكل البطولة في الاعمال والأقوال .

وإذا اردنا أن نقترب من آداب الإبطال الذين يردون الألعاب الأولمبية نجد في فصول ما توجوا به شبرا بين الزهر والفضيلة كالتي يتشدها مجدنا .

« الفضيلة القيمة (البطولة) لا تنجب ثمرها في الاجيال بلما ومثلها كمثل الحرث في الأرض السوداء لا تؤتي ثمارها كل عام بغير انقطاع والشجر لا يرضى في كل حول أن يحمل ثروة متكافئة من زهره العاطر ولكنه يفارق كل عام في ثمره عاما يجود وعاما يقتصر .. وأحياء البشر الفانون يتبعون مقادير الورع .. »

ولا نمتج أن تجمع الألعاب الأولمبية أبناء كل أمة حرة مكلفة بتكليف الحرية .. أي هدبت أبنائها ليكونوا أمنع حصونها ولجملوا ميراث الإبطال .. ودين الإبطال اشتمل على احسن فضائل التهذيب ، وعلى اشرف آداب الإنسانية ، قد حرصوا على أن يخلد الشعر والموسيقى ما يتوجون به من أفضان شجرة

صالحة ان تحطم القيود والأغلال فان خرجت من كهفها أبصرت الشمس وعلمت أنها مبعث النور .. شبه الطلوع الى سماء الحقيقة وتأمل آياتها العليا بارتقاء الفكرة والروح الى سماء الخير .. وهي أن أبصرت بعد جد كانت مصدر كل جمال .. هي مبعث النور ومبعث الحقيقة والعلم ، الارتقاء الى صور الخير المقدسة كان أدوع آيات الفنون التي صاغتها يد إبطال الفنون في عصر المدنية والعلم ، أرقى مدارج الفنون وتهذيب الإبطال ليس علما يصب في النفس كمن يصب النور في عينين كفيفتين ، ان للعالم ملكة في الروح تصرف النظر من كل شيء عارض يزول وتتأمل الحقيقة الدائمة التي لا تزل .. بأى العلوم ترفع هؤلاء الى النور كما أرتفع بعض إبطال الأساطير من ظلال الموتى الى سماء الآلهة ؟

علوم الحساب التي تخرج النفس من عالم الحواس الى عالم الحقيقة والهندسة والفلك ، والهارمونية التي تنتهي الى الواحد الأحد والموسيقى والتطهر والصلاة .

(٤)

خلود الروح

لم تكن فكرة أفلاطون خالدة كخلود معابد العذل والخير رمية من غير رام ، ولكنها دليل على خلود البطولة وخلود أرواح الإبطال وهي دين الإنسانية جميعا وقد يفسر ذلك ان ما سمت اليه أعمالهم وأقوالهم بات أمدا لبني الانسان من كل جنس كامدا الألعاب الأولمبية التي يتسابق على بلوغها وسبقها إبطال الاجيال .. لا يكاد الانسان في عصر المدنية القديمة والحديثة يخرج من كهوف الظلام ويحطم قيوده وأغلاله حتى ينطلق في مطالع الفكرة الى ما سماه الاولون هند مشارف الجمال والخير .. فهي تجربة أولمبية في عصر الإنسانية .. والبطولة ميراث حر لمن ينهض من الاحياء والذين يحملون الشعلة الأولمبية تنبض

الثالثة عشرة) وهي كلها فضائل تقتلع الأسراف والجور والتهاون والفرد .

وتاج البطولة الذي يتوج احياء أمة لا يخص الأحياء وحدهم بالمجد بل يرفع المجد الى من خلا من الأبطال ، فنتراب القبر لا يحجب عنهم مجد أبائهم وتحمل لهم ربة الأبناء ما وهب الله ذريتهم من مجد عظيم في الألعاب الأولمبية (الأولمبية الثامنة ١٠٢) .

« التاج الذي ينال الإبطال في الألعاب الأولمبية هو ثمرة الفضائل الشهية (الأولمبية الخامسة : أول بينها) - بعد الموت يلقى كل امرئ جزاء أعماله و يلقى الاطهار الطيبون المادلون جزاء الخلود في جزر السعداء » .

لو علم الانسان ما ينتظره بعد موته .. فإذا صرعه الموت دفع المجرمون لمن جرائمهم .. هنالك اله يحكم على ما ارتكب الأحياء من جرائم في الأرض ويفضي فيهم قضاء صارما .

« في جنة تضيئها الشمس ويستوى الليل فيها والنهار يخلد الإبطال العادلون لا يلقبون الأرض بأيديهم ولا يجذفون في البحر طلبا للعيش وهم يعيشون في جوار أولياء الله الذين يحبون اللمة والوفاء ويعيشون هيشة غير باكية ، أما من ظلم فلهم عذاب اليم » .

« والذين استطاعوا ان يمتكوا ثلاث مرات في الدنيا والآخرة اطهارا لا يظلمون أنفسهم ولا يظلمون الناس شيئا ويعوضون في سبيل الله الى أبواب .. كرونوس - إذ يلقون جزر السعداء التي يهب عليها نسيم المحيط وفيها زهور من ذهب منها ما ازدهر في الأرض على شجر باسق ومنها ما ازدهر في الماء ينسجون فيها تيجانها بلبسونها برعاية وإدامات (الأولمبية الثانية ١٠٩ وما بعده) » .

إذا قدرنا آثار المدنية الأولى فيما بقى من معابدها وفنونها وما خلف هومير من بينات

زيتونة زرعا لهم فيما خلا من أعمار الانسانية رب البطولة هيرقل وآيات الشعر تفصل ما تهدبت به شمائلهم .. قد هدبت نفوسهم بالتقوى والعسل والاحسان وباعز فضائل التهذيب والأدب .. التقوى لا تموت وهي التي تصحب الانسان التقى في قبره والعسل في كل موازين الحياة .. ولو اننا فصلنا فضائل تيجان الألعاب الأولمبية فيما خلفه « بندار » لعلمنا ان هذه الألعاب كانت صلاة في معابد الخالدين واسمعتنا موسيقى بندار ما حجب الجهل والزمان من دين الخالدين .. وأول التمشيد صلاة للآلهة لكي تقتبل في معابدها بطلا تقياً عادلا عالما من أبناء تينيديوس :

انه لا تستعجم قيثارته ولا اناشيده في صلاة الآلهة والإبطال ويرعى زيوس رب الضيف الغريب .

ثم ارجوس ام الإبطال الإبطال وإبطال ارجوس هياوا للمحات العلم والموسيقى بنات زيوس ان يحرن حرنهن :

« مثل البطولة (الفضيلة) كالشجرة التي ترتفع باسقة اذا سقتها حيات الندى الصايح وكذلك البطولة ترتفع باسقة في سماء الأثير اذا سقيت في نفوس العلماء والحكماء العادلين »

« جنس البشر واحد و جنس الآلهة واحد : كلا الجنسين يتنفس انفاس الحياة من » أم واحدة « وشتان بين قوتنا وقوة الآلهة ف قوة البشر ليست شيئا والسماء مقام الآلهة الخالدة الذي لا يلبغ ولكن بيننا وبين الخالدين شبه في فكرنا العظيم ، او في طبيعتنا وان كنا نهمل ما كتب القدر علينا في الليل والنهار » .

والآن يشهد « الكيميداس » أن ميراث البطولة كثمار الحرث التي تختلف في عام الى عام - عام مقل و عام خير غريب .

والبطولة تنبت في الوطن الذي يتبع القوانين ، والعدالة التي لا تنتظم بغيرها بلد والسلام واهب الشراء للإنسان والتقوى (الأولمبية

سوفوكل وشعره وموسيقاه ما عقدت له أمته من تيجان العادلين الخالدين وعقدت لديومستين من أفعال ديومستين وبيانه تيجان العادلين الخالدين لم عقد أفلاطون لسقراط الذى أمدمه السوفسطائيون في أثينا تاج العادلين الخالدين وبقيت آثارهم جميعا في معابد الإنسانية كنوز الأبد وهؤلاء جميعا لا يتوجون حتى توزن قلوبهم بميزان العدل الذى يحضى بريشة العدل إيمانهم وأفعالهم ... ويشهد على أفعالهم شهود عدول من قديسي العسل وأبطاله .

وبذلك يقترب تاج ديومستين في آخر القرن الرابع بتاج سقراط فيما كتب أفلاطون في الدفاع عن سقراط (Apologie du socrate) ويقترب من تاج انتيجونه في شعر سوفوكل ويقترب من انشاده الألعاب الأولمبية وكلها قريبة من تاج العادلين في محكمة العدل في دين المصريين الأولين والشبه بينها جميعا أن يشهد في معابد مصر علماء العدل ويشهد « بندار » بعدل أبطال الألعاب ويشهد أفلاطون بعدل سقراط ومن كان حيا كديومستين دافع عن حياته وسياسته كمن يدافع عن نفسه أمام حكم الله والعدالة - وبين أيدينا ترجمة لما يتوج به العادلون في مصر قديما .

« كنت عادلا صادقا لم أرتكب العا وكنت تقيا أرعى الله فأثاني الله الحكمة ، قد جئت عالم الخلود بعد ما فعلت الخير في حياتي ، لم أظلم ولم آثم ولم أشارك فيما لا يرضى الله والشرف ، ونعمت بقول الحق وكنت مؤمنا أن الصديق ينجي من اعتنقه حتى الموت ، وهو خير ما يدافع به المرء من نفسه أمام هذه المحكمة التى تصمم السرائر وتعاقب الآثم » (ترجمة ديوتون للكتاب ١٢٥ من كتاب الموتى)

كل أبطال هذه المدينة يتسامون الى طراز فريد في الإنسانية يتخذون من خلا من أبطال الأساطير أسوة ليلقبوا المثل العليا التى تشرف منها ضما نرهم وأبصارهم على آيات الله التى لا تبدل لها ويذكرون في صلاتهم آباء أمالهم

وما أبقت آثار الفنون والشعر من تهافت أبطال الألعاب الأولمبية حتى آخر القرن الخامس ق.م. على تاج الألعاب الأولمبية ، وإذا علمنا من أى الفضائل الإنسانية نسج تاج الفائزين في الألعاب اقتربت أسباب الخلود في دين هذه المدينة واقترب تاج الفائزين في الألعاب من تاج الخلود الذى يتوج به العادلون في معابد المصريين وهو الذى يصوره « بندار » في وصف جزر السعداء في الأولمبية الثانية ..

ما جزاء العدل .. الذى تطاولت اليه أفئدة العادلين ؟ .. بطولة العدل وتاج الخلود .

(٥)

تاج العادلين الخالدين

كانت الألعاب الأولمبية والتهدب المتصل بدين الإبطال طرفا من صلاة الإبطال ودين الخالدين ، وقد جعل هذا الدين خلود الروح أسعد آمال العادلين واتصلت غاية الحياة والموت فيما نبغ فيه الحكماء والعلماء وصافته الفنون بهذا الدين ، وحيشما توليت فائز باقية خالدة متصلة بهذا الدين فيما أبقت هذه المدينة في شعر الشعراء وفلسفة الفلاسفة وما بلغت سماء عقول الخالدين كانت آثارهم ولعبهم صلاة في معابد الخلود .. وتوج النابون بتاج الخلود .. فإذا كان دين العادلين الخالدين أساس الحياة والوت استوى جزاء العادلين في كل صوب وحمل تاج الألعاب الأولمبية أيام كانت الألعاب صلاة وتاج النابون في الشعر والموسيقى وتاج الدين قادوا سياسة أممهم بالعدل ودين الخالدين .. هذه التيجان جميعا رمز لحياة العدل وبطولة الخلود وهي جميعا من أصل واحد وما قرأنا في « يوربيد » يقرب إلينا ما نجعل من دين الأولين فنبوليت بطل مثل أبطال الألعاب الأولمبية ارتفع ببطولته الى معال مجزة في قم عالية ليأتي منها زهر طاهر بكر لم تسبق اليه يد لينسج منه تاجا لربة الطهر والعفاف .. وقد صيغ من أفكار



العقل اليوناني بُني أساساً بموازين العدل
فما ظلم يرد إلى موازين العدل وربات الانتقام يعاقبن المشرفين ومن يسرف في شيء يفسده فيصنع يده وما تصوغ أنامله وما يحكم عقله من شيء وبُنيت السموات والأرض بموازين العدل ، فإن أسرفت قوانينها في شيء ودت إلى موازين العدل ومن يسرف في قوانين الموسيقى لا تعتدل موازينه ، ومن لم يحكم صياغة التماثيل بالعدل والقسط وأسرف في البيدين والرجلين أو ألوان العينين ، انتقم العدل فافسد عمله .

وقد تعبت المقادير فتخلل الذكي وتلصق القبي فتؤتبه المال والحكم ولكن المقادير عجزت عن أن تزين ينبوع البيان والفكر إلا من هذبوا بنهذب الأحرار وغرسوا فكر النابغين في ضمائرهم حتى يثمر ثمرة الحق الأمين .

وعيادة الإبطال كانت ديناً يمرضون فيه أصداق تمرات تهذيبهم في معابد العدل والخير وقد يتسابقون في الألعاب الأولمبية التسي حرمت على البربار والأثمين ليشهدوا أرواح سلفهم ويشهدوا آلهتهم أيهم أحسن مصلاً وأعدل حياة وأملأ ، وأبعد تمرات هذه البطولة ليست فيما تشهد من قوى المتصارعين وسبق الفرسان والمدائين الذين لا يشق لهم خيار وكل ما قد تغلب فيه بهيمة الانعام ، ولكن أروع الصور أن يكون هذا الذي يرمي القرص فلا يبلغ مرماه أحد ، قد اشتمل على أشرف تهذيب في الموسيقى والبيان والحكمة فالإنسان الذي يسمو مصعداً ليسمو إلى شرف الحياة قد يصارع الأحداث والمقادير ، والمقادير قد تكون أشد هولاً من بأس الإنسان وبطل هذه المدينة يلقي مصارعة المقادير بصراع أشد من صراع أبطال الألعاب الأولمبية وما يلقون به مقاديرهم قد أبقت الحكمة مثلاً من هذه المصارعة .

» انما يأمرنا القانون أن خير الاخلاق أن

لا يسعدهم شيء من نصرهم أكثر مما يقربهم في إيمانهم إلى لقاء العادلين في جزر السعداء ، وقدر هذا الدين للإنسانية أن تنجب أبطالاً في الشجاعة والرأى والشعر والموسيقى والبيان والحكمة حتى غربت شمس المدينة القديمة ، ومن آمن بالعدل فيما يخص من شيء بيده وقلبه ولسانه وصاغ حياته جميعاً بدين العدل ، ورياضة العدل بيده وقلبه ولسانه تشر له الأرض أطيب ثمرها وبمده البحر بطيباته وتحيط به ذرية سعيدة جميلة ويزهر له العلم والفنون آيات صادقة من جمال الجسم والعقل ويتزوج يوم يموت بتاج الخالدين ويخلد مع السعداء في جزر السعداء كل ما شدا به الشعراء في فضائل أبطال كانوا حصون أمتهم وكل ما جعلت به حياة هؤلاء من الجمال والخير وجمال الجود وحماية الغريب وجوار المستجير وحمل الضعيف وإفشاء السلام والتبوع في الرأى وبطولة العلم والفكر ، أي بلوغ الحقائق الأبدية - كان ثمرة دين العدل وكل هذه الآمال عقدت على رجال حملوها غير مكترحين ، قد كلفت ربة العدل أرباق العادلين فلا يشقون في ذل الحاجة وصرفت كل همتهم إلى حب العلم ، أي إلى أن يردوا مورد العلم المقدس الطاهر النقي ليأتوا منه بسقاية بنى الإنسان وليحملوا النور إلى من لا نور له ويفعلوا ذلك لله والخير وأول الخير أن يبدأوا بأنفسهم وتهذيبهم الحر ليحققوا بالعدل أجمل هارمونية بين قوة الإبدان وحكمة العقل والبيان وقوة الأجسام ، كما يقول افلاطون ، لا تطلب كثرة بهيمة الانعام وانما تراد أولا وأخرا لقوة العقل والفضيلة .

العقل اليوناني ميراث مدينة العدل والإبطال
الخالدين وقد يرث الإنسان الملك ويرث الفضة والذهب ولا يرث الإنسان الفكر والموسيقى وبينات الحكمة حتى يسعى لها سعيها وهو مؤمن ، هي الكنز الخافي في أعماق الحقل لا يتركه إلا الجادون العاملون المفلحون الذين تثرهم الفكرة بجمالها ويتخلونها صلاة لأنها قبس من فيض الله في قلب الإنسان .

(٦)

خطبة التاج

ميراث العقل الافریقی فكرة جعلها ديكارات على كل لسان وهي ان الإنسان فكرة .. تقاس اقدار كل امرئ بما تبني فكرته : وتحديد الفكرة في عالم الفكرة المجردة قد يفضي على الأعين وما يجليها الا أن نصنع منها ما الف الفن القديم أن يصنع وإن نصوص من الفكرة تمثالا حيا ناطقا لرجل يعرض حياته في تمامها على محكمة العدل التي يتوجع عندها الخالدون ..

واذن يصور الفكرة في حرثها المقدس الذي يرفع البشر الفاني الى منازل الأبطال الخالدين وقد اختار الافریق منذ أولهم نظاما كنظام التبادل أي نظام المدائن وتسابقت كل مدينة على أن تثبت أبطالا وكان اليونان وأثينا أسبق الهيلينيين الى تدريس الفكرة ، فلما اقلت شمس أثينا السياسية اقلت فكرة البطولة الموروثة وهزمت أثينا وتوالت اماسير الفناء على المدينة وانثبثت المنية اظفارها في احرار المدائن واحاطت بالعالم ليل حالك من اليأس والخوف والمعجز ، والقي الاحياء الباقون ايديهم بالتسليم للمقادير التي عصفت بأعز ما زرع الانسان في صحر الزمان .. أي العقل والخير والحرية وكرامة الانسان :

وما كان قيس هللكه هلك واحد
ولكنه بنيسان قوم تهدمنا

بل بنيان الانسان العزيز البطل الصادق الامين تهتما .. لتقوم على هدمه امبراطورية الاسكندر .. وفي ميثم الحربة نظر الاحرار بعضهم الى بعض ولم يكتفوا براءه الأبطال الذين قتلوا في موقعة كرونيه سنة ٣٣٨ ولكنهم نهضوا امام ربة الموت وقدموا التاج لديومستين فانكر اعداء ديومستين على ديومستين تاج

نستمسك في صراع الاحداث باقصى ما نملك من سكون الروح ولا نهتاج فزعا لاننا لا نستبين ان ما ينزل بنا هو خير ام شر وقد لا ينفع التوجع في شيء وقد لا يكون في شيء من اشياء البشر ما يستحق الهول والتوجع وقد يحول التوجع بيننا وبين السلامة ان مدلت السلامة بنا يدنا لتفطينا على مجل »

فقال : هم نتحدث ؟

« اني اتحدث من النصح فيما ينزل بنا من نوازل القدر ، اني النصح أن نقف منها كلامب الرد المعرض للخسارة فيهيء عقله لاحتمال الخسارة قبل أن تقع ويحتمي بأنفع وسائل الاحتمال التي يبدىها له العقل ولا يتلقاها كما يتلقى الطفل اللطمة والضربة بالبكاء والعويل ، وانما يهيء نفسه لتنهض فتسعف بالدواء ، ويقم ما تهاوى وما اغفل ويضع الدواء في موضع التوجع والعويل . » (افلاطون : الجمهورية : الكتاب العاشر)

ويكاد ديومستين يوجه هذا النصيح الاولوي لاثينا وهي تقابل على حريتها فيليب المقدوني :

« انكم ايها الاثينيون تملكون قوة في البر وفي الخيل والمال اكبر مما يملك سائر الافریق ولكنكم لم توجهوها وجهة صحيحة حتى يومكم هذا ، وانكم لتصارعون فيليب كما يصارع البربار (أي الذي لم يتهذب بتهذيب احرار الافریق) فهذا البربري اذا تلقى لطمة امسك يديه موضع اللطمة ، فان لم في موضع آخر وضع يده حيث لم ، لكنه جاهل لا يمسرف ان يتقى اللطمة باللطمة ولا ان ينظر ولا ان يحذر او يتقى . » (ديومستين الفيليبية الاولى)

الله وسعادة الانسانية ليدفعوا طوفان الدين الجديد الذى يجرف امامه ما ادخر العادلون لسعادة الانسانية ويخلق اول السيل تعليمها ولغة جديدة ليعبث الابناء بمجد آباؤهم ويسعوا الفوضى حرية والشجاعة تهورا والخشونة تاخرا والحلم عجزا والعدل ضعفا ، ويجعلوا النجاح دينا « فما اشهى ساعة النصر والنجاح .. اقدم ولا تتردد فاذا لنا النجاح البسنا النجاح ثياب العادلين .. اطيني ساعة من نهار وارثك ما لا ترعى من سوء العار وبعدل مستدعى فيما يأتى من الدهر اتقى اتقيا البشر .. » (فلوكتيتلسوفو كل)

ومن دين هذه المدينة الجديدة ان تخضع الناس بكل خديعة حتى يصدقوا انك عادل تقي .. والعادل الاكمل هو اظلم الناس الذى يتقنع الناس انه اعدلهم والعالم الاكمل هو اجمل الناس الذى يتقنعهم انه اعلمهم .. وذهبوا في كل مذهب يرمون البريء بصفات المجرمين - اتهموا انتيجونه في آداب سوفوكل ، بالكفر وهي اتقى القديسين ليحلوا قتلها ، واتهموا اعدل العادلين سقراط بالكفر وبافساد الشباب ، واتهموا اوفى الاحرار ديموستين بالخيانة واصبحت اللغة بغير عدل سلاحا يتاروا يقتلون به المؤمنين ويمجدون به الظالمين الجائرين ، وكان القرن الخامس والرابع ق.م. مشهدا رهيبا للاعتداء على اولياء الله الصالحين الاشقياء الذين كانوا اجمل زينة ابطال الانسانية .

الف الانسان في مدينة الابطال ان يصوغ من الفكرة تمثالا ، واذا ابصرت تمثالا لبطل فليس بشيء حتى يعبر عن فكرة صاحبه ، وما نعلم من امر انتيجونه في شعر سوفوكل في القرن الخامس ق . م . الا انها تمثال ناطق صور فيه سوفوكل فتاة تحمل جلال فكرة العدل والتقوى ولو صيغ للفكرة في مثلهما الاعلى تمثال لاستهوت أفئدة الناس اجمعين وانتيجونه كمدارى الاكروبول التى صاغتها

البطولة والعدل فنهض ديموستين يعرض حياته الخاصة والعامة كما كان يمرضها في دين المصريين اولياء الله والعدل وكما ألف الابطال في الالاب الالوممية ان يمرضوا في اناشيد النصر حياتهم العادلة وكما توجت بطولة بطلها بتاج الخالدين ، فتاج ديموستين في خطبة التاج هو خاتمة دين اطفئت مصاليحه وغابت معاله وبنيت المعابد بعدل للظالمين وتليت حياة الطفلة الجبارة على شباب الامم في معاهد العلم ليمجدوا ذكر اعداء الله والانسانية ولا يكادون يذكرون المحسنين الذين قدموا فكرهم واعمالهم واقوالهم ودينهم لسعادة الانسان .. ومن يعمم النظر يجد نسبا قريبا بين فكرة ديموستين في نهاية القرن الرابع ق.م. وفكرة سقراط في نهاية القرن الخامس ق.م. وفكرة سوفوكل من قبلهما في تصوير بطولة انتيجونه .

قد غلب اذن دين جديد على ضمائر الانسان ووقع ما كان يتنبأ به بروميتيوس من زوال ملك زيوس : سيؤول ملك زيوس يوم يولد اله اقوى منه في ضمير الاحياء ، وقد نسال افلاطون ونسال سقراط ونسال اريستوفان وسوفوكل ويوريبيد وآباء الآداب اليونانية في القرن الخامس ق.م. ما هذا الدين الجديد الذى جاء حربا على معابد العدل والخير وكان اشد فتكا بالمدينة من جيوش الفرس وبربرية الاسيويين .. كلهم مجمعون على ان الذى ذهب بمدينة الابطال والعدل هو اله المال والتسلط وحكومة الطفيان ومن قبلهم انزل المصريون لعنتهم على من علمهم الترف وحب المال وصوروا للفضاء صورة قضاة بغير ايدى حتى لا يمدوا ايديهم لرشوة وشيخهم اعمى حتى لا يحابي كبيرا ويحتقر صغيرا .. ودين المال لا يعرف العدل والتبعية استحلت كل ظلم في سبيل الملك والحكم - وفي الحرب الميذبة رد الابطال جحافل الفرس ولكنهم لم يردوا سحر ذهب الفرس الذى سحر ابناءهم وسحر القلبية التى غلبت على ابناءهم وقد صحا العادلون بيقظة الكلب الساهر على دين

التي لم تؤت البطولة مثلها فالبطولة هبة يخص الله بها من يشاء لا تشتري ولا تكسب بعلم ولا تجربة .. وقد قرأنا في شعر يوربيد ان زهور التاج التي يجنيها من مشارف المرعي حرمت على من يشقونها بتعليم المدارس وحرمت على الآمين وما يقطفها الا من وهبته الطبيعة مواهبها .. وقد رأينا سقراط وهو يجادل السوفسطائيين الذين يدعون انهم يعلمون كل شيء ، يحكمهم بسؤال قد لا يعرفون جوابه وهو انهم لا يستطيعون ان يعلموا الفضيلة والبطولة فابناء بريكلير لا ذكر لهم في الفضل رغم مجد ابيهم وتوسيد يدخص ليمستو كل بهية من الطبيعة جعلته الالهي الذي ينظر بك الظن كان قد رأى وقد سمع .. وسقراط لا يدعي العلم وهو عند الله أعلم زمانه وديموستين لا يرد نبوغه في صافى الراى الى شيء أكثر من هبة طبيعية من عند الله ..

فإذا شيعنا العلم بالبحرث والزراعة فقلوب
الابطال التي يعرثونها بالعلم والفكر هي الارض المقدسة الجامعة لسر الله ومواهبه وسنسرى في حرث المذنية القربية بفكر يوناني ان التوارث في البلر لا يقني عن التوارث في هبة الابطال ودين الابطال ، وإذا قارنا آرياب الفكر في العقل الحديث بارياب الفكر في المذنية القديمة رأينا الفرق بين معدن الذهب ومعدن أخرى اقل صفاء وثبلا وخصصنا ابطال الاغريق وابطال الفكر الأولين بانهم كانوا قديسين وانهم كانوا آباء الانسانية الذين لا يرقى الى شرفهم احد وانهم كانوا جنس الذهب الذي وصفه هيزود منذ وارت الارض هؤلاء الابطال ، صاروا ابطالا سعداء بمشيئة الله العلي القدير وأرواحهم حائرة تحرس البشر الغاني .. وإذا نحن غرسنا في اجيالنا افكار الأولين فلا نرجو ان نأتي بعثل بطولتهم وتهذيبهم ودينهم لأن بطولتهم كانت دينا طوته الأيام في منحصر

للخلود أنامل فيدياس وتلاميذه وهي ذروة العقل اليوناني .

ومن صفات الابطال انهم يحبون الله ويحبون الانسانية وانهم ساهرون أبدا على الأبقاء على ما أورثهم آباؤهم وأورثوا الانسانية من خير . فينهضون في ليل الاحداث كالكلب الآمين لتدفع انتيجونه عن ما بقي من ميراث العدل والثقوى والشرف ويسهر سقراط ليدافع عن العلم والعدل ويسهر ديموستين كي يدافع عن الحرية والعلم والعدل والشرف ولم تأفل شمس مدنية الابطال حتى تخلق تماثيل لهؤلاء في معابد العدل والخير وتماثيل في شعائر الاحرار في كل صوب .

ومن صفاتهم انهم كانوا فوق مغريات المال وأقوى من هول الموت .. فإذا غالهم الظلم والجور قالت الانسانية جميعا ما قال ملا طيبة في نجواهم عن انتيجونه وصور ذلك سوفوكل في جواب هيومن لأبيسه كريون الذي قتل انتيجونه :

هيومن : ياأبتي ان الالهة حين خلقت العقل والفكرة للانسان آتته امر الكنوز وأنا لا أستطيع ولا اتجاسر على ان اقول انك لم تهتد الى الحق والصواب ولكن شريك من الناس قادرون على ان يأتوا بالصواب وأني خلقت لاسمع كل ما يقال عنك وما يدبر لك المذبرون من شيء وما يلومك اللاثمون في شيء ، ان الشعب يخاف رهبة وجهك ان قال ما لا تحب سملمه ولكني انا أسمعهم في نجواهم — ان المديسة ترى لانتيجونه ، انها من دون نساء العالمين لاستحق ان تلقى شر العقاب في سبيل امجد عمل يؤديه الانسان ، ان اخاها قتل والقي في العراء نهيا للكلاب الجائعة والطيء المفترس : الا تستحق (١) تاجا من ذهب ؟؟ انهم يرون ذلك في نجواهم .

وانتيجونه لم تهجم في منامها ليلة اعلن كريون تحريم دفن اخيها وهبت توقظ اختها

**المدنية وهذا المنحصر ليس تاريخيا حديثا ولكنه
منحصر هال العادلين من أبطال العدل في القرن
الخامس في م .**

لا بد للبطلنة من هبة قبل العلم والتعليم .

« اني لا اخص نفسي بمقدرة فريدة فيما صدقت فيه فراستي فيما اوليتكم من نصح يا رجال اثينا ولست اعرف لهذا الفضل سببا الا امرين اقولهما لكم : السبب الأول يا رجال اثينا موهبة يخص الله بها من يشاء وهي عندي فوق العلم والخبرة ، والامر الثاني انني لا اقضي في امورك ولا احكم على السياسة بدافع المال ولا يستطيع احد أن يثبت ان للمال ادنى سلطان عليّ وكان صوابا ما املت علي الاحداث فاندته . . ضح المال في كفة والراى في كفة فستشيل كفة الراى ويحلب المال الراى والعقل اليه ولا يستطيع من ينصح ابتغاء مال ان ينصح بشيء حق أو سليم لانه لا يستطيع أن يزن شيئا . . ١ ديموستين خطبة السلم (١٢٠١) »

ونحن نذهب الى ان من اراد الفكر بالمال وللمال فلن يأخذ منه الا ما يفي بانمو العلم واله المال في كفة وزيوس ومدنية العدل والخير في كفة . . كانت مأساة البشرية لان اله المال كان ساحرا يفرغ ضمائر البشر وهي خالية من تهذيب المؤمنين والبطلنة ودين البطولة في كفة وذهب الفرس وذهب المقدونيين في كفة . . قد صرلت الانسانية عن دين والعدل وجعلت العلم تجارة وجري العلماء والخطباء والفلاسفة حيث يجدون المال واقررت معابد العدل حتى تصلي الانسانية لرب المال وتتقاتل الانسانية في سبيل المال ويدخل المال جزر السعداء مع اولياء الله واثقيائه .

كان في ملك كرونوس (أب زيوس) قانون ما زال ساريا عند الله ، وقد سن هذا القانون ليسرى على البشر فكل انسان قضى حياته تقيا عادلا اذا قضى اجله دخل جزر السعداء

وعاش فيها سعيدا مبرءا من الآلام والسوء ، اما من ظلم وكفر فيلقى في سجن يكفر فيه من شروره .

وفي حكم كرونوس وفي حكم زيوس كان القضاء الذين يحكمون على حياة من مات ، احياء يحكمون على احياء ، كانوا يحكمون على الانسان يوم يبلغ اجله وكانت احكامهم غير صادقة فشكى حراس الجنة من اختلاط الاشرار بالاخيار وقد جاء الجنة رجال لا يستحقون ان يكونوا في الجنة ، جاؤوا باجسام جميلة وجاؤوا بالعلم واموالهم وشهد لهم شهود كثيرون انهم عاشوا اتقياء عادلين طيبين (افلاطون فيدون) .

**ولا تضرب شمس المدنية الاولى مدنية الابطال
والعدل حتى تلعو صولة المال والبأس في ضمير
الاحياء ، ويمجد الاسكندر القدوني بما مجد
به ابطال العدل والخير في طيبة مصر فاختلط
الامر على الانسانية التي ورثت عقل الاغريق :**

العدل والبطلنة في كفة والبأس والمال في كفة
واقيمت هذه الموازين لضمير الانسان في آخر المدنية الاغريقية حتى سال الدم على جوانب هذا البيزان الرهيب ولم يصبر الاغريق هذه التجربة المحزنة حتى اسمع ابطالهم وهم في قبضة موت دين الابطال العادلين . . لم يصب الانسانية بلاه اكبر من حب الذهب ، انه هادم المدن وطارد الناس من بيوتهم ، انه هو الذي علم الانسان السيئات وطمس على العقول الصالحة وزج بها الى الفار والسوء ، وعلم الانسان الفجور والكفر في كل زمان . . (سوفوكل انتيجونه ٢٩٥ وما بعده) .

**والابطال الذين نتوج هم صرعى اللطيفان
والمال ولكنهم اقدر الناس على تصوير نفوس
العادلين قبل ان تغشى الضمائر والابصار
بمساقط المدنية الحديثة ، دين انتيجونه هو**

شئت لا عليك من الجرم الثقيل شيء
(ثم يخاطب أنتيجونه) تكلمي ولا تطيلي
الهم تعلمي أننا نادينا بتحريم ما فعلت؟

أنتيجونه : نعم كيف أجهله وقد كان علانية ؟

كريون : ثم تخرفين رغم ذلك قوانين المدينة ؟

أنتيجونه : إن قوانين المدينة لم يأمرني بطاعتها
زيوس ولم تأمرني بها ربة العدالة التي
تعيش بين آلهة الدنيا والآخرة إن الله
والعدالة لم يشعرا للناس مثل قانونك
ولا اعتقد أن قوانينك ذات بأس وقوة
حتى أمسى وأنا هالكة لا محالة ،
قوانين الله التي لم تكتب والنسئ
لا تخطيء مثقال ذرة والتي لم تشع
اليوم ولا بالأمس وهي أزلية أبدية
ولا يعلم أحد متى ظهرت ، أني لا أكفر
بهذه القوانين خوفا من قوانين أحد
من البشر فآلتي عقابي عند الآلهة ،
أنى أعلم أننى لا محالة ميتة ، كيف
أفر من الموت حتى ولو لم تأمر بما
أمرت به ولو مت قبل أجلى كان ذلك
كسبا لي ، فمن كان مثلي يعيش فيما
لا يحصى من الآلام .. كيف لا يكون
الموت ربعا له ؟ وما ضرني إن ألقى
ما قدرت علي من عقاب لكننى لو
تركت ابن أُمى ميتا في العراء فذلك
هو عذابى (سوفوكل أنتيجونه) .

كانت أنتيجونه نبوة بما يلقي أبطال الاحرار
في صراع الجصور وما لبث ذاء السوفسطائية
والبغنى ان فتك بقديس من اولياء الله والمعلل
وحطوا سقراط آلامهم فهم يطبلون كل شيء
فيما يقولون الا المعلل وهو لا يعلم شيئا الا
المعلل وهدله وتقواه صوت يأمره بالصلد
والاحسان وينهاه عما يكره الله والمعلل ، ولكنه
هذا الصوت ان ينسى نفسه ويذكر وطنه ويمشى
في الاسواق يبين للمضدومين انهم جاهلون
واستفحلت السوفسطائية فأصبحت لا تؤمن
بما آمن به أولياء الله والمعلل وحصرت همم

خلاصة دين الابطال العادلين وهى مؤمنة ان
ماتت انها ملائكية من خلا من قومها وانها
سترقد في الآخرة حببية بجوار حبيب ولا
يشئ ارادتها شيء عن أداء الواجب .

الحارس : انى أقص عليك ما كان حينما عدنا
مثقلين بما توعدتنا به ، نفطنا من
الجثة ما كان عليها من تراب وعريتنا
الجثة التي بدأت تتقيح ووقفنا فوق
صخرة عالية بعيدا عن مهب الريح
لنتقى نئن الجثة وايقظ كل حارس
صاحبه بالسنة حديد خشية ان
يصبه امياع او كلل ومكثنا على ذلك
حتى الظهرة وكان الحر لافحا فلم
يفجانا الا اعصار يهب من الارض فملا
أفطار الوادى ترابا وهز الاشجار هزا
عنيفا واظلمت امينتنا وصبرنا على هذا
البلاء الذى نزل علينا من السماء زمانا
طويلا فلما انتشع البلاء ابصرنا هذه
الغداة وهى تلول وتصبح صيحات
حادة كأم الطير ان رات عشها فارغا
من فراخها الصفار ، وكذلك فعلت
هذه الغداة حينما ابصرت جثة اخيها
عارية ارمست صيحات عالية ودمعت
بالشروع على من فعل بأخيها هذه
الفعلة وحملت في أيديها ترابا جافا
في أنام من صلب مطروق وصبت منه
ثلاثا وتوجت بهذا الضوء جثته فلما
ابصرنا هامشينا اليها وأمسكتنا بما فلم
تفرغ شيئا وسألنا عما فعلت من قبل
وعما فعلت الآن ثم تنكر شيئا .

كريون : (يخاطب أنتيجونه) أنت أيها التي
تطرق براسها تكلسى .. انتكرين أم
تتفرقين بأنك أنت التي فعلت هذه
الجريمة ؟

أنتيجونه : انى اعترف انى فعلتها ولست انكر
شيئا ..

كريون : (يخاطب الحارس) اذهب انت ان

المقدمة: من ارمز لربة العدل بربة فوق رأسها
ريشة تقيم الميزان وتزن حبة قلب الانسان
بالحق والعدل . وربة العدل لا تموت ابدا في
عمر الانسانية مهما تردى الانسان في مجاهل
الجبيل والذيلة ، ثم لا نرى الانسانية في
تاريخها القديم والبعيد تناسى على موت ظالم
أو آثم وإنما تناسى على قوم حملاوا دين اعدل
ورفعوا فضيلة العدل الى البطولة أى الى مثل
العدل الأعلى ، نحن لا تناسى على موت أنتيجونه
في تراجيدية سوفوكل ولا على موت سقراط.
في آخر أيام سوفوكل وموت ديموستين في
آخر أيام الديموقراطية الاثينية لأنه بنينا قوم
تهلما .. وإنما تلعب انفسنا عليهم خسرات
لأنهم بلغوا بعلم ودين وبيئة اشرف غايات
الانسان .. أي الرجلين اولى بان يتقدم ذكره
في مقدمة من حياة التراجيدية . لاثينية في
القرن الخامس ق . م . سقراط أم سوفوكل ؟
منطق المعلمين والمدارس التى كنا فيها لا يكاد
يجمع بين الرجلين الا عرضا لأن : لتراجيدية
تبارتو من عمل الشعراء والمثليين ، وسقراط
فيلسوف .. ومنطق المعلمين والمدارس يكره
الجمع بين رجلين مهما أم واحدة ودينهما
دين واحد وأملهما أمل واحد ، وموت سقراط
الذى حكم الاثينيون بامداهم وهم يمشون كأنهم
شهود يشهدون كوميديا من تياترو شعبي .
كان موت اقدس قيم العدل في حياة اثينا ..
لا قدر لكل مدنية ان مات في ضمايرها دين
العدل ولا جمال لآلة حياة ان استهانته بدین
العدل جهلا أو عن اصرار وبيئة ، والتراجيدية
هي تصوير كوارث الملوك والامم الذين انصرفوا
عن دين العدل عن قصد أو جهل واصبحت
حياة اثينا في أيام سقراط وسوفوكل ملكا بنسبي
اوله على التقوى والعدل فانبت الخالدين في
الشعر والفلسفة والفنون وطاروا فريدا من
عظماء الرجال ، ثم اغرهم نشوة البلدان
والحكم ومات دين العدل في ضماير من غرهم
باسمهم ف وقعت اصق تراجيدية شهدها
الاثينيون وهى موت اثينا ربة الاقدام والحكمة
وتهدم ملك بناء المؤمنون بالعدل ومهما اوتينا
من بيئة قلنسنا على شيء بجانب ما كتب اولياء

المعلمين والمتعلمين في أن يتألوا بكل سبيل ثراء
المال وسلطان الملك وما عليهم الا أن يتظاهروا
بالعدل والتقوى فالظاهر اقوى من الحقيقة
والانسان ميزان كل شيء فان خدمت الانسان
ملكته واستحب هؤلاء النجاح والوصولية بكل
سبيل حتى ضيعوا ملك اثينا في آخر حرب
البيلوپونيز ثم اتهموا سقراط التقى واعدل
الناس وبلبل الحكمة وبطل الصدق والحقيقة
واعلم اهل زمانه بأنه كان مجرما مفسدا معلما
افسد تلاميذه وجر اثينا الى الهاوية وسقراط
صامت لم يتكلم فلما قتلوه كما قتل كليون
أنتيجونه ودعوا تقواها كفرا هاجر افلاطون
وأدى الى معابد مصر ، أى الى معابد ابطلال
العدل ، وشغل قلبه بما يبصر في صور البطولة
من حساب الاثياء الصادقين الذين يلبسون تاج
الخالدين ويأبون بعلهم الى جرد السعداء
فكتب دفاعا عن سقراط كأنما يعرضه على
قضاء الله ومحكمة الذمة وبة العدالة ، وهذا
الدفاع آية من آيات البطولة وكثر من كنوز
معابد الاولين .

(٧)

موت سقراط

أي شاعر يثير كامن الأسى على قتل قديس
برىء كان نسكه وصلاته وحياته ومعائه لله
وأوطنه وللعدل .. ولا سبيل لبيان آية لعدل
القدسية في اثينا الا في موسيقى تراجيدية
سوفوكل وفي موت سقراط في آخر أيام
سوفوكل .. فموت سقراط ان نلذت ابصارنا
الى اهمال التراجيدية الاثينية في القرن
الخامس ق . م . هو موت لاشرف القيم التى
بنيت عليها سعادة الانسانية في تاريخها القديم .

قد بينا فيما ذكرنا من دين العدل أن مله مات
البنيان الموسيقى ارتفعت بانقيديسين اللذين
قدسوا العدل الى ربة العدل الجالسة على
عرش « زيوس » وهدهام فنهج الى تصوير
صورة العدل في شيء غير ما ورنث الكتابة

اصلاحه ثم يتدول انقوم في امره فان جاء بما
بصلاح المدينة عفوا عنه وان جاء بما يفسدها
ويفسد قوانينها شدوا الحبل على عنقه
ورشنوه .. ويهدم السياسيون والحاكمون
بساة قومهم بايديهم كلما سخرخوا قوانين
امتهم لاهوائهم - وقبل ان يموى صرح
الديموقراطية الاثينية ويقتل قضاة سقراط
رب العدل والتقوى شكى الاثينيون من خطر ماحق
يهدد الصرح الذي بناء لهم آباءهم العادلون فقد
سئلوا على الفاضلين سيف النفس
(الاوستراسيوس) وكتب اشيل يمجد عدل
محكمة الايوباج وبنى على عدلها شرف اثينا
وسعادتها ، وكتب سوفوكل تراجيدية نفى
فيولوكيتيت ، وكتب اريستوفان نقصد
الديماجوجية والفسقة وغش السياسيين
وفساد طوية الخطباء اى المحامين الذين يتهمون
الاحرار ويتجسسون عليهم واذا نجحوا في
قتلهم باسم الديموقراطية والقانون ورثوا
اموالهم .. وكتب اريستوفان في كوميدية
الدبابير نقد نظام القضاء في اثينا في القرن الخامس
ق.م وكما يكتب مترجم الدبابير في ترجمة
اريستوفان الفرنسية : « كوميدية الدبابير هي
نقد صارم لاهم نظام في نظم الديموقراطية
الاثينية اى نظام القضاء الذى افسده زعماء
العاملة واستغلوه في قضاء مآرهم وخاصة كليون
الذى افسد اخلاق الاثينيين وافسد عقولهم »

ونلخص نظام القضاء في اثينا قبل أن نعرض
صوره في نقد اريستوفان وسنرى ان الحال
وحاجته قد افسد ضماير القضاء في دبابير
اريستوفان ..

لم يكن القضاء في اثينا موظفين ، وكل اثيني
بلغ عمره ثلاثين عاما وهو مستمتع بحقوقه
السياسية قد تقع عليه القرعة فيكون قاضيا
في قضية واحدة . قبل كل قضية يتفرع على
قضاها ، ويختلف عدد القضاة حسب أهمية
القضية فيختارون لبعض القضايا « ٢٠١ » ،
« ١٠٠ » ، « ١٠١ » .

وكان هؤلاء القضاة في أول حياة الديمقراطية

العدل في تصوير ما حل بامتهم من بلاء ..
وما يقدم اسرار شمير العدل والحرية الا
المديسون اولياء الحرية والعدل ، وما ضرنا
ان نسمع تفصيل ما كتب (فلاطون عن سقراط
وهو بين ايدي قومه التحالفين في قضاء لامة
يتهمونه زورا انه كفر بالاله الاثينية و.. بآء حرمت
باله غريبة ، وانا افسد شعب امنا و.. اذ
سب ما حل بهم من ضياع ملكهم وما نزل بهم
من دمار في مزينة صقلية وما وقع فيهم من
فتنة وحرب اهلية ، وصدق قضائه الكثيرون
اغتراء تلاميذ السفسطة وقتلوا بلبل الحكمة
واشرف العادلين وقديس العدل والتقوى
ضحي وهم يلعبون وسقراط صامت لم يتكلم
حتى عرفه بيان تلاميذ افلاطون في صورة
ادنى الى دفاع القديسين عن حياة العادلين
امام ربة العدل التى بيدها مفاتيح الخلود ..
والتي تترج العادلين بتاج النصر والخلود ..

فضاة سقراط

نظام القضاء اصدق موازين الحرية والعدل
مما وقد ترى امة ناعمة الهال مزدهرة البيع
والجارة وحديث الاحداث ثم لا يفنى عنها
البجاه والشراء مثقال ذرة ان اختل العدل في
ذمة القضاء مثقال ذرة .. والدليل قدسوا
الحرية قدسوا قوانينهم فعلقوها أو نقشوها
على معابد الهتهم ، والمساواة والحرية
والديمقراطية والعدل اسماء كاذبة اذا
طبع شريف في حيفك او ريس ضعيف من
عدلك ، وذهب الاحرار كل مذهب في الابقاء
على قوانينهم المقدسة فكل تصدع في العدل
تصدع في صرح السعادة والحرية ، ويحدث
ديموستين عن صولون حين سالوه عن عقاب
مزيغي القوانين .. قال لهم صولون ان مزيغي
القوانين اشد خطرا ممن يزيفون المال المصكوك
.. فقد استطاعت امم ان تعيش رغم مغلطها
المزيفة وما تستطيع امة ان تعيش أبدا اذا
زيغت قوانينها ، وضرب ديموستين لامة تكلف
من يريد ان يصلح قوانينها رهقا ، كانت تضع
في عنقه حبالا ثم تدعه يسيط لاهل المدينة

اسمع اسم « التيرانية » منذ خمسين عاماً
وهي الآن أهم من المسيح واسمها في الأجوار
على كل لسان . (١) (الدبابير ٨٧) وما بعده)
شر الكوراث ما أقبل عليه الإنسان مختاراً
بكل جوارحه وهو لا يدري أنه مقبل على حتفه،
لذة الخمر قاتلة ومن أخلت الخمر برأسه لا
يرجع إلى الحق . . وفي كل الشهوات خمر . .
وشهوة الحكم خمر جامحة وقد أخلت خمر
الحكم بعمامة الأثينيين فلم يستمعوا لما يتلى
عليهم من آيات الحكمة وتردوا في كارتهم رغم
نصيحة سوفوكل وفلسفة سقراط وسخرية
أريستوفان وماحلت عقولهم من بينات الحكمة
وما أصاب مدينة العلم والحكمة قد يصيب
الإنسانية كافة الا من عصم الله فاستمسك
بالعدل والتقوى وصيحت سوفوكل وسقراط
في شمرات سكرات قومهم باتت بلالفا للعالمين
ونصحا للآحرار في كل عهد . . لله ما علموا وما
عملوا ، وقد صور أريستوفان خمر الزهو التي
أخلت برؤوس عامة الأثينيين اذا قضوا .

فيلوكليون : اني سأبين لكم ان سلفتنا ليست
اذنى من سلطة أى ملك وأبسط الأمر
من مطلقه . . هل ترون في الدنيا
نعيماً وسعادة فوق نعيم القضاء
وسعاده ؟ هل من حياة أمتع أو أكبر
هية من حياة القضاء وخاصة في
شيوخوختمهم فقبل أن أذهب من
مضجعي ينتظرنى عند عتبة المحكمة
رجال كبار ذوو قامة عالية فاذا
اقتربت وضعوا في يدي يدهم الناعمة
التي سرفت أموال الدولة ويستجرون
بى خاشعين بصوت مسكين ويقولون :
« أتى أضرع اليك واستجير بك يا ابنتي
فربما تكون أنت مثلى قد سرفت يوماً
ما شيئاً في حكم توليته أو في الجيش
في ما اشتريت لؤونة رفاقك - وهذا
الرجل لا يكاد يشعر بحياتي لو لم
يُرد أن إبرئه قبل كل شيء »

بدليكيون : هذا شأن المستجيرين ولأحفظها
لك .

يقضون بغير أجر حتى جعل لهم بريكليوس
أجراً - فياخذ القاضي « أويولا واحداً » من
كل جلسة ودفع أجر للقضاة كما يقول مترجم
الدبابير) أحدث أثريين أولهما أن الأغنياء
والموسرين انصرفوا عن هذا القضاء الذي
لا يكافئهم بهذا الأجر الزهيد وأما الفقراء
والمفارقون والكسالى فقد أقبلوا عليه وجعلوه
مورداً لرزقهم - قبل كل جلسة كانوا يتزاحمون
على أبواب المحاكم - وقعت المحاكم في قبضة
زعماء العوام الديماجوج منذ رفع كليون أجر
الجلسة من « أويولا » واحد إلى أويولات
ثلاثة وأصبح الفقراء سادة المدينة .

ولم يكن العدل هم القضاة بل كان همهم
الأجر وظاهر السلطان والحكم . .

وحرس الديماجوج على أن يبسطوا يدهم
على القضاء ليخلصوا من خصومهم السياسيين
وليأكلوا مال من شأدها من الأثينيين وكان ذلك
عهد التجسس والوشاية . .

انبتت ضرورة المال في أثينة عامة الأثينيين
وأشترى زعماء العامة ضمائرهم بدراهم
معدودة وهجر العدل الأمن ضمائر القديسين
الأخيار ، وصارت ديموقراطية سولون
وكليستين في حياة القديسين الأخيار
ديموقراطية ظاهراً وهي في صيغة الأخيار
حكومة الجور والبغي وهي ابغض
ماكره العادلون من الجور وأشتى ما
تردى فيه أمة من ظلم ، وانبتت التيرانية في
قلب حكومة الأثينيين وهامتهم لا يشعرون . .
كما يقول الكوروس في كوميدية الدبابير :

الكوروس : أليس ظاهراً كالشمس حتى
للفقراء أن حكومة الطغيان (تيرانية) تثبت
قينا من حيث لا نشعر - أن كنت أنت يا شر
الأشرار تنزع منا القوانين التي سنتها المدينة
لا لسبب ولا علل مقبول سوى أن تحكمنا
وحده .

بدليكيون : كل شيء عندكم حكومة طغيان
ومؤامرة في الصغرة والكبرة من أمورك لم

رأى من شيء ، قد استبدوا مسرة واحدة وسلطوا قوانين المدينة على أعدائهم وأدعوا الإخلاص للمدينة والشعب وفرضوا لقصاصة الشعب أجرا زهيدا « ثلاثة أول » كلما أسعد العاطلين الحظ فوكت عليهم قرعة القضاء وهم بذلك فقرء معلقة آمالهم بحكام الشعب الذين اشتروا ضمائرهم وسخروهم كالدبابير على خصومهم وشهروهم كالسيف في قضاء مآربهم :

« ان زعماء الشعب حريصون على فقرء (أى قاضى الشعب) وسأين لك ما يريدون من وراء ذلك — يريدون ان تعرف من يروضك حتى اذا صغر لك مروضك لتنتفض على عدو من أعدائه انقضضت عليه وافترسته كالوحش وما كان أيسر الأمر لو جعلوا الناس جميعا أغنياء أو أنهم أرادوا (١) لكنهم قترؤا على الشعب وخرجوا هم والمتملقون بنصيب الأسد واذا تمطشت نفوس الحاكمين في حكومة ديموقراطية الى الاستبداد بالحكم فصير المدينة ان تفشاها الرذيلة والظلم والدمار ..

ملك العامة ملكا عظيما في حياة سقراط فلما بغوا انقضوا كالدبابير المصروعة يقتلون العادلين الأبرياء ، وعلم السفسة الحديث الذى أحل حراما وحرم حلالا وجعل الخطابة سلاحا يتارأ اشرف غاياته ان يقلب حججه في القضاء وفي المجامع السياسية ظالما أو مظلوما — وبحججه المظالة قتلوا سقراط وقضى الأمر ومات سقراط — لكن سقراط سيقت بعد موته امام ميزان ربة العدل والانسانية وتزن قلبه الطاهر البريء بريشة العدل فاذا من قتله قومه من عامة الإلينييين وتلاميذ الموسطائيين يدخل في ضمير الانسانية في جنة القديسين والشهداء فيخلد فيها أبدا ..

وما كنيه أفلاطون عن سقراط بعد موت سقراط كان بقطة ضمير الإنصاف والعق في

ليولكليون : حتى ادخل المحكمة فاسمع رجاء المستجدين ويذهب عنى الغضب ، ولا أفضل شيئا مما وعدت به وأسمع اصوات المتهمين يسألون البراءة ثم تعاملوا فانظروا بأى تملق يتوسل التقاضون الى القاضى منهم من يبكى فقره ويبالغ فيه ومنهم من يروى لنا قصة من نوادر « ايزوب » ومنهم من يعزح حتى أضحك ويصرف عنى همى فان لم تنفع هذه الوسائل توسل اليها باطقاله الصغار وجاء في يده بالينين والبنات ثم استمع انا اليهم وهم مطرقون يتكلمون باصوات كثفاد الغتم ثم يتحدث أبوهم نيابة عنهم ويسألنى وهو يرتعد ان أبرئه من الحساب على سوء ادارته ويقول لي اذا كنت تحب صوت الشروف فارحم صوت ولدى وان كنت تحب صوت النجاج .. اثر على بصوت بنيه ونحن نيسط له وجهنا بعض اليسط اليست سلطة القاضى سلطة كبيرة نهزأ بكل غنى ؟

وامتع ما أجد في كل ذلك قد نسيته اذا رحت الى دارى ومعى اجر قضائى ، كل اهل الدار يرحبون بي حبا في قطعة الفضة (التريبول) وينتنى تحمينى وتعمر قلعى وتحلق على وتقلبنى وتنادينى « بابا » وتصيد بلسانها قطعة التريبول من فمى وإمرأتى تدلنى وتقدم لى نظيرة ثم تجلس بجانبى وتمزم على وتقول كل هذه اللقمة ، فترقى هذه اللقمة . (١) الدبابير ٥٦٠ وما بعده

هؤلاء القضاة سعداء بعظاير السلطان لان القضاء في أثينا كان قضاء شعبيا ، وكان الشعب سلاحا في أيدي زعماء العاصمة « الديماجوج » ولم يكن لزعماء العامة

أمك وخلفك في ظل قوانين المدينة ،
تعال فقل هل تعيب على قوانين الزواج
شيئا (فساقول (لا لا أعيب عليها
شيئا) (أم هل تشكو شيئا من
القوانين الخاصة بتربية المولود وتعليمه
والتي تعلمت أنت بفضلها والتي
فرضت على أبيك أن يملك الموسيقى
وربما الأبدان هل تجدها عيبا ؟)
فساقول (كلا إنها قوانين صالحة)
فقالت (وهو كذلك فمن حيث أنك
ولدت ونشأت وتعلمت فهل تدعى
الآن أنك لست ابننا ومبدنا
وأنت منا أنت وأبناؤك وأجدادك وإذا
كان هذا هو شأنك فهل تعتقد أن لك
علينا مثل مالنا عليك من حق لك
أن ترد علينا ما نقضي فيك - فإن
كنت لا تملك مثل ما لأبيك عليك من
حق ولا مثل ما لسيديك أن كنت عبدا
حتى ترد عليها ما يصيبك منها
فإذا شمتناك شمتتكما وإذا ضربناك
ضربتكما أو شيئا من هذا القبيل -
هل يحل لك أن استطعت أن تهدمنا
نحن القوانين ونحن وطنك إذا نحن
راينا من الحق أن نقتلك ، ثم تقول
إذا فعلت ذلك ، أن ذلك هو الحق
أنت يا من تعيش للفضيلة بحق
وأنت أيها الحكيم هل يخفى على
حكمتك أن الوطن أحق بالبر والتقدير
من أبيك وأمك وأسلافك أجمعين
وهو ذو منزلة عالية عند الآلهة وعند
الحكام وأن للوطن علينا حقا أن
نقدسه وأن نطيعه ونفعل ما يأمرنا به
ونحتمل ما يأمرنا به ، أن نحتمل
بنفس راضية ولا نرد له أمرا
أن ضربنا أو قيدنا أو ساقنا إلى
الحرب لنجرح أو نموت فنفعل ما
يأمرنا به لأن ذلك عدل وحرام علينا
أن نفر من صفونا أو ننحاز عنها أو
نخلى عنها ولا بد أن نطيع ما يأمرنا
به الوطن في القتال أو في المحاكم أو

أثر الحياة الحرة العادلة التي لم يرتكب مثقال
ذرة من سوء وهل ترى في مآسى البشرية
مأساة أكثر من أن يقتل البقية الباقية البرية
من أولياء الله والعدل في معبد العدل المهجور
- وقد قرأت الإنسانية من بعد سقراط إيمان
سقراط بخلود أرواح العادلين وقرأت هذه
الآية الفريدة من تقديس الوطن وقوانينه .
نصح كريتون سقراط أن يهرب من السجن
ويتقى الموت فاجابه سقراط :

سقراط : انظر ما أقوله لك . هب أننا هممنا
بالمهرب أو سمع كما تشاء فإذا بقوانين
المدينة تعرض سبيلنا وكذا الصالح
العام وتقول لنا (قل لي يا سقراط
ماذا تريد أن تفعل الست ترى أنك
أنما تقدم فيما تستطيع على هدم
القوانين والوطن جميعا ألست تعلم
أنه لا بقاء للمدينة إذا هان العدل فيها
وهيئت أفرادها بأحكام القضاة
فسلبوها سلطانها وهدموها ؟) فماذا
تجيب يا كريتون على هذا السؤال أو
على ما يشبه هذا السؤال - قد
لا يعدم الإنسان حجة وخاصة من كان
خطيبا في الدفاع عن القانون الذي
دسنا عليه والذي يامر باحترام قضاء
القضاة - أنجيب القانون أننا هربنا
لأن المدينة ظلمتنا وأخطأت في حكمها
علينا ؟ أنرد على القوانين بهذا
الجواب ؟

كريتون : تجيب بذلك الجواب يا سقراط . .

سقراط : ثم ماذا نقول أن قالت لنا القوانين
(ألم تصعد لنا يا سقراط باحترام
ما تحكم المدينة به ؟) فإن استغرينا
لما تقول فقد نقول (لا تعجب لنا
نقول يا سقراط ولكن اجبننا فقد
دابت على السؤال والجواب ماذا
تشكو منا ومن وطنك حتى تهتم بهدمننا
الآلهين لنا بحياتك فقد تزوج أبوك

قوانين الهية خالدة - واولياء العدل في دين العدل علموا كثيرا من قوانين الله الأزلية الراسخة في الصدق التي لا تحيد عواقبها عن الحق مثقال ذرة وهي التي علمت للانسان الرياضة والفلك والحساب وكشفت للانسان ابواب السعادة والخلود وهذبت الانسان بما يرضى الله والعدل - وهي في اعماق التراجمية الاينية ، كل ملك لا يستند على قوانين الله والعدل لا يلبث أن يهدم وكل حياة حادث مثقال ذرة عن تقوى الله والعدل فعاقتها الشقاء والبوار . . ومن ملك كل شيء ولم يستمسك بقوانين العدل فقد ملك مالا يفي عنه شيئا ، ومن صفات قوانين الالهة انها مغيبة في اصول الحياة والموت لا تراها الا ضمائر الانقياء العادلين ومجدد الشعراء والموسيقى في دين العدل انهم بنوا للانسان نصيبا من سلطان عدل الله وطباب لشعراء التراجمية الاينية ان يصنعوا ملك الثرائية والسلطان المطلق بقوة عدل الله الذي لا يفشل شيئا وقد رأينا كيف لقيت انتيجونه الموت بجنان ثابت لانها مؤمنة بدين العدل في اساطير اوديب ، وقد نرى كيف لقي سقراط الموت في اثينا بنفس راضية لانه مؤمن بدين العدل.

وما رفع ادب اولياء العدل الى شرف الانسانية الا انهم آمنوا بعدل الله الذي لا يرضى للانسان عار الفحش والرذيلة ، لا يقتل الله الكاذبين الظالمين المخادعين ويحب الله الخيرين الصالحين الظاهرين - وعين العدل ساهرة تبصر ما يخفى ولا تغيب عنها النويا - ومن شر البلايا ان يعيش العادلون حتى يصارعوا بموتهم وحياتهم غائلة الظلم الذي لا يبصر الا ظواهر الامور - ويتخذ ظواهر الاشياء ميزانا لكل شيء ويكفر بالعدل والدار الآخرة التي لا تشهدا ابصار الجاهلين ولا تصدق بها افئدتهم . . وفي آداب هذا العهد خاصة خلاف بين الحقيقة الأزلية الوسولة بعدل الله وبين الحكم بظواهر الاشياء وصار الخلاف بين

فيما يشاء الوطن او تنفع الوطن ان يغير حكمه بسبله المشروعة - اما من يمسى أمه واباه او وطنه فانما يرتكب ظلما حرمه الله) فعماذا نرد على ذلك يا كريتون ؟ هل تقول القوانين حقا أم لا ؟

كريتون : اني اعتقد انها على حق . .

سقراط : ثم تقول القوانين (تعال يا سقراط اطع القوانين التي ربتك ، لا تجعل ابنائك ولا حياتك ولا اي شان من شؤنك اعلى من العدل حتى اذا لاقيت الله في آخرتك دافعت بالعدل من حياتك لدى قضاة الآخرة ، فان هربت وعصيت امرنا فلن تجد في هذه الارض خيرا ولا شرقا ولن ترضى العدل والتقوى وتلحق سيرة السوء بكل اهلك ولن تجد في الآخرة ثواب العادلين واليوم تبرح الحياة ان غادرتها مظلوما لم تظلمك القوانين انما ظلمك اناس من البشر فان خرجت هاربا من سجنك لبيست هارا ودفعت السيئة بالسيئة والشر بالشر وخرقت العهد الذي عاهدتنا عليه ، وأذيت اقل الناس استحقاقا لاذاك ، تؤذي نفسك واصدقاك ووطنك وتؤذي بنا نحن وسينزل بك فضينا حيا واذا مت لا تتبلك قوانين الآخرة وهم اخوتنا قبول سعيدها لانهم يعلمون انك هممت بهدمنا بما ملكت بميتك فلا تطع كريتون فيما ينصحك به واتبع ما نأمرك به(١) .

(٨)

دفاع سقراط

الدفاع عن هذه الحياة بعد الموت كان طرفا من دين العدل - وعدل الله في الآخرة له

وتجر محراثه أمة الخيل ، وقيائل الطير السريعة طوقا بشرأكه واقتنصها ، ووحوش البر والبحر قد أوقمها الانسان الذكي في حباله المبوكة وملك بشباك ووحوش الجبال واخضع عنق الجواد الناعم شعره لطوق الناف واخضع رقاب تيران الجبال التي لا تكل .

وتعلم البيان والفكر الذي يسرى كالنسيم واخلاق المدينة وتعلم أن يتقي نزلات البرد في العراء وهو ذو حيل واسعة وهو يمضي لنفده غير عالم بشيء منه والموت وحده لم يجد منه مفرا والامراض العvisية صرف دواها .

واولي من العلم والفن ما جاوز الأمل حتى اذا اخذ بزمام الحكم في مدينته تضاربت عليه الضلالة والهوى واختلطت عنده قوانين الارض والعدالة الالهية والايمان . . ليس اهلا لوطنه من لا يروعي من ارتكاب السوء ومن لا يدخل في عبادته (أي عبادة العدل) ومن لا يؤمن بما أومن به (١) «سوف وكل أنتيجونه ٣٣٢ وما بعده»

فابناء اثينا الذين غرهم ملكهم وفرتهم قوتهم نبغوا اذن في البر والبحر ، وعلموا كثيرا مما كان عندهم علما حديثا واستكبروا على آداب المادلين فأفترقوا امهم ونهض خطبؤهم فزجوا بسقراط في محاكمة لم يدافع فيها سقراط عن نفسه وتنجحوا في اعدامه فكتب اغلاطون بمد موته محاورات سقراط وكتب دفاعا عن سقراط للعدل والانسانية ولله رب العالمين انه دفاع امام محكمة اثينية وهو في اعماقه كخطابة القديسين المصريين الذين يعرضون حياة الموتى لرية العدل ومن تطهرت كل حياته من الآثم وعمل طول حياته عملا صالحا توج بتاج النصر والبراءة ليدخل جنة

الطائفين في اثينا ايام سقراط وسوفوكل وتوسيديد خلافا بين مذهبن من مذهب الحياة والعقل ، وانتصار الصامة الغالبة الحاكمة لظواهر الامور علمها الباطل والكذب ، واحل البغى والظلم وهدموا بظواهر الجاه والبأس ما بنى المادلون بالحق والقوى - وقد تلخص حياة المادلين امثال شعراء التراجيدية وسقراط انهم حاربوا بمواهبهم الخارقة خدعة الظاهر في مقول المخدوعين بظواهر الامور من بنى قويمهم - وقد تمادت اثينا في الباطل حتى خدمت عامة المدينة بظواهر الامور فاستمسكت غير مرة بنصر ظاهر وجاه خادع كسراب بقية وظلمت اقياءها المادلين المؤمنين الذين لا يهاون بنصر فلوله ولا ينتقشون فوق دروعهم آثار فخارهم لانهم لا يحرمون على أن يكونوا ابطالا في ما يظهر للناس ولا يبتنون مسوى الحقيقة التي توزن بميزان عدل الله والذين حرقوا في قلوبهم حرًا عميقا ثبت نباتا شهيا من العلم والرأى . . فالتراجيدية الانسانية في الانسان نفسه حين يرتفع ابطال العدل الى قمة الخلود ثم لا يملكون لقومهم نفعا اذا تردى قويمهم في وهاد الظلم . . وما يملكون الا أن يقيموا شعائر العدل بين قوم مستكبرين . . ولو اذن مؤذن للصلاة في حي الآثم والبناء للذهب دعاؤه هباء - ولو نبئت لمار شهية في حفل الخبيث من الزرع للذهب الخبيث والسطيب هباء - فهل دعا الشعراء قوما صما عن سمع آيات العدل أم كانوا قوما يملعون كثيرا عن صناعتهم وسياساتهم وحريتهم ولكنهم سلخوا طريقا غير التي سلكها باؤهم واستكبروا كثيرا - ولملك قاريء صورتهم فيما صورده سوفوكل في تراجيدية أنتيجونه :

الكوروس : في الخلق عجائب كثيرة وليس فيها شيء أعجب من الانسان . . امتطى أعناق الموج المزمجر ومسار بريح الجنوب العاصفة والارض الطيبة المقدسة التي لا تكل ولا يفيض معينها . . انه يجهد بها بمحراثه . . يقلب أرضها غدا ورواحا عاما بمد عام

الى لهجته ولغته التي شب عليها فاسمحوا لي ايضا ان اخطبكم بلغتي واسلوبى الذى شبيت عليه ، واسالكم هذا الحق الا تقيديني بأسلوب وأقبلوا أسلوبى حسناً أو قبيحاً ولا تنظروا الا الى امر واحد - هل اخطبكم بالعدل والحق ام لا فلهذه هي فضيلة القاضي وفضيلة المحامي ان يقول الحق .

من حتي يا رجال اثينا ان ادفع عن نفسي التهم القديمة الكاذبة وادحض التهمين الاولين، حتي اذا فرغت منها دفعت التهم القريبة والمتهمين الحديثين ، انني بلوت متهمين كثيرين قد اتهموني منذ عهد بعيد ولم يقولوا الا كذباً واني اخشاهم اكثر مما اخشى « انوتوس » ورفاقه الذين لا استهين بخطرهم ، اما السائقون فهم عندي اشد هولاً ايها الرجال لانهم استبدوا بعقولكم منذ صباكم واقتنومكم وافترؤا علي كذباً وقالوا لكم ان فيكم رجلاً يدعى سقراط وهو رجل عالم مهتم بدراسة السماء باحث من أسرار الأرض ويقلب الرأي الضميف على الرأي القوى - قد افشوا هذه التهم ايها الاتينيون وهي اخطر ما اخشى من التهم لان الذين يسمعونها يؤمنون ان الباحثين من هذه الاشياء لا يؤمنون بالالهة وهؤلاء المتهمون غير قليل اتهموني من اجل بعيد وخطبوكم وانتم في سن تصدق كل شيء في طفولتكم وفي صباكم واتهموا من لم يدافع عن نفسه قط ولم يدافع عنه احد - وانكر ما في امرهم انك لا تستطيع ان تسمى احدا منهم باسمه اللهم الا شاعر كوميدية ، ومنهم قوم اكل الحسد والحقد قلوبهم فروجوا فيكم هذه التهم واشاموها بين الناس وهؤلاء لا سبيل الى معرفتهم ولا الى دعوتهم هنا ودحض افترائهم ولا يد ان تدفعهم كظلال الشياطين وتدفع تهمهم وهم غيب لا يجيبون ، فاعلموا ان الذين يتهموني طائفتان : الذين اتهموني في هذه المحاكمة والذين اتهموني من اجل بعيد ، وهؤلاء همس اول من ادحض افتراءه لانكم سمعتموه قبل ان تسمعوا الاخرين وسمعتموه اكثر مما سمعتم هؤلاء الاخرين .

السعداء مع العادلين المؤمنين وما بغنى في عرض دين العدل ان كنتني باطراف من هذا الدفاع فهو دفاع في باطنه دين العادلين المؤمنين في الحياة والموت وهم اولى الناس بان يتحدثوا عن دينهم وادبهم . . هذا الادب ميراث الاحرار في كل دهر وما ضرنا ان نتلو آياته كاملة وما وسعنا الصبر .

ا - مقدمة :

اني لا اعلم يا رجال اثينا مدى تأثركم بخطابة الذين اتهموني ، اما انا فقد كنت لا اعرف نفسي لانهم يملكون ناصية البلاغة والافتناع وان لم يقولوا كلمة صدق واحدة ولكن اكبر ما عجبت له في كل ما افتروه من الكذب شيء واحد حين سألوكم ان تكونوا من كلامي على حذر لاني فيما يدعون خطيباً ذاهية . . اولاً يستحون من الكذب ان كذبتهم من فوري وانبت لهم انني لم اظهر ابداً في حياتي في هيئة خطيب مقتدر - ان ذلك الكذب اخرى ما يخزيهم ما لم يكونوا يسمون خطيباً ذاهية من لا يقول الا الحق فان كان ذلك ما يقولون فانا أقول معهم اني خطيب لكنني خطيب على غير طرازهم . . فهم كما قلت لكم لم يقولوا كلمة صدق واحدة وانما لن تسمعوا مني الا الحق كل الحق، لن آتيكم بالله يا رجال اثينا بكلام مزين مثل كلامهم ولا مثلهم بمبارات بدية والفاظ ونغم ولكني ساعدتكم بكلام مرسل على علاه . . اني مؤمن اني لن اقول لكم الا الحق والعدل فلا تنتظروا مني شيئاً سوى العدل والحق ، انه لا يجعل يستني ايها الرجال ان آتيكم بكلام مصطنع منقو كما يفعل الصبية ، ولي عليكم بعد ذلك رجاء يا رجال اثينا اسالكم ان تحققوه فاذا رايتهموني احدتكم واجادكم بأسلوبى الذى ألفت ان احدتكم به في سوق المدينة على الموائد حيث سمعني كثيرون منكم او حينما الفتم ان تسمعونني فلا تعجبوا ولا تثوروا - والسبب في ذلك انني اقف لأول مرة امام القضاء وقد بلغت من العمر سبعين عاماً وانا جاهل بأسلوب الحاكم واذا جادكم رجل اجنبي حقا استمعتم

وبذلك أبدا الدفاع وأحاول أن أنزع منكم هذه الريبة التي حفظتم زمانا طويلا في ساعة ضيقة ، وأريد أن افعل ذلك لعل فيه خيرا لكم ولي ، وأن دفعت من نفسي هذه الريبة ففسد كسبت كثيرا ولكني اعرف ان ذلك أمر عسير ولا يخفى علي عسره ، فليكن ما يريد الله ولنؤمن بقانون المدينة ونبدأ الدفاع :

تعالوا نتابع الامر من اصوله لتري منبت الريبة التي اعتمد عليها ميليتوس فرفع علي هذه القضية - انظروا ماذا يتهمني من التهموني ولنقرأ نص اتهمهم : « سقراط ارتكب ظلما فهو دائب البحث عن اسرار الارض والسما والنياب الرأي الاضعف على الرأي الاقوى ويعلم بالاميرة ان يفعلوا مثل فعله . »

وبرجع ذلك الى ما القتم ان تشهدوا في كوميدية اريستوفان ، اذ تشهدون سقراط معلقا يدعي انه يمشي في الهواء ويقول سخافات اخرى ما أنزل الله بها من سلطان ولا أعلم منها صغيرة ولا كبيرة ولست في ذلك بمستعجب مثل هذه العلوم ان علما احد من الناس - لكني اقول ذلك لكيلا يتهمني ميليتوس بهذه التهمة الخطيرة فاني ايها الاثينيون لا علم لي بشيء منها ، اني استشهد بكثيرين من بينكم واني اسألكم ان يفضي بعضكم الى بعض بما سمعتموني اجادلکم فيه فكثير منكم قد سمعوني ، فليحدث بعضكم بعضا ان كان احد منكم سمعني اقول ادني شيء من هذه المسائل - وستعلمون بعدئذ ان ما يرميني به عاتكم لا يعدو هذا الباطل ، كل ذلك باطل وكاذب من يقول انني كنت معلما اعلم الناس تلقاء اجر من المال .. وانا احمى من يستطيعون تعليم الناس كما يفعل جورجياس الليونتييني وبروديكوس الكيوسمي وهيبباس الاليسي (١) كل رجل منهم يا رجال اثينا قادر على ان يذهب الى كل مدينة ويقنع شبان المدائن اللذين يستطيعون ان يصاحبوا من شاقوا من رجال

وطنهم بغير اجر وهم يقنعون هؤلاء الشبان ان يقطعوا مصاحبة اعلمهم وبصحبهم هم ويؤجروهم اجورا من المال ويعترفوا لهم بالجميل - وبيننا الآن عالم من بارسوس كما اخبروني ، وحدث اني ذهبت الى بيت كالياس بن هيبونيكوس وهو رجل دفع وحده هؤلاء العلماء اكثر مما دفع لهم سائر الناس فسألته هذا السؤال وهو والد له ولدان فقلت له يا كاليا : لو ان ولديك كانا مهريين او عجلين لعرفت ان اختار لهما معلما باجر يعلمهما ويجعلهما اصلع واجمل .. كل حيوان حسب مواهبه - اذن لاخترنا لهما مروض الخيل او فلاحا ، لكن ولديك من الانس فمن عسى ان تختار لهما من المعلمين .. اي المعلمين يستطيع ان يعلم الفضيلة والانسانية والسياسة .. فلا بد انك فكرت في هذه المسألة لان لك ولدين - وقلت « هل نجد هذا المعلم او لا نجد » فقال : « لا شك انه موجود » فقلت : « من هو ومن اي البلاد وكم يتقاضى من اجر لقاء تعليمه » فقال لي : « انه ايفيتوس من اهل بارسوس يا سقراط وهو يتقاضى خمسة مئة (اي خمسمائة درهم) »

اما انا فقد غبطت نعمة ايفيتوس لو استطاع حقا ان يعلم كما يقولون بهذه الطريقة المحكمة وكم كنت اناهي واكثر لو كنت أعلم ذلك ولكني لا اعرف من ذلك شيئا ايها الرجال . وقد يعترض منكم معترض فيقول : « ما خطبك يا سقراط من اين انتك كل هذه التهم فان كنت لم تفعل سوى ما يفعل الآخرون فما هذه الشهرة العريضة التي كسبت وما هذا الاسم المفرد العلم .. قل لنا ما هذا الخطب حتى لا نتخطب في امرك خطب عشواء » .

ان هذا سؤال عدل وساجتهد فابين لكم منبت هذا الاسم والشهرة الباطلة فاستمعوا له ولا يحسن احكم اني الهو وكونوا على يقين اني لا اقول غير الحق .. ان هذه الشهرة

وناقشته فعاداً لقيت منه أيها الرجال الاتينيون؟
قد ظهر لي أن الرجل عالم في ظاهر الأمر عند نفسه وعند عامة الناس وهو في حقيقة الأمر غير عالم ، ثم حاولت أن أبين له أنه مخدوع بحسب نفسه علماً وما هو بعالم وكانت النتيجة أنه عاداني هو وكثير من الحاضرين ، ثم رجعت إلى نفسي وقلت لنفسي أني أعلم من هذا الرجل ، وكلانا قد لا يكون على شيء من علم الجمال والخير والفرق بيني وبينه أنه لا يعلم شيئاً وبحسب نفسه علماً وأنا لا أعرف شيئاً ولا أحسب نفسي علماً - فانا أعلم منه بهذا المقدار الضئيل وهو أنني جاهل غير مخدوع ولا أحسب نفسي علماً . . . ثم انطلقت إلى رجل آخر ممن يعده الناس علماً وكانت النتيجة واحدة وقد عاداني هو أيضاً ، وعاداني قوم كثيرون . .

وبعد ذلك مرت سبوتي لم أكف من البحث وقد عرفت أنني ملاق عدواة الناس وقد آتيتي مداونهم وملاني رعباً ولكني جعلت قول الله فوق كل حساب وكان لزاماً علي أن أمضي في طريقي لاستستين ما تعني نبوة الله . . فامتحنت سائر المشهورين بالعلم . . وأنا بحق الكلب (الكلب حادس أبواب الآخرة) يا رجال اتينا لا أقول إلا الحق واليكم ما جربت في امتحان الناس :

أن أشهر المشهورين بالعلم إلا قليلاً منهم كانوا أقل الناس علماً في هذا الامتحان الذي أمرني الله أن امتحنهم به - وكان أبسط الناس اقربهم إلى العلم . . لا بد من أن أعرض عليكم سعيي واجتهادي في تأويل نبوة اله ديلف وتأويلاً يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فبعد المشهورين في السياسة ذهبت إلى الشعراء الذين يقرضون الشعر في التراجيدية وشعر الاناشيد الدينية وكل شعر آخر وأنا عالم أنني إن آليت أن أبدي لهم صفحة جهلي وأنتي دونهم علماً وقد أخذت معي أجمل شعرهم الذي قالوا وسألتهم من منتهى

نحت من علم عرفته فما هو هذا العلم - ربما اسميه علم الاتيسان ، ربما أكون علماً بهذا العلم أما هؤلاء العلماء الذين ذكرت من قبل فليس لهم علوم أكبر من علم الانسان أو ضلت حيلتي فلا أعرف ما أقول فانا لا أعلم من علمهم شيئاً ومن قال اني أعلم لهم فقد افترى علي كذبا ورماني بكل ريبة .

وانا أسألكم يا رجال اتينا إلا تضجوا ولا تصبوا اني أتيتكم بمبالغة وما أقوله ليس من عندي وانما أتيتكم بمن قال هذا القول وهو فائس جدير بأن تصدقوه « أي علسم أن كنت أعلم وما قدر هذا العلم اني أتيتكم بشاهد عليه هو اله ديلف . . وأنتم تعرفون من هو شريفون أنه صاحب مندا الصبا وهو صديق عامتكم قد نئي معكم ورجع معكم وأنتم تعلمون اخلاق شريفون إذا أقبل على امر أقبل عليه بكل نفسه ، قد قدم يوماً على معبد ديلف فاجتراً أن يسأل عرافة المعبد عن عسى أن يكون أعلم مني فاجابت النبوة بصوت عال أنه ليس من أحد أعلم مني . . ويشهد على مسا أقول أخ شريفون فهو حاضر بينكم لان شريفون نفسه قد مات » .

فتبينوا ما بالي أقص عليكم هذا الحديث انما أريد أن أبين لكم مصدر هذه التهمة الباطلة التي اتهموني بها حين سمعت هذه النبوة قلت لنفسي . . ماذا يقول اله ديلف وهل وراء هذا القول معنى خاف . . فانا في نفسي أعلم أنني لمست على صغيرة ولا كبيرة من العلم فعاداً تعني النبوة التي تقسول اني أعلم الناس ، والنبوة لا تكذب ولا يحل لها أن تكذب - ومكثت على ذلك زمناً طويلاً لا أستبين معنى هذه النبوة - وبعد لأي أخذت على عاتقي أن أبحت من معنى هذه النبوة ، فمشتيت إلى رجل مشهور بالعلم وهل من سبيل إلى أن أستبين حقيقة النبوة إلا بهذه الوسيلة وقلت للعرافة : « هذا الرجل أعلم مني وأنت قلت أنني أعلم منه ثم امتحنت الرجل ولا حاجة بي للذكر اسمه ، كان رجلاً من اعلام السياسة امتحنته

العلم لله وحده وإن علم الإنسان علم ناقص أو هو علم لا يزن متقال ذرة وقد تكون نبوءة الله اشارت الى اسم سقراط لتضرب به مثلاً كأنما تقول للناس اعلم الناس من تخلق بأخلاق سقراط الذي يؤمن بأن علمه لا يساوي في حقيقته شيئاً وما زلت اسمع في المدينة ابحت ممن عسى أن يكون عالماً من أهلها ومن الأعراب وافعل ذلك مرضاة لنبوءة الله - فإن لم أجد احداً عالماً صدقت نبوءة الله وبيت له أنه ليس بعالم وجعلت ذلك شغلي الشاغل فلم أجد فراغاً بعد ذلك لقضاء شئون المدينة أو قضاء شئوني الخاصة وعشت في فقر مدقع لأدري ما علي لله من شيء .

وفوق ذلك تبغني شبان من أبناء الاغنياء كان لهم من سعة الوقت ما يقدر لهم أن يتبعوني من تلقاء أنفسهم وسرههم ما سمعوا من امتحان الآخرين فقلدوني في احيان كثيرة وجعلوا يمتحنون الآخرين وما اظن الا أنهم وجدوا لدى من يحسبون أنهم علماء أنهم لا يعلمون الا قليلاً او أنهم لا يعلمون شيئاً ، وبعد ذلك غضب علي من وقوعا عرضة لامتحان هؤلاء الشبان وكان اولي بهم أن يفضيوا على أنفسهم ثم قالوا ان في المدينة سقراط فاسقنا وماذا يعلم ؟ قالوا أنهم لا يعلمون ولكي لا يجدوا حرجاً قالوا ما يقال في اهام الفلاسفة أي أنه يبحث عن أسرار افلاك السماء وباطن الارض ولا يؤمن بالآلهة ، ويقلب الحجة الضعيفة على الحجة القوية ، وهم لا يحبون أن يعترفوا بالحقيقة وهي أنهم يدعون العلم بما لا يعلمون وهم رجال يحبون سمعتهم وهم رجال ذوو باس والعدد غير قليل وهم يد واحدة علي ، واذا اجتمعت كلمتهم كانوا مقنعين صادقين وملأوا اذانكم قديماً وحديثاً بهذه التهم الفاحشة ومن هؤلاء من انقضوا علي مرة واحدة وهم ميليتوس واثونوس ولوكوس - وعاداني ميليتوس باسم الشعراء . . وعاداني اثونوس باسم السياسيين والصناع . وعاداني لوكوس باسم الخطباء . . وبذلك فانا كما بينت لكم في اول الخطاب يدعشني أن أستطيع في وقت قصير أن اتزع منكم رغبة استقرت في

أن يعلموني ايضاً من علمهم شيئاً . . اني أنا استحي أن اقول لكم حقيقتهم ايها الرجال ولكن لا مفر من أن اصالحكم بها . . لست اتجنى عليهم ان قلت أن كل الحاضرين كانوا احسن حديثاً في تاويل ما كتب هؤلاء الشعراء ، ولم البث أن علمت من أمر الشعراء هذه الحقيقة وهي أنهم لا يقرضون الشعر من علم وانما يقولون الشعر بموهبة طبيعية خاصة ويوحى اليهم ، ومثلهم كمثال انبياء الله والمنبئين بالغيب فهم يقرضون شعراً جيلاً ولكنهم لا يعلمون ما يقولون ، كانت هذه هي خبرتي مع الشعراء وتبينت أنهم يشعرونهم يحسبون أنهم اعلم الناس وهم في الحقيقة ليسوا على شيء من العلم فانصرفت من لدنهم بنفس النتيجة التي انصرفت بها من لدن علماء السياسة وهي اني اعلم منهم لانهم مؤمنون أنهم علماء وهم ليسوا على شيء من العلم وانا لا اعلم شيئاً وانا عارف اني لا اعلم .

ودهيت آخر الامر الى الصناعات وانا اعلم اني لا اعلم من علمهم شيئاً واني ساجد فيهم من يعلمون امورا كثيرة جميلة ولم اكن مخدوماً في ذلك فهم كانوا يعلمون ما لا اعلم وكانوا في ذلك اعلم مني ولكني وجدتهم يا رجال ائينا فيهم عيوب الشعراء وعلماء السياسة فهم بمهارتهم فيما احسنوا من صنعتهم ظن كل منهم أنه اوتي من العلم كل شيء وهذه الخدمة حجت العلم عنهم . . وقد سألت نفسي وانا مهتم بنبوءة ديلف : ليس خيراً لي ان ارضي بما قسم الله لي . . لا احظى بعلمهم ولا بجهلهم ولا يكون لي ما هم فيه من علم وجهل ثم اجبت نفسي واجبت النبوءة انه من الخير لي ان ابقي كما قسم الله لي .

هذا البحث والتحصيل يا رجال ائينا قد خلق لي اعداء كثيرين ومنهم اعداء لا تأخذهم في عدوهم رحمة ولا ذمة فاشاءوا عني هذه الريب وسموني عالماً وقد ظن الحاضرون كل مرة انني عالم فيما اقحمت فيه الآخرين ولعل الله ايها الرجال اراد بهذه النبوءة ان يقول ان

يستطيعون ان يعلموا الشباب ويجعلوهم احسن حالا .. اي والله .. يستطيع هؤلاء القضاة جميعا ام ان منهم من يستطيع ومنهم من لا يستطيع .. كلهم .. انك تقول قولا حسنا بحق هيرا ونحن اغنياء برجائنا النافعين وهؤلاء السامعون هل يجعلون الشباب خيرا ام لا وهؤلاء ايضا واعضاء المجلس واعضاء مجلس الامة هل يفسدون الشباب ام يصلحون حاله وهؤلاء ايضا .. يظهر ان الاثنيين جميعا يستطيعون ان يصلحوا من حال الشباب وانا وحدى مفسدهم اذلك ما تقول ؟؟ نعم ذلك ما اقول .. انك ترميني بشؤم كبير لكن اجبني هل الامر سواء في الشباب وفي الخيل يصلح حال الخيل كل الناس ويفسد حالها رجل واحد ام الامر كله على عكس ذلك يستطيع ان يصلح حالها رجل واحد او فئة قليلة اي سائسة الخيل والاكثرين حددا ان عاشروا الخيل او ركبوها افسدوا حالها اليس الامر كذلك يا ميليتوس في الخيل وفي سائر الاعام .. اي والله سواء اجبت انت واونوس او لم تجب .. وما كان اسعد الشباب لو افسدهم واحد وحده واصلحهم سائر الناس .. كلا يا ميليتوس لقد اجبت اجابة تكفي للتدليل على انك لم تشغل بالك بما عسى ان ينفع الشباب او يضرهم واظهرت انك لم تهتم ابدا بما تقدمني للقضاة من اجله .

ب - عدل سقراط

قد قلت لكم في اول دفاعي انني عاداني قوم كثيرين فاطلوا انني لم اقل لكم الا الحق وهذه العداوة هي التي ستحكم علي ان حكم مالي ولا اخشى ميليتوس ولا اونوس بقدر ما اخشى ما غشي الاكثرين من ريبة وتهمة وهما ذاء قدبم فضى على قوم كثيرين من خير الناس وسيتقي في عمر الزمان على الاخيار ولا يقتصر بلاؤه علي ..

وبينما يقول قائل : الا تستحي يا سقراط من ان تلعب في حياضك ملهبا قد يودي

نفوسكم زمانا طويلا - ومع ذلك يا رجال اتينا لا اخفي عليكم شيئا ولا اكدب عليكم في شيء مما اقول ولا اقول الا الحق وذلك الذي يصير علي العداوة كما جرهما علي من قبل والدليل على صدق ما اقول ان ما يتهمونني به اليوم هو ما اتهمت به قديما واسباب العداوة واحدة وسواء فتشتم منها اليوم او تفتشون عنها بعدئذ فستجدونها قائمة ..

هذه هي التهم التي افشها المتهمون السابقون قد دفعتها بهذا القدر الكافي ، اماهم ميليتوس الفاضل صديق المدينة فساجتهد الآن في دفعها هي وسائرهم المتهمين ، وعمالوا نقرا نص اتهمهم لانهم جادوا بتهم غيرهم الاولين .. واليكم نص اتهمهم : انهم يقولون ان سقراط افسد شباب المدينة وكفر بالهة المدينة وآمن بالهة جديدة ، تلك هي صيغة اتهمهم فتعالوا نحصة تهمة تهمة ، قال ميليتوس اني اركبت جريمة افساد الشباب وانا اقول ان ميليتوس ظالم في استهارة بأمور الجدل ودفع الناس الى المحاكمة وادعائه الاهتمام بأمور لم يعرها اي اهتمام وساجتهد في ان ابين لكم اني لا اتجنى عليه - فتعال هنا يا ميليتوس وقل لنا .. انت لا تبني شيئا اكبر من ان يكون شبابنا خير شباب .. ستقول : نعم .. فتعال وقل لهؤلاء القضاة باي الناس تجعلهم خير شباب ، لا ريب انك تعرف لانك مهتم بهذا الامر وقد وجدت مفسدهم كما تقول فقدمني لهؤلاء القضاة واتهمتي .. اما من يصلحهم ويجعلهم خير شباب فتعال وقل من هو ؟ انك ترى يا ميليتوس انك صامت لا تستطيع ان تجيب .. الا يحزنك ان تقدم بصمتك شهادة كافية على ما اقول وهو انك لم تهتم قط بمن عسى ان يجعل شبابنا خيرين فاضلين ، لكن قل لي ايها الطبيب : من الذي يجعلهم خيرا معا هم ؟ القوانين ؟ . ولكني لم اسالك عن ذلك يا احسن الناس ، لكنني اسالك اي الرجال الذي يعلم كيف يصلحهم ويعرف ما تحدث به .. اي القوانين ام هؤلاء القضاة يا سقراط .. ماذا تقول يا ميليتوس .. هؤلاء القضاة

سوى الفطن بأننا علماء ولسنا علماء ، وهو الفطن بأننا نعلم ما ليس لنا به من علم .. لا يعلم أحد الموت وعسى أن يكون الموت أسعد سعادة الإنسان ثم يخافه الإنسان كأنه على يقين أنه اشتق شقاء الإنسان .. اليس ذلك أزدل انجهم أن ندعي العلم بما لا نعلم ؟ وقد يكون الفرق بيني وبين أكثر الناس أنني لا أعلم علما شافيا بما يجري في ديار الموتى ثم لا أراني ادعى العلم بما لا أعلم ولكني أعلم أن الظلم عار وشر ومعضية من هم خير منا ألما كان أو بشرا عار وشر وأنا لا أخاف ولا أهرب من شيء لا أدري لعله خير وما ينبغي لنا أن نخاف ونتقى إلا ما نعلم من يقين أنه شر .

ربما ينفو أحدهم ولا يصدق دموى انوتوس الذى قال لكم أما أن سقراط لا يعرض على القضاء من بادية الأمر وأما أن يعرض وفي هذه الحالة ليس لكم من سبيل سوى اعدامه .. وقال لكم ان برأتى ساحته فسيفسط ابنائكم فيما تعلموا من سقراط حتى يفسدوا عن بكرة أبيهم ، فإن قلت لي بعد ذلك « يا سقراط نحن لن نطيع فيك انوتوس وسننفو عنك على شرط واحد وهو أن تكف من قضاء حاجتك في امتحان الناس وفي الفلسفة وإن عدت مرة أخرى حكمتنا بموثك » ان برأتوني بهذا الشرط أجبتكم بهذا القول : « اني حريص عليكم وأحبكم أيها الإثينيون ومع ذلك فاني اوثق طاعة الله على طاعتكم وطالما كنت حيا ينبض قلبي فلن أكف عن الفلسفة وعن أن أحرضكم على العلم وعن تنوير من ألقى منكم وأقول له ما ألت أن أقول : « يا خير الناس انك أثيني من أعظم المدائن وأشهرها بالعلم والحكمة والقوة إلا يخزيك إلا يكون لك في الحياة هم سوى المال تريد أن تجمع منه أكثره ثم لا تكون لك هبة لشر سلطان الحكم والدمابة أما عثلك وأما الحقيقة وأما روحك فلمست تحفل بها شيئا ولا تفكر في أن تجعلها الذكى نفس وأبصر عقل وأخلص حقيقة ؟ » .

فان اعترض احدكم وقال انه لم يفعل عقله

بحياتك ؟ ومن حقى أن أقول له : انك لا تنصف أيها الرجل اذا رأيت أن واجب الإنسان مهما صغر شأنه ان يبالي بخطر الحياة والموت ولا يبالي اذا عمل عملا إلا بشيء واحد .. ايعمل عملا عادلا أم ظالما .. ايفعل فعل العادلين أم يفعل أفعال الظالمين .. انك اذن لا تمجد الابطال الذين ماتوا في طرودة - هم جميعا وخاصة اشيل بن ثيميس الذى كان الموت أهون عليه من أن يلحقه عار فقد قالت له أمه وهو غاد ليقتل هيكتور وأمه الهة شيئا مثل هذا القول « يا بني انك ان انتقمتم موت رفيقك باتروكل وقتلت هيكتور فستموت أنت مع هيكتور كان ذلك قدرا مقدورا » فلما سمع ذلك لم يبالي بالموت والخطر بقدر ما يخاف من سبة العيش ومن شر الخزي اذا لم ينتقم لرفاقه وقال لأمه من فوره : « الموت أحب الي ان اخذت الحق لظلم من أن اميش هنا لدى سفني المقوسة سفرية في فم الساخرين وإن امكث حملا على الأرض » هسل تراه يبالي بالموت والخطر .. ذلك هو الحق أيها الإثينيون فحيثما وضع أحد نفسه في منزلة اختاره لاثنا خير المنازل في نفسه أو في صف صفه فيه قائده يجب أن يثبت في مكانه ويلقى اخطاره لا يبالي بالموت ولا بأي خطر إلا الخزي والعار .

ما كان يغفر لي أيها الإثينيون لو برحت المنزلة التي أنزلني الله فيها وقد صفني قوادكم الذين اخترت لقيادتي في يوتيديا وفي امفينوليس وفي ديليون فثبت في صفوني التي وضعوني فيها كأي جندي وكنت ألقى حتفي - أفحيث وضعني الله وهو من أمنت به واتخذته مقيدة وحيث امرني أن اميش للعلم والحكمة ابحت عن العلم والحكمة في نفسي وفي نفوس الآخرين .. أولي هاربا خوفا من الموت أو من أى خطر سواء وما كان أخوف ذنبي ان فعلته ، واذن كان لكم الحق ان تقدموني الى القضاء وتهموني بحق أني لا أؤمن بالالهة وأنى لم اطع نبوة الله خوفا من الموت ، فاني ادعى العلم بما لا أعلم .

وهل الخوف من الموت شيء أيها الرجال

فلن تجدوا رجلا مثلي .. سأقولها ولو ضحكتم مني فقد وضعتني الله في جانبكم كالهماز في جانب الجواد العظيم الأصيل الذي نقلت خطاه بما نمي بدنه وهو بحاجة إلى مهماز يوقظه .. هذه هي الفريضة التي كلفني الله أن أؤديها إلى أهل المدينة .. كلفني أن أوقف كل رجل منكم وأقنمكم والومكم حيث وجدتم ولا أكف من ذلك أبدا طول نهاري - كلا أيها الاثينيون اتركوا لا تجدون مثلي بغير مشقة وأن تصدقوني فلا تغرطوا في وريسا تقضبون فتستجيبون لاثووس فتقتلونني كما يضرب الفارق في نومه من يوقظه ثم لا تفيقون من سباتكم العميق بقية حياتكم ما لم يعبا الله بكم فيرسل لكم رجلا مثلي .

قدروا أن رجلا مثلي إنما وهبكم الله إياه فهل ترون من البشر أحدا يفعل أعماله ويعمل كل أشغاله الخاصة أوما طويلا ولا أقفل من حياتكم مثقال ذرة بل ألقى كل امرئ منكم كما يلقي الوالد ولده والأخ الأكبر أخاه وأخرفه على أن يتعلق بأهداب الفضل ، ولو أنني حرصتكم على الفضل لقاء أجر كسبته أو ربح نلته لكان أبي فيما قلت مبرر - ولأن انظروا إلى هؤلاء الذين اتهموني أنهم خلعوا قناع الحياة فرموني بكل تهمة ولكنهم لم يستطيعوا أن ينجروا فيأتوا بشاهد واحد يشهد أنني فعلت شيئا يوما ما لقاء أجر أو أنني سألتكم أي جزاء وحسبي شاهد واحد يشهد بصديق ما أقول .. هذا الشاهد هو قفري ..

وربما يبدو فعلي غريبا أن تروني أطوف ما أطوف بالمدينة لا أسدى نصحي إلا لأفراد ولا أجرؤ على أن أقدم فأسدى النصح للأمة المدينة والسبب في ذلك هو ما سمعتموني أقوله مرارا كثيرة .. هو هذه القوة الإلهية والتي سخر منها ميليتوس في اتهامه .. فمئذ صباى ينتابني هذا الأمر وأسمع صوتا وهذا الوازع هو الذي تمنعني من أن أباهر سياسة المدينة وأنا أحمد الله أنه تمنعني وأعلموا ذلك علم اليقين أيها الاثينيون وأني إن كنت باشرت

وروحه فلن أدمه وأتولى عنسه بل سأسأله وأمتحنه وأحملة الوزر وإذا لم يكن على شيء من الفضل ثم أدمي الفضل فسألومه بأنه اشترى الذي هو أدنى بالذي هو خير وأثر الفث على الثمين ، سأفعل ذلك بالكبير والصغير بالقرب والقريب ، وأفعل ذلك بأبناء وطني خاصة لما بيني وبينهم من أواصر القرى وأعلموا أن الله قد أمرني بذلك وأني مؤمن أن أكبر ما مسكم في وطنكم من خير هو استمساكي بطاعة الله فيكم ، أن عملي الوحيد في غدوي وفي رواحي أن أقنع شبابكم وشيوخكم ألا يتموا بأجسامهم وأموالهم وأن يولوا أرواحهم ما يجعلها أركى ما تكون تهديبا وفضلا .. سأقول لهم أن المال لا يخلق الفضائل وإنما تخلق الفضائل الأموال وكل الطيبات في حياة الأفراد والأمم .. أبهذا الحديث أفسد شبابكم ، فإن كان مفيدا فهو أذى ومن أدمي أنني أقول لشبابكم غير ما بينت لكم فقد قال بهتان وزورا ، ومن أجل ذلك أقول لكم يا رجال اثينا سواء علي صدقتم اثووس أم كذبته سواء برالموني أم حكمتكم علي إن أفلأ إلا ما أمرني الله أن أفعل ولو قتلتموني ألف مرة .

والآن أيها الاثينيون لا تفرعوا وأصبروا .. أنني أسألكم أن تستمعوا لي ولا تقاطعوني فيما أقول لكم وأني مؤمن أنكم لن تجدوا في سماي إلا خيرا .. قد تثارون علي بعض ما أقول لكم فبالله لا تفعلوا فانكم أن قتلتم رجلا مثلي حرصا عليكم فافكم لا تؤذوني بقدر ما تؤذون أنفسكم .. أن ميليتوس وأثووس لا يملكان أن يضرائني شيئا .. وكيف يستطيعان .. لا يملك الخبيث أن يضرب الطيبين شيئا قد يستطيع قتلي أو نفيي أو تجريدي من حقوقي السياسية ثم يصعب هو أو أحد غيره أنه ضرتي وأذاني كثيرا وأنا لا أعد هذه المصائب شيئا إنما أعتقد أن أم المصائب أن يفعل ما يفعل هو الآن .. أن يقدم بريثا للقضاء ثم لا يهدأ له بال حتى يقتله فانا لا أدافع من نفسي بقدر ما أدافع عنكم فلا تجدوا نعمة الله عليكم فتقتضوا بأعدائي .. فان قتلتموني أيها الاثينيون

السياسة في المدينة منذ عهد بعيد اذن
لقلتلوني قبل أن أنفكم أو أنفع نفسي .

ولا تفضوا علي لاني اصارحكم بالحق . .
لا سبيل لاحد من البشر أن يامن على نفسه
اذا عارضكم او عارض اية غالبية سياسية
وصارح بالحق وصد عن سبيل ما ترتبون من
ظلم ومسا تخالفون ما أمرت به او نهت عنه
قوانين المدينة ولا مفر لمن شاء أن يدافع عن
العدل مخلصا ويامن على نفسه زمنا طويلا أن
يبقى فردا ولا يدخل في صراع السياسة -
ساتيكم ببرهان على ما أقول : وهذه البيئة
ليست كلالا وانما هي شيء نحترمونه ، هي
بيئة من واقع اعمالكم - ساقص عليكم ما بلوت
بنفسي لتعلموا انني لم اخضع لاحد الا بالعدل
ولم أفرط في العدل خوفا من الموت . . ولا مفر
من الموت لمن يعميكم . . ساوونها بأسلوب
المحامين في المحاكم ولكني لا أقول الا الحق . .

انني ايها الاثينيون ما قوليت في المدينة أي
حكم الامرة واحدة يوم كنت عضوا في مجلس
الخمسائة وكانت الرئاسة (البريتان) اذن
في قبيلتنا أي قبيلة (انتيوخيس) قد اجمعتم
اذن على أن تعاكموا قوادكم العشرة الذين لم
ينتشلوا غرقى المعركة البحرية (١) ولم ترعوا
في ذلك العدل والقانون كما تبينتم ذلك بعدئذ
وكنت انا وحدي بين رؤساء المجلس الذي
عارضتكم كيلا تفعلوا أي معصية تخرقون بها
القانون وابتيت وحدي أن أصوت بما تشتهون
وقد انبرى لي خطباؤكم واحدا أن يقدموني
للمحاكمة وكنتم تتصايحون وتعرضونهم على
أخذي ، وقد اخترت أن ابقي في جانب القانون
والعدل مهما أصابني من خطر ولا أكون معكم
خشية السجن والموت اذ جرتم على القانون
والعدل .

وقد حدث ذلك أيام كانت المدينة ديمقراطية

فلما جاءت حكومة الاقلية ناداني الثلاثون حاكما
الى مقرهم وامروني أنا وأربعة آخرين أن ناتي
من سلامين بـ « ليون » ليقتلوه وقد امروا أكثر
الاثينيين بانجاز أوامر كثيرة ليشركوا في جرائمهم
أكثر من يستطيعون من شركاء وسأبت لكم
بالفعل لا بالقول انني لا أعيا بالوت ولا غير الموت
ولا تخافوني بهذا الأسلوب العادي والذي
أعيا به قبل كل شيء أن لا أفعل ما لا يرضي الله
والعدل وكذلك هذه الحكومة على قسوتها لم
ترعني ولم ياخذني الهول من قسوتها فاركتب
ظلما فلما خرجنا من مقرها مضى الاربعة الى
سلامين وجاءوا « بليون » أما أنا فقد انصرف
الى دارى وقد أصبحت بذلك عرضة للموت
نولا أن عجل الله بهذه الحكومة فسقطت . .
وسيشهد على ذلك شهود كثيرون .

أتحسبون اني كنت أعر هذا العمر الغلويل
لو انني باشرت السياسة بالمدينة وفعلت ما
ينبغي لرجل عادل أن يفعله فابصر العادلين
وأجعل ذلك فوق كل حساب في حياتي . . كلا
ايها الاثينيون . . لا أنا ولا أحد سواي من
البشر . . وكذلك عشت في حياتي العامة ان
وليت فيها حكما وفي حياتي الخاصة لم
أرض احدا على حساب العدل ولم أرض احدا
حتى ممن تجنى علي فيه هؤلاء المتهمون لعدوهم
تلاميذى - انني لم أكن أبدا معلما ولكنني لم
أضن على أحد ان أراد أن يسمع ما أقول أو
يشهد ما أفعل صغيرا كان أو كبيرا . . لست
رجلا أن قبض المال تكلم . . وإذا لم يقبض
المال أبى أن يتكلم ولا فرق بين فقير وغني أن
جاءا يسألاني أو أصب فقير أو غني أن يجاوبني
ويسمع ما أقول فان انقلب بعدئذ خيرا أو
شررا ، فبأي حق تحملوني وزره وأنا لم أعد
أحدا علما ولم أعلم تلميذا قط وإن ادعى أحد
انه تعلم مني شيئا أو سمعني أقول
ما لم يسمعه سائر الاثينيين فقد ادعى علي
كذبا .

١ - معركة الارجينثول البحرية عام ٤٠٦ ق م . : القاتلون يفتي بأن يحاكم كل قائد على حدة - والشعب في نفسه اباد
ان يحاكم القواد كلهم مجتمعين مرة واحدة .

ج - الخاتمة

فإذا لم تتجملوا بالصبر يا رجال اثينا مسكم عار وانهمكم الذين يحبون أن يسبقوا إلى المدينة ، سيقتولونكم انكم قتلتم سسقراط العالم ، سيقولون اني عالم ولو لم أكن عالما نعم سيقول ذلك الذين يلومونكم .. وإذا سبتم قليلا جاءكم الأدلة متفاداة من تلقاء نفسها . انظروا إلى مني واعلموا أن الموت قريب مني .. اني لا أقول ذلك لكم جميعا وإنما أقوله للذين حكموا بأعدائي ، اني أقول لهؤلاء هذا القول ربما تحسبون ايها القضاة انني لاقيت هذا المصير لاني عجزت عن اقناعكم وانني لم افعل كل ما ينبغي ان افعل أو أقول لانجور من عقابكم ، ما أبعد هذه الفكرة عن الحق .. ان عجزني لم يكن عجزا في البيان ولكنني فعلت ما فعلت حياء ، اني خطبت من ان أقول لكم ما تحبون ان تسمعه فأنكب بين أيديكم واستجير بكم وأقول وافعل ما لا يليق بي .. افعل ما الف الآخرون أن يفعلوه ، أو لم افعل لكم اننا لا ينبغي ان نفعل في المخاطر إلا ما يفعله الأحرار ومن واجبي الآن ألا ادافع عن نفسي إلا كما يفعل الأحرار وأنا أوثق الموت على أن أمشي متبعا غير طريق الأحرار .

ليس لي ولا لأحد سواي أن نعمل كل شيء في المحاكم وفي الحشر لنتقي الموت ، فغني القتال قد يحدث كثيرا ان يتقي الإنسان الموت اذا التقي سلاحه واستحاج بأعدائه الذين يلاحقونه وفي كل خطر حيل كثيرة يشج بها الخائف من الموت اذا اجتار الإنسان على أن يفعل كل شيء أو يقول كل شيء .. اتفاق الموت حين واتقاء السبيات عسر .. ان السبيات تفدو وراعا يخطئ أسرع من خطئ الموت وأنا بطيء وشيخ كبير قد لحقني ابنا اللاحقين والذين الهوموني علاؤون مسرهون فلحقهم أسرع اللاحقين أي الشر والسوء وسنخرج من هنا - علي أنا مقاب الموت وعليهم هم أمام الحسق عقوبة الأثم والعدوان !!

فلننظر إذن ان الموت في أكبر آمالنا خير ..

لكن ما بال كثيرين أحبوا أن يصبحوني زمانا طويلا ؟ اسمعوني ايها الاثينيون فقد قلت لكم كل الحق - انهم أحبوا أن يسمعونني امحص علم الذين يحسبون انفسهم علماء وما هم بعلماء وهو امر لا يدلو من متعة أما أنا فقد أمرني الله بذلك كما قلت لكم ووجدت آية الله في نبوءة ديلف وفي أحلامي وفي آية سورة من العصور التي تكشف للإنسان أمر الله وما أقوله لكم ايها الاثينيون حق اثباته يسير .. فلو انني أفسدت طائفة من شباب اليوم وأفسدت طائفة من قبل فلا بد أن ينهض منهم من كبروا فاستبانوا اني تصدقهم في شبابهم نصيحة فاسدة ثم يتهموني ويطلبون عقابي . وان لم يريدوا هم ان ينهضوا فيتهموني فلهم اولو قري .. أياؤهم أو آخرتهم أو كل من يعنون اليهم بصلة فإن كان أقاربهم قد أصابهم شر يبدي فليذكروه الآن وليسالوا عقابي ، اني أرى منهم كثيرين يبتكم اني أرى بينكم كريتون وهو من رفاق صباي ومن عشيرتي ، وهو أب كريتولوس - ثم لوزانياس الشفيعي والد اشمين ثم انتيفون الكيغيزي والد ايجين وآخرون سواهم حضر أخوتهم محاورائي : نيكوستراوس بن تيوزتيدس اخ تيودوتوس وقد مات تيودوتوس فلا يستطيع أن يسأل اخاه شيئا وفيكم بارالوس بن ديمودوكوس وكان نياجيس اخاه وفيكم اديماتوس بن اريستون وهذا اخوه افلاطون وهذا ايا نتادوروس وهذا أخوه ابولودور وكثيرون آخرون استطيع أن يخطب منهم أسميهم ، كان ميليتوس يستطيع أن يخطب منهم شهردا على دعواه فان كان نسي فليدعهم للشهادة وأنا أذن له ان يأتي بمن يشهد منهم بما يدعي ، مستجدون تقيض ذلك تماما ، مستجدونهم جميعا ينهضون لنصرتي انا الذي أفسد حياة اعليهم كما يدعي ميليتوس واتوتوس ، ربما يكون ان أفسدت حياتهم مدر في أن ينصروني ولكن ما مدر أقاربهم الذين لم أفسد والذين بلغوا الكبر ، اللهم لا عدل لهم الا الحق والعدل وانهم يعلمون أن ميليتوس كذاب وأنا صادق .

ونمتحنهم وخاصة أن قضائهم هناك لا يقتلون أحدا بهذه الأسباب . . . وهؤلاء الموتى بعد ذلك أسعد من الأحياء في هذه الأرض فهم خالدون فيها أبداً إذا صدقت الأساطير .

انما ينبغي لكم أيها القضاة أن تستبشروا بالموت وتؤمنوا بصديق هذه العقيدة في أول ما تؤمنون . . . وهي أن الإنسان العادل الخيّر لا يصيبه سوء في الحياة والموت وأن الله لا يتخلى عن مصيره وأن ما أصابني بحكمكم ليس رمية من غير رام ، بل هو خير أرادته الله به أن أموت وأعتق من هذه الأشغال ولم يصرفني من الموت ذلك الهاتف الذي يهتف بي ولست آسى على شيء من حكم من حكموا علي ولا من اتهم من اتهموني . . . وهم لم يصيروا في حكمهم واتهامهم عن هذه العقيدة وإنما فعلوا ما فعلوه ظانين أنهم يؤذونني وفي ذلك هم يستحقون الملامة .

ولي عليكم رجاء - إذا شب ابنائي فصاروا شبانا فمأبجهم أيها الرجال - ألوهم كما ألتكم أن رايتوهم يؤثرون على الفضل مالا أو جاهاً وصرفوا همتهم لشيء غير الفضيلة وإذا خادعوا أنفسهم فحسبوا أنهم على شيء وهم ليسوا على شيء . . . فلو موهم كما قلت أن الوهم حتى لا ينفلوا ما ينبغي لهم أن يفعلوه ويحسبوا أنهم ذوو قدر وهم في الحقيقة لا يستحقون شيئاً وأن فعلتم ذلك كنت مدينا لكم بالعدل وأديتم إلى ابنائي أمداً ما تؤدون .

والآن قد حان الرحيل فانا راحل إلى الموت وأنتم عائدون إلى حياتكم فأبنا أسعد طريقاً - الله وحده يعلم . . .

(٩)

تاج ديموستين

لا تفتب شمس مدينة العدل والابطال حتى تبصر اثينا في آخر القرن الرابع سنة ٢٣٨ ق م تتعلم الحقيقة في مدرسة الالام- ظلت رغم

فالموت إحدى اثنتين فاما ان يغنى الميت ولا يشعر بشيء أبداً أو ان الموت كما تقول الاساطير انتقال من حال الى حال وانتقال الروح من مالنا هذا الى عالم آخر فإذا كان الموت انعدام الشعور إطلاقاً وهو نوم لا يرى فيه النائم حلماً . . . الا يكون الموت اذن ربحاً عظيماً ؟؟

فلو ان رجلاً وزن ليلة نام فيها ولم يضطرب نومه بطم أبداً بسائر الأيام والليالي التي عاشها لم تسأل كم من أيام حياته ولياليه كان أمتع وأطيب من هذه الليلة ، فلا ريب أن يؤثرها هو والمك الأعظم على سائر أيامه ولياليه فإذا كان الموت كنوم هذه الليلة فاني أعده ربحاً والزمان كله يقضى كليلته واحدة من هذا القليل .

فان كان الموت رحلة الى عالم آخر وكان حقاً ما تقول الاساطير ان الموتى جميعاً يتلاقون في هذا العالم الآخر فهل من سعادة أكبر من هذه الرحلة أيها الرجال القضاة ؟ فإذا بلغ الإنسان دار الآخرة حل الموت بينه وبين قضاة الدنيا الذين يدعون أنهم قضاة ويلقى هناك قضاة الحقيقة الذين يقضون بين الموتى كما تحدث بذلك الاحاديث - سيلافي مينوس وادامانت وأياكوس وهرميوليم وأوليساء الله الذين كانوا عادلين في حياتهم - ليست رحلة الموت اذن شيئاً عظيماً . . . من منا لا يدفع أغلى ثمن في سبيل لقاء أورفيوس وموزايوس وهيزيود وهومير - فان كان ذلك حقاً فاني أريد أن أموت مراراً فليس في الامكان إبدع من الحديث هناك حيث الاتي بالامبيدس وأجاكس وتيلامون ومن حكم عليه بالموت ظلماً وأقابل ما بلوت بما لقوا هم من بلاد أليس ذلك متاماً لنفسى واكبر المتاع أن أسألهم وأمتحنهم كما فعلت بكم في هذه الدنيا وأعرف منهم الذين يحسبون أنهم علماء وما هم بعلماء . . . بأي ثمن تشترون تمحيص هذا الذي قاد جيسوش طروادة او تمحيص أوليس او سيسوف وهؤلاء الذين لا يحصي عددهم من الرجال والنساء ؟؟ ليست السعادة التي لا ريب فيها أن تلقاهم هناك وتعاشرهم

من قبل وفرح فيليب يسوم ولد الاسكندر
 .. فرح ببسلاد ولد وبنجاح خيليه في
 الالعاب الاولمبية .. الذهب افتتح المابد من
 كل مكان .. صحا هذا الفجر على اثينا فخذمت
 ولكن في اثينا افلاطون وتراجيدية سوفوكل
 وتاريخ هريق في دين البطولة اعتنقه ديومستين
 ومكث ديومستين كما كان سقراط وكما كان
 سوفوكل كالكلب الهه المصريين امينا وفيسا
 ساهرا على ميراث المثل والخير .

ديومستين كتب خطبة لتكون شاهدا على
 نواياه واقواله ، فقد اثار قومه وانذر الاغريق
 بنوايا فيليب منذ نهض للخطابة وكان تحول
 الاثينيين من دين آباءهم في القرن الرابع ق . م
 ونسيانهم وطنهم وحق الوطن وحرص الكثيرين
 على أن يخلدوا السلم ويستمتصوا بمظاهر
 أعيادهم .. وفيليب في الشمال يمد جيشا من
 أحدث فنون الحرب ويستعين على قضاء مآربه
 بالكر والخداع وخلف الوعد والعيت بالقسم
 وكلما نجحت مآربه صار عند الخلفين بطلا
 كهيرقل .. ونهض رجال السياسة يبشرون
 الاثينيين أن فيليب صديق الاثينيين .. أكبر
 عقبة في حياة ديومستين أن يعمل قومه على
 اليقظة والعمل - كان ديومستين بصيرا لا
 يخدعه ظاهر الاشياء وكان ذكيا مرهف النحس
 والجنان يرى عواقب الامور قبل أن تقع وأوتي
 لسانا صارما بشارا ولا تشنى عزيمته الهزائم
 وكان الهزائم كانت محكا لارادته لا تصبیه لعلمة
 حتى تزيد بقلطة واشبه ما شبهت به طبيعة
 ديومستين غرائل الوفاء في الكلب الامين وقد
 قيل انه رضى من هذه الصفة وقال للاثينيين
 بعد هزيمة كيرونيه حين سألهم الاسكندر أن
 يسلموه خطيباهم رهائن ، نهض ديومستين
 فقال لهم « أن الذهب قد عقد معاهدة مع القتم
 سألهم فيها أن يسلموه الكلاب رهينة فلما أخذ
 الكلاب مكث قتلا في القتم »

وديومستين مكث حارسا وفيما امينا على
 شرف وطنه وعلى ميراث للمجد والبطولة منذ
 اسمع العالمين بيانه حتى شرب السم في معبد

اخذنها آخر حصن من حصون الحرية تسمع
 اذان العدل والبطولة .. لله رب العالمين
والحرية ام: البطولة والعمل « ويسوم » في
المبودية يذهب بنسب ففسلتا الرجال
 - كانت اثينا حرة في القرن الرابع ق.م وكانت
 منابرها يرقى اليها خطباء يلهون بالخطابة
 ويتملقون العامة ويسعدون بمفاتيح النفوذ
 والحكم .. ونهض الى منابر السياسة خطيب
 يسمهم حقيقة انفسهم ويلذكهم بين خلا
 من آباءهم من ابطال الانسانية يسمهم صوت
 انتيجونه ودين سقراط والاثينيون لا يكادون
 يصدقون ما يؤذن به ديومستين وينصرفون منه
 كأنما ينصرفون من تلميذ يسمهم حديثا من
 ادب قديم ، قد الفوا علم السوفسطائيين
 والفوا خطباء الزور الذين اشتراهم فيليب
 المقدوني الذي طلع نجمة من جبال مقدونية
 بشمس دين جديد ومدنية جديدة .. انه فجر
 المدنية الحديثة وهو لا يؤمن بزيوس الا فيما
 يخدع به ضمائر الناس ولا يكثر بالعدل وهو
 مؤمن بسلطان المال الذي اثر عنه ان يغلا يحمل
 ذهباً قد يفتح لجيوشه كل حصون المدائن
 وآمن بالقوة وكان ادهى الماويغين المخادعين لا
 يعبا أن اراد أرضا أن يقتل بينها ويهدم ديارها
 ويدخلها وهي مرتع للحزن والذل وأشباح
 المساكين من الشيوخ والنساء ... كان أمير
 جيش من باربار مقدونية الذين يطيعونه لانه
 اقوامهم وادعاهم واصبرهم على الجد والمكر ..
 ولا يأخذ من آداب الاغريق الا ما كان زينة
 يزين به بربرية حياته ومقاصده ، اوتي مناجم
 من ذهب فاشترى بها امثال اريسطو - وأما
 اريسطو فلم يعلم الاسكندر شيئا في عام وبعض عام
 واريسطو ايضا اب الفكر في المدنية الحديثة
 وهو طراز جديد من عقل المعلمين في آخر
 مدينة الابطال .. اشتراه فيليب المقدوني
 ليزداد الخدم وموسون خداسا وارسل خيليه
 للالعاب الاولمبية التي اقترنت حينئذ من
 معنى الالعاب الاولمبية الحديثة أى مظاهرة
 المحترفين من اقوياء الاجسام الذين لا يؤمنون
 بدين العدل والبطولة كالذين خلصوا

وجعلوا الشرف ديناً ، وما ندرى لعله أيضاً
كان مؤمناً أنه رسول دين الإبطال الأولين . .
انه ينظر الى الخطر الراض في مقدونييه ليأكل
الحرث والنسل .

لولا ان رجلا كفيليب بنى قوته على اساس
من الشر والجشع فلا تلبث هذه القوة ان تنهار
راساً على عقب اذا لقيت صدمة صغيرة - كلا
ايها الاثينيون لا يبنى احد ملكاً قويا ثابتاً بالظلم
وبالكذب وبالحث بالايمن وقد تصمد هذه
القوة مرة وتصمد زمناً طويلاً وقد تهر آمالها
اذا صاحبها المقادير لم لا تلبث ان يكتشف
الزمان جريمتها فتنهار انقاصاً بعضها فوق
بعض - اذا كان اساس البيوت والسفن وما
شابه ذلك لا بد ان يكون أساساً متيناً قويا ،
كذلك مبادئ السياسة وقواعدها يجب ان
تقوم علم اساس من الصدق والعدل - وهذا
الاساس معدوم في كل ما فعله فيليب .

مكت ديومستين يوقظ قومه وهم رقاد أو
نملون بقوة النصر والذهب المحيطة بفيليب
... وكان اشد ما اعترضه تحول اكثر الناس
الى ثراء المال وخداع السياسة والتجارة وكما
ذكر ديومستين الاثينيين بأبائهم الماجدين ظهر
الخلاف بين ابطال ماراثون في اول القرن
الخامس وبين جيل ديومستين كالخلاف بين
ميادى مدينة العلل ومدينة المال الحديثة .

آباؤهم كانوا ابطالا ينهضون بانفسهم للدود
عن الوطن وكانوا يعيشون متواضعين . . لو
بحث في أثينا اذن عن بيت اريستيد العادل
وبيت ميلثادس لوجدت دوراً لا تملو على جيرانها،
وكانوا مؤمنين بالعدل والتقوى أما جيل
ديومستين فقد تاجروا بالسياسة فيبت
احدهم أصبح عالياً كعمايد المدينة وقد كان
الاولون يرون الامة سيده وولية ما ينالون من
شرف وانقلب جيل ديومستين غزاة فسروا
امتهم وجمعوا اموالها في ايديهم تصدقون بها
على من شاءوا . . ان الذي غلب ديومستين

ليموت بعد جهاده في جوار الله . . انما يحارب
بجهاد الابرار ذات قومه التي كانت اخطر على
المدينة وشرف الوطن من فيليب المقدوني .

متى يا رجال اثينا - متى تفعلون واجبك ؟
انتظرون امراً ؟ . . لا ريب انكم تنتظرون ان
تثيركم ضرورة قصوى فبالله كيف تسمعون
ما حدث ؟ اني اعتقد ان اقصى ضرورة تصيب
الاحرار ان يمسهم العار في اعمالهم . . قولوا
لي اتردبون ان تدوروا في الاسواق تسألون من
تلقون هل من جديد ؟ هل حدث جديد ؟ اغرب
من ان تروا رجلاً من مقدونية يعد حرباً على
الاثينيين ويتحكم في مصائر بلاد الأفريق . .
هل مات فيليب ، لا والله انه مريض . . هل
تجدون فرقاً بين موته ومرضه - فلو اصابته
مصابة فستخلقون من انفسكم فيليباً آخر
طالما عالجتم سياستكم بهذه العقلية - ان
اهالكم وفلنكم مكننا لفيليب اكثر من قوة
جيوشه ، قال قائل قولاً يا رجال اثينا انه رجل
من غير جموعكم وهو الذي يتطايّر خطماً ان
نجحت سياستى انه يقول ما نفعنا من خطب
ديومستين انه يتقدم للمنابر كلما طاب نفساً
بذلك لم يملأ اذاننا بكلامه ومنتقد الزمان الذي
نحن فيه ويمجد زمان اجدادنا حتى اذا رفعنا
الى السحاب وملأنا غروراً نزل . . لو انسي
استطيع ان اقنعكم بما اقول اذن لنال الوطن
خير كثير لو امدده اليوم لا يصدقني اكثرهم
كانها مباغلة وما اعتقد ان ذلك نفع قليل اذا
عودتكم ان تسمعوا احسن النصيح ومن اراد
ايها الاثينيون ان ينفع وطنه فليبدأ بصلاح
آذانكم ، ان آذانكم مريضة فقد عودتكم ان
تسمعوا الكذب وكل شيء ما عدا النصيح
السديد »

لا يكل ديومستين من صيحات منكرة يوقظ
بها الخدوعين ولا يريد ان يتشبه بالخطباء
الذين ياتون المحافل يقول بليغ ولكن خطبه
جميعاً عمل وحض على العمل ، ومعمل
ديومستين منذ اوله كان عملاً لا تطبيقه الا
نفوس ابطال الذين جعلوا حب الاوطان ديناً

البطولة والمجد وهو غير اهل للمجد والشرف . . ولو اطلق الاثينيون ايديهم فتوجوا بتاج المجد من يستحقه ومن لا يستحقه فستكون النتيجة ان يكف الناس عن الاجتهاد وتسوء امور المدينة ومالهم يفعلون اليوم ما لم يفعله آباؤهم الماجدون . . اى الرجال كان اعظم . . تيميستوكل القائد الذى غلب الفرس في معركة سلامين ام ديومستين الذى ولى هارباً ، ام ميلتياد الذى غلب البربربار في ماراثون ، ام هذا الرجل . . ام الذين جاءوا بالثعب من منفاه ام اريستيد الذى لقب بالعدل وهو لقب لا يجعله اسم ديومستين - وديومستين يصبح حتى يقبض المال فاذا قبضه سكت - وكذلك يسمى دين' السفسة تقوى انتيجونه كفرا وعمل سقراط كفرا وفسادا وبطولة ديومستين شؤماً وخيانة .

ونحن اذا حصرننا خطبة التاج لنسمع صيحتين : صيحة اعداء ديومستين وفيها كل ما تؤمن به مدرسة السفسة وقد نجحت بتجاح جيشها ان تدخل على الانسانية من كل باب وصيحة ديومستين وهي صيحة الابطال في مغرب المدينة وتعتمد حيالهم على البر باوطانهم والارتفاع في هذا البر الى البطولة .

« اما انا فقد اترككم هنا وفي كل مكان ارسلتموني اليه فقد كانت المدائن مريضة والذين يدهم مصائر المسدان كانوا يشترتون ويوفونون بشئ من المال وافراد المدائن اما جهلة لا يصررون او استظعموا الراحة والبطالة ، وظن كل امرئ ان السيل سيهبط على غيره ويبقى هو بئامن ، وكانت النتيجة ان ضيع الاكثرون حريتهم ثمناً لاخلادهم الى هذا التهاون وعرف الحكام الذين ظنوا انهم يبيعون كل شيء ، الا انفسهم قد باعوا انفسهم قبل كل شيء ، كانوا يدهون اصدقاء فيليب والاسكندر

هو رذيلة الاثينيين الذين فسد تعليمهم ودخلوا قبل فيليب في دين المال وتمجيد القوة التي لا تقوم على العدل ، وجهاد ديومستين كان خاتمة الايمان بدين الاولين وبداية الايمان بالذهب والفضة والسفسطة واشتمل ملك فيليب كالثوفان على مدائن الاغريق واحدة بعد الاخرى وغلب فيليب النسا ولم يغلب فيليب ديومستين . . فوزية كيرونيه جعلت بيت ديومستين بيت الامة وجعلت ديومستين ابا لوطنه ولدين الابطال الاولين ولم تطفأ مصابيح الحرية في آتينا بشئ مجد . .

« عرض كتيزيون على الاثينيين ان يتوجوا ديومستين بتاج من ذهب لبطولته وجهه لوطنه وخبره على بلاد الاغريق وعلى وطنه ولم يكف في خطبه وفي اعماله من ان يفعل الخير لوطنه وكان وفيما يفعل كل ما يستطيع من الخير » .

ولا يرقى فيليب والاسكندر الى شرف ديومستين وما يملكان الا ان يغلبا بالقوة والمكر وحيل الحرب والسياسة ، وكل خطبة من خطب ديومستين تزعزع ملكهم ونصرهم وتلبسهم خزي البربرية في المالكين وتمنوا لو تزول صيحات ديومستين من صحف التاريخ حتى يدموا ان نصرهم كان نصراً للمدينة الاغريقية ، فاطلقوا السنة الخطباء في آتينا ليهرموا ديومستين من تاج المجد ويحكموا عليه بدانهم . . فهو حقوقو ثيم منافق خائن خان اصدقاءه . . مقلد يقلد الخطباء الماجدين لا يريد من السياسة شيئاً سوى ما تدره عليه السياسة - وهو جبان شؤم جر على اليونان كل الولايات . . الرجل الذى افرق الاغريق . . وهو من ام اجنبية وهو جاسوس وهو يعيش من مصائب قومه وهو بليغ في الكلام ولكنه يعيش عيشة منكرة . . الفاظ جميلة وافعال السوء . . فكيف يتوج الاثينيون رجلاً بتاج

تعبيراً عن إيمانه بالعدل .. فهو أساساً لم يرتكب ظلماً وأنه تجدى بالعدل ظلم مطامع الفزاة - وأنه لم تفلح لديه مغريات المال - وأنه اتفق ماله الخاص ليعين أثينا على إصلاحها وإصلاح سفنها وأنه أعان الضعيف ونسي الضعيفة في سبيل الخير ..

« وبذلك أراي أهلاً للثناء .. لأنني كنت في كل سياستي اعتنق المبادئ التي تكسب امتي المجد والشرف والقوة .. لا تجسدون في سياستي حطة ولا ضعة ولا شروراً ولا سفالة ولا شيئاً يخزي وطني ، وقد تخطقت بهذه الاخلاق فيما عالجته من سياسة وطنية وفيما باشرت من سياسة الاغريق لم أوثق حظوة الاغنياء على حقوق الاكثرين في سياسة بلاد الاغريق ، لم تفرني عطايًا فيليب وما عرض علي من حق الجوار فتصرفني عما ينفع الهيلينيين كافة »

في تهذيب ديموستين فوق الايمان بصلاة الابطال والعدل ، صفة كالتي يتحدث عنها افلاطون في تهذيب مدينة العادلين ، فليس التعليم حشواً للذاكرة بالانفاظ والمباررات وإنما هو لفت الروح والعقل الى صورة الخير الدائم الخالد .. فهو منذ منشاء يتأمل بقلبه وعقله وما خلد الابطال من مجد وهو يرقى في آماله الى دينهم ثم يتخذهم مثلاً فيما يعالج من سياسة أمته .

« كان أبأؤه يغيثون المستجير ان استجارهم لان الموت هو خاتمة الحياة ولو هرب انسان منه في حجرته .. وعلى ذلك فواجب الخيرين الا يفعلوا الا الخير آملين أمل الخير في النصر .. ويحتملون بجنان ثابت ما يأتي به الله وذلك الذي تخلق به اجداد الاثينيين .

قد وقعت الكارثة فانصرف فيليب وهزمت

وجيرانه أسماء حملوها وهم يقبضون ثمن خيانتهم وأصبحوا يسمون - أنفسهم - أنهم ليسوا الا متعتلين اعداء الآلهة وكل ما هم أهل له من الاسماء »

« فإذا كانت مدينتنا فاعلة وهي ترى فيليب ييني على انقراض مدائن الاغريق ملكاً وثيرانية وماذا كان على من يولي الاثينيين النصيح أن يقول وإن يكتب - لان هذه أهم مسألة فأنا قد استيقنت أن وطني منذ أوله الى أن نهضت لمنابره كان يناضل في سبيل الصدارة والمجد والشرف ، وإن مدينتنا انفتحت من المال والرجال في سبيل المجد وما ينفع الناس جميعاً أكثر مما انفتحت كل مدينة في سبيل حاجتها وقد رأيت فيليب نفسه الذي كان علينا أن نصارعه قد فقد عينه في سبيل الملك والسلطان وكسر كسحه وتمطلت ساقه وساعده وكل ما اخذت المقادير من أعضاء جسمه ، ضعى بذلك ليعيش بعد ذلك مجيداً ذا شأن وما كان احد يظن أن رجلاً نشأ في بلد صغير غير ذي مجد قد يأخذه الطموح الى أن ييني ملكاً من بلاد الاغريق ويجعل ذلك نصب عينيه - وأنتم ايها الاثينيون تشهدون كل يوم في كل شيء ، في خطب الخطباء وفيما تشهدون من آثار بطولة آبائكم وأجدادكم ثم يكون قنركم السوء أن تقدموا طامعين مختارين حريتمكم الى فيليب .. ليس منكم من يرضى بذلك ولم يبق لكم الا أن تعترضوا بالعدل أعماله الظالمة »

وكذلك ظهرت في آخر مدينة العدل ما بنت هذه المدينة من دين في أولها ، أي اعتراف العادلين أمام ربة العدالة أنهم لم يرتكبوا ظلماً طول حياتهم .. وظهر خطبة التاج حساب يقدمه ديموستين للاثينيين عن حياته السامة والخاصة فهو ييسر احداثاً شارك فيها ولكنه يفكر بقلبه أن هذه الاحداث لم تكن الا

(١٠) - الخاتمة

المثل الاغريقي في العقل الحديث

انتهت بهزيمة ديموستين مدينة العدل والخير ، ومضت امبراطورية الاسكندر تعلم علماً جديداً هو امتداد علوم السفسطة في البلاغة والكلام وبعض المعارف العلمية واحتفظت مدرسة الاسكندرية بمكتبة النصوص اليونانية .

وتعلم الرومان البلاغة اليونانية وترجموا كثيراً من كتبها وقلدوا الاليزادة . . وارتفع فيهم رجال الى اقدار ابطال الاثينيين . . . لا تنتهي الجمهورية الرومانية حتى ينهض على انقاضها يوليوس قيصر منتصراً بدهاء الحرب وسلطان المال كفيليب والاسكندر وينهض سيمرو لحماية الحرية كما نصرها ديموستين في تاريخ المدينة الاغريقية ، وهذه التجربة الاولى تكاد تثبت ظاهرة الخصب والخلود في العقل الاغريقي فحيثما بلغ اثنى بثمار كثره الاول . . ثم تعود مدينة الغرب بعد النهضة فتأخذ بأسباب العقل الاغريقي وتختار نظماً تنظم المبادئ الاغريقية وينبع فيها رجال فيحطلون مصائر قومهم كابطال الاغريق ويقوم فيهم رجال يشبهون الاسكندر وآخرون يشبهون انفسهم بديموستين ويبنى الجامعات على طراز اغريقي . . ويعترف علماء الغرب انهم مدنيون للاغريق بكل شيء . . في السياسة والتعليم والآداب والعلوم والفنون ، ومن يأخذ بظواهر الامور يبصر تجربة ثانية من خصب العقل الاغريقي ، واذا امعنا النظر في هذه المسألة المترامية الاطراف نجد ان العقل الروماني والعقل الحديث لم يحلما سر العقل الاغريقي . . الاول كان معدناً حراً صافياً يدين بدين العدل والخلود والرومان وورثة الفكر الحديث

جيوش ديموستين . . فكيف يدفع ديموستين عن نفسه سهام اعداء كثيرين تقموا عليه مجده ، لان ظاهر الهزيمة بنسج ووراء الهزيمة دين المجاهدين الذين تعلموا في اسرة الابطال ان ينهضوا لنصرة الشرف لا يعيأون بالموت .

« كلا ايها الاثينيون لا تلوموا انفسكم لانكم لاقيتم الاخطار في سبيل حرية الانسانية وسلامتها كلا واقسم بمن لاقى الاخطار من اجدادنا في مراثون ، كلا واقسم بالذين صفوا للقتال في بلاليا ومن قاتلوا في سلاسين وارثيميزون ، وبالابطال الكثيرين الذين يرقدون في معابد الامة ولم تحرمهم المدينة من تمجيد الموتى ، كلا ولم تقصر المدينة تمجيدها على المنتصرين والغالبين . . . وذلك هو الحق والعدل فقد ادوا واجب الابطال العاديين . . اما جراؤهم فقد نال كل منهم ما قدر الله له »



« اني اعتقد ان مصر امتنا كل مصرى سعيداً ، وذلك هو رأيي وذلك الذي نياكم به نبوة زيوس في (دورون) مصر الانسانية الان اصبح اليما مسيراً فعدنا الذي لم يلق الااما وشرورا لا تعد من الاغريق أو البربار »

اني كنت في روابطي الانسانية صديقاً وفيما وكنت معواناً في الشدائد . . قد اعتقت من مالى امسى الحرب وعاونت رجلاً في دفع مهر بناتهم » .

ثم يقول ديموستين وحسراب الاسكندر مشهورة . . ان الانسانية جميعاً قد لاقت مصيراً اليما في دولة فيليب وسلطان الاسكندر . . ان اثينا في حدادها لم تجد ابا للوطن احق بهذا المجد من ديموستين . .

وبناء ملك على انقاض الإنسانية ومكنهم العلم
من غزو الفضاء ولكن هؤلاء لم ياخلوا بأسباب
المدنية الاغريقية الاولى التي بناها ابطال العدل
والخير وكانوا كبروميثيوس الذي سرق لبسا
من نور الله ولم يات بالعدل لان العدل متصل
بالله ، وبروميثيوس لم يستطع ان يلج الى سر
الله الاعلى اى العدل وكان عقاب الانسان ان
يمش كما يقول سقراط : مكلفا بان يملا وعاء
مثقوبا ببلو مثقوب . . فما تعاني منه المدنية
الفريية الحديثة حب المال والجهل بالعدل
والظود ، وجمال تجربتهم ان خرج على افواج
المتعلمين رجال بلغوا شاو ابطال العدل والخير
في الحياة وفي الموت .

لم يؤمنوا قبل ان يتهدبوا بدين الابطال العاديين
الخالدين فشابهوهم في الاسم ولم يشبهوهم
في الروح الا فئة قليلة بنت عقلها بعصامية
مستقلة فجاءت بشعر قريب من شعار الأفريقي -
ف/ كليمنصو الذي كتب آخر أيامه كتابا عن
ديموستين كان بناء شريفا محترما وبطلا وطنيا
لا ينكر بطولته احد ، والدكتور سفيستلر
الموسمي الفيلسوف الكسائب العالم الذي
يقضي عمره في مجاهد افريقيا يداوى المرضى
لله والخير مثل قريب من الشرف الافريقي . .
ولا تكون المدنية مدنية اذا جعلت غاية الانسان
المال ونسيت العدل والخير . . والذين اخلوا
من العقل الافريقي آداب حب المال والتسلط
قد انفقوا حياتهم في ابتزاز المال من كل سبيل



الأدب المهجري الآخر

شاكر مصطفى*

ثمة دوما أسد يزار
ونظرة تمنح الفء

★ ★ ★

وساعة الأمل في ذاتي
أسمع
أصوات الأجداد
تصاعد في داخلي
مبهمة ، بعيدة ، رائعة

★ ★ ★

لقد شهدت كافة فترات الألق من قومي
قومي الذين أتوا العالم
بمصر لا يحور
مصر كالفجر !

★ ★ ★

ما أحسب أن الكثيرين في هذا الشرق العربي
قرأوا « قصيدة الدم » القصيدة التي تقول
: « بالبر تغالية » :

Aralia Estes en mi
A imagen de tus desiertos
Mi verso se hizo
Ele es infinito ardiente

يا بلاد العرب ! انك في ذاتي
على صورة صحراواتك
بصاغ شعري
انه لا نهائي ومتقد !

★ ★ ★

اني صورة منك أخرى
ففي مأساة جسدي وروحي

* شاكر مصطفى محاضر في التاريخ الإسلامي بجامعة الكويت . كان وزيراً لمؤسسة لبلاده « سوريا » في كولومبيا والبرازيل . وله اهتمامات واسعة بالأدب المهجري . وقد نشر عدة بحوث وكتب في هذا المجال ومن ذلك مساهمته في كتاب : « فن القصص البرازيلي » بالاشتراك مع نظمه ورد.

والأدب المهجري أضحي جزءا منا ولنا ، بإيقاعه الوجودي ، ولونيات فكره وصرامه . وتصوفه الانساني الساذج ، ونضاله القومي . الآباء ، الجيل السابق من المفترين الى الأمريكتين خاصة ، هم الذين كتبوا ذلك الأدب الذي نعرف ، وإنما أريد أن أتحدث عن الوجه الآخر للقمر ، الوجه المجهول ، عن الأدب المهجري الثاني . الأبناء الذين ولدوا ونشأوا هناك في المغرب ، على الأنداء الغربية هم الذين صنعوه . هم الجيل الثاني . ولكنه الجيل « الغريب الوجه واليد واللسان » ان الفكر العربي يعطيهم هناك عظامه الانساني الذي تمود . يعطي ، كما قد طالما أعطى وأخذ ، في تاريخه الألفي الطويل . .

هذا الأدب المهجري الآخر ، نجومه ، جلوده ، ملحمة الأرض معه ، شبق الكرم والخمر عليه ، رنين دهورنا المتبقية فيه ، كل ذلك قد يبدو غريبا ، مفاجئا كآخبار الكونز والسحر والعتيق ، ولكنه واقع يسدج بين الناس ذلك الأدب العربي . . غير العربي !

لقد أكون هاهنا ذكرتمكم بالأدب الجزائري - الفرنسي . بكتابه المعالقة . بتخبطه المأسوي ضمن الحرف الأجني . ولقد أكون بعثت شيئا من شجي في كل لهاة ولكن لا !

فان الذي ييني وبين بني أبي

ديين بني عمي لمختلف جدا !

يوم ألقى الكاتب الجزائري « مالك حداد » محاضراته في دمشق سنة ١٩٦٤ حول « مأساة التعمير لدى كتاب الجزائر » ويوم جسد للناس مأساته ، في مجمة لسانه أمام أخوته وبين بني عمه ، ويوم روى قول الفرنسي له :

« - ان وطني هو اللغة الفرنسية

وجوابه : - ان اللغة الفرنسية هي المنفى الذي أعيش فيه . . »

يومذاك أحسب أن سحابة من المطر الأخر من

عربي ذلك الذي كتب قصيدة الدم هذه ، إلا أنه كتبها في غير العربية ، تركها تزحف تكرة ، في الحرف البرتغالي ، لأنه يجهل لغة هؤلاء الذين يفني بهم ولهم ، أرضا وأجدادا وألقا وفني نضال ! الف قصيدة وقصيدة من مثل هذه ، الف مقال ، الف رواية ، الف قصة تسرب الآن في الناس هناك وراء بحر الظلمات لا نعرف منها شيئا ، ولو أنها بنت هذه الأرض وهذه الصحراء المنفردة ، وهذا الفكر العربي وهذا الدم العتيق . ان كولومبوس لم يكتشف أمريكا بعد ! وهذا الانتاج المكتوب بالبرتغالية تسارة ، وبالاسبانية تارات وبالانجليزية والفرنسية أيضا ، محجوب وراء الغيب ، مضروب عليه بسدين اثنين من سدد ذي القرنين لياجوج ومأجوج : سد اللغة العربية وسد البعد السحيق . . لكنت أقول أيضا : وسد الجهل المزعق !

وانا لتحدث في الأدب العربي . . الحديث الطويل ، وتحدث في صلاته بالأدب الغربية حديثا أطول . . وانا لترجم دوستوفسكي ونناقش سارتر ونقرأ شوبن وشغف بهيمنغواي ، وتشرب جلودنا جهرا أو سرا من البيوت وبواند ، ومن الرمزيين وما وراء الانطباعيين ! . . ولتنا قلما نعيم انتباهنا الى هذه الأقلام التي اغتربت منا وراء الأفاق ، حتى في الحرف . قلما نذكر ان بين المفترين المهاجرين من أرضنا ، من غدا :

غريب الوجه واليد واللسان

فهر ينتج للآخرين ولبغة الآخرين وان كانت جلوده ما تزال تنبض كالشرابين في هذه الأرض .

المدرسة المهجرية في الأدب والشعر نعرفها . جبران ، المعالفة . فرحات . القسروي . عريضة . أبو ماضي . . كثيرون منا عاشوا على السنافم والحلود . منذ أربعين سنة تقريبا وهذا الأدب يتوغل فينا حتى إبت في هذه السنوات الخمس والعشرين الأخيرة نفسه مدرسة معروفة لها كهانها والدارسون والنقاد .

التي تجرنا إليها جر جبال المغناطيس للمراكب في الف ليلة وليلة هي الأعيب في الورق هناك ، الأعيب فقط ! أن أبناء المغتربين لا يحسون أنهم يقطعون كل جيل معنا وهم يكتبون بشير لغتنا . ولا يأسون لهذا التقطع في الأواصر مع هذا الوطن - الأب ، مع هذا التراث وإلى الأبد وهم يعانون الحرف القريب !

حب الوطن ، هذا التعاطف الرحماني بين التراب وأهله وماضيه وهي ثم وهي .. أنه كمواطن الآباء والأبناء والأحفاد ، يتجه نحو الفرد لا الأمس ، منحاه نزولي لا صعودي . يمتد من الأب إلى الابن ، وليس يعرف طريق الرجوع هودا . أن الكتاب الجزائريين يحسون المأساة لأنهم يريدون تخطيها ، لأنهم يشرون بفد عربي منتظر في الجزائر ، ولكن الفكر العربي في المهاجر ماله في ذاته - من مأساة . لأنه فقد ذلك الفرد العربي المنتظر . لا يطمح أن يكون غير ما هو . الأمي إنما هو قينا نحن . وإنما هو أسانا تلك القوى البهيمية التي قرطت منا دون أمل بعودة ، سفح ماله في رمال .. وإذا كان مالك حداد قد أعلن دون درامية ولا صراخ مسرحي انتهاء جيله ، مصرع دوره مع آخر رصاص في الثورة الجزائرية ، حتمية ترك المكان للجيل العربي الذي هو لا بد آت . فان من سوف أتحدث عنهم : دل مار ، إيليحي ، مدور ، كارنيرو ، سايبا ، والآخرين هم بداية الأجيال التي أضعتها ونضيتها هنالك وراء البحر المحيط إلى غير عودة .

قبل أن أروي بعض ملامحهم - وما أخالني استطيع أن أرويها هنا أكثر من بعض الملامح - أشد إلى الأسطر ملاحظات ثلاث :

الأولى : أن ثمة أدباء منا كانوا من طوامة « في لبنان مثلا وفي مصر » أو مرفقين « في الجزائر وتونس والمغرب » أو تجاوبا مع البيئة والنظر ، كداهم بفر العربية ، البحث نحو اندماج أو شئت لسه أن يندمج حتى حدوده المشروعة إذن لم ثم طوى قافلة من الكتاب طويلة ، وأقفا من البحث بعيدا ، يبدأ في لبنان

فيها الكثير من التحجب والجليد ، كانت تجو على الإحسان وفي السرائر ، وعند أركان القاعة ركنا ركنا . أنا عرفت هذه السحابة . عرفت افجع منها . بل ! شئت تدميرها وعويلها المجنون خمس سنوات طويلة وأنا أنقل الخطأ ، حيث نقل الخطأ كل مغترب من بلادى في الأمريكيتين .

كل ما اخترت من التاجج العاطفي وأنا منطلق هناك بين دروب العالم الجديد ، الصنم الذهبي الكبير المنتصب وراء تلك المرافء البعيدة ، أعاجيب الوهم والعمل والكثرة والنهر الوحشي والغابة المترسة والحديد المركوم فوق العواطف ، كل أولئك لم تحجب عني تلك السحابة الفاجعة التي طاردتني منذ المرفأ الأول ، وظلت تهمني لم تهمني ، وحلا تارة ، ولها تارات فوق جيلة الطين التي تصوغ مني العروق والعظام وما وراء النقاد !

كان « مالك حداد » يمثل مأساة ذات ، تعرت فجأة فإذا بها تنكر أحبابها والأصباغ . يتحدث من غربة فكر رهيبية يحسها في الحرف الغريب ، يروي صراع فكر يريد الإرادة القاسية الفاجعة أن يلحم بهويته ! ولكنه كان يتحدث من مأساة مابرة موقته . المد العربي بدأ يتجاوزها ويمحوها . أما في المهجر الأمريكي الآن ، لدى الأبناء فلا مأساة ولا غربة ولا صراع . حتى قصيدة الدم هذه التي ذكرت نسيئا منها - ما خطر لها أن تعرف الحرف العربي . المأساة وحيدة الطرف هناك . من جانب واحد : جانبنا نحن !

أولئك الذين ذرناهم هناك من أهلنا لا يعرفونها . أغوارهم لا تحسها . العربية التي هي مني كلي ، ومنك كلك ، أضحت فيهم شيئا من الماضي الرومانسي البعيد . هي دماء فقط ليس من سبيل إلى الغائها ، لأنها تميل بالرغم منهم في الشرايين . هي واقع موصول بالغموض البعيدة منهم ، ولكنهم يجولون مدى ذنياه في الأرض والزمن . حتى مصالطنا ورمالنا وماسينا الجارقة ، حتى عقائدنا

الأخير ، غرب بعض شباننا منذ سبعين وثمانين سنة تفوية جديدة . تركوا الشاطئ الشامى واخترقوا البحر المتوسط الى بحر الظلمات ، وما كان « الأطلسي » بالنسبة اليهم سوى « بحر الظلمات » وان كانت تقوم وراءه : « أمالكا » (١) التي كانت في زعم الناس أو آخر القرن الماضي ، بلد الذهب والخير « وأنهار من عسل مصفى لذة للشاربين » . . كانت جنة المغترب ! لم جاءت الأخبار مصدقة للشائعات واغتنى بعض من اغترب ، فاذا بانباهم التي للمها المقيمون حبال من وهم وأسطورة تجر الآلاف سنة بعد سنة بعد سنة . وشملت اشرة ما كان لنعمة الأم أن تمسكها عن الشد بينما العصر الاقتصادي يطردوها في البحر . . « أمالكا » ! « أمالكا » !

كان من الصعب ان يقاوم أحد ، لا سيما في المناطق الفقيرة والباق ذات التربة، هذا النداء « السيريني » ذا الأفرع العجيب ، ولو وضعت الأصابع في الإذان أو صب فيها الشمع المذاب! كانت أمريكا يومئذ مجالا ذهبيا له خوار، ولكن معظم الذين تراكضوا كانوا أضلأها فارغة ممزقة وبضاعة من جهل كثير . وقد تقيتهم أسفل البواخر قيثا هم وحظهم ، بأى مرفأ . وهكذا زرعوا على المرافئ التي لا يعلمون والتي لا يريدون ، زراة الصدفة أو هوى الربانة أو سماسة السفر . . فكان أن ضربوا الأوتاد وغرسوا الدراري ، وجنوا شيئا من النشب ، فنتهم من عساد وهو الأقل ومنهم من ابتلعهم العالم الجديد وابتلع ذريته ، فاذا هو الآن جثة في التراب الأخرس ، أما الأبناء فلاملم الجديدة التي تنشأ هناك ، ليس لنا منها حتى سؤر الذكرى ! خسروا منهم الأب الذى اغترب ، وماله وماكسب ، وذاريه الذين ولد . . الخالد الوحيد الذى بقي في أبدنا منهم ، من تلك اللحمة الاغترابية الواسعة ذات الآلاف من الفصول الشجية ، هو ما أضافته الى تراثنا الأدبي الحديث من غناء .

مثلا باسكندر غانم ، وينتهى بجورج شحادة . ويضم قوافل الكتاب الجزائريين وبعض المصريين ممن كتبوا بالفرنسية ، وقوافل من مثلهم كتبوا بالانجليزية ، وغيرها . . وبعض هؤلاء جميعا معروف للناس ، ولهذا قصدت الى ذلك الفكر المجهول كل الجهل ، الذى أنتجته ابنائنا في أمريكا الجنوبية « بالاسبانية » وعلى التخصص في البرازيل « بالبرتغالية » .

الثانية : اني انما اقدم نماذج ممن عرفت ومما عرفت . لا هي الى الاحاطة ولا هي الى الحديث الشامل الوافى ، ولا هي الى العمق والدرس والتحليل . سبيل ذلك كله او بعضه سبيل طويل ، وتخصص وسجد ومراجع تموزني كلها الآن . ليس حسبي يا ترى أن افتتح بعض الكوى ما دام ذلك العالم جميعه مجهولا حتى اليوم ؟

الثالثة : اني لا اناقش ها هنا هروبة هذا الأدب ، انما اشارة استفهام الى تلك العروبة ، ولقد تكبر ثم تكبر عند البحث أو تصغر ثم تصغر حتى يكفى الصورة ما ينفى . اما عندي فما كذب الفؤاد ما رأى . افتحارونه على ما يرى ؟

انى لاراه هربى الروح وان يكن أعجمي التعبير ، انه في النسيج التكويني وفي منحى الوجود والحركة شيء منا ، بأى لغة كتب ! ولقد يكون لغيري رأى آخر يطرده خارج الهيكل العربي أو يضعه بالمكس، منذ قدس الاقداس، ويدعو لتعريبه وتبينه . ولست هنا لأدافع عن هذا الرأى أو أمتصب لذلك ، فما الى شيء من ذلك قصدت ، ولكننا مناسبة اكثفي منها الآن بان أسفح المشكلة . .

اول القصة : كان ما كان . .

. . وكالمادة التاريخية العتيقة العتيقة ، منذ فينيق وشرامه ، حتى الظلام العثماني

١ - هكذا كان العامة ينظفون كلمة « أمريكا » وانما ذكرتها للتوبيه بالجهل المطبق بأحوال تلك المناطق لدى المغتربين اليها .

أخلوها من ترائنا المزيق المتدحتى الجاهلية ،
كانت هربا لا صراها ، كانت ردود فعل سلبية
لا وقفة إيجابية مبدعة أمام القدر ، القدر .

والغربة ثانيا كتجربة معاشة . كحياة في
صميم المأساة للتفاعل معها واستكناه الباقي
والخالد الأعمق منها ، ما وصفها أدب المهجر .
قصة الأوحال والجوع والقميل والجماجم
الفارغة العيون ، ورعب الغاية الأمارونية ،
وفواجع المفائر والكهوف وطبول البدائيين ،
« والتوركو » (١) المحلا ، كالجبل الأجرب من
باب الى باب ، والسمر الطويل الطويل تحت
الحمل لا ينتهي حتى الموت ، « وأين » « العتابا »
المدود مع البكاء . كل تلك القصص - الملحمة ،
من ذا الذى رواها أو روى طرفا منها ؟ لقد
عاشوها قصة غصة ولكنهم لم يعبروا ولم
يكونوا أهلا للتعبير عن تجربتها المرة . ما سجلوا
منها الا الظل الباهت وبعض الدكرى الصفراء .
كل ما فيها من مأسوى وفاجع ومن رنين هول
وشقاء يسحق العظم ، ذهبت به السنون فلم
يبقى منها الا فى التراث المهجرى شيء ، بل
لم يبق منها فى المهجرين الباقين هناك سوى
راسب عصبي ملء بالعقد ..

والغربة ثالثا : كاستيحاء لبنابيع جديدة ،
تفاعل مع الثقافات الأخرى ، كافتتاح على
تروات الآخرين فى التراث والفكر والقيم
والتفاعل معها .. أى بنابيع وإى ثقافة
وانفتاح ؟ ما تعلم المفترين حتى لغة المغرب
ليأخذوا منه شيئا . القسم الأعظم منهم
مات وهو لا يقيم جملتين باللغة الأجنبية ،
لم يقرأ حرفا ولا أهمه ان يقرأ الحرف ! ..
لا الأدب الأمريكى دخل فى آتسافهم ولا البرازيلى
او الاسباني ظهرت منهما فى الادب المهجرى
نسمات أو أجواء .. وهل أحسست مسرة
شميم البرازيل أو صخب نيويورك أو دوار
جبال الأندلس المدود أو وحشية الأمازون
النهو - الاب ، فى بعض ذلك الأدب ؟

ولقد غنى أولئك الآباء الأولون آلامهم
وأوطانهم والأفراح ، شعرا غدقا وأدبا جنيا .
رووا للحرف خواطرمهم ، فكانت لنا المدرسة
المهجرية التى نعرف والتى رضعنا ودرسنا
وأحببنا تارة بعد تارة ! .

ولكن هذه المدرسة « المهجرية » ليست من
الهجرة ولا المهجر فى شيء . لقد عاشت معنا
ولنا . ولئن نمت هناك على الشواطىء البعيدة
فان جدورها والتهاويل والنسخ كانت من
عندنا . وجودها « النيويوركى » « أو اللسان
بالوى » كان فى حدود المكان فقط ، أما فى التراث
والقيم الفكرية والخلقية والجمالية وفى الإلهام
فكانت تعيش هنا فى شرقنا العربى ، فى
« العزال » الجبلى من لبنان ، وعلى
« المباس » من ماضى حمص ، وبين الصخور
القبلى التى صاغت ذات يوم بعلبك وتدمر ! لأنها
كانت غريبة هناك عبرت المحيط الينا على أول
مركب مائل ، فيكاد لا يبقى الآن منها فى المهجر
طيف ! ولقد نرى فى « الأدب المهجرى » ميزات
كثيرة من حنين وروحانية وتحور وتأمل وحس
انسيائي .. ولكنى ، فى زودة العابر الآن ،
أزعم ان المهجرين لم يعيشوا الغربة الحقيقية
ولكن فروا منها . اضطدوا بها ولكن ما وهوا ،
ما تركوها تتغلغل فى مسام الروح والقلب منهم .
بكلمة : لم يفترخوا . ظلوا معنا هنا وان أكلوا
وشربوا هناك على بعد عشرين ألف كيلو متر
منا !

الغربة أولا كتجربة - ذروة ، كعناية
لاقصى والأعنف والأفجع . كتصعيد للتناقض
حتى يكون القيمة الكبرى . كتصير كامل أمام القدر
لصرامه .. هذه الغربة لم تظهر أبدا فى الأدب
المهجرى . ذلك التوتر الكيانى الذى يفجره لقاء
ذاتين غريبتين ، وراح حدود الكلى اليومى والاجترار
العابر .. ما شاداه المهجريون . انسائتهم .
الروحانية ، التأمل . الحنين . التحور . كلها

١ - كلمة « نوكرى » كانت الكلمة التى يندب بها المفترين العرب فى أمريكا الجنوبية وما تزال . وفيها معنى الاحتقار والما
حمل العرب الكلمة ومعناها منذ الأدوار الأولى لالتراجهما إذ كانوا يحملون الجنسية التركية .

من تراث تليد تفجر .. ولكن البلد
الغريب وفي الحرف الغريب ! لقد اندثر
« التوركو » فيهم لأنه لم يكن له وجود ، وبرز
العربي الخلاق ذو القيم ، برز لا البقاء عليه
ولا العقل ولا لنو الضاد ! لقد اغترب !

وما تجمعهم مدرسة أو خط فكري هؤلاء
« الأبناء » الذين اغتربوا . لقد تكلف انفسنا
الشطط لو رحنا نتقصى حدودنا الفكرية
فيهم ، أو نبحث عن دنيا واحدة أو موحدة من
الفكر . عبت من العبت أن نلهم خصبهم في
سقط ، في إطار ، في قناة ، أنهم أبناء الحياة
الخصبة ، وهل من حدود لأبناء الحياة إلا
الحياة ؟ في الحرف الجميل ، أن بقينا في حدود
الحرف الجميل : أن ليهم الشعراء ، بمختلف
مذاهب الشعر ، وفيهم ألوان الرواية والقصة ،
وفيهم عديد الاتجاهات في الفلكس والرأي .
لقد يكونون قد أخذوا عن الشرق ، شرقنا
العربي ، اهتزازه للكلمة . تقدسيه لها .
عبادتها . ولقد يكون بعضهم قد ماني العانة
القاسية ، غربة الروح العربية ، في ذلك الوسط
الغريب . التراث الحضاري الألفي في عروقه
لا بد كانت له ارتكاسات وردود فعل ، بعيداً
عن تراثه . ولكنهم لم يعرفوا الغربة الأخرى
التي عرفها الآباء من قبل : غربة القمل والجوع
والاحتقار الملل للانسانية . الآباء السدين
عاشوها قبلهم كفهم العناء بما وفروا لهم من
سبيل الرفاه والعيش الرغد والطمس . ولا
عرفوا غربة التفاعل الثقافي .. فقد قبسوا
الثقافات الأخرى وما في أيديهم من الثقافة
العربية شيء ليكون أخذ وعطاء وليكون تفاعل
يبدر . جعل الآباء هو الذي قطع السلسلة فلم
تتصل بين تراث الوطن الأول ، وهؤلاء الأبناء
الذين نشأوا على الألائد الغريبة . هل ضاعت

ولقد انتهى الادب المهجري الآن . تلك
الظاهرة « الفطرية » التي نبتت كالغطور
الغريبة دون جذور ، وفي غير مكانها وبدون
غذاء ، كانت ظاهرة عابرة عاشت فترة الرضاع
ثم انقضت . كانت استطلا « مشرقية »
ما أن غاب حاملها حتى ماتت ذبولاً . كانت
« انزياحاً » جغرافياً كما تنزاح بعض الصخور
فتوجد بعيداً من منابتها ! لو كانت أصيلة ،
عميقة ، ونما جديداً لنمت وامتدت لها
الفروع والجلود وكانت « مدرسة » فعلاً ،
وكانت « فتحة » ! ما نسميها « المدرسة »
المهجيرية ليس إلا شبه مدرسة !

بلى ! انتهى الادب المهجري الآن وجفت
منابعه ، كل المنابع ، انتهى مع انتهاء
« المسكاة » (١) المتبق ، و « التوركو »
النبود ودنيا الاغتراب الأولى وما ضمت إبناء
المسكاة الآن لم يعد فيهم من « يمست »
و « التوركو » تلك العقدة الزججة في ذكريات
الآباء لم تعد تبصق على الأبناء إلا قليلاً .
والفترت القديم لم يلد أبنا مفتربا من مثله
هناك ولكن مواطن أصيلاً .. وانتهى المفترت
ليبدأ المواطن !

أنهم لآلوف مؤلفة هؤلاء المواطنون الذين
يحملون تراثنا في شرايينهم والعظام ورام صورة
اللحم والدم ، المكان الذي اقتحموه يمتد
إلى جميع قطاعات الحياة . مهندسون ،
اطباء ، مزارعون بحارة ، طيارون . صناعيون ،
ماليون للمصارف . رجال أعمال . اساتذة
جامعات . اقطاب في السياسة ، فنانون للحن
والريشة والقدم الغاوية . اعلام في الفقه
والقانون . شعراء كآلى ما يكون الشعر ،
صحفيون بالقلم الحديد الحديد . كل ما
اختزنت الأجيال العربية الخمسون في عروقهم

١ - المسكاة Mascate كلمة اسبانية دارجة تعني البائع المتجول . وكافة المغتربين إنما بدأوا أول اهرم بامة متجولين
يحملون « الكتشة » وهي صندوق فيه من البضائع ألوان أو زينةون تحت حمل قليل عنيف من القماش .. للبيع .
وفد اشق المغتربين من الكلمة فعلا فريدا بعد أن اعتبروا الكلمة من لغتهم العربية الدارجة فهم يقولون « يمست »
بمعنى يدور للبيع كما اشتقوا مثل هذا الفعل من كلمات أخرى فهم يقولون « يكوبر » أى يقبض من فعل Cobrar ويصر
أى يمشق من Enamorar

ولم يقل لهم أباًؤهم شيئاً . الأبناء يخجلون بهذا الأصل . أما الأبناء فيرون فيه نوعاً من الاعماق الرومانتيكية والزئير الغريب الساذج . صور الأجداد ؟ أنها تطوف لدى واحدكم في جو من الفموض والسر . تعيش خرافة حلوة في النسيج القوي منه . ولكن يزين ذلك لنفسه بالأصداء العاطفية الفنية :

ولفتت عيني فعملت خفيث

عنسى الطلول تلفت القلب

وحين يكتبون أو يتكلمون فانه الوجدان العربي البديء ، دون عقد ولا مضاعفات ولا مركبات ورواسب ولا أفكار مسبقة ذلك الذي يكتب ويتكلم — ان كتب وتكلم — وراء عجمة الحرف الذي به يلغون ، « قصيدة الدم » التي رويت هي إيقاع القدر فيهم . انها تجرى غامضة في عروقهم ولكنها تجرى . هم فواصل فيها وقواف وأناشيد . كل يغني في اطارها على هواه . ولكن القصيدة تتداح من حدود المكسيك حتى أقصى الأرجنتين .. تربط الجميع الى قافية واحدة .

أم وددتم لو تتأمل في طوايا هذه القصيدة ؟ لو تكشف وراء الموسيقى والحرف والسطر شخصها والأطياف المجهولة ؟ اذن فلتركب الى بعض الأقطار . لنذهب مثلاً مع « قصيدة الدم » الى كولومبيا .

في « بارانكيا » على البحر الكاريبي هناك شاعرة هي ميرا دلمار . أصلها من هكار ولكنها ولدت في كولومبيا . وهي في حوالى الخامسة والأربعين الآن ، ولكنها بدأت منذ الرابسة هشرة من عمرها بنظم الشعر الأسباني . طبع طبعاً فيما أعرف ، أربعة دواوين شعرية ، نفذت جميعاً ، فقرأها المعجبون منتشرون في طول القارة اللاتينية ومرضها . شهرتها في شجلى تعدل شهرتها في المكسيك على السواء . وحين اختاروا في الأرجنتين شعراء القارة الأوائل كانت واحدة من الشعراء الخمسة

على الثقافة العربية الحديثة بهذا فرصة من الفرص النادرة للخصب والفنى والنماء ؟ لعلها ! ولعلها ... ولكنه سؤال آخر . .

ولعلهم لو اخذوا وأعطوا ما بعثوا اليها بشيء . انهم لا يكتبون بالحرف الغريب المجهول فقط ولكنهم هم انفسهم مجهولون . حتى الأقرباء حولهم لا يعرفون قيمة نشاطهم ولا مبداه ولا عطره الفردوسي . في المهاجر نفسها ليس من يستطيع ان يعد لك اثنين من هؤلاء الأبناء المبدعين . المادة التي تمشى الأجناف هناك تتركهم خارج اطار الاهتمام الجماعي ، والجهل العتيق .. يذهب بالباقي !

والأبناء بدورهم لا يلتفتون الى الوراء ، الى أهلهم ، اليها . وفيهم يلتفتون ؟ (أورفيه) اليوناني العتيق ، في الأسطورة ، حين التفت الى الوراء ضاقت منه حبيته الى الأبد . وما هم بالموهين ، انا لنصنع المواطن ها هنا صنعا . نصوغ . نثلب . نربي . ننحت . نفق حتى دم الشرايين ليكون لنا المواطن الواهي الصالح . افتحسب انهم يخلقون هناك بالمجان ودون أى جهد مواطنين وأعين صالحين ! ومواطنيين منا ولنا ؟ المثل الهندي يقول : « وانت يا ملقمة التضحية ابئثك ملانة لترجمي ملانة » . ونحن نبعثها فارغة فارغة تلك الملقة وان سميناتها سفارات ومكاتب وملحقين .. ثم نريد لها ان ترجع بالخير العميم ؟ انهم هناك في حاجة الى مثقال ذرة من منية . في حاجة الى من يقول لهم : اتمم مواطنون ولكن في برنامج شامل متكامل من العناية والدباب ، واقوام كارلسل يعملون عليه . وأشهد ان لمة وترا بين النباط والقلب من كل منهم یرن ، يهتز ، يثور ، يشوب ، يسكو ، يبكي ، يصلي اما عرفت كيف تجلسو العربي فيه ! العربي الكامن العريق !

وما العربي عند واحدكم بالشيء الكثير ، مع ذلك . وقد لا يكون أكثر من جمل وخيمة صحراء . وقد لا يكون أكثر من لوحتين من ألف ليلة . كذلك علمتهم الثقافات الأجنبية

المهاجمون ذلك الليل . ولكن « دوكاشياس » وقف عند الصباح يبكي حزنا واما . لم تكن الفرقة الباراقولية سوى جميع من طلاب المدارس الفتية بقيادة المعلمين . وقد وضعوا اللحن المستعارة لتكون لهم سمات المعاربين . . هكذا قال لي لم تسأل عما اذا كان في التاريخ العربي شيء من مثل ذلك !!

ومع « قصيدة الدم » نفسها نصل الى شيلي لنجد : Mahfud Massie محفوظ مصيص الشاعر الاشتراكي صاحب ديوان « تدمير الحداد » Las destinas del duelo ونجد الشاعر الآخر ماريو عويس M. Oes ونجد أندريه سابيللا أحد كبار André Sabella كتاب الرواية وصاحب رواية Campo Grande (الحقل الكبير) . كما نجد بلديتو شوشي أو جميل الشوشي الذي نال أكثر من جائزة أدبية .

وننتقل الى دنيا الأرجنتين فنجد بين من نجد نيليدا شرارة . أبوها سعيد ، حين ترك بنت جبيل ، كان أقصى أمانين ثمن قطعة أرض ، فإذا به يعطي الأرجنتين من خلال بلدة روساريو التي عاش فيها إحدى قيمها الأدبية الكبرى .

وعدة عشرات أين لي ان الاحقهم فاحصهم ، في كوبا ، في فنزويلا ، في المكسيك والاكواдор وبيرو والأرجنتين . . عشرات . أنني لست الاحصاء ؟ ان قصيدة الدم طويلة الفصول . انها ملحمة ، كل عبقري مبدع يضيف إليها سطوره ، دعونا نقف ، على الأقل عند فصلها البرازيلي ، ففي البرازيل منها أناشيد وأناشيد . هناك مثلا :

دافيد نصر : انه زعيم المقالة الصحفية في البرازيل . بالأحرف الفصحى العريضة تطبع مقالاته . ولكنها في النتيجة تجتمع دوما في كتاب . اذا تبني قضية فعملي ذلك انها اصبحت لديه لها بئر ويحرق معا . بين دفتي كتاب من كتبه نقرا قضية « عالدة خوري » الفتاة التي حاولها بعض الفتية من

والعشرين المختارين ، الذين طبعت مختارات قصائد لهم . على أنهم الكلاسيكيون الكبار . وكولومبيا لعددها من مفاخرها ، تمنحها وسام الاستحقاق ، عمدة لها الزعامة الأدبية منذ أكثر من ربع قرن في بلديتها . تتناشد أشعارها التي تنشرها جريدة « التيمبو » أشهر جرائد البلد والقارة في صدر صفحاتها . أما هي فما تزال منا وإن كنا نجعلها كل الجهل . ان الشرق العربي ، شرقنا نحن ما يزال في قواغيها وفي الأحزان يهبها السحر والرنين العميق . وها هنا أحد سرها الكبيرين . أما السر الآخر ففي البحر الذي أخذت منه اسمها . « ميرادل مار » أو « مرقة البحر » ليس باسمها الحقيقي . اسمها في الأصل أولغا شمس ، التوقيع المستعار من البحر المجاور لبلدها بارانكيا ، هو الذي اشتهرت به تلك القصائد المفعمة حثانا وحبا غامضا يقرب من الصوفية وموسيقى ذات لون وعطر . انها الآن واحدة ممن يقودون مسيرة الشعر ويفتون بالآسيانية مائة وخمسين مليون إنسان في القارة اللاتينية ما بين المكسيك ومضيق ماجلان البعيد .

وننتقل مع « قصيدة الدم » الى الباراغوي . في قلب القارة الأجم . هناك : « ماريو أليجي » (ماريو العجي) الحمصي الذي لم ير قط حمص . هو أبرز كتاب المسرحية في بلاده . كتب رقص شبابه الذي لا يبلغ الأربعين ورسم انشغاله بالآمانة العامة لوزارة الصناعة ، خمسا وعشرين مسرحية حتى الآن . وانه يكتبها بالآسيانية و « بالفرانسي » لغة الهندو القديمة الشائعة في بلاده . « أنا من وراء الشخص و الاستار اكتب لبلدي . مسرحي كله وطني لأنني مفرم ببلادي » هكذا قال لي ، ونحن نجتاز عبر الغابات والمسالك بلدة « من الباراغواي سجلت فصلا بطوليا في تاريخ ذلك البلد : كان الدوق دوكاشياس يقود جيش البرازيل الى عاصمة الباراغواي سنة ١٨٧٠ فلما شارفها فوجي في الليل بهجمة غير منتظرة من فرقة هوجاء متفبقة بافتته ولم يكن يدري بوجودها في تلك المشارف . وإيبد

من بيت غنعة في الأصل) وقد ترجم الكلمة إلى البرتغالية . غلب عليه الطب اليوم ولكنه كان إلى سنوات بين الروائيين الأول . روايته A Foguira (شعلة النار) نالت الجائزة البانامريكية للرواية في نيويورك سنة ١٩٤٢ . وماذا في A Foguira ؟ أنها تروى قصة الهجرة العربية من خلال أبيه وأخوته . . تروى قصة ذلك الذي انحدر من «تريبل» قرب طرابلس ليلقي العصا والدراري والجدج المنج في البرازيل . لقد كتب فيها ما لم يكتبه الأدب الهجري مجتمعاً من قصة الاغتراب : وما لم يبع به العربي للحرف العربي باح به للحرف البرتغالي . . !

وفي البرازيل نعيم أبو سمرة . . أو كان حتى أمد ليس بالبعيد من أبرز الكتاب ، يلي كان ، لأن تألقه خبا اليوم . وكان يكتب وجهه إلى الشرق ففيه من شرقنا العربي روحه وجبريته ، وذلك الأسلوب المعطر الذي يعتمد الكلمة . كان « خيامي » الهوى ، يسو إلى عناق الحياة وامتصاص اللحظة ، لأنه كان في الأعماق للروح ولما وراء المادة ، أعلم الفكر الإنساني تناولهم . من هذه الزاوية ، في كتاب رسم فيه آفاقه الثقافية الواسعة أكثر مما ترسم المذاهب وطرق الفكر .

أما في « الرواية » فكان رمزياً تحليلياً لم تغلبه الواقعية على قلمه . فإظهاره من الأحداث ذاتي منجذب ، يوشك أن يلامس دنيا الشعر أكثر مما يقر في دنيا الرواية . . لعله لهذا مثلاً هرب بخياله من إطار البرازيل ليكتب : « رواية في استامبول » !

ماريو نمعة : دخل دنيا الأدب والفكر فأنحا بعدد من المؤلفات المتتابعة منذ خمس وعشرين سنة ، فإذا به منذ سنوات أمين « أكاديمية الكتاب البرازيليين » . روائي ، نقاد ، بحالة . ولكنه من وراء ذلك كله ومن فوق ذلك كله فنان تندى حروفه ببغادة الجمال وذوب العاطفة والإيحاء الموحش الكئيب .

ابناء الملايين والسياسة والنفوذ في « ريودي جانيرو » فلما أعيتهم احتمالوا فأدخلوها مصعداً من بنائية ، ثم زحموها في الطابق الثالث عشر . . ورمت عائدة بنفسها من الشرفة ! وسجل الحادث انتحاراً . وانصرف الفتية إلى قصور ذويهم . آمين !

كان ذلك منذ عشر سنوات أو تزيد قليلاً ، ولكن الفتية كانوا حتى عهد قريب في السجون يقضون العقوبات التي صدرت بحقهم . لقد دخل قلم دافيد نصر في القضية ، وجرهم واحداً واحداً إلى السلاسل . حتى حين هرب واحد منهم عبر أراضي البرازيل وملايينها السبعين وغاباتها المعروفة بجهنم الخضراء . لاحقه دافيد نصر بقلمه ومجلته . فتح عليه عيون الملايين بكل مكان حتى سقط في السجن . في مقدمة كتابه عن « عائدة خوري » قال دافيد لهم : « أنه ليديهي لا تفهموا قيم الشرف التي دفعت عائدة حياتها ثمناً له . هذه القيم التي حملتها أنا أيضاً من بلادى ، بلاد العرب . ولكن ثمة قيماً أخرى من بلادى هذه سأعلمكم إياها ، هي الحق والعدل . ان « التوركو » سيدافع هنا عن قيمه . . . »

وفي البرازيل سلمون جورج ابن كل سلامة في جبال اللاذقية بسورية . دخل السياسة من بابها الأوسع ، فصار حميد الأكثرية في المجلس النيابي منذ سنوات ، ومارس الخطابة ، فله اللسان والبلاغة الأسرة التي استخدمها في ألف محاضرة للدفاع عن العرب ، وفرق في الشعر فهو بيان وقافية ، ودعوة عميقة لحب الحياة ، حتى لتجد من قصائده ما نقش في أصقاع البرازيل في صدور الدور . ديوانه : « تريينات عربية Arabes cos » فيه كافة تلك اللوثيات الفكرية الممتدة من النزل حتى الموت . وفيه لهيب الصحراء وأنين التخيل المتفرد البعيد .

ومن البرازيل ، في إطار قصيدتنا نفسها نجد :

سيسيليو كارنيرو S. Carnero (وهو

وشاعربة للموسيقى وللترجيع اللانهاي . ومن وراء ذلك حين حضارى عربي ليس أعرق من رحمة الانساني .

هل تعلمون اني صنعت في طفولتي

من خشب الأرز القديم سفنا

أجراها على اليم خيالي

وابي ابن المدور نسج لسفني قلوفا

وأمي من آل زيدان نفتحتني بحب التوتزادا

وطويت البحار استهدى النجوم

والأفلاك المفرجة بوهج الأغاني والأهات

واليوم صار لي مرافق أرسو بها أمانا

في ضوء البدر الفضي

وقلبي لمر ناضجة !

فان حملت لكم من أسفاري « مشمشا »

و « بلقلاوة » (٢)

فهما مما منحني من الطيبات آبائي العرب

وقد بقي للمدور الكثير من طفولته وفتوته في البلد الصغير المجاور للنهر ، الذي عاش فيه . جوانحه مثقلة بما بقي وترسب فيها من تلك الصور . لهذا أصدر « قصص طفل » مجموعة من أمتع وأحلى مجموعاته القصصية . ولم لا ؟ « أنا ما أنفك طفلا - كذلك يقول - الأطفال وحدهم يستطيعون استرجاع ما لنا الذي سطا عليه الليل .. »

وقد حمل معه من أيام يؤسه والمسكنة ، وهي أيام طويلة في « باهيا » عضة الظلم الاجتماعي فهو يسارى الهوى ، يعيش في وهج المشكلة الاجتماعية للطبقة الفقيرة المسحوقة في البرازيل . فاشخاصه منها وقلمه على الدرب الاشتراكي وحياته للغلاب اليومي الموصول .

لن أتابع قصيدة الدم بعد ، فهي فصول ومقاطع وقواف كثيرة كثيرة . سأنسى الآن منها : الصحافي باولو تولا ، والشاعر آميس فارس صاحب ملحمة « الماسكانه » والروائي أميل فرحات (ابن أخ الشاعر الذي نصب ونعرف الياس فرحات) صاحب رواية « الحلة الكبيرة » . والشاعرين : منيرفا سمادة وايفا جبور . والشاعرة الشابة التي ظهرت أمس فقط (عمرها الآن ٢٤ سنة) في أول ديوان لها سنة ١٩٦٣ بعنوان (نصف وردة Semi Rosa) موقعة القصائد باسم : Nungum لا أحد

لا لن أتابع القصيدة كلها . وحسبي أخيراً أن أقف منها بعض الوقوف عند : القصصي الشاعر جورج مدور والشاعر الكاتب جميل المنصور الحداد .

جورج مدور : هو ابن دمشقي في ظلها الحاني وترابها المخضل بالندى والريعين . وهو في الوقت نفسه ابن « باهيا » Bahia ، تلك المقاطعة البرازيلية ذات المجتمع الحار الفاجع ، والرنين الأفريقي الأبيح . وراءه الآن وهو في زهو الكهولة سبعة دواوين وست مجموعات من القصص القصير . ومواسم الخصب إلى أقبال . أكثر من جائزة أدبية نال . ومجموعته قبل الأخيرة نالت جائزة « حاكم سان باولو » الأدبية . والناس يقرأونه بالروسية والإنجليزية واليوغوسلافية والفرنسية والإسبانية والألمانية . في انتظار العربية واللغات الأخرى . إلى اللغة العربية لم يترجم له سوى قصة صغيرة واحدة ! (١)

أخذ عن أبويه الدمشقيين ذلك الباب الموصول ما بين العين والقلب وذلك الحنين إلى الأرض الأولى ، وتلك « الاجتماعية » التي تحتضن الوجود . فهو غنائية خصبة مؤثرة

١ - نشرتها وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق ضمن مجموعة « من القصص البرازيلي » ترجمة المرحوم نخلة ورد .

٢ - هاتان الكتلتان وضعهما بالعربية في القصيدة ولهما هاتان وقع الأمور الشرقية المناقضة للحولة لا المعنى المادى .

وكيف يمكن أن ينام دون عيون ؟ وأنه لا يرى إلا في الليل . إذ كان يخرج بغد دليل ينزح الماء من البئر القريبة وبفسل ثيابه . . في بعض الأيام كان الطفل يرى ضوءاً يشبه السراج ، ويحس بالضرير يمشى على رؤوس أصابعه فيخرج من الكوخ . وخيل إليه أنه سمع مرة صوتاً ناعماً يتكلم وصوت دميان يقول : إن الصغير هنا ! . . وتذكر الطفل صدقات الناس . والطجين الذي كان يتقاسمه مع دميان . وكلام أمه حول الأمانة ، وحول الإخلاص للضرير . وحالات القصص الإلهي الرهيب لن يخون . . فاستبدت به رغبة في البكاء . . .

وصعد الشاحنة . كانت عيناه ما تزالان حمراوين منتفختين من الغبار الذي ابتلعه في طريق القدوم . . قالوا له :

— إذن ستعود يا أوزاريو . .

— لا أدري !

— وإين الذي قدمت معه ؟

— ذهب مع بعض السيدات هنا وقالوا انهم سيشفونه ويمشي وحده دون دليل . .

سيشفونه ! وهنا ليس من يحتاجني !!

.....

وتصل القصيدة ، قصيدة الدم ، أخيراً إلى صاحبها :

جميل المنصور . . . أن سألته من أي بلد أصلك أجابك : ما يهم أن أكون من أي بلد ؟ أنا أعرف أن جلدوري ميقية هناك في الشرق العربي . وهذا يكفي ! أبواه من بلادنا . وهما اللذان علماه مبادئ العربية . وجاء لبنان سنة . وزار مصر . وادهمته . وقد التقى على الباخرة من أوديسا في الاتحاد السوفياتي ، إلى اللاذقية ، أن الشباب العرب لم يكونوا يلهون وأن نشرة الأخبار كانت تجذبهم أكثر من لحن الرقص . كان ذلك سنة ١٩٥٦ يوم تأميم القناة .

ولكنك لن تعرف جميل المنصور أن لم

وبالرغم من عمله الصحفي في إدارة كبريات الصحف ، ومن عمله الإذاعي الذي لا ينقطع والذي يتصل بسلسلة من عشرين وثلاثين محطة إذاعية فإن ذلك لم يؤثر على قلمه الأدبي الذي ظل ينتج وينتج الرائع الجميل من الشعر والقصص .

ولقد دخل القصة من طريق الشعر . ومن ذا الذي يمر بحقول الربيع فلا يخرج ملء الصدر والخف واليدين عطراً وزهوراً ؟ أن من السهل أن ترى في المدور القصص ، المدور الشاعر . على أنه يكتب القصة الواقعية . القصة التي تملك من « الحتمية » ونبش الحياة ما يمنحها التعبير الإنساني الكامل . وأوقع ما يقر بنفسك منه ذلك الإيمان بالإنسان . ما أن يهم المدور أو يعنيه أن يقص القصص . ما يهمه هو أن يفجر الإنسان في الإنسان . أن يجدد الثقة في الكائن الشعبي البسيط ، وفي أفجع ما في الحياة من زاوية . ولعلني أكون أقرب منه ضوءاً . دون أن أسيء إليه — أن لخصت قصة صغيرة من قصصه . أنها حول طفل يعمل دليلاً لأعمى . وقد ترك ضريره فجأة دون سبب ، وسافر مع أعمى آخر إلى « سان باولو » البعيدة جداً . ولكن هذا الأخير تركه فور وصوله . ووقف الطفل أمام السيارة العائدة وتذكر حياته كلها مع ذلك الضرير القديم دميان . . تفاصيلها الصغيرة ، وتذكر موت أمه ، يوم الدفن ، أربعة أو خمسة مشيعين بينهم الضرير دميان ولياليه بعد ذلك على الأرض العراء في كوخ الأعمى دون ضوء . فالضرير لم يكن بحاجة إلى نور ، أضواء سيارات الشاحن كانت تنعشه في بداية الليل . وهوام الكلاب ، وحين يسود السكون يتجمع على نفسه ويضع يديه بين ساقيه :

— سيد دميان !

— هو !

— لا شيء . . لا . . .

في البلد كان يعتقد أن الأعمى لا ينام . .

تعرف بعض مواقفه . سيرة الحياة العادية لا تكفي لرسم صورته الكاملة .

في أواخر سنة ٦٣ مثلاً فسجت الصحف البرازيلية بخبر غريب ، لقد هجم جماعة من الكتاب اليساريين ومن الصحفيين على مستشفى المجانين في سان باولو وأخرجوا منه عنوة : سيده ! اسم السيدة معروف في الأوساط الاجتماعية والأدبية والمالية ، فهي كاتبة أدبية وموسرة من أصحاب الملايين وزوج لرجل من أصحاب الملايين . ولكن ميولها الاشتراكية دفعت الزوج للحجر عليها والاستبعاد بمالها ، فذهب لها ما أوصلها به بحكم القانون إلى مستشفى المجانين . ومن هناك أرسلت ذاء إلى أصحابها الذين لم يجدوا لانتقالها السريع سوى الاختطاف السريع ، وكان بينهم الشاعر اليساري العنيف : جميل المنصور !

وقبل ذلك سنة ١٩٦١ فسجت الصحف بخبر أقرب وأشد دهشة . لقد ضاع حاكم ولاية « ريودي جانيرو » بالحقاذين الذين يشوهون أناقة المدينة وجمالها السياحي الأخاذ . الحاكم هو « لاسريدا » ذو الميادين المتنازعتين الذي أسقط أربعة رؤساء جمهورية في تاريخ البرازيل الأخير . نسي الحاكم مليوناً أو أكثر من مليون من الزوج البائسين اللذين يسكنون الرائب من التناك وأخشب السحاحير التي يسمونها Favellas والتي تنقش بالسواد كل السفوح الجبلية في المدينة . نظره لم يرتفع إلى السفوح . ظل على الأرضة فقط وهناك لم يجد ما يشوه جمال « الريو » سوى التكتين وأهل الشحاذة ، ووجد الحل للمشكلة ، وكان الحل بسيطاً . فالحيث الأطلسي أمام المدينة كبير كبير وبالإمكان إغراق كل تلك القدرة في المحيط ... وهكذا كان ! وأحد من الذين استطاعوا النجاة من الفرق ،

عاد إلى الشاطئ ففضح الجريمة الباردة ! وضجت الصحف ! القلب الوحيد الذي تفجر ديواناً من الشعر كاملاً ، حول هذه الجريمة هو قلب : جميل المنصور !

« ابتها الأجساد التي أغرقت بين الصرخات والزبد »

« ثلثا يفرق فقط لملنا ! »

« سيبقي دوما نور وظلام ، يبقى يزدان وأهرمن (١) »

« يحاكم الفثيان والكهوف الأولى »

« قاييل ! قاييل ! ماذا فعلت ؟ »

وراء جميل المنصور لأن قافلة من خمسين كتاباً بين مؤلف ومترجم أو تزيد قليلاً وسبعة وخمسون عاماً من العمر أو تزيد قليلاً . بدا الشعر سنة ١٩٣٥ بديوان « القمر ، حبيبي » ثم « صلوات سوداء » سنة ١٩٣٨ ، فنال جائزة المجمع العلمي البرازيلي للشعر يومذاك . ولكنه بعد ذلك ترجم الغنيام واللف ليلة ، وبترنارك ، وبوكاشيو ، وهوغو ، وفيرلين ، وبودليس . ونشر دراسات بعد دراسات في الشعر البرازيلي والقصص العربي والوان الأدب والنقد .. فانت تفسر حين تقرأه في النشر والشعر أن لم تجمع اليك كل ما في الجملة من الثقافة ! أولاً فانت أذن غريبك تائه بين كل المراقاة ولات مرفاً ! ..

لقد كان في « صلوات سوداء » يشيع الكتابة في الحروف ، ولو أنه ينفو لسوانح الحب .. وانتهمى في ديوان « الحاكم والشحاذين » سوطاً من عذاب . لقد اختار طريقه اليساري المتطرف ووقف دون فلسفته المادية يتقبل حجارة الرجم و .. يترجم ! ولكن أحداً لا يمارى في مكانته من الشعر . أنه أحد

١ - « يزدان وأهرمن » هما إله الخير والنور والظلام في الديانة الزرادشتية وقد اشتق الثاني من الأول وإلى هذا أشار العمري مرة بقوله :

فصيح من تكلمه أهرمن

فكر يزدان على شجرة

أمراء الشعر في أمريكا اللاتينية كلها منذ سنين طويلة .

و « قصيدة الدم » بعد هو الذى قالها .
هو الذى قال :

يا بلاد العرب انك في ذاتي

« على صورة صحراواتك

« يصاغ شعري

« انه لا نهائي ومتنقد

« اتي صورة منك أخرى ..

★ ★ ★

بلى ! ان القصيدة لطويلة حقا ، انها قصيدة
جميع تلك القلوب التي غربت الى غير رجعة .
وبقي في مكتونها الفبيبي شميم غرار نجد !

الستم معي في أنها تستحق الاهتمام .. هذه
القصيدة ؟

شاكى مصطفى

لقصيدة الدم

أترجم في الصفحات التالية من البرتغالية
قصيدة جميل منصور الحداد التي أشرت إليها .
لعلها تصالح ملحنا ايضاحيا للمقال تضيف اليه
لونا من اللون :

يا بلاد العرب انك في ذاتي !

على صورة صحراواتك

يصاغ شعري .

انه لا نهائي متنقد

اني صورة منك أخرى

ففي مأساة جسدى وروحي

ثمة دوام أسد يزأر ونظرة تمنح الغيء !

★ ★ ★

وساعة أتأمل في ذاتي

أسمع

أصوات الأجداد

تصاعد في داخلي

مبهمة ، بعيدة ، رائحة .

لقد شهدت جميع فترات الاق من قومي .

قومي الذين أنوا العالم بمصر لا يهود ،

مصر كالنجر !

★ ★ ★

أشعر اني كنت فيما سلف

محاربا جموحا ، رهيبا

في المغاوير التي لا درب فيها

ونعلي الفيلظ يدوس بطن الأرض البتول !

★ ★ ★

رايت تسمر الحرب الأشد

ومهندى العارى الذى كان دون غمد

كان يشعل في معارك الموت

وكم من صدر عدو خرق

ان القدر نفسه

ليتراجع

أمام المحارب المسعر للحرب

مقتنما بضمته !

★ ★ ★

الى جانب عنتره الرائع المحبوب

وحين كنت أقول الشعر في عكاظ كنت
أنظم الجواهر قوافي
وكنت أنظم النجوم !

★ ★ ★

لقد شهدت جميع فترات الألق من قومي
نظرت الى محمد يولد
رايت بزوجه الرائع كالشموس

رايت فعاله العظيم النوراني
مع النصر المؤزر للإسلام
رايت أنا انتصار الشعر ، انتصاره السحري
رايت الإيمان في فجره

منذ ذلك الوقت كنت أحمل :

كأنجيل وعقيدة اي قصيدة هي : القرآن (٣)

★ ★ ★

وبعد هذا رايت بيت الشعر ينفلد في حياة
الأرض والناس
رايته يتألق على الجدران المقدسة
للمساجد كافة

رايته ينقش بأحرف من ذهب على ستائر
جميع مقاصير الحريم
رايت الشعر يغني في المطرقات التي تحجب
الطهارة الإلهية

في جسد المحظيات الوضاء كالقمر

رايت الشعر يلف بلاد العرب كالرداء

كنت جنديا
وعلى الأراضي الأفريقية للآلهة تموج سيفي
مخضبا بالأرجوان
الهيأ بما أحرز من مجد
كل حرب
كانت نصرا !

★ ★ ★

كنت أحمل على غارب مسيحي الإيمان
المعروف من محمد ،
ومع الإيمان الحضارة ،

★ ★ ★

لقد شهدت جميع فترات الألق من قومي
ومن خلال شجيرات التمر الهندي (١) الكثيفة
في أيام عكاظ
وفي تلك المباراة الفنائية الشعرية ،

سمع صوتي ، الذي كانت تنبعث فيه روح
كل تلك الموسيقى الكونية

سمع كرتين البلور ، مطربا
يعدل الليل في العمق وكالفجر !
ولكي أحرز غار السبق عرفت كيف أصوغ
الفصيدة .

لامعة مزهرة
في اللغة الفنية بالقافية
في اللغة الجميلة التي خلقت للوزن

(١) هي من أخيلة الشاعر أن يتحدث من شجرة التمر الهندي في عكاظ ولا تمر هندي هناك ..

(٢) لتلاحظ أن الشاعر هنا يحاول التعبير عن معجزة القرآن وسحره البلاغي بكلمة قصيدة ولم يقصد المعنى المباشر للكلمة .

رايت ولادة الشعر في بلاد العرب !

لقد شهدت جميع فترات الألقى من قومي .
في صورة فارس يعدو ، كنت سلطانا وكنت
خليفة

وحكمت في بغداد عدلا لا يمارى وعالما
وكان لدى من النساء اعداد كسرب من
النجوم

بفضاوات كالفجر وسمرات وشقراوات
وقمحيات

يركمن على أقدامي ، كالجواري

في اجسادهن من العذوبة (١)

ما هو أروع

مما كانت تحمله أعنان سورية ودرائق
عمان .

كن يحتوين النار في شعورهن المحببة
ويحملنها خالدة ملأى بالتوق في الجوانح .

لقد شهدت جميع فترات الألقى من قومي
وفي بلاد الأندلس

شهدت الفخار

وشهدت من موسيقى الحياة المطربة نفسها
سريعها والبطيء !

رايت (المرية) و (بلنسية)
رايت غرناطة
رايت الشعر

يتفجر كاملا رائعا (بارناسيا)
قبل هوغو بقرن وقيل موسيه والكونت (٢)
رايت انوار التفتح المجيدة

قبل كثير من تلك التي ورثتها فلورنسة من
ليوناردو (٣)

يدي الصنّاع

وهي تعمل الازميل في الجص

عرفت كيف تمنح

الأقواس الخالدة

في « الحمراء » العجزة

في باحة الأسود وفي صالة السفراء

وحين كنت اعبر الحمراء

التي هي قبل كل شيء أعجوبة النقش
والترزين

وجلدت (بنيفوتو تشيليني) غرا لا يفقه
شيئا (٤)

انت لا تموتين يا بلاد العرب . لا تموتين في ذاتي

١ - اختصرت ، خوف الاطالة مقلدا في هذا الموضع وبمعه .

٢ - هوغو ، موسيه ، ولوكونت دوليل ، من أبرز شعراء فرنسا في القرن الماضي . والبارناسية إحدى مدارس الشعر الفرنسي إذ ذاك .

٣ - ليوناردو دافنشي من اعظم فناني عصر النهضة وهو واحد من الثالث المشهور انجيلو ، رافائيلو ، دافنشي ، في ذلك العصر ولكنه الموسوعي النحسب فيهم .

٤ - نقاش . نحاس . صانع ايطالي مشهور (١٥٠٠ - ١٥٧١) يلخص اسمه تاريخ الصياغة في القرن السادس عشر .

في كل حياة تبعثين حياة جديدة
وفي جوانحي كلها تتفجرين
ضراعة وكلاما وصلاة ونداء .
كل ما هو انا الآن ، انما هو منك
تلتهب دمائي كما تلتهب صحراواتك
وعنترة يفني في شراييني

منك جاءت روحي
منك جاء قصيدى الذى هو قصيدك
والذى يلفل الان مع كل ذرة من دمي
مندمجا مع كل خلية من جسدى
كنت فى جميع فترات الالىق من قومي
لا تموتي ا يا بلاد العرب فى ذاتي لا تموتي ا

* * *

الفوضوية

علي أدهم *

لمحة تاريخية :

أساس النزعة الفوضوية في النفس الإنسانية هو الشعور بأن أسعى مطالب الحياة وأحبها إلى النفس ، وأقربها إلى القلب ، هو الحرية الاجتماعية والاقتصادية للفرد والجماعة ، وترمى الفوضوية إلى إيجاد مجتمع يحظى فيه الأفراد بالحرية الكاملة لأنماء شخصياتهم وفتح مواهبهم ، ويكون هذا المجتمع خالياً من وسائل القهر والازغام ، وأغلال القهر والحاجة والحرمان ، التي تعوق الإنسان عن استكمال شخصيته ، واستغلال مواهبه وقدراته .

وهذا النزوع العام إلى الحرية الذي نتبين ملامحه ونلمح آثاره في الأحداث المتتابعة خلال التاريخ يوضح لنا أن متابعة المثل الأعلى للحرية أصيلة في الإنسان ، وأنها تقوى وتشتد كلما قوى شعور الإنسان بشخصيته وذخائره قدرته ، وقد أعياها طغاة الأباطرة والقياسرة وحائزوا المستبددين والحاكمين بأمرهم التغلب على هذا النزوع إلى الحرية ، وأخمدوا أنفاسه ، والقضاء عليه ، وكان للحرية دائماً الكلمة العليا في النهاية ، والتاريخ العام في رأي هيجل يبين تقدم الشعور بالحرية من جانب الروح ، وتحقيقها نتيجة لذلك .

ومنذ ميلاد الحضارة وهذا الأمل يراود الناس في أخيلة الشعراء ، وأحلام الفلاسفة وتطلعات البشر بوجه عام ، ففي اليونان القديمة وفي الصين وفي غيرها من أقطار العالم جاهد الناس من أجل الحصول على الحرية وحازوها اللطيفان والاستبداد حرباً شعواء متصلة ،

وكل مجتمع انساني مكون من مجموعة من الأفراد ، والمفروض أن هذا المجتمع وجد لتحقيق مصالحهم المشتركة ، وأن الأفراد أنفسهم لم يوجدوا من أجل المجتمع وفالدهن ، والحرية في طليعة مطالب الأفراد ، وتقتضي الحرية الاجتماعية أن يعيش الإنسان طوع

✽ : أسهم الاستاذ علي أدهم اسهاماً كبيراً في تعريف القارئ العربي بأهم التيارات الأدبية والاجتماعية والسياسية في العالم ونشر كثيراً جداً من المقالات والدراسات في مجلة المتنظف ومجلة الهلال والثقافة والكتاب المصري وغيرها . ومن أهم مؤلفاته المذاهب السياسية المعاصرة ، وكذلك الجمعيات السرية والإشتراكية والشيوعية .

الدولة أو الجماعة فوق حقوق الفرد ، ويبدو ذلك في وقت السلم ، ولكنه يزداد وضوحا في اوقات الحرب ، ففي ابان السلم يؤمر الفرد بأن يقطع من دخله جزءا يقدم للضرائب اللازمة لملء خزانة الدولة ، وعليه كذلك أن يقدم ولاده للخدمة العسكرية ليساعد الدولة في تكوين الجيش اللازم لها لغرض سياستها وتنفيذ مرسوم خططها ، أما في وقت الحرب فان عليه أن يضحي بحياته من أجل الأبقاء على حياة الدولة .

وفي وجهة النظر الفوضوية ، أن هذا التقدير للدولة قائم على أسطورة وهبية، وفكرة مجردة لا نصيب لها من الحقيقة وأن هذه الأسطورة صيغت لتمكين من لهم مصلحة في خلق هذه الأكاذيب ، وترويجها والدفاع عنها ، واضفاء القداسة عليها .

وعندهم ان الناس قد كونوا من أنفسهم جماعات منذ أقدم عهود النظم الانساني . ولكن تكوين الجماعة كان من أجل تيسير الحياة ، ولذليل الصعاب المترتبة ، ولحماية الأفراد ، ورفع الأذى عنهم وكان الباحث على تكوين الجماعة أن الأفراد الذين تكونت منهم رأوا أن تنوع مواهبهم يثرى الحياة الاجتماعية ويسمو بمستواها ، أي أن أساس تكوين المجتمع هو ضمان المعيشة المسرة التكرية لرجال المجتمع ونسائه جميعا بلا أدنى تفريق أو محاباة .

ويرى الفوضويون أن الدولة قد اكتسبت حقوقا تعد من وجهة نظرهم منافية في طبيعتها لمصلحة المجتمع ، وأنها أصبحت بمرور الزمن آلة لحماية مصالح طبقة خاصة من طبقات المجتمع ولاستئثار هذه الطبقة بالسلطة والنفوذ ، وقد مكنت السلطة المحتنصة هذه الطبقة من استغلال الدولة في حماية مصالحها الخاصة ، والحد من الحريات التي قد تضر بهذه المصالح ، وأثارة حروب الغزو من أجل الحصول على أسواق جديدة ، ومصادر للواد

أرادته على شريطة أن لا يؤذى غيره ، ولكن هذه الحرية الاجتماعية متوقفة على الحرية الاقتصادية ، ويستلزم هذه الحرية أن يكون حصوله على ما يسد حاجاته ، وفي مختلف مطالبه ، مكفولا ميسرا ، ولأجل أن يتم ذلك دون بذل مجهود ضخم لا بد من التعاون المتبادل في ظل المجتمع ، والمجتمع الانساني في صورته النقية الخالصة قائم على هذا التكاتف في سبيل المصلحة العامة لجميع أفراداه .

ولذلك يجد الانسان - مثل سائر الحيوانات الأخرى - أن من مصلحته أن يعيش في مجتمع ، وقد كيفت الانسان أحوال الحياة الاجتماعية ، وجهاده في توطيد البناء الاجتماعي ، حتى أصبح من الصعب عليه أن يعيش في عزلة عن المجتمع ، وكان هذا مدعاة لنشوء الفكرة القائلة بأن المجتمع مثل الجسم العضوي الحي ، وهي فكرة غير سليمة ، لانا إذا فصلنا أي عضو عن الجسم الحي لا يستطيع أن يعيش منفصلا عن الجسد ، ولكن أي انسان أدنى حظا من الفهم والقدرة على مواجهة المواقف الطارئة يستطيع أن يدبر أموره إذا التفت به الأقدار في جزيرة نائية بما يكفي من الموارد الطبيعية ، وهو من غير شك سيقع في العنت ، ويصادف ما يشق عليه ، ولكنه برغم ذلك يستطيع أن يعلا جوفه ويلازم بين نفسه وبين ظروفه المستعذبة، ويعيش معيشة راضية الى حد ما .

وفكرة أن المجتمع وحدة قائمة بذاتها ، وإن لهذه الوحدة حقوقها التي تسمو على حقوق الأفراد قد وجدت في مختلف عصور التاريخ ، ومدت في العصر الحديث من الأفكار المسلم بصحتها ، سواء في ظل نظام مثل النظام الهنري أو طريقة حكم مثل حكم الميكادو في اليابان ، وفي كل المواطن يسعى الفرد للدفاع عن بلاده ، وقد يدفع الى خوض الحرب التي يثيرها الحكام المثرثرون على سياستها من أجل أشياء أخرى تستحق أن يضحي بالأفراد في سبيل الحصول عليها حسب تقديرهم الخاص ، ويمكن أن تلج من وراء ذلك وضع حقوق

قوضوا سلطتها ، وهدموا بنيانها ، والأشراف على جهاز الدولة الجديد الذى حل محل الجهاز القديم ، فبدلاً من تحقيق الحرية المنشودة ، والتي قامت الثورة من أجل إيجادها فإن رجال الثورة يرون أنه من اللازم الذى لا محيص عنه أن يكونوا أشد عنفاً وضراوة من الحكومة التى استقطوها ، وبذلك يفرقون الحرية فى سيل من الدماء ، مستعملين المقصلة ، وتسفر الثورة المستحدثة إذا كتب لها البقاء عن إيجاد طبقة جديدة لها امتيازاتها ، ونظام حربي مزود بكل الأسلحة اللازمة للحرب ، وتطوى المثالية التى أوحى الثورة الأصلية ، ويحل محلها طغيان الطبقة الجديدة المستبدة الحريصة على استغلال الموقف ، وتحقيق أهدافها الخاصة ، ويضرب الفوضيون مثلاً لذلك ما آلت اليه الثورة الإنجليزية فى حكم القواد من اتباع كرومويل ، فقد قضت على حركة الحراثين Diggers وطلاب المساواة Levellers وضيق حكم القواد دائرة الحريات الفردية حتى صار نصيب الفرد من الحرية أقل من النصيب الذى كان يستمتع به فى عهد حكومة أسرة ستوارت Stuaris ، والثورة الفرنسية نفسها تحولت من حكومة المجتمع القومى Convention الى ديكتاتورية مارا Marat ودانتون Danton وروبسبير Robespierre وآلت فى النهاية الى حكم نابليون الأول الذى كان أكثر طغياناً واستبداداً ، وقد أثيرت فيه النزعة التسلطية ومواصلة الحرب باسم الحرية والمساواة والإخاء .

ويرى الفوضيون أن الثورة الروسية ظللها وهم الحكومة ، والاعتقاد بأنها قادرة على إيجاد مجتمع تسوده الحرية والعدالة ، وقد قامت الثورة الروسية بتطبيق نظرية ديكتاتورية البروليتاريا البراقة الخادمة بين جماعات من المزارعين كان عند الصعاليك بينها قليلاً نسبياً ، وكان القائلون بهذه الديكتاتورية فى الواقع من أفراد الحزب الشيوعى لا من أفراد الصعاليك أو البلوثيريا ، وكان عدد أفراد الحزب الشيوعى أنفسهم يمدون أقلية ، فقد

الخام المطلوبة ، واتباع سياسة العدوان الإمبريالى فى سبيل تحقيق أهدافها ، ونيل الفوائد المرجوة ، وفى مثل هذه الأحوال تصبح الدولة نظاماً قائماً لمساندة طبقة حاكمة ، وحماية مصالحها ، وليست نظاماً قائماً لمصلحة جميع أفراد الدولة إلا فى الحدود الطبقية التى يجد أفراد الطبقة المسيطرة فائدة لهم فى ضرورة الاستجابة لمطالب الطبقات المحكومة والمغلوبة على أمرها ، ويرى الفوضيون أن حرص هذه الطبقة المستغلة على بقاء الدولة التى يمتلك أفرادها زمامها يجعلهم يركنون إلى طرائق مستنكرة لو اتبها فرد من أفراد الطبقات الأخرى لعدت من الجرائم التى ترتكب ضد المجتمع ، ويضرب الفوضيون مثلاً لذلك الانتحاء إلى الحرب لفض الخصومات ، وإنهاء الخلافات التى تقوم بين الدول ، فإن القوانين المدنية تمنع الأفراد من الانتحاء إلى القوة وأسطناع العنف فى معالجة الخلافات التى تقع بين الأفراد ، ولكن الدولة التى تدبر أموراً الطبقة المتحكمة لا تتورع عن الاستعانة بالقوة الضاربة والمدون المشوف فى القضاء على الاغرابات ، وتفرق المظاهرات ، ولا تمنع من اللجوء إلى الكسلب والخداع ، والتورط فى آلام لو اقترفها أى فرد من الأفراد لعد من المجرمين الآثمين الذين يجب أن ينذهم المجتمع ، ويعمل على تقليم أظفارهم ، أو قطع دابرهم .

ويرى الفوضيون أن المساواة والعيوب لا تكفى من مصاحبة الدولة وملازمتها ، فحينما توجد دولة تقوم أقلية بتدبير الأمور، والأشراف على جهاز الدولة ، وهذه الأقلية تفرض الطاعة على الأكثرية . فالحكومة من أجل ذلك لازمة فى نظام الدولة ، ولا يمكن أن توجد حكومة بغير قهر ولا إرغام ، ويكشف لنا التاريخ أنه كلما وجدت طبقة حاكمة تبدأ فى استغلال مكانتها فى فرض سلطاتها على الناس، والحصول على امتيازات خاصة بها ، ومنافع مقصورة عليها ، وعند الفوضيين أن الخطأ الذى وقعت فيه الثورات التى عرفها التاريخ جميعها هو إيجاد حكومة قاهرة فى مكان الحكومة التى

الفيتكوري في إنجلترا ، وفي طليعتهم الفيلسوف
المفكر جون ستيوارت مل S. Mill ل فقد
قال « انى اقدر ان المشكلة الاجتماعية في
المستقبل هى كيف نوفق في الجمع بين اكبر
نصيب من حرية العمل الفردى وبين الامتلاك
العام للمواد الخام في انحاء الكرة الأرضية ،
والحصول على انصبة متعادلة من فوائد العمل
الذى اتحدت الجهود في القيام به » .

ويرى الفوضويون ان ستيوارت مل قد لمس
المعيوب اللاصقة بالحكم الديمقراطي والتمثيل
النيابى ولكنه لم يتقدم كثيرا نحو ايجاد حل
مناسب للمشكلة ، وكذلك شان معظم الاحرار
الطرفين في العهد الفيتكوري الذين راوا
ضرورة توفير الحرية للفرد ، والحد من طغيان
سلطة الدولة ، ولكنهم مع ذلك لم يتجاوزوا
الوقوف عند هذه المرحلة ولم يشيروا باتخاذ
اسلوب اجتماعى يكفل اكبر نصيب من الحرية
للفرد ، وفي الوقت نفسه يثبت انه اقدر
النظام الرأسمالى على اشباع الحاجات المادية،
ومن أمثلة هؤلاء المفكرين في رأى الفوضويين
هربرت سبنسر الفيلسوف الانجليزى
المعروف ، فقد قاده آراؤه المستمدة من
ايمانه بمذهب النشوء والارتقاء الى الاعتقاد
« بان الانسانية تتقدم تقديما تدريجيا الى مجتمع
تتناقص فيه سيطرة الدولة الى ادنى حد
ممكّن ، وتزايد فيه حرية الفرد الى اقصى
حد مستطاع » ، ولكنه لم يحاول توضيح
طبيعة هذا المجتمع ، ويرغم انه لم يكن راضيا عما
بلغته سيطرة الدولة في عصره ، فانه كان
لا يزال متعلقا بفكرة وجود الحكومة ، فهو
يقول « لا اكنفى بتقرير ان قوة الدولة المسيطرة
والكابحة للأفراد والجماعات والطبقات لازمة
بل اذهب الى القول بانها عليها ان تمارس هذه
السيطرة الكابحة بطريقة أكثر فعالية وأبعد
اثرا مما نراه في العهد الحاضر » ، وحقيقة ان
سبنسر كان يؤمن ان تعنى الدولة بممارسة
الحكومة لوظائفها السلبية ، ولكن الواقع ان
طبيعة الدولة ترغمها على ان تفرض على الفرد
مطالب ايجابية ، مثل دعوته الى الخدمة

كان عددهم لا يتجاوز ما بين المليونين وثلاثة
ملايين من عدد السكان البالغ مائتي مليون
نسمة ، وحتى في داخل الحزب الشيوعي نفسه
كان الفصل في المسائل الحيوية الهامة موقوفا
على الاقلية ، ويقول الفوضويون ان نتيجة ذلك
كله كانت ان الكلمة النهائية الحاسمة في اى
امر من الامور العظيمة الاهمية صارت رهنا
بارادة رجل واحد ، وهذا الرجل هو ستالين ،
كما ختمت الثورة الفرنسية بسيطرة نابليون
واخذه ازمة السلطة جميعها في يده .

وهم يرون ان تاريخ الثورات جميعها يؤكد
تلك النتيجة المحزنة التى ضمنها المؤرخ البريطانى
اللورد آكتون Lord Acton قوله الحكيم
« السلطة مفسدة ، والسلطة المطلقة تفسد
افسادا مطلقا » .

ويقول الفوضويون ان بناء مجتمع تسوده
الحرية السياسية والاقتصادية لا يمكن ان يقوم
به سوى افراد جميعهم ارادة عامة تلقائية ترمى
الى تحقيق هذا الهدف باهتمام بالغ وحرص
شديد ، اما الحكومات التى تأخذ على عاتقها
القيام بهذه المهمة فانها سرهنا ما تتحول الى
قلب المجن للثورة التى أحدثتها مهما ادمت
الاخلاص لمبادئ الحرية والمساواة ، والسبب
في ذلك ان وجود اية حكومة يستلزم ايجاد
نوع من النظام ، واعداد وسائل حمايته والدفاع
عنه على حساب العمل الفردي والمباداة الفردية،
والحكومة في رأى الفوضويين بطبيعتها محافظة،
ونزاعة الى الكبت والطغيان .

ولكن اذا كان لا بد من نيل الحكومة والخلاص
من سلطة الدولة فماذا تكون طبيعة هذا
التنظيم الاجتماعى الذى يمنح الفرد الحرية
في العمل والتعبير من نفسه ويضمن له مع ذلك
الاستفادة المادية والعقلية من خلال التعاون
مع الجماعة ؟

هذه المشكلة ادرك وجودها كثيرون من
المفكرين الميالىين الى المذهب الفردي في العصر

وأول ما تدعو اليه الفوضوية هو إيجاد مسيل للحياة يكفل السلم بين الأفراد والتعاون في خدمة المجتمع مع احتفاظ كل فرد بحريته كاملة ، على شريطة أن لا يضر ذلك بحرية الآخرين ، وهي عند الفوضويين مطعم الرجل الذي يعمل على استكمال شخصيته وتوسيع المجال لواهيه خلال الحرية الاجتماعية والاقتصادية والعقلية ، وهي لون من ألوان الفلسفة الاجتماعية يحفز اليه تطلعات الأفراد ، وما يجيش بنفوسهم من الآمال في تحقيق الحرية الخالصة ، والقضاء على كل أسباب القهر والارغام ، والقسر والالزام ، ومختلف صنوف الاستبداد والعنف والظلم .

والفوضوية هي المبدأ الذي يخلص الحرية كل الإخلاص ، ويحرض عليها أشد الحرص ، ولذلك يضيّق بكل وسائل التسلط وسيطرة الإنسان على أخيه الإنسان ، وينكرها أقوى انكار ، ويؤمن بكفاية الفعل الفردي ، ومبيل الإنسان الفردي الى السلم والتعاون حينما تسير مشاعره سيرها الطبيعي ، ولا تترض للانحرافات التي تحدثها السلطة القاهرة والظلم المردى .

والفوضوية من الناحية الاجتماعية هي المبدأ الذي يقول بوجود مجتمع ليس به حكومة ، وهي تملن للناس أن معظم أسباب الظلم الاقتصادي والاجتماعي راجعة الى وجود الحكومة ، لأن الحكومة مهما تكن الصورة التي تتخذها تخلق الامتيازات والتسلط الطبقي ، ومهما يكن تظاهرها بالديمقراطية فانها قائمة على ارقام الفرد ، وهذا الارغام قد يكون في احسن حالاته من أجل الأكثرية ، ولكنه في اغلب الأوقات من أجل الأقلية الحاكمة ، وكل مجتمع يملك سيادة وسلطة بتخذ الحكومة اساساً له ، وهو لا يملك البقاء اذا لم يخلق طبقة حاكمة ، وسلمياً تصاعد فيه درجات التبعة مما يقضى على المساواة سواء في الثروة أو المكانة أو التمكن من اقتناء الفرص ، ومتى وجدت الطبقة الحاكمة فانها تبدأ في اغتداف

الحرية ، وما الى ذلك من التكاليف ، ولا تستطيع الحكومة أن تفصل النواهي عن الاوامر .

وفي رأى الفوضويين أن الرد على المشكلة التي تبين وجودها المفكرون الحريون هو أن المجتمع يقوم على أساس اقتصادي وظيفي لا على أساس سياسي ، فإذا قمنا بتوزيع إنتاج البضائع العالمية بحيث تضمن لكل انسان ما يلزمه ويسد حاجته ونفى بمطالبه فاننا نكون قد انجھنا في طريق تسوية المشكلة الرئيسية ، ومتى ضمننا حرية الفرد ، وهيانا له مجال العمل الملائم لاستمدهه ، وسرنا له الحصول على مطالبه المادية ، نستطيع بعد ذلك أن نترك للمجتمع الشكل الذي يؤثره، وسنكون على ثقة من أنه لن يكون شكلاً جامداً غير قابل للتعديل والتحسين والتجديد، وإذا ابيننا مبدأ « أن تعطى كل انسان حسب حاجته » فاننا نكون قد وصلنا الى منتصف الطريق الذي يقضى الى قبول مبدأ التعاون المتبادل والذي يقول « بالأخذ من كل انسان حسب قدرته » وعند الفوضويين أن الفلسفة الاجتماعية الفذة القادرة على تحقيق ذلك هي الفوضوية .

طبيعة الفوضوية :

لست أحاول تقديم تعريف للفوضوية ، لأنها مختلفة الألوان ومتعددة السمات ، ولذلك سأكتفي ببيان بعض صفاتها وأهدافها ، وكثيراً ما يسبق الى الفوضى أن الفوضوية مبدأ يدعو الى الإرهاب ، ويحث على الهدم والتعطيل ، ويجند اشاعة الفوضى واحداث الاضطرابات الفاسدة ، وإثارة الحرب الدائمة بين أفراد المجتمع ، ولكن هذا كله منافي الى حد كبير لطبيعة الفوضوية ، وإذا كان بعض دعاة المذهب الفوضوي قد جحدوا الاجرام أو تورطوا فيه فان كل مذهب من المذاهب السياسية أو الدينية أو الاجتماعية لم يخل من بعض دعاة يؤثرون استعمال العنف للفت الأنظار الى مذهبهم ، وتأييد عقيدتهم .

ويرى الفوضويون أنه ليس هناك معدي عن إزالة نظم الحكم والدولة وكل وسائل الإرغام الإرادي ، وقد عني خصوم المذهب الفوضوي بإبراز هذا الجانب الهدام فيه ، كما بالفنوا في تضخيمه والتحامل عليه ، ولا يزال عند بعض الناس الاعتقاد بأن الفوضوي نزاع إلى القضاء المتفجرات ، واستعمال العنف والإرهاب ، وإغراق المجتمع في سيل من الدماء ، وحقيقة أن الفوضيين في الربع الأخير من القرن التاسع عشر بوجه خاص شهروا سلاح الإرهاب ،

والإغتيال باعتباره وسيلة لأحداث الثورة الاجتماعية ، وأقن بعضهم متفجرات ، ولكن الحكومات لم تتزعزع من القيام بمثل هذه الأعمال الإرهابية ، والفرق في التبعة بين ما صنمه الفوضويون وما فعلته الحكومات هو أن القنابل التي القها الفوضويون كانت جد قليلة وكانت موجهة إلى هؤلاء الذين أسرفوا في الاضطهاد ، وأمعنوا في قتل الناس ، أما القنابل التي القها الحكومات في خلال الحرب فإنها تعد بالآلاف ، وقد قتلت الآلاف من الرجال الأبرياء والنساء البريئات ، وقد أعرض الفوضويون عن ممارسة الإرهاب حينما اهتمت الفوضوية السنديكالية « النقابية » إلى أسلوب الثورة الجماعية الاقتصادية ، ويرى الفوضويون أن أي نظام سياسي أو حكومي لا يتفق مع العدالة والحرية ، وأن المجتمع البشري يجب أن يقوم على التعاون الحر بين الأفراد من الرجال والنساء .

وهناك خطأ وقع فيه بعض الذين عرفوا الحركة الفوضوية معرفة سطحية ، وهو أن الفوضوية فردية متطرفة ولذلك لا تقبل أي تنظيم اجتماعي ، ومما ساعد على ترويج هذا الرأي أن بعض الفوضويين القليلين دعوا إلى مذهب الفردية المتطرفة ، ويقتضى ذلك أن يعيش الإنسان بمفرده مبتور الصلة بأخوانه البشر ، ولا يعنى بغير نفسه وإنماء شخصيته وأسماعها .

ولكن الفوضوية باعتبارها حركة اجتماعية

الامتيازات على أعضائها ، ويمكنهم ذلك من تثبيت أقدامهم ، وتوطيد مكانتهم ، بحيث يصبح من الصعب زحزحتهم والتخلص من سلطتهم ، وقد يكون هؤلاء الحكام في بادئ الأمر حسنى النية ، ولكن ضرورات المحافظة على النفوذ ترفعهم على عدم تحري العدالة ، كما ترفعهم الامتيازات التي يحصلون عليها بالإعمان في الفساد ، والأدلة التاريخية التي تؤيد ذلك كثيرة متواترة .

والديمقراطية في رأى الفوضويين ليست قائمة على الحرية ، لأنها تعد إرادة الأغلبية القانون الأسمى ، وترى أن المجتمع لا بد له من حكومة ، وأن الفرد يجب عليه أن يخضع لأوامر هذه الحكومة سواء أراد ذلك أو لم يرد ، وهي من لم تختلف عن الحكومة المستبدة في إلغاء حرية الفرد اختلافا في الكم والدرجة لا في النوع ، والفرد الذي تقوم في طريق حريته القوانين التي تسنها الدولة لا يعنيه أكانت تلك القوانين مصدرها إرادة رجل واحد أو إرادة الملايين ، وما يعنيه هو أن وجود هذه القوانين يجور على حريته ويمترض سبيلها .

والفوضوي لا يتطلب الغير ويغنيه للأقلية ولا للأكثرية ، وإنما يريد للجميع على السواء بلا أدنى تفرق أو تمييز ، وهو يعتقد أن المجتمع القائم على أسطورة الدولة لا يستطيع أن يتجنب استعباد الناس لا من أجل مصلحة الأكثرية بل من أجل مصلحة الأقلية التي تستمتع بالامتيازات ، وطالما وجهت إلى الفوضويين تهمة أنهم جماعة من الحالمين غير العاملين لانكارهم نظام الحكومة ، ولكنهم يدفعون هذه التهمة عن أنفسهم قائلين أن الأكثر استحقاقا بأن يرمى بهذه التهمة هم الذين لا يزالون يعتقدون أنه من الممكن أن تقوم حكومة لا تستغل المحكومين ، ولا يلحق الفساد القائمين بها ، يرغم أنف الشواهد التاريخية التي تنقض هذا الزعم وتكشف بطلانه . والفساد من طبيعة الحكومة ، كما أن السم من خصائص الأفعى .

وجميع الأفراد حتى أقوامهم وأمتلهم مواهب منتجون ، وفي الوقت نفسه هم نتائج ، والحرية المساوية لكل فرد ليست سوى نتيجة لهذه المجموعة من المؤثرات المادية والفعلية والأخلاقية التي يوجد بها الأفراد في المجتمع الذي يولد فيه الإنسان وينمو ويقضى نحبه ، والرغبة في الانفلات من هذا التأثير باسم الحرية المتعالية أو الأناية المطلقة المقدسة رغبة في الإبادة والهلاك ، والامتناع عن التأثير في الغير معناه الامتناع عن كل عمل اجتماعي ، بل هو في الحقيقة امتناع من التعبير عن أفكار الإنسان وعواطفه حتى يصبح كأنه غير موجود ، وهذا الاستقلال الذي يعلى من شأنه المثاليون والميتافيزيقيون ، وصور الحرية الشخصية بهذا المعنى معناه الفناء الذات وإبادتها .

وقد عبر باكونين في هذه الفقرات عن موقف الفوضويين ، فهم يقللون الحدود الضرورية للحرية التي يؤثرها الناس ، وإنما الذي يرفضونه هو الحدود التي تفرضها كتلة من البشر بالقهر والارغام كما تفعل الدولة .

ويرى الفوضويون أن يقوم المجتمع على الأساس الإداري الذي تتطلبه طبيعة الأشياء بدلا من نظام الحكومة ، وفي المستوى الاقتصادي وحده وانتاج البضائع اللازمة لاستهلاك الناس واعداد الخدمات الاجتماعية اللازمة بطريق التعاون بين الأفراد الذين ينتجون مستلزمات الحياة المتحضرة .

وفي المجتمع الذي تنهى فيه الملكية العامة الامتيازات وعدم المساواة الاجتماعية الاقتصادية تصبح وطيفة الدولة بنظمها المستحدثة وبيروقراطيتها وجيشها وشرطتها من الأشياء التي لا لزوم لها وكل هذه الممتلكات الحافة بالدولة الحديثة ليس المقصود بها حماية أفراد المجتمع من الرجال والنساء وإنما المقصود بها في رأي الفوضويين حماية الطبقة الحاكمة وما في حيازتها من الممتلكات التي تمكنها من السيطرة والحكم .

كانت ترمى دائما الى إيجاد نوع من النظام ، ولكنها تشترط أن يكون هذا النظام حرا ونابعا من حاجات الإنسان ، والفوضوية تدعو الى الحرية وبشر بها ، ولكن ليس معنى ذلك أنها تدعو الى الانفصال عن المجتمع ، وهي ترى الجمع بين المجتمع والحرية ، وترى الحرية يجب أن تكون متبادلة ، فحرية كل فرد متوقفة كذلك على حرية الفرد الآخر ، ولذلك لا بد من اقتران الحرية بالعدالة ، لأنه بدون العدالة لا تكون هناك حرية صادقة حقيقية ، كما أنه بدون الحرية لا توجد عدالة حقيقية .

والتعاون في النهوض بالأعمال يمكن من إنجازها في وقت أقصر ، ولذلك يرى الفوضويون أن توزيع العمل توزيعا عادلا معقولا يكثر الانتاج ، ويتيح فرصة لأوقات الفراغ . التي تريح الإنسان من مواصلة الكدح طوال اليوم ، والرجل المستقل بنفسه والذي يكتفى بالاعتماد عليها في جلب الضروريات لحياته عليه أن يقضى يومه في العمل المتصل ليعيش في مستوى متواضع ، ولا يمكن الإنسان أن يحصل على فوائد العمل المشترك والحياء العامة إذا لم ينظم وظائف الانتاج القائمون به .

وقد أدرك ضرورة التنظيم الاجتماعي زعماء الدعوة الفوضوية ، وفندوا في مناسبات كثيرة مزاعم الفوضويين الثريين الخالصين ، وقد قال باكونين سنة ١٨٧٢ في المؤتمر الدولي للحركة الفوضوية « أن ردنا على من يزعم أن العمل المنظم امتداء على حرية الجماعات أو أنه محاولة لخلق قوة تسلطية جديدة هو وصفه بأنه سفسطائي وأحمق ، وإردا من ذلك حالا هؤلاء الذين يتجاهلون قانون التعاون الإنساني الطبيعي الى حد أن يتصوروا أن استغناء الأفراد أو الجماعات بعضها عن البعض من الأشياء الممكنة أو أنه من الأشياء المرغوب فيها ، والرغبة في هذا الاستغناء معناها الرغبة في هدم المجتمع ، لأن الحياة الاجتماعية جميعها ليست سوى اعتماد بعض الأفراد أو الجماعات على بعضها الآخر ، وهو اعتماد متبادل غير منقطع ،

وليست الفوضوية نظماً شيعته الجمود وعدم التطور والاستقصاء على التفسير ، وإنما هي فلسفة ديناميكية تعترف بأهمية التطور في المجتمع البشري ، وتعرف خطأ إقامة نظام المجتمع على أسس غير قابلة للتقدم والتطور ، ولذلك يرفض الفوضويون فكرة أن الثورة يمكن أن تخطط وتتم عن طريق استيلاء حزب منظم على زمام السلطة ، وهم يرون أن الثورة تنبعث بحركة تلقائية يقوم بها الناس ضد حكاهم ، وأن الدور الذي تلعبه الإرادة الثورية في المعركة الناتجة عن الثورة هو المحافظة في عقول الناس على طبيعة الغاية التي يجاهدون من أجل تحقيقها ، والقائمون بالثورة قد يشرون بالحربة ويدعون إليها ، ولكن على الناس أن يحصلوا لأنفسهم على الحرية .

ولذلك يرى الفوضويون أن السنديكالية قد تكون وسيلة عملية لتنظيم المجتمع بعد قيام الثورة ، ولكنها ربما تكون وافية بكل الأهداف المطلوب تحقيقها ، ومتى تم تحرير الناس من ضغوط النظام الاجتماعي والاقتصادي فنان تطور النظم الإنسانية قد يتخذ صوراً لا يمكننا أن ندرجها ، ولذلك يرى الفوضويون أن ما يقدمونه من المقترحات وما يدعون من الخطط للمستقبل وبعد حدوث الثورة لا يمكن اعتباره شيئاً مفروضاً منه وإنما هو مجرد أساس لتطور اجتماعي أبعد مدى .

والفوضى لا يتصور مجتمعاً خالياً من النقص والعيوب ، وإنما يحصر على أن يقيم مجتمعاً على أسس الحرية والعدالة ، وهو يرى أن مثل هذا المجتمع خلق بأن يفرض فيه الإنتاج ، وتكثر الكفايات العملية ، وتسمو القيم الأخلاقية والروحانية ، ويجد الإنسان فيه الحياة عذبة المناهل ، دانية القنوط ، سهلة ميسرة ، وقد تبدو الفوضوية لهؤلاء الذين ملا فساد المجتمع الحديث نفوسهم بأسا ونقمة كأنها تبشر بجنة من صنع الخيال ، ولتفريق الأوهام ، ولكن الأمل في إمكان تحقيق العالم الفوضوي المثالي قائم على الإيمان بأن التطلع إلى الحرية والعدالة والسلام جوانب أساسية في الطبيعة الإنسانية .

والمجتمع الذي يخلو من الامتلاك الخاص وتساوى فيه أقدار الناس ويجب فيه كل إنسان ما يشيع حاجاته لن تكون فيه دوافع لا تتراف الجرائم إلا بين المصابين بالأمراض ، ومؤلاء لا يقدمون للمحاكم ، ولا يلتقي بهم في غياهب السجون ، وإذا لقينا الملكية الخاصة تنفث الحاجة إلى سن القوانين ، والمعدات وليست الإجراءات والتنظيمات هي مظاهر أفكار الإنسان من العدالة . وفي المجتمع الحر تتكيف المعدات بحيث تصبح مناسبة للأفكار التقدمية في المجتمع ، وفي ظلال الفوضوية سيكون كل إنسان حراً في أن يعيش كما يشاء بعد أن ينجز عمله ، ويؤدي وظيفته الاقتصادية ، على شريطة أن لا يتدخل في حياة الغير من أخوانه البشر ، والأحرار الذين يعيشون في مجتمع على هذا النمط يمكن الاعتماد عليهم في المحافظة على السلم دون حاجة إلى الاستعانة بالشرطة أو النواب .

وقد وجدت الأفكار الفوضوية تعبيراً عنها وأضحاً جلياً في الفوضوية السنديكالية . والفوضوية السنديكالية تعمل على أعداد وسائل الثورة ، وتنظيم المجتمع الحر الذي تتممض عنه الثورة ، وهي تدعو إلى تنظيم العمال في النظام الرأسمالي في تنظيمات اقتصادية نقابية تختلف عن الاتحادات التجارية في أن القائمين بها جميعهم من العمال أنفسهم ، وليس هدفهم أن يظفروا ببعض الإصلاحات في ظل النظام الرأسمالي ، وإنما غرضهم انجياز الثورة الاجتماعية بالطرق الاقتصادية ، وأساس الأسلوب الثوري عند الفوضويين السنديكاليين هو الأضراب العام ، والامتناع عن التعاون الاقتصادي ، وجمع صفوف العمال وتوحيدها في القيام بهذه المعركة الاقتصادية ، وبعد الثورة تكون السنديكالية هي أساس وحدات النظام الاقتصادي ، وكل وحدة من هذه الوحدات تؤدي وظيفتها في التعاون الاقتصادي العام الشامل ، ويمكن هذا النظام المجتمع من الحصول على حاجاته ، ويحل محل النظام القائم على السلطة والقهر والأرقام .

رؤا الفوضوية

والمعروف عن لاوتزي Lao Tzu موجد هذا المذهب جد قليل ، ويقال انه ولد في سنة ٦٠٤ قبل الميلاد في مقاطعة تشي Tohu واختير امينا للمكتبة الملكية في كاو Kao وكان مثل سقراط تعرف تعاليمه من خلال أحاديثه وكان الكثيرون من طالبى المعرفة يستمعون الى محاضراته ويتلقون الحكمة من محاضراته ، ولما علت سنه اعتزل العمل في المكتبة الملكية ، وقصد جبال لنج بو Ling Po يلتمس فيها ملأذا بأوى الية، ويقتضي أوقاته في التأمل والتفكير ، واجتمع حوله في هذا الملاد جماعة من المريدين ، وتلبية لطلبهم كتب لهم كتابا ضمنه آراءه ، ولما انتهى من تأليف هذا الكتاب ترك لاملدته ، وتوغل وحيدا في أعماق الجبال ، ولم يعد من هذه الرحلة .

وقد اوضح لاوتزي جانباً من تعاليمه في كتابه ، ولكن بعد مضي سنوات كتب تعاليمه شوانج تزي Chuang-Tzu كما سجل افلاطون آراء سقراط في محاوراته وأصبح كتابه المرجع الاساسي للعقيدة التاوية ، وقد كان لهذه العقيدة تأثير عميق في التفكير الصيني ، وفي موقف الصينيين من الحياة .

وقد ذهب لاوتزي الى أن الفضيلة كامنة في الإنسان ، وقال بضرورة إزالة العقبات التي تعترض التعبير عن هذه الفضيلة ، وكان يعتقد أن الميل الى الخير ينبع من أعماق الإنسان ، ولا يمكن أن تلزمه بفعل الخير القوي الخارجية ، ولذلك قال بضرورة توفير الحرية للإنسان ليظهر في أفعاله ما تنطوي عليه نفسه من حب الخير ، ولتنضج شخصيته ، وأكثر من النهي عن التدخل في حياة الناس .

وكانت تعاليم لاوتزي من الناحية العملية والتطبيق الاجتماعي تعارض فرض التسلسل على الإنسان وتنتهى عنه ، ولذلك كان لاوتزي يعارض رأى كونفوشيوس الذى كان يرى أن اصلاح الإنسان يأتي من الخارج ، ويفرض عليه فرضاً ، ومن مآثور كلماته قوله « لا الحديث عن عمل البر والقيام بالواجب لجيران الإنسان

الاعتقاد الكامن في أساس المذهب الفوضوى هو الظن الحسن بالطبيعة البشرية ، ورغبة الناس الصادقة في الحرية وكرهية السيطرة ، وتجسد سمات هذه الزايا والصفات في الإنسان خلال عصور التاريخ المتعاقبة ، ولكن اذا قصدنا بالفوضوية مذهباً محدداً للعالم الى حد ما ، ويتميز باتجاه اجتماعي خاص وتوجيه اقتصادي معين فإننا نضطر الى حصر نطاق الموضوع ، وفي العالم القديم ظهرت بعض المذاهب الفلسفية الأخلاقية القريبة من الاتجاه الفوضوى ، من قبيل ذلك الفلسفة الرواقية التي كانت تبشر بضرورة الحرية الفردية ، وتنقش الحرس على السيطرة ، وتزهد الناس في المشاركة في الأعمال السياسية ، فكان ابيكتينوس - أحد ممثلي هذه الفلسفة - ينصح الناس بأن لا يكونوا قادة في الجيش ، ولا أعضاء في السناو ، ولا من المناصلة ، ويوصيهم بالحرس على الحرية ، ولكن الحرية في رأى الرواقيين كانت الحرية الداخلية الخاصة . وكان الرواقيون يعتقدون أن الإنسان يمكن أن يظهر بهذه الحرية الداخلية في المجتمع غير الحر اذا ازدرى السيطرة ، ونبت المطامع الدنيوية ، ولذلك لم يحضوا الفرد على العمل لتغيير نظام المجتمع ، لأن حرية كل انسان امر يعنيته ، وكانت فلسفتهم شبيهة بالنزعات الصوفية التي ترمي الى أن يصلح الإنسان نفسه ، ويطلقها من اسار المطامع والشهوات والأهواء قبل أن يعمل على اصلاح المجتمع وتقويم امواجه .

وقد ظهرت في الصين القديمة مدرسة من الاسائلة الحكماء ترى أن الظروف الخارجية تمنع الإنسان من انماء فضائله واظهار مزاياه الأخلاقية ، وأنه لا بد من إزالة العقبات القائمة في طريق انماء الفضائل واظهار المزايا الشخصية ، وكانت التاوية Taoisme من العقائد الدينية الاجتماعية التي ترى إقامة مجتمع بدون حكومة ، وهي لذلك يمكن اعتبارها أول مذهب فوضوى النزعة في التاريخ .

في دورها على تقوية تلك المبادئ وحشد أزمها وبيان مزاياها ، وصاغتها صياغة فلسفية جعلتها تؤثر تأثيرا بالغا في الحياة الصينية باعتبارها عقيدة الدلائل لا يملكون شيئا ، وستكون من المؤثرات الأولى الأساسية في توليد المجتمع الحر حينما يصل الى الصين .

جيرارد ونستانلي Gerard Winstanley

ولد سنة ١٦٠٩ وسنة وفاته غير معروفة . حينما انتصرت البورجوازية الانجليزية على الاوتقراطية الملكية في الحرب الداخلية التي ثارت في إنجلترا خلال القرن السابع عشر فان هذه البورجوازية كانت تعد حكومة طفيليان تختلف في الدرجة فحسب من الحكومة التي تطلبت عليها يقوم بها القسم التغلب من فريق البورجوازية المنتصر ، وكان القسمان المتنافسان في جملة البورجوازية هم اتباع الكنيسة المسيحية Presbyterians وقسم المستقلين ، وكانت الفروق السياسية بين هاتين الشعبين قليلة سطحية ، وكان الفريقان يريدان اقامة حكم بورجوازي لا يعبأ بصغار البورجوازيين والعاملين لقاء اجور ، وكانت الحرية التي ينشدها الفريقان حرية الاستغلال مثل طلب حرية التجارة في القرن التاسع عشر .

وقبل ان تضع الحرب اوزارها ادرك الشعب انه خدع ، ففي سنة ١٦٤٣ اضطر مجلس النواب الانجليزي الى ان يقتصر للنقمة العسكرية قلة عدد المتطوعين ، ومنذ ابتداء الحرب حدث تشعب بين المزارعين ، وفي سنة ١٦٤٥ ظهرت بوادر النقمة على الاجراء السائد في حركة طلاب المساواة Levellers داخل صفوف الجيش وخارج صفوفه ، وهددت هذه الحركة جيش كرومويل بضعة سنوات حتى استطاع هزيمة الفرق الناقمة .

ولكن طلاب المساواة كانوا من صفار البورجوازيين ولم يكونوا من طبقة البروليتاريا ، وذلك برغم انهم كانوا شديدي الاهتمام بالفقراء ، ولكنهم كانوا من المدافعين عن الملكية في الوقت

بكد يخرجني عن الصواب ، فاعمل يا سيدي على ان تظل الدنيا محتفظة ببساطتها الأصلية ، وكما تهب الريح حيث تريد كذلك دع الفضيلة تسير سيرها وتشتق مجراها » .

وكان كونفوشيوس ينصح الحكام بان يتبعوا الحكمة في حكمهم ، ولكن لاوتزي كان لا يرى الخطأ في أسلوب الحكم ، وانما يجده في الحكومة ذاتها ، ولذلك كان يعلم تلامذته انهم ينجحون اذا امروا من الحكم امراضا تاما ، أو بلفظ آخر اذا امسكوا عن ان يكونوا حاكمين ، ومن اقواله في هذا الصدد « حينما تصدر اعمال الناس من قوانين النع والتحرير المفروضة عليهم فان البلاد تبخى بها الخراب شيئا فشيئا ويدب فيها الفساد ، وحينما يسمح للناس بحرية استعمال السلاح فان الحكومة تصبح محفوفة بالخطر ، وكلما صار الناس اكثر مكرًا وانشط في ابتكار الحيل كثر استعمال الأشياء المصطنعة ، وحينما تتعدى هذه الفنون المأثرة وهم ينتعش حال الاشقياء ويزدهر ، ولذلك يقول الرجل الحكيم (اني لا اضع نظاما ولا ارسوم خطة) والناس ستسير على النهج الذي يلائمها ويرضيها وسألتزم الهدوء والناس مستجدة الراحة والطمانينة ، وساعرض من الطموح ، والناس ستمود على البساطة الطيبة » .

وهكذا يرهذ لاوتزي الناس في طلب الأشياء الدنيوية ، والتماس القوة والسيطرة ، ويوصي بهذه القوامد الثلاث ، الانتاج بدون امتلاك ، والعمل بغير تأكيد للذات ، والتقدم دون الركون الى السيطرة ، وهو بذلك يشرع بنوع من الاخلاق الاجتماعية والشخصية تعين على انماء الشخصية للفرد ، ولا تفرق في جوهرها عن فلسفة الفوضوية .

ولم تكن التاوية من المذاهب الاكاديمية التي توجد في فراغ اجتماعي ، بل كانت على نقض ذلك نابعة من صميم المبادئ العامة الشائعة التي وجدت دائما في المجتمع الصيني ، وعملت

لم يصل الى مثله مفكر اجتماعي انجليزي قبل جودوين Godwin وقد أدرك الفساد الموجود في نظام الحكومة ، ومن أقواله في ذلك « كل من يصل الى يديه زمام السلطة يستبد بالآخرين » وذكر أن عدم المساواة الاقتصادية هي العقبة الكؤود في سبيل الحرية والسلم ، وأنه ما دام هناك قوم يملكون الأرض فإن عامة الشعب لن تظفر بحريتها ، كما لا تخلو الأرض من التلصّب ، والاضطهادات والشكاوى ، ولهن الملكية الخاصة ، وقال انها العبء الذي ترزح تحته الخليقة ، وإن التعمين باصلاح هذه الأحوال هم الفقراء ، فهم الذين ينفلون قانون البر ، وعليهم أن يستولوا على الأرض فهي مصدر الثروة ، ولم يحبذ الاستيلاء بالقوة على الضياع ، وإنما أشار على الفقراء بأن يستقروا في الأراضي البور ، ويتعاونوا على استصلاحها ، ويضربوا للناس مثلاً في التعاون المنتج يعلمهم فائدة التعاون ، وفي أول يوم من أبريل سنة ١٦٤٩ قام ونستالي وأتباعه بحرق الأراضي الجرداء القريبة من والتون الواقعة على نهر التايمز ، وانضم اليهم كثير من الرفاق ، واشتركوا معهم في حرق الأرض وزراعتها وقد جر عليهم القيام بهذا العمل عداوة جيرانهم في تلك المنطقة ، لأنهم راوا أن أفكار جماعة الحرائين تهدد مصلحتهم تهديدا مباشرا ، ولم تمض أيام قليلة حتى هاجمهم جنح من الفولاذ ، وحرقوا أكواخهم ، وحطموا آلالهم ، وامتقلوا عددا منهم في كنيسة والتون ، ولم يكفوا عن الحاق الأذى بهم ، وظل الحرائون يماودون العمل سنة كاملة في الفينة بعد الفينة محتمين الأذى والاضطهاد ، وفي مارس سنة ١٦٥٠ تم إجلاؤهم من المنطقة التي احتلوها ، فلابدوا بأحد المروج الصغيرة القريبة ، ولكن أعدائهم لم يتركوهم ، ففي شهر إبريل قسّاد أحد القساوسة جماعة من الفولاذ وأبعدوهم للمرة الأخيرة ، وقضى بذلك على حركة الحرائين . ولكن أفكارهم الاجتماعية دأبت خلال هذا الصراع ، كما أنهم الروا الأدب القوضوى بما خلفوا من آثار أدبية وقد أدرك الحرائون قبل سائر المفكرين الذين سبقوا مهد جودوين

نفسه ، وعارضوا فكرة الامتلاك العام ، كما راوا أبعاد العمال الذين يتقاضون الأجور عن التصويت العام .

وكانت حركة طبقة البروليتاريا — وهي الطبقة الفقيرة — مصطبغة بالصيغة الدينية والنزعة الصوفية ، وصارت هذه الطبقة ترى أن الفقر نفسه من المؤهلات للوصول الى الملكوت السماوى ، ومن بين دعاة هذه الحركة ظهرت أكثر حركات العصر تقدما من الناحية الاجتماعية وهي حركة جيرارد ونستالي Diggers .

وكان ونستالي من صفار تجار المدن ، وقد أخفق في عمله في إنشاء الأزمة الاقتصادية ، واضطر الى الذهاب الى ضاحية كويهام Cobham وظهر في سنة ١٦٤٨ مؤلفا لرسالتين لامويتين لا يختلفان كثيرا عن الرسائل التي غلبت عليها النزعة الصوفية ، وكانت شائعة في ذلك العصر .

ولقيت أفكار ونستالي قبولا ، وتطورت تطورا سريعا ، ففي النصف الثاني من سنة ١٦٤٨ ظهرت له رسالتان أخريان كشفتا عن انتقاله الى مرحلة أخرى من مراحل التفكير ثم عن أنه أصبح يؤمن بالله على نمط لاه عقيدة وحدة الوجود ، وكان هذا الإله في رأيه هو العقل ، وهذا الإله او العقل الخالص يربط المخلوقات بعضها ببعض برابطة الحب ، ومساعدة بعضهم البعض ، وأن هذا التعاون هو قوام الوجود ، وقد استخلص من ذلك أن العقل هو الذى يجب أن يسيطر على العلاقات المتبادلة بين الناس ، وأن العقل يوصي بأن يكسوه اذا عرى ، لأنه إن كان اليوم طامعا كاسيا فقد يصبح في الغد في حاجة الى من يطعمه ويكسوه .

وفي أشهر قلائل تبلورت أفكار ونستالي واتخذت صورة شرعية اجتماعية ، وفي مارس سنة ١٦٤٩ ظهر كتابه « قانون البر الجديد » وأظهر فيه فهما صادقا للمشكلات الاجتماعية

الثوب الكهنوتي ، وصار من قادة الفكر في انجلترا في اثناء الثورة الصناعية والتجديد الرومانتيكي في الادب ، وكان له تأثير الى حد ما في ممثلي الحركة الرومانتيكية في انجلترا مثل الشاعر شيلي ووردزورث وكولريج ، والناقد دى كونسى وهازلت ، وقد كانت آراؤه من البواعث التي حثت مالتوس Maltus على ان يرد عليه برسالته المشهورة عن « السكان » وقد شاعت الاقدار ان تكون هذه الرسالة ابعد شهرة من الكتاب الذي ألقت هذه الرسالة للرد عليه .

وقد كتب جودوين كتباً كثيرة والف روايات، ولكن الكتاب الذي شرح فيه آراءه في الاجتماع وكان له تأثيره في التفكير الفوضوى هو كتابه من « العدالة السياسية » الذي ظهر في سنة ١٧٩٣ وقد دل بهذا الكتاب على سعة اطلاعه ، وقوة حجته ، ولا يزال هذا الكتاب مرجعاً هاماً من مراجع التفكير الفلسفي الفوضوى .

ويرفض جودوين فكرة وجود حكومة مهيمنة تكن صورة هذه الحكومة ، لأن وجود حكومة يقتصر في رايه بوجود الاستبداد والظلمين سواء كانت هذه الحكومة ملكية او جمهورية لأن وجود الحكومة في حد ذاته هو المصدر الرئيسي للشر ، والفرق بين البلاد المحكومة حكماً استبدادياً والبلاد المحكومة حكماً جمهورياً هو ان العقل تثقله القيود حينما يسود الحكم المستبد ، أما في ظل الحكم الجمهورى فأن العقل يحتفظ بنصيب من النشاط ويكون الضغط عليه ومصادرة حريته تابعا لتقلب الأحوال ، ونظم الحكم بطبيعتها في رأى جودوين مبالغة الى تجريد العقل من مرونته ، وإقامة الحوائل في طريق تقدمه ، وقد رفض جودوين فكرة أن الحكومة قائمة على المقد الاجتماعي التي قال بها روسو ، وهو يقول في ذلك « لا نستطيع أن ننزّل من استقلالنا الأخلاقي انه عقار لا نستطيع بيعه أو التفريط فيه » ونتيجة لذلك لا تستطيع اية حكومة ان تستمد سلطتها من تعاقده اصيل » وهو يمزو اخطاء

الاساس الاقتصادي للمشكلات الاجتماعية ، وضرورة علاج هذه المشكلات من الناحية الاقتصادية بوجه خاص ، ولذلك كانوا يصرون على ان الأرض تكون ملكاً للجميع ، وقد انتزع الفزااة الأرض من حامية الشعب ، والإصلاح الصحيح يقتضي ان ترد هذه الأرض للجميع بعد هذا الاغتصاب الذي طال أمده ، وتفاقم ضرره ، وكانوا يعتقدون ان سبب النقص والمعيوب الأخلاقية مثل الكبرياء والرياء والحسد والجبن والبخل والشح مصورها جميعها العبودية التي يفرضها فريق من الناس على الفريق الآخر ، وهرفوا ان السبب الحقيقي لالازمة الحرب اقتصادي قبل كل شيء ، وليس سببا روحيا ، وأن حب الامتلاك ، والحرص على المنافع والرغبة في الاحتفاظ بالسيطرة والنفوذ ، هي سبب القطيعة بين الناس ، وباعت الحرب واراقة الدماء في كل مكان ، كما ادركوا الدور الذي تقوم به الدولة بوصفها حامية الملك واصحاب المصالح وذوى النفوذ ، وأن سبيل القضاء على القهر والارغام هو القضاء الملكية ، وأن ذلك هو الطريق الوحيد الى الحرية ، ونرى من خلال ذلك أن جماعة الحرّائين وعلى رأسهم ونستالي قد سبقوا الى الكثير من الأفكار التي املنها كرويتكين في كتابه عن « التعاون المتبادل » وبعض آراء باكونين وغيرهما من زعماء المذهب الفوضوى وكبار مفكره .

وليام جودوين (١٧٥٦ - ١٨٣٦)

لم تجد بدور المذهب الفوضوى ثرى خصبا في بريطانيا ، وقد نظر الانجليز الى الفوضوية باعتبارها مذهباً نشأ في روسيا وبعض البلاد اللاتينية ، وقد اخفت آراء ونستالي في انجلترا بعد القضاء على حركة الحرّائين على وجه التقريب ، وإذا كانت قد بقيت لها آثار فان هذه الآثار كانت ضعيفة الى حد كبير ، وقد ظهر بعد انقضاء قرن ونصف على تلك الحركة المفكر البريطاني وليام جودوين ، وكان في الاصل تقيساً لم خرج على الكنيسة وخلع

فحسب بل من حقّه كذلك أن يجد ما يسمع له أن يعيش في رغد ، ومن الظلم أن يحرم إنسان من أوقات الفراغ التي تمكنه من أن يتغف قواه العقلية في حين أن غيره لا يسهم بأى جهد ليضيف إلى الرصيد العام ، ومواهب كل إنسان مثل مواهب غيره من الناس ، ولذلك تقضي العدالة بأن يسهم كل إنسان في زراعتها الحصول العام الذي يستهلك كل إنسان نصيبه منه .

وكان جودوين يرى أن يحل النظام الفيدرالي محل الحكومة السياسية « تلك الآلة الوحشية التي كانت العلة الدائمة لمساويء البشر » ويتكون هذا النظام الفيدرالي من جماعات تقوم بتنظيم نفسها تنظيمياً تلقائياً خالصاً لا أثر فيه للضغط أو الإكراه ، وترتب فيه الوظائف الاجتماعية اللازمة ، وعنده أن هذه الثورة يمكن أن تتم في سلام من طريق التربية والتعليم والقُدوة الحسنة .

وقد كان لكتساب جودوين من العدالة السياسية صدى وتأثير في مفكرى مصر ، وحينما عرض على وليام بست رئيس الوزارة البريطانية حين ظهور الكتاب أن يأمر بمصادره قال ساخراً أنه لا يصدر كتاباً تباع النسخة منه بثلاثة جنيهات، ولكن الكتاب رغم ارتفاع ثمنه صافد أقبالا ورواجا ، وكون كثيرا من العمال من أنفسهم جماعات للحصول على نسخ منه ، ولا نزاع في أن حركة التحرير التي قام بها بعد ذلك روبرت أوين ونشوء الاتحادات التجارية كانت إلى حد كبير من تأثير أفكار جودوين ، وترجع الحركة المناهضة لفكرة التسلط في النهضة العمالية إلى ما بثه جودوين من النواطر العادية للتسلط .

بيير جان برونون (١٨٠٩ - ١٨٦٥)

Pierre-Joseph Proudhon

كان برونون طباعاً فرنسياً ، وقد صار زعيماً لحركة العمال الفرنسية بضع سنوات ،

المتجمع إلى قهر الأفراد ، وهذا القهر لا يمكن فصله من الدولة ، وفي كل إنسان رغبة أساسية للحرية والسلم ، وإذا أزيلت السلطة فإن هذه الرغبة تثبت وجودها ، وغريزة الميل إلى السلم والحرية عميقة الجذور في نفس الإنسان ، ولذلك إذا ترك الإنسان دون أن يكتر التدخل في شؤنه فإنه يوجد البيئة الصالحة ، ويخلق لأولاده الأحوال الحسنة ، وسيطرة الغير على الإنسان تدفع إلى الثورة والعصيان ، والثورة في دورها تسوق إلى القهر والإكراه ، وهذا القسر المؤلم يبعث الأذى في النفوس ، ويكثر الخواطر ، ويتبع ذلك الصدمات والجروح والاصابات ، ويقول جودوين « علينا أن ننظر منذ وضع الخطط لتحسين المجتمع إلى الرجل السليم غير القيد إلى ذلك المقعد الكسحاح الذي شوهه التدخل وأرهمته القيود » .

وقد وجه أشد سهام نقده إلى الملكية ، على خلاف المفكرين الأحرار المعاصرين له ، وهو يقول في نقدها « مهما تكن الشرور التي تأتي من الحكومات الملكية أو من الحكام ، من دجل التساوسة أو من ظلم القوانين الجنائية فإن هؤلاء جميعاً يعدون من المعجزة وضعاغ العقول إذا قورنوا بالشرور الناشئة من توطيد نظام الملكية » .

« الملكية المتراكمة تطل القوى الفكرية في التراب، وتطغى شر العقيرة، وتفرق الجموع الغفيرة من الناس في هوم حقيرة » .

والتوزيع الوحيد العادل للملكية في رأى جودوين هو الذي يكفل لكل إنسان ما يكفي حاجاته ولا يمكن إنساناً من أن يكون لاهياً في بحبوحة من العيش وغيره يكبح ويماني الفقر والسفينة ، وإذا كان للعدالة أى معنى فاتها لا تسمح لإنسان بامتلاك ما يزيد عن حاجاته في حين أن كائناً بشرياً لا يجد ما يكفي من تلك الحاجات الزائدة ، بل أن العدالة لا تقف عند هذا الحد ، فما دام هناك من المدخرات ما يكفي فإنه ليس من حق كل إنسان أن يجد ما يكفي

ونشوء الصناعة الحديثة جعل التنظيم الاقتصادي القائم على الأفراد والجماعات الصغيرة التي تملك وسائل الإنتاج غير ملائم ، ولذلك تغلبت فكرة باكونين لتعليم برودون التي ترمى الى تأييد الملكية العامة .

ويرفض برودون وجود الدولة وكل ألوان السياسة وصورها ، ولا يستثنى أى حزب من الأحزاب لان الأحزاب جميعها في رأيه تطلب السيطرة ، وهي لذلك أنواع من الحكم المطلق ، ولا يستطيع المواطن ان يثأل حريته ، او يجد المجتمعات النظام ، او يتفكر العمل بالاتحاد ، الا اذا حل نبد السلطة محل الإيمان بها ، ويقول برودون ان عقيدته السياسية وإيمانه الاجتماعي هما عدم وجود الأحزاب وعدم وجود السلطة ، والحرية المطلقة .

ولم يكن برودون مفكراً لامعاً مثل جودوين ، ولكنه كان في طليعة الفوضويين الذين ظهروا في القارة الأوروبية ، وقد اثر في تفكير العمال الفرنسيين بوجه خاص ، وفي الحركة الفوضوية بوجه عام ، وكان باكونين ممن تأثروا بتفكير برودون وشخصيته .

ميشيل باكونين (1814 - 1876)

لا يمكن ان نعتزو نمو التفكير الحر في القرن التاسع عشر الى رجل واحد ، وقد كان لجودوين وبرودون وغيرهما ممن هم اقل منها شهرة اهميتهم ومكانتهم ، ولكن ظهور ميشيل باكونين كان من اقوى العوامل في نشر دعوة المذهب الفوضوي ، وازهار مكانته باعتباره مذهباً اجتماعياً ثورياً له اتباع وانصار في كثير من الدول الأوروبية ، وقد انتقل بعض انصار المذهب الى الولايات المتحدة الأمريكية وعملوا على الدعاية للمذهب بها في مختلف أرجائها .

وميشيل باكونين روسي الأصل ، وقد ولد في أسرة من الاسر الأرستقراطية الروسية في عهد القيصر الاسكندر الاول ، وهو يعد بحق امام الفوضوية الحديثة الذي قاد حركتها

وكانت افكاره في السنوات السابقة للكونون Commune شديدة التأثير في العمال الفرنسيين الأحرار ، واشترك برودون في النشاط السياسي حيناً قصيراً من الزمن عندما كان عضواً في الجمعية الوطنية بعد ثورة سنة 1848 ولكن صار في الجزء الباقي من حياته بعد ذلك معارضاً للأساليب السياسية والمجتمع السياسي ، وقد سجن مرتين لخروجه على قوانين الصحافة الفرنسية وقد عارض برودون الانتكسار الاقتصادي وانتقد تركيز السلطة في يد الدولة ، وفي سنة 1840 ألف كتاباً عنوانه « ما هي الملكية ؟ » وجواب على ذلك بان الملكية سرقة ، وقد عدل رأيه بعد ذلك ، ورفض الملكية حينما تكون نتيجة للاستغلال ، ورأى ان المنتج من حقه ان يملك وسائل الإنتاج ويستمتع بقيمة انتاجه ، وان يكون أساس تقدير القيمة قائماً

على تقدير الوقت الذي قضى في صنع الإنتاج ، وسلم بان يكون رأس المال في صورة وسائل الإنتاج على شريطة ان لا يتضمن ذلك استغلال الغير ، وفي المجتمع الذي تمثله برودون يكون الرأسماليون هم الرجال أو الجماعات من الرجال الذين يعملون بأدواتهم وآلاتهم ويتلقون لقاء ذلك فائدة تعادل ما بدلوا من جهد ، وباتباع هذه الطريقة لا يكون هناك سبيل للمستأجر الذي يملك الآلات ويعيش منها ويستخدم الغير في العمل بها ، ويعطيهم في مقابل ذلك أجراً اقل بكثير مما يستحقه العمل الذي يقومون به ، ويحصل بذلك على فائض ضخم يمكنه من ان يعيش دون ان يؤدي أى عمل ، وفي المجتمع الذي تمثله برودون ينال الإنسان نصيبه من الطعام بقدر العمل الذي يقوم به .

ويرفض برودون الحكومة والسلطة ، وبراهاها مناقضين للعدالة ، ويقترح ان يحل محلها مجموعة من العقود بين الرجال الأحرار ، وهو يؤيد ذلك بقوله « لكي أظل حراً ولا أعرض للخضوع لقانون غير القانون الذي أعصيه نفسي ، ولكي أكون المسيطر على نفسي فان المجتمع يجب ان يعاد بناؤه على أساس فكرة التعاقد » .

أحد أتباع هيجل البارزين ، وذلك في سنة ١٨٤٢ ، وكان عنوان القتل «رد الفعل في ألمانيا» وقد وردت في هذا القتل كلمته المشهورة وهي « أن الرغبة في الهدم هي كذلك رغبة خلاقة » ، وقد استغل هذه الكلمة الكثيرون من خصوم الفوضوية ، وصوروا باكونين في صورة الوحش الضار الذي يريد العنف قبل كل شيء ، في حين أن باكونين كان يقصد بهذه العبارة أن الصورة القديمة للمجتمع يجب أن تنفجر قبل بناء المجتمع الجديد ، ومهما يكن من الأمر فإن هذا القتل دل على أن باكونين قد انضم إلى زمرة الثالين ، ولم يكن تحييد باكونين لاستعمال العنف صادرا عن بواعث سادية في نفسه ، لأن المعروف عن أخلاقه وطباعه بتأنيص ذلك ، وقد كان يقول إن الثورة العنيفة ضرورة غير مستحبة ، وأن النباء البشرى هو الذي يحتم القيام بها ، ويجعلها ضرورية ، فالثورة في رأيه شر لا بد منه ، وهو يقول في ذلك «الثورات الدامية في الأغلب ضرورية لازمة» ، وذلك بفضل الغناء البشري ، ولكنها دائما شر ، بل هي شر منكر وكارثة كبيرة ، وهي ليست كذلك بالتقاييس التي ضحاهاها فحصب ، وإنما بالتقاييس كذلك إلى سلامة الغرض الذي قامت من أجله الثورة وتحقيقه .

وفي سنة ١٨٤٣ اتصل بولتج الشيوعي الألماني في سويسرة ، ولم تعجب باكونين شيوعيته التسلطية ، وحينما اعتقل وتلجج في سويسرة وجد اسم باكونين في الأوراق التي كان يحملها ، فاختبرت الشرطة السويسرية السلطات الروسية بذلك ، وأمر باكونين بالعودة إلى روسيا ، فرفض أن يطيع هذا الأمر ، فجردته الحكومة الروسية من لقب الشرف ، وحرمته من الميراث ، وحكمت عليه غيابيا بالأشغال الشاقة في سيبيريا ، وتحديدها للحكومة الروسية جعلها خصمه الألد وعدوه المتقد الحقد .

وفي السنة نفسها قابل برودون وماركس في باريس ، وتأثر بهذا اللقاء ، وكان للرجلين

وأوقد شعلتها ، ولم يكن باكونين ندأ لماركس في سعة الاطلاع ، وفراة المعلومات ، والقنرة على تنظيم الأفكار وتحديدها . وإجادة التأليف واستيفاء بحث النظريات والتعاليم ، وربما كان أقدر زعماء الفوضوية في هذا المجال هو الأمير كروبيكين .

وقد ولد ميشيل باكونين في سنة ١٨١٤ وكان والده من رجال السلك السياسي ، وكان والده حين مولده قد اعتزل الخدمة ، وأقام في ضيعة له في ناحية تفر Tver ، وقد أراد أن يهيئ لابنه حياة وطنية محترمة في الجيش القيصري ، ولكن النتي الناشء باكونين كان ثائرا معطوبا ، وقد حمل علم الثورة أول ما حمل في داخل منزل أسرته ، وتحدى سلطة أبيه ، وكانت حياته العائلية الباكرا حافلة بالأحداث الثورية ، وكان يعرض إخوانه على الثورة وشنق مصا الطامة ، ولم يكن أبوه من الآباء الطغاة المستبدين ، وإنما كان رجلا ذكي الفؤاد مستنيرا سهلا متسلحا مع أولاده ، وقد استهدف مع ذلك كله لحملات هذا الأبس المنمرد .

وقد الحق باكونين بمدرسة المدفعية في بطرسبرج ، وأقبل على دروسه الحرية بصبر وجلد ، ورغم حصوله على وظيفة في المدفعية فإنه ترك خدمة القيصر عند أول فرصة لاحت له ، وعقد العزم على أن يفرغ للدراسات الأكاديمية ، وأقبل على دراسة الفلسفة ، وأعجب بفلسفة هيجل وكانت حينذاك هي الفلسفة السائدة في الأندية الفكرية والبيئات المثقفة ، وسرعان ما ضاق بالاجتمع الروسي ، وفي سنة ١٨٤٠ ترك روسيا وهو في السادسة بعد العشرين ليدرس الفلسفة الهيجلية في بيتنها الألمانية ، وقد غادر روسيا وهو من هايا القيصر المخلصين ، ولكنه لم يلبث أن وقع تحت تأثير الثمن الهيجليين ، ومال إلى آرائهم الثورية ، ودرس الحركات الاشتراكية والشيوعية التي ازدهرت في فرنسا ، ونشر مقالا في المجلة التي كان يصدرها أرنولد ريج ،

خالية من الغرض ، وحينما هرب كثيرون من الثائرين ثبت باكونين في الدفاع عن الثورة داخل الحواجز القائمة ، وأظهر من الشجاعة والاقدام ما حمل ماركس وانجلز على الثناء عليه .

ولكن ثورة درسدن لم تنجح ، وأخمدتها الجيوش البروسية التي أرسلت لمساعدة ملك سكسونيا ، وأعدم الكثيرون من الثائرين رميا بالرصاص ، وهرب فريق منهم الى شملتز ومعهم باكونين ، وألقي القبض عليه بها ، وكان اعتقاله في هذه المرة بدء وضعه في السجون الذي استمر ثماني سنوات ، لقي فيها الأهلوال ونقل خلالها في سجون أربع دول ، وتبع ذلك النفي الى سيبيريا ، وقد قضى أكثر من سنتين في السجن بسكسونيا ، وحكم عليه بالأعدام وأرجىء تنفيذ الحكم في اللحظة الأخيرة ، ثم سلم الى الحكومة النمساوية التي أرادت الانتقام منه لاشتراكه في ثورة براج ، وأمضى سنة أخرى في السجون النمساوية ، وحوكم وصدر الحكم بإعدامه ، وأرجىء مرة ثانية تنفيذ الحكم ، وسلم الثائر في هذه المرة لحكومة بلاده التي كانت حريصة على تعذيبه والتنكيل به ، وألقي به في سجن بطرس وبولس ثم نقل الى سجن شوسلبرج Schusselburg وظل مسجوناً ست سنوات لقي فيها صنوف العذاب والحمران ، واصطلحت عليه الملل والأمراض ، فتساقطت أسنانه ، وهزل جسمه ، ولكن هذه الآلام البرحة لم تلن من مزجه ، ولم تفدح في عقيدته ، ولم تغير من آرائه وفي سنة ١٨٥٧ أرسل الى سيبيريا ليقتضى حياته متفياً بها ، وقضى بها أربع سنوات ، واستطاع الهرب في سنة ١٨٦١ الى بلاد اليابان ، وانتقل من بلاد اليابان الى الولايات المتحدة ، ومنها عاد الى لندن

وقد تجرع باكونين مرارة السجن والاعتقال والنفي لكراهته الشديدة للحكومات ، ولم تنجح الدول المختلفة التي عاقبتة وأذاقته العذاب في حمله على تغيير أفكاره ، ومنذ هروبه الى لندن

تأثيرهما في اتجاهات تفكيره ، فمن ماركس هرب ان المسائل الاقتصادية أهم من السياسة ومن الدين ، ومن يزودون اقتبس أسس اتجاهه الفوضوى ، ومعارضته لوجود الحكومة ، ورأيه في لا مركزية الاشتراكية .

وفي السنوات التالية حاول أن يتدخل في كل ثورة تقوم في أوروبا ، وفي أول الأمر اشترك في الثورة البولندية ، وظل يساند الثائرين البولنديين حتى انتشرت إشاعة أذاعتها المخابرات السرية الروسية لتحط من قدره ، وتسمى الى سمعته ، وهي أنه من جواسيس الحكومة الروسية ، وقد ظلت هذه الفرية مألقة بسمعته سنوات عدة ، وقد أهاد أذاعتها بعد ذلك الماركسيون لينالوا منه استجابة لرغباتهم الخاصة .

وفي فبراير سنة ١٨٤٨ ذهب الى فرنسا للمشاركة في الثورة التي قامت بها ، وتحس في مساعدة الثائرين ، وحارب معهم في الحواجز التي أقاموها في الطرقات ، ولكنه لما بدا يدمو لآرائه في الفوضوية ضاقوا بها ذمرا ، وعملت السلطات الثورية على التخلص منه وإبعاده ، ولما أدرك باكونين أن الثائمين بهذه الثورة يخالفونه في الرأي صمم على العودة الى الثائرين البولنديين وشد أزرهم .

فذهب الى برزلو على مقربة من الحدود البولندية ، ولكن البولنديين أظهروا له عدم الثقة به ، فأنجبه الى براغ ، واشترك بها في ثورة نشبت ، وحارب مع الثائرين في الحواجز التي أقاموها ولكن الثورة أخفقت ، فهرب الى ألمانيا ، ووجد ملاذا مؤقتا في انهالت Anhalt وهي ولاية صغيرة في بروسيا ، وظل يتابع التآمر مع أصدقائه في بوهيميا ، وفي سنة ١٨٤٩ تسلل الى درسدن ليكون على مقربة منهم ، وهناك اشترك في ثورة أخرى ، فقد قام بها جماعة من الأحرار الألمان بثورة للمحافظة على النظام الديمقراطي ، ويرغم أنه كان لا يعطف على الأحرار الألمان فإنه قدم لهم خدماته برغبة

انعقاد المؤتمر الثاني للعصبة عرض اقتراحاته الخاصة بمصادرة الثروة ، وإيجاد مجتمع خال من الطبقات ، ولما رفضت هذه الاقتراحات كما كان منتظرا ترك العصبة مع أنصاره ، وتحول الى الدولي باعتباره آلة العمل الثوري .

وعندما كان عضوا في عصبة السلام والحربة أوجد الاتحاد الدولي للديمقراطية الاشتراكية ، وكان أكثر أعضائه من أعضاء منظمة الأخوة الدولية السرية ، وانضم اليها الكثيرون من الثائرين في إيطاليا وأسبانيا والروسيين المنفيين المقيمين في سويسرا ، وحاول باكونين ادخالهم الدولي بوصفهم اقتصادا تم تكوينه ، ولكن المجلس العام للدولي برعاية ماركس الذي كان قد بدأ يشعر بمنافسة باكونين وخطره على زعامته رفض هذا الطلب ، واضطر باكونين الى حل الاتحاد والسماح لأعضائه أن ينضموا الى الدولي فرادى .

وبدخول باكونين الدولي ومعه أنصاره من إيطاليا وأسبانيا كثر عدد الأعضاء ، وقد استطاع باكونين أن يكسب الى صفوفه علاوة على الأعضاء الإيطاليين والأسبانيين كثيرا من الأعضاء السويسريين والعمال الفرنسيين ، ولم يكن الصراع الذي نشب بينه وبين ماركس بامته التأثير الشخصي أو اختلاف شخصيتهما فحسب ، فقد كان هناك خلاف شديد بينهما في المبدأ، وذلك لأن باكونين كان يرفض السلطة، ويعارض في وجود الدولة ، وكان باكونين يصرح بأنه ليس شيوعيا ، لأن الشيوعية تركو كل قوة المجتمع في الدولة ، في حين أنه كان يريد إلغاء الدولة وإزالة السلطة ، والدولة في رأيه قد استبعدت الناس واضطهدتهم وأستغلتهم وأفسدتهم ، وحدثت أول معركة مكشوفة بين الماركسيين وأتباع باكونين في الاجتماع الذي عقد في بازل سنة ١٨٦٩ والذي حضره باكونين وأتاب ماركس من حضر بدلا منه ، وقد عرض فيه ماكونين اقتراحا بإزالة

وقف حياته على اذامته وروح التمرد على الحكومات ، فلما بدأت الثورة البولندية في سنة ١٨٦٣ حاول مساعدة الثائرين ولكن قادة الثوار رفضوا معاونته لانه كان يرمي الى إيجاد تحالف فيدرالي بين الولايات السلافية ، وكان هذا يتعارض مع ما يراه الثائرون الذين كانوا يفكرون في إقامة حكومة أرستقراطية ، فذهب باكونين الى استوكهولم وانضم الى حملة من البولنديين كانت تريد ان تحمل بليتوانيا ، ولكن المشروع لم ينفذ ، وتعلم باكونين من تجاربه مع البولنديين ان الثورة الاشتراكية لا يمكن ان تتحقق عن طريق الحركات القومية ، ولذلك اتجه بتفكيره الى الحركة الدولية الثورية التي تقوم بها طبقة العمال .

وعاش أكثر أيامه في السنوات التالية بإيطاليا ، وأوجد أول تنظيم للشورة للفضوية وهو « الأخوة الدولية السرية » وتبع ذلك انضمامه الى عصبة السلام والحرية وهي منظمة كونها جماعة من الاحرار عقدت أول مؤتمر لها في جنيف في تلك السنة التي أمثل باكونين فيها أن تؤثر أفكاره الثورية .

وكان حضور باكونين لهذا الاجتماع أول ظهور لهذا التأثير الشهير الذي خاض لغمات الثورات وعرف غياهب السجون والمعتقلات ، وقد قوبل بجماسة شديدة ، وكانت له آمال كبيرة في عصبة السلام والحرية ، وقد اختير في اللجنة المركزية للعصبة ، وانضم اليه بعض الأعضاء منهم الأخوان إيليزا ركلوس Elisee Reclus وإيلي ركلوس Elie Reclus وقد أصبحا فيما بعد من الفضويين البارزين ، ولكنهم سرعان ما أدرك طبيعة العصبة البرجوازية ، وكان قد بدأ يعلن عداوه للرأسمالية ، وطالب بنزع ملكية الأرض ووسائل الإنتاج ، وجعلها تحت تصرف العمال ليعملوا بها متعاونين ، ومشد

بحجة انها حاولا ايجاد منظمة دولية منفصلة في داخل الدولي ، ووافق المجتمعون على ذلك ، ولكن الفوضويين رفضوا الاعتراف بهذا الفصل ، والسنوات التي تلت تصدع اركان الدولي كانت حافلة بالأحداث المتكررة والمتاعب المتكاثرة لباكونين ، فقد امتلئت صحته اعتلالا شديدا ، وتمكن منه المرض ، وعصره الفقر وحدث خلاف بينه وبين الكثير من اتباعه وأنصاره ، ووقعت القطيعة بينه وبينهم ، ولما حدثت الثورة في اسبانيا سنة ١٨٧٣ أراد باكونين برغم مرضه أن يذهب الى هناك للمشاركة فيها ، ولكنه لم يجد ما يكفي من المال لهذه الرحلة ورفض أصدقائه معاونته ، وهكذا عاش باكونين حياة عاصفة ثائرة متحديا كل سلطة دون أن يفكر في سلامته الشخصية ، وبالرغم من التهم الوضيعة التي وجهت اليه فإن تأثيره في نفوس أنصاره كان قويا ، وتختلف تعاليمه من تعاليم استاذة برودون في مسألتين هامتين ، فقد ادرك أولا أن الزيادة المطردة في التقدم الصناعي تجعل فكرة المجتمع المكون من صفار الملاك الذين يملكون وسائل الانتاج خاصة بهم ويتبادلون الانتاجات مع بعضهم البعض بطريق التبادل المصري فكرة غير قابلة للتنفيذ ، وليست عملية بحال من الأحوال ، ولذلك آثر فكرة الانتاج الجماعي الذي تكون فيه وسائل الانتاج ملكا للمجتمعات التعاونية المكونة من العمال ، ولم يصل باكونين الى فكرة مرحلة الانتاج العام للعمل التي دافع عنها كروتكيين بعد ذلك بسنوات قلائل .

والفكرة الثانية التي خالف بها برودون هي انه لم ير أن الدولة يمكن ازالتها باتباع طرائق الإصلاح ، أو بقوة القدوة الحسنة ، وأعلن ضرورة الثورة للقضاء على النظم المؤيدة لوجود عدم المساواة والتي تعوق التمهيد لوجود المجتمع الذي تسوده المساواة الاجتماعية ، وعنده ان الشورات لا تصنع كما يرى الماركسيون ، وإنما تهيء نتيجة انبعاث تلقائي

حق الميراث ، ولكن أنصار ماركس عارضوا ذلك المقترح ، ورفض المجلس الاقتراح بأغلبية قليلة ، وبعد انتهاء الاجتماع في بازل أذاع الماركسيون إشاعات كثيرة تنال من سمعة باكونين ، ولكن هذه الأقاويل السيئة لم تؤثر في اتباعه .

وفي أثناء هذا الصراع وقعت الحرب البروسية الفرنسية وحدثت في فرنسا الثورة التي أطاحت بحكم نابليون الثالث ، وكان باكونين في لوكارنو واجتذبت الثورة فأسرع الى مدينة ليون ، وكان له فيها اتباع كثيرون ، وفي أواخر شهر سبتمبر كون الفوضويون في المدينة لجنة لانتقاد فرنسا ، وأعلنت هذه اللجنة إلغاء الدولة وحدث شغب في ليون لم ترق فيه دماء ، واستولى الثائرون على المدينة وقتلوا قسيرا ، وجاءت فرقة من الحرس الوطني وأنهت هذه الثورة الصغيرة ، والتي اقتبس على باكونين واعتقل ، وأنفذ أمراته ، وبعد أن ظل مختبئا فترة من الزمن هرب من فرنسا متنكرا .

واستمر الصراع بينه وبين ماركس حتى سنة ١٨٧٢ ، وفي سبتمبر من تلك السنة دعا ماركس الى عقده اجتماع للدولي في لاهاي La Haye ، فعارض ذلك اتباع باكونين ، وطلبوا عقد الاجتماع في سويسرا ، ولكن المجلس الاستشاري للدولي رفض ذلك ، وقاطع الفوضويون الإيطاليون هذا الاجتماع ، وأضعف ذلك موقف الفوضويين ، وطلب ماركس في الاجتماع نقل المجلس الاستشاري العام من لندن الى نيويورك ، وقد أراد ماركس بذلك أن يتخلص من الفوضويين من ناحية ومن الاتحاد التجاري الإنجليزي من ناحية أخرى ، ورفض في هذا الاجتماع البرنامج الذي قدمه الفوضويون ، وقدم اقتراحا يطرد باكونين وصاحبه جيبوم Guillaume من الدولي

أفراد الشعب من الفقر والاعمال وسوء الحال، فمضى يكتب التقارير الواقعية ، ويقدم الاقتراحات المترتبة بالفقرة على الإصلاح ومناصرة الفقراء الى ادارات الدولة ومختلف الهيئات الحكومية ، ولكن عمله كان بغير جدوى فقد كان القوم في غفلة من الإصلاح ، ولم يكن لهم فيه ارب ، ولا لهم اليه نزوع ، لان الإصلاح لا يحقق لهم فرسا ، ولا ينيلهم نفعا ، وينبه راقد الفتنة ويهيج كامن الشر ، واثر هذا التراخي والجمود في تفكير كروبتيكين ، وجعله يعتقد أن الامور لا يمكن أن تظل على هذه الوتيرة ، وأنه لا علاج لهذه الاحوال السيئة المتخلطة الا بالخروج عليها والثورة بها .

وفي سنة ١٨٧٢ أصبح من العاملين في صفوف الثائرين ورحل الى غرب أوروبا ، وقضى حيناً من الزمن في بلجيكا وسويسرة ، وهناك اتصل بالحركة التي كانت تدبر الثورات وترسم خططها ، وخالط اتباع باكونين ، وراقته مبادئهم ، وقد أوضح في كتابه « مذكرات ثائر » سبب تركه بحوله العلمية الجغرافية ، فقال « بأى حق أستمتع بهذه السمات العليا والشقاء حولي فشارب بحرارة ، وكل من أرى يجاهدون في سبيل الخبز على كسرة من الخبز الفضي ، وتطو حين ان كل ما انفقه ليمكثني من أن أعيش في عالم هذه المواطن السامية لا بد أن يكون منتزعا من افواه هؤلاء الذين يزعمون الغلال ولا يجنون من الخبز ما يكفي لاطعام أطفالهم » لا بد أن يؤخذ ذلك من افواه بعض الناس لان موضوع انتاج البشرية لا يزال جد منخفض .

ونفر كروبتيكين من الاشتراكية الماركسية ، ومال بكنيته الى الاشتراكية الحرة التي بشر بها باكونين ، وعاد بعد ذلك الى روسيا وأخذ يحاول تعليم المزارعين والعاملين ، وكان يعرف ما في هذه المحاولة من خطر ، ولكنه لم يحجم عن ذلك ، وأقبل على هذه المحاولة غير خائف ولا وجل ، حتى قبض عليه سنة ١٨٧٤ واعتقل في حصن بطرس وبولس الرقيتب ،

في وعي الجماهير ، وكان يتحدث في ذلك من تجربة ومشاهدات بعد أن خاض غمار كثير من الثورات .

بيتر كروبتيكين (١٨٤٢ - ١٩٢١)

Peter Kropotkin

كان ينقص الفوضويين الذين ظهروا بعد جيل باكونين الفكر الذي يضع الأساس العلمي الاجتماعي للمذهب الفوضوي ، وقد توفرت القدرة على النهوض بذلك في كروبتيكين ، وقد امد جودوين الفوضوية بخواطره الفلسفية ، ودعمها باكونين بنظراته الاجتماعية وخلاصة تجاربه الثورية ، وقد سر ذلك السبيل لكروبتيكين ليضع للمذهب الأساس العلمي ، ويؤيده بدراساته العلمية ، فان كان باكونين بطل الفوضوية الثائر فان كروبتيكين عالمها المتكمن الواسع المعرفة والدراسة .

وقد ولد كروبتيكين سنة ١٨٤٢ وهي السنة التي بدأ باكونين يتعلق فيها بالمتفكرات الثورية ، وهو أسرة روسية عريقة ، وقد نشأ تنشئة عسكرية ليشفل منصبا في الجيش القيصرى ، وفي أوائل سنة ١٨٦٠ الحق ضابطا بإحدى فرق القوقاز المقيمة على مقربة من نهر آور في سيبيريا ، وقام بعد ذلك برحلات علمية كشفية في نواحي سيبيريا الجبولة وفي شمال منشوريا ، وكان يدرس في أثناء ذلك التاريخ الطبيعي لهذه الأجزاء ، ويلاحظ حياة المجتمعات البدائية بها ، وقد تركت هذه الدراسة أثرا بعيدا في تكوين آرائه الاجتماعية ونظراته السياسية ، وعاد الى بطرسبرج سنة ١٨٦٧ وقضى أربع سنوات في دراسة الرياضة والجغرافيا ، وذاقت شهرته بين المتفرسين على الدراسات الجغرافية وعرضت عليه جمعية بطرسبرج الجغرافية أن يكون سكرتيرا لها ، ولكنه لم يقبل هذا العرض .

وفي خلال رحلته الجغرافية المختلفة الى أنحاء القاصية في روسيا رأى بعينه ما يعانيه

وقضى في هذا السجن عامين تابع فيهما دراساته الجغرافية .

وفي سنة ١٨٧٦ تمكن من الهرب ووصل الى بريطانيا ثم ذهب منها الى سويسرا ، وظل بها حتى سنة ١٨٨١ وأخرج منها بسبب نشاطه الثوري والعصب الذي أثاره مصرع القيصر الروسي الاسكندر الثاني ، وفي سنة ١٨٨٢ اعتقل بفرنسا وأرسل الى سجن كليرفو بتهمة زائفة ، وأثار حبسه احتجاج العلماء والكتاب ، وكان من الذين دافعوا عنه الفيلسوف البريطاني هربرت سبنسر والشاعران سوينبرن وليكتور هيجو ، واضطرت الحكومة الفرنسية الى الافراج عنه في سنة ١٨٨٦ فعاد الى إنجلترا وأقام هناك إقامة دائمة .

وفرح لاستيفاء تعاليم مذهبه السياسي ، وطاف بأنحاء بريطانيا وألقى محاضرات للدعوة الى مذهبه ، وبسط بها آراءه ونظرياته ، وكان من مؤسسي مطبعة الحرية ، وشارك في تحرير المجلة المسماة باسم الحرية ، واستطاع في تلك الفترة أن يكتب معظم مؤلفاته ، ومنها كتاب « غزو الخبز » وكتاب « الحقول والمصانع والعامل » وكتاب « التعاون المتبادل » والكتاب الأول دافع عن مذهبه السياسي ، واكتتابان الآخران دراسات اجتماعية علمية ، وهما من المراجع الهامة لدارسي علم الاجتماع ، والفكرة الأساسية التي كان كروبتكين يرمي الى تأكيدها هي انه لا المذهب الفردي ولا مذهب اشتراكية الدولة ولا المذهب الشيوعي الذي يدعو الى إقامة دكتاتورية البروليتاريا تستطيع أن تصل بنا الى المجتمع الصالح الذي يرضي نوازعنا ، ويلزم أن نقوم أحوالنا الاقتصادية والاجتماعية على أساس التعاون والمشاركة الحرة لا على التنافس القاسي او الاجراءات الممثلة من ناحية أخرى ، وقد رأى كروبتكين أن مذهب ترك الأمور تجري في مجاريها الذي أولعت به الرأسمالية في القرن التاسع عشر يسفر عن

مظالم جائرة ، وأنه قد أخفق أخفاقا تاما في حل مشكلة توزيع السلع ، ورأى من ناحية أخرى أن أفكار ماركس في الاشتراكية الحكومية لا تعين كذلك على حل هذه المشكلة ، وأن التعاون الحر هو المبدأ السليم والهدف الاسمي ، وأن زيادة سيطرة الدولة تنتقص الحرية ، ولا تزيد الرخاء المادي ، وكان يتطلع الى اليوم المسيد الذي يرى فيه الحياة الانسانية قائمة على مبدأ التعاون الحر والتضامن الاختياري ، وفي أثناء الحرب الكبرى الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وقف في صف الحلفاء ، لأنه كان يخشى خضوع أوروبا للإمبريالية الألمانية ، ولم يرض هذا الموقف الفوضويين وقد عللوا ذلك بأنه كان في هذه الفترة مريضا ومتقدما في الشيخوخة ، وقد انهكت قواه الأمراض ، ومجاهداته في سبيل اذاعة أفكاره ، وقد عاد الى روسيا بعد ثورة سنة ١٩١٧ ليساعد الثائرين ولكن حينما استولى البلاشفة على زمام السلطة أدرك طبيعة ثورتهم وأهدافهم ، وعارض أساليبهم في القمع والاضطهاد ، وقضى السنوات الأربع الباقية من حياته في فقر وحرمان حتى أدركته الوفاة سنة ١٩٢١ ، وقد كان كروبتكين كبير المدافعين عن الشيوعية الفوضوية ، وقد ناقش في كتابه عن « التعاون المتبادل » رأى داروين في تنازع البقاء ، ورأى أن هذا التنازع ليس هو القاصدة العامة في عالم الحيوانات ، وأيد ذلك بمشاهداته الخاصة ومشاهدات غيره من العلماء ، وقرر أن التعاون هو سنة الوجود ، وسبيل البقاء ، ودعا اليه وجود الأجناس الأضعف من الناحية الجسدية ، وأن الإنسان مدني ببقائه برغم ضعفه لتفردته على التعاون ، وهو لا يتنكر وجود المنافسة والتناحر ولكن عنده أن التعاون أهم وأبعد أثرا في تقدم الانسانية ، والتعاون عنده أساس الاخلاق ، ويضاف الى ذلك عامل العطف والشعور بالأم

من رايه اغتيال الموظفين المكروهين لايقاع
الربح في قلوب اعضاء الطبقات الحاكمة
والدعاية بالأعمال لكي يلتفت الأنظار للحركة
الفوضوية ، وقد انهم بأنه كان من السدين
ساعدوا على الشعب الذي حدث في هيماركت
Haymarket ومصرع الرئيس مكنتلي Mckinley
وحكم عليه بالسجن غير مرة ، وكان
يحكم في كل مرة لما يضلله من الأفعال
لا لما كان يقوم به من الأفعال .

ومنذ أوائل سنة ١٩٢٠ ضعف تأثير المذهب
الفوضوى ولم يظهر له دعاء واتباع لهم تأثير
يلدرك ، وأن نجاح الشيوعية الروسية كان له
اثره في التقليل من أهمية الدعوة الفوضوية .

الغير وإدراك حاجاته ومطالبه ، وبعد كروبتكين
أقدر شراح المذهب الفوضوى وكبير فلاسفته
ومفكره ، وكتبه تقدم معلومات وثيقة وحقائق
مؤكدة لدعم المذهب الفوضوى .

جوهان موست

وأخر المفكرين الفوضويين النظريين
الجديرين بالذكر هو جوهان موست (١٨٤٦ -
١٩٠٦) وهو الماني الأصل من أبوين فقيرين سجن في
التمساستين وفي المانيا سجن ثلاث سنوات ،
وبعد طرده من المانيا انشأ في لندن جريدة
اسبوعية وانتقل في سنة ١٨٨٢ الى الولايات
المتحدة ، واكتسب بها شهرة لا يفيط عليها
بوصفه مدافعا عن الفوضوية الارهابية ، وكان



مراجع البحث

- Berkman Alexander, *A.B.C. of Anarchism* (Free Press 1942).
- Catlin George, *A History of Political Philosophers* (George Allen and Univix 1950).
- Carr E. H., *Michael Bakunin.*, (London 1935).
- Carr E. H., *The Romantic Exiles* (London 1933).
- Harmon M. Judd, *Political Thought From Plato to the Present* (Utah State University 1964).
- Gettell Raymond G., *History of Political Thought.* (G. Allen and Univin 1951).
- Joad C. E. M., *Introduction to Modern Political Theory.* (Oxford 1927).
- Kropotkin Peter, *The State, Its Historic Role* (Freedom Press).
- “ ” *Revolutionary Government* (Freedom Press).
- “ ” *The Wage System* (Freedom Press).
- “ ” *The Mutual Aid* (William Heinemann 1919).
- Malatesta, E. *Anarchy* (Freedom Press) 1942.
- Mackenzie Norman, *Socialism, A short History* (Hutchinson) 1944.
- Read Herbert, *The Philosophy of Anarchism.* (Freedom Press) 1943.
- Sabine George H., *A history of Political Thought* (George G. Harrap) 1951.
- Wassermann Louis, *Modern Political Philosophers* (Garden City Books New York 1951).
- Woodcelck George, *Anarchy or Chaos* (Freedom Press) 1944.
- Woodcock George, *Anarchism* (Pelican Book) 1962.
- Yaroslavsky E., *History of Anarchism in Russia* (Lawrence & Wisbort).

✱ ✱ ✱

تجاربى مع الحشرات

سميرة الزيدى *

عندما شرعت فى تدوين تجاربى مع الحشرات حملتني ذكرياتي الى زمن مضى ، عندما قررت وقدر لى الحظ أن اتعمق فى كنهها وأنفهمها من قسب التفهم العلمي الاصيل ، وكانت تستهويني كما فعلت بكثير من علما الأحياء منذ زمن بعيد ، ولعلها كانت اوفر الكائنات حظا من البحث والاستقصاء لصلتها الوثيقة بالإنسان ، إذ بعضها نافع كنودة الحرير ونحل العسل ، وبعضها الآخر ضار يفتك بالزراعة كالجراد وديدان القطن ، أو ينقل العلة والمرض كالبعوض والذباب .

وحياة الحشرات تزخر بكل ما هو طريف وعجيب ، حتى أن الإنسان ليكلف أحيانا كثيرة مشدوها أمام سلوكها وطبيعتها وطاقات حياتها. كيف تطير ، وكيف تناسل ، وكيف تتحصن ضد أعدائها ، وكيف تتلازم مع بيئتها ، وكيف تتغذى ، وكيف يعيش بعضها كالنمل والنحل فى مجتمعات بلغت فى دقة نظامها واحكامها والملاقات الاجتماعية التى تسودها حد الروعة والاعجاز .

وسأـ«دلتكم فى هذا المقال من موضوع فيه كثير من الطرافة ، الا وهو موضوع النحل ، وهو الذى قال تعالى منه فى كتابه الحكيم العزيز :

« واولى ذلك الى النحل ان اتخلى من الجبال

ولعل استجلاد الحقائق العلمية من حياة الحشرات ليدعو الى الكثير من التأمل ، ويثير فى النفس المتعة والجمال ، بما أودمه الله فى هذه الكائنات من قدرات ، وما فيها من غرائب وعجائب .

* دكتورة سميرة الزيدى استاذة علم الحشرات ورئيسة قسم علم الحيوان بجامعة الكويت . اشتغلت بالتدريس بجامعة القاهرة . عفسو جمعية الحشرات المصرية وجمعية الحشرات الملكية بلندن وجمعية الحشرات الامريكية . لها كثير من البحوث فى المجالات الحشرية ولقد نشرت هذه البحوث فى المجلات العلمية بمصر والغازج .

ومستقيمة الأجنحة Orthoptera ، وينتمي إليها الجراد والنطاط Acrididae وصراصير الفيتل Gryllidae وأقرباؤها ، وغمدية الأجنحة Coleoptera ، وهي تحوى الخنافس والسوسى بأنواعها، وذوات الجناحين Diptera وبها جميع أنواع الذباب الحقيقي ، واليعوض والهاموش وأشباهها ، وخلاف هذا عدد آخر من الرتب تتميز جميعها من بعضها البعض بصفتها الخاصة .

وتضم غشائية الأجنحة التى نحن بصددها بجانب النحل Apoidea النمل Formicoide والزنابير Vespoidea وذباب الاكثيومون Ichneumonoidae والزنابير النشارية والزنابير المتطفلة وزنابير الاورام النباتية Cynipoidea الخ. . حشرات تصنف جميعها بصفات معينة مشتركة . ويتكون النحل جزءاً صغيراً فقط من بين هذه المجموعة الكبيرة . وليس من المهم أن نخوض في جميع التفاصيل العلمية الدقيقة التى تجعل غشائية الأجنحة مختلفة عن كل ما عداها من أنواع الحشرات ، ولكن يكفيننا فقط أن نعرف أنها زوجين من الأجنحة الغشائية، زوجا على كل جانب ، الامامي منهما دائماً أكبر من الخلفى . ويتشابهك الجناحان في كل جانب منذ الطيران مع بعضهما البعض ، ويعملان كما لو كانا جناحاً واحداً . وطريقة التشابه هذه بسيطة ، فللحد الخلفي للجناح الامامي حافة قصيرة مرفوعة تستقبل صفا من الخطافات الصغيرة الممتدة على الحافة الامامية للجناح الخلفي .

وفي هذه الرتبة تكون بعض المجموعات اكثر قربا في صفاتها من بعضها الآخر كالنحل والنمل والزنابير التى هي أبناء عمومة من الدرجة الاولى ، ولذلك سميت معا بغشائية الأجنحة اللامعة Apocrita aculeata حيث انها قادرة على اللسع ، اذ ان آلة وضع

بيونا ومن الشجر وما يعرضون ثم كلي من كل الحشرات فاسكي سبل ذلك يخرج من بطونها شراب مختلف اوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون » (سورة النحل الايات ٦٨ ، ٦٩)

لماذا اختص الله سبحانه وتعالى النحل من دون الحشرات جميعا بان جعله « آية تقوم بتفكرهم » ذلك انه قد اودع فيها من عظيم قدرته ما يعجز عن وصفه كل بيان ، ووضع بين اناياها من الخصائص والتفردات ما يفني من كل وصف وتبيان .

ولسوف يبين هذا المقال ما انطوى عليه هذا الاعجاز الالهي في الخلق : فيما اودع في النحل من غرائز تسلك بها سلوكا في الحياة فريدا ، وتعيش بها حياتها كلها في تعاون واستقرار ، والقصد بالنحلة هنا هي نحلة العسل « ابييس مليفرا » Apis mellifera التى تنتمي الى مجموعة من الحشرات تعرف برتبة غشائية الأجنحة Hymenoptera ، وهي مجموعة ضخمة ذات صفات معينة مشتركة ، وترتيب الحشرات الى رتب سببه انه يوجد منها في العالم عدد من الانواع يربو على المليون نوع، اكثر من أى مجموعة أخرى من الحيوانات، وما يزال يكتشف منها في كل عام انواع جديدة تقدر بالآلاف . وحتى لا تضارب ونرتبك نتيجة للتباين في شكلها ، تم ترتيبها - كما هو الحال مع جميع انواع الحيوانات الأخرى - الى مجموعات كبيرة أو رتب ، وذلك بغرض معرفتنا بها ، وهذه الرتب الكبيرة تنقسم الى مجموعات أصغر فاصغر، وهكذا حتى نصل الى الكائن الذى نعلمه دائما اسما مكونا من اسمين ، اسم الجنس واسم النوع، مثل نحلة العسل ابييس مليفرا Apis mellifera

وهناك رتب أخرى غير غشائية الأجنحة ، كرتبة حرشية الأجنحة Lepidoptera ، وهي التى تضم اليها الفراشات وإبو دقيق ،

• يستعمل لفظ ذبابة دون تحلف في لغتنا الدارجة ولكن في معناها الدقيق يجب ان يشار به فقط الى ذات الجناحين كذبابة المنزل واليعوض .

الإنسان - هو العائلة ، وجمع وتوزع الغذاء بين هذه الحضارات البائدة والصغار هو طريقة اقتصادية لا نجد نظيرها في مجتمعنا .

ومستعمرات نحلة العسل عرفها الإنسان منذ قديم الزمان ، والعلاقة بينه وبينها من أولق العلاقات ، وسبب ذلك أن له شهية طبيعية للحلوى ، وأن هذه المستعمرات تعدد بالعسل الذي هو مادة حلوة اللذاق ، وهو طعامها الذي تجميعه من الأزهار لتتغذى عليه وتخزنه لوقت الحاجة ، وكان منذ عصور ما قبل التاريخ يسطو على خلاياها البرية ويسلبها عسلها ، كما كانت تفعل الدببة أيضا ، حتى تعلم منذ بدء العصر الحجري الحديث - على الأرجح - استئناسها وترويضها على الحياة قريبا من مسكنه: داخل قطاعات من جدوع الأشجار ، أو السلال الفارغة ، أو الأوعية الطينية ، وقد وجد النحل منقوشا على أكثر قداماء المصريين التي يرجع تاريخها إلى عام ٣٥٠٠ ق.م .

ومن الطبيعي أن الإنسان البدائي بعد أن قام باستئناس النحل ، وسهل له سبل الإقامة ، أخذ في ملاحظته والتعرف على خصائصه ، وسرمان ما آثاره هذه الحشرة الصغيرة واستحوذت على دهشته وأعجابه ، واستنتج أنها من المخلوقات الموهوبة ، لأنها تعيش مثله في جماعات ، كما أن الكثير من خصائصها الحميدة ، مثل طيراتها المستعمر بحثا عن الغذاء ، وقدرتها على السلع دفاعا عن نفسها ، وارتباطها بالأزهار دون غيرها ، وتجنبها للأوساخ والقاذورات ، وتعلق الشغالة منها بالملكة ، جعلته يعتقد في قدسيته ، حتى أنه اتخذها عبر الزمن رمزا لجميع الفضائل . فهناك الملكة والرمايا المثلاليون التي تتكون منها جميعا مملكة نموذجية ، طابعها الشجاعة والاقدام والتضحية بالنفس في سبيل المجموع ، والحب المتبادل بين أفرادها التي تمتاز بالعمل المتواصل ، والتقناعة في الأكل بما يسد الرقم دون اسراف أو تبذير ، وادخار ما يفيض من

البقيض في أنالها قد تحولت إلى آلة للدفاع أو آلة للسلع ، وبذلك لم تعد تستعمل في وضع البيض كباقي أنثى الحشرات . وعلى الرغم من أن بعض أنواع هذه المجموعة تكون آلة لسمه مندثرة ، مثل النحل عديم آلة اللسع الذي ينتشر في المناطق الاستوائية ، أو كالنمل الذي ليس فيه آلة لسع على الإطلاق ، إلا أنها جميعا تمتلك من الصفات الأخرى ما يقر بها من بعضها البعض ، ومن هذه الصفات العناية الفائقة التي يوليها أغلب أفراد هذه المجموعة لصغارها ، وقد نمت هذه الخاصية في بعض أنواع النحل والزناير ، وفي كل أنواع النمل ، وتحولت إلى صورة ثابتة متقنة من صور الحياة الاجتماعية ، حتى أن الكثير من الباحثين يضعون هذه الرتبة من حيث التطور على قمة الرتب الحشرية كما يوضع الإنسان على قمة سلسلة الفقاريات .

وتقدم لنا مجتمعات النحل والنمل أقرب مثل من أمثلة التمدنين في عالم الحشرات ، إذ أنها تعيش في مجموعات مستقلة - تقابل الأمر في الإنسان - يطلق على كل منها اسم المستعمرة ، تتميز فيها الأفراد إلى ملكة وذكر وشغالة ، تعيش جميعها في تعاون تام ، والسجام قد يفوق في صوره بعض الجماعات البشرية ، ومجتمعها في تنظيمه شبيه بالمجتمع الانساني شبيها كبيرا ، وليس يجديد أن تعلم أن الاعتبار الأول في المعيشة الاجتماعية سواء أكانت أنسانية أم حشرية هو توفير الغذاء بانتظام وبكثرة ، فالجماعات البدائية قناصة تعيش غالبا على اللحوم ، بينما المجتمعات المنظمة تنظيميا راقيا والمكتظة أصبحت تعتمد أكثر وأكثر على ما يقدمه عالم النبات من طعام مؤكد سهل المثال . وفي هذه المجتمعات في عالم الحشرات هي مستعمرات نحل العسل التي تعيش فيها الأم والأبناء معيشة تعاونية مشتركة ، في مسكن أو في عش واحد ، وقد طالت فيها حياة الأئني بدرجة تسمح لها بأن تعيش في صحة ذريتها ، وبذلك فإن أساس حياة الحشرات الاجتماعية - مثل مجتمع

والإخراج والتكاثر ، وتختبئ في مؤخرة الحشرة أداة اللسع ، وهي تعرف بالحمة أو الزبان ، وأسفل البطن يوجد عدد من الغدد الشمعية تفرز سائلا لزجا يتحول الى قشور عند ملاسته للهواء .

تكون مستعمرة النحل من عدد من الأفراد يتراوح ما بين ٤٠,٠٠٠ و ٨٠,٠٠٠ نحلة ، أى أنها توازى تعداد مدينة متوسطة الحجم ، هذا بالإضافة الى عدد كبير من اليرقات في مختلف اطوار النمو ، وكذلك البيض والمدارى المختبئة في بيوتها . وفي المستعمرة ثلاثة أنواع من الأفراد يتميز بعضها من بعض في الشكل والتركيب ، هي الملكة والدكور والشفالة .

والملكة هي اكبر افراد المستعمرة حجما ، وهي الأنثى الكاملة في مملكة النحل ، وبذلك فان مصر العشرية كلها يعتمد اعتمادا تاما عليها ، فهي الوحيدة التى تستطيع وضع البيض ، ويعتمد عليها استمرار النوع ، ولو نظرنا الى الملكة لوجدنا أن بطنها اطول من باقي افراد المستعمرة بشكل واضح ، ولا تتحور أرجلها الى سلال اللقاح ، وليست لها غدد شمعية ولا غدد بلعومية ، وزبانها اقصر من زبان الشفالة ، وهي لا تقوم بأداء أى عمل من الأعمال داخل المستعمرة سوى وضع البيض ، وعمر الملكة طويل ، فهي تعيش نحو خمس سنوات او تزيد ، وتنتج من البيض ما يصل الى المليون ونصف المليون بيضة طوال حياتها.

اما الدكور ويوجد منها في المستعمرة بضع مئات فهي وسط في حجمها بين حجم الأفراد جميعا ، وليس لها زبان - حيث أن هذا العضو صفة أنثوية - ووظيفتها الوحيدة في الحياة تلقيح الملكة، ولذلك تحورت أعضاؤها الجنسية بطريقة تؤهلها للقيام بهذا العمل ، فاقضاء الشم فيها قوة تساعدها على التعرف على الملكة عند طيرانها خارج الخلية للتزاوج ، ويعيونها اكبر حجما من عيون باقي الأفراد ، واجنحتها أقوى من الملكة ، وبذلك تستطيع

حاجتها الى وقت الشدة ، وهناك أيضا الهندسة الدقيقة ، وعطف الكبير على الصغير وورابته ، والدود عنه ضد أى عدوان ، والاستبسال في الدفاع من خلاياها ، وفسي ذلك من الفضائل هذا الكرم ، فانها لا ترحب بالضيف ، ولا تتحمل بقاء النحل الدخيل في خلاياها ، بل تسرع في طرده الى الخارج ، وقد نظر القدماء الى هذه النقيصة على أنها فضيلة حيث أنهم كانوا انفسهم لا يتخلون من نعمهم الوطنية او القبلية .

وللتعرف على النحلة يجب أولا أن نميزها ، فحجمها - ككل الحشرات - ينقسم الى ثلاثة أجزاء واضحة ، الرأس والصدر والبطن ، ويوجد على جانبي الرأس عينان مركبتان كبيرتان وفي أعلى الرأس توجد ثلاث أمين بسيطة غائرة مثل الخرز ، مرتبة في شكل مثلث ، وفي مقدمتها يوجد قرنا الاستشعار ، بينما في أسفلها الفم الذى له زوج من الفكوك القوية ، بينهما عضو انبوي طويل يسمى باللسان ، تلتق به النحلة رحيق الأزهار .

والصدر وهو الجزء الأوسط يحمل الأرجل الست وزوجي الأجنحة الشفائية ، ولأنه يحمل أعضاء الحركة والطيران فهو جزء عضلي أكثر من أى جزء آخر من الجسم ، ولذلك فان زنبور حينما يصطاد نحلة فانه يقطع رأسها وبطنها ، ويحمل الصدر الملىء باللحم فقط الى عشه ، وأرجل النحلة الخلفية متحركة تحورا بارعا لجميع وحمل حبوب اللقاح ، وبذلك فهي تعرف بسلال حبوب اللقاح .

والبطن يقع خلف الصدر ويتصل به بواسطة الخصر الذى يبدو رفيعا جدا لحمل هذا الجزء الثقيل من جسم الحشرة ، ولكنه وظيف الاتصال بالصدر بواسطة عضلاته القوية ، وهو يسمح للبطن بالتحرك بحرية في جميع الاتجاهات تقريبا ، وتتكون البطن من عدة عقل مريضة ترتبط مع بعضها البعض مثل أجزاء المنظار « التلسكوب » وتقع فيها أعضاء الهضم

له فتحة جانبية صغيرة يخرج ويدخل منها النحل ، وهو ذو غطاء متحرك ، ومزود من الداخل بعدد من الاطارات الخشبية المعلقة تمكن النحل من بناء اقراصه ، ويمكن رفعها بسهولة عندما تحتاج الى اصلاح ، أو عند ابدالها بعد أن تمتلئ بالعسل ، ويتكون القرص الواحد من عدة آلاف من الغرف أو العيون الشمعية التي تبنيها الشغالة لثربي فيها صفارها وتخزن فيها العسل الفائض عن حاجتها وحبوب اللقاح ، وهذه الغرف أو العيون ذات شكل سداسي منظم ، تبنيها الشغالة حول محور وسطي ، تفرغ منه باقي العيون على الجانبين ، وقاعدة كل عين مجوفة تحويفاً بسيطاً ، بحيث تنطبق تماما وبمهارة مع قواعد العيون المقابلة وتجعل الاستفادة من كل الفراغ المتاحة على احسن ما يكون ، وتعمل كل عين ميلاً بسيطاً ناحية الجدار الوسطي حتى لا ينسكب العسل منها ، وتتحد جدران العيون لتكون هذا الشكل السداسي المنظم ، ومن الغريب حقاً أن تختار نطشة العسل لعيونها الشكل السداسي وليس الشكل المستدير كما يفصل النحل الطنان القريب الشبه في عادته من نطلة العسل ، أو الشكل المربع أو أي شكل آخر ، ولكن قد يزول تعجبنا اذا علمنا انها اذا اختارت أي شكل آخر لبناء ميونها فليس فقط ان المساحة المتاحة لا تتسع الا لعيون اقل فصص بل ولسوف تستخدم النطلة مسادة أكثر بكثير للبناء ، فمن الناحية الهندسية فان العيون السداسية التي تشترك مع بعضها البعض في الجدر الجانبية أكثر توافقاً من مادة البناء المستعملة ، وأكثر استغلالاً للمكان المتاح ، والواقع أن النطلة قد ألهمت منذ مدة طويلة إن هذا الشكل هو انسب ما يمكن أن يتبع كيف توصلت النطلة إلى هذا علم ذلك عند الله القوى العزيز الذي وسع كل شيء علماً .

وعند بناء الأقراص تفرز الشغالة الشمع من الغدد الشمعية أسفل بطنها ، والشمع مادة دهنية يخرج على هيئة تشور وليس الشغالة

اللاحق بها في الجو وامساكها لاتمام عملية التلقيح ، وهي تقوم بهذه العملية مرة واحدة ، وتخزن الملكة الحيوانات المنوية كلها التي انتقلت اليها في أثناء عملية التزاوج طوال حياتها وتستخدمها في اخصاب البيض .

اما الشغالة فهي اصغر افراد النحل جميعا واكثرها عدداً ، وهي اناث عقيمة غير قادرة على التناسل ، وتمتاز بنشاطها الزائد ، والتفاني في أداء الواجب ، وتقع على عاتقها جميع الاعمال اليومية اللازمة لحياة المستعمرة وازدهارها ، فهي تعنى بالصغار وتقوم باطعامها ، وتحافظ على نظافة المستعمرة وهويتها والدفاع عنها من كل دخيل ، وتمتص الرحيق من الأزهار وتحوله في حوصلتها إلى عسل شهى ، ولجميع حبوب اللقاح من مختلف أنواع النباتات ، وتفرز الشمع من الغدد الشمعية تبني به الأقراص ، وغير ذلك من الأعمال التي لا تكل ولا تتوانى عن أدائها منذ مولدها إلى أن تموت ، ولها من الخصائص الشككية ما يساعدها على أداء هذه الأعمال ، فجسمها مغطى بشعر كثيف تلتصق به حبوب اللقاح ، وفي أرجلها سلال اللقاح ، كما أن حوصلتها التي تسمى أحياناً كيس العسل تتسع لقدر كبير من رحيق الأزهار ، وقددها اللعابية تفرز نوما من الانزيمات تحول بها الرحيق إلى عسل داخل الحوصلة ، وتخرجه النطلة بعد ذلك وتطعم البعض منه صفار النحل ، بينما تخزن الباقي ، وهي تبني بيوتها من الشمع ، وفي رأسها غدد بلعومية تفرز سلالاً لينياً غنياً بالبروتين هو الغذاء اللذي الذي تغلدى عليه صفار اليرقات ، وآلة لسعها حادة تدافع بها عن نفسها وعن مستعمرتها ، فتلسع بها كل من يحاول الاعتماد عليها ، وهي تعيش من ثمانية أسابيع إلى سنة .

ويسكن النحل في حالته المستأنسة خلايا خشبية يزوده بها مربيه أو كما يسمى « النحل » وهي على هيئة صندوق من الخشب

ذكرنا أن الملكة تستغل العيون الوسطية من الأقراص لتضع فيها البيض ، أما العيون الأخرى التي تحيط بها فتخزن فيها الشفالة حيوب اللقاح ، بينما العيون الخارجية من الأقراص تخزن فيها فائض العسل .

بعد ثلاثة أيام من وضع البيض ينقش من يرقات تتولى الشفالة في الحال اطعامها ، ويرقات النحل جميعا من حيث الشكل والتركيب واحدة كلها ، ولا تختلف من بعضها البعض عند خروجها من البيضة . وفي المرحلة الأولى من حياتها تطعمها الشفالة دون تفرقة بالغذاء الملكي أو الهلام الملكي الذي تفرقه من الخلايا البلموية التي في رأسها والتي سبق ذكرها ، والهلام الملكي مسائل لبني غنسي بالفيتامينات وخاصة حامض البانتوثينات والبيوترين ، وبعد ثلاثة أيام تمارس الشفالة عملية التفرقة الطبقية ، فتستمر في اطعام اليرقات الملكية بالغذاء الملكي ، بينما تعطي يرقات الشفالة والدكور « خبز النحل » وهو مزيج من العسل وحبوب اللقاح ، ويجدر بنا في هذا المقام أن نذكر أن التجارب أثبتت بشكل واضح أن هذه التفرقة في الغذاء هي السبب الوحيد في تحويل بعض اليرقات الى ملكات وبعضها الآخر الى شفالة ، فقد نقلت اليرقات الحديثة الفقس من عيون الشفالة الى عيون الملكات وأطعمت طوال حياتها بالغذاء الملكي فصارت في النهاية ملكات ، والعكس في ذلك صحيح ، حيث أن اليرقات التي نقلت من عيون الملكات الى عيون الشفالة أصبحت شفالة نحل بدلا من ملكات !!

وتكمل اليرقات نموها خلال ستة أيام يزيد في اثنتائها وزنها نحواً من خمسمائة مرة وبلغت الانسان فان الطفل حديث الولادة اذا غُذي بهذا القدر يصل وزنه الى نحو من طن ونصف طن من الأرطال. وبعد أيام ستة تبدأ اليرقات في التحول الى عذارى ، عندئذ تفزل حولها نسيجاً كثيفاً من الحرير تسكن فيه تماماً وتتحول الى عذارى ، وعند هذه المرحلة تغفل الشفالة العين

بأرجلها ، وربما تضلها بقليل من لعابها فتحولها الى كتلة لرجة نوما ما ، لتستطيع تشكيلها بواسطة فكوكها القوية ، ومن هذه العجيبة تبني الشفالة الأقراص لتدريجياً .

وتحتوي خلية النحل على ثلاثة أنواع من العيون . . عيون سداسية الشكل وكبيرة الحجم نسبياً تضع فيها الملكة بيضا غير مخضب ، وهذا البيض سوف ينتج عنه الذكور ، وعيون سداسية أصغر قليلا في الحجم تضع فيها الملكة بيضا مخضب ينتج عنه الشفالة ، وبيوت أسطوانية مستطيلة قليلة العدد تضع الملكة بداخلها بيضا مخضب ينتج عنه ملكات المستقبل .

ولا يوجد فرق واضح بين البيض الذي تضعه الملكة جميعه ، فهو مستطيل الشكل ، ليس بالمصغر نسبياً في الحجم ، إذ أنه لو وزنا ١٥٠٠ بيضة من هذا البيض لوجدناها تعادل وزن الملكة الأم التي وضعتهم . وعندما تبدأ الملكة في وضع البيض فانها تمد رأسها داخل العين لتحسسها لتتأكد من أنها فارغة ومناسبة لتضع فيها بيضة ، ثم بعد ذلك لدلي بطنها في الداخل ، وتظل ساكنة لبضع ثوان ، وعندما تسحب بطنها نستطيع رؤية البيضة المستطيلة في قاع العين ، بينما تذهب بحثاً عن عين فارغة أخرى لتضع بيضة ثانية ، وهكذا ، وهي تختار لهذا الغرض العيون التي في منتصف الأقراص فقط ، ولو راقبتها من خلال خلية المراقبة - وهي خلية خاصة ذات جدر زجاجية - لوجدناها تمشي بيضاء وجلال بين العيون ، وهي تؤدي هذه العملية . . والملكة تضع في الربيع وأوائل الصيف نحواً من ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ بيضة في اليوم الواحد أي أنها تضع في المتوسط بيضة في كل دقيقة ليلاً ونهاراً ، والواقع أنها تمر بفترات راحة قصيرة ، ثم تضع البيض بسرعة بين هذه الفترات ، والبيض ينمو بسرعة داخلها ، وبذلك يمكننا أن نفهم لماذا لا تؤدي الملكة أي عمل آخر غير هذا العمل .

وفي الربيع ، أى بدء موسم تكاثر النحل وموسم الأزهار ووفرة الطعام ، يبدأ النحل في عملية التطريد ، وهي بداية تكوين مستعمرات جديدة من النحل . فعند قرب خروج الملكات الجديدة من العذارى ، وهي عادة نحو ست ملكات أو تزيد قليلا في كل عام ، تبدأ الملكة القديمة وكثير من الشغالة في التجمهر عند مدخل الخلية ، ثم بعد ذلك ينشطن جميعا مرة واحدة ، وعلا الشغالة حوصلتها بالصل ، وتخرج من الخلية وتطير في الهواء في دوائر تتقدمها الملكة ، وبعد فترة تستقر الملكة على فرع شجرة أو أى شيء آخر معالي ، وتتبعها الشغالة في الغالب متجلبدة إليها بالراحة معينة هي رائحتها الملكية ، (وفي هذه اللحظة من الضول يجمعها النحال ويضمها في خلية جديدة فارغة يعدها لها ، وبذلك يحصل على مستعمرة جديدة) . بعد ذلك تنفصل مجموعة من الشغالة وتطير لتبحث عن مسكن جديد مناسب في جلد شجرة مجوف ، وعندما تجد ضالتها تعود وتحرك المجموعة كلها التي تطير وراء هذه الشغالة الكشافنة وتستقر في المنزل الجديد لتبدأ مستعمرة جديدة .

ويضم سرب النحل هذا نحو ما ٢٠.٠٠٠ فرد من أفراد النحل أو يزيد بجانب الملكة ، أى نحو نصف المستعمرة القديمة التي يظل بها باقي النحل بدون ملكة حاكمة بعد أن هجرته الملكة الأم ، ولكن بعد أيام قليلة تخرج أولى الملكات الجديدة ، ولكنها لا تحل محل أمها في الحال ، لأنها لا تستطيع ذلك من الناحية الفسيولوجية ، فهي ما تزال عذراء غير قادرة على وضع البيض ، ولا يمكنها أن تقوم بذلك إلا بعد أن تطير في الجو في « طيران التزاوج » ولذلك فإنها تنشط وتخرج من الخلية بمصاحبة بعض الشغالة والذكور التي تنافس عليها ويتزاوج أحدها معها في طبقات الجو العليا ، عندئذ تعود ثانية إلى خليتها بمصاحبة رهط الشغالة والذكور التي خرجت معها ، وفي هذه الأثناء تكون باقي الملكات في المستعمرة قد كمل نموها وخرجت من طور

حتى تتيح لها السكون التام الذي يتطلبه هذا الطور من حياتها . وبعد اثني عشر يوما أى نحو ثلاثة أسابيع من وضع البيض يفتح الغطاء وتخرج النحلة الكاملة من مبيتها ، ودورة الحياة هذه هي دورة حياة الشغالة ، ولكن الذكور تلزمها ثلاثة أيام أخرى أكثر من الشغالة لتتم ، بينما تستغرق دورة حياة الملكة فترة أقل من الشغالة بخمسة أيام .

تظل الملكة تضع بيضها منذ أوائل الربيع وحتى نهاية الخريف ، ويمكننا أن نجد النحل في جميع مراحل النمو ما بين أوائل مارس حتى أكتوبر وأكثر من ألف شغالة صغيرة تخرج من الخلية يوميا خلال أشهر الصيف وبفلس هذا المقدار أيضا يتوفى النحل المتقدم في العمر أو الذي يقع له حادث في أثناء طيرانه خارج المستعمرة وحالما يخرج النحل الذي اكتمل نموه من العيون تشرع الملكة في ملئها فوراً بالبيض ، ولا تقتصر غاية الشغالة بالصغار خلال مرحلتها اليرقية، ولكنها تعتمد حتى تتم نموها وتخرج حشرة كاملة ، فهي لا تحتاج في كل هذه المرحلة إلى الطعام فحسب ، ولكن يجب أن تظل درجة الحرارة داخل الخلية ثابتة عند درجة ٩٥ ف اللازمة للنمو ، وتقوم الشغالة بتثبيت درجة الحرارة عند هذه الدرجة ، فهي في هذا تشبه جسم الإنسان والفقاريات الأخرى الذي تظل درجة حرارته ثابتة . ففي أيام الشتاء الباردة تتجمع الشغالة بالآلاف داخل الخلية على العيون التي بها الصفار وبذلك تجعل من نفسها فضاء ، وتعطي من حرارة أجسامها الحرارة اللازمة ينمأ في أيام الصيف الحارة تحضر الشغالة قليلا من الماء وتغطي الأقراص بطبقة رقيقة منه وتروّج عليها بأجنحتها ، وهي تبدو في هذا العمل وكأنها أجهزة تهوية حيث تدفع الهواء الخارج نحو فتحة الخلية . وهذا العمل ينتج من شعور غريزي في الشغالة بدرجة الحرارة الصحية المناسبة التي يبدو أن الإنسان لا يمتلكها بمثل هذا الكمال ، يضاف إليه التعاون الوليقي بين أفراد المجتمع كله .

يتم في تنابع زمني محدد ، أي أن قيامها بكل عمل من هذه الأعمال يحدده عمرها ، وبذلك فإنها في الخلية الواحدة ذات الشفالة من مختلف الأعمار يصبح توزيع العمل بينها متوقفاً على عمرها . وقد تبين «روش» من تجاربه أن الشفالة الصغيرة حال خروجها من العذراء تبدأ المرحلة الأولى من حياتها ، فعملها خلال هذه الفترة ينقطع داخل الخلية التي لا تغادرها على الإطلاق ، فهي التي تمد العيون الشمعية التي خرج منها النحل حديثاً لاستقبال البيض الجديد ، وتعمل على تهوية المستعمرة ، وتبقى درجة الحرارة داخلها ثابتة ، وتطعم اليرقات الكبيرة في العمر بخبز النحل ، وفي يومها السادس تكون غدها البلعومية قد كمل نموها ، فتبدأ في تغذية اليرقات الملكية بالغذاء أو الهلام الملكي (وهذه هي المهمة الأساسية المنوطة بالشفالة في هذه الفترة من حياتها) ، أما في اليوم العاشر من حياتها فتكون غدها البلعومية قد ضمرت في الحجم ، وتكون المرحلة الأولى من حياتها قد قاربت على الانتهاء فتستعد لمغادرة الخلية لتصرف نشاطها في الخارج ، وفي مبدأ الأمر عند مغادرتها للخلية لا تذهب بعيداً في طيرانها ، ولكنها تقصر نشاطها حول الخلية لفترة قصيرة ، حيث تعود ثانية بعد خمس دقائق ، وهذا الطيران يقال له الطيران الاستكشافي أو التوجيهي ، وتكون قد قامت في أثناءه بفحص كل ما يحيط بالمستعمرة من معالم ، وتكون لديها انطباع واضح من البقعة التي تعيش فيها المستعمرة . وقد وجد «روش» أنه إذا أمسك بواحدة من هذه الشفالة خلال هذه المرحلة ثم أطلقها فإنها تجد طريقها إلى الخلية حتى من على بعد عدة مئات من الأمتار . وتنمي الشفالة معلوماتها عن المنطقة التي فيها المستعمرة بتكرار هذا الطيران الاستكشافي .

ومن اليوم العاشر إلى اليوم العشرين تبدأ المرحلة الثانية من حياتها ، فقد انتهى عهدها كمرربة للأطفال ، ونمت غدها الشمعية ، وعندئذ تبدأ في بناء الأقراص والعيون ، وهنا تتحول إلى بناءة ومصممة على غاية من المهارة

العذراء ، ولكن هذه الملكات تظل في بيوتها خوفاً من مهاجمة الشفالة لها ، أو خوفاً من ملكة المستعمرة الجديدة . ومن الغريب حقاً أنه في أثناء غياب الملكة الجديدة في طيرانها التزاوجي خارج الخلية لا تحاول الشفالة قتل الملكات الأخرى - حيث أن مستعمرة النحل لا يجب أن يكون فيها أكثر من ملكة واحدة - بل تطعمها عندما تمد السننها من خلال فتحة صغيرة في فضاء ميونها ، ولكن حالما تعود الملكة الجديدة سالمة من طيرانها التزاوجي تبدأ هذه الأخيرة والشفالة معها في مهاجمة هذه الملكات وقتلها ثم تلقيها الشفالة خارج الخلية .

ولكن قد يحدث أن تكون ملكة من هذه الملكات سرباً آخر فتهاجر مع عدد من الشفالة وتنتشي مستعمرة أخرى جديدة .

وعندما تبسط ملكة المستعمرة الجديدة نفوذها تبدأ الشفالة في جر الذكور - التي أصبحت الآن عديمة الفائدة بعد أن تم تلقيح الملكة التي تتلقح مرة واحدة طول حياتها - وصارت مبثاً ثقيلاً على المستعمرة - إلى خارج الخلية ، وتقاوم الذكور فعل الشفالة هذا ، ولكن هذه الأخيرة تلسعها وتعضها إلى أن تنجح أخيراً في طردها خارج المستعمرة وتركها في العراء لتموت جوعاً . ومن هنا نرى أن جماعة النحل تختلف من الجماعات الإنسانية، في أنها تتخلص من أفراد مجتمعها الذين أنهوا دورهم في الحياة وأصبحوا عالة على مجتمعهم .

وحياة شفالة النحل مليئة بالحركة والنشاط ، وأنها في ذلك العمل البناء المتواصل من يوم أن تخرج من العذراء حتى وفاتها . والواقع أنها في هذا المجال تمر بثلاث مراحل استنتجها بوضوح العالم الألماني «روش» Rothe الذي راقب النحل وعادته من خلال خلية المراقبة، فقد وجد أن جميع الأعمال الضرورية لاستمرار حياة المستعمرة (التي تدوم عادة نحو ست سنوات متصلة تتفرع في أثناءها مستعمرات أخرى جديدة منها) تقوم بها شفالة النحل خلال فترة عمرها ، ولكن قيامها بهذه الأعمال

وملاحظة شغالة النحل وهي تقوم بإعداد النشاط يمكن القيام به اذا وضعتنا علامات مميزة على صدور شغالة النحل التي نود مراقبتها ليسهل تمييزها، وقد قام العالم الألماني « فون فريتش » Von Frisch بإجراء تجاربه على هذا النحو ، وخلص الى أن النحلة عندما تغف على زهرة ما ، ولتكن زهرة البرسيم مثلا ، فإنها تتحسس بلسانها مكان وجود كيس الرحيق ، وعندما تجده تحاول ارتشاف ما به من رحيق ، ثم تنتقل الى زهرة أخرى من زهور البرسيم ، وتكرر نفس العملية ، على الرغم من وجود زهور أخرى كثيرة من حولها لا تميزها أدنى اهتمام ، وعندما تتلوى حوصلتها تظهر عائدة الى الخلية ، ثم تعود ثانية الى زهور البرسيم لتكرر نفس نشاطها السابق .

وقد تكون هناك مجموعة أخرى في نفس الوقت تترشف رحيقها من زهور البرتقال وليس من غيرها ، ومجموعة ثالثة من زهور من نوع ثالث وهكذا .. ويقوم هذا النحل في الأيام التالية بجمع الرحيق من نفس الزهور التي جمع منها في اليوم السابق وليس من غيرها ، وقد عرف فون فريتش هذه الظاهرة بأن لدى النحلة خاصية « ثبات الأزهار » وهي التي يميز إليها السبب في اختلاف تكتة العسل الذي تقتطفه من النحل في المواسم المختلفة من السنة .

وتفيد هذه الخاصية النحل والأزهار على السواء ، فباتقال النحلة من زهرة الى أخرى من نفس نوع النبات فإنها بذلك تعمل في ظروف اعتادت عليها ، فالنحلة عندما تحط على زهرة للمرة الأولى تقوم بعملية استكشاف دقيقة باحثه من كيس الرحيق بواسطة لسانها الذي تمده تتحسس به الزهرة ، وتظل تقوم بهذا المجهود حتى تقع على موضع الكيس ، ويعد أن لزود الزهرة خمس أو ست مرات تكون في النهاية قد تعلمت وعرفت بوضوح على مكان الكيس ، وأصبحت تؤدي عملها بغاية الاقن ، ومن يراقب المجهود الذي تبذله

والاقتان ، ومن مهام هذه الفترة أيضا تسلم العسل من الشغالة جامعات حبوب الرحيق الأكبر منها عمرا ، وتكمل صنعه وتخزنه في مخازن العسل ، وتسلم حبوب اللقاح من جامعات حبوب اللقاح وتضمه في العيون المخصصة له ، وهي تجمع الفضلات وأجساد النحل الميتة وتلقيها خارج الخلية ، فالتنحل شديد اشد الجرحى على نظافة منزله ، وتقوم أيضا في هذه الفترة بحراسة الخلية من اللخلاء ، وفي الواقع أن بعض شغالة النحل في هذه السن تظل منتصبة عند مدخل الخلية تتحسس النحل الذي يأتي قربها فتتعرف عليه وتسمح بدخول مواطنيها وتهاجم من تشعر أنه غريب منها حتى لو كان نحلا من أفراد مستعمرة قريبة من خليتها .

ومن اليوم العشرين وحتى وفاتها ، وهي الفترة التي تمر فيها الشغالة بالمرحلة الثالثة من حياتها ، يقتصر عملها على الحقل ، وهي تلبس حينئذ « بالنحلة الجواله » لأنها تتجول هنا وهناك بين الأزهار، جامعة الرحيق وحبوب اللقاح ، وكلما جمعت منه ما تستطيع حمله عادت الى الخلية حيث تسلمه للشغالة المختصة الأصغر منها عمرا ، وتعود لتؤدي مهمتها هذه من جديد ، وتفضل النحلة العمل دائما في جو صحو ، فإذا ساءمود الى أعمالها المنزلية وتسانف نشاطها ثانية في الحقل عندما يعود الجو ثانية الى الصفاء ، وشغالة النحل تؤدي عملها دائما دون كلل أو ملل ، من الصباح الى بعد الظهر ، وبذلك يتفصح لنا صحة المثل الدارج « نشيط كالنحلة »

دعنا الآن نتأمل شغالة النحل التي تصرف جل نشاطها خارج الخلية ، تنتقل من زهرة الى أخرى جامعة الرحيق ، اذا كانت من جامعات الرحيق ، أو حبوب اللقاح اذا كانت من جامعات حبوب اللقاح ، ثم تعود الى خليتها بغاية الدقة والاقتان ، لتفرغ حملها ثم تكسر عائدة مرة أخرى الى الأزهار لا تخطئ طريقها ولو مرة واحدة سواء في الغدو أو في الراج .

يتضح مما سبق أن النحلة تمتلك خاصيتين قويتين هما حاسة الشم والابصار ، وعلاوة على ذلك فإنها أيضا - مثل الحشرات الأخرى - ذات حساسية عالية للكيمياءات تعادل حساسيتنا نحن للشم والدوق مما . فمن قديم عرف أن الحشرات ذات حساسية كبيرة للمواد الطيارة وأن مركز هذه الحساسية هي قرون الاستشعار ، ولذلك نرى أن هذه الأعضاء التي تبرز من مقدمة الرأس تتحرك بحرية وباستمرار لتعطي الحشرة وسيلة لاكتشاف الهواء المحيط بها بطريقة أفضل من دخول جزئيات المادة ذات الرائحة إلى حجرة انفية كما هي الحال في الإنسان والفقاريات الأخرى التي تعيش على الأرض . وقرون الاستشعار ذات حساسية عالية للمس أيضا، فإنها تمد الحشرة بوسائل تختلف من تلك التي توجد في الإنسان ، وقد يكون هذا الإدراك هو جمع بين حاستي الشم والشكل معا ، تماما مثل أعيننا وأصابعنا التي تعطينا معا صورة مجسمة للأشياء نتيجة للجمع بين النظر والشكل .

وإذا فإن حاسة الشم في النحلة توجد في قرون استشعارها ، وإذا فحصنا هذه الأعضاء تحت المجهر نجد أن العقن الثماني الأخيرة تمتلك بجانب الشعر والأشواك الحسية المنتشرة عليها، عددا كبيرا من الصفائح الرقيقة، وإذا غطيت هذه العقن بغازلين أو بشمع أو بأي مادة أخرى غير منفذة، أو قطعت، فإن النحلة تفقد حساسيتها للرائحة واستخلص فون فريتش من ذلك أن فقدان حساسية الشم في الحشرة تسبب من حرمانها من أعضاء الشم ، وليس نتيجة للصحة التي تسببت عن قطع قرون الاستشعار كما كان الاعتقاد من قبل . . وعومما فقد بينت البحوث التي أجريت على مختلف الحشرات أن حاسة الشم توجد أساسا على قرون الاستشعار ، وأنه إذا فقدت هذه الأعضاء فإن هذه الكائنات تصبح غير قادرة كليا أو جزئيا على الإحساس بالروائح .

وتلعب الرائحة دورا حيويا في حياة النحل

النحلة للتعرف على كيس الرحيق سوف يُقدر الجهد والوقت الذي توفره النحلة بجمعها الرحيق من نفس نوع الزهرة وكونها ذات خاصية « ثابتة للأزهار » .

أما الفائدة التي تجنيها الأزهار من خاصية النحلة هذه فهي تحقيق عملية التلقيح ، إذ ما فائدة حبوب لقاح البرسيم لزهرة البرتقال مثلا ؟

ونحن هنا هذه الخاصية أيضا على التأمل في الكيفية التي تتعرف بها النحلة على زهرة معينة دون غيرها من الأزهار التي حولها بهذه الدقة والمهارة الجديرتين بالاعجاب ، وقد أجاب فون فريتش على هذا التأمل بعدة تجارب بارعة ، أثبت منها أن الرائحة التي تنبعث من الزهور هي أحد العوامل المهمة التي تتعرف بها النحلة على الزهرة ، فقد أثبت أن النحل يستطيع أن يشم العطر ويزيها من بعضها البعض ، ويذكرها بدقة كبيرة . فقد تعرف النحل في تجاربه على عطر زهرة السنط من بين ثلاثة وأربعين نوعا آخر من الزيوت العطرية المماثلة ، ولكنه أثبت في الوقت نفسه أنها لا تستطيع تمييز هذه الروائح إلا إذا وصل تركيزها إلى نفس مقدار التركيز الذي يستطيع الإنسان أن يتعرف عليه ، فهي إذن شبيهة بنا من هذه الناحية ، وبذلك أمكن لفون فريتش إيضاح خاصية « ثابت الأزهار » عند النحل حيث أنه لا توجد زهرتان من نوعين مختلفين من النبات لهما نفس الرائحة .

ومن تجارب فون فريتش أيضا البتانه أن النحل يمكنه تمييز لون الزهرة بجانب الرائحة، وهذا العاملان هما القوتان اللتان توجهان مجهودات شغالة النحل ، ولكن الدور الذي يلعبه كل من هذين العاملين يعتمد على زهر لون الزهرة وقوة الرائحة المنبعثة منها . وعلى العموم فقد وجد من تجاربه أن لون الزهرة هو العامل الذي يجلب النحل من بعد ، بينما الرائحة هي التي تجلبه عندما يكون قريبا منها .

على هذه الظاهرة أن النحلة يمكنها أن تشم شمعاً تشكيليًا ، وهذا تفوق على الإنسان ، حيث أن المصير القابل لقرون الاستعمار لديه وهو الأنف لا يمكنه أن يشم إلا الروائح الطيارة التي تنتقل إليه من الهواء وتنفس بسهولة إلى الفضاء المخاطي الذي يبطن أنفه ، وهذا الأنف لا يحثه على الإطلاق ما إذا كان هذا الشيء الذي تثبت منه الرائحة كبيراً أم صغيراً ، طويلاً أم قصيراً ، وهو بدون الأيمن لا يستطيع أن يدرك هذه الأمور ، لأن الرائحة لا تخبره بهذه المعلومات .

وأظهر العديد من التجارب أيضاً أن النحلة عندما وضع أمامها العسل النقي أو المخلوط بأنواع مختلفة من المواد فإن ٣٥ - ٤٠٪ منها فضلت العسل النقي ، ولم تتناول أى واحدة منها العسل المخلوط بزيوت التمنع أو حامض الكربوليك ، بينما تناولت ٢٢٪ منها العسل المخلوط بالويسكي و ٢٩٪ العسل المخلوط بالخل ، وعندما خربت النحلة بين صنفين من السكر أحدهما مضاف إليه الكينين والآخر الاستركنين اختارت ٤٩٪ منها الكينين و ٤٪ فقط الاستركنين ، ذالة على أن النحلة بحاسة ذوقها استطاعت أن تفرق بين نوعي المحلول اللذين لم يستطيع الباحث الذي قام بإجراء هذه التجارب أن يفرق بينهما ، ومن الغريب حتى أن النحلة لم تتناول السكر المخلوط بـسيانيد البوتاسيوم القاتل ، ولكنها تناولت السكر المضاف إليه فيروسيانيد البوتاسيوم وهو من الأملاح غير الضارة .

والحاسة الأخرى المهمة في حياة النحلة هي حاسة الإبصار . ففي النحلة كما جاء من قبل ، نوعان مختلفان من العينين ، مثلها في ذلك كمثل كثير من الحشرات الأخرى ، والنوع الأول هي العين المركبة أو العيون ذات السطوحات السداسية الشكل بينما النوع الثاني هي العيون البسيطة وكلاهما يتركب بطريقة مختلفة تماماً من أعضائها ، فكل عين من العيون المركبة تتكون من عدد من

— بل وفي حياة كثير من الحشرات — فالذكر يتعرف على الملكة برائحها المميزة وهي طائفة في الهواء ، وهو قادر على تمييزها من الشغالة المحيطة بها ، وأيضاً تتعرف الشغالة على بعضها البعض وعلى الأفراد الأخرى من مستعمرتها بالرائحة وكذا الأزهار المختلفة .

والانتقال من حاسة الشم إلى حاسة الذوق في الحشرات انتقال تدريجي ، ومن المحتمل أن الحشرات في كثير من الأحيان لا تدرك الشم والذوق كحاستين واضحتين منفصلتين ، وقد أوضح « مارشال » J. Marshall 1935 أن هاتين الحاستين منفصلتان ، ولكن يقبل على الظن أن الملابس الفكيكة وأعضاء الحس على السطح السفلي للشفة العليا ملائمة لتلقي الأثرات الكيميائية باللمس فقط ، ومن ذلك فإنها تؤدي وظيفة أعضاء الذوق ، أما أعضاء الحس في قرون الاستعمار فهي تدرك الروائح باللمس والشم معاً .

والصفائح الحسية الموجودة على قرون الاستعمار في النحلة ما هي إلا أفضية رقيقة تغطي قنوات ضيقة تفتح على سطح « الكيتين » Chitin المغلف لقرون الاستعمار وتمتد عبر هذه القنوات نهايات عصبية رفيعة تتصل بالعصب الشمي من المخ ، والروائح الطيارة التي تنتقل من الهواء يمكنها أن تصل بسهولة إلى هذه الأفضية ثم منها إلى النهايات العصبية في قرون الاستعمار . والشعر الدقيق الذي ينتشر على قرني استعمار النحلة بين هذه الشعر الحسية أعضاء مهمة للشم ، وهي أيضاً مزودة بنهايات عصبية دقيقة تستطيع أن تدرك الأشياء باللمس ، ولذلك فإن النحلة في ظلام الخلية تستطيع أن تلمس الأشياء لتفحصها ، وهي أيضاً تستطيع أن تتعرف عليها من بعضها البعض ، سواء كانت هذه الأشياء العيون الشمعية أو العسل أو البيض أو اليرقات ، إلى آخر هذه الأشياء ، فهي بهذه الوسيلة تتكسب انطباعات : انطباعات اللمس والشم معاً في نفس الوقت ، ويطلق

حساسية خاصة للوجات الضوئية القصيرة التي تشمل الأشعة فوق البنفسجية التي تقع خارج النطاق الذي يراه الإنسان ؛ وقد استطاع فون فريتش تمرير النحلة على أن تقرر غذاءها بالأوان خاصة ذلك بالقيام بتجارب عديدة استطاع بها أن يحدد الألوان التي يمكن للنحلة أن تراها وتميزها بوضوح ، فوجد أنه يمكنها أن تميز بين الأصفر والبرتقالي والأصفر المشوب باللون الأخضر أو بين الأزرق والبنفسجي ولكنها لم تتمكن من التمييز بين الأحمر والأسود والرمادي الغامق ، فهي في الواقع عمياء بالنسبة للون الأحمر ولكنها تستطيع أن تميز هذا الأخير إذا كان يعكس قليلا من الأشعة فوق البنفسجية .

وحساسية النحل لهذه الأشعة غريبة جدا ، فهو يستطيع أن يفرق بين سطحيين أبيضي اللون ، عندما يعكس أحدهما الأشعة فوق البنفسجية والاخر لا يعكسها ، كما ترداد حساسيته كلما كانت الأشعة قريبة من منطقة الأشعة فوق البنفسجية .

أما العيون الأخرى التي تمتلكها النحلة وهي العيون البسيطة فإنها تستجيب فقط للضوء والظلام ، ولا تستطيع تكوين صورة للوعي ، ويعتقد العلماء المعاصرون أن العيون البسيطة هي أعضاء تستخدمها النحلة للحساسية البصرية العامة .

وهناك حاسة أخرى في النحل لم يستطع العلماء التثبت من وجود أعضائها حتى الآن ، وهي حاسة السمع ، فللنحل أصوات معروفة غير الطنين الذي يصدر عن اهتزاز الأجنحة السريعة ، فالملكة تخرج أحيانا صفيرا حادا ، كما تصدر أصوات حادة من الشفافة حتى بعد أن تقطع أجنحتها . وأثبت الباحث « فاندر بلانك » أن النحل يتأثر بالنفثات الموسيقية ، فإذا كانت النفثة الموسيقية ذات ذبذبة تقرب من ٤٠٠ دورة في الثانية سببت هياج شغالة النحل في الظلية القريبة من مصدر هذه النفثة، بينما تصاب الذكور بعثل هذا الهياج إذا

العذسات الدقيقة المركزة للضوء تسمى بالسطيحات ، يوجد أسفل كل منها وحدة بصرية كاملة تتصل بدورها بالعصب البصري ، ولا يسمح المجال هنا بشرح التركيب المعقد للعين المركبة شرحا وافيا ، ولكن يكفي أن نقول أن كل سطليح سداسي ينظر في اتجاه يختلف قليلا من باقي السطليحات الأخرى وبذلك فإن الوحدات البصرية في مجموعها تكون صورة نسيفسائية غير واضحة للوعي تتكون من أجزاء عديدة منفصلة كل منها يمثل جزءا صغيرا من أجزاء الوعي ينقلها السطليح السداسي الذي يقع في ناحيتها ، وتتكون الصورة النسيفسائية من التهام أجزاء عديدة من الصور تعطي في النهاية صورة عامة للوعي تماما مثل الصور التي تنشر في الصحف ، وتتكون من عدد كبير من النقاط المضيئة والمظلمة المختلفة في شدة أضائها ، ووضوح الصورة التي تراها الحشرة يعتمد على عدد الوحدات البصرية المكونة للعين تماما كصورة الصحف التي كلما زاد فيها عدد النقاط ودقتها كانت الصورة أكثر وضوحا، وترى الحشرات الأجسام القريبة منها بوضوح تام ولكن كلما بعثت المسألة بين الجسم والحشرة تصبح الصورة غير واضحة والعين المركبة تدرك أيضا حركة الأجسام الواقعة في مجال رؤيتها وخاصة إذا كانت هذه الحركة مفاجئة ، ولكن الحركة البطيئة لا تدركها الحشرة ، ويمكن للعين الحشرة أن تكيف نفسها للرؤية في النهار أو في الليل بواسطة تركيب يعمل على تنظيم كمية الضوء الذي يقع على كل وحدة بصرية ، وتأثير هذا يشبه ضيق حدة العين واتساعها في الإنسان ، وهذا التركيب مبادرة من مسادة صبغية تتجمع أو تتفرق حول الوحدة البصرية حسب كمية الضوء الواقعة عليها .

هذا فيما يتعلق برؤية النحل المثلثات ، أما بالنسبة للألوان فإنها تستطيع أن تميزها بدليل أنها تنجذب للأزهار ذات الألوان المتعددة الزاهية ، ولكن لا يتعدى إدراكها هذا نطاق جزء الطيف الذي يراه الإنسان ، فهي ذات

تعرف على علامات معينة بجانب خليتها ، وتذكر المسافة التي تفصل هذه العلامات عن الخلية . والدلى يقود النحلة الى الخلية رائحة المستعمرة المميزة عن رائحة باقي مستعمرات النحل ، ولون الخلية اذا كانت مطلية بلون تميزه . والنحلة الشغالة تفرز رائحة من غدد خاصة في جسمها وفي وقت راحتها داخل الخلية وخاصة في اثناء الشتاء ترى وهي متجهة براسها نحو فتحة الخلية ويظهرها متجهة الى اعلى تنثر الرائحة وهي تهز أجنتها ، وعن طريق هذه الرائحة مهما كانت ضعيفة التركيز تستطيع النحلة ان تعرف على خليتها .

وتهندى النحلة أيضا الى منزلها علاوة على ذلك من طريق خاصية التوجيه الجوسلى للضوء *Light Compass Reactoin* ، وهي القدرة على ارشاد نفسها الى مشها بواسطة اتجاه الشمس، وقد لوحظ هذا السلوك عن قرب في النمل اكثر منه في النحل، فالنمل يسير في خطوط مستقيمة ، وذلك بتحركه بحيث يعمل زاوية محددة مع اشعة الشمس ، فمثلا اذا اسرنا نملأ لمدة ساعة او تزيد في اثناء رحلة من رحلاته ثم أطلقناه بعد ذلك فإنه يشاهد وهو يتبع طريقا يعمل زاوية مع الطريق الاصلى مساوية للزاوية التي تحركتها الشمس في اثناء ذلك الوقت وقد تتبع كثير من العلماء هذا السلوك في النحل واهتدوا الى ان شغالة النحل الصغيرة تتعلم خلال طيرانها التوجيهي الاول بجانب المعالم المميزة في محيط خليتها تحركات الشمس في مكان اقامتها ، وقد ثبت لون فريش أن هذه المخلوقات ذات قدرة فلكية اخاذة ، فقد حبس مستعمرة نحل في قيو مظلم طوال فترة الصباح ، وأخرجها بعد الظهور ، وسمح للنحل ان يطير بحرية ، فوجد ان الشغالة الصغيرة قد لاحظت تحرك الشمس بعد الظهيرة ، وبعد ذلك اخذ هذه المستعمرة الى مكان غريب عنها كلية ، وأطلق النحل طوال النهار ، فوجد ان النحل قد تمكن في الحال من معرفة مكان مستعمرة الجديدة ، وذلك باستفادته من خبرته السابقة عن تحركات الشمس بعد

اقتربت النجمة من ٤٩٠ - ٥٠٠ دورة في الثانية ، ومع ذلك لم يستقر الراى حتى الآن على ما اذا كانت النحلة ذات حاسة للسمع ام لا .

وحاسة اخرى من حواس النحلة لم يعرف ايضا كنهها حتى يومنا هذا، هي حاسة الوقت التي يمكن من طريقها للنحلة تحديد الوقت بشكل دقيق، وقد قامت بيلنج *Beling* عام ١٩٢٩ بدراسة هذه الحاسة وأجرت تجارب بارعة في هذا المجال، أمكنها من طريقها ان تدرب النحل على ان يتناول طعامه في وقت محدد من النهار، وتعلم النحل بعد يوم واحد من التمرين ان يأتي يوميا في نفس الميعاد لتناول الطعام ، ووجدت أيضا من تجاربها ان العوامل الجوية من اضاءة وحرارة ورطوبة وغيرها لا تؤثر في هذه الحاسة عند النحل ، وحتى الآن أيضا لم يتمكن العلماء من تحديد العضو الداخلي الذى يسبب هذه الظاهرة عند النحل .

والواقع ان حاسة الوقت ذات اهمية بيولوجية عند النحل ، حيث تتوافق في نشاطها مع افراز بعض الأزهار للرحيق ، أو إطلاق هذه الأزهار لعبوب اللقاح التي لا تقوم بها الا في اوقات محددة من اليوم . وسرعان ما يتعلم النحل في الطبيعة ان يبحث من غذائه عن الأزهار في تلك الأوقات ، وبذلك يوفر على نفسه الكثير من مشقة البحث عن الغذاء في غير هذه الأوقات . وقد وجد فون فريش وغيره من الباحثين ان شغالة النحل التي لا تخسرج لجميع الغذاء تقضي بقية يومها في حالة استرخاء داخل الخلية .

ولنتقل الآن الى الكيفية التي تثق بها النحلة طريقها خارج الخلية ، فقد راينا النحلة الصغيرة السن عندما تقوم بأول رحلة لها خارج مسكنها تقوم بمدة طرانات تمهيدية استكشافية قرب مسكنها ، تدرس خلالها موقع الارض المحيطة وخاصة الاشياء الظاهرة بالنسبة لوقع الخلية ، كما تستغل اللون والرائحة في هذا المجال ، فهي تستطيع ان

مراقبته، وبذلك استطاع أن يستنتج أن النحلة الأولى استطاعت أن تخبر أخواها بمكان الرحيق ، وعندما عادت هذه الشغالة بعد أن حصلت على ما تريد قامت بنفس الحركات التى قامت بها النحلة الأولى ، وبدأت هي الأخرى ترقص لتعرف مزيداً من الشغالة عن مكان وجود الشراب ، وهكذا .

وبسلسلة أخرى من التجارب أمكن للباحث أن يميز رقصتين رئيسيتين للنحل . ورقصة النحلة ما هي إلا اهتزازات معينة من جسمها، أما أن تكون حركة مستديرة وتعرف بالرقصة الدائرية وفيها تتحرك النحلة في دوائر صغيرة متتالية مرة إلى اليمين في اتجاه عقرب الساعة، ثم تعكس اتجاهها إلى اليسار عكس اتجاه عقرب الساعة ، ثم إلى اليمين وهكذا ، والرقصة الثانية هي « رقصة الدنب » وفيها تتحرك النحلة في طريق مستقيم للأمام لمسافة قصيرة، ثم تعود إلى النقطة التى بدأت منها بطريق نصف دائرى ، ثم تمشي في طريق مستقيم ، لتعود ثانية في نصف دائرة ولكن من الناحية الأخرى ، راسمة بذلك الشكل (8) وتظل تكرر هذه الحركات عدة دقائق مع تحريك بطنها مثل الدنب الذى تفعله عادة في أثناء تحركها في الخط المستقيم أى في أثناء الجرى المهتر الدنب .

وبعد عدة دراسات شاقة وجد فون فريتش أن النحلة عندما تخرج إلى الحقل لجميع الغداء ، سواء من رحيق الأزهار أو حبوب اللقاح تعود إلى الخلية وتفرغ شحنتها ثم تبدأ في ممارسة الرقصة المستديرة إذا كانت الأزهار التى جمعت منها قريبة من الخلية ولا يزيد بعدها عن ١٠٠ ياردة ، ولكن إذا زادت المسافة عن ذلك فإنها تمارس رقصة الدنب ، وهي تستطيع بهذه الرقصة أن تحدد المسافة الحقيقية بين الأزهار والخلية بعد الدورات الكاملة للشكل (8) . فإذا كان بعد الأزهار عن الخلية ٣٠٠ ياردة فإنها تدور ما يقرب من ٢٨ دورة كاملة في الدقيقة ولكن إذا زاد البعد أكثر من ذلك حتى ٣٠٠٠ ياردة فإنها تدور عدداً أقل

الظهيرة . وقد أظهرت النحلة أنها لا تفتقر إلى الذكاء ، وأن الله وهب لها ملكة التجربة والتذكر ، ولعبت الوراة التى اكتسبتها من الأجيال السابقة دوراً هاماً في هذا المجال .

وليست النجوم ولا القمر بذات فائدة للنحلة كما هي للإنسان في هدايتها إلى الطريق الصحيح ، حيث أنها تمضي الليل داخل خليتها ولكنها تحت السماء الزرقاء في وضوح النهار تفوق قدرتها قدرة الإنسان ، فإن مينيها تستطيع أن تنفعل بالضوء المستقطب واهتزازاته وهذا يفوق قدرة الإنسان ، فهي بهذه الخاصية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالسماء الزرقاء ، ويقدريها على رؤية الضوء المستقطب منها ، فإنه يمكنها أن توجه نفسها حتى ولو لم تكن ترى الشمس تماماً، وكيف يمكن للنحلة أن تفعل ذلك ؟ هذا ما لم يجيبنا العلم عنه حتى الآن .

وقد يجب بعضنا أن يعلم أن للنحلة لغة تفاهم بها ، فهي من الحشرات التى تمارس الحياة الاجتماعية ، حيث المصلحة المشتركة والصبر المشترك ، وهذا التفاهم امر ضرورى ليتم التوافق والانسجام بين الأفراد جميعاً ، ويكون له أكبر الأثر في تقدم المجتمع وتطوره ، وكان لفون فريتش الفضل في اكتشاف لغة النحل في نطاق بحثه عن « العوامل التى تساعد على تنسيق حواس النحلة » .

وجد فون فريتش Von Frisch أن النحلة عندما تقع على مصدر غذاء غني ووفير فإنها بعد أن تعود إلى الخلية وعند دخولها تقوم بما أسماه « بالرقص » بين الشغالة الأخرى التى تراقبها بانتيباه شديد ، وكانت تتوقف عن هذا الرقص بين الفنية والفنية وتعطي بعضاً مما جمعتها من الرحيق إلى الشغالة المحيطة بها . وبعد فترة لاحظ أن الشغالة أخذت في مفادرة الخلية وذهبت إلى المكان الذى أخبرت به دون أن تخطئ ، لتحصل على نصيبها من الرحيق بسهولة . وقد ميز فون فريتش النحل الذى استخدمه في تجاربه بعلامات خاصة ليسهل

لماذا نعتها الأقدمون بالكثير من الصفات الحميدة التي لم يحط بها أي حيوان آخر ، وقد نقل الديميري في كتابه « حياة الحيوان الكبرى » عن أحد حكماء اليونان الذي نصح تلاميذه قائلا « كونوا كالنحل في الخلايا » قالوا : وكيف النحل في الخلايا ؟ قال : « انها لا تترك عندها بطالا الا نفعه وأبعدته واقصته عن الخلية ، لانه يضيق المكان وينفى الصل ويعلم النشيط الكسل » .

وقد تقدمت في ختام القرن التاسع عشر البحوث عن سلوك النحل وعادته بقدماء كبير ، وأوضحت هذه البحوث أن النحلة لا تبصر ولا تعقل ، ولكنها تقوم بأعمالها الرائعة بطريقة غريزية بحتة ، فانه يحدث في جسمها من التغيرات الداخلية ما من شأنه أن يدفعها للقيام بنوع من العمل في فترة محددة من الزمن ، وسبق أن بينا أن الوظيفة التي تؤديها خلال المراحل الثلاث من حياتها تعتمد اعتمادا تاما على النضوج الفسيولوجي لعددها المختلفة التي تفرز أنواعا خاصة من المواد الكيميائية التي تؤثر هذه في حياتها وسلوكها . واذن فإن العوامل الفسيولوجية الداخلية وبطلق عليها اسم « العوامل المؤثرة » تكون من نتيجتهما أفعال تعرف باسم « الاستجابات » تقوم بها النحلة دون وهي أو تفكير .

وهناك بجانب هذه العوامل الفسيولوجية الداخلية عوامل أخرى خارجية تصرف « بالمؤثرات الخارجية » تؤثر على سلوك النحلة ، ونتيجة لذلك تقوم بأفعال تعرف عند الباحثين « بالافعال المنعكسة » لأن المؤثر الخارجي يؤثر على الليقة العصبية الموجودة داخل أعضاء الحس فيولد احساسا ينتقل من خلالها إلى المخ أو إلى أي عقدة عصبية داخل الجسم - وذلك تبعاً لطبيعة العامل المؤثر - وعند ذلك يرسله المخ في ليفة عصبية أخرى إلى العضلات فتقبض ونتج من ذلك الحركة المرئية للحشرة .

وليس للارادة أو التفكير أي دخل بمثل هذه

من الدورات قدره بـ ٩ دورات فقط . ووجد أن النحلة أيضا بالإضافة الى ذلك تستطيع أن تخبر بقية الشغالة عن الاتجاه الذي تسير فيه حتى تصل الى الأزهار ، فإن النحلة المخبرة اذا قطعت الخط المستقيم في انثناء ممارستها لرصة الذئب ميوديا الى أعلى كان ذلك دليلا على وجود الأزهار في اتجاه الشمس في هذا الوقت ، أما اذا قطعت الى الأسفل فتكون الأزهار واقعة عكس اتجاه الشمس ، وإذا تحركت النحلة الى يسار الخط العمودي بزاوية خاصة كانت الأزهار موجودة في اتجاه يمتد بنفس الزاوية الى يسار الخط الوهمي الممتد بين الشمس والخلية ، وقد تكون الشمس محتجة بالسحب ومع ذلك لا يؤثر هذا في قدرة النحلة على تحديد الاتجاه الذي تسير فيه سعيها وراء الغذاء ، وقد رأينا أن بقية النحل عند عودة النحلة المستكشفة الى الخلية تأخذ في مراقبتها بانتباه زائد ، حتى تتمكن من استيعاب المعلومات التي توصلها الى المكان الصحيح دون أن تضل الطريق .

وهناك اختلاف طفيف بين رقصات جامعات حبوب اللقاح وجامعات الرحيق ، فبينما ينقل الاثنان المعلومات بنفس نوع الرقص ، نجد أن جامعات الرحيق تقرون رقصاتها برائحة الزهور الخاصة التي تعلق بجسمها ، فتشتمها الشغالة الأخرى وتتعرف عليها ، أما جامعات حبوب اللقاح فانها تضرع معها الى الخلية قطعة من الزهور التي زارها ، لانها لا تحمل رائحة من حبوب اللقاح تستطيع أن تميزها زميلاتها .

وتستطيع النحلة أيضا أن تخبر بالرقص علاوة على الرحيق وحبوب اللقاح من مصادر الماء ، ورقص النحل المستكشف وقت التطريد ما هو إلا اخبار بالعثور على المكان المناسب لبناء مستعمرة جديدة .

وبعد فان حياة النحل مليئة بالأعمال الرائعة التي تدل في مظهرها على الحكمة والتبصر بعواقب الأمور ، وبذلك نستطيع أن ندرك

«بومبيلس» Pompilus ، فأننى هذا الزنبور تحفر حفرة صغيرة في الأرض أو عشا تضع فيه بيضها، ولكنها قبل أن تفعل ذلك تذهب وتضطاد عنكبوتا لتتغذى على يرقاته ، تلمسه وتشله ثم تعلقه من وسطه في فرع نبات أو شجرة ربما تنتهى من حفر العش في المكان المناسب ، وفي إحدى المرات استبدل الباحثان العنكبوت المخدر بعنكبوت آخر غير مشلول ، ولكن عندما فرغت الأنثى من حفر العش لم تعثر العنكبوت الجديد أى اهتمام ، وصارت تبحث عن عنكبوتها هي ، وعندما لم تجده عادت فاصطادت عنكبوتا آخر وعلقته في النبات ، وذهبت من جديد لتحفر حفرة أخرى على الرغم من وجود الحفرة التي قامت بحفرها سابقا . من هذا استنتج الباحثان أنه نتج من تدخلها في سلوك الأنثى أن قامت هذه الأخيرة دون تفكير بأداء العملية بجميع خطواتها من البداية ولم تستغل المجهود السابق الذي قامت به . . وسلوك الأنثى هذا يبين أن هذا الترتيب يقع دائما في دورتها الغريزية ، ولم تستطع أننى الزنبور أن تتواءم مع الظروف المتغيرة التي واجهتها ، وأن دورتها الغريزية هذه تدفعها عند الانتهاء من عمل من الأعمال إلى القيام بالعمل الذي يليه ، وهكذا .

ومع ذلك وجد بعض العلماء أن في سلوك النحل بعضا من المرونة يمكنها بها أن تكيف أفعالها بدرجة شئيلة ، نتيجة الخبرة والتجربة . فقد وجد بتلر Butler أنه إذا أدار الخلية بمقدار ٩٠ م عندما تكون شفافة النحل المتجولة في الحقل فإن هذه الأخيرة عندما تعود تهبط في المكان الذي كان به باب الخلية الذي اعتادت أن تدخل منه ، وعندما لا تجده تجد في البحث عنه في كل اتجاه إلى أن تكتشف مكانه الجديد ، وفي رحلاتها التالية تهبط على الجدار مكان الباب القديم ثم تجري حوله لتصل إلى الباب في موضعه الجديد ، وراحت تفعل ذلك حتى استطاع النحل أن يتعلم مكان الباب الجديد فطلق بطير إليه مباشرة .

استنتج بتلر Butler من ذلك أن

«الأفعال المنعكسة» فهي تحدث بطريقة آلية محضة ، وغير مثل لذلك الفرائشة التي تنجذب إلى مصباح مضيء وتضطدم به فتحترق بفعل حرارته . والمؤثرات الخارجية في النحلة - كما سبق - توجد على قرون الاستشعار وفي الملامس التكتية ، وفي الأعين ، وعلى سطح الجسم الخارجي ، وفي الأعضاء الحسية الأخرى التي لم تكتشف بعد ، ويفضل هذه المؤثرات التي تستغلها في حياتها اليومية تهدى النحلة إلى مصادر الغذاء ومكان المستعمرة ، وفي جولاتها بين مختلف الأزهار وغيرها من مختلف الأعمال النشطة في حياتها . فكل أفعال النحلة هذه استجابات مباشرة صادرة عن جهازها العصبي إلى العضلات المختلفة نتيجة لمختلف المؤثرات الخارجية ، وبذلك نصل إلى «الأفعال المنعكسة المركبة» التي أعرب عنها هوبرت سينسر بلفظ «الغريزة» واعتبر هذا الباحث أيضا أن السلوك الغريزي ما هو إلا مجموعة من الاستجابات التي تنبثق من الكائن الحي بفعل البيئة ، ويؤكد كثير من العلماء هذا الرأي ، فهم يعتبرون أن سلوك الحشرات عامة أن هو إلا «أفعال منعكسة مركبة» أي «أفعال غريزية» ناتجة عن عوامل خارجية هي الضوء والحرارة والجاذبية وملامسة أجواء التربة أو النبات وغير ذلك ، فاستجابة الحشرة لهذه العوامل ، وبذلك يكون سلوك النحلة بين الأزهار ، كما عبر عنه كارنر ، مثل سلوك يرادة الحديد في المجال المغناطيسي . واثني اللاباية التي تطير إلى أكوام القمامة لتضع بيضها تجذبها رائحة القمامة ، فينتقل الدافع وهو الرافعة إلى المراكز العصبية التي تسيطر على الأعضاء الجنسية وعضو وضع البيض ، وبذلك تكون عملية وضع البيض هي من «الأفعال المنعكسة»

ومن التجارب الطريفة عن الأفعال الغريزية في الحشرات والتي هي مجموعة من الأفعال المنعكسة المعقدة ما قام به الأخوان بيكام Beckam على بعض أنواع الزنابير الانفرادية من جنس

النمط المعروف عنها ، من ذلك ما تقوم به أنواع الفراشات عند وضع شراقتها حيث ان اليرقة تعرف تمام المعرفة كيف تصنع شراقتها الخاصة بها والتي يتميز بها نوعها .

وعموما فان الأعمال الغريزية في الحشرات تهدف الى حماية الفرد في أثناء حياته أو حماية النوع من الانقراض .

وبعد ، اليس ذلك كله « تدبير العزيز الحكيم » الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هداه » . « إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » . صدق الله العظيم .

الشفالة من طريق التجربة استطاعت ان تجد باب الخلية الجديد وتطير اليه مباشرة .

ويكتسب الحيوان الأعمال الغريزية بالوراثة عن أبويه فينقلها بدوره الى أبنائه من بعده ، ولذلك تسمى الغريزة في النوع الواحد على نمط واحد وبطريقة متشابهة في طريقها المرسوم من جيل الى جيل . والعديد من التجارب التي قام باجرائها كثير من الباحثين يدل على ذلك دلالة واضحة فقد عزلوا انواعا معينة من الحشرات وقاموا بتربيتها بعيداً عن بقية أفراد نوعها ، فقامت بأعمالها الغريزية على نفس



- المراجع -

- Butler, C.G. The honeybee. Oxford University Press. Oxford.
- Butler, C.G. & Free J.B., 1959: Bumblebees. Collins. The New Naturalist London.
- Frisch, K. Von., 1950: Bees. Their Vision chemical senses and Language. Cornell University Press. Ithaca. N.Y.
- Michner, C.D. & M.H. 1951, American Social Insects. D. Van Nostrand Co., Inc., New York.
- Richards, O. W., 1961: The Social Insects. Harpner & brothers, New York.

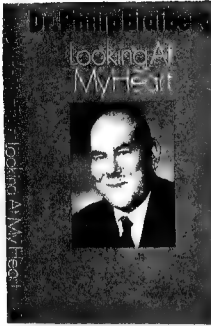
عالم النحل : تأليف جلبرت نيكسون - ترجمة الدكتور علي المرسى
الناشر دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٦١ .

حياة النحل : تأليف ا . د . ايميل - ترجمة الدكتورة سميرة الزياتي
الناشر - دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٦٢ .

المجتمعات النحلية : تأليف هارولد باستن
الناشر : مؤسسة سجل العرب - القاهرة ١٩٦٢ .



عرض الكتب



نظرة الحـ قلبي

✽ عرض وتحليل

د. حسان حنوت

هذا الكتاب يحوي بين دفتيه قصة قلب.. وهو في الوقت ذاته سجل واف لاحدى وثبات الطب الرائعة في صراعه الدأب لدفع المرض والحفاظ على الحياة .. ومؤلف الكتاب هو الدكتور « فيليب بلايرج » لم يؤلفه بصفته طبيباً بل بصفته هو المريض .. ان الدكتور فيليب بلايرج هو طبيب الاسنان الذى لم يصب من الشهرة طبيباً عشر معشار ما اصاب منها مريضاً .. والذى تركزت عليه الاضواء فى المقامات الطبية ، كما انشغلت به الاوساط الاعلامية في العالم كله ، حين اجريت له عملية جراحية في مستشفى « جروت شور » بجنوب افريقيا ، شق فيها صدره وانتزع قلبه المريض ليستبدل به قلب جديد سليم ، ينض بالدم في عروقه ، وينسا له في امله ، ويصل ما بينهما بين الحياة بل وبين الصحة ، فكانها جدد بينه وبينهما عقداً كاد ان ينقض !

مفارقة

حياة صمدت به في انتصارها على الموت ، وسجل فخار بمجرة علمية انتزعت رجلاً من برائن الموت ، وأمل بدا بعيداً ولكنه من بعد طول معاناة اخذ يختلج ثم يتحرك ثم ينمو ويبدأ ويبدأ حتى تارجح ثم ترجع ثم تحقق ..

ولقد وجدنا ونحن نختار هذا الكتاب لتقديمه الى القراء اننا ازاء مفارقة جابهتنا وان لم نثنتنا من عزمنا .. فالكتاب نشيد

✽ تاليف : الدكتور فيليب بلايرج - الناشر : دار هاشمان

ثم دقت له اجراس النصر وهتفت له الدنيا
مباركة مهنئة .. ثم .. نعم .. وهذا هو وجه
الخرج .. ثم مات البطل ا

نعم .. مات الدكتور « فيليب بلايرج » ..
مات من بعد ان انتصر على الموت .. مات
الدكتور « فيليب بلايرج » بعد ان عاش ٩٤
يوما بقلب رجل آخر .. ٩٤ .. يوما مليئة بنور
الامل وظلام اليأس .. وبدأت بعملية جراحية
لزرع قلب .. تلاها ما يتلو اية زرعة من رى
وسقيا وتعهده بالرحاية والعناية ، حتى أنبتت
وازهزت واثمرت .. فلما أخذت زخرفها
وازمنت امتدت يد الموت فاقطعتها .. ولكن
بعد ان خلفت آثارا باقية خالدة .. أما آثارها
الطبية فسنعرض لطرف منها بعد قليل ..

وأما آثارها الأدبية فمنها هذا الكتاب الذى
تقدمه ، ولعل الكتاب وحده قد يكفل لورثة
الدكتور « بلايرج » من الرزق ما عجزت
ثلاثون سنة من ممارسة طب الأسنان أن تهىء
منه كثيرا أو قليلا ..

هي مذكرات الدكتور « بلايرج » اذن وكيف
انتصر على الموت على حين كان الموت بانتظاره
على الناصية القليلة .. ناملها ونامل أعقابها
فتعلمنا في سهولة ويسر بقول الشاعر العربي
القديم طرفة بن العبد :

لصبرك ان الموت ما آخطا الفتى

للكاطول المرخى ونشياه باليد

خرج آخر

ولمة خرج آخر طالمني به الكتاب ، بل كاد
يصدني من تقديمه .. ان الدكتور « بلايرج »
يهودى صهيونى ، والكتاب مطعم بانار ذلك
أوله الى آخره .. ليس في تاريخه لجديه
ووالديه وزوجته وذريته فحسب .. ولكنه
حتى وهو يتحدث عن النواحي الانسانية
الجميلة النبيلة لا ينسى ان يذيق فيما يقدمه
للقرء دعاية صهيونية مستورة ... كيف

انشأه أمه متدينا لا يأكل الا لحم الكوشير ..
وكيف بُنيت زوجته عند موت ابنها الأول نباتا
جديرا ببنات اسرائيل .. وكيف تهيات بنته
لامتحان ليسانس الآداب لولا ان بدأت حرب
الأيام الستة في اليوم السابق ليوم الامتحان
فتركت الامتحان وطارت الى اسرائيل لتؤدى
واجبها مع الآلاف والآلاف من شسباب
يهود العالم .. بل انه في أعقاب عملياته
الجراحية المثيرة يشد اليه انتباه العالم وثابه
آلاف الخطابات من اقطار العالم تحمل عبارات
التشجيع وأمنيات الشفاء ، فيجدها فرصة
سخية ليؤلف مجموعات زاخرة من طوابع
البريد يهديها لهواة جمع الطوابع من جنود
اسرائيل المصابين في حرب الأيام الستة .

على اننا آثرنا أن نجمل ذلك تحت أصين
قرائنا وأن ننبه اليه ، عملا بالرى « اعرف
عدوك » .. ولعلنا نتعلم منه بعض الأشياء !!

المرض .. والمرض

ونود أن نتحرر من متابعة الكتاب وفق
تسلسله الزمنى .. فالكتاب يكتب تاريخ
حياته وقد جعل ذلك هدفه الأول ، ورغم أن
القضية الطبية فيه هي الزبدة والغاية من
وجهة نظر القارئ ، الا انها في نظر المؤلف امر
عارض ينبغي أن ينتظر دوره ريثما يتم المؤلف
حديثه عن جده وجدته ، وأبيه وأمه ، وكيف
انتقلت اصوله من بولندا ليصبح مواطنا في
جنوب افريقيا صنامته طب الأسنان .. ولقائه
بزوجته ، وحياتهما من بعد .. فما نصل الى
العملية الا حوالى منتصف الكتاب ...

المهم لدينا أن نذكر أن الدكتور « بلايرج »
بعد شباب رياضى وصحة وأفيه ، فوجيء في
الخمسينات من عمره بهذا المرض المبروف
بالدبة الصلابة .. او تجلط الدم في أحد
شرابين القلب . فما هو هذا المرض ؟

ان كل عضو بل كل جزء من أجزاء الجسم
يستقبل الدم تالى به الشرايين آتيا معه

داخل الشريان حتى تفسد البطانة الشريان فتقع بذلك الواقعة !!

ذلك بأن القطعة من القلب التي كان ينفذها الشريان المسدود يمتنع عنها مددها من الدم فكانما انخسقت صلتها بأسباب الحياة .. فإذا كان الشريان المسدود فرعاً صغيراً على أطراف الشجرة الشريانية وتفرعاتها العديدة ، فالضسارة صغيرة لأنه لا ينفذ إلا مساحة من القلب صغيرة .. أما إذا أصاب الانسداد شرياناً رئيسياً كبيراً فالضسارة فادحة ومنهم من يموت في الحال أو في القريب ..

ومن بين هذين الطرفين مدى واسع ..

ولقد تكرر الجلطة مرة بعد مرة في شرايين أصغر أو أكبر .. وكل منها تدفع بالآثارها حصتها التي كانت تنفذها من عضلة القلب .. وكل قطعة من عضلة القلب تحل بها هذه الضسارة فانها — إن امتد الأجل — تفقد فتوتها ونضارتها كما تدل ورقة التيسات ، وتستحيل من عضلة نابضة إلى رقعة ليفية خاملة .. ويصبح الكل العضلي الكبير أي القلب مثل الجيش الذي هلكت بعض وحداته .. قد يتأثر احتياطيه فلا يعجزه أن يقوم بالجهد العادي ولكن يؤوده الجهد العنيف .. وقد يزيد درجة فينال منه الجهد العادي ، وهكذا حتى ينفذ في أمور الحياة العادية ، بل الحياة المريحة ، بل الحياة حتى على الفراش : جهداً جهيداً على قلبه الكليل !

وعلى هذا النمط سار قلب مريضنا الدكتور «فيليب بلايرج» .. وهذا ما آل إليه أمره .. مرت الأيام وقلبه يخسر معركة بعد معركة ، رغم ما كان يبذله أطباؤه مما استطاع الطب أن يصل إليه من أسعاف ومن علاج . واضطر إلى التقاعد من عمله وبيع عيادته والتفت زوجته بوظيفة لتكفل لقمة العيش .. وألزم مريضنا فراشه ..

ومع ذلك أخذ قلبه يلدو .. الدم يرد من الرئة للأذين الأيسر للبطين الأيسر .. ولكن هذا

بالحاجة المطلوبة من الأكسجين والغذاء ، فإذا أخذ حاجته من هذين أودع الدم نفاياته وفصلاته ليحرق بها في الأوردة عائداً إلى القلب مرة أخرى .

أما القلب نفسه فاشبه شيء بمضختين ملتصقتين تعملان معاً .. تتكون كل منهما من غرفة جامعة بأسفلها غرفة دافعة ..

أما الغرفتان الجامعتان (الأذنيان) فتستقبل اليمنى منهما الدم الوارد من الرئتين بعد أن نفاه التنفس من الغاز الصادم (ثاني أكسيد الكربون) وذوب فيه ما يشبعه من غاز الأكسجين الضروري للحياة ، ويمر هذا الدم النقي النقي إلى الغرفة الدافعة اليسرى ..

وكل نبضة من نبضات القلب هي انقباضة للغرفتين (البطينين) معاً لتضخ كل منهما ما فيها من دم : اليمنى بدمها إلى الرئتين ليتنقى ويجمع الأكسجين ويعود للغرفة الجامعة اليسرى .. واليسرى بدمها إلى كافة نواحي الجسم ليعطيها ما فيه من خير (وأكسجين) ويعود بنفاياتها من جديد إلى الغرفة الجامعة اليمنى .. وهكذا دواليك يعمل القلب دؤوباً مجداً لا يتوقف ولا يكل منذ كان الإنسان جنيناً لم يدخل بعد هذه الحياة حتى يصير جثة أخرجه الموت من هذه الحياة !

وحال القلب ككتلة من اللحم العضلي كحال غيره من لحم الجسم وعضله ، محتاج للأكسجين والغذاء تأتي به شرايين .. منتج لعوادم ونفايات تذهب بها الأوردة .. فواهب الخير محتاج هو نفسه إلى نصيبه من هذا الخير ليستمر في وظيفته في هبة الخير وتوزيعه ..

على أن أسباباً — يعلم الطب اليوم بعضها ويبعث وراء بعضها الآخر — قد تتجمع على مدى الأيام ، وتعمل عملها في العاجل أو في الأجل ، فإذا جدار أحد شرايين القلب أو طلائه الداخلي يصاب ، وإذا الدم الذي أرادته الحياة أن يسرى سائلاً جارياً في أوعيته يتخثر ويجمد

يعرض الطفل بالحصبة مثلاً - وغيرها من الامثلة كثير .. فيكون من أهم اسباب مقاومتها ان الخلايا الليمفاوية في دمه تفرز مواد مضادة لجرثومة الحصبة .. حتى يشفى الطفل بفضل هذه المواد .. التي تبقى في دمه فتكتسبه « مناعة » تبقى معه فتعصمه من شر تلك الجراثيم ان هاجمته مرة أخرى .. ومن « المناعات » ما لا يستمر الا قليلا (كالمناعة من الانفلونزا) ومنها ما يستمر طول الحياة ، ومنها ما هو بين هذا وذاك باختلاف الجرثومة السبب .

بل ان الطب قد استخدم تلك الخاصة في الوقاية من الأمراض قبل وقوعها .. فبدلاً من أن يترك الانسان ليعرض حتى يكتسب مناعته (وقد تغلبه الجراثيم فيموت) ، صار الطب يأتي بتلك الجراثيم فيقتلها أو يضعفها ضعفاً شديداً ثم يسعى بها الى الجسم ، فلا تحدث به مرضاً ، ولكن مادتها تنبه تلك الخلايا الليمفاوية الى افراز تلك الاجسام المضادة التي تقضي على تلك الجراثيم ان وجدت سبيلها الى الجسم بالعدوى في المستقبل ولو حية قوية ناشطة .

وما التحصين ضد الجدري او سائل الأطفال او التيفود او الكوليرا او غيرها مما يعرفه الناس ويمارسونه الا امثلة من ذلك .

هذه هي النعمة الكبرى .. ولكنها احياناً تكون مشكلة كبرى كذلك ! ذلك ان هذه الوسائل الدفائية تعمل في اتجاه واحد ..

فاذا انت اجريت عملية نقل دم الى انسان من انسان ذي فصيلة دموية مختلفة، فالاجسام المضادة ستهلك الخلايا الدموية الوافدة لايشفع لها أن الطبيب يعطيها بنية العلاج من التزيف .

ومن حسن الحظ في نقل الدم أن من السهل الحصول على الفصائل الدموية المتشابهة والتأكد من توافرها قبل القيام بالعملية ..

اما فيما يختص بزورغ الأعضاء فالامر أعقد من ذلك ..

لا يحسن ان يدفع بالدم الى الجسم .. فيزدحم في الرئتين .. ويرشح الماء الذي في الدم ليملاً حويصلات الهواء التي جعلت لتمتلي بهواء التنفس، ويحس الرجل احساساً الفریق ، وتلاهت أنفاسه يزيد يخرج من فمه ، ويشعر بالموت الداهم ، وتتقارب هذه الثوبيات تصيبه حتى وهو نائم ، حتى يصبح الموت له املاً يتلذذه من هذا العذاب .. ولكن في كل مرة يلقى الأطباء بظلمهم في معركة تدور رحاها بينهم وبين الموت ، ويكادون يستطيعون ان يستنقذوه : لا صحيحاً معافى ولكن خطاماً حياً ينتظر المرة التالية بقلب أفسح علة ، وأمل أكثر قلة ...

وعلى هذه الحال نبصر مريضنا على فراشه في مستشفى « جروت شور » بمدينة الكاب .

آمال .. ورجل

في تلك اللحظات التي انتهينا اليها كان العالم الطبي كخلية النحل نشاطاً وطنيناً .. وكانت الجماع الطبية دائبة على مراجعة حساباتها اراء المشاكل التي تعترض زرع عضو من الاعضاء من جسم الى جسم .. وكانت تحس انها حققت انتصارات مستقرة في بعض الجبهات كزرع قرنية العين وزرع البدائل الشريانية ، ونجحت زراعة الكلية بين التوائم المتشابهين ثم بين التسانين بينهما مشابه حيوية معينة .. ودأبت الابحاث - ولا تزال - على دراسة الصعوبات الباقية التي كانت تعترض الطريق .. ولا تزال .

كان اهم هذه المشاكل هو ما أودع في جسم الانسان من وسائل دفاية .. قصدت بها الطبيعة ان يدافع الجسم من نفسه بها ضد كل غزو غريب .. ولولاها لأصبح الانسان فريسة سهلة لأي غزو جرثومي ..

فما نحل بالجسم مادة غريبة عنه حتى تنبرى وسائل الدفاع لمكافحتها .. وعلى رأس هذه الوسائل خلايا خاصة تفرز مواد مضادة للمادة الغريبة التي اقتحمت الجسم .

ولا يحجم ، مهتديا بمن قال : « علي ان اسعى وليس علي ادراك النجاح » .

وكان مريضنا الدكتور بلايرج قد اجتاز أبحاثا مستفيضة : أشعات وتضيق القلب وقياسات عن طريق مسطرة تدخل غرف القلب المختلفة ، بل وتصوير « فلم سينمائي » عن عمل القلب ، كل ذلك اجري ثم أرسل الى المشورة لدى الاطباء والأساطين في انحاء العالم .. وكانت نتيجة كل ذلك انه لا أمل الا بمحاولة زرع قلب جديد .. وإن كان الأمل محدودا .

وكانت الأعصاب مشدودة والنفوس متوترة ..

ذلك بأن العملية لن تكون الأولى ..

فمثل مدة وجيزة أجرى نفس الجراح بنفس المستشفى عملية زرع قلب .. كانت هي الأولى من نوعها فعلا .. لريض أسمه « لويس واشكانسكي » .. وكان العالم يتابع أبناء العملية باهتمام ..

وكان يتابعها كذلك مريضنا الدكتور بلايرج دون أن يدرك صلتها به .. وبعد ثمانية عشر يوما مرت سراها أنهار الأمل .. وانقض السامر .. لقد مات « لويس واشكانسكي » !!

قلوب .. وقلوب

بحسب السطحيون من الناس أن ما ننسبه الى القضاة والقدر من أحداث إنما يصدر من المصادفة العشوائية .. دون أن يدركوا أنه حتى المصادفة لها قانونها الذي يحكمها .. وأن القضاة والقدر معادلتهما المقدة التي لا تتكشف للناس إلا نهايتها

من ذلك قصة تلك الأسرة الفقيرة من اللوئين بجنوب افريقيا .. أب وأم واحد عشر ولدا كان « كلايف هويت » واحدا منهم .. ولد في اكتوبر ١٩٤٣ .. ومن بين اخوته كان الأذكى والأعقل والابر .. بولديه .. والأقرب الى قلب أمه . وأتم تعليمه المتواضع وجمع الحب

وفيما يختص بزرع القلب خاصة ظلت عقدة العقد أن وسائل الدفاع في الجسم المضيف ستفرز من المواد المضادة ما تهلك به القلب المضيف على أنه جسم دخيل .. وأن كان هذا الدخيل قد جاء ليخدم ولينقلد وليستبقى الحياة !!

ويرى العلم الطبي الاحيلة على هذه المشكلة الا بمحاولة جادة لإبطال وسائل الدفاع هذه .. وهو يستنيط لذلك طرقا شتى .. منها واهمها القضاء على تلك الخلايا الليمفاوية بتعريضها للأشعاع ، أو بحقن ادوية تقضي عليها ، أو بحقن الجونا بتلك الخلايا الليمفاوية الانسانية ، فتقوم الخلايا الليمفاوية الحيوانية بافراز مواد مضادة تهلك الخلايا الليمفاوية الانسانية ، ثم يصفي هذه المواد ويستخلصها من دم الحيوان لتكون مستعمدة لإبطال مفعول الجهاز الدفاعي في الجسم الذي يستقبل عضوا من جسم غيره .. حتى لا يلفظ العضو المزروع .

وظل الامر نظريا حتى أواخر سنة ١٩٦٧ .. ولم يكن جرب بعد في عملية زرع قلب .

اما الجراحة نفسها فكانت خطواتها واضحة المعالم من سنوات خلت نتيجة لتجارب الدكتور نورمان شامواي من جامعة ستانفورد بالولايات المتحدة على الحيوانات .

لهذا لم تكن الصعوبة في أنجال العملية ، بل فيما يكتنفها من مشاكل علمية كانت تشغل بال الجراح الماهر « كريستيان بارنارد » وزميله اخصائي القلب النابغة « فلغا شراير » في مستشفىهما بجنوب افريقيا ، كما تشغل بال المثات من زملائهما في أنحاء العالم .

يبد أن الظروف كثيرا ما تضع الطب في موقف الاختيار بين امرين أحلاهما مر : أن يترك المريض لوت أكيد أو أن يخوض جراحة نتیجتها غير مضمونة .. وينصب الطبيب الميزان فإذا استبان أن الأمل مع الجراحة أرجح من الأمل بدونها كان واجبه ان يقدم

مانع أن نأخذ قلب زوجك لرجل لا أمل له في الحياة إلا بهذا القلب ؟ »

وتطرق الفتاة لثواني معدودات ثم تعجب في رباطة جاش : « انني أوافق » . ثم تنجى إلى والدة زوجها فتخبرها بما كان وتسألها رأيها فتوافق الأم في الحال !!

وفيما قرأت عن حيسة « بلانبرج » ومماته ..

وفيما قرأت عن أطبائه وممرضاته ..

فلم يستطع موقف أن يستوقفني مثل هذا الموقف ..

ومن وراء قصة القلبين التالف والجديد .. كادت الحروف المطبوعة أن تبرز أمام ناظري قصة القلبين البطين الحقيقتين في هذا الكتاب .. قلب زوجة وقلب أم ، لم يمنعهما هول الفجيعة وفجأة الكارثة أن تعطينا وان تجزلا العطاء !!

وهما ملونتان في جنوب افريقيا ..

ولو لم تكن الا هذه لوجب ان يكون مكان الملونين في جنوب افريقيا فوق الهام لا تحت الأقدام .. لو كان هناك شعور .. وانصاف .. وذوق !!

المعلمية .. واعقابها

نسجت يد القدر اذن من خيوط الحوادث هذا النسيج المتشابك .. ويتخطى الجراح الدكتور « كريستيان برنارد » صعوبته النفسية الباهظة ليدخل على « بلايبرج » قائلاً : « انني مثل الطيار الذي وقع على الأرض بطائرته فتخطت .. وعلاجه الطبيعي أن يسلم بسرعة طائرة أخرى يطير بها .. وعلاجي لديك » ..

ويستوضحه « بلايبرج » .. فيخبره أن « لويس واشكانسكي » قد مات أمس .. وأنه

بينه وبين « دوروثي » فخطبها وتزوجها وكان منهما بيت سعيد يرفرف عليه الحب فيعوضهما بسعادته من سمة الرزق ووفرة المال .

ويوم عيد رأس السنة ١٩٦٨ تخرج الأسرة الصغيرة مع الأصدقاء لرحلة ممتعة « بالانوييس » إلى أحد المنتجعات ذات المناظر الطبيعية الجميلة .. ويعيدا عن الدار والجوار ياتلف الجمع للعب الكرة يتقاذفونها واحدا لواحد .. وتذهب الكرة إلى يدي « كلايف هوبت » ولكنه بدلا من أن يقذف بها بسقط هو على الأرض في حركة مسرحية رائعة !! .. أو هكذا خيّل إلى الجميع

وطالت رقدته .. واحست دوروثي أن في الأمر شيئا .. ويهرع الجميع إليه ليجدوه في غيبوبة .. ويحولونه إلى أقرب مستشفى فيشخص الأطباء أنه مصاب بنزيف في المخ .. وتحت الاسعافات الممكنة تحمله عربة اسعاف إلى أقرب مستشفى كبير في تلك الناحية .. فإذا هو بعينه مستشفى « جروت شور » .. حيث يرقد « الدكتور بلايبرج » ..

ويضم المستشفى - على غير عادات - « كلايف هوبت » و « فيليب بلايبرج » كلا في مكان .. وزوجتيهما وبعض الأهل في ردهة الزوار ! وتفر الحياة من « كلايف هوبت » رغم نطس الأطباء وأن ظل تنفسه يتردد بالوسائل الصناعية ، وقلبه يدق بالوسائل الصناعية .. أما التخطيط الكهربائي لمخه فقد كان خطأ هامدا خاليا من أي نشاط .. وباختصار فقد توافرت فيه الواصفات العلمية لما يسمى طبيا بحالة الوفاة .

ويخرج الطبيب إلى العروس الشابة ليس فقط لينمي إليها حبيبها ذا الخمسة والعشرين ربيعا الذي اختطف تحت عينها في أوج سعادتهما في أثناء لهما ذات رحلة في عيد رأس السنة ..

ولكن ليسألها كذلك : « هل لديك يا سيدي

الأطباء في حقته بالعقائير التي تعطل جهازه الدفائى ..

ولم يكن ذلك خلوا من الخطر .. فمعناه كذلك أنه سيفقد أسباب المقاومة ان تعرض جسمه للجراثيم .. حتى تلك الجراثيم التي قد يحملها الجسم العادى فلا تكاد تسبب له مرضا ، ستكون ولا شك وحوشا ضارية أن تعرض لها جسم « بلايرج » بعد تعطيل دفاعاته .

وإزاء ذلك احاط الأطباء مريضهم بغطى دفاع .. أولهما أدوية المضادات الحيوية كالبنسلين والترميسين وغيرها .. والثاني وهو الأهم والأجدى والأفضل هو أن يمنموا الميكروبات من الوصول اليه .. ولهذا خصصوا له جناحا احاطوه بحراسة مشددة حتى لا يدخل اليه غريب أو فضولى .. وعقمو كل شيء في ذلك الجناح من بناء وأبواب وفراش وأدوات وطعام وشراب .. ولم يكن أحد حتى من الماذون لهم بالدخول من أطباء وممرضات يدخل الا بعد أن يجتاز عملية معقدة من تغيير الثياب ولبس ثياب خاصة والتعقيم ولبس الكمامة .. كل ذلك قبل أن يدخل إلى « كوريدور » معقم الهواء ويجتاز أبوابا وأبوابا .. ولما أذنوا لزوجته أن تزوره بعد أيام هدية مروها بكل هذه المراحل لم تم تره الا وبينهما حائط زجاجي .. وكان الحديث بينهما عبر ميكروفون .. معتم كذلك .

ومرت الأيام وأهل المستشفى وأهل المريض وأهل الأرض ممسكون بأنفاسهم في انتظار ما يكون .. ومن بعد ضعف بالغ بدأ يتصل من جديد كيف يأكل .. وكيف يتحرك .. وكيف ينهض جالسا وكيف ينزل واقفا .. كانت الخطوة الأولى بالنسبة له نصرا كبيرا وجهدا جهيذا ..

ولكنها المأثرة والمصاهرة .. وقوة إرادة فيه وثبات في العمل فيمن حوله .. وكانت حلقة شعره لأول مرة حدثا نشرت الصحف صورته .. ولما استطاع أن يظل على العالم

هو المرشح الثاني لعملية زرع القلب .. وأن الفرصة مواتية في الحال ..

أما من النتيجة فالأمل موجود .. ولكنه محدود .

ويوافق « بلايرج » دون تردد .. ويعني طبيبه من أى لوم مهما تكن النتائج .. ويتبادل الجراح ومريضه عبارات التشجيع ..

وأذا المستشفى كخيلة النحل .. أعلنت الطوارئ من مدة .. وأعطيت إشارة بدء العمل .. وأخذ المشرات من الأفراد كل ضمن فريقه يؤدي دوره في المهمة في نظام محكم ونشاط هادئ ، فكانهم تروس الساعة المضبوطة .. وفي وقت واحد كان فريق من الجراحين ينزع قلب « هويت » ويقطعه على مواصفات موقعه الجديد .. وفريق ينزع قلب « بلايرج » ويهوى صدره لاستقبال القلب الضيف .. وفريق يشرف على جهاز « القلب الصناعي » الذى يضخ دم « بلايرج » في أوعيته الدموية في دورة تحفظ له حرارته وتذيب فيه غاز الأكسجين وتنزع منه ثاني أكسيد الكربون وتنقيه من الفضلات وتقوم على تثبيت تركيبه الكيميائي .. وفريق المخدرين وفريق المحللين وفريق الأقيسة والتسجيلات الطبية وفريق المداواة لا ينشأ من مضاعفات ، بل وفريق التصوير وغيرهم وغيرهم داخل غرف العمليات وخارجها .

وفي مهارة ودراية .. وسرعة في غير عجلة .. وصمت بليغ .. يأتي القلب الجديد وتعمل فيه الأبرة والخط ليجعل سكنه الجديد ..

وينبض القلب .. ويفضخ الدم .. ويعزل القلب الصناعي .. ويقفل الصدر .. وينقل المريض إلى جناحه الخاص .. ويبدأ الفصل الثاني من المعركة !

ولقد ذكرنا أن أخوف ما كان يخاف هو أن تفرز خلايا الدكتور « بلايرج » مواد تهاجم القلب حتى يلفظه جسمه .. لذلك شرع

لونه ويدخل المستشفى من جديد ، وتخلع قلوب أطبائه هلعاً .. خاصة وهم في علاجه لا يستهدون بخبرات سابقة .. ويعارضون ان كان السبب عدوى بالبكتيريا أو عدوى بالفيروسات والفرق بينهما خطر من وجهة نظر الحفاظ على القلب الجديد . فان كان الغزو بكتيريا استباحوا أن يعطوا الأجهزة الدفاعية مرة أخرى معتمدين على أدوية المضادات الحيوية .. أما ان كانت فيروسات فهذه لا تنفع فيها المضادات الحيوية ، فان عطلوا الجهاز الدفاعي فقد القوا بالرجل الى التهلكة !!

ويرجح لديهم انها البكتيريا .. ويعطلون خلايا الدفاع .. ويصلق أحدهم فينتشلون مريضهم من الهاوية مرة أخرى .. ويتحسن ويفادر المستشفى من جديد ..

ولكنه لم يعيد يحس بالجلودة تخفى .. ويحتويه الضعف فيسلم اليه نفسه .. لقد اوشك الزيت أن يجف، وأذن الفتيل بانطفأ .. وفى مستشفى « جروت شور » يموت الدكتور « بلايبرج » في هدوء وسلام .. بعد أن وصل حياته بزيادة على حياته .. وأحيا بين جنبيه قلباً سبقه صاحبه الى الآخرة ..

يوم تقاعد الدكتور « بلايبرج » من عمله أهدى الى المتحف الطبي حفارة أسنان عتيقة ، فظن أنه يضيف الى سجلات التاريخ .. ولم يعلم آنذاك ان هديته لتاريخ الطب ستكون أعلى وأقيم .. لقد أهدى تاريخ الطب قلبين .. قلباً عجز أن يكمل مع صاحبه رحلة الحياة .. وقلبا أتم من بعد صاحبه نصيبه من الحياة .. وولبة كبيرة لا تريد على عظمها الا أن تكون في السجل الطبي حلقة في سلسلة ، ودرجة من سلم وخطوة على طريق ...

الخارجي خلال شجاعه الرجائي حيثه الجماهير التي أشار لها إشارة النصر التي ابتدعها تشرشل .. ولت ذلك صورته وهو يتناول المعكرونة ..

حتى جاء اليوم الموعود .. فإذا هو يقادر المستشفى .. ولتته أيام موعودة طال ارتقابها وان كان يأخذ نفسه بالحذر حتى في اقترابه من الناس .. وقاد سيارته ، وعاشر زوجته .. وكانت مساعدته بكل ذلك ميثاق من الأضعاف .. فقد علمته أيام لمرض حقاً أن الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه الا المرضى ..

شيء جديد في كل ذلك بدأ أنه غريبة مفروضة ولكن واجب الأداء وان كاد ينقص الحياة في كثير من الأوقات .. ذلك هو الشهرة !

المئات من مراسلي الصحف الذين يتنافسون على السبق الصحفي .. والذين أشعروا زوجته طيلة الوقت أنها تحت الرقابة باستمرار .. لا تملك أن تسير في الشوارع في حالها كما يسير الناس .. وآلاف المكالمات التليفونية بالليل والنهار من الداخل ومن الخارج .. ومئات الأسئلة المسخيفة أحياناً .. والبريد الذي يحتاج الى فريق كامل لقراءته .. تقرأ كل ذلك فتحمد الله أن كنت مثلاً من غير المشاهير ..

ومع ذلك كانت هناك الهدايا .. والدعوات لرحلات في العالم كان في النية أن تلبى لو لم ينطفئ سراج العمر .

ثم يشرع الدكتور « بلايبرج » في كتابة قصته هذه التي تقدمها .. ولكنه خلال ذلك يصاب بنكسة خطيرة وينتابه اليرقان ، ويصفى

Panther Modern Society

La
Vida
Oscar
Lewis



لا قيدا أو الحياة

مرض و غيل دكلور محمد عبده محجوب

الانثروبولوجيا وبخاصة الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية أصبحت تهتم الآن بمختلف انماط التجمع الانساني في المجتمعات التقليدية التي لم تدخلها الصناعة او المجتمعات الصناعية الحديثة على السواء .

وقد قام الجيل الثاني من الانثروبولوجيين الذين تعلموا على الرعيل الاول من علماء الانثروبولوجيا بدراسات حقلية في كثير من المجتمعات الأوروبية والأفريقية والآسيوية الريفية والصناعية الحديثة ، كما اتبعوا في

ارتبطت الانثروبولوجيا بدراسة المجتمعات البدائية او المتوحشة ، والواقع انها عنيت بهذا النمط من المجتمعات في بداية نشأتها ، وان كان مصطلح بدائي كما استخدمه الانثروبولوجيون لم يتضمن ذلك المحتوى القيمي فيما يتعلق بالارتباط بمرحلة معينة من مراحل التقدم او التاخر الحضارى ، ولكنه يعني الإشارة الى بعض الخصائص البنائية المميزة ، مثل قلة عدد السكان وبساطة الموارد الاقتصادية والادوات التكنولوجية والافتقار الى التراث الثقافي المكتسوب ، الا ان

* Lewis, Oscar; La Vida; A Puerto Rican Family in the culture of Poverty San Juan & New York, Panther Books, London 1968. pp. 812.

أو دراسة الشخصية الفردية ، ثم عرض بعد ذلك لبيان مدى السهولة التي أحاطت تقبل مجتمع بورتوريكو للثقافة الأمريكية ، وأرجع ذلك إلى افتقار ذلك المجتمع إلى التاريخ الثقافي أو الأصول الثقافية العريقة التي يتميز بها المجتمع المكسيكي التقليدي مثلا .

والكتاب في جوهره عبارة عن شريط تسجيلي لحياة أسرة من الأسر محدودة الدخل التي يقيم بعض أعضائها في أحد الأحياء الفقيرة في مدينة سان خوان في بورتوريكو إحدى الولايات المتحدة الأمريكية ويقيم البعض الآخر في مدينة نيويورك ، وقد حاول المؤلف بذلك أن ينقل صوت تلك الفئة من السكان الذين تمثلهم هذه الأسرة إلى آذان الفئات السكانية والاجتماعية الأخرى في المجتمع الأمريكي من الذين يندر أن يسمعو بوجود مثل هذه الأسر بطرفها الاجتماعية السيئة ، كما أراد من ناحية أخرى أن يسجل بقلعه صورة داخلية لنوع الحياة في كثير من المناطق والجماعات المحرومة أو الهامشية في ذلك المجتمع وأننى يجهلها الكثير من أبناء الطبقة الوسطى .

وقد أشار المؤلف إلى أن أحد الأهداف التي أراد تحقيقها بدراسته لثقافة ذلك المجتمع الفقير يتمثل في محاولة خلق نوع من الاتصال بين جماعات الفقراء في المجتمع الأمريكي وشخصيات الطبقة الوسطى من المهنيين مثل المعلمين والباحثين الاجتماعيين والأطباء ورجال الدين وغيرهم من يحلون المسؤولية الرئيسية نحو إقامة المشروعات التي تعالج مشكلة الفقر وذلك من خلال محاولة الوصول إلى فهم أفضل لطبيعة الثقافة في المجتمع الفقير مما يؤدي في النهاية إلى تبني نظرة تتميز بمزيد من التعاطف مع الفقراء ومشكلاتهم فضلا عما يقوم على أساس هذا من مشروعات انشائية في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والمهنية في تلك المناطق .

ويعتبر كتاب « La Vida » الكتاب الأول في سلسلة من البحوث اعتمدت على اختيار بيئة

دراساتهم طرقا جديدة زاوجوا فيها بين طريقة الملاحظة بالمشاركة التي تعتمد على الإقامة الطويلة والمعيشة في المجتمع وطريقة دراسة الحالة ودراسة حياة الأفراد ، كما اعتمدوا في تطبيق فروضهم على الدراسات الكمية التي كان ينظر منها الباحثون الأوائل ، ومن هذا الفريق من الكتاب أو الباحثين أوسكار لويس « Oscar Lewis » استاذ الأنثروبولوجيا حاليا بجامعة إلينوس بأمريكا ، وقد حاول في هذا الكتاب أن يتعمق في فهم المجتمع عن طريق دراسة حالة الأسرة وتتبع تاريخ حياة أفرادها كما يروونه بأنفسهم .

وقد كان من التفصيل الدقيق والقيم الذي فضجته مقدمة الكتاب وبخاصة فيما يتعلق بطرق البحث محاولة ممتازة لمرض الضغوط التي أليها المؤلف في ملاحظته ووصفه وتسجيله للظواهر التي توفر على دراستها فضلا عن الإشارة إلى ما يمكن أن تسهم به تلك الملاحظات في تفسير المشكلات التي يعالجها البحث ، ونظرا لأهمية تلك الطرق الحديثة في الدراسات الأنثروبولوجية سوف أركز في هذا العرض على بيان الكيفية التي يعمل بها الأنثروبولوجيون من طرقهم ومناهجهم للوصول إلى الجوانب العميقة من المجتمعات التي يدرسونها .

وقد بدأ المؤلف في مقدمته بمرض للظروف الاجتماعية والاقتصادية والصحية والتعليمية السيئة التي عاشها مجتمع بورتوريكو في مرحلة ما قبل الانضمام إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ثم انتقل إلى الإشارة إلى مظاهر التقدم الاقتصادي والصحي والتعليمي والمهني التي طرأت على هذا المجتمع بصفة عامة مع استمرار الفقر والتأخر في بعض الأحياء أو المناطق السكنية فيما يعرف بالSlums أو جيوب الفقر . وتعرض بعد هذا لبيان المركز الذي تحتله الدراسة الأنثروبولوجية للأسرة بين مستويات التحليل الأنثروبولوجي التي تعني بالثقافة العامة أو النماذج أو الصورة البناية

وجهة نظرهم الخاصة في الثقافة المكسيكية ومظاهر الاختلاف بين تلك الثقافة والثقافة الأمريكية .

كذلك فقد قام المؤلف بتطبيق تسعة عشر كشفاً من كشوف البحث على كل أسرة من الأسر التي اختيرت ضمن العينة؛ وقد تضمنت أسئلة تدور حول ملكية الأسرة من الأثاث المادية كالملابس والحيوانات والكتب وغيرها ، وعلاقات الصداقة بين الجيران والعلاقات بين الآباء الحقيقيين والآباء من طريق التعبد God Parents والعلاقات الأسرية وأوجه الدخول والإنفاق ونظام تقسيم العمل والاتجاهات الصحية والسياسية والدينية والنظرة إلى العالم .

وبالإضافة إلى هذا كله فقد طلبت الدراسة المركزة لكل أسرة إقامة روابط وعلاقات شخصية قوية ، بدونها لم يكن في الإمكان الحصول على المادة أو المعلومات الضرورية في تلك الدراسة ، وقد اشترك المؤلف ومساعدوه في حضور كثير من المناسبات الاجتماعية كالحفلات العائلية وشعائر التعميد وغيرها ، كما كانوا يستجيبون إلى الطلبات العاجلة من الأهالي لأصطحابهم إلى عيادات الأطباء أو الاتصال بأقاربهم المسجونين لتقديم بعض الخدمات أو مساعدتهم على كتابة الاستمارات الخاصة بالشؤون الصحية أو الالتحاق بالعمل أو التعاقد على إيجاد السكن .

ويمكن القول أن المؤلف قد التزم إلى حد كبير بطريقة الملاحظة بالمشاركة التي يعتمد عليها الباحثون الأنثروبولوجيون باعتبارها الطريقة المثلى للحصول على المعلومات والبيانات التي تساعد على فهم الظواهر وتحقيق الفروض التي يضعها هؤلاء لتفسير تلك الظواهر التي يتوفرون على دراستها ، وتلخص عملية الملاحظة بالمشاركة في محاولة الباحث الاشتراك في الأنشطة الاجتماعية المتنوعة التي يقوم بها أعضاء الزمرة الاجتماعية أو الجماعة موضوع الدراسة ، بقدر ما تسمح الظروف والتقاليد ،

مكونة من مائة أسرة تعيش في أربعة من الأحياء الفقيرة في مدينة سان خوان في بورتوريكو وهي تهدف في النهاية إلى دراسة مشكلة التكيف والتوافق بين الجماعات الأسرية والتغيرات التي تطرأ على الحياة الأسرية للمهاجرين ، كما تهدف إلى تقديم دراسة مقارنة تعتمد على الوحدات الأسرية في ثقافتين متمايزتين أحدهما هي الثقافة الأمريكية والأخرى هي الثقافة المكسيكية ، كما تهدف إلى تطبيق طريقة جديدة للحصول على المعلومات المتعلقة بالأسرة .

ولقد كان الأساس الذي قام عليه اختيار الوحدات الأسرية (العينة) هو انخفاض الدخل ووجود الأقارب في نيويورك والرقبة في التعاون مع الباحث وتزويده بكل المعلومات التي تتطلبها الدراسة ، وقد حدد الباحث تلك الأسر الفقيرة بمساعدة الإحصائيين الاجتماعيين الذين يعملون في المنطقة وإن كان قد واجه مشكلة تمثلت في اتساع المدى الذي يتوزع خلاله الدخل الفردي المقيمين في تلك الأحياء الفقيرة ، فقد كان البعض منهم يمتلك الوسائل التكنولوجية الحديثة مثل أجهزة التبريد والتكييف وأجهزة التلفزيون أو السيارة ، ولهذا فقد عمد إلى أن تضم « العينة » المختارة أسراً تنتمي مستويات دخولها إلى كل الفئات التي تضمها دوائر الإحصاء في المجتمع الأمريكي .

ويتلخص المنهج الذي اتبعه المؤلف في تلك الدراسة في المواجهة بين الطرق التقليدية المستخدمة في البحوث السوسولوجية والأنثروبولوجية والبيكولوجية وهي تتضمن الاستبيانات والمقابلات والملاحظة بالمشاركة وتسجيل تاريخ الحياة وعدداً من الدراسات الكلية الشاملة المركزة لحالات بعض الأسر ، كما اعتمد على بعض طرق علم النفس مثل اختبار توافيق رد الفعل الرجمي Thematic apperception واختبار الإسقاطي المعروف باختبار « رورشاخ » واختبار تكلمة الجمل كما اعتمد على عدد من الباحثين الماعدين من نفس سكان المجتمع موضوع الدراسة لأعطاء

لا يبدأ في تسجيل تاريخ حياة أعضاء الأسرة إلا بعد أن يكون قد اكتسب الكثير من ثقافتها وتوفرت لديه المعرفة الوليقة بجوانب حياتها وذلك من خلال التردد بانتظام على زيارتها لعدة شهور قليلة لمعرفة الكثير من شؤونها من خلال المناقشات التي تقوم بين أعضائها ثم الاستعانة بتلك المعلومات التي يحصل عليها من خلال تلك المناقشات في استشارة ذاكرة هؤلاء الأشخاص بغية الحصول على صياغة قصصية لتلك الأحداث الأسرية .

وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الإشارة إلى الاتجاهات المختلفة المتباينة التي يمكن أن يتخذها البحث الأنثروبولوجي للحياة الأسرية والتي ترتبط فيما بينها أشد الارتباط :

والإتجاه الأول يتمثل في استخدام معظم الفئات التصورية Conceptual Categories مثل مفهوم البناء والوظيفة المستخدمة في دراسة الجماعة المحلية أو الزمرة الاجتماعية عند دراسة الأسرة ، أما الإتجاه الثاني فيتمثل في تسجيل طويل ومركز لتاريخ حياة كل شخص من أشخاص الأسرة من خلال وجهة نظر الأشخاص الآخرين ، وهذه الطريقة تسمح للباحث الأنثروبولوجي برؤية الأسرة من خلال وجهات نظر أعضائها أنفسهم ، كما تسمح بالتبصر بسلوكية الفرد وديناميات التفاعل الاجتماعي في الأسرة ، وهناك طرق مختلفة للتحقق من صدق وثبات البيانات التي نحصل عليها بهذه الطريقة .

أما الإتجاه الثالث فيتمثل في الدراسة المركزة لمشكلة معينة أو حدث معين أو أزمة معينة في حياة الأسرة وبخاصة فيما يتعلق بالكيفية التي تواجه بها الأسرة الأحداث والمواقف الجديدة بما يسمح بمعرفة الكثير من الجوانب الهامة للديناميات السلوكية للفرد والأسرة ، أما الإتجاه الرابع والآخر فينتوي على دراسة كلية للحياة الأسرية من خلال الملاحظة والتسجيل التفصيلي للأحداث

فمن خلال المشاركة في مناسبات الزواج والوفاة والميلاد والذهاب إلى السوق والتردد على مجلس كبار السن والزعماء المحليين وزيارة منتديات الشبان ووحدات الإنتاج ، يستطيع الباحث الأنثروبولوجي أن يحصل على الكثير من المعلومات الحقيقية عن العلاقات القرابية والاقتصادية والسياسية في المجتمع موضوع الدراسة ، ولكن هذه الطريقة لا يمكن استخدامها أحيانا ، مثلا فيما يتعلق بالأنشطة الاجتماعية الموسمية أو التي لا تتمتع بتواتر الوقوع مثل حفلات الحصاد والأعياد والمناسبات الدينية والمناسبات الطارئة ، يمكن في هذه الحالة الاعتماد على المعلومات التي يدلي بها كبار السن وقصص توارث الحياة كمصدر هام من مصادر تلك المعلومات .

وينتقل المؤلف بصدد الإشارة إلى طرق البحث وتسجيل المعلومات إلى الإشارة إلى صعوبة استخدام الوسائل السمعية والبصرية مثل آلات تسجيل الصوت ونقل الصورة في الدراسات الأنثروبولوجية وذلك أما لارتفاع تكاليف الاستعانة بتلك الوسائل أو بسبب ما تخلفه من جو الانتحال الذي يؤثر في استمرار الناس في سلوكهم العادي ، والملح المؤلف إلى إمكان الاستعاضة عن ذلك بالباحثين المدربين على التسجيل الأنثروجرافي لدقائق السلوك والأنشطة التي يشارك فيها أعضاء المجتمع أو الأسرة وبخاصة فيما يتعلق بالتحركات والمحاورات ومظاهر التفاعل التي تطرأ بينهم ، وهذا لا يمنع بالطبع من إمكان استخدام تلك الوسائل في تسجيل توارث حياة الأشخاص كما يدلون بها شريطة أن يملأوا بوجود مثل هذه الوسائل الخاصة بتسجيل أحداثهم وذلك حفاظا على علاقة الثقة الضرورية التي تقوم بينهم وبين الباحث والتي بدونها يستحيل الحصول على معلومات دقيقة وصادقة .

وليس من شك في ضرورة تهئية الأشخاص الذين سوف يدلون بالبيانات لقول كل ما لديهم في صراحة ووقفة ، فقد كان الباحث

ولقد كان هذا المنهج الذي اتبعه المؤلف لا يسمح بالاعتماد على عينات كبيرة ، وإن كانت الدراسة المركزة لثلاثة أسرة من طريق الاستبيانات واستعارات البحث قد أتاحت الفرصة للحصول على كثير من المادة الانثوجرافية او المعلومات التي يمكن استخدامها في مجالات متعددة ، فالأسرة باعتبارها نسقا اجتماعيا صغريا تعتبر مجالا ممتازا لتطبيق النظرية الكلية التي تسيطر على البحوث الانثروبولوجية وبخاصة فيما يتعلق بدراسة البناء الاجتماعي والثقافة فضلا عن انها تساعد على معرفة ما تعنيه النظم الاجتماعية بالنسبة للأفراد وبالتالي تسميح لنا بتجاوز الصور والبناء الى الحياة الحقيقية ، كما ان الدراسة المركزة للوحدات الأسرية بهذه الطريقة تساعدنا على خلق كنطرة تزد الثغرة القائمة بين الثقافة من ناحية والفرد من الناحية الأخرى ، فقد كان الباحث ينظر الى الثقافة والشخصية في المجتمع الذي كان إطارا للدراسة ، في ارتباطهما واعتمادهما المتبادل في الحياة اليومية والواقعية .

ان الدراسة المركزة والشاملة لحياة أسرة معينة لتطبيق المناهج والطرق التي استخدمها الباحث يمكن أن تؤدي بنا الى فهم حياة الأفراد في المجتمع الفقير ومن ثم الى فهم للحياة الأسرية في هذا المجتمع الذي ينتمي امضاؤه الى الطبقة الدنيا ، ثم الى فهم لنوع الحياة التي يعيشها أبناء تلك الطبقة ككل والدور الذي تلعبه في تاريخ وثقافة المجتمع الكبير الذي تنتمي اليه ، فضلا عن انها قد تمكس لنا بعض الجوانب في الطابع القومي ، وان كانت هذه النقطة الأخيرة من الأمور التي يصعب الاتفاق عليها حيث قد ركزت كل الدراسات التي عنت بالطابع القومي على الطبقة الوسطى وذلك بناء على افتراض معين مؤداه ان هذه الطبقة تمكس لنا القيم السائدة في المجتمع . ولذلك فقد رأى المؤلف ان دراسة الوحدات الأسرية التي تنتمي الى الطبقة الدنيا تؤدي بنا الى معرفة بعض الخصائص أو

والناقشات ومظاهر التفاعل الاجتماعي التي تحدث في يوم معين في حياة الأسرة ، ويقوم اختيار هذا اليوم على أساس عشوائي أو متعمد ، فربما كان يوما عاديا من أيام الأسبوع أو يوما مميزا بحدث غير عادي مثل الميلاد أو التعميد أو القيام بشعائر الدفن أو الزواج أو الانتقال الى مسكن جديد .

وقد اتبع المؤلف في دراسته طريقة الزاوجة بين المنهجين اللذين يتمثل احدهما في التسجيل الواقعي لروتين الحياة اليومية الذي يقوم على أساس الاختيار العشوائي أو التعمد ليوم معين في حياة الأسرة وملاحظة مظاهر السلوك الذي يسدر عن اشخاصها في مواقف التفاعل المتنوعة وما يرتبط بتلك المظاهر السلوكية من أنواع العلاقات التي تقوم بينهم وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات القرابية أو الاقتصادية ، أو تلك العلاقات القائمة على أساس السلطة كالعلاقات بين الزوج والزوجة وبينهما والأبناء من الذكور والإناث ، والعلاقات التي تقوم بين الأخوة والإخوات وبين الأبناء وإقارب الأسرة عن طريق الأم أو الأب والاشخاص الآخرين الذين يتفاعلون مع الأسرة في مجال العمل أو التبادل الاقتصادي أو الجيرة .

بينما يقوم المنهج الآخر على أساس التسجيل الحرفي لقصص أو توارخ حياة اشخاص الأسرة فيما يتعلق بمراحل نموهم النفسي والاجتماعي وعلاقاتهم ببقية اعضاء الأسرة ووجهة نظرهم في أنماط السلوك التي تصدر أو كان هناك وجوب لصدورها منهم في مواقف التفاعل ومراحل النمو المتعاقبة وذلك بغية الخروج ببعض الأفكار العامة عن الحياة الواقعية كما تحدث في الروتين اليومي فضلا عن الحياة الصورية أو المثالية كما هي في مجال كبار السن أو توقعات ذوي السلطة وبخاصة بناء على اختلاف نوع ومدى المعرفة لدى الاجيال المختلفة وما يرتبط بذلك من اختلاف نوع الحكم فيما يجب أن يكون وما هو واقع فعلا .

يرتبط بتلك العلاقات من مظاهر السلوك ، كما يمكن الخروج أيضا بعض القضايا التي تتعلق بالحياة الجنسية المشروعة وغير المشروعة مع تحديد مفهوم كلا المصطلحين كالعلاقات الجنسية بين الزوجة والزوج أو بين الرجل المتزوج والمرأة المتزوجة برجل آخر أو بين المرأة المتزوجة والرجل الأعزب أو بين الرجل الأعزب والفتاة غير المتزوجة ، والزواج الشرعي (الديني) والعربي (المدني) والبغاء ومدى تأثيره على الحياة الزوجية ومدى استقرار العلاقات الزوجية وشيوع ظاهرة الطلاق ، كذلك بالمسكلات الاقتصادية والجنسية والسلوكية والنفسية والاجتماعية ، كما يمكن من خلال تطبيق هذه الطريقة في الحصول على المعلومات ، الخروج ببعض القضايا العامة حول تأثير البغاء على استقرار الأسرة والعلاقات بالجمرة والمركز الاجتماعي للبقايا وأزواجهن وأولادهم وبناتهم .

وكذلك تعتبر الدراسات الجينولوجية مصدرا هاما للحصول على المعلومات عن الجوانب القربانية والاقتصادية والسياسية والتعليمية في الجماعة المحلية أو المجتمع موضوع الدراسة . فمن خلال تسجيل أسماء الأشخاص الأحياء والوفاة والعلاقات القربانية التي تقوم بينهم وأعمارهم وأماكن ميلادهم وحالتهم المدنية ومحال أعمالهم والمهن التي يزاولونها وحالتهم التعليمية يمكن للباحث أن يعرف شيئا عن مدى الوحدة القربانية والوحدة الاقتصادية النواة والممتدة ، كما يستطيع أن يعرف شيئا آخر من مدى التمرکز الاقليمي للجماعات القربانية والمهنية كما يمكن أن يتأدى إلى فهم نمط التوزع المهني والتعليمي وارتباطه بالتوزع القرباني ولغة التفاضل الطبقي .

كما يمكن من خلال دراسة مظاهر الثقافة المادية وبخاصة فيما يتعلق بمقتنيات الأسرة من الأشياء ذات القيمة المادية والمعنوية مثل الأثاث والأدوات المنزلية والتحف والكتب وأدوات الزينة والملابس وغيرها ، أن نصل

المظاهر التي يتميز بها مجتمع هذه الطبقة بالنسبة إلى المجتمع الكلي الذي تنتمي إليه ، وإن كان قد تشكك أيضا في إمكان تحقيق مثل هذا الافتراض .

كذلك فقد تشكك المؤلف أيضا في إمكان الاتفاق حول مفهوم ذلك المصطلح الذي ينطوي على درجة عالية من التجريد وهو مصطلح الثقافة أو الانماط الثقافية مما حدا به في النهاية إلى الهروب من دراسة الجوامع المحلية التي تعتبر المجال التقليدي للدراسات الانثروبولوجية إلى الدراسة المركزة والشاملة للوحدات الأسرية ، ويبرر المؤلف هذا الاتجاه بأن الباحث السوسيولوجي والانثروبولوجي حينما يعني بالوصف المجرد لطرق الحياة في الانماط الثقافية المتمايزة فإنه يغفل قلب وروح الظاهرة التي يتوفر على دراستها ، كما أن في دراسة ووصف الانماط الثقافية الكلية أعمالا لا يمكن تجنبه لدى التنوع في مظاهر السلوك والعرف مما يؤدي بالتالي إلى افتراض صياغة غير مفيدة لمظاهر الاختلاف بين الثقافات تميل إلى إغفال مظاهر التماثل بين الجوانب الأساسية في الحياة الإنسانية ، هذا في حين أن البدء بدراسة الأسرة يمكن أن يؤدي بنا إلى مستوى أعلى من التجريد فيما يتعلق بدراسة الثقافة مثلا ، وذلك من خلال الوصول إلى بعض التعميمات حول مظاهر الاختلاف بين خصائص الحياة الأسرية في ثقافة معينة عنها في ثقافة أخرى مفارقة ومتمايزة .

ويتعرض المؤلف لبيان امكانيات التحليل التي يمكن أن تخضع لها المادة الانثروجرافية فيقول أنه من خلال تسجيل تاريخ حياة أشخاص الأسرة يمكن الخروج ببعض القضايا العامة حول خصائص الحياة الأسرية والثقافة والمجتمع الذي تنتمي إليه وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات التي تقوم بين أعضائها على أساس النوع كالعلاقات بين الأخوة والإخوات وبين الزوج والزوجة وبين الأب والأم من ناحية والأبناء والأولاد والبنات من الناحية الأخرى وما

مسائلهم بأقاربهم وأصحابهم وجيرانهم ، كما ان البقاء لم يترتب عليه احتلال المراكز الاجتماعية الدنيا في مثل ذلك المجتمع الذي تكثر فيه المشكلات السلوكية كالسرقة وامتناع المثلية الجنسية بحيث يحتل اللصوص مركزاً اجتماعياً أدنى من المركز الذي تحتله البغى أو يحتله أقاربها ، بل ان البغى قد تحتل مركزاً اجتماعياً أعلى من المركز الاجتماعي الذي تحتله المرأة المشتغلة بأعمال الخدمات المتخصصة كما ان البقاء في ذلك المجتمع كان بمثابة عملية اقتصادية مرتبطة بالظروف المالية والاجتماعية بحيث يمكن التوقف عن الاشتغال بتلك المهنة والعودة اليها بناء على تغير تلك الظروف .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى بيان كيفية الاستفادة من تلك المعلومات في مستوى أعلى من التجريد وبخاصة فيما يتعلق بالثقافة في المجتمع الفقير ويخرج من ذلك بأنه على الرغم من اختلاف وجهة نظر الناس نحو الفقر والفقراء حيث نجد هناك من ينظر الى الفقراء باعتبارهم انساناً طيبين يتسمون بالفضيلة ويتسمون بالكرم والطيبة والشعور بالرضا كما نجد أيضاً من ينظر الى هؤلاء باعتبارهم في الغالب قوماً أشقياء يتسمون بالعنف والبخل وتنتشر بينهم الجريمة والانحرافات السلوكية ويرجع هذا الاختلاف في وجهة النظر الى عدم التفرقة بين الفقر من ناحية والثقافة في المجتمع الفقير من الناحية الأخرى ، فالفقر باعتباره مرتبط بانخفاض مستوى الدخل أو قلة الموارد لا يرتبط دائماً بأية سمات سلوكية أو اخلاقية ولكن الثقافة في المجتمع الفقير هي التي تتسم ببعض الخصائص العامة ، مثلاً فيما يتعلق بنظم الإنفاق ومدى عمق العلاقات الأسرية وطرق استغلال الوقت ، وهكذا ينتهي المؤلف من دراسة المقارنة للأسر الفقيرة في ثقافتين متميزتين الى أنواع التماثلات التي توجد بين الثقافات في تلك المجتمعات الفقيرة .

فالمجتمعات الفقيرة تعيش في عزلة اجتماعية واقلية من بقية الفئات السكانية الأخرى

الى بعض الفهم لمصطلح الفقر كما يتداوله الناس في المجتمع وان تعرف شيئاً عن طريقة توزيع الدخل على مصادر الإنفاق وتصريف الناس للسلب الضرورية والكمالية والعلاقة بين مستويات الدخل وجهاز الثروة المادية ومصادر المشتريات ومدى قيام التبادل والتنقل بين المناطق السكنية المختلفة والمسافات التي يقطعها الناس لشراء احتياجاتهم ، كما نستطيع ان نعرف شيئاً عن اوقات الأزمات الاقتصادية وارتباطها بمظاهر التعاون والتكافل الاجتماعي الذي يقوم بين الوحدات القرابية والجيران ومدى توزيع الثروة بين الأسر الفقيرة وارتباط المركز الاجتماعي بحيازة الممتلكات المادية ، وأخيراً فان هذا كله يساعد على فهم العلاقة بين الثقافة المادية والبناء الاجتماعي الواقعي والثالث في المجتمع .

والى جانب هذا كله يمكن الحصول على بعض المعلومات عن ظاهرة اجتماعية معينة من الظواهر التي توجد في المجتمع موضوع الدراسة ، فعندما تعرض المؤلف مثلاً لدراسة ظاهرة البقاء حاول ان يتبين الدور الوظيفي الذي تلعبه هذه الظاهرة دون ان يبدأ بافتراض ان البقاء يشكل خروجاً على النظام الأخلاقي أو شذوذاً عن النسق الاجتماعي السائد ، ولم تكن تلك الظاهرة تمثل هذا الوضع في المجتمع موضوع الدراسة الذي دللت الدراسات الخلقية على مدى شيوع البقاء فيه بحيث لا يمكن النظر الى البغى أو البقاء باعتباره أمراً شاذاً وذلك الى الحد الذي يمكن معه القول بوجود نوع من القبول الاجتماعي لهذه الظاهرة فقد دلت الإحصاءات على ان ثلث عدد الأسر يشتغل نساءها بالبغاء أو زاولن المهنة كما افترض ان الأهالي ينظرون الى البغاء باعتباره نشاطاً اقتصادياً لا يحاط بتلك التحريمات الدينية والاجتماعية التي تعزل البغى والأسرة التي تنتمي اليها من المجتمع الذي تعيش فيه ، والبغايا في ذلك المجتمع قد يكنّ نساء ، هن اخوات أو أمهات أو زوجات أو بنات لا يمارسن المهنة ولم يؤد الاشتغال بالبغاء الى قطع

والتكامل الاجتماعي التي تقدمهما الدولة في صورة تأمينات أو مساعدات عينية .

كذلك فقد أسفرت تلك الدراسة المقارنة عن القول بأن جيوب الفقر أو التخلف لا تظهر إلا في مجتمعات وثقافات معينة يسود فيها الاقتصاد النقدي ونظام العمل بالاجر والانتاج من أجل الفائدة واستمرار ظهور البطالة بين العمال غير المهرة ، وانخفاض الأجور والافتقار الى وجود التنظيمات السياسية والاقتصادية التي تربط الافراد بالسياسة العامة للتنمية في الدولة مع إتاحة الفرصة لاستفادتهم من الخدمات الحديثة، فضلا عن وجود نظام قراي لا يسمح بأعمال مبادئ التكافل الاجتماعي والاقتصادي بين أعضاء الوحدة القرابية المتمايزة ، ووجود نظام طبقي يقوم على أسس اقتصادية دون اعطاء الأهمية لموامل الانتماء القراي أو العرقي أو القبلي كحدود طبقية .

ومهما يكن من شيء ، فإنه بالإضافة الى القيمة العلمية لهذا الكتاب فهو يعطينا صورة نابضة بالحياة ، للحياة الاجتماعية في مجتمع بورتوريكو بكل ما فيه من فقر ومرض وجنس ولذة ، وموقف الناس من هذا كله وتحديدهم لواقعهم المؤلّم والظروف القاسية التي تحيط بهم والطرق والوسائل التي يتحملها الناس للتغلب على شقوة الحياة .

في المجتمع الذي ننتمي اليه ، فهي تسكن في مناطق خاصة ذات سمات عمرانية متخلفة ، مثلا في ضيق شوارعها وافتقارها الى كثير من الشروط الصحية مع زيادة الكثافة السكانية فيها ، كذلك تلك الجماعات لا تشارك كثيرا في الأنشطة العامة مثل التنظيمات السياسية والنقابية ولا تستفيد كثيرا من برامج الخدمات الثقافية والصحية ، كذلك تتميز تلك الجماعات بانخفاض الدخل السنوي لأفرادها . . وتحديد مدى ارتفاع أو انخفاض مستوى الدخل الفردي امر نسبي محكوم بالظروف الاقتصادية العامة في المجتمع ، فقد توزع أفراد العينة التي اعتمد عليها المؤلف على مستويات مختلفة تتراوح بين أقل من ٥٠٠ دولار الى أكثر من ٤٠٠٠ دولار للفرد الواحد سنويا ، فقد كان الدخل الفردي لـ ٢٢٪ منهم يقل عن ٥٠٠ دولار سنويا وتراوح دخل ١٥٪ منهم بين ٥٠٠ وأقل من ٩٩٩ دولارا سنويا وكان دخل ٣٢٪ منهم بين ٢٠٠٠ وأقل من ٣٩٩٩ دولارا سنويا بينما نجد ٤٪ منهم فقط يزيد دخلهم عن ٤٠٠٠ دولار سنويا للفرد الواحد، كذلك تتميز هذه الجماعات بانخفاض المستوى التعليمي والاشتغال بقطاعات مهنية معينة في مجال الخدمات التي تستوجب الأيدي العاملة غير الماهرة وترتفع بينهم نسبة البطالة كما تستوجب الجريمة أو الانحرافات السلوكية بعضا من القوى العاملة في تلك المناطق، وتعتمد تلك الجماعات كثيرا على برامج الرعاية



أزمة جناك

عرض وتحليل الدكتور مكي ششينيكي

كمال وجيشه من تنفيذ خطته باستكمال تحرير أراضيه من القوات الأجنبية . وعندما فشلت المساعي السلمية وتبادل المذكرات صممت بريطانيا على استخدام القوة ، وأبرق إلى القائد البريطاني في استانبول بأن يفتح نيرانه على القوات التركية الرابطة أمام التحصينات البريطانية في جنك ، في وقت حدد له بصد انداز للترك بالانسحاب ، وجلست الوزارة البريطانية كأمم روتيني تنتظر برفية من القائد بتسلمه للأوامر أو لا ثم برفية أخرى أو برفيات تنقل لهم ما حدث . أما استجابة للانداز فالانسحاب ، وأما فتح النيران فالعرب ، ومضى الوقت المرتقب لتسلم البرقية الأولى والبرقيات الأخرى ولم تصلهم الأخبار .

وكانت حيرة وقلق . فهم على يقين أن مثل

مدينة صغيرة في الجانب الآسيوي على مضيق المردنيل وتتحكم في مدخله ، هي عنوان هذا الكتاب . والوقت الذي حدثت فيه الأزمة هو سبتمبر ١٩٢٢ ، فما هي تلك الأزمة ؟

كانت بريطانيا مع حليفاتها بعد هدنة الحرب العالمية الأولى (١٩١٨) تحصل جيوشها القسطنطينية ومواقع استراتيجية أخرى في تركيا ، ومن ضمنها حامية بريطانية صغيرة في مدينة جنك ، واقتربت قوات مصطفى كمال بعد أن رمت بالجيش اليوناني بازمير في البحر من المضائق وبصدها العبور إلى الجانب الأوروبي من تركيا والوصول إلى القسطنطينية وما حولها من الأرض التركية ، وخلافا لحفظاتها رأت بريطانيا الوقوف أمام مصطفى

كتاب أزمة جنك مؤلفه ديفيد وولدر ١٩٦٩ .

Waldek, Di The Chanak Affair, Hutchinson, London 1969

الظافرين مع حكومة استانبول المعهورة الضعيفة بسلطانها ووزرائها لا يسعها الا الانصياع لما يعلى عليها . وهذا العامل الجديد الذي لم يكن في حساب الطغاة أو الحكومة التركية الرسمية هو جنرال تركي عصى أوامر حكومته، فعرض نفسه لعقوبة من لم ينفذ تعليمات رؤسائه بأشد مما عرض القائد البريطاني في استانبول نفسه للخطر بمصيان أوامر لندن بعد ذلك . . هذا الجنرال التركي هو مصطفى كمال .

والمؤلف في كتابه هذا يعالج موضوعات عدة ، فهو يؤرخ لحركة مصطفى كمال كما يراها الغرب وخاصة بريطانيا ، ويؤرخ أيضا للسياسة في اليونان ، والصراع فيها للوصول للسلطة وحلام الشعب اليوناني في استعادة مجده القديم واسترجاع مكانته التاريخية . ويرسم لنا صورا مبصرة من النظام البريطاني في برلمانه وصحافته واحزابه ، ويوضح لنا ظهور الخلاف بين دول متحالفة متضامنة في اثناء الحرب وخرجت منه ظافرة . ول فوق ذلك فهو يقوم بدراسة تحليلية نقدية للشخصيات التي لعبت دورا في الأحداث ، فكل من لويد جورج وتشرشل وكيرزون وبيركنهد ويونانلو واوستن شامبرلين وبولدوين وغيرهم رسم لهم المؤلف صورا قلمية توضح مفتاح شخصية كل منهم وأثرها في موقفه من القضايا المعروضة للبحث . ومن الثمن في تلك العصور يتضح لنا ان ما يسمى بالبرود الانجليزى وعدم الخضوع للمواطف أسطورة لان العواطف والميول الشخصية كان لها دور كبير في المواقف والقرارات ، وفي اليونان يتناول قلمه عددا من الشخصيات السياسية والعسكرية أهمها فنزوليس ابرز رؤساء الوزارات والملك تسطنطين بل انه جعل شخصية فنزوليس العامل الأكبر في الأزمة ، يتلوها شخصية لويد جورج ، ولذلك فقد كانت صورة فنزوليس الفوتوغرافية في صدر الكتاب . ومن الجانب التركي تتناول شخصية مصطفى كمال وأكبر قوادحه عصمت النصبب الأوفى .

عده البرقيات الهامة في مثل هذا الامر الخطير لا بد ان تصل روتيتيا، وحسب تجاربهم مع قوادهم لا بد ان يصل اليهم الرد بالاستلام أولا ثم بالنتيجة ولم يجدوا تفسيراً لهذا الإبطاء ، وأخيراً نبين لهم مالم يكن في حساباتهم وهو ان القائد عصى الأوامر وخاطر بمركزه ولم يبعث بالانذار للترك ، بل واصل جهوده السابقة للتفاوض والوصول الى حل سلمي ، ورمى بالأوامر جانبا ، وبذلك انقذ بلاده من حرب لا مبرر لها لا يؤيدها حلفاؤها فيها ولا بعض الوزراء في الحكومة البريطانية ولا أغلبية الاحزاب المؤيدة للحكومة ، ولا حتى الراى العام البريطاني ، ولنا ان نتساءل بعد ذلك ونبحث من تفسير . .

يوضح لنا المؤلف ان هذه السياسة التي كادت ترمي ببريطانيا في اتون هذه الحرب بالرغم من تلك القوى المعارضة اصر والى عليها شخصيتان في الوزارة : لويد جورج رئيس الوزارة الائتلافية وونستن تشرشل وزير المستعمرات ، وكانت نتيجةها عليهما ان سقطت الوزارة وخرج لويد جورج نهائيا من معتزل السياسة وسقط تشرشل في الانتخابات التي تلت الأزمة .

وكارضية وخلفية لهذه الأزمة كان لا بد للمؤلف ان يبدأ بالتاريخ العثماني من اوله ، ودخول الترك في البلقان وشرق أوروبا ، ويتابع ادوار ما يسمى بالمسألة الشرقية وتحرر شعوب البلقان . وبعد ذلك يتابع الحوادث التي أدت الى الحرب العالمية الأولى ، وانضمام تركيا لجانب ألمانيا ، ثم التسويات وتقسيم اسلاب الدولة العثمانية المعهورة ، ومن ضمن الورثة اليونان الذين انقسموا لجانب الحلفاء في الحرب . وقد احتلت قوات الحلفاء استانبول ومواقع أخرى ، وقادت اليونان جيشا ضخما احتلت به مدينة ازمير ، وبدأت عمليات توسعية داخل الاناضول ، وكادت تتم خطة التقسيم والاحتلال للأراضي التركية لولا ان ظهر عامل جديد لم يكن في الحسبان ، فقد كانت معاملة

باشا ، وتتعاطف الدول الأوروبية مع اليونان وتجدها خاصة بالأساطيل التي تنتهي بحطم أسطول محمد علي الذي بلل فيه من الجهد والمال الكثير ، وتوالت حروب تحرير الشعوب البلقانية ، وفي أثناء ذلك كان الصراع بين الدول على رجل أوروبا المريض (تركيا) مستمرا يشتد أحيانا ويضعف حيناً آخر لتنشأ أزمة جديدة ، وكانت الخطوط البارزة الواضحة في الصورة هي الصراع بين بريطانيا وروسيا حول المضائق التي تربط ما بين مياه البحر الأسود ومياه البحر الأبيض المتوسط ، فروسيا تود تحقيق مطامعها التاريخية في الوصول إلى مياه البحر الأبيض المتوسط الدافئة ، وبريطانيا لا تود أن ترى دولة قوية تعترض طريقها الإمبراطوري إلى الشرق . وتابع المؤلف تطور الحوادث الداخلية في تركيا التي أدت إلى إبعاد السلطان عبد الحميد واستيلاء لجنة الاتحاد والترقي على السلطة مع امتداد النفوذ الألماني حتى وقفنا على أبواب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) .

يتابع المؤلف تطورات الحرب العالمية منذ بدايتها بما لا يخرج عن المعروف عنها وعالجته كل الدراسات التي قام بها المختصون ، ولكنه يفصل بعض الشيء تطورات الحوادث التي جعلت النفوذ الألماني يمتد تدريجياً حسب خطة مرسومة إلى الدولة العثمانية وبلغ أوجه عند قيام حكومة لجنة الاتحاد والترقي تحت سيطرة أنور باشا أكبر المتحمسين للطف مع ألمانيا حيث كان على يقين أن النصر والمستقبل لها ، وعليه فالارتباط معها يعود على الدولة العثمانية بغنائم ومكاسب ، ومن الناحية الأخرى كان فنزوليس رئيس وزراء اليونان آنذاك يعتقد أن المستقبل والنصر في جانب دول الحلف الذي يضم إنجلترا وفرنسا وروسيا . وعليه فالارتباط معهم يعود على بلاده بمكاسب وفوائد على حساب شعوب البلقان الأخرى وتركيا ، ولكن هناك فرق بين الحالتين ، ففي تركيا تسيطر لجنة الاتحاد والترقي سيطرة تامة وخاصة أبرز أعضائها أنور باشا على مقدرات

والمؤلف بلغ درجة الكمال من حيث المصادر والمراجع ، فمراجعته الرئيسية ، الوثائق الرسمية ومن ضمنها مضايقات جلسات مجلس الوزراء ، والأوراق الخاصة لبعض الشخصيات الرئيسية ، وأقوال ومذكرات بعض الضباط ، بل إنه تحدث إلى عدد من العسكريين ممن اشتركوا في الأحداث مستفسرا ومستوضحا بعض النقاط ، وأطلع على كل الصحف التي نقلت خبرا أو أبدت رأيا ، كل هذا زيادة على قائمة كبيرة من الكتب التي تناولت الموضوع أو بعض أجزاء منه . وأهم هذه الكتب هي التي تناولت تاريخ حياة السياسيين والعسكريين الذين كانت لهم علاقة ما بتطور الأحداث أو رسم السياسة . ودرجة الكمال التي ذكرتها في أول الفقرة من حيث المراجع والمصادر تنطبق على الجانب البريطاني ، أما فيما يخص بجانب الخلفاء الآخرين وبجانب تركيا واليونان فالمرجع هي ما حفظ في الوثائق والمراجع البريطانية ، وما استخلصه المؤلف من تاريخ حياة الأفراد في الكتب ، ولكنه لم يتمكن من دراسة وثائق تلك الدول الأخرى ، وبعد توضيح الأزمة وملخص تاريخها ومراجع ومصادر المؤلف لم يبق لنا إلا أن نتابع فصوله ونتبين تطور الأزمة ومراحلها .

يستعرض المؤلف تاريخ الدولة العثمانية وعلاقتها مع أوروبا وما اصططلح عليه في الدوائر الدبلوماسية الأوروبية بالمسألة الشرقية . ويتابع الصراع الدولي في القرن التاسع عشر من حرب القرم إلى مؤتمر برلين ، وتظهر الأسماء التي كان لها موقف في هذا الصراع أمثال بسمارك وغلادستون وذرزفيلي وغيرهم ويرسم لنا المؤلف صورة من حرب التحرير التي اشعلتها شعوب البلقان ضد السيادة التركية وخاصة الشعب اليوناني ، وهنا يتابع الحوادث ببعض التفصيل ، فالسلطان العثماني يطلب نجدة وإليه على مصر محمد علي باشا ، ويحشد محمد علي إمكاناته العسكرية من جند مدربين على النظام الحديث ومن أساطيل ويقودها ابنه إبراهيم

الصلح بعد ذلك ، ومما يدل على أن اصدار مثل هذه القرارات تحت ظروف الحرب لا يتم بعد دراسة دقيقة والاستفادة بالتجارب ، أن سير ادوارد جرى نفسه في سنة ١٩١٨ اعترف بخطا تلك السياسة ، فقد قال انه كان يأمل أن تتحد كل شعوب البلقان ضد تركيا ، وهو يعلم من تجاربه في الحرب البلقانية التي سبقت الحرب العالمية أن هذا الأمل يستحيل تحقيقه ، غير أنه مر وقت طويل بعد هذا العرض البريطاني قبل أن تدخل اليونان الحرب فعلا ، ومرت تطورات داخلية فيها صراع مسلح بين فنزوليس والملك قسطنطين ، ودبر فنزوليس من موطنه في جزيرة كريت بعد أن استقال وهرب من أثينا جيشا ، وساندته إنجلترا وفرنسا بأن انزلوا جيوشهم في اليونان ، وتم بالتعاون مع فنزوليس انقلاب غادر بعده الملك قسطنطين البلاد ونصب ابنه جورج ملكا ، وبذلك استعاد فنزوليس سيطرته ، وتم اتحاد اليونان مع دول الحلف في هذا الصراع . غير أن ذلك تم بمعونة خارجية وبعدم أن أحدث تصدعا في الجبهة الداخلية .

في ٣٠ أكتوبر ١٩١٨ وعلى ظهر الباخرة البريطانية (اغاممنون) تم توقيع شروط الهدنة مع تركيا ، وبدأت فرق من جيوش بريطانيا وفرنسا وإيطاليا تحتل مواقعها في العاصمة استانبول والمضائق ولم تشارك الجيوش اليونانية الا في حراسة سفارتها وقنصليتها ، بالرغم من أن روسيا القيصرية التي كانت تعترض على وجود جيش يوناني في المضائق قد زالت ، وبخروج روسيا البلشفية من الحرب ونشر الإنفذاقيات السرية ورفضها ، لم تنفذ كل الإنفاقيات التي كانت روسيا القيصرية جانبها فيها ، وتم هذا الاحتلال في هدوء تام والحكومة التركية التي قامت بعد انهيار سلطة لجنة الاتحاد والترقي وفرار رجالها كانت متعاونة مع المنتصرين ، والأنطباعا التي دونها الذين شاهدوا تركيا في تلك الفترة تدل على اطمئنانهم من ناحية الأمن والاستقرار في تركيا ، بل أن تشرشل

الأمر وتسيير دفة السياسة ، أما في اليونان فالملك قسطنطين له موقف يخالف فيه رئيس وزرائه ، وهو الحياض في هذا الصراع الدولي ، وما كانت دول الحلف لترضى هذا الموقف بل تريده موقفا واضحا بجانبها ضد ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر ، وفنزوليس من جانبها يتهاافت على الانحياز لجانبهم ، ويزيل كل العقبات التي تقف أمامه حتى ولو كان الملك نفسه ، ولتقوية مركز فنزوليس في هذا الصراع بينه وبين ملك البلاد لا بد أن يقدم عرضا أو بالأحرى رشوة له يستطيع أن يلوح بها للرأي العام اليوناني ليظهر لهم المكسب الواضح من انحيازهم الى جانب دول الحلف .

ومن بين دول الحلف قدمت بريطانيا اقتراح ، ونال موافقة حليفها فرنسا وروسيا ، فما هو هذا الاقتراح ، أو من قبيل تسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية هذه الرشوة ؟

في ١٠ يناير ١٩١٥ منح سير ادوارد جرائ وزير خارجية بريطانيا حكومة اليونان امتيازات اقليمية هامة على ساحل آسيا الصغرى تضم أزمير وما حولها ، وهنا يقف المؤلف ليلاحظ أنه لا دليل يقودنا الى أن السير ادوارد جرائ أو أعضاء وزارة الحرب الآخرين كانوا يعلمون ما يتضمنه هذا القرار . والسير ادوارد جرائ خاصة يجهل تمام الجهل الشؤون العسكرية ، ويبدو أنه لم تكن هناك استشارات لخبراء عسكريين حتى تستبين لهم الصورة التي تستطيع بها اليونان الاستيلاء على المنطقة والاحتفاظ بها ، ولم يدخلوا في حسابهم احتمالات رد الفعل التركي على هذا المزو . وهذا العرض البريطاني كان البذرة التي انتبت الحروب اليونانية - التركية فيما بعد وبالتالي الأزمة التي أصبحت عنوانا لهذا الكتاب . ويستطرد المؤلف ليقول أنه في أوقات مختلفة قدمت مثل هذه الرشوى الى بلغاريا ورومانيا وإيطاليا ، وقد كان بعضها يناقض البعض الآخر ، مما أدخل بعض التعقيدات في مؤتمر

الخطيرة أو تأييدهم وانحيازهم الى جانب دون الآخر، فمنذ اللحظات الأولى التي بدأ فنزوليس اتصالاته بدول الطغف وجاهد الى أن جعل اليونان تتحاز اليهم كان محل أجلال وتقدير وأعجاب لويد جورج ، ومن الناحية الأخرى ورث كراهيته للترك من أحد أسلافه الكبار في الحزب ، وهو المستر جلاستون ، وهذا أمر واضح له ما يبرره بل عضده ضد خصومه ومعارضيه في اليونان نفسها ، ففي نظره صداقة فنزوليس هي صداقة الشعب اليوناني ووطنية اليونان تتجسم في شخص فنزوليس، فالملوك والجنرالات ورجال السياسة الذين يعارضون فنزوليس هم أعداء له وأعداء لبريطانيا .

تحت ظروف هذه الصداقة بين شخصيتي لويد جورج وفنزوليس عرشت مطالب اليونان الإقليمية خلال استراحة الكبار من بحث تفاصيل الشروط مع ألمانيا ، حيث اقتطعوا جزءا من وقتهم لبحث هذه المطالب الإقليمية في تركيا، ولم يحضر الاجتماع أى خبر عسكري ولم يحضره **أورلانو** ممثل إيطاليا ، وكان معروفا بمعارضته لاقتطاع أى جزء من الأناضول وخاصة بعض المناطق المحيطة بإزمير لليونان ، والشخص الوحيد غير لويد جورج ولوسون وكليمنصو هو هارولد تكلسن عضو اللجنة البريطانية المختصة باليونان الذى وصف المشهد الآخر في خطاب كتبه لزوجته في يوم ١٤ مايو ١٩١٩ « عندما دخلت عليهم وجدت ولوسون وكليمنصو جالسين على كرسي مريحة وأمامهما على البساط خارطتان ، وبقيت هناك نحو نصف ساعة أحدثت وأعترض ، وكان الرئيس ولوسون لطيفا كما كان لويد جورج أيضا ، ولكن كليمنصو كان مشاكسا ، وكان شيئا مريعا أن يقوم رجال كهؤلاء عن جهل وعدم مسؤولية بتقسيم آسيا الصغرى ، كأنهم يقسمون قلوبا من التيك » وبذلك نال فنزوليس القطة التي أرادها بتبريك من لويد جورج ، لأنه لا يريد لصديق بريطانيا أن يرجع من مؤتمر الصلح خاوى القواش .

دون في مذكراته ان التترك سرهم كثيرا أن يكون على رأس المحتلين بريطانيا ، وعليه فلم تكن تركيا ومشاكلها تثير اهتمام الذين جلسوا على مائدة مفاوضات الصلح في باريس بل شغلوا بما هو أهم من تركيا .

من تقاليد الحكم البريطاني ان الحزبية الضيقة تختفى في فترة الحروب غالباً وتتألف حكومات التحالفية لإدارة دفة الأمور خلال الحرب ، وهذا ما حدث بالفعل عند اندلاع الحرب الأوروبية في سنة ١٩١٤ ومع ذلك قد تحدث تغييرات غير جذرية مثل استبدال رئيس وزراء باخر ، أو تعديل في الوزارات . وما حدث في أثناء الحرب أن لويد جورج حل محل مستر اسكويت رئيسا للوزراء في ديسمبر ١٩١٦ وكلاهما من حزب الأحرار ، ولذلك انقسم الحزب الى مؤيدين لرئيس الوزراء الجديد ومؤيدين لرئيس الوزراء السابق . وفي ديسمبر سنة ١٩١٨ واستعدادا لحل مشاكل مؤتمر الصلح رأى لويد جورج استشارة الأمة في انتخابات عامة جديدة . ولكنها على أساس الائتلاف لا على أساس الحزبية العادية، وطلب من الناخبين اعطاء أصواتهم للحكومة الائتلافية أو للمعارضة ، وتسلم كل مرشح للحكومة خطابا موقفا من لويد جورج وبونارلو رئيس حزب المحافظين والذى سماه خصمه مستر اسكويت (الكبون) . ونالت الحكومة أغلبية ساحقة في مجلس العموم ، ولكن أغلبيةها العظمى من المحافظين ، وظهرت هذه الصورة النادرة في النظام الإنجليزي ، رئيس فريق من حزب الأحرار وهو لويد جورج يصبح رئيس وزراء يعتمد على المحافظين ، والنتيجة هي أنها سياسة عملية على المدى القريب ولكن تحمل في طياتها ضعفا واضحا في مركز لويد جورج على المدى البعيد .. هذا هو موقف لويد جورج في تلك الفترة الخطيرة من حيث تسويات الصلح واتخاذ قرارات يكون لها اثرها على العالم الجديد .

وهنا يوضح لنا المؤلف دور الجول الشخصية وانرها على السياسيين منذ اصدار قراراتهم

منذ يوم ١٦ مارس ١٩٢٠ أصبحت العاصمة التركية تدار بواسطة قوات الاحتلال البريطانية والفرنسية والإيطالية، وبذلك اسقطت حكومة استانبول من الحساب ، واصبحت هناك ثلاث قوى في الأرض التركية ، قوة المقاومة الوطنية تحت زعامة مصطفى كمال في تلال وسهول الأناضول ، وقوة الجيش اليوناني في أزمير وبعض مناطق الأناضول ، وقوات الاحتلال في استانبول والمضائق وما بقي لتركيا في الجانب الأوروبي ، وانترك اليونان قوات مسلحة في حرب ستستمر الى ان ينتشر فريق على الآخر .

وعلينا الحالة هذه أن نبين مدى موقف كل قوة من هذه القوى حسب تحليل المؤلف .

نجح مصطفى كمال في تعبئة الجيش والشعب حول الميثاق الوطني ، وسيكون لهذا اثره في عملياته العسكرية ضد الفلاة ، وإيدته حكومة روسيا البلشفية، وكانت طريق امداده بمعونات الحرب ودبلوماسيا أول حكومة اعترفت به ، وفي اليونان مات الملك الاسكندر من عضة قرد مسعور وخلا العرش ، وكان لا بد من اجراء انتخابات عامة لمعرفة اتجاه الرأي العام اليوناني ، ودارت الانتخابات بين قائمة اللكيين التي ترى رجوع الملك قسطنطين الى اليونان وبين فنزوليس ومؤيديه ، وكانت النتيجة مدهشة للجميع ، فقد فازت قائمة اللكيين بأغلبية ساحقة ، وفقد فنزوليس وبعض كبار مؤيديه مقاعدتهم . ونتيجة لذلك غادر فنزوليس اليونان ورجع قسطنطين وقوبل بمناولة الأبطال، وزالت الدهشة عندما ظهر تفسير هذا التغيير، ففنزوليس بالرغم من وطنيته ونضاله اثنى الى الحكم بمدافع وبنادق الطفلاء ، وقسطنطين غادر البلاد تحت ضغط هذه الأسلحة الأجنبية، وأجرى العهد الجديد في اليونان تطهيرا في

وفي يوم ١٥ مايو ١٩١٩ وتحت حماية مدافع الأسطول اليوناني ومدافع اساطيل الطفلاء نزلت ثلاث فرق من الجيش اليوناني في مدينة أزمير التركية، ويصف المؤلف هنا ما ارتكب من فظائع وقتل واهانات للترك، وانتشرت انباء هذه المأساة في جميع أنحاء الأناضول ، وانزل السلطان الدموع غزيرة عندما سمع بها ولكنه سجين في قصره لا حول ولا قوة له ، وثارت دماء الترك لما لقوه من شعب ظل تحت حكمهم القرون . ولاحظ البريطانيون التغيير الذي طرا على موقف الشعب التركي ، فبعد ان كانوا مسالين متعاونين عموما وتجمع الأسلحة منهم بكل سهولة قبل احتلال أزمير وتعرض جنودهم للاعتداءات وتوقف تدفق الأسلحة . ظهر الدافع للمقاومة ولم يبق الا ظهور الزعيم الذي يقودهم .

حين مصطفى كمال في ابريل ١٩١٩ مفتشا عاما للأقاليم التي تقع على ساحل البحر الأسود الجنوبي في الأناضول لأفرار النظام ، وكان هناك عندما نزل الجيش اليوناني في أزمير ، وفي الحال بدأ ومعه بعض الزملاء في جميع فلول الجيش التركي ليكون نواة للمقاومة ، وجعلها مسألة قومية يلتف حولها الشعب ، فزيادة على تقوية الجيش رأى تعبئة الشعب وعقد الاجتماعات ووسع الميثاق القومي ، وفجرى الجميع بهذه الحركة حتى حكومة استانبول المجردة من النفوذ ، ومع ذلك رأى المراقبون أن احتمال نجاحها ضئيل ، خاصة أن الجيش اليوناني وسع عملياته العسكرية من قامدته في أزمير واحتل يرصا التي تقع قريبا من بحر مرمرة قبالة استانبول ، ورأت بريطانيا أن تقيم في تركيا حكومة برلمانية بأجراء انتخابات عامة ، ولكن المجلس الذي اجتمع نتيجة تلك الانتخابات اتخذ ميثاق مصطفى كمال الوطني دستورا له ، وعليه

(مايو ١٩١٩) وهنا يصف المؤلف رد الفعل في بريطانيا، حيث قال أن نزول الجيش اليوناني في أزمير قبل ثلاث سنوات لم تبرزه الصحافة البريطانية بمنابير كبيرة ، غير أنها هذه المرة ظهرت فيها العناوين الملفتة للانفجار ، ووصفت هزيمة الجيش اليوناني و جلاء الجالية اليونانية من أزمير وحرائقها ، وصاحب هذا نقد مركز ودقيق من صحيفة الديلي ميل لستر لويد جورج ، ونشر في الديلي ميل يوم ١٥ سبتمبر ١٩٢٢ حديث لمصطفى كمال أفندي به المستر دورو برايس الذي شاهد الفصل الأخير وقابل الفاني المظفر ، وقد وضع كمال مطالبه بوضوح حيث قال : « ليس لنا ما نقاتل من أجله بعد اليوم ، فحسود تركيا لا تضم سوريا والعراق ولكنها تشمل كل الأراضي التي يقطنها العنصر التركي ، فعمالينا قبل انتصارنا الأخير وبعده واحدة لم يطرا عليها أي تعديل ، فنحن نطالب بآسيا الصغرى وتراقيا التي نهر ماريتزا واستانبول ، ونحن على استعداد لتسليم بحرية المرور في البالدرديل ونلتزم بأن لا نقيم عليه تحصينات ، ومن العدل والإنصاف أن نسمح لنا الدول بأقامة الحصون على بحر مرمرية لحماية استانبول من أي هجوم مفاجيء » وعندما سأله برايس : ماذا يكون موقفه لو رفض الطغاة مطلبه في استانبول ؟ أجاب قائلا : « نحن نصر على حاصمتنا ، ففي هذه الحالة سأجند نفسي مضطرا للزحف على استانبول بجيشي وستكون مسألة أيام معدودة ، ولكنني أفضل تسليها من طريق المفاوضات ، مع العلم بأنه من الطبيعي ألا اقبل في انتظار هذه المفاوضات الى أمر طويل .. » وفي مكان آخر من صحيفة الديلي ميل التي نشرت هذا الحديث ظهر خبر يقول أن الأعياء التركية في العاصمة استانبول إمتلات بالاعلام التركية احتفالا بالنصر العظيم ، وفي أيتنا استقالت الوزارة ونفيت اشاعة مغادرة الملك قسطنطين

الخدمة المدنية والجيش ، وحدثت ترقبات في الجيش لم تراع فيها الاندمية والتجارب ، ومع ذلك لم يشمل التطهير كل ضسباط فنزويلس ، وهذا الخلاف اظهر اثره في قوة الجيش المصنوية ، مما أدى في النهاية الى هزيمته ، ولم تكن ايطاليا معادية للترك ، بل انها ضد اليونان ، وكانت فرنسا تميل الى الجانب التركي ، وبقيت بريطانيا وحدها في الميدان في وضع غريب .. فهي لم تخفف من عدائها لتركيا ، لكنها قبضت يدها عن اليونان بعد هزيمة ورحيل صديقها فنزويلس .. فبريطانيا لا ترد أن تجد نفسها في موقف تعترف فيه بمصطفى كمال وتسليمه المضائق واستانبول وليس لها أمل كبير في أن يوقف الجيش اليوناني زحف الترك ، ومعنى ذلك انها سوف تجد نفسها في مواجهة مصطفى كمال وحدها دون حلفائها ، وبالرغم من انها كانت تتحمل العبء الأكبر عسكريا في حراسة استانبول والمضائق فلا بد من تعزيز قواتها هناك بامدادات اخرى ، كل هذا زيادة على اميالها في المستعمرات ومناطق الحماية والانتداب ، فهل يتحمل الشعب البريطاني هذه الاعباء بعد تضحياته الجسيمة خلال الحرب ؟ الاجابة من الشعب ومن اغلبيه النواب وحتى من كثير من الوزراء .. كانت : لا !

استمر القتال بين الوطنيين الترك دغاما من ترايهم وبين الفزاة اليونان وكل يوم يمر يزداد الجيش اليوناني ضعفا ويزداد الترك قوة ، وفي حالة يأس طلب اليونان من الحلفاء السماح لهم باحتلال استانبول وكان الرفض أمرا بديهيا ..

ودون سرد للتفاصيل العسكرية ، نصل الى سبتمبر ١٩٢٢ حيث دخل الترك مدينة أزمير ، وشاعت فيها حالة من الفوضى والتخريب والقتل مثلما حدث قبل ثلاث سنوات

لها ، ويوضح لنا المؤلف أن مجموعة الكبار التي قررت الصلح كانت كلها خارج الحكم في بلادها ، وفنزوليس صديق بريطانيا ولويد جورج في المنفى خارج اليونان ، وحتى في بريطانيا أصبح مركز لويد جورج ضعيفا ، حيث عارضه بعض أعضاء وزارته واعتماده البرلماني على حزب المحافظين ، والرأي العام البريطاني ممثلا في صحافته ومنظماته غالبية ضده ، ومع ذلك ظل متمسكا برأيه بسانده ونستن ترشرل وآخرون .

وكان قرار الوزارة البريطانية منع الجيش التركي من العبور الى الجانب الأوربي . . . لذلك كان لابد من تحصين مدينة جنك وتعزيز حاميته ، وكانت هناك جيوش حليفة في البر الآسيوي على بحر مرمرة في مواجهة العاصمة ، غير أن جنود إيطاليا وفرنسا بأمر من حكومتيهما رحلوا الى العاصمة ، وبذلك لم يبق في البر الآسيوي غير الحامية البريطانية في جنك في مواجهة أي هجوم محتمل من الجيش التركي ، والآن ولابد من إرسال جيوش إيطاليا وفرنسا استرداد القوة التركية التي تواجه الخطوط البريطانية ، وهنا يأتي دور لورد كيرزون وزير الخارجية البريطانية ومحاولاته لاشراك حلفائه في حل الأزمة وخاصة فرنسا ، ولهذا الغرض قام برحلة ومعه خبراؤه الى باريس للتفاوض مع رئيس الوزارة الفرنسية المسيو بوانكاريه الذي خلف كليمنصو ، وفي الوقت الذي كان فيه كيرزون يفاوض في باريس صاغ ترشرل برقيات موجهة الى دول الكومنولث البريطاني ووقع عليها لويد جورج طالبا منها إرسال امدادات عسكرية للشرق الأدنى، ونشرت صورة هذه البرقيات في الصحف، ولم تستجيب للنداء الا نيوزيلندا .

وفي الوقت نفسه قدم بيان للصحف البريطانية وجهه رئيس الوزراء للرأي العام البريطاني وهذا من صياغة ترشرل أيضا ، وقد حمس فيه كل بيان ومباراته المثيرة ، فخرج الحلفاء من استانبول ودخلوا

مصطفى كمال فيها يودي بكل مكاسب الحرب وتضحيتها ، وسيكون لهذا رد فعل عنيف في العالم الإسلامي بل وفي كل الشعوب المقهورة في الحرب . وجاهر لورد كيرزون بأن هذا البيان لم يحالفه التوفيق وقابله الرأي العام البريطاني بشعور ذو حرب أخرى ، واستمر كيرزون في مساهمة مع فرنسا وإيطاليا ، وعقدت جلسات عدة في باريس مع بوانكاريه والكونت سفورزا ممثلا لإيطاليا .

واستخدم النقاش مرة حيث صاح بوانكاريه في زميله البريطاني مما اثاره للدرجة التي غادر فيها قاعة الاجتماع ، وحينما خرج سفورزا شاهد اللورد كيرزون والدموع تساقط من عينيه ، وسويت المسألة واعتذر بوانكاريه وتم التفاهم على إرسال مذكرة وقع عليها الثلاثة الى مصطفى كمال في أنقرة ، وفحوها ضرورة عقد مؤتمر لماهدة صلح بين الحلفاء واليونان وتركيا . . وستعدي دول أخرى لهذا المؤتمر . وفي المذكرة شروط وتحفظات بعضها غامض ، وطلبوا منه أن يرسل مندوبا عنه في الحال ، وأن لا تتحرك جيوشه من مواقعها في أثناء المؤتمر ، وفي الوقت الذي أرسلت فيه المذكرة ترأس ترشرل اجتماعا يمثل القوات البريطانية المسلحة لبحث الاستعدادات للحرب ، وفي نفس اليوم الذي أرسلت فيه المذكرة دخل جنود سلاح الفرسان التركي المنطقة المحايدة أمام جنك ، واقتربوا من التحصينات البريطانية ، ومما اثار حيرة القائد البريطاني هناك دخولهم في حالة لا تدل على أنهم يتوون الحرب بل كما يتريضون في معسكرهم .

لم يرد مصطفى كمال على مذكرة الحلفاء ، واحتشدت قوات أخرى تركية على بحر مرمرة ، وليس هناك من شخص يقدر خطورة الموقف سوى الجنرال هارنجتون القائد البريطاني في استانبول فالتهمزات لم تصل اليه كما يريد ، والقوة التي تحت تصرفه لا تكفي لصعد هجوم تركي ، والمحافظة على الأمن والنظام في العاصمة . . والحامية الصغيرة في جنك لا تقوى على الاحتفاظ

في أول المقال، لأن اتصاله لعقد مؤتمر في مودينا في البر الاسويى قاربته مراحلها الأخيرة .

وعقد الاجتماع فعلا ، وبعت مصطفى كمال بمعاونته الأول عصمت باشا بطل موقعة اينونو، ولم يكن التفاهم سهلا ، فالجنود الترك ما زالوا في تجمعهم . واتخاذ مواقفهم ، والمفاوض التركي ما زال متمسكا بمطالبه كاملة ، وتردد هارنجنوتون بين مكان الاجتماع والعاصمة والبرقيات بين لندن واستانبول متصلة ليل نهار . وأخيرا وهو راجع من استانبول لمودينا فاقتا أى أمل في الوصول الى اتفاق بدأ وهو في الباخرة كتابة خطابيه الهائلي بعده ينفض الاجتماع ، وخسرج من الباخرة ولم يكمل الخطاب ، وبشر بان الاتفاق قد يتم ، وفي غرفة الاجتماع تسلم برقيتين تأمره الأولى بتحديد موعد بعده يفتح النيران وتؤكد الثانية هذا الأمر .

وضع هارنجنوتون البرقيتين في جيبه وابتدأ الاجتماع ، وهذا هو المشهد الأخير حسبما دونه : « وافقنا على تحويل المسألة الأولى والثانية لاتصالهما بالسياسة الى لوزان ، وبحثت المسائلين التاليتين ، ولا اعتقد انهما من الاهمية بىكان ، والمسألة التالاية هي المنطقة المحيطة بجنك وقد طالبت بها ، اجاب عصمت بانه لا يوافق ، وهنا توقفت المسألة ، لأن كل فريق تمسك براهيه . . قلت ان تعليمات حكومتى هي ضرورة السيطرة على هذه المنطقة، وما زال النظر مائلا أمامى الآن . . لكك الغرفة الكريمة ومصباح الكيروسين ومنظر رئيس اركان حرب عصمت الذى لم يرفع نظره عنى . . وكنت اتبشى من طرف الغرفة الى الطرف الاخر قائلا : يجب ان اسير على تلك المنطقة ولا ارضى بغيرها . . وكان عصمت يتمشى في الجانب الاخر من الغرفة قائلا : لا اوافق ونجاة قال اوافق . وكانت مفاجأة مذهشة لم اصادف مثيلا لها في حياتى . »

وما عقب ذلك اشياء تفصيلية ، ولكن الأزمة

بمواقفها ، ولذلك فقد اقترح في برقية لرئيس اركان حرب الامبراطورية تسليم استانبول وماريتزا في الحال لكمال وحشد الأسطول والجيش في غالبولي ، وفي هذا الوقت قامت ثورة يقودها ضسباط من الجيش في اليونان اضطرت الملك قسطنطين لمفاداة البلاد واعلى العرش ابنه جورج ، وذهب فنزويلس من منفاه في باريس الى لندن رسولا من الثوار . . ولكن ماذا سيكون اثر فنزويلس الآن وجيشه مقهور وصديقه لويد جورج نفسه ينحدر الى مصيره المحتوم ؟ واصل كيرزون محاولاته مع فرنسا وايطاليا ، ولم يستطع الوصول الى نتيجة يرسم بها الحلفاء مصطفى كمال على ارسال مندوبه للمؤتمر المزمع عقده .

ومن هنا يخلع هارنجنوتون رداء العسكرية ويلبس سترة السياسى والدبلوماسى وعسن طريق حاكم استانبول التركي يحاول الاتصال بمصطفى كمال للتفاوض معه والوصول الى حلول سلمية . واجبرته الظروف على سلوكه هذا الطريق لانه كان ادرى الجميع بما تجره ويلات حرب بين قوتين غير متكافئتين . وقد قام بما يجب عليه من اندلعات لحكومته، غير ان الحكومة البريطانية لم ترضى من اجتماع بين كمال وهارنجنوتون ، وايرقت بهذا القرار لمندوبيها السامى في استانبول ، لأن هذا يناقض مذكرة الحلفاء ، وباستشارة رؤساء القوات المسلحة علمت الوزارة ان بريطانيا ستخوض الحرب بغرفدها ، وان هارنجنوتون يجرى اتصالات مع مصطفى كمال ، وهزيمة الجيش اليونانى ما زالت امام اذهانهم ، ومع ذلك كله كانت نوعة الحرب ضد تركيا دفاعا من جنك هي السائدة في الوزارة ، ولويد جورج يعلم ان سمعته في هبوط مستمر ، وان زملاءه في الوزارة يستعدون للتخلي عنه ، ومع ذلك بعثت الوزارة الى هارنجنوتون بان ينلر الترك بالانسحاب من أمام جنك ، واذا لم يستجيبوا في وقت محدد تفتح النيران عليهم ، ومعناه اعلان الحرب ، وخالف القائد الأوامر كما قدمنا

دائره الانتخابية ، لانه كان اكبر المؤيدين لمستر
لويد جورج في موقفه من أزمة جنك ، ولم
يحطم مستر لويد جورج نفسه فحسب بل
حطم ما تبقى من حزب الأحرار .

والكتاب دراسة تحليلية لمسألة فيها صراع
بين القوميات والدول والأحزاب في تلك الدول،
يفترض المؤلف في القارئ أن يكون على معرفة
بالتاريخ وخاصة بتاريخ الدولة العثمانية
والمحالفات التي سبقت الحرب العالمية الأولى
وتطورات الحرب وما أعقب الهدنة من تسويات،
وللقارئ أيضا أن يكون ملما بتقاليد وعرف
النظام الإنجليزي في الحكم .

مرت بسلام، وانتقلت بريطانيا من خوض حرب
لا مبرر لها .

وبانفراج الأزمة بدأت التطورات الداخلية
نتيجة لها - خرج المستر بونارلو من عزلته ،
وكان رئيسا لحزب المحافظين ، ولكنه تخطى
من الرياسة بسبب مرضه ، وانضم اليه
المستر بولدوين واللورد كيرزون ، ومقدت
الاجتماعات الحزبية ، وناقشوا سياسة
الحكومة الائتلافية وموقف المستر لويد جورج،
وتم الاتفاق على خوض انتخابات برلمانية على
الأساس الحزبي التقليدي ، وفاز المحافظون
باغلبية مكنتهم من تأليف حكومة حزبية برئاسة
المستر بونارلو وسقط ونستن تشرشل في



من الكتب الجديدة

كتب وصلت لإدارة المجلة ، وسوف نعرض لها بالتحليل في الأعداد القادمة

- Blackwell, R.J. ; *Discovers in the Physical Sciences*, University of Notre Dame Press, London 1959.
- Butler, S.T. and Messel, H. (eds) ; *Man in Inner and Outer Space*, Pergamon Press, London 1969.
- Coher, R.S. and Seeger R.S. ; (eds), *Ernst Mach: Physicist and Philosopher*, Reidel, Dordrecht 1970.
- Dronamraju, K.R. ; (ed) : *Haldane and Modern Biology*, John Hopkins, Baltimore 1968.
- Goffman, E. ; *The Presentation of self in Everyday Life*, Allen Lane, London 1969.
- Goldstone, R. ; *Contexts of the Drama*, McGraw-Hill, N. Y. 1968
- Gottlieb, G. ; *The Logic of Choice*, George Allen & Unwin, London 1968.
- Kain, J. F. (Ed) ; *Race and Poverty*, Spectrum Books, Prentice-Hall, N. J. 1969.
- Knight, R. C. *Racine: Modern Judgments*, Macmillan London, 1969.
- Kruse, H.D. ; *Nutrition; Its Meaning, Scope and Significance*, Charles C. Thomas, Illinois 1969.
- Lincoln, J.A. ; *The Restrictive Society*, George Allen & Unwin, London 1967.
- Madariaga, S., de ; *Portrait of a Man Standing*, George Allen & Unwin, London 1968.
- Mehden, F.R. von der ; *Politics of the Developing Nations*, Prentice-Hall, N. J. 1969.
- Nakayama, S. ; *A History of Japanese Astronomy*, Harvard U.P., Cambridge Mass. 1969.
- Nordlinger, E.A. (ed) ; *Politics and Society*, Prentice-Hall, N. J. 1970.
- Sladen, B.K. & Bang F. A. (eds) ; *Biology & Populations*, Elsevier, N. Y. 1969.
- Schlegel, R. ; *Time and the Physical World*, Dover Publications, N. Y. 1969.



في الأعداد التالية من المجلة

العدد الثالث - المجلد الأول

أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر سنة ١٩٧٠

قسم خاص عن الإنسان والكون:

- ١ - الإنسان والكون في الفكر اليوناني للدكتور جعفر آل ياسين
- ٢ - الإنسان والكون في الفولكلور للدكتور عبد الحميد يونس
- ٣ - الإنسان والكون عند البدائيين للدكتور أحمد أبو زيد
- ٤ - الإنسان والكون في الفكر الإسلامي للدكتور أبو الوفاء التفتازاني
- ٥ - من يملك الفضاء ؟ للدكتور علي صادق أبو هيف

غير الأبواب الثابتة

العدد الرابع - المجلد الأول

يناير - فبراير - مارس ١٩٧١

حقوق الإنسان

شمن

الخليج العربي	٤	ريالات	٢٠٠	قروش
السعودية	٤	ريالات	٢٠	قروش
البحرين	٤٠٠	فلس	٢٠	قروش
النييمن	٧	شلتان	٣٠	قروش
العراق	٢٤٠	فلس	٤٠٠	مليم
لبنان	٢٠٠	قروش	٤٠٠	مليم
الاردن	٢٠٠	فلس	٤	دراهم
سوريا				
٣٠٤٠ م				
السودان				
ليبيا				
تونس				
جزائر				
المغرب				

Bibliotheca Alexandrina



0642999